موسوعة الجزايرلي
لأسماء شوارع الإسكندرية







موسوعة الجزايرلي لأسماء شوارع الإسكندرية

الجزء الأول

يوسف فهمي الجزايرلي

٢٠١١



مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء – النشر (فان)

الجزايرلي، يوسف فهمي أحمد.
موسوعة الجزايرلي لأسماء شوارع الإسكندرية / يوسف فهمي الجزايرلي. – الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، 2011.
ص. سم.

تدمك 3–116–452–977–978

1. الإسكندرية (مصر) –– الشوارع –– دوائر معارف. ٢. الشوارع –– أسماء –– دوائر معارف. أ. العنوان.

ديوي – 962.1003 2011522551

تدمك 3–116–452–977–978 الجزء الأول
رقم الإيداع 2011/3759

المعلومات الواردة في هذه الموسوعة مصدرها مخطوطة المؤلف الأصلية دون أي تغيير بالحذف أو بالإضافة.
الخرائط والصور مضافة من المجموعة الخاصة بالدكتور محمد عوض.

مراجعة لغوية وتدقيق: إدارة النشر
تصميم الغلاف والصفحات الداخلية: مينا نادر نجيب
طبع في جمهورية مصر العربية
١٠٠٠ نسخة

الفهرس



مقدمة الدكتور إسماعيل سراج الدين

في مدينةٍ عريقة كالإسكندرية، للتاريخ أهمية خاصة في حياة الناس. وفي مدينة متعددة الأجناس والأعراق والأديان كالإسكندرية، للهوية معنى مركب وأبعاد متعددة.

ومن ثمَّ، ندرك أهمية مقولة المؤرخ الإنجليزي توماس كارلايل حين قال: إن الحاضر ما هو إلا المحصِّلة الحية لكل الماضي، وكذلك قول الكاتب الفرنسي لامارتين: إن التاريخ يعلمنا كل شيء، حتى المستقبل.

إن حاضر مدينة الإسكندرية هو ماضيها الذي نعيشه يوميًّا، حينما نجوب شوارعها وميادينها، ونقرأ أسماء الأشخاص الذين صنعوا هذه المدينة وصبغوها بهذا اللون، وحين نتعرف على هويتهم والبلاد التي أتوا منها نتعرف أيضًا على هوية الإسكندرية التي تتميز بالتسامح وتقبل الآخر، والذي كان نتيجته ازدهار المدينة وشخصيتها الكوزموبوليتانية المميزة.

ومن أجل ذلك، ندرك أهمية هذه الموسوعة التي رصدت أسماء شوارع الإسكندرية وأصَّلتها من خلال إيراد معلومات موسوعية عن أسماء هذه الشوارع، وهو ما يربط ماضي المدينة بحاضرها، ويعيد عبق التاريخ إلى الأذهان.

وقد مكث مؤلف هذه الموسوعة – يوسف فهمي أحمد الجزايرلي – ثلاثين عامًا في تأليفها؛ مما يكشف عن مدى الجهد المبذول في هذا العملِ الضخم. غيرَ أن وفاة المؤلف قبل نشرها وإصدارها تسبب في عديدٍ من الصعوبات الفنية؛ والتي واجهها بكل دَأْبٍ وحزم فريقُ عملٍ متخصص بمكتبة الإسكندرية؛ فلهم جميعًا جزيلُ الشكر.

ولا يمكن الإغفال أيضًا عن دور ابنَي المؤلف: المستشار فريد فهمي الجزايرلي، والدكتور سمير فهمي الجزايرلي؛ اللذين سمحا بنشر هذه الموسوعة وذلَّلا الكثير من الصعوبات التي واجهت فريق العمل؛ فلهما جزيل الشكر والتقدير.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية



تقديم

نادرًا ما كتب المؤرِّخون المحدثون عن مدينة الإسكندرية، ولاسيما المصريون منهم، وطُوِيَ إلى حدِّ النسيان فصل لامع من تاريخها وتجربتها الكوزموبوليتانية الفريدة، والتي صبغت تاريخها الحديث، تاركةً بصمتها وإسهاماتها في تطور الحضارة الإنسانية العالمية.

وللتاريخ سجل من خلال السير الذاتية للشخصيات التي تصنعه، ومواقع الأحداث التي واكبتها، ويبدو أن الجزايرلي قد أيقن هذه الحقيقة، والتقط هذا الخيط ببراعة وحرفنة، فسارع في تسجيل تاريخ الإسكندرية من خلال أسماء شوارعها، وأزقتها، وحواريها، وميادينها، وأحيائها، فقدَّم لنا موسوعة قد تكون شبه شاملة، وذلك من خلال البحث، والتدقيق، والشرح المستفيض والموثوق لدلالات تلك الأسماء ومعانيها.

سجَّل لنا الجزايرلي تاريخ المدينة منذ تأسيسها على يد الإسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق.م. وحتى منتصف القرن العشرين في هذه الموسوعة الشاملة، وقدَّم لنا كتابًا آخر فريدًا "الإسكندرية في فجر القرن العشرين"، فأصبح بذلك من أبرز مؤرِّخي تاريخ الإسكندرية الحديث.

ويرجع الفضل كل الفضل إلى أنجاله في حفظ مخطوطاته، وإلى الكاتب الكبير أنيس منصور، في إبراز أهمية هذه الموسوعة وضرورة نشرها، بعد أن ظلَّت طيَّ الحفظ لأكثر من نصف قرن، فالتقطت مكتبة الإسكندرية المبادرة من خلال مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط، إسهامًا في نشر هذا العمل العظيم، وتقديرًا لمؤرِّخه الجليل.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أشكر كلَّ مَن ساهم في إعداد وإخراج هذا العمل، وأخصُّ بالشكر كلاًّ من: سماح رضوان، وراندا أحمد في الإعداد والمراجعة، ومينا نادر في التصميم الجرافيكي، بمركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط.

محمد عوض

مدير مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط



المقدمة

إيمانًا من مكتبة الإسكندرية بأن المعرفة يجب أن تتاح للجميع ، وإسهامًا منها في الحركة الثقافية ، تصدَّت لنشر إحدى الموسوعات المهمة التي تُوفِّي صاحبها دون أن يُوفَّق في نشرها ، لما لهذه الموسوعة من أهمية تاريخية ، وعلمية .

موسوعة أسماء شوارع الإسكندرية لصاحبها يوسف فهمي أحمد الجزايرلي تقدم كل المعلومات الممكنة عن صاحب الاسم الذي تَسَمَّى به أي شارع من شوارع مدينة الإسكندرية . والمطَّلِع في هذه الموسوعة يجد نفسه مبحرًا في كافة العلوم ، مستغرقًا كل الأزمان ، هائمًا في كل مكان ، ووسيلته في هذا الإبحار كلمات يوسف فهمي الجزايرلي السلِسَة، المنسابة بلا انقطاع .

وقد اكتسبت هذه الموسوعة أهميتها من عدة أمور:

التنوع في المجالات التي تغطيها ، لأن تسمية الشوارع تعتمد على عَلَمِيَّة شخص بعينه في مجاله ، وقد يكون مكانًا أو أحد الموجودات؛ فتجد في هذه الموسوعة أعلام التاريخ ، وأعلام الاجتماع ، وأعلام الأدب ، وأعلام السياسة ، وأسماء الموجودات . . . إلخ . حيث ذكر ما يزيد على ألف وثلاثمائة مادة .

المدة التي تم تأليف هذه الموسوعة فيها ، فقد مكث صاحبها ثلاثين عامًا ، ما بين جمع المادة وتنقيحها .

عُمْر صاحب الموسوعة الذي عاش من بداية القرن العشرين ، وأصله الجزائري ، وتجنيده في الجيش الفرنسي ، وجنسيته المصرية التي حصل عليها ، والأعمال التي نِيطت به ، وتعليمه الشرعي واللغوي ، وثقافته ، كل هذه الأمور جعلت منه شاهدًا على عصره ، خاصة في الأمور التي عاصرها وعاش إبَّانها .

الإسهاب الكبير في بعض المواد المهمة ، مثل الشرح المستفيض لكلمة «إسكندر» والذي فيه يشرح تاريخ مدينة الإسكندرية من قبل الميلاد حتى العصر الحديث ، وهو ما يجعل هذه الموسوعة مرجعًا مهمًّا في مثل هذه المواد .

إثبات مجموعة كبيرة من العلماء والشعراء والأعلام الذين لم ينالوا حظًّا من الشهرة .

منهج المؤلف

مواد الموسوعة، وطريقة عرضها

عرض المؤلف مواد موسوعته مرتبة حسب اسم الشارع ألفبائيًّا.

ذَكَر نوع المكان الذي أُطلق عليه الاسم بجانبه (شارع – زقاق – حارة – ميدان – عطفة – ممر – حديقة – طريق).

ذَكَر القسم الذي يتبعه الشارع مثل: (الجمرك – المنتزه – سيدي جابر –كرموز – الرمل – محرم بك – باب شرقي – مينا البصل– العطارين – المنشية – اللبان – أبو قير – العامرية).

الإحالة

كانت الإحالة على نوعين:

إحالة مباشرة إلى مادة أخرى، دون تحرير المادة، وذلك تحت اسم الشارع مباشرة، وذلك كأن يقول: اطلب ترجمته في (. . . . . . .)، أو اطلب ترجمة صاحب الشارع القديم في (. . . . . . .).

إحالة إلى بقية المعلومات التي لها علاقة بالموضوع وذلك مثل: "انظر مادة الفواطم"، وهذه الإحالة وردت في معظم المواد التي لها علاقة بالدولة الفاطمية.

المواد المكررة

أحيانًا يتكرر الاسم، ويُطلق على نوعين أو أكثر من الشوارع، وذلك في المنطقة الواحدة، أو أكثر من منطقة، وكان منهج يوسف فهمي الجزايرلي في المواد المكررة أن يذكرها تباعًا مع تحديد النوع والقسم الذي يتبعه، ويقوم بتحرير المادة في الاسم الأخير منها، وذلك مثل: مادة «ابن رشيق – شارع – بقسم محرم بك»، «ابن رشيق – شارع – بقسم الرمل».

صعوبات واجهت النشر

إن وفاة المؤلف دون النشر تسببت في كثير من الصعاب، حيث التباس الخط اليدوي مما يجعل مرجعية تصحيح واستبانة النص مفقودة بفقدان صاحب العمل. وقد حرصت المكتبة على ألاّ تغير شيئًا من العمل ومنهجه، إلا ما يتعارض مع منطقية الترتيب التي اختارها المؤلف لنفسه.

كذلك هناك بعض المواد غير مشروحة، ولا مكررة، ولا محال إليها أو منها، وهذه المداخل تُركت كما هي، فيبدو أن المؤلف كتبها ولكن لم تُمهله المنية لتنقيحها ومراجعتها. وذلك مثل: «موريسون (الدكتور) – شارع – بقسم الرمل (عبد الخالق الطوبي حاليًّا)»، مع مراعاة أنه لا توجد مادة باسم (عبد الخالق الطوبي) في حرف العين! وقد أحال إلى أسماء شوارع لم يُفرد لها مواد في موسوعته.

وبالنسبة للمراجع التي ضمت الكثير من أمهات الكتب العربية والفرنسية، فقد أثبتناها كما كتبها المؤلف بدون بيانات النشر. وقد قام المؤلف – في بعض الأحيان– بكتابة بعض عناوين الكتب بغير لغتها، مثل كتاب Biblioteca Geographiae Arabiae اللاتيني الأصل حيث كتبه بالفرنسية Bibliothèque géographique arabe.

وختامًا فالمطالِع لهذه الموسوعة يجد متعة أثناء مطالعته، مختلطة بمشاعر التعجب والانبهار، فكيف استطاع شخصٌ واحد أن يجمع كل هذه المعلومات في كل هذه المجالات؟! فضلاً عن سردها بلغة سهلة ممتعة.



التعريف بالمؤلف



يوسف فهمي الجزايرلي

ولد يوسف فهمي أحمد الجزايرلي بحي الجمرك، في أحد الشوارع المتفرعة من شارع إسماعيل صبري، في الرابع من أكتوبر لعام ١٨٨١، لأبٍ جزائري الجنسية (تحت الحماية الفرنسية) وأمٍّ من أصل تونسي.

هاجر والده إلى الإسكندرية إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو من عائلة جزائرية تُدعى عائلة (الطيب)، وابن عمه هو الشيخ حمدان الطيب محمود مفتي الجزائر المالكي إبان الحرب العالمية الأولى. أما والدته فكانت من عائلة المفتي الجزايرلي بالإسكندرية. وفي ذلك الوقت كانت جميع عائلات الإسكندرية الكبيرة تقطن في حي الجمرك، قريبًا من قصر الملك برأس التين؛ مثل عائلات الراكشي والغرياني والناضوري والجزايرلي، ومازال منزل توفيق بك الجزايرلي موجودًا بشارع رأس التين، كما يوجد ضريح الشيخ المفتي الجزايرلي أعلى رأس حارة تُسمَّى بـ «حارة المفتي الجزايرلي».

تُوفي والده عندما كان يوسف في سن التاسعة من عمره، فتولت والدته تربيته وحدها، وكان أبوه ثريًّا يملك ثروة كبيرةً في الجزائر، فسافرت والدته إلى الجزائر لتصفية أملاكه، ومكثت هناك حوالي سنة. وقد رجعت والدته بثروة أبيه، ولكن حدث أن اجتمع عليها إخوتها وأقاربها واستولوا على ثروتها تدريجيًّا؛ حيث لم تكن متعلمةً. وكان يوسف قد بلغ سن الحادية عشرة في ذلك الحين.

والوالدة هي حفيدة الشيخ محمد الجزايرلي، حيث كان الشيخ محمد وافدًا من الجزائر، وكان مفتيًا مالكيًّا، واشتهر في ذلك الوقت بأنه كان (يصرف من تحت السجادة)، وكان مجلسه في أغلب الأحيان في جامع البوصيري بالإسكندرية. وسمع عنه محمد علي باشا حاكم مصر في ذلك الوقت – وكان يبحث عن مورد مالي للإنفاق على جيش مصري قوي، وكذلك على أسطول مصري قوي – فقام باستدعائه وطلب منه البحث عن فتوى يمكنه بها حل بعض الأوقاف الخيرية للإنفاق منها على الجيش والبحرية، فأفتاه بجواز حل الأوقاف الخيرية، فتمكن بذلك محمد علي باشا من حل بعض الأوقاف الخيرية والإنفاق على الجيش والبحرية، وقد كافأه محمد علي باشا بسخاء.

تلقَّى يوسف تعليمه الابتدائي بمدرسة إبراهيم باشا؛ وقد أدى ذلك إلى حفظه القرآن الكريم وتمكنه من اللغة العربية؛ نحوها وإعرابها. وكان دائمًا يرجع إلى القرآن الكريم في النحو والصرف والإعراب، ثم التحق بالمدرسة الثانوية، وحين أتم دراستها استُدعِيَ إلى فرنسا حيث كان تحت الحماية الفرنسية، وتم تجنيده في الحرب العالمية الأولى، وحارب في صفوف فرنسا ضد الألمان، وكان دائمًا يحكي عن أهوال هذه الحرب التي خاضها مرغمًا.

وأثناء وجوده في فرنسا، وحين زيارته لمتحف اللوفر، لاحظ وجود موسوعة عن شوارع باريس فاطلع عليها وعرف طريقة وصفها وأهميتها كمرجع لأسماء الشوارع وتاريخها.

وخلال تجنيده بالجيش الفرنسي، شعر بالحنين إلى وطنه مصر، فطلب منحه إجازة لزيارة الأهل والأقارب في مصر، وركب الباخرة من مرسيليا متوجهًا إلى الإسكندرية، وأثناء الرحلة اعترضت طريق الباخرة غواصة ألمانية، وقامت بإطلاق طوربيد، فأصاب الباخرة وبدأت الباخرة في الغرق، ووفقًا للنظام المتبع حينذاك، فإنه يصرح للأطفال أولاً بالنزول من الباخرة ثم كبار السن، ثم بقية الركاب، وأثناء انتظاره لدوره لفت نظره طفل يبكي بشدة، فأخذه ووضعه على كتفه، فسمح له القبطان بسرعة النزول لأجل إنقاذ الطفل، وكان غرق الباخرة أمام سواحل تونس، فأخذ يسبح وعلى كتفه الطفل طِيلة سبع ساعات حتى وصل إلى الشاطئ التونسي؛ حيث تم نقله إلى المستشفى وتلقى العلاج، وبعد أن خرج من المستشفى أكمل طريقه إلى الإسكندرية.

وبعد انتهاء مدة تجنيده ورجوعه إلى مصر، التحق ببلدية الإسكندرية (محافظة الإسكندرية الآن). وقيل إنه تسلَّم أول "ماهية" من بلدية الإسكندرية، وكان قدرها «خمسة بنتو» (البنتو هو الجنيه الذهب)، ثم تدرج بعد ذلك في وظائف البلدية حتى وصل إلى درجة مدير عام السكرتارية ببلدية الإسكندرية.

ثم التحق بالحقوق الفرنسية، عن طريق المراسلة، وحصل على ليسانس الحقوق في ذلك الحين، وقد صمَّم على أخذ الجنسية المصرية له ولأولاده ولزوجته، وبالفعل حصل عليها في عام ١٩٣٦ في أثناء عمله ببلدية الإسكندرية. وبعد أن عُيِّنَ أمين باشا فكري مديرًا لبلدية الإسكندرية ولاحظ ثقافته ونشاطه في عمله – طلب له درجة البكوية. ولأن يوسف كان ينتمي إلى حزب الوفد، وكان قد كتبَ قصيدةً ينتقد فيها النظام الملكي، رُفِضَ منحُه درجة البكوية. والجدير بالذكر هنا أنه في تلك السنة قرَّر حزب الوفد القيام بمظاهرة ضد الاحتلال الإنجليزي للبلاد، وكان يوسف الجزايرلي ضمن عناصر هذه المظاهرة التي خرجت في شارع عمر بن الخطاب (خلف ميدان محطة مصر الآن)، وفي أثناء سير المظاهرة اعترضت دورية إنجليزية طريقها، وأخذت في إطلاق النار على المتظاهرين، ففر المتظاهرون واختبأوا في مداخل المنازل الموجودة في ذلك الشارع، وكان يقود الدورية ضابط إنجليزي يركب عربة مصفَّحة، ويقف في وسط برج السيارة ويصدر تعليماته إلى الجنود، وكان مع يوسف مسدس صغير ماركة (براوننج)، فانتهز الفرصة وهو مختبئ وسدَّد مسدسه، وأطلق الرصاص على رأس الضابط، فأرداه قتيلاً، وإثر ذلك قام الجنود الإنجليز بمطاردة المتظاهرين، وكان يوسف من بين الفارِّين، واستمر يجري حتى دخل إلى أحد المنازل وصعد إلى الدور الثالث وطرق الباب، فاستقبله صاحب المنزل، وكان قبطيًّا، وسأله عن سبب مجيئه، فأخبره بأنه قتل قائد الإنجليز، فرحَّب به صاحب المنزل ولم يتردد في حمايته؛ فطلب من يوسف خلع ملابسه وأعطاه قفطانًا، وطلب منه الجلوس معه على الطبلية ليشاركهم في الأكل، وبعد قليل طرق الجنود الإنجليز الباب وسألوا عن مواطن هارب، فأجابه صاحب المنزل بأنه لا يعرف أي شيء عن ذلك، وأنه وأفراد عائلته يجلسون لتناول الطعام، فانصرف الجنود؛ فكان ذلك سببًا لإنقاذ يوسف من المصير المحتوم الذي كان سيلقاه إذا ثبتت عليه التهمة، وهو ما يدل على مدى ترابط المصريين بكافة دياناتهم أمام الغاصب المحتل.

حصل يوسف فهمي على معاش مبكر من بلدية الإسكندرية، وعُيِّن كمدير عام للغرفة التجارية بالإسكندرية. وكان أحد المؤسسين لجماعة نشر الثقافة بالإسكندرية عام ١٩٣٢، التي أصبحت هيئة الفنون والآداب بالإسكندرية، وكان شاعرًا مبدعًا، وله ديوان شعر كامل، وكان ينشر أشعاره في جريدة البلاغ والمقطم.

ألَّف يوسف فهمي كتاب (أرض البطولة – الجزائر)، وهو مرجع تاريخي مهم لمعرفة تاريخ الجزائر وتاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما تم من جهاد في سبيل تحرير الجزائر، إلى أن تم تحرير الجزائر؛ حيث فقدت الجزائر مليون شهيد في سبيل التحرير، كما ألّف كتاب (الأدب المقارن بين أدباء العرب ونخبة من أدباء الفرنسيين). وفي عام ١٩٥٦ ألّف كتاب (الأمة العربية وإمكانياتها الاقتصادية)، أثناء إدارته للغرفة التجارية بالإسكندرية.

كان يوسف فهمي مثاليًّا في تربية أولاده، فقد حرص على متابعة دراستهم، وكان يقوم بتدريس اللغة العربية والفرنسية والعلوم الاجتماعية لأبنائه مضحيًا بوقت فراغه، وقد أدى ذلك إلى تفوقهم في دراستهم.

وكان دائمًا يحرص على تلبية رغبات أبنائه، وفي امتحان الثانوية العامة حصل الابن الأكبر (فريد) على مجموع ٦٢٪، وكان يرغب في دراسة الطب، ولكن الحد الأدنى للقبول في كلية الطب في ذلك العام كان ٦٢,٥٪؛ فحزن فريد حزنًا شديدًا، ولكن بفضل تشجيع والده التحق بكلية الحقوق، وكان مكتئبًا أول أيام الدراسة، ومع تشجيع والده بدأ يدرس الحقوق بشغف، فأصبح متفوقًا في دراسة الحقوق، وتخرج وعُيِّن بكادر القضاء حتى وصل إلى منصب رئيس محكمة استئناف القاهرة.

أما الابن الثاني (سمير)، ففي أثناء دراسته للثقافة العامة، حصل في الرياضيات على ٣٩ درجة من ٤٠، فنصحه ولده بالالتحاق بقسم الرياضة؛ حيث كان نظام الثانوية العامة ينقسم إلى ثلاث شعَب، وهي شعبة علوم وشعبة رياضة وشعبة آداب، ولكن سمير صمَّم على دخول القسم العلمي، فاشترط والده عليه أن يتعهد له بالاجتهاد والجد في المذاكرة حتى يتمكن من الالتحاق بكلية الطب، وهو ما تحقق بعد ذلك. ودخل سمير كلية الطب، وتخصص في أمراض النساء والتوليد، والتحق بالمستشفيات التعليمية بوزارة الصحة، ووصل إلى درجة أستاذ بالمستشفيات والمعاهد التعليمية بوزارة الصحة.

ولأن يوسف فهمي يحمل الجنسية المصرية، فقد كان شديد الإحساس بالوطنية والانتماء لمصر، وكان دائمًا يحرص على غرس حب مصر في أذهاننا، وقد سرّ جدًّا بعبور القوات المصرية لقناة السويس في أكتوبر ١٩٧٣، وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣ أسلم روحه لبارئها إثر سماعه من الإذاعة – وكان متابعًا لها – بحدوث ثغرة عسكرية للقوات المصرية، فمات متأثرًا بهذا الحدث.

أما عن هذه الموسوعة، فقد عكف يوسف فهمي على تأليفها لمدة طويلة؛ حيث استغرق منه العمل في موسوعة شوارع الإسكندرية حوالي ثلاثين عامًا؛ بحثًا وتنقيبًا، حتى أكملها في عام ١٩٦٧، وعرضها على المرحوم الأستاذ حمدي عاشور – محافظ الإسكندرية في ذلك الوقت – الذي وافق على طبعها، ولكن قامت حرب ١٩٦٧، فتأجلت طباعتها حتى تنتهي ظروف الحرب وحالة الطوارئ. وقد عُيِّن من قِبَل محافظة الإسكندرية في هيئة تسمية الشوارع بالإسكندرية.

وقد طُبِعَت مقتطفات من الموسوعة طباعة مستقلة، وهي: (إسكندرية في فجر القرن العشرين)، وكذلك (سكندريات). كما أذيع بعض المقتطفات من الموسوعة في إذاعة الإسكندرية تحت عنوان (للشوارع تواريخ).

وقد جاءت وِفق الترتيب الألفبائي للحروف، ونشكر هيئة مكتبة الإسكندرية والقائمين عليها لرعايتهم وتعهدهم بإصدار هذه الموسوعة الآن بعد كل هذا الوقت، ولهم منا وافر الشكر والعرفان.

المستشار/ فريد فهمي الجزايرلي

الأستاذ الدكتور/ سمير فهمي الجزايرلي

٢٧ أكتوبر ٢٠٠٩

فهرس الحروف

حرف الألف



حرف الألف



١ – الأدَاب – حارة – بقسم كرموز

الآداب جمع «أدب»، والأدب مشتق من فعل «أدُبَ» أي ظرف، أو كان ذا أدب فهو أديب والجمع أدباء، و«أَدَب» أدبًا وإيدابًا أقام مأدُبة، فيقال أَدَبهُ وآدبه أي دعاه إلى مأدبة، ويقال أيضًا: «أدَبهم على أمر» أي جمعهم عليه، وأدَّبه أي هذّبه وراض أخلاقه أو علّمه الأدب.

ومما تقدم يتضح أن هناك تكلفًا في ربط الصلة بين كلمة «أدب» وبين مأدبة الغداء أو العشاء، والقول كثير أيضًا في مدلول هذه الكلمة عبر العصور، ويرى المستشرق «نلّينو» أن الكلمة مشتقة من الدأب بمعنى العادة، وجمع «دأب» «أدآب»، ثم حُرِّفت وقلبت فصارت «آداب»، ويقول هذا المستشرق إنه كثر استعمال «الآداب» جمعًا «للدأب» حتى نسي العرب أصل هذا الجمع، وما كان فيه من قلب وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه فأخذوا منه مفرده «أدبًا» لا دأبًا.

وليس هذا الرأي إلاَّ من قبيل الفرض، إذ ليس هناك نصوص صريحة تجعلنا نجزم بأن لفظ «أدب» اشتق من الأدب بمعنى الدعوة إلى الولائم أو اشتق من الآداب جمع دأب، والقول المتداول بين الناس يذهب إلى أن مادة الأدب وردت في حديث نبوي، إذ قال النبي عليه الصلاة والسلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، ولكن هذا الحديث مع فرض صحته وصدوره عن النبي الكريم لا يقوم حجة قاطعة لا يستطاع مناقشتها على أن الكلمة تعني المفهوم الذي يطلق الآن عليها، وأنها كانت معروفة، هي وما يتصرف منها من الأفعال والأسماء، قبل الإسلام أو إبان ظهوره.

ولقد استعملت هذه الكلمة في العصر الأموي بمعنى التعليم، وكان التعليم في ذلك الحين يعتمد على الرواية في أنواعها المختلفة، أي رواية الشعر ورواية الأخبار وأحاديث الأولين وسير الأبطال في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

ومن المعروف أن اللغة العربية الفصحى ترتكز في كيانها العام على لغة قريش؛ لأن اللغات العربية الأخرى – كاليمنية مثلاً – أُهْمِلت كلية، ومن ثمّ لم يظهر لها أثر كبير في تكوين لغة القرآن الكريم الذي اشتمل على بعض ألفاظ اللغة اليمنية، وعلى هذا القياس يستطاع الفرض بأن كلمة «أدب» دخلت على اللغة الفصحى العربية في العصر الأموي بالمعنى الموضح من قبل، ثم اتسع نطاق معناها في ذلك العصر أيضًا حتى وصلت إلينا بالمعنى الذي نفهمه منها الآن في حياتنا العملية اليومية، من لين الجانب وحسن الخلق ورقة الشمائل وكل ما تواضعنا عليه من أنه الخير بوجه عام، وكان الناس يقولون «أدّبْ فلانًا» فيفهمون منها هذين المعنيين: أي علمه الأدب على النحو المدوَّن قبل، أو أخذه بالأدب، وهو هذا النوع من الحياة الخيرة التي ذكرت من قبل.

وظلّ لفظ الأدب يدل على هذين المعنيين، فكان بمعناه الأول طوال أيام بني أمية وصدر العصر العباسي عبارة عن الشعر والأنساب وأحداث الناس، ثم ظهرت علوم اللغة ودوّنت ووضعت أصولها فدخل كل هذا في الأدب.

وبعد أن تفرعت العلوم وأخذ كل منها يستقل عن الآخر، وبعد أن ارتقى الفكر العربي ودخل النقد الفني صار الأدب بمعناه الصحيح كل ما يؤثر من الشعر والنثر، وما يتصل بهما لتفسيرهما والدلالة على مواضع الجمال الفني فيهما، وظلّ على هذه الحالة طوال القرون الهجرية الأربعة الأولى.

وإذا أمعنّا الفهم في مدلول الأدب في الوقت الحاضر وجدنا أن مدلوله لا يخرج عن ذلك، فإذا سمع الإنسان لفظ «الأدب» فهم على الفور أنه مأثور الكلام من نظم ونثر وما يتصل بهذا المأثور من علوم وفنون، تعين على فهمه وتذوقه، وهذا المدلول ينسحب على الآداب الأجنبية: اليونانية والرومانية القديمة والحديثة، والآداب الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها.

وإذًا فالأدب في كيانه العام لا يستطيع في جوهره أن يتجاوز مأثور الكلام، وإن كان في عصرنا الحديث يحتاج – لكي تكتمل صورته اللغوية – إلى الفلسفة وفروعها المختلفة، ومن ثمّ يكون الأدب بالمفهوم المنطقي الحديث هو كل شيء من فروع المعرفة المعتمدة على ثقافة عامة متينة وعميقة.

غير أن هناك فرقًا بين الأدب وتاريخ الأدب، فالأدب مأثور الكلام، كما تقدم القول، والأديب الذي يُعنى بالأدب من حيث هو أدب يستطيع ألاّ يتجاوز هذا الكلام الجيد من الشعر والنحو، ولكن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفي بمأثور الكلام بما يتصل به من علوم وفنون تمكّن من فهمه وتذوقه، وإنما هو مضطر إلى دراسة تاريخ العقل الإنساني وتاريخ الشعوب والإلمام بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة وتاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلمامًا يختلف في إيجازه وإطنابه ويتفاوت في الإجمال والتفصيل باختلاف وتفاوت ما لهذه الأشياء كلها من تأثير في الشعر والنثر أو التأثر بهما.

ومما تقدم يتضح أن الأدب في جوهره إنما هو مأثور الكلام نظمًا ونثرًا، وأن هذا الكلام المأثور لا يستطيع أن ينهض الأديب بفهمه وتذوقه إلا إذا اعتمد على ثقافة عامة قوية وعلى طائفة من العلوم الإضافية التي لابد منها، بينما تاريخ الأدب يعني قبل كل شيء هذا الكلام المأثور، وما يتصل به ولكنه في الوقت نفسه مضطر إلى أن يوسع ميدان بحثه ويتناول أشياء قد لا يستطيع أن يتناولها من يُعْنَى بالأدب، من حيث هو أدب في تفصيل وإسهاب.

ويقول المستشرق «جولدسيهر Goldziher» في مقالة بدائرة المعارف الإسلامية بعنوان «أدب» إن هذا اللفظ كان يدل في الجاهلية وفي الإسلام على الخلق الكريم النبيل وما يتركه من أثر في الحياة العامة والخاصة، وأن هناك قولاً مأثورًا جرى مجرى الحديث هو «كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين» وأن للفظ الأدب أيضًا معنى مجازيًّا إلى جانب هذا المعنى العملي نشأ عندما طمح الناس إلى الثقافة وأخذت حياتهم الاجتماعية تنصقل على مر الأيام على أسلوب حياة الفرس، وبدأت تزدهر حركة التأليف الأدبي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، والأدب بمعناه المجازي يدل على جملة المعارف التي تسمو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية وخاصة اللغة والشعر وما يتصل به وأخبار الجاهلية، ويترتب على هذا أن الأدب يتناول موضوعات الكتب الخاصة ككتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (انظر هذه المادة)، وكذلك الكتب التي تذكر بعنوان «أدب الوزراء» وغير ذلك، ويرى هذا المستشرق من المراجع التي اطلع عليها، أن هناك فرقًا دقيقًا بين الأدب بفروعه المختلفة وبين العلم وهو جماع ما يتصل بالدين من قرآن وحديث وفقه.

ويقول إن لفظ الأدب يتضمن أحيانًا – إلى جانب المعارف البحت – صفات اجتماعية منها المهارة والرياضة

وغيرها من الألعاب الرشيقة وجلها ألعاب دخيلة، ويضيف أن أثر الفرس في الأدب يظهر من القول المأثور عن الوزير الحسن بن سهل (انظر مادة ابن سهل) وهو: «الآداب عشرة، ثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن: فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولجان، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنثر وأيام الناس، أما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس».

ويستطرد المستشرق فيقول إنه من الطبيعي ألاّ يكون للأدب محيط يحده، فقد تدخل الدقة الفنية والمهارة الصناعية أحيانًا ضمن فنون الأدب، يضاف إلى ذلك أن الرياضة تسمى أحيانًا بالأدب في التقسيم المأثور عن أرسطو للعلوم، ويُدخل أخوان الصفا في عداد هذه العلوم الرياضية التي سميت بالآداب: السحر والكهانة والكمياء وغيرها، إلى جانب اللغة والشعر والرياضة، ويدلل المستشرق في ختام مقاله على مفهوم الآداب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ببرنامج التعليم بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة الذي كان يدرج العلوم الآتية تحت اسم العلوم الأدبية وهي: النحو والصرف والخط واللغة والعروض والقوافي والبلاغة والإنشاء والمنطق، وهذا البرنامج وضعه أمين سامي بك عام ١٨٩٥م.

ويرى بعض الذين تعرضوا لبحث كلمة «الأدب» أنها تعني الملكة التي تعصم من كانت فيه عمَّا يشينه أو هي الظرف، وتطلق كلمة الآداب على العلوم والمعارف عمومًا أو على المستظرف منها فقط، ويطلقون كلمة «أدب» على ما يليق بالشيء أو الشخص، فيقال أدب الدرس وأدب القاضي، وأن علم الأدب هو علم يحترز به من الخلل في كلام العرب لفظًا وكتابة.

٢- آدم - حارة - بقسم الجمرك

هو أبو البشر وصفيّ الله، وقد جاء في القرآن الكريم أن الله خلق ما في السماوات والأرض، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وجاء في الآيات رقم ٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ من سورة البقرة أن الله سبحانه وتعالى علّم آدم الأسماء كلها، وكان الملائكة يجهلونها فأنبأهم آدم بها، ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر قائلاً إنه أفضل من آدم لأن الله خلقه هو من نار وخلق آدم من طين، وورد ذكر ذلك في سور البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه، وتقول الآية الشريفة الثامنة والعشرون من سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، ثم طرد الله إبليس من الجنة حيث أسكن آدم وزوجه حواء يعيشان في نعيم وأمرهما، بألا يقربا الشجرة، ثم أعقب ذلك زلّة بني الإنسان ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (سورة البقرة الآية ٣٦)، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (سورة الأعراف الآية ٢٠)، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ (سورة طه الآية ١٢١)، وعندها قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (سورة طه الآية ١٢٣)، ثم سأل آدم ربه الصفح، والمغفرة فتاب عليه وقد جاء ذكر

ذلك في الآيتين ٣٧ و٣٨ من سورة البقرة، إذ يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾، وقال تعالى في الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ من سورة الأعراف ما يدل على ندم آدم وحواء وغفران الله لهما ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، ويقول الله في الآيتين ١٢٣ و١٢٤ من سورة طه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾، وذكر في القرآن الكريم أنه كان بين الله وآدم عهد من قبل ولكن آدم نسيه، وفي ذلك يقول الله في الآية ١١٥ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (سورة طه) وفي الآيات ٦٠ و٦١ و٦٢ من سورة يس، يُذكِّر الله بني آدم بتحذيره لهم من عبادة الشيطان فيقول وهو أصدق القائلين: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ وفي الآيتين ٣٣ و٣٤ من سورة آل عمران ينوّه الله بتفضيله آدم فيقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾، وتقول الآية ٥٩ من سورة آل عمران ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

والعناصر التي لم ترد في التوراة من قصة سيدنا آدم عليه السلام نجدها في الروايات اليهودية وفي الروايات المسيحية في بعض الحالات، وجاء حديث الله مع الملائكة قبل خلق آدم ورجحان آدم عليهم لعلمه بالأسماء في مجموعة «برشيت ربّا»، وتقول الروايات في مجموعة «يسقتا» اليهودية إن الملاك ميكائيل سجد لآدم ودعا سائر الملائكة أن يحذوا حذوه، وفي الكتاب النصراني السرياني «مغارة الكنوز» أن الله فضل آدم على جميع المخلوقات، وأن الملائكة عبدوه إلا إبليس الحسود ومن ثَمَّ طرد من الجنة، وقد جاء ذكر العهد الذي كان بين الله وبين آدم في كتاب سنهدرين، وفي كتاب أغسطس وكتاب «ندم آدم» وكتاب «عبودا زارا» وكتاب «فيتا آدامي Vitá Adami».

وأخذت الروايات والقصص عن سيدنا آدم تنمو ويطرد ظهورها بعد نزول القرآن، وينعكس الأثر اليهودي والمسيحي فيها جميعًا إلى حد بعيد، ويجد الباحث آثارها الواضحة في مجموعات الأحاديث ومجموعات القصص وفي كتب التاريخ العام وفي تفاسير القرآن.

ونجد في هذه الروايات أن الله مهد لخلق آدم بأن بعث الملاكين جبريل وميكائيل إلى الأرض ليأخذ كل منهما قبضة طين فاستعاذت الأرض بالله أن يأخذ منها شيئًا، فبعث الله إليها عزرائيل ملك الموت فانتزع قبضة من طينها الأحمر، والأبيض، والأسود، ولذلك اختلفت ألوان البشر، وسمي آدم بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض، ثم عجنت القبضة من التراب حتى صارت طينًا لازبًا، وذلك بعد أن أمطر الله الأرض عدة أيام ليحيل ذلك التراب إلى الطين الذي ترك حتى غدا صلصالاً، وتذكر الروايات أن إبليس دخل من فمه

وخرج من دبره وبالعكس، ثم أراد الله أن ينفخ فيه الروح فأمرها فدخلت في فمه، ثم في دماغه، ثم نزلت في عينه، ثم نزلت في أنفه، ثم انتشرت الروح في جميع جسمه فصار لحمًا ودمًا وعظامًا وعروقًا وأعصابًا، وفي رواية عن النبي أن الله خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة، وصدره وظهره من بيت المقدس وفخذيه من أرض اليمن.

وقد جاء كل هذا القصص الغريب في تاريخ الطبري وتفسيره للقرآن، وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي، وفي كتاب الكسائي.

أما الرواية اليهودية فتقول إن الطين الذي خلق منه جسد آدم أخذ من مكان المعبد، أو من العالم بأسره بألوان مختلفة ثم صوّره الله جسدًا بلا روح، وفي رواية إسلامية أخرى أن الله أمر ملائكته: جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يأخذ كل منهم سبع قبضات من تراب الأرضين السبع فاستعاذت الأرض بالله، فبعث الله عزرائيل فانتزع من وجه الأرض ما يكفي من التراب لخلق إنسان، وبعد أن أمطرت السماء وصار التراب طينًا ولزبته الملائكة صنع الله منه هيكل آدم وتركه مدة ليجف قبل أن ينفخ فيه من روحه، ويقول المسعودي إن جسم آدم بقي ثمانين عامًا غير مصوّر، ثم صوره الله وتركه بلا روح مائة وعشرين سنة أخرى.

وتتحدث الروايات الإسلامية عن وصف سيدنا آدم فتقول إنه كان حسن الصورة جميل الجسم فارع القامة ويستند الثعلبي في هذا الوصف إلى الآية الرابعة من سورة «التين» وهي (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، ونجد هذا الوصف في الرواية اليهودية وفي الكتب النصرانية (مغارة الكنوز).

والكتب اليهودية تتبع قصة التوراة التي جاء بها أن الحيّة هي التي أغوت الإنسان، وجاء في كتاب «فيتا آدامي» أن الشيطان تحدث بلسان الحيّة ومن ثَمَّ يكون هناك توافق بين الكتب اليهودية والنصرانية في حكاية الحية.

أما ما جاء في القرآن الكريم فمقصور على الشيطان نفسه الذي أغوى آدم، ولكن الرواية الإسلامية تدخل الحية في القصة، وتقول: إن الحية تحدثت إلى آدم وأغوته بأمر إبليس، وقد جاء تفصيل ذلك في تفسير الطبري الذي يذهب في روايته إلى احتمال أن الحية حملت إبليس في فمها أو في بطنها.

ويظهر الطاووس في القصص الذي دوّنه الكسائي والثعلبي إذ يذهبان إلى أن إبليس عجز عن دخول الجنة بمنع من الله، فلقي الطاووس سيد الطيور في الجنة وقال له إن كل المخلوقات ستموت وإن في مقدوره أن يدله على شجرة الخلود، فأخبر الطاووس الحيّة بذلك فسعت إلى إبليس فاندفع داخلها من فمها، واستطاع بذلك دخول الجنة، والتحدث بلسانها إلى آدم وحواء وعندها أكلت حواء من الشجرة المحرمة، وأقل ما توصف به هذه الروايات الساذجة أنها انتقاص من قدرة الله وعلمه، فهل يجهل الله العليم القدير أن إبليس في جسم الحية حتى يتركه يدخل الجنة بعد أن حرمها عليه؟ ألا إن ذلك هو السخف المبين!!.

ويغلب على الرواية اليهودية أن الثمرة المحرمة كانت الحنطة أو التين أو العنب، ونجد هذا التفكير فيما رواه الطبري والثعلبي، أما الرواية النصرانية وغيرها من الروايات الأخرى، فتؤكد أن الثمرة كانت تفاحة.

وهبط آدم تصحبه حواء إلى الأرض تنفيذًا لأمر الله، ويقول الطبري أن الرواة يجعلون مكان هبوطهما في الهند، ولا يدفع صحة ذلك علماء المسلمين، وأهل التوراة والإنجيل، على أن أكثر الروايات شيوعًا هي أن آدم هبط إلى جزيرة سرنديب (جزيرة سيلان) في جنوب الهند، وحواء إلى جدة، وإبليس إلى بيسان، والحيّة إلى أصفهان!!! ثم التقى آدم وحواء في المزدلفة وعرفة، ويؤيد هذه الرواية الطريفة كل من الطبري والمسعودي واليعقوبي والثعلبي، وهكذا تضيع المعالم التاريخية الصحيحة في زحمة الروايات الأسطورية التي يرفضها العقل، والمنطق، ويمجها الذوق الروائي السليم.

وترتبط هذه الروايات وغيرها بالظن أن آدم هو الذي أنشأ الأعياد اليهودية، وأنه أدى مناسك الحج كما تعلمها من الملاك جبريل، وأن حجر الكعبة الأسود نزل إليه من السماء ومن ثَمَّ استطاع بناء الكعبة ثم تعلم هو وحواء استخدام النار والزراعة والحرف اليدوية، وقد قال بذلك حمزة الأصفهاني والثعلبي نقلاً عن رواية يهودية الأصل وذهب الثعلبي إلى أن آدم استطاع سك الدراهم، والدنانير لأنها كانت من مستلزمات الحياة المألوفة!!! فهل كان سيدنا آدم أول وزير للمالية؟؟؟.

ومن جهة أخرى تقول الروايات أن سيدنا آدم تعلم فيما تعلم التحيات، والصيغ الدينية، ويؤيد ذلك الطبري اليعقوبي، ويقول ابن العبري في «تاريخ السريان» أن آدم كان يتحدث بالعربية في الجنة ثم تحدث بالسريانية عندما هبط إلى الأرض!!! وكان يكتب بيده اثني عشر قلمًا معروفًا!!!

أما الكسائي فيذهب في المغالاة إلى أبعد شوط إذ يدعي أن أبانا الجليل آدم كان يتحدث بسبعمائة لغة، وأفضلها العربية!!! ويدعى الدينوري أن أبا البشر يؤلف الكتب!!.

ولما بنى آدم بحواء أعقبا أولادًا كان أولهم قابيل وهابيل (انظر هاتين المادتين) وولدت حواء مع كل منهما توأمًا له، وزوّج آدم كلاً منهما لتوأمه الآخر، ولذلك حسد قابيل هابيل وقتله، وكان شيث الذي ولد بلا أخت أحب إخوته إلى قلب آدم كما كان وصيه، وأعقب آدم أولادًا كثيرين غير هؤلاء وسمى أحدهم عبد المغيث!! ويقول الثعلبي أن آدم لم يمت حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفًا، ويذكر الحلبي خمس آلهة للعرب كانوا من أولاد آدم، وقد صنع إبليس أصنامًا على صورهم عبدتها الأجيال التي جاءت بعد ذلك، وتظهر هذه الرواية الساذجة في مؤلفات الطبري والمسعودي واليعقوبي والثعلبي والحلبي، الذين نصبوا أنفسهم رواة مسرفين في الأساطير، ليضفوا على سيرة أبي البشر كل ما أرادوا من التخمين، والخيالات التي اعتلت في وجدانهم.

ويذهب الطبري وابن سعد والثعلبي في خيالهم الخصب إلى أن الله عز وجل عما يصفون، مسح ظهر آدم فظهرت أمامه ذريته جميعًا ومن بينهم داوود، ولما سمع آدم أن داوود لن يعيش إلا عمرًا قصيرًا وهب له أربعين سنة من عمره ومن ثَمَّ لم يستوف أجله الذي كان قد كتب عليه وهو ألف سنة، ولكن أليس في هذا القول إنكار لأزلية الله وأزلية قدره؟؟ فإذا كان قد قدر أن آدم سيعيش ألف سنة فكيف يرجع في قراره الأزلي، ويخفض أجله إلى ٩٦٠ سنة ؟؟ ألا إن القوم لفي ضلال مبين.

وتقول الروايات إن سيدنا آدم خلق يوم الجمعة السادس من شهر نيسان (إبريل) في السنة الأولى، وطرد من الجنة في اليوم نفسه، وتوفي يوم الجمعة في الساعة التي كان فيها خلقه ودفن هو وحواء في مغارة الكنوز عند سفح جبل أبي قبيس

بالقرب من مدينة مكة، وقصة وفاة آدم ومكان دفنه ذكرها الطبري والمسعودي واليعقوبي، أما الثعلبي فيقول إن جثمان آدم حمل بعد الطوفان إلى بيت المقدس، ويتفق هذا القول مع الرواية النصرانية التي تزعم أن الجثمان حمل من سفينة نوح إلى جوف الأرض حيث يقوم «معبد آدم» في كنيسة القبر المقدس.

وسيدنا آدم هو أول الأنبياء الذين أوحى الله إليهم كتبًا سماوية، وقد أخبره الله بأنباء الأمم التي ستأتي بعده، وأنباء أنبيائها ورسلها، كما أن المسيح عيسى بن مريم هو آدم الثاني عند النصارى، وقد عقدت في الإسلام صلة بين سيدنا آدم وبين رسول الله محمد بن عبد الله، فآدم هو أول الرسل ومحمد عليه السلام خاتمهم، وفي مذهب السبعية يعدّ آدم أول الناطقين السبعية، ويقول بعضهم أنه كان يوجد من قبله أناس ناطقون، ويزعمون أن «شيئًا» كان وصيّ آدم، وهم يميزون بين «آدم الكلّي» الذي هو «العقل» الذي يبدأ منه الفيض، و«آدم الجزئي» الذي هو أول إنسان في وقت الاستتار، وكان آدم هذا هو آدم المثالي الذي سجد له الملائكة لأنه كان ربّانيًّا إذ حلت فيه روح الله، وكان ذلك يسمى أحيانًا «الحلول» الذي تتصل حلقاته بفعل «التناسخ» وقد جُعل هذا الإنسان المثالي الرباني «الإنسان الكامل» عند الهيلينية، وكان هو نفسه الذي عرفه الحلاج باسم «الناسوت».

ولما كان النبي الكريم محمد قد صار قطب الخلق عقب ميلاده الشريف، وهي فكرة أكدتها الصوفية بنوع خاص، فإن «حقيقته» أو «نوره» الرباني هو الذي تجلى في آدم، وقد وجدت جميع المخلوقات من أجله كما خلق آدم وذريته من نوره، وقد ذكرت كل هذه الاستنتاجات في كتب المسعودي وفي السيرة الحلبية وفي مؤلف الثعلبي.

وتقول الروايات إن سيدنا آدم عاش في جزيرة «سرنديب» (سيلان) مائتي سنة بعيدًا عن زوجته حواء ليكفر عن ذنبه، وفي هذه الجزيرة جبل أسماه البرتغاليون «جبل آدم»، وتذكر الأساطير أن على هذا الجبل أثر قدمي آدم وطول كل قدم سبعون ذراعًا!!! ولما غفر الله له حمله الملاك جبريل إلى جبل عرفات قرب مكة وهناك لقي زوجته حواء.

هذه هي قصة سيدنا آدم كما دبّجتها أقلام المؤرخين العرب، وكما ذكرتها القصص اليهودية والنصرانية ولاسيما السريانية، أما حقيقتها فنستمدها من نصوص آيات القرآن الكريم كتاب الله المنـزّل على رسوله عليه الصلاة والسلام.

٣- الآنسة ميّ - شارع - بقسم الرمل (الأميرة فاطمة دولت سابقًا)

كلمة ميّ ومثلها مَيَّة وميًّا من أسماء النساء، وميّ هو الاسم الذي استعارته الأديبة الكبيرة الآنسة ماري بنت إلياس زيادة وعرفت بميّ في الأوساط الأدبية، وكان والدها من أصل لبناني أقام بالناصرية من أعمال فلسطين؛ حيث ولدت ميّ عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) وتعلمت بمدارس هذه المدينة ثم انتقلت إلى مدرسة «عين طورة» بلبنان ونزحت بعد ذلك صحبة والدها إلياس زيادة إلى مصر وبدأت تكتب في جريدة المحروسة التي أصدرها والدها ومجلة الزهور، وكانت تتقن إلى جانب لغتها العربية اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية، وكان لها الفضل في تنشيط الحركة الأدبية عن طريق منتداها الأدبي الذي كان يجمع الصفوة من رجال



فندق سان ستيفانو

الأدب في عصرها، وكان هذا المنتدى الثقافي يعقد بمسكنها كل يوم ثلاثاء، وقد أثر هذا «الصالون» أروع تأثير في الأدب العربي الحديث حتى أنشد فيه الشاعر الرقيق إسماعيل باشا صبري (انظر هذه المادة) قصيدة جاء بها:

رُوحي على بَعْضِ دُور الَحيِّ جَاثمةٌ
كَظَامِئِ الطَّيْرِ إِذْ يَهْفُو عَلَى الَماءِ

إن لم أُمَتِّعْ بميٍّ نَاظِرَيَّ غدًا
أَنْكَرْتُ صُبْحَكَ يَا يَوْمَ الثلاثاءِ

وكان صالون الآنسة ميّ امتدادًا «لصالون» السيدة نازلي فاضل الذي كان ناديًا أدبيًّا يختلف إليه الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم اللقاني وقاسم أمين (انظر هذه المواد) وممن كانوا يترددون على منتدى الآنسة ميّ: أحمد لطفي السيد، وعبد العزيز البشري، والدكتور علي إبراهيم، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران (انظر مواد لطفي السيد وعبد العزيز البشري وأحمد شوقي بك وحافظ إبراهيم بك وخليل مطران)، وكان هؤلاء الأدباء والشعراء يتبادلون في اجتماعاتهم الأسبوعية الأحاديث الأدبية والنوادر الطريفة والقصائد الرصينة والروايات الشعرية المستملحة، وقد نوه الشاعر خليل مطران بذلك المنتدى الثقافي في رثائه للآنسة ميّ فقال:

قَدْ تَوَلَّى رِفَاقُنَا وَبَقِينَا
يَعْلَمُ اللهُ بَعْدَهُم مَا لَقِينَا

أَقْفَرَ البَيْتَ أَيْنَ نَادِيكِ يَا مَيُّ
إلَيْهِ الوُفُودُ يَخْتَلِفُونَا

صَفْوَةُ المشْرقين نُبْلاً وَفَضْلاً
في ذُراكَ الرَّحِيبِ يَعْتمِرونا

فَتُسَاقُ البُحُوثُ فِيهِ ضُرُوبًا
ويدَارُ الحدِيثُ فِيهِ شُجُونا

وتُصِيْبُ القُلُوبُ وَهْي غِرَاثٌ
مَنْ ثِمَارِ القَوْلِ مَا يَشْتَهِينَا

وكان هذا المنتدى وقبله منتدى السيدة نازلي فاضل، يضارع في جَوِّه الأدبي الراقي صالون «مدام دي رامبوييه Madame de Rambouillet» بباريس الذي أسهم في رفع مستوى الأدب الفرنسي وضم أعظم أدباء ومفكري فرنسا في المدة من عام ١٦٢٠ إلى ١٦٦٥م تاريخ وفاة هذه السيدة المثقفة، وقد سبقتها إلى هذا العمل الأدبي الجليل الفائدة السيدتان سُكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب وعائشة بنت طلحة في صدر الإسلام.

وإلى جانب ثقافتها الأدبية الواسعة الآفاق كانت الآنسة ميّ على درجة لا بأس بها من ممارسة فني الرسم والموسيقى، ولم تتزوج فلما مات والدها وأمها وصارت وحيدة غلب على حياتها الحزن والكآبة فانقطعت عن الناس وكفت عن الكتابة ثم مرضت وظلت في اضطراب نفسي وعقلي عامين، ووافتها المنية في التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٤١م (١٣٦٠هـ) ودفنت بالقاهرة التي أحبتها وكانت قد بلغت من العمر ٥٥ سنة.

ولها من المؤلفات «المواساة» و«باحثة البادية» و«مد وجزر» و«سوانح فتاة» و«الصحائف»، هذا علاوة على المقالات والأبحاث الكثيرة التي دبجها قلمها.

وفي كل ما خطه قلمها كانت مي تمثل بداوة البادية وحضارة الحاضرة وثقافة العرب القدامى والمحدثين جميعًا، وكانت تعالج فيما تكتب شتى الشؤون في أصالة وموهبة وعمق في التفكير مع عذوبة في الأسلوب ووضوح في التعبير والمعاني صادرين عن إخلاص صادق وانفعال فياض، وكانت إلى جانب ذلك صفحة مشرقة في سجل النهضة الأدبية الحديثة ولاسيما النهضة النسائية العربية، فشاركت قادة الفكر في حركة البعث الأدبي وكافحت في سبيل تطوير حياة المرأة وإعدادها للحياة الكريمة المشرفة ، فكانت في الواقع مصلحة اجتماعية تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي الذي يلائم تقاليدنا الشرقية وقوميتنا العربية وذلك بيراع فنانة موهوبة وبأسلوب قوي وبيان عذب الجرس، ولقد بينت في كتاباتها المقارنة بين الرجل والمرأة وأوضحت وظيفة كل منهما في الحياة بروح عربية أصيلة فتقول: «إن أكبر فخر للرجل وأعظم عنوان لمجده إنما هو كمال رجولته، ذلك حق نُقرُّه جميعًا فما لنا لا نقر الحق الذي يقابله فتقول إن أكبر فخر للمرأة وأعظم عنوان لمجدها إنما هو كمال أنوثتها، فإذا كانت الرجولة قوة ونضالاً وحرصًا على الظفر، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة، محبة للكون ولكل جميل ولكل كامل فيه، وحنان على المخلوق الصغير الناشئ، زهرة كان هذا المخلوق أو نباتًا أو حيوانًا أو طفلاً. . . وعطف على بؤس البائس وضعف الضعيف وأنة المريض وشكاية العاني وكل ذي ضراء. . . هذه طبيعة الأنوثة وتلك طبيعة الرجولة، ومن ثمَّ تكون المعاونة الصادقة

من وسائل المرأة لكمال أنوثتها ومن وسائلها أيضًا للظفر بالفخر والمجد».

وفرقت الآنسة مي بين المرأة «الوالدة» و«الأم» فالأولى عندها هي الفتاة التي اعتادت الانقياد وراء ذويها مؤثرة التخفف من المسؤولية وتحمل نتائجها، ومن ثمَّ تشفق من إتيان عمل فردي تدفعها إليه إرادتها بالاشتراك مع ضميرها... ومثل هذه لا تكون إلا «عبدة» قد تصير في المستقبل «والدة» ولكنها لا تصير «أمًّا»؛ لأن الأمومة معنى من الرفعة بحيث يسمو بالمرأة إلى الإشراف على النفوس والأفكار...

وهذه آفتنا لأن العبدة لا تربي إلاَّ عبدًا...

وكانت مي تتغنى بالوطنية فتقول: «ليس بين المعاني الاجتماعية أدعى إلى التحمس والطرب من اسم الوطن؛ لأن الوطن كل شيء فهو الأهل والأحباب، والدموع والابتسامات، وهو القبور الغاليات... ومهد الذراري المقبلات... وهو القلم الذي ترتعش ذرات القلوب لتلاعب النسيم بأهدابه».

وكان حاضر الشرق القاتم يثير الشجون بوجدانها ويذكرها بماضيه العظيم وأمجاده الخالدات، فتناجيه في حنان وفي نبرات شرقية الرنين فتقول:

«أيها الشرق، يا شرقي الكبير، يا شرقي المليء بالنخوة والشدة العاصفة، إنك لتتجمع تحت نظري كلوحة مصورة، فأرى فيك الفقر والجهل والاضطراب والاحتدام والانفعال، ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة، ربوعك خالية مما لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل، على الرغم من ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية.

أيها الشرق، يا شرقي المحبوب، أية قوة هذه التي تشد وثاقي إليك؟ لماذا أهوى من لغتك الشدو والشجي والنواح والنبرة السريعة الحادة والهتاف الأبي الحار؟ ألا نظرة إلى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء العسجد واللجين والأرجوان... إنها الجو الوحيد الذي أظل الرسل وما رضيت أن تنزل في غير هوائه النبوات».

أيها الشرق، يا شرقي العظيم لقد حقت لك الراحة ثلاثة قرون بعد ازدهار عشرات القرون... وها قد جاء وقت النهوض فإلى النهوض يا شرقي العظيم المحبوب».

وكانت تنادي بالتمسك بتراثنا الشرقي دون الإغضاء عما يضطرب في الغرب من فن وجمال وابتكار، وكان يؤلمها استسلام بني قومها للفتور فتعمل جاهدة على استنهاض عزائمهم استعدادًا للوثبة في سبيل الرقي والتقدم دون هدم التراث الشرقي الذي ينطوي على إرث عظيم المقدار والشأن إذ هو إرث الأديان والنبوات والمجد والحضارة، وعلى الرغم من إلمامها بعدة لغات أجنبية كانت تؤثر لغاتها القومية العزيزة على نفسها، لغة عنترة والمتنبي ولغة الموشحات الأندلسية، فكانت تقول لأبناء جيلها «تكلموا ما شئتم من اللغات يا بني أمتي، ولكن لا تنسوا ولا تهملوا لغتكم المجيدة».

وكانت تتغنى بوحدة الوطن العربي وترى أن مصر وسوريا وطن واحد، فالسوري في مصر بين أهله وأصحابه والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه، وكانت مشهورة بتسامحها الديني، فليس في وجدانها أثر للتعصب إذ كانت تصدر في

كل ما تقول عن عاطفة إنسانية سامية متحررة من شوائب التعصب البغيض، فكانت تستقبل عيد الميلاد المسيحي على أنه عيد سلام على الأرض ومحبة بين الناس، وتستقبل عيد الهجرة النبوية بحديث تجعل فيه رمال الصحراء تترنم بِحوَارٍ مَضْمُونه أن النبي العربي لم يأت إلا رحمة للعالمين، ويرجع هذا التسامح الديني في أعماق نفسها إلى تعاليم والدها إلياس زيادة الذي كان يعتنق مذهبين مختلفين.

وهكذا كانت الآنسة مي إنسانة ومصلحة اجتماعية وشاعرة وفيلسوفة ذات حياة أدبية خصبة، وقد بذلت كل ما تملك من طاقة وشباب في سبيل قومها ولغتها وفنها، وصدق الشاعر الذي رثاها بقوله:

شيمٌ غرٌّ رصيناتٌ عِذَابْ

وحجًا ينفذ بالرأي الصوابْ

وذكاءُ ألمعيٌّ كالشهابْ

وجمالٌ قدسيٌّ لا يعابْ

كل هذا في الترابْ

آه من هذا الترابْ

ومما يدل على أن الشاعر إسماعيل صبري كان يحمل لها في فؤاده ودًّا يستطاع وصفه بالحب قوله لها في تهنئة بعث بها إليها بمناسبة حلول عام جديد:

يا غرة العام جوزي الأفق صاعدة

إلى السماء بآمال المحبينا

إني سألت لك الأيام صافية

يا ميُّ قولي معي– بالله– آمينا

٤– آل البيت – شارع – بقسم الجمرك

تثبت النصوص الشرعية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أن لآل بيت الرسول محمد بن عبد الله حقوقًا على الأمة الإسلامية كما توضح هذه النصوص وصف تلك الحقوق وصفًا دقيقًا يرقى بهم إلى التنزيه وإلى وجوب الصلاة عليهم والتبرك بهم. والدائم الباقي من هذه الحقوق هو العود عليهم في العبادة والدعاء بالصلاة عليهم عند التشهد الأخير من الصلوات الخمس المفروضة شرعًا.

ولم تختلف آراء الفقهاء في تعيين آل البيت ووجوب تأدية ما لهم من حقوق على المسلمين في كافة أنحاء الدنيا وذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وعملاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث له عند (ماء خم): «أذكركم الله في أهل بيتي... أذكركم الله في أهل بيتي».

ولما كان آل البيت أنواعًا وفرقًا فقد اختلف الفقهاء في ترجيح طائفة منهم على طائفة أخرى دون إخراج بعضهم. فهم جميعًا من آل بيت النبي مرتبين على درجات. ويستثنى من ذلك القول بأن آل البيت هم الأمة الإسلامية كلها أو هم صلحاؤها.

ويقول علي بن أبي طالب في تعريف آل البيت: «إنهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام بهم عاد الحق في نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته... عقلوا

الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل».

وأول ما وصف به آل بيت الرسول هو أنهم أصحاب الكساء وأصحاب المباهلة الذين اجتمعت فيهم الأصول والأوساط والذرية جمعهم النبي وطرح عليهم كساءً في بيت أم سلمة ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي»، وذلك عقب نزول الآية الكريمة الثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب المدنية ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾، وأصحاب الكساء هم أيضًا أصحاب المباهلة حين أنزل الله سبحانه في وفد نجران ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

وكان عدد أصحاب الكساء والمباهلة في بادئ الأمر أربعة غير الرسول هم: عليَّ بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي وولداهما الحسن والحسين، ولو كانت السيدة خديجة على قيد الحياة لعدت منهم، وكذلك لو كانت بنات النبي قد أنجبن ذكورًا لكانوا من أصحاب الكساء والمباهلة.

وفي هؤلاء الأربعة كان الأصل محمدًا عليه السلام والوسط فاطمة الزهراء وعليًّا بن أبي طالب وابن عم النبي والذرية الحسن والحسين، ولم يقع خلاف على تقديم هؤلاء الأربعة من بيت الرسول على كل من قيل فيما بعد إنهم من آل البيت.

وقد حرمت الصدقة على أصحاب الكساء والمباهلة لأنهم صاروا من أصحاب الحقوق في بيت المال بعد أن طرحوا أموالهم في الصدقات، ولم يكن لهم ميراث من النبي، فأخذهم من الصدقات ينزل بهم إلى ما تعافه النفوس الكريمة من بقايا الأموال.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قوله: «كان رسول الله يؤتى بالنخل عند صرامه فيجيء هذا بثمره وهذا بثمره حتى يصير عنده كوم من تمر، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه فنظر إليه رسول الله فأخرجها من فيه فقال: «أَمَا علمت أن آل محمد لا يأكلون الصدقة!!»، وفي صحيح مسلم قول رسول الله لعبد المطلب ابن ربيعة وللفضل بن العباس حين أتياه، فقالا له: «استعملنا يا رسول الله على الصدقات»، فقال لهما: «إن الصدقة إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد».

وَجَدَّ أصحاب الحديث وفقهاء المسلمين في حصر آل البيت فذهبوا إلى القول بأنهم بنو هاشم خاصة أو بنو هاشم وبنو المطلب (غير أبي لهب) أو بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب فيدخل فيهم بنو المطلب وبنو أمية وبنو نوفل، وفي مقدمة الذرية من بني هاشم وبني المطلب آل علي وآل عقيل وآل العباس، وقد حرمت على هؤلاء جميعًا الصدقة أو الولاية عليها.

وأفتى زيد بن أرقم بأن نساء رسول الله من آل بيته، وتبع ابن أرقم في هذا الرأي كثير من أئمة الفقهاء استنادًا إلى أن الله فرض على نساء الرسول آدابًا وواجبات ألزمهن بها في مقابلة تشريفه لهن على غيرهن من النساء وذلك في قوله تعالى في الآيتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

وقد نص النبي بطريق الاستتباع لآل البيت على سلمان الفارسي، إذ قال فيه الرسول: «سلمان منا أهل البيت»، وكذلك نص على وائلة بن الأسقع الذي طلب من النبي أن يَعُدَّهُ منهم فَعَدَّه، وقد اختص رسول الله سلمان ووائلة بفضله ودعاهما في حكم آل بيته عن طريق المجاز، ولا يصح أن يكون هذا التفضيل مدعاة للقول بأن الأمة الإسلامية أو الصلحاء منها هم من آل البيت، وقد توسع بعض الفقهاء في هذا الباب فقالوا إن آل البيت هم الأتباع إلى يوم القيامة وبذلك يدخل في عداد آل البيت جميع أفراد الأمة الإسلامية أو يدخل صلحاء الأمة من أولياء وعلماء، ومن ثم جعل هؤلاء الفقهاء للصلحاء من أولياء وعلماء حق الدعاء لهم بلفظ الصلاة والتبريك ولكن أئمة الفقه الإسلامي انبروا لهؤلاء المتوسعين وأفحموهم بالحجة الدامغة.

ومن كل ما تقدم يصبح آل البيت مرتبين على النحو التالي: المنزهين عن الصدقات وفي المقدمة منهم أصحاب الكساء والمباهلة، ثم أمهات المؤمنين وهن أزواج رسول الله، ثم من ألحق بالأصول من أهل البيت دون صلحاء الأمة من أولياء وأتقياء ودون عموم الأمة الإسلامية، إذ لا يجوز العدول عن مدلولات الألفاظ بما ليس عليه دليل.

وقد سُئِل النبي عن كيفية الصلاة عليه وعلى أية صفة يؤدى هذا الحق فقال: «قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد»، ومن ثم فإن الصلاة على آله هي من تمام الصلاة عليه.

٥ - الألاتي - حارة - بقسم العطارين

اسمه بالكامل حسن بن السيد علي الالآتي، وكان معروفًا في الأوساط الأدبية بالحاج حسن الآلاتي، وكانت والدته إحدى جواري بيت السلطنة في القسطنطينية، وكانت منشأته بالقاهرة بحي السيدة سكينة بالمشرقي بجوار درب الأكراد، والتحق بالأزهر الشريف، وتلقى العلم على طائفة من أجلاء العلماء، مما أفاده كثيرًا من الوجهة العلمية والتعمق في اللغة العربية والأدب والفقه، وبعد تخرجه من الأزهر اتجه بكليته إلى الناحية الأدبية فقدَّم إنتاجًا يشهد له بالنبوغ والعبقرية، وانقطع بعد ذلك إلى الغناء فهذب من حواشيه، وارتفع به إلى درجة عالية لم تكن له من قبل، وذلك بما صنف من أغنيات راقية، وأناشيد غاية في السلاسة والروعة، ومن الإنصاف لهذا الأديب القول بأنه صاحب الفضل على فن الغناء مما أدى به إلى النهضة الحديثة، إذ كان أحد الذين أسهموا في إنعاش الحركة الغنائية وتغذيتها بالأناشيد والمقطوعات الرفيعة، وكان في حياته الاجتماعية مثال الرجل الأديب الميال إلى الفكاهة والمداعبة البريئة، فما حضر مجلسًا إلا أضفى عليه شعاعًا من الأنس والحبور والطرب، ومن ثم كان مجلسه يجمع عددًا كبيرًا من علماء القاهرة وأدبائها وأعيانها يذكر منهم عبد الله باشا فكري وأحمد باشا طلعت الكبير، وأحمد باشا راشد، وحسن بك الشمسي، وكانوا يجتمعون في مكان أعده بمنزله، وأطلق عليه اسم (المضحكخانة العليّة) ونصَّب نفسه رئيسًا لها، وكانت هذه الجلسات الأدبية تتناول المطارحات الشعرية، والفكاهات الزجلية مما كان يجيده الشيخ حسن

غاية الإجادة، ومن فكاهاته المعروفة أن أحد النظار (الوزراء) أهداه حذاء في يوم عيد فلما وصلت إليه الهدية قال لرسول الوزير: أبلغ سيدك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «يحشر المرء يوم القيامة تحت ظلّ صدقته»!!

وسأل امرأته عن غدائه فقالت: «ليس عندنا طبيخ، ولكننا أعددنا لك جبنًا وشمامًا»، فجلس يقطع الشمام في تذمر، وعندها سمع رجلين يتشاجران في الطريق ويقول أحدهما للآخر وهو يسبه: «يا راجل يا طبيخ»، فأخذ الشيخ حسن الرغيف بيد وخرج إليهما مسرعًا وهو يقول: «فين الراجل الطبيخ ده»؟ فضحك الناس وانفضت المشاجرة، وجلس رجل يتغنى بين قوم بقطعة من مقطوعاته وجعل يقلّده في طريقته ثم أعجب بنفسه وقال: «أنا اليوم أغني كالشيخ حسن تمامًا» فأجابه الشيخ: «لأ بس ناقص العمى يا بني» (وكان الشيخ حسن كفيفًا).

وله كتاب في الأزجال الفكاهية والمفارقات الطلية اسمه: (مضحك العبوس) ويقع في جزأين وهو من آثاره الخالدة، وله كتاب آخر بعنوان (حسن المسرات) ويصفه كتاب سيرته بأنه كان متوسط القامة، حسن الملامح، أبيض البشرة، ممتلئ الجسم، مكفوف البصر، يترك فضلاً من عمامته إلى الخلف (العذبة) تشبهًا بأهل السنة.

ومن أزجاله الطويلة وصف مهرجان أقامه لابنته وقال فيه:

أحمد الله تمت أفراحي الجليلة

والحسود مكمود، وأحزانه طويلة

من كرم ربي وإحسانه عليّا

فزت بنسيم الصبا دون البريّة

وقد وضع الشيخ حسن هذا الزجل بمناسبة مهرجان ابنته كما تقدّم، وجعل منه قصة للفكاهة والإشادة بفضل أصدقائه الذين أسهموا بهداياهم في تخفيف عبء نفقات الجهاز، ونفقات العرس وقد ظهر الشيخ حسن الآلاتي قبل ظهور عبد الله النديم (انظر مادة النديم) والشيخ رمضان حلاوة (انظر مادة حلاوة) في الإسكندرية وكان الشيخ حلاوة يخرج على الناس من حين إلى آخر بطرائف أزجاله، والمساجلات التي كان يتبادلها مع الشيخ حسن الآلاتي على حين أن عبد الله النديم كان يغطي على ذكر الجميع بما كان ينظمه من أزجال سياسية كانت ذائعة الصيت تنتشر بين أفراد الشعب المصري في أنحاء القطر بأسره.

وبما أن الشيخ حسن الآلاتي قد عاصر عبد الله النديم فتكون وفاته قد حدثت في الفترة التي عاشها النديم وهي من عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م) إلى عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م)؛ إذ إن النديم قد يصغره في السن هو والشيخ رمضان حلاوة (انظر هذه المادة).

٦- ابراهيم الأول - شارع - بقسم اللبّان (عثمان أباظة حاليًا)

٧- ابراهيم الأول - شارع - بقسم مينا البصل

إبراهيم الأول هو أكبر أولاد محمد علي (انظر هذه المادة) رأس الأسرة القولية التي بدأ حكمها لمصر في ظل



حمام المصري بشارع السبع بنات بقسم اللبان (شارع إبراهيم الأول سابقًا)

(١٢٢٦هـ) أرسله محمد علي إلى الصعيد لجباية الضرائب فأفلح في طرد فلول المماليك من مناطق الوجه القبلي وأخضع قبائل البدو الثائرة وعمل على إعادة النظام والأمن، ولم يتورع عن استعمال وسائل العنف والقسوة في جمع الضرائب، وقد وصف الجبرتي هذه الوسائل المروعة في ختام ذكره لأحداث عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م).

وظل إبراهيم يدير شؤون الوجه القبلي حتى بداية عام ١٨١٦م (١٢٣٢هـ)، وفي هذه الأثناء أنعم عليه الباب العالي بلقب باشا اعترافًا بخدمات والده كما يقول المؤرخ «مانجان Mengin»، وفي هذا العام نفسه أرسله محمد علي إلى بلاد العرب لتصفية حسابه مع الوهابيين الذين قاتلهم أخوه طوسون طوال المدة الواقعة بين عامي ١٨١١ – ١٨١٣م (١٢٢٦–١٢٢٨هـ)، ثم قاتلهم محمد علي نفسه من عام ١٨١٣ إلى عام ١٨١٥م (١٢٢٨ – ١٢٣١هـ)، وقد استمر إبراهيم باشا على منازلة الوهابيين حتى شهر ديسمبر عام ١٨١٩م (١٢٣٥هـ)، إذ عاد إلى مصر عودة الظافر المنتصر ومعه عبد الله بن السعود وأقاربه أسرى حرب.

وبعد هذا التاريخ بقليل ولاه سلطان تركيا على ميناء جُدَّة، وفي أثناء ذلك كان محمد علي قد عهد بابنه الثالث إسماعيل فتح بلاد السودان، وكان الهدف من هذه الحملة الكشف عن مناطق الذهب المعروفة قديمًا وجلب الأرقاء الذين صاروا فيما بعد دعامة الجيش الجديد الذي كونه محمد علي، ولقد بعث محمد علي ابنه إبراهيم إلى السودان مزودًا بإمدادات حربية لمعاونة أخيه إسماعيل، ويقول المؤرخ «فولابيل Vaulabelle» إنه كان ينوي تنفيذ مشروعات ذات مغامرات جريئة هناك، غير أن مرض الزرب «الدوسنتاريا» الشديدة اضطره إلى التعجيل بالأوبة إلى القاهرة في أوائل عام ١٨٢٢م (١٢٣٨هـ).

وفي الأعوام التالية اشترك في تدريب الجنود على النظام الجديد الذي كلف محمد علي الكولونيل «سيف» الفرنسي بإجرائه، وكان إبراهيم تلميذًا نجيبًا لذلك المدرب الأوروبي الذي اعتنق الدين الإسلامي، وعرف فيما بعد باسم سليمان باشا الفرنساوي وأصبح ساعد إبراهيم الأيمن في غزواته اللاحقة.

وفي ١٦ يناير عام ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) أصدر سلطان تركيا فرمانًا بتكليف محمد علي بغزو شبه جزيرة «المورة» في جنوب بلاد اليونان، فأنفذ محمد علي ابنه إبراهيم لقيادة هذه الحملة العسكرية في آخر شهر يوليو من ذلك العام نفسه، وكانت هذه الحملة مكونة من جيش قوي مدرب على الأساليب الحربية الحديثة ومزود بمعدات وافرة، فاستولى على «نافارين» ودخل «تريبولتزة» فصارت شبه الجزيرة تحت سلطانه الفعلي، وقضى في حصار «ميسلونجي» أشهر فبراير ومارس وإبريل من عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ) ثم استولى عليها بفضل بسالة المصريين الذين كان الجيش منهم.

ورفض محمد علي والباب العالي وساطة الدول الكبرى فحدثت كارثة «نافارين» البحرية المشؤومة في أكتوبر عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ)؛ حيث تعاونت أساطيل الحلفاء: إنجلترا وفرنسا وروسيا على تدمير معظم وحدات الأسطولين المصري والتركي.

و«نافارين» ميناء على بحر اليونان في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة «المورة» وأمامها وقعت المعركة البحرية؛ حيث

قضى أمير البحر الإنجليزي «كودرنجتون Codrington» قائد الأسطول الإنجليزي والأسطول الفرنسي والروسي على أغلب الوحدات البحرية المصرية والتركية، وقد حددت هذه الموقعة مستقبل البلاد اليونانية وكانت نقطة تحول بالنسبة إلى استقلالها عن تركيا، وقد حدثت في يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) وكان الأسطول المصري بقيادة محرم بك (انظر هذه المادة)، والأسطول التركي بقيادة طاهر باشا.

وعقب هذه الهزيمة اتجه الأميرال «كودرنجتون» بأسطوله إلى الإسكندرية فلم يجد محمد علي مناصًا من استدعاء ابنه إبراهيم الذي رجع بجيشه المصري الباسل إلى الإسكندرية في اليوم العاشر من شهر أكتوبر عام ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ).

وتجدر الإشارة هنا إلى بطولة الجنود المصريين الأمجاد، ففي الوقت الذي كان الجيش العربي الجزائري يتصدى فيه للغزو الفرنسي ويكبده أفدح الخسائر خلال عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) كان الجيش المصري يغزو فلسطين ويخلصها من الحكم التركي، ففي هذا العام نفسه (١٨٣١م) عهد محمد علي بقيادة الحملة العسكرية الموجهة إلى الشام إلى ابنه إبراهيم فوصل بجنده المصريين المغاوير إلى فلسطين في أول نوفمبر من العام نفسه واستولى على «عكا» في السابع والعشرين من شهر مايو عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) بعد حصار دام ستة أشهر، وذلك بعد انتصاره على حاميتي طرابلس وحلب في سهل الزراعة جنوب حمص، وتمكن الجيش المصري بعد ذلك من التوغل في البلاد الشامية وفي الأناضول (آسيا الصغرى)، وذلك بفضل الانتصارات التي حققها عند مدينة حمص على طلائع الجيش التركي بقيادة محمد باشا حاكم حلب في يومي ٨ و ٩ يوليو عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) وعلى الجيش التركي الرئيسي بقيادة حسين باشا عند «ممر بيلان» بالقرب من مدينة الإسكندرونة في ٢٩ يوليو وعلى الجيش التركي بقيادة رشيد باشا عند «قونية» في ٢١ ديسمبر من العام نفسه.

وكل هذه المواقع الحاسمة تقوم دليلاً ناصعًا على تفوق الجيش المصري وبطولة رجاله إذ استطاع التغلب على القوات التركية التي كانت – في ذلك الحين – تعتبر من أقوى الوحدات العسكرية النظامية الأوروبية.

ولقد أفلح إبراهيم باشا خلال هذه الحملة في توحيد صفوف أهل الشام وضمهم إلى الجيش المصري تحت شعار التحرير من النير التركي كما أفلح في اكتساب معاونة الأمير بشير الشهابي اللبناني صاحب النفوذ الواسع المطلق في أنحاء لبنان.

وتقدم الجيش المصري في غزوة المظفر حتى بلغ «كوتاهية» في ٣ مايو عام ١٨٣٣م؛ حيث عقدت معاهدة بين الباب العالي العثماني ومحمد علي تنازلت تركيا بمقتضاها لمصر عن بلاد الشام وأَذنَة، ولم يكن إبرام هذه المعاهدة بمنجاة من ضغط الدول الأوروبية التي خشيت سيطرة مصر على الدولة العثمانية فتصبح من القوة بحيث تهدد مصالح هذه الدول في الشرق الأوسط والشرق الأقصى على السواء، وتحول دون استغلال شعوب المنطقتين وامتصاص اقتصادها ونهب أرزاقها وهذا ما فعلته في الأعوام اللاحقة لهذا التاريخ إذ ثبت الاستعمار الأوروبي البغيض أقدامه في الشرقين معًا.

ومنح سلطان تركيا إبراهيم باشا لقب محصل أذنة فوكل إليه أبوه إدارة الولاية الجديدة، غير أن الأمر لم يكن هينًا على إبراهيم باشا بسبب اختلاف طباع السكان الذين وإن كانوا

ينفرون من الحكم التركي فإن النظام الذي وضعه إبراهيم لم يرقهم ولم يرتاحوا إليه لما كان ينطوي عليه من شدة وصرامة، وكانت النتيجة نشوب الفتن في كل مكان ولم ينجح إبراهيم في إخمادها كلية على الرغم من مصادرة السلاح في جميع أنحاء البلاد وتجنيد السكان الذي أدى إلى هجرة عدد كبير منهم إلى آسيا الصغرى (الأناضول) وإلى ما بين النهرين، كما أدى الاستيلاء على الدواب للأغراض الحربية إلى انحطاط مستوى الزراعة والتجارة، ومع أن النظام كان يسود البلاد فإن التذمر كان عظيمًا مطرد الزيادة.

ولما استأنفت تركيا القتال عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) أحرز الجيش المصري نصرًا مبينًا على الجيش التركي بقيادة حافظ باشا عند «نصيبين»، وفي هذه الموقعة الشهيرة استولى الجيش المصري الباسل على عشرين ألفًا من البنادق التركية ومائتي مدفع، وجميع الأموال التي كانت في حوزة قواد الجيش التركي المنهزم، وكافة الخرائط السرية، وكل الذخائر والمؤن، وأسر اثنين وعشرين ألفًا من الجنود بينهم القائد العام «سرعسكر حافظ باشا» الذي رفض الإصغاء لمشورة الضباط الألمان الذين كانوا في أركان حربه بألاّ يقدم على مهاجمة الجيش المصري لتفوقه في التدريب والنظام، ومن الغريب أن هذا القائد التركي الجاهل لم يتورع عن الرد على هؤلاء الضباط الألمان «بأن الدراويش والمنجمين الذين كانوا في ركابه وضمن أركان حربه أكدوا له أن نبوأتهم توضح انهزام المصريين الأفاقين الآبقين».

وترتب على انتصار الجيش المصري الباهر في «نصيبين» انحياز فوزي باشا بالأسطول التركي الذي كان تحت قيادته إلى الأسطول المصري بالإسكندرية؛ حيث باشر تسليمه محرم بك، وعندها فزعت الدول الأوروبية وخشيت أن تصبح مصر سيدة الموقف في الشرق الأوسط وجنوب أوروبا الشرقي، ومن ثم بادرت هذه الدول إلى التدخل السافر المتميز الذي ترتب عليه عقد معاهدة لندن في الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ) بين مصر والحلف المسمى بالحلف الرباعي.

وكان محمد علي يأمل في الحصول على مؤازرة فرنسا فرفض الجلاء عن الشام حتى عكا والاكتفاء بحكم ولاية مصر وجعلها وراثية يتولاها أبناؤه من بعده، غير أن فرنسا لم تمد له يدًا، وسرعان ما ضربت أساطيل الحلف الرباعي نطاقًا حول شواطئ الشام ومصر فصار جيش إبراهيم باشا في موقف حرج بين جيوش الحلفاء الآخذة في النزول إلى البر وبين أهالي لبنان الذين لم يتورعوا عن الثورة ضده.

وبعد أن استولى أمير البحر الإنجليزي «نابير Napier» على عكا الحصينة بمعاونة الأساطيل الأوروبية وبعد مفاوضاته مع محمد علي بالإسكندرية أرغم محمد علي على قبول التنازل عن بلاد الشام في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ)، وفي ٢٩ ديسمبر من العام نفسه غادر الجيش المصري دمشق عائدًا إلى مصر عن طريق غزة، وقد رجعت بعض فرقه عن طريق العقبة تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي (انظر هذه المادة).

وانصرف إبراهيم باشا خلال السنوات التالية إلى شؤون مصر الإدارية وكرس كل خبرته وعنايته بالزراعة ثم ذهب إلى أوروبا عدة مرات للاستشفاء بمياه بعض بلدانها المعدنية، وقد استقبل هناك بحفاوة وترحيب.

وفي أوائل عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) كان إبراهيم باشا في جزيرة مالطة حيث ألجأته ظروف والده الصحية إلى العودة مسرعًا إلى مصر، وفي شهر يونية من هذا العام نفسه أصبح الحاكم الفعلي للبلاد، وفي شهر سبتمبر منحه سلطان تركيا ولاية مصر رسميًّا وكان في ذلك الوقت بالآستانة.

وتوفي إبراهيم في التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٤٨م، أي بعد شهرين فقط من توليه حكم مصر رسميًّا، بالغًا من العمر ستين عامًا، ودفن في مدافن الأسرة بالقرب من الإمام الشافعي، وعاش من أبنائه بعد وفاته: أحمد المولود عام ١٨٢٥م (١٢٤١هـ)، وإسماعيل المولود عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ)، وقد صار فيما بعد خديوي مصر، ومصطفى المولود عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ).

ولا يسعني إلا أن أختم هذا البحث بذكر ما جاء بكتاب المسيو «بريس دافين Prisse d'Avennes» أحد المفكرين الذين صاحبوا حملة نابوليون بونابرت على مصر ومكثوا في البلاد بعد رحيل الحملة، وكان هذا الرجل مقربًا في بلاط محمد علي، فألّف كتابه هذا بعنوان «بعض الذكريات السرية الخاصة بالبلاط المصري Petits Memoires Secrets sur la Cour d'Egypte»، وقد وجد هذا الكتاب العجيب بين كتب مكتبة الأمير السابق عمر طوسون التي وهبها لمكتبة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، ويقال إن عمر طوسون كان يبغي حرقه قبل وفاته ولكن يظهر أنه لم يفطن لذلك قبيل موته فتسرب الكتاب إلى مكتبة المتحف حيث اطلعت عليه وترجمت فصوله المتعلقة بمحمد علي وإبراهيم وعباس الأول وسعيد وإسماعيل، وقد عاصر «بريس دافين» كل هؤلاء في قصورهم قبل رحيله إلى فرنسا.

وقد دوّن في كتابه عن إبراهيم باشا ما يأتي: «وكان من عنفه أن عثمان بك أحد المحظوظين لديه جاء يقبل يده فأمر بأن يقضي ليلته في «جهاد أباد»، وبعد أن استهزأ بلحية عثمان بك الطويلة لم يتورع عن أن يغمس وجهه في سلطانية بها ماء مسكر في درجة الغليان، ثم أخذ يقهقه بملء شدقيه.

والشذوذ الجنسي منتشر في مصر بين الأتراك الذين يأتونه علانية، وقبل حرب المورة عندما كان إبراهيم باشا محافظًا للصعيد كتب إلى القاهرة لإرسال حريمه، ولكن محمد علي أرسل إليه مماليك مردًا قائلاً: «إن رجل الحرب ليس له أن يخالط حريمًا غير هؤلاء !!!».

«وقال إبراهيم عندما زار فرنسا إنه لا يدهش من أن الفرنسيين لا يعتنقون دينًا من الأديان فهم يملكون الجنة، إذ لديهم منازل جميلة وحدائق غناء ونساء شهيات وأنبذة لذيذة».

وذات يوم بعد أن زار إبراهيم حصون الإسكندرية صحبة جاليس بك (انظر هذه المادة) دخل السراي (أي قصر رأس التين) عند الظهيرة وهو يتصبب عرقًا وأطل من النافذة في التيار الهوائي وأخذ يشرب الشمبانيا المثلجة فأصيب بالتهاب في الرئة لم يشف منه عندما سافر إلى الآستانة، وتفاقم أمر هذا الداء فلازم الفراش بالقاهرة ومات بالقلعة ممدوحًا من أهله وفي ذراعي راعيه المسيو «م. بلفور M. Belfort» في اليوم العاشر من شهر نوفمبر عام ١٨٤٨م (وليس في ١٩ من نوفمبر كما جاء في كثير من المراجع) الموافق ١٤ من ذي الحجة ١٢٦٤هـ)، دون أن يفكر في عبرة الموت، فكان تفكيره وهو يحتضر في بيع أقطانه بأسعار مرتفعة جدًّا، وقال محمد

علي إنه كان دائمًا يعتقد بأن ابنه إبراهيم سيحل بالقبر قبله وأن حفيده عباس سيصعد إلى عرش مصر بعده هو، وتدل هذه الذكريات الكئيبة على السلوك المعوج الذي كان عليه إبراهيم باشا.

هذا هو النص الذي نقلته حرفيًا عن كتاب «أسرار البلاط المصري» في عهد محمد علي وبعض ذريته، وليس من السهل على المؤرخ أن يستبعد كل ما جاء بهذا الكتاب خاصًا بإبراهيم باشا أو يصدقه ويأخذ به كقضية مسلمة؛ ولذا أترك الحكم عليه للقارئ وللتاريخ في المستقبل.

وأقامت وزارة الأوقاف بميدان سعد زغلول بالقرب من منطقة الأزاريطة مسجدًا فخمًا وأطلقت عليه اسم «القائد إبراهيم» تخليدًا لذكرى إبراهيم الأول، وعلمت من المهندس مصطفى فهمي الذي وضع تصميمات هذا المسجد أن نفقات تشييده ارتفعت إلى ثمانين ألفًا من الجنيهات، وقد بدأ في تشييد هذا المسجد خلال عام ١٩٤٧ وافتتح للصلاة خلال عام ١٩٥٠، وقد استغرق بناؤه حوالي أربعة أعوام وذلك في وقت كانت وزارة المعارف تستأجر بعض المنازل الكبيرة لتجعلها مدارس يحشر فيها التلاميذ حشرًا عوضًا عن القيام ببناء دور التعليم لاستقبال هؤلاء التلاميذ الذين كان معظمهم يجدون العناء والمشقة في الحصول على مكان بالمدارس الابتدائية والثانوية، فدفعني هذا التناقض الدال على سوء تصرف عهد الملكية البائد إلى نظم الأبيات الآتية في ١٣ فبراير عام ١٩٤٩ ونشرت بجريدة البصير في ٢٧ مايو عام ١٩٥٠:

أَتَبْنُونَ المَسَاجِدَ شَامِخَاتٍ
وَدُورُ العِلْمِ تُؤخَذُ بِالإِجَارَهْ

وَطُلاَّبُ المَدَارِسِ كُلَّ عَامٍ
يُلاقُون العَنَاءَ مِنَ الوِزَارَهْ

أَقِيمُوا الدُّورَ إنَّ الدِّين سَمْحٌ
أَجَازَ صَلاَتَكُم فِي رُكْنِ حَارَهْ

وَبَيْتُ العِلْمِ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ
مِنَ الإِسْرَافِ في فَنِّ العِمَارَهْ

رَسُولُ اللهِ صَلَّى تَحْتَ سَقْفٍ
أُقِيمَ عَلَى قَلِيلٍ مِن حِجَارَهْ

وَآيَاتُ الحَنِيفَةِ بَيِّنَاتٌ
تَرَى فِي كُلِّ إِسْرَافٍ خَسَارَهْ

ومن المتناقضات في حياة إبراهيم الأول – هذا القائد الذائع الصيت – أنه أمر بإغلاق المدارس الحربية في مصر عندما تولى العرش عقب فقد والده محمد علي لقواه العقلية، فقد أنشأ محمد علي أول مدرسة حربية بالجيزة عام ١٨١١ (١٢٢٦هـ) وكان مدرسوها خليطًا من الفرنسيين والإيطاليين وغيرهم من الأجانب، ثم نقلت هذه المدرسة العسكرية إلى أسوان وكان أكبر مدرسيها من الضباط الكولونيل «سيف» الفرنسي الذي اعتنق الإسلام فيما بعد وأطلق عليه اسم سليمان باشا الفرنساوي، ثم رأى هذا الضابط بعد ترقيته إلى رتبة اللواء إيجاد التخصص في النظام العسكري المصري فأنشئت مدارس للفرسان (السواري) والبيادة (المشاة) والطوبجية (المدفعية)؛ وذلك ليقوم طلاب البعثات التي أرسلها محمد

علي إلى فرنسا؛ حيث أنشأ مدرسة حربية للطلاب المصريين في باريس وجعل رياستها لوزير الحربية الفرنسي؛ ليقوم هؤلاء الطلاب بعد عودتهم بالتدريس في هذه المدارس المتخصصة.

وبمجرد أن تولى إبراهيم الحكم أمر بإغلاق هذه المدارس واكتفى بإرسال البعثات الحربية إلى مدرسة باريس المصرية.

ولما جلس الخديوي إسماعيل على العرش أنشأ سبع مدارس حربية لاهتمامه بالجيش في أول عهده، ولكن هذه المدارس السبع أغلقت بسبب الإفلاس الذي لحق بمالية مصر من جراء إسراف هذا الخديوي ونزقه.

وفي عام ١٩٤٧م بُدِئ في تشييد المسجد الفخم الذي أطلق عليه اسم «مسجد القائد إبراهيم»، واستغرق بناؤه حوالي أربعة أعوام إذ افتتح للصلاة خلال عام ١٩٥٠م.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «عثمان أباظة».

٨- إبراهيم باشا نجيب - شارع - بقسم كرموز

تولى منصب محافظ الإسكندرية في المدة من ٢ أكتوبر عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ) إلى آخر أكتوبر عام ١٨٩٤م (١٣١١هـ)، ورقي بعد ذلك إلى منصب وكيل وزارة الداخلية، وهو والد حرم المرحوم عبد الفتاح يحيى باشا، الذي تولى رياسة الوزارة المصرية في عهد الملك السابق فؤاد، وذلك في أوائل عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ).

وإبراهيم نجيب هو ابن الدكتور إبراهيم بك نجيب، وكانت ولادته خلال عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م)، وتلقى علومه الأولية في مدرسة الفرير الفرنسية ثم انتقل منها إلى مدرسة الإدارة، وبعد أن نال شهادتها سافر إلى فرنسا لتلقي علوم القانون، وعاد إلى مصر فتولى عدة مناصب قضائية وإدارية، منها محافظ الإسكندرية، فمحافظ القاهرة، فوكيلاً للداخلية، ثم تركها عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) ليحل محله مصطفى باشا ماهر.

ولا يُعرف تاريخ وفاته.

٩- ابراهيم بك الألفي - شارع - بقسم الرمل

كان إبراهيم بك الألفي محافظًا للإسكندرية في عهد عباس الأول والي مصر وقد أصدر عباس أمره إليه في ٢٤ من رمضان عام ١٢٦٩هـ (أول يوليو عام ١٨٥٣م) بتعيين ربابنة وحدات الأسطول المصري الاثنتي عشرة التي سافرت من الإسكندرية بقيادة الفريق حسن باشا الإسكندراني، وهي السفن: «مفتاح جهاد» وكانت تنشر علم القائد، و«جهاد أباد»، و«الفيوم»، و«رشيد»، و«شير جهاد»، و«دمياط»، و«البحيرة» قيادة محمد بك شنن، و«النيل»، و«جناح بحري»، و«جهاد بيكر»، و«وابورين» هما بروائه بحري وجوبليت صاعقة.

وأصدر إليه عباس إرادة سامية بفرش قمرات مفتاح جهاد التي سينقلها حسن باشا الإسكندراني على حساب الحكومة، ومن جهة أخرى عيّنه عباس في ٢٧ من رمضان عام ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م) لإدارة شؤون دائرة حسن باشا الإسكندراني وأبعاديته لحين عودته من الحملة ضد روسيا في حرب القرم.

١٠- إبراهيم بك رمضان - شارع - بقسم محرم بك

ولد إبراهيم رمضان ببلدة الشبانات بمديرية (محافظة) الشرقية، وأرسله محمد علي في بعثة تعليمية إلى فرنسا لتعلم الهندسة والرياضيات، فبدأ دراسته في يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) وكان راتبه الشهري طوال مدة البعثة مائة قرش، وقد سافر إلى لندن خلال العطلة المدرسية وشاهد فيها بعض الأعمال الهندسية، ثم عاد إلى فرنسا، حيث أتم تعليمه، وعاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) أي أن بعثته استغرقت ست سنوات، وقد عين معيدًا لدروس محمد مظهر بمدرسة الطوبجية، ثم عين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة، وتخرج على يديه كثير من الطلاب، وقد اشترك في شق قناة السويس بين المهندسين، وألّف كتبًا مفيدة في العلوم الهندسية ونال رتبة البكوية.

وكانت وفاته عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ).

١١- إبراهيم بك سيد أحمد - شارع - بقسم محرم بك

هو إبراهيم سلامة سيد أحمد، ولد بمدينة الجيزة عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) وتعلم الكتابة والقراءة بكتَّاب مسقط رأسه، ثم نال قسطًا من التعليم الديني فحفظ بعض سور من القرآن الكريم، ووفد على الإسكندرية في شبابه، وتاجر في الدقيق، ثم أنشأ مطحنًا بالقرب من قسم اللبان فاتسع نطاق تجارته إلى حد بعيد، وكان أحد مؤسسي جمعية المواساة الإسلامية، وأول رئيس لها عقب تأسيسها، وأنشأ بجانب منزله الكبير في طرف الشارع الذي أطلق عليه اسمه مدرسة أولية كان ينفق على متطلباتها من ماله الخاص، وبقيت هذه المدرسة تؤدي رسالتها الاجتماعية حتى وفاته، وأسهم بنصيب مرموق في الحركة الوطنية منذ بداية قيامها عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) وعين رئيس لجنة الوفد المصري بالإسكندرية، وكان ينفق من أجل ذلك مالاً كثيرًا، وقد رأيته يتصدر المظاهرات ضد الإنجليز على الرغم من كبر سنه في ذلك الحين، وعين بعد ذلك عضوًا بمجلس الشيوخ، وتوفي في ١٩ من سبتمبر عام ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ) بالغًا من العمر ٨٢ سنة.

وكان إبراهيم سيد أحمد من محبي الخير والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين، وأسهم بمدرسته المجانية في تعليم الكثير من أطفال حي محرم بك التعليم الأولي.

١٢- إبراهيم بك صبري - شارع - بقسم الرمل

تعلم إبراهيم صبري بالمدارس المصرية ودخل مدرسة الطب بقصر العيني، ثم اختير - وهو برتبة الأسبيران (أي تلميذ ضابط) Aspirant - للسفر في بعثة علمية إلى مونخ بإحدى إمارات النمسا في ذلك الحين لتعلم الطب، ولما أتم علومه بعد أن نقل هو وأفراد بعثته الآخرين إلى فرنسا، عاد إلى مصر وعُيِّن مدرسًا بمدرسة الطب في أول أكتوبر عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، ثم رقِّي إلى وظيفة طبيب بالجيش، وواصل الترقي في السلم العسكري إلى أن صار كبير أطباء بالآليات (الفرق)، ونُقل بعد ذلك إلى كبير أطباء الشرطة، ثم عاد مدرسًا بمدرسة الطب لتدريس وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، وقد تخرج على يديه عدد كبير من الأطباء، كان موضع احترامهم وتجلّتهم، وكانت له منزلة كبيرة عند

رجال الحكومة وعند الأهالي جميعًا، وأُحيل على التقاعد عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) وأخذ يعمل في تأليف الكتب، ولكن لم يطبع من مؤلفاته شيء حتى الآن، وأدركته المنية عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ).

١٣- إبراهيم بك النبراوي - شارع - بقسم محرم بك

ولد إبراهيم النبراوي ببلدة نبروه بمديرية الغربية (محافظة الغربية حاليًّا) وتعلم مبادئ القراءة والكتابة بأحد كتاتيبها، ثم رحل إلى الأزهر وانتخب فيمن وقع عليهم الاختيار لدراسة علم الطب والجراحة، فدخل مدرسة أبي زعبل التي أنشأها محمد علي عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) لتسع ١٢٠٠ مريض، وأول ناظر لها كان كلوت بك، وبعد أن أتم إبراهيم تعليمه بهذه المدرسة وتخرج منها برتبة ملازم اختير هو وآخرون للسفر في بعثة إلى فرنسا لمواصلة دراسته العالية، وبدأ دراسته في نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٣٥٠٠ مليم، وعاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ)، فعُيِّن بمدرسة الطب بقصر العيني برتبة يوزباشي (نقيب)، ثم رُقِّي بعد قليل إلى رتبة الصاغ (الرائد)، وقد اختاره محمد علي طبيبًا خاصًّا له، ومنحه رتبة أميرألاي (عميد)، وأطلق عليه لقب رئيس الأطباء، ثم اختاره عباس الأول طبيبًا خاصًّا له ونال رتبة المتمايز.

وقد ترجم وهو بفرنسا مؤلفات لكلوت بك منها «نبذة في الفلسفة الطبيعية»، و«نبذة في أصول الطبيعة والتشريح العام»، وطبعت الترجمتان عام ١٨٣٧م (١٢٥٣هـ)، وقال علي باشا مبارك عنه في كتابه «الخطط الجديدة»: «إنه أنجب من اشتهروا في التجريح، إذ كان ذا إقدام على ما يُقدم عليه غيره»، وقد جمع من مهنة الطب مالاً كبيرًا واقتنى كثيرًا من العقارات والجواري والمماليك، وتزوج أثناء بعثته بفرنسا من فتاة فرنسية، وعقب موتها تزوج من بدوية، وأهدته والدة عباس الأول جارية من جواريها.

وكانت وفاته خلال عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ).

١٤- ابراهيم حسن - شارع - بقسم العطارين (استير سابقًا)

١٥- إبراهيم حسن - شارع - بقسم محرم بك

ولد إبراهيم حسن بالقاهرة عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وتعلم بمدارسها الأميرية، ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العيني عام ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ)، واختير للسفر إلى مونخ بمقاطعة بافاريا التي كانت في ذلك الحين إمارة تابعة للإمبراطورية النمساوية، فسافر إليها في إبريل عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) لإتقان علومه الطبية، وكان برتبة «الأسبيران» أي تلميذ ضابط، ومرتبه ٧٠ قرشًا في الشهر، وبعد أن ظلّ يتعلم بمونخ نقل إلى فرنسا في أغسطس عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) مع باقي أفراد بعثته، فأتم تعليمه بباريس، وعاد إلى مصر في نهاية عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، ثم أرسل إلى ألمانيا لدراسة الطب الشرعي، فنال شهادته في هذا العلم، ورجع إلى الوطن، فعُيِّن عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) مدرسًا للطب الشرعي بمدرسة الطب بقصر العيني، ثم طبيبًا للأمراض الباطنية بالمستشفى الأميري، وبعد أن كان طبيبًا للأسرة الخديوية في عهد إسماعيل وترقى إلى رتبة المتمايز عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، عُيِّن خلال عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) مفتشًا عامًّا لمصلحة

الصحة، وأُنعِم عليه برتبة الباشاوية في عهد الخديوي توفيق، وفي عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) ناب عن الحكومة المصرية في المؤتمر الصحي بلندن، ثم عُيِّن ناظرًا لمدرسة الطب، وظلّ يشغل هذا المنصب من عام ١٨٩١ إلى ١٨٩٨م (١٣٠٩ - ١٣١٦هـ)، وكان من أعضاء البعثة التي أرسلت إلى الهند لبحث أسباب انتشار وباء الطاعون هناك، وتزوج من سيدة ألمانية، ومن بين أولاده الدكتور النابغة علي بك رامز (انظر هذه المادة) وكان من كبار الجراحين.

وكان إبراهيم حسن باشا سامي الأخلاق، عالمًا فاضلاً، وترك كتابًا في الطب الشرعي بعنوان «روضة الآسي في الطب السياسي»، طبع عام ١٨٧٦هـ (١٢٩٣م)، وكتابًا آخر في الأمراض الباطنية بعنوان «جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية» طبع ببولاق عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) في مجلدين.

وتوفي بأوروبا عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ) عن ٧٢ عامًا.

١٦- إبراهيم الحنش - زقاق - بقسم الجمرك

هو جد أسرة معروفة من الأسر الإسكندرانية القديمة التي اتخذت مقرها بحيّ الجمرك بجهة أبي وردة في أواخر القرن التاسع عشر، ومازال بعض أفرادها يقيم بشارع مدورة، وتوفي حفيد إبراهيم الحنش المرحوم حسن الحنش في مستهل عام ١٩٦٦م (١٣٨٦هـ)، وكان يزاول تجارة الأقمشة.

ولن يغيب لقب «الحنش» عن مخيلتي الواعية، فقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة بكتَّاب الشيخ الحنش بحارة الإزراري التي تؤدي إلى شارع الشمرلي، وحفظت بين جدرانه جزأيْ «عم وتبارك» من القرآن الكريم، ولن أنسى جريدة الشيخ الحنش - سامحه الله - وهي تهوي على عمامتي الصغيرة كلما كان هضم الطعام في مرحلته الأولى يسلم جفنيَّ للنعاس بعد الظهر فأنقطع عن الصياح مرتلاً قصار السور مع أولاد الكُتَّاب الآخرين، فأفيق من غفوتي مذعورًا وأواصل الصياح بأعلى ما في حنجرتي الصغيرة من قوة الصوت وأصلح شاش عمامتي وزرها المبعثر، وهي العمامة العزيزة على نفس والدي الذي كان يود أن يراني شيخًا وقورًا من علماء الأزهر الشريف، وليت أمنيته تحققت.

وكلما مررت بحيّ أبي وردة الذي رأيت نور الحياة في كنفه وزرت مكان كتَّاب الشيخ الحنش الذي تحول دكانه الرحب إلى طبقة أرضية للسكن تذكرت نصف الناجود (البرميل) الذي كان يوضع بجانب الباب مليئًا بالماء الملوث بفضلات «مادة الطَّفْلِ الصفراء» التي كنا نزيلها في مائه لنطلي ألواحنا الخشبية المدرجة أعاليها بطبقة جديدة من «مادة الطَّفْل» ونسندها إلى جدار المنازل المجاورة لتجف في الشمس وتستقبل درسًا جديدًا من آيات القرآن الكريم.

فلله أيام الطفولة وذكرياتها العزيزة على النفس.

١٧- إبراهيم رأفت - شارع - بقسم الرمل

كان إبراهيم رأفت بك من كبار رجال التعليم في عهد محمد علي ثم صار وكيلاً لديوان المدارس في عهدي إبراهيم الأول وعباس الأول، وكان له منزلة عظيمة في علم الآثار وبالتحف الأثرية القديمة التي خلفها، وقد انتفع بعلمه الغزير عدد كبير من الطلاب المصريين، وقد لقي حتفه في حادثة غرق الأمير أحمد في النيل بجهة كفر الزيات في ١٤ من مايو عام ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ).

وقد أخذ سعيد الأول ذريته تحت رعايته، فجعل لهم مرتبات وأرسل ولديه: إبراهيم رأفت وعثمان رأفت في بعثة إلى فرنسا، وكان إبراهيم رأفت هناك يتعلم على نفقة والده إبراهيم رأفت الكبير، فأتم علومه على نفقة الحكومة بمدرسة الحرب الفرنسية الشهيرة «سان سير» وظل بها حتى تخرج ضابطًا من ضباط أركان الحرب، وفي عهد الخديوي إسماعيل عُيِّن إبراهيم رأفت الابن في أركان حرب الجيش المصري تحت قيادة الجنرال الأمريكي «إستون» الذي استقدمه إسماعيل لتنظيم الجيش، وفي عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) منح إبراهيم رأفت الابن رتبة البكوية، واشترك بعد ذلك مع الجنرال «إستون» في إعداد خريطة حربية تم عملها على أحسن وجه، وغضب إسماعيل على إبراهيم بك فأرسله إلى السودان لمعاقبته، فبقي هناك إلى أن تولى توفيق الحكم، فأُعيد إلى أركان حرب الجيش برتبة الأميرألاي (العميد)، ومرض بعد ذلك بسبب إقامته الطويلة بالسودان وإصابته هناك بحمى الملاريا، وتوفي عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) في أثناء الثورة العرابية الوطنية، وقيام الحرب بين مصر والإنجليز إثر خيانة الخديوي توفيق باستدعاء هؤلاء الغاصبين لنجدته.

وإبراهيم بك رأفت الابن هو والد المرحوم محمد رأفت (انظر هذه المادة) مدير الأقسام الصحية ببلدية الإسكندرية الأسبق، وشقيق إسماعيل باشا رأفت والفريق إبراهيم باشا رأفت، وكانا من كبار ضباط الجيش المصري.

١٨- إبراهيم سامي باشا - شارع - بقسم محرم بك

تعلم إبراهيم سامي في مكاتب القاهرة، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة ببولاق، وبعد أن أتم دراسته اختير للسفر إلى إنجلترا بين طلاب البعثة السادسة التي أرسلت إلى أوروبا في عهد محمد علي، وكان سفره في شهر يوليو عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) برتبة الملازم الثاني، وذلك للتخصص في علم الآلية (الميكانيكا)، وكان مرتبه طوال مدة البعثة ٢٥٠ قرشًا في الشهر، وظل بإنجلترا إلى أن أتم دراسته العالية، وعاد إلى مصر في تاريخ غير معروف، ثم عُيِّنَ معاونًا بديوان عموم السكة الحديدية، وخرج منه وتقلَّد عدة مناصب حكومية، ثم صار عضوًا بمجلس إدارة السكة الحديدية، ونال رتبة الباشوية.

ولا يُعرَف تاريخ ومكان وفاته.

١٩- إبراهيم شاهين - شارع - بقسم محرم بك

تعلم إبراهيم شاهين بالمدارس المصرية ثم وقع عليه الاختيار ليكون أحد طلبة البعثة الرابعة التي أرسلت إلى إيطاليا في عهد عباس الأول لتلقي علوم الطب بجامعة «بيزا» الكائنة في الشمال الغربي من إيطاليا بمقاطعة تسكانيا، فسافر إليها في ٣١ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٥٠ قرشًا فقط، إذ كان برتبة (الأسبيران) أي تلميذ ضابط، فكان يتقاضى هذه القروش الضئيلة بالإنابة عنه في مصر سليم أفندي حنفي الصيدلي بمدرسة الطب البشري للصرف على أولاده، وظل إبراهيم شاهين يواصل دراسة

الطب وعاد إلى الوطن خلال عام ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ)، فتكون بعثته العلمية قد استغرقت ٧ سنوات، وعقب رجوعه عُيِّن بمستشفى مدرسة الطب بقصر العيني، اعتبارًا من ٢٨ من شهر صفر عام ١٢٧٤هـ (١٨ من أكتوبر عام ١٨٥٧م).

ولا يعلم تاريخ ومكان وفاته أو الوظائف التي تقلدها طوال حياته العملية.

٢٠- ابراهيم العطار - شارع - بقسم الرمل (محطة صفر سابقًا)

كان أول من أنشأ صناعة الآجرّ (الطوب) بالإسكندرية، فأسهم بمصانعه في تشييد الكثير من مباني المدينة الهامة، وزاول هذه الصناعة قرابة ٥٠ عامًا بالإسكندرية وبمديرية البحيرة؛ حيث أسهم في إنشاء الكثير من الأبنية العامة والخاصة، وليس للقب العطار الذي يحمله صاحب الشارع إبراهيم محمد العطار أية صلة بتجارة العطارة، وإنما دُعيَت الأسرة بهذا اللقب منذ زمن بعيد، وقد ولد إبراهيم محمد العطار ببلدة المحمودية من أعمال محافظة البحيرة عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ)، وتعلم في أحد مكاتبها الكتابة والقراءة، ثم استقر بالإسكندرية وظهرت عصاميته في تشييد مصانع طوب العطار بالإسكندرية والبحيرة على النمط الآلي الحديث، وكانت هذه المصانع الأولى من نوعها بهاتين الجهتين، وكان لا يبخل بالمساعدة المادية على بعض الجمعيات الخيرية، ويمد بمساعدته المستمرة جمعية تحفيظ القرآن الكريم بالإسكندرية ومركز المحمودية، ولقد عكف على تنشئة أولاده تنشئة صالحة، فجعل منهم مواطنين صالحين يفيد الوطن من جهودهم وخبراتهم، فهو والد العميد أحمد إبراهيم العطار الضابط بالقوات المسلحة ومدير المؤسسة الاقتصادية لهذه القوات بالإسكندرية سابقًا، والأستاذ محمود إبراهيم العطار مستشار الدولة ورئيس إدارة الفتوى والتشريع للمصالح العامة بالإسكندرية والسيد عبد المنعم إبراهيم العطار المقاول، والعقيد مهندس فؤاد إبراهيم العطار بالقوات البحرية، والمقدم طبيب إبراهيم إبراهيم العطار بالقوات البحرية.

وتوفي إبراهيم العطار بالإسكندرية بزيزنيا بالرمل، في ٢٦ يناير عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ) عن ٦٩ عامًا.

أما ترجمة الاسم القديم للشارع، فاطلبها في «محطة صفر».

٢١- إبراهيم الموصلي - شارع - بقسم المنشية

هو إبراهيم بن ماهان بن بهمان ويعرف أيضًا بالنديم الموصلي، من أشهر موسيقيي العرب، وهو من أصل فارسي، ولد بالكوفة عام ١٢٥هـ (٧٤٢م) ودرس الموسيقى على أساتذة من الفرس، وأظهر براعة فائقة في الغناء والتوقيع على العود، وكان له مقام رفيع في البلاط العباسي أيام المهدي والهادي وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد.

ويروي القصاصون روايات عجيبة بالنسبة إلى مهارته في العزف والغناء، ومنها روايات أسطورية تقول إنه صعد ذات يوم في زنبيل إلى بيت يضم فئة غير قليلة من القيان اللاتي يُتقنَّ الموسيقى والغناء، وقضى بينهن أمسية فنية رائعة، ومن هذه الأساطير أن إبليس زاره ذات ليلة وعلمه لحنًا عجيبًا بهر سامعيه بعد أن أتقنه ووقعه على عوده، وهاتان الأسطورتان وغيرهما من الأساطير الخيالية يذكرها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الشهير «الأغاني».

ولقد كان إبراهيم الموصلي الموسيقار الأول في بغداد والفنان المنفرد في زمانه، وكان الناس قبله يعلمون جواريهم الغناء على قدر لياقتهن واستعدادهن، وكان هذا التعليم مقصورًا على الجواري السود والأحباش وأشباههن، فرفع إبراهيم مكانة هذا الفن بتعليم الحسناوات من الغواني البيض مع استكمال ثقافتهن في جميع النواحي التي تتطلبها مجالس (المنادمة) من أدب ورواية وقصص وتندر فاجتمع لهن الجمال من كافة أطرافه وذلك من حسن منظر وعذب شدو وحلو حديث، ومن ثم أعلى إبراهيم من شأن القيان بقدر ما أعلى من مكانة الموسيقى والغناء، وكانت هذه التجارة تدرّ عليه المال الوفير والثراء المغدق، فكان يشتري الجارية ببضع مئات من الدنانير ويبيعها بعشرات الألوف بعد أن يُتِمّ ثقافتها الفنية والأدبية؛ ولذلك قُدِّرت ثروته التي جمعها بالملايين من الدراهم، فقال ابن إسحاق إنها بلغت ٢٤ مليونًا حصل عليها من بيع القيان ومن هبات الخلفاء والأمراء والوزراء، فكان يعلّم الجواري كتابة الأشعار الرقيقة وتطريز الملابس والعزف على الآلات الموسيقية في إطار كامل من الإبداع، وكان إلى جانب ذلك يتعهد جواري الأثرياء بالتثقيف ثم يعيدهن إلى أصحابهن ويتقاضى عن ذلك أجورًا مربحة، وكان إبراهيم عليمًا بجميع أنواع الغناء وألوانه، لا يسأله الخلفاء أو غيرهم شيئًا منه إلا وجدوه عنده حاضرًا، وكان ملحنًا نابغًا يبتكر الرائع منها ويبدع فيها بما لم يسبقه إليه غيره.

ولقد أدى ذلك النبوغ في استغلال القيان كوسيلة لإشباع رغبة الخلفاء والأمراء والوزراء من النغم والرقص ورواية الشعر والقصص، أدى كل ذلك إلى أن صارت هذه الجواري الحسناوات يسيطرن على رجال الدولة ويوجهن سياستهم في كثير من الأحيان، وكان ذلك من العوامل التي ترتب عليها – في نهاية الأمر – ضعف الدولة العباسية وتغلغل النزعة الفارسية في كيانها منذ عهد الرشيد، واستمر هذا التغلغل ونما في عهد المأمون ومن جاء بعده من الخلفاء، وترتبت عليه كارثة تفكك الدولة العباسية وتغلب العناصر الدخيلة الغريبة على أهل العروبة من مغول وترك، فانفصلت أقطار المغرب العربي والأندلس عن الخلافة وقامت دولة الفاطميين وتلاها حكم الأتراك والمماليك وحكم الدويلات في المغرب وانتهى الأمر بالخلفاء العباسيين أن يكونوا صوريين في بلاط هؤلاء الحكام الأجانب يفعلون ما يؤمرون به.

ولقد استهوت تجارة القيان – بعد تعليمهن الغناء وتثقيفهن بألوان شتى من الثقافة – الكثير من التجار غير إبراهيم الموصلي، فأخذ نوابغ المغنين يلقنون جواريهم ألحانهم وأصواتهم، وطريقة غنائهم، وكانت عناية الرجال في ذلك العصر العباسي الذهبي بتعليم الجواري أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ابتغاء الكسب الغزير، فكانت الجارية إذا قُوِّمت بمائتي دينار وهي غير متعلمة تقوّم إذا أجادت الغناء والأدب بأضعاف هذا المبلغ، أما الحرائر فكانت العناية بتعليمهن مقصورة على طبقة الأشراف ومن في حكمهم، وكان هناك نوعان من الجواري المغنيات: النوع الأول يتعلق بالمغنيات للخاصة، والنوع الثاني يختص بالقيان اللائي يغنين في المحال العامة، وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهن من الحرائر، ويقول أبو حيّان التوحيدي (انظر مادة أبي حيّان) في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: «إن عدد الجواري اللاتي يحترفن الغناء في جانبي بغداد بلغ حسب إحصائه أربعمائة وستين جارية»،

وكان الناس يترددون على المحال العامة لسماع المغنيات، ولم يتحرج من ذلك العلماء والأدباء والقضاة والأعيان، وكانت الجواري يغنين من وراء ستار، وإذا أقيم حفل خاص وأراد صاحبه إكرام ضيوفه جعل المغنيات يغنين دون إسدال ستار، ويقال: «إن أبا الحسن علي بن الفرات (انظر مادة ابن الفرات) وزير الخليفة المقتدر العباسي دعا جماعة من كتّابه وأصحابه إلى حفل ضمّ طائفة من المغنيات جلسن بين يديه والستائر من ورائهن، ومن جهة أخرى كان الأغنياء يعدّون في بيوتهم أماكن واسعة تصف فيها الأرائك فيجلسون عليها ليلاً لسماع الغناء، وقد نشر الجواري لونًا من الثقافة الفنية، كما كان للمثقفات منهن أثر عميق في نشر بعض ضروب الطرافة بين الناس في بغداد، فصار للظرفاء نمط خاص في الزي والطعام والشراب وما إلى ذلك.

ويدل هذا الوصف على أن مجالس القيان كانت امتدادًا لأدب (الصالونات) الذي كانت السيدة سكينة بنت الحسن، والسيدة عائشة بنت طلحة أول من أسهمن من النساء المسلمات في رفع مستواه، وترتب على ذلك رفع مستوى اللغة العربية في العهد الأموي إذ ما كان للشعراء ولاسيما شعراء المجون أمثال عمر بن أبي ربيعة والعرجي، أن يقولا شيئًا من نظمهما في حضرة هاتين السيدتين إلا إذا كان من الشعر العفّ الهادف الذي لا يخدش الكيان الاجتماعي في أي ناحية من نواحيه.

وقد يكون من الملائم في هذا الصدد أن يعرف القارئ أن أدب (الصالونات) الأموي كان المهد الأول لأدب (الصالونات) الفرنسي في عهد لويس الرابع عشر، وقد انتقل هذا اللون من الأدب الراقي النقي من العرب إلى أوروبا عن طريق الأندلس، وكانت الدعامة الأولى في أدب الصالون الفرنسي سيدة راقية الثقافة تدعى «مدام دى رامبوييه Madame de Rambouillet».

وتوفي إبراهيم الموصلي ببغداد عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) بالغًا من العمر ٨٦ عامًا، وقد مات أبوه (ماهان) الفارسي الأصل وهو صغير فكفله بنو تميم وربوه ونشأ فيهم فنسب إليهم، وكان أبوه (ماهان) من بيت كبير في بلاد العجم ثم انتقل إلى مدينة الكوفة وأقام بها وهناك ولد إبراهيم، وأول خليفة من خلفاء العباسيين سمع غناء إبراهيم الموصلي هو الخليفة المهدي ابن المنصور، فكان إذا غنى إبراهيم وصاحبه منصور المعروف بزلزل على العود اهتز مجلس الخليفة طربًا، وقد تزوج إبراهيم من أخت زلزل هذا، وأما لقب الموصلي الذي أطلق عليه فيرجع إلى أنه سافر إلى الموصل وأقام بها مدة فنسب إليها.

ومن أخبار مجالسه المشهورة أن هارون الرشيد كان يهوى جاريته (ماردة) هوى شديدًا فتغاضبا مرة ودام بينهما الغضب فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يقول شعرًا في هذا الخصام فقال:

رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الذِينَ هَجَرْتَهُم
إِنّ المُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا
دَبَّ السُّلُوُّ لَهُ فَعَزَّ المَطْلَبُ

وأمر إبراهيم الموصلي فغنى به الرشيد فلما سمعه بادر إلى (ماردة) فترضاها فسألت عن السبب في ذلك فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بمكافأة مالية جزيلة ثم أخذا من الخليفة هارون الرشيد مكافأة أخرى أكبر.

وكان هارون قد حبس إبراهيم الموصلي في المطبق فعلم أبو العتاهية بذلك فأنشد قائلاً لسلم الخاسر الذي أبلغه الخبر:

سلمُ يا سلمُ ليس دونك سرُّ
حُبِسَ الموصلي فالعيشُ مرُّ

ما استطابَ اللذاتِ مُذَ غَابَ في
المطبقِ رأسُ اللذاتِ في الناسِ حُرُّ

ترك الموصلي من خلقِ الله
جميعًا وعيشُهُمْ مُقشعِرُّ

حُبِسَ اللهوُ والسرورُ فما في
الأرضِ شيء يُلهَى به ويسرُّ

٢٢- إبراهيم ناجي- شارع - بقسم باب شرقي (مينو سابقًا)

هو الدكتور إبراهيم ناجي، شاعر مجدد امتاز شعره بالحساسية والرقة، وافته المنية فجأة في شهر مارس عام ١٩٥٣م (١٣٧٣هـ) وهو في أوج شاعريته ورقته وبهاء روحه، وكان يتصف - رحمه الله - بالسماحة والإخلاص في الود لكل من عرفه، وكان في رقة طبعه وصفاء نفسه كالعصفور المحلق ينشد الشعر ويضع كفه اليسرى على قلبه كأنه يقول لسامعيه إن هذا الشعر من وحي هذا المكان، وكان أبرز خصاله الحميدة إنسانيته في الشعر، ويعتبر ناجي الممثل الأول للمدرسة الرومانتيكية المصرية في الشعر كما كان «فيكتور هوجو» أبا الرومانتيكية في الشعر الفرنسي الحديث، فالمرأة في عقيدة الرومانتيكيين هي المنهل العذب للتجربة الشعرية الجزلة الرفيعة، ونراها عند ناجي تمثل ملاكًا علويًّا في إطار من النور، وما الشاعر بالنسبة إليها إلا فراشة تحرقها هذه القدرة الإلهية فيقول:

كُنْتِ في بُرْجٍ مِنَ النُّور عَلَى
قِمَّةٍ شَاهِقَةٍ تَغْزُو السَّحَابَا

وَأَنَا مِنْكِ فَراشٌ ذَائِبٌ
في لُجَيْنٍ مِنْ رَقِيقِ الضَّوْءِ ذَابَا

فَرِحٌ بِالنَّارِ وَالنُّورِ مَعًا
طَارَ لِلْقِمَّةِ مَحْمُومًا وَآبا

آبَ مِنْ رِحْلَتِهِ مُحْتَرِقًا
وَهْوَ لاَ يَأْلُوكِ حُبًّا وَعِتَابَا

وفي شعر ناجي نزعة أخرى تميزه، فهو شديد الحنين إلى عهد الطفولة فيقول متألمًا:

كُلُّ شَيْءٍ صَارَ مُرًّا فِي دَمِي
بَعَدَ مَا أَصْبَحْتُ بِالدُّنْيَا عَلِيمَا

آهِ مَنْ يَأْخُذُ عُمْرِي كُلَّهُ
وَيُعِيدُ الطِّفْلَ وَالجَهْلَ القَدِيمَا

وما من شك في أن فَقْد الشاعر إبراهيم ناجي كان خسارة فادحة للرومانتيكية المصرية، إذ فقدت بوفاته ينبوعًا صافيًا من ينابيع إلهامها، كما فقد الشعر العربي بموته أحد أعلامه

المبرزين، ولقد عاش كل زمنه يسخر من قلبه الكسير المفعم بالأحزان، ويقول لمن يناجيها في صمت كئيب:

انْظُرِي ضِحْكِي وَرَقْصِي فَرَحًا
وَأَنَا أَحْمِلُ قَلْبًا ذُبِحَا

وَيَرَانِي النَّاسُ رُوحًا طَاهِرًا
وَالجَوى يَطْحَنُنِي طَحْنَ الرَّحَى

ولقد صدر ديوانه «وراء الغمام» خلال عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ)، وفي المقدمة التي كتبها صديقه الأستاذ أحمد الصاوي محمد تحليل صادق لشاعرية إبراهيم ناجي فيقول: «إن ناجي شعور مرهف وحساسية دقيقة تنطبع فيها الخيالات والأشباح وينطبع فيها الحزن والفرح وينطبع فيها الحنين والأنين كالصور المجلوَّة المرئية رأي العين»، «وإذا درسنا شعره نجد أن الحب والشعر في نفسه قد امتزجا فصارا شيئًا واحدًا كالذرات التي كانت تبحث عن بعضها لتكون الوحدة الكاملة فاجتمعت دون أن ندري كيف، وكونت روح الشاعر»، وناجي وحي من الحنين والجمال الضنين فاسمعه يقول:

أَمْسي يعذبني ويُضْنِينِي
شَوْقٌ طَغَى طُغْيَانَ مَجْنُونِ

أَيْنَ الشِّفَاءُ وَلَم يَعُدْ بِيَدِي
إِلاَّ أَضَالِيلٌ تُدَاوِينِي

أَبْغِي الهُدُوءَ وَلاَ هُدُوءَ وَفِي
صَدْرِي عُبَابٌ غَيْرُ مَأْمُونِ

يَهْتَاجُ إِنْ لَجَّ الحَنِينُ بِهِ
وَيَئِنُّ فِيهِ أَنِينَ مَطْعُونِ

وَيَظَلُّ يَضْرِبُ فِي أَضَالِعِهِ
وَكَأَنَّهَا قُضْبَانُ مَسْجُونِ

والرمزية في شعر الدكتور إبراهيم ناجي تظهر في أكثر من قصيدة من روائع شعره ففي قصيدته بعنوان «العود» تتجلى هذه الرمزية في قوله:

مَوْطِنُ الحُسْنِ ثَوَى فِيهِ السَّأَمْ
وَسَرَتْ أَنْفَاسُهُ فِي جَوِّهِ

وَأَنَاخَ اللَّيْلُ فِيهِ وَجَثَمْ
وَجَرَتْ أَشْبَاحُهُ فِي بَهْوِهِ

وتتضح هذه الرمزية أيضًا في قصيدته بعنوان «زازا»، إذ يقول:

لاَ تَكِلْنِي لِذَلِكَ الأَبَدِ الأَسود
فِي قاعِ مُزبد اللُّجِ قاتِمْ

لاَ تَكِلْنِي لِهُوَّةٍ تَعْصِفُ الأَشْبَاحُ
فِي جَوْفِهَا وَتَعْوِي السَّمَائِمْ

لاَ تَكِلْنِي إِلَى جَنَاحِ عُقَابٍ
فِي ضُلُوعِي مُحَلّقِ الرُّعْبِ جَاثِمْ

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع، فاطلبها في «مينو».

٢٣ – الأبرش – شارع – بقسم سيدي جابر (هانئ علي كامل حاليًا)

والأبرش صفة لمن كان على جلده نقط بيضاء أو نقط يخالف لونها لون جلده الأصيل، وهذه الصفة من فعل (بَرِش) أو صار أبرشًا، والمكان الأبرش هو الكثير النباتات ذات الألوان المختلفة، ويقال سَنَة برشاء إذا كثر عشبها واخضر أديم الأرض خلال أشهرها.

وابن الأبرش هو جذيمة الوضَّاح، وهو ملك عربي أسطوري يقال إنه أقام مملكة جليلة على نهر الفرات الأدنى قبل ظهور اللخميين في هذه البقاع، وكان من مدن هذه المملكة الحيرة والأنبار وغيرهما، وتجمع روايات عرب الشمال على أن ابن الأبرش من الأزد وتروى عنه قصص مشهورة، وتنسب إليه أمثال عربية كثيرة، ولم يأذن جذيمة بتزويج أخته من عديّ اللخمي إلا وهو سكران، وقد أغرته الزباء بالقدوم إليها ثم قتلته.

٢٤– إبسالون – شارع – بقسم باب شرقي (محمد سالم عبد السلام حاليًا)

أما كلمة «إبسالون» فلعلها الترجمة الحرفية لكلمة «Absalon» وهو اسم ابن داود الذي ثار على أبيه، وبعد أن هزم في موقعة هرب، وفي أثناء فراره – كما تقول الرواية– علق شعر رأسه الطويل بفروع شجرة وبقي معلقًا إلى أن لحق به «جواب» الذي أصابه بثلاث طعنات من حربته على الرغم من أن داود لم يأمر بقتله.

وهناك «إبسالون Absalon» آخر هو مطران دانيماركي، ولد في أيسلاندا عام ١١٢٨م (٥٢٢هـ)، ومات عام ١٢٠١م (٥٩٨هـ)، وهو مؤسس مدينة كوبنهاجن، وكان له الفضل في توثيق الروابط بين الدولة والكنيسة، وأسهم في وضع القوانين التي أصدرها الملك فلادمير الأول، ولعل صاحب اسم الشارع كان أحد الأجانب الذين كانوا يسكنون بهذا الشارع.

٢٥– أبسطوليدس – شارع – بقسم الرمل

أبسطوليدس لقب أسرة يونانية كانت تقيم بالإسكندرية، وأحد أفرادها يدعى أبسطوليدس جورج، وكان يقيم بشارع الإسكندر الأكبر رقم ٢٠ بالأزاريطة، و أبسطوليدس جورج آخر كان يسكن بمحطة سابا باشا، ويقال إنه كان أحد أعضاء المجلس البلدي (القومسيون البلدي) وأحد الأعضاء الأربعة الذين كانوا يمثلون الجالية اليونانية بالإسكندرية في هذا القومسيون، يعاونهم أربعة من كل من الجاليات الأجنبية الكبيرة الأخرى وهي: الفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، وكان هؤلاء الأعضاء الأجانب ينجحون دائمًا في الانتخابات التي كان شرطها أن يكون المرشح من دافعي عوائد الـ ٢٪ عن إجارة سنوية قدرها ٧٢ جنيهًا في السنة، وهذا الشرط كان لا يتوفر في أغلبية الوطنيين، إذ إن معظمهم يسكن في منازل تقل إجارتها عن هذا القدر، وهكذا كان للأجانب في الإسكندرية الأغلبية الساحقة في المجلس البلدي، ومن ثم كان الإصلاح في المدينة يتناول الأحياء التي يسكنها هؤلاء الدخلاء، ويحرم منها أهل البلد الوطنيين، وقد زال هذا الفرق البغيض إلى غير رجعة.

٢٦- الأبعادية - شارع - بقسم محرم بك (الشهيد مصطفى زيَّان حاليًا)

الأبعادية في لغة العامة هي الضيعة الكبيرة من الأرض الزراعية، وظلت تطلق في العهد التركي على ضياع الأمراء وكبار الإقطاعيين، فيقال «أبعادية الأمير فلان»، وأبعادية «الباشا فلان»، وقد قضى الإصلاح الزراعي الذي صدر في عهد الثورة على هذه الإقطاعيات التي كانت تخنق حرية الفلاحين الذين يعيشون في كنفها ويستغلهم أصحابها أشنع استغلال كأنهم عبيد أرقاء.

وكلمة الأبعادية تعبير أدخله الترك، ولاسيما في عهد محمد علي على الأراضي التي استبعدت من مساحات «فك الزمام» عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م)، وكانت من الأراضي البور، وقد قدر «كلوت بك» مساحة هذه الأراضي بمائتي ألف فدان أقطعت جميعها لرجال الجهادية وكبار الموظفين وبعض كبار الأعيان في عهد محمد علي، وألزم هؤلاء وهؤلاء على الإقامة في الريف للسيطرة على الفلاحين ولزيادة الرقعة المنزرعة، أما أفراد أسرته ورجال حاشيته فأقطعهم مساحات شاسعة من الأراضي عرفت بالشفالك وأعفاها من الضرائب، وكان ذلك في آخر حكمه عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م).

٢٧- ابن أبي حاتم - حارة - بقسم مينا البصل (الأنجلو اجيبسيان سابقًا، والشيخ طه محمد حاليًّا)

من علماء الحديث الذين يوثق في رواياتهم، وقد كانت وفاته خلال عام ٣٢٧هـ (٩٣٨م)، ويقول الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى في الصوفية»: «إن ابن أبي حاتم كان زاهدًا، ورعًا، خاشعًا، لا يكاد يرفع طرفه إلى السماء من خشية الله»، وقد هُدِمَ جانب من سور طرطوس، وجاء أحد تلاميذه وأبلغه هذا الخبر فقال: «من منكم يعمّره وله قصر في الجنة»، فقام أحد الفارسيين وأتى بألف دينار وتولى إعادة السور لسيرته الأولى.

ولست ممن يؤمنون بقول الشعراني إن ابن أبي حاتم كتب للفارسي ورقة يضمن له فيها القصر في الجنة، فلما مات هذا الفارسي وقعت الورقة التي كتبها له ابن أبي حاتم في حجره وهو يلقي درسه، وقد كتب في ظهرها قد وفينا ما ضمنته له، وهكذا نال الفارسي قصر الجنة بضمان ابن أبي حاتم في عقيدة الشعراني التي تميل إلى أن يختص العلماء والمتصوفة بأوفر قسط من الكرامات التي تشبه المعجزات الخارقة التي أصبحت العقول لا تستسيغها ولا تقبلها جملة وتفصيلاً.

ولابن أبي حاتم كتاب «في المناقب» التي تعدد مناقب الصوفية والأئمة وقد ضمنه وصفًا مطولاً لمناقب الإمام الشافعي، وكان هذا الكتاب أحد المراجع التي اعتمد عليها بعض المؤرخين في تدوين سيرة الإمام الشافعي.

٢٨- ابن أبي سرح - شارع - بقسم مينا البصل

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، كان من صحابة رسول الله، ومن زعماء الأمويين في صدر الإسلام، وقد اشترك في فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص، وتولى حكم الصعيد وإدارة بيت المال، وفي خلافة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وتولى حكم مصر ابن أبي سرح العامري.

ويعد هذا القائد العظيم أمير البحر الثاني للأسطول العربي الناشئ الذي استطاع بوحداته أن يعزز قوات الجيش الذي كان طليعة الفتوحات العربية، وقد ساعد ابن أبي سرح العامري معاوية بن أبي سفيان في حملته على قبرص، وفتح بعد ذلك إفريقية (تونس) وانتصر على الأسطول البوزنطي في وقعة ذات السواري عام ٣٤هـ (٦٥٤م)، وكان أكبر مساهم في تشييد الأسطول العربي في الإسكندرية.

ولقد أمره الخليفة عثمان بن عفان بالزحف على إفريقية (تونس) فسار إليها خلال عام ٢٩هـ (٦٤٩م) في جيش قوامه عشرون ألف مقاتل معظمهم من القبائل اليمنية والحجازية، ويضم وحدات من البربر ومن المصريين الذين دخلوا في طاعة العرب الفاتحين، وكان هذا الجيش مدعمًا بوحدات من الأسطول العربي الناشئ الذي يرجع أكبر الفضل في إنشائه بالإسكندرية إلى معاوية بن أبي سفيان (انظر هذه المادة)، وكان من قواد هذا الجيش الظافر عبد الله بن الزبير الذي عالج البطريق جريجوريوس أخا هرقل الأب الذي مات عام ٦١٠م فخلفه جريجوريوس في حكم إفريقية البوزنطية، عالجه بضربة سيف جندلته قتيلاً.

وعلى الرغم من أن البطريق جريجوريوس لم يدخر وسعًا ولا جهدًا في حشد أكبر عدد مستطاع من البربر الذين كان قد لجأ إليهم واستقر بينهم، ويقدر عددهم بمائة وعشرين ألفًا، فإن ابن أبي سرح العامري فاجأه بجيشه وهزمه شر هزيمة، ولم يتوان الجند في التقدم السريع الخاطف نحو سبيطلة، فأعملوا في أنحائها التخريب وظفروا منها بأوفر الغنائم والأموال، ثم شرعوا في اكتساح بلاد الجرير وانتصروا على البربر في عدة مواقع وأسروا بعض ملوكهم، وهذا الجزء من تاريخ الفتح العربي لإفريقية (تونس الآن) يدل ضمنًا على أن هذه الولاية صارت تابعة لولاية مصر من الناحية الإدارية، ولم يكن في وسع الروم – بعد هذه الانتصارات العربية الحاسمة– إلاّ الإذعان للفاتحين والجنوح إلى السلم فصالحوا ابن أبي سرح العامري على أن يدفعوا له جزية قدرها ثلثمائة قنطار من الذهب سنويًّا بشرط أن يرحل عن بلادهم، فقبل هذا الشرط ورجع العرب إلى الشرق وشغلوا بالفتن الإسلامية التي كانت تجتاح الدولة العربية الإسلامية والتي أودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان والخليفة علي بن أبي طالب وشغلت المسلمين بموضوع الخلافة والنزاع العنيف عليها، وتدل بعض الأقوال التاريخية على أن عودة ابن أبي سرح العامري بجيشه إلى الإسكندرية كان بسبب علمه أن الروم أخذوا في تجميع قواتهم بأعداد تفوق قواته بكثير، وأنه – من جهة أخرى – كان تواقًا للعودة إلى مقر حكمه بمصر ليباشر تصريف شؤونها ولا سيما في تلك الظروف التي خيمت الفتن على جوها، وقد مهدت حملة ابن أبي سرح العامري على إفريقية للعرب الوقوف على حالة هذه البلاد، وكيفية الحرب في أرجائها ودرَّبت الجنود على مسالكها ومفاوزها، مما كان له أثر حميد في مراحل الفتح العربي الشامل للبلاد المغربية بعد ذلك بعدة سنين، ولم يعرف تاريخ وفاة هذا القائد العظيم على وجه التحديد، إذ تذكر بعض المراجع أنه كان في قيد الحياة حتى عام ٥٧هـ (٦٧٦م)، وكانت تولية ابن أبي سرح على مصر من المؤاخذات التي يذكرها المتحاملون على عثمان بن عفان، ولاسيما أنه أخوه في الرضاعة، وقصة ذلك في تاريخ الطبري مدوَّنة على النحو التالي: «عندما أمر عثمان بن عفَّان عبد الله ابن أبي سرح بالزحف على إفريقية، قال له إن فتح الله في إفريقية فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة

فضلاً، وبعد فتح إفريقية (أي تونس حاليًّا) بأكملها قسَّم على الجند الفيء وأخذ خمس الخمس وأرسل بأربعة أخماس الخمس إلى عثمان ما أخذه ابن أبي سرح، فقال لهم عثمان: أنا أمرت له بذلك فإن سخطتم فهو يرد، قالوا: إنا نسخطه فأمر عثمان ابن أبي سرح برده فرده ورجع إلى مصر، ولما وقعت الفتنة في المدينة كتب ابن أبي سرح إلى عثمان يستأذنه في القدوم إليها عن طريق العريش والعقبة، واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمير، ثم تغلب على مصر محمد بن أبي حذيفة الذي منع ابن أبي سرح من دخول مصر.

فمضى إلى فلسطين واختار الإقامة بين عسقلان والرملة واعتزل الناس إلى عام ٥٧هـ (٦٧٦م)».

وفي صباح ذات يوم وهو بالرملة قال: «اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلَّى، فسلّم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره ففاضت روحه إلى بارئها».

وقد اشترك هذا القائد العظيم في غزوة الأساود عام ٣١هـ (٦٥١م) ولولا الفتن التي اجتاحت العالم الإسلامي من أجل النزاع على الخلافة في ذلك الحين لكان لهذا القائد شأن آخر في النهوض بالقوات البحرية العربية ولا سيما بالإسكندرية وتونس، وما من شك في أنه مهد الطريق لحسَّان بن النعمان (انظر مادة ابن النعمان) ليقوم بتشييد دار الصناعة الكبيرة في مدينة تونس.

وتدل المعارك التي خاضها الأسطول العربي الفتيّ في المدة الواقعة بين عامي ٥٤ و٦٠هـ (٦٧٤ – ٦٨٠م) على القوة الضخمة التي بلغها هذا الأسطول في فترة قصيرة من الزمن بفضل معاوية بن أبي سفيان في الشام وابن أبي سرح في الإسكندرية، فبعد هذه المعارك المظفرة التي استمرت سبع سنوات استطاع الأسطول العربي محاصرة القسطنطينية، وكان قد قضى على القراصنة المرتزقين الذين أطلق العرب عليهم اسم «المردة»، ويسجل المؤرخون أن عدد وحدات الأسطول العربي بلغ ١٨٠٠ سفينة في ذلك الحين بين حربية ومدنية في خدمة التموين ونقل العتاد والجنود.

٢٩ – ابن أبي شامة – زقاق – بقسم الجمرك

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي شامة المقدسي، ولد بدمشق عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ودرس اللغة والفقه بمسقط رأسه وبالإسكندرية، ثم تولى مشيخة دار الحديث للأشرفية في دمشق، ويقال إن لسانه اللاذع أدى إلى دخول رجلين عليه يتظاهران باستفتائه في الحديث وانهالا عليه ضربًا فمرض بسبب ما أصابه من الأذى ومات بعد ذلك، وفي رواية أخرى إنه مات مقتولاً بأيدي جمهور من الغاضبين عليه لاتهامه بارتكاب إحدى الجرائم.

وقد ألف أبو شامة عدة كتب منها «الروضتين في أخبار الدولتين» ترجم فيه للسلطانين صلاح الدين ونور الدين، و«ذيل الروضتين»، و«مختصر تاريخ دمشق»، و«الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب»، وكل هذه الكتب في التاريخ، أما في اللغة فقد صنف أبو شامة كتابًا في «شرح البردة»، وكتابًا آخر بعنوان «المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية».

ومن ثمّ يتضح أن أبا شامة كان مؤرخًا ومحدثًا ولغويًّا، وقد أدى فريضة الحج في طلب العلم، وسافر إلى القدس وتجول في مدن القطر المصري لينهل من العلوم والمعارف.

ووافته المنية عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) في رواية أو عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) في رواية أخرى بالغًا من العمر ٦٥ سنة.

٣٠- ابن أبي الرجال - حارة- بقسم الجمرك

يحمل لقب «ابن أبي الرجال» اثنان ممن دون التاريخ تراجمهم وهما:

١) **أبو الحسن علي (وكنيته ابن أبي الرجال)**: كان أديبًا وشاعرًا ومن علماء الفلك في المغرب العربي ويطلق عليه الأوروبيون اسم «ألبوهازن Albohazen أو ألبواسن Alboacen»، وهما لفظان محرفان عن اللقب العربي «أبو الحسن»، كما يدعى عند آخرين من الأوروبيين «أبنراجل Abenragel»، وهي كلمة محرفة عن كنيته ابن الرجال.

ولا يعرف على وجه التحقيق إذا كان قد نشأ بالأندلس بمدينة قرطبة أو في شمال إفريقيا، والمعروف قطعًا وفي غير شك أنه قضى شطرًا من حياته في القيروان ببلاط المعز ابن باديس (انظر مادة المعز) أحد أمراء بني زيري الذي دام حكمه من ٤٠٦ إلى ٤٥٣هـ (١٠١٦ - ١٠٦٢م)، وقد كان ابن أبي الرجال أحد الأوصياء والمربين الذين تولوا تصريف أمور الدولة باسم الأمير المعز الذي آلت إليه الإمارة عقب وفاة والده باديس بن المنصور، وكان مايزال صبيًّا صغيرًا في الثامنة من عمره، فأحسن ابن أبي الرجال تربيته وصار أستاذه المخلص ورائده القويم ومستشاره وصاحب ديوانه، وكان ممثل الأدباء والشعراء والعلماء في قصر المعز، ومن ذلك كان معقد آمالهم ومطمح أبصارهم، ومن الشعراء المشهورين الذين أظلتهم رعاية ابن أبي الرجال ابن رشيق (انظر هذه المادة) الذي صار فيما بعد شاعر المعز بن باديس، وما من شك في أن ابن رشيق تعرف على ابن أبي الرجال عندما كان ينزل بإحدى مدن المغرب الأوسط (الجزائر) وهي «تاهرت»، وقد قال ابن أبي الرجال شعرًا في إحدى زياراته لمدينة تاهرت ينفس بها عن شوقه إلى أهله بالقيروان، وهو شعر يدل على أصالة في الشاعرية العذبة الجرس:

وَلي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ مِنْ فِرَاقِكُمْ
أُطَامِنُها صَبْرًا عَلَى مَا أَجنَّتِ

تَمَنَّتْكُمُ شَوْقًا إِلَيْكُم وَصَبْوةً
عَسَى الله أَنْ يُدْنِي لهَا مَا تَمَنَّتِ

وعَيْنٍ جَفَاهَا النَّوْمُ وَاعْتَادَهَا الكَرَى
إِذَا عَنَّ ذِكْرُ القَيرَوَانِ اسْتَهَلَّتِ

وكان ابن أبي الرجال سنيًّا يبغض المذهب الشيعي ويعمل على إزالة آثاره من المغرب العربي، فلقن تلميذه الشاب المعز ابن باديس فضائل السنة المحمدية، وتأثر المعز بتعاليمه فتاوى بالمذهب السني المالكي وعمل جاهدًا على طرد أهل الشيعة من المغرب العربي، وانضم إلى الخلافة العباسية في العراق ففرح أهل المغرب بذلك وسرعان ما لبس العلماء والفقهاء الملابس والعمائم السوداء، وعاد أهل تونس والجزائر ومراكش إلى صلاة الجمع بالمساجد وكانوا قد أقلعوا عن ذلك حتى لا يؤمهم في الصلاة إمام شيعي، ومن ثمَّ كان لابن أبي الرجال أعمق الأثر في شيوع المذهب السني المالكي في المغرب العربي والقضاء على المذهب الشيعي في أرجائه المختلفة وزوال الحكم الشيعي الفاطمي إلى غير رجعة.

ويرجع المؤرخون إلى أبعد حد أن أبا الحسن المغربي الذي اشتهر بمعاونته لأبي سهل وَيْجَنْ بن رستم الكوهي في الأرصاد الفلكية التي أجراها في بغداد خلال عام ٣٧٨هـ (٩٨٨م) بتكليف من شرف الدولة البوهي، أن أبا الحسن المغربي لم يكن سوى ابن أبي الرجال عينه الملقب بأبي الحسن.

ومن مؤلفات ابن أبي الرجال في الفلك «البارع في أحكام النجوم» وتوجد نسخ من هذا الكتاب بمكتبات برلين وباريس وبالمتحف البريطاني وبالمكتبة الهندية وبمكتبة الأسكوريال بإسبانيا وبمكتبات أخرى في شتى البلدان.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية «يهوذا بن موسى» عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ثم ترجم بعد ذلك من الإسبانية إلى اللاتينية.

ومن كتب ابن أبي الرجال الأخرى «أرجوزة في التنجيم» شرحها أحمد بن الحسن بن القنقود القسطنطيني عام ٧٧٥هـ (١٣٧٣م).

ويحتمل أن تكون وفاته قد حدثت خلال عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) أو بعد تلك السنة بقليل.

٢) **أحمد بن صالح بن أبي الرجال**: مؤرخ وفقيه وشاعر ولد في شعبان عام ١٠٢٩هـ (يوليو ١٦٢٠م) في بلدة الشط من بلاد ذُرى في منطقة الأهنوم، وقضى حياته في اليمن وأخذ في تدريس الحديث والفقه في شهارة، وصعدة، وتعزّ، وأبّ، وصنعاء، وكان يواظب على حضور الدروس التي يلقيها كبار العلماء المتبحرين في مذهب الزيدية (انظر هذه المادة)، كما كان يحضر دروس علماء الشافعية والحنفية والمالكية المقيمين في اليمن، واستقر في آخر الأمر في صنعاء وأسند إليه الإمام اليمني المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم الذي حكم اليمن من عام ١٠٥٥ إلى ١٠٨٧هـ (١٦٤٥ – ١٦٧٧م) منصب خطيب صنعاء وعهد إليه بكتابة الوثائق الرسمية والفتاوى في مسائل الفقه والتوحيد التي كانت تعرض على الإمام من مختلف الأنحاء.

وأهم مؤلفات ابن أبي الرجال معجم في التراجم مرتب على حروف الهجاء باسم «مطلع البدور ومجمع البحور»، ويضم هذا المعجم ١٣٠٠ ترجمة لعظماء الزيدية في اليمن والعراق من أحفاد زيد بن علي، وقد وجد هذا الكتاب كاملاً في مدينة «ميلانو» بإيطاليا، ويدل هذا الكتاب التاريخي على علم ابن أبي الرجال الواسع الأفق في الجغرافيا ولا سيما بالنسبة إلى المناطق التي ارتادها في الجنوب العربي، ويقدم هذا الكتاب للباحثين معلومات قيمة عن آثار تلك المناطق وبيانات تتعلق بالمسكوكات وفن الخط العربي في اليمن.

ولأبي الرجال تعليق قيم على كتاب «المشجَّر» لابن الجلال، ومن كتبه الأخرى «تفسير الشريعة لورَّاد الشريعة» وهو مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٢١٧، وكتاب «الرياض الندية في أن الفرقة الناجية هي الزيدية»، وكتاب «الموازين» وهو شرح على «العقيدة الصحيحة للإمام المتوكل إسماعيل بن المنصور»، هذا إلى جانب رسائل عديدة في موضوعات مختلفة، وقد جمع ديوانه أحد إخوته، وتوفي أحمد بن أبي الرجال في ليلة الأربعاء الموافقة لليوم السادس من شهر ربيع الأول عام ١٠٩٢هـ (٢٥–٢٦ مارس عام ١٦٨١م) بالغًا من العمر ٦٢ عامًا، ودفن بالروضة على مسيرة ساعة من صنعاء باليمن.

٣١- ابن أبي وقاص - شارع - بقسم باب شرقي

اسمه بالكامل سعد بن مالك بن وُهَيْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، ويعد من أقدم صحابة النبيّ عليه السلام، إذ كان سابع من أسلم وآمن بالرسالة المحمدية، وكان عمره سبعة عشر عامًا، كما كان من المقربين إلى الرسول بصفة خاصة، ومن الصحابة العشرة الذين وعدوا بالجنة، والذين تُوُفي النبي وهو عنهم راض وأحد الستة الذين اختارهم الخليفة عمر بن الخطاب عقب طعنه من أبي لؤلؤة، وعندما أيقن بقرب موته لينتخب الخليفة من بينهم، وكان ابن أبي وقاص علمًا من أعلام الصحابة، وفارسًا مبرّزًا من فرسانهم، ووجيهًا عظيمًا من وجهائهم، وكان ممن هداهم الله إلى الإسلام على يد أبي بكر الصديق، وعندما أعلن إسلامه غضبت أمه، وكان بارًّا بها، وقالت: «يا سعد: ما هذا الدين الذي أحدثت!؟ لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَير بي فيقال: يا قاتل أمه! فقال: لا تفعلي يا أماه: إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لا تأكل ولا تشرب، وأصبحت وقد جُهِدت، فلما رآها قال: يا أماه، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، إن شئت فكلي أو لا تأكلي، فلما رأت منه الجدّ أكلت، وفي هذه الحادثة نزلت الآية الكريمة: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾.

وفي السنة الأولى للهجرة بعث النبي سرية برياسة عبيدة ابن الحارث، وكان من بين أفرادها سعد بن أبي وقاص إلى مكان بالحجاز يدعى (رابغ) لمعارضة تجار قريش، فلما التقى الفريقان نثر سعد كنانته وفيها عشرون سهمًا، ورمى واحدًا منها، ولأن المشركين كانوا يعلمون أن سعدًا لا يخطئ المرمى، انسحبوا لاعتقادهم أن عشرين منهم سيقتلون بسهام ابن أبي وقاص.

وبعد انقضاء تسعة أشهر على الهجرة النبوية عقد رسول الله لواءً أبيض لسعد بن أبي وقاص، وأمره بمعارضة تجارة قريش ومعه عشرون من المهاجرين، فوصلت هذه السرية إلى المكان المحدد واسمه (الخِراز) فوجدوا العير قد فاتتهم فرجعوا إلى المدينة، وهذه أول مرة يعقد فيها اللواء لابن أبي وقاص.

وفي وقعة أُحد (انظر مادة أُحُد) ثبت ابن أبي وقاص مع الفئة القليلة التي التفّت حول الرسول، ووقته بأجسامها، وفدته بأرواحها، وكان سعد يرمي بسهامه كلّ من يحاول الاقتراب من النبي الذي كان يناوله السهام، ويقول له: «ارمِ فداك أبي وأمي»، وقال علي بن أبي طالب إنه لم يسمع الرسول يجمع أبويه لأحد غير سعد بن أبي وقاص.

وفي غزوة الخندق (انظر مادة الخندق) أثقل رجل من المشركين على المسلمين بسهامه، فرماه سعد بسهم أصاب جبهته فجندله، فضحك النبي ابتهاجًا حتى بانت نواجذه، وسهر رسول الله ذات ليلة بالمدينة وكان الفزع يسودها من الأعداء، فقال النبي: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»، فما أتم جملته حتى سمع صوت السلاح ورأى سعدًا يقول: «أنا يا رسول الله جئت أحرسك»، فدعا له النبي ونام مطمئنًّا، وكان الرسول يحبه ويكرمه ويقدمه، وقال لأصحابه يومًا إذ رأى سعدًا مقبلاً عليه، «هذا خالي فلْيُرني امرؤ خَالَه»، والمعروف هو أن السيدة آمنة والدة النبي من بني زُهرة وهي ابنة عم أبي وقاص والد سعد.

واشترك سعد في وقعة أُحُد، ولما فرغ أبو بكر من حروب أهل الردَّة وصارت الجزيرة العربية في مأمن من الشر سيَّر جيوش المسلمين لفتح الشام والعراق وفارس، وكان من أبرز الرجال الذين اخترقوا حدود البلاد الفارسية المثنَّى بن حارثة الشيباني (انظر مادة الشيباني) فأظهر للمجاهدين في سبيل الإسلام والعروبة أن في وسعهم التغلب على ملك كسرى وكسر شوكة جيوشه، على الرغم من ضخامة عددها وعدَّتها، ثم تلا الشيباني في الفتح خالد بن الوليد (انظر هذه المادة) فضم الشيباني إليه، وكان لهذين البطلين أعمق الأثر في تدويخ الفرس وتمهيد الطريق لفتح العراق.

ولما تفاقم أمر جيوش الروم أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يرحل بنصف جيشه لمساعدة المجاهدين بالشام في وقعة اليرموك الشهيرة، وتوفي الخليفة أبو بكر، فكان أول ما فعله عمر بن الخطاب حث الناس على محاربة الفرس الذين حشدوا جموعهم تحت لواء «يزدجرد» أحد أبناء كسرى، ولكثرة هذه الجيوش عددًا وعدة تولى عمر بن الخطاب قيادة المسلمين بنفسه وخرج بالجيش بعد أن استخلف علي بن أبي طالب على المدينة، ولكن أصحاب الرأي من الأنصار والمهاجرين رأوا أن يبقى عمر بالمدينة وأن يعين قائدًا لمحاربة الفرس، واستقر الرأي على أن يكون هذا القائد سعد بن أبي وقاص الذي كان – في ذلك الحين – أميرًا على هوازن، فاستدعاه عمر وأمَّره على حرب الفرس وأوصاه وصية كريمة جاء فيها: «يا سعد! إني قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر كريه شديد لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به، ولا يغرَّنك من الله أن قيل: «خال رسول الله وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي عليه منذ بُعِث إلى أن فارقنا فالزمه، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين».

وخرج سعد في أربعة آلاف مقاتل واستمر عمر على إمداده بالرجال والعتاد إلى أن بلغ عدد المجاهدين أكثر من ثلاثين ألفًا.

ونزلت الجيوش الإسلامية بالقادسية ووفد القواد على سعد لتلقي أوامره، ولم يستطع المثنى بن حارثة الشيباني الحضور لما أصابه من جراح في وقعة الجسر ولكنه كتب قبل وفاته إلى سعد برأيه في الفرس وحروبهم (انظر مادة الشيباني).

ومكث ابن أبي وقاص أربعة أشهر قضاها في مناوشات الفرس على أطراف بلادهم، فكان يرسل السرايا فتغير على هذه الأطراف وتعود منتصرة بما تستولي عليه من أرزاق وأسرى ونشبت بالقادسية – الواقعة على حدود الجزيرة العربية وفارس – معركة حاسمة عام ١٦هـ (٦٣٧م) دامت عدة أيام، ويفصل المؤرخون ما جرى في هذه المعركة فيذكرون أن الفرس ساروا لمحاربة العرب في جيش يقرب عدده من مائتي ألف مقاتل بقيادة رستم أكبر قواد الفرس وأعظمهم شأنًا بعد كسرى، وكان هذا الجيش اللجب مزودًا بثلاثة وثلاثين فيلاً دُرِّبوا على الحرب، والتقى الجيشان وكان سعد مريضًا فأمر بأن يحمل على سرير فوق مرتفع ليشهد القتال ويوجه سيره، وحمل المجاهدون العرب على راكبي الفيلة فرموهم بالنبال ثم وضع المقاتلون الحراب في أعين الفيلة ففزعت

ورجعت إلى الخلف تخترق صفوف الفرس وتشيع الخوف فيها، وحمل المسلمون إثر ذلك واستمر القتال طوال الليل، وفي اليوم التالي استبسل المجاهدون وتمكن «هلال بن علَّفة» من قتل رستم قائد الفرس فانخلعت قلوب رجاله وركنوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يمعنون فيهم ضربًا وتقتيلاً، وكان بينهم ثلاثون ألف رجل مقرنين في السلاسل لم يستطيعوا الفرار، فذبحهم العرب على بكرة أبيهم، وقد استشهد في هذه المعركة التاريخية ثمانية آلاف من المسلمين، ولم يشهد تاريخ الفتوحات مثل معركة القادسية، فلقد ظلت رحاها طاحنة ثلاثة أيام ولم يتوقف القتال إلا عند ظهر اليوم الرابع.

وحدث في هذه المعركة بعض الطرائف التي تدل على الشجاعة الفذة والاستبسال في سبيل الله نتيجة للتقاليد القويمة التي غرسها الإسلام في قلوب المجاهدين لنصرته وإعلان كلمته، فقد كان الشاعر أبو محجن الثقفي فارسًا وشاعرًا فحلاً، وكان مغرمًا بشرب الخمر، إذا لم يجدها يتغنى بها، وحدث أن شربها غداة التقاء جيشي العرب والفرس فأمر ابن أبي وقاص بحبسه مقيدًا، ولما اشتبك الفريقان بكى أبو محجن وأنشأ يقول:

كَفَى حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الخَيْلُ بِالقَنَا
وأُترك مَشْدُودًا عليَّ وِثَاقِيَا

إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وغُلِّقَتْ
مَصَارِيعُ مِنْ دُونِي تَصُمُّ المُنَادِيَا

وَقَدْ شَفَّ جِسْمِي أَنَّنِي كُلَّ شَارِقٍ
أُعَالِجُ كَبْلاً مُصْمتًا قَدْ بَرَانِيَا

فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أُتْرَكُ مُوثَقًا
وتُذْهَلُ عَنِّي أُسْرَتِي وَرِجَالِيَا

حَبِيسًا عَنِ الحَرْبِ العَوَانِ وَقَد بَدَتْ
وَإِعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ المَوَالِيَا

وسمعت سلمى بنت أبي حفصة – زوجة سعد بن أبي وقاص – بكاء أبي محجن وشعره، فبادرت إلى حل وثاقه فخاض المعركة وأبلى فيها أحسن البلاء، وكان من نتائج وقعة القادسية المباشرة أن أصبح ابن أبي وقاص سيد القطر العراقي بأسره.

ومن الملائم في هذا المقام معرفة أن أول الأبيات التي أنشأها أبو محجن الثقفي ردَّده أبو المهاجر دينار في ظرف مماثل للظرف الذي كان فيه أبو محجن، فقد عزل معاوية ابن أبي سفيان القائد العربي الباسل عقبة بن نافع (انظر مادة ابن نافع) عن إفريقية (تونس) بسبب السعاية التي افتراها مسلمة بن مخلد، فلم يتورع أبو المهاجر دينار عن إهانة عقبة ليرضي مولاه مسلمة، فلما عاد عقبة إلى الحكم عام ٦٢هـ (٦٨١م) في عهد يزيد بن معاوية وقام بغزوته الثانية التي وصل في فتوحاتها إلى المحيط الأطلنطي، كان أبو المهاجر مكبلاً بالسلاسل ويسير مع الجيش في قيوده، وحينما أطبق رجال البربر على عقبة ورجاله بالقرب من مدينة «تهودة» الكائنة في منطقة جبال أوراس في الجزء الشمالي من مجموعة جبال عمور بالجزائر طمع أبو المهاجر في الاستشهاد بجانب عقبة، ومن ثم أخذ يترنم بالبيت الأول وهو:

كَفَى حزَنًا أن ترتدي الخيل بالقنا
وأُترك مَشْدودًا عليَّ وِثَاقِيَا

وما إن سمعه عقبة حتى أمر بفك قيوده وكان له ما أراد من شرف الاستشهاد في سبيل الله ونصرة العروبة.

وأقام سعد بن أبي وقاص بالقادسية شهرين أعاد خلالهما تنظيم جيشه، ثم زحف على «المدائن» مقر الملك وعاصمة كسرى فغزاها وأرغم كسرى على الفرار، واستولى على كنوز الفرس ونفائس ملكهم التي ظلَّ ملوكهم يجمعونها من أنحاء العالم على مر القرون، ولما أرسلت إلى الخليفة عمر قال: «إن قومًا أدوا هذا لأمناء!»، قال علي بن أبي طالب: عففت فعفَّت الرعية.

وعاد الفرس إلى قتال المسلمين بعد أن حشدوا خيرة ما لديهم من رجال وعتاد، والتقوا بجيش العرب في معركة «جلولاء»، وكان على رأس هذا الجيش هاشم بن عقبة وهو ابن شقيق سعد، وما هي إلا فترة وجيزة حتى لحقت الهزيمة الساحقة بجنود الفرس وانتهت المعركة بالقضاء على دولة الأكاسرة فلم تقم لهم قائمة بعدها.

وفي ذلك الحين نفسه أقام سعد معسكرًا في مكان الكوفة صار فيما بعد مدينة زاهرة ومازالت من كبريات مدن القطر العراقي حتى الآن، وقد أقامه عمر بن الخطاب واليًا عليها فبنى له قصرًا فخمًا فيها، ولما ركن سعد إلى شيء من الترف غضب عليه عمر وبعث من أحرق قصره ثم أقاله من منصبه عام ٢٠هـ (٦٤٠ – ٦٤١م) وذلك إثر اتهام أهل الكوفة المتقلبين له بالظلم والجور، ولظهور براءته من هذه التهمة قدر عمر مقامه وأوصى وهو على فراش الموت بأن يعوض سعد عن إقالته فولاه عثمان بن عفان أميرًا على الكوفة سنة ٢٥هـ (٦٤٥م)، وبعد مقتل عثمان طلب منه أناس أن يرشح نفسه للخلافة فأبى واعتزل الفتنة وأقام في ضيعة له يرعى الغنم وأمر من حوله ألا يرفعوا إليه من أمر الناس شيئًا، وهكذا فضل أن يقضي بقية حياته في سلام، وقد أدركته الوفاة عام ٥٦هـ (٦٧٥م) بالغًا من العمر ٨٢ عامًا ودفن بالمدينة بعد أن كفّن في الجبة التي حارب بها المشركين تنفيذًا لوصيته، وكان آخر المهاجرين وفاة.

وبالإسكندرية مسجد باسم سيدي وقاص، وما من شك في أنه ضريح يخلد ذكرى الصحابي البطل على غرار أضرحة أخرى بالمدينة.

٣٢ – ابن الأثير – شارع – بقسم مينا البصل

يحمل كنية «ابن الأثير» ثلاثة إخوة من جزيرة ابن عمر وهي مدينة على الضفة اليمنى (الغربية) من المجرى الأوسط لنهر دجلة وتسمى الآن الجزيرة فقط، ويعتبر الإخوة الثلاثة من مشاهير علماء العرب وأعاظم مؤلفيهم، وفيما يلي تراجمهم وفقًا لترتيب ميلاد كل منهم:

١) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير: ولد عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وتوفي بمدينة الموصل عام ٦٠٦هـ (١٢١٠م) بالغًا من العمر حوالي ٩٢ عامًا وقد كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو، وذكر ابن خلِّكان مؤلفاته في كتابه (الوفيات) وذكرها ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب)، وقد درس النحو على ابن الدهَّان (انظر هذه المادة)، ودرس الحديث في بغداد ثم اتصل بخدمة الأمير (قيماز) الذي كان يحكم البلاد من قبل سيف الدين الغازي، وتولى ديوان رسائل خليفتي غازي «مسعود بن مودود» و«نور الدين أرسلان شاه»، ويقول أخوه إنه تردد في قبول هذا المنصب

الرفيع ولم يقبله إلا نزولاً على إرادة نور الدين، ثم أصيب بمرض كف يديه ورجليه، ويقول ابن خلكان إنه ألّف معظم كتبه – إن لم يكن كلها – وهو على هذه الحال، وجعل من منزله رباطًا للمتصوفين، وهو صاحب كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر».

٢) عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير: ولد عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وهو صاحب الكتاب المشهور «الكامل في التاريخ»، وصنف كذلك تاريخًا لأتابكة الموصل ومعجمًا مرتبًا على حروف الهجاء عن الصحابة (طبع بالقاهرة عام ١٢٥٨هـ) وعنوانه «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، ولخص كتاب الأنساب للسمعان (انظر هذه المادة) وسماه (اللباب)، وقد وضع السيوطي (انظر هذه المادة) مختصرًا لهذا الكتاب نفسه عنوانه «لبُّ اللباب».

وأخذ عز الدين بن الأثير العلم عن شيوخ عصره في مسقط رأسه بمدينة الجزيرة، ثم بالعراق في الموصل، وبغداد كما رحل إلى بلاد الشام في طلب العلم، فسمع بالموصل من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي (انظر هذه المادة)، وسمع في بغداد من أبي القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعي (انظر مادة ابن صدقة) وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي، وسمع بدمشق من زين الأمناء وغيره.

وعاش عز الدين بن الأثير منقطعًا إلى العلم تحصيلاً وتدريسًا وتصنيفًا وربما استسفره صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد، كما يؤخذ من قول ابن خلكان: «وقدم بغداد مرارًا حاجًّا ورسولاً من صاحب الموصل».

وقد روى عن ابن الأثير غير واحد من العلماء الأجلاء، ولا شك أن كتابه «الكامل في التاريخ» الذي يقع في اثني عشر جزءًا هو أعظم مؤلفاته وأشهرها، وكان جل اعتماده في الأجزاء السبعة الأول منه على أبي جعفر الطبري (انظر مادة الطبري) الذي اختصر ابن الأثير تاريخه، فحذف الأسانيد وترك الإسهاب واكتفى بالرواية الواحدة، على أن ذلك لم يحل دون رجوعه إلى مصادر أخرى مثل مؤلفات ابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي، لإثبات ما ترك الطبري إثباته عن قصد أو غير قصد، وذلك مثل أيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزوات العرب في السند.

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع ابن الأثير في تدوينها بكافة المصادر العربية التي وقعت تحت يديه، ومن ثمّ يعتبر كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى عام ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) كما يعتبر من أمهات المصادر التاريخية في القرون الوسطى.

وقد قضى عز الدين بن الأثير معظم حياته في عزلة عن الناس مكبًّا على التأليف والاطلاع، وما من شك في أنه مؤرخ ممتاز يتسم بشدة التثبيت فيما ينقل وقد يسمو أحيانًا إلى نقد المصادر التي يستمد منها كتاباته، ومن جهة أخرى نجد له استدراكات وجيهة على الطبري والشهرستاني وغيرهما من العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم.

وتوفي عز الدين بن الأثير بالموصل عام ٦٣٠هـ (١٢٣٤م) بالغًا من العمر حوالي ٧٥ سنة.

٣) ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير: ولد بمدينة الجزيرة عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م)، وترجع شهرته على الأخص إلى جودة أسلوبه، ويعتبر كتابه في البلاغة المسمى «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» (وقد طبع ببلاق عام ١٢٨٢هـ) من أهم المراجع في العالم الإسلامي، ولقد ذكر مؤلفاته الأخرى ابن خلّكان والمستشرق «بروكلمان»، وضياء الدين كان على عكس أخيه المؤرخ عز الدين، فقضى حياته في حركة دائبة ونشاط مستمر، وقد قدمه القاضي الفاضل (انظر هذه المادة) إلى صلاح الدين (انظر هذه المادة) فاتصل بخدمته عام ٥٨٧هـ (١١٩١م) وسرعان ما أصبح وزيرًا للملك الأفضل ابن صلاح الدين، ولما أخذت مدينة دمشق من الملك الأفضل هرب ضياء الدين بن الأثير في صندوق مقفل إلى مصر وذلك بعد أن لاقى كثيرًا من المصاعب، وظل مختفيًا حتى استقر الملك الأفضل في سُمَيْساط التي عوض بها عن ملكه السابق، غير أن ضياء الدين بن الأثير لم يمكث بها سوى مدة قصيرة اتصل بعدها بخدمة صاحب مدينة حلب خلال عام ٦٠٧هـ (١٢١٠م)، ولم يطل مقامه هناك فغادرها سعيًا وراء حظه إلى الموصل ثم إلى إرْبِل فسِنْجار، وفي عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) كتب الإنشاء لصاحب الموصل ناصر الدين محمود، وتوفي في بغداد عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) بالغًا من العمر حوالي ٧٨ عامًا، وذلك في أثناء رحلاته العديدة، وكان له ولد يدعى شرف الدين كان مؤلفًا هو أيضًا، ومات في ريعان الشباب عام ٦٢٢هـ (١٢٢٥م).

٣٣ – ابن الأحوص – زقاق – بقسم الجمرك

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الملقب بالأحوص، وهذا اللقب مشتق من الحوص وهو الضيق في مؤخر العينين أو في إحداهما، والواقع هو أن الأحوص كان بإحدى عينيه ضيق ظاهر مما كان سببًا في نعته بالدمامة.

وهو شاعر عربي من بني ضبيعة بن زيد، وهي عشيرة من الأوس، وقد ولد عام ٣٥هـ (٦٥٥م) وقضى معظم حياته بين مجتمع المدينة المهذب الدمث الأخلاق، وكان أهل المدينة النبلاء المحتد قد جمعوا ثروات كثيرة أيام الفتوح الأولى في صدر الإسلام وحصلوا على أموال عظيمة من بيع الأبنية القديمة والبساتين، يضاف إلى ذلك أن الخلفاء الأمويين كانوا يمدونهم بالعون بغية إبعادهم عن المشاركة في الحكم وفي الحياة السياسية، فعاشوا بسبب ذلك في عزلة سياسية وفي ترف مقيم.

ومن ثم نشأ في المدينة شعر الحب الحضري الذي كان من أقطابه عمر بن أبي ربيعة (انظر هذه المادة) وتلميذه العرجي والأحوص، وكانت أولى العلاقات الشخصية للأحوص مع الوليد، فقد نزل عليه ضيفًا في عدة مناسبات.

وعندما كان عمر بن عبد العزيز (انظر هذه المادة) واليًا على المدينة أمر بضرب الأحوص بالسياط عقابًا له على مغامراته الغرامية، وفي أواخر عهد الوليد بدأ النزاع بينه وبين ابن حزم (انظر هذه المادة) الذي كان في أول أمره قاضيًا للمدينة وقد تولى هذا المنصب عام ٩٤هـ (٧١٣م) ثم صار واليًا عليها عام ٩٦هـ (٧١٥م) واغتابه الأحوص في حضرة الخليفة وحمل عليه في أشعاره، وقد زاد في خطورة موقفه مآخذ سياسية وخلقية مثل مغامراته الغرامية المتكررة مع ذكره لشريفات النساء ومن بينهن سكينة بنت الحسين في القصائد التي كان ينظمها، هذا إلى جانب اصطدامه بأفراد الطبقة الأرستقراطية

الإسلامية واتهامه بعشق الغلمان والفحش في الأقوال، يضاف إلى كل ذلك أنه كان من أسرة أسهمت في الفتنة التي نشبت بالمدينة.

وقد ضرب الأحوص بالسياط بتحريض الدوائر الحاكمة في المدينة وبأمر الخليفة سليمان وشُهِّر به وهو على البُلُس ثم نفي إلى جزيرة دَهْلك بالبحر الأحمر وبقي في المنفى خمسة أعوام.

وقد تشفع له الأنصار الذين كان الأحوص لسان حالهم، فأطلق الخليفة الأموي يزيد الثاني سراحه وخلع عليه الخلع السنية ثم صار نديمه وساير أهدافه السياسية فهجا بني المهلب بإحدى قصائده المشهورة.

والأقوال التي ذكرت في حق هذا الشاعر تشين سمعته وتحط من قدره الاجتماعي، فقد قيل إنه كان عاريًا من المروءة والدين وإن كان مؤرخوه يثنون على شعره ولاسيما فيما يتعلق بتفوقه في النسيب والفخر والمديح والهجاء، وقد امتدحه المؤرخون لما امتاز به من سهولة في الأسلوب، وتفوق في الإدراك، وجمال في التعبير، ورشاقة في المعاني، ومتانة البناء في القصائد، ومع كل هذه الصفات فإنه لم يصل في الشاعرية إلى مرتبة معاصره عمر بن أبي ربيعة في الأصالة، ويستبين ذلك في إيثاره لموضوعات القصائد القديمة وأوزان الشعر المأثورة، أما لغته فمتأثرة بلغة أهل المدينة.

وما من شك في أن الأحوص كان من شعراء الغزل المجيدين، فنشأ متأثرًا بالبيئة الحجازية كسائر الغزليين في ذلك العصر وامتاز فوق ذلك بعصبية يمانية حملته على هجاء القرشيين الحاكمين، ودعاه سخطه إلى الإسراف في اللهو والنيل من الأشراف والإسفاف في المجون مما أدى إلى نفيه بجزيرة دَهْلك وهي جزيرة أمام مصوع، وتوفي إثر مرض أصابه عام ١١٠هـ (٧٢٨ – ٧٢٩م) وقيل عام ١٠٥هـ (٧٢٣م)، بالغًا من العمر ٧٥ عامًا أو ٧٠ عامًا.

ومن قصيدته التي نظمها في مدح عبد العزيز بن مروان هذه الأبيات:

أَصَاحِ أَلَمْ تَحْزنك ريحٌ مَرِيضَةٌ
وبَرْقٌ تلالا بالعَقِيقَيْنِ لاَمِعُ

فإنَّ الغَرِيبَ الدَّارِ مِمَّا يَشُوقُهُ
نَسِيم الرِّيَاح وَالبُروقُ اللَّوَامِعُ

نَظَرْتُ عَلَى فَوْتٍ، وَأَوْفَى عَشِيَّةً
بِنَا مَنْظَرٌ مِنْ حِصْنِ عَمَّانَ يافِعُ

وَلِلْعَيْنِ أَسْرَابٌ تَفِيضُ كَأَنَّمَا
تُعَلُّ بِكُحْلِ الصَّابِ مِنْهَا الْمَدَامِعُ

إلى أن يقول:

أَهِمُّ لأَنْسَى ذِكْرَها فَيَشُوقُنِي
رِفَاقٌ إِلَى أَهلِ الحِجَازِ نَوازِعُ

وَإِنَّا عَدَانَا عَنْ بِلادٍ نُحِبُّهَا
إِمَامٌ دَعَانَا نَفْعُهُ الْمُتَتَابِعُ

أَغَرُّ لمروانٍ وحَرْبٍ كَأَنَّهُ
حُسَامٌ جَلَتْ عَنْهُ الصَّيَاقِلُ قَاطِعُ

٣٤- ابن الأرقم - حارة - بقسم الجمرك

يكنى بابن الأرقم ثلاثة ذكرهم التاريخ العربي الإسلامي وهم:

١) عبد الله بن عبد مناف (المعروف بابن أبي الأرقم بن أسد): ويعرف أيضًا بأبي جندب، وهو من عشيرة مخزوم، وكانت من أغنى عشائر مكة ثروة وجاهًا وأكثرها تقديرًا وجدارة بالاحترام، وأمه أميمة من قبيلة خزاعة، وقد اعتنق الدين الإسلامي وهو في سن مبكرة، وكان من أوائل المؤمنين بالرسالة المحمدية، ومع أن بني مخزوم كانوا من أشد أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أن ذلك لم يمنع الأرقم من أن يكون أخلص أنصاره، فقدم بيته أيام محنة الرسول ليجتمع في كنفه المسلمون، وفي هذا البيت العتيد وجد رسول الله مكانًا آمنًا لنشر الدعوة إلى دين الله الحق، على الرغم من تعرض أبي الأرقم لأذى قريش، وخلال هذه الفترة نفسها انضم كثيرون إلى المسلمين وكان منهم حمزة وعمر بن الخطاب، الذي ترتب على إسلامه أن قرر النبي ترك منزل أبي الأرقم، واستمر اجتماع المسلمين بهذا المنزل التاريخي طوال الفترة الواقعة بين عامي ٦١٥ و٦١٧م، وانضم الأرقم إلى المهاجرين، وأقام بالمدينة في حي بني زريق في بيت يعرف باسمه أيضًا، وقد آخى النبي بين الأرقم وأبي طلحة، وكان الأرقم صديقًا حميمًا لسعد بن أبي وقاص، وتزوج الأرقم ورزق من هذه الزيجة بابنه عثمان بن الأرقم الذي هو جدّ لأسرة كبيرة عريقة عاش فرع منها بالشام، وصار لبيت الأرقم بمكة أهمية كبيرة في التاريخ ولاسيما في معرفة ترتيب السباقين إلى اعتناق الدين الإسلامي في فجر انبثاقه، ومن ثم صار له تعظيم جليل القدر من جميع مسلمي العالم، والمنزل مازال قائمًا فوق تل الصفا ويزوره الحجاج كل عام وأصبح يعرف ببيت الإسلام.

وقد اشتراه الخليفة العباسي المنصور وأقامت به الخيزران أُم هارون الرشيد.

٢) زيد بن الأرقم: وهو يتيم كفله عبد الله بن رواحة الصحابي المشهور (انظر هذه المادة) ورباه في حجره وقد خرج به للقتال في وقعة «مؤتة» التي استشهد فيها، وكان ابن رواحة يحمل زيدًا صغيرًا في رحلته هذه وهو مردفه على حقيبة رحله، ولما سمع زيد بن الأرقم ربيبه ابن رواحة يترنم بشعره وهو يخوض المعركة ليشجع الجنود على القتال وهو القصيدة التي يقول فيها:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ
لَتنْزِلنَّه أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ

قَدْ أَجْلَبَ الناسُ وشدُّوا الرنَّه
مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ

قَدْ طَالَ مَا كُنْتِ مُطْمئِنَّهْ
هَلْ أَنْتِ إِلاّ نطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

لما سمع الأرقم هذه الأبيات بكى، فضربه ابن رواحة بالدرة وقال له: «ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة

وترجع بين شعبتي الرحل؟» وهكذا كان زيد بن الأرقم يرى الجهاد في سبيل الله صغيرًا ويبكي وفاء لمن أحسن تربيته.

٣) ابن الأرقم الأندلسي: وهو مؤلف كتاب «الإسطرلاب»، وقد صنعه للأمير عبد الرحمن الغرناطي، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب «الاحتفال في استيفاء تصنيف ما للخيل من الأحوال»، وتوفي ابن الأرقم الأندلسي عام ٧٥٨هـ (١٣٥٦م) وكان مولده بوادي ياس بالأندلس.

٣٥ – ابن الأزرق – شارع – بقسم مينا البصل

يحمل لقب «ابن الأزرق» أربعة ممن دون المؤرخون سيرهم، وفيما يلي ترجمة كل منهم:

١) نافع بن الأزرق: وهو حنفي حنظلي من غلاة الخوارج الأزارقة، وكان يقول إن كل من لم يتبعه ويعتنق مذهبه الخارجي كافر، ومن غلوائه المذهبي أنه أباح قتل نساء وأطفال خصومه، وكان من أنصار عبد الله بن الزبير، واجتاح بلاد الأهواز فارس، وزهقت روحه في أثناء وقعة دولاب عام ٦٤هـ (٦٨٣م)، وكان نافع بن الأزرق من أكبر فقهاء الخوارج الأزارقة، وقال بأنه لا يصح لأصحابه المؤمنين به أن يجيبوا أحدًا من غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم ولا يتوارث الخارجي غيره، وأن غير الخارجين مثل كفار العرب وعبدة الأوثان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل بالسيف، ودارهم دار حرب، وقد أحلَّ نافع بن الأزرق الغدر بمن يخالفونه.

وفرقة الخوارج الأزارقة سميت باسم زعيمهم نافع بن الأزرق وكانوا يقولون مثل زعيمهم إن مخالفيهم من أمة الإسلام مشركون، وإن من لا يسارع إلى اعتناق مذهبهم يُستحلُّ دمه هو ونساؤه وأطفاله، وبعد أن قتل نافع بايع الأزارقة بعده عبيد الله بن ماحوز وظل زعيمًا لهم إلى أن قُتِل في وقعة سِلِّبري في شهر شوال عام ٦٦هـ (مايو ٦٨٦م)، وكان القتل نصيب الزبير بن ماحوز، فالتف الأزارقة حول زعيم آخر هو قطري بن الفجاءة إلى عام ٧٧هـ (٦٩٦م)، وفي ذلك العام قتل قطري واختفت فرقة الأزارقة من التاريخ إلى غير رجعة بعدما أتت من المفاسد الشيء الكثير.

٢) أبو الوليد أحمد بن الأزرق: مؤرخ مكة وكان أول من جمع الروايات التي لها علاقة بتاريخها وأحداثها التاريخية، وتوفي بمكة عام ٢١٩هـ (٨٣٤م) في بعض الروايات أو في عام ٢٢٣هـ (٨٣٧م) في بعض الروايات الأخرى.

٣) أبو الوليد محمد بن الأزرق: هو حفيد أبو الوليد أحمد بن الأزرق ومؤرخ مكة مثل جده، وقد دوَّن الروايات التي جمعها جدّه في كتاب، وكانت وفاته بمكة خلال عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م).

٤) أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق: الذي وَلِيَ قضاء الجماعة بمدينة غرناطة بالأندلس، ثم هاجر إلى مدينة تلمسان بالقطر الجزائري ورحل منها إلى مصر حينما بدأ حصار النصارى الأخير لغرناطة (انظر هذه المادة)، وكان هذا الفقيه شاعرًا يدل على ذلك القصيدة المدوَّنة في ديوان عبد الكريم الغرناطي (انظر مادة الغرناطي)، وقد ضمنها رثاءه لسقوط غرناطة، وفي هذا الديوان قصيدة للغرناطي نفسه يرثي بها هذا العالم الذي وافته المنية وهو في مصر، ولا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق، وكل ما يستدل على هذه الوفاة –

على وجه التقريب – هي تلك الإشارة الواردة في كتاب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكتي، وقد جاء بها أن ابن الأزرق كان حيًّا في حدود عام ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) أي قبل سقوط غرناطة بنحو سبع سنوات.

هذه هي تراجم من كانوا يحملون لقب «ابن الأزرق» فمن منهم صاحب هذا الشارع؟؟ أو لمن يكن من الأصوب تعيين أحدهم يذكر اسمه كاملاً؟؟

٣٦- ابن إسحاق – شارع – بقسم محرم بك (فرومانتين سابقًا)

هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق المؤلف العربي المشهور، وقد كان حجة في الحديث، وهو حفيد «يسار» الذي كان مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشي، وقد سباه خالد بن الوليد في كنيسة بعين التمر بالعراق عام ١٢هـ (٦٣٣ م) ثم جلب إلى المدينة وصار من موالي قبيلة عبد الله ابن قيس.

وفي المدينة شب ابن إسحاق وكرس جهوده لجمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ثم أصبح ثبتًا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تُجهل إمامته، فقد كان ابن شهاب الزهري يقول: «من أراد المغازي فعليه بابن إسحاق»، وذكره البخاري (انظر هذه المادة) في تاريخه، ويروى عن الإمام الشافعي أنه قال: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيَال على ابن إسحاق»، وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: «ما أدركت أحدًا يتهم ابن إسحاق في حديثه»، وقال عنه شعبة بن الحجاج: «محمد بن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث».

غير أن جهوده في الحديث سرعان ما اصطدمت بالأئمة أصحاب الرأي الذي كان سائدًا بالمدينة، وعلى الأخص الإمام مالك (انظر هذه المادة) الذي اتهمه بالتشيع وانتحال الكثير من القصص والأشعار التي أذاعها.

ويقال إن الإمام مالك ألصق به هذه التهمة لأنه بلغه عنه أنه قال: «هاتوا حديث مالك فأنا طبيب يعلله»، فقال مالك: «وما ابن إسحاق؟ إنما هو دجَّال من الدجاجلة نحن أخرجناهم من المدينة»، وكان يشير بذلك إلى أن الدجال المنتظر لا يدخل المدينة.

وإزاء هذا الاتهام من الإمام مالك ومن أئمة أصحاب الرأي لم يجد ابن إسحاق بدًّا من مغادرة المدينة والسفر إلى مصر؛ حيث قدم على الإسكندرية عام ١١٩هـ (٧٣٧م) واستقر بها مدة من الزمن يدرِّس الحديث ويلقي محاضرات في سيرة الرسول وقصص مغازيه، وبعد الإقامة بالقاهرة بعض الوقت رحل إلى بغداد ثم التقى بالخليفة أبي جعفر المنصور العباسي، وكان آنذاك بالحِيْرَة، ولدى هذا الخليفة دوَّن سيرة رسول الله في كتابين أحدهما بعنوان «المبتدأ» أو «مبتدأ الخَلْق»، ويتضمن تاريخ النبي حتى الهجرة، والآخر بعنوان «المغازي»، وقد ذكر الطبري (انظر هذه المادة) فقرات مُسْهَبَةً منه.

وقد جمع ابن هشام (انظر هذه المادة) كتابي ابن إسحاق وهذبهما واستخلص منهما كتاب «سيرة رسول الله»، وهو الكتاب الذي أخرجه في صورته المتداولة حتى الآن مع شرحه الوزير المغربي السهيلي، وتوفي ابن إسحاق في بغداد عام ١٥٠هـ (٧٦٧ م) ودفن بمقبرة الخَيْزُران أُمّ هارون الرشيد.

ويحمل لقب ابن إسحاق أيضًا الطبيب العربي الذائع الصيت «أبو يعقوب إسحاق بن حنين بن إسحاق العبَّادي» الذي ولد بمدينة الحيرة عام ١٩٤هـ (٨٠٩م)، وبما أن كنيته التي اشتهر بها هي «العبَّادي» نسبة إلى «العبَّاد»، وهم قوم من قبائل شتى اعتنقوا المسيحية ونزلوا في ظاهر الحيرة، فإن ترجمة هذا الطبيب دوَّنتها في كلمة «العبَّادي» فاطلبها في هذه الكلمة لتعرف تاريخه بالتفصيل.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في (فرومانتين).

٣٧ – ابن الأعرابي – شارع – بقسم محرم بك

اسمه أبو عبد الله محمد بن زياد ويعرف بابن الأعرابي الكوفي، ولد بمدينة الكوفة بالعراق عام ١٥٣هـ (٧٧٠م)، ويعتبر من أكابر اللغويين، وهو من موالي بني هاشم، إذ كان من موالي العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب، وكان أبوه زياد عبدًا سنديًّا من موالي بني شيبان، وكان في عينيه حول، واشتهر برواية أشعار القبائل وبمعرفة أنساب العرب، وكان أحد العالمين بأصول اللغة وفروعها المشهورين في ذلك، ولذلك كان يقال إنه لم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه.

ولما توفي أبوه السندي الأصل تزوجت أمه من المفضل الضبِّي صاحب المفضليات (انظر مادة الضبي)، والمفضليات مجموعة تضم أكبر عدد من قصائد الشعراء، وقد أخذ ابن الأعرابي العلم عن الضبي، وعن أبي معاوية الضرير، والقاسم ابن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، والكسائي، ثم زاول التدريس ببغداد وتتلمذ عليه ثعلب وإبراهيم الحربي وابن السكيت وغيرهم، وعرف ابن الأعرابي بالنبوغ في اللغة والنحو ورواية الشعر واشتهر بقوة الحفظ وصدق الرواية، ومن ثمَّ حاز ثقة الكوفيين والبصريين جميعًا.

وقد ناقش العلماء واستدرك عليهم وخطأ كثيرًا من نقلة اللغة، وكان إلى جانب هذا كله إمامًا في علم الكلام الغريب لدرجة أنه خَطَّأَ أبا عبيدة والأصمعي (انظر هذه المادة)، وقال إنهما لا يحسنان شيئًا، وكان يقول إنه سمع من فصحاء العرب نطق حرف الظاء بحرف الضاد، ودلل على ذلك ببيت من شعره هو:

إلى اللهِ أَشْكُو مِنْ خَلِيلٍ أَوَدُّهُ
ثَلاَثَ خِلاَلٍ كُلُّهَا لِي غَائِضُ

بدلاً من «ثلاث خلال كلها لي غائظ».

وكان مجلسه يضم أكثر من مائة مستمع أو طالب علم، وكان يقرأ عليهم ويستمع لأسئلتهم ويجيب عنها، وقد أملى على الناس ما إذا جمع لكوَّن مجلدات عديدة، ولم يكن له نظير في العلم بالشعر والشعراء، وقد رأى في مجلسه يومًا رجلين يتحادثان فسأل أحدهما من أين هو؟ فقال من اسبيجاب، وقال الآخر إنه من الأندلس فعجب من بعد موطن كل منهما عن موطن الآخر وأنشد:

رَفِيقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
وَقَدْ يَلْتقِي الشَّتَّى فَيَأْتَلِفانِ

ثم أملى على من حضر مجلسه بقية الأبيات التي نظمها في هذا المعنى فقال:

نَزَلْنا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ
لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحينَ هَجَانِ

فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا
لأَيَّةِ أرْضٍ أمْ مَن الرَّحَلانِ

فَقُلْتُ لَهَا أَمَّا رَفِيقِي فَقَوْمُهُ
تَمِيمٌ وَأَمَّا أسرتي فَيَمَاني

رَفِيقَانِ شَتىَّ أَلَّفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
وَقَدْ يَلتِقي الشَّتَّى فَيأْتَلِفانِ

ويتضح من هذه الأبيات أنه لم يكن من الشعراء المبرَّزين واسعي الخيال والشاعرية، فالتركيب فيها مفتعل والسياق ينطوي على بعض الركاكة، ومن ثم يستطاع القول بأن ابن الأعرابي كان لغويًّا ونحويًّا وليس شاعرًا بالمعنى الصحيح من كلمة شاعر.

وقد ألف في اللغة كتب: «النوادر»، و«البئر»، و«الألفاظ»، و«معاني الشعر»، وصنف في الأخبار: «تاريخ القبائل»، و«أسماء خيل العرب وفرسانهم».

وله كتب أخرى في شتى الموضوعات منها كتب: «الأنواء»، و«صفة النخل»، و«صفة الزرع»، و«النبات»، و«تفسير الأمثال»، و«الذباب»، و«الأنوار».

وإلى جانب مؤلفاته العديدة قام بجمع دواوين بعض الشعراء من بينهم الأخطل (انظر هذه المادة)، وأرطأة بن سهية.

وتوفي عام ٢٣٤هـ (٨٤٨ م) بالغًا من العمر حوالي ٧٩ عامًا.

٣٨ – ابن الأغلب – حارة – بقسم الجمرك

هو إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة في إفريقية (تونس)، وأبوه الأغلب بن سالم بن عقال التميمي من مرو الروذ، وقد حكم أبوه إفريقية بعد رحيل ابن الأشعث عنها ١٤٨هـ (٧٦٥م)، ثم قتل في ثورة الحسن بن حرب عام ١٥٠هـ (٧٦٧م)، وفي سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) عهد إلى ابنه إبراهيم بولاية منطقة الزاب في الجنوب الشرقي من القطر الجزائري، وتمكن إبراهيم عقب طرد ابن مقاتل من ولايته على إفريقية (تونس) من التقرب إلى الخليفة هارون الرشيد، فولاه حكم إفريقية في مقابلة دفع جزية سنوية قدرها ٤٠,٠٠٠ دينار، وذلك في ١٢ من جمادى الآخر عام ١٨٤هـ (٩ يوليو عام ٨٠٠م)، وانفصلت إفريقية عن الدولة العباسية وبدأ إبراهيم الأغلبي في تشييد عاصمة جديدة هي «العباسية» لتحل محل القيروان.

واتخذ شارلمان ملك فرنسا من إبراهيم بن الأغلب حليفًا ضد الأمويين في الأندلس، وأرسل إليه سفراءه الذين عادوا إلى فرنسا محملين بالهدايا الثمينة، وكان ذلك خلال عام ١٨٥هـ (٨٠١م).

ونجح إبراهيم في إخماد الثورات التي شنها ضده حمديس القيسي في تونس وعملاؤه في طرابلس ولاسيما تلك التي ألهب نارها في إفريقية عمران بن مخلد وقريش بن التونسي .

وحوصر إبراهيم في العباسية سنة كاملة، ولكنه استطاع بعد ذلك أن يرسل ابنه عبد الله على رأس جيش إلى طرابلس، فنجح في إخماد ثورة هوارة الخارجي، ثم اضطر إلى محاربة الخوارج القادمين من «تاهورت Tahort» بالقطر الجزائري بقيادة إمامهم الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ولم يبدأ قتال عبد الله إلا بعد وفاة والده إبراهيم الأغلبي في ٢١ من شوال عام ١٩٦هـ (٥ يوليو عام ٨١٢م)، ولحرص عبد الله على أن يخلف أباه في الحكم، فقد تهاون مع عبد الله الرستمي وتنازل له عن ولاية طرابلس، ما عدا مدينة طرابلس نفسها .

٣٩ – ابن الأكفاني – شارع – بقسم مينا البصل

١) **أبو محمد ابن الأكفاني**: من كبار رجال الفقه الحنفي، تولى القضاء ببغداد في عهد الخليفة العباسي القادر بالله، وحدث أن أشار أبو حامد الإسفراييني على الخليفة بأن يستخلف مرة إياس ابن العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعيّ المذهب، ولم يرض الأكفاني عن ذلك، ولاسيما بعد أن كتب الإسفراييني إلى السلطان محمود بن سبكتكين وإلى أهل خراسان بأن الخليفة القادر نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فذاع ذلك بين الناس، وصار أهل بغداد حزبين، وثارت بينهما الفتن مما اضطر الخليفة إلى جمع الأشراف والقضاة وأخرج إليهم رسالة أبدى فيها أن الإسفراييني غرّر به، ولم يكن صادقًا في نصحه له، ولذا قرر العدول عن تولية البارزي، ثم خلع على الأكفاني، وكان ذلك خلال عام ٣٩٢هـ (١٠٠١م) .

٢) **ابن الأكفاني**: وهناك ابن الأكفاني آخر، كان حكيمًا بارعًا في الرياضة وفي علوم الهيئة والهندسة والحساب، وقد تتلمذ عليه صلاح الدين الصفدي المتوفى عام ٧٦٩هـ (١٣٦٧م)، وله مؤلفات في هذه العلوم قرأها عليه الصفدي حين دراسته عليه .

٤٠ – ابن باجة – حارة – بقسم اللبان

هو أبو بكر محمد بن يحيى الملقب بابن باجة، ويعرف عند الإفرنجة باسم «أفانباس Avenpace» ويعرف عند العرب «بابن الصائغ» علاوة على لقبه الآخر «ابن باجة»، وهو فيلسوف عربي مشهور ولد في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بمدينة سرقسطة الواقعة بالشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإسبانية وكانت إحدى مدن الأندلس العربية في ذلك الحين .

وإلى جانب تبحره في الفلسفة فقد اشتهر ابن باجة بالطب والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية، كما اشتهر أيضًا بالموسيقى ومن ثم اعترف بفضله ابن القفطي وابن أبي أصيبعة وابن خلدون والمَقَرِّي وابن الخطيب (انظر هذه المواد)، وقال عنه هؤلاء العلماء إنه علامة زمانه ومن فحول فلاسفة المسلمين .

وألَّف ابن باجة طائفة كبيرة من الكتب تناول فيها المنطق والطب والهندسة والنبات والأدوية المفردة والفلك وعلم النفس وشرح فلسفة أرسطو، ولم يبق من هذه المؤلفات العديدة سوى تراجم لها باللغتين اللاتينية والعبرية، ومن أهم هذه المؤلفات شروحه الكثيرة على كتب أرسطو الفيلسوف اليوناني الذي يعتبر من كبار مفكري البشرية ومؤسس مذهب «فلسفة

المشائين»، وقد عثر أخيرًا على أحد كتبه في مكتبة برلين بألمانيا وهو مخطوط عظيم الفائدة يقع في ٤٤٠ صحيفة، وكان من أثر هذا المخطوط القيم أن غير حكم العلماء على ابن باجة وأزال الغموض عن بعض النقاط، وألقى الضوء على تراث هذا الفيلسوف العربي وآرائه.

وفلسفة ابن باجة مبنية على الطبيعيات والرياضيات، وقد تأثر الفيلسوف الألماني «كانت Kant» بهذا الاتجاه في فلسفته، ومن ثمَّ يرى بعض الباحثين أن ابن باجة نَحَّى عن الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل وألبسها لباس العلم الواضح الصحيح، وسار بها في طريق جديد علمي، ففصل الفلسفة عن الدين، فلم يتعرض للجدل الديني وانصرف بكليته إلى الناحية العقلية، فهو يرى السعادة في البحث عن الحقيقة والعدل، ويجد نيل السعادة بالأعمال والأفعال الصادرة عن الروية وتنمية القوى العقلية تنمية بعيدة عن القيود، وقد أوضح كل هذا وأشار إلى الأفعال الإنسانية وأنواعها في كتابه «تدبير المتوحد».

وعند ابن باجة أن الإنسان الذي يبغي أن يعيش على نور العقل وهديه، عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحايين، فيتولى تعليم نفسه بنفسه وأن في وسعه الانتفاع بمحاسن الحياة الاجتماعية تاركًا مساوئها، وأن على أهل الحكمة أن يكوِّنوا من أنفسهم جماعات تبتعد عن ملاذ العامة ونزعاتهم، وأن يحاولوا السير على الفطرة في معيشتهم.

ولم يكن ابن باجة سعيدًا في حياته، إذ كانت هذه الحياة محفوفة بالفاقة والقلق النفسي وفقدان الأنيس الذي يشاطره آراءه؛ ولذا كان يرى نفسه في عزلة عقلية جعلت الدنيا سوداء في عينيه وجعلته يتمنى الموت لينعم بالراحة الأبدية.

وفي رأي ابن باجة أن أعمال البشر مركبة من عناصر إنسانية وحيوانية وأن على المتوحد أن يجعل العناصر الإنسانية تتغلب على أعماله، وأن يجعل للتفكير والعقل التأثير الأول في حركاته ونواحي نشاطه، إذا أراد أن يسمو بفضائله ويتميز بها.

وفي الرسالة التي بعث بها إلى أحد تلاميذه – وهي رسالة الوداع – يشيد ابن باحة بمقام العلم والفلسفة، إذ هما جديران بإرشاد الإنسان إلى المعرفة الطبيعية ومعرفة ذاته، ويقول إن المحرك الأول في الإنسان هو أصل الفكر، وإن الغاية الحقيقية من وجود الإنسان ومن العلم هي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعَّال الذي يفيض منه.

وقد انتقد ابن باجة الغزالي وقال إنه خدع الناس وخدع نفسه حين قال في كتابه «المنقذ»: «إن الإنسان يستطيع بالخلوة أن يكتشف العالم الفعلي ويرى الأمور الإلهية فيلتذ لذة كبيرة»، وانتقد ابن سينا (انظر مادتي الغزالي وابن سينا)، فيما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية والاتصال بالملأ الأعلى يحدث التذاذًا عظيمًا، ويقول إن هذا الالتذاذ هو للقوة الخيالية لا غير، ومن كل ما تقدم يتضح أن ابن باجة يكوِّن في الأندلس حركة ضد الميول الصوفية، إذ يرى أن العلم النظري وحده قادر على الوصول بالإنسان إلى فهم ذاته وفهم العقل الفعَّال.

وقد تأثر ابن رشد (انظر هذه المادة) بآراء ابن باجة، كما تأثر بالآراء التي تتعلق باتحاد النفوس، وكان لهذه الآراء مجتمعة أثر كبير عند الفرق المسيحية وفلاسفة الكنيسة، مما حدا بالقديس توماس وألبرت الأكبر أن يؤلف رسائل خاصة

بالأبطال، ومن ثم يكون ابن باجة قد مهد الطريق الجديد الصحيح في المشرق والمغرب على السواء.

وترتب على إذاعة هذه الآراء الفلسفية أن حمل عليه معاصروه واتهموه بالزندقة وقالوا عنه: «إنه قذى في عين الدين وعذاب لأهل الهدى»، وقال ابن خاقان في كتابه «قلائد العقيان»: «إن ابن باجة اشتهر بين أهل عصره بهوسه وجهوده واشتغاله بسفاسف الأمور، ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم النجوم، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه، وكان يقول بأن الدهر في تغير مستمر وأن لا شيء يدوم على حال، وأن الإنسان كبعض النبات والحيوان، وأن الموت نهاية كل شيء»، وهذه الأقوال التي نسبت لابن باجة دفعت حُسَّاده ومنافسيه إلى رميه بالإلحاد والزندقة، مما اضطره إلى مغادرة الأندلس والذهاب إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى؛ حيث لاحقته الدسائس والوشايات والاتهام بالخروج على تعاليم القرآن والدين الإسلامي، ويقال إنه مات مسمومًا خلال عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م).

ولابن باجة فضل عظيم في ازدهار الفلسفة في البلاد المغربية وأثر عميق في التفكير المسيحي، وقد تتلمذ عليه فئة من العلماء لمع أفرادها في ميادين البحث العلمي والإنتاج الثقافي ولاسيما في الرياضيات والفلك والطب، وكان لملحوظاته القيمة الدقيقة على نظام بطليموس في الفلك أثر كبير جعل جابر بن الأفلح يصلح المجسطي في علم الفلك خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، وامتد أثره القوي إلى الطب، فاستشهد به ابن البيطار في كتاب «الأدوية المفردة»، وذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، كما اعتمد على رسالته في الطب، وأثر ابن باجة على ابن طفيل ونجد هذا التأثير واضحًا في كتاب «حي بن يقظان»، وأثر على ابن رشد (انظر هذه المادة) تأثيرًا قويًّا نجده واضحًا في اتجاهاته العقلية، وقد قال «مونك»: «إن نظرية ابن رشد في العقل والخلود التي أثار بها أوروبا النصرانية إنما هي نظرية ابن باجة»، ولهذا الفيلسوف الأندلسي مكانة مرموقة عند الغربيين على الرغم من قلة المصادر التي تتناول سيرة حياته أو آثاره العلمية.

وعلاوة على إنتاجه الفكري في النواحي المتعددة الموضحة قبل فإنه كان شاعرًا رقيق الحاشية، عذب الأسلوب، مرهف الإحساس، ومن شعره في الغزل الأبيات التالية التي تدل عباراتها على أنه نظمها أثناء اغترابه عن الأندلس:

أَسُكَّانَ نعمانِ الأَرَاكِ تَيَقَّنُوا
بِأَنَّكُمُو فِي رَبْعِ قَلْبِي سُكَّانُ

وَدُومُوا عَلَى حِفْظِ الوِدادِ، فَطَالَمَا
بُلِيْنا بَأَقوامٍ إِذَا استُئْمِنُوا خَانُوا

سَلوا اللَّيْلَ عنِّي مُذْ تَنَاءَتْ ديارُكُمْ
هَلِ اكْتَحَلَتْ بالغَمْضِ لِي فِيهِ أَجْفَانُ

وَهَلْ جَرَّدَتْ أَسْيَافَ بَرْقٍ سَماؤُكُمْ
فَكَانَتْ لَهَا إِلاَّ جُفوني أَجْفَانُ

ومن هذا الشعر الرقيق قوله:

قَدْ أَوْدَعُوا القَلْبَ لَمَّا وَدَّعوا حُرَقًا
فَظَلَّ في الليلِ مِثلَ النَجْمِ حَيْرانا

رَاوَدْتُهُ يَسْتعيرُ الصَّبْرَ بَعْدَهُمُو

فقال إنِّي اسْتَعَرْتُ اليومَ نيرانَا

وكان ابن باجة من أبرع من وضعوا الموشحات في الأندلس، وقد عاصر عبادة بن ماء السماء (انظر هذه المادة)، ويروى أنه حضر يومًا مجلس أبي بكر إبراهيم بن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على قيان أبي بكر موشحته التي مطلعها:

جرر الذيلَ أيَّما جر

وصل الشكر منك بالشكرِ

إلى أن اختتمها بقوله:

عَقَدَ الله رَايَةَ النَّصْرِ

لأَميرِ العُلاَ أَبِي بَكْرِ

٤١- ابن باديس - شارع - بحي العامرية

هو الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري الأصل والمولد، وكان مولده بمدينة قسنطينة الواقعة في شرق القطر الجزائري، ويصل ارتفاعها عن سطح البحر ٨٠٠ متر، وهي قاعدة إقليم قسنطينة، وذلك خلال عام ١٣٠٨هـ (١٨٨٩م).

وقد اتصل في شبابه ورجولته بالسيد رشيد رضا (انظر هذه المادة) وتشبع بآرائه وأفكاره الاجتماعية الإصلاحية، وبعد أن تعلم الكتابة والقراءة وحفظ السور الأولى من القرآن الكريم بأحد كتاتيب مدينة قسنطينة ألحقه أبوه بجامعة الزيتونة بمدينة تونس، ويسير التعليم فيها على غرار الجامع الأزهر بالقاهرة، وفي أثناء دراسته بهذه الجامعة تأثر بتعاليم «ابن تيمية» الدينية، وبتعاليم الشيخ محمد عبده المتعلقة بالإصلاح الديني والاجتماعي (انظر مادة الشيخ محمد عبده).

ويعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس الباعث الحقيقي للنهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة وموجه هذه النهضة وراعيها. ومن أجل تحرير بلاده من نير الاستعمار الفرنسي البغيض عمل جاهدًا على إحياء الحركة الوطنية النضالية في الجزائر منذ السنين الأولى من القرن العشرين والسير بها في الاتجاه القومي السليم، ومن ثمّ استطاعت هذه الحركة الثورية أن تتخلص في بداية الثلاثينيات من القرن الحالي من الاتجاهات التي تتعارض مع عروبة الوطن الجزائري وإسلامها الصحيح المتين، كما استطاعت أن تجعل من تحرير الجزائر في حيز الحضارة العربية الإسلامية هدفها الأساسي الذي تكافح في سبيل تحقيقه دون هوادة.

ومن أجل هذه الغاية قاد عبد الحميد بن باديس خلال الثلث الأول من هذا القرن حركة التربية والتعليم العربية بنجاح مطرد، وقد بدأها في مدينة قسنطينة عام ١٣٢٢هـ (١٩١٣م) بتدريس الحضارة الإسلامية والأدب العربي وتفسير القرآن الكريم وموطأ الإمام مالك في الحديث، وسرعان ما امتدت هذه الحركة الثقافية المفيدة إلى مختلف جهات الجزائر ولاسيما في المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء التي بقي ابن باديس يتولى رياستها طوال حياته، كما شملت تعاليم الحركة النوادي العربية الإصلاحية التي كونها أنصاره في معظم المدن وفي مقدمتها «نادي الترقي» الذي أنشئ بمدينة الجزائر عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، وكانت هذه الحركة المباركة بمثابة المشعل الذي أضاء للشعب الجزائري طريق الخلاص النهائي من الاستعمار الفرنسي في ظل عروبته وإسلامه.

ولم يكن ابن باديس مصلحًا اجتماعيًّا فحسب بل كان سياسيًّا هامًّا، فمن حيث الإصلاح كان مربيًا ومعلمًا لجيل بأسره من أبناء القطر الجزائري الذين قامت على عواتقهم الحركة الوطنية، وقد أسهموا في نضالها المرير بقسط وافر واشتركوا في ثورتها العارمة الكبرى عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

وقد بدأ ابن باديس في بث تعاليمه الوطنية الصادقة منذ كان مدرسًا بمدينة قسنطينة، وما من شك في أن الذي ساعده على ذلك اشتراكه في هيئة التدريس بالمعهد الثقافي الوحيد بهذه المدينة في ذلك الحين، أي في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

فلكي تجعل العالم يؤمن بنواياها الحسنة نحو الجزائريين – فيما يتعلق بالتعليم – أنشأت فرنسا ثلاثة معاهد علمية، معهد في كل حاضرة من حاضرات الأقاليم الإدارية الثلاثة التي كانت البلاد تنقسم إليها في عهد الاستعمار وهي: وهران، والجزائر، وقسنطينة، وأطلقت على هذه المعاهد كلمة «المدرسة La Medrassa»، وكان التعليم فيها لا يتعدى المرحلة الأولى من التعليم الثانوي بالنسبة للتعليم المصري، ولابد أن ابن باديس لم يضيع الفرصة خلال قيامه بالتعليم «بمدرسة قسنطينة» ليبث في وعي تلاميذه التعاليم الإسلامية العربية ليتكون منهم النواة الأولى لمخططه الإصلاحي الثوري، وقد نجح في تنفيذ غايته الوطنية النبيلة خصوصًا وأن الحركة الثورية التحررية بدأت من مدينة قسنطينة بالذات مسقط رأسه ومكان المرحلة الأولى من ثورته الوطنية.

والواقع هو أن ابن باديس لم يكن مربيًا ومعلمًا فقط وإنما عمدة من عمداء الإصلاح الشامل في الوطن العربي بأسره، فكان من عظماء المصلحين ويتمتع بقوة روحية عالية كان لها أثر عميق في جميع من اتصلوا به فبث إشعاع هذه الروح الهائلة القائمة على التفكير الوطني السليم في جميع أنحاء المغرب العربي وأقطار العروبة الأخرى.

ولمعرفة الدور الكبير الذي لعبه هذا المعلم المصلح في النهضة الجزائرية العربية يجب الإلمام – ولو بكيفية موجزة – بسياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر عقب الاحتلال في عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) المشؤوم مباشرة.

فقد أدركت فرنسا منذ هذا الاحتلال الغاشم في ٥ يونية من ذلك العام أنه لن يكتب لاستعمارها البقاء مادام الإسلام دين البلاد وما دامت العروبة عقيدة أهلها؛ ولذلك جعلت خططها الاستعمارية تقوم على أساس العمل بكل وسيلة مستطاعة لتحطيم الشخصية الإسلامية العربية للشعب الجزائري، بغية جعله شعبًا خاضعًا للشعب الفرنسي في كل أحاسيسه ونزعاته، وكانت تبغي من وراء ذلك تجديد مأساة الإسلام والعروبة في الأندلس.

وتجلت سياستها الاستعمارية الهادفة إلى القضاء نهائيًّا على الشخصية الجزائرية في العمل الدائب المستمر على تحطيم العقيدة الإسلامية في نفوس أهل الجزائر والقضاء على الثقافة العربية وذلك بالقضاء على تعليم اللغة العربية ثم القضاء على الجنسية الجزائرية وذلك بتشويه تاريخ الجزائر في ظل الحضارة الإسلامية العربية، وأخيرًا العمل في غير هوادة على تفكيك الوحدة الوطنية للشعب عن طريق إثارة الفتن والحزازات العنصرية بين القبائل والعشائر اتّباعا للسياسة الاستعمارية التقليدية وهي «فَرِّقْ تَسُدْ».

وتمشيًا مع أهداف هذه السياسة الخبيثة قضت فرنسا على معاهد العلم الإسلامية التي كانت مزدهرة قبل الاستعمار الغاشم فشردت العلماء والطلاب كما حولت معظم المساجد إلى كنائس وسلمت بعضها إلى اليهود فحولوها إلى معابد لهم.

وأصدرت فرنسا بعد ذلك مراسيم تقضي باعتبار الجزائر جزءًا من بلادها، وأخذت في تضييق الخناق على اللغة العربية إلى أن أصدرت خلال عام ١٩٢٧م قانونًا أصبحت بمقتضاه لغة البلاد العربية لغة أجنبية واللغة الفرنسية لغة أصيلة، وكانت قد أصدرت في عام ١٩٠٤م قانونًا آخر لا يسمح لأي جزائري بأن يتولى إدارة أية مدرسة لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي إلاّ إذا حصل على ترخيص في ذلك من محافظ الإقليم أو الحاكم العسكري في المناطق الخاضعة للحكم العسكري الدائم مثل منطقة الصحراء الكبرى في جنوب البلاد.

وأنذر هذا القانون الجائر من يقومون بفتح أية مدرسة عربية بدون هذا الترخيص بالغرامة المالية أو بالحبس أو بهما معًا.

وإذا سُمح للجزائري بفتح مدرسة عربية يشترط عليه أن يقصر التعليم على تحفيظ القرآن فقط وألاّ يتناول في تعليمه تفسير القرآن وخاصة تفسير الآيات التي تحض على الجهاد في سبيل التحرير ورفض الرضوخ للظلم والاستعباد، مع استبعاد دراسة تاريخ الجزائر وتاريخ العرب والإسلام وجغرافية القطر الجزائري وجميع الأقطار العربية والبعد عن تدريس الأدب العربي بكافة فروعه وعصوره.

وإمعانًا في تنفيذ هذه السياسة التعسفية الظالمة عملت فرنسا جاهدة على عزل الجزائر عن العالم العربي عزلاً كاملاً طيلة قرن من الزمن وأكثر.

أما التعليم في المدارس الرسمية فكان باللغة الفرنسية، فكان الجزائريون يدرسون جغرافية فرنسا وتاريخها بالتفصيل ولا يعرفون في الوقت نفسه شيئًا عن جغرافية بلادهم سوى أنها مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأما عن التاريخ فكان الجزائري يدرس في مدارس الاستعمار ما يجعله يعتقد بأن أجداده الأولين كانوا من السلالة الغولية أي من الجنس الفرنسي القديم، ومعنى ذلك أن الجزائري فرنسي الأصل بالنسبة لعلم الأجناس.

وفي عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ) أقامت فرنسا احتفالات استمرت شهرين بمناسبة مرور قرن على الاغتصاب الفرنسي للجزائر، وخلال هذه الاحتفالات الصاخبة لم يتورع بعض الخطباء عن إهانة الجزائريين والتصريح الوقح بأنه قد قضى نهائيًّا على عروبة الجزائر وإسلامها.

وفي هذا الجو المشحون بالظلم والعسف ووسط هذا الظلام الحالك الذي كانت الجزائر تعيش في سواده الاستعماري المحموم ضد العروبة والإسلام بدأ عبد الحميد بن باديس في مستهل القرن العشرين الحالي نشر دعوته عن طريق المدارس والنوادي وإلقاء الدروس التي تتناول شرح الحضارة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وذلك على مريديه وطلابه في مدينة قسنطينة مسقط رأسه.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) اتخذ خطوة جديدة لنشر دعوته العربية الإسلامية

مقتفيًا في ذلك حركة التجديد الإسلامي التي بدأها في الشرق جمال الدين الأفغاني (انظر مادة الأفغاني) ومحمد عبده (انظر مادة الشيخ محمد عبده).

وكان ابن باديس حريصًا على إخفاء هدفه السياسي لتحرير الجزائر تحت ستار الحركة الدينية تجنبًا لمكائد الاستعمار وبطشه الغاشم، وتتمثل خطوته الجديدة في إنشاء الصحافة العربية في الجزائر فأصدر في عام ١٩٢٥م (١٣٤٤هـ) جريدة «المنتقد»، ولشدة لهجتها وجرأة دعوتها لمقاومة الاستعمار الفرنسي وأعوانه وعملائه أمرت السلطات الإدارية بوقف إصدارها نهائيًّا بعد الأعداد الأولى القليلة من خروجها إلى حيز الوجود، ولكن ابن باديس لم يستسلم لليأس فأصدر في عام ١٩٢٥ نفسه مجلة الشهاب التي كانت أسبوعية في أول أمرها ثم صارت شهرية في عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ)، وظلت هذه المجلة تلقي بشعاع الأمل في نفوس الجزائريين إلى قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩م (١٣٥٨هـ) إذ أوقف صدورها الفقيد نفسه خشية أن تضطره الإدارة الاستعمارية إلى نشر مقالات أو آراء لا تتفق مع مبادئه الإسلامية الثورية.

ولقد كانت مجلة الشهاب الرابطة الثقافية الفكرية التي تربط الجزائر بأقطار المغرب العربي وبأقطار الشرق العربي جميعها، وهي الأقطار التي حاول الفرنسيون عزل الجزائر عنها، ومن ثمّ كانت دعوة ابن باديس الدينية وسياسته التحررية عاملاً قويًّا من العوامل القومية الوطنية التي كانت السبب في إنقاذ الجزائر من سياسة الفرنسة والتجنس التي كانت الإدارة الاستعمارية تسعى جاهدة إلى فرضها على الشعب الجزائري ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية.

ويظهر أثر مجلة الشهاب في هذا الصراع التحرري الذي نادى به ابن باديس، يظهر هذا الأثر واضحًا في المقال الذي كتبه هذا المكافح الذي لم يتوان في نضاله بالمجلة بعددها الصادر في شهر نوفمبر عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) ردًّا على ما قاله أحد دعاة التجنس بالجنسية الفرنسية، وقد كتب رأيه هذا في إحدى الجرائد الفرنسية بعنوان «أنا فرنسا» أنكر فيه وجود الأمة الجزائرية العربية المسلمة والقومية العربية في الجزائر.

وقد جاء في رد عبد الحميد بن باديس على هذا الدعيّ وهو الرد الذي نشره بالمجلة تحت عنوان «كلمة صريحة» ما يأتي:

«قال البعض من النواب المحليين ومن الأعيان ومن كبار الموظفين بهذا البلد (الجزائر) إن الأمة الإسلامية الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحت، لا وطن لها إلاّ الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلاّ الاندماج الفعلي التام في فرنسا، ولا أمل لها في تحقيق هذه الرغبة إلاّ بأن تمد لها فرنسا يدها بكل سرعة، فتلغي جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام، بل قال أحد النواب النابهين إنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها أثرًا، وفتش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر، وأخيرًا أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح «فرنسا هي أنا»، حقًّا إن كل شيء يرتقي في هذا العالم ويتطور!!!».

وبعد هذه الديباجة يقول ابن باديس: «إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة، كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة وحدتها وتاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها

الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبح شأن كل أمة في العالم».

ثم تطرّق إلى القول بأن الجزائر الإسلامية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون كذلك ولا تريد أن تصير جزءًا من فرنسا؛ لأنها أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وأخلاقها وعنصرها ودينها ولها وطن محدود معين بحدوده الحالية.

وبهذه الكلمات البارعة أوضح ابن باديس خصائص الشعب الجزائري ومقوماته الأساسية وهي العروبة والإسلام ورسم الطريق الصحيح لكل مجاهد في سبيل تحرير البلاد ومساهم في حركة التحرير الوطنية المقدسة، ومن ثمّ فهو يعدُّ بحق «باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة»، وهي النهضة التي أخذت تتقدم بخطوات موفقة منذ أن نالت الجزائر استقلالها التام في عام ١٩٦٢ بفضل جهاد أبنائها وتضحية الشعب الجزائري التي تعدت المليون من الشهداء الأبرار، فقد عُربت نظم التعليم الإلزامي والابتدائي، وشرعت الدولة في تعريب التعليم الثانوي والجامعي وتعريب القضاء وكل النظم الحكومية التنفيذية والتشريعية مهتدية بآراء ابن باديس وما جاهد من أجله طوال حياته الحافلة بجليل الأعمال الوطنية الصادقة.

وقد ألقى هذا المجاهد المخلص محاضرة في شهر يناير عام ١٩٢٧م في أعضاء جمعية التربية والتعليم بمدينة قسنطينة تحت عنوان «لمن أعيش» قال فيها: «إني أعيش للإسلام والجزائر، وقد يقول قائل إن هذا ضيق في النظر وتعصب للنفس وقصور في العمل وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده دينًا للبشر ولا الجزائر وحدها هي وطن الإنسان ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه في الاحترام.

فأقول نعم... إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونقلها دون واسطة، ومن ثمّ وجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع ... فإذا عشت فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلاّ بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله، فهذا هو معنى قولي إنني أعيش للإسلام.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليَّ تلك الروابط لأجله كجزء منه فروضًا خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه، إلى رجاله، إلى ماله، وإلى حاله، وإلى آلامه، وإلى آماله، كذلك أجدني إذا عملت خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه وهكذا ...

فهذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني في كل حال وفي جميع الأعمال. وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لابد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال».

ومن كل ما تقدم يتضح أن عبد الحميد بن باديس كان واسع الأفق في التفكير؛ بحيث شملت فلسفته خدمة الإنسانية كلها عن طريق خدمة وطنه؛ لأن الذي لا ينجح في خدمة وطنه الخاص لا يكون صالحًا لخدمة الوطن الإنساني الأكبر.

وتنكيلاً بالتعليم العربي الإسلامي في الجزائر إلى أبعد الحدود أصدرت فرنسا في ١٢ يوليو عام ١٩٤٥م قانونًا يفرض على معلمي الكتاتيب أن يتقنوا اللغة الفرنسية، وقد اتخذ هذا التشريع حجة لإغلاق كثير من الكتاتيب وعرقلة فتح غيرها؛ نظرًا لأن معظم الأساتذة يتخرجون في أحد المعاهد الإسلامية وهي الأزهر والزيتونة بتونس وجامعة القرويين بالمملكة المغربية وهي لا تعلم اللغة الفرنسية.

وقد صدر كتاب بعنوان «آثار ابن باديس» طبع في دمشق وهو يحتوي على المقالات والأخبار التي نشرها ابن باديس حينما كان مدرسًا بجامعة الجزائر، وقد جمعها الأستاذ عمَّار الطالبي في حياة ابن باديس.

وكان لابن باديس الفضل الأكبر في إنشاء المدارس الأهلية في الجزائر، وقد أنشأ جمعية العلماء في عام ١٩٣١ لترعى الشؤون الإسلامية واللغة العربية وهذه المدارس الأهلية. وقد التفّ حوله الكثير من أفراد الشعب حتى بلغ عدد المدارس تحت رعايته ١٧٠ مدرسة للبنين والبنات خرَّجت أجيالاً على مبادئه وترعرع في أحضانها معظم من قادوا حركة التحرير حتى النصر.

وتوفي الشيخ عبد الحميد بن باديس في ٨ ربيع الأول عام ١٣٥٩هـ (١٦ إبريل عام ١٩٤٠م)، بالغًا من العمر حوالي ٥٢ عامًا، وحمل راية الكفاح في سبيل الإسلام والعروبة الشيخ البشير الإبراهيمي وزملاؤه وتلاميذه، وقد عرفت الثورة الجزائرية قدره وأثره في النضال من أجل الحرية والاستقلال فكرّمته وعُنيت بالاحتفال بذكراه.

ولقد أسعدني الحظ أن أحظى بمقابلة الشيخ البشير الإبراهيمي في أثناء وجوده بالإسكندرية بفندق «متروبول» بمحطة الرمل، وكان في ذلك الحين منفيًّا من الجزائر فوجدت فيه الصلابة في الحق وفي الوطنية وسعة التفكير والتفاني في خدمة القضية الجزائرية، ولم يعد إلى وطنه الجزائر إلاّ بعد الاستقلال عام ١٩٦٢.

وكان الاستعمار الفرنسي يظن أن الشعب الجزائري قد فقد وطنيته ودينه الإسلامي نهائيًّا، ويتمثل هذا الظن الخاطئ في قول الكردينال «لافيجري» خلال عام ١٩٣٠م إذ أعلن في صلف ووقاحة نابية: «أن عهد الهلال في الجزائر قد زال وأن عهد الصليب قد بدأ وسيستمر إلى الأبد»، وظل الاستعمار الغاشم يرسم الخطط الخبيثة توصلاً لهذه الغاية ويأخذ في تنفيذها دون هوادة طوال أكثر من قرن حتى اطمأن أو كاد يطمئن إلى أن خططه تسير على ما يرام، ولقد صور المجاهد عبد الحميد بن باديس الحالة التي وصلت إليها نفوس أهل الجزائر في ذلك الحين أَبلغ تصوير عندما استدعاه حاكم مدينة قسنطينة الفرنسي ليسأله عن موقفه والحرب العالمية الثانية وشبكة الوقوع فقال له:

«إن الجزائر الآن ثلاث طبقات: طبقة الأكثرية وقد قتلتم إحساسها بالحياة فلا تفرق بين فرنسا وبين باريس، وطبقة الأقلية الواعية، وقد سددت أفواهها بعظم الوظيفة تلوكه بين أشداقها وهي تحسبه غذاء، وطبقة المعزولين (ويقصد أعضاء

جمعية العلماء في الجزائر وكانوا مضطهدين يعيشون للمستقبل ولا خطر منهم على دولتكم اليوم)، هكذا صوَّر ابن باديس الموقف للحاكم الفرنسي كما كان يبدو أمام الجميع وفرنسا متمكنة ومطمئنة على حكمها في الجزائر.

ولكن بعد خمسة عشر عامًا من هذا التصوير تغير الموقف كلية وبدأت الثورة الغاضبة العارمة ضد المستعمر ويفور الغضب عليه في كل مكان في البلاد، ويهب الشعب هَبَّةً لم يعرفها شعب آخر.

فما الذي حدث ليتغير موقف الشعب هذا التغير الجذري العنيف؟ يقول الجزائري «مالك بن نبي» في كتابه بعنوان «شروط النهضة»، بعد أن تحدث عن النوم الذي كان الشعب يغط فيه خلال السنين الأولى من القرن العشرين الحالي... يقول هذا المؤلف: «ولكن شعاع الفجر قد بدأ ينساب بين نجوم الليل من قمة الجبل، فلم يلبث أن محت آياته الظلمة من سماء الجزائر... ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات «ابن باديس» فكانت تلك ساعة اليقظة وبدأ الشعب الجزائري يتحرك ويا لها من يقظة مباركة».

ثم يستطرد قائلاً: «ولقد كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون أقرب هذه الحركات إلى النفوس وأدخلها في القلوب؛ إذ كان أساس مناهجهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فأصبحت هذه الآية الكريمة شعار كل من ينخرط في سلك الإصلاح في مدرسة ابن باديس، وكانت أساسًا لكل تفكير فظهرت آثارها في كل خطوة وفي كل مقال، وهكذا أتيح «للإصلاح» أن يمسك بمقاليد النهضة الجزائرية وأمكنه أن يبعثها خلقًا جديدًا بالروح الإسلامية التي تخلصت من كابوس الأوثان.

هذه هي حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس الجهادية في سبيل الوطن واسترداد حقوق الشعب الجزائري المغتصبة من براثن الاستعمار الفرنسي الغاشم، وكان ابن باديس على حق حين قال لأحد الوزراء الفرنسيين عندما هدده قائلاً: «إن لدى فرنسا مدافع طويلة»: «إن لدينا مدافع أطول هي مدافع الله».

٤٢-ابن الباريزي - شارع - بقسم سيدي جابر

هو الشيخ ظهير الدين بن الباريزي الدمشقي، كان عالمًا فاضلاً وله شعر جيد، فمن ذلك قوله:

يُذَكِّرُنِي وَجْدُ الحَمَامِ إِذَا غَنَّى
لأَنَّا كِلَيْنَا فِي الهَوَى يَعْشَقُ الغُصْنا

وفي هذا البيت تورية في كلمة «الغصن» التي تدل على فرع من فروع الشجر، وعلى الغادة الحسناء رشيقة القدِّ والقوام، فيقال: «هي جميلة كالغصن في قدِّها وقوامها».

وكانت وفاة ابن الباريزي خلال عام ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) في عهد الملك المنصور قلاوون.

٤٣- ابن بدرون - حارة - بقسم الجمرك

يُلقب ابن بدرون بابن عبدون أيضًا، وهو ابن عبدون الفهري، ولد ببلدة يابرة، وكان من شعراء الأندلس، وقد اشتهر بقصيدته التي يطلق عليها اسم «البسَّامة»، وقد نظمها للتعبير عن سقوط دولة بني الأفطس، ومطلعها:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بِالأَثَرِ
فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ

وبنو الأفطس أسرة بربرية حكمت في بطليوس بلاد الأندلس من عام ٤١٨هـ إلى عام ٤٨٧هـ (١٠٢٧ – ١٠٩٤م)، وأول أمرائها عبد الله الذي تميز حكمه بالحروب الطاحنة، وبهزيمته من ابن عبَّاد أمير إشبيلية، ولكن على الرغم من تلك الحروب، ازدهر في عهده الأدب والشعر، وبين الشعراء الذين اشتهروا في أيامه ابن عبدون الملقب بابن بدرون. وتوفي ابن بدرون في يابرة عام ١١٣٤م (٥٢٩هـ).

٤٤– ابن بَسَّام – شارع – بقسم العطارين

يحمل لقب ابن بسَّام اثنان من مفكري العرب، أحدهما عراقي والآخر أندلسي من أصل برتغالي، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) أبو الحسن علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بَسَّام: كان شاعرًا مشهورًا ويعرف بالشاعر البَسَّامي، وقد تزوج أبوه محمد بن نصر من إمامة بنت حمدون النديم، وقد روى عن ابن بَسَّام أبو بكر الصولي (انظر مادة الصولي)، وأبو سهل بن زياد وغيرهما، وكان من أكابر الشعراء ومن أحسن الظرفاء، ولكنه كان مولعًا بالهجاء، فلم يسلم من هجائه أمير أو وزير ولا صغير ولا كبير، لدرجة أنه هجا أباه وإخوته وجميع أفراد أسرته، ومن هجائه لأبيه قوله:

هَبْكَ عَمَّرتَ عُمرَ عِشْرِينَ نِسْرَا
أَتَرَى أنَّني أَمُوتُ وتَبْقَى

فَلَئِنْ عِشْتُ بَعْدَ مَوْتِكَ يَوْمًا
لأشُقَّنَ جَيْبَ مَالِكَ شَقّا

وسأل الوزير ابن المرزبان أن يهبه جوادًا فرفض فقال هاجيًا:

بَخِلْتَ عَنِّي بمقرفٍ عَطِبٍ
فَلَنْ تَرَانِي مَا عِشْتُ أطلبُهُ

وإن نَقُلْ صُنْتُهُ فما خلقَ اللـ
ـه مَصُونًا وَأَنْتَ تَرْكَبُهُ

وهجا أَسَدَ بن جهور الكاتب بهذه الأبيات:

تَعِسَ الزَّمَانُ لَقَدْ أَتَى بِعَجَائِب
وَمَحَا رُسُومَ الظّرْفِ والآدَابِ

وَأَتَى بكُتَّابٍ لَو انْبَسَطَتْ يَدِي
فِيهِمْ رَدَدتهُمُو إِلَى الكُتَّابِ

أَوَ ما تَرَى أَسَدَ بْنَ جَهْوَرَ قَدْ غَدَا
مُتَشَبِّهًا بأَجِلَّةِ الكُتَّابِ

وله في الغزل الممزوج بالزهد بعد أن داهمه المشيب هذه الأبيات:

أَقْصَرْتُ عَنْ طلبِ البِطالة والصَّبَا
لَمَّا عَلاَني لِلْمَشِيبِ قِنَاعُ

للهِ أيَّامُ الشَّبَابِ وَلَهوُهُ
لَوْ أنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ تُباعُ

فَدَعِ الصَّبَا يَا قَلْبُ وَاسْلُ عَنِ الهَوَى
مَا فِيكَ بعدَ مَشِيبِكَ اسْتِمْتاعُ

وانْظُرْ إلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ مُوَدِّعٍ
فَلَقَدْ دَنَا سَفَرٌ وَحَانَ وَدَاعُ

وَالحَادِثَاتُ مُوَكَّلاَتٌ بالفَتَى
وَالنَّاسُ بَعْدَ الحَادِثَاتِ سَمَاعُ

وقال في وصف ليالي الأنس والسمر التي قضاها في صباه:

وَكَانَتْ بِالصَّرَاةِ لَنَا لَيَالي
سَرَقْناهُنَّ مِنْ رَيبِ الزَّمَانِ

جَعَلْناهُنَّ تَارِيخَ اللَّيَالِي
وَعنْوانَ المَسَرَّةِ وَالأَمَاني

ويظهر أن ابن بسام نشأ في أسرة غنية، فقد كان أبوه مترفًا يميل إلى المسرات، وكان حسن الزي، ظاهر المروءة، متأنقًا في زيه وملبسه وفي تجميل داره، ومن ثم يكون شاعرنا قد تربى في هذه المناظر الجميلة البديعة الرونق، ولكن هذا الرونق لم ينعكس في عمق على نفسيته التي مالت إلى الهجاء وهو يعكس كل ما في الوجدان من انفعالات غير خيرة.

وقد عاش ابن بسام في زمن الخليفة المعتضد والخليفة المتوكل العباسيين، ففي عهد المعتضد تولى ابن بسام البريد والجسر في العواصم من أرض الشام وهي منطقة متسعة الرقعة كانت أنطاكية قصبتها.

وفي عهد المتوكل لم يسكت ابن بسَّام عن تحامل هذا الخليفة الشديد على الإمام علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين ولاسيما حينما أمر المتوكل بهدم قبر الحسين عام ٢٣٦هـ (٨٥٠ م) فقال ابن بسام في ذلك:

تَالله إنْ كَانَتْ أُمَيَّةُ قَدْ أَتَتْ
قَتْلَ ابنِ بنتِ نَبِيِّهَا مَظْلوما

فَلَقَدْ أتاه بَنُو أَبِيه بِمِثْلِه
هذا لَعَمْرِكَ قَبْرُهُ مَهْدُومَا

أَسِفُوا عَلَى ألاَّ يَكُونُوا شَارَكُوا
فِي قَتْلِه فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وإلى جانب أشعاره ألَّف ابن بسام كتابًا بعنوان «أخبار عمر بن أبي ربيعة» (انظر هذه المادة)، ولم يستفض أحد في بابه أبلغ منه، كما ألَّف كتابًا «في أخبار الأحوص» (انظر مادة الأحوص)، وكتابًا في مناقضات الشعراء، وكتابًا يضم رسائله.

وتوفي ابن بسام في شهر صفر عام ٣٠٣هـ (٩١٥م) بالغًا من العمر حوالي سبعين عامًا، ومن ثم يكون مولده خلال عام ٢٣٣هـ (٨٤٧ م).

٢) أبو الحسن علي بن بَسَّام الشنتريني: وكنيته الشنتريني ترجع إلى مدينة شنترين الواقعة في الإقليم الغربي من البلاد الأندلسية، وقد ولد ابن بسَّام بهذه المدينة، ومن ثم فهو أندلسي برتغالي، واسم شنترين كان يطلق في ذلك الحين – ليس فقط على المدينة – ولكن على المنطقة الشائعة التي تمتد من غربي نهر الوادي الكبير حتى المحيط الأطلنطي، وتشمل النصف الجنوبي من بلاد البرتغال في الوقت الراهن.

وتشتهر مدينة شنترين – في تاريخ الأندلس – بحادث محزن هو هزيمة الموحدين الفادحة تحت أسوارها في محاولتهم لاستردادها، وفي هذه الموقعة قُتِل عاهلهم الخليفة أبو يعقوب يوسف وكان ذلك في ربيع الأول عام ٥٨٠هـ (يوليو ١١٨٤م).

ولا يعرف تاريخ مولد ابن بسَّام بالتحديد ولا ظروف نشأته ومراحل حياته الأولى، وكل ما يعرف عن ذلك هو أنه غادر مسقط رأسه وهو مايزال حدثًا ويقول في مقدمة كتابه «الذخيرة» في هذا الشأن:

«ويعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأنحاء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلوِّن تلون الحرباء لانتياذي كان في شنترين قاصية المغرب، مغلول الضرب، مروع السرب بعد أن استنقد الطريف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النقاد بتواتر طوائف الروم علينا في ذلك الإقليم».

وكانت مغادرته لشنترين هو وكثير من أهل بلاده بسبب الخوف من سقوط المنطقة في أيدي البرتغاليين، وفي إشبيلية قضى بضعة أعوام يقاسي مرارة البؤس ومشقة الحياة، ويدرس على شيوخها ويتعيش بقلمه وأدبه.

وفي عام ٤٩٤هـ (١١٠٠م) سافر إلى قرطبة واستقر بها وتلقى العلم على شيوخها زمنًا طويلاً، وكانت هذه المدينة قد فقدت الكثير من أهميتها القديمة على شيوخها وبهائها السالف، ولكنها احتفظت بسمعتها وتقاليدها العلمية وبقيت مركزًا من أهم مراكز الدراسة في الأندلس.

وكانت نشأة ابن بسَّام ومراحل حياته في عصر مؤلم من عصور التاريخ الأندلسي، إذ يشمل الحقبة الأخيرة من عهد ملوك الطوائف وأوائل عهد الفتح المرابطي، ففي هذا العصر المشؤوم انتثرت دويلات هؤلاء الملوك الضعفاء تجتاحها الحروب الأهلية دون انقطاع، فانتهزت إسبانيا هذه الظروف القاسية وأخذت تعمل على التفريق بين هذه الدويلات المتنافسة المتخاصمة وتقتطع منها ما تستطيع اقتطاعه من الحصون والأراضي، وانتهت هذه الخصومات المدمرة باستيلاء إسبانيا على أول قاعدة أندلسية كبيرة وهي مدينة طليطلة عاصمة دويلة بني ذي النون – وكان سقوطها في أيدى القشتاليين الإسبان خلال عام ٤٧٩هـ (١٠٨٥م) كارثة فادحة أدت إلى سقوط الأندلس في أيدي الغاصبين.

وعندها استنجد ملوك الطوائف بالمرابطين الذين لبوا النداء وعبروا في جيوشهم الحاشدة إلى شبه الجزيرة بقيادة البطل «المرابطي يوسف بن تاشفين» الذي انتصر على الجيوش المتحالفة من الإسبان في موقعة الزلاقة الشهيرة عام (٤٧٩ هـ) نفسه، وعلى إثر هذا الانتصار الباهر لزمت إسبانيا السكينة حينًا من الزمن.

وأدرك يوسف بن تاشفين مما شهده من أحوال دويلات الطوائف المتخاذلة أن سلامة الأندلس تقتضي زوال هذه الدويلات وقيام حكم المرابطين في الأندلس للدفاع عن البلاد، ومن ثم أخذ في غزو هذه الدويلات الضعيفة تباعًا وأصبحت البلاد الأندلسية من ذلك الحين ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش عاصمة دولة المرابطين.

وعلى الرغم من الكوارث والحروب الأهلية التي تخللت عهد دويلات الطوائف، فإن هذا العهد زهت فيه العلوم والآداب، فكان يحتشد في كل قصر من قصور الطوائف جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء، وكان أمراء الطوائف، وكانوا هم أيضًا أدباء وشعراء، يغدقون هباتهم وصلاتهم على أقطاب العلم والأدب، وفي هذا العصر نبغ ابن حزم (انظر هذه المادة)، وابن حيان، وأبو الوليد الباجي، والمعتمد بن عباد، وابن عمَّار، وابن زيدون وغيرهم من أعلام الفكر والأدب.

وجاء ابن بسَّام في أواخر هذا العصر الزاهي فبهرته تلك النهضة الثقافية التي عاصر الكثير من أعلامها وتذوَّق الكثير من روائع إنتاجهم من نثر وشعر، وجالت بخاطره في الوقت نفسه فكرة لم تخطر لأحد قبله على بال وهي أن الأدب الأندلسي لم ينصفه مواطنوه ولم يقدروه حق قدره، فاعتزم أن يقدم لمواطنيه أروع صورة من أدب الأندلس وأدب دويلات الطوائف بنوع خاص، فكتب مؤلفه الضخم «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وقد بدأ تأليفه في مدينة قرطبة وانتهى من كتابته عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) مشتملاً على ثمانية مجلدات.

ويصرّح ابن بسَّام في مقدمة كتابه أنه لاحظ انصراف أهل عصره من الأندلسيين إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به وإهمال أدب بلادهم، فأراد بوضع كتاب «الذخيرة» وما تضمنه من النثر والنظم أن يبصِّر أهل الأندلس بتفوق آدابهم وأدبائهم وروعة إنتاجهم ليتذوقوه مدللاً على أن الإحسان لا ينحصر فيما أنتج أهل المشرق.

ومن الواضح أن ابن بسام يعارض بمؤلفه في التنويه بمحاسن أهل الأندلس أديب المشرق الكبير أبا منصور الثعالبي (انظر مادة الثعالبي) صاحب كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، فالذخيرة واليتيمة صنوان يمثل كل منهما اتجاهًا خاصًّا في التنويه بمحاسن قطره.

ومن جهة أخرى يعتبر كتاب «الذخيرة» بمحتوياته من التراجم المفصلة لعشرات من رجالات الأندلس ومفكريها وأدبائها والمختارات النثرية والشعرية المنوعة والنبذ التاريخية الكثيرة الموضوعة والمقتبسة من مصادر عديدة سابقة ومعاصرة، يعتبر من أقوى المصادر التاريخية والأدبية والاجتماعية ولاسيما فيما يتعلق بعصر الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه.

وألَّف ابن بسَّام غير كتاب «الذخيرة» عدة كتب أخرى منها كتاب في شعر المعتمد بن عبَّاد وكتاب في شعر ابن دهبون ورسالة عنوانها «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر» ومجموعة مختارة من شعر أبي بكر بن عمَّار.

ويمتاز أسلوبه بالجزالة والإشراق الذي يغلب عليه السجع دون أن ينتقص من قوته وإشراقه، كما يمتاز بملحوظاته النقدية التاريخية والاجتماعية، وهي في أحيان كثيرة تجحم عن مهاجمة معاصريه من الأمراء والأدباء والشعراء لأنه كان حرًّا بعيدًا عن الملق، فلم يخدم أحدًا من أمراء عصره ولم يتطفل على موائدهم أو يتطلع إلى هباتهم مثل معظم زملائه من الكتَّاب والشعراء، وقد كانوا يحتشدون في قصور الطوائف ويتقلبون في خدمة أمرائهم.

وتوفي ابن بسام بمدينة قرطبة عام ٥٤٢هـ (١١٤٧م) عن سن عالية.

٤٥- ابن بشير - شارع - بقسم باب شرقي

هو ابن بشير قاسم بن عمر حيدر الشهابي، ولد بمدينة غزَّة بفلسطين عام ١١٨١هـ (١٧٦٧م)، وكان أميرًا على لبنان، وتولى الحكم عام ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م) بعد أن انتهت وصاية الأمير حسين الشهابي عليه عندما بلغ سن الرشد، ولم يتوان ابن بشير في تعزيز الإدارة في البلاد والضرب على أيدي الإقطاعيين ولا سيما الشيخ بشير جنبلاط، ثم سهر على تعميم الأمن والعدل في ربوع لبنان، وقد صادفه النجاح في ذلك، وواصل جهوده في سبيل المحافظة على استقلال البلاد وتوحيدها، وفي عام ١٢٤٧هـ (١٨٣٠م) عقد حلفًا مع محمد علي والي مصر ضد الأتراك، وترتب على ذلك أن أمر الإنجليز بنفيه إلى جزيرة مالطة، وكان ذلك خلال عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، ثم نفي بعد ذلك إلى تركيا، وقد اهتم أثناء حكمه بالمشروعات العمرانية وبنى في بيت الدين قصرًا فخمًا جمع في بلاطه طائفة منتقاة من الأدباء والإداريين، وتوفي بمدينة إستامبول عام ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م)، ولم يُسمَح بنقل رفاته إلى بيت الدين إلا في عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م).

٤٦- ابن البطريق - حارة - بقسم باب شرقي

هو يوحنا أو (يحيى) بن البطريق الملكاني، مولى الخليفة المأمون (انظر مادة المأمون)، وهو أول من حاول جعل علوم الطبيعة والحياة عند أرسطو في متناول قراء العربية، وذلك بترجمة الشروح الخاصة بهذه العلوم، وتسمى عند العرب «بالآثار العُلويَّة» للدلالة على الرصد الجوي عند أرسطو وثيوفرسطس.

وترجمة يحيى بن البطريق لشروح الآثار العلوية تقع في مخطوطين أحدهما بمكتبة إستامبول تحت رقم ١١٧٩، والآخر بمكتبة الفاتيكان بروما ضمن الكتب العربية برقم ٣٧٨، وقد ترجم «جيرار القرموني» الكتب الثلاثة الأولى التي ألّفها ابن البطريق إلى اللغة اللاتينية، وهناك ثلاث نسخ من الكتاب الرابع، وهو عبارة عن رسالة في علم الكيمياء، وفسر ابن البطريق المذهب الذي أشار إليه أرسطو عن تأثير الأفلاك على عالم ما تحت القمر تفسيرًا يتمشى مع النظرية التنجيمية التي بسطت في كتاب كنز الإسكندر- على سبيل المثال. ووفاقًا لهذه النظرية فإن العالم السفلي يتأثر بالعالم العلوي، وأن الأجسام الجزئية في العالم السفلي خاضعة لأجرام العالم العلوي؛ لأن الجو متصل بخارج الأجسام جميعًا، وكذلك بالدوائر الفلكية، وفي شرح ابن البطريق قوله بأن التطور المستمر للمعدن والنبات والحيوان يرجع إلى السرعة المطردة في حركة الكرة الأرضية.

٤٧- ابن بطلان - شارع - بقسم محرم بك (علي عفت يس حاليًا)

وابن بطلان هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان، طبيب مسيحي من أهل بغداد، وقد رحل خلال عام ٤٤٠هـ (١٠٤٩م) إلى حلب فأنطاكية، فاللاذقية ثم إلى الفسطاط (القاهرة القديمة)؛ حيث التقى بالطبيب المصري علي ابن رضوان وجرت بينهما مناظرات حادة كانت سببًا في إنتاج عدة رسائل جدلية، ونجد مقتطفات من رسائل ابن بطلان في كتاب ابن القفطي «تأريخ الحكماء» واحتدم الخصام بين الطبيبين، مما دعا ابن بطلان إلى الرحيل قاصدًا القسطنطينية

خلال عام ٤٤٦هـ (١٠٥٤م). وكان ابن بطلان مايزال في قيد الحياة عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م).

وأهم مؤلفاته «تقويم الصحة» الذي نشرت ترجمته اللاتينية عام ٩٣٨هـ (١٥٣١م)، ثم تُرجم إلى اللغة الألمانية في العام نفسه، ومن مؤلفاته الأخرى «دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة»، وهو كتاب نشره الدكتور بشارة زلزل بالإسكندرية عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م).

أما ترجمة «علي عفت يس» فَسَتُذكَر عند التعرض لاسمه في حرف العين.

٤٨- ابن بطوطة - شارع - بقسم المنشية

٤٩- ابن بطوطة - شارع - بقسم اللبان

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة الرحالة المؤلف العربي، ولد في ١٤ رجب عام ٧٠٣هـ (٢٤ فبراير عام ١٣٠٤م) في طنجة بالمغرب الأقصى، واسمه يذكر حتى الآن بهذه المدينة، وقد بدأ رحلته في ٢ من رجب عام ٧٢٥هـ (١٤ من يونية عام ١٣٢٥م) بالسفر لأداء فريضة الحج من مدينة طنجة بمفرده، واتخذ طريق الحج المعتاد من بلاد المغرب ولحق بقافلة كانت متجهة لتأدية هذه الفريضة عن طريق شمال إفريقيا، فمصر العليا (الصعيد)، فالبحر الأحمر.

وكان عمره في ذلك الحين ٢٢ عامًا، ويظهر أن علمه وتدينه جذبا إليه قلوب أفراد القافلة فاختاروه قاضيًا عليهم قبيل مسيرهم من تونس.

وفي الإسكندرية زار ابن بطوطة قاضي المدينة عند وصوله إليها، ونزل ضيفًا عند أحد علمائها برهان الدين، ومكث في ضيافته ثلاثة أيام من مدة إقامته هناك، ولقد توسم فيه برهان الدين حب التجوال فأوصاه إذا ذهب إلى الهند والسند أو الصين أن يزور أفرادًا أسماهم له ويدل ذلك على أن برهان الدين هذا كان على علم بالأسفار وببعض الرجال في البلدان الشرقية النائية.

ويظهر أن هذا الحديث الشيق قد حرك في قلب الشاب ابن بطوطة عزمًا قويًّا على زيارة جميع البلاد الإسلامية، وقد قوي هذا العزم في وجدانه بعد تجاريبه في أثناء سفره إلى مكة، ذلك أنه زار في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين، وكان مقيمًا بقرية قبالة فوة على النيل فرأى في منامه وهو عنده أنه زار مكة واليمن والهند على جناحي طائر أخضر.

ولقد أنجبت أسرة ابن بطوطة عدة قضاة منهم الرحالة نفسه وابن عم له كان قاضيًا بمدينة أنده الواقعة بين مدينتي إشبيلية ومالقة بالأندلس، فابن بطوطة إذن وليد أسرة عريقة في معرفة العلوم الشرعية، وهي أسرة تعد من الطبقة الدينية العليا في المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى؛ ولذا فالمرجح أنه درس العلوم الدينية وتفقه فيها يضاف إلى هذا أنه تعلم الأدب ومارس الشعر ودرس اللغة الفارسية وشواهد كل ذلك نلمسها في ثنايا كتاب رحلته.

وبدأ وصف رحلته بذكر سلطان تونس وذهابه إلى مدن صفاقس وقابس وطرابلس، ثم وصوله إلى الإسكندرية في أول جمادى الأولى عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م)، «ويدعوها بالثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن، الأصيلة

البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين»، ويقول فيها إنها: «كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة في تجلي سناها، والخريدة في تجلي حلاها، الزاهية بجمالها المغرب والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل ظرفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشرق إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك».

ثم يتطرق إلى وصف أبواب الإسكندرية فيقول إن لها أربعة أبواب هي: باب السدرة، وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور، ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أر في الدنيا مرسى مثله إلا ما كان من مرسى «كولم وقا ليقوط» ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الترك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين، ويوضح وصف ابن بطوطة لأبواب الإسكندرية عند زيارته لها أن أسماء هذه الأبواب مازالت تطلق على جهات بالمدينة حتى الآن، فباب السدرة اسم يطلق على أكبر منطقة وطنية في قسم كرموز، وباب رشيد اسم كان يطلق إلى وقت قريب على طريق الحرية، إذ كان يسمى في فجر القرن العشرين وفي أوائل هذا القرن شارع رشيد، وكان الأوروبيون يعرفونه باسم «Rue Rosette»، والباب الأخضر اسم يطلق حتى يومنا هذا على الشارع الممتد من طريق النصر (شارع الميدان سابقًا) إلى شارع «باب الكرسته» الجمرك أي باب الأخشاب؛ لأن كلمة الكرسته تعني الأخشاب باللغة التركية، وكانت الواردات من الأخشاب تخرج فعلاً من هذا الباب بالدائرة الجمركية.

ثم يتطرق ابن بطوطة بعد ذلك إلى الحديث عن المنار العجيب الذي شيد في عهد بطليموس الأول (سوتير) وافتتح في عهد ابنه بطليموس الثاني (فيلادلف) (انظر مادتي سوتير، وفيلادلف)، فيقول: «إنه وجد أحد جوانبه متهدمًا»، ثم يصفه فيقول: «إنه بناء مرتفع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المناور من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرًا، وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في برٍّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة، وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية».

«وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك الناصر – رحمه الله – قد شرع في بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت من إتمامه».

ويتحدث ابن بطوطة بعد ذلك عن «عمود السواري» فيقول: «ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري، وهو متوسط في غابة نخل، وقد امتاز عن شجراتها سموًّا وارتفاعًا، وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مرتفعة أمثال الدكاكين العظيمة، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق مَنْ وضعه».

وبعد أن زار مدن فوة والنحراوية وإبيار والمحلة الكبرى والبرلس ودمياط وسمنود والقاهرة، ووصف كلاً منها، وبعد أن ذكر النيل وفضائله والأهرام وعظمتها، وتحدث عن سلطان مصر وقت حلوله بها، وعن قضاتها وعلمائها، ووصف الاحتفاء بالمحمل الشريف، وما يتخلل ذلك من أساطير وحكايات خرافية، ذهب إلى بلاد الشام، فذكر بيت المقدس وفضائله والمشاهد المباركة التي رآها هناك، ثم ذهب إلى حلب، وأطنب في وصفها وأفاض في تفصيل محاسنها مدوِّنًا قول ابن جبير (انظر هذه المادة) – الرحالة الأندلسي – في هذه المحاسن، وزار بعد ذلك عسقلان وأنطاكية، واتجه إلى البلاد الحجازية، فزار مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووصف المدينة المنورة، ثم سافر إلى مكة المكرمة وأفاض في وصفها، ووصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة، ورحل بعد ذلك إلى العراق فزار مدينة واسط ومدينة البصرة، وتوجه إلى إيران فزار شيراز ثم رجع إلى مدينة الكوفة، وسافر منها إلى بغداد فأطنب في وصفها، ورحل منها إلى الموصل ثم إلى ماردين، وعاد بعد ذلك إلى اليمن، ثم ذهب إلى الصومال حيث زار مدينة مقدشيو العاصمة، وذلك في أثناء رحلته الثالثة، وكان قد قضى بمكة عامي ٧٢٩، ٧٣٠هـ (١٣٢٨ – ١٣٢٩م)، وعند عودته من الصومال ذهب إلى بلاد الخليج العربي، ومن مدينة هرمز رجع إلى مكة ثم عاد إلى آسيا الصغرى وبلاد القريم عن طريق مصر والشام، وزار القسطنطينية في حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزْبك، ومن نهر الثلجا في روسيا اخترق خوارزم وبخارى وأفغانستان في طريقه إلى الهند، وولي القضاء في مدينة دلهي، ثم اشترك بعد عامين في بعثة سياسية إلى الصين، ولكنه لم يصل إلا إلى جزائر «المالديف Maldives»، وهي جزائر ذِيبة المَهَل (بكسر الذال وفتح الميم والهاء)، وقد جرى الأفرنج على الاصطلاح الآري وهو: مهل ذيبة، وحرف الهاء غير منطوق عندهم فقالوا «مل ذيبة» ثم انتهوا إلى كلمة Maldives، ومازال أهلها ينطقون اسمها (مهل ذيبة، ذيبة المهل)، وفي هذه الجزائر النائية في الشرق الأقصى تولى ابن بطوطة القضاء مدة عام ونصف العام، وذهب من هناك إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال والهند الأقصى (الهند الصينية)، وليس من المحقق أنه تجاوز في رحلته «زيتون Zaitun» و«كانتون Canton»، ثم رجع بعد ذلك إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة بإندونيسيا، ونزل إلى البر في شهر المحرم عام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) عند ظَفَار، وبعد رحلة قضاها في بلاد العجم والشام وما بين النهرين، ذهب إلى مصر وسافر منها إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الرابعة، ثم عاد فاخترق شمال إفريقيا، ودخل مدينة فاس في شهر شعبان عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩م)، وبعد أن مكث فيها مدة طويلة سافر إلى غرناطة بالأندلس، ثم قادته رحلته الطويلة الأخيرة إلى بلاد الزنج بإفريقيا عام ٧٥٣هـ (١٣٥٢م)، فزار تمبكتو (بجمهورية مالي الحالية)، ورجع بعد ذلك إلى مراكش عن طريق واحتي غات وتَوَات، وفي مراكش أملى أخبار رحلاته العجيبة على العالم محمد بن محمد بن جُزَى الذي كتبها في أسلوب أدبي تأثر فيه كثيرًا بكتاب رحلة ابن جبير. وتوفي محمد بن جزى عام ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) بعد الفراغ من عمله بمدة وجيزة، ويوجد بعض النسخ التي خطها ابن جزى بيده في باريس.

وهناك اختلاف في عام وفاة ابن بطوطة، فالمستشرق «هـ. أ. ر. جيب H. A. R. Gibb»، يقول في المقدمة التي صدر بها كتاب المختارات من رحلات ابن بطوطة: «إن

وفاة هذا الرحالة العربي كانت خلال سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨–١٣٦٩م)، على حين أن المستشرق «ك. بروكلمان C. Brockelmann» يجعل وفاته بمراكش في عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) أي بعد التاريخ الذي حدده جيب بتسع سنوات، ومن ثم يكون عمره – وفاقًا للتاريخ الأول – ٦٤ عامًا وقت وفاته، و٧٣ عامًا حسب التاريخ الثاني.

ولقد نشر «دفرمري وسانجونتي» مؤلَّف ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» في أربعة مجلدات، وذلك في مدينة باريس عام ١٨٥٣م وعام ١٨٥٩م، وظهرت الطبعة الثالثة منه عام ١٨٩٣م، ثم طبع بالقاهرة في أعوام ١٢٨٧ و ١٢٨٨ و ١٣٢٢هـ (١٨٧٠ – ١٨٧١ – ١٩٠٤م)، ثم طبعته الدار القومية للطباعة والنشر ضمن سلسلة الكتب الثقافية، وصدر جانب منه في جزءين صغيرين في ١٤ من يناير عام ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ).

٥٠– ابن بقاء – شارع – بقسم مينا البصل

يحيى بن بقاء كان من كبار شعراء الأندلس، وهو صاحب الوشاحات الجليلة التي شاعت، وسار نظمها من مستلزمات حياة الطرف في الدولة الأمية الأندلسية التي أنشأها عبد الرحمن الداخل في قرطبة بالأندلس، وهو مشهور بصقر قريش.

وقد انتقل الأدب العربي إلى هذه البلاد الأوروبية، وطرأ عليه تغيير واضح في التعبير والخيال والتشبيه، بالنظر إلى اختلاف الطبيعة في هذا القطر عنها في موطن العرب الأصيل، فدخل على الشعر كثير من الأخيلة البديعية والتشبيهات الرائعة، وكان من بين فحول الشعراء في ذلك العصر الأندلسي الزاهر يحيى بن بقاء، وكان إلى جانب ما نظم من الشعر، صاحب موشحات جميلة، وفيه يقول ابن زهير الوشَّاح ما حسدت أحدًا على قول ابن بقاء حين وقع لي قوله:

أما تَرَى أحمد

في مجدهِ العالي لا يُلحَقُ

أَطْلَعَهُ الغَرْبُ

فَأَرِنا مِثْلَهُ يا مَشْرِقُ

ولا يُعرف تاريخ ومكان ميلاده ووفاته، على وجه التحديد، ولا مراحل حياته.

٥١– ابن البلقيني – زقاق – بقسم الجمرك

هو سراج الدين عمر بن البلقيني، ولد عام ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) ببلدة بلقين، واستقر بالقاهرة، ثم رحل إلى دمشق صحبة زوج أخته ابن عقيل قاضي قضاة دمشق وأصبح نائبًا له، وقد تولى التدريس بمدرسة المالكية بالقاهرة بعد عودته إليها كما تولى التدريس في مسجد ابن طولون وله مؤلفات في الفقه الشافعي أهمها «التدريب في الفقه على مذهب الإمام الشافعي».

ووافته المنية عام ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) بالغًا من العمر ٧٩ عامًا، ودفن بالقاهرة.

٥٢- ابن بهرام - حارة - بقسم كرموز (عبد القادر منصور حاليًا)

هو الملك الأمجد بن فرَّخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بهرام شاه، أكبر أبناء أخي صلاح الدين الأيوبي الذي ولاّه على بعلبك عقب وفاة والده عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م)، وقد احتفظ بهرام شاه بحكم بعلبك عندما قسمت أملاك صلاح الدين بعد وفاته عام ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، وفي عام ٦٢٦هـ (١٢٤٦م) طالب صاحب دمشق الأشرف موسى، وكان رجلاً غليظ القلب ببعلبك، غير أن بهرام شاه رفض التخلي عنها ولكنه أجبر على التنازل عنها للأشرف بعد حصار دام سنة كاملة، وذلك في مقابلة قرية الزيداني الواقعة بين بعلبك ودمشق، وقد قتل بهرام شاه في هذه القرية عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م)، بينما كان يلعب النرد، وقاتله مملوك حقد عليه لأنه كان قد عاقبه على فعلة ارتكبها، ويقال إن بهرام شاه كان أشعر بني أيوب، وقد أورد بن شاكر في كتابه «فوات الوفيات» شواهد من شعره.

٥٣- ابن بهلول - حارة - بقسم مينا البصل

يذكر التاريخ أن اسم بهلول يطلق على رجل يدعى بهلول المجنون الكوفي، وهو أحد عقلاء المجانين، كما يُدْعَوْنَ عند أهل التصوف المغرقين في الوله الإلهي، وقد عاش بهلول هذا في عهد هارون الرشيد، وكان يعظه، اسمه الكامل هو أبو وهيب بن عمرو بن المغيرة الصيرفي الكوفي، وكان راوية لكثير من الأحاديث النبوية، وينسب إليه شعر كثير في الأخلاق، وكلمة بهلول معناها «الضحَّاك»، و«الحيّ الكريم أو النبيل»، و«السيد الجامع لكل خير»، وذكر ابن تغري بردي في كتابه عددًا من هؤلاء البهاليل اشتهروا بالفطنة ومن بينهم أبو هيب البهلول، وإذا تحقق أن وفاة بهلول المجنون كانت عام ١٨٣هـ (٧٩٩م) يكون هو السبتي عينه أي الابن الذي ينسب للخليفة هارون الرشيد، ويقول الجوزي المتوفى عام ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) إن هارون الرشيد لقي بهلولاً في الكوفة عام ١٨٨هـ (٨٠٤م)، وذكر في كتابه «الأذكياء» أخبارًا أخرى عن بهلول، وكان الجنون ينتاب بهلولاً من حين لآخر، وكانت لغته سليمة، ويروي القصص في سرعة تدل على توقد الذهن والذاكرة، ولم يدوّن أحد من تلاميذه الأحاديث النبوية التي رواها عن عمرو بن دينار وأيمن بن نائل وغيرهما، وعاش البهلول طيلة عهد الرشيد، وكان يعظه ويرفض عطاءه، وذكر الشعراني شيئًا عن لقاء بهلول للرشيد ووعظه إياه في كتابه «الطبقات الكبرى»، وأرشد المستشرق «نيبوهر» إلى قبر بهلول في بغداد وعليه تاريخ يرجع إلى سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) وكتابه يصفه بسلطان «المجاذيب»، وتطورت قصة بهلول المجنون حتى أصبح بطل قصص غرامية، كما هو الحال في كتاب «الروض العاطر» للنفراوي التونسي.

وبهلول لودي هو مؤسس أسرة لودي في دهلي بالهند، وقد دام حكمه من عام ٨٥٥ إلى عام ٨٩٤هـ (١٤٥١ - ١٤٨٨م)، وانحدر من أسرة أفغانية واستقر بالنيجاب، ونجح في الانتقاض على عالم شاه آخر حكام أسرة الأشراف، واستولى على عرش دهلي واشتهر بالعدل ورعاية العلماء.

٥٤ - ابن البواب - حارة - بقسم باب شرقي

هو أبو الحسن علاء الدين علي بن هلال، المعروف بابن البواب، خطاط عربي مشهور، ويقول ابن خلِّكان في

ترجمته إنه كان فريدًا في حسن الخط الكوفي، وقد تفوق على أبي علي بن مقلة في هذا المضمار ويرجع لقب «ابن البواب» الذي عرف به إلى أن أباه كان بوابًا للقضاء في بغداد، ولذلك كان يدعى بابن الستري لأن البواب يلازم ستر الباب، وكان شيخه في الخط ابن أسد الكاتب وهو أبو عبد الله محمد ابن أسد البزاز البغدادي.

وإلى جانب حسن خطه كان ابن البواب واسع المعرفة بالفقه الإسلامي، وقد حفظ القرآن الكريم وكتبه بيده أربعًا وستين مرة، إحداها بالخط الريحاني، وقد أهدى السلطان سليم الأول هذه النسخة إلى جامع «لالَّه لي» بالآستانة وماتزال محفوظة به.

وابن البواب له فضل إبداع الخط الريحاني والخط «المحقق»، وقد أسس مدرسة لتحسين الخطوط ظلت تؤدي رسالتها إلى عهد ياقوت المستعصمي.

وكانت وفاته في يوم الخميس ثاني جمادى الأولى عام ٤١٣هـ (١٠٢٢م) ببغداد، ودفن بجوار قبر الإمام أحمد بن حنبل.

٥٥- ابن البوري - زقاق - بقسم محرم بك (جودة مصطفى عوض حاليًا)

لم أستطع الوقوف على ترجمة ابن البوري، ولكن بعض المؤرخين ذكر اثنين يحملان لقب (بوري) وهو لقب تركي معناه (الذئب) باللغة العربية، وفيما يلي بعض المعلومات عن كل منهما:

١) تاج الملوك أبوسعيد بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان (الملقب بمجد الدين): هو أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح الدين)، وكان أصغر إخوته، وفيه فضائل، وله ديوان شعر يضم الغث والسمين، ولكنه يشتمل على قصائد مجيدة في الأسلوب والجرس، ومن قوله في وصف أحد مماليكه - وقد وفد عليه من المغرب يمتطي جوادًا أشهب - هذان البيتان:

أَقْبَلَ مَنْ أَعَشْقُهُ رَاكِبًا

مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ عَلَى أَشْهبِ

فَقُلْتُ سُبْحَانَك يَا ذَا العُلاَ

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ

وقد يدل معنى هذين البيتين على الشذوذ في العشق، ولكن يحتمل أن يكونا مدسوسين على هذا الأمير الذي يقول ابن خلِّكان في كتابه (وفيات الأعيان) إنه كان ذا فضل وكرامة.

وجاء في كتاب العماد الكاتب «الخريدة» أشعار لتاج الدين بوري، منها قوله في الغزل الرقيق الحاشية الذي يصلح لأن يكون أغنية حلوة المعاني، عذبة السياق، يترنم بها المغنون والمغنيات في عصرنا الراهن وهي:

يَا حَيَاتِي حِيْنَ يَرْضَى

وَمَماتِي حِينَ يَسْخَطْ

آهِ مِنْ وَرْدِ خَدَّ

يْكِ بالمِسْكِ مُنَقَّطْ

بَيْنَ أَجْفَانِكِ سُلْطَا
ن عَلَى ضَعْفِي مُسلَّطْ

قَدْ تَصَبّوتُ وَإِنْ برَّ
حَ بي الشَّوْقُ وأَفْرَطْ

فَلَعَلَّ الدَّهْرَ يَوْمًا
بِالتَّلاَقِي مِنْكَ يَغْلَطْ

وذكر له العماد الكاتب في كتابه الآنف الذكر البيتين التاليين:

أَيَا حَامِلَ الرُّمْحِ الشَّبِيهِ بقَدِّهِ
وَيَا شَاهِرًا سَيْفًا حَكَى لَحْظه غَضْبَا

ضَعِ الرُّمْحَ واغْمِدْ مَا سَلَلْتَ فَرُبَّمَا
قَتَلْتَ وَمَا حَاوَلْتَ طَعْنًا وَلاَ ضَرْبَا

وقد ولد تاج الدين بوري في شهر ذي الحجة عام ٥٥٦هـ (١١٦٠م) وتوفي بمدينة حلب في ٢٣ من شهر صفر عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) عن ٢٤ عامًا، وكانت وفاته نتيجة الجراح التي أصيب بها في أثناء حصار صلاح الدين لمدينة حلب في شهر المحرم من تلك السنة نفسها.

وفي يوم وفاته كان السلطان صلاح الدين قد أعد مأدبة لعماد الدين صاحب حلب في مخيمه بعد عقد الصلح معه وقبل دخوله المدينة منتصرًا، وفي خلال المأدبة أبلغ الحاجب صلاح الدين سرًّا بموت أخيه فلم يغير من حاله وأمر بدفن أخيه سرًّا وأعطى الضيافة حقها حتى نهايتها، وكان صلاح الدين يقول: «ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك».

٢) طفتكين بن عبد الله بن بوري: كان صاحب دمشق وهو مؤسس دولة بني بوري، وكان من كبار قواد المسلمين الذين حاربوا الصليبيين واستطاع منعهم من الدنو من دمشق، وكانت وفاته بمدينة دمشق عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م).

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «جودة مصطفى عوض».

٥٦ – ابن تومرت – شارع – بقسم محرم بك

هو محمد بن تومرت الذي يعرف بمهدي الموحدين، وهو واضع الحجر الأساسي في نظام دولة الموحدين التي حكمت الأقطار العربية في المغرب، وقطعت من عمر الزمن حوالي ١٤٢ عامًا، بدأت بتولي عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسسها إدارة شؤونها عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م)، وانتهت عند استيلاء أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أحد أمراء بني مرين على مدينة مراكش عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩م).

وقد ولد محمد بن تومرت بقرية في جبل السوس بجنوب المغرب الأقصى تدعى (إيجلي أنْ وَرْغِنْ)، وكان يطلق على قومه لقب الشرفاء، ويختلف أصحاب السير في تاريخ ميلاده، فمنهم من يقول إنه ولد عام ٤٧٠ هـ (١٠٧٧م)، ومنهم من يقول إنه ولد بعد ذلك بخمسة عشر عامًا، أي في سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وهذا التاريخ الأخير لا يستقيم مع القول بأنه رحل إلى المشرق في عام ٥٠١هـ (١١٠٧م)، وعمره ستة عشر عامًا؛ إذ لا يستطيع شاب في هذه السن

الغضة تحمل مشاق الأسفار وقطع المشرق طولاً وعرضًا فيذهب إلى بغداد، فدمشق، فالقاهرة، فالإسكندرية، قبل عودته إلى المغرب الأقصى، ومن ثمَّ فإن القول بأنه ولد عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) أقرب إلى الصواب منطقيًّا، وكان يسمى باللغة البربرية «أسافو» أي الضياء؛ وذلك لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها.

ويبدو أن محمد المهدي بن تومرت كان من أسرة ميسورة الحال بدليل رحلته الطويلة إلى المشرق مما يكلف المسافر أعباء كبيرة، وبدليل أن ابن خلدون يضفي عليه لقب «إمْغَار» (أي الرئيس باللغة البربرية) ومعنى تومرت في اللغة البربرية «ابن عمر الصغير»، وتنتسب أسرته إلى إيسرغين، وهي فرع من قبيلة هنتاتة، إحدى قبائل جبال أطلس الهامة».

ويدل التاريخ على أنه كان قارئًا محبًّا للعلم، فقضى صباه في حفظ القرآن والاطلاع على الكتب التي تعالج المسائل الروحية، ومن ثمَّ التزم التقشف والخشونة وعزف عن حياة الترف ومباهج الحياة، ثم اهتم بالدراسات الدينية فنال حظًّا من الفقه الإسلامي، وعُرِف في محيط بيئته بالذكاء فلقبه إخوانه (بالشعلة)، ويقول ابن خلدون (انظر هذه المادة): «إن أهل بيته كانوا أهل نسك وتقى».

وفي عام ٥٠١هـ (١١٠٧م) شد الرحال إلى المشرق في طلب العلم، فذهب أولاً إلى بغداد؛ حيث تتلمذ على الشيخ المبارك بن عبد الجبار، ثم رحل إلى دمشق وتشبع هناك بآراء أبي حامد الغزالي (انظر مادة الغزالي)، ويقال إنه قابل الغزالي نفسه في الشام في آخر أيام حياته (أي قبل وفاته في عام ٥٠٤هـ (١١١١م)، وسمع منه قصة حرق كتابه عند جامع قرطبة وأن الغزالي دعا على من أمر بذلك، إذ قال: «ليذهبنَّ عن قليل ملكه وليقتلنَّ وولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرًا مجلسنا»، ويظهر أن هذه العبارة من وحي ابن تومرت نفسه وأنه وضعها على لسان الغزالي ليبرر أعمال التقتيل التي مارسها في المرابطين بعد ذلك.

واتجه بعد إقامته في دمشق بعض الوقت إلى الإسكندرية حيث تلقى دروسًا في الفقه والحديث والسياسة وأساليبها على يد العالم الزاهد الورع المنكر للذات أبي بكر محمد بن الوليد الفهري الملقب بابن أبي رندقة الطرطوشي (انظر مادة سيدي الطرطوشي)، وما من شك في أن دروس هذا العالم أثرت في سلوك المهدي بن تومرت إلى أبعد حد، وذلك من حيث التفكير الديني وخاصة من حيث الأساليب السياسية بعد أن درس أفكار أستاذه الطرطوشي التي دوَّنها فيما بعد في كتابه «سراج الملوك» الذي هو لون من ألوان البحث السياسي وطرق الحكم.

وعاد ابن تومرت إلى المغرب الأقصى خلال عام ٥١٠هـ (١١١٦م) بعد أن اتسعت مداركه في الفقه والتشريع والفلسفة وأساليب الحكم، وصمم منذ ذلك الحين على إصلاح عقائد بني وطنه الذين كانوا يدرسون الدين الإسلامي دراسة سطحية مقصورة على الفروع، وذلك في رسالة موجزة حلت عندهم محل القرآن الكريم والحديث الشريف وشاع فيهم مذهب «التجسيم»، فأخذوا التعابير المجازية في كتاب الله بحرفيتها وتمادوا في ذلك لدرجة أنهم صوروا الخالق تبارك وتعالى بصورة جسمية.

وصار ابن تومرت بعد ذلك ناقدًا أخلاقيًّا صارم الشدة في تعاليمه لدرجة أنه كان يخرج إلى الأسواق والطرقات ويشرع في نهي الناس علانية ويهرق جرار الخمر التي تصادفه ويفرق الناس بعصاه، وكان يدخل على المجتمعين في المجالس العامة فيهرق ما بين أيديهم من خمور ويفسد ما يجد أمامهم من طعام أُحْضِر لمتابعة مجالات السُكْر، وفي مدينة فاس لم يتردد في الاعتداء على شقيقة السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين لأنها كانت تسير في الطريق دون حجاب.

ثم ادَّعِيَ بعد ذلك أنه المهدي المنتظر عند أهل الشيعة الاثني عشرية، وأخذ يعمل جاهدًا على وصل نسبه بعلي بن أبي طالب، ومن ثمّ صارت تعاليمه مشوبة بالآراء الشيعية التي تنطوي على شيء من الغموض، ولو أنه كان في الواقع على مذهب أبي الحسن الأشعري في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث، ووافق المعتزلة في نفيهم للصفات، غير أنه كان يقول بعصمة الإمام على غرار أهل الشيعة الإمامية والإسماعيلية، وقد صرح في آخر الأمر بأنه هو «المهدي المعصوم».

ولدى إقامته بميناء «بجاية» بشرق القطر الجزائري تعرف على عبد المؤمن بن علي الكومي (انظر مادة الكومي)، فاستصحبه إلى المغرب الأقصى ولقبه «بسراج الموحدين»، وفي مراكش كثر عدد أتباعه، ولما اشتهر أمره أحضره أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي إلى مجلسه وناظره الفقهاء بين يديه، فغلبهم، فأخرجه السلطان من مدينة مراكش، فرحل إلى جبال المصامدة ونزل على قبيلة «هرغة»، وهي قبيلة عشيرته، وشيد هناك رابطًا للعبادة، واجتمع عليه خلق كثير، فأخذ يعلمهم الدين بلسانهم البربري، ومن مؤلفاته «رسالة التوحيد» التي طبعت بمدينة الجزائر عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م)، ومن عنوانها أخذت طائفة الموحدين اسمها ونادت بأن أفرادها لا يعترفون إلا بمذهب التوحيد، ويحاربون كل النحل الأخرى، كما ألف كتابي «أَعز ما يطلب»، وكتاب «الموطأ»، ويتضمنان خلاصة مذهبه.

ولقد استطاع ابن تومرت تدريس بعض سور القرآن لقبائل وطنه الذين لا يعرفون غير اللغة البربرية بطريقة مبتكرة، من ذلك أنه توصل إلى تحفيظهم فاتحة الكتاب بأن أعطى لأحدهم اسم (الحمد لله) وللثاني (رب)، وللثالث (العالمين)، وهكذا إلى آخر السورة.

وكثرت جيوشه، فأرسل إليه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين جيشًا لقتاله، فهزمه وقويت شوكته وبايعته قبائل المصامدة وغيرها من قبائل البربر.

ولم يستمر المهدي بن تومرت على تواضعه بوصف كونه مصلحًا اجتماعيًّا متسامحًا بعيدًا عن الأذى والإضرار بالناس، إذ تذكر بعض الروايات التاريخية أنه ركن إلى الطغيان واتباع وسائل العنف فلم يتورع أتباعه عن إبادة القرى وسبي النساء وقتل المخالفين لآرائه.

وفي عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) جهز جيشًا كبير العدد من قبائل المصامدة وقبائل السوس، ثم جمع أعوانه المقربين وخطب فيهم قائلاً «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدِّلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم!!! فإن أجابوكم فهم إخوانكم لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا

فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم». وكان هذا الخطاب بمثابة إعلان الحرب على المرابطين.

وعهد ابن تومرت بقيادة هذا الجيش اللجب إلى عبد المؤمن بن علي الكومي، فانطلق صوب مدينة مراكش عاصمة المرابطين والتقى بجيشهم فهزم جيشه وقتل من أفراده خلق كثير، وعاد عبد المؤمن وفلول جيشه إلى جبل «تينملل» الذي اتخذه المهدي موطنًا له وبنى فيه مسجدًا وسمَّى عامة أتباعه وأصحابه بالموحدين.

ولم يستول اليأس على قلب ابن تومرت بسبب هذه الهزيمة فأخذ يهوِّن نكبتها على أتباعه ويخبرهم بأن موتاهم شهداء لأنهم لاقوا حتفهم وهم يدافعون عن دين الله وسنة رسوله، فازداد حماسهم واستمروا على شن الغارات المتواصلة والغزوات المفاجئة على المرابطين ولاسيما في ضواحي مدينة مراكش وكانوا يقطعون عن سكانها موارد المعاش ويقتلون ويسبون، وتذكر بعض المصادر التاريخية أن هذه الغارات والغزوات الضارية أطاحت برءوس سبعين ألفًا من المرابطين ومن أفراد الشعب، ومن ثم أخذت دعوة الموحدين تقوى وبدأت قوة المرابطين تضعف وسلطانهم يتلاشى في الأندلس وفي المغرب الأقصى وفي الجزائر.

ومات المهدي بن تومرت في شهر رمضان عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) عن ٥٣ سنة، ويدل تاريخ حياته على أنه كان حافظًا للحديث، عالمًا بالمسائل الدينية، كما كان داهية في التفكير لا يتردد في إراقة الدماء لفرض مبادئه بالقوة، وعندما اشتد عليه المرض أوصى أصحابه باتباع عبد المؤمن بن علي الكومي وسماه «أمير المؤمنين»!!

ودفن ابن تومرت في المسجد الذي بناه بجبل «تينملل»، وكتم أصحابه موته خوفًا من تفرق الكلمة، وظلوا ثلاثة أعوام يدبرون الأمر، ثم أعلنوا موته على أتباعهم ولم يبايعوا عبد المؤمن وينصبوه زعيمًا عليهم، إلا بعد أن تقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتي زعيم قبيلته في ثلاثة من أهل الجماعة، وقال لعبد المؤمن: «نحن نقدمك كما كان الإمام ابن تومرت يقدمك»، وأعلنوا بيعته وحملوا القبائل على طاعته.

ولقد ظهر أثر تعاليم ابن تومرت واضح المعالم في السلوك الديني العام للدولة الموحدية، ويتضح هذا الأثر جليًّا في أن الموحدين كانوا يمثلون بحق طائفة من الطوائف المتحررة في الفكر الإسلامي في ذلك الحين، مخالفين في آرائهم المرابطين الذين أخذوا بالنصوص الفقهية الإسلامية في التشريع ووقفوا بعقيدتهم عند التقاليد الموروثة في التصرف وعند المذهب المالكي لا يحيدون عنه ولا يميلون إلى التصرف في تأويل مبادئه بالتفكير العقلي الحر.

وليس من الصعب التعرف على أسباب هذا التفكير، فطابع المغرب العربي في تلك الحقبة من تاريخه الإسلامي، كان هدفه التطلع إلى الآفاق البعيدة من الحرية العقلية والتأثر بالآراء التي كان يتلقاها من المشرق العربي مهد الحضارة الدينية المحمدية، وكانت تلك الآراء التي تتناول بالبحث المستفيض حرية التفكير ونبذ التقيد بالنصوص، متأثرة إلى حد بعيد بما كان شيوخ المعتزلة يبدونه من مبادئ قائمة على التعمق في الاستقصاء وتحكيم المنطق دون الوقوف عند النصوص بحرفيتها، وقد ظهر كل ذلك واضحًا فيما درج عليه أمراء ورؤساء الموحدين من تأملات وشروح، ومن ثمّ نراهم يجاهرون بإنكار المذاهب وينادون بالعدل في ظل التوحيد،

ويبعدون الصفات عن الخالق ويعتبرون التأويل قاعدة من قواعد التفكير العقلي، ويكفِّرون المرابطين الذين ينسبون إلى الله صفات المخلوقات من كلام وسمع وبصر.

ومن كل ما تقدم يتبين أن دولة الموحدين التي سارت على تعاليم ابن تومرت قضت على دولة المرابطين بسبب نزاع فقهي بين التمسك بالمذهب السني المالكي الذي كان نبراس المرابطين، وبين الجنوح إلى مذهب التوحيد الموضح قبل، وقد خسرت الأمة الإسلامية تضامنها وقوتها الجماعية في تلك الفترة العصيبة من تاريخ العروبة في المغرب والأندلس، وكان من جراء هذا الشقاق بروز العوامل التي كان من نتائجها السيئة انهيار الدولة العربية في الأندلس وطرد الإسلام من ربوع إسبانيا وتشريد المسلمين والقضاء على النهضة العلمية والأدبية الأندلسية التي كانت في أوج ازدهارها اليانع.

ولقد تقدم القول إن كنية ابن تومرت تدل باللغة البربرية على أنه ابن عمر الصغير، واسم عمر هو اسم أبيه الذي عرف به كما عرف باسم عبد الله، وجمع أسماء أسلاف ابن تومرت أسماء بربرية، مما يدل على أن ادعاء انتسابه إلى الإمام علي بن أبي طالب لا يقوم على أساس متين من الصحة التاريخية، وأن هذا الادعاء يدخل في زمرة تلك الأنساب التي يتخذها كثير من حكام العرب ووجهائهم ليثبتوا أنهم من الشرفاء التابعين بالأرومة إلى الشجرة المحمودية، ومازال هذا الادعاء شائعًا بين كثير من الأسر ولاسيما في الشرق والغرب العربيين.

ولعل الباعث لابن تومرت على الرحيل إلى المشرق كان الرغبة في طلب العلم، إذ لا يمكن القول بأنه قد تكهن بالخطة التي نفذها فيما بعد والتي كانت ثمرة ما تلقاه من تعاليم في البلدان الشرقية ولاسيما على يد العالِم الطرطوشي.

وكانت دولة المرابطين التي كانت تحكم المغرب العربي وجزءًا من البلاد الأندلسية قد أخذت في الاضمحلال، وتبع الغزو انحطاط في الأخلاق ودلت البحوث التي ظهرت في ذلك العهد على ضعف الحياة العقلية، وقد كان مذهب الإمام مالك بن أنس شائعًا حينذاك وهو أكثر المذاهب الفقهية تشددًا، كما كانت الدراسات مقصورة على «الفروع» في رسائل حلت محل القرآن والحديث، وهو ما عارضه الغزالي (انظر هذه المادة) بشدة في المشرق في قسم من كتابه «إحياء العلوم» تحت عنوان «كتاب العلم»، وقد أثار هذا الكتاب غضب بعض الفقهاء أمثال القاضي عياض (انظر هذه المادة)، كما أثار بعض الأشاعرة مثل الطرطوشي (انظر هذه المادة) الذين كانوا لا يسمحون لواحد من ذوي الأنظار الحرة بالاندماج في مذهبهم؛ ولذلك أحرقت كتب الغزالي بأمر أمراء المرابطين كما تقدم القول.

وأول رحلة لابن تومرت كانت بالأندلس، وما من شك في أن آراءه المذهبية قد تأثرت بما كتبه ابن حزم (انظر هذه المادة)، وفي دمشق تشبع بآراء الغزالي وأشار الكتّاب المتأخرون لهذا التأثر بقولهم إنه استجاب لدعوة الغزالي وصمم على إصلاح عقائد بني وطنه، وقد بدأ تصميمه على خطة الإصلاح التي رسمها في ذهنه عندما ركب البحر عائدًا إلى المغرب، فشرع في تغيير المنكر على ركاب السفينة وبحارتها، وألزمهم بإقامة الصلاة وقراءة القرآن، ثم استمر على نشر دعوته، مستوحيًا عقائد الأشاعرة، وذلك في طرابلس بليبيا، ثم في المهدية بتونس، وكان سلطانها في ذلك الحين يحيى ابن تميم آخر أمراء بني زيري الذي دام حكمه من عام ٥٠١هـ (١١٠٧م) إلى عام ٥٠٩هـ (١١١٥م) ومات مقتولاً، وقد

أحلَّ هذا السلطان ابن تومرت عندما سمعه يدافع عن دعوته ، ثم واصل ابن تومرت الدعوة في «المُنَسْتير» وذهب منها إلى ميناء «بجاية» في غرب القطر الجزائري ونادى بالحديث النبوي الشريف: «من رآى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان» ، وقد ثار عليه الأمير العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي أحد أمراء بني حماد ، وهم أولاد عمومة بني زيري ، وقد استقلوا بالجزء الشرقي من القطر الجزائري ، وجعلوا عاصمة دويلتهم ميناء بجاية ، وحكم هذا الأمير طوال الفترة الواقعة بين عامي ٤٩٨ و ٥١٥هـ (١١٠٤ - ١١٢١م) ، وكان سبب غضبه على ابن تومرت أن هذا الأخير اعتدى على سلطته ، فقام الشعب في وجهه حتى هرب إلى «بني ورياغل» ، فلقي بينهم عبد المؤمن الكومي ، وذلك على خلاف ما ورد في «روض القرطاس» من أن لقاءهما كان في «تاجرَّة» ، وكان على عبد المؤمن هذا تحقيق دعوة ابن تومرت وكان طالبًا فقيرًا في «تاجرّة» في شمال «ندرومة» ، وكان مثل ابن تومرت يقصد المشرق في طلب العلم ، وقد رأى ابن تومرت في عبد المؤمن علائم خاصة تدل على أنه ضالته المنشودة ، وكل ما يعرف عن هذا اللقاء أن ابن تومرت تحدث إلى عبد المؤمن واختبره بدقة وانتهى إلى إقناعه بالعدول عن رحلة كان يزمع القيام بها إلى المشرق ، وارتحل ابن تومرت بعد ذلك إلى المغرب الأقصى عن طريق «وانشريش» ، و«تلمسان» حيث نفاه حاكمها ، ثم ذهب إلى فاس ومكناس ، حيث قابل أهلها دعوته بالضرب ، ووصل آخر الأمر إلى مراكش وهنا برزت فيه شخصية المصلح الخلقي الديني أكثر من ذي قبل ، وكان نساء «لمتونة» يسرْنَ سافرات كما يفعل نساء «الطوارق» ونساء القبائل حتى الآن ، فلما رآهن ابن تومرت عنفهن وألقى بأخت الأمير المرابطي «الصورة» عن دابتها ، فلم ينزل به هذا الأمير ما يستحق من العقاب لهذه الإهانة واكتفى بعقد مجلس يناظر فيه ابن تومرت فقهاء المرابطين فتناظروا في مسائل: هل تنحصر طرق العلم أو لا تنحصر؟ وما قول ابن تومرت في أصول الحق والباطل الأربعة وهي: العلم والجهل والشك والظن ، ولم يكن من العسير على ابن تومرت أن ينتصر على مناظريه مع أنه كان بينهم قاضٍ أندلسي نابه لم يكن أقل نضالاً من ابن تومرت يدعى مالك بن وهيب ، وقد أشار هذا القاضي على الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين بقتل ابن تومرت ، فلم يستجب لذلك وأبقى على حياته ففر إلى «أغمات»؛ حيث اشترك هناك في مناظرات أخرى ، ثم ذهب إلى جبال المصامدة وبدأ دعوته فيها بطريقة منظمة.

وكان في أول الأمر منكرًا لكل ما يخالف القرآن والحديث من أخلاق وعادات ، وبعد أن صار له نفوذ قوي في الوسط الذي كان يحيط به ، شرع في نشر مبادئه ، فهاجم المرابطين بشدة وقال عنهم إنهم يتبعون المذاهب الباطلة ، وكان يرمي كل من يعارضه بالمروق وأعلن حربًا دينية قاسية ليس على الوثنيين والمشركين فحسب ، بل وعلى المسلمين الآخرين ، واختار عشرة من أصحابه منهم عبد المؤمن الكومي ، وبعد أن هيأ الأذهان بذكر صفات المهدي اعتبر نفسه ذلك المهدي نفسه واصطنع نسبًا ينتهي به إلى علي بن أبي طالب ، ولم تكن دعوته أشعرية خالصة بل خالطها كثير من الآراء الشيعية ، ويذكر المؤرخون أنه لجأ إلى جميع الحيل لتدعيم دعوته وجمع حوله قبيلة «هرغة» وجزءًا كبيرًا من قبيلة «المصامدة» الذين كانوا في عداء دائم مع قبيلة «لمتونة» ، مع أن يوسف ابن تاشفين شيد مدينة مراكش بقصد إيقافهم عند حدهم ،

وقد أعد ابن تومرت لهم بحوثًا مختلفة باللسان البربري الذي كان يجيد التكلم به، منها رسالة «التوحيد» التي مازالت باقية إلى الآن باللغة العربية والتي نشرت بالجزائر عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م).

ورتب ابن تومرت أتباعه ونظمهم في طبقات: الطبقة الأولى تتألف من عشرة، هم أول من استجاب لدعوته وأطلق عليهم اسم «الجماعة»، وتتكون الطبقة الثانية من خمسين: هم المخلصون من أتباعه وأطلق عليهم اسم «المؤمنين» أو «الموحدين»، ولم يمتد نفوذه إلى كل البقاع ولم يكن له نفوذ بين أهل «تينملل» التي دخلها بخدعة، وقتل بها خمسة عشر ألفًا من الرجال وسبى النساء وقسم المنازل والدساكر بين أتباعه وشيد فيها حصنًا، ثم دخلت القبائل المجاورة في دعوته طوعًا وكرهًا.

وبعد هزيمة جيشه بقيادة عبد المؤمن الكومي أمام جيش المرابطين – كما تقدم القول – رأى نفسه محاصرا في «تينملل»، وقد فكر بعض أتباعه في التسليم ولكنه لجأ – بمعاونة عبد الله الونشريشي الذي كان قد استدعاه من ونشريش – إلى الخدعة حتى إذا استعاد مكانته أمر بإعدام كل من كان موضعًا للشك، ويقول ابن الأثير (انظر هذه المادة): «إن سبعين ألفًا قد أُعْدِموا وقتذاك»، ويظهر أن هذا العدد ينطوي على كثير من المبالغة.

وجاء في «روض القرطاس» أن ابن تومرت كان جميل الطلعة، أسمر اللون، منفصل الحاجبين، قوي النظر، أقنى الأنف، غائر العينين، خفيف اللحية، له شامة سوداء على يده، وكان داهية، قادرًا، تساوره الشكوك، لا يتردد عن إراقة الدماء إذا اقتضى الأمر.

ومن كل ما تقدم يتضح أن هذا الرجل كان أحد المعاول الهدامة في كيان الأمة العربية في المغرب، إذ ترتب على أعماله المتسمة بالقسوة القضاء على دولة المرابطين السنية وتقلص النفوذ العربي في الأندلس بسبب اندثار النظام المرابطي وذهاب ريح كيانه إلى غير رجعة.

٥٧ – ابن التونسي – شارع – بقسم باب شرقي

اسمه الصحيح محمد بن عمر بن سليمان التونسي (وليس ابن التونسي) من أسرة تونسية انصرفت إلى العلم عامة وإلى الدين خاصة، وكان جدُّه سليمان نساخًا، وقد ترك أولاده الثلاثة حينما ذهب لتأدية فريضة الحج في رعاية خاله أحمد بن سليمان الأزهري العالم الفقيه، ولم يعد سليمان إلى تونس بعد رجوعه من الحج لضياع ثروته، وبعد أن عاش مدة بجدّة، ينسخ الكتب، ذهب إلى سنَّار بالسودان مع جماعة من أهلها، فأكرم واليها وفادته ووهبه منزلاً وأرضًا وأجرى عليه معاشًا، وتزوج سليمان من أهل سنَّار ورزق منها بولد، وكان قد رزق بعمر من زوجته التونسية، وذهب عمر من جدَّة إلى القاهرة وجاور بالأزهر، ثم سافر إلى سنَّار لزيارة والده، وعاد بعد ذلك إلى الدراسة بالأزهر وتزوج عام ١٢٠١هـ (١٧٨٦م)، ثم ذهب إلى تونس مسقط رأسه حيث رزق بابنه «محمد التونسي» عام ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م)، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى الدراسة بالأزهر وانتخب نقيبًا لرواق المغاربة، وفي عام ١٢١١هـ (١٧٨٩م) بعث إليه أخوه السوداني يخبره بوفاة والده سليمان وبسوء حاله، فرحل عمر إليه ولم يعد إلى أسرته فكفلها أخوه طاهر، ولكنه رحل إلى مكة وترك محمدًا يدرس في الأزهر، وفي عام ١٢١٨هـ

(١٨٠٣م) سافر إلى دارفور حيث وجد أباه عمر وكان في رغد من العيش في حاشية السلطان، وتلقى السلطان محمد التونسي بالترحاب، ولما أراد والده عمر أن يزور أقاربه في تونس ترك أملاكه في يد ولده، ومكث محمد في دارفور سبع سنوات عرف خلالها البلاد وأهلها معرفة تامة، وبعد أن ذهب إلى (واداي) ومكث بها مدة، رحل إلى (فزان) بجنوب تونس مخترقًا بلاد توبو، ثم تابع رحلته من فزان إلى طرابلس، فتونس عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م)، ونجده في عام ١٢٤٠هـ (١٨٤٠م) في خدمة محمد علي، ويلتحق بالحملة المصرية على شبه جزيرة المورة باليونان بقيادة إبراهيم باشا، وذلك بصفة واعظ لفرق الجيش، واشتغل محمد التونسي بعد ذلك بتنقيح الترجمة العربية لكتب الطب ولا سيما المتصلة بعلم الأقرابازين الموجودة بكلية الطب البيطري بأبي زعبل، وتعرف التونسي في ذلك الحين «بالدكتور بيرون Dr. Perron» الذي أخذ عليه دروسًا في العربية، وقد أغراه هذا الطبيب بكتابة مذكرات عن رحلته في السودان، وفي عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) صار الدكتور بيرون مديرًا لمدرسة الطب بقصر العيني، فأوصى بمحمد التونسي، فعُيِّن كبيرًا للمراجعين فيها، ويقول «كريمر Kremer» الذي جاء مصر لأول مرة عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٠م) إن محمد التونسي كان أحد أساتذته وإنه يجلّه ويحترمه، وأضاف قائلاً إن محمدًا قد أكبّ على طبع المؤلفات العربية القديمة مثل مقامات الحريري والمستطرف للأبهيشي، وإنه قد انتخب للإشراف على طبع نسخة من «القاموس» للفيروز آبادي.

وعمد التونسي إلى تحقيق هذا الغرض في نشاط دائب وقد طبعت النسخة الجديدة من هذا القاموس في بولاق عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، وفي أواخر أيام حياته أخذ الشيخ محمد التونسي في تدريس الحديث بمسجد السيدة زينب في أيام الجمع، ووافته المنية بالقاهرة عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)

وكتب التونسي معلوماته ومشاهداته وتجاربه بالسودان في مجلدين نقلهما الدكتور بيرون إلى الفرنسية، ومحمد التونسي أول من زود التاريخ بمعلومات وافية موثوق في صحتها عن بعض نواحي السودان، ولا سيما عن دارفور وواداي، ويعد كتاب التونسي مصدرًا هامًّا في التاريخ لا سيما عن النواحي الثقافية والسياسية والجنسية للبلاد التي زارها في السودان، والكتاب بعنوان «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، وله أيضًا كتاب «الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية».

٥٨ – ابن تيمية – شارع – بقسم الرمل

هو تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحَرَّاني، كان من أكابر العلماء المبرَّزين، وكان المشار إليه في العلوم الدينية وعلم الكلام والفقه على المذهب الحنبلي، وكان مولده في يوم الإثنين ١٠ ربيع الأول عام ٦٦١هـ (١٢ يناير ١٢٦٣م) في حَرَّان بالقرب من مدينة دمشق بالشام، وقد فرَّ والده من ظلم التتار ولجأ بأسرته إلى دمشق في منتصف عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م)، وعكف أحمد بن تيمية على دراسة العلوم الإسلامية بدمشق، فحضر دروسًا على والده في أول أمره، ثم على زين الدين أحمد بن عبد الدايم المقدسي، ومجد الدين بن عساكر وزينب بنت مَكِّي وغيرهم، ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان»: إن ابن تيمية رحل بعد ذلك إلى بغداد وتتلمذ على أبي الفتح بن المُنَى وسمع الحديث بها من شهدة بنت الأبري وابن المقرب (انظر هذه المادة) وابن البطِّي.

وقد أتمّ تعليمه في العشرين من عمره، وعندما توفي والده عام ٦٨١هـ (١٢٨٢م) خلفه في تدريس الفقه الحنبلي، وكان يفسر القرآن الكريم من حفظه الخاص بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع.

ويذكر مؤرخو سيرته أنه برع في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغير ذلك من العلوم الإسلامية، ودافع بكل طاقته عن سنن السلف الصالح من المسلمين بأدلة لم يسبق إليها أحد قبله مع أنها مستقاة من القرآن والحديث، وهذا يدل على قوة ذكائه وقوة استنباطه.

غير أن حريته في الجدل وإقامته الحجج الدامغة في مناظراته ضد مناظريه كانت السبب في عداوة الكثيرين من علماء المذاهب الثلاثة الأخرى له، وبعد أن أدى فريضة الحج عام ٦٩١هـ (١٢٩٢م) سافر إلى القاهرة، فبلغها في ربيع الأول عام ٦٦٩هـ (١٢٩٩م)؛ حيث أفتى في مسألة وصلته من مدينة حماة عن صفات الله، وكانت فتواه في هذه المسألة سببًا في تأليب علماء الشافعية عليه، مما أثار غضب الرأي العام وأدى ذلك إلى حرمانه من منصب التدريس.

ولكن في ذلك العام نفسه كُلِّف بالحض على الجهاد ضد التتار وشهد بصفته الواعظ موقعة شَقْحَب التي انتصر فيها المسلمون على التتار بالقرب من مدينة دمشق.

ومن جهة أخرى مارس ابن تيمية الحرب فقاتل عام ٧٠٤هـ (١٣٠٥م) (الكَسْرَوانيين) في بلاد الشام بما فيهم فرق الشيعة الإسماعيلية والنُصَيْرية والحاكمية وهي الفرق التي تعتقد في عصمة علي بن أبي طالب ويرمون الصحابة بالكفر، وكان أفراد بعض هذه الفرق الخارجة على السنّة المحمدية لا يقيمون الصلاة ولا يصومون وبعضهم يأكل لحم الخنزير.

وفي عام ٧٠٥هـ (١٣٠٦م) رحل إلى القاهرة صحبة قاضي الشافعية وشهد فيها خمس مرات مجالس القضاة والأعيان بقاعة الحضرة السلطانية.

وفي هذه المجالس اتهمه القضاة بأنه من دعاة التجسيد للذات الإلهية العلية وسرعان ما صدر عليه الحكم بالسجن هو واثنان من إخوته، فألقوا في الجب بقلعة الجبل وظلوا على هذه الحال المؤلمة عامًا ونصف العام.

وفي شهر شوال عام ٨٠٧هـ (١٣٠٨م) نوقش في مسألة كتبها في الرد على مذهب الاتحادية وهو مذهب يقول باتحاد المخلوق بالخالق في اصطلاح المتصوفة بوجه عام أو هو النظرية التي تذهب إلى أن مثل هذا الاتحاد أمر ممكن الحدوث، وهذه النظرية التصوفية تناقض عقيدة «التوحيد» الحقيقي التي لا تعترف بأي وجود حقيقي غير وجود الله عز وجل.

وقد أتى ابن تيمية بالحجج الدامغة التي تضمنها رده مما جرد خصومه من أسلحتهم وعندها صدر الأمر بترحيله على البريد إلى دمشق، وبعد فترة من الزمن أُجبر على العودة إلى القاهرة؛ حيث سجن عامًا ونصف العام لأسباب سياسية وقد ثابر على تعليم المساجين أمور دينهم طوال مدة سجنه.

وأطلق سراحه أيامًا قلائل ثم اعتقل في برج الإسكندرية وكان آنذاك يسمى «البرج الزفر» بحصن قايتباي، وظل معتقلاً في هذا البرج الرهيب ثمانية أشهر لم ينفك خلالها عن التأليف وكتابة الرسائل الفقهية، ومن ثم يستطاع القول بأن هذا العالم

الجليل أنتج الشيء الكثير من تصانيفه المختلفة النواحي في كنف الإسكندرية .

وعقب هذا الاعتقال الظالم عاد إلى القاهرة؛ حيث استطاع الحصول على وظيفة مدرس بالمدرسة الناصرية التي أسسها السلطان الناصر وذلك على الرغم من أنه امتنع عن إفتاء هذا السلطان بما يجيز له الانتقام من أعدائه ، وفي هذا الإفتاء ما يدل على ترفع ابن تيمية عن النفاق والمداهنة ليرضي نزعة الحاكمين إلى الظلم على حساب الحقوق التي كفلها الدين الإسلامي للمؤمنين .

وفي شهر ذي القعدة عام ٧١٢هـ (فبراير ١٣١٣م) سمح له بمصاحبة الجيش الذاهب إلى بلاد الشام قاصدًا بيت المقدس ، ثم نراه يحلّ بدمشق بعد أن غاب عنها أكثر من سبعة أعوام ، وقد استأنف بدمشق التدريس ، إلى أن منع من القيام به بأمر من السلطان بتاريخ جمادى الآخر عام ٨١٧هـ (أغسطس ١٣١٨م) وذلك إثر إفتائه في مسألة الطلاق والحَلِف به ، كأن يقول الرجل بطلاق زوجته ويعلق ذلك بحدوث شيء أو عدم حدوثه ، وهي مسألة أباح لنفسه حلولاً عدة لا يقبلها فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى وهي المالكية والشافعية والحنفية الذين يقولون بأن الذي يوقع هذا الحلف معرَّض للعقاب مع إلزامه بالوفاء بعقده ، ومن الإنصاف لابن تيمية القول بأن رأيه في هذا الصدد هو المأخوذ به الآن في الأحوال الشخصية .

ولم يخضع ابن تيمية لمنعه من الإفتاء في هذه المسألة الشرعية فحُكِم عليه بالسجن في قلعة دمشق وذلك في شهر رجب عام ٧٢٠هـ (أغسطس ١٣٢٠م) ثم أُفرِج عنه بعد خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا بأمر السلطان ، ولكنه عاد إلى سابق عهده في قول الحق وإبداء الرأي فيما يجده صوابًا .

وظلّ يناضل في سبيل نشر مذهبه الفقهي إلى أن ظفر أعداؤه بفتواه في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين التي كان قد أصدرها خلال عام ٧١٠هـ (١٣١٠م) ، فصدر في شعبان عام ٧٢٦هـ (يوليو ١٣٢٦م) مرسوم السلطان باعتقاله في قلعة دمشق للمرة الثانية؛ حيث أُعِدَّت له حجرة كان أخوه يقوم على خدمته فيها ، وفي هذه الحجرة أكبّ على تفسير القرآن الكريم وكتابة الرسائل للرد على المخالفين لآرائه الفقهية كما صنَّف مجلدات عديدة في المسألة التي سُجن بسببها .

وعندما وصل علم هذه المجلدات إلى أعدائه عملوا آثمين على تجريده من كتبه وأوراقه وحتى المداد للكتابة ، وهكذا قضى هؤلاء الأعداء على ذخيرة فكرية لا تقدر بثمن وأفلحوا في إصابته بضربة قاصمة في صميم حياته العلمية الدافقة .

وأخذ يطلب السلوى عن هذا المصاب الفادح في تلاوة القرآن والصلاة إلا أن الكارثة أثرت على صحته فانتابه المرض وتوفي ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة عام ٧٢٨هـ (٢٧ سبتمبر ١٣٢٨م) بالغًا من العمر حوالي ٦٥ عامًا .

وكان أهل دمشق يجلونه ويعظمونه ويعترفون بقدره وعلمه فاحتفلوا بجنازته ، وقُدِّر من سعوا في هذه الجنازة بمائتي ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة ، وقد رثاه الشاعر ابن الوردي (انظر هذه المادة) بقصيدة من عيون قصائده .

وكان ابن تيمية من الحنابلة إلا أنه لم يتبع تعاليم هذا المذهب من غير تبصر أو روية فكان يعتبر نفسه مجتهدًا في المذهب ، وقد ذكر مرعي كاتب سيرته في كتابه «الكواكب» عدة مسائل فقهية لم يأخذ فيها ابن تيمية «بالتقليد» أو «الإجماع» ، بل أبدى فيها رأيه في صراحة وشجاعة ، وهو يصرِّح في وضوح بأنه

يتبع القرآن والحديث بظاهر لفظيهما في معظم مؤلفاته، بيد أنه كان في الوقت نفسه لا يرى من الخطأ الاستعانة بالقياس في مناظراته وعلى الأخص في مجموعة الرسائل الكبرى، وقد أفرد رسالة خاصة لهذا الأسلوب من التدليل.

وكان ابن تيمية عدوًّا لدودًا للبدع، فهاجم التضرع للأولياء وزيارة القبور متمسكًا بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام «لا تُشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا».

وحتى الرحلة التي يقصد بها زيارة قبر النبي فقط فهي معصية، ومن جهة أخرى لم يحرم زيارة قبر المسلم إلاّ إذا كانت هذه الزيارة تقام في يوم معين وتحتاج لرحلة خاصة، وبهذا التحديد كان يعتبر تلك الزيارة واجبًا تقليديًّا، فأين هو الآن ليرى النسوة في مصر وقد هُرِعْنَ إلى الجبانات في أيام الخميس، وفي المواسم والأعياد لزيارة القبور يحملن الطعام من كل صنف مع ما يَجُدْنَ به من الصدقات المادية، وينصبن الموائد عند الظهر بجانب القبور في غير مبالاة بما أمر به الشرع الإسلامي السمح الذي يستنكر هذه البدع الوثنية الذميمة؟

واتهمه ابن بطوطة بالإسراف في مسألة التجسيد أي تفسير الآيات والأحاديث التي تشير إلى الله بظاهر اللفظ، فقد قال ابن بطوطة عنه: إنه قال من منبر جامع دمشق: «إن الله ينزل من السماء إلى الدنيا كنزولي هذا»، ثم نزل درجة من درج المنبر، وهذه التهمة تحتاج إلى إثبات لا يتطرق إليه الشك ولاسيما أن أعداء ابن تيمية كانوا كثيرين فألصقوا به تهمًا عديدة لا يدُلُّ ورعه وتقواه وتبحره في الفقه والشريعة الإسلامية على الأخذ بها واعتبارها صحيحة لا يعتورها التحيز والسعي إلى النيل من علمه وتقواه.

والدليل على ذلك أنه لم يقصر في مهاجمة الفرق الإسلامية التي انحرفت عن السنّة بقلمه ولسانه فهاجم الخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية وغيرها وذلك على الأخص في رسالة الفرقان ومجموعة الرسائل الكبرى.

وقال إن عقائد الأشعري ما هي إلا مزيج من آراء الجهمية والنجَّارية والضِرارية وغيرها، وكان إلى جانب ذلك يعارض تفسير القدر وأسماء الله الحسنى والأحكام وإنفاذ الوعيد وما إلى ذلك.

وكان يخالف أئمة الفقهاء في مسائل كثيرة مثال ذلك: أنه كان يرفض العمل بالتحليل الذي تستطيع به امرأة طلقت طلاقًا بائنًا أن تتزوج مرة أخرى من زوجها بعد أن يعقد لها على رجل آخر «محلل» على أن يطلقها هذا الرجل بعد ذلك مباشرة، وقال إن هجر المرأة في أثناء الطمث باطل، وأفتى بأن المكوس التي لم يرد بها نص في القرآن مقبولة ومن يدفعها يُعْفى من الزكاة، وأنه ليس من الزندقة أو المروق في الدين أن يرى الفقيه رأيًا مخالفًا للإجماع.

وكان صريحًا في إبداء آرائه لا يخاف في قول الحق أية لائمة من خصومه، فصرح وهو يخطب فوق منبر جامع الصالحية أن عمر بن الخطاب لم يسلم من الوقوع في الخطأ عدة مرات، وأن علي بن أبي طالب وقع في الخطأ ثلاثمائة مرة.

ولعلّ هذه الصراحة في الرأي هي التي دفعت أبا المظفر سبط ابن الجَوْزي أن يقول في حقه: «إنه كان ضغينًا بحرّان، فمتى نبع فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرجه منها»، وقد نقل هذه التهمة المتحاملة ابن خلّكان في كتابه «وفيات الأعيان» بعد أن ذكر هو في مدح ابن تيمية أنه كان فاضلاً تفرَّد في بلاده بالعلم وأنه غاية في الجود وأن الخطابة في نجران كانت إليه ولأهله من بعده، وأن أمره بقي جاريًا على سداد وصلاح، وكل هذه السجايا الكريمة تقطع بنفي ما نسبه إليه أبو المظفر من ضغينة وحقد وما قاله ابن بطوطة في حقه.

ومن علامات صراحته في قول الحق هجومه على الصوفيين في غير هوادة، فهاجم محيي الدين بن عربي وعمر ابن الفارض، كما هاجم الغزالي (انظر هذه المواد) واشتد في هجومه على الصوفية بوجه عام وما ذلك إلاّ لتمسكه بالقرآن والحديث والسنّة المحمدية معرضًا عن كل ما يذهب إليه الصوفيون من اندماج في الذات الإلهية العلية وبلوغ مراتب الأقطاب وما إلى ذلك من المزاعم التي قد لا يقبلها العقل في سهولة ولاسيما في عصرنا الحالي، عصر العلم والصعود إلى القمر وانقسام الذرّة.

وكان هجومه على الغزالي مركزًا في طعنه في آرائه الفلسفية التي ضمنها كتابيه: المنقذ من الضلال، وإحياء علوم الدين، فقال إن كتابه «إحياء علوم الدين» يشتمل على عدد كبير من الأحاديث غير الموثوق بصحتها، ثم قال إن المتكلمين والصوفية في واد واحد والسنيين في واد آخر.

ولم يسكت على الفلسفة اليونانية فحاربها وحارب منتحليها من المسلمين في حماسة بالغة وخصّ بالذكر من هؤلاء المنتحلين ابن سينا وابن سيعين، وفي ذلك يقول: «ألا تؤدي الفلسفة إلى الكفر؟ ألم تكن في الأغلب مصدر انحراف الفرق المختلفة التي نشأت في صدر الإسلام؟...» وهذا هو الصواب، الصواب بعينه فالتفلسف كان وبالاً عن الدين الإسلامي ومازال كذلك حتى الآن، ولاسيما إذا أتقنه ضعفاء العقيدة ومَن إيمانهم على حرف.

وبما أن الإسلام جاء ليحل محل اليهودية والمسيحية فكان من الطبيعي أن يدعو ابن تيمية إلى مهاجمتهما، فاتهم اليهود والنصارى بتغيير معنى بعض الكلمات في كتبهم المقدسة، وكان من تطرفه في هذا الصدد أن كتب عدة رسائل عارض فيها القيام بصيانة معابد اليهود أو بناءها وعلى الأخص الكنائس، وكان منه ذلك تعصبًا لا مبرر له.

وأخذ خصومه يشككون في سنّيته، ومنهم من تطرق إلى رميه بالزندقة، ومن هؤلاء الحاقدين ابن حجر الهيثمي وتقي الدين السبكي وابن بطوطة الرحالة المغربي (انظر هذه المواد) وابن عبد الوهاب وغيرهم، ومع ذلك فإن عدد مادحيه ومقدري علمه وفضله أضعاف شانئيه، فمن بين مادحيه تلميذه ابن قَيِّم الجوزية، والذهبي (انظر هذه المادة) وابن قُدامة والصرصري الصوفي وابن الوردي (انظر هذه المادة) وعلي القاري الهروي ومحمود الآلوسي وكثير غيرهم.

ولايزال بعض العلماء والفقهاء على خلاف في الرأي حول ابن تيمية حتى الآن، فاشتد في نقده يوسف النبهاني في كتابه «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»، ولكن أبو المعالي الشافعي السَلامي رد على هذا الكتاب في كتابه «غايات الأماني في الرد على النبهاني»، فأنصف ابن تيمية إلى أبعد حد.

ولقد اتصل مؤسس الطريقة الوهَّابية بعلماء الحنابلة في دمشق ومن الطبيعي أن يكون قد تأثر بتعاليمهم ومؤلفاتهم وعلى الأخص بتعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأصول هذا المذهب الخامس الجديد هي التي كان ابن تيمية يناضل من أجلها طيلة حياته بعلمه الغزير المادة وآرائه الحنبلية المذهب ومناظراته العظيمة في علم الكلام، وابن تيمية هو مشرع مبدأ «الوصية الواجبة» التي ظلت أصولها غير منفذة في التشريع الإسلامي حتى رجع إليها المسلمون وطبقت في قواعد الأحوال الشخصية ولاسيما في مصر؛ حيث يُعمل بها في الميراث بتخصيص نسبة مما ترك الأب أو الأم لأولاد ابنهما، إذا توفي هذا الابن قبل وفاة أحدهما أو وفاتهما معًا، وهكذا أصبح الأحفاد الذين فقدوا أباهم أو أمهم قبل وفاة جدهم أو جدتهم يحصلون على نصيب من تركة الجد أو الجدة ويأمنون شر الفقر والعوذ بفضل مذهب ابن تيمية الرحيم.

وعلاوة على علم هذا الرجل العظيم بالفقه والحديث وتفسير القرآن وأصول الشريعة الإسلامية فقد كان متكلمًا لبقًا حلو الحديث بليغ المنطق شاعرًا مجيدًا، ومما بقي من شعره قوله:

أَحبابُنا قَدْ نَذَرَتْ مُقْلَتي
لا تلتقي بالنوْمِ أو نلتقي

رِفقًا بِقلبٍ مُغْرَمٍ واعْطِفُوا
على سَقَامِ الجسدِ المفرقِ

كم تمطلوني بليالي اللِّقا
قدْ ذَهَبَ العُمْرُ ولم نلْتقِ

والواقع هو أنّ ابن تيمية كان فاضلاً حسن القصص حلو الكلام مليح الشمائل يلاقي القبول عند الخاص والعام وكان فصيحًا في المناظرات بارعًا في تفسير القرآن وفي جميع العلوم التي له فيها يد بيضاء.

وقد قال هو إن أصل تلقيبه «بابن تيمية» هو أن جده حج وكانت زوجته حاملاً، فلما كان بتيماء رأى جارية حسناء فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد وضعت أنثى، فلما قدمت إليه حملها وقال: يا تيمية. . . يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء وهي بلدة في بادية تبوك.

ويدل على غزارة علم ابن تيمية أنه صنف حوالي خمسمائة مؤلف بين كتب ورسائل، ولم يبق منها الآن سوى ٦٤ أهمها: «رسالة الفرقان بين الحق والباطل»، و«معارج الوصول» وقد فند فيه قول الفلاسفة والقرامطة الذين يذهبون إلى أن الأنبياء قد يكذبون في بعض الأحيان، و«التِّبْيان في نزول القرآن»، و«الوصية في الدين والدنيا» (وهي الوصية الصغرى)، و«رسالة في النيّة في العبادات»، و«رسالة العرش هل هو كُرِّي أم لا»، و«الوصية الكبرى»، و«الإرادة والأمر»، و«العقيدة الواسطيَّة»، و«المناظرة في العقيدة الواسطيّة»، و«العقيدة الحَموية الكبرى»، و«رسالة في الاستغاثة»، و«الإكليل في المتشابه والتأويل»، و«رسالة الحلال»، و«رسالة في زيارة بيت المقدس»، و«رسالة في مراتب الإرادة»، و«رسالة في القضاء والقدر»، و«رسالة في الاحتجاج بالقدر»، و«رسالة في درجات اليقين»، وكل هذه الرسائل تتعرض للفلسفة في كثير من التعمق الفكري الناضج، و«كتاب في بيان الهدى من الضلال في أمر الهلال»، و«رسالة في سُنَّة الجمعة»، و«تفسير المعوذتين»، و«رسالة في العقود المحرمة»، و«رسالة

في معنى القياس» ، و«رسالة في السماع والرقص» ، و«رسالة في الكلام على الفطرة» ، و«رسالة في الأجوبة عن أحاديث القُصَّاص» ، و«رسالة في رفع الحنفي يديه في الصلاة» ، و«كتاب في مناسك الحج» ، وكل هذه الرسائل جُمِعت في مجموعة عنوانها «مجموعة الرسائل الكبرى» وطبعت بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ .

وله أيضا كتب: «الذقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، و«الواسطة بين الخَلق والحق» ، و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ، و«التوسل والوسيلة» ، و«جواب أهل العلم والإيمان» بتحقيق ما أُخبر به رسول الرحمن من أنّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن ، و«الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» وهو في الرد على رسالة بولس أسقف صيداء وأنطاكية وقد هاجم في هذا الكتاب المسيحية ورفع من شأن الإسلام ، و«الجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبوية» ، و«الصارم المسلول على شاتم الرسول» ، و«تخجيل أهل الإنجيل» وهو رد على النصرانية ، «العقيدة التَدْمُرية» ، و«اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم» وهو في الرد على اليهود والنصارى ، و«الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان» ، و«أصول الفقه» ، و«الفرق المبين بين الطلاق واليمين» ، و«مسألة الحلف بالطلاق» ، و«الفتاوى» ، و«السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» ، و«جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار» .

هذا إلى جانب رسائل: «العُبودية» ، و«تنوع العبادات» ، و«زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور» ، و«المظالم المشتركة» ، و«الحسبة في الإسلام» .

رحم الله ابن تيمية وأجزل ثوابه لما قدم للدين الإسلامي والمسلمين من نصائح ومعلومات قيمة وآراء حصيفة نافعة .

٥٩ - ابن ثابت - حارة - بقسم الرمل

يحمل كنية ابن ثابت اثنان من صحابة رسول الله هما:

١) حسان بن ثابت الخزرجي (أبًا وأمًّا): ولد بالمدينة المنورة عام ٥٦٣ م ، ومن ثم فهو يكبر النبي محمدًا عليه السلام بثمانية أعوام ، وكان أشعر أهل المدينة في زمانه ، فالتحق بالبلاط في جِلَّقٍ (وهو موضع في جنوب سوريا حشد فيه البوزنطيون جيشهم قبل منازلتهم العرب في أجنادين عام ١٣هـ (٦٣٤م) ، في جِلَّقٍ هذه أخذ حسَّان يمدح ملوك الغساسنة أولاد الحارث بن الأعرج وأحفاده ، وهناك قابل النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة التميمي الشاعرين الذائعي الصيت ، وقد خُصِّص له معاش بسبب مديحه ولكن ذلك لم يمنعه من زيارة النعمان بن المنذر الملقب «بأبي قابوس» (انظر هذه المادة) بالحيرة فأثارت هذه الزيارة حسد الملك الغَسَّاني ، غير أن حسان أفلح في إزالة شكوكه .

ولما صفا الجو بين النعمان والنابغة الذبياني ترك حسَّان منافسة النابغة «في بلاط الحيرة» ، وعندما بلغ ابن ثابت الستين بدأ يناصر النبي عليه السلام ويخصه بقصائد مدحه الصادرة عن وجدان صادق بالرسالة المحمدية ، وقدَّر رسول الله هذه الشاعرية الفياضة بالحب ، فكافأه بإقطاعه ضيعة من الفيء ووهبه الجارية المصرية «سيرين» أخت مارية القبطية التي أنجبت للنبي ولده إبراهيم الذي لاقى ربه صغيرًا .

ولعل أجل ما قدمه حسَّان بن ثابت من الخدمات للإسلام إدخال تميم في دين الله الحق، وتذكر السير ما كان بين حسان وبين الزعماء التميميين من مساجلات شعرية قيمة، وعمَّر حسان بعد وفاة النبي، وأدرك حكم الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد رثا رسول الله وأبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب بقصائد رائعة، أما عثمان بن عفان فكان حسان مواليًا له بصفة خاصة ويرجع ذلك إلى أن ابن عفان عاش في بيت أخيه بالمدينة عقب الهجرة، ومن ثم جعل تبعة مقتل عثمان ابن عفان تسعى حتى تقف بباب عليّ بن أبي طالب، وتذكر الروايات أن حسان قضى نحبه وهو في سن العشرين بعد المائة وكانت أسرته قد انقرضت وقت وفاته، وعلى ذلك تكون وفاته عام ٦٤هـ (٦٨٣م) تقريبًا.

وحسان أول من نظم الشعر الديني في الإسلام وتكثر في قصائده الآيات القرآنية، ويفضل النقاد – ولاسيما المستشرقين– حسان على شعراء البادية، على أن القيمة الكبرى لشعره هي أنه مصدر من مصادر التاريخ الإسلامي، مثال ذلك ما قاله يردُّ على هجر أبي سفيان للنبي، وذلك يوم فتح المسلمين لمكة:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
وَعِنْدَ اللهِ في ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ
فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم
وَيَمدَحُهُ وَيَنَصُرُهُ سَوَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُم وِقَاءُ

ويُدْعَى حسان بأبي الوليد الأنصاري، وقد نشأ جاهليًّا نابهًا في الشعر وأسلم مع الأنصار بعد الهجرة، وصار شاعر الرسول محببًا إليه وإلى خلفائه، وتناول شعره المدح والهجاء والفخر بنفسه وبقومه، ويختلف أسلوبه الإسلامي عن الجاهلي بتأثير البيئة الجديدة فصار سهلاً مألوفًا بعد أن كان وعرًا غريب الألفاظ، وكان يخضب شاربه وبعض لحيته بالحناء عندما يلقي قصائده.

٢) زيد بن ثابت: اشتهر بعلمه الغزير في المدينة المنورة، وقد تخصص للحياة العلمية بها، وكان له كثير من التلاميذ وهو أنصاري من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذلك منذ أن كان في شرح الشباب، وقد تعلم السريانية والعبرية، وإن كان تاريخ سيرته لا يوضح مقدار ثقافته منهما، إذ يقول الرواة إنه تعلم هاتين اللغتين في قليل من الزمن، وهذا يدل على أن تعلمه في هذه الناحية لم يكن عميقًا، غير أنه كان ضليعًا في فهم تعاليم الدين الإسلامي، وكانت له قدرة فائقة على استنباط الأحكام من آيات القرآن الكريم ومن الحديث النبوي وسنة رسول الله ومن إجماع الرأي، إذا لم يكن في ذلك نص من كتاب الله أو حديث صحيح قاله النبي.

وكان الخليفتان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (انظر هاتين المادتين) لا يقدمان أحدًا على زيد بن ثابت في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه في كل سفر يسافره.

وكان زيد مترئسًا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد عثمان واستمر كذلك في عهد الخليفة علي ابن أبي طالب طوال إقامته بالمدينة.

وعندما تولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٤٠هـ (٦٦٠م) ظل زيد بن ثابت يتربع على عرش هذه الرياسة، وكانت وفاته عام ٤٥هـ (٦٦٥م).

وكان ابن عباس (انظر هذه المادة) يأخذ بركابه ويقول: «هكذا يُفعَلُ بالعلماء والكبراء»، وإلى جانب تضلع ابن ثابت في الفقه، كان على علم واسع النطاق بالفرائض (المواريث وتقسيمها)، إذ كان ذا عقلية رياضية مرموقة، ولقد وَلِيَ قسمة الغنائم في اليرموك، ومن ثم يتضح أنه كان عالمًا وفقيهًا في آن واحد، كما كان قادرًا على استنباط المعاني، وذا رأي صائب فيما لم يرد فيه أثر.

ويُرْوَى أن الشاعر حسَّان بن ثابت – الذي تقدمت ترجمته – رثاه بقصيدة منها البيت التالي:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَّانَ وابْنِهِ
وَمَنْ لِلْمَعَانِي بَعْدَ زَيْدِ بنِ ثَابِتِ؟

وهذه «المعاني» التي وردت في هذا البيت هي الميزة التي امتاز بها زيد في حياته العلمية العقلية.

ولقد أقنع عمر بن الخطاب أبا بكر الصديق بجمع القرآن، وكان زيد بن ثابت في مجلسه، فدعاه عمر وذكر له اقتناع أبي بكر بجمع القرآن الكريم ثم قال له: «إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فاجمعه»، وبعد تردد قام زيد فتتبع القرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف وسعف النخل وصدور الرجال، ويدوِّن سوره ثم أودعها عند أبي بكر الصديق، وانتقلت من أبي بكر إلى عمر ابن الخطاب ثم إلى حفصة بنت عمر وزوجة النبي، ثم إلى عثمان بن عفان الذي جمعه في مصحف واحد.

٣) رافع بن ثابت: ويذكر المؤرخون ثالثًا يلقَّب بابن ثابت، الذي أقام السيد/ محمد علي السنوسي (انظر مادة السنوسي) على مقربة من ضريحه بمدينة «درنة» بليبيا زاوية من زواياه في حوالي عام ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م)، ويُكْنَى رافع بن ثابت هذا بالأنصاري، ولعله من ذرية صحابة النبي عليه الصلاة والسلام من الأنصار أو لعله أحد الصحابة الذين اشتركوا في فتح المغرب العربي واستشهد أو مات بمدينة درنة لدى فتحها على أيدي العرب.

٦٠– ابن جامع – شارع – بقسم باب شرقي

هو إسماعيل بن جامع السهمي، كان من أقطاب الغناء العربي في القرن الثاني الهجري، وقد عاش في خلافة الهادي، وخلافة هارون الرشيد، وكان من معاصري إبراهيم الموصلي (انظر هذه المادة) ومن أكبر منافسيه في فن الغناء الذي تعلمه على سياط، وكان ذا صوت جهير عذب بارعًا في صناعة الألحان وأدائها، وكان مع ذلك تقيًّا صالحًا مقبول الشهادة، وسئل برسوم الزامر بالناي في ذلك الحين عن ابن جامع، وإبراهيم الموصلي، وأيهما أحسن غناءً؟ فقال: «إبراهيم الموصلي أشبه ما يكون ببستان فاكهة فيه الحلو والمر الذي لم ينضج، وأما ابن جامع فكأنه زقٌّ من عسل أين تفتح فيه يخرج منه عسل حلو كله جيد، وتوفي ابن جامع عام ١٨٨هـ (٨٠٣م).

وكان ابن جامع السهمي محسنًا علاوة على تقواه فقد قدم مكة بمال كثير ففرقه على ضعفاء أهلها، فقال سفيان بن عيينة: «بلغني أن هذا السهمي قدم بمال كثير فعلام يُعطى» قالوا: يغنّي الملوك فيعطونه، قال: وبأي شيء يغنّيهم؟ قالوا: بالشعر، قال: فكيف يقول: فقال له فتى من تلاميذه يقول:

أطوف بالبيت مع مَنْ يطوفُ

وأرفع مِنْ مئزري المُسْبَلِ

قال: بارك الله عليه ما أحسن ما قال، قال: ثم ماذا؟ قال:

وأسجدُ بالليل حتى الصباحِ

وأتلو مِنَ المحكَمِ المُنْزَلِ

قال: وأحسن أيضًا، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟، قال:

عسى فَارجُ الهـمِّ عَنْ يُوسفٍ

يُسَخِّرُ لي رَبَّـةَ المَحْمَلِ

قال: أمسك، أمسك، أفسد آخرًا ما أصلح أولاً، وقد تدل هذه الأبيات على أن ابن جامع كان شاعرًا.

٦١- ابن جبير - حارة - بقسم اللبان

يحمل لقب ابن جبير ثلاثة ممن دون التاريخ سيرة حياتهم وهم:

١) **عبد الله بن جبير**: أحد صحابة رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وقد أمره النبي بأن يكون على رأس خمسين رجلاً من مهرة الرماة يوم معركة أُحُد (انظر هذه المادة)، وأن يكون مع هؤلاء الرماة فوق «عينين»، وهو مرتفع من جبل أُحُد نفسه، وكان ذلك في يوم السبت الموافق ٧ من شهر شوال عام ٣هـ (مارس ٦٢٥م) وهو يوم تلك المعركة الشهيرة، وكان النبي قد رأى المشركين أهل مكة عن بعد، فأمر «بلالاً» أن يؤذن، وأقام الرسول الصلاة وصلى الصبح، ثم جعل يصف أصحابه تأهبًا للمعركة.

وقد جاء ذكر عبد الله بن جبير بالوصف المدوّن قبل في كتاب الواقدي (انظر هذه المادة) المسمى «مغازي رسول الله».

٢) **سعيد بن جبير**: من كبار الصوفيين، وقد نوه الشعراني (انظر هذه المادة) في كتابه «الطبقات الكبرى» بورعه وتقواه وقيامه الليل للصلاة والعبادة، وقد أخذه الحجاج بن يوسف الثقفي وقيد رجليه ثم قطع رأسه، وكان سعيد بن جبير مولى بني والبة، وكان أسود اللون ومن علماء الكوفة ثم تولى الفقه في مكة.

وقد قتل الحجاج سعيد بن جبير هذا العالم الفقيه الثقة ومن أكابر التابعين لأنه ثار على ظلمه وجبروته، وعندما كان ابن جبير في طريقه إلى المحاكمة عرض عليه حارسه الهرب، فأبى حتى لا يؤخذ إنسان بريء به، وحتى لا تقول الأجيال اللاحقة إن سعيد بن جبير قد جبن عن مواجهة طغيان الحجاج.

وعندما وقف أمام الحجاج انتفخ تعاظمًا ودار بينهما الحوار التالي:

- ما اسمك؟

– اسمي سعيد بن جبير، وقد نطق بهذه الجملة في كبرياء وعزة

– بل شقيّ بن كُسَير!

– أبي كان أعلم باسمي منك!

– لقد شقيت وشقي أبوك!

– الغيب إنما يعلمه غيرك!

– لأُبَدِّلنك نارًا تَلَظّى!

– لو علمت أن ذلك لك، ما اتخذت إلهًا غيرك!

– وما قولك في محمد؟

– نبي الرحمة وإمام الهدى، بعثه الله رحمة للعالمين

– وما رأيك في عليّ؟ أهو في الجنة أم في النار؟

– لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها!

– وما قولك في الخلفاء؟

– لست عليهم بوكيل

ولما أعيى الحجاج أن يفحمه حاول أن يجره ليظهر الاستكانة والخنوع فيعفو عنه، فقال له:

– أتريد أن أعفو عنك؟

– إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا تملك العفو عن إنسان

– اختر أية قتلة تريد أن أقتلك بها

– بل اختر

– يا عدو الله

– لنفسك، فوالله ما تقتلني اليوم قتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها

وسيق سيد التابعين إلى الذبح، وكان آخر ما قال له: «اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي»، وقد استجاب الله دعاءه فمات الحجاج بعد هذا الحادث بخمس عشرة ليلة، ولم يرق دمًا لإنسان، وكان قبل موته قد جفاه النوم والتاث عقله، فكان يستيقظ في الليل فزعًا وهو يصيح: «يا قوم، مالي ولسعيد بن جبير، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي»!.

وقد عرف فضل سعيد بن جبير أهل الفضل، فقال الإمام أحمد بن حنبل (انظر هذه المادة): «لقد قتل الحجاج سعيدًا، وما على وجه الأرض أحد إلاّ وهو مفتقر إلى علمه».

وقال الحسن البصري (انظر مادة البصري): «اللهم أنت على فاسق ثقيف، فوالله لو أن مَنْ بين المشرق والمغرب اشتركوا في دم سعيد بن جبير لكبَّهم الله على وجوههم في النار».

٣) أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (الملقب بابن جبير): من أشهر رحَّالي العرب، ويعد أعظم رحَّالي القرن الثاني عشر الميلادي، ولد بمدينة «بلنسية» بإسبانيا عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، ودرس الفقه والحديث بمدينة شاطبة موطن أسرته، كما درس على أبيه وأخذ القراءات عن أبي الحسن

بن محمد بن أبي العيش، وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يسعون، وأخذها بمدينة سبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي واهتم بدراسة الأدب والشعر فبلغ فيهما الغاية وترك كثيرًا من القصائد، غير أن أعظم آثاره الأدبية كتاب رحلته المسمى «تَذْكِرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» الذي دوَّنه حوالي عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) وتداولته أيدي القراء مخطوطًا في الشرق والغرب، إلى أن قام بنشره وطبعه «ويليام رايت William Wright» الإنجليزي سنة ١٨٥٢م (١٢٦٩هـ) وراجعه بعده «دي جويه De Goeje» الهولندي سنة ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ).

وقد عمل ابن جبير كاتم سر أمير غرناطة أبي سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين، فاستوطن منذ ذلك الحين مدينة غرناطة.

ويقال إن الأمير أبا سعيد استدعاه يومًا ليكتب عنه كتابًا وهو على شرابه، فمد يده إليه بقدح من نبيذ فاعتذر ابن جبير لأنه لم يشرب الخمر قبل ذلك، فأقسم عليه الأمير يمينًا مغلظة ليشربن منها سبعًا فشربها صاغرًا ثم درَّها عليه أبو سعيد سبعة أقداح من الدنانير.

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيرًا عن خطيئته، وأقام في سفره سنتين ودوَّن مشاهداته وملحوظاته في يوميات هي المعروفة «برحلة ابن جبير» فجاءت مدوَّنة وافية لجميع ما شاهده وصحائف واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التي مر بها وقاموسًا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية وثبتًا بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري علاوة على احتوائها على دعاية لدولة الموحدين وتمنياته بأن يمتد نفوذها شرقًا إلى مصر والحجاز.

وقد ترك ابن جبير غرناطة صحبة صديق اسمه أحمد بن حسان يوم الخميس الثاني من شوال عام ٥٧٨هـ (٣ فبراير ١١٨٣م) إلى الطرف الأغر في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الإسبانية، ثم عبر البحر إلى ميناء سِبْتَة مارًّا بمضيق جبل طارق، وفي سِبْتة الواقعة على المضيق في شمال بلاد المغرب الأقصى استقل سفينة «جنوية» وجهتها الإسكندرية وذلك يوم الخميس ٢٩ من شوال (٢٤ فبراير)، وسارت السفينة عبر الزقاق (مضيق جبل طارق)، ثم اتخذت رحلتها بجانب الساحل الشرقي لإسبانيا مارة بجزيرتي «ميورقة، وميتورقة» من جزر أرخبيل البليار، وقبل الوصول إلى جزيرة سردنيا هبت عليها عاصفة كادت تغرقها، ولكنها قاومت الأمواج ووصلت إلى الجزيرة حيث تزود الركاب بالماء والغذاء، وأقلعت بعد ذلك ورست على شاطئ جزيرة صقلية (انظر هذه المادة)، ثم اتجهت شرقًا إلى أن حازت بَرَّ جزيرة إقريطش (كريت) واستقر بها النوى أخيرًا عند الإسكندرية يوم ٢٩ من ذي القعدة (٢٦مارس)، ومن ثم تكون مدة هذه الرحلة ٣٠ يومًا.

واستنكر ابن جبير مطالبة موظفي ميناء الإسكندرية الحجاج بأن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم، ثم طاف بالمدينة فزار منارها البطلمي العجيب وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه، وشاهد بقايا العمائر البطلمية والرومانية، وذكر المدرسة والمارستان (المستشفى) المخصصين للغرباء، ولاحظ كثرة مساجد المدينة؛ بحيث كانت منها الأربعة والخمسة في موضع واحد، وكان بعضها مبنيًّا فوق بعض، وذكر الأعمدة

الرخامية الهائلة العدد التي تزين المدينة وأنابيب المياه التي تمد المنازل في كل الأنحاء.

وفي يوم الأحد ٨ من ذي الحجة عام ٥٧٨هـ (١١٨٣م) رحل ابن جبير إلى القاهرة فأقام بها أيامًا وزار المسجد الحسيني والقرافة ومسجد الإمام الشافعي والمدرسة الناصرية التي بناها بجوار هذا المسجد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي وصف هذه المدرسة يقول: «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها»، ولم يقابل ابن جبير غير شيخ هذه المدرسة نجم الدين الحبوشاني، ولم يسع لمقابلة صلاح الدين أو أخيه العادل أو بهاء الدين قراقوش أو القاضي الفاضل ولكنه لم يترك مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته في بلاد الشرق الأدنى، وقد وصفه في عبارات تدل على شجاعته وشهامته وحلمه والعفو عن المسيء وكرمه، وكان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام قد أعاد المذهب السني إليهما وأبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعاء لبني العباس منذ شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ (سبتمبر ١١٧١م)، فلاحظ ذلك ابن جبير في كثير من الغبطة، وقال إن خطباء المساجد يلبسون السواد على رسم العباسية ويتقلد كل منهم سيفًا وقد لاحظ ذلك في مكة أيضًا، وفي القاهرة شاهد القلعة التي لم يكن بناؤها قد تم وعاين سور المدينة والخندق المحدق بها والقناطر التي أقامها صلاح الدين بالقرب من الجيزة على امتداد طريق الإسكندرية الصحراوي وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش ويسخر لإتمام هذه المنشآت جميعها أسرى الإفرنج، وبعد أن زار ابن جبير أهرام الجيزة وأسهب في وصفها مما يدل على أنها كانت في زمن صلاح الدين على ما هي عليه الآن وبعد أن تكلم عن أبي الهول وعن زيارته لبلدة الجيزة ومقياس النيل وجامع عمرو بالفسطاط وشاهد آثار الحريق الذي أحدثه الصليبيون بالفسطاط في أواخر أيام الفاطميين، بعد كل هذا سافر ابن جبير في النيل إلى قوص مارًّا بمدن الصعيد دون أن ينزل بإحداها، وكان وصوله إلى مدينة قوص في يوم الخميس ٢٤ محرم عام ٥٧٩هـ (١٩ مايو ١١٨٣م) فوجدها حافلة بالأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحبشة، ثم ذهب منها إلى عيذاب عن طريق الصحراء وهو طريق التجارة الدولية في الفلفل وأنواع البهار التي قامت على مكاسبها الهائلة عظمة الدولتين الأيوبية والمملوكية، وقد أعجب ابن جبير باستتباب الأمن في هذا الطريق الصحراوي لدرجة أن البضائع كانت تترك دون حراس على قارعة هذا الطريق فلا يمسها أحد.

ومن عيذاب ركب ابن جبير البحر إلى جدة في إحدى المراكب التي تُبنَى دون استخدام المسامير في إنشائها، إذ يستعاض عنها بأحراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل، ووصل بعد ذلك إلى مكة ووصف المسجد الحرام وصفًا مفصلاً كما وصف المدينة في سياق مسهب استغرق ٧٠ صحيفة من كتابه تعد وثيقة تاريخية هامة يستدل منها على أحوال تلك البقاع في أواخر القرن السادس الهجري، ويتخلل هذا الوصف بعض الملحوظات منها أن أهل الحجاز كانوا يعتمدون على موسم الحج كأكبر مورد مالي لهم وذلك عن طريق استغلال الحجاج إلى أقصى حد وإرهاقهم بأنواع المكوس، وقد خفف من وطأتها قرار صلاح الدين الأيوبي بتعويض أمير مكة بمال وطعام يرسله إليه كل سنة، ولاحظ ابن جبير أن

أشراف مكة كانوا على مذهب الزيدية ولا يصلون مع كافة الناس وإنما يؤمهم إمام خاص .

ورحل ابن جبير إلى المدينة بعد أن مكث بمكة ستة أشهر قمرية وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوي ، ولم يرجع إلى وطنه من حيث أتى بل رافق الركب الشامل لحجاج العراق وخراسان وكردستان والشام ، فسار إلى العراق في ٨ محرم عام ٥٨٠هـ (٢١ إبريل ١١٨٤م) ، فمر بطريقه إلى العراق بالقادسية التي انتصر في موقعتها سعد بن أبي وقاص (انظر ابن أبي وقاص) ، وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشارع من ماء الفرات ، ثم نزل على الكوفة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب (انظر ابن الخطاب) بعد واقعة القادسية لتكون معسكرًا دائمًا للمسلمين في فتوحاتهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة الدولة الإسلامية في خلافة علي بن أبي طالب (انظر الإمام علي) ، ووجدها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة الأبنية قد استولى عليها الخراب فالغامر منها أكثر من العامر ، ومن الكوفة ذهب الرحالة إلى المدائن عاصمة الدولة الفارسية قبل الإسلام فوجدها خرابًا ثم دخل بغداد فشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ولاحظ أن أكثر رسمها قد ذهب ولم يبق منها إلا شهير اسمها .

ويُظهر وصف ابن جبير لأحوال بغداد ما حل بها على يد هولاكو المغولي وجنوده وما كانت عليه قبل هذه الكارثة ، وقد ذكر ابن جبير أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس ، ووصف الخليفة الناصر لدين الله الذي رآه مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخليفي ، فقال إنه في ميعة الشباب أشقر اللحية صغيرها حسن الشكل رائع الرواء ، سنّه نحو الخمس والعشرين سنة ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود معتمدًا بذلك زي الأتراك ، ولاحظ ابن جبير أن جميع العباسيين كانوا معتقلين في دورهم لا يخرجون ولا يظهرون ، ولم يكن للخليفة وزراء – في ذلك العصر – يقومون على شؤون الدولة ، إنما له قيم يعرف بالصاحب «الأستادار» يقوم على جميع شؤون الدور الخليفية ، ويدعى له على المنابر إثر الدعاء للخليفة ، أما عن أخلاق أهل بغداد في ذلك الحين فيقول ابن جبير: «إنهم يتصنعون التواضع رياءً ويذهبون بأنفسهم عجبًا وكبرياء ويزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ويرون في بلادهم أعظم بلدان الدنيا .

وفي ١٥ صفر عام ٥٨٠هـ (٢٨ مايو ١١٨٤م) ترك ابن جبير بغداد إلى الموصل ، فمر بسمرا (سرَّ من رأى) عاصمة العباسيين في عهد المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبرة من رأى ، قد استولى عليها الخراب إلا بعض جهات قليلة منها ، وفي الموصل شاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته الخاتون زوجة نور الدين صاحب آمد ، وهي في عسكر من الجواري وندد بهذا البزخ والإسراف .

ثم رحل ابن جبير إلى نصيبين ومنها إلى دارا ، فماردين ، فدنيسرفراس عين التي سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون بقربها .

وقد شبه ابن جبير أمراء تلك البلاد بملوك الطوائف بالأندلس فقال:

«كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابًا هائلة وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، لبس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق» ، وقد جاء وصف ابن جبير لهؤلاء الأمراء مطابقًا لقول الشاعر الأندلسي

بالنسبة إلى ملوك الطوائف وهو «أسد بن الفرات» (انظر مادة ابن الفرات):

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالقِطِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

ثم واصل ابن جبير رحلته إلى حران، واستجار من شدة حرِّها، وزار بعد ذلك «سروج» التي نسب الحريري إليها أبا زيد السروجي بطل مقاماته، ثم قصد بعد ذلك حلب وقال إنها سميت بذلك لأن سيدنا إبراهيم كان يحلب عندها غنمًا له ويتصدق بلبنها، غير أن دائرة المعارف الإسلامية تقول إنها من منشآت الحيثيين واسمها في لغتهم حلاب ومنها اسم حلب الحالي (انظر مادة حلب)، ومن حلب رحل إلى دمشق مارًّا بقنسرين وتل تاجر وياقدين والمعرة وجبل لبنان وحماة والرستن وحمص، وقال إن بكل مدينة من هذه المدن مارستان (مستشفى) وأن جميع الخانات التي آوى إليها في طريقه كانت قلاعًا حصينة آمنة.

ووصف ابن جبير الجامع الأموي بدمشق وأتى على تاريخه في إسهاب، كما وصف حجرة الساعة الدقاقة بهذا الجامع وسماها المنجانة، كما يدعوها أهل الأندلس، ولاحظ أن أهل الشيعة كانوا أكثر من السنيين في دمشق وفي بلاد الشام عامة، وهم من فرق شتى: الرافضة والزيدية والإمامية والإسماعيلية والبصرية والغرابية وغيرها، ويدل ذلك على أن الفاطمية والشيعة لم يكن قد ذهب ريحهما تمامًا على يدي صلاح الدين الأيوبي، وكانت الفرقة السنية المقاومة للشيعة هي طائفة النبوية وكانت تدين بالفتوة وتلبس السراويل الفضفاضة.

وقال ابن جبير إن الحروب الصليبية في الشام لم تشل الحركة التجارية بين المسلمين والفرنج، فكان الاتجار بينهم لا يقف في أي وقت من السنة.

ومن دمشق رحل ابن جبير إلى عكا وقال إن الصليبيين يفرضون على المسافرين من المغاربة ضريبة إضافية؛ وذلك لأن فئة منهم اشتركت مع نور الدين بن زنكي (انظر مادة ابن زنكي) في جهاده ضدهم، فجراهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية، وتدل هذه الفقرة من كتاب ابن جبير على مدى استجابة المسلمين إلى نداء نور الدين، كما تدل على أن المرابطين والموحدين في المغرب العربي كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية وأن تلك الحروب الدينية ثارت فعلاً في الأندلس قبل أن تمتد إلى الشام.

وكان وصول ابن جبير إلى عكا في ١٠ جمادى الآخرة عام ٥٨٠هـ (١٨ سبتمبر ١١٨٤م)، وقد شبهها بالقسطنطينية من حيث العظمة، وفي هذه المدينة حجز مكانًا على ظهر سفينة جنوية قصدها ميناء مسينا بجزيرة صقلية فأبحرت به في يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر ١١٨٤م)، وقد وجد أن هذه السفينة كالمدينة بها كل ما يحتاج إليه المسافر من خبز وماء وفاكهة وبصل وثوم وجبن وطعام مختلف، وبعد شهرين من السفر في البحر وصلت السفينة إلى الشاطئ الصقلي يوم ٤ رمضان بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها، فجاء ما كتبه في هذا الصدد وثيقة في شرح فنون البحر في ذلك الحين.

وكانت صقلية تابعة للنورمانديين الذين نزحوا من نورمانديا بفرنسا إلى جنوب إيطاليا مرتزقة في الحروب واستطاع أحدهم

هو: روبرت جويسكارد تأسيس مملكة موحدة ثم انتزع صقلية من ملوكها المتنازعين بعد حروب دامت عشرين عامًا، وقد أسهم النورمانديون بعد استيلائهم على صقلية في الحروب الصليبية وقضوا على الدولتين الزيرية والحمادية بإفريقية (تونس) واستولوا على المهدية عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م) وهددوا الدولة الفاطمية في مصر والدولة الموحدية بالأندلس.

ويقول ابن جبير في وصف الحالة بصقلية إن النورمان استخدموا أنظمة المسلمين في حكم الجزيرة واستعملوا كثيرًا من المسلمين في الوظائف ولاسيما في البلاط الملكي وضموا أبناء المسلمين إلى الجيش وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف وسمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية (انظر مادة صقلية)، وقد جاء ما كتبه ابن جبير في هذا الصدد وثيقة تاريخية تدل على أصول الجزيرة في ذلك العهد ولاسيما بالنسبة إلى ملكها ويليم الثاني William II الصالح، فقد وصفه بأنه حسن السيرة، كثير الثقة بالمسلمين، وأنه يقرأ ويكتب بالعربية وأن جواريه وحظاياه في قصره من المسلمات، وفتيانه الذين هم عيون دولته من المسلمين، وقد شاهد ابن جبير في صقلية كثيرًا من الجوامع والمساجد والزوايا والأسواق والرباع الإسلامية، وقد زار الرحالة من بلاد صقلية مدينة مسِّينة ثم شفلودي وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة وأطرابنش ثم أقلع يوم الاثنين ٢١ ذي الحجة عام ٥٨٠هـ (٢٥ مارس ١١٨٤م) على ظهر سفينة جنوية إلى قرطاجنة وسافر منها إلى مرسية ثم إلى لورقة فالمنصورة حتى وصل إلى منزله في غرناطة في ٢٢ محرم عام ٥٨١هـ (٢٥ إبريل ١١٨٤م).

ولم يقم بالأندلس طويلاً فرحل إلى المشرق ثانية، ويقال إن سبب رحلته الثانية كان علمه بأن السلطان صلاح الدين الأيوبي قد استولى على بيت المقدس من الصليبيين عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، فعزم على الحج مرة أخرى وسافر من غرناطة في ٩ من ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ (٢٧ إبريل عام ١١٨٩م)، ولا يعلم من تفاصيل هذه الرحلة سوى قصيدته التي يشكو فيها إلى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه بالحجاج في ميناء الإسكندرية وقد أشار في هذه القصيدة إلى فتح بيت المقدس، ورجع ابن جبير إلى غرناطة من رحلته الثانية في ١٣ شعبان عام ٥٨٧هـ (٥ سبتمبر ١١٩١م).

وانتقل بعد ذلك إلى مدينة مالقة ثم إلى ميناء سِبْتَة بالريف المغربي ثم إلى مدينة فاس حيث انقطع إلى سماع الحديث وإلى التصوف وتروية الشعر، ولكنه لم يقم بالمغرب بصفة دائمة، فرحل إلى المشرق مرة ثالثة عام ٦١٤هـ (١٢١٧م)، ويقول صاحب كتاب الإحاطة إن سبب هذه الرحلة موت زوجته عاتكة بنت الوزير الوقشي التي كان كلفه بها جمًّا، فعظم وجده عليها فرحل إلى مكة وجاور بها ثم انتقل عنها إلى بيت المقدس وتحول بعد ذلك إلى الإسكندرية فأقام بها يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي بها في شهر شعبان عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) بالغًا من العمر حوالي ٧٢ عامًا.

وكتاب ابن جبير «تَذْكِرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» يضم تفصيلات رحلته الأولى، وقد دوَّنها يوميات إخبارية وعني في كتابتها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة، وقد فصل فيها شعائر الحج وصعوبات الأسفار ومواكب الأمراء وتجارة مكة وكثيرًا من النواحي التي توضح العلاقات بين أهل سوريا والصليبيين، وبعض الإشارات إلى الحياة الاقتصادية التي تتناول المزروعات والسلع المتبادلة، وكان في تذكرته شديد العناية بالمدارس والمستشفيات، كما

كان دقيق الملاحظة، سهل العبارة، واضح الأسلوب في كل ما كتب.

وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتب التي دوِّنت بعده، إذ تتضمن هذه الكتب أجزاء كبيرة من رحلته، وقد جاء في رحلة ابن بطوطة وصف ابن جبير لمدن بغداد ودمشق وحلب، مما يدل قطعًا على أن هذا الوصف نقل من تذكرة ابن جبير.

وفي الجزء الأخير من الرحلة تناول هذا الرحالة الأندلسي جزيرة صقلية بالوصف الرائع، وروى أخبارها في تفصيل ودقة يجعلان من هذا الجزء مصدرًا قيمًا من مصادر تاريخ هذه الجزيرة في عهد ويليم الثاني الملقب بالصالح، وخاصة فيما يتعلق بمعاملة حكام الجزيرة الأوروبيين للسكان المسلمين، ومن جهة أخرى تعد رحلته من أهم مؤلفات العرب في هذا اللون من الأدب العربي.

وليس في المراجع التاريخية الموثوق في صحتها ما يدل على أن جابر بن عبد الله الأنصاري أو جابر الأنصاري الخزرجي الملقب بأبي إسحاق قد وفدا على الإسكندرية واتخذا مثواهما الأخير في كنفها، ولكن هناك من الدلائل التاريخية ما يؤدي إلى الاعتقاد الجازم في أن سيدي جابر الأنصاري صاحب الضريح والمسجد الكائن بضاحية الرمل بالإسكندرية بين محطتي ترام الرمل في كليوباترا ومصطفى باشا هو الرحالة الأندلسي ابن جبير (انظر سيدي جابر).

ويؤيد هذا الاتجاه التاريخي القائم على الشواهد والتحقيقات العلمية المتينة الاستدلال ما كتبه المرحوم أحمد زكي باشا (انظر أحمد زكي) شيخ العروبة في هذا الشأن، فقد أكد «أن المدفون بالمسجد المشهور بالإسكندرية ما هو إلا ابن جبير الأندلسي، إذ إن الصحابة المعروفين باسم جابر لا يزيدون على خمسة وعشرين، كما نص عليهم صاحب كتاب «تاج العروس»، منهم عشرة من الأنصار، ثلاثة يحملون لقب «ابن عنبك»، وثلاثة يحملون لقب «ابن عمير»، والأربعة الآخرون هم: ابن سفيان وابن صخر وابن أبي صفصفة، وابن عبد الله، ولم يحضر منهم إلى الفسطاط سوى ابن عبد الله، ولم يدفن منهم أحد بالقطر المصري»، ثم يذكر شيخ العروبة «أنه كان من عادة المغاربة أن يذهبوا إلى الحج عن طريق مصر، حيث يطيب لبعضهم المقام ثم يموت بها، ومنهم الشاطبي والمقري وابن خلدون وأبو العباس المرسي والمغاوري والطرطوشي، ومنهم ابن جبير الأندلسي الرحالة المشهور، وقد وردت النصوص الصريحة الصادقة أنه انقطع إلى التدريس في الإسكندرية ومات ودفن بها».

ولقد بحث شيخ العروبة موضوع قبر ابن جبير مدة طويلة، وفي عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ) شرعت وزارة الأوقاف في عمارة المسجد وظهر فيه عمود عليه كتابة ونقل إلى دار الآثار، وقد أهدى الشيخ طاهر الجزائري إلى شيخ العروبة ورقة بخط المؤرخ ابن العدي الحلبي، وفيها يقول إن ابن جبير الأندلسي كان قائمًا بالتدريس في مكان المسجد نفسه، وهذا دليل قاطع على أن الضريح لابن جبير وليس لواحد من الصحابة الذين يحملون اسم جابر.

وكان أبو الحسن بن جبير كاتبًا بارعًا، جزل الأسلوب، حسن الصياغة، ولاسيما في وصف الأماكن التي زارها في رحلته، ففي وصف مدينة حلب الشهباء يقول: «قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح وسُلَّ عليها

من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأجزاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعوام ووسعت الخواص والعوام، أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ فني جميعهم ولم يبق إلاّ بناؤها، فيا عجبًا لبلاد تبقى ويذهب ملاّكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها، وتخطب بعدهم فلا يتعذر أملاكها وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها، هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت صرف الزمان والمكان».

وإذ تصدى لوصف مدينة دمشق قال:

«وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نورها المُشْرق، وخاتمة بلاد الإسلام، متى استقر بناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى ربوة منها ذات قرار معين، وظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوس، نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، وقد ستمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء، فكادت تناديك بها الصم والصلاب، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والآكام بالثمر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، وكل موضع لحظت بجانبها الأربع نضرته اليانعة قيد البصر، ولله صدق القائلين عنها، إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها».

ونظم ابن جبير الشعر ولكنه لم يسم إلى طبقة فحول الشعراء في عصره، وفيما يلي بعض نماذج من شعره، فعندما زار قبر النبي عليه الصلاة والسلام قال:

هَنيئًا لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الهُدَى
وحَطَّ عن النَّفْس أَوْزَارَهَا

وَأَنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ
لِمَنْ حَجَّ طِيبَةَ أَوْ زَارَها

ومن قوله في الحكمة:

إِيَّاكَ وَالشَّهْوَةَ فِي مَلْبَسٍ
وَالْبَسْ مِنَ الأَثْوَابِ أَسْمَالهَا

تَوَاضُعُ الإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ
أَشْرَفُ لِلنَّفْسِ وَأَسْمَى لَهَا

وقوله:

تَنَزَّهْ عَنِ العَوْرَاءِ مَهْمَا سَمِعْتَهَا
صِيَانَةَ نَفْسٍ، فَهْوَ بِالحُرِّ أَشْبَهُ

إِذَا أَنْتَ جاوَبْتَ السَّفِيهَ مُشَاتِمًا
فَمَنْ يَتَلَقَّى الشَّتْمَ بالشَّتْمِ أَسْفَهُ

وإتمامًا لهذه الترجمة يحسن الرجوع إلى ترجمة سيدي جابر، للوقوف على التفصيلات والأدلة التي تثبت أن «سيدي جابر» ما هو إلاّ الرحالة الأندلسي ابن جبير المدوَّنة ترجمته قبل.

٦٢ – ابن الجرّاح – شارع – بقسم سيدي جابر

١) عبد الرحمن بن عيسى بن داود (**وكنيته ابن الجراح**): تولى الوزارة في عهد الخليفة الراضي، ولم يمكث في هذا المنصب سوى ثلاثة أشهر، ثم زجّ به هو وأخوه في السجن، ولكنه تولى الوزارة مرة ثانية عام ٣٢٩هـ (٩٤١م) في عهد الخليفة العباسي المتقي.

٢) علي بن عيسى بن داود (**وكنيته ابن الجراح**): وهو أخو عبد الرحمن المتقدم الذكر، ولد عام ٢٤٥هـ (٨٥٩م)، وقد ناصر المعتز المطالب بالعرش فنفي إلى واسط بعد مقتل ابن المعتز، وفي عام ٣٠٠هـ (٩١٢ – ٩١٣م) استوزره الخليفة المقتدر، فأصلح مالية الدولة بفضل تدابيره الحكيمة الحاسمة، ثم عزل وسجن لأنه أسخط رجال الجيش بسبب تخفيض العطاءات التي كانت تمنح لهم وكان ذلك في نهاية عام ٣٠٤هـ (٩١٧م) وحل محله في الوزارة ابن الفرات الذي ستأتي ترجمته فيما بعد، فأسرع ابن الفرات إلى ابتزاز أمواله وبادر إلى نفيه إلى مكة، وفي عام ٣١٤هـ (٩٢٧م) أسندت إليه الوزارة من جديد وبقي يتولاها إلى أن طلب إقالته لكبر سنه، وتوفي عام ٣٣٤هـ (٩٤٦م) عن ٨٧ سنة.

٣) أبو عبيدة بن الجراح: اطلب ترجمته في كلمة (أبو عبيدة) إذ له حارة بقسم كرموز.

٤) وكيع بن الجراح: من كبار الصوفيين، وكان يقول: إن الزهد لا يكون إلا في الحلال والجلال، ويقول طريق الله بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق، وقد ولد عام ١٢٩هـ (٧٤٦م)، ووافته المنية عام ١٩٧هـ (٨١٢م) بالغًا من العمر ٦٨ سنة.

٦٣– ابن الجَزَري – حارة – بقسم الرمل

هو شمس الدين أبو الخير محمد الجَزَري، متكلم وحجة في القراءات المتعلقة بالقرآن الكريم، وقد ولد بدمشق يوم السبت الموافق لليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان عام ٧٥١هـ (٣٠ من نوفمبر عام ١٣٥٠م)، وبمسقط رأسه حفظ القرآن ووجّه عنايته إلى الحديث والقراءات المختلفة وأجاد منها سبعًا خلال عام ٧٦٨هـ (١٣٦٧م)، وبعد أن أدى فريضة الحج سافر إلى القاهرة حيث جوّد ثلاث عشرة قراءةً أخرى وكان ذلك في عام ٧٦٩هـ (١٣٦٨م)، وبعد أن تعمق في دراسة الحديث، والفقه عند عودته إلى دمشق عاد إلى القاهرة لدراسة علوم البلاغة، وأصول الفقه الإسلامي، ثم توجه إلى الإسكندرية ليحضر دروسًا على تلاميذ ابن عبد السلام، وفي عام ٧٧٤هـ (١٣٧٣م) أجاز له أبو الفداء الإفتاء وعندها عُيِّن قاضيًا بدمشق عام ٧٩٣هـ (١٣٩١م).

وبعد أن مكث عدة سنوات متنقلاً بين سمرقند، وخراسان، وهراة، وأصفهان، وشيراز بإيران، والبصرة بالعراق، ومكة بالجزيرة العربية حيث درس في كل هذه البلاد الفقه، والقراءات، والإفتاء، عاد إلى شيراز، وتوفي بها يوم الجمعة الموافق لليوم التاسع من شهر ربيع الأول عام ٨٣٣هـ (٢ ديسمبر عام ١٤٢٩م).

ومن مؤلفاته «كتاب النشر في القراءات العشر» و«تحبير التيسير في القراءات» و«طيبات النشر في القراءات العشر» وهي منظومة في ٢٤١ بيتًا، و«منجد المقرئين ومرشد الطالبين» و«التمهيد في علم التجويد» و«مقدمة في علم الحديث» و«الهداية إلى معالم الرواية»، وهي منظومة في ٢٧٠ بيتًا، و«ذات الشفاء في سيرة النبي والخلفاء»، وهي أرجوزة في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين.

٦٤- ابن جعفر - شارع - بقسم محرم بك

يحمل لقب ابن جعفر اثنان ممن عرفوا في التاريخ الإسلامي وهما:

١) **عبد الله بن جعفر بن أبي طالب**: ولد بالحبشة وهو ابن أخي علي بن أبي طالب (انظر الإمام علي) - وقد جاء مع أبيه جعفر إلى المدينة بعد هجرة النبي عليه السلام إليها، واستتباب الأمور للمسلمين - وكان يلقب «ببحر الجود» لكرمه، وكانت وفاته في حوالي عام ٨١هـ (٧٠٠م).

٢) **هبة الله بن جعفر**: وهو أبو القاسم بن سناء الملك - وكان شاعرًا مصريًّا مشهورًا - وكان مولده بالقاهرة عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) وكان أهم ممن نظموا الموشحات الغنائية في الشرق بأسره، فذاع صيته، وطبقت شهرته الآفاق - وقد ترك لنا كتابًا هامًّا في فن التوشيح عنوانه «دُرر الطراز في عمل الموشحات».

والموشحات نوع من قصائد الشعر الغزلي الخفيف ابتدعه شعراء الأندلس وانتقلت صنعته إلى الشرق عن طريق التجار ثم عن طريق المسلمين الذين هاجروا إلى البلاد المغربية ومنها إلى البلاد العربية الشرقية بعد قضاء الإسبان على الدويلات العربية في الأندلس بسبب ضعف هذه الدويلات، وتفكك أوصالها.

٦٥- ابن جلاّ - حارة - بقسم محرم بك

كان ابن جلاَّ من كبار الصوفيين في عصره - أما لقب ابن جلاَّ فيطلق على الحجاج بن يوسف الثقفي (اطلب ترجمته في الحجاج).

٦٦- ابن جماعة - شارع - بقسم محرم بك

يطلق لقب «ابن جماعة» على أسرة من علماء العرب أصلها من مدينة حماة بسوريا، ويعرف أفرادها بهذه الكنية وحدها مما أدى إلى كثير من الخلط بينهم، وأشهر هؤلاء العلماء:

١) **بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الكناني الحموي**: فقيه ولد عام ٦٣٩هـ (١٢٤١م) وتوفي عام ٧٣٣هـ (١٣٣٢م)، وقد تلقى العلم بدمشق ثم صار مدرسًا بها، وفي عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وَلِيَ القضاء ببيت المقدس، وعُيِّن قاضي قضاة القاهرة عام ٧٠٢هـ (١٣٠٣م)، وبقي في هذا المنصب إلى عام ٧٤٧هـ (١٣٢٧م)، ولم تعقه هذه المناصب عن التدريس والتأليف، وأهم مصنفاته رسالة في قواعد الحكم بعنوان «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام»، وله مؤلفات أخرى ذكرت في بعض المؤلفات التاريخية، وقد عاصر الشاذلي وحضر حلقات وعظه.

٢) **أبو عمر عبد العزيز عز الدين**: وهو ابن بدر الدين المتقد الذكر، ولد بدمشق عام ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)، وصار فيما بعد قاضي قضاة مصر، والشام، ثم اعتزل القضاء، واشتغل

بالتدريس في القاهرة وتوفي عام ٧٦٧هـ (١٣٦٦م) أثناء تأديته فريضة الحج ، وله مؤلفات عدة في الفقه ، والحديث .

٣) إبراهيم بن عبد الرحمن برهان الدين: وهو حفيد بدر الدين ولد عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) بالقاهرة وحيث قام بالتدريس في معاهدها ، ثم في معاهد دمشق ، وصار بعد ذلك خطيبًا في بيت المقدس ، وفي عام ٧٧٣هـ (١٣٧١م) أصبح قاضي قضاة مصر ومدرّسًا بالصالحية ، ولكنه عاد في العام التالي إلى بيت المقدس ، ثم رجع إلى القاهرة ، وتولى منصب قاضي القضاة مرة أخرى عام ٧٨١هـ (١٣٧٩م) ، وفي عام ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) تولى القضاء بدمشق وتوفي بها عام ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) .

٤) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: وهو حفيد أبو عمر عبد العزيز عز الدين ، ولد عام ٧٥٩هـ (١٣٥٧م) وصار طبيبًا ومدرسًا للفلسفة بالقاهرة ، وتوفي بالطاعون عام ٨١٩هـ (١٤١٦م) ، وقد كتب شرحًا على منظومة عن العقائد عنوانها «بدء الأمالي» .

٦٧- ابن الجُنْدي - شارع - بقسم مينا البصل

هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب ، أبو المودَّة ضياء الدين ، ويكنى بابن الجُنْدي ، ويعرف في القطر الجزائري عادة باسم «سيدي خليل» ، وقد كان فقيهًا مالكيًّا عظيمًا من أشهر فقهاء مصر ولا سيما في فقه المذهب المالكي .

وتلقى خليل دروسه على ابن عبد الهادي والرشيدي وعلى عبد الله المنوفي بوجه خاص ، وكان أبوه على المذهب الحنفي ولكن خليلاً اعتنق المذهب المالكي نزولاً على رغبة شيخه المنوفي ، وبعد وفاة المنوفي عام ٧٤٠هـ (١٣٤٨م) كرَّس خليل حياته للتعليم وكان يلقي دروسه بالمدرسة الشيخونية .

والتحق خليل – من جهة أخرى – بخدمة الحرس المظفَّر ، فأسهم بجهوده الحربية في انتزاع الإسكندرية من أيدي النصارى الذين كانوا قد غزوها ، وكان استردادها من أيدي هؤلاء الغزاة عام ٧٦٧هـ (١٣٦٥ – ١٣٦٦م) .

وبعد ذلك اعتزل خليل الناس وعزف عن مباهج الدنيا وتفرغ بكليته للتدريس والعبادة والتقرب إلى الله مخلصًا في نسكه ، وفي هذه الأثناء ذهب إلى مكة لتأدية فريضة الحج وأقام بالمدينة المنورة ردحًا من الزمن .

والخليل من حيث هو فقيه يشبه إمامه ابن الحاجب (انظر هذه المادة) ، فهو يمثل المدرسة الفقهية التي لم تتأثر بالمذهب الشافعي إلا قليلاً ، وهي المدرسة التي تكوَّنت من امتزاج الآراء المصرية بالآراء المغربية في الفقه المالكي .

وعلى الرغم من تبحُّر ابن الحاجب في النحو وعلم العروض فإنه كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية في مصر وبين عقائد المالكية في المغرب العربي ، ومن ثم كان لخليل ابن الجُنْدي أستاذٌ ، وإن كان لم يعاصره لأن ابن الحاجب توفي بالإسكندرية في ٢٦ شوال عام ٦٤٦هـ (١١ فبراير عام ١٢٤٩م) ودفن بجانب قبر أبي العباس المرسي ، ومن ثمَّ تكون وفاته قبل وفاة خليل بالقاهرة بحوالي ١٢٥ عامًا ، إذ إن وفاة خليل حدثت في ١٣ ربيع الأول عام ٧٧٦هـ (٢١ أغسطس عام ١٣٧٤م) .

ولخليل بن الجُندي كتاب في الفقه المالكي أسماه «المختصر»، ومازال هذا الكتاب أكثر الكتب الفقهية تداولاً في القطر الجزائري على الرغم من إيجازه الذي يصل إلى حد الإبهام، فكتاب «سيدي خليل» عند الجزائريين عمدة الكتب في دراسة الفقه المالكي وهو المذهب السائد في جميع أنحاء هذا القطر، ومازال المفتي المالكي هناك يلقب بالمفتي المالكي الأكبر.

وقد طبع «المختصر» في باريس عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ)، وتعددت طبعاته حتى عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، وفي سنة ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) أخرج المستشرق «ج. دلفين G. Delphin» طبعة جديدة من هذا الكتاب، ولخليل كتب أخرى أهمها «التوضيح» وهو شرح على مختصر ابن الحاجب، و«مناسك الشيخ عبد الله المنوفي» وهو سيرة لأستاذه.

٦٨ - ابن الجهم - حارة - بقسم باب شرقي

هو أبو الحسن علي بن الجهم، ولد بمدينة خراسان وانتقل عندما بلغ مرحلة الرجولة إلى بغداد حيث وجد من الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي دام حكمه من عام ٢٠٧ إلى عام ٢٤٧هـ (٨٢٢ - ٨٦١م) رعاية حادبة أهلته لأن يكون من خاصته في البلاط.

وكان ابن الجهم أحد الشعراء المجيدين، وله ديوان شعر ذائع الصيت في زمانه، إذ كان بارعًا في فنون القريض وكان ممن يعادون علي بن أبي طالب وينقمون على شيعته وفرقها وطوابقها المختلفة.

ولما كان من طباع هذا الشاعر الوشاية والنميمة مع الانحراف وسوء الخلق، أمر الخليفة المتوكل بنفيه إلى خراسان موطنه الأصيل وذلك عام ٢٣٢هـ (٨٤٦م) وأسلمه إلى عامله طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ليصلبه نهارًا كاملاً، فنفذ فيه حكم الصلب فظلَّ مصلوبًا نهارًا كاملاً وذلك في شاذياخ نيسابور، وكان سبب صلبه تعديه بالهجاء على الخليفة المتوكل نفسه، وفي صلبه عاريًا أنشد قصيدة طويلة منها هذان البيتان:

لَمْ يَنصِبوا بالشاذِياخِ صَبِيْحَةَ
الاثْنَينَ مَسْبُوقًا ولامَجْهولا

نَصَبوا بِحَمْدِ الله مِلْءَ قُلوبِهِمْ
شَرَفًا وَمِلْءَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلا

وبعد أن عاد إلى العراق رحل إلى الشام في إحدى القوافل وكان طوال إقامته ببغداد يستمر على سوء الخلق وعلى كراهة آل علي بن أبي طالب فجفاه الناس في خرسان وفي العراق على السواء.

وعندما كانت القافلة التي ضمته تسير في طريقها إلى الشام خرج عليها جماعة من الأعراب قطاع الطرق فوقع القتال بينه وبين رجال القافلة وأصاب ابن الجهم طعنة نافذة ولحقه الناس وهو جريح بآخر رمق فقال:

أَزِيْدَ فِي اللَّيْلِ لَيْلُ
أَمْ سَالَ بِالصُّبْحِ سَيْلُ

ذَكَرْتُ أَهْلَ دُجَيْلٍ
وأَيْنَ مِنِّي دُجَيْلُ



قسم باب شرقي

ودجيل اسم شارع ببغداد كان ابن الجهم يقيم فيه، وقد مات بسبب هذه الطعنة عام ٢٤٩هـ (٨٦٣م)، ومن شعره الذي نظمه عندما ذاق مرارة الفراق ولوعة الاغتراب هذه الأبيات الرقيقة:

اعْلَمِي يَا أَحَبَّ شيْءٍ إِلَيَّا
أَنَّ شَوْقي إِلَيْكِ قَاضٍ عَلَيَّا

إِنْ قَضَى اللهُ لي رُجُوعًا إِلَيْكُمْ
لاَ ذَكَرْتُ الفِراقَ ما دُمْتُ حَيَّا

إِنَّ حَرَّ الفِراقِ أنحَلَ جِسْمي
وكَوَى القَلبَ مِنِّي الشَّوْقُ كَيَّا

وقال في سجنه إلى الخليفة المتوكل يسأله العفو عن ذنوبه:

قَرَنْتَ المقيمَ بِهِ المُقْعَدَا
إِلَى الصُّبْحِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَرْقُدَا
تَعُوذُ بِفَضْلِكَ أَنْ أُبْعَدَا

وعليٌّ بن الجهم هو صاحب القصيدة الذائعة الصيت حتى الآن والتي أولها:

عُيونُ المَهَا بَيْنَ الرُّصَافَة والجِسْرِ
جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلاَ أَدْرِي

ويقال إنه نظم هذه القصيدة عندما حل ببغداد بعد إقامته ردحًا من الزمن بالصحراء ومدح الخليفة المتوكل بأبيات جافة نابية الألفاظ خشنة المعاني، ولما تأقلم بجوِّ بغداد الزاهر وبرونقها ورقيها الحضاري نظم تلك القصيدة التي حازت القبول عند الخليفة.

وكانت بين ابن الجهم وبين أبي تمام الشاعر (انظر هذه المادة) مودة وصداقة متينة، وقد كتب إليه أبو تمام الأبيات التي يودعه فيها والتي أولها:

هِيَ فُرْقَة مِنْ صَاحِبٍ لَكَ ماجِدِ
فَلَقَدْ أَرَاقَتْ كُلَّ دَمْعٍ جَامِدِ

وديوان شعر ابن الجهم صغير، ولما هجاه مروان بن أبي حفصة بالبيتين الآتيين:

لَعَمْرُكَ مَا الجَهْمُ بْنُ بَدْرٍ بِشَاعِرٍ
وَهَذَا عَليٌّ بَعْدَهُ يَدَّعي الشِّعْرَا

وَلَكِنْ أَبِي قَدْ كَانَ جارًا لأُمِّه
فَلَمَّا ادَّعَى الأَشْعَارَ أَوْهَمَني أَمْرَا

رَدَّ عليه ابن الجهم بهذين البيتين:

بَلاءٌ ليسَ يَعْدُ له بَلاَءُ
عَداوَةُ غَيْرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ

يُبِيْحُكَ مِنْهُ عِرْضًا لم يَصُنْهُ
ويَرْتَعُ مِنكَ في عَرْضٍ مَصُونِ

٦٩ – ابن جَهير – شارع – بقسم باب شرقي

وكنية ابن جَهير تطلق على أربعة وزراء هم:

١) **فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جَهِير**: ولد بالموصل في شمال العراق عام ٣٩٨هـ (١٠٠٧م)، والتحق في أول مراحل حياته العلمية بخدمة بني عُقَيْلِ حكام هذه المدينة، وبادر إلى الفرار لاجئًا إلى مدينة حلب عندما شعر بأن قريش بن بدران العقيلي يريد سجنه، وفي حلب استوزره معز الدولة بن صالح المرداسي، ثم ترك حلب فاستوزره نصر الدولة أحمد بن مروان أمير ديار بكر، وقد أقره على الوزارة ابن نصر الدولة بعد وفاة أبيه عام ٤٥٣هـ (١٠٦١ – ١٠٦٢م)، غير أنه رفض البقاء وذهب إلى بغداد حيث استوزره الخليفة القائم وصرف عن منصبه عام ٤٦٠هـ (١٠٦٧ – ١٠٦٨م)، ثم أعيد إليه عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م)، وأقره الخليفة المقتدي على منصب الوزارة وصرف عنه عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م)، ولقد أنفذه السلطان ملكشاه السلجوقي إلى ديار بكر لينتزعها من بني مروان فأفلح في الاستيلاء على مَيَافارقين، كما أفلح ابنه زعيم الرؤساء في الاستيلاء على مدينة آمد، ومن ثمَّ أسندت لفخر الدولة بن جَهِير ولاية ديار بكر، وكان ذلك عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م)، وبعد أن عزله ملكشاه أنفذه عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩ – ١٠٩٠م) إلى الموصل فاستولى عليها، وتوفي بها عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م).

٢) عميد الدولة أبو منصور محمد بن فخر الدولة بن جَهِير: وهو ابن صاحب الترجمة السابقة، ولد عام ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) وتزوج ابنة الوزير نظام الملك عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م) فتوثقت صلاته بالأسرة السلجوقية الحاكمة، وتوسط نظام الدولة لدى الخليفة المقتدي فاستوزره ثم صرفه عام ٤٧٦هـ (١٠٨٣م) ولكنه أعاده إلى منصبه عام ٤٨٤هـ (١٠٩٢م) وظل في الوزارة تسع سنين ثم عزل في ٤٩٣هـ (١١٠٠م) بتحريض من بركيا روق الذي اتهمه باختلاس أموال ديار بكر والموصل اللتين حكمهما هو وأبوه في عهد ملكشاه، فأرغم عميد الدولة على دفع غرامة فادحة، ومات سجينًا في ١٠ من شوال عام ٤٩٣هـ (٢٤ أغسطس ١١٠٠م).

٣) زعيم الرؤساء قوام الدين أبو القاسم علي بن فخر الدولة ابن جَهِير: وهو الابن الثاني لفخر الدولة صاحب الترجمة الأولى، استولى عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) على مدينة آمد، وبعد أن سقطت «ميافارقين» في يد أبيه أرسله أبوه بالغنائم التي استولى عليها من بني مروان إلى السلطان ملك شاه بأصفهان، وفي سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) استوزره الخليفة المستظهر ثم صرفه عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) فذهب إلى الحِلَّة لدى سيف الدولة، وفي عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) استوزره الخليفة للمرة الثانية.

٤) نظام الدين أبو نصر المظفر بن علي بن محمد بن جهير البغدادي: (أو هو أبو نصر محمد بن محمد بن جَهِير) في رواية أخرى، كان أول أمره استاد دار (أي المشرف على المآدب)، ثم استوزره الخليفة المقتفي بعد وفاة وزيره سديد الدولة ابن الأنباري عام ٥٣٥هـ (١١٤٠م).

٧٠ – ابن الحائك – عطفة – بقسم الجمرك

هو أبو محمد بن الحائك الهمذاني اليمني، ولد في صنعاء وجاور بمكة، ثم نزل صعدة وهجا النبي عليه الصلاة والسلام فسجن بصنعاء حتى مات عام ٢٥هـ (٦٤٥م) وذهبت روحه إلى الشيطان، وقد ألف كتابًا أسماه «الإكليل في أنساب حمير وملوكها».

٧١ – ابن الحاجب – حارة – بقسم محرم بك

اسمه بالكامل أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس الملقب جمال الدين وكنيته ابن الحاجب، كان فقيهًا مالكيًّا، وكان والده حاجبًا للأمير عز الدين موسك الصالحي وكان من أصل كردي، وقد ولد أبو عمرو بن الحاجب بمدينة إسنا (انظر هذه المادة) بصعيد مصر في أواخر عام ٥٧٠هـ (١١٧٥م) ورحل صغيرًا إلى القاهرة حيث أكبَّ على حفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم المتصلة به كالفقه وأصوله على مذهب الإمام مالك (انظر هذه المادة)، ثم درس اللغة العربية وقواعدها والنحو وأصوله وكذلك الآداب، وأهم الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم الإمام الشاطبي (انظر هذه المادة) والفقيه أبو منصور الإبياري (انظر مادة الإبياري) وغيرهما.

ورحل بعد ذلك إلى دمشق ودرس في رواق المالكية بالجامع الأُموي الكبير فتتلمذ عليه خلق كثير واستمر هو في التبحر في العلوم وغلب عليه علم اللغة العربية وقواعد النحو.

ومع أنه ألف كتبًا في الفقه المالكي والعروض، إلا أن شهرته ترجع إلى علمه الواسع الآفاق في علم النحو على وجه

خاص، إذ يختلف في هذا الميدان عن أسلافه في عدة وجوه، ومازالت كتبه النحوية تدرس بالأزهر الشريف.

وكان ابن الحاجب أول فقيه جمع بين عقائد المالكية في مصر وعقائد المالكية في المغرب العربي، وتمتاز مؤلفاته النثرية بوضوح الأسلوب الذي لا يحتاج إلى التفسير وكل مصنفاته تتسم بالحسن وجزيل الفائدة، إذ كان من أنبه الناس ذهنًا وأنضجهم تفكيرًا.

وبعد أن قضى سنين عدة بدمشق، عاد إلى القاهرة، فالتف الناس حول دروسه ليفيدوا من علمه ومعارفه، ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان» إنه عاصره وكان يستوضحه في إشكالات نحوية، فكان يفسرها له في سهولة ويسر، ثم سافر إلى الإسكندرية حيث استقر وواصل التدريس بها.

وأهم مصنفات ابن الحاجب «الكافية» وهي كتيب في النحو العربي، وقد طبع هذا الكتيب بالقاهرة عدة مرات وشرح بالآستانة، ثم «الشافية»، وهي رسالة تبحث في علم الصرف، «والمقصد الجليل في علم الخليل» وهو منظومة من البحر البسيط عن العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد (انظر هذه المادة) «ومنتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل» وهو في أصول الفقه المالكي، وله غير ذلك من المؤلفات النافعة، وقد عاصر أبا الحسن الشاذلي (انظر هذه المادة) وتردد على حلقات وعظه بالإسكندرية.

وتوفي هذا العالم الجليل بالإسكندرية في ٢٦ من شوال عام ٦٤٦هـ (١١ فبراير ١٢٤٩م)، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ ابن أبي أسامة ومازال قبره بجانب ضريح أبي العباس المرسي في مكان متواضع من مسجد أبي العباس الفخم، وذلك على الرغم من مكانته العلمية التي يفوق بكثير غيره من أصحاب المساجد الضخمة بالإسكندرية، وكان عمره حوالي ٧٥ عامًا.

٧٢ – ابن حِبَّان – حارة – بقسم مينا البصل

واسمه الكامل محمد بن أحمد البُسْتي، مؤلف ومحدث عربي ولد في بست في سجستان، وصار بعد أسفار طويلة لتحصيل العلم قاضيًا بسمرقند ولم يثبت أن صرف عن منصبه إذ اتهم بالزندقة؛ لأنه قال عن النبوة إنها علم وعمل، وبعد أن عاش في نيسابور استقر في سمرقند عام ٣٣٤هـ (٩٦٥ م) وأخذ يدرس علم الحديث إلى أن وافته المنية في ٢٢ من شوال عام ٣٥٤هـ (٢١ من أكتوبر عام ٩٦٥م) بالغًا من العمر ثمانين سنة وأهم مصنفاته مجموعة الأحاديث المسماه «كتاب الثقاة»، والآخر «كتاب مشاهير علماء الأمصار»، وهو مازال مخطوطًا بمدينة لينبرج، وألَّف ابن حِبَّان كتابًا في الأدب والتهذيب أسماه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) وذكر في هذا الكتاب أحد عشر مصنفًا آخر لابن حِبَّان.

٧٣ – ابن حبيب – شارع – بقسم مينا البصل

ابن حبيب كنية لثلاثة من مشاهير علماء العرب وهم:

١) **أبو مروان عبد الملك بن حبيب السُّلَمي**: وهو فقيه عربي ولد في حصن واط بالقرب من مدينة غرناطة بالأندلس بجنوب إسبانيا، وتلقى العلم في البئرة وقرطبة، ثم ذهب إلى مكة لتأدية فريضة الحج، وهناك ألغى بعض الدروس ثم توجه إلى

المدينة المنورة حيث ثقف المذهب المالكي ونشره بعد ذلك في الأندلس، وتوفي في قرطبة عام ٢٣٨هـ (٨٥٣م)، وتقول الروايات المبنية على المغالاة إنه صنف ما يقرب من ألف كتاب في شتى الموضوعات، وإذا استثنى القطعة المخطوطة من كتاب ألفه ولا ينطوي على أهمية كبيرة فإن المصنف الوحيد الذي بقي حتى الآن وينسب إليه أظهر البحث العلمي أن تأليفه يرجع إلى عهد متأخر عن عهده.

٢) **بدر الدين أبو محمد الحسين بن عمر الدمشقي الحلبي (المكنى بابن حبيب)**: وهو مؤرخ وأديب ولد بدمشق عام ٧١٠هـ (١٣١٠م) ويعلم بحلب حيث كان أبوه محتسبًا ومعلمًا للحديث، وحج إلى مكة عام ٧٣٣هـ (١٣٣٢م) ثم حج مرة أخرى عام ٧٣٩هـ (١٢٣٨م) وزار أثناء الرحلتين مصر وبلادًا شتى في الشام، واستقر أخيرًا في حلب حيث وافته المنية عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)، ولعلمه الغزير يلقب بدر الدين بن حبيب بالإمام، وله مصنفات عدة أشهرها يتناول تاريخ سلاطين المماليك في مصر من عام ٦٤٨ إلى عام ٧٧٧هـ (١٢٥٠ – ١٣٧٥م) وعنوانه «درَّةُ الأسلاك في ملوك الأتراك»، أما كتابه المسجوع المسمى «نسيم الصفا» الذي تتخلله أبيات من الشعر، فهو من طراز آخر، وقد طبع عدة مرات منها طبعة بالإسكندرية عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) وثانية بالقسطنطينية عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) وثالثة بالقاهرة عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وفيما يلي أنموذج وجيز من كتاب «نسيم الصفا»: «هزتني رياح الأمل البسيط، إلى امتطاء ثَبَجَ البحر المحيط، فأتيت سفينةً يطيبُ للسفر مثواها، وركبتُ فيها بسم الله مجراها ومُرْساها، موقنًا بأنَّ المقدور صائر، معرضًا عن قول الشاعر:

لاَ أَرْكَبُ البَحْرَ أَخْشَى
عَلَيّ مِنْهُ المَعَاطِبْ

طِينٌ أَنَا – وَهْوَ مَاءٌ
وَالطِّينُ فِي المَاءِ ذَائِبْ

٣) **محمد بن حبيب**: لغوي عربي، كان تلميذًا لقطرب وتوفي في سامرًّا عام ٢٤٥هـ (٨٥٩م)، ولم يبق من مؤلفاته الكثيرة إلا رسالة في أوجه الشبه والخلاف بين أسماء القبائل العربية، نشرها المستشرق الألماني فستنفلد عام ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م).

٤) **يزيد بن حبيب**: وهو من موالي الأزد، وكان مفتي أهل مصر، وعنه أخذ الليث بن سعد (انظر هذه المادة)، وكان يزيد بن حبيب بربري الأصل إذ إن أباه من أهل دنقلة، وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين في مصر، وكان أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه، وكان المصريون قبله يتحدثون في الفتن والترغيب، وكان ابن حبيب ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز (انظر هذه المادة) إصدار الفتاوى إليهم بالقطر المصري، أما زميلاه فهما: جعفر بن ربيعة، وعبد الله بن أبي جعفر، وكان ابن حبيب فوق ذلك عالمًا بالفتن والحروب ولاسيما ما يتعلق بفتح مصر وشؤونها وولاتها، وهو أحد الأركان الذين نقل عنهم الكندي كتابه «ولاة مصر وقضاتها»، ومن أشهر تلاميذ ابن حبيب الليث بن سعد (انظر مادة ابن سعد).

٥) **محمد بن حبيب**: وهو والد عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، ويزعم ابن حبيب أنه يُنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم يعد المذهب الشيعي

الفاطمي فرعًا من الإسماعيلية مثل مذهب القرامطة ومذهب الحشاشين الذين يتمسكون بإمامة جعفر الصغير الصادق الإمام السابع وخاتم الشيعة الشرعيين (انظر مادة الفواطم).

٧٤- ابن حجر العسقلاني - زقاق - بقسم الجمرك

واسمه الكامل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي ابن أحمد شهاب الدين أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري القاهري، حجة مشهور في الحديث ومؤرخ وفقيه شافعي، ولد في ٢٢ من شهر شعبان عام ٧٧٣هـ (١٨ من فبراير عام ١٣٧٢م) في مصر القديمة (مصر عتيقة)، ولقب العسقلاني يرجع إلى مدينة عسقلان الواقعة على ساحل فلسطين الجنوبي، وقد اشتهرت في الحروب الصليبية وخرَّبها السلطان بيبرس عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م)، وفقد ابن حجر العسقلاني والديه في سن مبكرة، وكان أبوه عالمًا مبرزًا يصدر الفتاوى ويقوم بالتدريس، ونشأ ابن حجر في كنف زكي الدين الخروبي أحد كبار التجار في ذلك الحين، فحفظ القرآن الكريم في التاسعة من عمره وسرعان ما وعى بسائط الفقه والنحو، ثم درس مدة طويلة على يد أكبر علماء عصره ومنهم البُلقيني وابن الملقِّن المتوفى في عام ٨٠٤هـ (١٤٠١م) في الحديث والفقه، والتنوخي في القراءات، ومحب الدين بن هشام المتوفى عام ٧٩٩هـ (١٣٩٦م)، والفيروزبادي في اللغة والصرف، ولحبه للفقه بصفة خاصة كرس حياته لدراسته منذ عام ٧٩٣هـ (١٣٩٠م)، وفي هذا الشأن قام بعدة رحلات إلى مصر والشام والحجاز واليمن اتصل خلالها بكثير من الفقهاء والأدباء، ودرس الحديث عشر سنوات كاملات على زين الدين العراقي المتوفى عام ٨٠٦هـ (١٤٠٣م)، وقد أجاز له معظم شيوخه إصدار الفتاوى والقيام بالتدريس، وفي شهر المحرم عام ٨٢٧هـ (ديسمبر عام ١٤٢٣م) عين قاضيًا للقضاة وظل يتردد على هذا المنصب ٢١ سنة اعتزله خلالها عدة مرات كان يدرس أثناءها في مساجد شتى ويحاضر في التفسير والحديث والفقه. وكانت دروس ابن حجر الذي لقب «بحافظ عصره» يحضرها الكثير من الناس بينهم العلماء، وكان في الوقت نفسه مفتي دار العدل وخطيبًا في الأزهر ثم في جامع عمرو وعين بعد ذلك أمينًا لمكتبة القبة المحمودية.

وأجاد ابن حجر فنّيْ الشعر والنثر وبذل نشاطًا ضخمًا في التأليف، وتهافت الناس على كتبه الهامة القيمة وخاصة شرحه المسمى (فتح الباري في شرح البخاري) الذي بيع بثلثمائة دينار، وتزيد مصنفاته على المائة، وأهمها: «الإصابة في تمييز الصحابة»، «وبلوغ المرام من أدلة الأحكام» في علم الحديث، «والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، «وغبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر»، «والقول المسدد في الذبّ عن المسند للإمام أحمد»، «وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة»، «ورفع الإصر عن قضاة مصر»، ولابن حجر ديوان شعر طبع في بولاق عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م)، وله في التراجم «نزهة الألباب في الألقاب»، وقد اعتمد ابن حجر في تأليف كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» على كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر» لصلاح الدين الصفدي (انظر مادة الصفدي).

٧٥- ابن الحداد - زقاق - بقسم الجمرك

يحمل لقب ابن الحداد ثلاثة ممن ذكرهم المؤرخون، وفيما يلي ترجمة كل منهم حسب وجودهم في قيد الحياة:

١) **أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكناني (المعروف بابن الحداد)**: الفقيه الشافعي المصري، وهو صاحب كتاب الفروع في المذهب الشافعي، وهذا المؤلف كبير الفائدة لما تضمن من مسائل غاية في الدقة يتناولها ابن الحداد في كتابه هذا الصغير الحجم بالعناية البالغة، ومن ثم اعتنى بشرحه جماعة من كبار الأئمة، ومن بينهم القفَّال (انظر هذه المادة) والقاضي أبو الطيب الطبري (انظر مادة الطبري)، وشرحه بعدهما الشيخ أبو علي السنجي شرحًا تامًّا مستوفيًا، فجاء شرحه أحسن الشروح.

وقد أخذ ابن الحداد الفقه عن أبي إسحاق المروزي، وقال عماد الدين بن باطيش في كتابه «طبقات الفقهاء» إن أبي الحداد كان من أصحاب إبراهيم المزني، وهذا القول لا يستقيم مع الواقع؛ لأن ابن الحداد ولد في العام الذي توفي فيه المزني.

وكان ابن الحداد فقيهًا محققًا غواصًا على المعاني، وقد تولى القضاء بمصر وزاول التدريس بها، وكانت الملوك والرعايا يكرمونه ويعظمونه ويقصدونه في الفتاوى وما يقع لهم من حوادث، وفي زمانه كان الناس يقولون: عجائب الدنيا ثلاث: غضب الجلاد، ونظافة السماد، والردّ على ابن الحداد.

وكانت ولادته في ٢٤ من شهر رمضان عام ٢٦٤هـ (٨٧٧م) وتوفي عام ٣٤٦هـ (٩٥٦م) بالغًا من العمر حوالي ٨١ عامًا.

وكان هذا الفقيه عالمًا بالفقه وعلوم القرآن الكريم والحديث وأيام العرب والنحو واللغة وكان إلى جانب ذلك شاعرًا مجيدًا، وكان كريم الأخلاق محببًا إلى الخاصة والعامة، وسار في حيازته الأمير أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد وكافور الإخشيدي (انظر مادة الإخشيدي).

ويرجع لقبه «ابن الحداد» إلى أن أحد أجداده كان يصنع الحديد ويبيعه.

٢- ابن الحداد المغربي: جاء ذكره في كتب التاريخ التي تتناول أحداث الأندلس في أيام دويلات الطوائف، وتقول هذه الكتب إن ابن الحداد المغربي كان شاعر المعتضد بالله أبو عمرو وعياد صاحب إشبيلية وأعمالها، وقد خلف أباه في الحكم عام ٤٤٠هـ ١٠٤٨م) فاستبد بأمور الدويلة وقتل جميع وزرائه وحارب البربر وانتصر عليهم ومات عام ٤٦٥هـ (١٠٧٢م).

ومن ثم يكون ابن الحداد المغربي الشاعر قد عاش في هذه الفترة من الزمن في إشبيلية.

ويقال عن ابن الحداد الشاعر إنه ألقى عصا السفر ذات يوم بصعيد مصر وهو في طريقه إلى مكة لتأدية فريضة الحج، وفي الصعيد المصري شاهد راهبة جميلة اسمها «نويرة» ففتن بجمالها وأقام أيامًا طويلة بالقرب من الدير الذي يضمها بين راهباته، ووجه نظرها بكثرة تردده على مكانها واستطاع أن يبوح لها بما يعاني من تباريح الحب ولواعج الغرام، فأعرضت عنه وتأبت عليه فزاد تعلقه بها وهيامه فيها، وفي أحد الأعباد اعترض سبيلها وهي تسير صحبة مجموعة من الراهبات وأنشد يقول:

عَسَاكِ بِحَقِّ عِيْساكِ
مُرِيحةَ قَلْبِيَ الشاكي

فإنَّ الحُسْنَ قَدْ وَلاَّ
كِ إحْيَائِي وَإهْلاَكي

وَأَوْلَعَني بِصُلْبانٍ
ورُهْبانٍ ونُسَّاكِ

وَلَمْ آتِ الكَنَائِسَ عَنْ
هَوَىً فِيْهِنَّ لَوْلاكِ

فَهَلْ تَدْرِينَ ما تَقْضِي
عَلَى عَيْنَيَّ عَيْناكِ

وَمَا يُذْكِيهِ مِنْ نَارٍ
بقلبي نوركِ الذاكي

حَجَبْتِ سَناكِ عَنْ بَصَري
وفَوْقَ الشَّمْسِ سِيْماكِ

وَفِي الغُصْنِ الرَّطِيبِ
وَفِي النَّقا المُرْتَجِّ عَطْفَاكِ

وعِنْدَ الرَّوْضِ خَدَّاك
وَفي رَيَّاهُ رِيَّاكِ

ويظهر من البيت قبل الأخير أن راهبة ابن الحداد كانت ذات نقا مرتج، وقد كان هذا الارتجاج من الضخامة أحد مقاييس الجمال في ذلك العصر وفي العصور التالية حتى عهد قريب، إذ أضحت الرشاقة وحسن القوام من مقاييس الجمال في العصر الحديث.

٢) الإمام ابن الحداد: وقد جاء ذكره في كتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني الذي قال إنه كان أحد أئمة الصوفيين ومن ثم لقبه «بالإمام ابن الحداد»، ويزعم الشعراني أن هذا الصوفي كان يختم قراءة القرآن الكريم كل ليلة، وأنه كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ولم يزد على هذا فيما دوَّنه من تاريخ حياته.

٧٦- ابن حزم - حارة - بقسم الجمرك

٧٧- ابن حزم - شارع - بقسم محرم بك (أوريجين سابقًا)

٧٨- ابن حزم - شارع - بقسم الرمل

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، عالم عربي أندلسي متقن في علوم كثيرة، وهو فقيه مشهور وشاعر مبرز، ولد عام ٣٨٤هـ (٩٩٤م) بقرطبة وكان جده الأعلى نصرانيًّا اعتنق الإسلام، وقد حصل على قسط وافر من التعليم، واشترك في حرب غرناطة مع جيش المرتضى، وكان وزيرًا له، وبعد أن أُسر ركن إلى التجوال ثم عاد إلى قرطبة بعد ست سنوات، وكان ذلك خلال عام ٤٠٩هـ (١٠١٨م)، وقد تولى الوزارة في عهد الخليفة عبد الرحمن الخامس المستظهر عام ٤١٤هـ (١٠٢٣م) وكان صديقًا له، وعقب قتل هذا الخليفة الذي لم يدم حكمه سوى سبعة أسابيع، سجن ابن حزم من جديد واعتزل الحياة السياسية عند خروجه من السجن وكرس جهوده للتأليف، ومن أوائل كتبه «طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف»، وقد أبرز فيه ابن حزم

أسلوبه الشيق وشاعريته الرقيقة متناولاً في فصوله مختلف ألوان العشق، ومن مؤلفاته في التاريخ «نقط العروس في تواريخ الخلفاء»، «وجمهورة الأنساب أو أنساب العرب»، وهو مؤلف ذو قيمة كبيرة، وشهرة ابن حزم ترجع على الأخص في إتقانه فني الحديث والكلام.

وبعد أن كان شافعي المذهب صار متحمسًا لمذهب الظاهرية، وقد طبق أصول هذا المذهب على العقائد ولذا لم يأخذ إلا بالمعنى الظاهري للقرآن والأحاديث الموثوق بها.

ولابن حزم كتب في المنطق والأخلاق تعرض فيها لرجال كانوا ومازالوا موضع إجلال معظم المسلمين، أمثال أبي موسى الأشعري وأبي حنيفة ومالك، فاستهدف بذلك لكراهية فقهاء عصره ولاسيما لتعريضه بالرجال البارزين من أهل السنة ولذا أحرقت مؤلفاته علنًا في إشبيلية فندد هو بهذا التصرف في قصائد لاذعة، ويقال إن عدد مؤلفاته بلغ ٤٠٠، وتوفي ابن حزم في بلدته «منت ليشم» في ٢٨ من شعبان عام ٤٥٦هـ (١٥ أغسطس ١٠٦٤م).

ومن كتابه «طوق الحمامة» نستطيع التعرف على شخصية ابن حزم وعلى صورة صادقة شيقة لناحية من نواحي الحياة في عصره لا يعرف عنها من الكتب التاريخية الأخرى إلا القليل، وفي كتابه المسمى «رسالة في فصل الأندلس» لمحة طريفة عن أهم مصنفات مسلمي الأندلس المتقدمين.

وكان لابن حزم أثر واضح في مبادئ الأخلاق، وهو يمثل بحق أهل التوحيد الذين ينتقدون التوسل بالأولياء ومذاهب الصوفية أصحاب التنجيم، وقد نقد ابن حزم من جهة أخرى العقائد غير الإسلامية كاليهودية والنصرانية وحاول الكشف عن المتناقضات في كتبهم ليبرر اتهامه لهم بتحريف النصوص وذلك في مصنفه «إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم منها مما لا يحتمل التأويل»، وفي المنطق ألف ابن حزم كتاب «التقريب في حدود المنطق»، وقد أعطى للتجربة في هذا الكتاب أهمية كبرى وكانت ثمرة نضوجه وخلاصة تجاربه في الحياة رسالته الأخلاقية المسماة «كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، وهي في الورع والحض على التقوى جعل فيها النبي عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى للخلق الكريم، وقد تابعه الفقهاء بحسدهم فاستهدف ذلك حنقهم عليه وإلى إبعاده عن مخالطة الملوك والسلاطين فأخذوا يقصونه عن بلادهم، ومن قوله في كتاب الأخلاق: واعلم أن من قدر نفسه عجبًا، أو ظن لها على سائر الناس فضلاً، فلينظر إلى صبره عندما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دُمَّل أو مصيبة، فإن رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز، وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشيء لم يسبق فيه على ما ذكرنا بل هو إما متأخر عنهم في ذلك أو مساو لهم لا مزيد، إلى أن يقول: فليعلم أن أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخولين أكثر مما هو فيه أفضل منه، فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين.

وابن حزم أيضًا هو المؤرخ الحجة، ومن أشهر رواة تاريخ السيرة النبوية، واسمه الكامل هو عبد الله بن أبي بكر بن حزم (توفي سنة ١٣٠هـ – ٧٤١م)، وهو من كتَّاب المغازي النبوية الموثوق في رواياتهم، وكان أحد أساتذة الواقدي (انظر

هذه المادة) الذين أُخِذ عنهم في تأليف كتابه المشهور المسمى «مغازي رسول الله»، وقد تولى القضاء بالمدينة المنورة عام ٩٤هـ (٧١٣م) ثم صار وليًّا عليها عام ٩٦هـ (٧١٥م)، وقد اغتابه الأحوص (انظر مادة ابن الأحوص) في عهد الخليفة الوليد وحمل عليه في أشعاره مما كان سببًا في ضرب الأحوص بالسياط.

٧٩- ابن الحكم - شارع - بقسم محرم بك

ما من شك في أن المراد بهذا الاسم هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أَعْيَن أبو القاسم الذي هو أقدم من وصلت إلى القراء مؤلفاته من مؤرخي مصر الإسلامية، وهو ينتمي بالأرومة إلى أسرة مصرية نبيلة، وكان أبو عبد الله المتوفى عام ٢١٤هـ (٨٣٠م) ضليعًا في الحديث، والفقه، ومن ثَمَّ انتهت إليه رياسة الطائفة المالكية المصرية، وكان أبناؤه الأربعة من مشاهير أهل العلم، فمحمد كان فقيهًا وكاتبًا ذائع الصيت، وخلف أباه في رياسة المالكية، واشتهر عبد الحكم وسعد بسعة المعرفة واشتهر عبد الرحمن بغزارة العلم وقوة الإدراك والعناية الفائقة بدراسة الحديث، وبجمع الكثير منها الذي يستند إلى رواية أهم المحدِّثين المصريين، وأهم مؤلفاته «فتوح مصر والمغرب» في سبعة أجزاء تضم أخبار مصر وتاريخها القديم، والفتح الإسلامي، وخطط الفسطاط والجيزة وأخائذ الإسكندرية، ونظام مصر وإدارتها في عهد عمرو بن العاص، وامتداد الفتح الإسلامي جنوبي مصر وغربها، وفتح شمال إفريقيا بعد وفاة عمرو، وغزوة الأندلس ثم نبذة عن قضاة مصر إلى عام ٢٤٦هـ (٨٦٠م) والأحاديث المصرية المستقاة من الصحابة الذين وفدوا على مصر، ويدل هذا الكتاب التاريخي القيم على براعة ابن عبد الحكم في جمع الأخبار دون الاهتمام بنقدها، وقد اعتمد المؤرخون الذين جاؤوا بعده على كتابه، فمعظم ما جاء في كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي مأخوذ من هذا الكتاب، كما نهل منه المقريزي في كثير من فصول كتابه وكذلك ياقوت في وصف مصر، إذ نقل عن ابن عبد الحكم ما دونه في كتاب «فتح مصر والمغرب» في هذا الصدد حرفيًّا، ونقل عنه أيضًا الكندي، وابن زولاق والقضاعي، وابن دقماق، وأبو المحاسن وابن إياس لدرجة أن كل هؤلاء أصبحوا من رواته فيما صنفوا من كتب تاريخية، وبالمتحف البريطاني مخطوطات عدة لهذا الكتاب وأيضًا في باريس وترجمت بعض أجزائه إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية.

وتوفي ابن عبد الحكم في الفسطاط عام ٢٥٧هـ (٨٧١م).

ومروان بن الحكم، وكان من كبار القواد الأمويين وقد قاتل علي بن أبي طالب في وقعة الجمل، وهو الذي قتل خصوم بني أمية، وهزمهم في مرج راهط، ومات بالطاعون عام ٦٥هـ (٦٨٤م).

٨٠- ابن حمديس - شارع - بقسم محرم بك

اسمه بالكامل أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر ابن حمديس شاعر عربي ولد بمدينة سيراقوس أو (سراقوسة) عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، وهي ميناء على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية (سيسليا)، واشتهر بنظم الشعر منذ حداثة عمره، وعندما بلغ السابعة عشرة سقطت مدينة بالرمو في أيدي النورمانديين، وفي عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م) استولى الأعداء على الجزيرة بأسرها فشارك في القتال دفاعًا عنها ثم

هرب لاجئًا إلى إفريقية (تونس) ثم إلى الأندلس، وكان عمره حوالي أربعة وعشرين عامًا.

ويستدل من شعره على أنه قضى صباه الباكر في اللهو، يزور الحانات ويهيم بالراقصات وينتشي بالغناء، وبقيت هذه الصورة حية في ذهنه بعد تركه لمرتع صباه ومختلطة بحنين جارف إلى الفردوس المفقود.

وفي بلاد الأندلس حطت به رحاله عند المعتمد بن عَبَّاد (انظر هذه المادة) في إشبيلية، ولزم بلاطه مدة لا تقل عن ثلاث عشرة سنة، مدحه خلالها بقصائد مطولة مشيدًا بحروبه ضد الفرنجة، وعاش ابن حمديس ليتلقى صدمة جديدة وليرى نفسه يقف إلى جانب ابن عبَّاد أسيرًا سجينًا مفضلاً الوفاء لصديقه على أن يبقى طليقًا تعذبه ذكراه وما وجده عنده من كرم المثوى، وبقي ملازمًا لابن عباد في سجنه القاسي بأغمات بالقرب من مدينة مراكش؛ حيث وضعه يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين بعد استيلائه على دويلات ملوك الطوائف في الأندلس، وقد استمر سجنه بجانب صديقه من عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) إلى وفاة المعتمد بن عبَّاد خلال عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) أي حوالي أربعة أعوام، ثم رحل إلى مدينة المهدية في تونس ليعيش في كنف الأمير الشاعر الزيري تميم بن المعز بن باديس وفي كنف ابنه يحيى وحفيده علي بن يحيى وابن حفيده الحسن بن علي بن يحيى آخر أمراء بني زيري في أفريقية (تونس).

وشعر ابن حمديس رقيق العاطفة دقيق الوصف طريف التشابيه، ولم ينس هذا الشاعر النبيل الجنة التي أُخرج منها على مضض، فصقلية دائمًا في خياله يحن لذكراها ويرجع بذاكرته وشاعريته إليها فيقول:

ذكرتُ صقليةً والأسى
يُهَيِّجُ للنفس تَذْكارَها

ومنزلةً للصِّبا قدْ خَلَتْ
وكان بنو اللَّهْو عُمَّارَهَا

فإنْ كنتُ أُخْرِجْتُ مِنْ جَنَّةٍ
فإني أُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا

ولولا ملوحةُ ماءِ البكاء
حَسِبْتُ دُمُوعيَ أنْهارَها

واشتهر ابن حمديس بطرافة فكاهته في شعره فكان يُعرف بشاعر النكتة إلى جانب شهرته بشاعر النكبة في صقلية.

وخلف هذا الشاعر الفحل ديوانًا نشر المستشرق «أماري Amari» نماذج عديدة منه، وقد طبع سيكيا باريللي ديوانه في روما عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م).

ويقول حاجي خليفة المؤرخ إن ابن حمديس أَلَّف كتابًا يضم تاريخ الجزيرة الخضراء، والوصف في شعره يكاد ينطق بما يصف من صور وما شاهده من معالم، فهو يقول في دار بناها المعتمد بن عبَّاد:

وَيَا حَبَّذا دار قضى الله أنها
يُجَدَّدُ فيها كلُّ عِزٍّ ولا يَبلى

وما هي إلاَّ خِطةُ المَلكِ التي
يَحُطُّ إليها كلُّ ذي أملٍ رَحْلا

إذا فُتِحَتْ أبوابُها خِلْتَ أنَّها
تقولُ بترحيبٍ لداخلِها: أَهْلا

ويقول في وصف بركة يجري إليها الماء فتقذفه صعدًا ومنحدرًا إلى أسفل:

فإذا أُتيحَ لها الكلامُ تكلمتْ
بخريرِ ماءٍ دائمِ الهَمَلانِ

وكأنَّ صانِعَها اسْتَبَدَّ بِصَنْعَةٍ
فَخَرَ الجمادُ بها على الحيوانِ

أَوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنَّها
مِنْهَا إلى العَجَبِ العُجابِ رَوَانِ

وكأنَّها ظنَّتْ حَلاوةَ مائِها
شَهْدًا فَذَاقَتْهُ بِكُلِّ لسانِ

وَزَرافة في الجوِّ مِنْ أُنْبوبها
ماء يُرِيْكَ الجَرْيَ في الطيرانِ

مَرْكوزة كالرمح حيث تُرى له
مِنْ طَعْنَة الحَلَقَ انْعِطاف سِنانِ

وكأنما ترمي السماء بِبُنْدُقٍ
مُسْتَنبَطٍ مِنْ لُؤْلُؤ وَجُمَانِ

في بركةٍ قامتْ على حافاتها
أُسْدٌ تَذِلُّ لعِزَّةِ السُّلْطانِ

وقد فقد ابن حمديس حاسة البصر في أخريات حياته، وفي شهر رمضان من عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) توفي شاعر صقلية بالغًا من العمر حوالي ٨٤ عامًا ميلاديًّا بعد أن قضى الأعوام الأخيرة من عمره بميناء «بجاية Bougie» الواقع في غرب القطر الجزائري، ويقال إنه دفن بهذا الميناء، وفي رواية أخرى إنه دفن بجزيرة ميورقة إحدى جزر أرخبيل البليار الواقع بالقرب من الساحل الشرقي لإسبانيا.

٨١- ابن حنبل - حارة - بقسم الجمرك

هو أحمد بن محمد بن حنبل، ويعرف بابن حنبل فقط وكنيته الشيباني لأنه من بني شيبان، وهو فقيه إسلامي مشهور ولد في بغداد خلال شهر ربيع الأول عام ١٦٤هـ (نوفمبر عام ٧٨٠م) وجاء في رواية أخرى أنه ولد بمرو، وقد درس أول أمره في مسقط رأسه حتى عام ١٨٣هـ (٧٩٩م) ثم رحل في طلب العلم فمر بأكثر مدن العراق والشام والحجاز وانتهى بالتجوال في بلاد اليمن، وركز همه في هذه الرحلات على دراسة الحديث، ولما عاد إلى بغداد حضر دروسًا على الإمام الشافعي وكان من خواص أصحابه وأحد تلاميذه، وقد أخذ عن الإمام الشافعي الفقه وأصوله، ومذهبه رابع المذاهب السنيَّة المعمول بها عند جمهور المسلمين في العالم، وقد حددت عقائد أهل الحديث وجهة تفكيره في العقائد والشريعة ثم برهن بعد ذلك على ثباته في هذا الصدد خلال عهد الخلفاء العباسيين: المأمون والمعتصم والواثق (انظر هذه المواد). وعندما أقرت الدولة عقائد المعتزلة وأخذت بالشدة الفقهاء الذين لم

يقولوا بمذهب خلق القرآن، كان ابن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء فسيق مكبلاً بالأغلال إلى الخليفة المأمون الذي وافته المنية وابن حنبل في الطريق إليه، واحتمل ابن حنبل ما ناله من إيذاء في صبر وجلد ثم سجن في سبيل عقيدته الراسخة دون أن يتسامح في أي مبدأ من مبادئ هذه العقيدة، ولم يرفع عنه الأذى والعذاب إلاّ في عهد الخليفة المتوكل (انظر هذه المادة)، وذلك عندما أخذت الدولة في العودة إلى مذهب أهل السنة فقرّبه هذا الخليفة ودعاه إلى بلاطه وأجرى على أسرته معاشًا دون علم منه، وقد جذب علمه وورعه وتعلقه الشديد بالسنَّة عددًا كبيرًا من التلاميذ والمريدين إليه.

وتوفي ابن حنبل في بغداد عام ٢٤١هـ (٨٥٥م) وبقي قبره مشهورًا بين مقابر الشهداء يزوره الناس ويقدسونه، وبعد أن جرف فيضان نهر دجلة هذا القبر في أواخر القرن السابع الهجري تحول تقديس الناس إلى قبر ابنه عبد الله.

واشتهر من مؤلفات ابن حنبل «المسند» وهو كتاب جامع في الأحاديث يشتمل على عدد يتراوح بين ٢٨ و٢٩ ألف حديث، وله أيضًا كتاب «الصلاة وما يلزم فيها»، ورسالة كتبها في السجن عنوانها «الرد على الزنادقة والجهمية فيما شَكَّت فيه من متشابه القرآن»، وكتاب «طاعة الرسول»، هذا إلى جانب عدد آخر من الكتب.

وكان ابن حنبل ينكر التأويل في الأحاديث ويحرم البدع كزيارة القبور والتوسل بالأولياء. وقد لازم الإمام الشافعي (انظر مادة الشافعي) إلى رحيل هذا الإمام إلى مصر.

وكان منشأ المذهب الحنبلي ببغداد ثم شاع في غيرها ولكن في نطاق أضيق من المذاهب الثلاثة الأخرى وهي: الحنفي والمالكي والشافعي، ويقول ابن خلدون: إن الحنابلة لا يميلون إلى الاجتهاد ويعضّدون الرواية ويقارنون الأخبار بعضها ببعض وهم أكثر الناس حفظًا للسنّة ورواية الأحاديث، ولم يظهر المذهب الحنبلي في مصر إلاّ بعد انقراض الدولة الفاطمية في القرن السابع الهجري، وأول إمام حنبلي وفد على مصر هو الحافظ عبد الغني المقدسي صاحب كتاب «العمدة».

ومازال الناس يضربون المثل بتزمت الحنابلة وتشددهم في التمسك بالسنّة المحمدية، فإذا أرادوا التعبير عن رجل لا يلين في الحق قالوا إنه حنبلي.

وقبيلة شيبان التي ينتسب إليها الإمام أحمد بن حنبل فرع من ربيعة وكان لها جاه عريض في الجاهلية حتى لقد قيل: «إذا كنت في ربيعة فكاثر بشيبان وفاخر بشيبان وحارب بشيبان».

وكان والد أحمد بن حنبل من القواد وجدُّه ممن اشتركوا في نصرة بني العباس على الأمويين إلى أن دالت دولتهم واختفت من المشرق، وقد ضرب الأمويون جده هذا لنصرته العباسيين ونال منهم الأذى والضيم.

وكانت أمه شيبانية أيضًا وكان أبوها جوادًا كريمًا ينزل عنده وفود العرب فيضيفها، وقد ورث الإمام أحمد عن أبويه سمو النفس وقوة العزيمة والصبر على المكروه، ويدل على قوة صبره واحتماله للأذى ما أصابه من ضرب موجع مبرح في شهر ربيع الثاني سنة ٢١٨هـ (٩٣٠م) على قارعة الطريق بين دار السلام والرقّة، فكان السائرون يرون الجند المدججين بالسلاح ويرون رجلين صفدتهما الأغلال تنهال عليهما السياط وهما لا ينفكان عن التسبيح، ويضعف أحدهما عن الاحتمال

ويخر صريعًا ويموت شهيد عقيدته، ويظل الثاني على احتماله يقوي قلبه الإيمان بربه، وبينما هو في هذه المحنة الطاغية إذا بالخليفة المأمون يلاقي ربه وفي عنقه دم الشهيد وعذاب المؤمن بسنَّة رسول الله فيؤخذ ابن حنبل بأصفاده إلى بغداد ليلقى في السجن إلى حين.

وكانت النزعة الدينية القوية تعمر وجدان ابن حنبل منذ الصبا فتعلم اللغة وحفظ القرآن الكريم، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة وُجِّه إلى الديوان ليمرن على الكتابة والتحرير، واختار لنفسه بعد ذلك الاتجاه إلى الحديث فجلس في حلقات القاضي أبي يوسف (انظر مادة أبي يوسف) صاحب أبي حنيفة (انظر هذه المادة) ثم بدأ القيام بالرحلات في طلب العلم عام ١٨٦هـ (٨٠٢م) ولم يجلس لتدريس الحديث إلا بعد أن بلغ الأربعين، واستمر على إلقاء دروسه في هدوء إلى أن ابتدع الجعد بن درهم مسألة خلق القرآن وكونه مخلوقًا لله تعالى، وقد استنكر كثير من العلماء ذلك واعتبروا إثارة هذه المسألة بدعة، وقتل خالد بن عبد الله القسري الجعد بن درهم ولكن القول بخلق القرآن تبعه، ففي صفة الكلام استند جماعة إلى كلام الله لموسى الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾، واستغل الدعاة إلى التشكيك من المسيحيين صمت المؤمنين عن القول في هذا، فأخذ دعاة المسيحية يسائلون المسلمين عما قاله الله في كتابه عن المسيح، ألم يقل: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾، فإن أجابوا بذلك سألوهم «أكلمة الله مخلوقة أم لا»؟ فيصمت المسلمون عن الجواب وكأنهم فازوا بالحجة، وكان بين المسلمين جماعة تصدت للرد على كل ما يثيره غير المسلمين للتشكيك في الإسلام فوجدوا أنه من الواجب أن يقولوا إن القرآن مخلوق وكلمة الله التي عبر بها عن المسيح هي مخلوقة باعتبار أن مسمَّاها وهو المسيح مخلوق.

وتولى المأمون الخلافة العباسية وأخذ بمذهب المعتزلة وكان يدعوهم بأصحابه ومن ثمّ مال إلى القول بخلق القرآن وحاول في إصرار وفي جميع المناظرات التي عقدها أن يحمل الفقهاء والمحدثين بما كان لديه من حجج وبراهين على اعتناق رأيه والأخذ به، غير أن هؤلاء الفقهاء والمحدثين لم يوافقوه على رأيه؛ لأنهم لا يستطيعون الأخذ بقول لم يرد في كتاب الله ولا في سنَّة رسوله كما لا يستطيعون الخوض في أمر لم يرد فيه نص صريح يؤيده.

واستمر الخليفة المأمون على المجادلة والمناظرة في موضوع خلق القرآن قرابة ست سنين استغرقت المدة الواقعة بين عامي ٢١٢ و ٢١٨هـ (٨٢٧ – ٨٣٣م)، وكان خلال هذه المدة التي قضاها في الرقَّة بعيدًا عن عاصمته بغداد يرسل بالكتب التي كان كاتبه ووزيره أحمد بن أبي دؤاد يدبجها وهو كبير المعتزلة في ذلك الحين إلى أنحاء ملكه تأمر الناس بالقول بخلق القرآن وترغم من يتولون أي عمل في الدولة على هذا القول والتصريح به، ثم تطرق الأمر إلى رفض شهادة من لا يقول بهذا الرأي ومنع المحدثين ورجال الإفتاء من القيام بتدريس الحديث أو تقديم الفتاوى إلا إذا أقروا بخلق القرآن، وأخيرًا صدر الأمر بإنزال أشد العقوبات والإعدام بكل من ينكر أن القرآن مخلوق.

وقد مات المأمون وابن حنبل يساق إليه مكبلاً فاستمر أخوه المعتصم على تعذيبه ثم أذن له بالإفتاء وتدريس الحديث حتى جاء الواثق إلى الحكم وأنزل به أشد العذاب، ولم يخرج

الإمام من محنته القاسية إلا بعد أن تولى المتوكل الخلافة فأزال آثار تلك الكارثة وأبعد الوزير أحمد بن أبي دؤاد المحرك الأصيل للفتنة.

وخرج ابن حنبل من المحنة مصقول النفس، نقي الوجدان، وفي كافة أجزاء جسمه ندوب وآثار جروح، وعلت منزلته بين الناس وقصده الطلاب من كافة البلدان الإسلامية يستفتونه ويسمعون منه الحديث حتى خاف على نفسه ودينه من غرور الشهرة، فقال إنه يود أن يعيش في ركن من أركان مكة لا يعلم به أحد، واستمر على العيش من إيراد العقار الذي ورثه عن أبيه وكان يرفض عطايا الخليفة المتوكل في رفق، واستمر هذا الإمام الورع مطمح أنظار المسلمين بحديثه وفقهه ونزاهة نفسه وورعه وتقواه حتى وافته المنية في ١٢ من ربيع أول عام ٢٤١هـ (٨٥٥م). رحمه الله رحمة فياضة وجعل جنة الفردوس له نزلاً.

وأول ظهور المذهب الحنبلي كان ببغداد، وقال عبد الرحمن بن خلدون (انظر هذه المادة) إن قلة عدد مقلدي هذا المذهب ترجع إلى بعده عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق في بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظًا للسنة ورواية الحديث.

وقد تأخر ظهور المذهب الحنبلي في مصر إلى القرن السابع الهجري، وقال السيوطي (في حسن المحاضرة): إن هذا المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع الذي ملك فيه الفاطميون البلاد وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة: قتلاً ونفيًا وتشريدًا، وأقاموا مذهب الشيعة ولم يزولوا منها إلا في أواخر القرن السادس، وأول إمام من الحنابلة حل بمصر هو الحافظ عبد الغني المقدسي صاحب «العمدة».

٨٢- ابن الحنفية - شارع - بقسم مينا البصل (المنصور محمد حاليًّا)

هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، المعروف بابن الحنفية وهي أمه، واسمها خَولَة بنت جعفر بن قيس ابن سلمة بن ثعلبة بن حنيفة، ويختلف الرواة في نسبها فيقول بعضهم: إنها كانت أَمَةً لبني حنيفة الذين قاتلهم خالد بن الوليد في عهد الخليفة عثمان بن عفان لامتناعهم عن تأدية الزكاة وارتدادهم إلى شريعة الجاهلية، وقد استولى علي بن أبي طالب على خَوَلَة هذه، فولدت له محمدًا الذي سمّاه أبوه بأبي القاسم تبركًا برسول الله.

وكان محمد بن الحنفية غزير العلم والورع، ومن أكابر الفقهاء، وكان شديد القوة مديد الجسم، وقد امتحنه معاوية بالنسبة إلى قوته الخارقة فتغلب أمامه على من أحضروه لمغالبته من الروم.

وقد حمل راية والده علي بن أبي طالب يوم موقعة الجمل الشهيرة، ولما سُئِل عن سبب زج أبيه به في المعارك دون ولديه الحسن والحسين، قال: إنهما عينا أبي، أمّا أنا فيداه، وهو يدرأ الشر عن عينيه بيديه.

وكان ابن الحنفية حكيمًا، ومن أقواله في الحكمة: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدًّا حتى يجعل الله له فرَجًا.

ولما دعا ابن الزبير إلى نفسه، وبايعه أهل الحجاز بالخلافة دعا عبد الله بن العباس، ومحمد بن الحنفية إلى البيعة فأبيا وقالا: لا نبايعك حتى يجتمع لك البلاد ويتفق الناس، فأسرع ابن الزبير إلى الإساءة إليهما وهددهما بالحرق إذا استمرا على الامتناع، وأدى ذلك إلى أن عبد الله بن الزبير بادر إلى اعتقال محمد بن الحنفية، وزجَّ به في سجن مكة فما كان منه إلا أن أسرع في مبايعة عبد الملك بن مروان الخليفة الأُموي.

وكانت ولادته قبل اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب بعامين، وكان متصوفًا ويقول: من كَرُمَتْ عليه نفْسه لم يكن للدنيا عنده قدر، وكان من رجال الدولة الصائبي الرأي في كثير من الأمور.

وطوائف الشيعة «الإمامية» تعتقد في عودة الإمام المنتظر وإن اختلفوا باختلاف طوائفهم، ومن ثَمَّ فليس من السهل معرفة هذا الإمام المنتظر على وجه التحديد، كفرقة من هؤلاء الإمامية ينتظرون عودة جعفر الصادق (انظر هذه المادة)، وفرقة أخرى ينتظرون محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب أما الفرقة الكيسانية فينتظر معتنقو مذهبها محمد بن الحنفية ويزعمون أنه حيّ لم يمت، وأنه يعيش بجبل رَضْوَى الذي يقول الطبري في تاريخه: إنه جبل جهينة وهو في عمل يذيع، ومنه تحمل حجارة «المِسَنِّ» إلى سائر الأمصار، ويزعم فريق الكيسانية أن ابن الحنفية سيبقى في هذا الجبل إلى أن يأذن له الله بالخروج إلى الناس، وإلى ذلك الزعم الخرافي أثار الشاعر كثيِّر غيرة الذي كان كيسانيًّا بهذه الأبيات:

ألا إن الأئمة مِنْ قريش

وُلاة الحقِّ أربعة سواءُ

عليٌّ والثلاثةُ مِنْ بَنيه

هُمُ الأسْباطُ ليس بِهِمْ خَفاء

وَسَبْطٌ لا يَذوقُ الموتَ حتى

يقودَ الخيلَ يَقْدمُها اللـواءُ

تَغَيَّبَ لا يُرى فيهم زمانًا

بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وماءُ

ومن هذه الأبيات يتضح أن كثيِّر كان يعتقد أن ابن الحنفية لم يمت، وأنه يعيش في جبل رضوى في حراسة أسدٍ ونمرٍ، وعنده عينان تجريان بماء وعسل، وأنه سيعود بعد الغيبة ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملأها الظلم والعدوان.

وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أنه المهدي المنتظر، والمختار هذا يلقب بكيسان، وتنسب إليه الطريقة الكيسانية الشيعية.

وكان ابن الحنفية يخضب بالحناء والكتم، وكان يتختم في اليسار، وقد انتقلت إمامته إلى ولده أبي هاشم عبد الله، ومنه إلى محمد بن علي، والد السفاح المنصور.

وكانت وفاته في أول المحرم عام ٨١هـ بالمدينة المنورة وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان الذي كان واليًا على المدينة في ذلك الوقت ودفن بالبقيع. أما ترجمة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «المنصور محمد».

٨٣- ابن حوقل - شارع - بقسم الرمل

هو ابن القاسم محمد بن حوقل، رحالة عربي وجغرافي مشهور، وقد قال عن نفسه: إنه ترك بغداد في رمضان عام ٣٣١هـ (مايو عام ٩٤٣م) لدراسة شؤون البلدان، وأحوال الشعوب، وكسب المال عن طريق التجارة، فتجول في أقطار الشرق والغرب، وكان في الوقت نفسه يدرس مؤلفات من سبقوه أمثال ابن خُرْدَاذْبَة والجيهاني، ويقال إنه زاول الجاسوسية لأمراء الدولة الفاطمية.

وفي إحدى رحلاته التقى بالإصطخري، وكان ذلك خلال عام ٣٤٠هـ (٩٥١م)، فعهد الإصطخري بتهذيب بعض خرائطه الجغرافية ومراجعة مصنفه، غير أن ابن حوقل لم يكتف بمراجعة ذلك المصنف بل صنف كتابه «المسالك والممالك» في ثوبه الجديد، ووضع اسمه عليه وذلك في حوالي عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م)، وقد نشر «دي جويه De Goeje» هذا الكتاب في المجلد الثاني من كتاب «المكتبة الجغرافية العربية Bibliothèque Géographique Arabe».

٨٤- ابن خاقان - شارع - بقسم محرم بك

يحمل لقب «ابن خاقان» أربعة ممن دوَّن المؤرخون معلومات عنهم وهم:

١) أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان: تولى منصب الوزارة عام ٢٣٦هـ (٨٥٠م) واستوزره بعد ذلك الخليفة العباسي المتوكل، وقد استغل ابن خاقان نفوذه لدى الخليفة فناصر ولده المعتز على حساب أخيه المنتصر، وعندما تولى المعتمد الخلافة عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م) عهد بالوزارة إلى ابن خاقان مرة أخرى، وظلَّ في منصبه حتى وفاته عام ٢٦٣هـ (٨٧٧م).

٢) أبو علي محمد بن عبيد الله بن خاقان: هو ابن صاحب الترجمة السابقة، شغل عدة مناصب عقب وفاة والده ثم وَلِي الوزارة بعد سقوط ابن الفرات (انظر هذه المادة)، خلال عام ٢٩٩هـ (٩١٢م)، وذلك بقوة نفوذ نساء البلاط، وقد نجح في الاحتفاظ بهذا المنصب على الرغم من رغبة الخليفة المقتدر في إقصائه وذلك بوساطة دسائس نساء البلاط، وعندما تولى ابن الجرّاح الوزارة في أوائل عام ٣٠١هـ (٩١٣م) قبض على أبو علي محمد بن خاقان وعلى ولديه، ثم أطلق سراحه بعد ذلك، وتوفي عام ٣١٢هـ (٩٢٤ - ٩٢٥م).

٣) أبو القاسم عبد الله بن محمد بن خاقان: هو ابن عبد الله محمد المتقدم الذكر، وقد وَلِي الوزارة عام ٣١٢هـ (٩٢٤م)، بعد أن صرف عنها ابن الفرات نهائيًّا، وبعد عام ونصف العام أقيل من منصبه وزُجَّ به في السجن خلال عام ٣١٣هـ (٩٢٥م)، وصودرت أملاكه وأمواله، ثم أفرج عنه الخليفة المقتدر بعد مدة من الزمن، وتوفي عام ٣١٤هـ (٩٢٦- ٩٢٧م).

٤) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القبيسي الإشبيلي: صاحب كتاب «قلائد العقيان» وقد جمع في هذا الكتاب تراجم طائفة كبيرة من شعراء المغرب العربي، وتكلم عن كل منهم في إسهاب بأسلوب جزل، وعبارات رشيقة. وله أيضًا كتاب «مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مِلَحِ أهل الأندلس» وهو في ثلاثة مجلدات، أولهم كبير، وثانيهما متوسط، وثالثهما صغير،

وهو كتاب كثير الفائدة، ويدل كلامه في هذه الكتب على غزارة علمه، وفضله، وسعة مادته، وكان كثير الأسفار سريع التنقل.

ويقول الحافظ أبو الخطاب بن تَحِيَّة في كتابه «المطرب في أشعار أهل المغرب» إنه التقى بجماعة من أصحاب ابن خاقان فحدثوه عن مؤلفاته وعجائبه وأنه كان خليعًا، ولكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال، وقد قتل ذبحًا بفندق بمدينة مراكش في أوائل عام ٥٢٩هـ (١١٣٤م) بأمر أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين أحد أمراء دولة المرابطين، وهو أخو أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين الذي ألف له ابن خاقان كتابه «قلائد العقيان» الآنف الذكر.

٨٥- ابن الخشاب - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي، ولد عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م)، وكان عالمًا، ذائع الصيت، مشهورًا في الأدب، والنحو، والتفسير، والحديث، والنسب والفرائض، والحساب، وحفظ القرآن الكريم بالقراءات الكثيرة، وكان متبحرًا في كل هذه العلوم وكان خطه في غاية الحسن، وقد ذكره العماد الأصبهاني في كتابه «الخريدة» وعدد فضائله ومحاسنه، وكان إلى جانب علمه الغزير شاعرًا مقلاً ومن شعره في الشمعة:

صفراءُ مِنْ غيرِ سِقامٍ بها
كيف كانت أُمُّها الشافِيهْ

عارية باطِنُها مُكْتَسٍ
فاعْجَبْ لها عارِيَة كاسِيَهْ

وقد شرح كتاب «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني (انظر مادة الجرجاني)، وسمَّى هذا الشرح «المرتجل في شرح الجمل»، ثم شرح كتاب «اللُّمع» لابن جِنِّي، ولم يكمله، وكان لا يكترث بمأكله وملبسه، وكان صديقًا للعماد الأصبهاني.

وتوفي أبو محمد بن الخشاب في اليوم الثالث من شهر رمضان عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) ببغداد بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا، ودفن بمقبرة أحمد بباب حرب.

ويذكر المؤرخون آخر بلقب بابن الخشاب كان قاضيًا، وقد حول الكنيسة الكاتدرائية في مدينة حلب (انظر هذه المادة) إلى مسجد وذلك عام ٥١٧هـ (١١٢٣م)، وقد قام بهذا التحويل انتقامًا من الصليبيين الذين هدموا قبور المسلمين، ثم حوَّل نور الدين هذا المسجد إلى مدرسة خلال عام ٥٤٣هـ (١١٤٨).

٨٦- ابن الخطاب - شارع - بقسم العطارين

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله، ويُكَنَّى أبا حفص، وقال هو في تاريخ مولده إنه ولد بمكة قبل الفجار الأعظم الآخر بأربع سنين، واعتنق الإسلام وهو ابن ٢٦ عامًا، وكان رضي الله عنه أبيض، تعلوه حمرة، طويل القامة، أصلع الرأس، أشيب، ضخم الجسم، شديد حمرة العينين، وكان قليل الضحك لا يمازح أحدًا، مقبلاً على شؤونه، متكلمًا، لبقًا، وقد سماه رسول الله الفاروق، وقال: إنه سراج أهل الجنة، وكان عمر أول قاضي في الإسلام ولاه أبو بكر القضاء عقب مبايعته بالخلافة، وعندما أشرف أبو بكر الصديق على الموت استخلف عمرًا على المسلمين، وأمر عثمان بن عفان أن يكتب ذلك، ويلتقي عمر

في سلسلة النسب مع الجد الثامن للنبي الكريم وينتهي نسب أمه إلى آل مخزوم .

وتولى عمر بن الخطاب الخلافة في أواخر جمادى الآخر عام ١٣هـ (٦٣٤م) صبيحة وفاة أبي بكر فصعد المنبر وقال: «اللهم إني شديد فليِّني، وإني ضعيف فَقوّني، وإني بخيل فسخِّني» . وهو أول من دُعِيَ بأمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ الهجري بعد مضيّ عام ونصف العام على خلافته، فكتبه في شهر ربيع الأول سنة ١٦هـ، وبدأه بهجرة النبي إلى المدينة، وهو أول من فتح العراق، وفارس، ومصر، وفرض الجزية على الأرض، وأخرج اليهود إلى الشام، وفرض الأعطية للمهاجرين، والأنصار، ولأزواج النبي عليه السلام، وَنَوَّر المساجد طوال أيام رمضان .

وكان عمر رؤوفًا بالرعية، لا يأكل ما طاب إذا هم جاعوا، ويرعى شؤونهم، ويسهر على مصالحهم، واشترك ابن الخطاب في وقعتي بدر وأُحُد، واشتهر بتبدله بين الرعية، ويُرْوى عنه أنه قال: «لقد لان قلبي حتى هو ألْيَن من الزبد، ولقد اشتد قلبي حتى هو أشد من الحجر»، وذهب في عدله إلى أبعد الحدود حينما قال لابنته حفصة عندما طلبت منه بعض المال: «يا بنيّة حق أقربائي في مالي، وأما هذا المال ففيء المسلمين، غششت أباك ونصحت أقرباك، قومي، فقامت تجر ذيلها»، وذهب في زهده إلى أن كان مصروفه اليومي هو وعياله لا يتعدى الدرهمين، ولم ينفق في حجته غير ١٨٠ درهمًا، وقصة عدائه مع ابن عمرو بن العاص مشهورة، إذ استقدم هذا الابن وجعل غريمه المصري يضربه بالسوط وهو يقول «اضرب ابن الأكرمين» وكتب لأبيه عمرو ابن العاص يقول قولته المشهورة: «متى استعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» .

وحفصة بنت عمر إحدى زوجات رسول الله، وأصل عمر بن الخطاب من بني عدي بن كعب من قريش الظواهر . وفي عهده ظهرت المؤسسات الاجتماعية الكبرى التي منها «الديوان» لدفع رواتب الجيش، و«الأبصار» لتحديد قاعدات الأجناد الكبرى، ومدن الإسلام الكبرى، ومراكز القضاء، وعُرِفَ عمر رضي الله عنه بسداد الرأي، والحكمة، والحنكة العظيمة في السياسة، وكان أحد الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة حين دخل الإسلام قريش .

وفي يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير من ذي الحجة عام ٢٣هـ (٦٤٣م) كَمنَ له المشرك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة في ركن من أركان المسجد بالمدينة، ولما دنا منه عمر طعنه بخنجر ذي رأسين ثلاث طعنات، إحداها تحت السرة فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضيةً مرضيةً، ودفن يوم الأحد أول المحرم عام ٢٤هـ (٦٤٤م)، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وتختلف الروايات في سنّه وقت وفاته، فيذكر بعض الرواة أنه مات عند ثلاث وستين سنة، بينما يذكر البعض الآخر أنه توفي، وكان له من العمر خمس وستون سنة، وكان عمر أظهر الصحابة في باب الأخذ بالرأي، فقد روي عنه الشيء الكثير، وكان هذا من توفيق الله للمسلمين، إذ إن عمر قد واجه من الأمور التي في حاجة إلى التشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده، وعزَّت الأمصار، وخضعت الأمم الممدنة من فارس والروم لحكم الإسلام، فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية، والسياسية، والعمرانية ما كان أصلاً للفقهاء من بعده، ولذلك يقول فيه الفقهاء في

باب الجهاد والسير: إنه العمدة في باب توضيح علاقة الغالبين بالمغلوبين.

ويتضح من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه استعمل الرأي في أوسع نطاق فتعدّى في ذلك قصر الإفتاء بالرأي على ما لم يرد فيه نص في القرآن ولا في السنّة، وسار عمر إلى أبعد من ذلك فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها نزلت الآية القرآنية أو قال الرسول الحديث بشأنها ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه، ومن ثمّ كان أول مسلم استرشد بروح القوانين دون التقيد بحرفيتها، ويتبين ذلك في تفسيره للآيات القرآنية بروح ما يؤدي إلى المصلحة العامة، فقد روي عنه أنه لم يقطع أيدي السارقين في عام المجاعة، وروي أن بعض الغلمان سرقوا ناقة، وأقروا على أنفسهم بالسرقة، فأمر بقطع أيديهم، فردّهم إليه وقال: إنهم قد فعلوا ذلك من الظلم الذي لحقهم والحرمان الذي عاشوا فيه.

وكان عمر يسترشد في قضائه بالكتاب والسنّة، فإذا لم يجد نصًّا فيهما لما يريد الحكم فيه رجع إلى أحكام أبي بكر في مثل الحالة التي عليه أن يقضي فيها، فإذا لم يهتد لأحد أحكام أبي بكر دعا رؤوس الناس فإذا أجمعوا على أمر قضى به، وكان أبو بكر يفعل ذلك فيما يفصل فيه من المشكلات القضائية.

وفي المبسوط للسرخَسيّ أن عمرًا كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى كان إذا رفعت إليه حادثة قال: ادعوا لي عليًّا، وادعوا لي زيدًا بن ثابت، وادعوا لي فلانًا وفلانًا من الصحابة، فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه.

وقد قال للقاضي شريح (انظر هذه المادة): «عليك أن تقضي بما استبان لك من قضاء رسول الله، فإن لم تعلم أقضية رسول الله، فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم، فاجتهد برأيك واستشر أهل العلم والصلاح».

وهكذا كان عمر من أوائل الآخذين بالرأي في التشريع الإسلامي منذ فجر الإسلام، فكان يطبق التشريع بروحه وليس بحرفيته.

وأشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود (انظر مادة ابن مسعود) في العراق، فكان يعشق عمر بن الخطاب، ويعجب بآرائه وقد روي عنه أنه قال: إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم.

ويقول الأب إسحق ساكا أحد الباحثين في أصول الكلمات العربية ومصادر اشتقاقها «إن كلمة فاروق وهي اللقب الخاص بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب لفظة سريانية قلبًا وقالبًا اشتقها السريان على صيغة اسم الفاعل من فعل Fruk بالسريانية، ومعناه «أنقذ أو حرر» فقالوا «فاروكو Farooku» أي المنقذ أو المحرر، والسبب في ذلك هو أن السريان الذين كانوا يقطنون في سورية، وما بين النهرين كانوا خاضعين للروم البيزنطيين قبيل الفتح العربي، وقد ذاقوا منهم ألوانًا من العذاب وأشكالاً من التنكيل بهم، ضربًا، وإهانةً، ونفيًا، وزجًّا في ظلمات السجون، وغياهب المعتقلات؛ وذلك بسبب الخلاف العقائدي المسيحي القائم بينهم، وكان السريان يتربصون الفرص، وقد وجدوا في العرب الفاتحين الخير والأمل فطلبوا لهم النصر وساندوهم، فتمكنوا من تحرير بلادهم من الاستعمار البيزنطي الجائر، وابتهاجًا بهذه المناسبة

التاريخية، ولأجل الذكرى أطلقوا على عمر بن الخطاب لقبًا مناسبًا فسموه «فاروق» أي المنقذ أو المحرر، وإني أدوّن هذا الرأي دون الجزم بحقيقته ابتغاء الفائدة فقط.

وكان عمر يصادر نصف أموال عمّاله على الأقاليم، والأمصار التي فتحها المسلمون لأنه كان يرى – وهو العادل المتمسك بالحق – أن ما يجمعونه من مال إنما هو حق للمسلمين، وينبغي أن يؤخذ منهم ويرد إلى بيت المال، وقد فعل عمر هذا مع كل من رأى أن لديهم ثروة لا يُعرف مصدرها الحقيقي.

وقد كتب ذات يوم إلى عمرو بن العاص في أثناء ولايته على مصر: «أنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر».

فأجاب عمرو بن العاص على هذا الكتاب قائلا: «إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا».

فردّ عمر بن الخطاب قائلاً: «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابكَ إليَّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤتُ بك ظنًا، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه عليه، وأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغلظة عليك».

فلم يسع عمرو بن العاص، على دهائه، وسعة حيلته، وعلو مكانته، وبُعْده عن أمير المؤمنين إلا الخضوع لما أمره به ومقاسمة ابن مسلمة ماله.

ومر عمر الفاروق يومًا بنوق قد بدت عليها آثار النعمة، فسأل عن صاحبها فقيل له إنها لعبد الله ولده، فساقها على الفور إلى بيت المال اعتقادًا منه في أن ثروة ابنه لا تفي لها، وأنه لولا جاهه بين الناس ما قدر على إطعامها.

ويعد عمر بن الخطاب أول الاشتراكيين في الإسلام بعد النبي الكريم محمد بن عبد الله، وقد عرف المسلمون روح الاشتراكية السمحة، ولمسوا أريحيتها في أعمال رسول الله وفي أثناء خلافة عمر.

وقد وصف شاعر النيل حافظ إبراهيم مقاسمة عمرو بن العاص ماله، وضم نوق ابنه عبد الله إلى بيت المال في قصيدته الرائعة التي أنشدها بمدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز في ٨ من فبراير عام ١٩١٨م.

فقال في مقاسمة عمرو بن العاص ماله:

شاطرْتَ داهِيَةَ السُّوَاسِ ثروَتَهُ
ولم تَخَفْهُ بمصرٍ وهوَ وَاليها

وأنتَ تعرِفُ (عَمْرًا) في حَواضِرها
ولستَ تجهلُ (عمرًا) في بواديها

فَلَمْ يُرِغْ حيلةً فيما أَمَرْتَ به
وقامَ (عَمْرُو) إلى الأحمال يُزْجيها

وَلَمْ تقلْ عامِلاً مِنْها وقدْ كَثُرَتْ
أموالَهُ وفشا في الأرضِ فاشِيها

وقال في أخذ نوق ابنه عبد الله وردّها إلى بيت المال:

وَما وَقى ابنَكَ (عَبْدُ اللهِ) أيْنُقَهُ
لَمَّا اطّلَعْتَ عليها في مراعيها

رأيتَها في حِماهُ وهي سارِحَةٌ
مِثْلَ القُصورِ قد اهتَزَّتْ أعاليها

فَقُلْتَ: ما كانَ (عَبْدُ اللهِ) يُشْبِعُها
لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلدي، أوْ كانَ يُرْويها

قَدِ اسْتعانَ بجاهي في تجارَتهِ
وباتَ باسم (أبي حفص) يُنَمِّيها

رُدُّوا النِياقَ لبيتِ المالِ إنَّ لَهُ
حَقَّ الزِيادَةِ فيها قبْلَ شاريها

ومن العجب أن عمر بن الخطاب هذا الخليفة الاشتراكي العادل كان أشد الناس عداوة للإسلام وأهله قبل أن يعتنق الدين الجديد، وكان إسلامه بعد ست سنوات من مبعث رسول الله عليه الصلاة والسلام، وشهد معه الحوادث الجاسمة في تاريخ بعثته المحمدية، ولدى وفاة النبي كانت لعمر اليد الطولى في حسم الخلاف بين المسلمين على الخلافة، ويقول بعض المؤرخين إن اغتيال الخليفة عمر لم يكن نتيجة حقد أبي لؤلؤة المجوسي عليه وإنما نتيجة مؤامرة سياسية كان أكبر العاملين على تدبيرها وتنفيذ أغراضها الغادرة الهرمزان الفارسي، واختير أبو لؤلؤة للقيام بهذا التنفيذ تحقيقًا لأهداف تلك المؤامرة الفارسية.

وقد تعلم عمر الكتابة والقراءة وهو صغير، وشغف بالاطلاع وهو كبير، في الوقت الذي لم يكن فيه إلاّ سبعة عشر رجلاً من قريش يعرفون القراءة في ذلك الحين، وفي مستهل شبابه كان يرعى الإبل لأبيه نفيل في أرباض مكة، ثم مارس التجارة، فزار العراق، والشام وغيرهما من الأقطار المجاورة للجزيرة العربية، وسهل له هذا الارتحال أن قبيلته كانت تتمتع بالسفارة بين قريش، وقبائل العرب الأخرى كما سهّل له التجوال أنه كان ممن يحذقون البيان، وفصاحة اللسان.

وتذوق عمر الشعر، وحفظ منه الكثير، ورواه، فكان سفير قريش لدى القبائل، وقد وفق في هذه السفارة غاية التوفيق.

وسبب بغضه للإسلام قبل اعتناقه له أنه كان يرى في ظهور دين جديد بمكة تفريقًا لشمل قبائل قريش وازدياد الخلف بين أفرادها، ومن ثمّ كان يعنف ويؤذي كل من يظفر به من المسلمين، وقد قال عن نفسه في هذا الصدد: «كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش، فخرجت ليلةً أريد أحد جلسائي أولئك في مجلسهم، فلم أجد عنده خمرًا فأشرب منها، فخرجت إليه فلم أجده، فقلت: لو أني جئت فلانًا الخمَّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلِّي أجد عنده خمرًا فأشرب منها، فخرجت إليه فلم أجده، فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين، الركن الأسود،

والركن اليماني، فقلت: حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول: وخشيت إذا أنا دنوت منه روعته، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثياب الكعبة، فجعلت أمشي رويدًا ورسول الله قائم يصلي، ويقرأ القرآن، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائمًا في مكاني حتى انصرف الرسول يريد بيته فتبعته، وأدركته قرب بيته فعرفني، وظن أني أتبعه لأؤذيه، فزجرني ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة، قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فحمد الله ثم قال: هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، وانصرفت عنه مؤمنًا بدينه».

ولما اشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه، وأوحى الله لنبيه بالهجرة أمر النبي أصحابه أن يلجؤوا إلى الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين لئلا تثور عليهم قريش، إلا أن عمرًا لم يشأ أن يهاجر متخفيًا، فتقلد سيفه، وركب جواده، ونادى بأعلى صوته في ربوع مكة: «من يريد تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي»، فجبنت قريش كلها عن منازلته فَلَوى عنان فرسه واتجه صوب يثرب قائلاً له: «شاهت الوجوه»، وفي يثرب ربطت المصاهرة: بين عمر وبين النبي إذ تزوج ابنته حفصة، وبذلك أتيح لعمر أن يتردد على النبي كما كان يتردد أبو بكر عليه.

وأصاب عمر أرضًا بخيبر، وأتى رسول الله وقال: أصبت أرضًا بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس منه عندي، فما تأمر به، وأجابه رسول الله: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» فتصدق عمر بأموالها على الفقراء، وذوي القربى، وعلى الضعفاء، ومن في الرقاب وعلى من في سبيل الله، ثم قال «إنه لا يباع أصل هذه الأرض ولا توهب ولا تورّث»، وكان هذا أساس نظام الوقف الخيري عند المسلمين وقد عم هذا النظام الأقطار الإسلامية في الشرق والغرب، وتدل سيرة عمر العاطرة على أنه كان أزهد الناس في جمع المال فكان إذا أعطاه النبي مالاً قال له: «أعط أفقر إليه مني»، فيقول له الرسول: «خذه فتموله وتصدق به».

وهكذا عاش عمر على الكفاف يلبس الخشن من الثياب، ويأتدم الزيت في الطعام، ولا يوسع على نفسه، وعياله إلا بمقدار على الرغم من أنه كان معيلاً فله من الأولاد الذكور ثمانية ومن الإناث أربعة.

وفي مجال الاشتراكية الإسلامية خصص عمر أرضًا بالربذة، وجعلها مرعى لجميع المسلمين، ولما جاء أهلها يشتكون قال «المال مال الله والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبرًا في شبر» والحمى هو تخصيص جزء من الأرض ليكون مرعى عامًّا لا يملكه أحد بل ينتفع به أفراد الشعب جميعًا، وهذا أساس الاشتراكية الحقة.

وبعد فتح المسلمين للعراق والشام أبقى عمر أراضيهما في أيدي المغلوبين، ولم يقسمها بين الفاتحين ليكون إرثًا لذريتهم، وفي مجال العمل قال «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة وليعمل لما عند الله، فمن قصر به عمله لم يسرع به نسبه».

ولما فتح المسلمون أرض السواد بالعراق اختلف الفاتحون مع عمر إذ كانوا يريدون توزيعها عليهم، فأرسل عمر إلى

عشرة من كبار الأنصار وأشرافهم وطرح عليهم الأمر قائلاً: «إني لم أزعجكم إلا لتشتركوا في إعانتي فيما حملت من أمور، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون الحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق، قالوا: «قل نسمع يا أمير المؤمنين»، قال عمر: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، لئن كنت ظلمتهم شيئًا هم لهم، وأعطيته غيرهم لقد شقيت، لكني رأيت أن لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور، لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام، لابد لها من أن تشحن بالجيوش، ولابد من إدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج جميعًا؟»، فقالوا جميعًا: «الرأي رأيك، فنعم ما قلت وما رأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به، رجع أهل الكفر إلى مدنهم»، وإزاء هذه الموافقة من أهل الشورى ولّى عمر عثمان بن حنيف على أرض السواد، فكان من حسن هذا التصرف الاشتراكي الحصين أن أدت جباية الكوفة، وحدها قبل عام من اغتيال عمر مائة ألف ألف درهم، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال من الذهب.

ويذهب كثير من كتّاب السِيَرْ إلى أن عمر بن الخطاب كان أول من فكر في جمع القرآن الكريم إذ دخل على أبي بكر في أثناء خلافته وقال: «إن القتل قد استمر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء في المواطن كلها، فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن»، فاقتنع أبو بكر برأي عمر ودعا عمرُ زيدًا بن ثابت (انظر مادة ابن ثابت)، وكان في مجلس أبي بكر وقال له: «إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله عليه السلام، فتتبع القرآن فاجمعه»، وبعد تردد، قام زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع، والأكتاف، وسعف النخل وصدور الرجال، وتدوين سوره، ثم أودعها عند أبي بكر الصديق (انظر هذه المادة)، ثم انتقلت من أبي بكر إلى عمر بن الخطاب، ثم إلى حفصة بنت عمر وزوجة النبي، ثم إلى عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) الذي جمعه في مصحف واحد.

وعقب وفاة أبي بكر في مساء يوم الاثنين ٢١ من جمادى الآخرة عام ١٣هـ (٦٣٤م) تثاقل الناس عن الجهاد في سبيل الله رهبة من جيوش الفرس في العراق، وكان المثنى بن حارثة الشيباني (انظر مادة الشيباني) قد حاربهم في عهد أبي بكر، وانتصر عليهم بجيش من أهله بني شيبان، وكانوا قد عادوا إلى الإسلام بعد رِدَّتهم، ولما استنفر عمر بن الخطاب الناس للجهاد خطب فيهم المثنى، وأبلغهم أنه انتصر على الفرس وهزمهم بفضل الصمود وروح القتال العالية، وعندها انضم القوم إلى رأي المثنى ونهضوا إلى القتال في سبيل الله فأمر عمر عليهم أبا عبيد عمرو بن مسعود وسار الجيش العربي إلى سواد العراق لمحاربة الفرس.

والتقى الجيشان عند «النمارق» فهزم الجيش الفارسي، وأسر قائده الذي استطاع الهرب بعد ذلك، وأرسل الفرس نجدة كبيرة مزودة بعدد من الفيلة، وفي هذه الموقعة المسماة «بموقعة الجسر» قتل القائد أبو عبيد عمرو بن مسعود بضربة قاضية من أحد الفيلة واستطاع المثنى بن حارثة أن ينقذ الجيش العربي والعبور به إلى الضفة الغربية من نهر الفرات، وفي موقعة «البويب» تغلب جيش المثنى الشيباني على الفرس، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، ولاسيما بعد أن انضم إلى صفوف المسلمين بنو تغلب وبنو النمر، وكانوا من النصارى العرب.

وفي هذه الأثناء تولى «يزدجرد بن كسرى» ملك فارس فأمر بالتعبئة العامة، ومن ثَمَّ فعل عمر بن الخطاب ذلك بالنسبة إلى أهل الجزيرة العربية، وتطوعت الألوف من العرب في جيش عمر بن الخطاب فخرج بهذا الجيش الكبير يبغي القتال على رأس المجاهدين، واستخلف علي بن أبي طالب على المدينة، غير أن الصحابة أشاروا بأن يعين قائدًا آخر حتى لا يصيب الإسلام الضرر، إذا استشهد عمر في إحدى المعارك، فاستقر الرأي على أن يتولى القيادة سعد بن أبي وقاص (انظر هذه المادة) فخرج إلى الجهاد في رجال عدتهم أربعة آلاف، وفي القادسية وصلته الإمدادات فبلغ عدد رجال جيشه أكثر من ثلاثين ألفًا، وكان المثنى بن حارثة الشيباني، قد فارق الحياة متأثرًا بجراحه في معركة الجسر بعد أن دوّى اسمه في أرجاء بلاد الفرس ، لما قام به من بطولة في جميع المعارك التي خاض غمارها.

والتحم الجيشان بالقادسية واستمرت المعركة أيامًا، وكان للفيلة فيها أثر كبير، غير أن المسلمين فطنوا لخطرها، فأخذوا يطعنون بعضها بسيوفهم في أعينها، ففرت محدثة الذعر في صفوف الفرس فولّوا الأدبار، وقتل قائدهم «رستم» وانتصر العرب انتصارًا ساحقًا بعد أن أبادوا معظم وحدات الأعداء، وسار سعد بن أبي وقاص بعد ذلك إلى المدائن «العاصمة الكسروية» ففتحها وفرَّ كسرى ناجيًا بحياته، واستولى سعد على خزائن الفرس، وأرسل كنوزها الثمينة إلى أمير المؤمنين ليشهد الناس مبلغ انتصار المسلمين على المشركين، ومن المدائن سار سعد إلى «جلولاء» فهزم عندها جيش الفرس، وبذلك انتهت دولة الأكاسرة في العراق، ولم تقم للفرس قائمة عقب هزيمتهم الساحقة في المدائن ومن ذلك التاريخ دان العراق للمسلمين بالطاعة والولاء.

وكان أمير المؤمنين عمر قد أمر خالد بن الوليد أن يترك جيش العراق، وأن يبادر إلى نجدة جنود المسلمين في الشام، وكان الخليفة أبو بكر قد أرسلهم لفتح هذه البلاد، مكونين أربعة ألوية بقيادة أبي عبيدة الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعدة الجميع أربعون ألف مقاتل، فقسم خالد الجيش إلى كتائب عدد كل منها ألف رجل، وكان الروم قد أعدوا جيوشًا، قيل: إن عددها مائتا ألف محارب، وقسموها أربع فِرَق كل منها يضم خمسين ألف رجل وذلك عند «اليرموك» حيث التقى الجيشان، وبعد أن حصد المسلمون رقاب معظم محاربي الروم جاء نصر الله والفتح، وكانت موقعة اليرموك الحاسمة حجر الزاوية في هدم صرح المجد الرومي الذي أخذت أحجاره تنهار تباعًا منذ ذلك اليوم المشهود.

وتمَّ بعد ذلك بقليل فتح دمشق ثم فتح سوريا بأسرها، وكان عمرو بن العاص قد توجه بجيشه إلى فلسطين فانتصر على الروم في موقعة أجْنادين، ثم انتصر عليهم في القدس،

فدخل عمر بن الخطاب المدينة المقدسة ومعه – إلى جانب عمرو بن العاص – أبو عبيدة، وخالد بن الوليد، ومن بيت المقدس عاد عمر إلى المدينة بعد أن ولّى أبا عبيدة الجراح على حِمْص، وخالد بن الوليد على قنسرين، ويزيد بن أبي سفيان على دمشق.

غير أن نصارى الجزيرة العربية كاتبوا الروم، ووعدوهم بمناصرتهم على العرب، وعلم عمر بن الخطاب بالمؤامرة، فسار في جيشه لمعاونة أبي عبيدة، وخالد بن الوليد، ولما بلغ «الجابية» كانت المعركة قد انتهت بين الروم وبين جيوش عبيدة وخالد، فرجع عمر إلى المدينة، وقد استتب الأمر للعرب في الشام والعراق، وما بينهما من البلدان.

ثم وجّه المسلمون حملاتهم إلى بلاد الفرس لفتحها، فاستولوا على «نثر» ثم «سوس» و «سابور» و «نهوند» التي لم يقم للفرس بعد فتحها قائمة، وتهاوت البلاد الأخرى الفارسية يفتحها المسلمون دون كبير عناء، ومنها أصفهان، وهمذان، والريّ، وجرجان، وغيرهما، وعندها كتب الأحنف بن قيس إلى الخليفة عمر بفتح بلاد الفرس جميعها فقال: «إن الله قد أهلك ملك المجوسية، وأورث الإسلام أرضهم وديارهم وأبناءهم».

وقد أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر عندما كان الخليفة يزور الشام خلال العام الثامن الهجري، فأخذ ابن العاص في تنظيم جيشه واختيار المقاتلين، ولم تمض ثلاث سنوات على تلك الزيارة وبدأ سير الجيش العربي إلى الديار المصرية حتى كانت الإسكندرية تدين بالطاعة للفتح العربي المظفر أي خلال عام ٢١ الهجري، واتجه عمرو بن العاص بعد ذلك إلى الغرب، فوصلت فتوحاته إلى مدينة طرابلس بليبيا.

وكان الهدف الأساسي من هذه الفتوحات الإسلامية في عقيدة عمر بن الخطاب هو نشر الروح السمحة التي ينادي بها الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وتحت تأثير هذه العقيدة ساس عمر العرب بالحزم، والشدة، فأمر بردّ سبي حروب الردة إلى ذويهم حتى لا يصبح السبي سُنَّة في العرب وبذلك طهر النفوس من الحقد والحفيظة، ووحد بين القلوب في مجتمع عربي متجانس، وكان عمر يقدر التبعات الملقاة على عاتقه حق قدرها، ولذلك لم يبخل بأي جهد في سبيل القيام بتبعات الحكم فأنهك جسمه، وفكره، واجتهد في الرأي حتى إذا ما شام بوادر خلف، أو شقاق بادر إلى قطع الطريق على الغواية أن تستولي على وجدانه، وكانت فكرة الوحدة الإسلامية والخوف من تفرقها يستوليان على قلبه، فيُرْوى أنه جمع أعضاء مجلس الشورى وهو يحتضر إثر الطعنات الثلاث التي أصابت منه مقتلاً، وهو يتأهب لصلاة الفجر بالمسجد، وهو: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، وأمرهم أن يختاروا خليفة من بينهم، ثم قال لطلحة: «قم في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحدًا يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم، اللهم أنت خليفتي عليهم»، ويقال إنه خول طلحة قتلهم إذا لم يتفقوا على أحدهم بعد ثلاثة أيام، وقد اتفقوا على أن يكون خليفة المسلمين عثمان بن عفان (انظر هذه المادة)، وهكذا صينت الوحدة العربية من التفرقة والانشقاق، رحم الله عمر بن الخطاب، وأسكنه فسيح جناته.

ومن مآثر عمر بن الخطاب الإسلامية أنه كتب إلى جميع الولاة على الأقطار التي فتحها المسلمون في عهده أن يتخذ كل منهم مسجدًا للجماعة، واتباعًا لهذه الرغبة النبيلة شيد عمرو ابن العاص مسجده في الفسطاط.

٨٧- ابن الخطيب - زقاق - بقسم الجمرك

٨٨- ابن الخطيب - حارة - بقسم الرمل

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد الملقب بابن الخطيب وكنيته «ذو الوزارتين وزارة القلم ووزارة السيف»، وهو من أسرة هاجرت من الشام إلى الأندلس، ولقب الخطيب يرجع إلى جده الأعلى «سعيد الخطيب». وكان مولد ابن الخطيب في ٢٥ من شهر رجب عام ٧١٣هـ (١٥ نوفمبر عام ١٣١٣م) ببلدة لوشة جنوبي مدينة غرناطة؛ حيث قضى شبابه بين ربوعها يتلقى العلم على أكابر الشيوخ فنبغ في التحصيل نبوغًا جعله أعظم الكتّاب والشعراء ورجال السياسة في غرناطة وفي الأندلس، وبعد استشهاد أبيه في وقعة طريف عام ٧٤١هـ (١٣٤٠م) التحق بخدمة الوزير العالم أبي الحسن علي بن الجيَّاب وتلقى عليه العلم، وعقب وفاة ابن الجيَّاب استوزره السلطان أبو الحجاج يوسف الأول، وبعد قتل هذا السلطان استوزره ابنه محمد الخامس، ولما خُلِع محمد الخامس عام ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) سُجِن ابن الخطيب في غرناطة، وعند عودة السلطان إلى العرش بوساطة بني مرين في العام نفسه تولى ابن الخطيب الوزارة من جديد.

وإزاء دسائس أعدائه لم يجد ابن الخطيب بُدًّا من الفرار إلى جبل طارق ثم إلى فاس؛ حيث رفض سلطانها عبد العزيز تسليمه، غير أن السلطان المستنصر شرع في إجراءات تسليمه، وبينما كان تلميذه وخليفته في وزارة غرناطة، وهو أبو عبد الله محمد بن زمرك ينظر قضيته في فاس اقتحم جماعة من السفاحين سجن ابن الخطيب في فاس وقتلوه ليلاً، وكان سليمان بن داود قد استأجرهم لاغتياله.

ويصفه قرينه وصديقه المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون (انظر مادة ابن خلدون) «أنه آية من آيات الله في النثر والنظم والمعارف والأدب»، والمعروف أن ابن الخطيب عاش في منفاه بالمغرب ردحًا طويلاً من الزمن وألّف في المغرب كتبه ورسائله ونظم كثيرًا من أبدع قصائده، وكان من الطبيعي أن يكون المغرب مستودعًا لتراث ابن الخطيب الفكري ويحتفظ بأكبر قسط من آثاره ولاسيما تلك التي كتبها في المغرب، وقد خلَّد العلاّمة الكبير شهاب الدين المَقري (انظر مادة المقري) ذكراه وذكر آثاره في مؤلفه الجامع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

والواقع هو أن ابن الخطيب كان وزيرًا كبيرًا وسياسيًّا بارعًا وكاتبًا رائع البيان والترسل يكتب لنا أروع الرسائل السلطانية والخاصة، وشاعرًا مبدعًا ينظم لنا أبلغ القصائد وأرق الموشحات، وكان طبيبًا عديد الكتب والرسائل الطبية الجيدة وفيلسوفًا يخط بقلمه رسائل هامة في تشخيص النفس والمشاعر الإنسانية، وكان إلى جانب كل هذا إمامًا في الزجل، فهو يقول عن هذا اللون من الشعر: «إن النظم بهذه الطريقة الهزلية بلسان عوام الأندلس الملقب بالزجل على طريقة بديعة يتحكم فيها إلقاء البديع وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر»، ثم يقول: «إن الأستاذ الأول للزجل الأندلسي هو أبو بكر بن قزمان (انظر هذه المادة) حجزه الله عن سواه، فهو آيته المعجزة وحجته البالغة وفارسه المعلم والمبدئ فيه والمتمم».

ولقد ساعد ابن الخطيب باطلاعه الواسع في اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتبًا من كبار الكتاب فألّف في كثير من أنواع العلوم والآداب وكتب كثيرًا من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية، وكتب في التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها، ورسائله تفيض بما اكتسب من معلومات واسعة النطاق في الأدب والتاريخ والعلوم والفقه والفلسفة.

وكانت عنايته في كتابته الأدبية وخصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية إذ كان يُعنى باللفظ عناية فائقة ويقصد إلى التنميق والسجع، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء وعبارات التبجيل والتعظيم، ولقد يطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الملل وتدل على التكلف.

وكان أسلوبه يشبه أسلوب ابن العميد (انظر هذه المادة) من حيث تَعَمُّل السجع وزاد عليه ميله إلى الإطناب وكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإطالة المطنبة.

أما أسلوبه العلمي فلا يلتزم فيه بالسجع، بل يسرد العبارات سردًا وتغلب عليه الصبغة الأدبية في كتبه العلمية، ومن ثمّ فهو من أكبر الكتّاب وأوسعهم علمًا وأكثرهم تأليفًا، وله شعر يحسب في الطبقة الثالثة بين الشعراء؛ لأن أكثره أشبه بشعر الفقهاء منه بشعر الأدباء.

غير أنه في صياغة التواشيح الأندلسية كان بارعًا، فاسمع له يعارض ابن سهل الأندلسي (انظر مادة ابن سهل) في توشيحه الذي مطلعه:

هلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى
قلب صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنِسِ

فَهْوَ في حَرٍّ وخَفْقٍ مِثْلَما
لَعِبَتْ رِيْحُ الصَّبا بالقَبَسِ

فيعارضه ابن الخطيب بالتوشيح الذي مازال يغنى في أرجاء الوطن العربي فيقول:

جَادَكَ الغَيْثُ إذَا الغَيثُ هَمَى
يَا زَمَانَ الوَصْلِ بالأَنْدَلُسِ

لم يَكُنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلما
في الكَرَى أو خِلسَةَ الْمُخْتَلِسِ

إذْ يقودُ الدهرُ أَشْتاتَ المُنَى
تَنْقُلُ الخَطْوَ على ما يَرْسمُ

زُمَرًا بيْنَ فُرادَى وَثُنى
مِثْلَما يَدْعُو الوُفودَ المَوْسِمُ

والحَيَا قدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنَى
فثغورُ الزَّهْرِ مِنْهُ تَبْسِمُ

وَرَوى النُّعْمانُ عَنْ مَاءِ السَّمَا
كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عنْ أَنَسِ

فكساهُ الحسنُ ثوبًا مُعْلما
يَزْدهي مِنْهُ بأبْهَى مَلْبسِ

في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى
بالدجى لَوْلا شُمُوسُ الغُرَرِ

مالَ نَجْمُ الكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الأَثَرِ

وَطَرٌ ما فيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى
أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ البَصَرِ

حِيْنَ لَذّ الأُنْسُ شَيئًا أَوْ كَمَا
هَجَمَ الصُّبْحُ هُجومَ الحَرَسِ

غارتِ الشُّهْبُ بِنا أو رُبَّما
أَثَّرتْ فينا عُيونُ النَرْجسِ

وفيما يلي أنموذج من نثره الفني كتبه ردًّا على كتاب أرسله إليه أحد أصدقائه:

«أهلاً بتحفة القادم، وريحانة المنادم وذكر الهوى المتقادم، لا يصغر الله مسراك، فما أسراك، لقد جبت إليَّ من همومي ليلاً، وجزت رجلاً وخيلاً، ووفيت عن صاغ الوفاء كيلاً، وطننت بي الأسف على ما فات، فأعملت الالتفات، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي، أو كانت اللمة السوداء من عددي، ما أفلت من أشراكي المنصوبة لأمثالك، حول المياه، وبين المسالك... وحيا الله ندبًا إلى زيارتي ندبك، وبآدابه الحكيمة أدبك.

فَكَانَ وَقَدْ أَفَادَ بِكَ الأَمَانِي
كَمَنْ أَهْدَى الشِّفَاءَ إِلَى العَلِيل

وكان ابن الخطيب من مؤلفي المقامات على غرار الهمذاني والحريري، ومن مقامة له تسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناسة:

«مكناسة مدينة أصيلة، وشُعَبُ للمحاسن وفضيلة، فضَّلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومَرْعاها، فجنابها مَريع، وخيرها سريع، اعتدل فيها الزمان وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه فواكهها ولاسيما الرمَّان، وحفظ أقواتها الاختزان، ولَطُفَتْ فيها الأواني والكيزان، ودنا من الحَضْرَةِ جوارها، فكثر قُصَّادها من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء».

وابن الخطيب يجتمع وعبد الرحمن بن خلدون في كثير من أوجه التفكير وسلوك الحياة، فكلاهما خاض غمار السياسة وتقلب في حياة القصور وتبوأ ذروة السلطان وذاق محنة الاعتقال والنفي (انظر مادة ابن خلدون) ثم جمعت بينهما الصداقة والتقدير المتبادل وتخللت صداقتهما عوامل الغيرة والنفرة في بعض الأحيان.

وكان أول لقاء بينهما في ظروف مثيرة مشجية، فابن الخطيب وَفدَ على المغرب منفيًّا مع سلطانه المخلوع محمد الغني بالله ملك غرناطة، وكانت الثورة قد أجبرته على الالتجاء إلى حماية السلطان المريني أبي سالم ملك المغرب، وقد وصل ابن الخطيب وسلطانه المخلوع إلى مدينة فاس في شهر المحرم عام ٧٦١هـ (١٣٥٩م) فاحتفل بهما أبو سالم وألقى ابن الخطيب قصيدة مدح بين يديه يدعوه فيها إلى نصرة سلطانه وكان مطلعها:

سَلا هَلْ لديها مِنْ مخبرةٍ ذكرُ
وَهَلْ أَعْشَبَ الوادي ونمَّ به الزَّهْرُ

وَهَلْ باكَرَ الوَسْمِيُّ دارًا على اللِّوَى
عَفَتْ آيُهَا إلاّ التوهم والذكرُ

بلادي التي عاطيتَ مَشْمولة الهوى
بأكنافِها والعيشُ فَيْنَان مُخْضَرُّ

وَجَوِّي الذي رَبَّى جناحيَ وَكرهُ
فَها أنذا ما لي جَنَاحٌ ولا وَكْرُ

وكان ابن خلدون من شهود هذا الاحتفال بابن الخطيب وسلطانه المخلوع، وكان في ذلك الحين من كبار رجال الدولة في بلاط فاس، وهو يصف لنا أثر قصيدة ابن الخطيب في نفوس سامعيه فأبكاهم تأثرًا وأسى.

وعلى الرغم من فرق السن بين الرجلين، إذ كان ابن الخطيب في مرحلة الكهولة وابن خلدون في شرخ الشباب، فإن كلاً منهما كان أستاذ عصره وقُطْره في التفكير والكتابة، وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث زمانه، فكان ابن خلدون يشغل المركز نفسه الذي كان ابن الخطيب يشغله في الأندلس، وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة في البداية ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس، ولكن كان كل منهما يحترم صاحبه ويجله ويقدر مواهبه، وقد ترجم كل منهما للآخر وذكره بما ينمّ عن خالص الإجلال، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية تعتبر من أبدع نماذج النثر الفني في ذلك العصر.

وعاد ابن الخطيب إلى الأندلس فذهب إليها ابن خلدون في ربيع الأول عام ٧٦٤هـ (١٣٦٢م) بعد أن فقد منصبه في بلاط فاس عقب مصرع السلطان أبي سالم المريني، فتلقاه السلطان الغني بالله وصديقه ابن الخطيب بالترحيب الحار وأغدق عليه السلطان رعايته ولكنه ما عتم أن شعر بإعراض السلطان عنه وأن لصديقه ابن الخطيب يدًا في هذا التحول فبادر إلى الرجوع إلى المغرب ليخوض مرحلة أخرى من المغامرات والخدمات في القصور.

وعلى الرغم من هذه الجفوة استمر الرجلان على التراسل إلى أن فقد ابن الخطيب حظوته لدى السلطان الغني بالله وشعر بنجاح خصومه في السعاية به فقرر الفرار إلى المغرب ولم يشعر السلطان بقراره إلا عندما أرسل إليه كتابًا من جبل طارق يودعه فيه، وكان قد دبر أمره مع السلطان عبد العزيز المريني ملك المغرب الذي كانت تجمعهما أواصر صداقة متينة.

وعبر ابن الخطيب البحر إلى المغرب في أوائل عام ٧٧٣هـ (١٣٧١م) وذهب من توِّه إلى مدينة تلمسان بالقطر الجزائري؛ حيث كان السلطان عبد العزيز يعقد بلاطه إثر افتتاحه لها وشمل السلطان الوزير المنفي بوافر إكرامه وجزيل عطائه.

وكتب ابن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون، وكان يقيم آنذاك بمدينة بسكرة في الجنوب الشرقي من الجزائر، معتذرًا عما بدر منه في حقه بالأندلس فردّ ابن خلدون برسالة مؤثرة تؤكد حبه وتقديره لصديقه ويهنئه بنجاته.

وعاش ابن الخطيب ردحًا من الزمن في سلام ودعة، ولكن فراره من الأندلس على هذا النحو جعل خصومه بغرناطة يتخذون منه وسيلة لتأكيد اتهامه بالخيانة لوطنه ومليكه والعمل

على تلويث سمعته وسحق هيبته والعودة إلى رميه بالزندقة والمروق والطعن في رسول الله وتحبيذ مذهب الحلولية، واعتمدوا في ذلك على بعض ما جاء في رسالته المشهورة «روضة التعريف بالحب الشريف» واعتبروا ما جاء في كتبه التاريخية مثل «الإحاطة» من قبيل الغيبة المحرمة.

وتولى صياغة الاتهام قاضي غرناطة أبو الحسن النباهي وأفتى بحرق كتب ابن الخطيب فأحرقت ووجه إليه بالمغرب رسالة شديدة الكلمات تصمه بالإلحاد والزندقة وخيانة وطنه ومليكه وتعدد مظالمه في أثناء قيامه بالحكم وتدخله في شؤون القضاء وجمعه الأموال بمختلف الطرق غير المشروعة.

وبعث سلطان غرناطة إلى سلطان المغرب عبد العزيز برسله يحملون صيغة الاتهام ضد الوزير الملحد ويطالبون بإنفاذ حكم الشرع فيه وهو الإعدام، فردّهم السلطان بأنفة واستنكار وزاد في إكرام ابن الخطيب ورعايته.

وتوفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل في ربيع الآخر عام ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) وآل الملك في تلمسان إلى ولده الطفل وانتقل البلاط إلى فاس وسار ابن الخطيب في صحبة الوزير ابن غازي ولقي منه مثل ما كان يلقاه من الملك الراحل من الحماية والرعاية، وعاش ابن الخطيب فترة ينعم بالرغد واقتنى الدور والضياع.

غير أن الغني بالله سلطان غرناطة حاول مرة أخرى أن يحمل الوزير ابن غازي على التنكر لابن الخطيب ولكنه أبى، وكان الغني بالله يبغض ابن الخطيب لظنه أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس.

وسرعان ما تطورت الأمور في المغرب فسقطت وزارة ابن غازي، وخلع مليكه الطفل السعيد وجلس على العرش السلطان أحمد بن أبي سالم المريني في أوائل عام ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) وكان صديقًا للسلطان الغني بالله الذي عاونه على الارتقاء إلى العرش، ومن ثمّ بادر إلى القبض على ابن الخطيب وبعث الغني بالله وزيره ابن زمرك ليشرف على محاكمة الوزير المنكوب، وقد وجهت إليه التهم نفسها التي وجهت إليه في غرناطة من دينية وسياسية.

وعقد السلطان أحمد بن أبي سالم مجلسًا من رجال الدولة وأهل الشورى ناقش فيه ابن الخطيب وواجهه بالتهم المنسوبة إليه وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة، ولم يؤخذ بدفاعه عن نفسه ونفي هذه التهم الجائرة فعذِّب أمام الناس وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب إعدامه ثم قتل خنقًا في سجنه بوساطة أعوان وزير السلطان أحمد سليمان بن داود — كما تقدم القول— وكان اغتياله في شهر جمادى الأولى عام ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) وكان عمره إذ ذاك حوالي ٦٤ عامًا.

ثم أخذت جثته في الغد وأضرمت فيها النار فاحترق شعر الرأس واسودت البشرة ثم حملت إلى القبر قبل أن تأتي عليها النار وتركت هناك لتثوى الثواء الأخير، ومازال هذا القبر يقوم إلى الآن في مكانه على مقربة من باب الحروق أحد أبواب مدينة فاس التاريخية.

وهكذا ذهب الكاتب العبقري والمفكر الكبير ضحية الجهل والتعصب الديني البغيض والحقد السياسي الوضيع.

ولم يبق من كتب ابن الخطيب — التي يقرب عددها من الستين — إلاّ ثلثها، ومعظمها في التاريخ والشعر والأدب

والتصوف والفلسفة والطب وتخطيط البلدان، ومن أهم هذه المؤلفات: كتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وكتاباه في التاريخ «الحلل المرموقة»، و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، وكتاب «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وهو وصف لرحلته في إفريقيا.

٨٩- ابن خفاجة - زقاق - بقسم الجمرك

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر، وكان من أشهر من وصفوا مناظر الطبيعة، وسحرها، ومباهجها من شعراء الأندلس. وقد ولد بجزيرة شُقْر من أعمال بلنسية عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م)، وتقع بلدة شُقْر بين شاطية وبلنسية، وتدل مراحل حياته على أنه عاصر حكم ملوك الطوائف، وأوائل حكم دولة الموحدين الذي بدأ في حوالي عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي (انظر مادة الكومي) بالسيطرة على مناصري المبادئ الموحدية عقب وفاة المهدي بن ثومرت (انظر مادة ابن ثومرت) مؤسس دولة الموحدين الأول.

وقد ذكر ابن بسَّام (انظر هذه المادة) ابن خفاجة في كتابه «الذخيرة» وأثنى عليه، وقال: إنه كان مقيمًا بشرق الأندلس، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب، وقال إن لابن خفاخة ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان ومن شعره في عشية أنس وقد أبدع فيه:

وَعَشيّ أُنْس أضجَعَتْني نشـوةٌ
فيه تمهدُ مضجعي وَتُدَمِّثُ

خلعتْ عليَّ بـهِ الأراكةُ ظِلَّها
والغصنُ يُصْغي والحمام يحدِّثُ

والشمسُ تجنح للغروب مريضةً
والرعدُ يرقى والغمامةُ تنفـثُ

وتدل سيرة ابن خفاجة على أنه لم يتكسب من شعره إلا فيما ندر، ومن وصفه لليل قوله:

وليل إذا قلتُ: قد بادَ فانْقَضى
تَكَشَّفَ عنِ وَعْدٍ من الظَّنِ كاذِبِ

رأيتُ به قِطْعًا مِنَ الفجرِ أغبشًا
تأمَّلَ عنْ نَجْمٍ توقَّدَ ثاقبِ

وأرعن طمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ
يطاول أعنانَ السماءِ بغاربِ

يَسُدُّ مَهَبَّ الريح عن كل وجهة
ويزحَمُ ليلاً شهْبَهُ بالمناكبِ

وقال في وصف أحد الأنهار:

للّهِ نَهْرٌ سالَ في بطحاء
أَشْهى وُرودًا مِنْ لَمى الحَسْناءِ

مُتَعَطِّفٌ مثلَ السِّوارِ كأنهُ
والزَّهر تكنفهُ مَجَر سماءِ

قدْ رَقَّ حتى ظُنَّ قُرصًا مُفرغًا
مِنْ فِضَّةٍ في بردةٍ خضراءِ

وَغَدَتْ تحِفُّ بهِ الغُصونُ كأنها
هُدْبٌ يحفُّ بمقلةٍ زَرْقاءِ

والريحُ تعْبَثُ بالغصونِ وقد جرى
ذَهَبُ الأصيلِ على لُجينِ الماءِ

وكانت وفاة ابن خفاجة خلال عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م) في اليوم الرابع من شهر شوال وكان يوم أحد، وقد بلغ من العمر أكثر من ٨١ عامًا.

٩٠- ابن خلدون - شارع - بقسم العطارين

لقب ابن خلدون يحمله أخوان لهما في التاريخ سيرة بين علماء العرب المبرزين، ومادام اللقب لم يميز أحدهما فمن المفيد تدوين ترجمة كل منهما فيما يلي:

١) **أبو زيد عبد الرحمن بن محمد** (**ويلقب بولي الدين ابن خلدون**): ويتصل نسبه بوائل من عرب اليمن، وقد رحل جده التاسع إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري، وسكن إشبيلية، ولما تغلب الإسبان عليها انتقل بأسرته إلى تونس، وبها ولد ابن خلدون في أول رمضان عام ٧٣٢هـ (٢٧ من مايو عام ١٣٣٢م)، وكانت أسرته من أعرق الأسر نَسَبًا، ومن أوائل الأسر التي هاجرت من اليمن إلى الأندلس.

ونشأ ابن خلدون في بيت اشتهر بالعلم والأدب والمروءة، فتعلم وتأدب على أبيه محمد بن خلدون وعلى كبار علماء تونس فدرس النحو، والفقه، واللغة، والحديث، والعروض عليهم، ثم أتم دراساته في المنطق، والفلسفة، والتوحيد، وأتقن كل العلوم المعروفة في عصره حتى صار فريد زمانه، ولقد رغب حين شبابه في خدمة الملوك والسلاطين فشغل وظيفة كاتب سر لدى السلطان أبي سالم في فاس عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨م)، ثم رقي إلى وظيفة قاضي القضاة، ولما شعر بحرج إقامته بالمغرب لجأ إلى المغرب الأوسط، وصار وزيرًا عند حاكم ميناء ببجاية بشرق القطر الجزائري، ولما ظهر نبوغه كثر حساده فسعوا به إلى الحاكم، وعندها لجأ إلى مدينة بسكرة، ثم رحل إلى تلمسان، وعاد مرة ثانية إلى مدينة فاس، ثم رحل إلى غرناطة حيث وَلِيَ الكتابة لملوك بني الأحمر بغرناطة بالأندلس، وأخيرًا عاد إلى مدينة تلمسان حيث أَكَبَّ على تأليف كتابه التاريخي القيم «العبر» في قلعة ابن سلامة، ومكث في هذه القلعة حتى عام ٧٨٠هـ (١٣٧٨م)، أتم خلالها هذا الكتاب ومقدمته الفلسفية الثمينة، وفي عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) خرج من تونس إلى الحج وتوقف بالإسكندرية، ثم ذهب إلى القاهرة فعهد إليه بالتدريس في الأزهر، وبعد ذلك عينه السلطان برقوق (انظر هذه المادة) قاضيًا لقضاة المذهب المالكي، فاستقدم أسرته من تونس ففرقوا جميعًا في أثناء الطريق فحزن عليهم حزنًا شديدًا منعه من القيام بأعباء القضاء، فاستعفى وسافر إلى الحجاز، لتأدية فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، واعتزل في ضيعة له بالفيوم، ثم عاد ثانية إلى القضاء، ثم استعفى، وهكذا إلى أن تولى القضاء ست مرات، وقد أرسل في بعثة إلى تيمور لنك (انظر هذه المادة) أثناء بعض غزواته بالشام فأسره ثم نال عنده منزلة مرموقة، وطلب بعد ذلك من تيمور لنك أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليحضر مؤلفه في التاريخ فذهب إليها ولم يعد.

ويعتبر ابن خلدون أول من استنبط فلسفة التاريخ، وقد فصلها في مقدمة تاريخية، وأقام الأدلة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة، وعنوان كتابه هو «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وهو في سبعة أجزاء اشتهر ابن خلدون بمجلد واحد منها هو مقدمة هذا التاريخ التي تعد مفخرة في عالم التأليف العربي لأنها أول بحث جامع في علوم الاجتماع، والسياسة، وفلسفة التاريخ، وقد بحث في أحوال العمران وأسبابه، وفي منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها، ثم في آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة وما يعتريها من تقدم أو تدهور، ثم في العلوم وأنواعها والكتب ومعانيها، وطرائق التعليم وكيف تكون، كل ذلك في أسلوب سهل وثائقي دقيق، واستنباط منطقي صحيح، وفي هذه المقدمة القيمة التي كتبها في القرن الثامن الهجري درس ابن خلدون الظواهر الاقتصادية، والعمرانية دراسة متينة وبين ما بينها من روابط، وتلازم معتمدًا على الاستقراء والقياس وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه آدم يحدث بعد أربعة قرون، وبذلك تكون مقدمة ابن خلدون نقطة البداية للمدرسة العلمية في الاقتصاد، لأنها مجموعة معارف منظمة، ومرتبة ينطبق عليها مفهوم العلم في أدق معانيه.

ويمتاز تاريخه عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى أخرى، وهو أوسع تاريخ للبربر، ودولهم، ولعرب الجاهلية، ويدلنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة في القول والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم، وكان السجع والمغالاة في المحسنات البديعة من الالتزامات السائدة في عصره، غير أنه لم يتبع هذا الالتزام، ومن ثَمَّ رجع بالإنشاء إلى عهده الأول فعزف عن السجع، وترك البديع، وأخضع اللفظ للمعنى، وقد قال في هذا الشأن:

«وكان أكثر الرسائل يصدر عني بالكلام المرسل دون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة بالأسجاع لضعف انتحالها وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ – وكان مستغربًا عند من هم أهل هذه الصناعة – ثم أخذت نفسي بالشعر فانثالت عليَّ منه بحور توسطت بين الإجادة والقصور».

ومن هذا القول يتضح أنه طرح السجع جانبًا، وساد في الكتابة المرسلة جريًا على الفطرة والسليقة، وقد كان صريحًا واضحًا، إذ حكم على شعره بالتوسط بين الجودة والتقصير، ومن شعره قوله:

أَبَى الطيفُ أنْ يعتادَ إلاّ تَوَهُّما
فَمَنْ لي بأَنْ أَلقى الخيالَ المُسَلِّما

وإني ليدعوني السُّلوُّ تَعَلُّلاً
وتنهانيَ الأشجانُ أنْ أَتَقَدَّما

وذو الشوقِ يعتادُ الربوعَ دَوارِسًا
ويعرفُ آثارَ الديارِ تَوَهُّما

ويعتبر كتابه (العبر) مصدرًا تاريخيًّا عن عصره، إذ يضيف إلى التاريخ المأثور وثائق ذات قيمة عظيمة، وقد ظل يشغل منصب قاضي القضاة المالكيين بعد عودته من دمشق إلى أن وافته المنية في ٢٥ من رمضان عام ٨٠٨هـ (١٩ من مارس عام ١٤٠٦م)، وتضمنت مقدمته كل فروع المعرفة والحضارة

العربية، وبقيت وستظل أعظم مؤلفات عصره وأهمها قيمة من ناحية التعمق في التفكير والوضوح في العرض والتبيان في سياق المعلومات، وهي من أعظم الكتب التي تناولها العرب المسلمون في النواحي الفكرية التي اشتملت عليها.

٢) يحيى أبو زكريا بن محمد بن خلدون: شقيق عبد الرحمن المدونة ترجمته قبل، ولد في تونس عام ٧٣٤هـ (١٣٣٣م)، وتلقى معظم دروسه صحبة أخيه في هذه المدينة، ثم تعمق في الدراسة واتصل بمشاهير العلماء في عصره، وكان يميل بصفة خاصة إلى الأدب والشعر.

وبدأت حياته السياسية عندما كان مع أخيه في حاشية أبي سالم سلطان فاس، وذلك خلال عام ٧٥٧هـ (١٣٥٦م)، ثم أرسل في بعثة إلى بلاط أبي حمو الثاني أحد أمراء دويلة بني زيَّان (أو بني عبد الواد) في غرب القطر الجزائري (ولاسيما تلمسان)، وقد دام حكمه من عام ٧٦٠ إلى ٧٩٢هـ (١٣٢٤ – ١٣٨٩م)، فنظم ابن خلدون قصيدة بمناسبة المولد النبوي، غير أن الدسائس ضده أدت إلى سجنه بمدينة عنَّابة (بونه) في شرق الجزائر، كما صودرت أملاكه، واستطاع الفرار والالتجاء إلى بسكرة ثم نزح إلى تلمسان لدى أبي حمو الثاني عام ٧٦٩هـ (١٣٦٨م) فعينه كاتبًا للإنشاء، وفي هذه الأثناء استحكمت البغضاء بينه وبين رجال البلاط، ولاسيما الابن الأكبر لأبي حمو وهو أبو تاشفين الذي تولى الحكم بعد أبيه باسم تاشفين الثاني ولقّب بالمنتصر، فاستأجر أبو تاشفين بعض المجرمين فاغتالوا يحيى بن خلدون عند خروجه من القصر السلطاني، وكان ذلك في رمضان عام ٧٨٠هـ (١٣٧٨م).

وقد ألف يحيى بن خلدون كتابًا قيمًا في التاريخ بعنوان «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» وترجم هذا المرجع التاريخي إلى اللغة الفرنسية، وهو يشتمل على شرح مفصل لتاريخ مدينة تلمسان وسلطنتها، وأهم جانب فيه سرد تاريخ أيام حكم أبي حمو الثاني ابن أبي يعقوب وما كان عليه من ازدهار، وقد اعتمد ابن خلدون في كتابة هذا المرجع على الوثائق الرسمية والسياسية التي كانت تحت يده طوال توليه وظيفة كاتب الإنشاء في بلاط أبي حمو الثاني، ويظهر في هذا الكتاب تفوقه الواضح على أخيه عبد الرحمن في الناحية الأدبية من حيث الأسلوب وموسيقاه البارزة.

ولم يغفل يحيى بن خلدون الجانب الشعري في كتابه فضمنه كثيرًا من قصائد شعراء البلاط الذين عاصروه، ودوّن في ثناياه معلومات وافية عن علماء عصره ووصف ندوات ومجالس الشعراء في البلاط التلمساني مع تقديم فكرة واضحة عن الحياة العقلية في عاصمة بني عبد الواد (بني زيَّان) في القرن الرابع عشر الميلادي.

٩١– ابن الخُوَيِّي – شارع – بقسم باب شرقي

كان من علماء اللغة والأدب، وتوفي بالقاهرة عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)

٩٢– ابن الخياط – حارة – بقسم الرمل

يحمل لقب ابن الخياط خمسة ممن تعرف المؤرخون على سيرة حياتهم، وله أثر في الحركة الفكرية وهم:

١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي يحيى بن صدقة الثعلبي (المعروف بابن الخيَّاط): ولد بمدينة دمشق خلال عام

٤٥٠هـ (١٠٥٨م)، وكان من الشعراء المجيدين وقد طاف بكثير من البلدان ومدح الكثيرين بشعره، ثم رحل إلى بلاد فارس ومدح بعض عظمائها، وعندما التقى بأبي الفقيان ابن حيوس شاعر مدينة حلب الشهير وعرض عليه شعره قدره حق قدره، وقال: إن هذا الشاب قد نعاني إلى نفسي؛ لأنه قلما نشأ صاحب صناعة وحذق فيها إلا ما كان حذقه دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه.

ودخل ابن الخياط حلب ذات مرة، وهو لا يملك شيئًا من المال، فكتب إلى ابن حيوس الشاعر هذين البيتين بطلب معونته المالية:

لم يبقَ عِندي ما يباعُ بِحَبَّةٍ
وكفاكَ عِلمًا منظري عَنْ مَخْبَري

إلاّ بقيةَ ماءِ وَجْهٍ صُنتها
عَنْ أنْ تباعَ وَأَيْنَ أَيْنَ المشتري

ومن شعره الغزلي الرقيق قصيدته البائية الطويلة التي يقول فيها:

خُذا مِنْ صَبا نَجْدٍ أمانًا لقلبهِ
فقد كادَ ريَّاها يطيرُ بِلُبِّهِ

وإيَّاكما ذاكَ النسيم فإنهُ
متى هبَّ كانَ الوجدُ أيسَر خطبهِ

خليليَّ لو أحْبَبْتُما لعلمتما
محلَّ الهوى من مغرِم القلبِ صَبِّهِ

تذكر والذكرى تشوقُ وَذو الهوى
يَتوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحبُّ يُصْبِهِ

غرامٌ على بأسِ الهوى ورجائه
وشوقٌ على بُعدِ المزار وقربِهِ

وفي الركبِ مَطوِيُّ الضلوعِ على جَوَى
مَتى يَدْعُهُ داعي الغرامِ يُلبِّهِ

أغارُ إذا آنستُ في الحي أنَّة
حَذارًا وخوفًا أنْ تكونَ لحِبِّهِ

وتوفي أبو عبد الله بن الخياط بدمشق في اليوم الحادي عشر من شهر رمضان سنة ٥٢٧هـ (١١٣٢م) عن ٨٦ عامًا.

٢) رضي الدين ابن الخيّاط: كان فقيهًا، ومحدثًا، ومفسرًا للقرآن الكريم، وكان من ألد أعداء ابن عربي (انظر هذه المادة)، فرماه بالكفر، والزندقة على غرار ما فعله ابن تيمية صاحب المذهب الفقهي الخامس، ولم أعثر على تاريخ ميلاده، ومكانه، ولا تاريخ وفاته.

٣) محمد بن يوسف بن الخياط: كان شاعرًا محبًّا لمصر، فقد وصفها حين عاد إليها عام ٧٣٣هـ (١٣٢٢م) بعد غيبة طال مداها، بهذين البيتين اللذين ينمان عن حبه لمصر حبًّا تغلغل في صميم وجدانه:

خلَّفتُ بالشامِ حَبيبيَّ وَقَدْ
يَمَّمْتُ مِصْرَ العنا طارقِ

والأرضُ قَدْ طالت فلا تَبْعدي

بِاللهِ يا مِصْرُ على العاشِقِ

٤) ابن الخياط: أيضًا كان شاعرًا مجيدًا من شعراء جزيرة صقلية (انظر هذه المادة) في العهد الإسلامي، وذلك قبل أن يستولي عليها النورمانديون، ويتولى الحكم فيها، وقد أنشد ابن الخياط هذا كثيرًا من القصائد في شتى ألوان الشعر، ولم أتعرف على تاريخ، ومكان مولده، ولا تاريخ، ومكان وفاته.

٥) زين الدين بن الخياط: هو زين الدين الرعّاد بن الخياط، وقد وصفه ابن شاكر (انظر هذه المادة) في كتابه «فوات الوفيات» بأنه كان في غاية الصيانة، وفي غاية الترفع عن أهل الدنيا والعزوف عن التودد إليهم، واسمه بالكامل زين الدين محمد بن رضوان بن إبراهيم الرعَّاد المحلي الخياط، وكان يعيش بالمحلة الكبرى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، ويزاول حرفة الخياطة، ويعيش من كسبها عيشة راضية يمارس الأدب والشعر، وينفق مما تدرُّ عليه حرفته من رزق حلال متعففًا عن سؤال أصحاب الجاه والأموال.

وكانت المحلة الكبرى في زمانه مدينة صناعية مزدهرة شهيرة بصنع المنسوجات الحريرية ومصدرًا هامًّا للمنسوجات الأخرى الشعبية.

وكان حكامها على كثير من الثراء نتيجة ازدهار الصناعة في بلدهم ومن ثَمَّ قصدهم الشعراء مادحين راغبين في العطاء السخي، وقد قال ابن الجزار (انظر مادة الجزار) في هذا الصدد:

تارة أغتدي بدمياط أرجو

الرزق منها وتارة «بالمحلَّة»

ومن جهة أخرى كانت المحلة الكبرى في ذلك الحين موطنًا لكثير من العلماء، وأهل الفكر والثراء الذهني، والثراء اليدوي، وفي هذه البيئة الغنية ماليًّا وثقافيًّا قضى ابن الخطاب حياته. ويقول ابن شاكر إن ابن الخياط اقتنى من صنعة الخياطة كتبًا كثيرة ثمينة مما يدل على ولعه بالعلم، والمعرفة، وقدرته المالية على شراء هذه الكتب الغالية الثمن، وقد مدحه السيوطي (انظر هذه المادة) لهذا السلوك الأخلاقي الحميد، وَيَرْوي له قوله:

إني إذا ما كانَ لي صاحبٌ

أرْعاهُ في الغائبِ والشاهدِ

أصدقهُ الوُدَّ فإن ذَمَّني

لم أكُ غيرَ الشاكِرِ الحامِدِ

ولستُ أَرْضَى أنْ أكونَ امْرَأً

يقابلُ الفاسدَ بالفاسدِ

ويتضح من هذه الأبيات أن نفسية ابن الخياط كانت تنطوي على طيبة القلب، والصفح عن المسيء.

وقد شيد لنفسه دارًا بالمحلة، وذلك يدل على أنه كان ذا شيء من اليسر في المعيشة، وأن مهنة الخياطة كانت تدرُّ عليه كسبًا يقيه شر الفاقة والعوز.

أما عن مراحل تعليمه فيقول مؤرخو سيرته إنه التقى بابن الحاجب (انظر هذه المادة) العالم السكندري الكبير، وصاحب الكافية في النحو، والشافية في الصرف، وإنه درس عليه علوم اللغة العربية ومن ثَمَّ اعتبره السيوطي «نحويًّا»، وترجم له في كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، كما راسل أئمة الأدب، وشيوخه، وتعرف على كثير منهم، وقد بعث بالأبيات الآتية إلى «بهاء الدين بن النحاس» (انظر مادة ابن النحاس) شيخ اللغة العربية في الديار المصرية:

سَلِّمْ على المَوْلى البهاءِ وَصِفْ لَهُ
شَوقي إليه وأنَّني مَمْلوكُهْ

أبدًا يحرِّكُني إليهِ تَشَوُّقي
جسمي به «مشطورة منهوكه»

لكِنْ نحلتُ لبعدِهِ فكأنني
«ألفٌ» وليسَ بممكن «تحريكه»

وقد اشتهر الرعَّاد بن الخياط بشعره بالمحلة الكبرى، والتقى فيها بالبوصيري (انظر مادة سيدي البوصيري) حينما كان موظفًا بهذه المدينة التي لم ينج موظفوها من هجائه اللاذع، وقامت بينه وبين الرعَّاد بن الخياط مهاجاة «الذي يبدو أنه كان – إلى جانب علمه – ناقدًا بصيرًا بمواطن الضعف والقوة فيما يقرأ ويسمع، ونجد في شعر البوصيري ما يدل على هذا النقد الذي وجهه ابن الخياط لبعض أشعاره إذ يقول البوصيري:

لقد عابَ شعري في البرية شاعرٌ
وَمَنْ عابَ أشعاري فلابُدَّ أَنْ يُهْجا

وشعريَ بحرٌ لا يُوافيهِ ضفْدَع
ولا يقطَعُ «الرعَّادُ» يومًا له لُجَّا

ويبدو الطابع الديني واضحًا في شعر ابن الخياط ذلك لأن الزمن الذي عاش فيه كان شديد الحساسية بهذا الطابع نتيجة الصراع المرير الذي كان من سمات ذلك العصر والذي استحكمت حلقاته بين الغزاة الصليبيين وبين المسلمين الذين لم يبخلوا بكل ما وسعت طاقتهم من إمكانات للذود عن كيانهم، وتخليص أوطانهم من الاستعمار الصليبي المتعصب، يضاف إلى ذلك أن ابن الخياط كان يعيش في الريف الحريص كل الحرص على التمسك بالدين ليكون أهم مصادر ثقافته، ومن ثَمَّ جاء شعره متضمنًا الكثير من نصوص القرآن الكريم، ومن المعاني التي تدل على هذه النصوص حتى فيما نظم من قصائد تتسم بالاتجاه الغزلي، ومن أمثلة هذا الشعر الغزلي المتضمن نماذج من عبارات قرآنية قوله:

نارَ قلبي لا تَقَرّي لَهَبًا
وامْنعي أجفانَ عَيْني أَنْ تناما

فإذا نحنُ اعتنقْنا فارْجعي
نارَ إبراهيمَ بردًا وسلاما

ومن شعره في هذا المعنى أيضًا قوله:

قالوا وقد شاهَدوا نُحولي
إلامَ في ذا الغرامِ تَشْقَى

فَنَيْتَ أو كدتَ فيهِ تَفْنى
وأنتَ لا تستفيقُ عِشقا

فقلتُ لا تعجبوا . . . لهذا

ما كانَ لله فهو يبقى

وتدل هذه الأبيات الأخيرة على التصوف الذي كان يسود عصره والذي كان من أساطينه: أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي، أبو الحسن الشاذلي، أبو العباس المرسي، وتوفي ابن الخياط عام ٧٠٠ هـ (١٢٠٠م)، ودفن بالمحلة الكبرى .

٩٣- ابن الدرَّاج - حارة - بقسم الرمل

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن الدراج الأندلسي القشطلي، كان شاعرًا وكاتبًا عند المنصور بن أبي عامر، وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين، والعلماء المتقدمين، وهو عند أهل المغرب من فحول الشعراء ويقارن ببشَّار بن برد، وأبي الطيب المتنبي (انظر مادتي بشَّار والمتنبي)، وله ديون في جزأين، وكانت ولادته في شهر المحرم سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) .

وقد أمره المنصور بن أبي عامر أن يعارض قصيدة أبي نواس التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد صاحب الخراج بمصر التي أولها:

أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ

وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسيرُ

فعارضها بقصيدة بليغة من جملتها الأبيات التالية:

ألم تعلمي أن الثواء هو النَّوَى

وأن بيوتَ العاجزين قُبُور

تخوفني طول السفار وأنه

لتقبيل كف العامري سفير

دعيني أرد ماء المغارز آجنًا

إلى حيث ماء المكرمات نمير

فإن خطيرات المهالك ضمن

لراكبها أن الجزاء خطير

ومن قوله في وصف أسطول ابن أبي عامر:

تحمَّل منه البحرُ بحرًا من القَنا

يَروعُ بها أَمواجَهُ وتهولُ

لكلِّ حمالاتِ الشراعِ كأنَّها

وقدْ حملتْ أُسْدَ الحقائق غِيلُ

إذا سابقتْ شَأوَ الرياحِ تخيلت

خيولاً مَدَى فرسانهنَّ خيولُ

سحائبُ تُزجيها الرياحُ فإنْ وفتْ

أطافتْ بأجيادِ النعامِ فيولُ

أراقمُ تحوي ناقع السمّ مالها

بما حملتْ دونَ العِداةِ مَقيلُ

وتوفي ابن الدرَّاج ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا .

٩٤- ابن دُرَيْد - حارة - بقسم الرمل

اسمه الكامل أبو بكر محمد بن الحسن بن عتاهية الأزدي، وكنيته ابن دُرَيْد وينسب نفسه إلى قحطان، وقد ولد في عهد الخليفة المعتصم خلال عام ٢٣٣هـ (٨٣٧م) بمدينة البصرة «في سكة صالح» ودرس في مسقط رأسه على نخبة من العلماء منهم أبي حاتم السجتاني (انظر هذه المادة)، والرياشي وغيرهما، وعند وقوع مذبحة الزنج في البصرة عام ٢٥٧هـ (٨٧٠م) هرب مع عمه الحسين الذي كان يتولى تربيته إلى عمان، وأقام بها ١٢ عامًا، ثم ذهب إلى فارس حيث أقام ببلاط آل ميكال - وكان خطيبًا لديهم - فقلدوه ديون فارس، وكتب لهم «كتاب الجمهرة في علم اللغة» وأهداه إلى أبي العباس إسماعيل بن عبد الله بن ميكال ونظم في مدحه قصيدته المعروفة باسم «المقصورة» لأن قافيتها تنتهي بالألف المقصورة، وعند عزل آل ميكال عام ٣٠٨هـ (٩٢٠م) عاد إلى بغداد فأجرى عليه الخليفة المقتدر خمسين دينارًا في كل شهر، وعلى الرغم عن أنه كان سكيرًا مسرفًا عمَّر طويلاً، ثم أصيب بالفالج، وهو في التسعين من عمره، وتوفي عام ٣٢٣هـ (٩٣٤م).

ويعد ابن دُرَيْد أكبر علماء عصره وأقدرهم على نقد الشعر، ولذا كان يلقب «بأعلم الشعراء وأشعر العلماء»، وله علاوة على موسوعته الكبيرة «الجمهرة» عدة مصنفات لغوية منها «السرج واللجام» وكتاب «الخيل الكبير» وكتاب «الخيل الصغير» وكتاب «السلاح» وكتاب «الإيواء» وكتاب «الملاحن» وكان يكتب في اللغة بدافع الغيرة الوطنية فألّف كتاب «الاشتقاق» عند الشعوبية، ومن تلاميذه الشرافي، المرزباني، أبو الفرج الأصفهاني (انظر هذه المادة)، وفي كتاب الاشتقاق حاول ابن دريد تعليل الأعلام العربية كأسماء القبائل والأمكنة في شبه الجزيرة العربية، فيقول مثلاً: إن «قضاعة» سميت كذلك لأنها رحلت من جنوب الجزيرة إلى شمالها أي أنها مشتقة من فعل انقضع الرجل عن أهله أي بعد وتغرب.

٩٥- ابن دقماق - زقاق - بقسم الجمرك

هو صارم الدين إبراهيم بن محمد المصري، ولقبه دقماق من كلمة تقمق التركية، ومعناها المطرقة، ألّف كتابًا عن طبقات فقهاء الحنفية بعنوان «نظم الجمان» ويقع في ثلاثة مجلدات تتناول في الأول الإمام أبا حنيفة، وقد عوقب بالجَلد وبالزجّ في السجن لأنه انتقص في كتاباته من قدر الإمام الشافعي، وصنف كتاب «نزهة الأنام» في تاريخ مصر إلى عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)، ويقع في ١٢ مجلدًا، وهو كتاب تاريخي هام، ومن مؤلفاته الأخرى «تاريخ حكام مصر» إلى عام ٨٠٥هـ (١٤٠٢م)، وقد كتبه بأمر الملك الظاهر برقوق الذي ألّف تاريخه في كتاب خاص بعنوان «عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برقوق»، ثم اختصر هذا الكتاب في مؤلف أسماه «ينبوع المزاهر»، وقد استفاد العيني والعسقلاني من مؤلفات ابن دقماق في التاريخ، وكتب ابن دقماق مؤلفًا عن مدينتي القاهرة والإسكندرية، ولكنه مفقود، ومن أمهات كتبه مؤلفه المسمى «الانتصار لواسطات عقد الأمصار» ويتضمن تاريخ عشر مدن إسلامية أفرد لكل منها مجلدًا على حدة، ومن بين هذه المدن القاهرة والإسكندرية، ومازال الجزءان المتعلقان بهما محفوظين بالقاهرة، وقد نشرهما المستشرق «فولرز Vollers» الذي يؤكد أن ابن دقماق اعتمد في تاريخه على مصادر أقوى من تلك التي اعتمد عليها المقريزي الذي تتلمذ على ابن دقماق دون أن يفيد من مصنفاته،

ولابن دقماق كتب أخرى أهمها «الكنوز المخفية في تراجم الصوفية»، وكتاب في نظام الجيش عنوانه «ترجمان الزمان» وكتاب في تفسير الأحلام باسم «فرائد الفوائد» ويقول حاجي خليفة: إن ابن دقماق توفي عام ٨٠٩هـ (١٤٠٦م) وقد نيف على الثمانين من عمره.

٩٦ - ابن الدهّان - شارع - بقسم مينا البصل

هو ناصح الدين بن الدهّان، كان أحد علماء النحو المبرزين، وقد ولد في بغداد، وكان معروفًا «بسيبويه عصره» لما كان عليه من تبحر في علم النحو وقواعده، ومن تلاميذه العظام مجد الدين أبو السعادات بن المبارك بن محمد الملقب بابن الأثير (انظر هذه المادة) صاحب التاريخ القيم، وقد درس ابن الأثير على ابن الدهّان علوم النحو بمدينة الموصل.

وألّف ابن الدهان في النحو كتاب «التكملة» وهو مؤلف ضخم في ثلاثة وأربعين مجلدًا، كما ألف كتابًا آخر بعنوان «سرقات المتنبي».

وكانت وفاته بمدينة الموصل عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م)، ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان» إن ابن الدهّان يصل نسبه إلى ابن أبي اليسر الأنصاري، وإن كنيته هي: أبو سعيد بن المبارك، وقد درس الحديث على أبي القاسم هبة الله بن الحصين، وأبي غالب أحمد ابن الحسن بن البناء وغيرهما، وإن له في النحو تصانيف كثيرة مفيدة غير كتاب التكملة، منها «الفصول الكبرى»، و«الفصول الصغرى»، وشرح كتاب «اللمع»، لابن جنيْ أسماه «الغُرَّة» وهو من أحسن الشروح التي كتبت عن كتاب «اللمع»، ومن كتبه: العروض، والدروس في النحو، والرسالة السعيدية في المآخذ الكندية في سرقات المتنبي.

ولما انتقل من بغداد إلى الموصل ليعيش في كنف الوزير جمال الدين الأصبهاني المشهور «بالجَواد» الذي أكرم وفادته وأحسن إليه، بلغه أن كتبه ببغداد غرقت فأرسل من أحضرها، ووجدها تالفة، وأشاروا عليه بأن يصلح شأنها بالبخور، فعكف على ذلك حتى أصيب بالعمى.

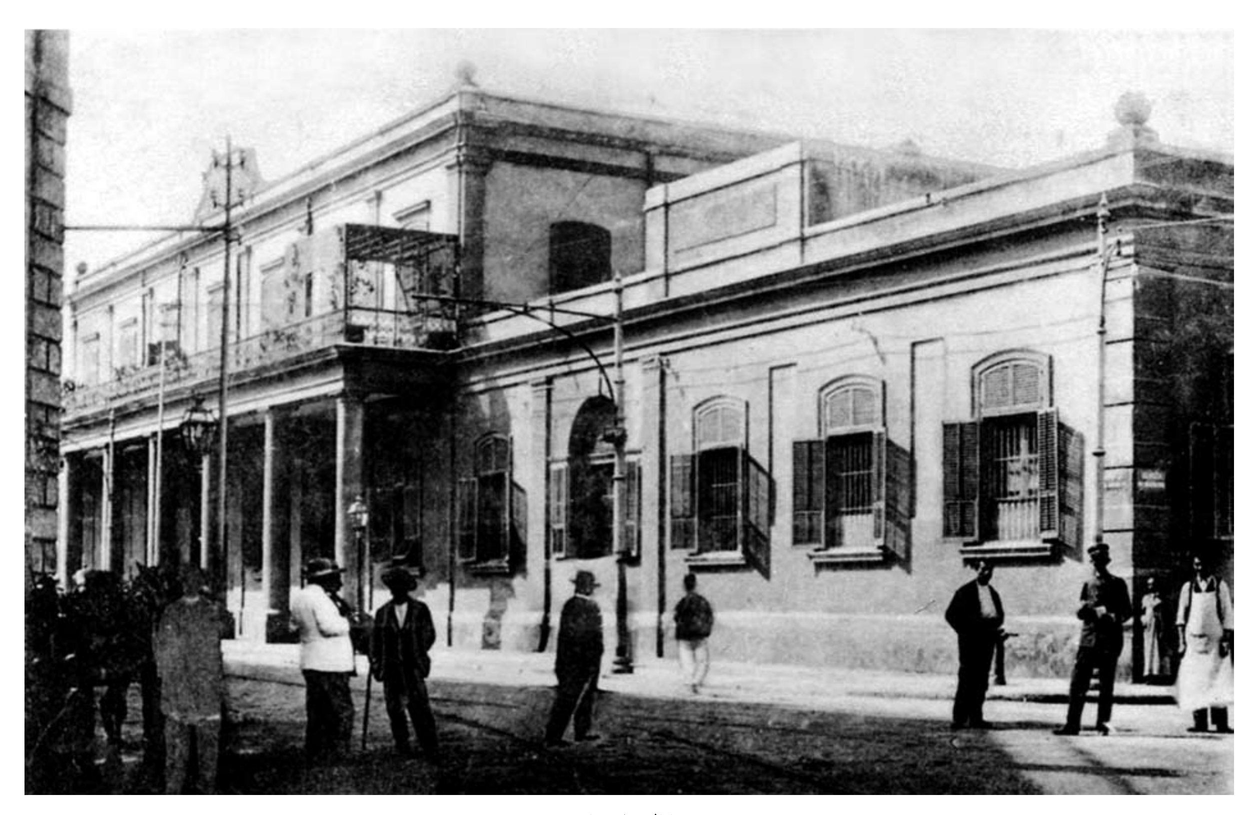
وقد انتفع بعلمه الغزير عدد كبير من طالبي العلم، وكان إلى جانب تبحره في علم النحو واللغة شاعرًا مجيدًا، ومن قوله في الحكمة:

لا تجعلْ الهزلَ دأبًا وهو مَنْقصَةٌ
وَالجَدُّ تَعلو بهِ بَيْنَ الوَرَى القِيَمُ

ولا يَغُرَّنْكَ مِنْ مَلكٍ تَبَسُّمُهُ
ما تصخبُ السُّحْبُ إلا حينَ تَبْتَسِمُ

وقد ذكره العماد الكاتب في كتابه الخريدة وأثنى عليه، وكان لابن الدهان ولد هو أبو زكريا يحيى بن سعيد، وكان أديبًا شاعرًا.

ويذكر ابن خلكان أن ابن الدهان ولد بمدينة بغداد في اليوم السادس عشر من رجب عام ٤٩٤هـ (١١٠١م)، ومن ثَمَّ يكون قد بلغ حوالي ٧٤ عامًا عند وفاته، ودفن بالموصل في مقبرة المعافى ابن عمران بباب الميدان.



بورصة مينا البصل عام ١٩٠٠م

٩٧- ابن دينار - حارة - بقسم محرم بك

٩٨- ابن دينار - شارع - بقسم محرم بك

هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرُّعيني القيرواني وكنيته ابن أبي دينار، مؤرخ عربي ألف كتابًا في التاريخ أسماه «المونس في أخبار إفريقية وتونس» وذلك عام ١١١٠هـ (١٦٩٨م)، أو في عام ١٠٩٢هـ (١٦٩٨م) وفاقًا لما ذكر في أحد المخطوطات، وذكر ابن أبي دينار في مقدمة كتابه أنه قسمه إلى ثمانية أقسام؛ الأول في وصف تونس، والثاني في وصف إفريقية (أي القطر التونسي)، والثالث في غزو العرب لإفريقية، والرابع في تاريخ الدولة العبيدية (أي الفاطمية، نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسسها)، والخامس في تاريخ أهل صنهاجة (وهي إحدى القبيلتين الكبيرتين في الأقطار المغربية، والثانية هي قبيلة زناته، والصنهاجيون معظمهم جزائريون)، والسادس في تاريخ بني حفص أمراء الدولة الحفصية التي حكمت البلاد التونسية وأجزاء أخرى من المغرب العربي، والسابع والثامن في تاريخ الحكم التركي، أما خاتمة الكتاب فيتحدث فيها ابن أبي دينار عن الأحداث المتأخرة في البلاد التونسية، وقد طبع الكتاب في تونس عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) ونقله إلى الفرنسية (بيلسييه وريموزا Pellissier

et Remusat)، وصدرت الترجمة بباريس عام ١٢٦١هـ (١٨٤٥م).

٩٩- ابن ذنبل - شارع - بقسم محرم بك

هو الشيخ أحمد بن ذنبل الرمَّال المؤرخ المصري، وكان شاهد عيان للفتح العثماني وألّف كتابًا في ذلك طبع مرتين، وكانت الطبعة الثانية في عهد الثورة أي بعد عام ١٩٥٢.

١٠٠- ابن راشد - شارع - بقسم العطارين (فاميلياداس سابقًا)

فقيه ثقة من كبار حفّاظ الحديث توفي عام ١٥٣هـ (٧٧٠م).

١٠١- ابن الراعي - شارع - بقسم الرمل

أديب ومؤرخ وله كتب عدة، وتوفي عام ١١٨٠هـ (١٧٦٦م).

١٠٢- ابن رافع - شارع - بقسم محرم بك (فيلادلف سابقًا)

يذكر المؤرخون اثنين من علماء الحديث يحملان لقب «ابن رافع» وهما:

١) **أبو المعالي بن رافع**: وكان من علماء الإسكندرية الذين أسهموا بجهود مشكورة في تعليم السكندريين من الطلاب بالمدرسة السلفية الشافعية التي شيدها حاكم الإسكندرية «أبو الحسن علي بن السلار» في سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)، وكانت بالقرب من مدرسة العالم الزاهد «ابن أبي رُنْدُقة الطرطوشي» (انظر مادة سيدي الطُّرطوشي) أي في نهاية شارع الباب الأخضر بالقرب من باب الكرسته، وكانت مدرسة الإمام الطُّرطوشي مخصصة لدراسة الفقه المالكي بجانب الحديث واللغة.

ويرجع سبب تشييد ابن السَّلار للمدرسة السلفية الشافعية إلى بغض هذا الحاكم لمذهب الشيعة الذي كان سائدًا في مصر طوال حكم الخلفاء الفاطميين، وكان هو شافعيًّا سنيًّا، وكان معظم أهل مصر لا يؤمنون بالشيعة.

وهكذا قامت هذه المدرسة للعالم «الحافظ صدر الدين أبو الطاهر السلَفي» لمقاومة المذهب الشيعي، ولنشر الدين الإسلامي على المذهب الشافعي بجانب مدرسة العالم الورع «الطُّرطوشي» التي كانت مهدًا للمذهب المالكي بالإسكندرية.

وإذا كان الإمام «الطُّرطوشي» قد اتبع في أسلوب تعليم تلاميذه الحديث، والفقه، واللغة، نظام مدرسة الإسكندرية القديمة التي طبقت شهرتها الآفاق في العهد البطلمي، وذلك بأخذ الطلاب إلى الجهات الخلوية وإلقاء الدروس عليهم في الهواء الطلق، فإن الإمام «الحافظ السلفي» (انظر مادة السلفي) كان يتبع في التعليم أسلوب الجامعات الحديثة فاتخذ من بعض العلماء الذين كانوا من مريديه معيدين يرددون على الطلاب ما يدرّسه شيخهم السلفي، ليستوعبوا الدروس، ويحفظوا دقائقها.

وكان من بين هؤلاء العلماء المعيدين «أبو المعالي ابن رافع» الذي وصفه أستاذه السلفي بأنه كان من أهل العلم والتقى وأنه لازمه منذ إنشاء المدرسة السلفية، وعاونه في إخلاص في

التدريس، فكان يعيد الدروس على أربعين من الطلبة كل يوم، ويؤم الناس بالمدرسة في الصلوات الخمس يوميًّا.

وقد بدأ «ابن رافع» حياته خيَّاطًا ثم اشتغل بالعلم، وتفرغ له بكليته حتى وافته المنية عام ٥٥١هـ (١١٥٦م) ودفن بالإسكندرية في مكان أعتقد أنه قريب من قبر أبي الطاهر السلفي بمسجد القاضي سند بن عنان في نهاية شارع الباب الأخضر.

٢) ابن رافع: وهناك ابن رافع آخر لم أعثر على أسمائه كاملة، وليس من شك في أنه أحد أحفاد أبي المعالي بن رافع المدونة ترجمة حياته قبل، وقد كان فقيهًا من حفّاظ الحديث، وله مؤلفات عدة في الفقه واللغة، وهو من مواليد القطر المصري، ويحتمل جدًّا أنه توفي بالإسكندرية، وكانت وفاته خلال عام ٧٧٤هـ (١٣٧٢م).

أما ترجمة صاحب الشارع القديم فاطلبها في «فيلادلف»

١٠٣ – ابن رباح – حارة – بقسم باب شرقي

هو بلال بن رباح مولّد من مولدي بني جُمَح وقيل إنه مولد من مولدي السَّرَاة، وكان أبوه رباح عبدًا حبشيًّا وسبيًّا من موالي خلف بن وهب الجُمحي، وقد أعتقه ووهبه حريته وجعله قيِّمًا على إدارة شؤون ضيعته في السَّرَاة، أما أمه حمامة – أو سكينة في بعض الروايات – فكانت حبشية سبية هي أيضًا، جاءت من الحبشة مع الجيش الحبشي لغزو مكة عام الفيل سنة ٥٧١م، وعقب هزيمة هذا الجيش سبيت حمامة واستولى عليها سحيم بن وهب الجمحي وزوجها من مولاه رباح، وكان مولودهما الأول رباح ثم خالد ثم غفرة، وقد صار بلال مولى لخلف بن وهب الجمحي وانتقلت ملكيته إلى أمية بن خلف بعد موت أبيه، وبقي بلال يرعى الإبل لسيده في السراة حتى ظهور الإسلام، ويوصف بلال بأنه أسود، طويل من الرجال كأنه النخلة السموق، بصاص من السواد، عيناه حجرتان كأنهما العقيق، جهوري الصوت، عريض المنكبين، وكان من عظم خلقته إذا نظر إليه أحد يهابه، وكان ضامر الوجه، وقد وخط المشيب شعره.

وكان بلال في طليعة المؤمنين بالرسالة المحمدية لتفتح قلبه للإيمان بالله وزاد هذا الإيمان رسوخًا في نفسه ما كان يلاقيه من اضطهاد على أيدي أسياده، وتذكر الروايات أن بلالاً كان في جملة السبعة الأوائل الذين أظهروا إسلامهم، وتقول روايات أخرى إنه كان أول الموالي إسلامًا، ويدل على ذلك قول رسول الله عليه الصلاة والسلام «بلال أول ثمار الجنة»، وعُذِّبَ بلال مع أوائل المسلمين، ويقول ابن هشام صاحب السيرة النبوية: «إن ورقة بن نوفل كان يمر ببلال وهو يُعَذَّب ويقول أَحَدٌ أَحَد، فيقول ورقة: أَحَدٌ أَحَد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من جمح، فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتّخذنَّه حنانًا»، وكان أمية بن خلف يمنع الطعام والشراب عن بلال ويضع الأثقال على صدره بعد أن يطرحه فوق الرمضاء ويقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت أو تعبد اللات والعزّى . . .» فيجيبه بلال: «أَحَدٌ أَحَد»، ومرَّ أبو بكر الصديق ببلال وهو يُعَذَّب وكانت دار أبي بكر في جمح فرق لحاله وقال لأمية ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: «أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى»، فقال أبو بكر: «أفعل!!» ويقال إن أبا بكر اشتراه بسبع أوراق ثم أعتقه ثم جعله خازنًا له، وفي رواية أخرى أن رسول الله هو الذي أعتقه كما أعتق عامر بن فهيرة.

وهاجر بلال إلى المدينة وكان أغلب المهاجرين إليها من المستضعفين الذين تركوا أموالهم وأهليهم في مكة ونجوا بأنفسهم إلى يثرب، وفي يثرب آخى النبي عليه السلام بين بلال وبين أبي رويحة الأنصاري، ثم آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب من المهاجرين، وقد رافق بلال النبي في مكة وكان له المؤنس والمطيع وقاسى معه الشدائد في نصرة دين الله، فقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: قال النبي: «لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أُذيت في الله وما يؤذى أحد. ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواري إبط بلال»، ورافق بلال النبي في المدينة وشاركه في معظم المشاهد والغزوات، وأول موقعة شارك فيها بلال هي موقعة بدر، ويقال إنه هو الذي حثّ المسلمين على قتل أمية بن خلف الذي أسرف في تعذيبه بمكة قبل أن يشتريه أبو بكر الصديق، فلما رآه أسيرًا لدى عبد الرحمن بن عوف أخذ يصيح عاليًا: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا»، وأخذ يكرر هذه الجملة حتى تجمّع عليه المسلمون، وقد اشترك بلال وخبيب في قتل أمية فذهبت روحه إلى الحجة، ثم رافق النبي عام فتح مكة، ولما فُتِحت دخلها النبي وأمر بهدم الأصنام والأوثان وأمر بلال بالصعود على ظهر الكعبة ويجهر بالأذان ولقد أكبر النبي الكريم أبا الإسلامية السمحة بلالاً فجعله مؤذنه الأول وكان بلال جهوري الصوت ونديِّه، وجاء في كثير من الروايات عن بدء استعمال الأذان أن النبي لما حل بالمدينة كان الناس يجتمعون ليصلي بهم رسول الله دون دعوة، فاقترح بعض الصحابة أن تنصب راية لتدل المسلمين على مواقيت الصلاة، واقترح بعض آخر منهم استعمال البوق فاستعمل ثم كرهه النبي لاستعمال اليهود إياه، ثم استعمل الناقوس، وبينما هم كذلك إذ رأى عبد الله بن زيد (انظر هذه المادة) في منامه شخصًا علّمه الأذان، فأخبر النبي بذلك فقال النبي: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله»، وأمره أن يلقيها على بلال ليؤذّن بها لأنه أندى صوتًا، وروي أن بلالاً كان يؤذن فوق سطح بيت امرأة من بني النجّار؛ لأن هذا البيت كان أعلى منزل حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة فيأتي ويجلس على البيت فينتظر الفجر فإذا رآه تمطى ثم قال: «اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك، وكان إذا أذّن يضع إصبعه في أذنه، ومن جملة المؤذنين الذين شاركوا بلالاً في تلك الفترة ابن أم كلثوم وأبو محذورة الذي كان يؤذن في مكة أيضًا. وقد بقي بلال مؤذن رسول الله طوال حياته، ولم يؤذن لأحد بعد النبي كما يقول الواقدي، ويوم وفاة الرسول أذّن قبل أن يقبر فكان إذا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله انتحب الناس في المسجد، وقد شرفه النبي بأن أناط به حمل «العَنَزَة» أمامه في صلاة الجماعة أيام الأعياد الكبرى (والعَنَزَةُ) شبيهة بالعكاز لها زج من أسفلها وجمعها عَنَزات وعَنَز، وكان يقوم على المؤونة خلال الرحلات ويسميه ابن حجر العسقلاني خازن النبي، وتحرَّق بلال شوقًا إلى الاشتراك في الجهاد بعد وفاة رسول الله فأجاب أبو بكر وعمر طلبه فشهد مع أبي عبيدة فتح الشام، وعندما زار عمر ابن الخطاب الشام رجاه أن يؤذّن، ففعل بعد إلحاح وتخلل أذانه زفرات جميع الحاضرين، وتوفي بلال بدمشق بسبب تفشي الطاعون هناك سنة ٢٠هـ (٦٤١م)، وقيل سنة ١٨هـ كما قيل سنة ٢١هـ، وقد مات بسبب هذا الوباء الكثير من الصحابة ومنهم أبو عبيدة ابن الجراح (انظر هذه المادة)، ودفن بلال في مقبرة بدمشق عند الباب الصغير، والراجح أن عمره

كان ٦٣ عامًا لأنه ترب الخليفة أبي بكر، وفي رواية أخرى أنه دفن في مدينة حلب.

١٠٤- ابن ربيعة - زقاق - بقسم الجمرك

لقب «ابن ربيعة» يحمله ثلاثة من شعراء الجاهلية، وفقيه من فقهاء صدر الإسلام وهو:

١) **لبيد بن ربيعة**: وهو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري أحد أشراف الشعراء، والقواد، والمعمرين الأجواد، وينتمي بالنسب إلى بني عامر بن صعصعة إحدى القبائل المضرية، وأمه من بني عبس، وكان في الجاهلية شجاعًا مقدامًا فاتكًا بأعدائه، كريمًا، مبرزًا في الشعر، وقد شهد له النابغة، وهو مايزال غلامًا، بأنه أشعر هوازن حين سمع معلقته، ولما ظهر الإسلام اعتنق الدين المحمدي، وتنسك، وحفظ القرآن كله حتى لم يرو له في الإسلام غير بيت واحد وهو:

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسِه
والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

ولما فتح المسلمون الأمصار أقام بالكوفة حتى وافته المنية عام ٤١هـ (٦٦١م)، وتقول بعض الروايات أنه ولد عام ٥٦٠م، فإذا صح هذا القول يكون قد عاش ١٠١ من الأعوام، وهذه الروايات تتمشى مع الواقع أكثر من الأخرى التي تقول إنه عاش ١٣٠ سنة، ولبيد بن ربيعة شاعر يجيد الفخر والرثاء في أسلوب جزل عذب الجرس، وحكمة تهدف إلى الموعظة، ومن أبيات معلقته الشهيرة:

عَفت الديارُ مَحلُّها فمقامُها
بِمِنىً تأبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

إنَّا إذا التقت المجامع لم يَزَلْ
مِنَّا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُها

ومقسِّمٌ يعطي العشيرةَ حقها
ومُغَذمِرٌ لحقوقِها هَضَّامُها

إلى أن يقول:

فاقنَع بما قسمَ المليكُ، فإنما
قَسَمَ الخلائقَ بيننا عَلاّمُها

وإذا الأمانةُ قُسِّمتْ في مَعْشَرٍ
أَوْفى بأوفر حظِّنا قَسَّامُها

٢) **كُلَيْبُ بن ربيعة التغلبي**: شاعر من عرب الجاهلية وقد كان السبب - وفاقًا لما تقوله الأسطورة - في إضرام نار حرب البسوس، والبسوس في هذه الأسطورة امرأة وجد كليب ناقتها في مرعاه فقتلها، ولما كانت البسوس خالة جَسَّاس بن مرة البكري فقد هبَّ لنصرة خالته، وقتل كُلَيبًا زوج أخته، وعندها قامت الحرب بين قبيلتي بكر وتغلب ودامت - على ما يقال - أربعين عامًا أي إلى حوالي ٤٩٠م.

٣) **عديّ بن ربيعة (وكنيته المهلهل)**: وهو أخو كُلَيْب وسمي المهلهل لأنه هلهل القريض (أي أرسله كما حضره دون أن ينقحه)، ويكنى أيضًا بالزير سالم، ويقال إنه مات في حوالي عام ٥٧٠م، ويعد في أسطورة حرب البسوس بطلها الأول الذي لا يكف عن القتال حتى يأخذ بثأر أخيه كليب، وفي هذه المأساة نظم معظم شعره، وقد جاء في هذا الشعر إنذار

شديد لأفراد قبيلة بكر التي منها جساس قاتل كليب فيقول لهم:

آلَ بكرٍ انْشروا لي كُلَيْبًا

آل بكرٍ أَيْنَ أيْنَ الفِرارُ

والمهلهل هو أول من أطال القصيدة في الشعر الجاهلي فاقتربت في نظمها من الملحمة.

٤) **جعفر بن ربيعة**: وكان أحد تلاميذ الشيخ عبد الرحمن ابن هرمز (انظر مادة سيدي عبد الرحمن) وقد تخرج على يديه في الحديث، والفقه، وقواعد اللغة العربية، وزامل الإمام مالك (انظر هذه المادة) في الدراسة.

١٠٥- ابن رشد - حارة - بقسم المنشية

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويعرف عند الغربيين في القرون الوسطى باسم «أفروس Averroès»، ولد بمدينة قرطبة عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م)، وكان جده قاضي قرطبة وله مؤلفات قيمة وتولى أبوه القضاء أيضًا.

ودرس ابن رشد في قرطبة الطب والفقه، وفي عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م) سافر إلى مدينة مراكش بالمغرب الأقصى؛ حيث قدمه الفيلسوف «ابن الطفيل» (انظر هذه المادة) إلى أبي يعقوب يوسف أحد سلاطين دولة الموحدين فأكرم وفادته، وقد حثّه ابن الطفيل على شرح كتب أرسطو وقال له إن أمير المؤمنين يشكو من غموض فلاسفة الإغريق، وإن على ابن رشد أن يضطلع بشرحها.

ولقد ولي ابن رشد القضاء بإشبيلية عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) ثم وليه بقرطبة عام٥٦٧هـ (١١٧١م)، وعلى الرغم من أعباء هذا المنصب الكثيرة فقد استطاع تأليف أهم كتبه في تلك المدة، وفي عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) استدعاه الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف ليكون طبيبه الخاص بدلاً من ابن الطفيل الذي كان قد طعن في السن ثم بعثه الخليفة بعد ذلك إلى قرطبة قاضيًا لقضاتها.

وكان ابن رشد موضع رعاية المنصور خليفة أبي يعقوب يوسف في بداية حكمه، غير أنه فقد هذه الرعاية بعد ذلك؛ لأن المتكلمين كانوا قد عارضوا مصنفاته واتهموه بضروب من الزندقة، ومن أجل هذا الاتهام الجائر حوكم ونفي إلى أليسانة بالقرب من قرطبة، وأمر الخليفة - في الوقت نفسه - بإحراق كتبه في الفلسفة والإبقاء على كتبه الأخرى في الطب والحساب والمواقيت، وكان ذلك في حوالي عام ٥٩٢هـ (١١٩٥م).

ويسود الاعتقاد في أن الخليفة الموحدي - وكان من أنصار الفلاسفة - قد اتخذ هذا القرار إرضاءً لمسلمي الأندلس الذين كانوا أكثر تمسكًا بالسنّة المحمدية من البربر أهل شمال إفريقيا.

والواقع هو أن الخليفة المنصور كان في ذلك الحين مشغولاً بالجهاد ومحاربة النصارى في الأندلس، وما إن رجع إلى مراكش حتى ألغى أوامره السابقة وقرَّب إليه ابن رشد مرة أخرى، غير أن هذا الفيلسوف العالمي الفذ لم يستمتع طويلاً بحظوته لدى الخليفة؛ إذ وافته المنية في ٩ من صفر عام ٥٩٥هـ (١٠ ديسمبر عام ١١٩٨م) بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا ودفن بمدينة مراكش خارج باب تاغزوت.

وقد فقد معظم المتون العربية لمؤلفات ابن رشد، وبقي منها كتابه «تهافت التهافت» وهو ردّ على كتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالي (انظر هذه المادة)، وشروحه الوسطى على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، ورسالة في المنطق ملحقة بشرحيه على الكتابين الآنفي الذكر، وتعليق على بعض قطع من شرح الإسكندر الأفروديسي على كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو، والشرح الأكبر على كتاب «ما بعد الطبيعة»، ثم شروح صغيرة على جوامع كتب أرسططاليس وهي: الطبيعيات، والسماء، والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والنفس، وبعض مسائل أخرى خاصة بما وراء الطبيعة.

ولابن رشد رسالتان عن الصلة بين الدين والفلسفة إحداهما بعنوان «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، والأخرى باسم «مناهج الأدلة في علم الأصول»، وقد ترجمت الرسالتان إلى الألمانية ونشرتا بالقاهرة معًا بعنوان «كتاب فلسفة ابن رشد».

ومن جهة أخرى بقيت بعض مصنفاته مكتوبًا نصها العربي بحروف عبرية وهي: «مختصر في المنطق»، والشرح الأوسط لكتب «الكون والفساد» و«الآثار العلوية»، و«النفس»، وشرحه للطبيعيات الصغرى، وشرحه على «السماء والعالم»، و«الكون والفساد»، و«الآثار العلوية».

وشرح ابن رشد لكتب «أرسطو» التي ذاع صيتها على ثلاثة أنواع فيما يتعلق بكل شرح؛ إذ سمَّى هذه الشروح: الكبرى والوسطى والصغرى، وهذا التقسيم الثلاثي يتواءم مع مراحل التعليم الثلاثة المعروفة في الجامعات الإسلامية.

فالشرح الأصغر يدرس في العام الأول، والأوسط في العام الثاني، والأكبر في العام الثالث، وكانت العقائد تدرس على هذا النحو نفسه.

وما بقي من كتبه مترجمًا إلى اللاتينية والعبرية هو: شروحه الثلاثة على «الأنالوطيقا الثانية» و«الطبيعيات» و«السماء والعالم» و«النفس»، و«ما بعد الطبيعة»، وقد فقدت شروحه الكبرى على كتب أرسطو الأخرى، كما فقدت كل شروحه على كتاب الحيوان.

وكتب ابن رشد شروحًا لجمهورية أفلاطون (انظر هذه المادة)، ووجه النقد لمنطق الفارابي (انظر هذه المادة) وطريقته في فهم أرسطو، كما ناقش بعض نظريات ابن سينا (انظر هذه المادة) وعلق على عقيدة المهدي بن تومرت (انظر هذه المادة).

وألّف كتبًا مختلفة في الفقه منها: «كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، كما ألّف كتبًا في الطب والفلك، وكان لكتابه في الطب «الكُلّيات» الذي ترجم إلى اللاتينية بعض الشأن في العصور الوسطى، وإن كان هذا الكتاب لا يضارع كتاب «القانون» لابن سينا.

وليس من المستطاع اعتبار فلسفة ابن رشد فلسفة خاصة به ابتكرها بعقليته إذ ما هي فلسفة تنبع من معين تلك المدرسة التي قلد أفرادها اليونانيين وعرفوا «بالفلاسفة»، وقد أخذ بها من قبله الكِنْدي، والفارابي وابن سينا في المشرق، وابن باجة في المغرب (انظر مادة ابن باجة).

غير أنه خالف هؤلاء الفلاسفة الكبار في عدة مسائل من الدرجة الثانية، وترجع شهرته في الغالب إلى عمقه في التحليل

وقدرته على الإيضاح في الشروح وهما صفتان كانتا موضع تقدير العلماء في القرون الوسطى ولاسيما العلماء النصارى واليهود، وموضع تقدير رجال الدين على الرغم من أنهم كانوا يجدون في مذهبه خطرًا يهدد كيان العقيدة.

ويلاحظ أن المتكلمين في المشرق الإسلامي لم يترددوا في مهاجمة الفلاسفة في كثير من العنف، وكان كتاب «تهافت الفلاسفة» الذي وضعه الغزالي لنقد الفارابي وابن سينا، أهم عنصر لإثارة هذا الهجوم، أما في الغرب فقد هاجمهم متكلمو الأندلس من المسلمين ثم علماء اللاهوت من النصارى، وذلك عندما ترجمت شروحهم ولاسيما شروح ابن رشد، وقد حُرِم أساقفة باريس وأكسفورد وكانتربري خلال القرن الثالث عشر الميلادي قراءة مؤلفات ابن رشد للأسباب نفسها التي جعلت فقهاء الأندلس السنيين يحرمون قراءتها.

وأهم المسائل التي اتهم ابن رشد بالزندقة من أجلها: قِدَمُ العالم، وعلم الله وعنايته، وكلية النفس والعقل، والبعث في الآخرة، وقد يظهر ظل رقيق من الزندقة في هذه المسائل العويصة – ولكن الثابت هو أن ابن رشد لم ينكر العقيدة بل فسرها على نحو جعلها تُوائم الفلسفة.

ففي موضوع «قِدَم العالم» لم ينكر ابن رشد أن العالم مخلوق وإن كان يخالف المتكلمين بعض الشيء فيقول بأن الخَلْقَ لم يحصل دفعة واحدة ومسبوقًا بالعدم وإنما هو خلق متجدد آنًا بعد آن وبذلك التجدد يدوم العالم متغيرًا، ويفسر هذا الرأي بأن هناك قوة خالقة تعمل بحالة مستمرة لحفظ هذا العالم وبقائه ودوام حركته، ويرى أن الأجرام السماوية – بصفة خاصة – لا تستمر على وجودها إلا بالحركة التي تأتيها من القوة المحركة التي أثرت فيها منذ الأزل، ومن ثمّ فالعالم عنده قديم ولكنه معلول لعلة خالقه ومحركه، والله وحده قديم لا علة له.

أما فيما يتعلق «بعلم الله» فابن رشد يأخذ بالأصل الذي قال به الفلاسفة من قبل وهو: «أن المبدأ الأول لا يعقل إلا بذاته»، وعلى أساس هذا التأويل يستطيع المبدأ الأول الاحتفاظ بوحدانيته السرمدية؛ لأنه إذا عقل كثرة الموجودات صار متكثرًا في ذاته.

وإذا أطلنا النظر في هذا المبدأ الأصيل فإن الموجود الأول يجب ألاّ يتعدى حدود ذاته إذ لا يعقل غير ماهيته، ويترتب على هذا أن تصبح العناية الإلهية أمرًا مستحيلاً، وهذا هو المأزق الذي اجتهد المتكلمون أن يدفعوا الفلاسفة إلى الوقوع في شباكه.

غير أن مذهب ابن رشد كان أكثر مرونة مما ظنه المتكلمون، فهو يذهب في فلسفته إلى أن الله يعقل جميع الأشياء في ذاته، وهو لا يعقلها على نحو كلي أو جزئي كما نعقلها نحن وإنما على نحو أسمى من ذلك مما يصعب على إدراكنا تفهمه، فعلمه لا يمكن أن يكون كعلم الإنسان، إذ لو كان الأمر كذلك لكان لله شركاء في علمه، ومن ثمّ لا يكون إلهًا واحدًا لا شريك له.

يضاف إلى ذلك أن علم الله لا يستمد من الموجودات مثل الإنسان؛ لأنه علم لم تسببه الموجودات وإنما هو على عكس ذلك علة كل الموجودات، ومن ثمّ فليس من الصواب الأخذ بقول المتكلمين بأن مذهب ابن رشد ينكر العناية الإلهية.

أما عن «النفس» فقد اُتِّهم ابن رشد بأنه يرى أن النفس الفردية تندمج في النفس الكلية بعد الموت، وأنه ينكر تبعًا لذلك خلود كل نفس إنسانية على انفراد، غير أن هذا ليس من الصواب في شيء إذ يجب التمييز في مذهب ابن رشد بين «النفس» وبين «العقل» على غرار ما يذهب إليه غيره من الفلاسفة.

فالعقل مجردٌ غايةُ التجريد مخلص عن المادة، ولا يكون بالعقل إلا إذا اتصل بالعقل الكلي أو العقل الفعال، وما نسميه عقلاً عند الإنسان ليس إلا قوة أو استعدادًا لقبول المعقولات الصادرة عن العقل الفعَّال وهي ما تسمى «بالعقل المنفعل» وهي ليست موجودة بالفعل وإنما يجب أن تخرج إلى الفعل وأن تصير «عقلاً مستفادًا»، فهي إذن تتصل بالعقل الفعَّال الذي هو محل المعقولات الأزلية الأبدية، وباتصالها بهذا العقل الفعَّال تصير بدورها أبدية.

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى النفس؛ لأنها عند هؤلاء الفلاسفة القوة المحركة التي تحيي الأجسام الطبيعية الآلية – أي العضوية – وتغذيها وتنمِّيها، فهي إذن نوع من القوة التي لها القدرة على إحياء المادة، وهذا النوع ليس خالصًا من غواشيها على غرار العقل إذ هو شديد الاختلاط بها؛ ولذا فالنفس قد تكون مكونة مما يشبه المادة أو من مادة بالغة اللطف، وهذه النفوس الإنسانية صورة للأجسام وهي لذلك لا تَفْنَى معها بل تبقى بعدها وتستطيع أن تحيا منفردة بعد فناء الأجسام.

وليس هذا البقاء عند ابن رشد إلاّ مجرد إمكان فحسب، فهو لا يعتقد أن الأدلة الفلسفية البحت تستطيع تقديم برهان قاطع على خلود النفس، إذا تصورناها على هذا النحو، وقال إن حل هذه المسألة متروك إلى الوحي، وقد ذكر هذا الرأي في كتابه «تهافت التهافت».

واتهم المتكلمون ابن رشد بأنه ينكر البعث للأجسام مع أن مذهبه في هذه المسألة أقرب إلى التمشي مع العقيدة منه إلى إنكارها، فهو يقول إن أجسامنا في الحياة الأخرى لن تكون الأجسام عينها التي لنا في هذه الحياة؛ ذلك لأن الجسم الذي يفنى لا يُبعَث بعينه وإنما يبعث شيء يشبهه، وستكون الحياة الأخرى أكثر كمالاً من الحياة الدنيا، ومن ثمّ فإن أجسامنا هناك سوف تكون أكثر كمالاً منها في الحياة الدنيا، ولا يُقرِّ ابن رشد تلك الأساطير والتخيلات التي تقال عن الحياة الأخرى.

ولمهاجمة أهل السنة لابن رشد أكثر مما فعلوا بالنسبة إلى الفلاسفة الذين سبقوه فقد حدد الصلة بين الحكمة والشريعة للرد عليهم وبسط مذهبه في هذه المسألة في الرسالتين المعنونتين «بفصل المقال» و«الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة».

وأول مبادئه في هذه الصلة هو أن الحكمة ينبغي أن تتمشى مع الشريعة وقد أخذ بهذا المبدأ كافة فلاسفة الإسلام، وهناك حقيقتان هما الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية ويجب أن تتفقا معًا، فالفلاسفة أنبياء يتوجهون بتعاليمهم إلى العلماء خاصة دون سواهم، ويجب ألاّ تتعارض تعاليمهم مع تعاليم الأنبياء الذين أُرسلوا إلى جمهور الناس بنوع خاص، ويجب أن تؤدي التعاليم الفلسفية إلى الحقائق الدينية عينها ولكن في أسلوب أكثر كمالاً وأقل مادية.

ويتضح من هذا الرأي أن ابن رشد استطاع أن يجمع بين الحكمة والشريعة بوساطة التأويل وهذا هو نفس ما فعله

بالنسبة إلى الجمع بين الأدلة المتناقضة في مسألتي القضاء والقدر والجور والعدل، فلم يتبع فيهما طريقة الأشعرية ولا طريقة المعتزلة، بل طريقة وسط تشتمل على محاسن الطريقتين وتتجنب مساوئهما، وقد سبقه الفارابي إلى هذه الطريقة في الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو.

وقال ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» وذلك عند البحث في مسألة القضاء والقدر: «الظاهر من مقصد الشرع ليس هو تفريق هذين الاعتقادين وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذي هو الحق في هذه المسألة، وذلك أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم إلاّ بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا من الخارج وزوال العوائق عنها كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعًا» أي بالإرادة وموافقة الأفعال الخارجية لها، وهذا المثال أن فلسفة ابن رشد التركيبية فلسفة بسيطة لم تتغلب على المشاكل إلاّ بالإعراض عنها.

وتعرّض ابن رشد للتحليل الانتقادي وذلك في شرحه لكتب أرسطو مع انتقاده لمن تقدمه من الشارحين ورده على المتكلمين وعلى الغزالي وابن سينا، وهذا القسم الانتقادي يميز فلسفة ابن رشد على غيرها من الفلسفات، فهو يوضح في انتقاده مراتب الأقاويل في التصديق والاقتناع وقصور أكثرها عن رتبة اليقين والبرهان، ومن ثمّ يذكر ابن رشد ما ذهب إليه خصومه فيناقشه ويفنده ثم يخلص في تفنيده إلى أن مذاهبهم لا تعدو أن تكون خطابية أو جدلية أو سفسطائية، ثم هو يحدد مكانه من مراتب الجدل فيقول في هذا الصدد: إن القول الصحيح لا يجوز أن يكون خطابيًّا أو جدليًّا وإنما يجب أن يقوم برهانًا منطقيًّا.

وقد جرته هذه الطريقة الانتقادية إلى مسائل مختلفة منها: مسألة إثبات الخالق، ففريق من الأشعرية اعتمد على ثلاث مقدمات لهذا الإثبات تتركز فيما يلي: أن الجواهر لا تنفلت عن الأعراض، وأن الأعراض حادثة، وأن ما لا ينفلت عن الحوادث حادث.

وقد ردّ ابن رشد على هذه المقدمات وأوضح أن الطريقة الشرعية التي دعا الشرع فيها إلى الإقرار بوجود الله تنحصر في أمرين: أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، وسمي هذا الدليل بدليل العناية، والثاني يتركز فيما يظهر من اختراع لجواهر الأشياء مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل، وسمي هذا الدليل بدليل الاختراع.

أما في مسألة حدوث الصور فقد لام ابن رشد ابن سينا على أخذه ببعض مقدمات المتكلمين وتقسيمه الوجود إلى ممكن وواجب وعلى قوله إن الصورة لا تتولد في المادة من صورة مادية قبلها بل يحدثها فيها واهب الصورة وهو عقل مفارق، وهذا القول يجعل الوجود مركبًا من وجودين متباينين هما: الصورة والمادة، وهذا ما لم يأخذ به ابن رشد في فلسفته.

أما فيما يتعلق بمسألة العقل فإن نظريته تختلف عن نظرية ابن سينا، وقد توصل إلى هذه النظرية بانتقاد شرح الإسكندر الأفروديسي لآراء أرسطو.

فمن المعلوم أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها، فإذا كانت الصورة العقلية أزلية أبدية كان العقل

أيضًا أبديًّا، ولكن الإسكندر الأفروديسي قد أخطأ في جعل العقل الهيولاني معرضًا للكون والفساد، فامتنع عليه إيضاح الحصول على المعقولات فيه؛ ولذلك وجب أن يكون الجوهر العاقل واحدًا عند جميع الناس «لا يولد ولا يفسد»، أما الذي يفسد ويفنى فهو هذا العقل المنفعل الذي يقبل ما يفيض عليه من العقل الفاعل.

ويتضح مما تقدم أن طريقة ابن رشد الانتقادية جرته إلى عدد من المسائل الفلسفية العميقة، وهي تمتاز على فلسفته الانتقائية التركيبية، ولولاها لما خلد اسمه في تاريخ الفلسفة ولا كان له هذا الأثر العظيم في فلسفة القرون الوسطى.

وقد اعتبرت شروح ابن رشد لكتب أرسطو طيلة قرون التفسيرات الحقيقية لهذه الكتب الفلسفية بل المراجع الوحيدة لنظريات هذا الفيلسوف اليوناني العظيم وتعاليمه، ويتضح ذلك في جلاء من أحد المراسيم الملكية التي صدرت عن الملك لويس الحادي عشر ملك فرنسا خلال عام ١٤٧٣م، فقد نص ذلك المرسوم على وجوب المضي في تدريس كتب أرسطو بجامعة باريس، ونص كذلك على وجوب اعتماد الأساتذة والمدرسين في تفسيرهم لكتب أرسطو على أحد شروح ثلاثة من شروح أرسطو العديدة، وكان شرح ابن رشد هو الشرح الأول الذي ذكره المرسوم.

١٠٦- ابن رشيد - شارع - بقسم كرموز

١٠٧- ابن رشيد - حارة - بقسم باب شرقي

كان من علماء التاريخ وتفسير القرآن الكريم، رحل إلى الإسكندرية، وصنف كتبًا دوَّن فيها كل ما شاهده في هذه المدينة، وتوفي عام ٩١٧هـ (١٥١١م)، واسمه محمد بن رشيد.

١٠٨- ابن رشيق - شارع - بقسم محرم بك

١٠٩- ابن رشيق - شارع - بقسم الرمل

يحمل لقب ابن رشيق اثنان ممن دوَّن التاريخ تراجم حياتهم وهما:

١) أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (المعروف بالقيرواني): ويقال إن أباه من أصل رومي من موالي بني أزد، وكان الفاطميون قد أتاحوا الفرصة لهؤلاء الموالي أن يظفروا بالحُظوة عندهم، وأن يتولوا بعض المناصب الأثيرة لديهم، ولعل تلك بالحُظوة أغرت رشيق بأن ينشئ ابنه نشأة أدبية ليفتح له السبيل إلى بعض تلك المناصب المغرية.

وقد ولد الشاعر ابن رشيق بمدينة «المسيلة» خلال عام ٣٩٠هـ (١٠٠٠م)، وتدل نشأته الثقافية في هذه المدينة على امتداد الحياة الفكرية من المغرب الأدنى إلى المغرب الأوسط والأقصى. فلم يعد النشاط الأدبي - في ذلك الحين - مقصورًا على القيروان، أو تونس بل أخذ يستحدث مراكز أخرى له منها مدينة «المسيلة» التي نشأ فيها شاعرنا، وهي قاعدة المغرب الأوسط، أو ما كان يسمى إذ ذاك ببلاد الزاب، ويطلق عليه الآن اسم «الجزائر»، ومدينة «المسيلة» هي إحدى المدن التي أنشأتها الدولة الفاطمية في المغرب العربي في مستهل قيامها، وقد اختطها ولي عهد هذه الدولة محمد بن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، وكان قد أرسل ابنه محمد إلى إقليم الزاب ليقربه سلطانه، ويقمع بعض الثورات التي اجتاحته،

ولما فرغ من هذه المهمة اختط المدينة لتكون قاعدة هذا الإقليم عوضًا عن مدينة طبنة، وعهد إلى عليّ بن حمدون الأندلسي ببنائها، ثم أطلق عليها اسم «المحمدية» نسبة إليه، وذلك إلى جانب اسمها القديم «المسيلة»، وسرعان ما تمت هذه المدينة، وازدهرت ولاسيما في عهد أميرها جعفر بن عليّ بن حمدون الذي جعل منها مركزًا من أهم المراكز الأدبية في المغرب العربي. وفي هذه المدينة برزت شاعرية ابن هانئ الأندلسي (انظر مادة ابن هانئ).

ولم تكن أسرة ابن رشيق من الأسر التي تسهم في الحياة الفكرية إذ كانت من الأسر الكادحة فكان أبوه صائغًا، غير أن ابنه كان يتجه إلى الأدب بكليته، ولم يمنعه قيامه بالعمل لمساعدة أبيه عن التزود بالعلم، والمعرفة بالقدر الذي تتيحه هذه المدينة، وما أسرع ما ظهرت مواهبه ومن ثَمَّ عرف الطريق الذي يجب أن يسلكه، ومازال طموحه يراوده حتى قرر الرحيل إلى القيروان عام ٤٠٦هـ (١٠١٥م) ولمَّا يتجاوز السادسة عشرة من العمر.

وفي القيروان بدأ ابن رشيق مرحلة جديدة من مراحل حياته امتدت أربعين عامًا، أي منذ دخلها شابًّا يافعًا إلى أن تركها مهاجرًا إلى مدينة المهدية عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، وقد شارف الخامسة والخمسين من عمره.

وتلقى العلم في القيروان على مشاهير علمائها وفقهائها أمثال أبي الحسن القابسي، وأبي عمران الفاسي، وهما من أئمة الحديث والفقه، وأبي عبد الله القزاز من شيوخ النحو واللغة، وأبي إسحق الحُصري من علماء الأدب، وقد وجد في أساتذته ما كان يطمح إليه، فاكتملت جوانب حياته العقلية.

وفي ذلك الحين توفي الأمير باديس، وانتقلت إمارة المغرب إلى ابنه المعز (انظر هذه المادة) وكان مايزال في الثامنة من عمره، وكان من بين الأوصياء والمربين الذين تولوا تصريف أمور الدولة باسمه الأديب الشاعر ابن أبي الرجال (انظر هذه المادة) أستاذ الأمير الصغير، ورائده، ومستشاره، وصاحب ديوانه.

ومن المحتمل جدًّا أن يكون ابن رشيق قد سمع بما لابن أبي الرجال من صيت في كثير من فروع المعرفة، ومن بينها الشعر، فقد كان شاعرًا مجيدًا إلى جانب فقهه وعلمه بالأدب، واللغة، والفلك، ومن المحتمل أيضًا أن يكون قد سمع شعر ابن أبي الرجال الذي كان ينشده ويذيعه بين الناس كلما ذهب إلى مدينة «تاهرت» الجزائرية حيث كان ينفّس عن نفسه، وعن شوقه إلى أهله بالقيروان، وقد قال في ذلك:

وَلي كبدٌ مكلومةٌ من فراقِكم
أُطامِنُها صَبْرًا على ما أَجَنَّتِ

تَمَنَّتْكُمو شوقًا إليكم وصبوةً
عَسى الله أنْ يُدْني لها ما تَمَنَّتِ

وَعَيْنٍ جفاها النومُ واعتادها البكا
إذا عَنَّ ذكرُ القيروانِ اسْتَهَلَّتِ

وبمثل هذه الأبيات الرقيقة علق ذكر ابن أبي الرجال بذهن ابن رشيق، واتخذ له مكانًا مرموقًا في وجدانه، ومن ثَمَّ أسرع إلى الاتصال به عقب وصوله إلى القيروان إلى أن أتيح له أن يظفر برعايته وتقديره لشاعريته، وبذلك أخذ يعالج

صناعة الشعر ، بقصائد مدح في الأمير المعز بن باديس حتى بلغ الدرجة التي استطاع ببلوغها أن يُعدَّ في شعراء البلاط ، وأن تكون له مكانة في ديوان ابن أبي الرجال ، وقد بقيت من هذه القصائد بقايا قليلة وردت في كتابه «العمدة» ، أو فيما نقل عن كتابة «أنموذج الزمان» أو ما جاء في بعض المصنفات الأخرى ، ومن عيون تلك القصائد القصيدة التي نظمها بمناسبة الهدية التي تلقاها المعز بن باديس من الخليفة الفاطمي بمصر ، والتي يقول فيها واصفًا هذه الهدية:

تحتثُّها بينَ الخوافقِ مشيةٌ
باد عليها الكبْرُ والخُيَلاءُ

وتمدُّ جيدًا في الهواءِ يَزينُها
فكأنَّه تحتَ اللواءِ لواءُ

حَطتْ مآخرُها وأشرَف صدرُها
حتى كأنَّ وقوفَها إقْعاءُ

وتخيَّرتْ دونَ الملابسِ حُلَّةً
عَيَّتْ بِصَنْعَةِ مثلِها صَنْعاءُ

لونًا كلونِ الذبْلِ إلا أنَّه
حَلْيٌ ، وَجَزَّعَ بَعْضَهُ الحلاّءُ

أو كالسحابِ المكفهرةِ خُيِّطتْ
فيها البروقُ وشقَّها إيماءُ

أو مثل ما صدئت صفائح جَوشَنٍ
وَجَرى على حافاتِهنَ جِلاءُ

وبهذه القصيدة الوصفية وبغيرها من عيون قصائده وصل ابن رشيق في رقيه ، إلى أن يكون من أصحاب مجلس المعز ابن باديس ، ومن أهل سمره ومنادمته ، وذلك بفضل ثقافته الأدبية الواسعة المجال ، وكان من ندماء المعز شاعر آخر هو ابن شرف ، وكان لاجتماع الشاعرين في مجلس الأمير منافسة اشتدت على مر الأيام إلى أن انقلبت إلى خصومة ، تمخضت عن خصوبة في التأليف تسابق فيها الشاعران من حيث نظم القصائد ، وتأليف الكتب ، ومن ثَمَّ كان إنتاج ابن رشيق الغزير في مسائل اللغة وموضوعات الأدب ، وقد أراد بهذا الإنتاج أن تكون له الشهرة العلمية إلى جانب شهرته كشاعر فذّ ، وهكذا شرع ابن رشيق في تأليف الكتب ، وسجّل لنفسه مجدًا أدبيًّا رفيعًا ببعض ما أخرج من مؤلفات ككتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» الذي نال تقدير العلماء وحفاوتهم ، ثم إقبالهم عليه ، مما خلّده وخلّد ذكرى ابن رشيق معه ، وهو كتاب في صناعة الشعر ونقده ، ولم يؤلف المتقدمون مثله .

والواقع هو أن كتاب العمدة مازال الأثر الكبير الباقي من آثار شاعرنا الخالدة ، هذا إلى جانب رسالته الصغيرة التي سماها «قراضة الذهب» أما آثاره الفكرية الأخرى فقد امتدت إليها أيدي الضياع ، وكان من أهمها في تقدير مؤرخي الأدب كتاب «أنموذج الزمان في شعراء القيروان» ، ولو بقي هذا المؤلف لقدم للباحثين مادة غزيرة تجلو صورة واضحة من الحياة الأدبية في إفريقية (تونس) خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وتتمثل أهمية هذا المصنف في الفصول التي اقتبسها

بعض الكتّاب منه ودوّنوها في مؤلفاتهم مثل رحلة التجّاني وفوات الوفيات ونفح الطيب.

ولم يقتصر الضياع على ما كتب ابن رشيق من نثر بل تعداها إلى ديوانه الذي يضم قصائده والذي لم يبق منه إلا بقايا منثورة في مطاوي الكتب، وقد جمع الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأستاذ بجامعة عليكره بلاهور ما بقي من هذه القصائد في مجموعة سماها «النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف».

ويتضح من القصائد التي سلمت من الضياع أن شعره أشبه بشعر العلماء، والفقهاء منه بشعر الشعراء البلغاء المتفننين ولكنه من نوع الشعر المعروف في زمانه، بعضه في المدح، وبعضه في الحكم ونقد أخلاق الإنسان، وبعضه في الفكاهة، وهو في جملته سهل الأسلوب به شيء من الصناعات اللفظية التي ذاعت في زمانه، ومن قوله في الحكم:

أُحبُّ أخي وإنْ أعرضتُ عنهُ
وَمَلَّ على مسامعهِ كلامي

وَلي في وجههِ تقْطيبُ راضٍ
كما قَطَّبْتُ في وجهِ المُدامِ

وَرُبَّ تقطّبٍ من غيرِ بُغْضٍ
وَبُغْضٍ كامنٍ تحتَ ابْتِسامِ

ومن قوله في النصيحة:

مَنْ يَصْحَب الناسَ مطويًّا على دَخَلٍ
لا يَصْحَبوهُ، فَخَلُّوا كلَّ تَدْخيلِ

لا تسْتطيلوا على ضعْفي بقوتِكم
إنَّ البعوضةَ قدْ تعْدو على الفيلِ

وَجَانِبوا المزحَ إنَّ الجدَّ يَتْبَعُهُ
وَرُبَّ موجَعةٍ في إثرِ تَقْبيلِ

ومن قوله في المداعبة والغزل:

ولمّا بدا لي أنّها لا تُحبني
وأنَّ هواها ليسَ عَنّي بِمنْجَلي

تَمنَّيتُ أنْ تَهوى سواي لعلها
تَذوق صَباباتِ الهوى فترقُّ لي

فما كانَ إلاّ عن قليلٍ وأُشْغِفَتْ
بِحُبِّ غَزالٍ أدعجِ الطرفِ أكحلِ

وَعَذّبها حتى أذابَ فؤادَها
وَذَوَّقَها طعمَ الهَوى والتذللِ

فقلتُ لها: هذا بهذا، فأطرقتْ
حياءً وقالت: كل عائبٍ انْتُلي

ومن قوله في ليالي المرح والسرور:

ومن حسناتِ الدَهْرِ عندي ليلةٌ

من العمر لم تترك لأيامها ذنبا

خلونا بها ننفي القذى عن عيوننا

بلؤلؤةٍ مملوءة ذهبًا سكبا

وقد كان ابن رشيق – علاوة على شاعريته – مؤرخًا ولغويًّا، وقال ابن خلدون (انظر هذه المادة) عن كتابه «العمدة» إنه خير ما كتب في نقد الشعر، ونشر الجزء الأول منه فقط في تونس عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م)، وفي القاهرة عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م).

أما كتابه «قراضة الذهب» فهو في نقد أشعار العرب، وقد بعث به إلى أبي الحسن علي بن أبي القاسم اللواتي ودوَّن به بعض سرقات الشعراء.

ومازال ابن رشيق يواصل إنتاجه الأدبي، حتى بُليت القيروان بالكارثة التي دبرها الفاطميون في مصر ضد المعز بن باديس بسبب خروجه على طاعة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وقضائه على المذهب الشيعي في المغرب العربي، ولتأديب «هذا العبد الآبق» (كما كان المستنصر يسمِّي المعز بن باديس) جهز بني هلال وبني سُليم بالإبل، والمؤن، والعتاد الحربي، وبعثهم لقتال المعز، وإعادة الشعب المغربي إلى طاعة الفاطميين، ولكن نتيجة الحملة الهلالية على المغرب جاءت على عكس ما كان الخليفة المستنصر يتوقع، فقد كان لبني هلال وبني سُليم الفضل في استتباب العروبة ومذهب السنَّة واللغة العربية في كافة الأقطار المغربية.

ولما داهم بنو هلال مدينة القيروان عام ٤٤٩هـ (١٠٥٧م)، وبعد نضال مرير ضد المغيرين اضطر المعز بن باديس إلى الرحيل، والالتجاء إلى مدينة المهدية التي أسسها المهدي عبيد الله رأس الدولة الفاطمية في المغرب، وكان ابن رشيق من بين الذين تبعوا المعز في رحيله (انظر مادة بني هلال).

وفي المهدية بدأت مرحلة جديدة من حياة شاعرنا امتدت ستة عشر عامًا قضاها بين المهدية وجزيرة صقلية التي كان أول ذهابه إليها عقب وفاة المعز بن باديس عام ٤٥٣هـ (١٠٦٢م)، وكانت إقامته بالمهدية عصيبة عانى فيها مضاضة الحياة، ومرارة الذكريات، ويصف لنا ابن رشيق ما تعرض له أهل القيروان من تنكيل، وتقتيل ومن سباء، وجلاء عندما داهمتهم الجيوش الهلالية فيقول:

والمسلمونَ مُقَسَّمونَ تنالُهم

أَيْدي العُصاةِ بذلةٍ وَهوانِ

ما بينَ مُضطرٍ وبينَ مَعَذّبٍ

وَمُقَتَّلٍ ظلمًا وآخرَ عانِ

يسْتَصْرِخونَ، فلا يُغاثُ صَريخُهُم

حتى إذا سئموا من الأرْنانِ

فادوا نفوسَهُمُ، فلمَّا أنْقَذوا

ما جمَّعوا مِن صامِتٍ وصوانِ

واسْتَخْلَصوا مِنْ جَوهَرٍ وملابسٍ
وطرائفٍ وذخائرٍ وأوانِ

هَرَبوا بكلِّ وليدةٍ وفطيمةٍ
وبكلِّ أَرملةٍ وكلِّ حَصَانِ

وبكلِّ بكرٍ كالمهاةِ غَريرة
تَسْبي العقولَ بطرفِها الفَتانِ

خَوْدٍ مُبَتَّلةِ الوشاحِ كأنها
قَمَرٌ يلوحُ على قَضيبِ البَانِ

ولم يواتيه صفاء القريحة، وقوة الشاعرية طوال إقامته بالمهدية، ولم يسعفه القلم لتدبيج قلائد المديح للمعز في آخر أيام هذا الأمير، فقد أراد التنفيس عن حالته النفسية بنظم قصيدة قال في مطلعها ينصح الأمير:

تَثَبَّتْ! لا يُخامِرْكَ اضطرابُ
فقدْ خَضَعَتْ لِعِزَّتِكَ الرِّقابُ

فما إن أسمع المعز هذا المطلع حتى غضب، وقال لابن رشيق في لهجة ثائرة: «متى عهدتني لا أثبت، إذا لم تجئنا إلاّ بمثل هذا فمالك لا تسكت عنّا!!» ثم أمر بالرقعة التي فيها القصيدة فحرقت، وكان ذلك إعلانًا بالقطيعة بين المعز وشاعره، ومن ثَمَّ أيقن ابن رشيق أنه لا مكان له في قصر الأمير بالمهدية، فعزم على اللحاق بمنافسه ابن شرف بصقلية، ولا سيما عقب وفاة المعز.

ولم تكن الحياة بصقلية آمنة ولا رضية، فقد أخذ سلطان المسلمين يتقلص بها، وتتابعت غارات النورمانديين عليها، وكثرت وثباتهم، ونهب أرزاق أهلها، ففسدت أخلاقهم، وساءت معيشتهم، وود ابن شرف أن يرحل إلى الأندلس، وعرض على ابن رشيق مصاحبته فلم يوافق لأنه كان سيئ الرأي في الأندلس، ولا يرى فيها إلاّ بلادًا ممزقة الأوصال يجتاحها الكذب، والنفاق فأنشد يقول فيها:

مِمّا يُزَهِّدُني في أرضِ أَندلسٍ
أَسماءُ مُقْتَدِرٍ فيها وَمُعْتَضِدِ

أَلقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها
كالهِرِّ يَحْكي انتفاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

وقد صار هذان البيتان من الأمثال الشائعة التي تضرب للدلالة على كل مغرور، وكل طائفة، أو شعب تستولي عليهما العُنجهية الجوفاء.

وجعل ابن رشيد مدينة «مازره» مستقرًّا له، وأخذت لنفسه تطيب بعض الشيء حين رأى أميرها يحتفي به، ويتخذه أستاذًا له، ويقرأ عليه كتبه، ولم ينفك عن رثاء المعز بن باديس الذي غمرت وفاته، وجدانه بالحزن العميق، والأسى المؤلم.

وعاش ابن رشيق تسع سنوات بعد وفاة المعز ثم وافته المنية في عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م) بالغًا من العمر حوالي ٧٠ عامًا، وكانت وفاته قبل استيلاء النورمانديين على جزيرة صقلية بعام واحد ومنذ ذلك التاريخ انحسر عنها ظل الدولة الإسلامية وإن بقيت بعد ذلك دهرًا إسلامية الطابع والثقافة.

٢) ابن رشيق الأندلسي: من أواخر ملوك الطوائف بالأندلس، وكان يحكم مدينة مُرسية مسقط رأس شهاب الدين أبي العباس المرسي (انظر هذه المادة) ومن حاسديه، والناقمين عليه، لسعة ثرائه واتساع نطاق ملكه في إشبيلية وقرطبة (انظر مادة قرطبة)، وقد استبد بحكم مُرسية، واستقل بأمرها بعد أن كانت من أملاك المعتمد، ومن هنا نشأت البغضاء بينهما، واستمرت حتى انقراض ملوك الطوائف في إسبانيا، وابن رشيق هو الذي توصل إلى إجلاء ابن عمَّار (انظر هذه المادة) عن مرسية ففر هاربًا إلى سرقسطة، حيث تمكن المعتمد من أسره، وسحبه، ثم ضربه بالمطرقة حتى الموت بسبب خيانته للمعتمد، وخروجه عن طاعته، ومحاربته بعد أن كان صديقه الحميم وأعز خلصائه.

وبما أن حكم المعتمد بن عبَّاد قد دام من عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) إلى عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) إذ قضى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين على ملوك الطوائف بالأندلس فيكون ابن رشيق أحد هؤلاء الملوك قد عاش في هذه الفترة.

ولم يتيسر لي العثور على معلومات أوفى تدل على مراحل حياة هذا الرجل الذي يشترك في اللقب مع ابن رشيق الشاعر القيرواني المدونة ترجمة حياته قبل.

١١٠- ابن رقيقة - شارع - بقسم الرمل

طبيب وأديب وله مؤلفات كثيرة في علم الطب، توفي عام ٨٥٥هـ (١٤٥١م).

١١١- ابن رواحة - حارة - بقسم الجمرك

هو عبد الله بن رواحة صاحب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وشاعره، ورفيقه عندما دخل المسلمون مكة ليؤدوا عمرة القضاء في شهر ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة تنفيذًا لاتفاقية الحديبية التي عقدوها مع مشركي قريش قبل ذلك التاريخ بعام، أي في العام السادس للهجرة، كان رسول الله يتقدم المسلمين فوق ناقته، والبطل الشاعر عبد الله بن رواحة، آخذ بزمام ناقة النبي ينشد أشعاره والمسلمون يرددونها وراءه وهم يدخلون مكة:

خَلُّوا بني الكفَّار عَنْ سَبيلِهِ
خَلُّوا فكلُّ الخيرِ في رَسولِهِ

وكانت طائفة من المشركين من أهل قريش قد أخذوا أماكنهم بالقرب من الكعبة ليشهدوا المسلمين، وما يفعلون في زيارتهم لبيت الله الحرام.

وعندما صار النبي داخل البيت الحرام أخرج عضده الأيمن من ردائه بعد أن اضطبع به ثم قال: رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم أخذ يهرول حول الكعبة وأصحابه معه وبينهم الشاعر عبد الله بن رواحة.

ولقد هدف النبي الكريم إلى إظهار بأس المسلمين، وقوتهم بذلك الطواف القوي السريع ردًّا على ما أشاعته قريش من أن المسلمين يعانون ضيقًا وجهدًا.

وكان ابن رواحة يردد أشعاره طوال الأيام الثلاثة التي قضاها المسلمون في زيارة البيت الحرام، وكان أصحاب النبي

يرددون هذه الأشعار معه لتعرف القبائل المشركة مدى إيمان المسلمين بدينهم وبنبيِّهم فكان ينشد هذه الأبيات:

يارب لَوْلا أنت ما اهْتَدَيْنا
ولا تصدَّقنا ولا صَلَّيْنا
فأنْزِلْ سَكيْنةً عَلَيْنا
وَثبتْ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
إنَّ الذين قَدْ بَغوا عَلَيْنا
إذا أرادوا فِتْنَةً أبَيْنا

وكان ابن رواحة الشاعر المرهف الحس والوجدان، وأحد أصحاب الرسول المخلصين، ثالث قواد جيش المسلمين في غزوة مؤتة.

ففي هذه الغزوة التاريخية خرج جيش المسلمين في ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة (انظر هذه المادة)، وكان رسول الله قد أمر بأن تكون القيادة لجعفر بن أبي طالب إذا استشهد زيد، فإن استشهد جعفر فالقيادة لعبد الله بن رواحة وللمسلمين بعده أن يختاروا واحدًا منهم لقيادتهم.

وسار الجيش إلى أن نزل «معان» من أرض الشام فبلغهم أن الروم وحلفاؤهم قد نزلوا «مآب» وهم في عشرين ألف مقاتل، فتردد المسلمون في أول الأمر إزاء هذا العدد الضخم، غير أن عبد الله بن رواحة تدارك الموقف وقام ينادي في المسلمين قائلاً: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا بقوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنين إمَّا ظهور وإمَّا شهادة»، وبهذه الكلمات الحماسية المؤمنة بنصر الله قضى ابن رواحة على تردد المترددين، وأثار حماس النفوس، فقويت معنويات المقاتلين وهبوا إلى القتال لا يهابون الموت.

وفي «مؤتة» الواقعة في الجنوب الشرقي من بحر لوط التقى جيش المسلمين بجيش الروم البيزنطيين عام ٨هـ (٦٢٩م)، فقاتل زيد بن حارثة بلواء النبي حتى قتل فحمل اللواء جعفر ابن أبي طالب وكان شاعرًا بليغًا فأخذ يثير النخوة في وجدان المسلمين، وسرعان ما التف الروم حوله وضربه أحدهم فقطع يمينه فأمسك الراية بيساره فقُطعت، واحتضنها بعضديه فانقضوا عليه وقطعوه نصفين، فتلقى اللواء عبد الله بن رواحة ولم يبخل عنه حتى استشهد وفي جسده نحو مائة طعنة ليس منها واحدة في ظهره وهذا يدل على مواجهته للأعداء دون تقهقر أو إدبار حتى لقي ربه مجاهدًا مغوارًا في سبيل الله، وفي سبيل دينه.

واختار المسلمون بعده خالد بن الوليد الذي أظهر كفاءة نادرة وقضى على تفوق الأعداء في المعدات والعدد، وذلك بأن عدَّل من وضع قواته فجعل الميمنة في الميسرة، والمقدمة في المؤخرة، ورصد من الخلف مجموعة من الجنود تثير الغبار وتحدث جلبة شديدة أوهمت الروم أن عددًا هائلاً من المسلمين قادم من المؤتة لا قبل لهم به، وأن أضعاف قواتهم لا تستطيع التغلب عليه ورده، ومن ثَمَّ ضعفت معنوياتهم، واستطاع خالد بن الوليد مدافعتهم سبعة أيام حتى انحاز بكل قواته إلا ثمانية شهداء ومن ورائه جيش الروم في ذهول من هول الصدمة والمفاجأة، وكانت هذه الموقعة هي أول الطريق إلى الفتوحات الإسلامية الشاملة في الشرق والغرب.

وعندما خرج جيش المسلمين من المدينة المنورة للقيام بغزوة «مؤتة» اقترب بعض أصدقاء عبد الله بن رواحة منه يودعونه قائلين: «صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا سالمين»، فرد عليهم ابن رواحة منشدًا:

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرةً
وضربةً ذات فرع تقذفُ الزَّبَدا

أوْ طعنةً بيدي حَرَّانَ مُجْهِزَةً
بحربةٍ تنقذُ الأحشاءَ والكَبدا

حتى يُقالَ، إذا مَرُّوا على جدثي
يا أرشد الله منْ غاز وقد رشدا

ولما تسلم اللواء بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب خاض المعركة في مقدمة جيش المسلمين وهو ينشد:

يا نفسي إنْ لم تقتلي تموتي
هذا حِمامُ الموت قد صَلَيْتِ

وما تمنيْت فقد أعْطيْتِ
إنْ تفعلي فعلهما هُدِيْتِ

ثم يسقط عن جواده مثخنًا بالجروح، ويلفظ النفس الأخير راضيًا عما قام به من جهاد في سبيل الحق، والواجب، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية، لتدخل في عباد الله الصالحين ولتدخل جنته التي وعد بها المجاهدين.

وابن رواحة من الأنصار المدنيين من أهل يثرب، ويكنى بأبي عمرو الخزرجي، وأبوه يدعى ثعلبة بن امرئ القيس، وينتهي نسبه إلى الحارث بن الخزرج وليس له عقب، وكان من السابقين الأوائل من الأنصار وهو خال النعمان بن بشير الصحابي المعروف، وكان من أمراء المدينة، أما شاعريته فقد أجمع الثقاة على أنها من القوة بحيث تجعله في مرتبة فحول شعراء عصره الخزرجيين، وقد صار بعد إسلامه من شعراء الصحابة المشهورين وقال عنه الزبير: «ما رأيت أحدًا أجرأ ولا أسرع شعرًا من ابن رواحة»، وكان النبي يدعوه إلى قول الشعر ويستحبه منه، وارتجز النبي نفسه الأبيات الثلاثة التي قالها ابن رواحة وهو يحدو بركب النبي ذات يوم، وكان ارتجاز الرسول لهذه الأبيات في غزوة الأحزاب وهو ينقل التراب مع الصحابة والتابعين لإعداد الخندق، ويمدُّ صوته الكريم بآخر كلمات الأرجوزة التي أولها:

يارب لولا أنتَ ما اهتدينا
ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا

وقد نقل البخاري (انظر هذه المادة) من شعر ابن رواحة في رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله:

وَفينا رَسول الله نتلو كتابهُ
إذا انشقَّ معروف من الفجرِ ساطعُ

يبيتٍ يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

أتى بالهدى بَعد العمى فقلوبنا
به موْقنات إنَّ ما قال واقعُ

أما عن مزاياه الحربية، وحسن قيادته للجنود فقد كان يناقض في الجاهلية قيس بن الخطيم، وشهد العقبة بعد إسلامه مع سبعين من الأنصار، وشهد وقعة بدر وحنين، ووقائع أُحُد، والخندق، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، بصُحْبة رسول الله، وكان في جهاده موضع تقدير النبي، فكان يقول عنه: «نِعْمَ الرجل عبد الله بن رواحة»، وكان في جهاده مغوارًا جسورًا، قد استخلفه على المدينة حين خرج إلى إحدى الغزوات.

وكان استشهاد الصحابي الهمام الشاعر الفحل في شهر جمادى الأولى عام ٨هـ (٦٢٩م).

هذا هو تاريخ ابن رواحة الصحابي العظيم الشاعر المقرب لدى النبي العربي عليه الصلاة والسلام، ونجد في رحلة ابن بطوطة (انظر هذه المادة) المسماة «تحفة النظار في غرائب الأنصار وعجائب الأسفار»، رجلاً من كبار تجار الإسكندرية يحمل اسم ابن رواحة لم يذكر ابن بطوطة ألقابه، أو معلومات توضح ترجمة حياته، وما قام به من أعمال بالمدينة، ولكنه ذكر مأساة الظلم الذي لحق بهذا التاجر الذي كان أحد الذين صلبوا ظلمًا وعدوانًا، وقد دوّن ابن بطوطة خبر هذا التاجر المظلوم فقال: «ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين وسبعمائة وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله، أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة، وكان والي الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي فذهب إلى حماية الروم وأمر المسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينة، وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم، فأنكر الناس ذلك، وأعظموه، وكسروا الباب وثاروا إلى منزل الوالي، فتحصن منهم، وقاتلهم من أعلاه، وطيَّر الحمام بالخبر إلى الملك الناصر فبعث أميرًا يعرف بالجمالي (هو بدر الجمالي) (انظر هذه المادة) ثم أتبعه أميرًا يعرف بطوغان جبَّار قاسي القلب متهم في دينه، يقال إنه كان يعبد الشمس، فدخلا الإسكندرية وقبضا على كبار أهلها، وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك وسواهم، وأخذا منهم الأموال وجُعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين، وذلك في يوم جمعة، وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور، وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم، وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة، وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة أو المائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة، وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها، فَزَلَّ لسانه وقال للأميرين أنا أضمن هذه المدينة، وكل ما يحدث فيها أطالب به، وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال، فأنكر الأميران قوله، وقالا: «إنما تريد الثورة على السلطان فكان فيه حتفه».

فهل هذه الحارة بقسم الجمرك تحمل اسم ابن رواحة الصحابي، أو اسم ابن رواحة التاجر الذي صلب ظلمًا؟؟

١١٢ - ابن الرومي - شارع - بقسم العطارين

اسمه بالكامل علي بن العباس بن جُرَيْج، ويلقب بأبي الحسن ويكنَّى بابن الرومي؛ لأن جده لأبيه كان روميًّا من

البوزنطيين، أما جد أمه فكان فارسيًّا، وقد ولد ابن الرومي في بغداد عام ٢٢١هـ (٨٣٦م)، وما من شك في أنه كان من فحول شعراء القرن الثالث الهجري، ذلك القرن المليء بشتى الأبحاث السياسية والحافل بالحركات العقلية والاجتماعية؛ إذ هو قرن اقترن فيه العلم بالفلسفة واجتمع فيه التحلل الخلقي بالتصوف والفقه واللغة والأدب بمفاهيمها القديمة والكيمياء والرياضة والهندسة والتنجيم والمنطق بمفاهيمها الحديثة منضمة إليها نتائج الترجمة والنقل من اللغات والآراء الأجنبية، وقد كانت مواهب ابن الرومي الشعرية البارزة السبب في شهرته وذيوع صيته.

ولقد امتاز العصر العباسي الذي نشأ ابن الرومي في كنفه بالتوسع في المصطلحات اللفظية والتوليد في المعاني، وذلك نتيجة لاختلاط العرب بالأعاجم والرغبة في التحرر من القديم البالي، كما امتاز هذا العصر بالتجديد اللفظي والنقد البياني الذي نادَى بأن أساس البلاغة يكمن في سهولة الألفاظ وعذوبتها وحسن جرسها، ومن ثمَّ أقدم الشعراء على التفنن في المعاني الشعرية المتعلقة بضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة.

وفي غمار هذا العصر الزاخر بالانفعالات النفسية عاش ابن الرومي معاصرًا لطائفة كبيرة من علماء الفقه والفلاسفة والأطباء والنحويين والشعراء والأدباء والمؤرخين والجغرافيين أمثال العلماء: البخاري والطبري وابن ماجة (انظر مادتي الطبري وابن ماجة)، وأمثال الفلاسفة: الكندي والفارابي (انظر مادة الفارابي)، وأمثال الأطباء: ابن ماسويه، وابن سهل الرازي (انظر هاتين المادتين)، وأمثال الأدباء: الجاحظ، وابن عبد ربه، وابن قتيبة (انظر هذه المواد)، وأمثال النحويين: الزجَّاج، ابن الأنباري، وأمثال اللغويين ابن دريد، وعبد الرحمن الهمذاني والسجستاني (انظر مادتي ابن دريد والهمذاني).

وكما تقدم القول لم يكن ابن الرومي عربيًّا وإنما مستعربًا اتخذ اللغة العربية لغة لأدبه وشعره ونشأ وترعرع وشاب بين العباسيين فحذق علومهم ونهل من مدنيهم على غرار الغرباء المشهورين أمثال بشار وأبي نواس وابن المقفع وابن العميد والخوارزمي (انظر هذه المواد) وغيرهم ممن انصهروا في بوتقة المجتمع العباسي الذي ضمهم فعاشوا فيه ودمغهم بطابعه فخلعوا ثوب أجنبيتهم وتسربلوا ثوب العروبة العباسية.

غير أن ابن الرومي لم يتخلّ عن طابع جنسيته فصار هذا الطابع إحدى ميزات شعره، ولقد صدق المرحوم الأستاذ محمود عباس العقاد إذ قال عنه: «إن الرومية هي أصل هذا الفن الذي اختلف به ابن الرومي عن عامة الشعراء في هذه اللغة، وهي السمة التي أفردته بينهم إفراد الطائر الصادح في غير سربه»، وقد ردد ابن الرومي روميته في أكثر من موضع فيما نظم من شعر، من ذلك قوله:

قَوْمي بَنُو العَبَّاسِ، حِلْمهُمُ
حِلمي كَذَاكَ، وَجَهْلُهُمْ جَهْلِي

نَبْلي نِبالُهُمُ، إذا نَزَلَتْ
بي شِدَّةٌ، وَنِبالُهُمْ نَبْلي

لا أبْتَغي أَبَدًا بهِمْ بَدَلاً
لَفَّ الإلهُ بِشَمْلِهِمْ شَمْلِي

مَوْلاهُمُ وغَذِيُّ نِعْمَتِهِمْ
والرومُ – حين تَنصُّني – أصْلي

وكان ابن الرومي في صباه فتى أبيض البشرة، وسيم الطلعة، مقدود القوام، أنيس المحضر، خفيف الروح، مزهوًّا بملاحته، مغرورًا بشبابه، مدفوعًا إلى اغتنام فرص الحياة، فتهافت على الملذات وأسرف في ذلك إلى أبعد حد، واتخذ من شعره في المدح والهجاء وسيلة لكسب العيش، فطرق أبواب العظماء طالبًا العطاء فلم يلق منهم احترامًا ولم يصب منهم المنح الجزيلة التي كان يمنِّي نفسه بها ليبلغ غاية ما كان يصبو إليه من الرفعة وعلو المكانة، ومن ثمّ برم بعصره وبأبناء جيله وامتلأ شعره بالمرارة والألم خصوصًا عندما وجد أن من هم دونه في المكانة الأدبية قد نالوا الحظوة ونعموا بطيب العيش ورغد الحياة.

وقد نكب ابن الرومي بالكوارث في كهولته ففقد أولاده الثلاثة وزوجته وأخاه الأكبر، ولعلّ هذه النكبات الأليمة قد كانت السبب في المتناقضات التي كانت تحيط بشخصيته الغريبة، فبينما نراه مادحًا لأحد الناس يومًا نجده هاجيًا له في الغد، حتى الأزهار والثمار كان يمدحها ثم لا يلبث أن يذمها، وبسبب هذا التناقض البين يقول بعض مؤرخي سيرته إنه كان مضطرب العقل والأعصاب، وقد يلتمس له العذر في هذا الجموح الخلقي والتأرجح بين النقيضين؛ وذلك بسبب ما كان يسود عصره من التقلب والقسوة وقلة الوفاء والفتن والدسائس الخبيثة الخسيسة مما أثر على مجموعته العصبية وهو العبقري المرهف الحس والوجدان الدقيق الشعور، وإزاء هذا الوصف لم يعجز الأستاذ العقاد عن رسم صورة له تمثل شخصيته في إطار لوحة دقيقة الملامح بارعة التكوين، فوصفه في خياله العقادي الخصب بأنه «ذو رأس صغيرة مستديرة، وجسم ناحل تستبين فيه العصبية ونظرات ساهمة مشوبة بالوجوم، ولحية كثة وصلع في الرأس عاجله في شبابه، وبنية ضعيفة التكوين رمته بالعلل والأسقام ومشية مختلجة هي نتيجة اضطراب أعصابه، وظهر متقوس في الشيخوخة».

وليس من المغالاة في شيء قول الكثير من مؤرخي الأدب إن ابن الرومي كان أحد فحول الشعراء الكبار الذين يمثلون العصر العباسي أصدق تمثيل، وقد اختلفوا فقط في اختيار المقدمين منهم، ولكن الغالبية منهم اختاروا ثمانية باعتبارهم من الطبقة الأولى من شعراء هذا العصر الذين كان لهم شهرة واسعة الذيوع وأثر عميق في تاريخ الشعر العباسي، وهؤلاء الشعراء هم: أبو نواس، وأبو تمام، والبحتري، والمتنبي، والمعري، وابن الفارض، وابن الرومي (انظر هذه المواد)، وأبو العتاهية.

والواقع هو أن ابن الرومي كان مصورًا بارعًا دقيق المعاني، عميق التفكير، بديع التصوير، وهو عند ابن رشيق (انظر هذه المادة) «أَوْلى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه»، وقال عنه ابن خلِّكان: «إنه صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية».

ويمتاز شعر ابن الرومي بطول النفس دون الخروج عن السلاسة، وله قدرة على الإسهاب في النسج دون تكلف ظاهر، وفي هذا المجال بزَّ ابن الرومي شعراء العرب في القصائد الطويلة التي تضم المئة والمئة والخمسين بيتًا، ويتضح

في سياق أغلبها حسن السبك وكثرة الألوان المعنوية مما يدل على غزارة مادته اللغوية ومهارته في انتقاء الألفاظ لما يبغي من معانٍ وأغراض، وجاءت قصائده وحدات متكاملة النسق، تامة المعنى الذي أراده لها فكان في ذلك صنوًا لأبي تمام في هذا المجال.

وفي الأبيات التالية التي يمدح بها أبا القاسم بن عبيد الله وزير الخليفة المعتضد وحفيد سليمان بن وهب (انظر مادة ابن وهب) ما يدل في جلاء على دقة التشبيه في شعره فيقول:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ لَنَا يَدُهُ
لم يُحمَدِ الأَجْوَدانِ: البَحْرُ والمطرُ

وإنْ أَضاءَتْ لنا أنْوارُ غُرَّتِهِ
تَضاءَلَ النَّيِّرانِ: الشَّمسُ والقمرُ

وإنْ نَضَا حَدَّهُ أَوْ سَلَّ عَزْمَتَهُ
تأَخَّر الماضِيَانِ: السيفُ والقَدَرُ

مَنْ لمْ يَبِتْ حَذِرًا من سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا المُزْعِجانِ: الخوفُ والحَذَرُ

يَنالُ بالظَّنِّ ما يَعْيا العِيانُ بِهِ
والشَّاهِدَانِ عليه: العَيْنُ والأثرُ

وبرع ابن الرومي في الشعر الوصفي إلى أبعد حد وأعانه على ذلك شغفه بالحياة والتمتع بملاذها وبما حبته الطبيعة من حس دقيق وشعور مرهف، وقد ترك من الشعر الوصفي ألوانًا ترسم لقرائها لوحات بهيجة تتجلى في إطاراتها الرياض والأزهار والطيور والأشخاص على اختلاف مشاربهم وذلك في أوصاف رائعة متقنة، فإذا عمد إلى وصف روضة رسمها في شعر رصين عذب الجرس حلو السياق فيقول:

وَرياضٍ تُخَايِلُ الأرضُ فيها
خُيَلاءَ الفَتَاةِ في الأَبْرَادِ

ذاتِ وَشْيٍ تَنَاسَجَتْهُ سَوارٍ
لبقاتٌ بِحوْكِهِ وَغَوادِ

شكرتْ نعمةَ الوليِّ على الوسْـ
ـميِّ ثمَّ العهاد بعد العهاد

فهي تُثني على السماءِ ثناءً
طَيِّبَ النَّشْرِ شائعًا في البلادِ

من نسيمٍ كأن مَسْراهُ في الأَرْ
واحِ مَسْرَى الأرواحِ في الأَجْسَادِ

حَمَلَتْ شُكْرَهَا الرِّياحُ فأدَّتْ
ما تؤدِّيه أَلْسُنُ العُوَّادِ

تتداعَى بها حَمائمُ شتَّى
كالبَواكي وكالقِيَانِ الشوادِي

مِنْ مَثانٍ مُمَتَّعاتٍ قِرانٍ
وَفراد مُفَجَّعاتٍ وِحادِ

تَتغَنَّى القِرانُ منْهُنَّ في الأَيـ
لِ ، وتَبْكِي الفرادُ شَجْوَ الفِرادِ

ومن إبداعه في وصف الشباب والشيب والبكاء على عهد الصبا قوله:

وَقُلْتُ مُسَلِّمًا للشيب: أَهْلاً
بِهادِي المُخطئينَ إلى الصَّوابِ

أَلَسْتَ مُبَشِّري في كلِّ يَوْمٍ
بوشْكِ تَرَحُّلي إثرَ الشبابِ؟

لَقَدْ بشَّرْتَني بِلِحاقِ ماضٍ
أَحَبُّ إليَّ مِنْ بَرْدِ الشَّرَابِ

ولقد عاش ابن الرومي صبيًّا في زمن الخلفاء المعتصم والواثق والمتوكل، وقضى أربع سنوات في عهد المعتضد ولكنه لم يمدح إلا المعتضد بقليل من شعره الذي لم يدر عليه الربح على غرار معاصريه من الشعراء؛ وذلك للتناقض الذي ينتاب سلوكه نحو الناس، فكان يمدح الشخص ثم لا يلبث أن يهجوه فجرَّ عليه ذلك عداوة الكثيرين.

وكانت العنجهية الجامحة تستولي على نفسه فيخال أنه فوق مستوى الناس وأنه جدير بالاهتمام والتبجيل وأن من لا يكرّمه حقير القدر وجدير بأن يهجوه ويحطّ من كرامته، ولحدة موهبته الشعرية كان يرفع ممدوحه إلى السماء ويخفض من يهجو إلى الحضيض، ومن أمثلة ذلك الهجو الشديد قوله في رجل يدعى ابن يوسف:

ويحَ ابن يُوسفَ لَيْتَ الوَيْحَ عاجَلَهُ
فما يُدانِيهِ في بَلْواهُ أَيُّوبُ!

طولٌ وعرضٌ بلا عقلٍ ولا أدب
فليس يحسن إلاّ وهو مَصْلوبُ

ولقد أسرف شاعرنا في الهجو حتى غلب عليه وشهر به وحتى ضرب به المثل فقيل «أهجى من ابن الرومي».

أما في الرثاء فابن الرومي يعد من المبرزين في هذا اللون من القريض ولاسيما في رثاء الأبناء، فهو يضارع في هذا المجال جريرًا، وأبا العتاهية والتهامي وابن عبد ربه، وقد أجاد في رثاء ابنه الأوسط «محمد» بقصيدة تعد من أرق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز، وقد استهلها مخاطبًا عينيه بقوله:

بُكَاؤُكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لا يُجْدِي
فَجودَا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي

أَلاَ قَاتَلَ اللهُ المَنَايَا ورَمْيَهَا
مِنَ القومِ حَبَّاتِ القُلُوبِ عَلَى عَمْدِ

تَوَخَّى حِمَامُ المَوْتِ أوْسَطَ صِبْيَتِي
فللَّهِ كيفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ العِقْدِ

طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي فَأَضْحَى مَزَارُهُ
بَعِيدًا عَلَى قُرْبٍ قَرِيبًا على بُعْدِ

وكان ابن الرومي من المتشائمين المتطايرين، فكان يتشاءم من بعض الألفاظ والأسماء والحوادث ويحبس نفسه في بيته

فلا يبرحه أيامًا، وكان الناس يتشاءمون منه كما كان يتشاءم منهم، فصار موضع سخريتهم وتندرهم، وما من شك في أن هذا السلوك يرجع إلى ضعفه ومرض أعصابه كما يرجع إلى آفات عصره المليء بالتناقض والأمراض الاجتماعية، ومن جهة أخرى كان أدبه أكبر من عقله، فقد قال عنه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران «إنه أحد من يقال: إن أدبه كان أكثر من عقله وإنه كان يتعاطى علم الفلسفة»، ويدل ذلك على أن خياله كان أقوى من قوة التعقل والتحليل فيه؛ ولهذا كان يربط الحوادث بغير أسبابها ويعللها بالوهم المسموم.

وكانت له فلسفة في الحياة فتعدى في النظر إليها حدود الطبيعة إلى حدود العواطف وعلاقات الناس، وله في ذلك حكم رائعة منها التعبير عما يخالج النفس من تطلع إلى الحياة منذ الطفولة وتخيله لشرها فيقول:

لما تُؤذِنُ الدّنْيَا بِهِ مِنْ صُروفِهَا
يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعةَ يُولَدُ

وَإِلاّ فَمَا يُبْكيهِ مِنْهَا وإِنَّهَا
لأَرَحْبُ مما كان فيه وَأَرْغَدُ

إذا أبصرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ
بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أذاها يُهدَّدُ

وبعد أن مدح ابن الرومي أبا القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد هجاه؛ ولذا يقال إن هذا الوزير دسّ له السم في الطعام فمات مسمومًا عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) بالغًا من العمر ٦٢ سنة هجرية. ويقول ابن خلكان إن ابن الرومي لما شعر بالسم يسري في جسمه قام من مجلس الوزير أبي القاسم ابن عبيد الله، فقال له الوزير «إلى أين تذهب»؟ فردّ عليه ابن الرومي: «إلى الموضع الذي أرسلتني إليه»، فاستطرد الوزير قائلاً: «سلم على والدي»، فردّ ابن الرومي: «ليس طريقي يمر على النار»، غير أن الأستاذ العقاد يستبعد حدوث هذه الواقعة ويدلل على ذلك بأن عبيد الله بن سليمان والد الوزير أبي القاسم توفي بعد موت ابن الرومي، ومن ثمّ فلا معنى لقول الوزير: «سلم على والدي» وهو مازال حيًّا يرزق.

وعندما كان في طور الاحتضار دخل عليه أبو عثمان الناجم فوجد عنده ماء وخنجرًا مجردًا، ولما سأله عنهما قال: الماء أبل به حلقي فقلما يموت الإنسان إلا وهو عطشان. والخنجر إن زاد عليَّ الألم نحرت نفسي به، ثم أنشد قائلاً:

أبا عثمانَ! أنتَ قَرِيعُ قَوْمِكْ
وَجُودُكَ للعشيرةِ دونَ لَوْمِكْ

تَمَتَّعْ مِنْ أَخِيكَ، فَمَا أَرَاهُ
يَراكَ، ولا تَرَاهُ بَعْدَ يَوْمِكْ

ويدعي أهل بغداد أنه كان «شيعيًّا» ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية التي رثا بها أبا الحسين يحيى بن عمر ابن حسين بن زيد بن علي وكان قد خرج عن طاعة العباسيين فقتلوه، وقد استهل ابن الرومي هذه القصيدة بقوله:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ
طَرِيقَانِ شَتَّى، مُسْتَقِيمٌ وَأَعْوَجُ

أَلاَ أَيُّهَذَا النَّاس طَالَ ضَرِيرُكُمْ
بِآلِ رَسُولِ اللهِ، فَاخْشَوْا أَوِ ارْتَجُوا

أَكُلَّ أَوَانٍ للنَّبيِّ مُحَمَّدٍ قَتيلٌ زكيٌّ، بِالدِّمَاءِ مُضَرَّجُ؟

تَبيعُونَ فيهِ الدِّينَ شَرَّ أَئِمَّةٍ فللَّه دِين الله، قَدْ كَادَ يَمْرَجُ!

ومن شعر ابن الرومي الذي صار مثلاً يُضرب للدلالة على كل من ينقلب على أهله أو أصدقائه وقت المحن والكوارث ولا يناصرهم ويناصر خصومهم هذه الأبيات:

تَخَذْتُكُمو دِرْعًا حَصِينًا لِتَدْفَعُوا نِبالَ العِدَى عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصالَها

وَكَمْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْكُمُو خَيْرَ نَاصِرٍ عَلَى حِينِ خُذْلانِ اليَمِينِ شِمالَها

فإنْ كُنْتُمُو لاَ تَحْفظُونَ مَوَدَّتي ذِمامًا فَكُونُوا لاَ عَلَيْهَا وَلا لَهَا

قِفُوا وقْفةَ المَعْذُورِ مِنِّي بِمَعْزِلٍ وَخَلُّوا نِبالي للعِدَى ونِبَالَهَا

وقد وصف أبو العلاء المعري تطاير ابن الرومي وتشاؤمه في رسالة الغفران بأسلوب شيق ممتع، ولابن الرومي ديوان حافل بالقصائد جمعه ورتبه الصولي، وقد عاش هذا الشاعر متأثرًا بمزاجه اليوناني وبالثقافة العربية أيضًا، فجاء شعره صورة طريفة من حيث الابتكار والتنسيق المنطقي والاستقصاء في أسلوب جزل متين، ومن أجزل ما قال في وصف الغناء الشجي:

أَشْتَهِي في الغِناءِ بُحَّةَ حَلْقٍ خَافِتِ الصَّوْتِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ

كَأَنِينِ المُحِبِّ أَضْعَفَهُ الشَّوْ قُ فَضَاهَى بِهِ أَنِينَ العُودِ

وكأني به يصف بحة صوت المرحومة منيرة المهدية التي كان لِبَحَّة لهاتها في الغناء رنين يسلب العقول ويشنف الآذان في عذوبة نادرة ورخامة حلوة.

ومن روائع غزله هذه القصيدة التي يصف بها «وحيد» المغنية:

يا خَلِيليَّ! تَيَّمَتْني «وَحِيدُ» فَفُؤادِي بِهَا مُعنّى عَمِيدُ

غَادَةٌ زَانَهَا مِنَ الغُصْنِ قَدٌّ وَمِنَ الظَّبْيِ مُقْلَتَان وَجِيدُ

وَزَهَاهَا مِن فَرْعِهَا وَمِنَ الخَدَّ يْنِ ذَاكَ السَّوَادُ والتَّوْرِيدُ

وَغَرِيرٍ بِحُسْنِهَا قال: صِفْهَا قلْتُ: أَمْرَانِ بَيِّنٌ وَشَدِيدُ

سهل القَوْلُ أنها أَحْسَنُ الأَشْيَـ ـياءِ طُرًّا وَيصعبُ التَّحْدِيدُ

تتجَلَّى للنَّاظِرِين إِلَيْهَا
فَشَقِيٌّ بحسنِهَا وَسَعِيدُ

ظَبْيَةٌ تَسْكُنُ القُلُوبَ وتَرْعَا
هَا وقُمْرِيَّةٌ لَهَا تَغْرِيدُ

تَتغنَّى كَأَنَّهَا لا تُغَنِّي
مِنْ سُكُونِ الأَوْصَالِ وَهْيَ تُجِيدُ

لاَ تَرَاهَا هُنَاكَ تَجْحَظُ عَيْنٌ
لَكَ مِنْهَا، ولا يَدِرُّ وَرِيدُ

مَدَّ في شَأْوِ صَوْتِها نَفسٌ كا
فٍ كَأَنْفَاسِ عَاشِقِيها مَدِيدُ

وأَرَّقَ الدَّلاَلُ والغُنْجُ مِنْهُ
وَبَرَاهُ الشَّجَا فَكَادَ يَبِيدُ

فتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا
مُسْتَلذٌّ بَسِيْطُهُ وَالنَّشِيدُ

عَيْبُهَا أَنَّهَا إِذَا غَنَّتِ الأَحْرَارَ
ظَلُّوا وهُمْ لَدَيْهَا عَبِيدُ

حُسْنُها فِي العُيُونِ حُسْنٌ جديدٌ
فَلَهَا فِي القُلُوبِ حُبٌّ جديدُ

وما من شك في أن هذا الوصف البديع الحلو الجرس والمعاني يجعل من «وحيد» المغنية ربة جمال نادر وصوت لا يدانيه صوت في ذلك العهد الذي كان الغناء في مجالسه من مستلزمات الحياة المترفهة، وما من شك في أن هذه الأبيات الرائعة النظم قد خلدت «وحيد» في سجل تاريخ الأدب العربي عبر القرون.

وتأثر ابن الرومي في شعره الغزلي بالحب الأفلاطوني فبعد أن كان الغزل المكشوف في العصر الأموي مقصورًا على الإماء، والغزل العذري يقال للحرائر صار الغزل المكشوف لونًا ثالثًا من ألوان الغزل في عصره، فالحب الأفلاطوني يبيح للمحب كل شيء عدا الاتصال الجنسي، على حين أن الحب العذري عند العرب في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي كان حبًّا بريئًا يعتبر الضم والتقبيل ضربًا من الزنى، ويظهر تأثر ابن الرومي بالحب الأفلاطوني، ولاسيما بعد ترجمة كتب أفلاطون إلى العربية، في قوله المشهور:

أُعَانِقُهَا والنفسُ بعدُ مَشُوقَةٌ
إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ العِنَاقِ تَدَانِ

وَأَلْثمُ فاها كي تَمُوتَ صَبابَتي
فَيَشْتَدُّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ هَيَمانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يشْفي غَلِيْلَهُ
سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمتَزِجانِ

١١٣- ابن زُريق - شارع - بقسم الرمل

هو فهد بن زُريْق البغدادي الذي رحل من مسقط رأسه «بغداد» إلى بلاد الأندلس في طلب منحة مالية كان يطمع في الحصول عليها من الخليفة الأُموي هناك، وكان يبغي من وراء رحلته العودة إلى بغداد وقد ناله الثراء من شعره فيصبح في المستوى المالي الذي يرضى به عمه، ليزوجه من ابنته التي أحبها إلى درجة الوله، ولكن الخليفة الأُموي لم يحقق أمنيته إذ منحه مبلغًا ماليًّا ضئيلاً، وإزاء هذا الإخفاق القاسي، وهذا الحظ العاثر ضاقت الدنيا في عيني ابن زريق ولم يجد بُدًّا من التخلص من حياة لم تحقق أمانيه العذاب، وغايته الأساسية، وهي الزواج من بنت عمه، فعمد إلى خنجره، وطعن به قلبه المظلوم طعنة نافذة صرعته في الحال، ولدى اكتشاف جثته، وجدت تحت وسادته القصيدة الشهيرة العذبة الجرس، الرائعة المعاني، التي قالها عند رحيله من بغداد، والتي منها الأبيات التالية:

لا تَعْذليهِ فَإنَّ العَذلَ يولِعُهُ
قَدْ قُلْتِ حَقًّا ولكنْ ليسَ يَسْمَعُهُ

جاوَزْتِ في لومهِ حَدًّا أَضَرَّ بِهِ
مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتِ أنَّ اللومَ يَنْفَعُهُ

فاسْتَعْملي الرفقَ في تأْنيبهِ بَدَلاً
مِنْ عَتْبِهِ فَهْوَ مُضْنَى القلبِ مُوجَعُهُ

إلى أن يقول:

أَسْتَوْدِعُ الله في بغدادَ لي قَمَرًا
بالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ

وَدَّعْتُهُ وَبودِّي لَوْ يُوَدِّعُني
صَفْوُ الحياةِ وَأنِّي لا أُوَدِّعُهُ

وكَمْ تشَبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضحى
وَأَدْمُعي مُسْتَهِلاتٌ وأدْمُعُهُ

وكَمْ تشفَّعَ أني لا أفارِقُهُ
وللضَّروراتِ حالٌ لا تشفعُهُ

وهكذا انتهت حياة هذا الشاعر البائس ولو أنصفه الحظ ونال بغيته، لكان في وسعه إضافة طرائف فنية من شعره إلى التراث العربي الأدبي، ولكن صروف الدهر العاتية لم تنصفه، فقضى نحبه ساخطًا على الدنيا، ومن فيها، وما فيها.

١١٤- ابن زكي الدين - شارع - بقسم محرم بك

هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن القرشي الملقب محيي الدين المعروف بابن زكي الدين، وينتهي نسبه إلى الخليفة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة)، وكان من ذوي الفضل في الفقه، والأدب، وغيرهما من العلوم والمعارف، ويجيد نظم الشعر، والخطابة وله رسائل شتى في مختلف ألوان المعرفة، وقد تولى القضاء بمدينة دمشق عام ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، وكانت له عند السلطان صلاح الدين الأيوبي

(انظر مادة صلاح الدين) مكانة مرموقة، وقد مدح هذا السلطان بقصيدة عندما فتح مدينة حلب في شهر صفر عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) قال فيها:

وفتحَكَ القلعةَ الشهباءَ في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوحِ القُدْسِ في رَجَبِ

وكان كما قال، فإن القدس فتحت في شهر رجب عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وعقب فتح صلاح الدين لحلب عَيَّن ابن زكي الدين على قضائها، ولما دخل صلاح الدين القدس منتصرًا خطب ابن زكي الدين يوم الجمعة فقال بعد الآيات القرآنية «الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفّار بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعَدْله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، واستمر في خطبته فصيحًا في تعبيراته قويًّا في سنده، مما يدل على سعة علمه، وغزارة مادته، وله ديوان شعر مطبوع.

وكانت ولادته بدمشق عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م)، وكان والده أبو الحسن الملقب زكي الدين قاضيًا بدمشق، وكان كثير الخير تقيًّا، وتوفي أبو المعالي محي الدين ابن زكي الدين بدمشق في ٧ شعبان عام ٥٩٨ هـ (١٢٥١م)، بالغًا من العمر ٤٦ عامًا، ودفن بسفح جبل قاسيون.

١١٥- ابن زنكي - شارع - بقسم محرم بك

١١٦- ابن زنكي - شارع - بقسم العطارين

يحمل لقب ابن زنكي أربعة ممن دوَّن التاريخ سيرهم وهم:

١) عماد الدين بن قاسم الدولة آق سنقر بن عبد الله ابن زنكي: كان أتابك الموصل ومن أبرز الأمراء في العهد السلجوقي، وقد أقطع السلطان ملكشاه (انظر هذه المادة) والد ابن زنكي مدينة حلب، فلما مات هذا السلطان فقد ابن زنكي وهو في سن الطفولة أملاك أبيه التي آلت إلى السلطان تتش أخي السلطان ملكشاه، وبرز اسمه في عهد ولاة الموصل الذين حكموا بعد السلطان تتش، فأقامه والي بغداد آق سنقر البرسقي على واسط عام ٥١٦هـ (١١٢٢م)، ثم تولى ابن زنكي الولاية على مدينة البصرة، علاوة على واسط، وفي عام ٥٢١هـ (١١٢٧م) أقيم ابن زنكي واليًا على الموصل، وقد عهد إليه السلطان محمود السلجوقي تعليم ولديه ألب أرسلان وفرخ شاه، وخلع عليه لقب الأتابك، وفي تلك السنة نفسها استولى ابن زنكي على نصيبين وسنجار وحرَّان، وفي عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) استولى على حلب، ثم على حماة ولكنه أخفق في الاستيلاء على حمص ودمشق، ومن أعماله الحربية استيلاؤه على حصن الأثارب الواقع بين حلب وأنطاكية وتخريبه، وكان يحتله الصليبيون، وفي عام ٥٣١هـ (١١٣٧م) حاصر ابن زنكي حمص واستنجد قائد حصن حمص بالملك الصليبي «فولك Fulk» صاحب بيت المقدس الذي هُزِم شر هزيمة واستسلمت حمص، وتغلب ابن زنكي على الصليبيين في عدة مواقع انتهت باستيلائه على

حلب وشيزر، وبحصوله على الغنائم الوفيرة، وكان ذلك خلال عام ٥٣٢هـ (١١٣٨م)، وفي العام نفسه سلم والي دمشق إلى ابن زنكي مدينة حمص فخرج في عام ٥٣٣هـ (١١٣٩م) في حملة على بعلبك فاستسلمت له بعد مقاومة عنيفة، وفي ٥٣٤هـ (١١٣٩م) حاصر دمشق غير أن الأمير معين الدولة لجأ إلى الصليبيين فرفع ابن زنكي الحصار عن دمشق وعاد إلى الموصل، وبعد أن استولى على عدة معاقل أعلن السلطان مسعود عليه الحرب، فطلب ابن زنكي الصلح، وفي عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) انتزع من الصليبيين مدينة الرها الهامة، وبعد عامين هاجم قلعة جعبر في الجزيرة؛ حيث اغتاله بعض المماليك في ٥ من ربيع الثاني عام ٥٤١هـ (٢٤ من سبتمبر ١١٤٦م).

٢) **مسعود بن مودود بن زنكي:** سلطان الموصل، وقد حاربه السلطان صلاح الدين الأيوبي للاستيلاء عليها خلال عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) فخضع ابن زنكي وعقد بينهما الصلح على أن يعترف مسعود بسيادة صلاح الدين الأيوبي.

٣) **أبو بكر بن مسعد بن زنكي:** أتابك فارس من الأسرة السلغورية، لم يشأ أن يقر شروط الصلح التي انتهى إليها أبوه مع السلطان محمود خوارزم شاه عام ٦٢٣هـ (١٢٣٦م) فدبَّر لأبيه كمينًا أثناء عودته إلى شيراز ولطمه بسيفه دون أن يجرحه فضربه أبوه بصولجانه فأوقعه على الأرض ثم سجنه في قلعة اصطخر، واستعاد أبو بكر حريته في العام نفسه بعد وفاة أتابك سعد عام ٦٢٣هـ (١٢٢٦م)، وقد أعاد أبو بكر ابن زنكي الرخاء إلى إقليم فارس وضم إليه بعض جزر الخليج العربي واستولى على بعض البلدان الواقعة على شاطئ جزيرة العرب، منها قطيف والبحرين ودانت له بعض بلاد الهند بالطاعة، ورمم ابن زنكي المباني العامة بشيراز التي شيد بها بيمارستان (مستشفى)، وعندما اقترب المغل في غاراتهم بعث ابن زنكي أخاه إلى أغتاي الذي أقر أبا بكر على ممتلكاته ولقّبه بالأمير السعيد في مقابلة دفع إتاوة قدرها ثلاثون ألفًا من القطع الذهبية، وكان ابن زنكي يحب أن يتخذ لنفسه بطانة من الدراويش والمتصوفة، كما كان أحد الذين شملوا الشاعر السعدي (انظر هذه المادة) برعايتهم فخصّه هذا الشاعر ببعض قصائده الجميلة في مقدمة كتابه المسمى «جلستان».

٤) **نور الدين محمود بن زنكي:** ويسميه بعض المؤرخين «نور الدين زنجي» ولد عام ٥١٢هـ (١١١٨م) ويلقب بالملك العادل، وقد تبوّأ منصب «أتابك حلب ودمشق»، وجاهد طول حياته في محاربة الصليبيين والعمل الجاد على إجلائهم عن البلاد السورية والفلسطينية، وكان عنصرًا قويًّا في التمهيد لصلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح الدين) بأن يفوز بانتصاراته الباهرة في الحروب الصليبية.

ونجد نور الدين بن زنكي عنصرًا بارزًا في الاشتباكات المسلحة التي توالت في عهد الخليفة الفاطمي «الفائز بنصر الله» (انظر مادة الفائز)، وكانت هذه الاشتباكات تتحول إلى معارك عنيفة من وقت إلى آخر، وفي ذلك الحين قوي أمر ابن زنكي ولاسيما بعد أن ضم مدينة دمشق إلى ملكه عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م).

وكان طغيان الوزراء واستبدادهم في الحكم بمصر يزداد على مر الأعوام لدرجة أن الوزير الصالح «طلائع بن رزيق» عمد إلى اختيار طفل صغير ليلي الخلافة الفاطمية عقب وفاة «الفائز بنصر الله»، وقد لقب هذا الخليفة فيما بعد

«بالعاضد لدين الله»، وكان آخر خلفاء الدولة الفاطمية التي كانت تحتضر في أيامه.

وأدى استبداد الوزراء بشؤون هذه الدولة إلى أن منصب الوزير صار محطّ أنظار قواد الجيش وكبار رجال الحكم وقامت بينهم منافسة دامية للوصول إلى هذا المنصب الممتاز، وكان النزاع الذي قام بين الوزير «شاور» في عهد العاضد وبين «ضرغام» صاحب الباب آخر مراحل هذا التنافس الخبيث، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام فتولى الوزارة وهرب شاور إلى الشام، ويدعى ضرغام بأبي الأشبال (انظر مادة ضرغام).

وكانت البلاد الشامية في ذلك الحين في قبضة قوتين إحداهما إسلامية على رأسها نور الدين بن زنكي والأخرى صليبية تتحكم في السواحل وفي فلسطين، وقد لجأ الوزير «شاور» إلى ابن زنكي ومازال به حتى وافق على تزويده بجيش لمحاربة خصمه «ضرغام» وعودته إلى الوزارة، وكان ابن زنكي يهدف من هذه الموافقة إلى توحيد الجبهة الإسلامية لمقاومة الخطر الصليبي ثم القضاء عليه.

وتوجه جيش نور الدين إلى مصر بقيادة «أسد الدين شيركوه» صحبة ابن أخيه «صلاح الدين» (انظر هذه المادة) فاستنجد ضرغام بالصليبيين في الشام ولكن جيش شيركوه انتصر عليه وقتله وأعاد «شاور» إلى الوزارة.

ولم يف «شاور» بوعده لابن زنكي بأن يدفع له ثلث إيرادات مصر مع الولاء له فعسكر «أسد الدين شيركوه» في بلبيس فلجأ شاور إلى «أموري» ملك بيت المقدس الصليبي فأسرع بالجيش إلى نجدة شاور وحاصر بلبيس ثلاثة أشهر عام ٥٥٩هـ (١١٦٣م)، وأحسَّ ابن زنكي أن جيشه في خطر فشدد الضغط على أملاك الصليبيين في الشام فاستنجد «أموري» بملوك أوروبا فلم يستجيبوا له فلجأ إلى الاستعانة بالإمبراطور البيزنطي «مانويل» الذي أرسل إليه أسطولاً وحملة من الفرسان والمشاة مزودة بالمؤن والعتاد فأحاط بدمياط (انظر هذه المادة) برًّا وبحرًا في شهر صفر عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) وكان «مانويل» يطمع في توسيع رقعة البلاد التي تخضع لنفوذه، وأخيرًا اتفق «أموري» مع «شيركوه» على الانسحاب معًا من مصر وخرجت القوتان لتعودا إليها مرتين، وكان النصر في النهاية لجيش ابن زنكي بقيادة «شيركوه» الذي قتل شاور لخيانته واستعانته بالصليبيين المرة تلو الأخرى، واختار الخليفة الفاطمي «العاضد» شيركوه للوزارة فتولاها شهرين ثم توفي فحل محله ابن أخيه صلاح الدين.

وأسرع صلاح الدين لمحاربة الحملة الصليبية على دمياط وأمده ابن زنكي بالعون الكبير فاستطاع منع الفرنجة وحلفائهم من التوغل داخل البلاد المصرية ووقع الخلاف بينهم واشتدت هجمات ابن زنكي على أملاكهم في الشام فرحلوا عن دمياط وعجزت حملتهم عن تحقيق مطامعها في مصر، وقد دام حصار دمياط خمسين يومًا.

وبقي صلاح الدين على ولائه المزدوج لابن زنكي السنِّي وللخليفة الفاطمي «العاضد» الشيعي، وكان ابن زنكي يبغي قطع الخطبة في مصر للفاطميين لكرهه للمذهب الشيعي، ولتحقيق رغبة الخليفة العباسي في أن تقام له الخطبة في مصر، ولكن صلاح الدين كان أدرى من ابن زنكي بالأمور فأنشأ المدارس السنيَّة وتبعه في ذلك أفراد أسرته ورجال دولته، ثم عين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيًا للقضاة، وأخيرًا

تطوع الفقيه «الأمير العالم» ودعا للخليفة العباسي في يوم الجمعة الأول من محرم عام ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وفي يوم الجمعة التالي أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي «المستضيء بنور الله» في مساجد الفسطاط والقاهرة وبذلك قطع آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية، وتوفي العاضد – آخر خلفاء الفاطميين – في اليوم العاشر من شهر المحرم عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) ودالت الدولة الفاطمية في مصر بعد حكم دام حوالي مائتي عام.

وكان صلاح الدين قد طلب من ابن زنكي السماح لأبيه نجم الدين أيوب وأهله بالرحيل إلى مصر، فكان نجم الدين خير عضد لابنه لما كان عليه من ذكاء ودهاء وخبرة.

ويُعد ابن زنكي من الحكام البارزين ذوي السلطة والسيطرة القوية، وقد ازدهرت في عهده دراسة الطب في مصر والشام شأنه في ذلك شأن صلاح الدين الأيوبي إذ كثر في عهديهما عدد المستشفيات «البيمارستانات» في القاهرة ودمشق وشجعا دراسة الطب إلى أقصى حد وأحاطا رجاله بالرعاية وأَمَدَّا الأطباء بكل الوسائل الممكنة في ذلك العصر، وكان من بين العلماء الأعلام الذين وفدوا من بغداد على القاهرة ودمشق «عبد اللطيف بن يوسف».

وتوفي نور الدين محمود بن زنكي عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) بدمشق بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا، وكان رحمه الله على اتصال سياسي مستمر بالوزير أبي الحسن بن السلاّر وزير الخليفة الفاطمي «الظافر»؛ لأنه كان سنيًّا شافعيًّا مثله، وكان من نتائج هذا الاتصال السياسي المذهبي أن أقام ابن السلاّر مدرسة للفقيه الشافعي الحافظ السلفي (انظر مادة السلفي) بالإسكندرية لتدريس الفقه على المذهب الشافعي، وقد ظلت هذه المدرسة تؤدي رسالتها العلمية عدة قرون.

١١٧- ابن زُهر – حارة – بقسم كرموز

«ابن زهر» لقب يطلق على أفراد أسرة من العلماء المسلمين الذين نشؤوا في الأندلس من بداية القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وقد هاجر آباؤهم الأولون من بلاد العرب، ولذا يتصل نسبهم بعدنان، واستقروا أول أمرهم في جفن شاطبة بجنوب الأندلس الشرقي ثم تفرقوا في أنحاء إسبانيا وقد جاء جدهم الأكبر مع موسى بن نصير، وعلماؤهم المبرزين هم:

١) **زُهر الإيّادي**: وهو الجد الأعلى للأسرة، وقد خلف هذا الجد ولدًا يدعى مروان، وهو والد أبي بكر محمد أول من كان لهم شأن هام إذ كان فقيهًا، اشتهر بالعلم والتقوى والفصاحة والكرم، وتوفي في طلبيرة عام ٤٤٢هـ (١٠٣٠م) بالغًا من العمر ٨٦ عامًا.

٢) **أبو مروان عبد الملك محمد بن مروان بن زُهر**: وهو ابن أبي بكر محمد بن زهر، وكان طبيبًا مشهورًا مارس مهنته في القيروان بتونس، ثم مارسها مدة طويلة بالقاهرة، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس واستقر في دانية، حيث ألحقه أميرها بالبلاط فذاع صيته في أنحاء البلاد، وكان إلى جانب الطب فقيهًا واسع العلم، وتوفي في دانية، ولا يعرف تاريخ ميلاده، أو وفاته على وجه التحديد، وتقول بعض الروايات: إن وفاته كانت خلال عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م).

٣) أبو العلاء زُهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد ابن مروان: ابن صاحب الترجمة السابقة ويكنى عادة بأبي العلاء، وحرفت هذه الكنية في العصور الوسطى فصارت «أبو الي Abaali»، وكان طبيبًا مثل أبيه الذي درّبه على الطب أحسن تدريب، كما تدرب على أبي العيناء المصري، ومن ثَمَّ كان دقيقًا في تشخيص الأمراض لدرجة مدهشة، ومن جهة أخرى درس الأدب، والحديث في قرطبة، وأفاد من دروس كبار شيوخ عصره فذاعت شهرته وألحقه المعتمد آخر أمراء بني عبّاد في إشبيلية ببلاطه وغمره بالنعم، وبعد أن خلف يوسف بن تاشفين المرابطي المعتمد به عبّاد عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) انضم أبو العلاء بن زهر إلى ابن تاشفين فاستوزره، وتوفي أبو العلاء بقرطبة، ونقل جثمانه إلى إشبيلية عام ٥٢٥هـ (١١٣٠م).

٤) أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زُهر: ابن صاحب الترجمة السابقة ولد بإشبيلية في حوالي عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)، وبعد دراسة الأدب، والفقه، وعلوم الشريعة، علّمه أبوه الطب، وبلغ فيه مرتبة أستاذ في قليل من الزمن، وبرز على الأخص في الأقرابازين، وقد خدم المرابطين، ثم الموحدين وكان صديق ابن رشد الحميم، وقد حقّره علي بن يوسف أمير مراكش، وسجنه، وقد انحاز ابن زهر إلى الموحدين، وصار في ركاب عبد المؤمن الكومي، أول أمراء الدولة الموحدية، فاستوزره، ومنحه الجوائز العظيمة، وأهم مؤلفاته «الاقتصاد في إصلاح النفس والأجساد» وكتاب «التيسير في المداواة والتدبير» وهو موسوعة من ثلاثة أجزاء تبحث في العقاقير، وتركيبها، وحفظها، ووصف القالب الذي توضع فيه المساحيق فتخرج أقراصًا سهلة التناول، فكان بذلك من أوائل الذين مهدوا لصناعة الأقراص الصيدلية، كما كان أول من كشف عن مرض الجرب، وعرف الأمراض السرطانية، ووصفها وصفًا دقيقًا، وأثّر ابن زهر في الطب الأوروبي وبقي هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وذلك عن طريق ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية، وقد أضاف إلى الطب نظريات مبتكرة تقوم على الحقائق كوصفه لخراج التامور، وهو السرطان من الأمراض التي لم توصف من قبل، وهو أول طبيب عربي أشار بعملية شق الحُجُب وكان عالمًا بالتغذية الصناعية عن طريق الحلقوم، أو الشرج، وله كتاب في هذا المجال بعنوان «الأغذية» وتوفي ابن زهر بورم خبيث في إشبيلية عام ٥٥٧هـ (١١٦١م)، ودفن خلف باب النصر، وكان عمره عند الوفاة ٦٨ عامًا، واسمه عند الإفرنجة «Avenzoar» وكان أكبر طبيب في زمانه في الإسلام والمسيحية على السواء.

٥) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر: هو الابن الوحيد لصاحب الترجمة السابقة، ويعرف بالحفيد، ولد عام ٥٠٤هـ (١١١٠م)، وكان هو أيضًا طبيبًا ماهرًا، وخلف رسالة في طب العيون وتمتع بشهرة عظيمة في الأندلس وشمال إفريقيا، ولم يعرف عند الأوروبيين، وشهرته الممتازة ترجع إلى إتقانه الأدب والشعر، وشعره يفيض بالرقة، وكان ماهرًا في فن الولادة وأمراض النساء، وفي بلاط الخليفة يعقوب بن يوسف الموحدي دسّ له الوزير أبي زيد ابن بوجان السم، فمات في مراكش عام ٥٩٥هـ (١١٩٨م) وأوصى أن تكتب على قبره أبياته التالية:

تأمَّلْ بِفَضْلكَ يا واقِفًا

ولاحِظْ مكانًا دُفِعْنا إليْهِ

ترابُ الضريح على صفحتي
كأني لم أَمْشِ يومًا عَليه

أُداوي الأنامَ حِذار المنون
فها أنا قد صرتُ رَهْنًا لَدَيْه

ويذكر تاريخ الأدب لابن زهر الحفيد موشحه الرائع الراقص الذي يقول فيه:

أَيُّها الساقي إِلَيك المشتَكى
قد دَعَوْناكَ وَإِنْ لَمْ تسْمَعِ

ونديمٍ هِمْتُ في غُرَّتِهِ
وشَرِبْتُ الراحَ من راحَتِهِ

كُلَّما اسْتَيْقَظَ مِنْ سَكْرتِهِ
وَسَقاني أَرْبَعًا في أَرْبَعِ

غُصْنُ بانٍ مالَ مِنْ حَيْثُ استوى
باتَ من يَهْواهُ مِنْ فَرْطِ الجَوَى

خَفِقَ الأحْشاءِ مَوْهونَ القُوَى
كلَّما فكَّرَ في البَيْنِ بكا

ما لَهُ يَبكي لما لم يَقَعِ
ليسَ لي صبرٌ ولا لي جَلَدُ

يا لَقَوْمي، عَذَلوا واجتهدوا
أنكروا شكوايَ مما أجِدُ

مثلُ حالي حقُّه أن يَشتكي
كَمَدَ اليأسِ وَذُلَّ الطمعِ

ما لعيني عَشِيَتْ بالنظرِ
أنكرت بَعْدَكَ ضَوْءَ القَمرِ

وإذا ما شئتَ فاسمعْ خبري
شَقِيَتْ عَيْنايَ مِنْ طولِ البكا

وبكا بعضي على بعضي معي
كَبِدٌ حَرَّى ودمعٌ يكِفُ

يَعْرِفُ الذنبَ ولا يعترف
أَيُّها الْمُعْرِضُ عما أَصِفُ

قد نما حُبّك عندي وزكا
لا يظنُ الحِبُّ أني مُدَّعي

وولد لأبي بكر بن زهر ابنة كانت طبيبة مولدة ماهرة، وهذه ولدت ابنة أخذت عن أمها الطب، وبرعت فيه كما أخذت عن خالها، أبو محمد عبد الله صاحب الترجمة الآنية، وماتت مسمومة معه في مراكش.

٦) **أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر:** ابن صاحب الترجمة السابقة، ولد عام ٥٧٧هـ (١١٨١م) في إشبيلية،

وكان مثل أبيه طبيبًا ماهرًا ناجحًا، وقد التحق ببلاط الموحدين ومات مسمومًا في مراكش عام ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) بالغًا من العمر ٢٥ عامًا، ونقلت رفاته إلى إشبيلية، وكان لأبي محمد عبد الله ولدان أصغرهما صار طبيبًا، وهو يمثل الجيل السادس للأطباء من أسرة ابن زهر التي ظل أثرها في الطب قائمًا من بعدها إلى القرن السابع عشر الميلادي.

١١٨- ابن زهير - شارع - بقسم باب شرقي (الأمير محمد علي إبراهيم سابقًا)

هو كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى (بضم السين)، وكان من الشعراء المخضرمين، وقد اعتنق أخوه بُجَيْرُ الإسلام فلامه كعب على ذلك، وهاجم النبي والإسلام بإحدى قصائده فأُهدر دمه، غير أن أخاه بُجَيْرُ أرسل إليه ونصحه بأن يُقبل على رسول الله معتذرًا، فأقبل واعتذر وأنشد بين يدي النبي قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم مَتبولُ
مُتَيَّمٌ إثرها لم يُجْزَ مَكْبولُ

إلى أن قال:

نبئت أن رسولَ الله أوعدني
والعفوُ عند رسول اللهِ مأمولُ

إن الرسولَ لنورٌ يستضاءُ به
مهندٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

وكان إلقاؤه هذه القصيدة في مسجد المدينة المنورة عام ٩هـ (٦٣٠م)، وعندما أتمها ألقى النبي عليه بردته وأهداها إليه مكافأة له، وأبياتها تفيض بالمدح الصادق القوي، وشاعرية الإحساس، وقد اشترى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان البردة النبوية من أحد أبناء كعب بن زهير، ثم احتفظ بها الخلفاء العباسيون، والخلفاء الترك، وظلت محفوظة بعاصمة الخلافة العثمانية في صندوق من التحف الثمينة، وتعرض على الوزراء والوجهاء في صبيحة يوم المولد النبوي، ويشك التاريخ المأثور في بقاء البردة النبوية الحقيقية إلى نهاية الخلافة العثمانية التي انتهت بعد الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات، وما من شك في أن البردة التي كانت لدى بني عثمان بردة حديثة غير التي خلعها رسول الله على كعب بن زهير.

وتختلف الروايات في تاريخ وفاته فالبعض يقول إنها حدثت في عام ٢٤هـ (٦٤٤م)، والبعض الآخر يصعد بها إلى عام ٤٢هـ (٦٦٢م).

١١٩- ابن زولاق - زقاق - بقسم الجمرك

هو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن ابن علي بن خالد بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثي المصري، كان عالمًا في التاريخ، وله فيه مصنف جيد، وله كتاب آخر في خطط مصر استقصى فيه الأخبار في دقة، وله كتاب في أخبار قضاة مصر جعله ذيلاً على كتاب أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (انظر مادة أبي يوسف الكندي)، الذي انتهى في هذا الكتاب التاريخي إلى سنة ٢٤٦هـ (٩٩٦م)، وكان جده الحسن بن علي بن خالد من العلماء المشاهير.

وتوفي أبو محمد ابن زولاق في ٢٥ من شهر ذي القعدة سنة ٣٨٧هـ (٨١١م)، وجاء في كتابه الذي صنفه في أخبار

قضاة مصر، وذلك في ترجمة القاضي أبي عبيد أن الفقيه منصور بن إسماعيل الضرير توفي في جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م)، ثم قال ابن زولاق أن وفاة هذا الفقيه حدثت قبل مولده هو بثلاثة أشهر، وعلى هذا التقدير تكون ولادة ابن زولاق قد حدثت في شهر شعبان عام ٣٠٦هـ (٩١٨م)، ومن ثم يكون قد توفي بالغًا من العمر حوالي ٨٢ عامًا.

١٢٠- ابن زياد - شارع - بقسم الجمرك

انظر ترجمته في «طارق» و«طارق بن زياد» إذ يقسم باب شرقي شارع باسم «طارق» وبقسم العطارين شارع باسم «طارق بن زياد» وضع عوضًا عن اسم «فنتورا».

ولعله ابن الأعرابي الكوفي، وكنيته ابن زياد أيضًا، ولد عام ١٥٣هـ (٧٧٠م)، وهو من أكابر أئمة اللغة، وقد أخذ العلم عن أبي معاوية الضرير، والمفضل الضبّي «انظر هذه المادة» و«الكسائي» (انظر هذه المادة)، وأخذ العلم عنه ابن السكيت وثعلب، ومن مؤلفاته «النوادر» و«الأنوار»، وتوفي عام ٢٣٤هـ (٨٤٨م)، وانظر ترجمته في «ابن الأعرابي».

١٢١- ابن زيدان - شارع - بقسم العطارين

هو مولاي عبد الملك بن زيدان - سلطان مراكش - وقد أرسله ملك الفرنجة عام ١٠٤٠هـ (١٦٣٠م) في أسرى النصارى لديه، وأدت المفاوضات في هذا الشأن إلى عقد اتفاق مع هؤلاء الملوك يبت في أمر الأسرى.

وفي عام ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م) اغتاله أحد عبيده.

١٢٢- ابن زيدون - شارع - بقسم العطارين

واسمه الكامل أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، وهو أحد مشاهير الشعراء في الأندلس، وكان وزيرًا لأمراء إشبيلية، ويرجع نسبه إلى أسرة عريقة تنتمي إلى قبيلة مخزوم، وقد ولد بمدينة قرطبة عام ٣٩٤هـ (١٠٠٣م)، وفقد أباه وهو في شرخ الشباب، غير أن أسرته عهدت بتربيته وتهذيبه إلى أفضل الشيوخ والمؤدبين مما جعله يتقدم على التلاميذ من زملائه، ويقرض الشعر قبيل أن يبلغ العشرين من عمره، ثم يحصل على شهرته الذائعة الصيت، وقد انغمس ابن زيدون بعد ذلك في السياسة، ولاسيما خلال الحرب الأهلية التي أثارها المطالبون بالعرش من الأمويين وأثناء المحاولات التي قام بها أهل قرطبة لإجلاء حكام شمال إفريقيا عن مدينتهم، وأدى حبه الجامح للشاعرة ولاّدة إحدى الأميرات إلى الاصطدام بمنافسه القوي ابن عبدوس وزير أبي الحزم بن جهور، ونظم القصائد التي يتحدى فيها غريمه والتهكم عليه في رسالة شهيرة، كان من نتائجها اتهام ابن عبدوس له بالتحيز والتآمر لإعادة حكم الأمويين، فزج به في السجن حيث كتب قصائده الرقيقة إلى ولاّدة، كما كتب إلى أصدقائه يدافع عن نفسه، وقد نجح صديقه أبو الوليد ابن أبي الحزم في إطلاق سراحه، وبعد أن اعتزل الناس مدة من الزمن كان خلالها يسرف في لوم عشيقته، رجع إلى قرطبة، وحاول وصل حبله بأبي الوليد الذي نجاه من السجن، غير أن طموحه كان سببًا في فشله، ومن ثم هرب، إلى قرطبة، وعاش في دانية وبطليموس وإشبيلية على التعاقب، وكانت شهرته في الشعر، ومواهبه الأدبية، ومعرفته بأحوال المسلمين بالأندلس سببًا في حظوته عند أمير

إشبيلية المعتضد، فصار كاتب سره، ثم أصبح كبير وزرائه، وكبير وزراء ابنه، وخليفته المعتمد الذي استعان به على غزو قرطبة التي صارت فيما بعد عاصمة ملكه، غير أن شهرة ابن زيدون أثارت حسد الكثيرين من رجال البلاط، وعلى رأسهم الشاعر ابن عمَّار (انظر هذه المادة)، وعندما قامت ثورة اليهود في إشبيلية عمل المتآمرون على إرساله إلى هذه المدينة لإعادة الأمن هناك فخرج هو وأسرته مشيعًا بحسرة أهل قرطبة الذين كانوا يفخرون بانتسابه إلى مدينتهم، وكان قد طعن في السن وأصابته الحمّى فعجّلت بوفاته في ١٥ من رجب عام ٤٦٤هـ (١٨ من إبريل عام ١٠٧١م)، ودفن في إشبيلية، وكان ابن زيدون شاعرًا فحلاً، وكاتبًا من الطراز الممتاز، ولاسيما في تاريخ الأدب العربي، ومن مؤلفاته رسالته لابن عبدوس، وقد شرحها ابن نباتة بعنوان «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» وقد ترجمت الرسالة إلى اللاتينية، وكذلك رسالته إلى ابن جهور، وقد ترجمت أيضًا إلى اللاتينية، وتعرف الرسالتان في الأدب العربي بعنوان «الرسالة الجدية والرسالة الهزلية».

ومن شعره وهو سجين، وهو شعر يفيض بالحكمة، ولاسيما في مطلع القصيدة الذي يقول فيه:

ما على ظنّي باسُ
يجرحُ الدهر وياسو

ربما أشرفَ بالمرْء
على الآمالِ ياسُ

ولقد يُنْجيكَ إغْفال
ويؤذيك احتراسُ

وَلَكم أَجدَى قعود
وَلَكم أكدى التماسُ

وكذا الحكمُ: إذا ما
عَزَّ ناسُ، ذَلَّ ناسُ

وبنو الأيامِ أخياف:
سُراة وخِساسُ

نَلْبَسُ الدنيا ولكن
مُتعةٌ ذاكَ اللباسُ

ومن شعره في الغزل الرفيع هذه الأبيات:

وَدَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ
ذائعٌ من سرِّه ما استودعكْ

يقرع السِّنَّ على أنْ لمْ يكن
زادَ في تلك الخُطى إذ شَيَّعك

يا أخا البَدر سناء وسنى
حفظ الله زمانًا أطلَعَكْ

إنْ يطُلْ بعدك ليلي فلكم
بِتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ معَكْ

وكان ابن زيدون يحب ولاّدة بنت المستكفي كما تقدم القول، وقد قال فيها أروع قصائده الغزلية، وأشهرها القصيدة التي بعث بها إليها بعد أن يئس من لقائها، ويؤكد لها في أبياتها الحلوة ودّه، ويعتذر من فراقها بسبب الخطوب التي ألمت به، ويبدأ هذه القصيدة بقوله:

أضحى التَنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيبِ لُقْيانا تجافينا

بِنْتُمْ وَبنَّا: فما ابْتلَّتْ جوانحنا
شوقًا إليكم، ولا جَفَّتْ مآقينا

يكادُ حين تناجيكم ضمائرُنا
يقضي علينا الأسى. . . لولا تأسِّينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودًا، وكانت بكم بيضًا ليالينا

إذ جانب العيش طلقٌ من تآلفنا
ومورد اللهو صافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانيةً
قطوفها فجنينا منه ما شينا

إلى أن يذكرها بالوفاء والبقاء على العهد فيقول:

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأيًا، ولم نتقلد غيره دينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ طالما غيَّر النأْيُ المحبينا

دومي على العهد ما دمنا محافظةً
فالحر من دان إنصافًا كما ديْنا

ويقول لولاّدة في قصيدة أخرى مطالبًا وفاءها بالعهد، ويذكر لها أرقه وسهده:

ما جال بَعْدُكِ لحظي في سنا القمر
إلا ذَكرتكِ ذكرَ العَيْنِ بالأثرِ

ولا استطلتُ ذكاءَ النفسِ من أسَفٍ
إلا على ليلةٍ سرَّتْ مع القِصَرِ

ولابن زيدون ديوان طبع في مصر عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م)، ويذكر بعض الرواة أن الأبيات المدونة قبل التي مطلعها:

وَدَّعَ الصبرَ مُحِبٌّ ودَّعَكْ
ذائعٌ من سرّه ما استودعك

هي من شعر ولاّدة بنت المستكفي نظمتها وأرسلتها إلى ابن زيدون تودعه بها.

١٢٣ – ابن الساعاتي – حارة – بقسم الجمرك

يحمل لقب «ابن الساعاتي» ثلاثة ممن دوّن التاريخ معلومات عن حياتهم وهم حسب وجودهم في قيد الحياة:

١) فخر الدين رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني (الملقب بابن الساعاتي): ولد بمدينة دمشق التي كان أبوه قد هاجر إليها من خراسان، وكان أبوه يحترف صنع الساعات وقد صنع الساعات التي وضعت على مدخل الجامع الكبير بدمشق تنفيذًا لرغبة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (انظر مادة ابن زنكي) المتوفى عام ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، وكان في الوقت نفسه من علماء الفلك، وطبيبًا ماهرًا، وعلى دراية واسعة النطاق بالأدب، وعلم المنطق، وسائر فروع الفلسفة، علاوة على سعة معرفته بصناعة الساعات.

وقد استوزره الملك الفائز بن الملك العادل محمد بن أيوب أخو صلاح الدين (انظر هذه المادة)، ثم استوزره أخو الملك الفائز الملك المعظم ابن الملك العادل المتوفى عام ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)، وكان ابن الساعاتي إلى جانب هذه المدارك الواسعة الأفق في العلوم والآداب من أمهر رجال الطب في عصره، وتوفي هذا العالم الجليل بمدينة دمشق عام ٦٢٨هـ (١٢٣٠م).

وبمكتبة جوتة بألمانيا مخطوط لابن الساعاتي يتناول كيفية تركيب الساعات، وليس لهذا المخطوط عنوان، وقد كتبه في شهر المحرم عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م)، واهتم فيه بوجه خاص بساعة والده التي أصلحها وضبطها هو بنفسه.

٢) أبو الحسن علي بن رستم بهاء الدين بن الساعاتي: هو أخو فخر الدين بن الساعاتي المدوّنة ترجمته قبل، وكان شاعرًا مبرّزًا في حلبة الشعراء المتأخرين وله ديوان شعر في مجلدين أجاد فيه كل الإجادة كما له ديوان لطيف سمّاه «مقطعات النيل» وقد نقل ابن خلكان هذه الأبيات من هذا الديوان وهي:

لله يومٌ في سِيوط وليلةٌ
صَرْفُ الزمان بِأختها لا يغلطُ

بِتْنا وعُمْرُ الليل في غُلوائهِ
وله بنورِ البدْرِ فرعٌ أشمطُ

والطلُّ في سِلك الغصون كلؤلؤ
رَطْبٍ يصافحه النسيم فيسقط

والطير يقرأ والغدير صحيفة
والريح يكتب والغمام ينقِّطُ

وقد ولد هذا الشاعر بدمشق، وتوفي بالقاهرة عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) عن ٥١ عامًا، ودفن بسفح المقطم، ومن ثَمَّ يكون قد ولد عام ٥٥٣هـ (١١٥٨م).

٣) مظفر الدين أحمد بن علي البغدادي (الملقب بابن الساعاتي): وكان فقيهًا على المذهب الحنفي، وقد كتب موجزًا في الفقه يتداوله الناس بعنوان «مجمع البحرين وملتقى النيرين» استخلصه من مختصر القَدْوي ومن منظومة النسفي (انظر هذه المادة)، وكانت وفاته خلال عام ٦٩٤هـ (١٢٩٥م).

١٢٤- ابن سالم - شارع - بقسم مينا البصل

١٢٥- ابن سالم - شارع - بقسم محرم بك

«ابن سالم» كنية تطلق على ثلاثة من علماء العرب هم»:

١) **أبو عبد الله محمد بن سالم**: أكبر تلاميذ سهل التَّسْتري مؤسس الفرقة الصوفية المسماة بالسالمية، وقد تكونت في البصرة خلال القرنين الثالث، والرابع الهجريين من المتكلمين السنيين ذوي النـزعات الصوفية، ولما توفي مؤسس هذه الفرقة سهل التَّسْتري عام ٢٨٤هـ (٨٩٦م) تولى أبو عبد الله بن سالم رياستها، ثم توفي عام ٢٩٧هـ (٩٠٩م) وخلفه ابنه وهو:

٢) **أبو الحسن أحمد بن سالم**: المتوفى عام ٣٥٠هـ (٩٦٠م)، وأطلق على الفرقة اسم السالمية نسبة إلى ابن سالم الأب، وابنه أبو الحسن، ولقد بيَّن تلميذ أبي الحسن بن سالم وهو أبو طالب المكي المتوفى عام ٣٨٠هـ (٩٩٠م) في كتابه «قوت القلوب» فضائل أستاذه وعلو شأنه، ويمكن التعرف على أبي الحسن أيضًا من نقد خصمه أبي نصر السراج المتوفى عام ٣٧٧هـ (٩٨٧م) في كتابه «اللُّمع»، وأمكن التعرف على الأصول الكبرى لطريقة السالمية مما كتبه خصومهم الحنابلة، وخصوصًا مما كتبه فيهم أبو يعلى بن الفرَّاء (المتوفى عام ٤٥٨هـ (١٠٦٦م) الذي يذكر ستة عشر أصلاً، ذُكِر منها عشرة أصول في كتاب «الغنية» المنسوب لعبد القادر الجيلاني، فقد جاء في كتاب «الغنية» هذا أن السالمية يقولون أن الله في كل مكان ولا فرق بين العرش وغيره، وأن الله يقرأ على لسان كل قارئ، وأنهم إذا سمعوا القرآن من قارئ فإنما يسمعونه من الله، وفي رأي الجيلاني أن هذا التعبير يفضي إلى الحلولية، ومن آراء السالمية أن لله مشيئة غير حادثة وإرادات حادثة بها تقع معاصي المخلوقات من غير أن يريد منهم المعصية، ومن قولهم أن إبليس أطاع الله آخر الأمر، ويزعمون أن إبليس سجد لآدم في الثانية أي في الوقت التالي لامتناعه من السجود وأن إبليس لم يدخل الجنة، وهذا مخالف لنص القرآن الصريح، ومن آرائهم أن العمل بالشرع يتم بمجهود إرادي - وهو الاكتساب - ويزعمون أيضًا أن الله يُرَى يوم القيامة في صورة آدمي محمدي، وأنه يتجلى لسائر المخلوقات من الإنس والجنّ والملائكة والحيوان لكل واحد في معناه، وأن الكفار يرون الله ويحاسبهم وهذا - كما لاحظ صاحب «الغنية» يتعارض مع التنـزيه لله وفاقًا لصريح القرآن الكريم - ويرى السالمية أن الصبر عن اللذات أفضل من التمتع بها، والأنبياء أفضل من الأولياء، وأن الحكمة هي الإيمان، ويقولون أن الاتحاد هو شعور المؤمن بذاته «بالأناء» الإلهي بقدر ما فاض عليه من ذلك في الأزل.

وقد قام نقاد الحنابلة من عهد ابن الفرّاء إلى عهد ابن الجوزي، وابن تيمية، بتفنيد ما في هذه الآراء من سمات الاعتزال ومن نزعات إلى القول بالوجد تفنيدًا بصيرًا.

٣) **ابن سالم**: (ولم أستطع العثور على اسمه الكامل)، وهو مؤرخ ومن علماء التاريخ، وكانت وفاته عام ٩١٧هـ (١٥١١م).

١٢٦- ابن السرَّاج - حارة - بقسم الرمل

يدعى بلقب «ابن السرَّاج» ثلاثة ممن ذكر المؤرخون بعض نواحي حياتهم وهم:

١) **أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي (المعروف بابن السرّاج)**: نسبة إلى عمل سروج الخيل والدواب، وكان أبو

بكر السرّاج أحد الأئمة المشاهير المجمع على فضلهم، ونبلهم، وجلالة قدرهم، وكان من أكابر علماء النحو والأدب، وقد أخذ الأدب عن أبي العباس المبرِّد (انظر مادة المبرد) وعن غيره من العلماء كما أخذ عن عدد كبير من الأعيان منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمَّاني وغيرهما، ونقل عنه الجوهري (انظر هذه المادة) في مواضع عديدة، وله المؤلفات المشهورة في النحو منها كتاب «الأصول» وهو من أحسن الكتب المصنفة في هذا الباب وإليه يُرْجَع عند اضطراب النقل أو اختلافه، وكتاب «جمل الأصول»، وكتاب «الموجز»، و«الاشتقاق»، و«شرح كتاب سيبويه»، وكتاب «احتجاج القراء»، وكتاب «الشعر والشعراء»، وكتاب «الرياح والهواء» و«النار»، وكتاب «الجمل»، وكتاب «المواصلات».

وكان هذا العالم الجليل يلثغ في النطق، أي يجعل النطق بالراء غينًا، ولذلك كتب تلاميذه كلامًا أملاه بالراء بالغين؛ لأنهم سمعوها منه على هذا النحو.

وكان إلى جانب علمه الغزير بأصول النحو وقواعده شاعرًا مجيدًا، وقد قال في جارية كان يهواها فجفته هذه الأبيات:

ميزت بين جمالِها وفَعالِها

فإذا الملاحة بالخيانة لا تفي

حَلَفت لنا ألا تخونَ عُهودنا

فكأنما حَلَفَتْ لنا ألا تفي

والله لا كَلَّمتُها ولوْ إنها

كالبدرِ أو كالشمسِ أو كالمكتفي

واتفق وصول الإمام المكتفي في تلك الأيام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما رآه ابن السراج استحسنه، وأنشد لأصحابه هذه الأبيات، فأنشدها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن زنجي الكاتب لأبي العباس بن الفرات، وقال هي لابن المعتز (انظر هذه المادة)، ثم أنشدها إياه وقال إنها لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر فأمر له المكتفي بمنحة خزيلة من المال، فلما وصلت إليه قال ابن زنجي ما أعجب هذه القصة يعمل أبو بكر بن السرّاج شعرًا يكون السبب لوصول الرزق إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

وتوفي أبو بكر بن السرّاج في أواخر شهر ذي الحجة عام ٣١٦هـ (٩٢٨م).

٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السرّاج: وكان معروفًا بالقارئ البغدادي وكانت ولادته في أواخر عام ٤١٧هـ (١٠٢٦م)، وهو من أشهر الحفاظ في عصره وعلامة زمانه، وقد ألّف كتبًا كثيرة منها كتاب «مصارع العشاق» وأخذ عنه كثير من أهل العلم والفقه، والحديث، وروي عنه الحافظ أبو الطاهر السلفي (انظر مادة السلفي) الذي كان يفتخر بالرواية عنه على الرغم من اتصاله بعدد كبير من علماء زمانه، ولابن السرّاج شعر حسن الصياغة والأسلوب منه قوله:

بان الخليطُ فأدْمُعي

وَجْداً عليهم تسْتَهِلُّ

وحدا بهم حادِي الفراقِ

عن المنازل فاستقلوا

قُلْ للذين ترحَّلوا
عن ناظري في القلب حَلُّوا

ودَمِي بلا جَرْمٍ أتَيْتُ
غَداةَ بينهمو اسْتحلُّوا

ما ضرَّهُمْ لو أنْهلوا
من ماءِ وَصْلِهِمو وَعَلّوا

ومن نظمه الغزلي الرقيق هذه الأبيات:

وَعَدْتِ بأن تزوري كلّ شهْرٍ
فَزوري قد تَقَضّى الشهرُ زوري

وشقة بيننا نهْرُ المُعَلَّى
إلى البلد المسمّى شهر زورِ

وأشهُرُ هَجْركِ المحتوم حقٌ
ولكن شهر وصلِكِ شهر زورِ

ومن شعره الناقد الذي يدخل في زمرة الشعر الفكاهي الظريف قوله:

ومُدَّعٍ شَرْخَ شبابٍ وقد
عَمَّمه الشيبُ على وُفْرَتِهْ

يُخْضبُ بالوشمةِ عثْنونه
يكفيه أن يكذب في لحيته

وتوفي ابن السراج ببغداد – حيث ولد – وذلك في ٢١ من شهر صفر عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦م).

٣) محمد بن علي بن عبد الرحمن بن السراج القرشي الدمشقي: كان متصوفًا عربيًّا وقد ألّف حوالي عام ٧١٤هـ (١٣١٤م) مجموعة من الأقاصيص التهذيبية، والأخلاقية، بعنوان «تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح»، وهذه المجموعة جزء من مصنفه المفقود المسمى «تشويق الأرواح والقلوب إلى ذكر علاّم الغيوب»، ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ مولده، أو تاريخ وفاته، ولكن قد يستدل على ذلك بصفة تقريبية من تاريخ تدوينه كتاب الأقاصيص الذي حدث خلال عام ٧١٤هـ أو قبله أو بعده بقليل.

١٢٧– ابن سعد – شارع – بقسم المنتزه (الدكتور عوض محمد عوض حاليًّا)

١٢٨– ابن سعد – شارع – بقسم محرم بك

هو أبو عبد الله بن سعد بن منيع البصري الزهري مولى بني هاشم، ويعرف بكاتب الواقدي (انظر هذه المادة)، وقد درس الحديث على هُشيم، وسفيان بن عُيَيْنة، وابن علية، والوليد بن مسلم وخاصّة علي محمد بن عمر الواقدي.

وروى عنه أبو بكر بن أبي الدنيا، وكثير غيره من علماء الحديث، وأهم مؤلفاته «كتاب الطبقات» وهو يضم سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وسير الصحابة والتابعين إلى زمنه.

ومن جهة أخرى يذكر له ابن خلِّكان (انظر هذه المادة)، وحاجي خليفة، إلى جانب كتاب الطبقات الضخم طبقات أخرى صغرى.

وقد ترجم الجزء الأول من «كتاب الطبقات» إلى اللغة الألمانية، ونشرت هذه الترجمة في مدينة ليدن عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)، وكانت وفاة ابن سعد خلال عام ٢٣٠هـ (٨٤٥م).

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع الكائن بقسم المنتزه فاطلبها في «الدكتور عوض محمد عوض».

ويجب ألاّ يخلط بين ابن سعد صاحب الطبقات، والليث بن سعد الذي يذكر اسمه بأنه الإمام أبو الحارث الليث ومن ثمَّ تأتي ترجمته في حرف اللام تحت عنوان «الليث بن سعد»، فاطلبها في هذه المادة.

١٢٩- ابن سعدون - شارع - بقسم محرم بك

هو أبو بكر بن سعدون التميمي الجزري، كان مرابطًا من مرابطي المغرب الأقصى، وكان حسن الصوت، وقد سمع في مصر، وفي مكة، ثم ذهب إلى بلاد الشام، وكان شاعرًا مجيدًا ومن قوله:

سِجْنُ اللسانِ هو السلامةُ للفتى
من كلِّ نازلةٍ لها استئصالُ

إنَّ اللسانَ إذا حَلَلْتَ عقالَهُ
ألقاكَ في شنْعاء ليسَ تُقالُ

١٣٠- ابن سعود - شارع - بقسم سيدي جابر (حسين طه صلاح حاليًّا)

١٣١- ابن سعود - شارع - بقسم كرموز

«ابن سعود» لقب يطلق على أمراء الوهابيين في الدرعية والرياض بالجزيرة العربية، ومؤسس هذه الأسرة هو محمد بن سعود من عشيرة مَقْرن التي تنتمي إلى قبيلة مسالخ من ولد عليّ من عرب عَنْزة، وكان أبوه سعود حاكمًا على الدرعية وتوفي عام ١١٤١ في بعض الروايات أو عام ١١٥٠هـ (١٧٢٧ أو ١٧٣٧م)، في بعض الروايات الأخرى، وظل سلطان الوهابيين في الدرعية، ثم الرياض، في فرع محمد ابن سعود دون فروع إخوتِه وهم ثنيان، ومشاري وفرحان، ومؤسس المذهب الوهابي هو محمد بن عبد الوهاب الذي التجأ إلى صديقه محمد بن سعود في حوالي عام ١١٥٣هـ (١٧٤٠م)، وتعاون الاثنان على نشر المذهب باللسان، والسيف، وذلك بشن الغارات على البلاد المجاورة ومناطق البدو القريبة وذلك ابتداءً من عام ١١٥٩هـ (١٧٤٦م) فتدخل الجيران الأقوياء، ولكنهم عجزوا عن وقف التقدم الوهابي، وفي ذلك الحين كان أشراف مكة يتهمون الحجاج الوهابيين بالمروق ويمنعونهم من زيارة الأماكن المقدسة ويبعثون بالتقارير ضدهم إلى الباب العالي، ولاسيما في عام ١١٦٢هـ (١٧٤٨م)، وتوفي محمد بن سعود عام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م)، وطال حكمه ٣٠ عامًا، وجاء بعده أخوه عبد العزيز فقضى ٣٠ عامًا من حكمه في حروب ضد القبائل، ولا سيما ضد بني خالد والمكرمي والنتفق، وفي عام ١٢١٠هـ (١٧٩٥م) ثبّت الوهابيون أقدامهم على شاطئ الخليج العربي. وانتهت الحملات التي بعث بها الأتراك ضد عبد العزيز بعقد

هدنة مدتها ست سنوات، ومن ثم منح شريف مكة عام ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) الحجاج الوهابيين حق زيارة الأماكن المقدسة في مقابل ضريبة يؤدونها، غير أن شريف مكة غالب رجع في هذا الحق عام ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م)، فعادت الحملات لصد الوهابيين عن غزو الحجاز، ثم عقد الصلح بين الطرفين في ١٢١٣هـ (١٧٩٨م)، وتعهد الوهابيون بألاّ يغيروا على مناطق الأشراف، غير أن الصلح لم يدم طويلاً إذ داهم سعود بن عبد العزيز مدينة كربلاء بالعراق عام ١٢١٦هـ (١٨٠٢م)، وخرَّب أماكن الشيعة المقدسة، وذبح معظم السكان، وفي عام ١٢١٤هـ (١٨٠٠م)، كان سعود بن عبد العزيز قد أدى فريضة الحج فانضمت إليه قبائل عسير، وتهامة، وبني حرب، ونتج عن ذلك تجدد الخصومة، واكتساح الوهابيين مدينة الطائف، ودخل سعود مكة عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م).

وفي بداية عام ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) كان السعوديون قد أخذوا في بسط نفوذهم على الخليج العربي، واستطاعوا إخضاع البحرين، وقبائل عمان لسيطرتهم، وقُتِل عبد العزيز ابن محمد بن سعود في ١٨ من رجب عام ١٢١٨هـ (٤ من نوفمبر عام ١٨٠٣م) بيد رجل شيعي من عمادية، وخلفه في الحكم ابنه سعود بن عبد العزيز فقام بعدة حملات على بغداد، وعمان، واحتل المدينة عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م)، ثم احتل مكة عام ١٢٢١هـ (١٨٠٦م)، وانتشر بذلك المذهب الوهابي في الحجاز، وسرعان ما أبطل سعود بن عبد العزيز الخطبة لسلطان تركيا، ورفض موكب المحمل التركي، ولما عجز الباب العالي عن صد هجمات الوهابيين على ممتلكاته ناط بمحمد علي والي مصر غزو الحجاز، فبدأت الحملة المصرية غزو ينبع البحر وينبع البر في نوفمبر عام ١٨١١م (١٢٢٦هـ) بقيادة طوسون بن محمد علي، وبعد تقهقر وتقدم، وقفت الحملات المصرية وتوفي سعود بن عبد العزيز عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م)، وخلفه في الحكم عبد الله بن سعود، وفي سبتمبر عام ١٨١٦م (١٢٣٢هـ) تولى إبراهيم باشا ابن محمد علي القيادة بعد موت أخيه طوسون، ولقي صعابًا في التقدم، ثم وصل بجيشه إلى الدرعية وحاصرها، ثم سقطت في أيدي أفراد الجيش المصري الباسل في ٦ من سبتمبر عام ١٨١٨م (١٢٢٤هـ)، وسلم عبد الله بن سعود نفسه فأُرسِل وأسرته وأحفاد محمد بن عبد الوهاب إلى القاهرة وشُنقوا جميعًا بالقسطنطينية في ١٧ من ديسمبر عام ١٨١٨هـ (١٢٢٤هـ)، وجلت الجيوش المصرية عن الجزيرة العربية عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م) واستطاع آل سعود بسط سلطانهم شيئًا فشيئًا ولاسيما بعد ضعف تركيا، وهكذا آل الأمر إليهم وسيطروا على البلاد بعد أن كادت بلادهم تصبح جزءًا من الدولة المصرية بفضل جهاد جنودها الأبطال، والله هو مغير مجرى التاريخ ولا راد لإرادته.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد لأحد شارعي ابن سعود فانظرها في (حسين طه صلاح).

١٣٢- ابن سعيد - حارة - بقسم الرمل

هو أبو الحسن علي بن موسى المغربي، لغوي ومؤرخ ولد عام ٦١٠هـ (١٢١٤م) في بعض الروايات أو عام ٦٠٥هـ (١٢٠٨م) بقلعة يعصب بالقرب من غرناطة بالأندلس في جنوب إسبانيا ودرس في إشبيلية، وأدى فريضة الحج في صحبة والده، ولدى وصولهما أثناء العودة إلى الإسكندرية توفي

والده عام ٦٤٠هـ (١٢٤٣م)، فأقام ابن سعيد بهذه المدينة بعض الوقت، ثم رحل إلى بغداد عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، ومنها ذهب إلى حلب، ثم إلى دمشق، فالموصل، فبغداد مرة أخرى، فالبصرة، فمكة، ثم رحل بعد ذلك إلى تونس، والتحق بخدمة أبي عبد الله الملقب بالمستنصر بالله ثالث أمراء دولة بني حفص في تونس، وفي عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) عاد إلى المشرق ووصل أرمينيا عن طريق الإسكندرية وحلب، ثم رجع إلى تونس، وأثناء عودته إلى دمشق خلال عام ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) وافته المنيّة، وفي رواية أخرى أن وفاته كانت خلال عام ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) في تونس.

وقد اشتهر ابن سعيد المغربي بمؤلفه التاريخي المسمى «المُغْرِبُ في تاريخ المَغْرِب».

١٣٣- ابن سُكَّرة - حارة - بقسم الرمل

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن سكَّرة الهاشمي البغدادي الشاعر المشهور. وهو من ذرية علي بن المهدي الخليفة العباسي بن أبي جعفر المنصور، وكان ابن سكرة شاعرًا مبدعًا فشبَّهه أهل العراق بجرير، والفرزدق (انظر هاتين المادتين)، ويقال إن ديوانه يضم ما يقرب من خمسين ألف بيت، وهذا تقدير يدل على المبالغة؛ لأن هذا العدد يتعدى طاقة أي شاعر الإنتاجية، ومن بديع تشبيهه ما قاله في غلام رآه، وفي يده غصن، وعليه زهر فقال فيه:

غُصْنُ بانٍ بدا وفي اليد مِنْهُ

غُصنٌ فيه لؤلؤٌ مَنْظومُ

فتحيَّرتُ بين غُصْنَيْنِ في ذا

قمرٌ طالعٌ وفي ذا نجومُ

وكان ابن سكرة من أكثر أهل عصره مجونًا، واندفاعًا في الملذات وطلب الشهوات، ومن قوله الماجن المكشوف البيتان الآتيان في غلام أعرج أحبه:

قالوا بُليتَ بأعرجٍ فأجَبْتهم

العَيْبُ يحدث في غصون البانِ

إني أُحِبُّ حديثه وأريده

للنوم لا للجري في المَيْدانِ

ومن لطيف ملحه هذه الأبيات التي بعث بها إلى صديقه أبي الحسن المِلْحي المعروف بابن أبي العصب:

يا صديقًا أفادنيه زمان

فيه ضنّ بالأصدقاءِ وشحُّ

بين شخصي وبين شخصك بُعْد

غير أن الخيال بالوصلِ سَمْحُ

إنما أوْجب التباعد منّا

أنني سكّرٌ وأنك مِلْحُ

وهو يعني بكلمة «مِلْح» أن صديقه يلقّب «بالمِلحي» نسبة إلى المِلح، ولقد ردَّ عليه أبو الحسن المِلحي بالبيتين التاليين:

هل يقول الإخوانُ يومًا لخِلٍّ

شاب منه مَحْضُ المودة قدحُ

بيننا سكَّر فلا تُفْسِدَنْهُ

أم يقولون بيننا ويك مِلْحُ

وابن سكرة هو قائل البيتين الفاحشين اللذين دوَّنهما الحريري في المقامة الكرجية وهما:

جاء الشتاءُ وعندي مِن حوائجهِ

سَبْعٌ إذا القطرُ عن حاجاتنا حُبِسا

كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكأس طِلا

بعد الكبابِ وكُسٌّ ناعم وَكِسا

وقال ابن سكرة في الشباب:

لقد بان الشباب وكان غُصنًا

له ثمرٌ وأوراقٌ تُظللكْ

وكان البعض منك فمات فاعْلم

متى ما مات بعضك مات كلكْ

وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شهر ربيع الثاني عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م)، وكان مشهورًا بأنه من الشعراء الهزليين .

١٣٤- ابن سلام - شارع - بقسم الرمل

يحمل لقب ابن سَلام أو سلاّم أربعٌ ممن ذكر التاريخ سير حياتهم وفيما يلي تراجمهم وفاقًا لوجودهم على قيد الحياة:

١) عبد الله بن سلام: كان يهوديًّا ويظهر أنه كان على علم واسع النطاق بالثقافة اليهودية فقد عده المفسرون من أوائل الذين قال الله فيهم: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ سورة الشعراء، الآية ١٩٧ ، وقد أسلم ابن سلام إثر هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة «يثرب» وصحب عمر بن الخطَّاب في سفره إلى الشام ، ووقف خطيبًا في المتألبين على عثمان بن عفان ، يدافع عنه ، ويخذل الثائرين ، وتوفي عام ٤٠هـ (٦٦٠م)، واشتهر بين الصحابة بالعلم الغزير حتى أن معاذًا عدّهُ رابع أربعة يطلب عندهم العلم ، ونقل عنه المسلمون كثيرًا مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها ، وقد تجمّع حول اسمه كثير من الإسرائيليات ، ونقل عنه الحديث أبو هريرة (انظر هذه المادة) وأنس بن مالك (انظر مادة الإمام مالك)، وينسب إليه ابن جرير الطبري (انظر مادة الطبري) في تاريخه كثيرًا من الأقوال في المسائل التاريخية الدينية ، ويمثل ابن سلام ناحية خاصة دخل منها على المسلمين بعض أقوال التوراة ، وما إليها ولصق بعضها بتفسير القرآن ، وبالقَصَص .

٢) أبو عبيدة ابن سلاّم الهروي البغدادي: ولد عام ١٩٧هـ (٨١٢م)، وتوفي بمكة أو بالمدينة عام ٢٢٣هـ (٨٣٧م)، وكان أبوه عبدًا روميًّا لرجل من هراة ، وقد تعلم ابن سلام على يد أبي زيد الأنصاري ، والأصمعي ، الراوي المشهور ، وتنسب لابن سلام «رسالة في ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل» ، وقد صنف كتبًا كثيرة في القرآن ، والحديث ، والفقه ، وغريب الحديث .

٣) أبو عبد الله محمد بن سلام البصري (وكنيته الجمحي): كان من علماء الشعر والأخبار ، وصنف كتبًا عدة في التاريخ ، والأدب ، وهو واضع كتاب طبقات الشعراء الذي يعد من المصادر الأولى لعلم الشعر ، ويقول في هذه الطبقات إنه «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاّ الأبيات يقولها الرجل في حادثة ، وإنما قُصِّدت القصائد ، وطوِّل الشعر في عهد

عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف، وكان أول من قصَّد القصائد، وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة الثعلبي (انظر مادة ابن ربيعة) في قتل أخيه كليب وائل، قتله بنو شيبان، وكان اسم المهلهل عَديًّا وإنما سُمِّي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه، ومن ذلك قول النابغة: «أتاك بقولٍ هلهل السنج كاذب».

وزعمت العرب أنه كان يتكثّر ويدّعي في قوله أكثر من فعله»، إلى أن يقول ابن سلاّم: «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذِكْر أيامها، ومآثرها، اشتغل بعض الشعراء شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار، وليس يُشكل على أهل العلم زيادة من ولد الشعراء أو الرجل من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال».

وكانت وفاة ابن سلام خلال عام ٢٣٢هـ (٨٤٦م).

٤) **العادل بن سلام**: من رجال السياسة المشهورين، ولاّه الخليفة الحافظ على مدينة الإسكندرية ومديرية البحيرة، ولما عظم شأنه وذاع صيته، استبد بالأمر، مما أدى إلى قتله خلال عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م).

١٣٥- ابن سلامة - حارة - بقسم محرم بك

في عام ٧٢٦هـ (١٢٢٨م) وفد ابن بطوطة (انظر هذه المادة) في أثناء رحلته على المدينة المنورة، وزار مسجد النبي الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ودوّن في كتاب رحلته المسمى «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» أنه التقى في هذا المسجد الشريف بإمامه بهاء الدين ابن سلامة من كبار أهل مصر، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عز الدين الواسطي (انظر مادة الواسطي).

١٣٦- ابن سلّوم - شارع - بقسم محرم بك

من علماء نجد، توفي عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م).

١٣٧- ابن سنان - حارة - بقسم الرمل

يحمل لقب ابن سنان ثلاثة من مفكري العرب هم:

١) **أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة**: (انظر مادة ثابت بن قرة)، وكان صابئي النحلة مثل جدّه وأبيه وقد عاش بمدينة بغداد في أيام معز الدولة ابن بويه، وكان طبيبًا عالمًا نبيلاً يُقرأ عليه كتب هيبوقراط وجالينوس (انظر هاتين المادتين) وكان يوضح معاني الفلسفة للدارسين عليه، وقد سلك مسلك جدَّه ثابت بن قرة في تبحّره وتعمقه في علوم الطب والفلسفة والهندسة وجميع فروع الرياضة للقدماء وله كتاب في التاريخ ينطوي على معلومات قيمة، وهو خال هلال بن المحسن الصابئي (انظر مادة الصابئي)، وعلى غرار جدّه اتهمه الصابئون في جرّان بالمروق لآرائه المتحررة فأسس ببغداد جماعة من الصابئة المعتدلة الآراء، وقد عاشت هذه الجماعة ببغداد في أمن وسلام ردحًا من الزمن إلى أن شرع الخليفة العباسي القاهر في اضطهادهم، ومن ثمّ أجبر ابن سنان على اعتناق الإسلام عام ٣٦٣هـ (٩٧٥م)، وكان هذا العالم الجليل متبحرًا في علم الفلك والظواهر الطبيعية وألّف رسالة في سياسة أفلاطون.

ويقال إنه عالج الشاعر السَرِيّ الرفاء فشفاه من مرضه فمدحه بأحسن ما قيل في الأطباء من شعر وذلك بهذه الأبيات:

هَلْ لِلْعَلِيلِ سِوَى ابْنِ قرَّة شافي
بَعْدَ الإِلَهِ وَهَلْ لَهُ مِنْ كَافي

أحْيَا لَنَا رَسْمَ الفَلاَسِفَةِ الذي
أودى وَأَوْضَحَ رَسْمَ طِبٍّ عَافي

فَكَأَنَّهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ نَاطِقًا
يَهَبُ الحياةَ بِأَيْسَرِ الأَوْصَافِ

والصابئة قوم ذكرهم القرآن الكريم بين أهل الكتاب، ومنهم من كان يعبد الكواكب، وكان مقرهم الرئيسي حرَّان وقد خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون وفلكيون مبرَّزون في كل هذه الفروع من العرفان، وتوفي ابن سنان في بغداد.

٢) أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان (الملقب بالبتاني): ويسمى عند الأوروبيين «ألباتانيوس Albatanius» وكان مولده خلال عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) وكان من أعظم علماء عصره وأحد أعلام علم الفلك عند العرب، ويعتبر كتابه «الزيج الصابئ» أحد الجداول العربية القليلة التي انتشرت في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية، وفي القرن الثالث عشر أمر «ألفونسو العاشر» ملك إسبانيا بترجمتها إلى الإسبانية.

وترجع أهمية هذه الجداول إلى أن حساباتها تمت بعد أرصاد دقيقة واسعة المدى وإلى أنها تضمنت بيانات عن الشمس يستطيع المدقق أن يستنتج منها أحد الحقائق الأساسية في علم الفلك على الرغم من أن ابن سنان لم يذكرها بطريقة صريحة، وتتركز هذه النظرية الهامة في أن موضع الشمس عندما تكون أبعد ما يمكن عن الأرض، وهو ما يطلق عليه اسم الأَوْج، يختلف في أيام ابن سنان عما كان عليه في أيام بطليموس الفلكي، أي أن هذا الأَوْج يتحرك في بطء لا يستطاع ملاحظته إلا بعد مضيّ مدة طويلة من الزمن.

ولم يقنع ابن سنان البتاني بأخذ النتائج التي توصل إليها بطليموس قضية مسلمًا بها، وذلك على غرار كثير من علماء الفلك، بل قام باختبار تلك النتائج عن طريق أرصاد جديدة أدت إلى تحديد مكان عدد من الثوابت الفلكية في دقة، ومن جهة أخرى برهن ابن سنان نظريًّا على إمكان حدوث كسوف حلقي للشمس، بمعنى أنها تصير مظلمة في الوسط ولا يبقى منها مضيء سوى حلقة منتظمة عند حافتها.

وإلى جانب تعمق ابن سنان في الفلك كان نابغة في علم الرياضة، وخاصة ما كان منها ذو صلة بالفلك فأدخل بعض القوانين الجديدة في حساب المثلثات، وعمل على تحسين طرق الحسابات ثم طبّق ذلك في عمل جداول للظلال محسوبة لكل درجة قوسية، وجداول للجيوب لكل ثلاثين دقيقة، وهذه الجيوب صحيحة إلى الرقم الخامس والعشرين، وقد عاصر ابن سنان البتاني ثابت بن قرَّة (انظر هذه المادة).

وقد صرف ابن سنان البتاني معظم حياته بالرقة، وله كتاب بعنوان «معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك»، و«رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات»، و«شرح المقالات الأربع لبطليموس»، وذلك علاوة على «الزيج» وهو أهم مصنفاته،

وكان لابن سنان تأثير عميق في علم الفلك وفي حساب المثلثات في أنحاء أوروبا.

وتوفي هذا العالم الجليل خلال عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) بالغًا من العمر حوالي ٧٢ عامًا.

٣) عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي: كان شاعرًا وأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري (انظر مادة المعري) وعن غيره من الأدباء ثم سمع الحديث وبرع فيه، وتوفي في قلعة (إعزاز) من أعمال مدينة حلب بسوريا عام ٤٦٦هـ (١٠٨٩م) وترك ديوان شعر طبع في بيروت وكتاب آخر بعنوان «سرّ الفصاحة»، ولتأليف هذا الكتاب اطلع على كثير من الكتب التي ألفت قبله في النقد الأدبي ككتاب «البديع» لابن عسكر (انظر هذه المادة)، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (ابن جعفر عبد الله)، والموازنة بين الطائيين للآمدي.

وكان الغرض من تأليف هذا الكتاب إيضاح حقيقة الفصاحة والكشف عن سرِّها؛ لأنه يؤمن بأن لكل جمال في الكلام سببًا يستطاع الاهتداء إليه، وكان على صواب حينما قال إن البلاغة تدرك بمخالطة الشعر وتأمله مع طول الوقت وتراخي الزمن، وقد حقق ابن سنان غرضه فقد قال ابن الأثير في فاتحة كتابه: «إن علم البيان قد ألّف الناس فيه كتبًا. . . ولكني لم أجد ما ينتفع به إلاّ كتاب الموازنة للآمدي وكتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي».

وابن سنان يرى أن اللغة العربية تفضل سائر اللغات وهو يعجب ببلاغتها في القديم والجديد ثمَّ يعرض على القارئ لكتابه ما ينبغي أن يتوافر في الكلمة حتى تصل إلى الذروة من الكمال اللفظي، وهو لذلك يقول: إن الكلمة المسموعة يجب أن تتألف من حروف متباعدة المخارج؛ لأن الحروف تجري في السمع مجرى الألوان من البصر لأنها أصوات، وفصاحة الكلام تتطلب وضع الألفاظ في موضعها فلا يكون في العبارة تقديم وتأخير يؤدي إلى فساد معانيها وأن تكون الاستعارة أوضح من الحقيقة وألاّ يكون في تكوين الجملة حشو معيب، وهو لا يحب السجع المتكلف الذي يضطر صاحبه إلى حشوه في الكلام عند التزامه السجع، ومن ثمّ فهو يوصي الكاتب والشاعر بترك التكلف والاسترسال مع الطبع وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة وبغض الإكثار والإطالة؛ لأن الكلام ما هو إلا ترجمة عقل الإنسان ومعيار فهمه وعنوان حسّه وكل ذلك يحتاج إلى التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف.

والواقع هو أن ابن سنان له وجهة نظر صائبة، على الرغم من مخالفة ابن الأثير (انظر هذه المادة) له في كثير من النقاط، وهذه النظرة الصائبة تتركز في أنه كثيرًا ما يكون في استخدام الألفاظ الخاصة بالعلوم فيه التكلف والغموض فيدفعان إلى أن يصبح المعنى مغلقًا لا يكاد يُفهَم.

وحَسْبُ ابن سنان اجتهاده في محاولة معرفة سرِّ الفصاحة في المفرد والجملة والمعاني وأن يثير مثل هذه المناقشات التي تحرك فينا الرغبة في معرفة الصواب.

١٣٨- ابن سنر - شارع - بقسم محرم بك

عالِم مصري من علماء الحديث، كانت وفاته عام ٧٨٢هـ (١٣٨٠م).

١٣٩- ابن سهل - حارة - بقسم اللبان

يحمل لقب «ابن سهل» أربعة يسجل التاريخ أحداث حياتهم وهم:

١) **أحمد بن سهل بن هاشم**: من أسرة الدهاقنة التي اشتهرت باسم «كامكاريات»، ولكي يأخذ أحمد بن سهل بثأر أخيه الذي لقي حتفه خلال الحرب التي قامت بين الفرس والعرب، أثار فتنة جامحة في «مرو» وهي مدينة في تركستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الآن، وقد فتحها العرب عام ٣١هـ (٦٥١م)، وتدعى عادة (بمرو الشاهجان)، في مدينة مرو هذه أثار ابن سهل الفتنة، وبعد أن سجن وفرَّ من سجنه، أثار الفتنة مرة أخرى، واشترك في حروب خراسان والرِّي، كما اشترك في غزوة ساجستان، وأخيرًا ثار على الساسانيين، ملوك الفرس، ولكنه هُزم في مرغاب، وأُرسل إلى بخارة حيث مات سجينًا عام ٣٠٧هـ (٩١٩م).

٢) **إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي**: أحد الشعراء المجيدين بالأندلس في عصورها الأخيرة، وقد اعتنق الدين الإسلامي، وحفظ القرآن الكريم، وله ديوان يضم أشعاره، جمعه وبوَّبه حسن العطار خلال عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م)، ومات إبراهيم بن سهل غريقًا في الفترة ما بين عامي ٦٤٩ و ٦٥٩هـ (١٢٥١ - ١٢٥٨م)، وتجمع الروايات على أن عمره وقت وفاته لم يتجاوز الأربعين سنة، وله غزل رقيق علاوة على أنه من أصحاب الموشحات.

ومن شعره في وصف جمال الطبيعة هذه الأبيات:

الأرض قد لبست رداءً أخضرا
والطلّ ينثر في رُباها جوهرا

هاجت، فخِلْتُ الزهر كافورًا بها
وحسِبْت فيها الترب مسكًا أذفرا

وكأن سوسنها يصافح وردها
ثغرٌ يقبِّل منه خدًّا أحمرا

والنهر ما بين الرياض تخاله
سيفًا تعلق في نجاد أخضرا

ويقول في توشيح رقيق المعاني يصح أن ينغم لرقصة شعبية:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
قلب صبّ حلّه عن مكنس

فهو في حرٍّ وخفْق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

إلى أن يقول في حبيبته:

يُنْبِت الورد بغرسي كلما
لاحظَتْه مقلتي في الخُلس

ليت شِعري أي شيء حرّما

ذلك الورد على المغترس

٣) **الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي**: وهو وزير المأمون الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد، وقد تزوج ابنة الحسن بن سهل (بوران)، وتوفي ابن سهل عام ٢٣٦هـ (٨٥٠م) في سرخس، وكان ابن سهل كاتبًا مجيدًا، ومن نثره الغني المتين هذه الفقرة من الكتاب الذي بعث به إلى صديقه محمد بن سماعة أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة يسأله اختيار رجل كفء يعاونه في القيام بمهام وزارته: «أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهة طُعمة، قد هذّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بضنين في رأيه، ولا بمطعون في حسَبه، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مهمًّا من الأمور أجزأ فيه، له سن مع أدب ولسان، تقعده الرزانة ويسكنه الحلم»، وقد دافع ابن سهل عن خلافة المأمون في بغداد، وفي واسط، وكان سخيًّا مع الشعراء والعلماء.

٤) **الفضل بن سهل**: كان فارسيًّا مجوسيًّا وكان يعمل قهرمانًا ليحيى البرمكي الذي أوعز إليه أن يعتنق الإسلام بين يدي الخليفة العباسي المأمون (انظر هذه المادة)، فأسلم بين يديه عام ١٩٠هـ (٨٠٥م) وظل ملازمًا له منذ ذلك الحين، فتعلم أصول المهارة على جعفر بن يحيى البرمكي، وتلقى دروسًا هامة في السياسة، ويصفه الرواة بالسخاء، وكان يتقن فن قراءة الطالع الذي هو نوع من الدجل، فأفلح بذلك في تحريك شؤون الدولة من وراء الستار، وكان على جانب كبير من الذكاء ففهم قوة المأمون، ولمس الضعف في الأمين، فاستغل كل ذلك ليثبّت ميله إلى الفارسية للتغلب على النزعة العربية في الدولة، ولما مات هارون الرشيد، وأخذ قواده في اللحاق بالأمين، وهم ينسجون خيوط الفتنة بين الأخوين أشار الفضل بن سهل على المأمون بألا يرسل جنودًا لمحاربة أخيه، وإنما يرسل رسولاً ليذكر الناس بيعة الرشيد لابنه المأمون دون الأمين غير أن هذا الوفد لم ينجح في مهمته، ولقد جزع المأمون لذلك، ولكنه وجد إلى جانبه رجالاً يقفون وراءه ومن بينهم الفضل بن سهل الذي قال له: «اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»، ولقد نسج الرواة عن طريق الفارسيين من أتباع البرامكة، وغيرهم حول الأمين خيوطًا، من الدعاية المغرضة، فوصفوه بالخلاعة، وحب اللذات، والاندماج في الشهوات على حين أن المنصفين من المؤرخين يؤكدون أن كل همه كان تعريب الدولة وإقصاء الفرس عن شؤونها لترجع إلى أصلها العربي الصميم، إذ إنه كان ابن عربية قح هي زبيدة، على حين أن المأمون كان ابن فارسية وجميع أهلها كانوا من المعضدين لخلافته ليبقى نفوذهم مسيطرًا على الحكم وقد كان لهم ما أرادوا، وتغير وجه التاريخ، إذ فقدت العروبة أنصارها، وفقدت الخلافة صبغتها العربية الخالصة التي كانت تؤدي حتمًا إلى تقوية الفتوحات العربية في أقطار العروبة جميعها ولَمّ شمل العرب في غير تمزق أو خلاف، وقد أفلح ابن سهل في جعل جواسيس لدى الأمين يبعثون بأخباره إلى المأمون، وقد أطلق ابن سهل على المأمون لقب الإمام إمعانًا في التجسيم من شأنه، وكان الفضل بن الربيع يشد أزر الأمين، ويقود معركة الخلافة ضد المأمون، ولقد كان المأمون ينقاد في بعض الأحيان إلى عاطفة الأخوة ويضعف في المطالبة بالخلافة، ولكن ابن سهل كان يوقد في نفسه حرارة الغلبة ويحضه على المقاومة إلى نهاية الشوط ليظفر بالخلافة، وكان يواصل هذا التحريض حتى في الأوقات العصيبة التي كان المأمون يرى أنه مهدد بالقتل من

أهل خراسان نفسها، حيث كان يقيم هو وأتباعه، وكان لابد من الصدام المسلح بين الأخوين، فأرسل الأمين جيشًا من أربعين ألف مقاتل بقيادة علي بن موسى بن ماهان، وبعث المأمون جيشًا متواضعًا يقل عن أربعة آلاف بقيادة طاهر بن الحسين الذي استطاع بعبقريته الحربية أن يهزم جيش الأمين، ويقتل قائده، وبعد هذا النصر المذهل لم يجد المأمون بُدًّا من خلع أخيه، وإعلان نفسه خليفة على المسلمين، وأحس أنه مدين بهذا النصر للفضل بن سهل، إذ كان طاهر بن الحسين صنيعته، فعقد للفضل على ولاية واسعة، وأغدق عليه النعم، وسمّاه ذا الرياستين، رياسة الحرب ورياسة التدبير، وكتب له كتابًا جعله المسيطر الحقيقي على شؤون دولته، وقد قتل القائد طاهر بن الحسين الأمين، واستقرت الخلافة للمأمون وبقي في مدينة مرْو بمشورة ابن سهل الذي كان يبغي من وراء ذلك نقل الخلافة من بغداد العربية إلى خراسان الفارسية، مما يدل على تعصبه الأعمى ضد العرب، وبغضه الشديد للأمين لعروبته الخالصة. لقد أثار بقاء المأمون خمس سنوات بعيدًا عن مقر الخلافة – وهو بغداد – غضب الناس، ولاسيما بعد أن عيّن الفضل ابن سهل الحسن بن سهل واليًا على العراق، غير أن القائد هرثمة بن أعين تغلب على الفضليين وقمع ثورتهم في مهدها، غير أن هذا القائد أحس أن المأمون صار أثير الفضل ابن سهل الذي سلب حريته، فصار لا يستطيع التصرف في شيء، وشعر بأن ابن سهل يبغي من وراء ذلك أن يصير أمر الخلافة في أيدي الأعجام، فرغب القائد هرثمة في لقاء المأمون ليبصره بأسباب الثورات المتلاحقة ضد حكمه منذ قتل الأمين، ويقنعه بوجوب الانتقال إلى بغداد – دار خلافة آبائه ومقر ملكهم – ليتوسط سلطانه، ويكبح جماح الطامعين، غير أن ابن سهل كان يبعد كل من يريد الدنوّ من المأمون ليكون له ما يريد، وهو جعل الخلافة فارسية دمًا ولحمًا، ولكن هرثمة حضر إلى مرْو، ودق الطبول عند دخولها وسرعان ما أوغر ابن سهل صدر المأمون عليه، فصوّره في صورة المارق الذي يعادي دولته، ولما دخل هرثمة على المأمون قال في صراحة إن الصراع الذي يدور ضد العرب في الدولة من عمل هذا المجوسي، وأشار إلى الفضل بن سهل، وعندما أراد شرح الموقف للمأمون لم يستطع، إذ لم يسمح له الخليفة بذلك، فكان اللقاء بينهما عاصفًا حادًّا، وانتهى بضرب هرثمة وسجنه ثم قتله، وكان بين أتباع المأمون بعض العرب الخلص، ومن ثَمَّ لم يتمالك أحدهم، وهو يحيى بن عامر بن إسماعيل نفسه فأغلظ القول للمأمون، ووقوعه تحت تأثير الفرس، فقال له: «يا أمير الكافرين»، فأمر به المأمون فقُتِل بين يديه، وحين انتقلت ولاية الخلافة إلى العلويين، لم يتحرج نعيم بن حازم أن يقول لابن سهل إنك تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ابن أبي طالب، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويًّا، وظلّ الفضل بن سهل يخفي حقيقة الأمر عن المأمون إلى أن نجح ولي عهده علي بن موسى الرضا العلوي في إزالة الغشاوة عن عينه، وتبصيره بالحقائق التي كان ابن سهل يحاول إخفاءها عنه، فكشف له عن الفتن التي تضطرب بها البلاد، حتى أن أهل بيته أنفسهم نقموا عليه، وقالوا عنه أنه مسحور أو مجنون بتأثير ابن سهل، ولما بلغ بهم الضيق كل مبلغ، بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة، وأن الحرب قائمة بين أتباع المهدي وحسن بن سهل شقيق الفضل بن سهل، ولما استوثق المأمون من هذا القول رحل إلى بغداد، وخلال هذه الرحلة دخل على الفضل بن سهل المتآمرون وقتلوه في الحمام، بمدينة سرخس، ويقول بعض الرواة إن قتل ابن سهل كان بإيعاز من المأمون نفسه. ولو أنه أمر بعد ذلك بقتل

جميع من اشتركوا في قتله لتغطية موقفه من هذا الأمر، وليسترضي المأمون الفرس بعث إلى الحسن بن سهل برؤوس قاتلي أخيه الفضل في بغداد، وجعله في مكان أخيه ظاهريًّا، وتزوج ابنته بوران بدافع سياسي، إذ كانت بوران في ذلك الحين طفلة لم تتجاوز العام العاشر من عمرها، ولذا لم يدخل بها إلا بعد ثمانية أعوام، وكان قتل الفضل بن سهل عام ٢٠٣هـ (٨١٨م)، وكان من جرّاء سيطرته الممقوتة على المأمون وخداعه له، وإخفاء الحقائق عنه بعد تدبير قتل الأمين، أن أصيبت الأمة العربية بجميع الكوارث التي نجمت عن تسلط الفرس على الحكم في الخلافة العباسية، فأخذت في الضعف المستمر حتى صار آخر خلفائها صنائع لدى مماليك مصر يبصمون ما يُراد منهم بصمة ليصبح شرعيًّا من الناحية الشكلية.

١٤٠- ابن سيّار - شارع - بقسم مينا البصل (محمد عبد العال قاسم حاليًّا)

يحمل لقب ابن سيّار ثلاثة جاء ذكرهم فيما دوّن كتاب السير من التراجم وهم:

١) **نصر بن سيّار**: كان عاملاً على خراسان في عهد مروان الثاني آخر خلفاء بني أُمية الذي هزمه الخراسانيون بقيادة أبي مسلم الخراساني (انظر مادة أبي مسلم) في وقعة الزاب عام ١٣٣هـ (٧٥٠م) فهرب إلى مصر، وقتل في الصعيد، وعندها صارت الخلافة للعباسيين، فتولاه السفاح، وكان نصر بن سيّار مُضَريًّا ومكث أربع سنوات لا يستعمل في الوظائف إلا المضريين ومن ثَمَّ ساءت العلاقات بين المضريين واليمانيين واستغل الفرس الفرصة وأخذوا ينفخون في أبواق الدعاية للقضاء على آخر أنفاس الدولة الأموية.

غير أن العرب شعروا بتألب الفرس عليهم ففكروا في جمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، وفطن نصر بن سيّار إلى هدف الفرس الذي يتركز في هلاك العرب فعمل على جمع الشمل قدر المستطاع وقد نجح إلى حد ما، فتوادعت القبائل العربية من ربيعة، ومضر، واليمن على وضع الحرب، والاجتماع على قبائل الفرس التي يقودها أبو مسلم.

وكان نصر بن سيّار شاعرًا مجيدًا، فقال في هذه المناسبة يخاطب النزارية، واليمانية، ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله:

أبلغ ربيعة في مرْو وإخوتهم
فليغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا
حربًا، يُحرّق في حافاتها الحطب

ما بالكم تلقحون الحرب بينكم
كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُب

وتتركون عدوًّا قد أظلكموا
مما تأشب، لا دينٌ، ولا حسبُ

قدمًا يدينون دينًا ما سمعت به
عن الرسول، ولم تنزل به الكتب

فمن يكن سائلاً عن أصل دينهمو
فإن دينهمو: أن تُقْتل العرب

وعلى الرغم من هذا التحذير، وعلى الرغم من اجتماع كلمة العرب على محاربة الفرس بالدس والخديعة، وانتهى الأمر إلى قبول نصر بن سيّار إرسال وفد يمثل القبائل المضرية إلى أبي مسلم، فاختار هذا الداهية الفارسي قبائل قحطان اليمانية، وقبائل ربيعة، وخرج المضريون من عنده عليهم الذلة والكآبة، ومن ثَمَّ تألب على الدولة الأموية اليمنية، والربيعية مع العجم، وحاربوها وهم في غفلة من أهداف الفرس التي كانت ترمي إلى قيام الدولة العباسية، ليكون لخلفائها الأبهة، وللفرس المناصب والسلطان والسيطرة، وقد تحقق لهم ما أرادوا في العهود الأولى من قيام دولة بني العباس إلى أن قضى هارون الرشيد على البرامكة، وتراجعت السيطرة الفارسية إلى حين، ومن شعر نصر بن سيّار في الحكمة قوله في الحروب:

وإن النار بالعودين تُذكى

وإن الحرب أولها كلام

فإن لم يُطْفها عقلاء قومٍ

يكون وقودها جثث وهامُ

٢) أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني (المعروف بثعلب): كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، وقد سمع من ابن الأعرابي، والزبير بن بكار، وروى عنه الأخفش (انظر هذه المادة) وأبو بكر بن الأنبار، وأبو عمر وغيرهم، وكان ثقة وحجة مشهورًا بالحفظ، وصدق اللهجة، والمعرفة باللغة العربية ورواية الشعر القديم، وكان مقدّمًا عن الشيوخ، وكان ابن الأعرابي (انظر هذه المادة) إذا شك في شيء يرجع إلى حفظه.

وقال عن نفسه إنه بدأ في طلب علم اللغة العربية ابتداءً من عام ٢١٦هـ (٨٣١م)، وهو مؤلف كتاب «الفصيح» الصغير الحجم، العظيم الفائدة، وكان يقول الشعر، ومن الأشعار التي تنسب إليه في الحكمة قوله:

إذا كنتَ قوت النفس ثم هجرتها فكم تلبث النفس التي أنت قوتها؟

ستبقى بقاء الضبِّ في الماء أو كما يعيش ببِيْداء المهامة حوتها

وقد ولد ابن سيّار النحوي في شهر ربيع الأول عام ٢٠٠هـ (٨١٥م)، ومن مصنفاته المعروفة كتب: المصون واختلاف النحويين، ومعاني القرآن، وما ينصرف وما لا ينصرف، وما يجري وما لا يجري، والشواذ، والأمثال، والإيمان، والوقف والابتداء، والألفاظ، والهجاء، والمجالس، وإعراب القرآن وغيرها.

وتوفي في شهر جمادى الأولى عام ٢٩١هـ (٩٠٣م) بالغًا من العمر حوالي ٨٨ عامًا، ودفن ببغداد، بمقبرة باب الشام، وكان قد فقد السمع فصدمته فرسة وهو يقرأ كتابًا في أثناء سيره بالطريق فوقع في وهدة، وأخرج منها، وحمل إلى بيته حيث مات في اليوم التالي.

٣) الليث بن سيّار: وقد عثرت على اسمه في ترجمة الترمذي (انظر هذه المادة) التي جاء فيها أن الليث بن سيّار هذا كان حاكم «جور» التي نزح منها جدّ الترمذي إلى مدينة ترمز، ولم أعثر على تفصيلات حياته.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «محمد عبد العال قاسم».

١٤١- ابن سينا - حارة - بقسم المنشية

هو أبو علي الحسين بن عبد الله الملقب بابن سينا، ويطلق عليه باللاتينية اسم «أفيسنّا» بالفاء المثلثة وهي كلمة مأخوذة عن العبرية «أفنْ سينا»، وظل عدة قرون إمام العلوم كلها ومازال يعتبر كذلك في كثير من البلدان الشرقية حتى الآن فهو «الشيخ الرئيس ابن سينا»، وقد ولد بأفشنة (بالتركستان) عام ٣٧٠هـ (٩٨٠م) وانتقل مع أسرته إلى بخارى عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م)، وأتم دراسة اللغة والأدب وهو في سن العاشرة، وبعد أن درس الفقه تعلّم المنطق، والهندسة، وعلم النجوم على يد أبي عبد الله، ثم درس وحدة الطبيعيات، والإلهيات، والطب، وسرعان ما تفوق في علم الطب، وفهم أصوله فهمًا جيدًا، فأتقن فروعه وزاوله عمليًّا، وتنقل في أسفاره بين الرِّي وقزوين وهمذان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة، فثار عليه الجند ونهبوا داره، واعتقلوه، وطلبوا قتله فأبى شمس الدولة، وأطلق سراحه فاختفى ردحًا من الزمن إلى أن مرض شمس الدولة فعالجه واستوزره مرة أخرى، واختفى ابن سينا بعد وفاة شمس الدولة، ثم سجن في عهد ابنه أربعة أشهر، قرر عقبها الهرب إلى أصفهان، حيث وجد من علاء الدولة ما يستحقه من إكرام وتبجيل، ولما قصد هذا الأمير سابورخاست خرج ابن سينا في معيته، واشتغل بالرصد لإصلاح الخلل في التقويم القديم بما استخدمه من آلات أخذها معه، وكان الشيخ ابن سينا قوي البنية مسرفًا في الملذات بقدر ما كان مسرفًا في العمل للاطلاع، والدرس، والبحث الدائب، والمثابرة على الكتابة والتأليف.

ولكثرة ما خطه قلم ابن سينا من كتب، ورسائل، وما عالجه من موضوعات - ولا سيما العلمية منها - جعل الناس منه ماردًا أسطوريًّا يأتي بالعجيب المعجز ويحلّق بفعله الجبار فوق مستوى البشر، فكتبه في الطب انتشرت في الشرق والغرب وترجمت إلى اللاتينية وظلت تدرس في كليات أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومن ثَمَّ فهو يعتبر بحق وعن جدارة «جالينوس العرب»، وابن سينا علم من أعلام الرياضيات واقتصادي مارس الشؤون المالية بقدر ما سمحت له الظروف، ففي الرياضيات كان أحد واصفي أصول علم الفلك علاوة على تبحره في نظريات ومسائل الرياضة والطبيعة، وفي مصنفاته «الأرصاد الكلية»، و«الحيوان والنبات»، و«المجسطي»، و«الأرتماطيقي»، و«الموسيقى»، وما إليها من الكتب العديدة ما يدل في وضوح على غزارة مادته في جميع تلك الأصول، وأبرز نواحيه العلمية الفلسفة، ولا سيما في فروعها الثلاثة: علم النفس، وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) والمنطق، ومن الغريب أن ابن سينا كان يكتب، أو يملي أكثر مؤلفاته القيمة عقب ليالي اللهو الحمراء، أو إبّان سجنه، أو اختفائه، وذلك في سرعة تتعدى حدود الشعور الآدمي، وكان من نتائج هذا الإجهاد المرهق المضني أن خسر العلم الشرقي قائدًا ماهرًا في مستهل شيخوخته الناضجة، وقد بدأ في تدوين كتبه في أسلوب واضح مفهوم، ولم يتجاوز الحادية والعشرين سنة، وأهم هذه الكتب من حيث القيمة الأدبية، والعلمية دائرة معارفه الفلسفية المسماة «كتاب الشفاء»، ومصنفه القيم في الطب «القانون في الطب» وترجع مكانته العلمية الممتازة إلى أنه كان كاتبًا مجيدًا ومن آثاره الشعرية الفلسفية قصيدته عن النفس التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورْقاء ذات تدلل وتمنعِ

وعلى الرغم من إسرافه في الملذات كان يثوب إلى نفسه ويلجأ إلى خالقه يستلهمه الرشاد فيقول: إنه كان يرهق نفسه بالقراءة والتأليف، ثم يغلبه النعاس من التعب فتتزاحم الأفكار في رأسه وعندما يستيقظ يجد لها حلولاً موفقة، وكثيرًا ما كان يهرع إلى المسجد ضارعًا إلى الله أن ينير بصيرته ليفهم ما استعصى عليه من مسائل ونظريات، ويلاحظ أن موسوعته «القانون الطبي» تدل على العلم الغزير بالصيدلة، فقد ذكر في هذه الموسوعة القيمة أنواع العطارات، والعقاقير، وفوائدها للأمراض المختلفة.

وفي عام ٤٢٨هـ (١٠٣٦م) مرض ابن سينا بالقولنج، وأهمل علاج نفسه، وهو الطبيب الحاذق، واشتد عليه المرض عندما عاد إلى همذان، حيث أهمل العلاج كلية، وتاب وتصدق، وأعتق عبيده، وانصرف إلى تلاوة القرآن طوال الليل، وأغلب ساعات النهار حتى وافته المنية في ذلك العام نفسه بالغًا من العمر ثمانية وخمسين عامًا.

وتختلف الروايات في المكان الذي توفي فيه ودفن به، غير أن المجمع على صحته هو أن القبر الذي يزار إلى الآن في همذان هو القبر الذي يضم رفات الحكيم الشرقي النابغة بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، وليس ما يعرف عن ابن سينا الآن ما كتبه ابن أبي أُصيبعة، ومن نما نحوه كالقفطي وابن خلكان فقط، وذلك بإثبات فيما كتبوا الترجمة التي دوّنها باللغة العربية، أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني عن أستاذه ابن سينا، ذلك أنه إلى جانب هذه الترجمة العربية التي لم ينشر نصها الكامل حتى الآن، توجد ترجمة أخرى باللغة الفارسية كتبها أحمد بن عمر بن علي المعروف بالنظامي العروضي السمرقندي وسماها «جهار مقال» أي المقالات الأربع، وتضيف هذه الترجمة ضوءًا جديدًا على ما خفي من جوانب حياة الشيخ الرئيس وخاصة بالنسبة إلى تواريخ الأسفار التي قام بها والكتب التي ألفها، وتفصيلات مرحلة شيخوخته، وأسماء تلاميذه، وأسماء الأعلام الذين اتصل بهم.

ويتضح من هذه الترجمة الفارسية ومما جاء في كتاب الكامل لابن الأثير، وفي تاريخ الأولياء لفريد الدين العطار، وفي كشف الظنون لحاجي خليفة جوانب أخرى في حياة هذا العالم الفحل الذي أدهش الناس بسعة أفقه الذهني العجيب في شتى العلوم والمعارف الإنسانية.

ويتبين مما دوّن في هذه المراجع أنه لم يدرس الطب بمفرده كما هو شائع، وإنما درسه على أبي سهل المسيحي، وأبي منصور الحسن بن نوح الغمري.

وأنه انتقل من مدينة بخارى إلى كركانج عام ٣٩٢هـ (١٠٠١م) إثر سقوط عرش السامانيين بين يدي أمير غزنة السلطان محمود بن سبكتكين، وخرج من كركانج إلى جرجان عام ٤٠٣هـ (١٠١٢م) فارًّا من وجه سلطان غزنة، ويحتمل أن تكون قصة لقائه بأبي سعيد بن أبي الخير شيخ متصوفة ذلك العصر التي ذكرها فريد الدين العطار قد وقعت في ذلك العام نفسه، ثم نجده في عام ٤٠٦هـ (١٠١٥م) بالرّي، ثم بهمذان حيث ولي الوزارة مرتين، وما من شك في أنه ترك الوزارة قبل عام ٤١١هـ (١٠٢٠م)، لأن ابن الأثير يذكر وزيرًا آخر في هذا العام، وبقي ابن سينا مضطهدًا

من أمير همذان الجديد، ومن وزيره تاج الملك، فبث حوله الجواسيس، وسجن بعض الوقت، وظل زمنًا آخر مختبئًا حتى لاذ بالفرار إلى أصفهان عام ٤١٤هـ (١٠٢٣م).

ولا تدل رسائله الرمزية التي كتبها في فترة اضطهاده، واختفائه على اعتناقه الصوفية، وإنما تدل على أزمته النفسية، ولم تقتصر حياته السياسية على الوزارة، والنضال في سبيلها بهمذان، ذلك لأنه عاش طوال حياته ببغض أمراء غزنة على الرغم من كل ما بذلوه في اجتذابه إليهم ومن ثَمَّ نجده يشترك في مؤامرات سياسية ضدهم وهو في أصفهان، وربما كان هذا البغض الجارف بسبب ما وقع منهم في ذلك الحين من اضطهاد للفلاسفة والنجوميين والمعتزلة.

ولقد عاش ابن سينا نديمًا لأمير أصفهان علاء الدولة بن كاكويه الذي اتهم بالزندقة لملازمته لابن سينا.

ويروي ابن خلكان روايات مختلفة عن مكان وفاته، كما ذهب بعض الأوروبيين في العصور الوسطى إلى أنه توفي بالأندلس بدسيسة من ابن رشد (انظر هذه المادة)، ولكن الواقع التاريخي هو أن وفاته حدثت في همذان حيث يزار قبره إلى الآن.

ولقد اتصل بكثير من علماء عصره كابن مسكويه، وأبي ريحان البيروني (انظر مادة البيروني)، وأبي القاسم الكرماني، والطبيب أبي الفرج ابن طيب بن الجاشليق، وأبي الخير بن الجمار، وغيرهم، وذكر السمرقندي (انظر هذه المادة) من تلاميذه: الجوزجاني، وأبا الحسن بهمنيار بن المرزبان الأذربيجاني، وأبا منصور بن زبلا، والأمير أبا كالنجار، وسليمان الدمشقي، وأبا عبد الله المعصومي، وهو الذي يقول ابن سينا عنه «هو مني بمنزلة أرسطو من أفلاطون»، وينفرد ابن أبي أصيبعة بذكر أبي القاسم عبد الرحمن النيسابوري، والسيد عبد الله بن يوسف شرف الدين الإيلافي بين هؤلاء التلاميذ.

ولقد حذق ابن سينا في كل علوم عصره حذقًا عجيبًا فتن الأجيال اللاحقة التي جعلت منه شخصية أسطورية هائلة لدرجة أننا نجد كتابًا في الأدب التركي يمجد هذه الشخصية الخارقة للعادة.

ونظم ابن سينا الشعر، وكان من أوائل من دبَّجوا الرباعيات الفارسية، وبرز بصفة خاصة في الطب لدرجة أن الأمراء كانوا يتهافتون على طلبه.

ويحدثنا «دي بور De Boer» عن أثر مصنفه «القانون في الطب» في أنحاء البلاد الشرقية والغربية وعن قوة هذا الأثر الذي يدل على سعة انتشاره بين الغربيين طبعه باللاتينية ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر، ثم إعادة طبعه أكثر من عشرين مرة في القرن السادس عشر، هذا علاوة على طبع قسم أو أكثر من أقسامه مرات لا حصر لها، وظل يدرس إلى عهد قريب كمرجع من أهم مراجع الطب ولا سيما في جامعة مونبلييه بفرنسا.

أما الفلسفة فكانت مجال انتصاره الباهر الخالد، فقد حلت كتبه فيها محل كتب أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة لجيله، وقد قال ابن خلدون في هذا الصدد: «وتجد الماهر منهم (أي هؤلاء الفلاسفة) عاكفًا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة».

وأخذ ابن سينا في تأليف كتابه «الشفاء» إبان توليه الوزارة وأتمه عام ٤١٨هـ (١٠٢٧م)، وألف كتاب «النجاة» في ذلك العام نفسه، وهو في طريقه إلى الحرب في صحبة علاء الدين، ويروي حاجي خليفة أن تلميذه الجوزجاني هو الذي أتم هذا الكتاب، وألف ابن سينا الإشارات بعد عام ٤٢٠هـ (١٠٣٠م).

ومن المفيد التعرض بالشرح لآرائه في النفس والإلهيات، فهو يرتب النفوس ترتيبًا تصاعديًّا، فيتحدث أولاً عن النفس النباتية، ثم الحيوانية، ثم الناطقة، ثم يدرس النفس الناطقة من النواحي المختلفة.

وليس في كلامه عن الحواس جديد غير وصفه الفسيولوجي لمراكز الحواس في المخ، وانتقال الصور المحسة في الجهاز العصبي على أحسن ما كان يسمح به علم الحياة في عصره، ومن ثَمَّ يستطاع القول بأن ابن سينا كان رائدًا من رواد علم النفس التجريبي، وإن كان قد تأثر في هذه الناحية بجالينوس.

أما آراؤه في ماهية العقل فتختلف عن آراء الكندي والفارابي، فقد نظر إلى العقل على أنه قوة تستكمل فعاليتها بالمعقولات، وذلك على مراحل متتالية وئيدة، فالعقل عنده يكون «هيولانيًّا» في بادئ الأمر مجردًا من كل معقول، ثم يصير «بالملكة» إذا استكمل بالمعقولات الأولى، ثم بالفعل إذا حصل على شيء من العلوم الكسبية ثم «مستفادًا» إذا كانت العلوم الكسبية حاضرة فيه بالفعل، ويطالعها فعلاً، والعقل يكسبه الإنسان بالعلم والفكر والحدس.

والفكر هو حركة للنفس الناطقة تبحث بواسطتها عن الحدود الوسطى لأحد المطالب، فإذا ظفرت بهذه الحدود رتبتها في مقدمات قياسية، أما «الحدس Intuition» فهو الظفر بالمطالب في حدودها الوسطى دفعة واحدة.

ومن الناس من يكون من أصحاب الفكر وحده، ومنهم من يملك موهبة الحدس إلى جانب الفكر، ومنهم من يكون علمه كله حدسًا وهؤلاء هم الأنبياء، وفي هذه الحالة يسمى العقل عقلاً «قدسيًّا»، وهكذا يجعل ابن سينا علم الأنبياء أرفع مراتب العلم على حين يرى الفارابي أن علم الفلاسفة أوثق وأبعد ما يكون عن الخيال والرمزية.

والثابت هو أن أرسطو كان يذهب في فلسفته النفسية إلى أن المعقولات تُستمد من المحسوسات، وقد أشار ابن سينا إلى هذا الرأي في كتابه «التعليقات» على كتاب النفس «لأرسطو»، ونبَّه إلى أن للمشرقين رأيًا مخالفًا، وإنا نجد رأي فلاسفة الشرق هذا مبسطًا في جميع كتبه الأخرى وهو رأي يدفع بعلم النفس إلى مجاهل الإلهيات، ولكنه يجعل المعرفة العقلية وثيقة بالماهيات الأزلية التي لا تتغير، ومطابقة لها، لأنه يذهب إلى أن المعقولات تفيض عن عقل خارج عنا وهو أزلي أبدي قد انتهت إليه صور الماهيات من مبدع الكل، وذلك العقل هو «العقل الفعّال»، وما البدن وحواسه إلا وسائل تهيئ العقل الإنساني لقبول فيض العقل الفعّال، فالمحسوسات شأنها – عند ابن سينا – ثانوي في المعرفة العقلية كما جاء في كتابه «الشفاء».

وكانت براهين القدماء على أن النفس ليست مادية، وأنها مباينة للجسم تقوم على المنطق، أما ابن سينا فقد كان أول من

لجأ إلى التجربة النفسية لإثبات ذلك فقال: «لنتصور إنسانًا خُلق محجوب البصر لا يرى من إهابه شيئًا، متباعد الأطراف لا يلمس جزءٌ من جسمه جزءًا آخر، يَهْوِي في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس، ولا يسمع، أليس يغفل مثل هذا الإنسان عن جملة بدنه؟ أليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت إنيته (نفسه)؟

«فالنفس إذن موجودة وجودًا غير بدني» وهذا الرأي في النفس الإنسانية نجده عند الفيلسوف «ديكارت» صاحب القول المشهور «إني أفكر، إذن أنا موجود!! Je pense donc je suis»، وهذا الرأي عند «ديكارت» جعل بعض الباحثين، ومنهم «فاليو Valios» و«فورلاني Fourlani» يذهبون إلى إمكان اطلاع ديكارت على آراء الفيلسوف ابن سينا، ولا سيما أن «فورلاني» أثبت أن النصين الواردين في كتاب «الشفاء» عن هذا الموضوع، كان قد نقلها إلى اللاتينية الفيلسوف «ثمليوم أو فرني».

أما آراء ابن سينا في الإلهيات، فأساسها البحث في الوجود المطلق، ويبدأ في هذا الصدد بتحديد صلة «الوجود» بماهيات الأشياء، فيرى أن هناك من الأشياء ما لا يؤخذ في حده معنى الوجود، كالمثلث مثلاً فإنا نتمثله خطًّا وسطحًا، ولا نتمثله موجودًا، ومثل هذا الشيء وجوده زائد على ماهيته وعارض عليها، وهو يحتاج في وجوده إلى علّة، ولما كانت العلّة لا يمكن أن تتداعى إلى غير نهاية لامتناع الدور والتسلسل، فلابدّ من الانتهاء إلى علة أولى بالإطلاق، ماهيتها عين وجودها، وهذه العلة لا نستطيع أن نتمثلها معدومة، لأن ماهيتها الوجود نفسه، ولأنها مبدأ كل موجود، وهكذا يؤدي التمييز بين ماهية الشيء ووجوده إلى التمييز بين «الممكن» و«الواجب» إذ الممكن ما يستوي وجوده وعدمه، والواجب هو الضروريّ الوجود الذي يترتب على عدمه عدم كل موجود، ويقابلهما العالم والله على الترتيب.

ولقد كان العالم عند أرسطو قديمًا قدم الله، وهذه الإثنينية لا تتفق مع نزعة المسلم إلى التوحيد، ولذلك عندما اضطر ابن سينا إلى القول بقدم العالم حتى يجعل أفعال الله قديمة مثله، رأى أن يجعل الله متقدمًا على أفعاله القديمة «بالذات»، لا بالزمان، والزمان نفسه مخلوق أيضًا مع أنه قديم وتقدمه الواجب بالذات لا بزمان آخر.

وعند ابن سينا أن العالم فاض عن الله بمحض إرادته لا عن حاجة إلى ذلك، فكان عنه العقل الأول الذي هو ممكن في ذاته واجب بعلّته، وهذان الاعتباران في العقل الأول بعقله لعلّته الواجبة العقل الثاني، وبعقله لذاته الواجبة بعلّتها الفلك الأول نفسه، وبعقله لذاته الممكنة جرم هذا الفلك.

وهكذا تستمر الموجودات في التكاثر فيصدر عن كل عقل عقل آخر، ونفس فلكية، وجرم سماوي حتى ينتهي الصدور إلى العقل العاشر، وهو «الفعّال» في عالمنا هذا، ومن ثَمَّ فإن ابن سينا على عكس أرسطو، يرى أن العقل الأول هو المحرك الأول وليس الله.

وإله أرسطو لا يعقل إلا ذاته وهو مشغول بها عما سواها، أما الإله عند ابن سينا فليس يعقل ذاته فحسب بل يعقل الماهيات الكلية، كما يدرك الجزئيات، ولكن من حيث هي كلية فلا يعزب عنه مثقال ذرة، ويرجع إدراكه للجزئيات إلى علمه بعللها ومباديها، كما يرجع إدراك النجومي بكل كسوف جزئي إلى علمه بالحركات السماوية علمًا كليًّا.

وعند ابن سينا تحيط عناية الله بكل شيء، فهي عنده: إحاطة علم الأول بالكل، وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن نظام، فعلم الأول بكيفية الصواب في ترتيب وجود الكل منبع لفيضان الخير في الكل، فإذا كان الله خيرًا محضًا، وأبدع الموجودات على ما يقتضيه الخير فمن أين جاء الشر في هذا العالم؟ وهنا يختم ابن سينا إلهياته بنظرية في التفاؤل تقرب من نظرية «ليبنيز Leibniz» الفيلسوف الألماني، فهو يرى أن الشر إنما يلحق الأشياء التي في طباعها استعداد للتغير والتبدل، فالشر إذن يلازم القوة وبالحري «المادة»، على أن المادة التي هي مصدر الشر طفيفة محدودة لأنها هي هذه المادة العنصرية الموجودة دون فلك القمر، ولا يقف تفاؤل ابن سينا عند حصره الشر في المادة العنصرية دون الفلكية بل يحصره في الأشخاص دون الأنواع ويذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول إن الأشخاص لا يصيبهم الشر دائمًا بل أحيانا، فالمادة علّة الشر والشر محدود محصور، والله لم يقض بالشر إلا بالعرض إذ إنه أراد الخير إرادة أولية ولم يعبأ بما قد تؤدي إليه المادة من شر ما دام الخير موجودًا، ومن ثَمَّ نجد أن تفاؤل ابن سينا يقول بأن عالمنا يغلب خيره على شره، فهو إذن «أفضل العوالم الممكنة» كما يتصوره «ليبنيز».

ومازالت الأوساط الدينية والفلسفية والطبية في الشرق ترجع إلى آراء ابن سينا حتى اليوم وذلك على الرغم مما وجهه إليها الغزالي من المطاعن، ويتبع ابن سينا الفارابي في المنطق وفي نظرية المعرفة إلى أبعد حد، وكذلك في مسألة الكليات التي تتصل بالإلهيات والمنطق معًا، فالكلي عنده يوجد مستقلاً عن وجود الأشخاص المتكثرة «كصورة معقولة بالذات» في عقل الله، وتتصل بتوسط العقول المفارقة بالأشخاص من جهة وبالعقل الإنساني من جهة أخرى، وهو العقل الذي ترد فيه الكثرة إلى تصور كلي، وكان ابن سينا أميَل إلى اعتبار هذا التصور صادرًا عن العقل الفعّال أكثر من نتيجة لقوة التجريد الخاصة بالعقل الإنساني، وهو في هذه النظرة أقرب إلى الأفلاطونية الجديدة منه إلى المشائية.

ومع أنه يسهب في الكلام عن المنطق إلا أنه لا يعتبره إلا مدخلاً للفلسفة، أما الفلسفة الحقة فهي عنده إما نظرية وإما عملية: وتشمل الأولى الطبيعيات والرياضيات، والإلهيات، وفروعها، وتشمل الثانية الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل – ولم يعن ابن سينا بالفلسفة العملية – وهو في تصنيفه للعلوم الفلسفية الذي راعى فيه وضع الطبيعيات أولاً ثم الرياضيات ثم الإلهيات ينظر إلى تجرد موضوعاتها عن المادة شيئًا فشيئًا، ولا ريب أن الإلهيات تُعرَّف بأنها علم الموجود المطلق، والموجود المجرد مطلوب فيها وليس موضوعًا لها، ولكن المطلوب يصبح موضوعها الأساسي عند التعمق في البحث.

ومع أن طبيعيات ابن سينا تأخذ في جملتها بالسنة الأرسطاطاليسية إلا أننا نجد فيها أثرًا للأفلاطونية الجديدة، ويظهر هذا الأثر بنوع خاص في نظريته القائلة بأن الأحداث الأرضية تتأثر بالأجرام السماوية لا عن طريق الحرارة المنبعثة منها، وإنما عن طريق ما تشعه من الضوء.

ومازال العلم في حاجة إلى البحث عن مقدار ما أضافه ابن سينا إلى علم الطب من نتائج مشاهداته الخاصة، على أنه من الوجهة النظرية نجد أنه كان يحل التجربة المحل الأكبر، ويدرس الحالات المختلفة التي يظهر فيها أثر العلاج الناجع.

والله والعالم أوضح عند ابن سينا مما هما عند الفارابي وكذلك إثنينية الروح والمادة، وقد عرض مسألة خلود النفوس الفردية على وجه أدق مما عرضه الفارابي. وهو يُعرّف المادة بأنها إمكان الوجود، وليس الخلق إلا نوال الوجود شيئًا واحدًا إلا في الله، أما فيما هو خارج عنه فالوجود عارض على ماهيته، ويسمى نوال هذا الوجود بلغة «الإلهيات»، «خلقًا» وهذا الخلق قديم.

ويفرق ابن سينا بين حدوث جميع الكائنات الأرضية التي لا تدوم إلا حينًا من الزمن ذلك لأن الإمكان محصور فيما دون فلك القمر.

ولقد قادته آراؤه عن النفس – من الوجهة الإلهية – إلى اتجاهات صوفية صاغ بعضها في قالب شعري كما اضطره الخطر الذي داهمه إلى الفرار مرة بعيدًا عن أعدائه، وهو متنكر في ملابس الصوفيين، وقد ألجأته الضرورة في ساعات ضيقة النفس إلى الكتابة بأسلوب صوفي، ومن ثَمَّ يتضح أن صوفيته عارضة تضيف شيئًا إلى مذهبه الفلسفي دون أن تدعمه أو تقوّيه.

ويجمع النقاد الغربيون على اعتبار ابن سينا من أعظم الأطباء في سائر العصور، وأشهرهم بين سائر الأجناس، والبلاد، والأجيال.

ولصيته الذائع، ونبوغه الخارق للعادة ادعاه العرب وادعاه الفرس وادعاه حتى الترك، والواقع هو أنه كان فارسيًّا عرقًا، وعربيًّا لغة وثقافة، وإغريقيًّا رومانيًّا فلسفة وطبًّا، أما جنسيته بالنسبة إلى موضع مسقط رأسه في الوقت الراهن فسوفيتية إذ إن التركستان جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

ولابن سينا سبع أراجيز في الطب تتناول التشريح، وتدبير الصحة، والوصايا الطبية، والمجربات الطبية، والفصول التي يستحسن فيها تناول الطعام، وحجر الذخيرة، وحفظ الأطعمة، وفيما يلي نموذج يوضح أغراض هذه الأراجيز الطبية:

أما الطبيعيات فالأركان
تقوم من مِزاجها الأبدانُ

وقول بقراطٍ بها صحيحُ
ماء ونارٌ وثرى وريحُ

أما المزاج فقواه أربع
يفردها الحكيم أو يجمعُ

من سخنٍ وباردٍ ويابس
ولين ينال حسّ اللامس

الحرّ في النار وفي الهواء
والبرد في التراب ثم الماء

واليبس بين النار والتراب
واللين بين الماء والسحاب

الجسم مخلوق من الأمشاج
مختلفات اللون والمزاج

من بلغم ومرة صفراء
ومن دمٍ ومرة سوداء

هذا هو الرئيس ابن سينا في موجز مركز يوضح بعض جوانب شخصيته النادرة في التاريخ .

وفيما يلي معظم أبيات قصيدته الفلسفية عن النفس البشرية:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع
ورقاء ذات تعززٍ وتمنعِ

محجوبة عن كل مقلة عارفٍ
وهي التي سفرت ولم تتبرقعِ

وصلت على كرهٍ إليك وربما
كرهتْ فراقَك وهي ذات تفجع

أنفت وما أَلِفَتْ فلما واصلت
ألقت مجاورة الخراب البلقع

وأظنها نسيت عهودًا بالحمى
ومنازلاً بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
من ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت
بين المعالم والطلول الخضَّع

تبكي وقد نسيت عهودًا بالحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدت تغرّد فوق ذروة شاهق
والعلم يرفع كل من لم يُرفع

وتعود عالمة بكل خفية
في العالمين فخرقها لم يرقع

فهبوطها إذ كان ضربة لازب
لتكون سامعة لما لم يُسمع

فلأي شيء أُهبطت من شاهق
سامٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أهبطها الإله لحكمة
طُويت عن الفطن اللبيب الأروع

إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها
قفصٌ عن الأَوْج الفسيح الأرفع

فكأنها برق تألق بالحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وذكر الشهرستاني في كتابه «نهاية الأقدار» أن ابن سينا قال هذين البيتين:

لقد طغت في تلك المعاهد كلها

وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كفّ حائر

على ذقنٍ أو قارعًا سنّ نادم

١٤٢-ابن سيد الناس-زقاق-بقسم الجمرك

اسمه الكامل فتح الدين أبو الفتح محمد بن أبي بكر محمد اليَعْمري الأندلسي وكنيته ابن سيد الناس، كان من كتّاب التراجم التي تتناول التعريف بسير المتقدمين، والبارزين من العلماء، والأدباء والفقهاء، وقد ولد بالقاهرة عام ٦٦١هـ (١٢٦٣م) في بعض الروايات، وتحدد بعض الروايات تاريخ مولده بعام ٦٧١هـ (١٢٧٣م) بفرق قدره عشر سنوات بين التاريخين، ومن مصنفاته الهامة سيرة وافية للنبي عليه السلام جعل عنوانها «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، وكان ابن سيد الناس شاعرًا وقد نظم قصائد عدة في مدح الرسول عنوانها «بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب» وطبع إحدى هذه القصائد المستشرقان «كوسيجارتن وباسييه» وتوفي ابن سيد الناس عام ٧٣٤هـ (١٣٣٤م).

وكانت دراسته الثقافية بالقاهرة، ثم بدمشق، وتوفي وهو يشغل وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة.

وكان ابن سيد الناس أستاذًا لصلاح الدين الصفدي (انظر هذه المادة) الذي لازمه بالقاهرة طوال عامين فسمع منه قصائده واطلع على مؤلفاته.

١٤٣- ابن شاكر - شارع - بقسم المنتزه

يحمل لقب ابن شاكر ممن دوّن التاريخ تراجمهم خمسة وهم:

١) **موسى بن شاكر:** وقد كان عالمًا فلكيًّا ومن المقربين من الخليفة المأمون (انظر هذه المادة)، ومن أصدقائه الحميمين، وكان وهو البدوي المنشأ والتربية في النهار عالِمًا من علماء الفلك، وفي الليل بدويّ النزعة يمارس حياة السلب والسطو، وكأنها عمل من أعمال الفروسية، والإقدام والذكاء، وحامت الشكوك حول هذا العالم عندما كثرت حوادث النهب والسلب، فأمر الخليفة المأمون بإجراء تحقيق عاجل، ولكن الجميع شهدوا بأن موسى بن شاكر – كغيره من المؤمنين – لا يترك بيت الله ليلاً إلا ليعود إليه عند الصباح للصلاة، وهكذا نجا ابن شاكر العالم الفلكي من الاتهام بالسرقة والسطو، وكان ابن شاكر من أمهر رياضيي عصر المأمون.

وعندما توفي موسى كان المأمون يقود حملة في آسيا الصغرى، فأحزنه النبأ وأرسل إلى نائبه يأمره برعاية أبناء موسى الثلاثة وهم:

٢) **محمد بن موسى بن شاكر**

٣) **أحمد بن موسى بن شاكر**

٤) **حسن بن موسى بن شاكر**

ولدى عودة المأمون إلى بغداد عهد برعاية هؤلاء الثلاثة إلى يحيى بن أبي منصور – فلكيه الخاص – وكان يحيى مديرًا

«لدار الحكمة» التي بناها هارون الرشيد، وحشد فيها المأمون العلماء، وفي هذا الجو العلمي ترعرع أولاد موسى بن شاكر، وتلقوا العلم حتى أصبحوا من علماء الفلك المبرّزين، وانفصل الإخوة الثلاثة عن يحيى، ومرصده، وأنشؤوا لهم مرصدًا خاصًّا بهم، ولم يبخلوا عليه بالمال، ولم يضنوا بالوقت والعمل في سبيل رفع مستواه.

وقد ألّف هؤلاء الإخوة كتابًا ترجمه إلى اللغة اللاتينية المستشرق الفرنسي «جيرارد الكريموني» الذي ترجم فلسفة الكندي إلى اللاتينية أيضًا، وكتاب أولاد ابن شاكر يعرف عند الغربيين بكتاب «الإخوة الثلاثة».

وقد وصف الطبيب ابن زيّان الطبري، المولود في مدينة «مرو» سنة ٨٠٨م (١٩٣هـ)، مرصد أبناء موسى بن شاكر – بعد أن شاهده – فقال: «في مرصد سامراء» آلة بناها أبناء موسى وهي ذات شكل دائري تحمل صور النجوم، ورموز الحيوانات في وسطها، وتديرها قوة مائية، وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة، وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة.

وقام الإخوة الثلاثة بإيفاد الرسل على نفقتهم الخاصة إلى الإمبراطورية البيزنطية بحثًا عن المخطوطات الفلكية والرياضية، ولم يقصروا في دفع المبالغ الطائلة لشراء الآثار الإغريقية، وحملها إلى قصورهم، وكانت لهم دار مخصصة لإقامة المترجمين المكلفين بترجمة ما يجمعون من مخطوطات، وكانوا يدفعون لمترجميهم المرتبات نفسها التي كان الخليفة يدفعها لمترجميه، وفي قصورهم وتحت رعايتهم تفتحت عبقريات خلاّقة احتلت فيما بعد مراكز مرموقة بين العلماء العرب ومن هؤلاء: حنين بن إسحق، وإسحق بن حنين، وولده وابن أخيه، وثابت بن قرّة وغيرهم، وكان أولاد ابن شاكر أول من ألّف في علم الحيل والآلات (الميكانيكا) من المسلمين.

ويقول البيروني (انظر هذه المادة) – بعد مرور مائة وخمسين عامًا على وفاة أولاد ابن شاكر: «إني أرى بوسع المرء أن يعتمد على ما قام به أبناء موسى من أبحاث وملاحظات، ذلك أنهم وضعوا في سبيل البحث عن الحقيقة كل قواهم، وكانوا الوحيدين في عصرهم الذين برعوا في طُرُقهم الفلكية وفي حسن استعمالهم لها، كما أنهم تركوا المجال لغيرهم من العلماء للتحقق من صحة قياساتهم ودقتها»، والبيروني يعني بهذا القول ما سطره الإخوة الثلاثة في كتابهم المسمى «مقاييس الأوجه المسطحة» الذي نشر عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) نشره كورنز.

وكان محمد بن موسى قد برّز – من جهة أخرى – في السياسة وأصبح من المقربين جدًّا من الخليفة المأمون، فأرسله في بعثة لقياس محيط الأرض، فقصد هو ورجاله من الفلكيين «سنجار» الواقعة غربي الموصل، وانتهجوا في مهمتهم طريقة مغايرة لطريقة «إيراتوستينس» الذي كان أول من حاول قياس هذا المحيط الأرضي بوساطة زاوية أشعة الشمس، وكان كبير مترجمي مرصد أبناء موسى بن شاكر حنين بن إسحق.

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي»: «إن أولاد موسى بن شاكر الثلاثة الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري قد برّزوا في الحساب، والفلك والميكانيكا، وتكوّن حياة والدهم وما قدمه، وما

قدمه أولاده في ميدان العلم قصة من أطرف القصص وأكثرها إمتاعًا».

٥) ابن شاكر: وهو المعروف في السير والتراجم بالكتبي لأنه زاول تجارة الكتب في شبابه وكهولته، ومن ثَمَّ لازمه هذا اللقب فكانت كنية «الكتبي» أشهر من كنيته «بابن شاكر»، وقد ولد هذا المؤرخ عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م)، وتلقى دروسه في حلب ثم دمشق، ومن مصنفاته كتاب «فوات الوفيات» وهو كتاب جعله ذيلاً «لوفيات الأعيان» الذي ألّفه «ابن خلكان»، وله أيضًا كتاب «عيون التواريخ» الذي ماتزال أجزاء منه في الظاهرية، وباريس، والمتحف البريطاني، ومكتبة «فاتيكان» بروما، وكانت وفاته عام ٧٦٥هـ (١٣٦٣م) بالغًا من العمر حوالي ٧٦ عامًا.

١٤٤- ابن شجاع - شارع - بقسم باب شرقي

كان وزيرًا للخليفة العباسي المقتدر، وذلك عام ٤٧٦هـ (١٠٨٣م)، وكان ذا عقل راجح ورأي صائب متزن، كما كان متبحرًا في الآداب، وكانت وفاته عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م).

١٤٥- ابن الشجري - حارة - بقسم باب شرقي

١٤٦- ابن الشجري - حارة - بقسم الجمرك

هو جامع مختارات من الشعر الجاهلي، ويقول الشعراني عن ابن الشجري الصوفي إنه أبو عبد الله الشجري من كبار مشايخ خراسان، ومن أقواله: «من لم يقدّس فعله لم يقدّس بدنه».

١٤٧- ابن شداد - حارة - بقسم الجمرك

١) هو القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد: كتّاب السير والتراجم، ولد في الموصل عام ٥٣٩هـ (١١٤٥م) ودرس بها، ثم درس بعد ذلك ببغداد، ثُمَّ زاول التعليم في مسقط رأسه عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، وحج بيت الله الحرام عام ٥٨٣هـ (١١٨٨م)، وعرّج في عودته على دمشق حيث التحق بجمعية صلاح الدين الأيوبي فعيّنه قاضي العسكر في بيت المقدس، وذهب عام ٥٩١هـ (١١٩٥م) إلى حلب بعد وفاة السلطان صلاح الدين وتولى القضاء بهذه المدينة حيث صارت له مكانة رفيعة ونفوذ واسع النطاق، وذلك عهد الظاهر وعهد العزيز، وقد استغل هذا النفوذ في إقامة المدارس ووقف المال الكثير عليها، وقضى ابن شداد بقية حياته معتكفًا في داره إلى أن توفي عام ٦٣٢هـ (١٣٣٤م)، وأهم مصنفاته السيرة التي دوّنها عن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد طبعت بالقاهرة عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وترجمها إلى اللغة الإنجليزية المستشرق «كوندر Conder» وفي أحد فصول هذه السيرة بعنوان «النوادر السلطانية والمحاسن السلطانية» كتب بهاء الدين ابن شدّاد يقول: «وذلك أنه قاد للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدوّ فيسرقون منهم الرجال، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعًا له ثلاثة أشهر، وساروا به حتى أتوا خيمة السلطان وعرضوه عليه، وكانوا كلّ ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه، ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا إنه رحيم القلب، وقد أذنّا لك بالخروج فاخرجي، واطلبيه منه، فإنه يردّه عليك، فخرجت

تستغيث إلى اليَزَك فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان» .

«فرقّ لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع . . . فأخذته وبكت بكاءً شديدًا وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون . . . ثم أمر لها فحملت فرسًا ، وألحقت بعسكرهم مع طفلها . . . فانظر إلى الرحمة الشاملة لجنس البشر» .

اللهم إنك خلقته رحيمًا ، فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والإكرام ، وانظر شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم .

٢) عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد: وهو مؤرخ عربي كثيرًا ما يختلط اسمه لصاحب الترجمة السابقة ، وقد كانت وفاته عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) ، وأهم مؤلفاته كتابه القيم الهام عن بلاد الشام والجزيرة وعنوانه «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» .

٣) وابن شداد هو عنترة العبسي (المكنى بابن شدّاد): انظر ترجمته في كلمة «عنترة» ، إذ له حارة باسمه بقسم مينا البصل .

١٤٨– ابن الطفيل – شارع – بقسم الجمرك

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي ، وكان ثالث ثلاثة من أئمة الحكمة والفلسفة الأندلسيين وأحد عباقرة التفكير الإسلامي الذين ظهروا في القرن السادس الهجري ، ولو أن ابن طفيل ينسب بالمولد إلى الأندلس إذ كان يسمى «القرطبي» أو «الإشبيلي» إلا أنه اندمج في دولة الموحدين اندماجًا كليًّا لدرجة تسمح بنسبته إلى القطر الجزائري ولا سيما فيما يتعلق بسيرته الثقافية .

والاثنان الآخران من الأئمة هما: ابن باجة وابن رشد ، وقد تركاهما وابن طفيل آثارًا مرموقة في الحضارة الغربية ، إذ ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية وقد اشتهر ابن باجة عند الإفرنجة باسم «أفانباس Avenpace» وابن طفيل باسم «أبو باسير Abubacer» أي «أبو بكر» ، وابن رشد باسم «أفيرويس Averroes» (انظر مادتي ابن باجة وابن رشد) .

وأصل ابن طفيل من «وادي آش» وهي مدينة أندلسية في ولاية غرناطة (انظر هذه المادة) التي ينتمي إليها كثير من العلماء والأدباء والتي استطاعت أن تحتفظ بعروبتها وإسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ولم يذكر مؤرخو سيرته تاريخ ميلاده على وجه التحديد ، وجاء في بعض المصادر التي تعرضت لهذه السيرة أنه ربما ولد في الأعوام الأولى من القرن السادس الهجري ودرس الحديث والفقه واللغة على ابن محمد الرَّشاطي ، وعبد الرحمن ابن عطية (انظر مادة ابن عطية) وغيرهما من علماء عصره ، غير أنه مال بعد ذلك إلى دراسة «الحكمة وعلوم الأوائل» ، فأكبّ على دراسة الحكمة (الفلسفة) والطب في إشبيلية .

واستنادًا إلى ما ذكره المراكشي (انظر هذه المادة) يقال إن ابن الطفيل كان أحد تلاميذ ابن باجة (ابن الصائغ) في الفلسفة ، غير أن ابن طفيل يذكر في رسالته «حيّ بن يقظان» بعد حديث عن ابن باجة ومؤلفاته هذه العبارة: «هذا ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ولم نلتق به» ، وتقطع هذه العبارة بفقدان الصلة بين الرجلين وتثبت أن ابن طفيل لم يكن تلميذًا

لابن باجة، وما من شك في أن ابن طفيل درس الفلسفة على أعلامها بالأندلس الذين عاصروه يدل على ذلك براعته منذ شبابه في الفلسفة والطب كما برع في الفقه والأدب.

وبدأ هذا الفيلسوف حياته العملية في الوقت الذي اجتاحت الثورة على المرابطين الأندلس وقامت في كل ولاية أندلسية حكومة قومية على نمط دويلات الطوائف، وتكونت في مدينة «وادي آش» حكومة برياسة أحمد بن مُلحان الطائي عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م) فانتظم ابن طفيل في طائفة كتّابه وقام بخدمته ردحًا من الزمن، وعقب سقوط هذه الحكومة بعد أعوام قليلة من قيامها غزا الموحدون ولايات الأندلس وانخرط ابن طفيل في خدمتهم وعين كاتبًا لوالي مدينة غرناطة الموحدي فترة أخرى.

وعُيِّن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي (انظر مادة الكومي) الموحدي الملقب بأبي يعقوب واليًا لإشبيلية عام ٥٥١هـ (١١٥٦م) وكانت إشبيلية قد غدت قاعدة الحكم الموحدي بالأندلس بعد أن خبا ازدهار قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وصارت في الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية، وكان يوسف بن عبد المؤمن الملقب بأبي يعقوب عالمًا فقيهًا أديبًا شغوفًا بالاطلاع والاستزادة من العرفان يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين فأصبحت إشبيلية خلال الأعوام الثمانية التي قضاها في الولاية عليها جامعة الأندلس الحقيقية، وكان ابن طفيل في مقدمة هؤلاء العلماء الذين يجتمعون حول الأمير الموحدي المثقف.

وفي عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م) توفي عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين الذي أضفى على نفسه لقب أمير المؤمنين وتولى الخلافة ولده يوسف الملقب بأبي يعقوب في أوائل عام ٥٥٩هـ (١١٦٣م) بعد أن حكم أخوه الأكبر محمد بن عبد المؤمن خمسة وأربعين يومًا عزل بعدها لسوء سلوكه وإدمانه شرب الخمر وجبن طباعه وقلة حيلته وكثرة طيشه.

وليس من المستطاع التأكيد بأن ابن طفيل كان طبيب الخليفة الجديد منذ توليه الحكم، بيد أنه لما مرض يوسف أبو يعقوب في سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) كان يباشر علاجه «طبيباه أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل»، وقد ذكر هذه الرواية ابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين المعاصر، ثم صار ابن طفيل من خلصاء الخليفة الموحدي ومن أصدقائه الحميمين، وتوثقت بينهما عرى المحبة فأصبح ابن طفيل مستشاره وموضع ثقته، ويقال إنه استوزره.

ويذكر التاريخ أن ابن طفيل كان ذا تأثير كبير على يوسف ابن عبد المؤمن فاستغل هذا التأثير في اجتذاب العلماء والأدباء إلى البلاط، ومن أمثلة ذلك تقديمه ابن رشد الفيلسوف المشهور إلى السلطان وكان مايزال شابًّا، وكان يوسف شديد التعلق بابن طفيل يكنّ له الحب والتقدير ويسمح له بالإقامة في قصره أكثر الأحيان.

والواقع هو أن يوسف أبا يعقوب كان حسن التدبير والإدراك السليم في تصريف شؤون الدولة، هذا إلى جانب تقواه ومتانة خلقه وتمسكه بتعاليم دينه، وقد اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين على غرار أبيه.

وفي عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) عبر الخليفة في جيوش الموحدين إلى الأندلس طلبًا للجهاد وكان في ركابه طبيبه الخاص ابن طفيل، وقضى الخليفة في شبه الجزيرة خمسة أعوام

وكانت مدينة إشبيلية مقامه المفضل، وفي هذه المدينة العظيمة تفتحت مواهبه للاستزادة من العلوم والآداب، فدرس الطب والفلسفة وجمع حوله كبار المفكرين ومن بينهم ابن رشد وابن زهر (انظر مادة ابن زهر)، ويقال إنه هو الذي أوعز لطبيبه وصديقه ابن طفيل بتلخيص لشروح الفيلسوف اليوناني أرسطو وتقريب أغراضها، ولكثرة أعماله وكبر سنه اختار ابن رشد للقيام بهذه المهمة العظيمة لما يعهده فيه من سعة العلم والمقدرة وصفاء القريحة، وقد قام ابن رشد بتلخيص الشروح، وقد اشتهر بهذا العمل العلمي الجليل الذي ترجم إلى اللاتينية.

وبعد أن فتح المدن ودكّ الحصون بالأندلس وجَمَّل مدينة إشبيلية وشيد بها الأبنية الفخمة والمساجد ومن بينها المسجد الجامع، وبعد أن ذهب بجيشه إلى إفريقية (تونس) لإعادة السلام، خرج أمر المؤمنين يوسف أبو يعقوب إلى الأندلس غازيًا خلال عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) فأقام بإشبيلية بعض الوقت ثم قصد مدينة شنترين الواقعة على نهر تاجه في الجهة الغربية من مدينة باجة فحاصرها ودمر مزارعها ومروجها وبقي على حصارها ردحًا من الزمن، ثم شنّ عليه أهلها هجومًا عنيفًا فأبلى خلاله بلاءً حسنًا هو ورفقاؤه وجنوده، وفي هذه المعركة الطاحنة أصابه سهم فحمله ابنه يعقوب وعاد به إلى إشبيلية وكان قد توفي في الطريق في اليوم السابع من شهر رجب عام ٥٨٠هـ (١١٨٤م) بعد أن دام حكمه الصالح اثنين وعشرين عامًا.

وفي ذلك العام نفسه بويع ابنه يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن الملقب بالمنصور بالخلافة في إشبيلية، واستمر ابن طفيل في منصبه طبيبًا خاصًّا للخليفة الجديد إلى أن وافته المنية في أواخر عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) بمراكش، وحضر الخليفة جنازته بنفسه، وتولى وظيفة الطبيب الخاص ليعقوب بن يوسف المنصور الطبيب الفيلسوف ابن رشد تلميذ ابن طفيل.

وابن طفيل هو مؤلف القصة الفلسفية الشهيرة «حيّ بن يقظان» التي تعد أعجب ما كتب في العصور الوسطى وتعرف أيضا باسم «أسرار الحكمة الإشراقية» وفلسفتها تتفق وفلسفة المدرسة الأفلاطونية الجديدة في أبعد صورها الصوفية، وأسلوب ابن طفيل في هذه القصة يدل على الجزالة والبلاغة النثرية.

والرسالة عبارة عن تلخيص فلسفي رائع لأسرار الطبيعة والخليقة، عرضت خلالها حياة وأعمال طفل خلق «من بطن الأرض» في جزيرة مجهولة من جزائر الهند جنوبي خط الاستواء، وهذا الطفل هو «حيّ»، وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدرجي لظروف الحياة ومظاهرها الطبيعية أن يصل إلى أسرار الطبيعة وأسرار الحكمة العليا وأن يتقرب في تأمله وصومه من الله، وعلى الرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية، وهي لا تزيد على خمسين صفحة، فقد لقيت تقديرًا عظيمًا ولفتت بروعتها أنظار النقد الحديث.

ولقد اتخذ ابن طفيل لعرض فلسفته هذا الطفل فجعله في أسلوب قصصي شيق وفي مهارة بارعة قادرًا بقوة عقله – بعد أن شبّ وكبر – على أن يميط اللثام عن الفلسفة وأسس لنفسه مذهب الأفلاطونية الجديدة في صورته الإسلامية، وأطلق على هذا الإنسان العجيب الذي هو رمز للعقل اسم «حيّ بن يقظان» أي ابن الله.

وقصة «حيّ بن يقظان» تُعَدُّ أثرًا عربيًّا من نوع فريد كان له تأثيره القوي في الأدب الأوروبي، ويصفها الأستاذ «سارتون» بأنها من أعظم كتب القرون الوسطى طرافة وأصالة، وهي تمثيل قصة الإنسان الأول يتلمس سبيله منفردًا مستقلاً ليصل إلى الحياة والمعرفة عن طريق الإلهام والحاسة، ويتخلل ذلك كثير من المعلومات العلمية القيمة.

وقد ألّف ابن طفيل قصة «حيّ بن يقظان» في القرن الثاني عشر الميلادي وترجمت إلى اللغة العبرية في القرن الرابع عشر ثم نشرت مع ترجمتها اللاتينية في أواخر القرن السابع عشر، وترجمت بعد ذلك إلى اللغة الإنجليزية، وكان لهذه التراجم أثر ديني وفلسفي وتربوي عميق في الأدب الغربي، خلال القرن الثامن عشر، وهكذا أثر الأدب العربي الأندلسي في الأدب الغربي، ولاسيما الأوروبي – إلى حد بعيد، ومن ثمّ أسهم هذا الأدب – ليس فقط في تطور الأدب هناك – وإنما في تطور الحضارة الغربية في كيانها العام ومن حيث تطعيمها بالمدنية الإسلامية.

وتشيد الروايات الإسلامية بعبقرية ابن طفيل، ويصفه المراكشي «بأنه أحد حسنات الدهر»، ثم يقول: «إنه صرف عنايته في أواخر عمره إلى العلم الإلهي ونبذ ما سواه، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة معظمًا لأمر النبوّات ظاهرًا وباطنًا، هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية».

ويصفه ابن الخطيب (انظر هذه المادة) بأنه «كان عالمًا محققًا شغوفًا بالحكمة المشرقية متصوفًا طبيبًا ماهرًا في أصول العلاج وفقيهًا بارع الإعراب وكاتبًا بليغًا وناظمًا وناثرًا ومشاركًا في عدة فنون».

وكان ابن طفيل إلى جانب تبحّره في الفلسفة والطب شاعرًا مجيدًا ملهمًا، فقد عهد إليه الخليفة يعقوب يوسف بنظم قصيدة حماسية لحث عرب إفريقيا على الاشتراك في الجهاد بالأندلس يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم وكونهم هم السيف الماضي في نصرة الدين، فنظم ابن طفيل قصيدة من أربعين بيتًا تفيض بلاغة وجزالة، وقد جاء في مطلعها:

أَقِيمُوا صُدُورَ الخَيْلِ نَحْوَ المَضَارِبِ
لِغَزْوِ الأَعَادِي واقْتِنَاءِ الرَّغَائِبِ

وَأَذْكُوا المَذَاكِي العَادِيَاتِ عَلَى العدا
فَقَدْ عَرَضَتْ لِلْحَرْبِ جُرْدُ السَلاهِبِ

فلا تُقْتَنَى الآمال إلاَّ مِنَ القَنَا
وَلاَ تُكْتَبُ العَلْيَا بِغَيْرِ الكَتائِبِ

وَلاَ يَبْلُغُ الغَايَاتِ إِلاَّ مُصَمِّمٌ
على الهوْنِ رَكَّابٌ ظُهُورَ المَصَائِبِ

وكأني بأمير الشعراء أحمد شوقي يستوحي هذه الأبيات عندما كان ينظم قصيدته البائية في مدح رسول الله حين قال:

وَمَا نَيْلُ المَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي
وَلَكِنْ تُؤخَذُ الدُّنْيَا غِلابَا

ثم تطرق ابن طفيل في قصيدته إلى استمالة العرب والإشادة بهم فقال:

أَلاَ فَابَعثُوهَا هِمَّةً عَرَبِيَّةً
تَحُفُّ بِأَطْرَافِ القَنَا وَالقَوَاضِبِ

أَفُرْسَانَ قَيْسٍ مِنْ هِلاَلِ بْنِ عَامِرٍ
وَمَا جَمَعَتْ مِنْ طَاعِنٍ ومُضَارِبِ

لَكُمْ قُبَّةٌ لِلْمَجْدِ شُدُّوا عِمَادَهَا
بِطَاعَةِ أَمْرِ اللهِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ ثَائِرٍ
وَفِيئُوا إلى التحقيقِ فَيْئَةَ راغِبِ

وفي الأبيات التالية أنموذج من شعره في الغزل:

وَلَمَّا التَقَيْنا بَعْدَ طولِ تَهَاجُرٍ
وَقَدْ كَادَ حَبْلُ الوُدِّ أَنْ يَتَصَرَّمَا

جَلَتْ عن ثَنَايَاهَا وأَوْمَضَ بَارِقٌ
فَلَمْ أَدْرِ مَنْ شَقَّ الدُجُنَّةَ مِنْهُمَا

وساعَدَني جفنُ الغَمَامِ علَى البُكَا
فَلَمْ أَدْرِ دَمْعًا أَيُّنا كَانَ أَسْجَمَا

فَقَالَتْ وَقَدْ رَقَّ الحَدِيثُ وَأَبْصَرتْ
قَرائِنَ أَحْوَالٍ أَذَعْنَ المُكتَّمَا

نَشَدْتُكَ لا يَذْهَبْ بِكَ الشَّوْقُ مَذْهبًا
يُهَوِّنُ صَعْبًا أو يُرخِّصُ مأْثمَا

فأَمْسَكْتُ، لا مُسْتَغْنِيًا عنْ نَوالِها
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الصَّبْرَ أَوْفَى وَأَكْرَمَا

ومن شعره في الزهد قوله:

يا باكيًا فرْقَةَ الأَصْحَابِ عَنْ شَحَطٍ
هَلاَّ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ

نُورٌ تَرَدَّدَ في طينٍ إلى أجَلٍ
فَانْحَازَ عُلوًا وَخَلّى الطِّينَ لِلْكَفَنِ

يا شَدَّ ما افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعتلقا
أَظُنُّها هُدْنَةً كَانَتْ عَلَى دَخَنِ

إنْ لم يكنْ في رِضَى اللهِ اجْتِمَاعُهُمَا
فَيَالَهَا صَفْقَةً تَمَّتْ عَلَى غَبَنِ

ولابن طفيل الكثير من هذا الشعر الجيد علاوة على بلاغته النثرية وأسلوبه الأدبي المتين الذي يتجلى في رسالة «حيّ بن يقظان» ويدل على مكانته الرفيعة في الذوق الأدبي الذي لم تطغ عليه العناصر العملية الجافة.

ولا يفوتني – إتمامًا لهذا البحث المركز – أن أبرز التشابه الكبير بين قصة «حي بن يقظان» وقصة «روبانسون كروزو Robinson Crusoe» التي ألّفها الروائي «دانيل ديفو Daniel Defoe» باللغة الإنجليزية، فهي تحكي قصة إنسان عاش – مثل «حي بن يقظان» – في جزيرة منعزلة واستطاع مثله أن يرتب حياته على أساس هذه الوحدة الموحشة، وقد يكون «دانيل ديفو» ممن عرفوا سيرة «حي بن يقظان» عن طريق التراجم التي وصفت لها فنسج قصته على غرار ما جاء بقصة ابن طفيل الفلسفية.

١٤٩- ابن عبد السلام - شارع - بقسم كرموز

يحمل كنية «ابن عبد السلام» اثنان ممن دوَّن التاريخ سيرة حياتهم وهما:

١) عز الدين بن عبد السلام بن عبد العزيز بن أبي القاسم: وقد تولى منصب شيخ الإسلام في مصر ولُقِّب فيها بسلطان العلماء، وكان مولده عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) وكان مشهورًا «بالعزّ بن عبد السلام»، تفقه على فخر الدين بن عساكر (انظر مادة ابن عساكر)، وأخذ الأصول عن سيف الدين الأبذي الأموي وعبد اللطيف البغدادي وسمع الحديث عن عمر بن طبرزد، وبرع في الفقه والأصول واللغة العربية، كما تلقى العلم على ابن دقيق العيد، وكان من أكابر علماء المذهب الشافعي وأُضْفِيَ عليه لقب «سلطان العلماء» لما كان يتمتع به من مكانة علمية مرموقة، وكان توليه منصب شيخ الإسلام في مصر إبان عهد الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعزّ أيبك التركماني أول ملوك دولة المماليك الأتراك (انظر مادتي المعزّ والمنصور)، وقد تولى الملك المنصور الحكم عام ٦٥٥هـ (١٢٥٧م).

ويقول الذهبي في كتابه «العبر»: «إن معرفة المذهب الشافعي انتهت إلى ابن عبد السلام مع الزهد والورع وبلوغ رتبة الاجتهاد، واستقر هذا العالم الجليل في مصر عشرين عامًا ناشرًا العلم، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، يغلظ على الملوك ومن دونهم، ويضيف الذهبي أنه لَمَّا دخل مصر استقبله الشيخ زكي الدين المنذري وبالغ في الأدب معه وامتنع من الإفتاء لأجله قائلاً: كنا نفتي قبل حضوره وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه».

أما عن سبب نزوحه إلى مصر وتركه سوريا فيقول المقريزي (انظر هذه المادة) في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» وذلك في حوادث سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م): إن الملك الصالح إسماعيل أذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من الأهالي فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء فاستفتوهم فأفتى الشيخ العزّ بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج وقطع من الخطبة للجامع الأموي بدمشق الدعاء للصالح إسماعيل، وصار يدعو بدعاء منه فيقول: «اللَّهم أبرم لهذه الأمة إبرام راشد، تعز فيه أولياءك وتذل فيه أعداءك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك»، وكان الناس يضحون بالدعاء، وكان الملك الصالح إسماعيل غائبًا فكتب إليه رجاله بذلك فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطبة واعتقاله مع الشيخ ابن عمرو بن الحاجب لأنه شاركه في استنكاره، ولما عاد الملك إلى دمشق أطلق سراحهما وأمر ابن عبد السلام بملازمة داره وألاَّ يُفتي أو يجتمع بأحد، ثم استطاع ابن عبد السلام، وجمال الدين أبو عمرو بن الحاجب النزوح إلى مصر، وأرسل الملك الصالح إلى ابن عبد السلام وهو في الطريق برغبته في العودة على أن يستسمحه ويقبل يده فقال للرسول: ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافانا مما أَبقَى لكم».

ولما وصل إلى مصر استقبله سلطانها الملك الصالح نجم الدين أيوب (انظر مادة الملك الصالح) آخر ملوك الدولة الأيوبية وأكرم وفادته وولاه قضاء مصر، وسرعان ما اصطدم بمن في يدهم الحكم، فقد أقام فخر الدين عثمان، المشرف على شؤون قصر الملك (الاستادار) طبلخانة فوق أحد مساجد

القاهرة فاشتكى السكان من ضربها المتواصل المزعج فأفتى ابن عبد السلام بهدمها؛ لأنها فوق أحد بيوت الله وذلك على الرغم من أن فخر الدين عثمان كان بيده أكثر أمور الدولة، ويدل ذلك على تمسك ابن عبد السلام بالحق دون خشية.

ومن جهة أخرى كان لموقفه المشرف ضد المنتهكين لحرق الإسلام والمسلمين، غير عابئ بما يتعرض له من اضطهاد أو أذى أثره العميق في نفوس أهل مصر وسكان العالم الإسلامي بأسره.

وفي عهد الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعزّ أيبك التركماني استولى هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسي، فجمع قطز أتابك المنصور (أي قائد جيشه)، وهو الذي تولى الحكم باسم «الملك المظفر سيف الدين قطز»، جمع قُطز هذا العلماء والأمراء ثمّ قال أحد أعوانه: «إن الملك المنصور صغير السن لا يصلح لمواجهة العدو وطالب بخلعه وجباية الأموال من الرعية لصد عدوان التتار وعلى رأسهم هولاكو، فقال الشيخ ابن عبد السلام: إذا طرق العدو أبواب البلاد وجب على الناس قتاله وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار والأعيان ما يستعين به على تجهيز العسكر لدفع العدوان، لكن بشرط ألاَّ يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة، وأن كل جندي يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه، أما أخذ أموال التجار والرعية، مع وجود المال والسلاح والقماش في بيت المال فلا يجوز لأنه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق»، وهذا القول الصريح يوضح عدل ابن عبد السلام المطلق دون أن يخشى في ذلك سلطان الحكام وسيطرتهم.

وسجل التاريخ لهذا العالم الجليل حكمه القضائي كرمز للعدالة المطلقة والدقة المتناهية في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وقد قضى بهذا الحكم العادل الذي صار مضرب الأمثال والذي استحق من أجله لقب «سيد الرجال» قضى بهذا الحكم الفذ في نوعه ببيع أمراء المماليك إذ لم يثبت عنده أنهم أحرار، ومن ثَمَّ فإن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، وقد صمم الشيخ على أنه لا يصح لأمراء المماليك بيع أو شراء أو نكاح، فتعطلت مصالحهم واحتدم الأمر وكان من جملتهم نائب السلطان فاجتمعوا وأرسلوا إلى ابن عبد السلام فقال: ليعقد لكم مجلس وننادي عليكم لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فأصر على فتواه، ولما ذهب نائب السلطان إلى داره ليقتله لم يجرؤ على اغتياله وطلب منه الصفح وسأله عن كيفية التصرف في الأموال التي تجمع من بيعه هو وكافة المماليك فقال: أنا أجمعها وأنفقها في مصالح المسلمين، وقد تم له ما أراد ونادى على المماليك واحدًا واحدًا وغالى في ثمنهم وصرف جميع هذه الأموال في أوجه الخير والبر.

وكان ابن عبد السلام يطبق الحق حتى على نفسه، فقد أصدر فتوى ثم ظهر له خطؤها فنادى في الفسطاط والقاهرة على نفسه قائلاً: من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ، وهذا منتهى الشجاعة الأدبية.

ويقول الجلال السيوطي (انظر مادة السيوطي) إن ابن عبد السلام لبس الخرقة وتصوَّف وكان يحضر حلقات أبي الحسن الشاذلي (انظر مادة الشاذلي) في القاهرة، ويقول الشاذلي عنه: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ويقول القطب

اليونيني عنه إنه كان مع شدته وصلابته في الحق والعدل حسن المحاضرة، فكِه النوادر، يحضر حلقات الذكر ويرقص فيها.

ومن مؤلفاته «حل الرموز ومفاتيح الكنوز» وكانت وفاته في عهد الظاهر بيبرس (انظر مادة الظاهر – ومادة بيبرس) عام ٦٦٠هـ (١٢٦١م) أي بعد تولي بيبرس الحكم بعامين ودفن بمقبرته بالقرافة الكبرى بالقاهرة وكان عمره عند الوفاة ٨٠ عامًا.

ويقع ضريحه في منطقة البساتين بالقرب من جبانة التونسي وجبانة الإمام الليث وهو الآن متخرب، وتدل بقاياه على أنه كان يشبه القباب التي أقيمت في أوائل العصر المملوكي وذلك من الناحية المعمارية، ويتكون الضريح من مربع كبير طول ضلعه ١٥ مترًا، ومن المرجح أنه كان مغطى بقبة، وبحائط القبلة خمسة محاريب يتوسط أكبرها الحائط واثنان على كل جانب، وفي وسط الضريح مقبرة عليها بناء مرتفع لعله كان مغطى بتابوت خشبي، كما كانت العادة في ذلك الحين، وتقوم مصلحة الآثار في الوقت الراهن بإعادة بناء الضريح بالاشتراك مع وزارة الأوقاف تخليدًا لذكرى هذا العالم الكبير.

٢) ابن عبد السلام: وكان أديبًا فاضلاً، توفي بمدينة دمشق عام ٨٩٥هـ (١٤٨٩م).

١٥٠– ابن فرناس – حارة – بقسم الرمل

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس، ويُدعى أحيانًا «العباس بن فرناس» وأصله من كورة تاكرنا «رندة» بجنوبي الأندلس في شرقي المثلث الإسباني، وينتمي إلى أسرة من البربر إلى ذلك الجنس الذكي النابه الذي اعتنق الإسلام منذ أوائل الفتح العربي لشمال إفريقيا في العشرات الأولى من القرن الهجري الأول واضطلع بأكبر عبء في فتح الأندلس، وفي الغزوات الإسلامية الكبرى فيما وراء جبال البرانس «البرينيه» متوغلاً في بلاد الغال «فرنسا» ثم قام بعد ذلك بحماية الأندلس وامتداد الحياة الإسلامية فيها عصورًا، وأسهم أخيرًا بقسط وافر وبارز في تراثنا الحضاري العظيم، ولد هذا العالم العبقري بالأندلس، ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس بها، وبرع منذ شبابه في الكيمياء، والطبيعة، والفلك كما برع في الشعر والأدب والموسيقى، وتألق نجمه في عهد الحكم بن هشام أمير الأندلس، وهو ثالث أمراء قرطبة الأمويين المتوفى عام ٢٠٦هـ (٨٢٢م)، وعاصر من بعده ولده عبد الرحمن، ثم حفيده محمد بن عبد الرحمن وحظي لدى هؤلاء الأمراء الثلاثة، وأتحفهم بمدائحه، وأدهشهم بمخترعاته.

وعرف في أول أمره ببراعته في الفلسفة والأدب والشعر وانضم إلى أعلام العلماء والشعراء في بلاط الحكم بن هشام ثم ظهر في ميدان العلوم البحت فتفتحت فيه مواهبه الفذة المذهلة، ذلك أنه أكب على معالجة البحوث الطبيعية، والكيميائية، والفلكية، ولم يقتصر في معالجتها على النواحي النظرية، على غرار الكثيرين من أسلافه، فاندفع إلى معالجتها عمليًّا فكان أول من استنبط في بلاده صناعة الزجاج من الحجارة والرمال ومن ثَمَّ كان لظفره بهذا الاكتشاف دويّ عظيم، فطارت شهرته، وعلا صيته في كافة أنحاء البلاد الأندلسية.

وليس ابن فرناس الوحيد من نوعه بين العلماء المسلمين، والعرب إذ إن تاريخ العلوم الإسلامية يزخر بطائفة عديدة

من جهابذة العلم تميزت بالعبقريات المختلفة خلال ظلمات العصور الوسطى، فحققت أروع الغزوات في ميادين العلوم المحض كالطب، والرياضيات، والكيمياء، وعلم النبات، والحيوان، وعلم الفلك، وقد مهدت هذه الطائفة المشرقة التفكير باكتشافاتها البارعة الطريق أمام الأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث، وما من شك في أن ابن فرناس القرطبي كان من أعجب تلك العبقريات العلمية الإسلامية ذلك أنه لم يقتصر في إنتاجه العلمي الباهر على معالجة الأبحاث العلمية التي كانت سائدة في عصره، ولكنه جنح إلى أنواع فريدة، لم يفكر فيها عالم قبله كما امتاز بصفات عديدة قلما اجتمعت في شخصية علمية واحدة.

وقد عكف هذا العبقري في الوقت نفسه على استيعاب العلوم الفلكية، والرياضية، وتوصل بأبحاثه وتجاربه الناجحة إلى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة من بينها تلك التي أسماها «ذات الحلق» وقد رفعها إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ترافقها الأبيات التالية التي تدل على وظيفتها وفوائدها:

قد تمَّ ما حمَّلتني من آلةٍ

أعْيَا الفلاسفة الجهابذَ دوني

لو كانَ بطليموس أُلْهِمَ صنعةً

لم يشتغلْ بجداول القانونِ

فإذا رأتْهُ الشمسُ في آفاقها

بَعَثَتْ إليه بنورها الموزونِ

ومنازلُ القمر التي حجبت معًا

دون العيون بكل طالع حيْنِ

يبدون فيها بالنهار كما بدت

بالليل في ظلماتهِنّ الجونِ

ثم توصل إلى اختراعه آلة لقياس الزمن أطلق عليها اسم «الميقاتة»، وسماها بعض المؤرخين «بالنقالة» وهي تحدد الأوقات على غير رسم أو مثال، ورفعها إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بعد أن نقش فيها الأبيات الآتية:

ألا إنني للدين خير أداة

إذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ولم تُنرْ

كواكب ليل حالك الظلمات

بيُمْن إمام المسلمين محمد

تجلّت عن الأوقات كل صلاة

وإلى جانب عبقريته العلمية برع ابن فرناس في فنون الموسيقى، وصياغة الألحان، بل وفي الغناء ويذكر بعض مؤرخي سيرته أنه كان أول من أدخل فن الموسيقى الشرقية في إسبانيا، وكان الأمير عبد الرحمن بن محمد يستدعيه إلى مجالس أنسه، فكان يقدم إليه أناشيد من رقيق شعره، ويغني هذه الأناشيد في تلك المجالس.

وأشهر الأعمال الباهرة التي اقترنت باسم ابن فرناس محاولته اختراع آلة يستطيع الإنسان أن يطير بها في الجو،

وقد انتهى إلى القيام بتجربته الخطرة على مشهد من أهل قرطبة «فكسا نفسه الريش ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره، ثم صعد إلى ربوة عالية بناحية الرصافة، واندفع منها في الهواء طائرًا، فحلّق فيه حتى وقع في مكان على مسافة بعيدة»، غير أنه لم يحسن الاحتيال في هبوطه من العلو الذي وصل إليه، فوقع وأصيب في مؤخره، ولم يدرك أن الطائر إنما يقع على زمكه، وعلى الرغم من هذا الإخفاق الجزئي فإن ابن فرناس يعد بحق، وعن جدارة أول من طار في الجو الأرضي من البشر.

وذاع صيت هذا العالم الجسور بهذه التجربة الفذة المذهلة التي ملأت مشاهديه من أهل قرطبة إعجابًا ممزوجًا بالرعب.

وصنع ابن فرناس في بيته قبة تشبه السماء، وزودها بالآلات الخفية التي تُحدث وميضًا كالبرق وأصواتًا شديدة تحاكي الرعد، وجعل في أعلى القبة نجومًا وسحبًا تبدو للناظرين، كأنها حقيقية ومن ثَمَّ كان أول من ابتدع السماء الصناعية التي تفرد لها الدول المتحضرة قاعات ليشاهد النظارة في سمائها مسارات النجوم، والكواكب السيارة.

وأثارت عبقريته النادرة في الاختراعات ظنون الناس فرموه بالمروق، والزندقة، والكفر، وإتيان الخوارق الشيطانية، فاعتقل وقدم للمحاكمة، غير أن القاضي سليمان بن أسود برأه، وأطلق سراحه.

وتوفي ابن فرناس في أواخر عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، أي في عام ٢٧٣هـ (٨٨٦م) على حد قول بعض الروايات، أو خلال عام ٢٧٥هـ (٨٨٨م)، كما تزعم بعض الروايات الأخرى، وبما أنه عاصر الحكم بن هشام الذي توفي عام ٢٠٦هـ (٨٢٢م)، فيكون قد بلغ ما يقرب من الثمانين عامًا عند وفاته.

١٥١- ابن فهد - شارع - بقسم باب شرقي

١) اسمه الكامل محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الحنبلي: صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان الظاهر بيبرس، ومن مؤلفاته كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» وهو كتاب يتناول فن الإنشاء، وله «ذيل على كتاب الكامل لابن الأثير» في التاريخ، وكانت وفاته خلال عام ٧٢٥هـ (١٣٢٤م).

٢) ابن فهد: ويدعى بلقب ابن فهد مؤرخ آخر، كان من علماء كتابة السير، وقد صنف كتابًا في تاريخ مكة المكرمة، وكانت وفاته ٩٢٢هـ (١٥١٦م).

١٥٢- ابن فُوْرَك - شارع - بقسم مينا البصل

اسمه أبو بكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك وكان إمامًا في علم الكلام، وعلم الأصول، وأديبًا، ونحويًا، وواعظًا - وأصله من أصفهان - وقد أقام بالعراق بعض الوقت حيث كان يدرس العلم ثم رحل إلى الري فسعت به المبتدعة، فراسله أهل نيسابور، ورجوه الحضور لديهم فوفد على نيسابور وشيد بها مدرسة ودارًا، وأسهم بنصيب وافر في إحياء كثير من العلوم، وظهر نفعه لجماعة كبيرة من الفقهاء، وفي نيسابور ألّف مصنفات يقال إن عددها بلغ المائة، وهي تتناول أصول الفقه الإسلامي، وأصول الشريعة المحمدية، ومعاني القرآن الكريم، وكان شافعي المذهب.

ثم دعاه أهل غزنة فذهب إليها، وألقى بها محاضرات عدة، واشترك في مناظرات فقهية، وكلامية وقام بإلقاء

الكثير من المواعظ، ومن أقواله الحكيمة: «العيال نتيجة متابعة الشهوة بالحلال فما ظنك بقضية شهوة الحرام؟».

وكان شديد الرد على أصحاب وأتباع أبي عبد الله ابن كرام، ولدى عودته إلى نيسابور وضع له السمّ وهو في الطريق فمات هناك، ونقل جثمانه إلى نيسابور ودفن بالحيرة، ومشهده بها يزار، وعندما شعر بالموت بكى، فسئل عن سبب بكائه، فقال: إني لا أبكي خوفًا من الموت، ولكن مما هو وراء الموت.

وكانت وفاته عام ٤٠٦هـ (١٠١٥م).

١٥٣- ابن فيروز - شارع - بقسم العطارين (عزت السيد سابقًا)

هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، كان من المشايخ الصوفيين المشهورين بالزهد والورع والفتوة، وكان من موالي علي بن موسى الرضا وصحب داود الطائي، ومن كلامه المأثور «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًّا أغلق عليه باب العمل، وفتح له باب الجدل» وكان يقول ما أكثر الصالحين، وما أقل الصادقين فيهم، ويقول: «إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين، وكرهه كل من في قلبه».

وتوفي ابن فيروز ببغداد عام ٢٠٠هـ (٨١٥م)، وقبره فيها يزار ليلاً ونهارًا.

١٥٤- ابن القارح - حارة - بقسم الرمل

هو صاحب الرسالة الشهيرة التي بعث بها إلى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري والتي كانت السبب في أن يرد الفيلسوف العربي عليها بالرسالة الخالدة التي عرفت منذ ذلك الحين رسالة الغفران والتي يرى كثير من مؤرخي الأدب أن «دانتي ألجييري» الإيطالي استقر من منبعها «الكوميديا الإلهية».

وقد عاصر ابن القارح أبا العلاء المعري الذي عاش في الحقبة من عام ٣٦٩ إلى ٤٥٠هـ (٩٧٩ - ١٠٨٥م).

ومن رسالة ابن القارح يتضح أنه ذهب إلى حلب، فنكرها لفقدان معرفة، وجار وأنشدها باكيًا:

إذا زرت أرضًا بعد طول اجتنابها

فقدت حبيبًا والبلاد كما هيا

ويقول في رسالته أنه كان يبغي قرض الشعر الغزلي، وهو في الثامنة من عمره، ولكن عزوفه عن الفواتن جعله يمسك عن ذلك مستعينًا بعصمة الله التي جعلها معينته على دفع الشهوات.

وقد درس ابن القارح على يد أبي عبد الله بن خالويه واختلف الردار أبي الحسن المغربي ثم سافر إلى بغداد، وظل يتردد على علمائها مثل أبي سعيد الصيدافي، وعلي بن عيسى الرماني، ثم نزح إلى مصر والتقى بأبي الحسن المغربي، ولازمه لزوم الظل، وخرج إلى الحج عام ٣٩٧هـ (١٠٠٦م)، وحج خمسة أعوام، ثم عاد إلى مصر، وعلم بمقتل أبي الحسن المغربي ثم فر إلى طرابلس بالشام، وذهب إلى أنطاكية،

ومالطية حيث أقام عند خولة بنت سعد الدولة، ويقول عن نفسه إنه حفظ نصف عمره ونسي نصفه، وذلك لأنه درس ببغداد، ونزح عنها، ولما يزل طري الحفظ، ثم قصد مصر، فأمرج نفسه في الأغراض الشهوانية إذ أراد أن يذوق حلاوة العيش، وكان يكتب خمسين ورقة، ويدرس مائتين، ثم كبر وصار لا يكتب إلا ورقة واحدة من ألم عينيه، ويدرس خمس أوراق وكَلّ، ومن نماذج نثره قوله: «إن شكوت العصر وأحكامه، وذممت صروفه وأيامه، شكوت من لا يُشكى أبدًا، وذممت من لا يُرضي أحدًا، شيمته اصطفاء اللئام، والتحامل على الكرام، ورفع الوضيع، ووضع الرفيع، ظاهره يسر ويؤنس، وباطنه يسيء ويؤيس (وهو يعني بذلك القدر)».

١٥٥- ابن القاسمي - زقاق - بقسم الجمرك

انظر ترجمته في «القاسمي».

١٥٦- ابن قتيبة - شارع - بقسم محرم بك

١) محمد عبد الله بن مسلم الكوفي المروزي الدينوري: مؤلف عربي، ولد بالكوفة عام ٢١٣هـ (٨٢٨م)، وتولى القضاء بمدينة دينور بإقليم الجبل ردحًا من الزمن، ثم اشتغل بالتدريس ببغداد، ويعتبر ابن قتيبة إمام مدرسة بغداد النحوية التي مزجت بين مذهب أهل البصرة وأهل الكوفة، والواقع هو أن مصنفات ابن قتيبة تناولت جميع معارف عصره على غرار ما فعله الجاحظ، وأبي حنيفة الدينوري، وله الفضل في أنه حاول وأفلح في أن يجعل اللغة والشعر والأخبار مما جمعه نحويّو الكوفة خاصة في متناول الذين يعملون في الحياة العامة، ويرغبون في التزود من العلم، ويظهر ذلك واضحًا في تثقيف الكتّاب الذين استطاعوا أن يكون لهم شأن في تصريف شؤون الدولة في ذلك الحين، ومن جهة أخرى اشترك ابن قتيبة في مناقشات علماء عصره الكلامية، ودافع عن القرآن الكريم، والأحاديث النبوية ضد نزعة الشك الفلسفي، وعلى الرغم من ذلك فقد اتهم بالزندقة واظطر إلى تأليف كتاب في الرد على «المشبهة» كي يدفع عن نفسه تهمة الانتماء إليهم، وأهم مؤلفاته «كتاب أدب الكاتب» وكتاب «معاني الشعر» في اثنى عشر مجلدًا، وكتاب «عيون الأخبار» وهو مثال للمصنفات الأدبية في عصره ويضم عشرة أجزاء، وله أيضًا الكتب الآتية «الشراب، المعارف، الشعر، تأويل الرؤيا، ومن مصنفاته في العلوم الدينية كتب: تأويل مختلف الحديث، وشكل القرآن، والمسائل والجوابات، والإحامة والسياسة.

وتوفي ابن قتيبة في شهر رجب عام ٢٧٦هـ (٨٨٩م) ببغداد.

٢) أبو بكر بكار بن قتيبة بن أبي برذعة: وينتهي نسبه إلى الحرث بن قادة الثقفي صاحب رسول الله، كان فقيهًا حنفيّ المذهب تولى القضاء بمصر عام ٢٤٦هـ (٨٦٠م)، واشتهر بحسن السيرة والورع، وكان أحمد بن طولون (انظر هذه المادة) يدفع له ألف جنيه كل سنة علاوة على مرتبه الأصيل، فكان لا يمسها ويتركها في كيسها، فلما دعاه ابن طولون لخلع الخليفة الموقور بن المتوكل وهو والد المعتضد من ولاية العهد امتنع عن الإفتاء في ذلك، فاعتقل وطالبه ابن طولون بالمبالغ التي دفعها له سنويًّا، فحملها إليه مختومة، وكانت ثمانية عشر كيسًا فاستحيا ابن طولون، إذ كان يظن أنه سيعجز عن ردها، وبقي مسجونًا عدة سنين، وكان يلقي

دروسه في الحديث من طاقة سجنه لأن أصحاب الحديث شكوا إلى ابن طولون انقطاع سماعهم للحديث من ابن قتيبة.

وكان هذا الورع التقي يحاسب نفسه كل مساء على الأحكام التي أصدرها، ويبكي خشية من عقاب الله فيما يكون قد أخطأ فيه.

وقد ولد بالبصرة عام ١٨٢هـ (٧٩٨م)، ووافته المنية، وهو سجين يوم الخميس ٦ من شهر ذي الحجة عام ٢٧٠هـ (٨٨٣م) بالغًا من العمر حوالي ٨٦ عامًا، ودفن بالقاهرة، وكان قبره بالقرب من قبر الشريف ابن طباطبا.

١٥٧- ابن القرطبي - شارع - بقسم الرمل

هو غريب بن سعيد القرطبي الطبيب - كان كاتب سر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث والخليفة المستنصر بالله الأموي بالأندلس، وقد ألّف ابن القرطبي كتابًا بعنوان «خلق الجنين وتدبير الحيالي والمولود» وفرح من تأليفه عام ٩٦٤م (٣٥٣هـ)، ومازال مخطوط من هذا الكتاب موجودًا بالأسكوريال بإسبانيا.

١٥٨- ابن القُصير - شارع - بقسم محرم بك

هو إيليا بن القصير، ولد بمدينة حلب وكان شماسًا في كنيسة الأربعين شهيدًا في ماردين، وكان ابن القصير على مذهب اليعاقبة، ثم اعتنق المذهب الكاثوليكي على يد القس الأرمنلي ملكوت طازياز، وترهب في دير الزعفران، وبذل قصارى جهده في سبيل اتحاد المسيحيين، وذلك في المدة من عام ١١١٢ إلى عام ١١٢٨هـ (١٧٠٠ - ١٧١٥م).

١٥٩- ابن القطّان - شارع - بقسم مينا البصل

يحمل لقب «ابن القطان» اثنان ممن دَوَّن المؤرخون سيرة حياتهم وهما:

١) ابن القطان البغدادي: هو أبو الحسن أحمد بن محمد ابن أحمد المعروف بابن القطان البغدادي الفقيه الشافعي، وكان من كبار أئمة الأصحاب. أخذ الفقه عن ابن سريج ثم عن أبي إسحق المروزي، ودرس ببغداد، وأخذ عنه العلماء، وله مصنفات كثيرة، وكان الناس يرحلون إليه في العراق هو وأبو القاسم الداركي، فلما توفي الداركي استقل ابن القطّان بالرياسة.

وذكره الشيخ أبو إسحق في الطبقات «طبقات الشافعية» وقال أنه توفي خلال عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م).

وقال الخطيب أن وفاته كانت في شهر جمادى الأول، وأنه من كبار الشافعيين، وله مصنفات في أصول الفقه وفروعه، وله رسالة في بناء مدينة بغداد كتبها قبل موته، وعنوان هذه الرسالة (شذور العقود) وجاء بها أن بناء بغداد كان في سنة ١٤٦هـ (٧٦٣م) وهذا القول لا يستقيم مع الواقع إذ إن بغداد شيدت قبل ذلك التاريخ بزمن بعيد لأنها تقوم مكان مدينة بابل التاريخية القديمة جدًّا.

٢) ابن القطان الفاسي: وقد جاء في سيرة حياته أنه من المغرب الأقصى.

ليس في المراجع التاريخية الكثير عن تاريخ حياة ابن القطان، وكل ما عرف عنه أنه من أهل مدينة فاس، وأنه

سكن مدينة مراكش، وعاش فيها، وابن القطان هو مؤلف كتاب «نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان»، وتناول هذا الكتاب بصفة خاصة أواخر عهد المرابطين في المغرب العربي وأوائل عهد دولة الموحدين، وقد دام حكم المرابطين ثمانية وثمانين عامًا، (من عام ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) – إلى عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) واستمر حكم الموحدين من يوم أن تولى عبد المؤمن الكومي شؤونها عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) إلى أن استولى أبو يوسف يعقوب الماريني على مدينة مراكش عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ولم يبق من كتاب ابن القطان إلا مخطوطة من ١٣٦ صفحة كبيرة الحجم، ماتزال بحوزة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد في إسبانيا.

وقد اعتمد الأستاذ محمد عبد الله عنان على هذه المخطوطة في تأليف كتابه «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس»، فكان من أهم مصادره.

وتروي الأخبار القليلة عن ابن القطان أنه كان من أبصر الناس بالحديث، وأنه كان معظّمًا عند الخاصة والعامة، وتذكر مخطوطة ابن القطان أخبار المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين منذ سنة ٥٠٨هـ (١١١٤م)، وأخبار بداية ظهور محمد المهدي ابن ثومرت (انظر مادة ابن ثومرت)، وتقدم دعوته السريع ومرحلة الصراع الأول بين المرابطين، والموحدين، وأخبار الأندلس، وخلال هذه الفترة حتى أخبار سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م). وتنفرد المخطوطة عن غيرها بتدوين رسالتين هامتين إحداهما رسالة «الكافية في براهين الإمام المهدي» وقد خاطب فيها خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي، والرسالة الأخرى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة، والمشايخ، والأعيان بالأندلس عام ٥٤٣هـ يشرح فيها قواعد السياسة الشرعية الموحدية، ومطاردة المنكر وشؤون المكوس والمغارم، ويتضح في المخطوطة تحمّس ابن القطان للمذهب الموحدي، فهو يذكر المهدي بن ثومرت وخلفائه بالإجلال والخشوع.

١٦٠- ابن قلاقس - حارة - بقسم مينا البصل

هو أبو الفتح (أو أبو الفتوح) نصر الله بن عبد الله الملقب بابن قلاقس اللخمي الإسكندري، وكان يُكنى بالقاضي الأغر، وهو من أشهر شعراء الدولة الأيوبية المصريين، وقد ولد بالإسكندرية عام ٥٣٢هـ (١١٣٨م) وكان شاعرًا مجيدًا ومدّاحًا جزلاً حسن التعبير، حلو الأسلوب، هذا علاوة على أنه كان من محبي الرحلات ومن ثَمَّ يستطاع اعتباره رحالة جوابًا.

ومن الرحلات الطويلة التي قام بها رحلته إلى جزيرة صقلية (انظر مادة صقلية) حيث أقام طوال عامي ٥٦٣ و٥٦٤هـ (١١٦٧- ١١٦٨) في كنف القائد أبي القاسم ابن الحجر الذي أهدى إليه ابن قلاقس الكتاب الذي ألّف بعنوان «الزهد الباسم في أوصاف أبي القاسم».

ومن جزيرة صقلية رحل إلى اليمن، ومدح وزيرها ياسر، فأجزل له العطاء، وغمره بإحسانه فأثرى بما حصل عليه من مال، ثم ركب البحر فتحطمت السفينة التي كان يستقلها، وغرق كل ما كان معه من مال وهدايا، فعاد إلى اليمن، ومدح الوزير ياسر مرة أخرى.

وقد نشر الشاعر خليل مطران (انظر هذه المادة) ديوان ابن قلاقس المتوسط الحجم في القاهرة عام ١٣٢٣هـ

(١٩٠٥م) ثم اتضح بعد ذلك أن هذه الطبعة غير مستوفاة، إذا قورنت بنسخة الديوان المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بمدينة باريس بفرنسا تحت رقم ٣١٣٩.

وكنية قلاقس الذي اشتهر بها أبو الفتح نصر الله هي صيغة الجمع لكلمة قلقاس، وهو النبات المعروف.

ومن مدحه للوزير ياسر بن بلال اليمني قوله:

سافِر إذا ما شئت قدْرًا
سار الهلال فصار بدرًا

والماء يكسب ما جرى
طيْبًا، ويخبث ما استقرا

إلى أن يقول في مدحه:

فانظر بعينك هل ترى
عُرْفًا وليس تراه ذكْرا

خُلُق جرى من آدم
في نسله، وهلُمّ جرا

يارًا وِيَا عَنْ ياسِرٍ
خيرًا ولم يعرفه خبرًا

اقرأ بغرّة وجهه
صُحُفَ المنى إن كنت تقرَا

والثم بنان يمينه
وقل السلام عليك بحرَا

وغلطتُ في تشبيههِ
بالبحر فاللهم غفرَا

ويصف الشمس فوق النيل بهذه الأبيات الرائعة:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة
واعْجب لما بعدها من حُمرة الشفق

غابت، وأبدت شعاعًا منه يخلفها
كأنها احترقت بالماء في الغرق

وللهلال، فهل وافى لينقذها
في إثرها زورقًا قد صيغ من ورق

وتوفي ابن قلاقس عام ٥٦٧هـ (١١٧١م)، بميناء عيذاب المصري الواقع على البحر الأحمر بالقرب من الحدود الفاصلة بين مصر والسودان تجاه ميناء جدة، بالغًا من العمر إلى ٣٤ سنة.

١٦١- ابن قلاوون - شارع - بقسم الرمل

ولد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة بقلعة الجبل في منتصف شهر المحرم عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)، وهو ابن السلطان قلاوون أحد المماليك الذين اشتراهم الأمير علاء الدين مملوك الملك العادل الأيوبي، وكان قلاوون من أتراك أواسط آسيا الذين استقروا بعد تجوالهم حول حوض نهر الفولجا في جنوب روسيا. وبعد موت الأمير علاء الدين انتقل قلاوون إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وفي عهد الظاهر بيبرس (انظر مادتي بيبرس والظاهر) تزوج بابنة أحد

أمراء المماليك، وفي أيام السلطان العادل سلامش - الابن الثاني للظاهر بيبرس - رقي إلى وظيفة قائد عام الجيش في شهر ربيع الأول من عام ٦٧٩هـ (١٢٨٠م) ثم اختير سلطانًا على البلاد في شهر رجب من العام نفسه، ولم يمض على حكمه عامين حتى تزوج بأميرة مغولية تدعى «أشلون خوندا».

واستكثر قلاوون من شراء المماليك وبزَّ في ذلك ما سبقه من السلاطين، غير أنه دأب على تهذيبهم وتعليمهم مخالفًا أسلافه، وأدى هذا التهذيب إلى كف هؤلاء المماليك عن الشر وإيقاع الأذى بالناس، وفي عام ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) ماتت زوجته الأولى والدة ابنه الأكبر «علي» الذي أشركه قلاوون في الحكم عندما ذهب بجيشه إلى الشام للقضاء على المغول.

وهكذا عاشت زوجته الثانية «أشلون خاتون» في قلعة الجبل هانئة يضمها قصر سقوفه مذهبة وجدرانه منمقة وأرضيته مرخمة ونوافذه ملونة الزجاج ونافوراته تنضخ الماء فتضفي على القصر جمالاً ساحرًا، وفي هذا القصر الفخم ولد محمد بن قلاوون.

وكان العصر الذي ولد فيه محمد عصر اضطراب وفتن ولكن هذا لم يمنع والده السلطان قلاوون من أن يكون مفيدًا للشعب الذي تولى حكمه، فقد حرص على تعليم هذا الشعب فأنشأ المدارس التي ماتزال قائمة حتى الآن، وكان التعليم فيها بالمجان، وأنشأ المستشفى الكبير الذي يحمل اسمه لعلاج مختلف الأمراض وكان كأحدث ما تكون عليه المستشفيات حتى في الوقت الراهن، ونمَّى الذوق الفني فأقام القبة العظيمة التي شيدها لقبره وحرص على أن يجعل منها متحفًا فنيًّا يضم أكبر عدد من آيات الفن، ويلقب قلاوون «بالمنصور».

ومات ولده الأكبر «علي» بالزحار (الدوسنتاريا) وقيل إن ولده الثاني «خليل» قد دس له السم؛ لأنه كان المفضل عليه عند السلطان قلاوون، غير أن قلاوون عهد بولاية العهد إلى خليل هذا ولقَّبه بالملك «الأشرف خليل»، وفي ٦ من ذي القعدة عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) توفي السلطان قلاوون وهو في طريقه إلى «عكا» لتأديب الصليبيين، وهكذا حرم محمد من عطف الأبوة وهو مايزال طفلاً إذ كان عمره يزيد على الخامسة ببضعة أشهر، وانصرف محمد إلى دروسه فتعلم القراءة والكتابة والحساب وحفظ بعض سور القرآن الكريم على غرار أبناء الأمراء من المماليك ومارس الألعاب الرياضية المناسبة.

وتولى السلطان الأشرف خليل حكم البلاد وكانت فيه غلظة وعنف فكرهه الناس لغلظته وقسوته وكبريائه وتعاليه، غير أنه كان مصممًا مثل أبيه على إخراج الصليبيين من الشام فاستولى على مدينة عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وأدب أهلها وهدم حصونها وكنائسها اللاتينية التي شيدها الصليبيون ونقلت كثيرًا من غنائم الحرب إلى القاهرة ومن بينها أحد مداخل هذه الكنائس الذي صار مدخلاً للمدرسة الناصرية، ولم يرزق الأشرف خليل ذرية فاحتفل بختان أخيه «محمد» احتفالاً رائعًا ثم قتله بعض الأمراء وعلى رأسهم أحد مماليكه المدعو «بيدرا» الذي وُجد بجيبه فتوى تبيح قتل الأشرف على أساس أنه فاسق يشرب الخمر في رمضان ولا يصلي ويفسق بالمردان.

وعقب القتل دخل «بيدرا» خيمة الأشرف ونادى بنفسه سلطانًا، غير أن أغلب الأمراء لم يرضوا بتنصيبه وبادروا إلى قتله، وهكذا فتح الطريق أمام محمد بن قلاوون لاعتلاء

عرش السلطنة، وكان عمره آنذاك تسع سنوات، وبعد جدل طويل بين الأمراء استقر رأيهم على اختياره سلطانًا عليهم فاعتلى العرش في ١٦ من شهر المحرم عام ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) واختاروا في الوقت نفسه «كَتْبُغا» نائبًا للسلطنة والأمير سنجر الشجاعي وزيرًا، والأمير بيبرس الجاشنكير استادارًا (أي مشرفًا على البيوت السلطانية) وهي إحدى الوظائف الرئيسية في الدولة التي أنشأها السلطان قلاوون أثناء حكمه، وتنفيذًا لهذا الاتفاق أصبح الأمير «كَتْبُغا» القائم الفعلي بكافة أمور السلطنة.

ولم يدم الصفاء بين الأمير «كَتْبُغا» والأمير سنجر الشجاعي وأدى النزاع بينهما إلى قتل سنجر في القلعة، وهكذا خلا الجو للأمير «كَتْبُغا» ودُعِي له على المنابر مع السلطان محمد بن قلاوون، وبادر «كَتْبُغا» إلى استصدار عفو من الناصر محمد للأمير «لاجين» أي «لاشين» أحد قتلة أخيه الأشرف خليل. غير أن هذا العمل لم يرق لمماليك خليل فأثاروا فتنة قضى عليها «كَتْبُغا» في الحال وقتل معظم الثائرين.

وأخذ «لاجين» أي «لاشين» يثير البغضاء للناصر محمد في فؤاد «كَتْبُغا» ويزيّن له الاستئثار بالحكم ويخوّفه من السلطان، فشرع «كَتْبُغا» في أخذ موافقة الخليفة العباسي والقضاة والأمراء على خلع الناصر محمد بحجة صغر سنه وقلة أهليته لتصريف شؤون الدولة، وهكذا نودي «بكَتْبُغا» سلطانًا على مصر والشام في ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)، ومن ثمّ انتهت السلطة الأولى للناصر محمد بعد عام واحد وأُجبِر هو وأمه على الإقامة سجينًا في بعض قاعات القلعة.

وكافأ «كَتْبُغا» صديقه «لاجين» على نصائحه فجعله نائبًا له، واقترن حكم «كَتْبُغا» بالكوارث التي منها الغلاء ووباء الطاعون وسيطرة الأمراء المغول على أمور السلطنة؛ لأنهم كانوا من أبناء جلدة «كَتْبُغا» وانتهز «لاجين» الفرصة فبَيَّت النيّة على اغتيال صديقه الذي أكرمه وتوصل إلى العفو عنه، فحينما خرج السلطان «كَتْبُغا» لتفقد أحوال الشام كان «لاجين» في ركابه وعند عودته إلى مصر واستراحته في إحدى القرى هجم عليه «لاجين» وأعوانه لقتله، غير أنه نجح في الهرب والعودة إلى الشام، أما «لاجين» فأسرع إلى أخذ البيعة من الأمراء المماليك وتولى السلطنة في شهر المحرم عام ٦٩٦هـ (١٢٩٧م) ورضي أن يبقي على «كَتْبُغا» ولا يقتله ووافق على تعيينه حاكمًا على قلعة «صرخد» بشرط ألاّ يتصل بأحد من الناس، واسم «لاجين» الكامل هو «حسام الدين لاجين» (انظر مادة حسام الدين).

ولقد تغيرت سيرة «لاجين» عقب اعتلائه العرش، فأعرض عن الخمر واللهو ولاذ بالعلماء والفقهاء وأصلح من سلوكه وعطف على أفراد الشعب وانحطت أسعار القمح واللحوم والمواد الغذائية في عهده ورفع بعض المكوس عن الناس، أما بالنسبة إلى المماليك فقد رفع بعضهم إلى مرتبة الأمراء وكان من بينهم مملوكه المفضل «منكوتمر» الذي كانت له مكانة ممتازة في نفسه، وأدى تفضيله هذا المملوك على غيره من الأمراء إلى تآمر هؤلاء على قتله ونفذوا مؤامرتهم في ١٠ من ربيع الثاني عام ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) فمزقوا جسده بسيوفهم وهو قائم لصلاة العشاء، وهكذا خلا عرش سلطنة مصر بعد أن قضى المتآمرون على مملوكه المفضل «منكوتمر».

واستقر رأي الأمراء عقب ذلك على استدعاء الملك الناصر محمد بن قلاوون ليعتلي العرش، وكان «لاجين» قد أبعده إلى الكرك بزعم المحافظة على حياته وعلى عرشه إلى أن يبلغ أشدَّه، وقد كان يوم عودته إلى القاهرة يومًا مشهودًا فصعد إلى القلعة وجدد الأمراء والأعيان البيعة بين يديه فأنعم برتبة الإمارة على ابن أخيه «موسى بن علي بن قلاوون» وعين الأمير «سلار» نائبًا للسلطنة والأمير «بيبرس» استادارًا (أي مشرفًا على البيوت السلطانية وشراء كل ما يلزم لها من أطعمة وتموين)، وكان عمر الناصر وقت عودته إلى الحكم أربع عشرة سنة.

وما كاد يستريح من متاعب رحلته ومن الاحتفاء بعودته حتى بلغه تهديد المغول للشام، فأمر بإعداد الجيش وخرج هو على رأسه، وعند وصوله إلى دمشق خرج الأهالي لاستقباله ورحبوا به ثم سار بجيشه إلى حمص؛ حيث انتصرت فرقة من جنوده على العدو، وأشاع المغول أنهم عائدون إلى بلادهم فخدع الناصر بذلك وأسرع المغول إلى الهجوم وألحقوا بالجيش الناصري هزيمة منكرة، وعاد الناصر إلى القاهرة وشرع الأمراء المماليك في الاستعداد للعودة إلى بلاد الشام، وقد رفض قاضي القضاة «ابن دقيق العيد» إصدار فتوى تبيح أخذ دينار من كل قادر من أفراد الشعب، وقال بوجوب تنازل الأمراء أولاً عن كل ما يملكون من مال وجواهر وذهب وفضة، ولم يطل الأمر على الاستعداد للحرب إذ حضر وفد من قبل المغول يؤكد أن سلطانهم «غازان» قد عزم على الرحيل وترك الشام حقنًا للدماء، غير أن طلب الصلح لم يكن إلا خدعة من «غازان» المغولي، فاستعد الناصر للحرب والتقى جيشه بالمغول بالقرب من دمشق وأبلى بلاءً حسنًا وأظهر الجيش المصري من ضروب الشجاعة والاستبسال ما يفوق الوصف ودارت الدائرة على المغول فهُزِموا شر هزيمة وحصدت رءوسهم حصدًا وأُسِر منهم عدد كبير.

وسبق هذا النصر المبين نصر آخر هو تخليص البلاد من شرور «الأعراب» الذين كانوا يعيثون في الديار فسادًا ويغيرون من الصحراء على المدن والقرى ويمارسون مهنة قطاع الطريق على أوسع نطاق، فسير الناصر للقضاء عليهم أربع فرق قتلت معظمهم وأسرت منهم أكثر من ١٥٠٠، وسلبت دوابهم وأسلحتهم، وبعد استقرار الأمور عفا الناصر عن الأسرى وأعادهم إلى الصحراء.

وحقق الناصر محمد بن قلاوون نصرًا آخر على الصليبيين في البحر، إذ أنشأ أربع سفن هاجمت جنود الصليبيين في جزيرة «أرواد» الواقعة أمام ساحل مدينة «طرابلس» الشام واستولت عليها وخرّبتها وغنم البحّارة المصريون الكثير من الغنائم وأسروا عددًا كبيرًا من جنود الأعداء.

والناصر محمد هو مشيد المدرسة الناصرية التي ماتزال من الآثار المملوكية الرائعة بجوار مستشفى قلاوون بالنحاسين بالقاهرة.

وبعد وفاة والدته الأميرة المغولية «أشلون خاتون» استبدّ الأميران «سلار» و«بيبرس» وضيقا عليه في النفقات لدرجة أنه كان لا يجد من المال ما يشتري به كل ما يشتهي من طعام أو كل ما يريد أن يهديه لنسائه وجواريه، ومن ثمّ عزم على التخلص منهما ولكنهما علما بتدبيره، وكان الشعب قد علم بالأمر وظنّ أن الأميرين يريدان القضاء على ملكهم المحبوب فثار ولم تهدأ ثورته إلاّ بعد أن خرج الناصر في موكب فخم

وشقّ المدينة، غير أن تأييد الشعب وحبه له لم يكن كافيًا ليقيه شر الأمراء وغدرهم، ومن ثمّ لم يكن في وسعه إلاّ المهادنة وانتظار الظروف المواتية، فطلب من الأميرين «سلار» و«بيبرس» الذهاب إلى الحج وخرج في موكب يحفه بكاء الشعب لوداعه، ووصل إلى الكرك وتحصن في قلعتها بعد أن أخرج الناس منها وأخبر مماليكه وأمراءه أنه خلع نفسه ليستريح من عناء السلطنة ومتاعبها وأنه سيقيم بالكرك ولن يذهب إلى الحج، وبعث إلى سلار، وبيبرس بكتاب أثبت فيه تنازله عن العرش ورغبته في الإقامة منعزلاً بقلعة الكرك، وبعد قراءة هذا الكتاب في اجتماع عقده الأميران وضم العلماء والأمراء بويع الأمير «بيبرس» فجلس على العرش، وهكذا انتهت سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية بعد أن حكم عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا، وتولى بيبرس الملك باسم «الملك المظفر بيبرس الجاشنكير».

ولم يرض بعض أمراء الشام بتنازل الناصر عن العرش ولاسيما نائب مدينة حلب، غير أن الناصر لم يشأ استغلال هذا الأمر في العودة إلى الملك إذا رأى التريث إلى أن تحين الفرصة السانحة، وحدث أن علم بيبرس باتصال عدد من الأمراء المصريين بالناصر في الكرك وبأنهم يكاتبونه فهدده بالنفي إذا لم يكف عن الاتصال بهم، ومن ثمّ كانت بداية العمل الثوري الذي أخذ الناصر في القيام به لاسترداد ملكه، فطلب من أمراء الشام الذين لم يرضوا بحكم بيبرس ما وعدوا به من نجدة.

واستطاع عقب ذلك دخول دمشق ظافرًا دون قتال، وكان الخطب قد استشرى في مصر بسبب الغلاء ونقصان النيل وارتفاع الأسعار وتمادي «بيبرس» في التضييق على الناس بتفتيش بيوتهم بحثًا عن الخمر فيها وقد جر ذلك إلى قيام الأشرار بالنهب والسلب تحت ستار التفتيش.

واشتد الضيق على «بيبرس» عندما علم أن الناصر قد استعد للعودة إلى عرشه فاستشار «سلار» نائبه والأمراء فأشاروا عليه بالتنازل عن الملك والكتابة إلى الناصر بذلك، ففعل ونزل من القلعة صحبة مماليكه وما حمل من ثروته الخاصة فقابله الناس بالشتائم والسباب لكراهيتهم لحكمه، وسافر هو ومماليكه إلى الصعيد، وعقب ذلك عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى عرشه للمرة الثالثة وكان عمره ٢٥ عامًا.

وأمر بخنق «بيبرس» ودفنه بالقرب من القلعة ثم نقل رفاته إلى القبر الذي شيده لنفسه وألحقه بالخانقاة التي أنشئت للصوفية ومازال قائمة حتى الآن بحي الجمالية بالقاهرة، وتعد من روائع الفن المعماري الإسلامي الفخم، أما «سلار» فقد سُجِن ومات محرومًا من الطعام والشراب.

ولقد قضى بعد ذلك على عدة مؤامرات كان مدبّروها يهدفون إلى اغتياله؛ ولذلك كان شديد الحرص على حياته شديد الخوف من الغدر به، وكان ذلك سببًا للفتك بعدد من الأمراء لمجرد الظن بأنهم يدبرون مؤامرات لقتله.

وعلى الرغم من هذه القسوة كان الناصر عف اللسان يرخي لحيته فتزيد في هيبته وكان رزينًا غير متهور لا يميل إلى الهزل في موضع الجد ولا يميل إلى الزخرف في لباسه، وقد منع النساء من الإسراف في التبرج ورتب نساءً لمراقبة من يتمادين في ذلك لتُفرَض عليهن الغرامة الكبيرة التي قررها، وكان الناصر متمسكًا بفرائض الدين الإسلامي، وكان يمقت شرب الخمر وشاربيها، وكان كريمًا سخيًّا في إحسانه، ومن

جهة أخرى كان محبًّا للعلم والعلماء وهو الذي أغدق عطفه على المؤرخ المشهور «أبي الفداء» (انظر هذه المادة) وقلده ولاية حماة وأنعم عليه بلقب سلطان وألبسه شارة الملك، وتزوج الناصر من أربع أميرات هن: أردكين، طغاي، وابنة الأمير تنكز، والأميرة المغولية طلنباي، ورزق من زوجته طغاي الحسناء بابنه آنوك عام ٧٢١هـ (١٣٢١م)، ورزق فيما بعد من زوجاته بستة عشر ولدًا، ولي السلطنة منهم ثمانية، أما بناته فكن كثيرات، زوَّجهن من الأمراء.

وكان الناصر محبًّا لمماليكه، محسنًا إليهم، وعطوفًا على كبار موظفي الدولة، وكان يجلس للبتّ في شكاوى الناس ويرفع الظلم عن المظلومين، وخفف بعض الضرائب وألغى بعضها مثل مكس الملح ومكس ساحل الغلّة، ومن ثمّ يتضح أن هذا السلطان كان حريصًا على أن يحقق للشعب الأمن والرخاء.

وعمل الناصر على توثيق الصلات بين مصر وبعض الدول الأجنبية فقصدت وفود من بيزنطة وروما وفرنسا والحبشة ومن البابا يوحنا الثاني تحمل الهدايا الثمينة وتخطب ودَّه مما جعل له هيبة مرموقة المكانة الدولية.

ولقد عمل الناصر منذ توليه الحكم في المرة الثالثة على تنفيذ المشروعات العمرانية المفيدة هادفًا من ذلك إلى تنمية الدخل القومي، ومن أهم هذه المشروعات إقامة العمائر الكبيرة وإنشاء البساتين في مختلف أنحاء القاهرة وتشييد الجسور الكثيرة بالريف وشق المجاري المائية مما زاد في رقعة الأرض المزروعة وإنشاء خليج يمتد من القاهرة إلى قرية سرياقوس وإقامة الجسور عليه وقد سمي هذا الخليج بالخليج الناصري، وتعميق ترعة «شيديا» التي كانت تمد الإسكندرية بماء النيل وكانت هذه الترعة تجف في أيام التحاريق، فلا يجد الأهالي الماء العذب إلاّ عن طريق الصهاريج، وكانت هذه الترعة في مكان مجرى ترعة المحمودية الحالية تقريبًا.

وعني الناصر عناية كبيرة بالنواحي الاقتصادية للبلاد فقد عمل جهد الطاقة على توسيع رقعة الأراضي الزراعية في مختلف المقاطعات وذلك بشق القنوات والخلجان وتعميق الموجود منها وبإنشاء البساتين في كثير من الجهات، واهتم بالثروة الحيوانية ووجه رعايته للصناعة وتنشيطها فنمت صناعات الأقمشة المختلفة والأدوات النحاسية والزجاجية والخزفية والخشبية التي مازالت آثارها المحكمة الصنع تزين المتاحف الإسلامية في مصر وتركيا وأوروبا وأمريكا، وراجت في عهده صناعة السكر وتقدمت بكيفية ملحوظة ونشطت صناعة الكتان ولاسيما في مصانع النسيج التي تديرها الحكومة، وكان أهم هذه المصانع مصنع الإسكندرية الذي بهرت الأنوال التي كان يضمها، الأوروبيين وسحرت منتجاته أعينهم بجمالها وإتقانها فبذلوا في سبيل الحصول على بعضها الأموال الطائلة.

وراجت التجارة في عهد الناصر وعلى الأخص في موانئ الإسكندرية ورشيد ودمياط وعيذاب ومدينة قوص، وكانت التجارة الخارجية تأتي عن طريق ميناء عيذاب على البحر الأحمر من الصين والهند واليمن ثم تحمل على ظهور الجمال إلى قوص التي كانت عاصمة الوجه القبلي لتنقل عن طريق النيل إلى القاهرة أو إلى رشيد والإسكندرية للتصدير إلى أوروبا، وكانت التجارة الأوروبية ترد على الإسكندرية ورشيد ودمياط وتأخذ طريقها إلى قوص فعيذاب لتنقل بالسفن إلى اليمن والهند والصين.

وفي شهر ذي الحجة عام ٧٤١هـ (١٣٤٠م) مرض الناصر بالزحار (الإسهال) فلزم الفراش واشتد عليه المرض فدعا الأمراء وعلى رأسهم زوجَا بنتيه الأميران «بشناك» و«قوصون» واستشارهم فيمن يكون وليَّ العهد من أولاده فاستقر رأيهم على ولده «أحمد»، وتوفي الناصر بعد مكافحة المرض أحد عشر يومًا وكان ذلك في ٢١ من ذي الحجة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) بالغًا من العمر ٥٧ عامًا وأحد عشر شهرًا وخمسة أيام وهو غير راضٍ عن تولية ولده أحمد إذ كان يريد تولية ولده أبي بكر.

وإثر اشتباك الأميرين «بشناك» و«قوصون» في مناقشة كلامية، أمام الناس مظهرًا كل منهما أصله إذ كانا بائعين متجولين قبل تنصيبهما أميرين، استقر رأيهما على تنفيذ رغبة الملك الناصر ونايا بسلطنة الأمير أبي بكر.

وقد دُفن الملك الناصر داخل قبة «قلاوون» بجانب رفات أبيه.

١٦٢ – ابن الكحّال – شارع – بقسم مينا البصل

يلقّب بابن الكحّال اثنان من أطباء العرب القدامى وهما:

١) **علي بن عيسى (الملقب بابن الكحّال)**: وكان طبيبًا، ومن أساتذته ابن الطيب العراقي الذي حضر عليه دروسًا في الطب بمدينة بغداد، وكان علي بن عيسى مسيحيًّا نسطوريًّا، فاختلف مع الكاثوليكوس يوحنا، وتحول إلى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، ومن مؤلفاته التي اشتهر بها كتاب «تذكرة الكحالين» وهو في طب العيون، وقد شاع استعماله في عصره، وتوفي علي بن عيسى الكحّال عام ٤٠١هـ (١٠١٠م).

٢) **شهاب الدين الطبيب (الشهير بابن الكحّال)**: وهو مؤلف كتاب «نور العيون وجامع الفنون»، وتقول الروايات إنه وضع هذا الكتاب عام ٦٩٦هـ (١٢٩٦م)، وفي هذا الكتاب المفيد كل ما يلزم لدراسة طب العيون، ويوجد مخطوط من الكتاب في غوطا.

١٦٣ – ابن كمال باشا – شارع – بقسم كرموز

اسمه الكامل شمس الدين بن كمال باشا، تلقى العلم في دار الحديث بمدينة أدرنة ثم اشتغل بالتدريس بمدارس أسكب وإسطنبول وأدرنة نفسها، وتولى بعد ذلك القضاء بآسيا الصغرى (الأناضول) وتدرج في وظائف القضاء إلى أن عين شيخًا للإسلام، وله عدة مؤلفات بالتركية والعربية ومن بينها كتاب رجوع الشيخ إلى صباه وقد ألفه بتوجيه من السلطان سليم الأول تاسع سلاطين بني عثمان، وقد توفي شمس الدين بن كمال باشا بمدينة إسطنبول عام ٩٤٠هـ (١٥٣٣م)، وكان ابن كمال باشا من فقهاء الإسلام الذين ناقشوا عقيدة ابن العربي التي تقول بوحدة الوجود (انظر مادة ابن العربي).

ويختلط على مؤرخي السير ترجمة ابن كمال باشا، وكمال باشا زاده إذ إن سيرتهما تكاد تكون واحدة، ومن ثَمَّ يذهب بعضهم إلى أن الاثنين رجل واحد.

وكمال باشا زادة كان مؤرخًا، وفقيهًا، وكاتبًا عثمانيًّا – كما ترويه سيرته – وتولى منصب شيخ الإسلام وعهد إليه بنقل تاريخ أبي المحاسن بن تغري برى من العربية إلى التركية، وله مؤلفات عديدة منها قصة «يوسف وزُليخة» امرأة عزيز مصر في زمن يوسف بن يعقوب، ومن سرد هذه

السيرة يتضح التشابه الكلي بين ابن كمال باشا، وكمال باشا زادة، ولاسيما أن تاريخ وفاة كمال باشا زادة تحدد بعام ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) بمدينة إسطنبول أي بعد وفاة ابن كمال باشا بعامين، وفي مكان الوفاة نفسه وفي عهد السلطان سليم الأول بالذات.

١٦٤- ابن كلدة - حارة - بقسم محرم بك

هو الحارث بن كلْدة الثقفي، كان طبيبا من أطباء صدر الإسلام، وقد اعتنق الدين الإسلامي وصار من أتباع أبي بكر الصديق، وتقول الروايات المأثورة إنه تناول طعامًا مسمومًا كاد أن يودي بحياته، وكان من أثره أن أصيب بالعمى، وتوفي ابن كلدة في خلافة عمر بن الخطاب، ولم تحدد السير تاريخ، ومكان مولده، أو تاريخ، ومكان وفاته.

ويقول القفطي (انظر هذه المادة) في كتابه «أخبار الحكماء» إن ابن كلدة كان من ثقيف من أهل الطائف، وقد رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطب عن أهلها ولاسيما من أهل جنْديْسابور، وغيرها في الجاهلية والإسلام، وجادة هذه الصناعة، وطبّ بأرض فارس وعالج، وشهد أهل بلد فارس - ممن رآه - بعلمه واشتهر طبه بين العرب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر من كانت به علّة أن يأتيه فيسأله عن علته، وسُميّة مولاته هي أم زياد بن أبيه.

ويقول ابن أبي أصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» إن النضر بن الحارث بن كلدة ابن خالة النبي سافر إلى البلاد كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأحبار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه أيضًا ما كان يعلمه من الطب وغيره، وكان النضر يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي، واعتقد النضر أنه بمعلوماته وفضائله يستطيع أن يقاوم النبوة، وأين الثريا من الثرى!.

١٦٥- ابن كلّس - حارة - بقسم محرم بك

اسمه الكامل هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف الملقّب بابن كلّس، كان يهوديًّا من أهل بغداد ماهرا في تصريف الشؤون فأصبح بفضل مواهبه أول من وزر للفاطميين، وقد ولد ببغداد عام ٣١٨هـ (٩٣٠م) ورحل به أبوه إلى الشام، وهو في سن الطفولة، ثم انتقل به إلى مصر خلال عام ٣٣١هـ (٩٤٢م) حيث بدأ شأنه يعلو في بلاط كافور الإخشيدي (انظر مادة الإخشيدي وكافور) وفي كنف هذا البلاط اكتسب نفوذه الكبير، ولاسيما في تدبير الشؤون المالية والإدارية، واحتفظ بيهوديته حتى عام ٣٥٦هـ (٩٦٧م)، ثم اعتنق الدين الإسلامي، إذا أدرك أنه مشرف على تولي الوزارة، وسرعان ما صار ابن كلّس حجة في العلوم الإسلامية لما كان له من ذكاء وما كان يبذله من انكباب على العمل، وقد حسده على هذا النفوذ الوزير ابن الفرات أبو الفضل جعفر بن الفضل (انظر هذه المادة)، فدبّر له الدسائس حتى أرغمه على الفرار إلى المغرب، ومن ثَمَّ عاد إلى مصر في ركاب الفاطميين الذين وجدوا فيه رجلهم الذي يستطيع تصريف الشؤون المالية، وهكذا يقترن اسمه بالرخاء الذي ساد مصر في عهد الخليفتين الفاطميين المعز والعزيز، وخُلع عليه في رمضان عام ٣٦٨هـ (إبريل عام ٩٧٩م) لقب الوزير الأجل، وعلى الرغم مما جاء في مؤلفات مؤرخي سيرته من أنه كان حميد الصفات، فإنه كان يلجأ إلى السمّ والاغتيال للتخلص من أعدائه، وقد عرف كيف يرضي ذوق أبناء عصره بما كان له من مقدرة شعرية، وإنتاج

علمي ويد سخية، وله كتاب في الفقه على المذهب الفاطمي، ويقال إنه واضع نظم الإدارة الفاطمية في مصر، وبعد أن أصابته النقمة خلال عام ٣٧٣هـ (٩٨٣م) استعاد مكانته ثم وافته المنية في آخر عام ٣٨٠هـ (٩٩١م)، وكان ابن كلّس من أوائل الذين جلسوا للتدريس بالجامع الأزهر، وقد قرأ على الناس أثناء دروسه كتابه في الفقه الشيعي الفاطمي، وفي عام ٣٧٨هـ (٩٨٨م) طلب من الخليفة العزيز بالله تعيين جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس بالأزهر فعيّن الخليفة ٣٧ فقيهًا، كانوا أول فوج من الأساتذة الذين يضطلعون بالدراسة المنتظمة في هذا المعهد العلمي الإسلامي الكبير الذي أضحى أعظم جامعة إسلامية على مر القرون.

١٦٦ – ابن اللبّاد – شارع – بقسم باب شرقي

١٦٧ – ابن اللبّاد – حارة – بقسم الجمرك

كان من علماء تفسير القرآن الكريم ومن علماء اللغة، وله مؤلفات في هاتين الناحيتين ووافته المنية عام ٣٣٣هـ (٩٤٤م).

١٦٨ – ابن اللبّان – حارة – بقسم باب شرقي

هو شمس الدين بن اللبان وكان إمامًا من أئمة الطريقة الشاذلية، وقد تتلمذ على يد «ياقوت العرش» (انظر مادة سيدي ياقوت)، وحضر دروسًا على يد أبي العباس المرسي (انظر مادة سيدي أبي العباس)، وكان مقربا، إلى قلب ياقوت العرش فزوّجه بنته التي رزق بها من بنت أبي العباس المرسي السيدة بهجة حفيدة أبي الحسن الشاذلي (انظر هذه المادة).

وقد توفيت زوجة ابن اللبان قبله فأوصى – وهو يحتضر – أن يدفن تحت رجليها احترامًا لوالدها وتعظيمًا لمقامه عنده، وهذا منتهى الخنوع الصوفي الذي يهدر المتعصبين لمذهبه كرامتهم وكبرياءهم في سبيل التفاني في سلوكه، واتباع مبادئه، ولو كانت تدعو إلى التواكل الذي يؤدي إلى عرقلة التقدم الاجتماعي، ومسايرة الشعوب الراقية.

وما من شك في أن ابن اللبان كان من المتفانين في طاعة أبي العباس المرسي، وتلميذه ياقوت العرش مما استحق عليه لقب «الإمام» الذي أضفاه عليه علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» حين تعرضه لترجمة حمية ياقوت العرش.

ولم أعثر على ما يدل على نشاطه العلمي، وآثاره الفكرية اللهم إلا بعض الأذكار، والأوراد على غرار تلك التي خلفها أبو العباس، وأستاذه أبو الحسن الشاذلي.

ويقول الشعراني في كتابه «الطبقات» إن ياقوت العرش: «شفع في الشيخ شمس الدين بن اللبان لما أنكر الكرامات على أحمد البدوي، فقبل البدوي شفاعته ثم زوّجه من ابنته»، وهذه واحدة من شطحات الشعراني التي لا تخلو منها صفحة من صفحات كتابه مما لا يتفق، وما للتاريخ من حرمة تبعده عن الأساطير والخرافات.

وحكاية موت زوجته ودفنه تحت رجليها ذكرها علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابه «الخطط التوفيقية» بالجزء السابق صحيفة رقم ٦٩ طبعة المطبعة الأميرية عام ١٣٠٥هـ.

وهناك «ابن اللبان» الأندلسي، ولم يستدل على ألقابه، وكان من شعراء المعتمدين عبّاد (انظر مادة ابن عبّاد) أمير

إشبيلية الذي حكم إلى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، ومن قصيدة ابن اللبان التي نظمها في وداع (آل عبّاد) عندما أسرهم المرابطون، ونفوهم بأغمات بالمغرب الأقصى قوله:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غاد
على البهاليل من أبناء عبّاد

على الجبال التي هدّت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

حان الوداع فضجّت كل صارخة
وصارخ من مفدّاة ومن فاد

سارت سفائنه والنوح يصحبها
كأنها إبلٌ تحدو بها الحاد

١٦٩ - ابن اللخمي - حارة - بقسم مينا البصل

هو ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن بن اللخمي ولد بمدينة قرطبة بالأندلس عام ٥١٢هـ (١١١٨م) وهو من مشاهير النحاة، وقد تعلم اللغة، والحديث، والأصول، والكلام، والطب، والرياضة واعتنق مذهب الظاهرية، وهو مذهب في الفقه، أنشأه داود الأصفهاني ودعي بالمذهب الظاهري، لقولهم بالظاهر أي بالنص الحرفي من القرآن الكريم ونفي القياس العقلي، وقد تولى اللخمي القضاء بمدينتي فاس بالمغرب الأقصى وبجاية أحد الموانئ الشرقية بالجزائر، ثم صار قاضيًا للقضاء وله شعر ورسائل عديدة وأكثر من رواية الحديث وتفسيره، وطبق مذهبه الظاهري على النحو فخالف النحاة المشارقة في آرائهم ودعا إلى إلغاء نظرية العامل، والتقدير في العبارات، وكذلك الأقيسة والعلل والتمارين غير العملية وذلك في كتابه «الرد على النحاة» ومن مؤلفاته الأخرى «المشرق في إصلاح المنطق» وهو في النحو، و«تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان»، وقد رد عليه ابن خروف في كتابه «تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو».

وتوفي ابن اللخمي في إشبيلية بالأندلس عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م).

١٧٠ - ابن ماء السماء - شارع - بقسم الجمرك

هو أبو بكر بن ماء السماء المتوفى عام ٤٢٢هـ (١٠٤٠م)، وكان شيخ صناعة الموشحات في الأندلس، وقد سلك إلى صياغتها وتحسين رونقها وعذوبة أدائها مسلكًا سهلاً، فانقادت لفنه غرائبها، وقبل ابن ماء السماء كانت الموشحات التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا أسسها غير مرموقة الكيان، والقوالب، ولا منظومة العقود في أساليب واضحة المعالم، فقوم عبادة بن أبي بكر بن ماء السماء أسلوبها ونظمها، وأوضح سناءها فصارت وكأنها لم تسمع في عذوبتها وحسن إيقاعها إلا منه في سائر أنحاء الأندلس، ولم تؤخذ في شكلها الجديد، وتكوينها الحلو إلا عنه، وقد اشتهر بها اشتهارًا غلب على ذاته، وصار يعرف بصناعتها المتقنة.

وفي التاريخ امرأة تدعى «ماء السماء» وهي ماوية بنت عوف بن نزار، وقد لقبت بماء السماء لحسنها، وبهاء طلعتها، ويقال إنها أخت كليب والمهلهل (الزير سالم).

١٧١ – ابن ماجة – شارع – بقسم الرمل

هو عبد الله محمد بن يزيد واشتهر بكنيته وهي «ابن ماجة»، وكانت لقبًا لأبيه أو اسمًا لأمه، كما ذكر الزبيدي في كتابه «تاج العروس»، وكان معروفًا بابن ماجة الربعي نسبة لقبيلة ربيعة الأزد، وقد ولد عام ٢٠٩هـ (٨٢٤م) في مدينة قزوين قصبة منطقة قزوين المتاخمة للبحر المسمى باسمها على حدود الاتحاد السوفيتي حاليًّا. وكانت هذه المدينة عامرة بالعلم والعلماء المسلمين في ذلك الحين.

ولم يكن ابن ماجة عربيًّا بل كان مولى أعجميًّا، وكان الأعجمي في صدر الإسلام يعتنق الإسلام ويتخذ أحيانًا أخوَّةً بينه وبين أسرة من العرب فيصير كواحد منهم بعقد يسمى عقد الموالاة، وبذلك كانوا يدفعون الدية عنه إذا عوقب ويرثونه إذا مات من غير وارث، وكان أكثر التابعين الذين تلقوا العلم عن الصحابة من هؤلاء الموالي وكذلك أكثر تابعي التابعين، فكان منهم أئمة أعلام في الفقه والحديث والتفسير أمثال سيبويه، والزمخشري وغيرهما من قادة الفكر الإسلامي في علم العقيدة وغيره من كافة العلوم الإسلامية.

وقد مزج ابن ماجة بين علوم القرآن والحديث والفقه وجعلها تنتهي إلى مصدر واحد هو علم الأحكام الشرعية التكليفية، وكان قد اتجه في بداية مراحل تعليمه إلى القرآن فحفظه وإلى الغة العربية فأتقنها ويظهر هذا الإتقان في تفسير كتاب الله الذي تصدى له فبرع فيه.

وأخذ بعد ذلك يجوب البلدان لتحصيل العلم فرحل إلى إيران وخراسان والريّ في الشرق، ثم إلى العراق والحجاز والشام ومصر في الغرب، وقد قرأ الموطأ على أصحاب الإمام مالك، كما قرأ الجوامع للحديث مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل وصحيح البخاري ومسلم (انظر هذه المواد)، وذلك على تلاميذ هؤلاء الأئمة، ولم يكف عن الترحال إلا بعد أن جمع ثروة فكرية كبيرة عمد إلى وضع كل قسم منها في موضعه من أبواب العلم الإسلامي.

وكان همه في التقائه بشيوخ العلم أن يجمع ما لديهم من معارف، فاستطاع أن يجمع الأحاديث التي صحت لديهم وأن يُلِمّ بالفتاوى والأقضية التي عرفت عن صحابة رسول الله، ومن ثم جاءت مصنفاته في ثلاثة أبواب هي: التفسير والتاريخ والسُنَن وله كتاب في كل منها.

فتفسيره للقرآن الكريم جاء مبنيًّا على كل ما جمعه من أقوال الصحابة والتابعين في فهمهم للآيات القرآنية، وقد جعل السيوطي (انظر هذه المادة) في مستوى تفسير الطبري (انظر هذه المادة) الذي جاء بعده، ولا يفرق بين التفسيرين إلا أن ابن جرير الطبري أخذ بنظرية الرأي في تفسيره، وهي نظرية لم تكن مطروقة في زمن ابن ماجة الذي دوَّن التفسير – هو ومعاصروه – على أنه باب من أبواب الرواية، وتلقوه مع ما تلقوا من فتاوى الصحابة وأقوالهم.

أما كتابه في التاريخ فهو تاريخ كامل سَجَّل الحوادث من عصر الصحابة حتى عصره، وقد روي فيه أخبار الرجال الذين تحدثوا عن السنة والذين ذُكِروا في أسانيد الأحاديث ليتعرف على مقدار الثقة في رواياتهم، وبذلك استطاع أن يكون ممحصًا للرواية للوقوف على ما فيها من أدلة يطمئن إليها، ومن ثم يتضح أنه كرَّس معظم جهده في جمع الرواية الذي انتهى به إلى تدوين هذين الكتابين ثم إلى كتاب «السُّنَن» الذي اشتهر به.

وتسمية كتابه «بالسُّنَن» يرجع إلى أن علماء الحديث يقسِّمون الكتب التي تتناول الأحاديث النبوية إلى قسمين رئيسيين هما: الجوامع، والسُّنَن، فالجوامع ككتاب البخاري ومسلم تجمع كل أقسام الأخبار المروية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من أحاديث الأحكام والتربية النفسية والأدب الديني في الحياة العامة وفي بعض المسائل الأخرى كالسفر والتفسير وسيرة الرسول والفقه ومناقب الصحابة الذين ذكرهم النبي كأبي بكر وعمر وعثمان (انظر مواد أبي بكر الصديق، وابن الخطاب، وعثمان بن عفان)، وعلي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام علي)، وبقية العشرة الذين بشَّرهم الرسول بالجنة كأبي عبيدة الجراح أمين هذه الأمة.

أما السُّنَن فإن أكثر أحاديثها في الفقه وهي مرتبة بترتيب أبوابه، وقد تتبع روايتها أحاديث الأحكام وقضاء النبي وأعماله التي ستنبئ عن أحكام فقهية وما أقره من أقوال وأعمال تتعلق بالأحكام ويروون معها أقوال الصحابة الفقهية.

ومن أوائل كتب السنن موطأ الإمام مالك ففيه مصادر فقهية وأقوال الصحابة وما يستنبط منها، ولقد نهج هذا المنهج كتَّاب السُنَن الأربعة وهم: ابن ماجة، وأبو داوود، والترمذي، والنسائي.

وكتاب ابن ماجة في السُنَن كتاب يوثق به ويعتمد عليه، وقد فحصه العلماء فحصًا دقيقًا وأقروه، فكان صاحبه آخر الستة في الرتبة من حيث كمال الثقة لا من حيث أصلها، ومن ثم كان هذا العالم أحد مؤلفي الصحاح الستة في الحديث، ويجمع العلماء على أنه كان من أئمة المحدثين.

وتوفي عام ٢٧٣هـ (٨٨٦م) بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا.

١٧٢ - ابن ماجد - شارع - بقسم الرمل

اسمه بالكامل الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي (نسبة إلى نجد في الحجاز)، ومن ألقابه: المعلم العربي، وأسد البحر، وينحدر ابن ماجد من أسرة ربابنة، فقد كان أبوه ربانًا يلقب بربَّان البرين، أي برّ العرب وبرّ العجم، وقد دوَّن أبوه تجاربه الملاحية في كتاب ضخم بعنوان «أرجوزته الحجازية» وتضم هذه الأرجوزة أكثر من ألف بيت كلها في وصف الملاحة في البحر الأحمر، وكان جده هو الآخر ملاحًا مشهورًا.

ولا ترجع شهرة ابن ماجد إلى التراث العربي الذي تركه في فنون البحر والملاحة مما هو مدون في مؤلفاته وإنما ترجع أيضًا إلى أنه كان المرشد لسفينة «فاسكو دي غاما Vasco de Gama» البحار البرتغالي الذي يعزى إليه اكتشاف طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، ويذكر التاريخ أن اكتشافه هذا الطريق حدث بالاستعانة بالبحَّارة العرب وعلى رأسهم ابن ماجد وإلاَّ ما كان «فاسكو دي غاما» ليهتدي إلى هذا الطريق البحري في مجاهل المحيط الهندي، وقد أرشد ابن ماجد هذا البحار البرتغالي إلى طريق الهند من ثغر ماليندي على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقي لإفريقيا إلى كلكوتا وكان ذلك خلال عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م)، وقد اعترفت حكومة البرتغال بذلك الأمر منذ وقت قريب فأقامت نصبًا تذكاريًّا في ماليندي يخلد هذه

المناسبة التاريخية في عالم الملاحة الدولية، وقد ترتب على معرفة شبه القارة الهندية أن توصل الملاح البرتغالي «فاسكو دي غاما» إلى الوقوف على موانئ الشرق الأقصى ومجاهل بحاره ومحيطاته، وكل ذلك بفضل إرشادات ابن ماجد وتوجيهاته الملاحية الدقيقة، ولقد شاء سوء الحظ ألا تكون لدى ابن ماجد الإمكانات المادية للقيام بهذه الرحلة البحرية الاستكشافية العظيمة الأهمية في التاريخ الإنساني وفي الحضارة العالمية بوسائل عربية خالصة، ولو أن ذلك قد تيسر له لغير من مجرى التاريخ بالنسبة إلى الشعوب العربية والإسلامية بأسرها، ومن أسباب رقيها وثرائها منذ ذلك العهد البعيد ولقضى على تغلغل الاستعمار الأوروبي في القارة الأسيوية بأكملها ولاسيما الاستعمار البريطاني الذي كان نكبة على جميع سكان هذه القارة الشاسعة الأرجاء، الهائلة الثروات الطبيعية، فالفضل كل الفضل في ذلك الكشف الملاحي العظيم يرجع إذن إلى ابن ماجد ورفاقه من العرب، ولكن الغنم كان للأوروبيين على حساب شعوب العروبة، وقد سُمي ابن ماجد في عصره «برئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله»، وهي ألقاب قد استحقها هذا الملاح الفذ عن جدارة وحسن تقدير.

وألف ابن ماجد كتابًا قيمًا في علم البحار أسماه «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» ويقول إنه ألفه وصنَّفه لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحاوية (يعني حاوية الاختصار في أصول علم البحار)، وهو كتاب ألفه قبل «كتاب الفوائد» وغيرها من الطالبين، وقال إن كتابه «الفوائد» يشتمل على كثير من المنافع وغوامضها وظواهرها وأنه قد خشي أن يدركه الموت دون أن يخرجه للناس، ومن المرجح أن ابن ماجد ولد في حوالي عام ٨٣٨هـ (١٤٣٤م)، ويدلنا تاريخ سيرة حياته أنه حصل على قسط وافر من علوم الحساب العربي والهندي والزنجي استطاع بفضله مقارنة قياسات الآخرين، كما كان على علم واسع النطاق بحساب أهل جاوة والصين وذلك منذ كان يافعًا.

ولقد عاش ابن ماجد رفيق البحر يتنفس هواءه النقي ويمارس في كنفه حياة بسيطة متفرغًا لعلمه لا يشغل باله عرض الدنيا وزخرفها، كما كان عفيف النفس وَرِعًا تقيًّا مخلصًا لربه ولمهنته، زاهدًا في المال، يبدأ رحلاته دائمًا بالصلاة، وكل هذه السجايا الحميدة ذكرها في مؤلفاته، وكان ابن ماجد شاعرًا يهوى الرجز ولكنه كثير الخطأ في أوزان العروض فكان لا يتقيد بالوزن والقافية فيما ينظم من شعر ولا يدقق في قواعد الإعراب، ويرجع ذلك إلى أنه نشأ في إمارة عمَّان المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وقد تعرضت هذه الإمارة لغزوات المغامرين واستوطنها كثير من الفرس والزنوج والأحباش والهنود واختلطت في أرجائها اللغات في ذلك الحين، هذا علاوة على أن عصر ابن ماجد كان عصر اضمحلال أدبي أفقد فيه السجع المتكلف كثيرًا من متانة اللغة وحسن التعبير.

غير أن هذا النقص الأدبي لا يفقد ابن ماجد شيئًا من قدره كرجل بحر مجرب موهوب خبير بالنجوم ومسالك الملاحة الساحلية وأعالي البحار وبالعواصف والأنواء التي تهب عليها وبالقياسات الفلكية التي أنفق فيها عمره، وما من شك في أنه كان على دراسة لا بأس بها باللغات السواحلية (الزنجية) ولغة جاوة واللغة السنسكريتية والفارسية التي كان يجيدها إلى حد

بعيد، ومن صفاته الاعتداد بالنفس والثقة المطلقة بها وبعلمه والدليل على ذلك قوله في إحدى أرجوزاته:

حَصَرْتُ نُجومَ الأُفْقِ في البحرِ هاديًا
بها مسلك البحرِ المحيطِ الأعْظَمِ

بخيرِ قياساتٍ وجَمٍّ فوائد
فلمْ يَعْترِضْ لي غيرُ جَحْشٍ مُعَمَّمِ

إلى أن يقول:

وَأَلْقَوْا سِلاحَ الجَهْلِ لَمَّا تَحَقَّقُوا
مَقاليَ فِي عُرْبٍ وعُجْمٍ ودَيْلَمِ

بوادرُ عِلْمِ البَحْرِ عَنِّي تَفَرَّعَتْ
وَخَيْرُ صِفَاتِ البَحْرِ تَصْدُر مِنْ فَمِي

ولقد ظلَّ قدر ابن ماجد وفضله يكبران على مر الأعوام والقرون فمجد أعماله الملاحية القيمة كثير من المستشرقين الروس والفرنسيين والسويسرين والألمان، ويقول الرحالة الإنجليزي «ريتشارد بيرتون Richard Burton» في كتابه «السبيل إلى إفريقيا واستكشاف هرر» إنه رأى البحارة العدنيين يقرأون الفاتحة «للشيخ ماجد مخترع البوصلة البحرية» وكأنهم بذلك يلبون طلب ابن ماجد نفسه الذي أوصى من يقرأ مؤلفاته أن يتلو له الفاتحة وسورة الإخلاص.

وميناء «ماليندي» الواقعة على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء والتي قاد ابن ماجد منها سفينة الملاح البرتغالي «فاسكو دي غاما» كائنة في مملكة كامبايا (وهي كينيا الحالية).

والواقع هو أن العرب في عهد ابن ماجد كانوا قد وصلوا إلى إعداد الخارطات البحرية التي توضح قياسات البحار والمحيط الهندي على الأخص وما بعده أيضًا، ويدل على ذلك اقتحامهم منذ ظهور الإسلام هذه البحار والمحيطات إلى أن وصلوا إلى موانئ الصين على المحيط الهادي، ويؤيد ذلك قول «فاسكو دي غاما» نفسه إنه وجد الملاحين العرب على الساحل الإفريقي يستخدمون البوصلة والآلات الدقيقة الملاحية والخارطات البحرية، وهذا يدل قطعًا على أن ابن ماجد كان أعرف من هذا الملاح البرتغالي بعلوم البحار وباستخدام آلاتها مما ساعده على قيادة سفينة البرتغالي إلى كلكوتا – كما تقدم القول – وكان له كل الفضل في اكتشاف شبه القارة الهندية.

ومن المعروف أن «فاسكو دي غاما» بدأ رحلته من البرتغال في ٢٥ مارس سنة ١٤٩٧م (٩٠٣هـ) واجتاز رأس الرجاء الصالح في ٢٢ من نوفمبر من السنة نفسها ووصل إلى إقليم «ناتال» في عيد الميلاد المسيحي أي في ٢٥ من ديسمبر ومن ثم أطلق على هذا الإقليم اسم «ناتال Natal» أي الميلاد باللغة البرتغالية، وواصل الإبحار على ساحل إفريقيا الشرقي إلى أن وصل إلى ميناء «ماليندي» في كينيا خلال شهر مارس عام ١٤٩٨م، وهناك التقى بابن ماجد الذي قاد سفينته إلى الهند.

ويرى بعض المستشرقين أن عدد مؤلفات ابن ماجد يربو على الأربعين بينما يجد آخرون أنها لا تتجاوز الثلاثين، وما من شك في أن كثيرًا من هذه المؤلفات قد فُقِدت، ومن جهة أخرى لم يتوصل الباحثون إلى العثور على أية خريطة ملاحية لابن ماجد، ويشتمل كتابه «الفوائد في أصول علم البحر

والقواعد» على اثنتي عشرة فائدة تهدف جميعها إلى إرشاد الملاحين إلى خير السبل التي تضمن سلامة سفنهم وتقودهم إلى خير الطرق البحرية الموصلة إلى برِّ الأمان مع أوصاف للجزر والسواحل واتجاهات الرياح ووصف البحر الأحمر وجزره وشعبه المرجانية، والكتاب في ١٧٦ صفحة.

أما مصنفه الثاني فهو «حاوية الاختصار في أصول علم البحار»، وقد ألفه شعرًا من بحر الرجز في ٦٠ صفحة، وقد وضع هذه الأرجوزة عام ٨٦٦هـ (١٤٦٢م) وتضم ١٠٨٣ بيتًا، وينقسم إلى أحد عشر فصلاً يبين الأول منها الإشارات التي يحتاج إليها الربابنة، والثاني في الدلالة على المنازل في السماء والجري عليها، والثالث في معرفة النيروز العربي والسنين العربية والرومية والقبطية والفارسية، والرابع في معرفة الشهور ومواسمها وقياسها، وهكذا في كل فصل فائدة من الفوائد التي تنفع رجال الملاحة في رحلاتهم عبر البحار والمحيطات، وله علاوة على هذين الكتابين عدة أراجيز أهمها «أرجوزة قبلة الإسلام»، و«أرجوزة بر العرب في خليج فارس»، و«الأرجوزة المعربة»، و«أرجوزة في قسمة الجمة على أنجم بنات نعش»، كما له عدة قصائد تهدف جميعها إلى تعليم البحارة فنون الملاحة المختلفة.

وتناول ابن ماجد في مؤلفاته الكلام بالتفصيل عن الربان والملاحة الفلكية، ومجموعات الكواكب والنجوم، وتقسيم وردت الرياح العربية والبوصلة، أي «بيت الإبرة» ووحدات القياس عنده، والسفينة، والآلات الراصدة وآلات القياس عند العرب، والمصطلحات العلمية مثل مواقع بعض الأماكن الجغرافية في العالم الذي كان معروفًا لديه، والمصطلحات الملاحية المنوعة، وأسماء النجوم الملاحية ومرادفاتها، وكل هذا يدل في وضوح على مبلغ اتساع أفقه العلمي في الملاحة والفلك وما يتعلق بكل منهما.

ولقد عاصر ابن ماجد الملاح البرتغالي «فاسكو دي غاما» الذي عاش في الحقبة الزمنية الواقعة بين عامي ٨٧٤ و٩١٣هـ (١٤٦٩ – ١٥٢٤م)، ومن جهة أخرى فإن الملاح العربي سليمان المهري قد توفي بعد ابن ماجد، وقد ترك مؤلفات يرجع تاريخ أحدها إلى عام ٩١٧هـ (١٥١١–١٥١٢م) إلا أنه لم يذكر في أي مؤلف ما يدل على تاريخ وفاة ابن ماجد، ومن ثم سيبقى هذا التاريخ مجهولاً إلى أن يستدل العلماء والباحثون على مخطوطات أخرى تحدد وقت وفاته ولو بوجه التقريب.

ويذكر بعض مؤرخي سيرته من المستشرقين إنه ولد حوالي عام ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) في «جُلفار» وهي رأس الخيمة حاليًّا، ويرجحون أنه عمَّر طويلاً حتى قارب المائة عام، ومن مؤلفاته النفيسة الكتاب الذي اقتناه المجمع العلمي العربي بدمشق وهي نسخة من كتابه «الفوائد في معرفة علم البحار والقواعد»، وفي هذا الكتاب يذكر ابن ماجد النصائح التالية لراكبي البحار فيقول: «اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسبابًا كثيرة، فأولها معرفة الشمس والقمر والأرياح ومواسمها والآلات للسفينة. . . وينبغي أن تعرف مطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها، وينبغي أن تعرف جميع البرور وإشاراتها كالطين والحشيش ومَدِّ البحر وجزره، وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من التواني ويفرق بين العجلة والحركة».

«والحذر كل الحذر من صاحب السكان (الدِفَّة) لا يغفل عنه، وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسون

سنة، وما تركت فيها صاحب السكان وحده، إلا أن أكون على رأسه، أو من يقوم مقامي»، ولابن ماجد رسائل عديدة منها رسالة «المعربة» وفيها بحث عن الخليج البربري ورسالة تبحث في معركة القبلة في جميع الأقطار، وكانت مؤلفاته مرجع الملاحين في أوروبا وظلت كذلك زمنًا طويلاً، وبقيت القواعد التي وضعها منهلاً عامًّا للملاحين في الشرق والغرب طوال القرن الخامس عشر الميلادي وإلى منتصف القرن السادس عشر.

ولم يطبع العرب شيئًا من مؤلفات ابن ماجد ولم يكتبوا عنه دراسات وافية، وقام بذلك المستشرقون ومن بينهم: جبريل فران، وتيودور شوموفكسي، وجردوفري دي مومبين، وليوبولد دوسوسور السويسري.

وقد أخطأ بعض المؤرخين حينما نسبوا اختراع الإبرة المغناطيسية – التي هي دعامة «البوصلة» – إلى ابن ماجد، إذ ثبت لدى العلماء والمؤرخين أن استعمالها كان شائعًا في القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجرى).

ومن الغريب أن يدعي الإفرنج زورًا وبهتانًا أن ابن ماجد عندما تعرف على فاسكو دي غاما في «ماليندي Malindi» أخذ يعبُّ الخمر مع أمير البحر البرتغالي، ولما لعبت الخمر برأسه أرشد أمير البحر إلى الطريق قائلاً للبرتغاليين: «لا تقربوا الشاطئ عند هذا الجزء (أي الشاطئ الشرقي لإفريقيا إلى الشمال من ماليندي) بل أديروا الدفة رأسًا صوب البحر المفتوح فابلغوا شاطئ الهند وتكونوا في حمى من الأمواج»، فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير من السفن البرتغالية من الغرق ووصل كثير منها إلى بحر الهند الغربي.

غير أن المستشرق «جبريل فران Gabriel Ferrand» ينفي قصة السكر عن ابن ماجد ويصفها بأنها مختلقة من أساسها وأنها ضرب من الروايات الخيالية، وقال إن الأقرب إلى العقل هو أن المعلم العربي اتفق على أن يقود سفينة فاسكو دي غاما نظير مكافأة مالية مجزية.

ولقد أطلع ابن ماجد فاسكو دي غاما على خريطة الشاطئ الهندي بأسره مرسومة في دقة، وبيَّن عليها خطوط الطول والعرض مفصلة غاية التفصيل، ولما أطلع فاسكو ابن ماجد على الاسطرلاب الخشبي الكبير الذي أحضره معه وغيره من الاسطرلابات المعدنية التي يقاس بها ارتفاع الشمس، لم يُبْدِ ابن ماجد كبير اهتمام لها، وقال إن الربابنة العرب في البحر الأحمر يستخدمون آلات نحاسية مثلثة الشكل ومزاول لقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبي الذي يسترشدون به كثيرًا في الملاحة، ثم أضاف أنه هو وبحَّارة «كمباي Cambay» وجميع بحَّارة الهند يبحرون على هدي بعض النجوم الجنوبية والشمالية على السواء وعلى هدي غيرها من النجوم المعروفة التي تعبر وسط السماء من الشرق إلى الغرب، وقال إن هؤلاء البحَّارة لا يقيسون ارتفاع الشمس بمثل الآلات التي أطلعه عليها دي غاما، بل يقيسونه بآلة أخرى لا يستخدمها هو نفسه، ثم أحضرها من فوره ليراها دي غاما بنفسه، وهي آلة من ثلاثة ألواح، وبعد أن وجد الأميرال البرتغالي في ابن ماجد ضالته المنشودة أمر بإيجار سفنه على الفور، ويقول المستشرق «جبريل فران» إن هذا الإبحار بدأ في ٢٤ من إبريل عام ١٤٩٨م، وكان البرتغاليون يطلقون على ابن ماجد كلمة Malemo وهي تحريف للكلمة العربية «المعلم» أي أستاذ الملاحة.

وجاء في كتاب البرق اليماني أن ابن ماجد ولد في جُلفار بإقليم عمان يشبه الجزيرة العربية، وقد تقدم ذكر ذلك.

ويقول المستشرق «جبريل فران» إن كتابه «الفوائد في أصول علم البحار والقواعد» جدير بالإعجاب والثناء، ذلك أن وصفه لبحر القلزم مثلاً لا يفوقه بل لا يدانيه أي وصف آخر لأي كاتب في الإرشادات البحرية للمراكب الشراعية، بصرف النظر عما وقع فيه من أخطاء في العروض لم يكن ثمة حيلة في تجنبها، والمعلومات الواردة عن الرياح الموسمية والرياح المحلية والطرق والعروض الخاصة بعبور المحيط الهندي كله دقيقة ومفصلة على خير ما يمكن أن نتوقعه من ملاحي ذلك العهد.

١٧٣- ابن ماسويه - حارة - بقسم الرمل

هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، ويسمى عند الإفرنج في القرون الوسطى «مسواه Mesua» طبيب نصراني كان أبوه عطارًا في مدينة جنديشابور، وقد اشتغل بالترجمة في عهد هارون الرشيد وبتكليف من هذا الخليفة، فترجم كتب الطب التي ألفها القدماء، ودرس إلى جانب ذلك الطب على جبريل بن بختيشوع طبيب الخليفة ثم عين طبيبًا للخليفتين الرشيد والمأمون، وظل يزاول هذه الوظيفة إلى أن توفي عام ٢٤٣هـ (٨٥٧م)، ومن بين تلاميذه حنين بن إسحق الذي كتب له «النوادر الطبية» وقد ترجم يوحنا الدمشقي «Jean Damascène» هذا الكتاب إلى اللاتينية، وصنف ابن ماسويه غير الكتاب الآنف الذكر عدة رسائل ذكر عناوينها ابن أبي أُصيبعة في كتابه، ويوجد بمكتبة بنكيبور نسخ من «كتاب المشجر» لابن ماسويه.

وكتاب ابن أبي أصيبعة الآنف الذكر، هو كتابه العظيم «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

١٧٤- ابن ماكولا - حارة - بقسم باب شرقي (محمد عادل أبو المعاطي حاليًّا)

يحمل لقب ابن ماكولا اثنان من الذين دوَّن المؤرخون تراجم حياتهم وهما:

١) أبو القاسم هبة الله بن علي بن جعفر العجلي (وكنيته ابن ماكولا): ولعل هذه الكنية محرفة عن كلمة «مأكولة» أي التي يمكن أكلها وفي هذه الحالة تكون الكنية قد أُطلقت على أمه، وقد ولد أبو القاسم هبة الله عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) واستوزره جلال الدولة البويهي عام ٤٢٣هـ (١٠٣٢م) ثم أقصاه عن وظيفته بعد قليل، ويقول ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) إنه كان وزيرًا للإمام القائم بأمر الله، أما المؤرخون الآخرون فيؤكدون أن الذي استوزره هو جلال الدولة البويهي، وبعد إقصائه عن الوزارة لم يمكث خلفه أبو سعيد محمد بن الحسين بن عبد الرحيم في منصبه غير أيام قليلة، إذ اضطر إلى الاختفاء عندما هاجمه الجنود المرتزقة من الأتراك في العاصمة، ومن ثم عاد أبو القاسم بن ماكولا إلى الوزارة، وفي عام ٤٢٤هـ (١٠٣٣م) أرغم جلال الدولة البويهي على الفرار إلى الكرخ فتبعه ابن ماكولا وحل محله في الوزارة أبو سعيد محمد بن الحسن مرة أخرى، وبعد عام واحد كان جلال الدولة البويهي قد عاد إلى الحكم، فأقر ابن ماكولا على الوزارة، وتكررت إقالته وإعادته إلى أن سلمه غريمه أبو سعيد محمد بن الحسن إلى قرواش بن المقلد العقيلي فسجنه في هَيْت، وبعد أن مكث في سجنه أكثر من عامين وافته المنية عام ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) بالغًا من العمر حوالي ٦٤ عامًا.

٢) سعد الملك أبو نصر علي بن أبي القاسم هبة الله بن علي ابن ماكولا: هو ابن صاحب الترجمة السابقة، وأصل أسرته من «جرباذقان» من نواحي أصفهان، وقد تعلم الحديث وألف كتبًا كثيرة نافعة وأخذ عن مشايخ العراق والشام وغيرهما، وكان من مشاهير الفضلاء في العلم واشتهر بتتبع الألفاظ المشتبهة في أسماء الأعلام وجمع منها الكثير.

وكان الخطيب البغدادي صاحب «تاريخ بغداد» قد أخذ كتاب أبي الحسن الدارقطني المسمى «المختلف والمؤتلف» وكتاب الحافظ عبد الغني بن سعيد المسمى «مشتبه النسبة» وجمع بينهما وزاد عليهما وجعلهما كتابًا واحدًا سماه «المؤتلف تكملة المختلف»، فجاء سعد الملك أبو نصر بن ماكولا وزاد على هذه التكملة وضم إليها الأسماء التي تعرف عليها وجعل من كل هذا كتابًا سماه «الإكمال» فجاء هذا الكتاب مفيدًا للغاية ولا سيما في منع الالتباس ودقة الضبط فصار من المراجع الهامة التي يركن إليها الباحثون في هذا الباب، ومن جهة أخرى جاء هذا الكتاب فريدًا في وضعه، إذ لم يسبق إليه أحد قبل ابن ماكولا، ثم جاء «ابن نقطة» وذيَّله ولم يقصر في الإيضاح والتفصيل.

وكان سعد الملك أبو نصر كثير الاطلاع، غزير العلم شاعرًا مجيدًا، ومن شعره في الكبرياء والبعد عن المذلة قوله:

قَوِّضْ خِيامَكَ عَنْ أَرْضٍ تُهَانُ بها
وَجَانِبِ الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ يُجْتَنَبُ

وارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الأَوْطَانِ مَنْقَصَةٌ
فالمَنْدَلُ الرَّطْبُ في أَوْطَانِه حَطَبُ

وقد ولد أبو نصر في عكبرا عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) وقتله غلمانه في مدينة جرجان عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) بالغًا من العمر حوالي ٥٧ عامًا، وكان هؤلاء الغلمان من الأتراك الذين نهبوا ماله ولاذوا بالفرار، فلم يعثر لهم على أثر، وهكذا ذهب دم هذا العالم هدرًا.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «محمد عادل أبو المعاطي».

١٧٥ – ابن مالك – حارة – بقسم الجمرك

يحمل لقب ابن مالك أربعة ممن حفظ التاريخ تراجم حياتهم وهم:

١) كعب بن مالك: ويلقب بالخزرجي، صحابي من المدينة المنورة وكان له الشرف في مداواة النبي عليه الصلاة والسلام عندما جرح في إحدى المعارك التي خاضها في سبيل إعلاء كلمة الدين الإسلامي.

وكان كعب بن مالك من شعراء الرسول ومن أصحابه المقربين، نشأ بالمدينة وأسلم ودافع عن النبي الكريم ضد أعدائه من المشركين والكفار، وروى الحديث عن الرسول مباشرة، وعدد الأحاديث التي رواها كثير، ثم كان عثمانيًّا يدعو الأنصار إلى نصرة الخليفة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة)، وكان شاعرًا مجيدًا تغلب على شعره النزعة الدينية في أسلوب واضح متين، ومن شعره قوله:

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللهِ وَاللهُ قَادِرُ
عَلَى مَا أَرَادَ، لَيْسَ للهِ قَاهِرُ

قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ تُلاقِيَ مَعْشرًا
بَغَوْا ، وَسَبِيلُ البَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ

وَفِيْنَا رَسُولُ اللهِ ، وَالأَوْسُ حولَهُ
له مَعْقِلٌ مِنْهُم عَزِيزٌ وَنَاصِرُ

فَلَمَّا لَقِيْناهُمْ ، وكُلُّ مُجاهِدٍ
لأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ

شَهِدْنَا بأَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ بِالحَقِّ ظَاهِرُ

وتوفي كعب بن مالك عام ٥٤هـ (٦٧٣م).

٢) أنس بن مالك: وكنيته أبو حمزة ، أحد كبار المحدثين ، وهو أنس بن مالك بن النصر بن ضمضم بن زيد ، واسمه تيم الله ، وكان خادم رسول الله محمد بن عبد الله ، وكان يفتخر بأنه خادم النبي ، وكناه رسول الله بأبي حمزة نسبة إلى بقلة كان أنس بن مالك يجتنيها ، وكان في طعمها لذع فسميت حمزة بفعلها فيقال مثلاً: رمَّانة حامزه أي فيها حموضة .

وأم أنس بن مالك هي أم سُليم ، وكانت من أوائل المجاهدات في سبيل الله والإسلام وكانت تذهب إلى المعارك التي خاضها النبي ومعها خنجرها ، ولما سألها النبي عن هذا الخنجر قالت: «إني أدافع به فإذا دنا مني أحد الكفار بقرت بطنه» ، وأمه هي التي قدمته لخدمة النبي الكريم بعد هجرته إلى المدينة ، ويذكر عن نفسه أنه كان في العاشرة من عمره وقتذاك ، وقد حضر غزوة بدر ولم يشترك فيها ، وظل يخدم رسول الله حتى لحق بالرفيق الأعلى ودامت مدة خدمته عشر سنوات .

واشترك أنس بعد ذلك في الفتوح ، وفي عام ٦٥هـ (٦٨٤م) أمَّ الناس بالصلاة في البصرة من قبل الخليفة الثائر عبد الله بن الزبير ، ولامه الحجاج بن يوسف (انظر مادة الحجاج) على انضمامه إلى الثائر عبد الرحمن بن الأشعث ، كما سبق أن انضم إلى الإمام علي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام علي) وإلى الزبير بن العوام وهما خصما بني أمية .

وعلى الرغم من أنه كان مبجلاً لصحبته للنبي وخدمته له فإن الحجاج لم يتورع في أن يضع الحبل المبصوم بخاتمه حول رقبته عام ٧٢هـ (٦٩١م) ، ويقال مع ذلك إن الخليفة عبد الملك بن مروان (انظر هذه المادة) اعتذر له عما بدر من الحجاج من فعل مشين .

ويقول المستشرق «فنسنك A. J. Wensinck» إن أنس بن مالك لا يعد أعظم المحدثين جميعًا ، إذ يقال إن أبا حنيفة (انظر هذه المادة) رفض اتخاذه حجة في الحديث ، ولكن هذا القول لا يستند إلى أدلة قاطعة ولاسيما أنه لم يرد في المصادر التاريخية ما يؤيد قول هذا المستشرق المنسوب إلى أبي حنيفة ، والمشهور المعروف عند عامة العلماء من أتباع أبي حنيفة وغيره من الأئمة «أن الصحابة كلهم عدول» ، وإذا كان بعض العلماء خالف في الأخذ برواية بعض الصحابة خلافًا لا يقام له وزن ، فإن أنس بن مالك ليس ممن اختلف في الأخذ بروايته .

وعلى كل حال فإن طائفة كبيرة من أحاديث أنس بن مالك ذكرت في مسند أحمد بن حنبل (انظر هذه المادة) .

ويظهر أنه كان متأنقًا في مظهره فروي أنه كان يخضب بالحناء وكان يضع الخلوق بذراعيه وهو طيب مركب من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وكان له بستان يحمل الفاكهة مرتين في السنة وكان فيه ريحان يجيء منه ريح المسك.

وهو من المكثرين في الرواية عن رسول الله، وروى عنه ابن سيرين والحسن البصري وكثير من المحدثين. وكان نقش خاتمه صورة أسد رابض، كما كان من الرماة المهرة المصيبين ويأمر أولاده وأحفاده أن يرموا بين يديه وربما رمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابته وكان يلبس الخز ويتعمم به.

وتوفي بمدينة البصرة بعد أن عمَّر طويلاً واختلفت الرواية في تقدير عمره عند الوفاة بين ٩٧ و ١٠٧ من السنين، أما تاريخ وفاته فالمشهور أنه كان بين عامي ٩١ و ٩٣هـ (٧٠٩ - ٧١١م) ورأى من أولاده وأحفاده مائة أو يزيد.

٣) **جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن مالك**: ولد بالأندلس ببلدة جيَّان عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ودرس في مسقط رأسه على أبي المظفر الملقب بابن الطيلسان، وعلى أبي العباس أحمد بن تور وغيرهما، ثم رحل إلى المشرق، ودرس على علماء النحو الكبار مثل ابن الحاجب وابن يعيش (انظر هاتين المادتين)، وسمع الحديث في دمشق على المكرم وأبي الحسن بن السخاوي، ومن تلاميذه بدر الدين بن جماعة والشاعر بهاء الدين ابن النحاس والفقيه أبو زكريا النووي وغيرهم.

وبعد أن أتم دراسته أخذ يدرِّس النحو في حلب وأصبح إمام العادلية فيها، ثم درَّس بعد ذلك في دمشق وحلب، وكان مالكي المذهب ويعتبر من أئمة علم النحو ويكاد ينازع في ذلك سيبويه لما كان له من شهرة ذائعة بسبب ما أدى من خدمات جليلة لدراسة النحو وذلك بربط قواعده وتبسيط استيعابها على الرغم من بعض التعقيدات التي يصادفها الدارس في مصنفاته التعليمية.

ومن مؤلفاته كتاب «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد» وهو موجز في النحو يكتنفه بعض الغموض لإيجازه المخل، وكتاب «الكافية الشافية»، وهي أرجوزة نحوية في حوالي ٣٠٠٠ بيت، وكتاب «الخلاصة الألفية» أو «الألفية» وهو أرجوزة في ألف بيت وتعرف بألفية ابن مالك في النحو، وكتاب «لاميات الأفعال» أو «المفتاح في أبنية الأفعال» وهو منظومة لامية من البحر البسيط في ١١٤ بيتًا في علم الصرف ترجمت إلى الفرنسية، وكتاب «عمدة الحافظ وعدة اللافظ» في الإعراب، وكتاب «الألفاظ المختلفة» وهو رسالة في المترادفات.

هذا إلى جانب عدة رسائل صغيرة تبحث في المسائل اللغوية والنحوية، وتوفي العالم ابن مالك بمدينة دمشق في ١٢ من شعبان عام ٦٧٢هـ (٢١ فبراير عام ١٢٧٤م)، وكان كريم الخلق، حسن السمت، كامل الوقار، كما كان إمام النحاة وحافظ اللغة في عصره، وقد ألمَّ بأشعار العرب، وكان إمامًا في القراءات، واسع الاطلاع في الحديث، ويزيد عدد الكتب التي صنفها على ٣٠ كتابًا.

٤) **أبو الحسن بن مالك**: من أهل غرناطة، وكان من صانعي الموشحات الأندلسية العذبة الجرس الحلوة المعاني والسياقي، وقد أبدع في نظم هذا اللون من الشعر العربي الذي نما في عهد الدولة الأُموية في الأندلس وفي عهد دولتي المرابطين

والموحدين واستمر على نموه وازدهاره حتى عهد ملوك الطوائف بالأندلس، ولم يخب نوره الزاهي إلا بعد نزوح العرب عن إسبانيا جميعها.

وقد عاش أبو الحسن بن مالك في عهد دولة الموحدين التي استولت على الأندلس والتي دام حكمها من عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) إلى عام ٦٨٨هـ (١٢٦٩م)، ويقول مؤرخو سيرته إنه كان وشَّاحًا رائق النظام، وكان هو والوشاح أبو بكر بن زهير رئيسي أهل هذا الفن في ذلك العهد الموحدي، وسارت موشحاتهما حتى بلغت المشرق وتداولها الرواة في أرجائه.

ومن موشحات ابن مالك قوله:

كحل الدُّجى مِنْ مُقْلَةِ الفَجْرِ
عَلَى الصَّبَاحِ

ومِعْصَم كالنَّهْرِ في حُلَلٍ خُضْرِ
مِنَ البِطاحِ

ومن نظمه الرفيق الحاشية قوله:

إنَّ سَيْلَ الصَّباحِ فِي الشَّرْقِ
عادَ بحرًا بأَجْمع الأُفق

فتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الورقِ
أَتُرَى خَافَتْ مِنَ الغَرَقِ

فَبَكَتْ شَجَرَةٌ عَلَى الوَرَقِ

١٧٦ - ابن ماهان - شارع - بقسم محرم بك

هو أبو أحمد عبيد الله بن ماهان كان رئيسًا للشرطة بمدينة بغداد بالعراق، وقد ألّف كتابًا في الأدب بعنوان «الإشارة في أخبار الشعراء» وكتب رسالة عنوانها «رسالة في السياسة الملكية»، وقد ولد عام ٢٢٥هـ (٨٣٩م)، وتوفي عام ٣٠١هـ (٩١٣م).

١٧٧- ابن المبرّد - شارع - بقسم الرمل

(انظر ترجمته في المبرّد) الذي له شارع بقسم الرمل أيضًا.

١٧٨ - ابن مَخْلَد - حارة - بقسم محرك بك

لقب ابن مَخْلَد يحمله ثلاثة ممن ذكر المؤرخون شيئًا عنهم وهم:

١) **مسلمة بن مخلد:** وكان أحد قواد العرب الذين بعثهم الخليفة عمر بن الخطاب على رأس الكتائب الأربع التي أمدت عمرو بن العاص بالقوة فاستطاع أن يهزم الروم ويستولي على حصن بابليون، وكان عدد أفراد هذه الكتائب العربية الباسلة ١٢,٠٠٠ مقاتل، وكان مسلمة بن مخلد على رأس إحداها، ثم أسهم في فتح الإسكندرية عام ٢١هـ (٦٤١م) وصار واليًا على مصر عام ٥٥هـ (٦٧٤م) من قبل معاوية.

٢) **الحسن بن مخلد بن الجراح:** من دير قُنّى، كان معينًا على ديوان الضياع عام ٢٤٣هـ (٨٥٧م) ثم تقلد الوزارة في عهد الخليفة العباسي المعتمد، وكان في الوقت نفسه كاتب سر أخيه الموفق، وبعد شهر واحد فر إلى بغداد عندما وصل موسى

بن بغا إلى سامرًّا وكانت عاصمة العراق في ذلك الحين، غير أنه عاد إلى الوزارة عام ٢٦٤هـ (٨٧٨م)، وبعد قليل من الزمن استعاد سليمان بن وهب حريته فهرب ابن مخلد مرة ثانية وصودرت أملاكه.

٣) أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد: ابن صاحب الترجمة السابقة، قام على ديوان الإنشاء من عام ٣٠١ إلى ٣١١هـ (٩١٣ – ٩٢٣م) ثم عهد إليه الخليفة العباسي المقتدر بالوزارة بعد أن صرف عنها ابن مقلة وكان ذلك في جمادى الأولى عام ٣١٨هـ (يونية عام ٩٣٠م)، غير أن أبا القاسم بن مخلد لم يكن من الكفاءة بحيث يستطيع القيام بأعباء هذا المنصب الخطير فتصرف تصرفًا غير حكيم عندما حلت بالعراق الضائقة، ومن ثم نُحِّيَ عن الوزارة عام ٣١٩هـ (٩٣١م) ثم تقلدها مرة ثانية وصرف عنها، وفي نهاية عام ٣٢٨هـ (٩٤٠م) استعاد أبو القاسم سليمان منصبه، وعقب وفاة الخليفة الراضي عام ٣٢٩هـ (٩٤١م) أقامه الخليفة المقتفي وزيرًا للمرة الرابعة ولكنه كان وزيرًا بالاسم فقط فلم يستطع الاحتفاظ بمنصبه أكثر من أربعة أشهر في عهد المقتفي.

١٧٩ – ابن مرداس – شارع – بقسم مينا البصل

يذكر التاريخ اثنين حملا لقب «ابن مرداس» ولهما نصيب من السير المأثورة وهما:

١) ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري: وقد كان فارسًا مقدامًا في الجاهلية وفي صدر الإسلام، ولما ظهر الدين المحمدي كان ابن مرداس من مناضلي الرسول عليه الصلاة والسلام ويناقض شعراءه، ومعظم شعره يتصل بالحروب والأحداث الهامة في الجاهلية وفي الأعوام الأولى من العهد الإسلامي، ومن قصائده التي رد فيها على الأنصار عندما تفاخر شعراؤهم بما حققوه من نصر مبين في وقعة بدر حنين قوله:

عَجِيبٌ لِفخْرِ الأَوْس، وَالحَيْنُ دَائِرُ
عَلَيْهِمْ غدًا، وَالدَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ

فإنْ تَظْفَرُوا في يَوْمِ بَدْرٍ فَإنَّمَا
بِأَحْمَدَ أمسى جَدُّكم، وَهْوَ ظَاهِرُ

وَبِالنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أولياؤُه
يُحامُون في اللأْوَاءِ، والمَوْتُ حَاضِرُ

يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيهِمُ
ويُدْعَى عَلِيٌّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذَاكِرُ

أُولَئِكَ لاَ مَنْ نُتِّجَتْ في دِيارِها
بنُو الأَوْسِ والنَجَّارِ حِينَ تُفَاخِرُ

وَلَكِنْ أَبُوهُم مِنْ لُؤَيٍّ بِن غَالِبٍ
إذَا عُدَّتِ الأَنْسَابُ كَعْبٌ وَعَامِرُ

هَم الطَّاعِنُون الخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرِكٍ
غَداةَ الهِياجِ الأَطْيَبُونَ الأَكَابِرُ

٢) شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس: الذي ينتمي بالأرومة إلى بني مرداس الذين هم سلالة من العرب السوريين وقد قاموا أعوامًا طويلة بحماية الشمال السوري من هجمات البوزنطيين والقواد الأتراك، وقد ورث صالح بن مرداس عن أبيه حكم مدينة حلب واكتسب مكانة في التاريخ بفضل انتصاراته على الروم البوزنطيين دفاعًا عن البطائح الشمالية، وأوقع بمساعدة أخيه «ثمالة» هزيمة منكرة بحاكم أنطاكية عام ٤٢٠هـ (١٠٢٩م)، وظل صالح بن مرداس صاحب الكلمة العليا في حلب لكفاءته السياسية والحربية، واشتدت قوته بفضل المساعدة المستمرة التي كان يتلقاها من العرب والتي بفضلها استطاع الخروج عن طاعة الإمبراطور البوزنطي رومانوس الثالث ثم أعلن الحرب عليه، فلم يسع هذا الإمبراطور إلا الانسحاب تاركًا وراءه غنائم هائلة، غير أن صالح بن مرداس ركن إلى عقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تعهد فيها بدفع جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف درهم.

وبعد أن نال رضاء الخليفة الظاهر (انظر هذه المادة) استتب له الأمر في حلب مؤقتًا، وبعد قليل من الزمن شن عليه أنشتكين حربًا شعواء قتل أثناءها في وقعة لطمين وأصبح أنشتكين سيد حلب.

١٨٠ - ابن مرزوق - شارع - بقسم مينا البصل

١٨١ - ابن مرزوق - شارع - بقسم الرمل (فروجية سابقًا)

هو أبو عبد الله محمد بن مرزوق ولد بمدينة تلمسان في سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م)، ونشأ فيها ثم رحل إلى الأندلس، وذهب بعد ذلك إلى القاهرة، وأقام بها مدة، ثم وافته المنية خلال عام ٧٨١هـ (١٣٧٩م) بالغًا من العمر سبعة وسبعين عامًا تقريبًا وقد أثنى عليه ابن خلدون، وكان ابن مرزوق عالمًا في أصول الدين الإسلامي، والفروع، وكان إلى جانب ذلك خطيبًا بارعًا، وشاعرًا مجيدًا، وقد ولد هذا الشاعر في عهد الأمير أبي سعيد عثمان أحد أمراء دولة بني مرين التي حكمت بالمغرب العربي في المدة ما بين عامي ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) و٧٦٢هـ (١٢٦٣م).

١٨٢ - ابن مرشد - شارع - بقسم مينا البصل

لقّب ابن مرشد هو أحد لقبي ابن منقذ الذي له شارعان بقسمي مينا البصل والرمل، لأن اسمه الكامل هو أسامة بن مرشد الكناني بن منقذ.

ومن ثم اطلب ترجمته في «ابن منقذ» للتعرف على تاريخ ابن مرشد.

١٨٣ - ابن مريم - شارع - بقسم الرمل

هو ابن مريم التلمساني من علماء القطر الجزائري، وقد ألّف كتابًا بعنوان «البستان في علماء ومُلَحاءِ تلمسان» ويقول بعض المؤرخين أنه اقتبسه من كتاب «نيل الابتهاج» الذي ألفه المكتّي ومن كتب أخرى غيره، ويشتمل كتاب البستان على مائة واثنتين وخمسين ترجمة للعلماء والملحاء، وقد فرغ من تأليفه خلال عام ١٠١٤هـ (١٦٠٥م) وقام بطبعه العالم الجزائري محمد بن شنب عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) وترجم إلى اللغة الفرنسية.

ولم أتوصل إلى معرفة تاريخ ومكان مولده أو وفاته.

وجاء في كتاب «فتح العرب لمصر» الذي ألفه الدكتور «باتلر» أنه جاء في كتاب الطبري (انظر هذه المادة) أن المقوقس كان حاكم ممفيس – في زعمه – وكان عظيم القبط وأنه أرسل بعثة برياسة «الجاثليق الذي كان كبير الأساقفة النصارى واسمه ابن مريم» .

١٨٤– ابن مسرة – شارع – بقسم محرم بك

اسمه بالكامل محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني القرطبي ، ولد في قرطبة بالأندلس عام ٢٦٩هـ (٨٨١م) ، وكتم تعاليمه الفلسفية عن العامة ، فاتهمه الناس بأنه على مذهب المعتزلة ، وقد هجر قرطبة ورحل إلى إفريقيا وأدى فريضة الحج ، وزار المدارس في كثير من الأقطار ، ثم عاد إلى بلاده حيث انتشر مذهبه المعروف «بالمسرّى» وعلى هذا المذهب نشأ محيي الدين بن العربي (انظر هذه المادة) ، واشتهر ابن مسرة بأنه فيلسوف مدينة قرطبة الأول ، وقد أحرق الخليفة عبد الرحمن الناصر (انظر هذه المادة) كتبه ، وتوفي ابن مسرة عام ٣١٩هـ (٩٣١م) .

١٨٥– ابن مسعود – شارع – بقسم كرموز

هو عبد الله بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل الملقب بابن مسعود ، كان من أعز أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وينتسب إلى أسرة متواضعة من أهل مكة ، وكان في حداثة سنّه يرعى غنم عقبة بن أبي معيط ، ويُعرَف عادة بحليف بني زهرة على غرار أبيه ، وقد وصفه النويري (انظر هذه المادة) بأنه صحابيّ ابن صحابي لأن أخاه عقبة وأمه هند بنت عبد ود بن سواء ، كانا من الطبقة الأولى من الصحابة ، وتذكر الروايات أنه اعتنق الدين الإسلامي قبل أن يدخل النبي بيت الأرقم (انظر مادة ابن الأرقم) ، وقبل أن يعتنق عمر بن الخطاب الدين المحمدي ، ويقال إنه أول من جهر بقراءة القرآن الكريم في مكة ، وقد نصحه أصحابه بألاّ يجهر بذلك لأنه لم تكن له عشيرة قوية تدفع عنه الأذى ولكنه لم يصغ لنصحهم واستمر على الجهر بالآيات القرآنية فنالته الإساءة العنيفة من أهل مكة المشركين بالله ، وهاجر ابن مسعود إلى الحبشة وتذكر بعض الروايات أنه هاجر إليها مرتين ، وكان يسكن في المدينة خلف الجامع الكبير ، وكثيرًا ما كان يتردد هو وأمه على بيت الرسول حتى خالهما الناس من أفراد أسرته ولكنه لم يكن إلاَّ خادم النبي الأمين «صاحب النعلين والوسادة والطهور» ، وكان يرسل شعره الأحمر طويلاً ويرتدي الملابس البيضاء ويتطيب بالعطور ، وكان شديد العناية بالصلاة ولم يسرف في الصوم إبقاءً على صحته ليقوم بخدمة الدين .

واشترك عبد الله بن مسعود في جميع غزوات النبي ، وفي غزوة بدر (انظر مادة بدر) التي أيد الله المسلمين فيها بنصر مبين قطع ابن مسعود رأس أبي جهل ، وكان قد جرح جرحًا بليغًا وحمله إلى رسول الله منتشيًا من الفرحة ، وابن مسعود الصحابي الأمين أحد الذين وعدهم النبي بالجنة ، ولما وجد الخليفة أبو بكر الصديق (انظر هذه المادة) ، إبان حروب الردَّة ، أنه من الضروري إعداد المدينة المنورة للدفاع كان ابن مسعود أحد الذين اختيروا لحماية الجهات الضعيفة من المدينة ، وحضر ابن مسعود وقعة اليرموك ، وفي خلافة عمر ابن الخطاب (انظر هذه المادة) أُرسل إلى الكوفة ليقوم على بيت المال وليعلم الناس أمور دينهم ، وكثيرًا ما كان الناس يترددون

عليه يستقون من علمه الغزير بالقرآن الكريم والسنّة المحمدية ، وقد أسند إليه ٨٤٨ حديثًا ، ومن صفاته أنه إذا تحدث عن النبي أخذته الرعشة وتصبب العرق من جبينه واحتاط في كلامه خشية أن يقع في الخطأ ، وأخذ الناس عنه الكثير من العلم والحديث ، وتذكر بعض الروايات أن الخليفة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) صرفه عن منصبه في الكوفة ، ولما أراد الناس استبقاءه قال لهم : «إن عليَّ الطاعة ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة» ، وهكذا عاد ابن مسعود إلى المدينة ، ويقال إن عثمان بن عفان زاره وهو على فراش الموت وسأله عن حاله وطلبه إجابة أهل التقوى من القدماء أنه يحمد الله على كل حال ، وقد اختار الزبير لتنفيذ وصيته وأبدى رغبته في أن يدفن في حلة بمائتي درهم ، وتوفي بالمدينة عام ٣٣هـ (٦٥٣م) وقد أشرف على الستين من عمره .

وتذكر روايات أخرى أنه توفي بالكوفة وأن عثمان بن عفان لم يصرفه هو وسعد بن أبي وقاص (انظر ابن أبي وقّاص) عن منصبيهما عام ٢٦هـ (٦٤٦م) .

واشتهر ابن مسعود بأنه محدث وحجة في القرآن وقد جمعت أحاديثه في مسند أحمد ، وكان من نتائج اتصاله الوثيق المستمر برسول الله عليه الصلاة والسلام أن صار من كبار علماء الصحابة ، فلما أرسله الخليفة عمر بن الخطاب إلى الكوفة كون له مدرسة من التلاميذ الذين قال فيهم سعيد بن جبير : «كان أصحاب عبد الله بن مسعود سُرُجَ هذه القرية» (يعني الكوفة) ، فكان يُعلِّم الناس القرآن ويفسره ، ويروي أحاديث سمعها من رسول الله ، ويُسأل عن حوادث فيفتي فيها استنباطًا من الكتاب أو السنّة أو برأيه ، إذا لم يرد فيها كتاب ولا سنَّة ، واشتهر من مدرسته هذه ستة كانوا يعلمون القرآن ويفتون الناس وهم : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والحارث بن قيس ، وعمرو بن شرحبيل ، وهؤلاء خلفوا عبد الله بن مسعود في التعليم بالكوفة ومعهم من تعلموا بالمدينة وأخذوا عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ومعاذ وغيرهم ، فتكوَّنت في الكوفة حركة علمية كبيرة واشتهر من علمائها شريح والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ، ولم تزل هذه الحركة تنمو وتنضج حتى توجت بأبي حنيفة النعمان الكوفي (انظر مادة أبي حنيفة) .

١٨٦ – ابن مصعب – شارع – بقسم مينا البصل

هو مصعب بن عمير أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلم ، ولقد حمل لواء النبي في وقعة بدر وحنين حيث استشهد دفاعًا عن الدين الإسلامي وكان ذلك عام ٦هـ (٦٢٧م) .

١٨٧ – ابن مطر – شارع – بقسم الرمل

هو الحجاج بن مطر الذي نقل كتاب المجسْطي الذي ألفه بطليموس إلى العربية وقدمه إلى الخليفة العباسي المأمون (انظر هذه المادة) الذي بعثه إلى مدينة القسطنطينية ليختار من الكتب اليونانية ما يراه صالِحًا للنقل إلى اللغة العربية وذلك لأن ابن مطر كان يجيد اللغة اليونانية ، ولقد كانت ترجمته للكتاب المجسطي فاتحة علمية للعرب إذ استطاعوا تصحيح كثير من الأغلاط التي وقع فيها ابن مطر وذلك في عهد المأمون ، وبعد عهده ، وحققوا مسألة كروية الأرض وطول محيطها ، ودرجات خطوط الأرض الطولية ، ومقدار كل درجة منها .

وبما أن حياة الخليفة المأمون تقع في الفترة الزمنية بين عامي ١٧٠ و٢١٨هـ (٧٨٦ – ٨٣٣م)، فيكون ابن مطر قد عاش في هذه الحقبة الزمنية نفسها.

١٨٨ – ابن مطروح – حارة – بقسم مينا البصل

اسمه الكامل جمال الدين أبو الحسن يحيى بن مطروح، ولد بمدينة أسيوط عام ٥٩٤هـ (١١٩٧م) ونشأ بمدينة قوص بمحافظة قنا، وقد تولى نظارة الخزانة في مصر وشغل منصب الوزارة في دمشق بسبب اتصاله بالملك الصالح الأيوبي، وكان شاعرًا يصور شعره الصفاء والنقاء والرقة المصرية، وكان زميلاً للبهاء زهير الذي نشأ مثله بمدينة قوص (انظر مادة البهاء زهير)، ثم اعتزل ابن مطروح الخدمة ووافته المنية عام ٦٤٩هـ (١٢٥١م) بالغًا من العمر ٥٤ عامًا.

وقد سأل عنه البهاء زهير وهو مريض فكتب إليه هذه الأبيات ردًّا على سؤاله:

أَيَا مَنْ رَاحَ عَنْ حَالِي
يُسَائِلُ مُشْفِقًا حَدِبا

ومَنْ أضْحَى أَخًا لي في
الوِدَادِ وفي الحُنُوِّ أبا

وَحَقِّكَ لَوْ نَظَرتَ إليَّ
كنتَ تُشاهِدُ العَجَبَا

جُفُونٌ تَشتكِي غَرَقًا
وَقَلْبٌ يَشْتَكِي لَهَبَا

وَجِسْمٌ حَالَتِ الأَسْقَا
مُ فيه فَرَاحَ مُنْتَهَبَا

ومن شعره الغزلي الرقيق العذب الجرس:

وَمَا أنْسَ لا أَنْسَ المليحَةَ إذْ بَدَتْ
دُجًى فَأَضَاءَ الأفْقُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعِ

فَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّهَا الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ
وَأني قَدْ أُوتِيْتُ آيَةَ يُوشَعِ

وقال في الغزل الحلو أيضًا:

يَا مَنْ لَبِسْتُ عَلَيْهِ أَثْوَابَ الضَّنَى
صُفْرًا مُوَشَّعَةً بِحُمْرِ الأَدْمُعِ

أدْرِكْ بقية مُهجَةٍ لوْ لَمْ تَذُبْ
أَسَفًا عَلَيْك نَفَيتُهَا عَنْ أضْلعي

١٨٩ – ابن المعتز – شارع – بقسم اللبان

هو عبد الله أبو العباس الملقب بابن المعتز، شاعر وأمير وهو ابن الخليفة المعتز من جارية، ولد عام ٢٤٧هـ (٨٦١م)، وانصرف منذ حداثته إلى الدراسات الأدبية فأكبّ على تعلم الأدب واللغة على المبرِّد وثعلب وغيرهما من أئمة العلماء في حماس بالغ ونجاح باهر، وقد وجهت إليه الأنظار مؤلفاته الأدبية ولاسيما ما كان منها بالشعر، وكانت له مكانة رفيعة في بلاط ابن عمه الخليفة المعتضد الذي تولى الخلافة من عام ٢٧٩هـ إلى ٢٨٩هـ (٨٩٢ – ٩٠٢م)، وكان ابن المعتز يلازم العلماء والشعراء وأعلام الأدب في بغداد، ولقد أبى

في شمم وكبرياء عزيزة أن ينغمس في دسائس البلاط العباسي الذي كان يمر في أيامه بأسوأ عهوده، ولكن عندما توفي المقتفي وشبت الفتنة لاستخلاف المقتدر تقدم ابن المعتز لتولي الخلافة ونودي به خليفة باسم المرتضي في ٢٠ من ربيع الأول عام ٢٩٦هـ (١٧ من ديسمبر ٩٠٨م) بيد أن حزبه لم يبق في الحكم إلا يومًا واحدًا، فاختفى ابن المعتز في دار خاصة، ولكن أمره افتضح بعد أيام فقُتِل في الثاني من ربيع الثاني عام ٢٩٦هـ (٩٠٨م) وقاتله هو المعتضد بالله الذي تولى الخلافة بعد موته.

وابن المعتز من فحول شعراء العصر العباسي، جمع إلى مواهبه الشعرية العلم الصحيح والذوق السليم، فلم يقلد شعراء العرب الأقدمين، فكان أسلوبه يمتاز بالسلاسة والبساطة وله ديوان في مجلدين، ومعظم شعره في وصف حياة الترف التي نستشف منها ألوان البذخ وما كانت تضمه من التكلف والتظاهر، وقد عني ابن المعتز - بصفة خاصة - بالأغاني التي تصف الخمر وتشيد بمجالس الشراب، وقد أوضح كل ذلك في كتاب «فصول التماثيل في تباشير السرور»، وكتابه القيم الذي يعد فتحًا جديدًا هو «كتاب البديع»، وله كتاب «طبقات الشعراء المحدثين» الذي لم يبق منه إلا جزء واحد، وقد برع ابن المعتز في الشعر الوصفي ويمتاز شعره برقة الأسلوب مع تكلف للبديع، ومن هذه الناحية والنواحي الأخرى التي يتصف بها شعره يستطاع القول بأنه أحد ثلاثة لهم هذه الخصائص الشعرية نفسها، ثانيهم أبو تمام وثالثهم مسلم بن الوليد الشهير بصريع الغواني (انظر هذه المادة، ومادة أبي تمام).

ومن شعره في الوصف الرائع هذان البيتان يصف بهما غديرًا:

غَديرٌ تُرَجْرِجُ أَمْوَاجَه ... هُبُوبُ الرِّيَاحِ ومَرُّ الصَّبَا

إِذَا الشَّمْسُ مِنْ فَوْقِه أَشْرَقَت ... تَوهَّمْتَهُ جَوْشنًا مُذْهَبَا

وقال في وصف الروض:

وَعَلَى الأَرْضِ اصْفِرَارْ ... وَاخِضْرَارٌ واحْمِرارْ

فَكَأَنَّ الرَّوْضَ وَشْيٌ ... بَالَغَتْ فِيهِ التِّجارْ

نَقْشُهُ آسٌ ونِسْرِيـ ... ـنٌ وَوَرْدٌ وبَهَارْ

ومن حسن ديباجته في الشعر قوله:

أَخَذَتْ مِنْ شَبَابِيَ الأَيَّامُ ... وَتَوَلَّى الصِّبا عَلَيْهِ السَّلاَمُ

وَارْعَوَى بَاطِلي فَبَانَ حَدِيثُ ... النَّفْسِ مِنّي، وعَفَّتِ الأَحْلاَمُ

وقد نشأ ابن المعتز في «سُرَّ من رأى»، وقرأ الأدب وعلوم الأوائل على مؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي فخرج أديبًا شاعرًا

بليغًا مؤلفًا معدودًا من كبار علماء اللغة والأدب والتاريخ؛ ولذلك خاف أصحاب السلطة في الدولة من الترك والكتاب والوزراء أن يولوه الخلافة فيكف أيديهم عن الخيانة والفساد وولوا المقتدر صبيًّا خاضعًا لأمر نساء القصر فاضطربت شؤون الدولة وعمت الفتن فألف محمد بن داوود بن الجراح حزبًا من العلماء والفضلاء وخلعوا المقتدر وولوا ابن المعتز، وبعد يوم وليلة ثار غلمان القصر، وهزموا أنصار ابن المعتز ثم قتلوه ودفن في خربة بإزاء داره.

١٩٠- ابن معصوم - حارة - بقسم الرمل

هو علي خان بن محمد بن معصوم - ولد بالمدينة المنورة عام ١٠٥٢هـ (١٦٤٢م) وهو سليل أسرة غياث الدين الشيرازي، وقد قام بعدة رحلات خلالها، برها بنورها بغداد والنجف وكربلاء بالعراق، ثم عمل أستاذًا بالمنصورية في شيراز، وقد ألف كتابًا بعنوان «سلوة الغريب وأسوة الأريب»، ضمنه تفصيلات رحلاته ويوجد من هذا الكتاب مخطوط بمكتبة برلين، وتوفي ابن معصوم عام ١١٢٠هـ (١٧٠٨م).

١٩١ - ابن المفضل - شارع - بقسم الرمل

كان من فقهاء الشافعية وله عدة مؤلفات في الفقه عام ٣٠٨هـ (٩٢٠م)، وابن المفضل هو أيضًا لقب ابن المفضل الضبّي، واطلب ترجمته في «الضبي» وفي «المفضل الضبّي».

١٩٢ - ابن المعطي - زقاق - بقسم الجمرك

هو زين الدين أبو الحسن يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المعروف بابن معطي، ولد عام ٥٦٤هـ (١١٦٨م)، ودرس الفقه والنحو في الجزائر على أبي موسى الجزْولي ثم رحل إلى المشرق وأقام بدمشق مدة من الزمن حضر خلالها دروسًا على ابن عساكر، وتعمق بها في دراسة النحو وكان يكسب عيشه بالشهادة لدى القضاء، ثم شدَّ رحاله إلى القاهرة فعينه الملك الكامل الأيوبي مدرسًا للأدب العربي في جامع عمرو، ولم يستمر في حياته على اتباع مذهب واحد من المذاهب الفقهية الأربعة فكان مالكيًّا بالمغرب شافعيًّا بدمشق حنفيًّا بالقاهرة.

وتقوم الأدلة قوية على أنه أول من ألف قصيدة ألفية في النحو، ومن أسف لم يبق من مصنفاته غير: «الدرة الألفية في علم العربية» ويطلق عليها اسم ألفية ابن معطي وهي تضم ١٠٢١ بيتًا من الرجز، وانتهى منها خلال عام ٥٩٥هـ (١١٩٨م)، ويقول بعض المؤرخين إنه أتمها وهو مايزال بدمشق بينما يذهب البعض الآخر إلى أن ذلك حدث عقب نزوحه إلى القاهرة، كتاب «الفصول الخمسين وهو موجز في النحو»، «البديع في صناعة الشعر».

وتوفي ابن معطي بالقاهرة في ٣٠ من ذي القعدة عام ٦٢٨هـ (٢٩ سبتمبر عام ١٢٣١م)، ودفن بها وكان عمره آنذاك حوالي خمسة وستين عامًا هجريًّا أي ٦٣ عامًا ميلاديًّا.

ونسبة ابن معطي «بالزواوي» يرجع في غير شك إلى أن جده الأكبر من بلدة زواوه وهي بلدة في طرابلس الغرب (ليبيا) يصل عدد سكانها في الوقت الحاضر إلى حوالي ١٣,٠٠٠ معظمهم من المسلمين الإباضية، وهي مشهورة بمصايد الأسماك الكائنة عندها.

١٩٣- ابن المُقَرَّب - شارع - بقسم محرك بك

اسمه بالكامل علي بن مُقَرَّب بن منصور، ولقبه جمال الدين وكنيته أبو عبد الله، ويعرف بابن المُقَرَّب العيوني البحراني، وينسب إلى بلدة العيون بالأحساء بالجزيرة العربية، وكان أميرًا من أمراء الأحساء العيونيين، وقد عاش في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين وأقام بالأحساء، ثم قام بعدة أسفار زار خلالها أقطار الخليج العربي ورحل بعد ذلك إلى البصرة فبغداد فالموصل.

وكانت الخلافة العباسية في ذلك الحين تلفظ آخر أنفاسها فسادت الفوضى في أرجاء ديارها، وأعلن أمراء الأقاليم استقلالهم عنها، ومن ثمَّ لم يبق لخلفاء بني العباس سلطان ولا حول خارج مدينة بغداد عاصمة ملكهم المشرف على الانهيار.

وإزاء هذا الضعف المتدهور قامت إمارة البحرين وغيرها من الإمارات العربية، وكان إقليم البحرين يضم يومئذ الساحل الممتد من البصرة إلى إقليم عمان ويشتمل على جزر البحرين والكويت والأحساء وقطر، وكان الأمر بالأحساء في أيدي العيونيين الذين ينتمي ابن المُقَرَّب إليهم، ولخوفهم منه وخشيتهم من نباهته وتفوقه الذهني نقموا عليه منعًا لتغلبه عليهم والاستيلاء على المنطقة، فنهبوا بساتينه وسجنوه ثم أطلقوا سراحه بعد حين، فرحل إلى بغداد وذهب إلى الموصل عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م).

أما أفراد الأسرة العيونية فكان لأمرائها الفضل الأول في القضاء على حركة القرامطة الذين كانوا قد استولوا على الأحساء وأقاموا فيها دولة قوية عام ٢٧٦هـ (٨٨٩م) بمعاونة قبيلة عبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة، واتخذوا «هَجَر» عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم «المؤمنية» وهي مدينة «الهفوف» الحالية، كما أنهم تمكنوا من السيطرة على الجزء الجنوبي من القطر العراقي وقطعوا على الحجاج طريق الحج ثم دخلوا مكة في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة عام ٣١٧هـ (٩٣٠م) وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة ونقلوه إلى الأحساء وظلت دولتهم قائمة إلى عام ٤٢٢هـ (١٠٣٠م)، ويدلنا التاريخ على أن حركتهم كانت من العوامل الأساسية في سقوط الخلافة العباسية ودخول الآراء والمعتقدات الغريبة وتعلغلها في المجتمع العربى الإسلامي.

وكان ابن المقرَّب من فحول شعراء الخليج العربي ويمثل شعره الثورة والتمرد ولاسيما على فريق من أمراء الأحساء الذين اغتصبوا حقه في الإمارة وصادروا أمواله وسجنوه وعذبوه، وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي (انظر مادة أبو الطيب)، الذي حاول بشعره وأسفاره واتصاله بأمراء الشام ومصر أن يصبح صاحب ولاية وسلطان فلم يفلح، وكذلك أصاب الإخفاق ابن المقرَّب في إمارات الخليج وفي العراق فلم يصب غرضًا ولم يحقق أمنية.

ولو أن شعره دون شعر المتنبي من حيث الجودة والشاعرية إلا أن الروح التي تنبعث من أشعاره تشبه تلك التي تنبعث من أشعار أبي الطيب ولاسيما في القصائد التي تتناول الحماسة والمطالبة بالحق والفخر.

وإذا كان هذا الشاعر غير معروف إلا عند فئة قليلة من الأدباء، فإن كثيرًا من سكان الجزيرة العربية والخليج العربي

يعرفونه ويحفظون شعره ويعجبون بما نظم من قصائد، ومازال أكثرهم يرددون قوله، مثلاً من أمثالهم في الحكمة:

إِذَا خَانَكَ الأَدْنَى الذي أَنْتَ حزْبُهُ
فَوَا عَجَبًا إنْ سَالَمْتَكَ الأبَاعِدُ

ويقال إن بدار الكتب المصرية ست نسخ من ديوانه مازالت مخطوطة، وذكر ياقوت في كتابه معجم البلدان في مادة «العيون» أنه التقى بابن المقرَّب في الموصل عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) ولم يعجب أو يطرب لشعره، وذكره المستشرق «بروكلمن» في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الأدب العربي».

وفي ديوان ابن المقرَّب مادة غزيرة يجد في ثناياها الباحثون تبيانًا لجغرافية الخليج العربي في عهده وتوضيحًا لأسماء المدن والأماكن في زمانه كالجرعاء وتخلين والجشّ والجبل بإقليم الأحساء، وحجر وأجله باليمامة، ونزوى بعمان، وقد ساعد ذلك على تحقيق المواقع الجغرافية ومعرفة مدى تقدم العمران والحضارة في هذه الجهات، علاوة على أن له قصائد تصلح لدراسة تاريخ الأدب العربي في الخليج منها هذه القصيدة التي مطلعها:

خَلِّياني مِنْ وِطاءٍ وَوِسادِ
لاَ أَرَى النَّوْمَ عَلَى شَوْكِ القَتَادِ

وَاتْرُكَاني مِنْ أَبَاطِيلِ المُنَى
فَهْوَ بَحْرٌ لَيْسَ يُرْوَى مِنْهُ صَادِي

إِنَّمَا تُدْرَكُ غاياتُ المُنَى
بِمَسِيرٍ أَوْ طِعانٍ وَجِلادِ

يا جُفوني طَلِّقي عَنْكِ الكَرَى
إِنَّما طِيبُ الكَرَى بَعْدَ السُّهادِ

ومن أشعاره التي يذكر فيها ما أصابه على أيدي عشيرته ويدعو إلى مغادرة البلاد التي يظلم المرء في أرجائها قوله:

فِي كُلِّ أَرْضٍ إِذَا يَمَّمْتُها وَطَنٌ
مَا بَيْنَ حُرٍّ وبَيْنَ الدَّارِ مِنْ نَسَبِ

إِذَا الدِّيَارُ تَغَشَّاكَ الهَوَانُ بِهَا
فَخَلِّها لِضَعِيفِ العَزْمِ واغْتَرِبِ

ويشارك ابن المقرب بأشعاره المجاهدين الذين حاربوا الصليبيين في دمياط ويمدحهم بقوله:

سَلِ الكُفْرَ مَنْ أَوْهَى بدمياطَ رُكْنَهُ
وقَصَّرَ أَعْلَى فَرْعِهِ وَهْوَ بَاسِقُ

وَقَدْ جَاءَتِ الإِفْرِنْجُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ
كَأَنَّ تَدَاعِيهَا السُّيُولُ الدَّوَافِقُ

وقد طبع ديوانه بمدينة بمباي بالهند عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م) على نفقة رجل من الأحساء، وقام بجمع قصائد هذا الديوان أحد أفراد الأسرة العيونية التي ينتسب الشاعر إليها.

وعلى غرار أبي الطيب المتنبي كان ابن المقرَّب يغالي في مديحه للعظماء ممن أكرموا مثواه لديهم، فهو يقول في أمير مدينة الموصل:

زَهَتِ البِلادُ بِهِ فَمَا مِنْ بَلْدَةٍ
إلاَّ تَمَنى أَنْ تَكُونَ المَوْصِلا

لَوْلاَ النُّبُوَّةُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
خُتِمَتْ لَقُلْتُ أَرَى نَبِيًّا مُرْسَلا

وتوفي الشاعر ابن المقرَّب في بغداد سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م).

١٩٤ - ابن المقري - شارع - بقسم مينا البصل

هو ابن اليمني المقري، ولد باليمن عام ٧٦٥هـ (١٣٦٣م)، وكان عالم البلاد اليمنية بأسرها، وله كتاب «الإرشاد» في الفقه الشافعي، و«ديوان العروض والقوافي»، ووافته المنية عام ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا هجريًّا ونحو ٧١ عامًا ميلاديًّا.

ويحمل لقب المقري العالم النابغة أحمد المقري صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، فاطلب ترجمته في «المقرّي».

١٩٥ - ابن المقفع - حارة - بقسم محرم بك

يحمل كنية ابن المقفع اثنان من المفكرين الذين استحقوا أن يدوِّن التاريخ سيرهم وهما:

١) **أبو محمد عبد الله ابن المقفع**: وكان يلقب قبل إسلامه بأبي عمرو، وترجع كنيته بابن المقفع إلى أن أباه كان من أصل فارسي من مدينة فيروزآباد بإيران، وقد عهد إليه الحجاج بن يوسف الثقفي (انظر مادة الحجَّاج) بجباية الخراج في العراق وفارس، فاحتجز بعض ما جباه من المال لنفسه فأمر الحجاج بضربه حتى تقفعت يده، ومن ثمّ أطلقت عليه كنية «المقفع»، وكان ابن المقفع يدعى «روزبة بن دادويه» قبل اعتناقه الإسلام، وقد التحق بخدمة عيسى بن علي عم الخليفتين العباسيين أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، وكان في ذلك الحين قد ترك المزدكية وأسلم على يد مولاه عيسى بن علي، ويذكر مؤرخو سيرته أنه ولد في حوالي عام ٧٧هـ (٦٩٦م).

ويعد ابن المقفع أحد هؤلاء المفكرين الذين يعجب بهم الناس في مختلف أطوار حياتهم والذين كلما تقدمت بهم السن ازداد نضجهم العقلي وازداد إعجاب الناس بهم، فهو في هذه الناحية أحد زعماء المدارس الأدبية يتمتع بالثراء ويغدق في سخاء، وكان كريم النفس، صريحًا، جريئًا، لا يبالي قالة الناس، متحدثًا لبقًا، يميل إلى المرح في خفة روح وحلو قصص، يستمده من اطلاعه الواسع ومطالعاته الأدبية من اللغة الفارسية، وقد عاش مهيب الجانب تخشى صولة لسانه وقلمه، وكان يكره المرأة ويتندر بها ويصمها بالضعف والوهن وقلة الإخلاص، ولقد وصفه منافسه وخصمه الجاحظ بقوله: «إنه كان جوادًا فارسًا جميلاً»، وعلى الرغم من اندماجه في المجتمع العربي ورفعه راية الأدب العربي، فقد كان فارسي النزعة تتجلى فيه كل صفات الفرس من حب للمجون والفكاهة والدعابة والرقة والمجاملة والمغالاة، وإلى جانب ذلك كله كان عراقي الوجدان متحمسًا في إطرائه

ومديحه، ويظهر هذا الحب وهذا الإطراء في رسالته المسماة «برسالة الصحابة» التي أرسلها إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور يصف فيها أهل العراق وشمائلهم ويدافع عنهم مكفرًا بذلك عما كان يتهم به من تعصب للفرس.

وهناك رواية تقول بأن لقبه هو «ابن المقفِّع» بكسر الفاء المشددة لأن والده كان يصنع القفاع «الزنابيل»، وعلى كل حال فقد كان مثلاً للرجل المهذب الكامل الخلق والثقافة، وهو في هاتين الناحيتين يشبه عبد الحميد الكاتب (انظر هذه المادة) من حيث متانة الأخلاق وقوة الشخصية واتساع المحيط الثقافي، وكان الاثنان صديقين حميمين تجمعهما الشيم المتشابهة والنزعة الأدبية الرامية إلى هدف واحد هو رفع مستوى النثر الفني ليكون نبراسًا لأهل جيلهما ولأبناء الأجيال اللاحقة، وكانا على درجة عالية من الوفاء، فقد آثر عبد الحميد الكاتب أن يقتل مع سيده مروان بن محمد واختار الموت على أن يستميل الحكام الجدد من آل عباس ويعيش في رغد من العيش، والتجأ عبد الحميد بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق إلى ابن المقفع وهو في البحرين وفاجأهما جند العباسيين في منزل ابن المقفع الذي ادعى أنه هو عبد الحميد الكاتب ليفتدي صديقه وضيفه، ولكن عبد الحميد أصر على إظهار شخصيته ولولا إبرازه العلامات الدالة عليه لقتل ابن المقفع راضيًا في سبيل إنقاذ صديقه، وفي كتاب «الأدب الكبير» دبَّج قلم ابن المقفع وصفًا لهذا الصديق الوفي فقال: إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأسُ ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه، كان خارجًا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرجه فلا يدعو إليه مروءته، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلاَّ على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتًا فإذا قال بزَّ القائلين.

كان يُرى متضعفًا مستضعفًا فإذا جاء الجدُّ فهو الليث عاديًا، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في رأي ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضيًا عدلاً وشهودًا عدولاً، ولا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره، وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البرء ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يشتكي ولا ينتقم من الوليِّ ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت – ولن تطيق – ولكن أخْذُ القليل خير من ترك الجميع، وبالله التوفيق».

ولقد اتهم ابن المقفع بالزندقة والشعوبية، أما الزندقة فهي الكفر في الباطن والتظاهر بالإيمان في الظاهر، وأما الشعوبية فهي ترمي إلى التشكيك في الدين والدولة والتاريخ واللغة العربية والعروبة، فهي حركة ذات مظاهر متعددة، ثقافية ودينية واجتماعية وسياسية ولغوية وتهدف إلى تقويض سلطان العرب بكل الوسائل وإعلاء شأن الفرس وتمجيدهم، وعلى الرغم من أن كثيرًا من المؤرخين يؤيدون هذا الاتجاه في سلوك ابن المقفع فإن ثلاثة من المفكرين والكتاب المحدثين تناولوا سيرة ابن المقفع وإنتاجه الأدبي بالدراسة والتحليل وخلصوا من ذلك إلى نفي هذه التهمة عنه في تحمس وإصرار، وهم: محمد كرد علي في كتابه «أمراء البيان» وبطرس البستاني في كتابه «أدباء العرب في الأعصر العباسية»، والدكتور صفاء خلوصي في مقال عنه بمجلة العربي.

فقال محمد كرد علي: «ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته، وما نظن أن من اتهموه في دينه إلا من الفقهاء المرائين . . . أما رأي ابن المقفع في العرب فهو لا يقل عن رأي أعظم المتعصبين لهم من أبنائهم كالجاحظ»، ويقول بطرس البستاني: «إذا شئت أن تلتمس زندقة ابن المقفع فيما خلف من آثار فإنما أنت تتعب على غير طائل؛ لأن آثاره الباقية ليس فيها إلا كل ما يتلاءم مع الإسلام ولا ينافي أحكامه»، ويقول الدكتور صفاء خلوصي: «وعندي أن الرجل كان صادقًا في إعجابه بالعرب وحبه لهم، وآية ذلك أنه كان أكثر ولاءً في قرارة نفسه للدولة الأموية التي تعصبت للعرب أكثر من الدولة العباسية التي فتحت مجال العمل أمام الشعوبية والشعوبيين».

وهذه الآراء الثلاثة تخالف رأي الكثيرين في ابن المقفع وكلهم يجمعون على أنه كان زنديقًا شعوبيًّا ويدللون على ذلك بأقوال جاءت فيما ألف من كتب.

وليس من السهل – إزاء هذه الآراء المتناقضة – الجزم برأي دون الآخر، إذ ليس من اليسير نفي هذه التهمة عن ابن المقفع كلية أو إثباتها بشكل قاطع؛ لأن ذلك يستدعي الاستقصاء العميق والبحث المضني.

وجاء فيما كتبه المؤرخون عن سيرته أن الخليفة أبا جعفر المنصور عهد إليه تحرير ميثاق الهدنة بينه وبين عمه عبد الله، فاتهم بإدخال بعض الألفاظ على هذا الميثاق لم يرضَ الخليفة عنها، فكتب سرًّا إلى سفيان بن معاوية المهلبيِّ عامله على البصرة أن يقتله، فنفذ هذا العامل أمر الخليفة المنصور فقُطِعت ساقاه وألقيت الواحدة بعد الأخرى في النار وبُرِّرت هذه الجريمة البشعة بأنه كان يبطن المزدكية المجوسية ويظهر الإسلام.

غير أن بعض المراجع التاريخية الأخرى تذكر أن قتله على هذا النحو كان بعد خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي، وفي عهد أبي جعفر المنصور، ويدللون على ذلك بما جاء في كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري، من أن ابن المقفع تقلد في عهد سليمان بن عبد الملك خراج بعض ولايات دجله من يد صالح بن عبد الرحمن البستاني، وبما أن سليمان بن عبد الملك تولى الخلافة سنة ٩٧هـ (٧١٥م) فلا يعقل أن يتولى ابن المقفع الخراج وهو في عمر يقل عن العشرين، ومن ثمَّ تكون سنه عند مقتله ٦٥ عامًا إذا أخذنا بقول من يذكرون أنه قتل سنة ١٤٢هـ (٧٥٩م) أو تكون هذه السن ٦٨ عامًا إذا أخذنا بقول من يؤكدون أنه قتل خلال عام ١٤٥هـ (٧٦٢م).

وقد نقل ابن المقفع من الفهلوية الفارسية إلى اللغة العربية كتاب «كليلة ودمنة» الذي حمله من الهند «بَرْزَويه» إبَّان حكم الملك خسرو الأول أنوشروان، كما نقل كتاب «خداي نامه» وهو يتناول سيرة ملوك فارس وعنوانه بالعربية «سيرة ملوك العجم»، وكان هذا الكتاب أحد مصادر «الشَهْنَامَهْ» التي ألفها الشاعر الفردوسي بالفارسية وضمنها تاريخ ملوك الفرس.

وألّف ابن المقفع باللغة العربية الكتب الآتية: «الدرة اليتيمة في طاعة الملوك»، و«الأدب الصغير» وهو في الأخلاق، و«الأدب الكبير»، وقد نشره أحمد زكي باشا بالقاهرة عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

ومن الكتب المترجمة التي تعزى إليه كتاب «هزار أفسانه» (أي ألف خرافة) المفقود والذي يقال إنه وجد مؤخرًا في مكتبة روسيا، كما يقال إنه وضع القصة الإطارية لكتاب «ألف ليلة وليلة» مع بعض القصص القديمة الأولى وبعض القصص التي

فيها تحليل لواجبات السلطان إزاء رعيته وواجبات الرعية إزاءه، وذلك لوجود تشابه قوي بين أسلوب ابن المقفع وما ورد في هذه الأجزاء من كتاب «ألف ليلة وليلة»، ولابن المقفع علاوة على ما تقدم عدة رسائل صغيرة، ومن نماذج أسلوبه ما قال في صحبة السلطان:

«لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم، فكن حافظًا إذا ولُّوك، وحذرًا إذا قربوك، أمينًا إذا ائتمنوك، ذليلاً إذا ضاموك، راضيًا إذا أسخطوك، تُعلِّمهم وكأنك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكأنك تتأدب منهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر، وإلا فالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر»، وفي التعزية التي بعث بها إلى أحد معارفه أنموذج آخر من أسلوبه الجزل الرصين البديع السياق، إذ يقول:

«أما بعد، فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله، هو يدبرها ويقضي منهما ما يشاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليه الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في خُلْدِ الدنيا، ووقَّت لكل شيء ميقاتَ أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن من الموت لا يرجو أن يخلِّصَه من ذلك أحد، نسأل الله خير المُنْقَلَب».

وتدل هذه العبارات في التعزية على رجل ينطوي ضميره على الإيمان الراسخ بالله وبقضائه وبالآخرة وفناء الدنيا وخلود الدار الباقية، وهذا لا يستقيم مع الزندقة التي اتهم ابن المقفع بها في قليل أو كثير، والله أعلم بما كان يضمر في قرارة وجدانه.

٢) أبو البشر بن المقفع: اللقب العربي لساويرس القبطي أسقف مدينة الأشمونيين وكان من الآخذين بمذهب المشيئة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، وقد عاصر ابن المقفع «ساويرس» البطريق القبطي «فيلوتيوس» الذي تولى البطريقية من عام ٣٦٩ إلى عام ٣٩٤هـ (٩٧٨ – ١٠٠٣م) ولا يعرف عن حياة ابن المقفع إلا أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أذن له بمناظرة القضاة المسلمين في المسائل الدينية.

وألف ابن المقفع (المصري) تاريخًا عن أعلام الكنيسة الذين جلسوا على كرسي البطريقية بالإسكندرية، ويوجد أقدم مخطوط لهذا الكتاب بمكتبة مدينة هامبورج بألمانيا الغربية تحت رقم ١٢٦٦، ويشتمل هذا المخطوط على الجزء الأول فقط الذي يبدأ بالقديس مرقس وينتهي بميخائيل الأول، أي من عام ٦١ إلى عام ٧٦٧م، أما المخطوط الموجود بمكتبة باريس تحت رقم ٣٠٣ فيتناول أخبار البطارقة من البطريق التاسع والأربعين مرقس الثاني (١٨٣ – ٢٠٤هـ) (٧٩٩ – ٨١٩م) وينتهي بالبطريق استاثيوس (٤٢٤ – ٤٣٨هـ) (١٠٣٢ – ١٠٤٩م).

ولابن المقفع «ساويرس» مصنف آخر عن المجامع الدينية الأربعة باللغات العربية والحبشية والفرنسية، وهذا المصنف عبارة عن دفاع عن مذهب المشيئة الواحدة للسيد المسيح، ولابن المقفع مخطوطات أخرى بباريس وبمكتبة الفاتيكان بروما.

١٩٦ – ابن مقلة – حارة – بقسم كرموز

اسمه الكامل أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مُقْلة، ولد ببغداد عام ٢٧٢هـ (٨٨٦م) وكان في أول أمره من عمال

الخراج في أحد أقاليم فارس، وفي ربيع الأول من عام ٣١٦هـ (٩٢٨م) استوزره الخليفة العباسي المقتدر ثم صرفه بعد عامين أي في جمادى الأولى عام ٣١٨هـ (يونية عام ٩٣٠م)؛ وذلك بسبب صداقته لمؤنس صاحب الشرطة الذي كان مكروهًا من الخليفة، وقد قبض عليه عدوه اللدود محمد بن ياقوت أمير الجيش وأشعل النار في داره ونفاه إلى فارس بعد أن ابتز منه مالاً وفيرًا، وفي عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) أعاده الخليفة القاهر إلى منصبه، وسرعان ما أخذ يدس لعدوه محمد بن ياقوت وافتضح أمره عندما شرع في التآمر على خلع الخليفة، فلم يجد مناصًا من الفرار إبقاءً على حياته، غير أنه لم يركن إلى السكينة، فأخذ يدبر دعاية واسعة النطاق لخلع القاهر وفي سبيل ذلك طاف البلاد متنكرًا يؤلب الناس عليه.

وعندما وَلي الراضي الخلافة في جمادى الأولى عام ٣٢٢هـ (إبريل ٩٣٤م) أسندت الوزارة إليه، غير أن السلطة الفعلية كانت في قبضة عدوه محمد بن ياقوت أمير الجيش، وعلى الرغم من نجاحه في العام التالي في تقويض نفوذ ابن ياقوت فإن الحملة الفاشلة التي دبرها لإحراز النصر في الموصل حيث كان حسن بن أبي الهجاء عبد الله الحمداني قد استقل بالأمر مما عجل بسقوطه، وسرعان ما قبض عليه المظفر بن ياقوت أخو محمد بن ياقوت وسجنه، وكان ذلك عام ٣٢٤هـ (٩٣٦م)، وقد أرغم الخليفة على إقرار ما حدث وعلى الأمر بطرد ابن مقلة من منصب الوزارة، وبعد أن دفع ألف ألف دينار استعاد حريته وأصبح وزيرًا للمرة الرابعة بعد عدة أعوام، ولما حاول الوقيعة بأمير الأمراء محمد بن رائق، عَلِمَ ابن رائق بما دبره له فقبض عليه في شوال عام ٣٢٦هـ (أغسطس ٩٣٧م) ومثَّل به أشنع تمثيل، وتوفي ابن مقلة سجينًا في العاشر من شوال عام ٣٢٨هـ (١٩ يوليو ٩٤٠م) عن ٥٦ عامًا، واشتهر ابن مقلة بالعلم الغزير وبأنه أحد مبدعي الخط العربي.

١٩٧- ابن مكانس - شارع - بقسم الرمل

هو فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن مكانس، ولد عام ٧٤٥هـ (١٣٤٤م)، وكان حنفي المذهب وتولى الوزارة لناظر الدولة في مصر، ثم للظاهر برقوق في الشام، ومات مسمومًا عام ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، وله ديوان شعر، وأصله من القبط وكان مولده بالقاهرة حيث دفن بعد موته، وله علاوة على ديوان الشعر كتاب بعنوان «ديوان الإنشاء».

١٩٨ - ابن مكي - حارة - بقسم الجمرك

يحمل لقب «ابن مكي» ثلاثة ممن دوَّنت المراجع التاريخية سير حياتهم، وفيما يلي ترجمة كل منهم:

١) أحمد بن يحيى بن مرزوق بن مَكي (وكنيته أبو جعفر): كان من الضُرَّاب الحاذقين المتقدمين على الآلات الموسيقية ومن الرواة المجيدين لألحان القدماء، وكان إسحاق الموصلي (انظر مادة إسحاق النديم) يؤثره ويجهر بفضله وبتفضيله على غيره من العازفين، وذكر أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني أن لأحمد بن مَكي كتابًا عنوانه «المجرد في الأغاني»، وهو من الأصول المعول عليها بعد كتاب إسحاق الموصلي.

٢) أبو الطاهر بن عوف إسماعيل بن مَكي (وكنيته الزهري): وينتهي نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابي الجليل، وقد كان شيخ المالكية بالإسكندرية دون منازع طوال القرن

السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وكان مولده سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وقال عنه السيوطي (انظر هذه المادة) إنه صدر الإسلام، تفقه على أبي بكر الطرطوشي (انظر سيدي الطرطوشي) وسمع منه، وقال أبو الحسن بن الحميري: «إنه كان إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب مالك وعليه مدار الفتوى، وجمع إلى ذلك الورع والزهد وكثرة العبادة والتواضع التام ونزاهة النفس»، ووُصِف بأنه كان من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام.

وكان بيت هذا العالم الجليل معروفًا بالإسكندرية شهيرًا بما أنجب من علماء وفقهاء ذائعي الصيت، وفي وقت من الأوقات جمع هذا البيت العتيد سبعة منهم، فكانوا إذا دخلوا على الإمام أبي علي سند بن عنان (انظر مادة القاضي سند) رحب بهم قائلاً: «أهلاً بالفقهاء السبعة»، تشبيهًا لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية.

وقد تتلمذ أبو الطاهر بن عوف بن مَكي على عدد كبير من فقهاء الإسكندرية وأخذ عنهم ولاسيما عن أبي بكر الطرطوشي، إذ كان ربيبه بسبب صلة النسب التي تجمع بين أسرتيهما بعد أن تزوج الطرطوشي من خالة أبي الطاهر.

وشهد أبو الطاهر نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين في مصر عام ٥٦٧هـ (١١٧١م).

وليس له مؤلفات كثيرة، والمعروف منها «تذكرة التذكرة في أصول الدين»، وكتاب في الرد على رجل ارتد عن الدين الإسلامي فَتَنَصَّر، وصنف كتابًا أطلق عليه اسم «الفاضح» وادعى فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قصد بقوله «ثمرة طيبة وماء طهور» ثمر الفاكهة والخمر، مع أن النبي الكريم حرَّم الخمر.

وترجع شهرة أبي الطاهر – بصفة خاصة – إلى المدرسة التي شيدت له بالإسكندرية وتولى التدريس فيها هو وابنه نفيس الدين أبو الحرم مَكي.

ففي عام ٥٣٢هـ (١١٣٧م) – أي عندما بلغ أبو الطاهر الخامسة والأربعين من عمره – أمر الخليفة الفاطمي «الحافظ لدين الله» (انظر مادة الفواطم) وزيره «رضوان بن ولخشي» ببناء هذه المدرسة التي تعتبر أول مدرسة حكومية بالإسكندرية بل في مصر كلها، إذ سبقت المدرسة السلفية باثنتي عشرة سنة، أما أول مدرسة نظامية أنشئت بالإسكندرية فهي تلك التي أعدها «الطرطوشي» (انظر مادة سيدي الطرطوشي) في الطبقة السفلى من المنزل الذي وهبته إياه زوجته الموسرة وتعلم فيها أبو الطاهر نفسه.

وفي كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشا» للقلقشندي النص الكامل للسجل الصادر من «الخليفة الحافظ لدين الله»، ويتضح من هذا السجل أن المدرسة أقيمت لتعليم الفقه وعلوم الشريعة الإسلامية، وأسند الإشراف عليها والتدريس فيها إلى الفقيه الزاهد الورع أبي الطاهر بن عوف إسماعيل بن مَكي، وأنها سميت بالمدرسة «الحافظية» وأن موقعها بشارع المحجة، وقد ذهب المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال إلى أن هذا الشارع يقع في امتداد طريق الحرية الحالي (فؤاد سابقًا) ولكن حجة الوقف التي أبرمها جدّ والدتي الأكبر الشريف محمد أغا أبو زيان في أول جمادى الثانية سنة ١١٠٣هـ، والمسجلة بمحكمة الإسكندرية الشرعية برقم ٣٥٤ متتابعة ورقم

٣٦ صحيفة من سجل الإشهادات رقم ٨٨ ، تثبت هذه الحجة أن شارع المحجة كان في نهاية شارع الميدان (محمود فهمي النقراشي حاليًّا) من جهة قسم المنشية ، ومن ثم يكون موقع المدرسة الحافظية في هذه الجهة بالذات وخصوصًا وأن طريق الحرية لم يكن من الأماكن الداخلة في حيز مدينة الإسكندرية الآهل بالسكان ، بل كان في ذلك الحين من أطراف المدينة ، وليس من المحتمل أن تُبنى المدرسة بعيدًا عن وسط المدينة ليسهل على طلابها ومدرسيها الوصول إليها دون كبير عناء .

ويدل السجل الخاص بتشييد المدرسة على أن السبب في بنائها يرجع إلى أن الخليفة «الحافظ» وجد في حيرة طالبي العلم من أهل الإسكندرية والوافدين عليها والمرابطين بها من الصالحين ، ما يبرر إقامتها لجمع شملهم ولسهولة تحصيلهم العلم بصفة دائمة منتظمة ، ويشير السجل إلى أن المدرسة بنيت لتكون– إلى جانب التدريس – مسكنًا للطلاب الذين يحصلون في الوقت ذاته على المؤنة من عيش وغلة وعلى كل ما يقوم بأودهم ويعينهم على التفرغ للدراسة ، ويتحمل كل هذه النفقات ديوان الخليفة .

وحدد السجل المواد التي تدرس بهذه المدرسة فذكر أنها «علوم الشريعة» ، وترك للفقيه أبي الطاهر– إلى جانب التدريس– الإشراف الكلي على شؤون الطلبة وتوزيع المخصصات لهم ، كما ترك له كامل الحرية في أن يقرب إليه من ارتضى طريقته وتعليمه ويبعد من ينكر فضله ويتخلف عن حلقات دروسه ، ويوصي السجل كبار موظفي الدولة في الإسكندرية بما فيهم الأمير والقاضي وكافة الحماة والمتصرفين والعمال والمستخدمين برعاية المدرسة ورعاية طلابها وإعزازهم والاهتمام والسهر على منافعهم ، وكانت الأوامر التي تصدر بتعيين المدرسين تتلى على الناس بالمسجد الجامع لإعلانها ونشر نصوصها بين المصلين جميعًا للعلم بما جاء بها من توجيهات في هذا الصدد .

والدافع القوي الذي حدا بالوزير رضوان بن ولخشي يكمن في أن هذا الوزير كان سنيًّا على الرغم من توليه الوزارة لخليفة فاطمي شيعي فأراد أن يظهر مذهبه السني بكيفية عملية ، وذلك بإنشاء المدرسة لأبي الطاهر الفقيه السني المالكي ، ومن جهة أخرى كان رضوان عظيم الثقة بأبي الطاهر يلجأ إليه في الملمات ويستشيره في المشكلات الكبرى ، فقد همَّ هذا الوزير بخلع الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد (انظر مادة الفواطم) لأنه ابن عم «الآمر بأحكام الله» ، وعين كفيلاً للطفل الذي يولد من زوجة «الآمر» التي تركها حاملاً عند اغتياله عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) بسبب قسوته وحبه سفك الدماء .

ولتنفيذ هذه الرغبة دعا الوزير رضوان «أبا الطاهر بن عوف بن مَكي» كبير الفقهاء السنيين المالكيين ، وابن أبي كامل فقيه الشيعة الإمامية ، وابن سلامة داعي الدعاة ، وكوَّن منهم مؤتمرًا للبت في أمر خلع «الحافظ» على أساس أنه لم يكن من نسل الخليفة «الآمر بأحكام الله» وإنما كان كفيلاً فقط لابنه المنتظر ، ثم استولى على الخلافة دون حق شرعي ، وانتهى هذا المؤتمر إلى الإبقاء على خلافة الحافظ لأن الأغلبية من أعضائه كانت في صف الحافظ لانتمائها إلى المذهب الشيعي .

أما كاتب الإنشاء الذي كتب السجل الخاص بالمدرسة فيرجح أن يكون أبو القاسم ابن الصيرفي كاتب الإنشاء في عهد الخليفة الفاطمي «الحافظ» وقد كتب عددًا كبيرًا من السجلات التي تذكرها المراجع التاريخية عن عهد هذا

الخليفة، وظل يتولى هذا المنصب إلى أن توفي عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م).

وتوفي العالم الجليل أبو الطاهر بن عوف إسماعيل بن مَكي عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) ودفن في الإسكندرية، وليس لمدرسته الشهيرة ولا لقبره أثر بين آثار المدينة وقبورها، وهكذا طمس النسيان والإهمال ذكرى عالم فاضل ملأ الإسكندرية علمًا وفقهًا وقضى حياته الطويلة يعلم ويؤلف ما ينفع الناس.

وبما أن مولده كان عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ووفاته عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) فيكون قد بلغ من العمر ٩٣ عامًا عندما وافته المنية.

ولقد خيل لبعض كتاب السير أن مدرسة أبي الطاهر بن عوف بن مَكي هي مدرسة أبي الطاهر السِلفي (انظر مادة السِلفي) عينها، ولكن هذا الظن لايقوم على أساس متين من الصحة، إذ إن المدرسة السِلفية أمر بإنشائها الوزير العادل بن السلاَّر عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) في عهد الخليفة «الظافر»، وسميت في أول الأمر بالمدرسة «العادلية»، ثم عرفت فيما بعد بالمدرسة السلفية، ويلاحظ أن إنشاء المدارس كان لدوافع سياسية مذهبية لمحاربة المذهب الشيعي أولاً وللدعوة للمذهب السني ثانيًا، وكان مؤسسوها في أول أمرها السلاجقة، وهم من غلاة السنيين، وكانت دولتهم راعية حركتها فأنشأت العشرات من المدارس في أرجاء الشرق الأوسط الإسلامي بوساطة الدول السنية.

ولقد شهد أبو الطاهر نهاية الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين (انظر هذه المادة) عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) كما تقدم القول، ويدل على ذلك زيارة صلاح الدين للإسكندرية عام ٥٧٧هـ (١١٨١م) وحرصه على أن يحضر صحبة أولاده وكبار رجال دولته، دروس أبي الطاهر وأن يسمعوا عليه جميعًا «مُوَطَّأ مالك» بروايته عن أستاذه «الطرطوشي»، وكان ذلك في العشرة الأخيرة من شهر شوال، وتذكر المراجع أن صلاح الدين وأولاده قد حصلوا على الخير الجزيل بتتلمذهم على عالمنا الجليل، ومن ذلك التاريخ صارت لأبي الطاهر مكانة مرموقة عند صلاح الدين، فكان يجله ويحترمه ويقدره ويوقره، وإذا اعترضته مشكلة من المشاكل الدينية أو الدولية أرسل إليه يسأله الرأي والفتوى.

ومما يذكر في هذا الصدد أخذ صلاح الدين بفتوى أبي الطاهر في جواز قضاء الأعمى، وذلك عندما أفتى باستمرار القاضي شرف الدين بن أبي عصرون في وظيفته بعد أن أصيب بالعمى في شيخوخته، كما أخذ بفتواه بإعادة فرض ضريبة «الصادر» التي كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية على أن توزع حصيلتها على فقهاء الثغر.

وتذكر المراجع التاريخية أن ابنه نفيس الدين أبو الحرم مَكي اشتغل بالتأليف، فصنف شرحا قيِّمًا على كتاب «التهذيب» لأبي سعد البرادعي ويعرف هذا الشرح «بالعوفية» ويقع في ستة وثلاثين مجلدًا، وكان هذا الابن يلقي دروسه في مدرسة أبيه، وقال ابن هلال إن نسخة كاملة من هذا الكتاب محفوظة في خزانة سلطان فاس بالمغرب الأقصى وهي بخط المؤلف نفسه، وقد أخذت في تركة بيبرس الجمدار نائب السلطنة بالإسكندرية وذلك عند عزله، ثم بيعت بالقاهرة فاشتراها قاضي القضاة الأخنائي المالكي.

وأشارت المراجع – من جهة أخرى – إلى حفيد من أحفاد أبي الطاهر بن عوف بن مَكي ووصفته بالزهد والورع، وقال المؤرخ الدمشقي أبو شابة في كتابه «الذيل على الروضتين»: «إن الشيخ الإمام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد ابن الطاهر المعروف بأبي عوف بن مَكي من ذرية عبد الرحمن ابن عوف صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام، كان من فقهاء الإسكندرية ومفتيها في مذهب مالك بن أنس»، ثم قال: «إنه وفد على دمشق لشغل عرض له، وقد وصلها يوم الثلاثاء تاسع شعبان سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وإنه اجتمع به في الغد من مجيئه بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبي عمر، وحكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، كصيام داوود عليه السلام، وأتى معه بدقيق من الإسكندرية، فلم يزل يأكل منه حتى رجع لا يتناول غيره».

هذه هي سيرة أبي الطاهر بن عوف بن مَكي وسيرة ولده وحفيده عليهم رحمة الله.

٣) محمد بن مَكي العاملي الجُزَيني: وهو أحد الشهداء الأربعة عند أهل الشيعة، وهو عندهم ممن جمعوا إلى الاشتهار بالعلم والتصنيف، الاشتهار بالاستشهاد، وهو مؤلف «اللُّمَع الدمشقية» في الفقه الشيعي، وقد خانه قوم انشقوا عليه فحبس في دمشق ثم قتل بالسيف بناءً على فتوى من القاضي الشافعي، وتقول رواية أخرى إنه أجلس على الخازوق وأحرقت جثته بناء على فتوى القاضي المالكي، وتقول معظم المصادر إن موته كان عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م).

١٩٩- ابن الملقن – زقاق – بقسم الجمرك

كان أحد أساتذة ابن حجر العسقلاني (انظر هذه المادة)، وتوفي عام ٨٠٤هـ (١٤٠١م).

٢٠٠ – ابن الملاّ – شارع – بقسم محرم بك

هو خسرو بن الملاّ، كان قاضي القضاة وشيخ الإسلام، وكان من كبار الفقهاء الأحناف، وتقول بعض الروايات التي تعرضت لسيرته أن أسرته من أصل رومي أو فرنسي، وقد نال خسرو بن الملاّ شهرة واسعة النطاق بالكتابين اللذين عكف على تأليفهما وهما: «مرقاة الوصول في علم الأصول»، و«درر الحكام في شرح غرر الأحكام»، والكتابان في أصول العبادات، وكانت وفاته خلال عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م).

٢٠١- ابن مَلِك – حارة – بقسم الجمرك

هو ابن مَلِك الفقيه الحنفي الشهير بابن فرشته، وهو مؤلف كتاب «شرح المنار في أصول الفقه» الذي ألفه الإمام أبو البركات النسفي (انظر هذه المادة)، وله كتاب آخر بعنوان «بارق الأزهار في شرح شارق الأنوار»، وتوفي ابن مَلِك عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م).

٢٠٢ – ابن ممَّاتي – حارة – بقسم محرم بك

اسمه الكامل أبو المكارم أسعد بن ممَّاتي، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، وقال ابن العماد إنه التقى به في القاهرة وكان يتولى ديوان جيش الملك الناصر وإنه هو وجماعته نصارى، فأسلموا في ابتداء عهد الملك الصلاحي، وقد ألف ابن ممَّاتي كتاب «قوانين الدواوين» أوضح فيه قواعد

الإدارة في عهد صلاح الدين، ومن جهة أخرى نظم سيرة صلاح الدين وكتاب كليلة ودمنة، ومن طريف شعره أنه رأى في دمشق رجلاً ثقيل الظلِّ فقال فيه:

حَكَى نَهْرَين ما في الأرْ
ضِ مَنْ يَحكيهما أبَدَا

حَكَى في خَلْقِهِ ثورًا
وفي أخلاقِهِ بَرَدَى

وقد ولد ابن ممَّاتي عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م)، وتوفي بمدينة سنجار خلال عام ٦١٦هـ (١٢١٩م)، في بعض الروايات، أو خلال عام ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) على حد قول بعض الروايات الأخرى.

وكان من كبار الفنانين الشعبيين الذين عبروا عن كراهية المماليك والدخلاء بالنوادر والأمثال والسخرية والزجل اللاذع النقد، فكان ممن جاهدوا في جبهتين جبهة أعداء الإسلام الخارجية وجبهة أعداء الأمة العربية والإسلامية من الممالك والسلاطين، وفي هذه الناحية ألف ابن ممَّاتي كتاب «الفاشوش» الذي ذاع صيته وتداوله لأنه يدل على كراهية المصريين لكل فاتح أو غاصب لبلادهم، ولا تقف النوادر الساخرة التي يضمها هذا الكتاب عند شخص معين وإنما تشيع الهزء من أمراء المماليك كافة، وقال ابن ممَّاتي في مقدمة الكتاب إنه وضعه ليتدارك صلاح الدين الحال وينقذ الأمة من المظالم التي أوقعها عليهم أمراء الممالك، واسم الكتاب بالكامل «الفاشوش في حكم قراقوش».

٢٠٣ - ابن المنذر - حارة - بقسم الجمرك

يطلق لقب ابن المنذر على طائفة عديدة ممن سجل التاريخ أسماءهم، وفيما يلي التعريف بهم:

١) **أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري**: كان فقيهًا عالمًا مطلعًا من طبقة الفقهاء المشهورين، وقد صنف في اختلاف العلماء كتبًا مفيدة وكانت وفاته بمكة المكرمة عام ٣١٠هـ (٩٢٢م)، ومن مؤلفاته المشهورة في اختلاف العلماء كتاب «الأشراف» وهو كتاب كبير يدل على عمق وقوفه على مذاهب الأئمة الأربعة، فجاء من أحسن المصنفات وأنفعها في هذا المضمار، وله أيضا كتاب «المبسوط» وهو أكبر من كتاب «الأشراف»، ويتناول موضوع اختلاف العلماء، وألف علاوة على هذين الكتابين كتابًا صغيرًا أسماه «الإجماع».

٢) **أربعة من أمراء بني غسَّان**: ويذكر المؤرخون حكم اثنين منهم هما: «ابن المنذر الثالث» الذي انتصر على ابن المنذر أبي قابوس (انظر مادة أبي قابوس)، وقد دام حكمه من عام ٥٦٩ إلى عام ٥٨٠م، و«ابن المنذر الرابع»، وقد مات عام ٦٣٠م (أي سنة ٩هـ).

٣) **ويذكر المؤرخون خمسة من بني لخم المناذرة، وهم**: «المنذر الأول» وقد حكم من عام ٤٣١ إلى ٤٧٣م، وابن النعمان المنذر الأول، و«المنذر الثاني» ودام حكمه من ٤٩٣ إلى ٥٠٠م، وابن المنذر الأول، و«المنذر الثالث»، وهو من أشهر ملوك بني لخم، وقد حكم من ٥١٤ الى ٥٥٤م، وحارب الروم مرارًا وغنم منهم الغنائم الضخمة وهو زوج هند الكبرى أم عمرو الثالث اللخمي الذي قتل يوم حليمة،

و«المنذر الرابع» وقد دام حكمه من ٥٧٣ الى ٥٨٠م، ثم ابن قابوس بن المنذر الثالث وعلى أيامه أحرق الغساسنة الحيرة وكان هذا الحريق خلال عام ٥٨٠م، و«المنذر الخامس»، وقد حكم من ٦٢٨ الى ٦٣٢ وهو ابن النعمان الثالث أبي قابوس.

وما من شك في أنه لم يكن المقصود في تسمية الشارع الذي نحن بصدده أحد هؤلاء المناذرة ولاسيما أن للنعمان بن المنذر شارعًا بقسم محرم بك يشترك في تسميته القائد العربي المشهور حسان بن النعمان فاتح المغرب العربي (انظر مادة النعمان).

ويقيني هو أن الذين أطلقوا اسم ابن المنذر على الشارع كانوا يقصدون أحد اثنين من مشاهير العرب أحدهما من صحابة رسول الله والثاني كان صاحب خيل الناصر بن قلاوون (انظر مادة ابن قلاوون)، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

أ) **الحباب بن المنذر**: كان من أبطال غزوة بدر (انظر هذه المادة) التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة، وكان إخوانه الأنصار يطلقون عليه لقب «صاحب الرأي»، وذلك بعد أن أشار على رسول الله عليه الصلاة والسلام باختيار المكان المناسب الذي يقام به معسكر الجيش الإسلامي، وبعد أن دارت معركة بدر كان ابن المنذر محاربًا لا يشق له غبار.

وفي غزوة السويق التي حدثت في ذي الحجة من السنة الثانية الهجرية أي بعد ثلاثة أشهر من معركة بدر، كان ابن المنذر من أوائل الذين أسرعوا إلى الاشتراك في الغزوة مع النبي الكريم.

وفي غزوة «أُحُد» تسلم من رسول الله أحد ألوية ثلاثة، وكان هذا اللواء هو لواء الخزرج، وبذلك كان الحباب بن المنذر على رأس قومه.

وتفصيل حكاية اللقب الذي أسنده المسلمون إلى ابن المنذر وهو «صاحب الرأي» يتلخص في أنه عندما خرج المسلمون إلى معركة بدر رأى النبي الكريم إقامة معسكر جنوده عند أقرب آبار المياه إليهم، ولكن ابن المنذر قال: يا رسول الله، أمنزلاً أنزلكم الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، فردّ الرسول: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال ابن المنذر: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، امضِ بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه، ثم نغور ما وراءهم من الآبار، ثم نبني عليها حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

لحظتها... نظر النبي إلى الحباب بن المنذر وقال له: لقد أشرت بالرأي وسرعان ما انتقل جيش المسلمين من موقعه الأول إلى الموقع الثاني الذي أشار به «ذو الرأي»، وفي الصباح فوجئ المشركون بأن المسلمين تقدموا وحجزوا المياه عنهم، واستفزهم ما حدث فتقدم أحدهم وهو الأسود بن عبد الأسد صائحًا: أُعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ولأموتن دونه، وكان الهجوم على المياه هو بداية المعركة التي دارت وقاتل فيها «ذو الرأي» ببسالة حتى النصر، ثم قاتل ابن المنذر بالشجاعة نفسها والإقدام الباسل في معركة أُحُد التي كانت من أخطر معارك الإسلام، فقد كاد المسلمون أن ينهزموا فيها وأصيب فيها رسول الله ببعض الجروح.

وتوفي الحباب بن المنذر في خلافة عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب) بعد أن شهد المشاهد كلها مع رسول الله.

ب) أبو بكر بن المنذر: وكان صاحب خيل الناصر بن قلاوون وكبير الأطباء البيطريين لديه، وقد صنف كتاب «كامل الصناعتين البيطرة والزرطقة»، ويدعى هذا الكتاب أيضًا «الناصري» نسبة إلى السلطان الناصر، وقام بترجمته إلى الفرنسية المستشرق «بيرون Perron»، ويشتمل الكتاب على معلومات كثيرة عن الجواد العربي وتربيته، وتربية الخيول ويصف ما كان السلطان الناصر يبذله من جهود في تربية الخيل بمصر، ويحتوي الكتاب – من جهة أخرى – على مقتطفات عديدة من أقوال الشعراء في الخيل.

ويعتبر هذا الكتاب نقطة البداية في دراسة جديدة لموضوع الخيل ولاسيما أنه أول كتاب جمع المعلومات المشتتة المتعلقة بالخيل.

ويلقب أبو بكر بن المنذر «بالنصيري»، ويسمى كتابه باسم آخر هو «كاشف الويل في معركة أمراض الخيل»، وتوفي ابن المنذر عام ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) بالقاهرة.

٢٠٤– ابن منصور – حارة – بقسم كرموز

هو يعقوب بن منصور كان منجّم الخليفة العباسي المأمون، وقد تتلمذ في تحصيل علومه على الفضل ابن سهل وألّف كتاب «الزيج المأموني المغرب أو الممتحن» ووافته المنية عندما كان المأمون يتولى الحملة على طرطوس عام ٢١٥هـ (٨٣٠م)، وكان ابن منصور في ركابه.

٢٠٥– ابن منظور – حارة – بقسم كرموز

اسمه الكامل جمال الدين أبو الفضل محمد بن مُكرّم الخزرجي الإفريقي، ولد عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م)، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها، وشغل وظيفة بديوان الإنشاء بالقاهرة وأكب على التأليف فصنف مئات من المجلدات أهمها، وأشهرها صيتًا القاموس المعروف باسم «لسان العرب» وهو موسوعة جامعة في اللغة، والتفسير، والحديث، والأدب، وقد جمع في هذا المؤلف الضخم بين تهذيب الأزهري ومعجم ابن سيده، وقاموس الصحاح، وجمهرة ابن دريد (انظر هذه المادة) ونهاية ابن الأثير (انظر هذه المادة) وقد طبع «لسان العرب» بالقاهرة ببولاق في الفترة بين عامي ١٢٩٩، ١٣٠٨هـ (١٨٨١ – ١٨٩٠م) في عشرين مجلدًا، وكان ابن منظور مشغوفًا باختصار الكتب فاختصر مفردات ابن البيطار، وتاريخ دمشق لابن عساكر (انظر هذه المادة) وتاريخ بغداد للسمعاني، وكان إلى جانب نواحيه العلمية شاعرًا ولكن مقلاً، ومن شعره قوله:

بالله إن جُزتَ بوادي الأراكْ

وقبّلت أغصانه الخضر فاكْ

ابعث إلى المملوك من بعضه

فإنني والله مالي سواكْ

وكانت وفاة ابن منظور في سنة ٧١١هـ (١٣١١م)، ومن مؤلفاته المشهورة في علم الطبيعة كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس».

٢٠٦ – ابن منقذ – شارع – بقسم مينا البصل
٢٠٧ – ابن منقذ – شارع – بقسم الرمل

هو أسامة بن مرشد الكناني بن منقذ، ولد بشيزر الواقعة شمالي مدينة حماة على نهر العاصي بسوريا عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، ولم يبق من مدينة شيزر إلاّ الأطلال، وقد فتحها أبو عبيدة عام ١٧هـ (٦٣٨م) وصدت حصونها المنيعة هجمات الصليبيين زمنًا طويلاً، وكان ابن منقذ فارسًا وأديبًا وصيَّادًا عربيًّا ظهرت بطولته عندما هدد الصليبيون الشرق العربي منذ قرابة تسعة قرون، وقضى ابن منقذ معظم شبابه في بلاط نور الدين بدمشق، وفي بلاط الخليفة الفاطمي بالقاهرة، ثم عاش سني كهولته في الموصل وفي حصن «كيفا» على نهر دجلة بالعراق وزار بيت المقدس وفلسطين وحجَّ إلى بيت الله الحرام وصاحب بعض ملوك الإسلام وآخى الصليبيين وقت السلم وقاتلهم وقت الحرب كما قاتل غيرهم من الإسماعيلية العرب ودوَّن كل خبراته في مذكرات شيقة يسودها التواضع والصدق ضمنها كتابه «الاعتبار» الذي يُعد من أحسن السير الذاتية التي ألفها الكتّاب والمفكرون العرب، وفي هذا الكتاب القيم تبرز شخصية أسامة النبيلة في وضوح جليٍّ وقوة متينة، ويقول الرواة إنه أخذ في تدوينه – أو في إملائه – عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) أي عند بلوغه التسعين من عمره وكان يعيش آنذاك في كنف البطل صلاح الدين الأيوبي بدمشق (انظر مادة صلاح الدين).

وكان والد ابن منقذ أمير مدينة شيزر الآنفة الذكر واشترك ابن منقذ في صباه في المعارك التي دارت لصد الغارات المتكررة عليها، ثم التحق بجيش ابن زنكي (انظر هذه المادة) أتابك الموصل وقضى ببلاط النوريين بدمشق المدة الواقعة بين عامي ٥٣٢ و٥٣٩هـ (١١٣٨ – ١١٤٤م)، وبعد أن قطع حقبة من الزمن ببلاط الفاطميين عاد إلى دمشق وظلَّ بها خلال المدة الواقعة بين عامي ٥٤٩ –٥٦٠هـ (١١٥٤ – ١١٦٤م)، ثم حج وأقام فترة من الزمن بحصن كيفا ورجع أخيرًا إلى دمشق ليقضي بقية حياته في رعاية صلاح الدين.

وقد عني ابن منقذ في المراحل الأولى من حياته بالقتال وقرض الشعر، وفي أواخر أيامه عني بالتأليف فصنّف – علاوة على كتابه «الاعتبار» – ما لا يقل عن ثلاثة عشر كتابًا ذكرت أسماؤها في المؤلفات العربية التي تعرضت لسيرته ومنها ديوان شعره في جزأين يضمان ما نظم من قصائد في الغزل والفخر والوصف، وقد ترجم كتابه «الاعتبار» إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية، ومن كتبه التي ذكرها المؤلفون: كتاب «لباب الآداب»، وكتاب «البديع في البديع»، وكتاب «الشيب والشباب»، و«ذيل يتيمة الدهر».

وكتاب «الاعتبار» يُعَدُّ موجزًا لتاريخ البلاد العربية في القرن الثاني عشر الميلادي وهو القرن الذي اتسم بالحروب الصليبية الأولى، ويمتاز الكتاب فوق ذلك بدقة الوصف لحملات تلك الحروب، فهو يفصل كيف دارت المعارك الحربية التي لم تستخدم فيها إلاّ السيوف والسكاكين ويوضح استيلاء العرب على الحصون من الإفرنج بما يجعل القارئ على وعي تام بكل الحوادث كأنه يراها عن كثب.

ولم يكن ابن منقذ فارسًا وكاتبًا فحسب بل كان صيَّادًا ماهرًا للوحوش والطيور، ومن ثمّ استطاع أن يصف طباع الأسد والكلب وغيرهما من الحيوانات الأليفة والمفترسة، فهو

إذا تعرض لوصف الأسد قال: «إنه مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه، وفيه غفلة وبله ما لم يجرح فحينئذ هو الأسد وذلك الوقت يخشى بأسه، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلابد له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها ولو أن النيران في طريقه»، «وأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسود لخفتها وبعد وثبتها، وهي تدخل المغارات والمحاجر كما تدخل الضباع، والأسود ما تكون إلاّ في الغابات والآجام».

ومن جهة أخرى يتعرض ابن منقذ للإفرنج ويتناول عاداتهم وأخلاقهم بالشرح، وذلك لأنه عرفهم وخبرهم، فيقول إنهم يجهلون الجراحة وإن كانوا مهرة في صناعة الأدوية، ثم يذكر أن تقاليدهم لم تتغير منذ عدة قرون، ويدلل على ذلك بما شاهده فيهم من التراخي في النخوة التي يجب أن يتحلى بها الرجال إذ يترك الرجل منهم زوجته تتحدث إلى رجل آخر فإذا طال حديثهما منفردين تركهما الزوج ومضى، ولكنه مع ذلك يصفهم بالشجاعة والبسالة.

وقد بلغ ابن منقذ من العمر عتيًّا، ويقول في كتابه إنه جاوز التسعين فانكسرت نفسه وتحسر على أمسه ثم يعبر عن فلسفته في هذه الحياة الطويلة الأمد فيقول: «إنه لو صفت القلوب من كدر الذنوب وفوَّضت إلى عالم الغيوب علمت أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب، فالعمر موقت مقدر لا يتقدم أجله ولا يتأخر، فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ويؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود، وضربت بالسيف وطعنت بالسهام، وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين». . . ثم يعقّب على طول عمره بما نظم من شعر فيضيف أنه كما قال:

مَعَ الثَّمَانِينَ عَاثَ الدَّهْرُ في جَلَدي
وَسَاءني ضَعْفُ رِجْلي واضْطِرَابُ يَدِي

إِذَا كَتَبْتُ فَخَطِّي جِدّ مُضَّطَرِبٍ
كَخَطِّ مُرْتَعِشِ الكَفَّيْنِ مُرْتَعِدِ

فَاعْجَبْ لِضَعْفِ يَدِي عَنْ حَمْلِهَا قَلمِي
مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنَا فِي لبَّةِ الأَسَدِ

وَإِنْ مَشَيْتُ وَفِي كَفي العَصَا ثَقُلَتْ
رِجْلِي كَأَنِّي أَخُوضُ الوَحْلَ في الجلد

فَقُلْ لِمَنْ يَتَمَنَّى طُولَ مُدّته
هَذِي عَوَاقِبُ طُولِ العُمْرِ والمَدَدِ

وفي مساء يوم الاثنين الموافق ٢٣ من رمضان عام ٥٨٤هـ (١٥ من ديسمبر عام ١١٨٨م) وهو العام الذي استرد فيه السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين توفي ابن منقذ بالغًا من العمر ٩٣ عامًا ميلاديًّا ودفن في سفح جبل قاسيون، وقد اندثر أثر هذا القبر وأقيمت فوق مكانه المباني الحديثة بدمشق.

٢٠٨ – ابن الموصلي – شارع – بقسم الرمل

كان من علماء الفقه ومن الأدباء وتوفي عام ٧٧٤هـ (١٣٧٢م).

٢٠٩ – ابن ميكائيل – شارع – بقسم محرم بك

كان من أمراء الدولة الرسولية في اليمن، وكان يلقب بملك الأمراء وتوفي عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م).

٢١٠ – ابن ميمون – شارع (طريق قناة السويس حاليًّا)

واسم ابن الميمون الكامل هو أبو عمران موسى بن ميمون ابن عبد الله القرطبي الأندلسي الإسرائيلي، وهذا الاسم هو الذي عُرِف به ميمونيدس في اللغة العربية كما عُرِف به كذلك في تاريخ لاهوت اليهود وفلسفتهم ولُقِّب في المصنفات العربية بلقب رئيس الملة اليهودية.

وقد ولد ابن ميمون في ٣٠ من مارس عام ١١٣٥م (٥٣٠هـ) بمدينة قرطبة، ودرس على أبيه العلوم الدينية ودرس على علماء المسلمين العلوم العربية، ولما سقطت قرطبة في أيدي الموحدين (انظر هذه المادة) وخُيِّرَ اليهود والنصارى بين اعتناق الإسلام أو الهجرة من المدينة، نزح ابن ميمون عن قرطبة، وبعد أن استقر بعض الوقت في فاس، ذهب إلى فلسطين عام ٥٦١هـ (١١٦٥م)، وبعد أن أقام زمنًا بعكا وبيت المقدس استقر بالفسطاط، وتعلم مهنة الطب واكتسب فيها شهرة جعلته محل ثقة صلاح الدين الأيوبي فصار طبيبه الخاص وطبيب ولده من بعده.

وكتب ابن ميمون كل مؤلفاته باللغة العربية إلا واحدًا منها، وأكب على دراسة كتبه في الفلسفة والطب علماء المسلمين واليهود على السواء، وقد أثرت مؤلفاته تأثيرًا كبيرًا بترجمتها اللاتينية في فلاسفة العصور الوسطى أمثال ألبرت الأكبر ودينز سكوت، وأهم مصنفاته كتاب «دلالة الحائرين»، الذي به تستطيع النفوس الحائرة بين العقل والوحي أن تصل إلى حالة من الطمأنينة الروحية وأنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض بين الوحي وأصول الإلهيات، كما قررها أرسطاليس ومن بعده الفارابي وابن سينا (انظر هذه المواد).

وصادف كتابه «دلالة الحائرين» إعجابًا من بعض الناس وإنكارًا شديدًا من البعض الآخر، إذ بدا لهؤلاء أن آراءه حرة مسرفة في الحرية وأطلقوا على الكتاب عنوان «ضلالة الحائرين»، ومن مؤلفاته الأخرى الفلسفية «مقالة في صناعة المنطق».

ومن مؤلفاته الطبية كتب تبحث في عدة أغراض، وقد استقى في هذه المؤلفات من كتب الرازي وابن سينا وابن زهر (انظر هذه المواد) وابن وافد، ونسج في فصوله الطبية المعروفة باسم «فصول موسى»، على منوال فصول أبقراط (انظر هذه المادة، ومادة هيبوقراط).

ولابن ميمون أثر عميق في الأدب اليهودي، إذ شرح كتاب «المشنَّة» الذي سمي بعد ذلك «بالسراج»، و«مشنة توراة»، الذي كان هو أول من جمع السنة التلمودية كلها على كثرتها وتشعبها.

ويروي كل من ابن القفطي وابن أبي أصيبعة أن ابن ميمون اعتنق الإسلام وجهر به عندما كان بالأندلس في

حين أنه كان يبطن اليهودية، ولكن هذه الرواية لا تقوم على أساس صحيح، والدليل على ذلك أنه حينما اشتد الجدل الذي قام حول كتابه «دلالة الحائرين» لم يقل أحد خصومه ونقاده إنه اعتنق الإسلام، ومات ابن ميمون في الثالث عشر من ديسمبر عام ١٢٠٤م (٦٠١هـ) ونقل جثمانه إلى طبرية بفلسطين وفاقًا لوصيته.

أما ترجمة الاسم الجديد للشارع فانظرها في (طريق قناة السويس).

ومن المفيد أن أذكر في هذا المقام أن بالإسكندرية أسرة تونسية الأصل يحمل أفرادها لقب ابن ميمون وكان أحدهم كبير مترجمي المحكمة المختلطة بالإسكندرية ومن مؤسسي جماعة نشر الثقافة التي تألفت عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) وكنت أتولى أمانة صندوقها، ومن ثم كنت زميلاً للأستاذ ابن ميمون في هذه الجماعة الثقافية التي أسهم هو في نهضتها الأدبية مدة طويلة قبل انتقاله نهائيًّا إلى القاهرة حيث وافته المنية في أوائل عام ١٩٦٦م (١٣٨٦هـ).

٢١١- ابن الناصر - حارة - بقسم الجمرك

هو المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر، وهو والد ولاّدة التي كانت من أشهر شاعرات الأندلس، وقد أحبها الشاعر ابن زيدون (انظر هذه المادة)، وقد كتبت بالذهب على طراز ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشي مشيتي وأتيه تيْها

وأُمكن عاشقي من لثم خدّي

وأُعطي قبلتي من يشتهيها

ومع ذلك فقد كانت مشهورة بالعفة والطهر، وفيها أنشد ابن زيدون أروع قصائده، وكانت ولاّدة شاعرة جزلة القول رقيقة العبارة والتعبير، وكانت تساجل الشعراء، وتناضل الأدباء، وعمرت طويلاً وماتت عذراء عام ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) وكان مجلسها في قرطبة منتدى الأدباء والشعراء، ومن ثمّ فهي تعد من رائدات أدب «الصالونات» التي كانت سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة الرائدتين الأوليين له، ولم تظهر بعد ولادة ممن اشتهرن بأدب «الصالونات» وكان لهن الفضل في تنقية اللغة من الألفاظ النابية غير مدام دي رامبوييه الفرنسية التي كان منتداها بجمع كبار عصرها من الأدباء والشعراء.

وللاستفادة من المعلومات الخاصة بابن الناصر، ارجع إلى البحث الخاص بكلمة «المستكفي».

٢١٢- ابن نافع - حارة - بقسم محرم بك

يعرف بلقب «ابن نافع» اثنان من عظماء العرب الذين جاء ذكرهم في تاريخ الأمة العربية وهما:

١) **عقبة بن نافع الفهري**: الذي يعد من أقدر قواد العرب في فجر الإسلام وهو ابن أخت عمرو بن العاص (انظر هذه المادة) فقد أسهم بنصيب مرموق في الفتوحات التي قام بها خاله الذي كان يثق في شجاعته وقوة إيمانه بدينه وشدة حماسه لنصرة الإسلام وهو من أفاضل التابعين يتخذ من الفتوحات وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية في البلاد التي تخضع للعرب، وكان

على معرفة بأحوال البلاد المغربية وبظروف الحرب في أنحائها، وكان عمرو بن العاص قد عهد إليه بقيادة حملة عسكرية لفتح منطقة فزان في جنوب تونس فأخضعها للحكم الإسلامي، ثم توغل في الجهات الجنوبية حتى بلغ الواحات الداخلية في جوف الصحراء، ثم ولاه عمرو على إفريقية عقب عودته إلى مصر بعد مصالحة أهل برقة وموافقتهم على الجزية عام ٢١هـ (٦٤١م)، وأقام عقبة بتلك البلاد سنوات عدة ثم ظل واليًا على برقة إلى أن عهد إليه الخليفة معاوية بن أبي سفيان بقيادة جيش إفريقية وأمره بالسير لفتح بلاد المغرب عام ٤٩هـ (٦٦٩م)، ولم يتوان عقبة في تنفيذ الأمر فهاجم منطقة فزان وفتحها واستولى على مدينة غداس على الحدود الجزائرية واتخذ قُوَيْنَة معسكرًا له فكانت مركزًا استراتيجيًّا هامًّا بعيدًا عن متناول الأسطول البوزنطي، ونقطة التقاء الطرق الممتدة نحو الشرق والغرب والجنوب، وشيد ابن نافع مدينة القيروان عام ٥٠هـ (٦٧٠م) وبنى بها دارًا للإمارة وأقام المسجد الكبير وشيد حوله منازل ومنشآت لجيشه، ولقد كان لتشييد مدينة القيروان أثر حميد في نهضة الفكر الإسلامي على مر القرون الماضية، وسرعان ما اتسع نطاقها وأقام الناس في أرجائها المساكن والمساجد ووفد عليها عدد كبير من البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وكان ذلك خطوة أولى في سبيل تعريب البربر المغاربة، وكان ابن نافع يرسل طوال الفترة التي قضاها في حكم إفريقية فصائل من جنوده لمهاجمة بعض المناطق والعودة منها محملين بالغنائم الوفيرة وقد دانت لحكمه في تلك الفترة فزان وزويلة وغداس وقعضة وكوار ودوان، ولم يستمر عقبة بن نافع على حكم البلاد التي فتحها طويلاً، ففي عام ٥٥هـ (٦٧٤م) استعمل معاوية على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد وعزل ابن نافع إثر الوشاية التي افتراها ضده ابن مخلد (انظر هذه المادة) الذي عين أبا المهاجر دينارًا واليًا على إفريقية، ولم يتورع أبو المهاجر عن إهانة عقبة بن نافع ليرضي مولاه ابن مخلد، وعاد ابن نافع إلى الحكم في عهد يزيد بن معاوية عام ٦٢هـ (٦٨١م) وهو أشد إيمانًا وأقوى عزمًا على الفتح من المرة الأولى، وعند وصوله إلى القيروان خطب الناس قائلاً: «إني قد بعت نفسي من الله عز وجل على من كفر به حتى أقتل فيه وألحق به، ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله»، وبعد أن قبض على أبي المهاجر الذي أهانه وكبله بالحديد ترك زهير بن قيس على القيروان وخرج في غزوته الكبرى فتوغل صوب الغرب وأنزل الهزيمة بكسيلة بن لمزمر أمير بربر البرانس وزحف على المغرب الأقصى فاتحًا في طريقه حصون الروم وحصون ملوك البربر بالزاب وتاهرت، وناصرته قبائل زناته التي دانت للعرب بالولاء منذ أن دخلت قبائل مغراوة في الإسلام، فقويت عزيمته وأثخن قتالاً في القبائل الأخرى وأشرف في فتوحاته على المحيط الأطلنطي وعندما وصل إلى ساحله اندفع بحصانه حتى وصل الماء إلى ركابه ثم شهر سيفه وقال: «اللهم فاشهد أني لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيًا في سبيلك».

ولكنه قرر العودة إلى إفريقية (تونس) دون أن يخضع قبائل جبال أوراس أو يستولي على المدن الساحلية الخاضعة للبوزنطيين وذلك عندما جاءته أخبار مقلقلة من القيروان، وفي طريق عودته أمر بتسريح معظم رجال جيشه وأبقى فصيلة من فرسانه الأقوياء قدر عددهم بخمسة آلاف مقاتل، وأراد أن يجعل من مدينة «تهودة» قاعدة حربية لقواته في جبال أوراس، وفي هذه الأثناء استطاع كسيلة في اعتقاله أن يتصل بالبوزنطيين وبالقبائل الموالية له وحثهم على قتال العرب فتألبوا

على ابن نافع في جموع بلغ عددها خمسين ألف رجل فسقط شهيدًا هو ورفاقه في سبيل الله والعروبة عام ٦٤هـ (٦٨٣م)، ومازال المسجد الذي يضم قبره في هذه البقعة الشريفة من القطر الجزائري محل تقديس الناس يجمعون إليه ويتلون على روح صاحبه الصلوات.

ويذكر المؤرخون حادثًا وقع أثناء هذه المعركة الفدائية التي تدل على البطولة العربية النادرة وتخبّر عن الحماس المتأجج في نفوس الفاتحين والرغبة القوية في الاستشهاد والتضحية بالنفوس في سبيل نصرة العروبة والإسلام.

وتفصيل هذا الحادث يتركز في أن عقبة بن نافع شعر بدنو أجله عندما أحدق به البربر فلم يتردد لحظة في التقدم آملاً في الاستشهاد وتأججت شعلة الحماسة في نفوس أصحابه، وكان أبو المهاجر مازال مكبلاً بالحديد فأراد أن ينال شرف الاستشهاد في سبيل الله فترنم ببيت من الشعر قائلاً:

كفَى حزَنًا أن ترتدي الخَيْلُ بالقَنَا

وأُترك مَشْدودًا عليَّ وِثاقِيهْ

فما إن سمع عقبة هذا البيت حتى أمر بحل قيده وأمره بأن يلحق بالمسلمين ليقوم بأمرهم وأن يتركه هو ليغتنم الشهادة، ولكن أبا المهاجر لم يبرح ميدان القتال وصاح: إني أريد الشهادة أيضًا، وكان له ما أراد واستشهد في ساحة الوغي.

وفي الجزء الشمالي من جبال عمور جبل يحمل اسم «جبل سيدي عقبة»، ارتفاعه ١٧٠٧ من الأمتار.

٢) **أبوالحسن علي بن نافع**: الذي عرفه التاريخ باسم زرياب وهو لقب أطلق عليه لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيهًا له بطائر غريد أسود يدعى بهذا الاسم وإن كانت معاجم اللغة تدل على أن «الزرياب» هو الذهب أو ماؤه معرب عن الفارسية، وقد ولد ابن نافع عام ١٦٠هـ (٧٧٧م) على وجه التقريب وعتقه الخليفة المهدي وهو في فجر صباه وعاصر بعد ذلك الهادي وهارون الرشيد وقد غنى بين يديه، وقد أهلت البيئة التي نشأ فيها ابن نافع لاستيعاب فنون الموسيقى والغناء والشعر وألوان مختلفة من فروع المعرفة إلى جانب إجادته الرواية والمسامرة مما جعله من أحسن الندماء في موطن كان في عصر محط الأبهة والترف في أزهى عصور الدولة العباسية ذلك العصر الذي كان متعة الراغبين في اللهو وملاذ الحياة كما كان موضع نقد علماء الدين وبغضهم، وكانت بغداد مركز كل ذلك على ما فيه من تناقض وتباين.

وقد أخذ ابن نافع فن الغناء والموسيقى بصفة خاصة عن أستاذيه إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، ولا يعرف عن نشأته وطفولته وصباه شيء؛ ولذا نجده وهو في أوج نضوجه عند هارون الرشيد يستدعيه ويمتحنه فيرى فيه الفصاحة وسرعة الخاطر ثم يسأله عن الغناء فيقول: «أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه مما لا يحسنونه ولا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك»، ولقد كتم علمه الخاص بالغناء على أستاذه إسحق الموصلي وهو الذي أوصله إلى المثول بين يدي الرشيد، ومن ثم دب الحسد في قلب إسحق من ناحيته وأمر ابن نافع بالرحيل عن بغداد أو يأمر بقتله، فرحل عنها مكرهًا ويأخذ في ابتكار أوتار العود وفي ابتكار الألحان، وسافر ابن نافع زرياب إلى القيروان بالبلاد التونسية مارًّا بالشام ومصر، وحل بها في أيام دولة الأغالبة فذاع صيته ولاسيما في عهد زيادة الله حفيد إبراهيم

ابن الأغلب (انظر هذه المادة) فصار بمدينة القيروان حيّ بأسره يطلق عليه «الحي الزريابي» وصار إمام الفنيين وتتلمذ عليه مؤنس وغيره، وعاش في القيروان عيشة رغدة هو وأهله، وفي يوم تغنى لدى زيادة الله يمدح السواد في شعر عنترة فغضب الملك وصب عليه جام غضبه وأمر بضربه وإبعاده عن البلاد، فهاجر إلى قرطبة بالأندلس في عهد الحكم الشاعر ووصل إليها في مستهل عهد عبد الرحمن الأوسط عام ٢٠٦هـ (٨٢١م) الذي رتب له راتبًا شهريًّا قدره مائتا دينار ولكل ولد من أولاده الأربعة راتبًا قدره عشرون دينارًا، وصار نديم عبد الرحمن ومسامره، ومن أعماله الفنية «زيادة أوتار العود إلى خمسة عوضًا عن أربعة، ونقل إلى الأندلس فنون الشرق في الغناء والعزف، كما نقل الآلات الموسيقية المختلفة، وكان له بعض التأثير على الفن الغنائي الأوروبي في العصور الوسطى، ويقول بعض المستشرقين إن الطروبادور الذين كانوا يعتمدون على الموسيقى فيما يقدمون من شعر لدى أصحاب القصور والمترفين يتسم شعرهم الغنائي بالموشحات الأندلسية التي غنى ابن نافع زرياب عددًا كبيرًا منها.

وزيادة ابن نافع «زرياب» وترًا خامسًا على العود يرجع إلى أن العود القديم كان من أربعة أوتار عند القدماء ومن ثم كان عاجزًا عن إصدار أنغام كثيرة فسدَّ الوتر الخامس في عود «زرياب» هذا النقص، فأكسبه ألطف معنى وأكمل فائدة، كما يقول معاصروه.

ومن جهة أخرى اشتهر «زرياب»، بأنه سن القواعد ووضع القوانين التي تتبع في التنسيق والتجميل كما تفنن في الارتداء بالملابس وفاقًا لفصول السنة؛ وذلك ليكون كل ملبس متفقًا مع الزمن الذي يليق به، وقد أخذ أهل الأندلس بما أشار به في هذا الصدد، فكانت الملابس البيضاء تلبس من أول شهر يونية ولمدة ثلاثة أشهر متتالية، وتلبس الملابس الملونة طوال أشهر السنة الأخرى، وأشار بأن تلبس خلال الفصل الذي بين الحر والبرد جباب الخزَّ والملح والدراريع التي لا بطائن لها.

وتوفي أبو الحسن بن نافع «زرياب» في حوالي عام ٢٣٨هـ (٨٥٢م).

٢١٣ – ابن نُباتة – حارة – بقسم العطارين

يطلق لقب ابن نباتة على اثنين من مفكري العرب ينتميان إلى أسرة سورية وثالث من شعراء مصر، وهم:

١) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الحذاقي الفارقي (الملقب بابن نُباتة): ولد ببلدة ميافارقين بالشام عام ٣٣٥هـ (٩٤٦م) وكان مؤدبًا ببلاط سيف الدولة في حلب، وله خطب أغلبها قصيرة حسنة الأسلوب مسجوعة السياق تناول فيها موضوعات لها علاقة بالأخلاق الدينية مع الإشارة إلى الحوادث المعاصرة له، وقد جمعت هذه الخطب عام ٦٢٩هـ (١٢٢٣م) مع خطب لابنه أبي طاهر محمد المتوفى عام ٣٩٠هـ (٩٩٩م) وأخرى لحفيده أبي الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠هـ (١٠٢٩م)، وقد طبعت هذه الخطب جميعها بالقاهرة خمس طبعات كان آخرها في عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) كما طبعت في بيروت عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وهو أحد أجداد ابن نُباتة المصري المدونة ترجمته فيما بعد الأقدمين.

وتوفي عبد الرحيم بن نُباتة صاحب هذه الترجمة بمسقط رأسه بميافارقين عام ٣٧٤هـ (٩٨٤م).

٢) أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نُباتة السعدي التميمي: وهو أحد فحول الشعراء المجيدين العراقيين، توفي عام ٤٠٥هـ (١٠١٤م)، ومن شعره:

وكَمْ مِنْ خَليلٍ قد تمنيتُ قُربَه
فَجَرَّبْتُهُ حَتَّى تَمَنَّيْتُ بعدَه

وَمَا لِلْفَتَى فِي حَادِثِ الدَّهْرِ حِيلةٌ
إِذا نَحْسُهُ فِي الأَمْرِ قابَلَ سعدَه

أَرَى هِمَمَ المرءِ اكْتِئَابًا وحَسْرةً
عَلَيه إذا لم يُسعِدِ الله جَدَّه

٣) محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي الحسن ابن صالح بن علي بن يحيى بن ظاهر بن الخطيب بن يحيى ابن عبد الرحيم بن نُباتة (ويلقب بابن نباتة المصري): وجاء في بعض المصادر التي تعرضت لسيرته أنه من سلالة عبد الرحيم ابن نُباتة المدونة ترجمته قبل، وأنه ولد ببلدة ميافارقين بالشام في شهر ربيع الأول عام ٦٨٦هـ (إبريل عام ١٢٨٧م)، وعاش بعد عام ٧١٦هـ (١٣١٦م) بدمشق، وبعد التنقل بينها وبين مدينة حماة لزيارة الأمير الأيوبي العالم أبي الفداء انتقل خلال عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) إلى القاهرة.

أما ابن نُباتة المصري نفسه فقد كتب إلى صلاح الدين الصفدي في مستهل شهر شعبان سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) وكان قد كلفه بأن يخبره برواية مصنفاته وآثاره الأدبية، كتب يقول: «فأما مولدي فبمصر المحروسة في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة بمنزلنا بزقاق القناديل»، ومن ذلك يتضح الخلاف في مكان مولده فقط، غير أن ما كتبه بخطه أولى بأن يعتمد عليه في تحديد موطن ولادته.

وقد كان زقاق القناديل الذي ذكر ابن نُباتة المصري أنه مسقط رأسه مقام أشراف الناس في ذلك العهد، فهو إذن قد نشأ في بيت نعمة وشب في أسرة هانئة تتمتع بشيء من نعيم الحياة ورغدها.

أما أبوه فكان من شيوخ الحديث في دمشق، وكنيته شمس الدين بن نُباتة، وقد ولد هو الآخر بمصر عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) وتولى دار الحديث النورية وتوفي عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) عن حوالي ٨٢ عامًا.

ومن هذا السرد يتضح أن شاعرنا قد نشأ في بيت علم وأدب وأن أسرته تتحلى بالطارف والتليد منهما وقد صدق في وصف ذلك إذ يقول:

وَرِثْتُ اللَّفْظَ عَنْ سَلَفي وَأَكْرِمْ
بِآلِ نُبَاتَةَ الغُرِّ السَّرَاةِ

فَلاَ عَجَبٌ لِلَفْظي حِيْنَ يَحْلُو
فَهَذَا القَطْرُ مِنْ ذاكَ النَباتِ

وشب ابن نُباتة ونما في هذا الجو العلمي الأدبي، ولما أتم دراسته الأولى سما إلى الدراسة العليا فأتقن تعلم الحديث واللغة والأدب وعلوم الدين.

وإذا أخذنا بأنه ولد بالقاهرة فإن مولده يكون في عهد الملك المنصور قلاوون (انظر مادة ابن قلاوون)، وأنه أدرك عهد السلطان الناصر محمد (انظر هذه المادة) ومات في عهد

السلطان الأشرف شعبان (انظر مادة الأشرف) وهي عهود كانت كثيرة الفتن انقسم فيها الأمراء بعضهم على بعض وكان لكل أمير فريق يناصره وينافح دونه، ونفثت الدسائس بين المماليك وكثرت مصادرة أموال رجال الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم، ويدلنا التاريخ على أن ذلك العصر كان كثير الأحداث المزعجة فكان هناك الاضطراب الداخلي والفزع من هجوم التتار على مصر واستحكام ربقة المجاعة على رقاب الناس مما اضطرهم إلى أكل ما لا يؤكل من صنوف الحيوان، ولقد أثرت هذه الأحداث الكئيبة في نفس ابن نباتة فعاش حياته شديد الخوف محبًّا للسلام والدعة ليس في شعره ما يدل على قوة النفس وصلابة العزيمة والاعتزاز بالرأي أو الجنوح إلى الهجاء لأن فيه مخاطرة، وإذا عاتب فإنما يعاتب في لين ورفق فيأتي العتاب وكأنه المديح الصرف كقوله:

لَئِنْ ضَاعَ مِثْلِي عِنْدَ مِثْلِكَ إِنَّنِي
لَعَمْرُ المَعَالِي عِنْدَ غَيْرِكَ أَضْيَعُ

مَتَى تَنْجَعُ الشَّكْوَى إِذَا أَنَا لمْ أَجِدْ
لَدَيْكَ اعْتِناءً غَيْرَ أَنَّكَ تَسْمَعُ

وَمَا كَانَ صَعْبًا لَوْ مَنَنْتَ بِلَفْظَةٍ
تَرُدُّ بها عني الخُطُوبَ وتَرْدَعُ

فالاستكانة والاستسلام ظاهران في هذا الشعر وفي أشعاره الأخرى، ومن ثمَّ فمن المستطاع القول بأن شعر ابن نُباتة لا يعطي صورة واضحة للحياة في عصره بسبب هذا الاستسلام وتلك الاستكانة، وبسبب أنه كان مقلدًا يسير على سنن الأقدمين في الغزل والمديح ولا يهتم إلا بنفسه وبأسرته، ومن هذه الناحية كان يمثل العطف والحنان في أرقى مراتبه.

وقد نشأ ابن نُباتة في أزهى أيام الأدب في عهد المماليك، فعاصر كثيرًا من رجال الأدب واللغة وخالط كبار الكتاب والفقهاء والمحدِّثين والعلماء؛ ولذا نجده قد استطاع الحصول على قسط وافر من الأدب والعلم في نشأته وشبابه، وساعد على نموّ نبوغه شيوع العلم والتعليم في زمانه وقوة المعارف في أفراد أسرته وقد أظهر كل ذلك ما منحه الله من عبقرية.

ولانطواء نفسه على الاستسلام والاستكانة لم يقدر على بلوغ مكافحة غيره لنيل الأماني، على الرغم مما فيه من مواهب كانت تسوغ له البروز والرياسة وقد وصف نفسه القابعة بقوله:

قَلَّ عَوْني عَلَى الزَّمَانِ فَأَصْبَحْتُ
صَبُورًا عَلَى مُرادِ الزَّمانِ

حَابِسَ اللَّفْظِ واليَرَاعِ عَنِ الناسِ
فَلاَ مِنْ يَدِي وَلاَ مِنْ لساني

ولقد كان على شيء من الثراء في شبابه فأسرف وبذَّر وخاض المجون فضيَّع ماله وصار في حاجة إلى الاستجداء بشعره، وضاقت به مصر على كثرة خيراتها فغادرها إلى الشام في طلب الرزق عام ٧١٥هـ (١٣١٥م) يجرُّ وراءه أولاده الكثر، وهناك يلتحق بالملك المؤيد صاحب حماه ويصبح شاعره ثم يتصل بالمنصور بن الأفضل ويعينه شهاب الدين بن فضل بعد ذلك بديوان الإنشاء بدمشق.

ولم ينل من متاع الدنيا حظًّا كبيرًا ولذا يفزع إلى الزهد في شيخوخته وبؤسه يتلمس فيه الراحة النفسية ويرجع إلى الله فرارًا من ويلات الدنيا فيقول في صراحة المغلوب على أمره:

مَنَعَتْني الدُّنْيا جَنًى فَتَزَهَّدْ
تُ ولكِنْ تَزَهُّدَ المَغْلُوبِ

وَوَهَتْ قُوَّتي فأعْرَضْتُ كُرْهًا
عَنْ لِقاءِ المكروهِ والمحبوبِ

ومن أروع قصائده في الزهد وشكوى الزمان وما لاقاه من بؤس وهموم وتجاهل لقدره – وقد نظمها على غرار أبي العلاء المعري – قوله:

عِفْتُ الإِقَامَةَ فِي الدُّنْيَا لَو انْشَرَحَتْ
حَالِي فَكَيْفَ وَمَا حَظِّي سِوَى النَّكَدِ

إلى أن يقول:

لا عَارَ فِي أَدَبِي إِنْ لَم يَنَلْ رُتَبًا
وإنَّما العَارُ في دَهْرِي وفي بَلَدِي

هَذَا كَلاَمِي وَذَا حَظِّي فَيَا عَجَبًا
مِنِّي لِثرْوَةِ لَفْظٍ وافتقارِ يَدِ

أمَّا الهُمومُ فَبَحْرٌ خُضْتُ زاخِرَهُ
أَمَا تَرَى فَوْقَ رأسي فائِضَ الزَّبَدِ؟

وعشتُ بين بَني الأَيَّامِ مُنْفَرِدًا
ورُبَّ مَنْفَعَةٍ في عَيْشِ مُنْفَرِدِ

ومن أبرز صفاته العطف على أسرته وأهله ومن يتصل به، فهو أب رحيم وزوج كريم، وقد مات له ولد فرثاه بقصيدة تفيض بالتوجع والأسى فيقول:

اللهُ جارُكَ إنَّ دَمْعي جاري
يا مُوحِشَ الأَوْطانَ والأَوْطارِ

لَمَّا سَكَنْتَ مِنَ التُّرابِ حَدِيقةً
فاضَتْ عَلَيْكَ العَيْنُ بالأنهارِ

شَتَّانَ حَالِي وحَالُكَ، أنتَ في
غُرَفِ الجِنَانِ، وَمُهْجَتِي فِي النَّارِ

وحق لابن نُباتة أن يتوجع لفراق ابنه فقد دفن ستة عشر ولدًا، كما يقول الصفدي: «كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسًا أو ستًّا أو سبعًا يتوفاه الله».

وكان دائم الحنين إلى مصر شديد الهيام بالرجوع إلى نيلها والتزود بهوائها وشمسها المشرقة فيقول:

بِأَبِي الخُدُودُ العَارِيَات مِنَ البُكَا
اللاَّبِسَاتُ مِنَ الحَرِيرِ جَلابِبَا

النَّابِتَاتُ بِأَرْضِ مِصْرَ أزاهِرًا
وَالزَّاهِرَاتُ بِأَرْضِ مِصْرَ كَوَاكِبَا

آهًا لِمِصْرَ وَأَرْضِ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي
بِدِيَار مِصْرَ مَرَاتِعًا وَمَلاَعِبَا

حَيْثُ الشَّبِيبَةُ وَالحَبِيبَةُ وَالوَفَا
فِي الأَقْرَبِينَ مَشَارِبًا وَأَصَاحِبَا

وَالدَّهْرُ سلم كَيْفَمَا حَاوَلْته
لاَ مِثْل دَهْرِي فِي دِمَشْقَ مُحَارِبَا

ولم يزل يعاوده الحنين إلى وادي النيل حتى عاد إليه وقد أدركته الشيخوخة والوهن وقد تجاوز السبعين وذلك عندما دعاه السلطان الناصر حسن ليتولى ديوان الإنشاء، وقد صار أمين سر هذا السلطان عام ٧٥٧هـ (١٣٥٦م)، ومن سوء حظه أن مات السلطان الناصر حسن بعد عام من استدعائه ومن ثم صار يتقاضى مرتبه في غير نظام، وفي عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) أدركته المنية بالغًا من العمر حوالي ثمانين عامًا.

ويذهب الكثيرون من مؤرخي السير إلى أن ابن نُباتة كان أشعر شعراء عصره وحامل لواء الفن الجديد بمصر والشام، والحق أنه بلغ الغاية في إجادة التورية حتى أصبح العلم المفرد فيها، مثال ذلك قوله:

وَضَعْتُ سِلاحَ الصَّبْرِ عَنْهُ فَمَا لَهُ
يُقاتِلُ بِالأَلْحاظِ مَنْ لا يُقاتِلُهْ!

وَسَالَ عِذَارٌ فَوْقَ خَدَّيْهِ جَائِرٌ
عَلَى مُهْجَتي فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

ولابن نُباتة شعر كثير في الغزل ومما أحسن في هذا الباب قوله:

صَحَا القَلْبُ لَوْلاَ نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ
ولَمْعَةُ بَرْقٍ بالفَضَا تَتَسَعَّرُ

وذِكْرُ جَبِينِ البَابِلِيَّةِ إذْ بَدَا
هَلالُ الدّجَى والشيء بالشيء يُذْكَرُ

سَقَا اللهُ أُكْنَافَ الفَضَا سَائِلَ الحَيَا
وإنْ كُنْتُ أُسْقَى أَدْمُعًا تَتَحَدَّرُ

وهذه الأبيات ديباجة لقصيدة نظمها في مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وبجانب براعته في الشعر كان ابن نُباتة كاتبًا مجيدًا، وتمتاز كتابته بالسهولة والابتعاد عن التعقيد اللفظي، وقد سلك سبيل البديع في غير إفراط فجاء نثره حسن الأسلوب ينطوي على الرونق الفني في الصياغة، ومن نثره على لسان القلم يفتخر على السيف:

«أتفاخرني وأنا للوصول وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضرب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، أعلى مثلي يَشُقُّ القول ويرفع الصوت والصول، وأنا ذو اللفظ المكين وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: (أو مَنْ يُنَشَّا في الحِلْية وهو في الخصام غير مبين)، فقد تعديت حَدَّكَ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك».

وأشهر مصنفاته: ديوان شعر كبير مرتب على حروف الهجاء، وقد طبع بالإسكندرية ثم بالقاهرة عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) وتوجد منه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم ١٠٨٦، وكتاب حافل في الأدب عنوانه «مَطْلع الفوائد ومجمع الفرائد»، وكتاب آخر بعنوان «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» وهو من أحسن مؤلفاته إذ يدل على سعة اطلاعه في اللغة والأدب وتاريخ العرب.

وإلى جانب كل هذه المواهب الفكرية الناضجة كان ابن نُباتة من أشهر ناظمي الموشحات الأندلسية الغنائية التي نقلها مسلمو الأندلس إلى الشرق عن طريق التجار ثم عن طريق هجرتهم إلى المغرب العربي وإلى الشرق بعد سقوط الدويلات الإسلامية في إسبانيا .

٢١٤ – ابن النبيه – شارع – بقسم محرم بك

هو أبو الحسن علي بن محمد الشهير بابن النبيه المصري صاحب الشعر الرقيق والغزل البديع ، كان من خدّام بني أيوب ملوك الشام والجزيرة من أقارب صلاح الدين ، واختص منهم بالملك الأشرف موسى الملقب بشاه أرمن ، وتوفي بنصيبين من مدن الجزيرة عام ٦١٩هـ (١٢٢٢م) .

وقال يتغزل من قصيدة ترنمت بكلماتها كوكب الشرق السيدة أم كلثوم وهي من تلحين الشيخ أبي العلا محمد:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعا
ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه
حلوًا فقد جهل المحبة وادّعى

يأيها الوجه الجميل تدارك الصـ
بر الجميل فقد عفا وتضعضعا

هل في فؤادك رحمة لميتم
ضمّت جوانحه فؤادًا موجعا

هل من سبيل أن أبثّ صبابتي
أو أشتكي بلواي أو أتوجعا؟

إني لأستحيي كما عوّدتني
بسوى رضاك إليك أن أتشفّعا

وقال أيضًا:

باكر صبوحك أهْنا العين باكره
فقد ترنّم فوق الغصن طائره

والليل تجري الدراري في مجرّته
كالروض تطفو على نهر أزاهره

وكوكب الصبح نجّاب على يده
محلّق تملأ الدنيا بشائره

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنمًا
وأنت ناه لهذا الدهر آمره

فالعمر كالكاس تُستحلى أوائله
لكنه ربما مرّت أواخره

وقال:

أمانًا أيها القمر المطلُّ
فمن جفنيْك أسيافٌ تسلّ

وقد غنت هذه القصيدة أيضًا السيدة أم كلثوم من تلحين الشيخ أبي العلا محمد .

٢١٥- ابن النجار - شارع - بقسم الرمل

اسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن النجار محب الدين البغدادي ، ولد عام ٥٥٨هـ (١١٦٢م) وكان مؤرخًا وفقيهًا تتلمذ على يد ابن الجوزي ، ورحل إلى الشام ، ومصر ، وتعلم في بغداد وله كتب منها «ذيل تاريخ بغداد» استدرك فيه على أبي بكر الخطيب ، والكمال في معرفة الرجال .

وتوفي ببغداد عام ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) .

٢١٦- ابن النحاس - حارة - بقسم مينا البصل

يحمل كنية «ابن النحاس» أربعة من مفكري العرب وشعرائهم ممن ذكرهم التاريخ وهم:

١) أبو جعفر أحمد بن النحاس المصري: كان علمًا مبرزًا في اللغة والآداب وفقه القرآن الكريم ، وقد أخذ العلم عن الزجاج والأخفش الأصغر وابن الأنباري (انظر مادة الأخفش) وتولى تدريس هذه العلوم بالقاهرة ، وكان إلى جانب ذلك شاعرًا يجيد علم العروض إلى أبعد حد .

ويقال إنه كان جالسًا – ذات يوم – على درج مقياس النيل في سنة لم يزد فيها فيضانه كالمعتاد ، وكان الناس في شدة من أمرهم ، وكان أبو جعفر إذ ذلك يقطع تفعيلات بيت من الشعر ، فمر به اثنان فسمعاه يلفظ كلمات غير مفهومة المعنى فتوهما أنه يمارس السحر ليمنع النيل من الفيضان فدفعاه إلى النهر فغرق .

وفي رواية أخرى أنه كان يجلس ذات يوم عند مقياس النيل يتلو ما أنشد من شعر ومازال يتلو حتى أصابه الجنون فألقى بنفسه في النهر زاعمًا أنه يمنع فيضانه فغرق .

ويستخلص من هاتين الروايتين أنه مات غرقًا في عام ٣٤٠هـ (٩٥٠م) ، وله مؤلفات في اللغة والآداب وفقه القرآن وقصائد كثيرة في شتى ألوان الشعر .

٢) أبو جعفر بن محمد بن النحاس: كان أحد علماء النحو وهو مؤلف كتاب «التفاحة» في مختصر قواعد النحو وأصوله ، وكان من أكابر النحاة المصريين ، وقد نشر الأستاذ «كوركيس عوَّاد» كتاب التفاحة عن نسخة فريدة مصورة بالمجمع العلمي العراقي ببغداد .

وتوفي أبو جعفر محمد بن النحاس عام ٣٨٨هـ (٩٩٨م) .

٣) فتح الله بن النحاس: وكان أحد فحول الأدب في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد عرف بين شعراء عصره برقة النظم وجزالة النثر وانسجام الألفاظ حتى قيل إنه لم يكن يوازيه أحد في أسلوبه الفني ، ويقول المحبّي في كتابه خلاصة الأثر ، وهو يصف فتح الله بن النحاس: «إنه كان في حداثة سنه من أحسن الناس منظرًا وأبهاهم صباحة ورشاقة ، وكان أبناء «الغرام» يقدرونه وهو يعرض عنهم ويجافيهم حتى تبدلت محاسنه فعطف عليهم يستمد ودادهم ، وكانت النفوس قد أنفت منه فرحته في زاوية الهجران ، ثم اندمج في أهل الكيف وتزيًّا بزي الزهاد» ، ومن هذا الوصف يتضح أن حياة هذا الشاعر كانت قصة تتضمن السعادة والشقاء ، فقد كانت صباحته ورشاقته وجمال وجهه من العوامل التي جعلت الماجنين في مدينة حلب

(انظر هذه المادة) والميالين للشذوذ الجنسي يطاردونه، فنفر منهم وآثر العزلة فضايقوه ثم أحس بألم الحرمان من المجتمعات التي تزخر بالمباهج الدنيوية فرأى – بعد أن استكمل رجولته أن يوثق علاقاته بهم ولكنهم أعرضوا عنه – وقد استولى الحب على قلبه هو أيضًا ولكنه أخفق في حبه فارتمى بكليته في أحضان الحياة الماجنة لتبديد شجونه وهمومه وأقبل على إدمان المخدرات فتعاطى الحشيش والأفيون، ثم غادر حلب بعد أن هجره حبيبه ورحل إلى دمشق فلقي فيها كل حفاوة ثم سافر إلى القاهرة وذهب منها إلى الحجاز حيث اعتكف في المدينة المنورة وزاول حياة التبتل والزهد إلى أن وافته المنية عام ١٠٥٢هـ (١٦٤٣م) ودفن في بُقيع الفرقد.

ولا يعرف تاريخ ومكان ميلاده لاستطاعة تحديد عمره وقت وفاته، وما من شك في أن الاسم الذي وضع على الحارة بقسم مينا البصل ليس «لفتح الله بن النحاس» صاحب هذه السيرة الخليعة، وإن كان من فحول الشعراء، وأنه إمّا يعني «أبا جعفر أحمد بن النحاس عالم اللغة والآداب وفقه القرآن الكريم». أو يعني «أبا جعفر بن محمد بن النحاس» عالم النحو المصري صاحب كتاب «التفاحة»، وحبذا لو استكمل الاسم بألقاب أحد هذين العالمين الجليلين لإبعاد الشبهة عن هذه الحارة لاحتمال انتساب اسمها إلى فتح الله بن النحاس الذي له ديوان شعر طبع بالقاهرة عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) وله سيرة غير حميدة لا تستحق تخليد اسمه.

٤) **بهاء الدين بن النحاس**: ولد بمدينة حلب ٦٢٧هـ (١٢٢٩م)، وتوفي بالقاهرة عام ٦٩٨هـ ١٢٩٨م) بالغا من العمر حوالي ٧٢ عامًا، وكان عالمًا وشاعرًا مجيدًا، وكان يلقَّب بحجة العرب في تبحره في علوم اللغة العربية، كما كانت له معرفة رحبة الأفق بعلم المنطق، ويشهد له مؤرخو سيرته بالتدين الصادق والأخلاق الحميدة، ومن شعره الدال على سلوكه القويم قوله:

إنِّي تَرَكْتُ لَدَى الوَرَى دُنْيَاهُمُ
وَظَلَلْتُ أَنْتَظِرُ المَمَاتَ وَأَرْقُبُ

وَقَطَعْتُ فِي الدُّنْيَا العَلاَئِقَ لَيْسَ لِي
وَلَدٌ يَمُوتُ وَلاَ عَقَارٌ يُخْرَبُ

وقد راسله ابن الخياط (انظر هذه المادة)، إذ كان أحد تلاميذه بالمراسلات وعلى الأخص في علوم اللغة ومنها العروض على الأخص، وكانت بينهما مراسلات بالشعر فيها تناول الأوزان الشعرية ودقائق الفنون العروضية.

٢١٧- ابن النديم – شارع – بقسم الرمل (فاسية سابقًا)

يذكر المؤرخون اثنين يلقبان «بابن النديم»، وهما:

١) **أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن (المعروف بابن النديم الموصلي)**: وهو ابن إبراهيم الموصلي (انظر هذه المادة)، ولد عام ١٥٠هـ (٧٦٧م)، وكان من ندماء الخلفاء العباسيين وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما، على حين أنه كان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الناس وأنباء الشعراء، وقد روى عنه مصعب بن عبد الله الزبيري والزبير بن بكار وغيرهما، وكان متبحرًا في الحديث والفقه وعلم الكلام، وكان يناظر الفقهاء والعلماء والشعراء وأهل الكلام فيتفوق عليهم في كل مجلس . وكان

يبغي أن يكون في زمرة أهل العلم والأدب ولكن فن الغناء والموسيقى غلب عليه وعرفه به.

وذكره ابن باطش الموصلي في كتابه «التمييز والفصل»: «بأنه كان مليحًا في المحاورة والنادرة طريفًا فاضلاً، كتب الحديث عن سفيان بن عينية ومالك بن أنس (انظر مادة الإمام مالك) وهشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير، وأخذ الأدب عن الأصمعي (انظر هذه المادة)، وعن أبي عبيدة، وبرع في فن الغناء فغلب عليه ونسب إليه.

وكان الخلفاء يكرمونه ويقرِّبونه، وكان المأمون (انظر هذه المادة) يقول: «لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة، ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه، مع أن الغناء أصغرها عنده ولم يكن له فيه نظير».

وكان إسحاق النديم شاعرًا مجيدًا وله ديوان شعر، ومما كتبه إلى الخليفة هارون الرشيد شعرًا:

وَآمِرَةٍ بِالبُخْلِ قُلْتُ لَهَا اقْصِرِي
فَلَيْسَ إِلَى مَا تَأْمُرِينَ سَبِيلُ

أَرَى النَّاسَ خِلاَّنَ الجَوَادِ وَلاَ أَرَى
بَخِيلاً لَهُ فِي العَالَمِينَ خَلِيلُ

وَإِنِّي رَأَيْتُ البُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ
فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ

ومِنْ خَيْرِ حَالاَتِ الفَتَى لَوْ عَلِمْتُهُ
إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ نَبِيلُ

عَطَائِي عَطَاءُ المُكْثِرِينَ تَكَرُّمًا
وَمَالِي كَمَا تَعْلَمِينَ قَلِيلُ

وَكَيْفَ أَخَافُ الفَقْرَ أَوْ أُحْرَمُ الغِنَى
وَرَأْيُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ جَمِيلُ

وكان كثير الكتب فجمع منها أكثر من ألف كتاب من لغات العرب وكلها من سماعه، أما في الغناء فقد قال الخليفة المعتصم العباسي (انظر هذه المادة) عنه: «ما غنَّاني إسحق بن إبراهيم قط إلاَّ خُيِّلَ لي أنه قد زيد في ملكي».

وقد فقد إسحاق النديم بصره في أواخر أيامه وعلى وجه التدقيق قبل وفاته بعامين، وكانت وفاته بعلة الزَّرَب (الدوسنتاريا) في شهر شوال عام ٢٣٦هـ (٨٥٠ م) بالغًا من العمر حوالي ٨٤ عامًا.

ورثاه كثير من الشعراء ومن بينهم أحد أصدقائه الذي قال:

أَصْبَحَ اللَّهْوُ تَحْتَ عَفْرِ التُّرَابِ
ثَاوِيًا فِي مَحِلَّةِ الأَحْبَابِ

إِذَا مَضَى المَوْصِليُّ وَانْقَرَضَ
الأُنْسُ وَمُجَّتْ مَشاهِدُ الإِطْرَابِ

بَكَتِ المُلْهِياتُ حُزْنًا عَلَيْهِ
وَبَكى الهَوَى وَصَفْوُ الشَّرَابِ

وَبَكَتْ آلَةُ المَجَالِسِ حَتَّى
رَحِمَ العُودُ عَبْرَةَ المِضْرابِ

وكان إسحق بن النديم أستاذًا لأبي الحسن بن نافع الملقب بزرياب الذي تلقى أصول فن الغناء على إبراهيم الموصلي والد إسحق ثم استزاد من هذا الفن على يدي إسحق.

ومن الأوصاف والسجايا التي يضفيها المؤرخون على إسحق بن النديم أنه كان ذا قدم ثابتة في سائر العلوم والآداب حتى ليعجز الوصف عن تحديد مكانته من النبوغ فيها، فقد برع في العلم والفقه والشعر والأدب، وكان نديمًا جمَّ الظرف، حلو الشمائل وجليسًا لطيف المعاشرة رقيق الحاشية وراوية لأخبار القدامى والمحدثين على السواء، وكان مغنيًا متجرًا في فن الغناء وعازفًا ماهرًا وملحنًا بارعًا.

ولم يكن في فن الغناء مرتجلاً لأنه تناول هذا الفن بالارتكاز على أسس فنية متينة فوضع له القواعد والأصول وضبط الأوزان، وأحكم الأجناس والمقامات وتصرف بها تصرفًا يشهد بالدقة والعمق وحسن التنسيق فصار الغناء في عصره يعتمد على الأصول المحكمة والقواعد المدعمة، كما وضع التدوين الموسيقي للألحان فكان يتبادل ألحان الأغاني مع إبراهيم بن المهدي عن طريق مجرد كتابة نصوص الشعر ووصف اللحن وإذ ذاك يكون في الإمكان غناؤه تلقائيًّا قبل سماعه.

وكان إسحق من أمهر العازفين على العود حتى لقد عزف في مجلس الخليفة الواثق العباسي على عود فاسد التسوية، إذ كان من المتبع ألاَّ تصلح الأوتار في مجالس الملوك، فلم يزل يعزف على هذا العود حتى قال الواثق: «لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به».

ومن شعر ابن النديم الموصلي في الوصف الوجداني لساعة الوداع قوله:

وَلَمَّا رَأَيْنَ البَيْنَ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تَبينَ الرَّكَائِبُ

دَنَوْنَا فَسَلَّمْنَا سَلاَمًا مُخَالِسًا
فَرَدَّتْ عَلَيْنَا أَعْيُنٌ وَحَوَاجِبُ

تَصُدُّ بِلاَ بُغْضٍ، وَتُخْلِصُ لَمْحةً
إِذَا غَفَلَتْ عَنَّا العُيُونُ الرَّوَاقِبُ

نُذَادُ إِذَا حُمْنَا لِنَشْفِيَ غُلَّةً
كَمَا ذِيدَ عَنْ وِرْدِ الحِيَاضِ الغَرَائِبُ

وفي هذه الأبيات من الرقة وعذوبة الجرس ما يجعلها جديرة بأن تلحن وتغنى في وقتنا الحاضر لتعوض شيئًا مما فقده الغناء القديم الجزل من اعتبار في آذان أبناء الجيل الحديث الذين تشجيهم تلك الألحان السمجة التي لا تدل على المعاني السامية الخلابة أو الذوق السليم في الاستماع، وابن النديم الموصلي هو إسحق النديم.

٢) **ابن النديم**: المعروف بالورَّاق، ولد ببغداد في حوالي عام ٣٢٥هـ (٩٣٦م) وكان على مذهب المعتزلة، وكان يحترف مهنة الكتب التي كان يطلق عليها اسم «الوراق» في ذلك الحين.

وهو صاحب كتاب «الفهرست» الذي هو عبارة عن فهرس العلوم القديمة وتصانيف اليونان والفرس والهنود التي كانت موجودة في عهده ومترجمة إلى اللغة العربية.

ويدل هذا الكتاب على أن ابن النديم الورَّاق كان يحيط في دقة بالغة فائقة بكل ما يرى أو يقرأ أو يسمع.

وكتاب الفهرست مقسم إلى عشر مقالات في عشرة أنواع من ألوان الثقافة الإسلامية وهي: اللغات، والكتب المقدسة، وعلوم القرآن، والنحو واللغة، والأخبار والأنساب، والشعر، وعلم الكلام، والفقه والحديث، والفلسفة والعلوم القديمة، والأسماء والخرافات، والسحر، والمذاهب والاعتقادات، وأخيرًا الكيمياء.

وكل مقال من مقالاته مقسم إلى عدة فنون يذكر المؤلف فيها أسماء الكتب وأخبار مؤلفيها على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم كالنحاة، والرواة المسترسلين، والمغنين، والمتكلمين، والفقهاء، والمتطببين، والمشعوذين، والمصورين، والكميائيين وغيرهم.

ومن ثمَّ فالفهرست يعطي صورة واضحة للحصيلة العلمية الضخمة التي كانت بين أيدي طلاب العلم بديار الإسلام منذ منتصف القرن الرابع الهجري.

وتوفي ابن النديم الوراق عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م) بمدينة بغداد بالغًا من العمر حوالي ٦٠ عامًا.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في كلمة «فاسييه».

٢١٨- ابن نصر - شارع - بقسم باب شرقي

هو أحد ملوك بني نصر وهم سلالة إسلامية ملكت غرناطة، وجنوب إسبانيا في المدة من عام ٦٢٩هـ (١٢٣١م) إلى عام ٨٩٧هـ (١٤٩١م)، وأول أمراء هذه الأسرة الأندلسية هو أبو عبد الله محمد الملقب بالغالب، وآخرهم، أبو عبد الله محمد الثالث عشر الملقب بالزُّغَل، وأشهرهم أبو الحجاج يوسف الأول، أول من شيد قصر الحمراء الشهير (انظر هذه المادة) وابن نصر صاحب الترجمة أحد ملوك هذه الأسرة وكانت وفاته عام ٧٠١هـ (١٣٠١م).

وبنو نصر يدعون في التاريخ ببني الأحمر.

وابن نصر هو الليث بن المظفر بن نصر، أحد تلاميذ الخليل بن أحمد المشهورين، ومن بينهم سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل (انظر مواد الخليل بن أحمد، وسيبويه، والأصمعي، وابن شميل)، وقد تلقى ابن نصر على يد الخليل ابن أحمد علم العروض، وفقه اللغة العربية، وعلم النحو والحديث، وتوفي بالبصرة في العراق، ولا يعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته.

٢١٩ – ابن نصير – حارة – بقسم محرم بك

هو موسى بن نصير اللخمي، أحد قواد العرب المسلمين الأبطال ومن أشهر رجالهم الحربيين الذين أسهموا في الفتح العربي الكبير ويقترن اسمه بفتح بلاد الأندلس.

وقد عاش والده في الحيرة واسمه بالكامل نصير أبو موسى ابن نصير، وكان من أنصار الفرس فوقع أسيرًا في معركة «عين التمر» التي انتصر فيها جيش خالد بن الوليد، ويقول الطبري إن نصير ينتسب إلى بني يشكر ومن ثمَّ فلم يكن من لخم وهذا القول يعارض ما ذكره ابن قتيبة (انظر هذه المادة) في كتابه «المعارف» من أن موسى بن نصير «لخمي»، وعلى كل حال فقد عاش نصير أبو موسى في كنف المسلمين، ولما رأى فضائل الدين الإسلامي وروحه السمحة ترك ما كان عليه من العقيدة وأعلن إسلامه وأظهر من المواقف العظيمة في الدفاع عن الإسلام ما استرعى انتباه خالد بن الوليد فقربه إليه وجعله من رجاله الأحرار.

ومرت الأيام على نصير وهو مقيم في وادي القرى – بين المدينة المنورة والشام– يشارك خالدًا وصحابته في ندواتهم وغزواتهم الحربية، وفي عام ١٩هـ (٦٤٠م) رزق بولد أسماه «موسى»، وكان ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فنشأ الطفل وسط ذلك العهد العمري وتخلق بأخلاقه، وينتمي موسى بالأرومة إلى أسرة عربية عريقة تنتسب إلى قبيلة بكر بن وائل الربيعية المنتشرة في أرض الحيرة غربي نهر الفرات قبل الإسلام، وسمع في صباه سيرة خالد بن الوليد وانتصاراته، وقد توفي خالد بعد عامين من ميلاد موسى، وفي شبابه وجد بالمدينة – طوال عهد الخلفاء الراشدين الأربعة – دراسات علمية قيمة كان لها أعمق الأثر في ثقافته ووقوفه على الكثير من سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولاسيما خططه الحربية وغزواته، وقد روى الحديث النبوي عن تميم الداري (انظر مادة تميم) وبلغ درجة عالية من العلم ورواية الأحاديث، حتى صار مصدرًا ينقل عنه نفر من التابعين، فخلد اسمه في تتابع الإسناد المتعلق برواية الحديث الشريف، وتدل سيرة حياته في شبابه على أنه كان من التقاة الورعين وأنه كان يشترك في الندوات والمناقشات الدينية والفقهية وقد أجاد النثر ونظم الشعر وأصبح على دراية كبيرة بعلوم الشريعة.

وتأثر في حياته الحربية بما علم من سيرة قواد العرب الأولين الذين كان لهم الفضل الأكبر في الفتوحات العظيمة التي حققها العرب في صدر الإسلام، أمثال خالد ابن الوليد وأبو عبيدة الجراح (انظر هاتين المادتين) وقد فتحا الشام، وسعد بن أبي وقاص (انظر مادة ابن أبي وقاص) فاتح العراق وفارس، وعمرو بن العاص (انظر هذه المادة) فاتح فلسطين ومصر، ومن ثمَّ كان على خبرة تامة بأساليب الحرب ومكايدها، علاوة على ما كان له من خبرة واسعة النطاق في القدرة على إعداد الجنود بعد انتقائهم من سليمي الأجسام ذوي اللياقة البدنية والقدرة على استخدام الأسلحة المعروفة في ذلك الحين، ويضاف إلى ذلك البعد عن محاباة أي فريق من الجنود لانتمائه إلى قبيلة ذات نفوذ أو لأمير ذي سلطان.

واستهل حياته الحربية العملية باشتراكه في الغارات البحرية على الروم وهي الغارات التي أمر بإجرائها معاوية بن أبي سفيان (انظر مادة معاوية)، فصار موسى في عهده أحد أمراء البحار الذين أسهموا في الهجوم على قواعد الروم البحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط.

وتقول بعض الروايات إن فرصة اتصاله بمعاوية عقب استتباب الأمر وتوليه الخلافه بعد مقتل الإمام علي ابن أبي طالب ترجع إلى الظروف التي هيأها له والده «نصير» ، إذ كان قائد حرس معاوية ، فنال موسى شرف قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو جزيرة قبرص ، وكان معاوية قد فتحها عام ٢٧هـ (٦٤٧م) فنجح موسى في غزوها وبنى فيها حصونًا منها «حصن لماغوصه» ، و«حصن بانس» ، وقد استعمله معاوية نائبًا عليها من قبله ، وفي عام ٥٣هـ (٦٧٣م) كان موسى أحد القواد الذين أقدموا على غزو جزيرة «رودس» وقد انتصر المسلمون في هذه الغزوة .

ولما مات معاوية ومات والده نصير تطلع إلى الاشتراك في الخلاف بين الحسين بن علي بن أبي طالب ويزيد بن معاوية بسبب الخلافة ، ولكن مقتل الحسين وموت يزيد بن معاوية بعده أديا إلى تفرق الدولة الإسلامية شيعًا وأحزابًا ، وازداد التفرق والانقسام خطورة بموت معاوية بن يزيد ، ثم انتهى الأمر إلى مبايعة أهل الشام لمروان بن الحكم ، وبعد حيرة مضنية استولت على نفس موسى ، قرر الانضمام إلى أنصار ابن الزبير مضحيًا بصداقته لعبد العزيز بن مروان ، وأخذ مكانه في صفوف المقاتلين بقيادة الضحاك في «مرج راهط» بالقرب من دمشق .

وفي شهر المحرم عام ٦٥هـ (٦٨٤م) دار القتال بين المتخاصمين واستمر عشرين يومًا ، أظهر فيها موسى شجاعة فائقة ثم هزم الضحاك وقتله ، وعندما تفرق أنصار ابن الزبير هام موسى على وجهه يضرب في الأرض ويفر من مخبأ إلى آخر حتى ضاقت به السبل فبعث إلى صديقه عبد العزيز بن مروان يستجير فأجاره لدى والده مروان بن الحكم ، وحضر موسى وقدم فروض الطاعة للخليفة الأموي وأقسم ليهبن عمره في خدمة آل مروان ونصرتهم .

وقد بر موسى بوعده فكان ساعد عبد العزيز بن مروان الأيمن في زحفه على مصر ، ووصلت طلائع الجيوش الأموية إلى عين شمس عام ٦٥هـ (٦٨٤م) وسرعان ما دانت مصر لخلافة بني أمية ، وتولى موسى عقب ذلك منصب المستشار لواليها عبد العزيز ووزيره الأول ، ومن ثم استطاع أن يتمرس على إدارة الحكم بمشاركته دائمًا في أمور الدولة وعلى مصاحبة العلماء والأخذ عنهم فازداد علمًا واتساع إدراك .

ومات مروان بن الحكم وتولى الخلافة بعده ابنه عبد الملك الذي قضى نهائيًّا على كل المطالبين بعرش الخلافة فاستتب له الأمر وتوطدت دعائم الدولة الأموية في الشام ومصر والحجاز وفي كل الأقطار الخاضعة للفتح الإسلامي في ذلك الحين ، وكان موسى بن نصير من بين القواد الذين أخضعوا الثائرين على الحكم الأموي ولاسيما في العراق ، ومن ثمَّ عينه عبد الملك بن مروان وزيرًا ومشيرًا ورئيسًا لديوان أخيه بشر الذي نُصِّب واليًا على البصرة ثم على الكوفة ، فكان موسى مصرف الأمور الحقيقي في كافة أنحاء العراق لما أظهره من نشاط وكفاءة وإخلاص في أعماله .

وتوفي بشر بن مروان فعين عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٧٥هـ (٦٩٤م) مكانه ، فهرع موسى إلى دمشق واستجار بعبد العزيز بن مروان فأجاره ودافع عنه لدى الخليفة عبد الملك الذي كان قد اتهمه بالاستيلاء على أموال الدولة وإنفاقها على المداحين والأنصار في إسراف مغدق ، وتقول الروايات إن عبد العزيز قام بدفع نصف الغرامة التي فرضها

عبد الملك على موسى وقدرها مائة ألف، ثم اصطحبه إلى مصر حيث نال الحظوة والنفوذ وعين قائدًا للجند وصار مستشار عبد العزيز بن مروان الأول في مختلف الأمور.

وأراد عبد العزيز أن يحقق طموح موسى بن نصير فعينه عام ٧٩هـ (٦٩٨م) واليًا على إفريقية (تونس) ولم يأخذ بأمر أخيه عبد الملك، فعزل حسان بن النعمان (انظر مادة ابن النعمان) على الرغم مما أداه من خدمات جليلة في المغرب؛ حيث قام بتدعيم الحكم العربي في شمال إفريقيا بأسره، وكانت بلاد المغرب قد تم فتح معظمها بفضل غزوات عقبة بن نافع، وزهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الغساني.

ويدل التاريخ على أن موسى بن نصير قام بالدور الأكبر في عزل حسان بن النعمان ليفسح لنفسه الطريق، ومنطق الأحداث وسيرة موسى نفسه يؤيدان ذلك نظرًا لما فطر عليه من التطلع إلى حب السيطرة والتحكم، وما كان يغلب عليه مما لا يكاد رئيس يسلم منه، ويقول المقرِّي (انظر هذه المادة) إن الحقد والحسد والمنافسة كانت تغلب على وجدانه.

وقدم موسى إفريقية (تونس) على رأس جيش من العرب والعرب المصريين، وكان ذلك (في بداية حكم الوليد بن عبد الملك، الذي تولى الخلافة الأموية في المدة من عام ٨٦ إلى ٩٦هـ (٧٠٥ – ٧١٥ م) على حد قول بعض المؤرخين)، أو في اليوم الخامس من شهر جمادى الأولى عام ٧٩هـ (٦٩٨م) على حد قول البعض الآخر، وهو الأصح إذ إن عبد العزيز بن مروان توفي في عهد أخيه عبد الملك، ومن ثم ينتفي القول بأن عبد العزيز لم يأخذ بأمر ابن أخيه الوليد بن عبد الملك بشأن عزل حسان بن النعمان، ويتضح من جهة أخرى أن قدوم موسى بن نصير إلى القيروان بتونس كان في عهد عبد الملك وليس في عهد ابنه الوليد.

وانسابت جيوش موسى في غرب البلاد المغربية وشمالها كموجات مدّ عظيم تدمر كل ما يصادفها من حصون الروم المنيعة، وتحصل على غنائم هائلة المقدار والقيمة أرسل منها موسى إلى مولاه عبد العزيز وإلى الخليفة في دمشق هدايا عظيمة كان من نتائجها أن أعفي موسى من الغرامة التي فرضها الخليفة عليه عقب عزله عن العراق ورد مبالغها إليه من الغنائم التي استولى عليها في المغرب، وهكذا كسب موسى رضاء الخليفة وبدأ يستعد للجولة الحربية الثانية.

وأثناء إقامته بالقيروان – وعلى وجه التحديد – في عام ٨٤هـ (٧٠٣م) عزم على الغزو من البحر فأمر ببناء أسطول قوي وبادر إلى توسيع الترسانة (دار الصناعة) التي أنشأها حسان بن النعمان وجلب لإدارتها والعمل فيها مائة أسرة قبطية من مصر، فأسرعت هذه الدار في تشييد مائة سفينة عززت قوة الأسطول العربي فاستطاعت هذه القوة البحرية الضاربة بقيادة ابن موسى بن نصير عبد الله وعياش بن أخيل إحراز انتصارات في جزيرتي صقلية وسردنيا عام ٨٦هـ (٧٠٥م).

وواصل موسى غزواته الموفقة فوصل بجيوشه إلى نهر درعة ووصل ابنه مروان إلى السوس الأقصى وهي منطقة في الجنوب الغربي من مراكش لم يصل إليها أي فاتح عربي قبله، وبعد أن أخضع موسى سكان هذه المنطقة إلى سيطرته وأخذ منهم البيعة هم وأفراد القبائل استأنف زحفه على شاطئ المحيط الأطلنطي واتجه إلى مدينة طنجة فبلغها في أوائل عام ٨٩هـ (٧٠٧م) وحاصرها ثم فتحها وأقام عليها قائد جيشه طارق

ابن زياد (انظر مادة ابن زياد، وطارق بن زياد) وجعل تحت إمرته سبعة وعشرين ألف مقاتل من العرب والعرب المصريين واثني عشر ألفًا من البربر، وحث هؤلاء الجنود على تعليم أهل القبائل القرآن الكريم وأمور الدين فسرت كلمة الإسلام في جميع مواطن القبائل البربرية وبطونها.

وكانت الغارات البحرية التي قام بها الأسطول العربي على جزيرتي صقلية وسردنيا عام ٨٦هـ (٧٠٥م) قد أضعفت سيطرة الأسطول البوزنطي على هاتين الجزيرتين؛ ولذلك لم يهمل موسى بن نصير شأن هذه الحملات البحرية فأرسل عام ٩٢هـ (٧١٠م) طريف بن ملوك (انظر مادة أبي زرعة) على رأس وحدات من الأسطول العربي تحمل أربعمائة مقاتل، فغزت الثغور الجنوبية لبلاد الأندلس بإسبانيا وعادت بغنائم كثيرة ومهدت طريق الفتح للقائد طارق بن زياد، وكان ذلك في رمضان عام ٩١هـ (٧١٠م)، وقد نزلت الحملة في جزيرة (بالوماس) بالقرب من الموضع الذي يسمى اليوم برأس طريف.

وسار موسى بعد ذلك لفتح حصن ميناء «سِبْتَة» فاستعصى عليه وكان حاكمه «الكونت يوليان Comte Julien» البوزنطي، وكان من أنصار «غيطشه» ملك إسبانيا الذي كان يمده بالعون عندما بدأ العرب يهاجمون حصنه منذ بداية الفتح العربي لشمال إفريقيا، ولما وجد موسى أن لا فائدة من الحصار تركه وعاد إلى القيروان وأوصى طارق أن ينتهز الفرصة ويهاجم «سِبْتة» ويخضع يوليان.

وفي القيروان أرسل موسى حملة بحرية فغزت جزيرة ميورقة إحدى جزر أرخبيل البليار في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الإسبانية فكللت الحملة بالنجاح وعادت بالغنائم الوفيرة وكان حاكمها بين الأسرى.

وأخذ ابن نصير بعد ذلك في تدبير أمور المدن والأقاليم المفتوحة وفي نشر الدين الإسلامي بين القبائل وأصاب في ذلك نجاحًا باهرًا بفضل تطبيق مبدأ المساواة بين الناس وإقامة الحدود الشرعية فدخلت القبائل أفواجًا في دين الله، ومن ثم أخذت اللغة والثقافة العربية تنتشر بسرعة في أنحاء المغرب.

وفي الوقت الذي أرسل فيه موسى الحملات البحرية لغزو جزر البحر الأبيض وصله خبر وفاة صديقه وسنده عبد العزيز بن مروان في ١٠ من شوال عام ٨٦هـ (١٣ من أكتوبر عام ٧٠٥م) فبكاه طويلاً واستولى الأسى على نفسه.

وتولى إدارة مصر من بعده ابن أخيه عبد الله بن عبد الملك فعزَّ على موسى أن يراسله كما كان يفعل مع عمه عبد العزيز، وبدأ يبعث بكتبه إلى الخليفة رأسًا ليخبره بشؤون فتوحاته فأغضب ذلك عبد الله وبعث إليه يؤنبه ويحط من قدره ويتوعده، فرد عليه موسى ردًّا عنيفًا ولم يهتم بأمره وانطلق يواصل الجهاد والفوز دون كلل أو ملل.

وفي عام ٩٢هـ (٧١١ – ٧١٢م) أكب موسى في القيروان على وضع الخطة التي رسمها لغزو إسبانيا موضع التنفيذ بعد أن أقرها الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق.

وكان طارق بن زياد يواصل اتصالاته بالكونت يوليان صاحب ميناء «سبتة»، وقد عرض عليه صداقة العرب وتركه سيدًا على حصنه في مقابلة مساعدته على غزو إسبانيا، وحدث في ذلك الوقت أن الإمبراطور «رودريجو» وهو لذريق عند

العرب اغتصب عرش إسبانيا من أولاد الملك غيطشه بعد موت أبيهم وأهدر شرف ابنة يوليان «فلوراندا» التي كانت مقيمة في قصر طليطلة لتتأدب بآداب الملوك، فأقسم الكونت يوليان بأن ينتقم لشرف ابنته وقال جملته المشهورة: «لا أرى له عقوبة إلاّ أن أدخل عليه العرب».

وبادر الكونت يوليان إلى إغراء طارق بن زياد بغزو إسبانيا ووعده بمساعدته ومده بسفنه لنقل الجيوش العربية فأرسله إلى موسى في القيروان فاستوثق منه بالحملة البحرية التي قادها طريف بن ملوك كما تقدم القول وقد أمدها الكونت يوليان بالسفن.

واختار موسى بن نصير لغزو إسبانيا طارق بن زياد، فانطلق بالجيش العربي إلى ميناء «سِبتة» وكان عدد هذا الجيش المكون من العرب والعرب المصريين والبربر اثني عشر ألفًا، وعند «سِبتة» اتفق مع الكونت يوليان على نقل الجنود على سفنه، فقبل، ويلاحظ أن هذا الكونت البوزنطي كان قد دخل في طاعة عقبة بن نافع أثناء غزوته الثانية التي استشهد فيها، فخرج إليه عندما اقترب من «سِبتة» وقدم له هدية نفيسة وعاهده على أن يكون من أتباعه فثبته القائد العربي في ولايته.

وفي رجب عام ٩٢هـ (إبريل عام ٧١١م) عبر طارق الزقاق مع آخر دفعة من الجنود يصحبهم الكونت يوليان، وقد صار اسم الزقاق من ذلك الحين «جبل طارق» نسبة إلى القائد العربي الشهير، وما إن نزل طارق إلى البر حتى باشر العمل، وبعد أن ألقى في الجنود والقواد خطبته الحماسية المعروفة التي استهلها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . . .». بعد أن ألقى هذه الخطبة في الجنود عقب عبور الجيش العربي مضيق «العدوة» ووصل إلى الصخرة التي كانت تسمى «كالبي Calpe»، بادر إلى إرسال عبد الملك بن عامر على رأس فرقته لغزو مدن الساحل الجنوبي والجزيرة الخضراء، فتم له النصر وأصبح المضيق من مدخله إلى مخرجه في قبضة الفاتحين، ثم انطلق طارق برجاله نحو مدن الجنوب الغربي فاستولى عليها واتجه شمالاً حتى أشرف على نهر «البرباط» الذي يخترق بحيرة لاجندا، وهناك عسكر في الوادي الفسيح على مقربة من القرية التي سماها العرب «لكة».

وعلم «لذريق» بغزو العرب لجنوب إسبانيا فجمع جيشًا قدر عدده بمائة ألف مقاتل، وأسرع طارق في طلب المدد من موسى بن نصير في القيروان فأمده بخمسة آلاف جندي، وما من شك في أن معظم الجنود الذين نزلوا بأرض إسبانيا والذين أرسلهم موسى كمدد كانوا من شبان ورجال المصريين الذين كانوا بين جيوش الفتح العربي الأول لشمال إفريقيا وشبان ورجال الأسر القبطية المصرية التي استقدمها حسان بن النعمان، وقد كانوا في صفوف وحدات الجيوش العربية التي قامت بفتح الجزائر ومراكش وفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد يجاهدون في سبيل العروبة جنبًا إلى جنب مع إخوانهم العرب والبربر.

وبعد قتال مرير دام سبعة أيام انسحب أولاد الملك غيطشة وأنصارهم من صفوف «لذريق» وانضموا إلى صفوف المسلمين، فوقعت الهزيمة في جيش الإسبانيين وهرب «لذريق» وعبر النهر سباحة، وكانت هذه المعركة من المعارك

الهامة التي انتصر فيها عشرة آلاف مجاهد من المسلمين على مائة ألف إسباني.

وما إن فرغ طارق من توزيع الغنائم على المحاربين حتى انطلق صوب الشمال واستولى على طليطلة وغنم مائدتها الرائعة الصنع المرصعة بالزبرجد والياقوت وذات الثلاثمائة وخمس وسبعين رجلاً ذهبية، وكان القساوسة يضعون هذه المائدة العجيبة على المذابح في الكنائس أيام الأعياد مباهاة بعظمتها.

وفضل طارق بعد هذا الانتصار الانتظار في طليطلة، ورأى موسى بن نصير أن قائده اتجه في زحفه شمالاً بشرق دون أن يغزو أغلب مدن الغرب، وهي في نظره أخطر الجهات على جيوش العرب، فعزم على العبور إلى الأندلس لإخضاع هذه المناطق، وفي شهر رمضان عام ٩٣هـ (٧١١ - ٧١٢م) عبر موسى الزقاق (مضيق العدوة) كما يسميه العرب بجيش مؤلف من ثمانية عشر ألفًا ونزل في موضع سمي منذ ذلك اليوم «بمرسى موسى» وكان في استقباله الكونت يوليان، وأسرع في الزحف على مدينة إشبيلية واستولى عليها بعد حصار قصير ثم اتجه إلى مدينة «ماردة»، وفتحها صلحًا خلال عام ٩٤هـ (١٧١٢م)، وكان ابنه عبد العزيز قد اتجه غربًا واقتحم المدن الغربية جميعًا.

وكان «لذريق» قد استطاع بعد هزيمته في موقعة «لكة» جمع فلول جيشه ثم وقف بهم في المنطقة الواقعة بين وادي نهري «آنة والتاج»، فاستدعى موسى طارق من طليطلة فوافاه مسرعًا عند بلدة «طليبيرة»، والتقى جيشا المسلمين في مكان يسمى «المعرض» يقع بين نهري «التاج والتيتار» وتعاونا على الغزو الشامل، وما إن التقى العرب برجال لذريق حتى اندفع مروان بن موسى بن نصير نحو لذريق وقتله وهو يكبر، وبموته اضطربت صفوفه وهرب من بقي من رجاله.

وجمع المسلمون غنائمهم واتجه بهم موسى إلى طليطلة فاستردها من أعوان لذريق الذين انقضوا عليها، وبدأ موسى في جمع الغنائم وطالب القواد بأسلابهم فكان لذلك أثر سيئ في نفوسهم ولاسيما مغيث الرومي، مولى الخليفة وصفيه، وطارق بن زياد، فقد أخذ من مغيث الرومي حاكم قرطبة الذي أسره مغيث عند فتحه المدينة وكان يحتفظ به للتباهي عند الخليفة، وأخذ من طارق مائدة طليطلة المتقدمة الوصف.

وبعد توزيع الغنائم على المجاهدين أرسل موسى مغيث الرومي إلى دمشق ليبلغ الخليفة الوليد بن عبد الملك تفاصيل الانتصارات الباهرة التي أحرزها في الأندلس، فانتهز مغيث الفرصة ليؤلب الخليفة على موسى ويدس له عند منافسيه من رجال الدولة.

وواصل ابن نصير زحفه يعاونه طارق فتم لهما فتح «سرقسطة»، و«برشلونة»، وأوغلا في البلاد حتى تم لهما الاستيلاء على شبه الجزيرة الإسبانية بأسرها وأشرفا على «الأرض الكبيرة» أي فرنسا، وكانت الخطة التي وضعها موسى تهدف إلى اجتياز جبال «البرانس» واجتياح فرنسا ليواصل تقدمه لغزو شواطئ أوروبا الجنوبية والعودة إلى دمشق عن طريق إيطاليا والبلقان والإمبراطورية البوزنطية.

وعاد مغيث الرومي من دمشق وقابل موسى في طليطلة وأبلغه أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بأن يعود إلى الشرق وأن يكف عن مواصلة الغزو، فأطاع الأمر واصطحب معه طارق

ومغيث الرومي وكافة الغنائم الهائلة التي جمعها والأسرى الذين وقعوا في قبضة أيدي المسلمين من وجهاء الإسبان وقوادهم وحكامهم.

وعند وصول الركب إلى فلسطين التقى به سليمان بن عبد الملك وطلب منه أن يتمهل في السير ليصل إلى دمشق بعد وفاة الخليفة الوليد، وذلك لتكون الغنائم لسليمان عقب توليه الخلافه، ولكن موسى لم يرض بخيانة الوليد وأسرع الخطى نحو دمشق فبلغها في شهر جمادى الأولى سنة ٩٦هـ (يناير - فبراير عام ٧١٥م)، وقد استقبله الخليفة الوليد في حفاوة، وعلى الرغم من مرضه وعلى الرغم من الوشاية التي سمعها في حقه جلس على المنبر ليشاهد الغنائم وموكب الأسرى، وقد ألبسهم موسى أفخر ثيابهم المطرزة بالقصب والفضة والماس تزين رؤوسهم التيجان المرصعة وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، وسجد الوليد شكرًا لله وأجزل العطاء لموسى بن نصير ولقواده، وبعد أربعين يومًا توفي الخليفة الوليد واعتلى العرش أخوه سليمان بن عبد الملك في عام ٩٦هـ (٧١٥م) نفسه، وكان أول ما فعله مع البطل الفاتح موسى بن نصير أن أوقفه أمامه في موقف المتهم متأثر بالرفض الذي أبداه موسى في فلسطين، وبعد أن ألقى عليه العديد من الأسئلة ليعرف منه سر بطولته الفذة في قيادة الجيوش وجّه إليه تهمة الاستيلاء على مائدة طليطلة العجيبة وهل هو الذي حصل عليها أو طارق بن زياد؟ ولما قال إن طارق لم يرها إلا عنده أخرج طارق إحدى أرجلها الذهبية، وكان قد انتزعها ووضع رِجْلاً أخرى تشبهها، وقدمها إلى سليمان الذي همَّ بقتل موسى ولكنه عدل عن ذلك وحرمه من المكافأة والعطاء وحكم عليه بغرامة فادحة، فقام بدفعها في شهر جمادى الثانية عام ٩٩هـ (٧١٧م)، وقد بالغ سليمان بن عبد الملك في الإساءة إلى موسى بن نصير القائد العظيم وأذله، وامتدت هذه المعاملة القاسية إلى ابنه عبد الله الذي استخلفه ابن نصير على إفريقية (تونس) فعزله عنها محمد بن يزيد وسجنه وعذبه ثم قتله تنفيذًا لأمر الخليفة.

وعاش بطل فتح الأندلس في دمشق راضيًا بما قدَّره الله عليه من محن وآلت حاله من الإذلال إلى أن كان يطاف به ليسأل الناس في أحياء العرب ليسد رمقه، وتقول بعض الروايات إنه مات وهو أفقر الناس وأذلهم حالاً وذلك بمسقط رأسه «وادي القرى».

وتذكر روايات أخرى أن سليمان بن عبد الملك ندم على ما فعله بهذا القائد العظيم وأراد أن يكفِّر عن خطيئته فأهدر عنه بقية قضيته، وذلك بإلغاء حكمه عليه وتنكر لكل من وسوس له في حقه ولاسيما المغيث بن الرومي وطارق بن زياد ولم يكافئهما على وشايتهما وترك طارقًا يعيش بجواره ومنعه من العودة إلى الأندلس، ولما عزم على الحج عام ٩٩هـ (٧١٧م) اصطحب معه موسى بن نصير، وفي أثناء الطريق والموكب يعبر وادي القرى بإقليم الحجاز في مكان يسمى «المر» انتابت موسى إغماءة الموت وصعدت روحه إلى بارئها بالغًا من العمر أكثر من ٨٠ عامًا، ودفن في مكان بين حزين ومشدوه.

وإذا صحت الروايات الأولى أو الثانية فإن التاريخ مازال يذكر اسمه مقرونًا بالإجلال والاحترام ويستمطر الرحمات على روحه لما أداه للعروبة من جليل الفتوحات ويلعن الواشين به ومعذبيه ومحقريه ليلاقوا حسابهم الأوفى يوم الحساب.

٢٢٠ - ابن نعمان - شارع - بقسم محرم بك

يطلق هذا اللقب وهو «ابن النعمان» على قائد من أشهر قوَّاد العرب في صدر الإسلام وعلى أحد قضاة الفاطميين الشعراء وهما:

١) **حسان بن النعمان الغساني**: كان عاملاً على مصر في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وفي عام ٧٤هـ (٦٩٣م) صدر له أمر الخليفة بالزحف على إفريقية (تونس) وإخضاع أهلها للدولة العربية وزوَّده بالرجال والعتاد الوفير، ويُعدّ ذلك العام بحق نقطة الانطلاق بالنسبة إلى تحول سكان شمال إفريقيا العربي من الوثنية إلى الإسلام واندماجهم في العروبة.

ولقد بدأ القائد العربي الزحف في جيش قوامه أربعون ألف مقاتل، فاستطاع بمعاونة الأسطول العربي أن يقضي على كثير من المعاقل الرومانية على البحر الأبيض المتوسط، ويتقدم مسرعًا صوب شمال تونس للقضاء على جيش الروم البوزنطيين قبل الأخذ في قتال قبائل البربر الأشداء في جبال أوراس، ثم بادر إلى الاستيلاء على مدينة قرطاجة خلال عام ٧٦هـ (٦٩٥م) ولكنه فقدها؛ إذ هزمه البطريق يوحنا بطريق صقلية وهزمه البربر في سهول ميناء بجاية بقيادة الكاهنة داهيا بنت مارية ملكة بربر البتر في جبال أوراس التي انضم إليها بنو يفرن ومن كان في تونس وفي البلاد الواقعة على حدود الجزائر من بني زناتة، فلم يجد حسان بن النعمان بُدًّا من الارتداد حتى برقة تاركًا إفريقية بأسرها، وفي العام التالي جدد الهجوم على قرطاجة بحرًا وبرًّا، ونجح نجاحًا باهرًا في الاستيلاء عليها عام ٧٩هـ (٦٩٨م) فدمرها وبادر إلى تشييد مدينة تونس التي حولها إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل العربية في رحلاتها النائية وتحمي جيوشه البرية من مباغتة الروم في هجمات مفاجئة، وأقام بالقرب من مدينته الجديدة دارًا للصناعة (ترسانة) واستقدم من مصر ألف أسرة من أقباطها لتزويد هذه الدار بالصناع المهرة ولمعاونته على تطبيق نظم الحكم الجديدة التي أدخلها للسير بشؤون البلاد نحو الأمان، وسلك مع البربر سياسة المرونة واللين والرفق وأشركهم في الحكم واتخذ رجالهم وشبانهم جنودًا أشداء كان لهم الفضل في اتساع نطاق الفتح العربي.

واستطاعت دار الصناعة في فترة وجيزة إنشاء مائة سفينة انضمت إلى الأسطول الأموي في البحر المتوسط وبذلك بدأ شمال إفريقيا أن يكون مركزًا بحريًّا ثالثًا بعد مصر والشام.

وفي ذلك الحين نفسه اشتد عتو الكاهنة وتحول ظلمها إلى الإفساد المتعمد فكانت تصدر أوامرها بإنزال الخراب المدمر بالمدن والقرى وبحرق المزارع وقطع الأشجار، ومن ثمَّ تحول البربر عنها وخذلوها عندما عاد حسان بن النعمان إلى قتالها، فسادت الفوضى رجالها وأجهز حسان على جموعهم وأطاح برأسها، وكان ذلك عام ٨٢هـ (٧٠١م)، وأمَّنَ حسان البربر على الإسلام والطاعة فدخلوا في دين الله جماعات وعندما رجع إلى تونس ظافرًا شيد مسجدًا جامعًا في مدينة تونس وجدد بناء جامع القيروان وعمل على نشر الدين الإسلامي بين البربر، فأقبلوا عليه بحماس، وعند مستهل القرن الثامن الميلادي كان سلطان العرب قد مَدَّ ظله الوارف على المغرب الأوسط بأسره، وكان كثير من اليهود والنصارى والبربر قد دخلوا في الإسلام أفواجًا اللَّهم إلا جماعات قليلة من النصارى الأفارقة، ومن ثم استتب الأمر للفاتحين في القطرين التونسي

والجزائري، وهرب معظم الروم وأنصارهم إلى جزيرتي صقلية ومالطة.

وفي عام ٨٦ هـ (٧٠٦م) عزل حسان بن النعمان عن الحكم.

٢) علي بن النعمان: هو القاضي أبو الحسن بن النعمان وكان قاضي قضاة العزيز الخليفة الفاطمي، وقد توفي عام ٣٧٤هـ (٩٨٤م)، وقد تولى القضاء مع أبو الطاهر ثم استقل بالقضاء في صفر عام ٣٦٦هـ، ومن شعره قوله:

صَدِيقٌ لِي لَهُ أَدَبُ
صَدَاقَةُ مِثْلِهِ نَسَبُ

رَعَى لِي فَوْقَ مَا يُرعَى
وأَوْجَبَ فَوْقَ ما يَجِبُ

فَلَوْ نُقِدَتْ خَلائِقُهُ
لبُهْرِجَ عِنْدَهَا الذَّهَبُ

كان علي بن النعمان أول من جلس بالجامع الأزهر في أحد أيام شهر صفر عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) يلقي على الناس مختصر أبيه في فقه آل البيت، ثم توالت حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك.

٢٢١- ابن النعمة - شارع - بقسم الجمرك

قد يكون هذا الاسم لواحد ممن سكنوا في هذا الشارع خلال الزمن الماضي، ويلاحظ أن لقب «ابن النعمة» كان ومازال يطلق في لغة العوام على الرجل أو الشاب الذي ينتمي إلى أسرة ميسورة الحال، فيقولون: فلانًا ابن ناس من بيت كرم لأنه ابن النعمة.

وإتمامًا للفائدة، أذكر فيما يلي ترجمة رجل سجل التاريخ سيرته هو «ثوما بن نعمة» الذي كان شاعرًا ومؤرخًا، وموطنه الأصيل مدينة حلب بسوريا، وقد تعلم على الشيخ سليمان النحوي وسافر بعد ذلك إلى مصر خلال عام ١١٦٩هـ (١٧٥٥م) ثم توجه إلى الأناضول عام ١١٧٤هـ (١٧٦٠م) موفدًا من أثناسيوس جوهر ومكسيموس حكيم، ووافته المنية عام ١١٨٤هـ (١٧٧٠م)، وقد ألف «عجالة راكب الطريق لمن رضي تقليد التلفيق» وهي رسالة في الجدل.

٢٢٢- ابن النفيس - شارع - بقسم باب شرقي

هو علاء الدين أبو العلاء علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي، وكنيته (ابن النفيس)، من أعلام الأطباء العرب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ولم يدوِّن المؤرخون الشيء الكثير عن سيرة حياته ولا يعرف السبب في هذا الإهمال لرجل وصلت معلوماته الطبية إلى الغربيين فأكبروا شأنه على مر الأجيال المنصرمة، ومن الغريب أن ابن أصيبعة الذي كان من معاصريه لم يذكر ابن النفيس في كتابه المتضمن تاريخ الأطباء، ولعل ذلك يرجع إلى جفوة كانت تشوب علاقة الرجلين في أثناء حياتهما، ويستدل من بعض المراجع التاريخية على أنه ولد في مدينة دمشق في حوالي عام ٦٠٧هـ (١٢١٠م)؛ حيث درس علوم الطب بالمستشفى الذي أقامه نور الدين بن زَنكي (انظر مادة ابن زنكي) في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وهو الذي اشتهر

باسم البيمارستان النوري، وكان أول أساتذته مُهذَّب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدَّخْوَار المتوفى عام ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) الذي جاء من مدرسة ابن التلميذ التي انتقلت من بغداد (انظر هذه المادة) إلى الشام (انظر هذه المادة) وتولى تعليم عدد كبير من التلاميذ.

ودرس ابن النفيس – إلى جانب علوم الطب – الفقه والنحو والمنطق وصار حجة ذائع الصيت في الفقه الشافعي (انظر الشافعي)، ثم رحل بعد ذلك إلى القاهرة وصار كبير أطباء مصر جميعًا.

وما من شك في أنه تولى رياسة الأطباء بالمستشفى الناصري وقام بتعليم عدد كبير من الطلاب كان من أشهرهم «ابن القُفّ» الذي ألف كتابًا مفيدًا في الجراحة.

ومن جهة أخرى قام ابن النفيس في الوقت نفسه بتدريس الفقه الشافعي في المدرسة المسرورية بالقاهرة، وكان علاوة على كل ذلك حجة في اللغة العربية، ومن ثمّ كان موضع التقدير البالغ والاحترام من جميع معاصريه ولاسيما من بهاء الدين بن النحاس.

ونشاط هذا العالم العربي الجليل في ميدان التأليف على جانب كبير من الأهمية العلمية ويقال إنه كان يؤلف معظم كتبه من ذاكرته دون الرجوع إلى الكتب وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنه كان يشتغل في أول أمره بشرح الكتب وتفسيرها، ويشهد له باستقلال الفكر وسعة المعرفة إلى أبعد الحدود.

وأكبر مصنفاته وأعظمها قدرًا «كتاب الشامل في الطب» الذي اشتمل على ثلثمائة مجلد دون أن يتم، ولم يبق منه شيء الآن، وله كتاب آخر على جانب كبير من الأهمية في أمراض العين يسمى «كتاب المُهذِّب في الكحل»، وهو مازال محفوظًا بمكتبة الفاتيكان بروما برقم ٣٠٧ بالقسم العربي، ومن الغريب أن الدول العربية لم تهتم حتى الآن بنقل نسخة منه ثم طبعه ليعرف أهل العروبة آثار أجدادهم في العلوم الطبية التي كان لها أعمق الأثر في التعليم عند الغربيين مثل كتب ابن سينا وابن الهيثم وغيرهما (انظر هاتين المادتين).

وأكثر كتب ابن النفيس انتشارًا هو «الموجز» لقانون ابن سينا، وقد اختصره لأغراض عملية وطبع لأول مرة عام ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ)، وقد ألفت شروح ووضعت حواش كثيرة لهذا الكتاب على مر القرون الماضية.

وأقبل الأطباء في جميع بقاع العالم – ولاسيما الهنود – على دراسته في شغف، واستمر هذا الإقبال الشديد حتى عهد قريب.

ومن أهم شروح ابن النفيس الشرح الذي دوَّنه لمبادئ أبقراط (انظر مادة هيبوقراط) الذي انتشر استخدامه في المشرق، وهو منشور في كثير من المخطوطات وطبع في مدينة فاس عام (١٨٨٠م – ١٢٩٨هـ).

ومن شروحه الهامة أيضًا شرحه لأوبئة أبقراط، وهو مايزال محفوظًا بمكتبة إستامبول (آيا صوفيا رقم ٣٦٤٢).

وهناك مجموعة كاملة من الشروح الموسعة لقانون ابن سينا محفوظة في المتحف البريطاني، ويوجد بمدينة «ليدن» شرح على كتاب «مسائل في الطب» لحنين بن إسحق.

وقد بقي من كتاب ابن النفيس الدينية كتاب في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام باسم «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» وهو محفوظ في مكتبة القاهرة وكتاب آخر في أصول الحديث وهو عبارة عن مختصر في علم أصول الحديث» ، وله رسالة في الكلام بعنوان «فاضل بن ناطق» عارض فيها كتب ابن سينا «حيّ بن يقظان» وهي محفوظة في إستامبول .

وكتب ابن النفيس في الفقه شرحا على «التنبيه» للشيرازي ، ويقال إنه كتب في الفلسفة شرحًا لكتاب «الإشارات» ، وآخر لكتاب «الهداية في الحكمة» لابن سينا .

واكتشف طبيب مصري أن ابن النفيس وصف الدورة الدموية الصغرى أي الدورة الدموية الرئوية وصفًا صحيحًا في كتابه «شرح تشريح ابن سينا» ، وهو مخطوط لم يطبع بعد ، وهو وصف يخالف وصف ابن سينا وجالينوس (انظر هذه المادة) كل المخالفة وذلك قبل أن يكتشفها الأوروبيون بثلثمائة عام وعلى رأسهم «م. سرفيتو M. Serveto» ، و«ر. كولومبو R. Colombo» ، وقد عاش الأول في عام ١٥٥٦ والثاني في ١٥٥٩م ، ولم يعرف اكتشاف ابن النفيس في أوروبا لأنه لم يترجم له إلى اللغة اللاتينية إلا شرح واحد من شروحه الطبية القيمة ، وكانت وفاته عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بالقاهرة بالغًا من العمر حوالي ٨٠ عامًا .

٢٢٣ – ابن النقيب – شارع – بقسم الجمرك

٢٢٤ – ابن النقيب – شارع – بقسم الرمل

يحمل لقب ابن النقيب أربعة من مفكري العرب الذين سجل التاريخ نبذًا عن سيرتهم وهم:

١) **ناصر الدين بن النقيب**: وكان من أعيان شعراء مصر في عهد الملك المنصور قلاوون (انظر الملك المنصور) ، وله شعر جيد في نوع التورية بصفة خاصة ، ومن شعره الرقيق الحاشية العذب الجرس قوله:

جودوا لتسجع بالمديح على علاكم سرمدا

فالطير أحسن ما يغرد عندما يقع الندى

٢) **ابن النقيب**: لقب لعالم من علماء تفسير القرآن وفقهاء المذهب الحنفي المبرَّزين ، اشتغل بالتدريس في القاهرة وتوفي بها عام ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) .

٣) **محمد بن النقيب**: وقد تولى القضاء بمدينة حلب بالقطر السوري ، وكان من تلاميذ زين العابدين أبو جعفر عمر بن المظفر بن الوردي (انظر مادة ابن الوردي) صاحب لامية العرب الشهيرة ، وتوفي محمد بن النقيب بمدينة حلب عام ٧٤٥هـ (١٣٤٣م) .

٤) **السيد علي بن موسى الحسيني المقدسي (الملقب بابن النقيب)**: ويرجع السبب في هذا اللقب إلى أن أجداده كانوا من نقباء الأشراف في بيت المقدس بفلسطين ، وكان ابن النقيب عالمًا من علماء تفسير القرآن ومن كبار فقهاء المذهب الحنفي المشهورين ، وقد اشتغل بالتدريس في القاهرة حيث حل محل الشيخ الحفناوي الحسيني الواعظ ، وكان – إلى جانب علمه بالتفسير والحديث – كاتبًا وأديبًا حسن الأسلوب وزاهدًا كريم الأخلاق والسجايا ، ولهذه الصفات الحميدة كانت له مكانة عظيمة في نفوس الناس ، وكان في الوقت نفسه فارسًا شجاعًا ماهرًا في فنون الحرب واستخدام

السلاح واللعب بالرماح فكان بذلك يجمع كل صفات النساك المحاربين .

وكان المصريون ينعتونه بالمحدث المفسر ، ومن صفاته أنه كان ينقد أعمال الحكام في صراحة ولا يخشى في قول الحق أية لائمة ، وكان الأمير المملوكي محمد بك أبو الذهب (انظر هذه المادة) يرحب به في مجلسه على الرغم مما كان يتلقى منه من نقد لاذع كلما رأى منه أي اعوجاج أو إجحاف بحقوق الناس ، وتوفي هذا العالم الورع الجليل عام ١١٧٧هـ (١٧٦٣م) .

وقاد أخوه بدر الدين ابن النقيب ثورة أهل القاهرة ضد الفرنسيين في ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ)، وقد أخفقت هذه الثورة فهرب وانضم إلى السيد عمر مكرم في مدينة «يافا» بفلسطين وعاد إلى مصر بعد غزو الفرنسيين لهذه المدينة .

٢٢٥- ابن الهائم - حارة - بقسم الجمرك

٢٢٦- ابن الهائم - حارة - بقسم كرموز

هو شهاب الدين بن الهائم ، ولد بالقاهرة عام ٧٥٣هـ (١٣٥٢م)، حَسَّاب مصري قدسي، مارس التعليم في الصالحية بالقدس وألف كتابًا في الفرائض والحساب، وكتبًا أخرى في هذا الباب من العلم منها كتاب «المعونة في الحساب الهوائي» أي الذهني، وتوفي في أورشليم عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) .

٢٢٧- ابن هانئ - حارة - بقسم الرمل

اسمه الكامل أبو القاسم أو الحسن محمد بن هانئ ابن محمد بن سعدون الأزدي ، ويعرف بابن هانئ الأندلسي ، تمييزًا له عن ابن هانئ الحكمي المشهور بأبي نواس (انظر هذه المادة)، وابن هانئ الأندلسي شاعر من فحول شعراء الأندلس وكان أبوه هانئ من قرية بالقرب من مدينة المهمدية بتونس ، وقد بناها عبيد الله المهدي مؤسس دولة الفاطميين (انظر مادة الفواطم) وانتقل إلى البيرة بالأندلس أو إلى قرطبة كما يُروى في بعض كتب السير ، وولد ابن هانئ في إحدى هاتين المدينتين عام ٣٢٦هـ (٩٣٧م)، وفي بعض الروايات الأخرى أنه ولد بمدينة إشبيلية حيث هاجر أبوه إليها من المهمدية طلبًا للرزق ، وكان أبوه شاعرًا فورث عن أبيه الميل إلى الشعر ، ودرس ابن هانئ بقرطبة أولاً ثم غادرها إلى إشبيلية .

وقد جلب عليه سوء سيرته وصراحته في القول سخط الناس فاتهموه بالانحياز إلى آراء فلاسفة اليونان، وكان ملازمًا لحاكم إشبيلية ، فلما عُرِفَ باعتناقه هذه الآراء وبالعقائد الدينية الممقوتة اتهم في دينه، وساء القول في حق الحاكم بسببه فطلب إليه مغادرة إشبيلية حتى ينسى الناس أمره، فرحل إلى بلاد المغرب وكان عمره سبعة وعشرين عامًا فأكرموه هناك واتصل بجوهر الصقلي (انظر مادة القائد جوهر) مولى المعز لدين الله الفاطمي (انظر مادة المعز) الذي منحه مائة دينار لقاء قصيدة امتدحه بها، ثم رحل إلى المسيلة بالقطر الجزائري لدى جعفر بن فلاح بن أبي مروان ويحيى بن علي بن حمدون الأندلسي فبالغا في إكرامه والإحسان إليه فمدحهما بعدة قصائد مشهورة، ثم ألحقه المعز أبو تميم معد بن إسماعيل ابن المنصور الخليفة الفاطمي ببلاطه بتونس وأسبغ عليه النعم

وقربه إليه وأحبه وطلب إليه أن يلازمه وأن يكون شاعره، ولما سافر المعز إلى القاهرة خرج ابن هانئ معه مشيعًا ثم استأذن في الرجوع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق به، فرجع ثم رحل إلى مصر فنزل في طريقه ببرقة وسكر في دار أحد أصحابه فعربدوا عليه وقتلوه في ٢٤ من رجب عام ٣٦٢هـ (٣٠ من إبريل عام ٩٧٣م) بالغًا من العمر ٣٦ عامًا، ولما بلغ المعز خبر قتله حزن عليه حزنًا شديدًا وقال: «كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك».

وأكثر شعر ابن هانئ في المدح، فمدح المعز ومدح غيره من الأمراء، وله قصائد في الرثاء والهجاء والوصف ولكنها أقل شعره شهرة، وفي قصائد مدحه تناول مختلف أغراض القريض من هجاء وحماسة ونسيب ووصف، فهو بهذا الوصف شاعر طرق جميع أبواب الشعر وأجاد فيها، وقد جاء في قصائده الغزلية بأرق المعاني وأعذبها فوضع معاني الوداع والشكوى والرجاء والأرق والبكاء والجفاء والفراق وبؤس المحب وطيف الخيال في صياغة تمتاز بالحسن والصفاء، كما أجاد التشبيه للحبيب بكلمات الظباء والمها فكان لصياغتها في قصائده جرس عذب كأنه جديد في نوعه، وكان واسع الأفق في الأخيلة لدرجة أن وصفه كان يأتي بعيدًا عن الحقيقة مرتكزًا على الخيال الفضفاض، فإذا مدح يغالي في وصف ممدوحه لدرجة أن يجعل منه مخلوقًا جمع كل صفات الكمال وحده وصار كل شيء في الوجود فيقول:

هُوَ عِلَّةُ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ
وَلِعِلّةٍ مَا كَانَتِ الأَشْيَاءُ

لَيْسَتْ سَمَاءُ اللهِ مَا تروْنَها
لَكِنّ أَرْضًا تَحْتَوِيهِ سَمَاءُ

نَزَلَتْ مَلاَئِكَةُ السَّمَاءِ بِنَصْرِهِ
وَأَطَاعَهُ الإِصْبَاحُ وَالإِمْسَاءُ

وهذه المبالغة كانت من عيوب شعره، ولكنه إذا قال في الجد والعبر أوجز وأجاد، ومن قوله في ذلك:

إنَّا وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا
طُولٌ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصَرُ

لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا
لَوْ كَانَتِ الأَلْبَابُ تعْتبرُ

أَيُّ الحَيَاةِ أَلَذ عِيشَتها
مِنْ بعد علمي أَنَّني بشرُ

خَرِسَتْ لعَمْرُ اللهِ أَلْسُنُنا
لَمَّا تكلم فوقَنَا القَدَرُ

ويحسب أسلوبه من الأساليب السهلة لأنه شاعر متفنن ولكنه كثيرًا ما يتعمد الصنعة فيأتي بالطباق والجناس أو الاستعارة الغريبة ويستعين بصناعته على إبراز معانيها وتجميلها.

وعلى الرغم من الغلو في مدائحه التي اتهمه الفقهاء من أجلها بالكفر فإن ابن هانئ يتمتع بشهرة ذائعة الصيت عند المغاربة فهو عندهم في منزلة أبي الطيب المتنبي، غير أن أبا العلاء المعري يصفه بأنه عبارة عن «رحى تطحن قرونًا لأجل

القعقعة التي في ألفاظه»، أي أنه يرى أن لا طائلة من هذه الألفاظ، وقد انتقده قائلاً: «إن من الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية»، ثم قال: «وكان ابن هانئ من شعراء المغرب المجيدين فكان يغلو في مدح المعز غلوًّا عظيمًا حتى قال فيه، وقد نزل بموضع يقال له «رقَّاده»:

حَلَّ برِقَّادَة المسيحُ
حَلَّ بها آدَمٌ وَنُوحُ

حَلَّ بها اللهُ ذُو المَعَالِي
وَكُلُّ شيءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وطبع ديوان ابن هانئ المرتب على حروف الهجاء في بولاق عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) وطبع في بيروت عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) وعام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ويشتمل على مدائحه في المعز الفاطمي وفي غيره من العظماء ويتضمن هجاءه للوهراني وبعض قصائد أخرى قالها في مناسبات مختلفة.

٢٢٨- ابن هشام - حارة - بقسم الجمرك

يلقب بابن هشام اثنان من كبار علماء النحو العرب وهما:

١) **جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري المصري**: ولد بالقاهرة في ذي الحجة عام ٧٠٨هـ (إبريل - مايو عام ١٣٠٩م) ودرس في أول أمره ديوان زهير ابن أبي سُلمى على النحوي الأندلسي أبي حيَّان (انظر هذه المادة)، كما درس على شهاب الدين عبد اللطيف بن مَرَحِّل وعلى الفكهاني (انظر هذه المادة) وغيرهم، وكان شافعي المذهب ودرَّس التفسير بالقبة المنصورية بالقاهرة، ثم تحول إلى المذهب الحنبلي قبل وفاته ليدرس بالمدرسة الحنبلية بالقاهرة أيضًا، وحفظ لذلك كتاب «المختصر» للخِرَقي في أقل من أربعة أشهر، وقد قال عنه ابن خلدون في مقدمته: «مازلنا ونحن بالغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»، والواقع هو أن ابن هشام كان إمامًا مشهورًا فتخرج عليه خلق كثير، وقد عرف بالتحقيق وسعة الاطلاع ووضوح البيان والقدرة على تعليل الأحكام، وكان أديبًا عالمًا بأسرار الكلام العربي ملأ صيته العالم الإسلامي.

وألف ابن هشام كتاب «قطر الندا وبلّ الصدا»، وهو رسالة في النحو، وشرحًا على كتابه الآنف الذكر، وكتاب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وهو رسالة أخرى في النحو، وكتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب»، وكتاب «مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، وكتاب «الروضة الأدبية في شواهد علم العربية»، «والجامع الصغير في النحو» وهو بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤١٥٩، و«مختصر الانتصاف من الكشاف» وهو مختصر كتاب «الإنصاف من الكشاف» الذي صنفه ابن المنير ردًّا على آراء المعتزلة المدونة في كتاب «الكشاف» للزمخشري (انظر هذه المادة). هذا إلى جانب كتب عديدة أخرى صنفها ابن هشام طوال حياته، وتوفي عام ٧٦١هـ (١٣٥٩م) عن ٥٣ عامًا.

ورثاه ابن نباتة (انظر هذه المادة) بقوله:

سَقَى ابْنَ هِشَامٍ فِي الثَّرَى نَوْءُ رَحْمَةٍ
يَجُرُّ عَلَى مَثْوَاهُ ذَوْبَ غَمَامِ

سَأَرْوِي لَهُ فِي سِيرةِ المَدْحِ مُسْنَدا
فَمَا زِلْتُ أَرْوِي سِيرةَ ابْنِ هِشَامِ

وقد دفن خارج باب النصر بالقاهرة.

٢) **عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري**: من كبار النحويين العرب ولد بمدينة البصرة بالعراق، وتذكر الروايات أنه توفي في الفسطاط بمصر في الثالث عشر من ربيع الثاني عام ٢١٨هـ (مايو ٨٣٤م)، وتقول روايات أخرى إن وفاته كانت في عام ٢١٣هـ (٨٢٨م)، وإلى جانب تهذيبه لسيرة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وهي السيرة التي كتبها ابن إسحق (انظر هذه المادة)، إلى جانب ذلك ألّف ابن هشام كتابًا يتضمن قصص الأنبياء وملوك عرب الجنوب بعنوان «كتاب التيجان»، وتوجد نسخة منه بالمتحف البريطاني برقمي ٥٧٨ – ٥٧٩، ونسخة بتونس برقم ٤٩٥٣، ونسخة بإستامبول برقم ٦٩١، وبخزائن الكتب بدمشق ص ٧٢ رقم ١٢.

٢٢٩ – ابن الهيثم – شارع – بقسم مينا البصل

هو أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم ويعرف عادة في مصنفاته التي درسها الغربيون في القرون الوسطى باسم «ألهازن Alhazen»، وقد كان هذا العالم الفذ من أكابر علماء العرب في الرياضيات والطبيعيات، وكانت له – من جهة أخرى – قدم ثابتة في علوم الطب والعلوم التي مارسها الذين سبقوه علاوة على تضلعه في الفلسفة ولاسيما في فلسفة أرسطو.

وقد ولد ابن الهيثم في مدينة البصرة بالعراق عام ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، ومن ثم أطلق عليه في بعض الأحيان اسم «أبو علي البصري»، ولما بلغ سن الكهولة رحل إلى مصر والتحق بخدمة الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله»، وفي هذه الأثناء عرض على الخليفة مشروعًا يرمي إلى تنظيم جريان النيل، ويظهر أن هذا المشروع لم يرق في عيني ذلك الخليفة المشهور بالشذوذ العقلي فتخلى ابن الهيثم عنه.

وعقب موت الحاكم بأمر الله ترك ابن الهيثم منصبه في قصر الخلافة وعاش من نسخ المصنفات الرياضية وغيرها من المؤلفات.

ويقول ابن أبي أصيبعة إن له حوالي مائتي كتاب ورسالة تعالج علوم الرياضيات والفلك والطبيعيات والطب والفلسفة.

وأهم مؤلفاته في الطبيعيات «كتاب المناظر» وقد نشر «ف. ريسنر F. Risner» ترجمته اللاتينية عام ١٥٧٢ في مدينة بال بسويسرا مع رسالة في الشفق، وكان «جيرار دي كريمون Gerard de Cremone» قد نقل هذه الرسالة إلى اللاتينية، ويحتمل أن يكون «دي كريمون» هذا هو الذي نقل كتاب المناظر إلى اللاتينية.

وكان لكتاب المناظر أثر عميق في معارف الغربيين لهذا العلم من علوم الطبيعة خلال القرون الوسطى، فتأثر به «روجر بيكون Roger Bacon» ومن جاءوا بعده حتى «كيبلر Kepler».

وكتب كمال الدين أبو الحسن الفارسي المتوفى عام ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) شرحًا مستفيضًا لهذا الكتاب العلمي القيم الذي هدى علماء الغرب إلى بعض أسرار الطبيعة فبنوا

عليها نظرياتهم التي يبهر العالم الآن ما وصلت إليه من الرقي الرفيع .

ومن مصنفات ابن الهيثم التي طبع بعضها باللغة العربية ولا يوجد للبعض الآخر غير ترجماتها الكتب الآتية:

- «في كيفية الأظلال» وقد نشر المستشرق فيدمان Wiedmann ترجمة مختصرة لهذا الكتاب باللغة الألمانية .
- «في المرايا المحُرَقة بالقطوع» وقد نشره باللغة الألمانية المستشرقان «فيدمان وهيبرج Heiberg» .
- «في المرايا المحُرَقة بالدوائر» وقد نقله إلى الألمانية المستشرق «فيدمان» .
- «في مساحة المجسم المكافي» وقد ترجمه وشرحه المستشرق «هـ . سوتر H . Suter» .
- ونشر فيدمان مقتطفات من رسائله التي عالج فيها الموضوعات التالية: «في المكان» ، و«في مسألة عددية» ، و«في شكل بني موسى» ، و«في أصول المساحة» .

هذا هو العالم العربي أبو علي الحسن بن الهيثم الذي كان له فضل كبير في رقيّ العلوم الرياضية والطبيعية في البلدان الغربية فأفادت من مصنفاته القيمة إلى أبعد الحدود واتخذها علماؤها الأفذاذ أمثال «بيكون وكيبلر» كتبه ورسائله دعامة بنيت عليها عجائب العلوم الطبيعية والرياضية الحالية المذهلة ، ولم يتخذها العرب ركيزة للوثوب بعلومهم إلى هذا المستوى الذي وصل إليه علماء الغرب ، فلله الأمر وهو صاحب مقدرات الشعوب ومستقبلها .

وتوفي ابن الهيثم بالقاهرة حوالي نهاية عام ٤٣٠هـ (١٠٣٩م) أو بعد ذلك بقليل كما تقول بعض المصادر .

٢٣٠- ابن واصل - شارع - بقسم الرمل (العامري سابقًا)

هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن واصل ، ولد عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) وهو من أكابر مؤرخي العرب ، وكان في أول الأمر مدرسًا بمدينة حماة ، ثم رحل إلى القاهرة إثر استدعائه إليها خلال عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م)، وكان عمره إذ ذاك حوالي ٥٤ سنة .

وفي عهد الملك بيبرس (انظر هذه المادة) كلف في مهمة سياسية في جزيرة صقلية (انظر هذه المادة) فاستقر هناك مدة طويلة لدى الملك «مانفرد Manferd» ملك صقلية في ذلك الحين ، وفي هذه الحقبة من حياته الفكرية قام بتأليف كتاب موجز في علم المنطق عنوانه «الأمبرورية» ، ويعرف هذا الكتاب عند المشارقة بعنوان «نخبة الفكر في المنطق» .

ولما عاد إلى حماة عُيِّن قاضيًا للقضاة ، وأستاذًا بمدرستها ، وهو صاحب كتاب قيم في تاريخ بني أيوب بعنوان «مُفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب» وله كتاب في التاريخ العام عنوانه «التأريخ الصالحي» ، والمجلد الأول من هذا الكتاب موجود بالمتحف البريطاني بقسم المخطوطات الشرقية برقم ٦٦٥٧ .

وتوفي ابن واصل بمدينة حماة عام ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) بالغًا من العمر ٩١ عامًا.

٢٣١ - ابن واضح - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة، وقد دوّنت ترجمته في «عبد الله بن مبارك» فاطلبها في ذلك البحث.

٢٣٢ - ابن الوردي - حارة - بقسم الجمرك

يحمل لقب ابن الوردي ممن ذكر التاريخ سيرة حياتهم اثنان وهما:

١) **زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر بن أبي الفوارس محمد الوردي القرشي البكري الشافعي**: كان لغويًّا وفقيهًا وأديبًا وشاعرًا، ولد في معرة النعمان عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) وتوفي بالطاعون في حلب في السابع والعشرين من ذي الحجة عام ٧٤٩هـ (١٣٤٩م) بالغًا من العمر ٦٠ سنة وهو من تلاميذ محمد بن النقيب.

وقد درس بمسقط رأسه ثم في حماة ودمشق وحلب وفي هذه المدينة احتل مكان القاضي محمد بن النقيب المتوفى عام ٧٤٥هـ (١٣٤٣م) ولكن لمدة قصيرة من الزمن، ويظهر أنه تخلى عن منصب القاضي عقب ذلك وكرس حياته للنواحي العلمية ومنها كتابة التاريخ، وكان رحمه الله عفيف النفس لا يستجدي بشعره، وكان شعره متوسط الجودة غاصًّا بالبديع وبخاصة التورية وتظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانًا، ومن مؤلفاته:

ديوانه ويشتمل على أشعاره ومقاماته ورسائله ومقالاته ورسالة في الطاعون الذي قدر أن يموت به، وقد طبع هذا الديوان بالآستانة عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، «ولامية أو وصية أو نصيحة الإخوان ومرشدة الخُلاَّن»، وهي منظومة أخلاقية في سبعة وسبعين بيتًا من الرمل، طبعت بالقاهرة عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) مع شرح مسعود بن حسن القناوي ومن أبياتها:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغاني والغَزَلْ
وقُلِ الفَصْلَ وجَانِبْ مَنْ هَزَلْ

وَدَعِ الذِّكْرَ لأَيَّامِ الصِّبَا
فَلأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلْ

وَاهْجُرِ الخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى
كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا
إنَّما أَصْلُ الفَتَى ما قَدْ حَصَلْ

إنَّما الوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا
يَنْبُت النَّرْجسُ إلاَّ مِنْ بَصَلْ

ومن شعره الغزلي الرقيق دباجة قصيدته التي يمدح فيها شهاب الدين بن فضل الله، فهو يقول في هذه الدباجة العذبة الجرس:

أأُقْتَلُ بَيْنَ جِدِّكَ وَالمزَاحِ
بِنَبْلِ جُفُونِكَ المَرْضَى الصِّحَاحِ

يُكَدِّرُني نَوَاكَ، وَأَنْتَ صَافٍ
ويُسْكِرُني هَوَاكَ، وَأَنْتَ صَاحِي

وَأَبْكِي لِلْغَرامِ، وَأَنْتَ لاهٍ
وأُعْذَرُ في الأوامِ، وَأَنْتَ لاَحِي

فَمَا لِسَرَاحِ دَمْعي مِن إِسَارٍ
وَمَا لإِسَارِ وَجْدي مِنْ سَرَاحِ

وَمَا لِصباحِ وَجْهِكَ مِنْ مَسَاءٍ
وَمَا لِمَسَاءِ شَعْرِكَ مِنْ صَباحِ

رِضَاكَ إلى رُضابِكَ لِي دَلِيلٌ
أَلَيْسَ كِلاَهُما رُوحِي وَرَاحِي؟

وقال في مدح مصر ونيلها العظيم وتفضيلها على بغداد ونهر العراق دِجلة:

دِيَارُ مِصْرَ هِيَ الدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا
هُمُ الأَنَامُ فَقَابِلْهَا بِتَقْبِيلِ

يا مَنْ يُباهِي ببغْدَادٍ وَدِجْلَتِها
مِصْرٌ مُقَدِّمَةٌ وَالشَّرْحُ لِلنِّيلِ

وعندما تخلى عن منصب القاضي بعد أن تولاه مدة قصيرة من الزمن قال:

تَرَكْتُ لَكُم عِزَّ القَضَاءِ وَجَاهَهُ
وأُبْعَدْتُ عَنْهُ خَائِفًا أَتَرَقَّبُ

سَتَعْلَمُ نَفْسِي أَيّ حِمْلٍ تَحَمَّلَتْ
لِيومِ أسى مِنْ هَوْلِهِ الطِّفْلُ أَشْيَبُ

لَقَدْ نِلْتُ مِنْ كَنْزِ القَنَاعَةِ بُغْيَتي
وَجَانَبْتُ حِرْصي، والحريصُ مُعَذَّبُ

وعِفْتُ بَني الدُّنْيَا، وَغَادَرْتُ بِرَّهُمْ
لِغَيْرِي، فَلاَ أَشْكُو، وَلاَ أَتَعَتَّبُ

وَمَا جَهِلَتْ نَفْسِي المَعَالِي وَطِيبَهَا
وَلَكِنْ رَأَتْ أَنَّ السَّلامَةَ أَطْيَبُ

أصونُ الَّذي عُلِّمْتُهُ عَنْ مَذَلَّةٍ
فَلِلعِزِّ في الدَّارَيْنِ قَدْ كُنْتُ أَتْعَبُ

وَرُحْتُ خَفِيفَ الظَّهْرِ عَنْ حَمْلِ مِنَّةٍ
لِمُفْتَضِحٍ بِالمَكْرِ، وَهُوَ مُحَجَّبُ

يُقَالُ لَهُ قَاضِي القُضَاةِ تَعَدِّيًا
وَظُلْمًا، وَهَذَا القَوْلُ للهِ أَوْجَبُ

تَلَبَّسَ أَثْوَابَ الرِّيَاءِ تَصَنُّعًا
لِيَغْسِلَ عَنْهُ الذَّمَّ ، وَالطَّبْعُ أَغْلَبُ

وهذه الأبيات تظهر تعففه وعزوفه عن مطامع الدنيا وزهده التقي الورع ، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب «تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة» وقد نثر فيها ألفية ابن مالك في النحو ، وكتاب «التحفة الوردية في مشكلات الإعراب» وهي منظومة من ١٥٣ بيتًا من الرجز ، وكتاب «البهجة الوردية» وهو عبارة عن منظومة في خمسة آلاف بيت من الرجز نظم فيها كتاب «الحاوي الصغير» للقزويني في الفقه الشافعي ، وكتاب «تتمة المختصر في أخبار البشر» وهو مختصر لتاريخ أبي الفداء وصل بحوادثه إلى عام ٧٤٩هـ ، وكتاب «الشهاب الثاقب والعذاب الواقف» ، وهو في التصوف ، «والألفية الوردية» وهي أرجوزة في تفسير الأحلام طبعت عدة مرات بالقاهرة .

٢) **سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي**: وكان فقيهًا شافعيًّا وهو مؤلف كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» في تقويم البلدان والتاريخ الطبيعي ، وليس لهذا الكتاب قيمة علمية تذكر ، وعلى الرغم من ذكر المراجع التي اعتمد عليها في مقدمة الكتاب وهي عن: المسعودي ، والطوسي ، وابن الأثير ، والمراكشي ، فالظاهر هو أنه نقل ما دونه في كتابه عن كتاب «جامع الفنون وسلوة المخزون» لنجم الدين أحمد بن حمدان بن شبيب الحراني الحنبلي الذي عاش في مصر حوالي عام ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) ، وقد ترجم كثير من المستشرقين فقرات منه أو ذكروا بعض فقرات مع ترجمة لها ، وقد نشر كتاب الخريدة بالقاهرة في الأعوام من ١٢٨٠ إلى ١٣٠٩هـ (١٨٦٣ - ١٨٩١م) ، وكانت وفاته في شهر ذي القعدة عام ٨٦١هـ (سبتمبر - أكتوبر عام ١٤٥٧م) .

٢٣٣ - ابن ورقاء - حارة - بقسم مينا البصل

يلقب بابن ورقاء اثنان ممن وردت تراجمهم في كتب التاريخ وهما:

١) **ابن ورقاء الأشعر**: وكان ممن يضرب بهم المثل في معرفة أنساب العرب في العصر الجاهلي وتاريخ أيامهم المشهورة .

٢) **أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد بن نصر بن ورقاء**: وكنيته الأودني وهي نسبة إلى قرية أودنة من قرى بخارا ، ويظهر أنه ولد بها فصارت له كنية ، وكان أبو بكر بن ورقاء من أخص أصحاب الإمام الشافعي (انظر هذه المادة) وإمامهم في عصره ، وبعد أن أدى فريضة الحج استقر بمدينة نيسابور وانقطع إلى العبادة والزهد في متاع الدنيا وكان من أزهد الفقهاء وأغزرهم علمًا وفقهًا .

وكانت وفاته في شهر ربيع الأول عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م) ودفن بكلاباذ بالقرب من مدينة بخارا .

٢٣٤ - ابن وكيع - حارة - بقسم الجمرك

هو أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن خلف بن حيان ابن صدقة بن زياد الضبِّي المعروف بابن وكيع التنيسي الشاعر المشهور ، ولقب ابن وكيع أو ابن الوكيع نسبة إلى جده أبي بكر محمد بن خلف وأصله من بغداد وكان مولده ببلدة تنيس بمصر .

ويقول ابن بطوطة (انظر هذه المادة) في كتابه «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» إنه ذهب إلى المحلة الكبرى وذهب منها إلى بلاد «البرلُّس ونِسْترو» ونزل هناك

بزاوية الشيخ مرزوق، ثم قال: «وتلك البلاد كثيرة النخيل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري، ومدينتهم تسمى بلطين (أي بلطيم الآن) وهي على ساحل البحيرة المتجمعة من ماء النيل وماء البحر وهي معروفة ببحيرة «تنيس ونسترو» وبمقربة منها نزلتُ هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين، وسمعت من الناس أن تنيس كانت بلدًا عظيمًا شهيرًا وهي الآن خراب وإليها ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح ابن وكيع وهو القائل في خليجها:

قُمْ فَاسْقِنِي والخَلِيجُ مُضْطَرِبُ
وَالرِّيحُ تُثْني ذَوَائِبَ القَصَبِ

كَأَنَّها وَالرِّيَاحُ تَعْطِفُها
صَبٌّ قنًا سُنْدُسِيَّةٍ العَذبِ

والجوّ فِي حُلَّةٍ مُمَسَّكَةٍ
قَدْ طَرَّزَتْها البُرُوقُ بالذَّهَبِ

فهل أبو الفتح ابن وكيع شاعر آخر غير الحسن بن علي ابن وكيع أو هو الحسن نفسه، وعلى كل حال فحديث ابن بطوطة المدوَّن قد قطع بأن الحسن بن وكيع ولد ببلدة تنيس بجهة البرلس وليس بمدينة «تنيس Ténès» الواقعة بالجهة الغربية من مدينة الجزائر عاصمة القطر الجزائري.

ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان» إن لقب وكيع ينسب إلى جدِّه ابن خلف، وكان نائبًا في الحكم بالأهواز لعبدان الجواليقي، وكان فاضلاً فصيحًا من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم، وله مصنفات كثيرة منها «كتاب الطريق»، و«كتاب الشريف»، و«كتاب عدد آيات القرآن والاختلاف فيه»، و«كتاب الرمي والنضال»، و«كتاب المكاييل والموازين»، وله شعر كشعر العلماء وتوفي ببغداد عام ٣٠٦هـ (٩١٨م).

وذكر أبو منصور الثعالبي ابن وكيع في كتابه «يتيمة الدهر»، فقال إنه شاعر بارع وعالم جامع برع على أهل زمانه فلم يتقدمه أحد في أوانه، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعبد الأفهام.

وكان ابن وكيع من الشعراء المبرزين في زمانه حقًّا، وله ديوان شعر يضم ما نظم من قصائد، وألف كتابًا بعنوان «المنصف» بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي.

وكلمة وكيع مشتقة من فعل وكع أي لَؤُمَ أو اشتد وصلب وكان في لسان ابن وكيع عجمة وكان يسمى بالعاطس.

ومن شعره في الغزل الرقيق الحاشية العذب الجرس قوله:

سَلا عَنْ حُبِّكَ القَلْبُ المَشُوقُ
فَمَا يَصْبُو إِلَيْكَ وَلاَ يَتوقُ

جَفَاؤكَ كانَ عَنْكَ لَنَا عَزَاءٌ
وقَدْ يُسْلِي عَنِ الولد العُقُوق

وله أيضًا:

إِنْ كَانَ قَدْ بَعُدَ اللِّقَاءُ فَوُدُّنا
بَاقٍ ونَحْنُ عَلَى النَّوَى أَحْبَابُ

كَمْ قَاطِعٍ لِلوْصَلِ يُؤْمَنُ وُدُّهُ
ومُواصِلٍ بِوِدادِهِ يُرْتابُ

وقال في الزهد والإخفاق في الحياة:

لَقَدْ قَنَعَتْ هِمَّتي بِالخُمُولِ
وَصَدَّتْ عنِ الرُّتَبِ العاليهْ

وَمَا جَهلَتْ طعم طِيب العُلا
وَلَكِنَّها تُؤْثِرُ العَافِيهْ

وله في الغزل هذه الأبيات التي لا تفترق عن الشعر الحديث فكأنها لشاعر معاصر من الشعراء المصريين، فاستمع إليه يقول:

أَبْصَرَهُ عَاذِلي عَلَيْهِ
ولَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَا رَآهُ

فَقَالَ لِي لَوْ هَوَيْتَ هَذَا
مَا لاَمَكَ النَّاسُ فِي هَوَاهُ

قُلِ لِي إِلَى مَنْ عَدَلْتَ عَنْهُ
فَلَيْسَ أَهْلُ الهَوى سِواهُ

فَظَلَّ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ يَدْرِي
يَأْمُرُ بِالحُبِّ مَنْ نَهَاهُ

وتوفي ابن وكيع في يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ من جمادى الأولى عام ٣٩٣هـ (١٠٠٢ - ١٠٠٣م) بمسقط رأسه «تنيس» ودفن في المقبرة الكبرى في القبة التي بنيت له بها.

ومن الغريب أن ضريحًا لأحد الأولياء يدعى محمد وكيع نقل من الشارع المسمى باسم «ابن وكيع» بقسم الجمرك إلى مجمع الأضرحة، الذي شيد في حوالي عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) في عهد الأستاذ أحمد صديق مدير بلدية الإسكندرية العام في ذلك الحين بجوار مسجد أبي العباس المرسي، فهل محمد بن وكيع من أحفاد ابن وكيع الشاعر المشهور أو هو ابن وكيع آخر من أولياء الله الكثيري العدد بالإسكندرية؟ الله أعلم بالغيب وبخفايا الحوادث والأمور.

ومما يلفت النظر في ترجمة ابن وكيع أن أحمد باشا تيمور ذكر في كتابه «ضبط الأعلام» أن ابن وكيع كان أحد أولياء مدينة الإسكندرية الصالحين وكان يدعى بأبي وكيع «التنيسي»، وكان مشهورًا بورعه وتقواه وتوفي بالإسكندرية في يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٣٩٣هـ (١٠٠٢ - ١٠٠٣م)، ولقب وكيع جاءه عن جده أبي بكر محمد بن خلف بن وكيع ولا يعرف تاريخ ومكان مولده فكيف يتفق قول أحمد تيمور مع ما جاء بالمراجع التاريخية الأخرى من أن ابن وكيع توفي بمسقط رأسه «تنيس» في التاريخ نفسه الذي ذكره ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» وهو ٢٣ جمادى الأولى عام ٣٩٣ هـ، فأي من القولين يعتمد عليه؟ وهل سيدي محمد وكيع هو ابن وكيع الشاعر نفسه أو واحد آخر من أولياء الله وأن أحمد تيمور قد خلط بين الاثنين فجعل ابن وكيع التنيسي يموت بالإسكندرية كما جعله من أولياء الله الصالحين، وليس من الشعراء كما يقول ابن خلكان؟ وفي هذا ما لم أستطع الوصول إلى حقيقته.

٢٣٥ – ابن الوكيل – شارع – بقسم باب شرقي

كان من العلماء، ولد بدمياط وتوفي بالقاهرة عام ٧١٧هـ (١٣١٧م)، وكان إلى جانب علمه شاعرًا مجيدًا واشتهر في حياته – ولاسيما في القاهرة – بإتقانه نظم الموشحات الأندلسية الغنائية التي نقلها مسلمو الأندلس إلى الشرق العربي بعد هجرتهم إليه إثر انهيار الدويلات الإسلامية في الأندلس، وإرغام سكانها على مغادرة إسبانيا للحفاظ على دينهم.

٢٣٦– ابن وَلاد – شارع – بقسم الرمل

هو أحمد بن وَلاّد بن محمد أبي العباس، تلقى العلم على الزَّجّاج، ثم عَلَّم في مصر وله كتاب «المقصور والممدود، انتصار سيبويه على المبرد» وقد طبع هذا الكتاب بعناية برونله عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) بمدينة لندن.

وابن ولاّد من أهل مصر، وقد رحل إلى العراق، ليتلقى العلم، وكان من تلاميذ ابن إسحق إبراهيم بن السري بن سهل الملقب بالزجَّاج النحوي الشهير، وقد توفي ابن ولاّد عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م).

٢٣٧– ابن الوليد – حارة – بقسم الرمل

٢٣٨– ابن الوليد – شارع – بقسم محرم بك

انظر ترجمته في «مسلم بن الوليد» أو صريع الغواني

٢٣٩ – ابن وهب – عطفة – بقسم الجمرك

٢٤٠ – ابن وهب – شارع – بقسم باب شرقي

يعرف بلقب «ابن وهب» ثلاثة ممن دوَّن المؤرخون معلومات عن حياتهم الفكرية وهم:

١) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم (القرشي بالولاء): وكان مولى ريحانة مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنسي القهري، وقد ولد بمصر في شهر ذي القعدة عام ٣٢٤هـ (٧٤١م) أو في عام ١٢٧هـ (٧٤٤م) على حد قول بعض المؤرخين.

وكان أحد أئمة عصره في الفقه المالكي، وذكر أبو جعفر ابن الجزار (انظر هذه المادة) أن ابن وهب رحل إلى الإمام مالك عام ١٤٨هـ (٧٦٥م) وتتلمذ عليه ولازم صحبته عشرين عامًا ولم يفارقه حتى وافته المنية، ومن ثم استطاع أن يؤلف كتابي «المُوَطَّأ الصغير»، «والمُوَطَّأ الكبير»، وكان الإمام مالك (انظر هذه المادة) يكتب إليه قائلاً: إلى عبد الله بن وهب المفتي، ولم يكن يفعل ذلك مع غيره، وقد ذُكر ذات يوم عند الإمام مالك فقال: إنه عالم.

ومن جهة أخرى دوَّن ابن وهب رسائل أستاذه في كتاب بعنوان (المجالسات) سطر فيه كل ما سمعه من الإمام، وقد بدأ في كتابة الموطأ في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر وأتمه في عهد الخليفة المهدي العباسي، وحاول هارون الرشيد جعل الموطأ قانونًا تعلق نسخة منه بالكعبة ليعلمه الناس جميعًا ولكن الإمام مالك لم يرض بذلك.

ولابن وهب مصنفات أخرى في الفقه لها شهرتها وتقديرها، وكان في الوقت نفسه محدثًا بارعًا من الموثوق في صحة نقلهم للأحاديث النبوية الشريفة.

وكتب له الخليفة العباسي في قضاء مصر فخبأ نفسه ولزم بيته، ولما سئل عن سبب ذلك قال: إن العلماء يحشرون مع الأنبياء، والقضاة يحشرون مع السلاطين وإني أريد أن أحشر مع الأنبياء وكان مشهودًا له بالتقوى والورع وحب الخير.

وتوفي بمصر في يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر شعبان عام ١٩٧هـ (٨١٢م) بالغًا من العمر أكثر من ٧٠ عامًا.

٢) أبو أيوب سليمان بن وهب: كان كاتبًا ليزيد بن أبي سفيان عندما كان واليًا على بلاد الشام ثم صار كاتبًا لمعاوية بن أبي سفيان (انظر هذه المادة) أول خلفاء الدولة الأمية لدى قيامها في دمشق، وبعد وفاة معاوية استكتبه ابنه يزيد كما استكتب ابنه قيس بن وهب الذي ظل كاتبًا لمروان بن الحكم ولولده عبد الملك بن مروان (انظر مادتي مروان وعبد الملك بن مروان) ثم لهشام بن عبد الملك، وفي أيام هشام بن عبد الملك توفي قيس بن سليمان بن وهب فاستكتب هشام ابنه الحصين الذي ظل كاتبًا لبني أمية حتى عهد مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء هذه الدولة، وبقيت أسرة ابن وهب في خدمة الخلفاء العباسيين بعد الأمويين ردحًا من الزمن غير قصير.

وقد كان لأبي أيوب سليمان بن وهب قدر رفيع يدل على ذلك أن أبا تمام الشاعر المشهور مدحه بقصيدة جاء فيها:

كلُّ شَعْبٍ كُنْتُمْ بِهِ آلَ وَهْبٍ
فَهْوَ شَعْبي وشَعْبُ كُلِّ أَدِيبِ

إنَّ قَلْبِي لَكُمْ لَكَالكَبِدِ الحر
ى وَقَلْبِي لِغَيْرِكُم كَالقُلُوبِ

وسمع هذين البيتين بعض الأفاضل من الأدباء فقال: لو كان هذان البيتان في آل رسول الله كان أليق فما يستحق هذا القول إلا هم.

ومدح البحتري (انظر هذه المادة) سليمان بن وهب بقصيدة من خرائد شعره منها هذان البيتان:

كَأَنَّ آرَاءَهُ وَالحَزْمُ يتبَعُها
تُرِيهِ كُلَّ خَفيّ وَهْوَ إِعْلانُ

مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالقَلْبُ يَكْلَؤُهُ
وَإِنْ تَنَمْ عَيْنُهُ فَالقَلْبُ يَقْظَانُ

وقد تنقل سليمان بن وهب في الدواوين بين العظماء والوزراء ولم يزل كذلك إلى أن وافته المنية مقبوضًا عليه سجينًا عام ٢٧٢هـ (٨٨٥م) ويقال إنه تولى الوزارة في عهد من العهود قبل وفاته.

٣) الحسن بن وهب: وهو أحد أحفاد أبي أيوب سليمان ابن وهب المدوَّنة ترجمته قبل، وكان شاعرًا مجيدًا بليغًا، وله ديوان الرسائل وكان من أعيان عصره، وقد كان السبب في أن تولى الشاعر المشهور أبو تمام بريد الموصل.

ولما توفي أبو تمام رثاه الحسن بن وهب بقصيدة متينة العبارة جزلة الأسلوب، ولم يوضح مؤرخو سيرته تاريخ ومكان وفاته.

٢٤١ – ابن ياسر – شارع – بقسم كرموز

هو عمَّار بن ياسر بن عامر، وياسر بن عامر من أهل اليمن وكان له شقيق يكنُّ له الحب الدافق، وكان هذا الشقيق قد سافر مع إحدى القوافل للتجارة والعودة بالربح والأرزاق إلى أهله، ولكن القافلة عادت دون هذا الشقيق فحزن ياسر عليه أشد الحزن وصمم على أن يجوب الصحارى والوديان بحثًا عن أخيهم، ثم استقر في آخر الأمر بمدينة مكة مركز تجمع القوافل في رحلتي الشتاء والصيف علَّه يعثر على أخيه العزيز في يوم من الأيام.

وطال مقام ياسر بمكة ورأى أن لابد له من التحالف مع سيد من سادات قريش يحميه ويعيش في كنفه وكان أن اختار حذيفة سيد بني مخزوم.

وقبل حذيفة محالفة ياسر بن عامر اليمني وأنزله في رحابه وأمَّنه على نفسه وماله، وفي بيت حذيفة رأى «سُمَيَّة» جارية خليفة السمراء الحبشية الجميلة فطلبها من سيدها وتزوجها، وأنساها الفرح الغامر إشهاد الناس على أن سيدها قد أعتقها، وبعد مرور العام على الزواج أنجبت سمية ابنها البكر «عمَّار بن ياسر».

ومات حذيفة المخزومي وشب عمَّار ولم يُثَر الجدل في قريش حول الجارية «سمية» وابنها – وهل هي أَمَة وعمَّار عَبْدٌ من عبيدهم أو هما من الأحرار لا حق لسادة قريش عليهما؟

وقامت الدعوة المحمدية إلى عبادة الله الواحد الأَحَد وكانت سُمَيَّة ثانية النساء في الاستجابة إلى الإسلام بعد السيدة خديجة أم المؤمنين، وتبع سُمَيَّة زوجها ياسر وابنها عمَّار، واستبد الغضب بأبي جهل فأعلن أن آل ياسر الثلاثة مازالوا عبيدًا وأخذ على عاتقه تعذيبهم، واستخدم في ذلك أقسى أنواع الوحشية من ضرب بالسياط ووضع الأحجار الثقيلة فوق بطونهم وهم مطروحون على ظهورهم فوق الرمال الملتهبة بحرارة الشمس، واستشهد ياسر بن عامر، أما سمية فقد قاومت العذاب بعده وطفقت تسب أبا جهل وتسب آلهته من الأوثان فدفعه الحقد والشراسة إلى طعنها بحربته فاستشهدت في سبيل العقيدة الإسلامية وكانت أول الشهيدات من النساء.

وكان رسول الله قد مر على آل ياسر وهم يعذبون فقال لهم: «اصبروا فلكم الجنة»، واستمر تعذيب عمار بن ياسر فكانوا يلهبون ظهره بالصخر الملتهب ثم يغمسون رأسه في مياه عميقة لقتله غرقًا، ويتوالى عليه العذاب في ذلك اليوم حتى يفقد وعيه وشعوره فيستجيب لهم ويذكرآلهتهم بالخير.

ثم يذهب باكيًا إلى رسول الله فيسأله الرسول: «كيف تجد قلبك»، فيرد عمار: «أجده مطمئنًا بالإيمان»، فيقول له النبي: «يا عمَّار إن عادوا فعد، وقل لهم مثل قولك هذا»، وينزل في حادث عمَّار قول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾، ويقول أصدقاء عمار عن أنواع العذاب التي لقيها من المشركين: «أحرق المشركون عمَّار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله يمر به ويضع يده على رأسه ويقول: يا نار كوني بردًا وسلامًا على عمَّار كما كنتِ بردًا وسلامًا على إبراهيم».

وعاش عمَّار بن ياسر في المدينة المنورة بعد الهجرة مناضلاً مقاتلاً في سبيل الحق والذود عن دين الله، ويخوض كل المعارك مع النبي ويظهر بطولة فذة في موقعة بدر الكبرى، أول معارك المسلمين مع الكفار.

ثم خاض المعارك مع أبي بكر الصديق (انظر هذه المادة) فحارب معه جيوش المرتدين عن الدين الإسلامي في معركة اليمامة، وحارب مسيلمة الكذاب وفي هذه المعركة فقد إحدى أذنيه، ويقول عبد الله بن عمر بن الخطاب عن دور عمار في معركة اليمامة: «رأيت عمَّار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنَّة تفرُّون، أنا عمَّار بن ياسر، هلمُّوا إليّ»، «فنظرت إليه فإذا أذنه مقطوعة تتأرجح، وهو يقاتل أشد القتال».

وكان ابن ياسر بطلاً أيضًا في حروب المسلمين المنتصرة مع الفرس.

ورآه النبي وهو يرفع الأحجار مسهمًا في بناء مسجد المدينة فاقترب منه ومد يده يمسح بها على رأسه أمام الصحابة وقال: «ويح ابن سميَّة، تقتله الفئة الباغية»، وتحققت هذه النبوءة في خلافة علي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام علي)، فبعد أن ولاَّه عمر بن الخطاب على الكوفة تقدمت به السن فبلغ التسعين من العمر عندما خرج معاوية على طاعة عليّ، وعندما حدثت موقعة «حنين» رأى عمار أن يدافع عن الحق وأعلن رأيه في صراحة قائلاً: «يا أيها الناس، سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان بن عفان، والله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرءوها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم، وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين لهم ولا الولاية عليهم، ولا عرفت قلوبهم من خشية الله ما يحملهم على اتباع الحق. . . فهم يريدون أن يكونوا جبابرة وملوكًا».

وعلى الرغم من شيخوخته الطاعنة في السن حمل عمَّار بن ياسر السيف وراح يحارب ترفع يده راية الخلافة الشرعية.

وتحققت نبوءة النبي فأحاط جنود معاوية بالمحارب الشيخ البطل وأصابوه بسيوفهم، وقتلت الفئة الباغية عمارًا وتحققت نبوءة رسول الله في الرجل الذي كان عندما يذهب إلى بيت النبي زائرًا يقول له النبي وهو يسمح له بالدخول «مرحبًا بالطيب المطيب، ائذنوا له».

رحم الله عمَّار بن ياسر وأسكنه فسيح جناته.

وأرى من الملائم ذكر ترجمة رجل ماجن يحمل لقب «ابن ياسر» وذلك تعميمًا للفائدة وحرصًا على الأمانة التاريخية التي تحتم تدوين كل ما يطلع عليه المؤرخ من مصادر ومراجع، فابن خلِّكان يذكر في كتابه «وفيات الأعيان» ترجمة الشاعر «أبي علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الشاعر البصري المعروف بالخليع»: وقد كان مولى ولد سليمان بن ربيعة الباهلي الصحابي، وأحيل ابن ياسر من خراسان، وكان شاعرًا ماجنًا حسن التفنن في ضروب الشعر وألوانه المختلفة، واتصل في مجالسة الخلفاء إلى ما لم يتصل إليه إلاَّ إسحق النديم الموصلي، غير أنه قاربه في ذلك أو ساواه، وكان أول من صحب محمد الأمين الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد، وكان اتصاله به خلال عام ١٩٨هـ (٨١٣م) وهو العام الذي قتل فيه الأمين، ولم يزل يصاحب الخلفاء إلى أيام المستعين

بالله (انظر هذه المادة)، ويُعدّ ابن ياسر من الطبقة الأولى من الشعراء المجيدين، وبينه وبين أبي نواس (انظر هذه المادة) نوادر لطيفة وحوادث طريفة.

ولُقِّب ابن ياسر بالخليع لكثرة مجونه وخلاعته، وقد ذكره ابن المنجم في كتابه «البارع» وذكره أبو الفرج الإصفهاني في كتابه «الأغاني»، وأورد كل منهما بعض أشعاره العذبة الجرس، من ذلك قوله:

صلْ بِخَدِّي خَدَّيْكَ تَلْقَى عَجِيبًا
مِنْ مَعانٍ يَحارُ فيها الضميرُ

فَبِخَدَّيْكَ للربيعِ رِياضٌ
وَبِخَدَّيَّ للدموعِ غَدِيْرُ

وله في الغزل الرقيق الحلو هذه الأبيات:

أيَا مَنْ طرْفُهُ سِحْرُ
ويَا مَنْ رِيْقُهُ خَمْرُ

تجاسَرْتُ فكاشَفْتُكَ
لما غُلِبَ الصَبْرُ

وما أحْسَنَ في مِثْلِـ
ـكَ أن يَنْهَتِكَ السِتْرُ

فإنْ عنَّفني الناسُ
ففي وَجْهِكَ لي عُذْرُ

وقال في الغزل أيضًا:

لا وحُبَّيْكَ لا أُصَا
فِحُ بالدَّمْعِ مَدْمَعَا

مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْترا
حَ وإنْ كان مُوجَعَا

كَبدِي في هواكَ أسْـ
ـقَم مِنْ أنْ تُقطَعَا

لم تَدَعْ صورة الضَّنَى
فيَّ للسقمِ مَوْضِعَا

وقال في العتاب الشفاف المعاني الجزل العبارة والرنين:

إذا خُنْتُمُو بالغَيْبِ عَهْدِي فما لكم
تَدُلُّونَ إدْلالَ المقيمِ على العَهْدِ

صِلوا وافعلوا فِعلَ المُدِل بِوَصْله
وإلاَّ فَصُدُّوا وافعلوا فعلَ ذي صَدِّ

سَقَى الله عَصْرًا لم أبِتْ فيه ليلةً
مِنَ الدَّهرِ إلاَّ مِنْ حَبِيبٍ على وَعْدِ

وقد وافت ابن ياسر الخليع المنية عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م) وقد أشرف على المائة من عمره.

فانظر أيها القارئ الكريم كيف يكون تشابه الألقاب وسيلة للجمع بين اثنين لا يمتّ أحدهما بأية صلة للآخر فيما يتعلق بسلوكه في الحياة، فابن ياسر الصحابي من أجلاء رجال الإسلام عند بزوغ شمسه، وابن ياسر الشاعر من الماجنين الذين اشتهروا بالعبث والاستهتار بالقيم الاجتماعية الكريمة، وهكذا كان من المستطاع أن يظن الناس أن الشارع بقسم كرموز يحمل اسم رجل المجون دون التقوى والصلاح والجهاد في سبيل الله، وكان هذا اللبس في الأذهان لا يجد له مجالاً إذا سمي الشارع باسم الصحابي الجليل «عمَّار بن ياسر»، وقد أدى الاختصار المخل في كثير من أسماء شوارع الإسكندرية إلى هذا اللبس مما جعلني أذكر تراجم عدة لكثير من الأسماء التي تناولها الإيجاز، ولم تذكر ألقاب أصحابها كاملة.

٢٤٢ - ابن يَسَار - شارع - بقسم سيدي جابر

يحمل لقب ابن يَسَار خمسة ممن ذكر التاريخ شيئًا عن سيرة حياتهم وهم:

١) **أبو عبد الله سليمان بن يَسَار**: كان مولى السيدة ميمونة إحدى زوجات رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان أحد الفقهاء السبعة العظام بالمدينة المنورة، وكان عالمًا وثقة في الحديث وكان تقيًّا ورعًا وحجة في الفقه الإسلامي في صدر الإسلام، وقد روى الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة كما روى عن أم سلمة، وروى عنه الزهري وجماعة من أكابر المحدثين، وكان طالب الفتوى إذا جاء سعيد بن المسيب يقول له اذهب إلى سليمان بن يسار فإنه أعلم من بقي في قيد الحياة إلى اليوم، وقال قتادة: «قدمت المدينة فسألت: من أعلم أهلها بالطلاق؟» فقالوا سليمان بن يَسَار، وهذا يدل على علمه الغزير وتبحره في الفقه.

وتوفي هذا الفقيه الورع عام ٩٩هـ (٧١٧م) عن ٧٣ عامًا، ومن ثمَّ يكون قد ولد عام ٢٤هـ (٦٤٤م).

٢) **إسماعيل بن يسار النسائي**: وكان من أسرة فارسية اشتهرت بالشعر وعميدها هو يسار النسائي الذي سمي بالنسائي لأنه كان يصنع الطعام للعرس ويبيعه لمن أراد ذلك ممن لم تبلغ حاله صنع الطعام في بيته فنسب إلى النساء.

وقد اشتهر من هذه الأسرة إسماعيل وإبراهيم ومحمد ولكل منهم أشعار يُغَنَّى بها، وكلهم كانوا شعوبيين يتعصبون للعجم وينقمون على العرب، ويقول أبو الفرج الإصفهاني في كتابه «الأغاني» إن إسماعيل بن يَسَار كان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان بسبب ذلك محرومًا مضروبًا مطرودًا، ومن قوله يفخر على العرب، وكان من أوائل من كشفوا عن شعوبيتهم، هذه الأبيات:

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لي وعَمٍّ
ماجِدٍ مُجْتَدى كريمِ النِّصابِ

إنَّما سمي الفوارسُ بالفُرْ
سِ مُضاهاةَ رِفعَةِ الأنْسابِ

فاتركي الفخرَ يَا أُمامُ عَلينا
واتركي الجَوْرَ وانطقي بالصوابِ

واسألي – إنْ جَهلتِ – عَنَّا وعنكم
كيف كُنَّا في سالفِ الأحْقابِ

إذْ نُرَبِّي بناتنا وتَدُسُّو
ـنَ سَفَاهًا بناتِكم في الترابِ

وهو في هذه الأبيات يندد بعادة العرب في الجاهلية، إذ كانوا يئدون البنات أحياء عند ولادتهن تخلصًا من العار الذي قد يلحق بهم أو لفقر يخشونه.

ولأخيه إبراهيم بن يسار شعر يعتز فيه بالعجم ويفخر به على العرب، وقد دخل إسماعيل بن يسار على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فاستنشده فأنشد قصيدة مطلعها الفخر بالفرس إذ يقول في هذا المطلع:

إنِّي وَجَدِّكَ ما عُودي بذي خَورٍ
عند الحفاظ، ولا حَوْضي بِمَهْدومِ

أصْلي كريمٌ ومجدي لا يُقاسُ بهِ
ولي لِسانٌ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسْمومِ

أحْمي به مَجْدَ أقْوامٍ ذَوِي حَسَبٍ
مِنْ كلِّ قِرْمٍ بتاجِ الملكِ مَعْمومِ

جَحاجِحٍ سادةٍ بُلجٍ مَرَازِبَةٍ
جُرْدٍ عِتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ

فغضب الخليفة هشام وأمر بأن يُغَطى إسماعيل بن يسار في الماء فغطوه في بركة حتى كادت روحه تخرج ثم أمر بنفيه فأخرج إلى الحجاز.

والشعوبية التي اتصف بها إسماعيل بن يسار فرقة من الفرس تفضل العجم على العرب وتحط من شأنهم وترفع من قدر غيرهم، وقد قوي شأن هذه الفرقة الضالة وقوي سلطانها في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون لتغلغل العجم في الدولة العباسية وسيطرتهم على الحكم.

ويستطاع القول بأن الشعوبية مبدأ سياسي يدعو إلى تفضيل الفرس على العرب، وقد نشطت حركتها نشاطًا كبيرًا في العراق وإيران والأندلس وذلك لأن الإسلام قضى في هذه البلاد على حضارات كانت قائمة، فعزَّ على شعوب هذه المناطق خضوعها للعرب وارتفعت لذلك أصوات تدعو إلى نبذ التراث العربي والاستهانة بالثقافة العربية الإسلامية، وقد بدأت الحركة الشعوبية في العصر الأموي متسترة بستار إسلامي، فدعا إلى المساواة بين الموالي والعرب مستندة في دعايتها على القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد ساعد الشعوبيين في دعوتهم هذه أن بعض الأحزاب السياسية العربية قد نادت بوجوب تحقيق المساواة التي جاء بها الإسلام، ومن بين هذه الأحزاب فرقة الخوارج، واستغل الشعوبيون هذه الحركة أكبر استغلال ولكن مثل هذه المطالب تبدو معقولة لو كانت منزهة عن الهوى، غير أن الواقع هو أن الدعوة إلى المساواة بين العرب والموالي لم تكن إلا ستارًا يخفي وراءه كراهية العرب والعروبة، ومازالت الشعوبية تمزق بعض أوصال الأمة العربية في بعض دولها ولاسيما في العراق وهي تجاهر بتفضيل الفرس

على العرب وتفاخر بالأمجاد الفارسية وحضارتها أو تتخذ موقفًا معاديًا لاتحاد الدول العربية ووحدتها المنشودة.

٣) أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله بن يسار الأشعري: كان وزيرًا وجاء ذكره منذ عهد الخليفة العباسي المنصور (انظر مادة المنصور)، وقد صحب ابن يسار ابن الخليفة محمد المهدي عندما أنفذه أبوه في حملة على والي خراسان الثائر عبد الجبار بن عبد الرحمن، فلما ولي الخلافة محمد المهدي عام ١٥٨هـ (٧٧٥م) عَيَّن ابن يسار كاتبًا له لاشتهاره بالمعرفة الواسعة بشعراء العرب الأقدمين، وسرعان ما اكتسب صيتًا كبيرًا في البلاط العباسي فرقي إلى منصب الوزير، ولكنه مع ذلك لم يستطع خلال المدة الطويلة التي مكثها في هذا المنصب (وهي من عام ١٥٨ إلى عام ١٦٣هـ) (٧٧٥ – ٧٨٠م)، لم يستطع أن يأمن حسد رجال البلاط الآخرين إذ وقع فريسة لدسائس الحاجب الربيع بن يونس، ولكي يوقع الربيع بالوزير ابن يسار اتهم ابنه محمد بالزندقة فاستدعاه الخليفة ووضع القرآن أمامه ولكنه لم يُجِدْ قراءته تمامًا، فأخذ الخليفة المهدي هذا القصور برهانًا على ميله إلى التفكير الحر، فأمر بقتله عام ١٦١هـ (٧٧٨م)، وقد أحرج هذا الأمر مركز ابن يسار وانتهت عداوته للحاجب القوي الربيع بن داود بن يونس بسقوطه فأقصي عن الوزارة وحل محله يعقوب بن داود، إلا أنه بقي على الرغم من ذلك رئيسًا لديوان الرسائل حتى عام ١٦٧هـ (٧٨٤م)، ووافته المنية عام ١٧٠هـ (٧٨٦ – ٧٨٧م).

وتجمع شهادة المصادر التاريخية على أنه كان رجلاً من الطراز الأول كفئًا أمينًا، ويذكر ابن الطقطقي أخبار ما حققه في التنظيم والإدارة مما انتهى به إلى إصلاح الخراج مستبدلاً بضريبة الأرض في سواد العراق ضريبة عينية تؤدى من المحصول وله كتاب في هذا الموضوع.

٤) أبو عياد ثابت بن يحيى بن يسار: ويكنى الرازي لأن أصل أسرته من الري، وقد تولى ديوان الرسائل في عهد المأمون (انظر هذه المادة) بعد وفاة ابن أبي خالد الذي استطاعت الوشايات أن تفسد بينه وبين الخليفة فأمر بقتله بالبخور، ويقول ابن القنطي إن يحيى بن يسار كان أهوج أحمق مما أدى إلى قتله عام ٢١١هـ (٨٢٦م).

٥) الحسن بن يسار: وكان مولى زيد بن ثابت (انظر مادة ابن ثابت)، وكان من علماء الكوفة المشهورين.

٢٤٣– ابن يعيش – حارة – بقسم الرمل

من بين مفكري العرب الذين يحملون لقب «ابن يعيش» اثنان ممن دوَّن التاريخ سيرة حياتهم وهما:

١) أبو الحسن طارق بن موسى بن يعيش: وقد جاء ذكره في «معجم السَّفَرْ» الذي ألفه الإمام «الحافظ السلفي» (انظر مادة السلفي)، ودوَّن فيه تراجم العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين الذين تتلمذوا عليه في المدرسة السلفية الشافعية التي شيدها له «أبو الحسن علي بن السلاَّر» حاكم الإسكندرية في عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) لنشر المذهب السني على المذهب الشافعي ومقاومة المذهب الشيعي الذي عمل الخلفاء الفاطميين على نشره بالقوة في مصر.

وقال السلفي في ترجمته لأبي الحسن بن يعيش إنه كان أحد علماء بلنسية بالأندلس، ثم نزح إلى الإسكندرية في طلب العلم، وكان من أهل الصلاح والتقى والورع، وأقام

بالمدينة يدرس بالمدرسة السلفية الشافعية على أبي الطاهر الحافظ السلفي مدة كبيرة من الزمن وسمع على جماعة من شيوخ الإسكندرية بقراءة السلفي نفسه وقراءة غيره وكتب عن أستاذه السلفي كثيرًا وروى عنه بالأندلس بعد عودته إليها .

وبما أن المدرسة السلفية الشافعية أقيمت عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وكانت وفاة الحافظ السلفي عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) فإن المدة التي قضاها ابن يعيش الأندلسي بالإسكندرية تقع بين هذين التاريخين .

٢) موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش: وكنيته الحلبي، ويعرف أيضًا بابن الصانع، وقد كان من علماء النحو، وكان مولده في الثالث من رمضان عام ٥٥٣هـ (٢٨ من سبتمبر عام ١١٥٨ م)، وبعد أن درس الحديث والنحو في مسقط رأسه، وفي دمشق عزم على الرحيل إلى بغداد ليحضر دروسًا على النحوي أبي البركات الأنباري، ولما سمع وهو في الموصل بوفاة هذا العالم مكث مدة من الزمن هناك يدرس الحديث، ثم عاد إلى حلب حيث وقف حياته على التدريس .

ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان» إنه كان حجة في الأدب وقد قرأ ابن خلكان عليه .

وله – إلى جانب حاشيته على شرح ابن جني – قدرة على «تصريف» المازني بشرح واف على «المفصل» للزمخشري، وكان يعارض آراء الزمخشري في أغلب الأحيان، وقد نشر المستشرق «ج . جاهن G. Jahn» هذا الشرح في مدينة ليبزيك ببولاندا عام ١٣٠٠ وعام ١٣٠٤هـ (١٨٨٢ و١٨٨٦م)،

وتوفي ابن يعيش بحلب في ٢٥ من جمادى الأولى عام ٦٤٣هـ (١٨ من أكتوبر عام ١٢٤٥م) ودفن بها في مقام إبراهيم .

٢٤٤ – ابن يوسف – شارع – بقسم العطارين

٢٤٥ – ابن يوسف – حارة – بقسم الجمرك

هو أحمد بن يوسف أحد كتاب دولة بني العباس وتقول بعض الروايات إن أصل آبائه من أقباط مصر الذين شغلوا وظائف الكتابة لبني العباس، فنشأ أحمد في بيت علم وأدب وشب على إتقان فن الكتابة، وكان من أبلغ الكتاب والشعراء واشتهر بصفة خاصة في عهد الخليفة العباسي المأمون، وله كتب بليغة وكثير من الرسائل الديوانية والإخوانية، وكانت طريقته في الكتابة تهدف إلى التوسع في المعاني والأساليب والعبارات وتميل إلى جزالة الألفاظ مع التطويل في الرسائل السلطانية، وكان يتولى ديوان الرسائل للخليفة المأمون وظل يشغل هذا المنصب إلى أن غضب عليه الخليفة غضبة عنيفة مات على إثرها وكانت وفاته خلال عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) .

وفيما يلي نماذج من نثره الفني، فيقول في أحد توقيعاته وقد وجهه إلى عامل ظالم:

"الحقُ طريقُ واضح لمن طلبه، تهديه محجتهُ، ولا تُخافُ عثرتهُ وتؤمن في السر مغبته فلا تقلَّنَّ منه ولا تعدلنَّ عنه، فقد بالغتُ في مناصحتك، فلا تحوجني إلى معاودتِك، فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوة الإنكار عليك» .

وكتب مهنئًا بمولود:

«أما بعد، فليس مِنْ أَمْرٍ يَجْعَلُ الله لك فيه سُرورًا إلا كُنْتُ به بَهِجًا أَعْتَدُّ فيه بالنعمة من الله الذي أَوْجَبَ عليَّ من حَقِّكَ، وعرَّفني مِنْ جميلِ رأيكَ، فزادك الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك، وقد بَلَغني أن الله وَهَبَ لكَ غُلامًا سَرِيًّا أَجْمَلَ صورته، وأتمَّ خَلْقَه، وأَحْسَن فيه البلاءَ عندك فاشتدَّ سروري بذلك، وأكثرْتُ حَمْدَ الله عَلَيْه، فباركَ الله فيه وجَعَله بارًّا تقيًّا يَشُدُّ عَضُدَكَ، ويُكْثِرُ عَدَدك، ويُقِرُّ عَيْنَكَ».

٢٤٦- ابن يونس - شارع - بقسم كرموز

يحمل لقب ابن يونس اثنان من علماء العرب في الرياضيات وهما:

١) **أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري:** كان أعظم علماء الفلك من العرب بعد البيتاني وأبي الوفاء، وكان أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد المشهور أيضًا بابن يونس مؤرخًا ومحدثًا كبيرًا، توفي بالقاهرة عام ٣٤٧هـ (٩٥٨ - ٩٥٩م) ولا نعرف عام مولد ابن يونس المترجم ولكنه توفي بالقاهرة في الثالث من شوال عام ٣٩٩هـ (٣١ من مايو ١٠٠٩م)، ويظهر أنه كان متفننًا في علوم أخرى غير الفلك والتنجيم، كما كان شاعرًا مجيدًا، وقد روى ابن خلكان عن معاصري المترجم عدة شواهد تدل على شذوذ ابن يونس، وأظهر ما يكون هذا الشذوذ في لباسه، وأهم تصانيفه كتاب «الزيج الكبير الحاكمي» بدأه حوالي عام ٣٨٠هـ (٩٩٠م) بأمر العزيز الفاطمي، وأتمه قبل وفاته بقليل في عهد الحاكم ولد العزيز، ومن المؤسف حقًّا أنه لم يصل إلينا كاملاً فهناك أجزاء منه في لندن وأكسفورد وباريس والإسكوريال وبرلين والقاهرة، وقد نشر وترجم «كوسان Caussin» بعض فصول هذا الزيج التي فيها أرصاد الفلكيين القدماء وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف واقتران الكواكب، وكان غرض ابن يونس الأساسي أن يتحقق من صحة أرصاد الذين تقدموه وأقوالهم في الثوابت الفلكية ويكمل ما فاتهم، وقد أفاد في ذلك فائدة قيمة من مرصد جبل المقطم الذي كان مستكملاً لآلات الرصد، وكان هذا المرصد على صخرة فوق جبل المقطم قرب الفسطاط في مكان يقال له بركة الحبش وكان حوضًا من الماء على ضفة النيل الشرقية ثم صار حديقة، والراجح أن موقعه كان قرب سبيل الماء الذي بناه الناصر بجوار القلعة، ولاتزال بعض آثاره ماثلة إلى يومنا هذا.

وكان ابن يونس هو أول من توصل إلى قانون في حساب المثلثات الكرية وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل اكتشاف اللوغارتمات عند علماء الفلك، خاصة في تحويل العمليات المعقدة «لضرب» العوامل المقدرة بالكسور الستينية في حساب المثلثات إلى عمليات «جمع»، وكذلك أظهر ابن يونس براعة كبرى في حل كثير من المسائل العويصة في علم الفلك الكُرِّي مستعينًا في ذلك بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال.

ومن شعر ابن يونس في الهجاء:

وذي حِرصٍ تراه يَلُمُّ وَفْرًا
لِوَارِثِه، وَيَدْفَعُ عَنْ حِمَاهُ

كَكَلْبِ الصَّيدِ يُمسِكُ وَهْوَ طَاوٍ
فَرِيسَتهُ لِيَأْكُلَهَا سِوَاهُ

وثبت من المخطوطات القديمة أن ابن يونس كان أول من تعرف على «البندول» أي «رقاص الساعة La pandule» وذلك قبل جاليليو بزمن بعيد.

وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي دام حكمه من عام ٣٦٥ إلى عام ٣٨٦هـ (٩٧٥ - ٩٩٦م) وضع مرصد القاهرة تحت إشراف أبي الحسن بن يونس الذي أمره العزيز بوضع جداول فلكية دقيقة، ولم ينته العمل في هذه الجداول إلا في عهد الحاكم بأمر الله بن العزيز، فأطلق عليها ابن يونس اسم «الزيج الكبير الحاكمي»، وقد اعتمد ابن يونس في أرصاده على أرصاد ابن عيسى المهاني وخاصة في الخسوف والكسوف واقتران الكواكب.

٢) كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس: ولد في الموصل عام ٥٥١هـ (١١٥٦م) ثم رحل إلى بغداد فأتم دراسته بالمدرسة النظامية بها، وعاد إلى الموصل يدرس في مدرسة سميت بعد وفاته بالمدرسة الكمالية، وكان ابن يونس فقيهًا ولكنه جمع إلى الفقه العلم بالرياضيات وبرع في جميع علوم عصره، فكتب في تفسير القرآن وألف في النحو والمنطق والفلك والحساب والجبر وامتاز على الأخص في الهندسة، ويحكى أن فردريك الثاني ملك صقلية في القرن الثالث عشر سأل العرب بعض الأسئلة في الطب والفلسفة والرياضة فأجاب ابن يونس على سؤال فردريك في الهندسة بعد أن عجز المفضل الأبهري عن الإجابة عنها وكان لا يضارع في الهندسة، وقال الخوارزمي إن تلك المسألة كانت بشأن رسم مربع مساحته مثل المساحة بين الوتر والقوس.

٢٤٧- أبو الأسود - شارع - بقسم الرمل

اسمه الكامل «أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان ابن جندل بن يعمر» ويُكنى بالدؤلي نسبة إلى قبيلة دَيْل التي تركها وعاش مع بني هذيل ثم عاش مدة من الزمن مع بني كُشَيْر وهي قبيلة زوجته، وكان من سادة التابعين وأعيانهم وقد صحب علي بن أبي طالب وشهد معه وقعة صِفِّين وهو في الأصل من مدينة البصرة، وكان من أكمل الرجال رأيًا وأسدهم عقلاً، وهو أول من وضع قواعد النحو، ويقال إن علي بن أبي طالب دلّه على أن الكلام كله ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف وكتب له هذا في ورقة دفعها إليه وقال له: أتمم على هذا.

وعندما كان يعلّم أولاد زياد بن أبيه وهو والي العراقين دخل عليه وقال أيها الأمير إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم فأذن لي أن أضع للعرب ما يقوّمون به كلامهم، فرفض زياد، ثم جاء زيادًا رجل قال «أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون»، فقال زياد ادعوا لي أبا الأسود فلما حضر قال ضع للناس الذي نهيتك أن تصنع لهم، وذكر ابنه أبو حرب أن أول باب وضعه الأسود في النحو هو باب «التعجب»، وبادر أبو الأسود إلى وضع القواعد النحوية عندما سمع أحد المقرئين يتلو القرآن ويقول في الآية: (أنّ الله بَرِيء مِنَ المشركينَ ورسولِه) (أي بكسر كلمة رسوله بدلاً من ضمِّها)، لتكون: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال: «ما ظننت أن أمر الناس آلَ إلى هذا»، ومن ثمّ عيَّن له زياد بن أبيه كاتبًا فقال له أبو الأسود: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فضع نقطة فوقه، وإن ضممت فمي فضع نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت»، ففعل

الكاتب ذلك، ومن ثمّ يكون أبو الأسود الدؤلي أول من وضع النقط فوق الحروف وتحتها، ويلاحظ أن الجزائريين يضعون حتى يومنا هذا نقطة تحت حرف الفاء ونقطة فوق حرف القاف عوضًا عن نقطتين.

ولا يختلف مؤرخو العرب في أن أبا الأسود كان أحد واضعي أصول النحو وقواعده، ولكن بعض المستشرقين يشكون في ذلك ولكن على غير أساس من البحث العلمي الدقيق.

ومما يدل على أنه كان من أقوى أنصار الإمام عليٍّ (انظر هذه المادة) أن الإمام سمح بأن يوفده عامله على البصرة إلى السيدة عائشة أم المؤمنين ليفاوضها في الصلح ويفاوض طلحة والزبير في ذلك وقد فعل، ولكن وساطته لم تأتِ بنتيجة حاسمه في ذلك النزاع الدموي الذي كان أول عامل في تمزيق الوحدة الإسلامية العربية والذي أدى إلى قيام الفرق الشيعية ومنها المغالية في التشيع لدرجة شنيعة لا تتورع عن اقتراف الجرائم في سبيل مذهبها، وشغل أبو الأسود الدؤلي وظيفة الوالي على البصرة عندما شخص عبد الله بن عباس إلى الحجاز وبقي يشغل هذا المنصب إلى أن قُتِل الإمام علي، وكان ابن عباس عاملاً عليها منذ عام ٣٦هـ (٦٥٦ – ٦٥٧م)، وتنمّ بعض الأشعار التي نظمها في فترة ولايته على البصرة عن الضيق الذي كان كثيرًا ما ينتابه بسبب أعباء هذا المنصب الذي عُيِّن فيه رسميًّا بعد عزل ابن عباس منه.

ومن جهة أخرى كان أبو الأسود على رأس الجيش الذي أرسله ابن عباس لقتال الخوارج، كما أنه هو الذي نبَّه عليًّا إلى اختلاس ابن عباس مما تسبب في طرده من ولاية البصرة وتعيين أبي الأسود مكانه لمدة قصيرة، ويظن بعض المستشرقين أنه لم يتول هذا المنصب لأنه لم يكن أهلاً له، ويستدلون على ذلك ببعض أشعاره التي يقول فيها إنه على استعداد لتقبيل اليد التي تصفعه ويقولون إنه لم يكن كُفْئًا لولاية البصرة في الظروف العصيبة التي كانت تمر بها في أثناء المحنة التي راح ضحيتها الإمام علي وكثير من أعوانه ومريديه.

وكان مقتل الإمام علي أكبر حافز له على نظم المراثي، وقد ذكر في قصيدة له نظمها وهو لا يزال متأثرًا بوقوع هذا الحادث أنه يتهم الأمويين بأنهم كانوا المحرضين على قتل علي ابن أبي طالب، ومما كان يزيد في ألمه أن زوجته كانت من قبيلة عربية تميل إلى الأمويين.

وحزَّ في نفسه أن عبد الله بن عامر والي البصرة من قبل معاوية بن أبي سفيان (انظر مادة معاوية) كان على اتفاق مع ابن عباس، مما أدى إلى فتور العلاقات بين أبي الأسود وابن عباس.

وكان يشكو من سلوك زياد بن سميَّة الذي كان مرؤوسًا له في أيام الإمام عليّ وقد خلف ابن عامر في ولاية مدينة البصرة بعد ذلك، يضاف إلى ذلك أن زيادًا كان يسعى بالدسيسة ضد أبي الأسود حتى في عهد الإمام.

ولم يكن كبير التوفيق في حياته، فقد كان يحسد الموالي الذين واتتهم الظروف المعدة بما لم تواته، ويقال إنه توفي بالطاعون عام ٦٩هـ (٦٨٨ – ٦٨٩م) بالغًا من العمر ٨٥ عامًا، وآخر حادث أشار إليه في أشعاره وقع عام ٦١هـ (٦٨٠ – ٦٨١م).

وينسب إليه بعض المؤرخين البخل والتقتير، وذكروا روايات تدل على ذلك منها زعمهم أنه أصيب بالفالج ومع ذلك كان يخرج إلى السوق يجرُّ رجله على الرغم من أنه كان موسرًا له عبيد وإماء، فقيل له: إن الله قد أغناك عن السعي في حاجتك، فلو جلست في بيتك فماذا يضيرك؟ فقال: لا، ولكني أخرج وأدخل، فيقول الخادم: قد جاء، ويقول الصبي: قد جاء، ولو جلست في البيت فبالت عليَّ الشاة ما منعها أحد عني، وكان يقول لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم، وقال لبنيه لا تجاودوا الله عز وجل فإنه أجود وأمجد ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم لفعل فلا تجهدوا أنفسكم في التوسيع فتهلكوا هزالاً.

وقد يكون في هذه القصص شيء من المغالاة أو التجنّي على هذا العالم الجليل بما لم يكن فيه.

والذي لا جدال فيه هو أن أبا الأسود كان من أشهر الأدباء والشعراء المتشيعين لعلي بن أبي طالب وذريته في ذلك العصر، ومن أشعاره في أهل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الأبيات التي تنمّ عن حب عميق للإمام علي وذريته:

يَقُولُ الأَرْذَلونَ بَنو قُشَيْرٍ
طوالَ الدهرِ لا تَنْسَى عَليًّا

بَنوُ عَمِّ النَبيِّ وَأَقْرَبُوهُ
أَحَبُّ الناس كُلِّهِمُو إِلَيَّا

أُحِبُّهُمو كَحِبّ الله حَتَّى
أجيءَ إذا بُعِثْتُ على هَوَيَّا

فإنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ
ولسْتُ بمخطئٍ إنْ كانَ غَيًّا

ومن شعره في النصح والحضّ على العمل هذان البيتان وفيهما شبه كبير لما قاله المرحوم أحمد شوقي في قصيدته التي مطلعها: سلوا قلبي غداة سلا وتابا، وهي القصيدة التي تشدو بها السيدة أم كلثوم في مدح النبي الكريم، فأحمد شوقي يقول في هذه القصيدة العصماء:

وَمَا نَيْلُ المَطَالِبِ بالتَّمَنِّي
وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلابَا

ويقول أبو الأسود الدؤلي:

وَمَا طَلَبُ المَعِيشَةِ بالتَّمنِّي
وَلَكِنْ أَلْقِ دَلْوَكَ في الدِّلاءِ

تَجيءُ بِمِلْئِهَا طَوْرًا وَطَوْرًا
تَجِيءُ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيلِ ماءِ

وفي هذا التشابه الكبير ما يدل على تواتر الخواطر عند الشاعرين في الشاعرية القديمة والحديثة.

٢٤٨- أبو أنيس - شارع - بقسم محرم بك

لم أستطع الوقوف على ترجمة صاحب هذا اللقب، وما من شك في أنه كان أحد سكان هذا الشارع أو أحد ملاك العقارات المقامة على جانبيه، ولاسيما أن كلمة «أبو» تطلق على عدد لا يحصى من سكان المدن والقرى فيقال: (أبو أحمد، وأبو علي، وأبو حسن) مثلها في ذلك مثل كلمة (أم)

التي تطلق على كثير من السيدات (انظر مواد: أم زغبو، وأم حبشة، وأم السلطان، وأم لطفي).

٢٤٩ – أبو أيوب – حارة – بقسم محرم بك

هو خالد بن زيد بن كليب البخاري الأنصاري، حامل لواء النبي الكريم وهو من كبار صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد أقام الرسول بداره لدى هجرته إلى المدينة، وذلك قبل أن يبني داره ومسجده فيها، وتدل سيرته على أنه أسهم في جميع السرايا التي أرسلها النبي، وشهد جميع المعارك التي حدثت في صدر الإسلام، وعمل تحت إمرة عمرو بن العاص في أثناء الفتح العربي لمصر، ثم ولاَّه الإمام علي بن أبي طالب في عهد خلافته على المدينة ثم انضم إلى عليٍّ في العراق عندما كان بُسْر بن أرطأة يقترب من المدينة بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل زوده بهم عمرو بن العاص، واشترك أبو أيوب في المعارك التي خاضها علي بن أبي طالب في العراق (انظر مادة الإمام علي).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان (انظر هذه المادة) أسهم أبو أيوب في فتح جزيرة قبرص واشترك بعد ذلك في الحملات التي شنَّها يزيد بن معاوية على القسطنطينية، وتوفي هذا الصحابي الجليل تحت أسوار هذه المدينة بمرض الزّحار (الدوسنطاريا) عام ٥٢هـ (٦٧٢م) في قول بعض المؤرخين أو في عام ٥٠ أو ٥١ أو ٥٥هـ في قول البعض الآخر ودفن في هذا المكان.

ويروى عن أبي أيوب مائة وخمسون حديثًا من الأحاديث النبوية ولكن ثلاثة عشر منها هي التي يسلِّم البخاري ومسلم بصحتها، وكان أبو أيوب أحد الصحابة الشبان من الأنصار الذين توفروا على جمع القرآن الكريم في حياة رسول الله فكان أحد الخمسة الذين قاموا بهذا العمل في حياة النبي، وكان زملاؤه الآخرون، كما جاء في طبقات ابن سعد (انظر هذه المادة) هم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت (انظر هذه المادة)، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء (انظر مادة سيدي أبي الدرداء).

وقد ذكر قبر أبي أيوب بالقسطنطينية في كتاب المعارف لابن قتيبة (انظر هذه المادة)، وجاء في رواية الطبري، وابن الأثير (انظر هاتين المادتين)، وابن الجوزي، والقزويني (انظر هذه المادة) أن البوزنطيين (أي الروم) كانوا يوقرون هذا القبر ويزورونه أيام الجفاف مبتهلين نزول المطر (الاستسقاء).

ويقول الرواة إن اكتشاف القبر كان بعامل الصدفة، فقد كان بعض العمال يقومون بإنشاء مقابر جديدة في هذه المنطقة فأخطأ فريق منهم إذ أخذوا في الحفر في غير المكان الذي اختاره صاحب الأرض ليكون موضعًا لتلك المقابر، وفجأة ظهرت عظام بشرية وجدوا بجانبها شاهدًا من الرخام دفنته الرمل وقد كتب عليه اسم أبي أيوب وسنة ميلاده وسنة وفاته، ثم نقلت الرفات ووضعت بجوار المسجد الذي يحمل اسمه حتى الآن، وهذه الرواية يذكرها أهل استانبول حتى اليوم.

وبُني مسجد أبي أيوب الفخم في عهد السلطان محمد الفاتح وتم تشييده في عام ٨٦٣هـ (١٤٥٨م) ثم وَسَّعَ رقعته «إتمكجي زاده أحمد باشا» خلال عام ١٠٠٠هـ (١٥٩١م) وزيد عليه مئذنتان جديدتان ورواقان عام ١١٣٦هـ (١٢٧٣م)، وفي هذا المسجد أودع السلطان محمد الفاتح آثار

النبي الكريم التي اكتشفت بين كنوز السراي (أثر قدم النبي)، ودفن في تربة المسجد أو في الصحن الملاصق له الصدر الأعظم سنان باشا المتوفى عام ١١٣٣هـ (١٧٢٩م) وماه فيروز خديجة (أم السلطان عثمان الثالث) والصدر الأعظم سمير علي باشا، وكورجي محمد باشا، ولالا مصطفى باشا فاتح قبرص وعدد آخر من أعلام الترك.

ويقوم المسجد خارج الأسوار البوزنطية وقد نمت حوله ضاحية هامة هي ضاحية أيوب، وكان هذا المسجد موضع تقدير خاص من الأتراك فحرموا زيارته على غير المسلمين في الأزمنة الماضية، وكان يحتفل فيه بتتويج كل سلطان جديد من سلاطين آل عثمان؛ حيث يمنطقه بسيف أسلافه جلبي أفندي شيخ الطريقة المولوية وخليفة جلال الدين الرومي، الذي كان يحضر من قونية، محل إقامته العادية خصيصًا ليشاهد هذا الاحتفال.

ويصلي الأتراك - رجالاً ونساءً - في هذا المسجد ثم يقفون بعد تأدية الفريضة أمام باب مقبرة أبي أيوب يقرؤون الفاتحة على روحه باللغة العربية وحولهم أسراب الحمام الآمنة تحط بجوار القبر لتلتقط الحب ثم تطير لتقف على سطح المسجد لتعود إلى صحنه مرة أخرى.

وعلى مقربة من هذا المسجد العتيق وحول قبر أبي أيوب تقوم مدينة الأموات ترقد في ترابها رفات معظم أدباء تركيا وعلمائها وعظمائها من ساسة ومصلحين وقد أوصوا بأن يدفنوا بجوار صاحب رسول الله وحامل لوائه للحصول على بركته قبل يوم البعث والحساب.

٢٥٠- أبو بكر - شارع - بقسم محرم بك

قد يكون اسم أبي بكر الذي يحمله هذا الشارع لقبًا لأحد من كانوا يسكنون المنازل القائمة على جانبيه أو أحد ملاك عقاراته، أو لعله الكنية التي يعرف بها عدد من علماء ومفكري العرب ومن بينهم أبو بكر الصديق، وأبو بكر الخطيب البغدادي، وأبو بكر البيطار الملقب بابن المنذر، وأبو بكر الخوارزمي (انظر مواد: أبو بكر الصديق، والخطيب البغدادي، وابن المنذر، والخوارزمي).

ومنهم أبو بكر المخزومي، وأبو بكر بن الخصيب، وأبو بكر ابن قاضي شهبة، وفيما يلي ترجمة حياة هؤلاء الثلاثة:

١) أبو بكر ابن عبد الرحمن بن مخزوم القرشي المخزومي: كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ومن سادات التابعين وأطلق عليه اسم «راهب قريش»، وكان أبوه «الحرث» أخا أبي جهل ابن هشام، من أكابر صحابة رسول الله، وقد ولد أبو بكر في خلافة عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب)، وكانت وفاته خلال عام ٩٤هـ (٧١٢م)، وتسمى هذه السنة عند العرب في صدر الإسلام سنة الفقهاء إذ مات فيها جماعة منهم، والفقهاء السبعة كانوا في عصر واحد بالمدينة وكانوا السبب الأساسي في انتشار العلم والفتيا في العالم الإسلامي بأسره، وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين من الشعر فقال:

ألا كل من لا يقتدي بأئمةٍ
فقسمتُهُ ضيزى عن الحقِّ خارجَهْ

فخذهم عبيد الله ، عرة ، قاسم ،
سعيد ، سليمان ، أبو بكر ، خارجه

وذِكْرُ أبي بكر في البيت الثاني يدل على ما كانت عليه مكانة أبي بكر المخزومي من علو وتقدير ، وأطلقت عبارة «الفقهاء السبعة» على هؤلاء العلماء الأجلاء؛ لأن الفتوى بعد الصحابة انتهت إليهم واشتهروا بها ، وكان في زمانهم طائفة من العلماء التابعين مثل سالم بن عبد الله بن عمر ، ولكن الفتيا لم تكن إلاّ لهم وحدهم ، وأيّد ذلك أبو الطاهر السلفي (انظر مادة السلفي) .

٢) أبو بكر الحسن بن الخصيب: كان فلكيًّا مشهورًا وهو من أصل فارسي ، وقد نقل عن كتابه علماء كثيرون ، وعاش ابن الخصيب إبَّان العصور الوسطى المسيحية أي في حوالي القرن الثالث الهجري ، ويدل على ذلك أن أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى عام ٢٨٠هـ (٨٩٣م) (انظر مادة ابن طيفور) ذكره في مؤلفه «كتاب بغداد» وقال إنه من معاصريه ، ولابن الخصيب كتاب ترجم إلى اللاتينية نقله رجل يدعى «كانونيكس ساليو» في بادوا عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) وطبع في البندقية (فنيسيا) عام ٨٩٨هـ (١٤٩٢م) ثم أعيد طبعه عام ٩٠٨هـ (١٥٠١م) وطبع مرة ثالثة في نورامبرج .

وأبو بكر بن الخصيب عرف عند الغربيين في القرون الوسطى باسم «ألبوباتر Albubather» ولم يثبت أن المخطوطات التي ذكرها أصحاب التراجم العربية كان بعضها من تأليف ابن الخصيب ، ففي مكتبة الإسكوريال بإسبانيا مخطوطان في المواليد أحدهما لابن عِزْرا الخصيبي والآخر لابن الخصيب الكوفي .

٣) أبو بكر تقي الدين أحمد الدمشقي (المكنَّى بابن قاضي شهبة): كان من كتّاب التراجم ، ولد عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) وكان مدرسًا ثم قاضيًا للقضاة ، وخصص عنايته الفائقة بتذكرة الحفاظ للذهبي (انظر هذه المادة) فأكملها وأعد لها موجزًا ، ولأبي بكر بن قاضي شهبة كتاب أسماه «طبقات الشافعية» ، وكانت وفاته عام ٨٥١هـ (١٤٤٨م) عن ٧١ عامًا ، وكتب سيرته ولده أبو الفضل محمد المتوفى عام ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ، ولأبي بكر مصنفات أخرى .

٢٥١- أبو بكر الرازي - حارة - بقسم العطارين

هو أبو بكر محمد بن زكريا وكنيته الرازي ، أحد المشاهير في الطب والكيمياء والفلسفة ، ولد عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م) في الري بالعراق؛ حيث تعمق في الرياضيات والفلسفة والفلك والأدب ودرس الكيمياء في شبابه ولم ينصرف إلى دراسة الطب إلا في سن متقدمة ، وعندما التحق بخدمة صاحب الري بادر إلى تدبير مارستانها (مستشفاها) الجديد ثم أدار مارستان بغداد وكان أشهر طبيب في زمانه ، ولم ينعم الرازي بالاستقرار بالنظر إلى اضطراب السياسة على أيامه وتقلّب أهواء الأمراء ، وقد كان لهذا العالم أثر كبير في غيره إذ تركت آراؤه الفلسفية أعمق الأثر في بيئات الشيعة ، فقد نقل عنه أبو إسحق إبراهيم بن نوبخت الفقيه الاثنا عشري مذهبه في اللذة وذلك في مؤلفه «كتاب الياقوت» ، وممن حملوا على آرائه الفارابي وابن الهيثم وعلي بن رضوان وابن ميمون ، وعرف الرازي عند الإفرنج في القرون الوسطى باسم Razès .

والرازي طبيب يعد بحق أعظم أطباء الإسلام القدامى، فهو لم يكتف بالرسائل العديدة التي كتبها في شتى الأمراض وأشهرها رسالته في الجدري والحصبة، بل ألّف عدة كتب مطولة في الطب هي أشهر ما زوّد أهل القرون الوسطى في هذا العلم، وقد تُرجم عدد من مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية وظلّ الرازي إلى القرن السابع عشر حجة الطب دون منازع، وأهدى كتابه «المنصوري» إلى منصور بن إسحق أمير الري وأهدى كتابه «الملوكي» إلى علي بن ويهوذان صاحب طبرستان، ويعد كتابه «الحاوي» أكبر موسوعة طبية في اللغة العربية، إذ قطع في تدوينه ١٥ عامًا من عمره وتوفي قبل أن يتم فصوله، وفي كتاب «الحاوي» جمع الرازي مقتطفات من جميع الأطباء العرب والإغريق في كل مسائل الطب وختمه بنتائج تجاربه الشخصية، وكان الرازي إلى جانب طبه صيدليًّا وجراحًا.

وفي علم الكمياء أنكر الرازي التفسيرات الخفية والرمزية للظاهرات الطبيعية وانصرف إلى تصنيف الجواهر والعمليات ووصف تجاربه وصفًا دقيقًا، ولم يبق من مؤلفاته في الميكانيكا (على الآلية) غير ملخص لرسالته في الميزان الطبيعي، وقد ضاعت مؤلفاته في العلم الطبيعي والرياضيات والفلك والبصريات، وهي التي أحصاها أصحاب الفهارس، أما في علم الميتافيزيقة (علم ما وراء الطبيعة) فالرازي يقول بوجود خمسة مبادئ قديمة أزلية هي: الله والنفس والهيولى والزمان والمكان، ويقول إن قدم العالم هو النتيجة المحتومة لفكرة (الله) المبدأ الواحد الثابت، ويذهب إلى أن الله خلق هذا العالم برحمته وخلق ما فيه من صور ثابتة حتى تستطيع النفس أن تستمتع به وأن تخلق الإنسان، وخلق الله العقل كذلك وهو فيض من ذاته الإلهية ليوقظ النفس النائمة في هيكلها وهي الإنسان، ويميز الرازي بين المكان الكلي (أو المطلق) وبين المكان الجزئي المضاف، فالمكان المطلق امتداد محصن مستقل عن الجسم الذي يحتويه، ذلك أن المكان يمتد خارج نهايات العالم، ومن ثمّ فهو لا نهائي، أما المكان الجزئي عنده فهو حجم أي جسم بعينه أو امتداده، ويميز الرازي أيضًا بين الزمان المطلق والزمان المحصور، فالمطلق جوهر مستقل فياض كان موجودًا قبل خلق العالم وسوف يوجد بعد فنائه، ومن ثمّ فهو بالنسبة إلى الرازي الدهر نفسه.

وينكر الرازي في الأخلاق الإسراف في الزهد، ويقوم مذهبه في الأخلاق على أساس نظرية خاصة بالنسبة للذة والألم، فاللذة عنده ليست شيئًا إيجابيًّا وإنما نتيجة للارتداد إلى الحالة الطبيعية التي يسبب اضطرابها الألم، وغاية السيرة الفلسفية أن يتشبه صاحبها بالخالق فيكون منصفًا للناس مغتفرًا خطاياهم.

وتدل الرسالتان اللتان كتبهما أبو بكر الرازي ضمن ما كتب وهما «مخاريق الأنبياء» و«نقد الأديان» على أنه قد مال إلى المروق والخروج على التعاليم الإسلامية الصحيحة بل وعلى الأديان، فقد جاء في هاتين الرسالتين ما يوحي بطعنه في الأديان والتعريض بالأنبياء ومعجزاتهم والقول بأن الأديان كانت السبب في قيام الحروب التي تهدم الإنسانية، وكانت رسالته «مخاريق الأنبياء» تتلى في حلقات الزنادقة من المسلمين وخاصة بين القرامطة.

وقد توفي أبو بكر الرازي بمسقط رأسه الري خلال عام ٣١٣هـ (٩٢٥م).

ونحن لا نعلم عن شيوخ الرازي أكثر مما نعلم عن حياته، ويقول كثير من أصحاب التراجم العرب إنه درس الطب على عليّ بن ربّن الطبري، وهذا القول مستحيل من حيث التسلسل التأريخي، ويذكر صاحب الفهرست أنه تتلمذ في الفلسفة على رجل يلقب بالبلخي (وهو غير الجغرافي أبو زيد البلخي)، ويقال إن الرازي قد أخذ عنه بعض الآراء الفلسفية، ويذكر ناصر خسرو هذا القول نفسه عن فيلسوف ذي اسم عجيب هو إيرانشهري، ومن المرجح أن ناصر خسرو والبيروني قد قصدا بذلك شخصًا واحدًا، وقد كان للرازي أثر كبير في غيره ومع ذلك فنحن لا نعرف شيئًا من تلاميذه، ويقال إن يحيى بن عديّ أحد المشائين اليعاقبة وتلميذ الفارابي قد درس الفلسفة على الرازي، وقد تحدث كاتب من المتأخرين عن علاقات كانت قائمة بين الرازي والصوفي الحلاج (انظر هذه المادة).

ويعتمد الرازي في العلم الطبيعي على أفلاطون وعلى الفلاسفة الذين جاءوا قبل سقراط ويعارض المشائين والمتكلمين ويتصل مذهبه في الذرة الذي يختلف اختلافًا جوهريًّا عن مذاهب المتكلمين المناظرة له بمذهب ديمقريطس من عدة وجوه، وهذه حالة شاذة في فلسفة القرون الوسطى، ويذهب الرازي إلى أن الهيولي المطلقة كانت قبل خلق العالم مركبة من عدد لا نهاية له من الجزء الذي لا يتجزأ، ويمتاز الجزء بالامتداد إذا تركبت الأجزاء بنسب مختلفة مع أجزاء الخلاء، ويقول الرازي بوجود الخلاء على عكس المشائين، وتكونت العناصر وعددها خمسة: التراب، والهواء، والماء، والنار، والعنصر السماوي (الأثير)، وتتمدد جميع كيفيات العناصر (الخفة، والثقل، والكثافة، واللطافة، إلخ . . .) باختلاف نسبة تركيب الهيولى والخلاء، ويتجه التراب والماء وهما من العناصر الكثيفة نحو مركز الأرض، على حين أن الهواء والنار وهما اللذان تغلب فيهما أجزاء الخلاء يتجهان إلى أعلى، أما العنصر السماوي وهو مزيج معتدل من الهيولي والخلاء فإن حركته الخاصة به هي الحركة الدائرية وتنبعث النار من طرق الحديد بالحجر؛ لأن الحديد عندما يتحرك يحرك الهواء ويخلخله فيستحيل نارًا.

وكان الرازي يؤمن بتقدم المعرفة العلمية والفلسفية، وقد زعم أنه بزَّ معظم الفلاسفة القدماء بل هو قد ذهب إلى أنه فاق أرسطو وأفلاطون، أما الطب فقد بلغ الرازي فيه مبلغ أبقراط، وأما الفلسفة فهو يشعر أنه قد أشرف فيها على مرتبة سقراط، ولكنه رأى أنه ينبغي أن يأتي بعده علماء آخرون ينكرون بعض النتائج التي وصل إليها، كما حاول هو أن يأتي بمذاهب تحل محل مذاهب أسلافه (انظر مواد أرسطوت، وأفلاطون، وهيبوقراط، وسقراط).

وقد ألّف أبو بكر الرازي كتابًا أسماه «الطب الروحي» أو «طب النفوس» وقد أوحى إليه بهذا العنوان كتابه الذي ألّفه في الطب الجسماني لأنه رأى أن الصورة لا تكتمل إلاّ بكتاب آخر يؤلفه في طب النفوس ليصح الإنسان بالكتابين جسدًا وروحًا.

وقد قصد الرازي بطب النفوس إلى تعقب مصادر النقص الخلقي عند الإنسان ليبين لقارئه كيف يكون أسعد حالاً وأهنا حياة إذا هو ملك زمام فطرته ووجهها على النحو الذي يهيئ له حياة متزنة معتدلة مأمونة العواقب، ومن ثمّ يكون الرازي من أوائل من تناولوا بالبحث الطب النفسي الذي شاع في العصر الراهن وصارت له عيادات وأطباء أخصائيون.

والعقل عند الرازي هو «الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين»، وبالفعل نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس فنراها كأن قد أحسسناها، ومادام أمره كذلك فقد حق علينا ألاّ نجعله وهو الحاكم محكومًا عليه، ولا هو الزمان مزمومًا، ولا هو المتبوع تابعًا، بل نرجع في الأمور إليه، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته.

وقد خصص الرازي فصلاً على حدة للهوى فيقول: «فلئن كان الإنسان بعقله مدركًا للأمور إدراكًا صحيحًا فهو تقمعه لهواه صاحب «إرادة»، والعقل من جهة والإرادة من جهة أخرى هما جانبان متلازمان أحدهما له النظر والآخر عليه التنفيذ، وليس الأمر بالهين اليسير إلاّ على من تناول إرادته بالتدريب المتصل الدءوب، وذلك لأن ما سوف يقاومه الإنسان بإرادته تلك إنما هو طبع مغروز في جِبِلَّته»، ويتطرق الرازي إلى القول بأن الجبال ومعها سائر الطبيعة، من جماد ونبات وحيوان آثرت أن تترك نفسها لقوانين ليست من صنعها، فهي تسير ولكنها لا تعرف لماذا؟ ولا إلى أين؟ فالبهائم واقعة عندما يدعوها إليه الطباع، على خلاف الإنسان الذي يسلك السلوك بعد رؤية عقلية فيخالف به ما يدعو إليه الطباع، وفي ذلك يقول: «إنك لا تجد بهيمة تمسك عن أن تروث أو تتناول ما تغتذي به، مع حضوره وحاجتها إليه، كما نجد الإنسان يترك ذلك ويقهر طباعه عليه، لمعان عقلية تدعوه إلى ذلك».

ويتعرض الرازي بعد ذلك إلى العشق فيقول إنه بلية يكفي فيها أنها تدعو العاشق إلى التذلل والخشوع، ويقع في شباك هذه البلية النكراء المخنثون من الرجال والغزلون من الشعراء والمترفون والمؤثرون للشهوات وليس من السهل على هؤلاء التخلص من ربقة هذه البلية.

ويقول عن «العجب» إن كل إنسان محب لنفسه بالطبيعة وذلك يدعوه إلى استحسان الحسن منها فوق حقه واستقباح القبيح منها دون حقه، ومن بلايا العجب أنه يؤدي إلى النقص في الأمر الذي يقع به العجب؛ لأن العجب لا يروم التزيد في الباب الذي منه يعجب بنفسه . . . فالمعجب بعمله لا يتزيد منه لأنه لا يرى أن فيه مزيدًا، ومن لم يستزد من شيء ما، نقص لا محالة وتخلف عن رتبة نظرائه.

ثم يحلل الرازي الحسد ويجعل مصدره من عنصرين يجتمعان هما: البخل والشره، فالحسد أعم وأوسع من البخل على حدة، ومن الشره على حدة، إذ البخيل لا يحب أن ينال أحد مما يملكه شيئًا، لكن الحسود يضيف إلى ذلك جانبًا آخر هو ألاّ ينال أحد خيرًا حتى ولو لم يكن ذلك مما يملكه هو، ويقول إنه من المستحيل على العاقل أن يكون حسودًا لأن الحسد والعقل ضدان؛ ذلك لأن الحسود لا يحسد البعيدين عنه وإنما ينصبّ حسده على الأقربين منه.

ويرى الرازي أنه مما يمحو الحسد عن النفس أن يتأمل العاقل أحوال الناس فإنه سيجد أن حالة المحسود عند نفسه خلافها عند الحاسد، فلايزال الإنسان يستعظم الحالة ويتمنى بلوغها حتى إذا بلغها لم يُسَر بها إلا مدة يسيرة بقدر ما يستعر فيها ويتمكن منها فيُعرَف بها ثم تسمو نفسه إلى ما هو فوقها، وعندئذ يصير بين هَمّ وخوف، خوف من النزول عن الدرجة التي بلغها وهم لما يتمنى بلوغه.

ويتناول الرازي حالة الغضب عند الإنسان فيقول: إن الغضب إذا اشتد وأفقد الغاضب عقله فربما كانت نكايته في الغاضب وإبلاغه إليه المضرة أشد وأكثر منها في المغضوب

عليه، ويستطرد من ذلك فيقول: «إنه ليس بين من فقد الفكر والروية في حال غضبه وبين المجنون كبير فرق».

ثم يتناول حالة الكذب وكيف يتحتم على العاقل اطراحه فيقول: «إن الكذب يدعو إليه الهوى، إذ كثيرًا ما يكون الدافع إلى الكذب هو رغبة الإنسان في التكبر والترؤس، فيقول القول الكاذب إذا رآه مما يهيئ له الرفعة على سامعه مع أن الكذب يجلب على صاحبه الهمّ والألم والندم».

ويتحدث الرازي بعد ذلك عن حالة الغم التي تصيب الإنسان ووجوب دفعها، وذلك بأن يحدَّ الرجل من رغباته وشهواته ومواضع حبه، إذ الغم هو في حقيقته خوف عند المغموم من أن يفقد ما يملك، فلو درَّب نفسه على الاستقلال عن الأشياء بحيث إذا ضاع منها ما ضاع لم يحس مرارة ضياعه كان بذلك قد أبرأ نفسه من علة الغموم.

وعلى هذا الأساس نفسه يتناول الرازي حالات الشره والسكر وشهوة الجنس وما إليها من رغبات الجسد التي لا تبلغ أبدًا حد الإشباع، والعلاج إذن هو الوقوف منها جميعًا موقف العضد والتوسط فلا نتدها ولا نندفع وراءها إلى آخر المدى.

وما من شك في أن نظريات أبي بكر الرازي الفلسفية من أعمق النظريات التي تعرض لها الفلاسفة بالتحليل على مرِّ القرون.

٢٥٢- أبو بكر الصديق - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو بكر عبد الله ولقبه عتيق (أول الخلفاء الراشدين)، ويعرف والده بأبي قحافة وأمه أم الخير سلمى بنت صخر، وكلاهما من أسرة مكية هي أسرة كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يصغر النبي عليه السلام بثلاث سنوات، وكان يعيش في مكة عيشة التجار الموسرين، وكان من أوائل من استجابوا لدعوة النبي، وتقول بعض الروايات إنه كان أول من استجاب للدعوة الإسلامية، وسرعان ما أصبحت له المكانة العليا في الجماعة الإسلامية الناشئة، وذلك بفضل صداقته الوثيقة لرسول الله وبفضل خصاله الحميدة التي جعلت منه شخصية من أهم الشخصيات في صدر الإسلام، وكان من أخص صفاته ذلك الإيمان القوي الذي لا يتزعزع بأن النبي العربي هو الرسول الذي اختاره الله لإبلاغ رسالته إلى الناس كافة، ومن ثمّ كان يؤمن إيمانًا صادقًا بكل ما يقوله النبي وبكل ما يتلقاه من الوحي، وقد بقي أبو بكر الصديق ثابت العقيدة حتى في الأحوال الكثيرة التي كان الناس يشكون في الدعوة الإسلامية.

وكان رحمه الله ورضي عنه فياض الشعور، فقد كان يبكي عندما يُتلى القرآن الكريم، وروت كريمته رضي الله عنها أنه بكى فرحًا عندما بلغه أنه سيصحب النبي في هجرته، وكان سليم الطوية مخلصًا يؤمن بكل ما دعا إليه النبي من التعاليم الخلقية، وآية ذلك أنه افتدى بماله كثيرًا من الأرقاء ولم يبخل بثروته في سبيل نصرة الإسلام والقضاء على الكفار، فكان لا يستعظم أية تضحية في سبيل العقيدة الجديدة، وبلغ الذروة في الوفاء عندما هاجر إلى المدينة صحبة رسول الله وقد جاء ذكره في القرآن الكريم فأشارت الآية الشريفة إليه بأنه: ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾.

وتوثقت أواصر الصداقة والمحبة بين النبي وأبي بكر عندما تزوج الرسول السيدة عائشة رضي الله عنها بعد الهجرة بقليل،

وقد صحب أبو بكر النبي في كل غزواته ولم يتركه حتى في أشد المواقف الحربية حروجة، ولم يكلف بيت المال شيئًا عندما كان يقود الجند ولم يلجأ إلى ذلك إلا في الحالات الاضطرارية البحت، وقد قاد لواء في غزوة تبوك، وتقول بعض الروايات إن أبا بكر هو الذي أبلغ المشركين أثناء إمارته للحج عام ٩هـ (٦٣١م) براءة الرسول مما كان بينه وبينهم من عهد بمقتضى معاهدة الحديبية.

ولما مرض النبي صلوات الله عليه أَمَّ أبو بكر المسلمين مكانه في الصلاة، وكان ذلك مدعاة لأن يطلب عمر بن الخطاب وأصحابه بعد وفاة النبي عام ١١هـ (٦٣٢م) مبايعة أبي بكر بالخلافة دفعًا لما قد يقع بينهم من خلاف، وكان هذا الاختيار موفقًا إذ لم يأت أبو بكر بآراء أو مبادئ جديدة بل تمسك كل التمسك بآراء النبي وحافظ على كل ما أمر به أو أشار إليه، وبهذا استطاع أن يؤلف بين الصحابة وأن يوجههم لصالح الجماعة الإسلامية.

وبابتعاده عن ابتكار أية مبادئ جديدة وبما كان له من خلق يجمع بين البساطة والحزم، صار مثلاً يُحتذَى في التمسك بسنة رسول الله بعد لقائه الرفيق الأعلى، وبذلك قاد المسلمين في أحرج الأوقات التي مرت بهم وتركهم بعد وفاته في مركز وطيد مكّنهم من السير في ركاب عمر بن الخطاب صوب الأمام دائمًا.

وتنفيذًا لأمر النبي أنفذ أبو بكر الشاب أسامة على رأس جيش لغزوة بشرق الأردن، وقد همّت القبائل في عهده بالثورة فوقف منها موقف الشدة الحاسمة ولاسيما في وجه الذين انصرفوا عن أداء الزكاة، معتبرًا ذلك خروجًا على ما أمر به النبي، وبعد عودة أسامة من الغزو نقل قيادة الجيش إلى خالد بن الوليد الذي هزم بني أسد وبني فزارة وأخضع بني تميم وبني حنيفة لسلطان الإسلام، كما هزم قوادًا آخرين في فتنة البحرين وعمان وأعاد عكرمة ومجاهد اليمن وحضرموت إلى حكومة المدينة.

وسار أبو بكر على نهج النبي في معاملة المرتدين بالرحمة وكان ذلك سببًا في إعادة الأمن إلى البلاد، وبعد أن تم له إخضاع الجزيرة العربية في أقل من عام اتجه إلى المشروع الذي غيّر مجرى التاريخ العالمي إذ أنفذ خالد بن الوليد وغيره من القواد المحنكين لوضع حد للفتن الداخلية وتعليم المسلمين واجبات الغزو والقتال في سبيل الله وفي سبيل نصرة الإسلام، وقد رأى أبو بكر ثمرات هذا التوجيه، فقد أحرزت الجيوش العربية انتصارات باهرة فاستولت في فارس على الحيرة إبان شهري مايو ويونية عام ٦٣٣م (١٢هـ) وانتصرت في فلسطين في وقعة أجنادين على الروم خلال شهر يوليو عام ٦٣٤م (١٣هـ)، وقد لقي أبو بكر ربه عقب هذه الواقعة فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية في ٢٢ من جمادى الآخرة عام ١٣هـ (٢٣ من أغسطس ٦٣٤م) ودفن بجوار قبر النبي.

وتؤكد السير أنه أعد النسخة الأولى من القرآن الكريم، غير أن بعض السير الأخرى تذكر أن عمر بن الخطاب هو أول من قام بجمع القرآن، وعاش أبو بكر العيشة نفسها التي كان يحياها من قبل، فقد كان يسكن داره المتواضعة بالسنْح وهي دار صغيرة ثم سكن المدينة عندما أصبحت تلك الدار غير ملائمة، وتصف الروايات بساطته وخوفه من أن تمتد يده إلى مال المسلمين فدلّل بذلك على ورعه وخشيته من

الله، وتصف هيئته وصفًا دقيقًا فتقول إنه كان «أبيض نحيفًا، خفيف العارضين، أجنأ (أي أحدب شيئًا)، لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشجع، وكان يصبغ بالحناء والكتم».

ولقد برزت شخصيته الكريمة في الخطب الكثيرة التي ألقاها في مناسبات مختلفة، وقد دوَّن مجملها ابن هشام، ويقول ابن إسحق إن أبا بكر لقب بالصديق حين تزعزع إيمان المسلمين برسول الله، فشهد أبو بكر بأن النبي صادق كل الصدق في وصفه لبيت المقدس وفي إسرائه إلى هذا البيت، وفسر علي بن أبي طالب الآية الكريمة رقم ٣٣ من سورة الزمر ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ بأن الذي جاء بالصدق هو رسول الله والذي صدق به هو أبو بكر.

وقال أبو بكر الصديق يخطب يوم السقيفة:

«أيُّها الناسُ نحن المهاجرون أولُ الناسِ إسلامًا، وأكرمُهُم أحسابًا، وأوسَطُهُم دارًا، وأحسنُهُم وُجوهًا، وأكثرُ الناس ولادةً في العرب وأمسُّهم رحِمًا برسول الله، أسْلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾، فنحن المهاجرون، وأنتمُ الأنصارُ، إخوانُنا في الدِّين وشُركاؤنا في الفَيْء وأنصارُنا على العدوِّ، آوَيْتُم وواسَيْتم، فجزاكُم الله خيرًا! فنحنُ الأمراءُ وأنتم الوزراء، لا تَدين العربُ إلا لهذا الحَيِّ من قريش، فلا تنْفَسوا على إخوانِكمْ المهاجرينَ ما منحهم الله من فضله».

ولما توفي الرسول عليه السلام واضطرب الناس خطبهم فقال:

«أيُّها الناس مَنْ كان يعبدُ محمَّدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبُد الله فإن اللهَ حيٌّ لا يموتُ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعًا وإن اللهَ قدْ اختار لنبيِّه ما عندَه على ما عندكم، وقَبَضَهُ إلى ثوابه، وخلَّفَ فيكم كتابه وسُنَّةَ نبيِّه فمن أخَذَ بهما عَرَف، ومَنْ فَرَّق بينهما أنْكرَ، يأيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسط ولا يَشْغَلَنكُمُ الشيطانُ بموت نبيكم، ولا يَفْتننكمْ عَنْ دينكُمْ، فعاجلوه بالذي تُعْجِزونه ولا تسْتَنْظِروه فيلحَقَ بكم».

ومن أقواله رضي الله عنه وذكرها الشعراني: «أكيس الكيس التقوى، وأحمق الحمق الفجور، وأصدق الصدق الأمانة، وأكذب الكذب الخيانة».

وقال أيضا: «إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله أفضلكم مقدرة، وأملككم لنفسه».

وقد ولد أبو بكر على الأرجح بعد سنة ٥٧٠م بقليل، وكان يعرف أحيانًا بابن أبي قحافة نسبة إلى لقب أبيه وأما تلقيبه بالعتيق فيرجع إلى قول الرسول فيه «إنه عتيق من النار»، ولقد تزوج في حياته أربع زوجات هن: قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى من عامر العشيرة المكية وهي التي ولدت له عبد الله وأسماء (ذات النطاقين) التي تزوجت الزبير بن العوام، وزوجته الثانية هي أم رومان بنت عامر من قبيلة كنانة، وقد ولدت له عبد الرحمن (وكان اسمه قبل إسلامه عبد الكعبة أو عبد العُزَّى)، والسيدة عائشة زوجة الرسول، والزوجة الثالثة هي أسماء بنت عُمَيْس من قبيلة خشعم، وقد ولدت له

محمدًا، والرابعة هي حبيبة بنت خارجة من عشيرة الحارث ابن الخَزْرج المدنية، وقد ولدت له أم كلثوم وحدثت ولادتها بعد وفاة والدها.

والزيجتان الأخيرتان كانتا بعد أن تقدمت به السن وكانت دون شك لأسباب سياسية، فقد كانت أسماء بنت عُمَيس أرملة لجعفر بن أبي طالب الذي قتل في السنة الثانية من الهجرة (٦٢٩م)، والزيجتان الأوليان كانتا على الأرجح في وقت واحد لأن عبد الرحمن كان أكبر أولاده وكانت أم رومان هي الوحيدة التي صحبته في هجرته إلى المدينة.

ولا يعرف إلا القليل عن حياة أبي بكر قبل دخوله في الإسلام، فأخبار هذه المرحلة من عمره تقول إنه كان تاجرًا يبلغ رأسماله أربعين ألفًا من الدراهم وهو مبلغ لا يعد كبيرًا بالنسبة إلى ثراء التجار الآخرين المعاصرين له، ولا تذكر هذه الأخبار أنه سافر إلى الشام أو إلى أي مكان آخر، وتدل من جهة أخرى على أنه كان من الحذّاق بأنساب العرب وقبائلهم المختلفة.

وكان أبو بكر صديقًا للنبي الكريم قبل نبوته وقبل إسلام أبي بكر نفسه، ولقد أصرّ على البقاء في مكة حين هاجرت كثرة المسلمين إلى الحبشة اتقاء الاضطهاد، وسبب ذلك أن عشيرة أبي بكر من تيم التي كانت تنتمي إلى الجماعة المعروفة بحلف الفضول، ولم تكن هذه العشائر تمارس اضطهاد من يدخل في دين الإسلام من أفرادها على غرار كثير من العشائر الأخرى.

وكان أبو بكر يشتري الأرقاء ويطلق سراحهم ومنهم عامر بن فُهَيْرة وبلال بن رباح مؤذن رسول الله فيما بعد، ولإنفاقه السخي على الدعوة إلى الإسلام في يقين وإصرار نقصت ثروته عند الهجرة إلى ٥٠٠٠ درهم فقط، بعد أن كانت ٤٠,٠٠٠ درهم كما تقدم القول، ولقد صحبه في هجرته زوجته أم رومان وابنته عائشة وابنته أسماء ذات النطاقين ويبدو أن ابنه عبد الله كان معه.

وبقي والده أبو قحافة في مكة، وحارب عبد الرحمن ابن أبي بكر المسلمين في موقعتي بدر وأُحد ثم أسلم قبيل فتح مكة.

وفي المدينة اتخذ أبو بكر لسكناه دارًا صغيرة في حي السُنْح وظل يشارك الرسول في جميع الحملات التي قادها وكان دائمًا صديقه الحميم ومستشاره الأمين.

ولم يفقد ثباته على عقيدته الإسلامية حتى في أشد الأوقات حرجًا، فكان كالطود في ثباته لم يفقد إيمانه العميق بالرسالة المحمدية الشريفة، ومن ثمّ كان التوافق تامًّا بينه وبين قائده الرسول الكريم، وعندما ناقش بعض الصحابة النبي في أخذه بالسلم مع كفار قريش وإقراره اتفاق الحُدَيْبِيَة والعدول عن حصار مدينة الطائف بذل أبو بكر ما يملكه من عون إلى رسول الله عن طيب خاطر وكان أول من عرف الغرض الحقيقي للحملة التي أدت إلى فتح مكة عام ٨هـ (٦٣٠م).

ولم يتول في حياته إمارة حربية مفردة غير إمارته لجماعة صغيرة كانت فرقة من حملة أكبر في سنة ٦هـ (٦٢٧م) ثم إمارته لبعثة أقل عددًا ضد قبيلة هَوازِن سنة ٧هـ (٦٢٨م)، وفي عام ٨هـ (٦٢٩م) عمل هو وعمر ابن الخطاب تحت قيادة أبي عبيدة (انظر هذه المادة) لتذليل عقبات سياسية.

وكان لتعيينه لإمارة الحج في العام التاسع الهجري وفي إمامته لجمهور المصلين في المدينة في أثناء مرض النبي الأخير وغير ذلك من الأدلة على مكانته، ما يشير إلى أنه سيخلف رسول الله ليسير بالمسلمين في سبيل العدالة والحق والرقي الديني.

وكانت وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام في ١٣ من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (٨ يونية عام ٦٣٢م) سبب حرج بالغ الخطورة للدولة الإسلامية الفتية، فقد اجتمع الأنصار لاختيار قائدٍ منهم ولكن عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة استطاعوا إقناعهم بقبول خلافة أبي بكر وبعد ذلك بوقت قصير انتقل إلى منزل في وسط المدينة.

وشُغل أبو بكر في معظم أيام خلافته التي تجاوزت العامين بقليل بشؤون الرِدَّة وهي ظاهرة كانت تعد في نظر المؤرخين العرب حركة تقوم على أساس الدين، ولكن المستشرقين الأوروبيين المحدثين يدللون على أنها كانت في جوهرها حركة سياسية ويقول بعضهم إنها كانت تجمع بين الغرضين.

فالمدينة كانت قد أصبحت مركزًا لنظام اجتماعي سياسي كان للدين الإسلامي نصيب قوي في كيانه الذاتي، وعلى تتالي الأيام كان حتمًا أن تكون وجهة أي خروج على هذا النظام تعد خروجًا على الدين نفسه.

وكانت لهذا الخروج ستة مراكز رئيسية كان القائد في أربعة منها له مسلك ديني وكان يسمى بالمتنبي، فكان الأسود العَنْسي في اليمن، ومُسَيْلمة في قبيلة حنفية في اليمامة، وطليحة في قبيلتي أَسَد وغطفان، والمتنبئة سَجاح في قبيلة تميم، وكان مظهر الرِّدة يختلف في كل من هذه المراكز حسب الأحوال البيئية، وكان ينطوي على الامتناع عن إرسال الضرائب إلى المدينة وعن طاعة الولاة المرسلين من الخليفة في غالب الجهات، غير أن بعض الحركات الثورية لم تلبث أن ظهرت في أماكن مختلفة عقب وفاة الرسول عليه السلام.

وفي أثناء وجود الجيش الإسلامي الرئيسي في الشام بقيادة أسامة بن زيد (انظر هذه المادة) حاولت بعض القبائل المجاورة مباغتة أهل المدينة ولكنها هزمت عند ذي القَصَّة، وعقب عودة حملة الشام أنفذ الخليفة أبو بكر جيشًا كبيرًا بقيادة خالد ابن الوليد لحرب العصاة فهزم طليحة أولاً في معركة بُزاخَة وعادت أرضه إلى حظيرة الإسلام، ثم سرعان ما تخلت قبيلة تميم عن مدعية النبوة «سَجَاح» وخضعت لأبي بكر، وكانت أشهر معارك حروب الرِدَّة معركة اليمامة عند عَقْرباء وذلك في شهر ربيع الأول عام ١٢هـ (مايو عام ٦٣٣م) وكانت تسمى حديقة الموت لكثرة من قُتِل فيها من كلا الجانبين المتحاربين، ثم ما لبث مسيلمة الكذاب – وهو أعظم مناهض للمسلمين خطرًا – ما لبث أن هُزِم وقُتِل ومن ثمّ عاد وسط الجزيرة العربية إلى الحكم الإسلامي.

ووقع الاختيار على قادة ثانويين ليكونوا مددًا لأعمال حربية في البحرين واليمن – بما فيها مَهْرَة – على حين أعاد خالد بن الوليد الأمن والاستقرار إلى اليمامة قبل تحرك جيوشه إلى العراق.

وقُضِيَ على الرِدَّة في اليمن وحضرموت على يدي قائد آخر هو المهاجر بن أبي أمية.

ولقد نزع أبو بكر الصديق في معاملته للأسرى من أهل الرِدَّة إلى كثير من الصفح مما أدى إلى أن صار معظمهم من مناصري الإسلام ومن أنشط الداعين لاعتناقه .

ويقول بعض المؤرخين إن حروب الرِدَّة المشؤومة امتدت إلى عام ١٣هـ (٦٣٤م) .

ويدل اتساع نطاق الحملات العسكرية التي أرسلها النبي الكريم إلى الشام على إدراكه الصحيح الحصيف إلى ضرورة الفتوح إذا أريد للإسلام أن يستتب بين القبائل العربية ، وكان أبو بكر يشاطر النبي هذا الإدراك السليم ولاسيما من الناحية الإستراتيجية .

وفي الأيام الأولى من خلافته لم يسكت أبو بكر على تهديد العصاة في الجزيرة العربية وأصرّ على إرسال جيش كبير إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد تنفيذًا للخطة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام قد وضعها قبل وفاته .

وما إن زال خطر مسيلمة الكذاب وغيره من المرتدين حتى بادر أبو بكر إلى إنفاذ خالد بن الوليد (انظر هذه المادة) إلى العراق ، وهكذا بدأ – بإرشاد أبي بكر – عصر الفتوح الإسلامية الكبرى .

وعند وفاة الخليفة أبي بكر الصديق كانت حالة المسلمين كالآتي: خالد بن الوليد ، منضمًّا إلى قوة من بني بكر بن وائل تحت قيادة المُثَنَّى بن حارثة يتقدم غانمًا في العراق مهددًا الحيرة التي دفعت ستين ألفًا من الدراهم لتُترَك وشأنها ، وعلى حين بقي المُثَنَّى في تلك الجهة خرج خالد في مسيرته المشهورة إلى دمشق وانضم إلى ثلاث كتائب تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حَسَنة وعمرو بن العاص وكانت هذه الكتائب تلاقي نجاحًا في فلسطين ثم أخذت تتقهقر أمام جيش بيظنطي يفوقها في العدد ، ولكنها بتوحيدها ردت العدو عند أجنادين بين بيت المقدس وغزَّة وكان ذلك في نهاية شهر جمادى الأولى عام ١٣هـ (يوليو ٦٣٤م) وهكذا بدأ أبو بكر في تكوين الإمبراطورية الإسلامية وذلك بالتوسع في غزو بلاد فارس ، غير أنه ظلّ يوجه معظم عنايته إلى الشام .

وتوفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣هـ (٢٣ أغسطس ٦٣٤م) ودُفن إلى جانب النبي الكريم كما تقدم القول .

وصارت بساطته في حياته مع تعففه عن كل ثراء وأبهة وتظاهر مضرب الأمثال في الأخلاق الكريمة النزيهة .

وعند وفاته قال يوصي عمر بن الخطاب:

«إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفِّته عليهم ، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلاّ الباطل أن يكون خفيفًا ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكَّرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلتَ: إني أخاف ألاّ أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوإ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلتَ إني لأرجو ألاّ أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا ، ولا يتمنى

على الله غير الحق، ولا يُلقي بيده إلى التهلكة، فإذا حفظتَ وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيَّعْتَ وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولستَ بِمُعْجِز الله».

وتدل سيرة أبي بكر الصديق على أن أهل قريش عهدوا إليه بولاية الديات فكان الرجل الذي لزمه دم يلجأ إلى قومه ليعاونوه على دفع الدية، ولكثرة حوادث هذه الدية ولما عرف عن أبي بكر في الجاهلية من الصدق والأمانة فقد كُلِّف بتلقي الدية بالإنابة عن الجماعة وإعطائه لمستحقيها دون أن يراجع فيما يقضي به ولا ينازع فيما يحكم فيه.

ولعلمه الواسع الأفق بأنساب العرب وتاريخ قريش وآدابها وأشعارها كان مجلسه ملتقى أهل الظرف من شباب قريش وفتيانها الناهضين، وقد كان لهذا العلم الخصب أثره الحميد في نجاح الدعوة التي قام بها في صفوف هؤلاء الشبان حين راح يدعو إلى اعتناق الدين الإسلامي بكل ما في طاقته من جهود.

وكان أبو بكر من أوائل الرجال إسلامًا وأسرعهم استجابة إلى دعوة رسول الله، وحسبه من الشرف في هذا المقام شهادة النبي الكريم له، إذ جاء في الحديث الشريف عن رسول الله قوله: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلاّ كانت عنده كبوة إلاّ ما كان من أبي بكر»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما كلمت أحدًا في الإسلام إلاّ أَبَى عليَّ وراجعني في الكلام إلاّ ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلاّ قبله واستقام عليه».

وكان عظماء قريش قد أكرهوا أبا بكر على ترك مكة فأخذه ابن الدغنة في حمايته فكان يعبد ربه في داره وبنى فيها مسجدًا صغيرًا يرتل فيه القرآن وهو يبكي خشوعًا فيزدحم فتيان قريش ونساؤها عليه ويُصْغون إلى قراءته في إعجاب.

ومما يثير العجب في سيرة أبي بكر أن هذا الرجل الهادئ الوديع قد انقلب إلى صاعقة تجرف في سبيلها كل ما يعترض طريقها إلى غاياته الخيرة المباركة، فقد اكتسح مثيري حروب الرِدّة وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد وسجاح، ولم يقف عند هذا الحد بل قذف بجيوشه إلى أكبر دولتين في العالم في ذلك الحين وهما: الفرس والروم، لتدك معاقلهما وتستولي على أراضيهما.

ولقد كانت خلافته أقل من ثلاثة أعوام ولكن ما أنجزه فيها من أعمال جسام كان من شأنه أن يستغرق عشرات السنين.

ومن آيات ترفعه الروحي أنه أَبَى على العائدين إلى الإسلام الاشتراك في حروب الفرس والروم ليعرفوا أن الدعوة ماضية من غيرهم فلم يشتركوا إلا في عهد عمر. وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وقد بلغ من العمر ٦٣ سنة.

وقبيلة «تيم» التي ينتمي أبو بكر إليها اشتهر أهلها بالتحضر والسلوك المرهف وحب الحياة الأسرية، ومن ثمَّ كان يقابل الوفود العربية قبل رؤيتها النبي ليعلّم أفرادَها طريقة السلام وكيفية الكلام، وكان يقفز عن راحلته قفزًا حتى لا يضطر والده إلى النهوض للتسليم عليه وظلَّ على ذلك السلوك حتى بلغ الستين من عمره احترامًا للأبوة.

ومن صفاته الجسمية – غير ما ذكر قبلاً – أنه كان وسيمًا تخالط بياضه صفرة، وكان غزير شعر الرأس، معروق

الوجه، محف القامة في كبره، غزير الدمعة، محزون القلب أسيفًا، ولم يخلّ بوقاره في الجاهلية وفي الإسلام، فقد قال عن الخمر: «كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شربَ الخمر كان مضيعًا في عقله ومروءته».

ومن شدة تمسكه بالدين الإسلامي والذود عنه أنه تحدى ابنه عبد الرحمن حين كان في صفوف قريش وخرج مطالبًا بالمبارزة، فقام ليبارز ابنه البكر ولم يكف إلاَّ بعد أن استبقاه النبي قائلاً: متعني بنفسك.

ولدى وقفته الرائعة في سقيفة بني سعد وسط الأطماع البشرية بالخلافة لم يجد أبو عبيدة بدًّا من حسم الموقف فيقول له: «لا والله، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟».

ولم يأل أبو بكر جهدًا في تأمين حركة الإسلام في داخل الجزيرة العربية وعمل في صدق وإصرار على حماية الطرق لحمل الدعوة المحمدية إلى الأقطار الأخرى، كما عمل على استعراض القوة الإسلامية أمام الروم للقضاء على تهديد الإسلام بوساطة الغساسنة الموالين لهم في آخر عهد النبي.

وقد وضع قانونًا للحرب يفيض بالإنسانية الرحيمة التي تجافيها الحروب الحالية في بقاع العالم، فهو يقول في إحدى وصاياه للجيش:

«لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله. . . . . وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له».

وقد قال علي بن أبي طالب في تأبينه: «كنت يا أبا بكر كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله، جليلاً في الأرض كبيرًا عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا أحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له».

ولم يذكر المؤرخون لأبي بكر مواقف خاصة من الشعر والشعراء في عهد خلافته، ويظهر أن ذلك يرجع إلى انشغاله المستمر طوال مدة خلافته القصيرة بالفتوحات الإسلامية والقضاء على المرتدين عن الدين.

غير أن بعض كتاب السير الذين تعرضوا لسيرته ينسبون إليه أبياتًا من الشعر قالها في مناسبات خاصة أو عامة، ويظهر أن هذه الأبيات قيلت قبل دخوله في الإسلام، ولا ينفي نظمه الشعر في جاهليته قول السيدة عائشة «كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام».

وقد خلفت حروب الردَّة في عهد أبي بكر أشعارًا كثيرة كان الفريقان يتراشقان بها، «فالأباز بن قيس الأسدي» يمدح خالد بن الوليد لبلائه المجيد في حروب الردَّة بقوله:

لَنْ يَهْزِمَ الله قَوْمًا أَنْتَ قَائِدُهُمْ
يَاابنَ الوَلِيدِ وَلَنْ يَشْقَى بك الدَّيْرُ

كَفَّاك، كَفٌّ عَذَابٍ عِنْدَ سَطْوَتِهَا
عَلَى العَدُوِّ، وكفٌّ مرةٌ غَفْرُ

أما «أوس بن بحير الطائي» فيقول في موقعة بزاخة:

وَلَيْتَ أَبَا بَكْرٍ يَرَى مِنْ سُيُوفِنَا
وَمَا تَخْتَلِي مِنْ أَذْرُعٍ وَرِقَابِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله لاَ رَبَّ غَيْرِه
يَصُبُّ عَلَى الكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ؟

ونجد لشعراء أهل الردَّة شعراء يستنفرون بشعرهم العزائم ويصدون بها الناس عن ذكر الله، ويمثل هذه الفئة الضالة «الحطيئة» إذ يقول:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا
فَيَا عَجَبًا مَا بَالُ دِينِ أَبِي بَكْرِ
أَيُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ
وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

هذه هي خلاصة سيرة الخليفة أبي بكر الصديق يفوح عبيرها على مر السنين والقرون بما انطوت عليه من عفة وكرامة وشهامة وإخلاص لا حدَّ له للرسالة المحمدية الشريفة، رحم الله أبا بكر الصديق وجعل جنة الخلد مثواه.

٢٥٣ – أبو بكر الصوري – شارع – بقسم الرمل

كان من أكابر علماء الأدب، وقد نادم ثلاثة من الخلفاء العباسيين وله مؤلفات كثيرة وتوفي عام ٣٣٥هـ (٩٤٦م).

٢٥٤– أبو بكر النزلاوي – شارع – بقسم المنتزه (جبرييل شماع سابقًا)

كان رائدًا بالجيش المصري واستشهد في ١٥ من يوليو عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ) في فلسطين أثناء الحرب ضد الصهيونية تساندها بريطانيا وأمريكا والدول الاستعمارية وكانت حربًا ضمت حوادثها أساليب خبيثة من الخيانة والغدر التي قام بها الرجعيون وأعوان الاستعمار الأجنبي في الدول العربية واشتملت على أبشع أنواع النذالة من حكام مصر في ذلك العهد البائد إذ أمدُّوا الجيش المصري الباسل بالذخيرة والمعدات الحربية الفاسدة مما أدى إلى انتهاء هذه الحرب المشؤومة بتشريد مليون عربي فلسطيني وطردهم من ديارهم وتحويلهم إلى لاجئين يعيشون في خيام ويحيون حياة بؤس يندى لها جبين الإنسانية حتى الآن.

٢٥٥– أبو تمام – حارة – بقسم اللبان

اسمه بالكامل حبيب بن أَوْس بن الحارث بن القيس الطائي، ولا يختلف المؤرخون في نسبه إلى قبيلة طيء من قحطان اليمن سوى ابن خلكان الذي ذكر أن أباه كان نصرانيًّا من أهل جاسم وهي قرية من قرى مدينة دمشق، يقال لها (تدوس) العطار فجعلوه أوْسًا وأن نسبه إلى طيء لفق له، وقد تلقف المستشرق (مرجليوث) هذه الرواية وقال إن اسم (تدوس) أصله يوناني وهو Theodose، غير أن رواية ابن خلكان المستقاة من أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي تدعو إلى كثير من الشك في صحتها إذ قد تكون من قبيل محاولة الحط من نسب هذا الشاعر على غرار من هجوه وسبوه ومنهم

من نسبه إلى أصل فارسي وعلى رأسهم أحمد بن محمد الخثعمي الذي قال فيه:

ولقد طلبت أبًا فأعجز وجده

حتى انبرى لكَ كاوسٌ وخمَّار

وقد ولد أبو تمام عام ١٧٢هـ (٧٨٨م) في رواية مشهورة ذكرها ابن خلكان وتؤكدها شواهد شعره، غير أن الصولي يقول إنه ولد عام ١٨٨هـ (٨٠٣م)، وذلك نقلاً عن ابن الشاعر، وذكر الصولي في رواية أخرى نقلها عن عدة كتب أنه ولد عام ١٩٠هـ (٨٠٥م) (انظر مادة الصولي).

ولا تختلف الروايات في مكان مولده فتجمع على أنه ولد في قرية جاسم على بعد ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم المؤدي إلى طبرية.

ويذكر بعض الرواة أنه قضى شبابه بمدينة دمشق يخدم حائكًا بجوار حانة والده الذي جعلوه خمارًا وقالوا إن أبا تمام غير اسمه بعد اعتناقه الإسلام ومد نسبه حتى وصله بقبيلة طيء اليمنية القحطانية.

وفي مدينة حمص بدأ حياته الشعرية فنظم القصائد الهجائية في أسرة عتبة بن أبي عاصم إرضاء لأصحاب نعمته بني عبد الكريم، ثم رحل إلى مصر تاركًا أباه العطار (أو الخمَّار كما يزعم البعض) بدمشق، وتلقى العلم بجامعها في الفسطاط وكان يعيش في ذلك الحين من السقاية بهذا الجامع؛ حيث درس الأدب العربي وخاصة الشعر وما يتصل به، وكان قد بلغ السادسة والعشرين من عمره، وتدل أشعاره على أنه مدح بعض حكام مصر في هذه الفترة من حياته ومن بينهم عيَّاش بن لهيعة الحضرمي ثم هجاه.

وبعد اتصاله بالحسن بن سهل عامل الخليفة العباسي المأمون على العراق وذلك في حوالي عام ١٩٨هـ (٨١٣م) ومدحه له وحصوله على عطائه قصد دمشق ومدح موسى بن إبراهيم الرافقي الملقب بأبي الغيث ثم هجاه، ورحل بعد ذلك إلى الرقة وأقام في كنف محمد بن حسان الضبي وذهب إلى أذربيجان عند علي بن مُرَّ وتوجه منها إلى كور الفرات خلال سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م)، ولما أصيب الحسن بن سهل بالسوداء سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) مدح جعفر بن دينار الذي ولي أمر الجند بعد ابن سهل (انظر مادة ابن سهل).

ومن سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) إلى سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) انقطعت أخبار تنقلاته، ويعتقد بعض الدارسين أنه صنف أثناء هذه المدد مختاراته التي اشتهر منها (كتاب الحماسة)، وخلال عام ٢١١هـ (٨٢٦م) نجده وقد عاد إلى مصر؛ حيث قام بمدح عبد الله بن طاهر لدى قدومه إليها بغية إخضاع السري ابن الحكم، ويظهر أن أبا تمام مكث بمصر حتى عام ٢١٤هـ (٨٣٠م)، وفي هذه المرحلة من أسفاره التقى بالإمام الشافعي وبابن هشام صاحب السيرة النبوية (انظر مادتي الشافعي وابن هشام) واتصل بيوسف السراج الشاعر المصري الذي كان ممن أفسدوا بينه وبين ابن لهيعة حتى هجاه.

ويمتاز أبو تمام في شعره بتحري البديع ولاسيما الجناس والطباق، وقد استطاع عن طريق المدح الذي ينحدر إلى الاستجداء في بعض الأحيان أن يثرى وأن يقتني العبيد ويذهب إلى ممدوحيه في مواكب يحفها الأبهة والجلال،

واستطاع فوق ذلك أن يستأجر منشدًا يلقي قصائد مديحه إذ كان غليظ الصوت تأخذه الحبسة عند الإلقاء، ومن أشعاره في الاستجداء المخزي قوله للرافقي قبل أن يغضب عليه ويهجوه:

يَا مُحِبَّ الإِحْسَانِ فِي زَمَنٍ أَصْبَحَ

فِيهِ الإِحْسانُ وَهْوَ بَغِيضُ

وعقب رحيله من مصر اتصل بمحمد بن حميد الطوسي الطائي الذي كان قائد الخليفة المأمون في حرب بابك الخزمي، فلما قتل رثاه أجمل رثاء ثم اتصل بأبي سعيد محمد الثغري ولزمه كما لزم مهدي بن أصرم الطائي أحد قواد تلك الحرب التي أثرت في أبي تمام أعمق التأثير.

وفي عام ٢١٥هـ (٨٣١م) غزا المأمون (انظر هذه المادة) الصائفة ومعه الثغري فافتتحا بعض أنقرة التي فرَّ بطريقها (منويل) فسجل أبو تمام هذه الغزوة في ديوانه، وفي عام ٢١٦هـ (٨٣٢م) عاد المأمون إلى بلاد البوزنطيين ووجه ابنه المعتصم وغيره إلى حربهم فأخذ أبو تمام يرصد كل ذلك ثم نفثه في القصيدة التي مدح بها خالد بن يزيد الشيباني، وفي عام ٢١٧هـ (٨٣٣م) غزا المأمون ثوار مصر وقصد منها إلى أذنة فمدحه أبو تمام بقصيدة حشد فيها كل طاقته الفنية، ولكنه مع ذلك لم يحظ برضاه.

وعقب موت المأمون عام ٢١٨هـ (٨٣٤م) انتقل إلى الموصل؛ حيث قضى شطرًا كبيرًا من حياته، ووفق بعد ذلك في كسب رضاء الخليفة العباسي المعتصم (انظر هذه المادة) الذي منحه العطايا على القصائد التي مدحه بها.

ومن جهة أخرى نال كثيرًا من المنح جزاء مدحه للعظماء والوزراء في العراق وفي إيران، وأثناء زيارته لابن رجاء بفارس كاد أن يلقى مصرعه نتيجة تصريحه بأنه يشك في قيمة القيام بفرائض الدين الإسلامي، غير أن هذا الشك في العقيدة الإسلامية لا يظهر له أي أثر في ديوانه الذي طبع في بيروت بلبنان في عامي ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) و١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) والذي يضم أشعارًا كثيرة في التقوى إلى جانب مدح أصحاب نعمته وبعض المراثي والأهاجي التي وجهها لخصومه.

وأهم ما دون في هذا الديوان وصفه التاريخي لفتح عمورية وهزيمة بابك الخرمي وهلاكه هو والأفشين.

أما دراساته الشعرية فقد دوَّنها في الدواوين الستة التي خلفها وهي: «الاختيار بين أشعار القبائل» وهو كتاب يشتمل على أشعار من أغاني القبائل المختلفة، و«الاختيارات من شعر الشعراء»، و«الفحول» ويضم مختارات من أجود قصائد شعراء الجاهلية والإسلام وينتهي بابن هرمة، و«الحماسة» ويقال إنه جمع قصائد هذا الكتاب في دار أبي الوفاء بن مسلمة بهمذان، ورتبها في عشرة أبواب خص كل باب بفن وضمنها خرائد الشعر العربي الجاهلي والأموي والعباسي، و«اختيار المقطعات» وقد رتبه على نسق كتاب «الحماسة» مبتدئًا بالغزل، و«مختارات من شعر المحدثين».

ولم يبق من هذه المجموعات الست سوى ديوان الحماسة.

وتوفي أبو تمام عام ٢٣١هـ (٨٤٥ – ٨٤٦م) بالغًا من العمر ٥٩عامًا على فرض أنه ولد عام ١٧٢هـ (٧٨٨م) كما يؤكد ابن خلكان.

ومن نماذج وصفه للربيع بقوله:

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وبَعْدَهُ
صَحْو يكَادُ مِنَ الغَضَارَةِ يُمْطِرُ

غَيْثَانِ: فَالأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ
لَكَ وَجْهُهُ، والصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرُ

مَا كَانَتِ الأَيَّامُ تُسْلَبُ بَهْجَةً
لَوْ أَنّ حُسْنَ الرَّوْضِ كَانَ يُعَمَّرُ

أَوَلا تَرى الأَشْيَاءَ إنْ هِي غُيِّرَتْ
سَمُجَتْ وحُسْنُ الأَرْضِ حِينَ تغَيَّرُ

يَا صَاحبيَّ تَقَصَّيَا نظرَيْكُمَا
تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ

ومن قصيدته العصماء التي مدح بها الخليفة العباسي المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن الخليفة هارون الرشيد ويذكر فيها فتح عمّورية هذه الأبيات:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللّعِبِ

بِيْضُ الصَّفائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ في
مُتونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وَالعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْماحِ لاَمِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لاَ فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

إلى أن يقول في فتح عمورية ويوم معركتها المظفرة:

فَتْحُ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فَتْحٌ تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوابِهَا القُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عمُّوريَّةَ انْصَرَفَتْ
عَنْكَ المُنَى حُفَّلاً معسُولَةَ الحَلَبِ

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإِسْلامِ في صُعُدٍ
وَالمُشْرِكينَ ودَارَ الشّرْكِ في صَبَبِ

ثم يختتم هذه القصيدة بمدح الخليفة قائلاً:

خَلِيفَةَ اللهِ! جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ والإِسْلامِ والحَسَبِ

بَصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
تُنَالُ إلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

إنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ
مَوْصولةٍ أو ذِمامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللاَّتِي نُصِرْتَ بها
وبَيْنَ أَيَّامِ (بَدْرٍ) أَقْرَبُ النَّسَبِ

أَبْقَتْ بَنِي الأصفرِ المِمْراضِ كاسْمِهِمُ
صُفْرَ الوُجُوهِ وجَلَّتْ أوْجُهَ العَرَبِ

وكما تقدم القول كان أبو تمام مولعًا بالبديع وقد ملك الجناس عليه أحاسيس انفعالاته الشعرية لدرجة كاد معها إفساد شاعريته لولا بقية من روح البادية في شعوره ولولا ذلك الذوق الشعري الأصيل الذي كان يستولي على وجدانه فحال بينه وبين التدهور.

وفي قصيدته البائية التي قالها في فتح عمورية والتي دونت بعض أبياتها قبل، وهي من عيون قصائده، يتجلى النزوع إلى الجناس والاشتقاق بصفة واضحة وإن كان ذلك لم يذهب بجمالها الكياني العام في رأي أهل الأدب ونقاد الكلام، ولم ينج أبو تمام من الإسفاف في بعض الأحيان ويظهر ذلك في قوله:

إنَّ مَنْ عَقَّ والديْهِ لَمْلعو

ن ومَنْ عَقَّ مَنْزِلاً بالعَقيقِ

فيأتي في هذا البيت بعقوق الوالدين في باب النسيب دون مناسبة ليجانس بينه وبين العقيق.

وغزو الخليفة المعتصم لعمورية وفتحها خلدهما أبو تمام بالقصيدة البائية التي ذكرت بعض أبياتها قبل، وتعد هذه القصيدة من الملاحم الشعرية المتكاملة ومن الأعمال الفنية الرائعة، فهي تأتي على وصف المعركة وصفًا حيًّا شيقًا من بدئها إلى منتهاها، وعمورية كانت من أعظم بلاد الروم في آسيا الصغرى (الأناضول) وكانت في ذلك الحين إحدى عواصم إمبراطوريتهم الشرقية، وقد أرادها الخليفة المعتصم موضع انتقامه لاستيلاء الروم على بلدة (زبطرة) الواقعة على الحدود وفيها ولد المعتصم خلال عام ١٧٩هـ (٧٩٥م).

ومن شعر أبي تمام في الغزل هذان البيتان اللذان يضرب بهما المثل للدلالة على أن الحب الأول هو الذي يطغى على كل حب بعده:

نَقِّلْ فؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى

مَا الحُبُّ إلاَّ للحَبِيبِ الأوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يأْلَفه الفتَى

وحَنِينُهُ أَبَدًا لأَوَّلِ مَنْزِلِ

وله في الهجاء قصائد تتضمن أبياتًا فيها من السباب المقذع الشيء الكثير إلى جانب ما ينبعث منها من حكمة بقيت تردد بين الأمثال السائرة مثل قوله لأحد خصومه:

وَلَقَدْ قَتَلْتُكَ بالهِجَاءِ فَلَمْ تَمُتْ

إنَّ الكِلابَ طَوِيلَةُ الأَعْمَارِ

وقوله:

بُخْلٌ تَدِيْنُ بِحُلْوِهِ وبِمُرِّهِ

فَكَأَنَّه جُزْءٌ مِنَ التَّوْحِيدِ

ومن شعره الذي جرى مجرى الأمثال أيضًا قوله:

يَنَالُ الفَتىَ مِنْ عَيْشِهِ وَهْوُ جَاهِلٌ

وَيَكْدَى الفَتَى في دَهْرِهِ وَهْوُ عَالم

وَلَوْ كَانَتِ الأَقْسَامُ تَجْرِي عَلَى الحجَا
هَلَكْنَ إِذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ

وقوله:

مَالِي أَرَى جَلبًا فَعْمًا وَلَسْتُ أَرَى
سُوقًا، وَمَالِي أَرَى سُوقًا وَلاَ جلب

أَرْضٌ بِهَا عشْبٌ جَرْف وَلَيْسَ بِهَا

ماءٌ وأُخْرَى بِهَا ماءٌ ولا عشب

وعلى الرغم من انصرافه الكلي للمدح والهجاء والاستجداء في معظم أوقات حياته فإن وجدانه لم يخلُ من العاطفة التي نجدها جياشة في رثائه لزوجته حين يقول:

جُفُوفَ البِلَى أَسْرَعْتِ في الغُصنِ الرَّطبِ
وخَطْبَ الرَّدَى والمَوْتِ أبْرَحْتَ من خَطْبِ
لَقَدْ شَرِقَتْ في الشَّرْقِ بالمَوْتِ غَادَةٌ
تَعَوَّضْتُ مِنْهَا غُرْبَةَ الدَّارِ في الغَرْبِ

وألْبَسَني ثوْبًا من الحُزْنِ والأَسَى
هِلالٌ عَلَيْهِ نَسْجُ ثَوْبٍ مِنَ التُرْبِ

أَقُولُ وقَدْ قَالُوا اسْتَرَاحَ بِمَوْتِها
مِنَ الكَرْبِ رُوحُ المَوْتِ شَرّ مِنَ الكَرْبِ

لَقَدْ نَزَلَتْ ضَنْكًا مِنَ اللَّحْد والثَّرَى
وَلَوْ كَانَ رَحْبَ الذَّرْعِ مَا كَانَ بالرَّحْبِ

وكُنْتُ أُرَجِّي القُرْبَ وَهْيَ بَعِيدَةٌ
فَقَدْ نُقِلَتْ بَعْدي عَنِ البُعْدِ والقُرْبِ

لَهَا مَنْزِلٌ تَحْتَ الثَّرَى وَعَهِدْتُهَا
لَهَا منْزِلٌ بَيْنَ الجَوَانِحِ والقَلْبِ

٢٥٦- أبو تميم - شارع - بقسم الرمل

يحمل لقب أبو تميم اثنان من خلفاء الدولة الفاطمية هما:

١) **أبو تميم معد بن إسماعيل بن أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي**: مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب العربي، وقد أضفى على نفسه لقب المعز لدين الله الفاطمي، وقد ولد بمدينة المهدية التي شيدها جده عبيد الله المهدي في تونس وكان مولده خلال عام ٣١٩هـ (٩٣١م) وجلس على عرش الخلافة عام ٣٤١هـ (٩٥٢م) عقب وفاة والده أبو الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور.

أما ترجمة حياة المعز لدين الله فاطلبها في البحث الخاص «بالفواطم».

٢) **أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله**: وقد أضفى على نفسه لقب المستنصر بالله، وهو ثامن الخلفاء الفاطميين وقد دام حكمه ٥٨عامًا فاستغرق المدة من عام ٤٢٨ إلى ٤٨٧هـ (١٠٣٦ - ١٠٩٤م).

أما ترجمة حياته فاطلبها في البحث الخاص «بالفواطم».

٢٥٧ – أبو الحارث – شارع – بقسم محرم بك

لقب أبو الحارث كنية على عدد من مشاهير العرب بينهم الفقيه والمؤرخ والشاعر، وإني أدوّن فيما يلي سيرة من أعثر على تاريخ حياتهم من ثنايا المراجع التي أستطيع الرجوع إليها واستيعاب مضمونها.

١) **أبو الحارث**: وهي كنية غَيْلان بن عقبة من عدي ابن عبد مناف، ويلقب بذي الرُّمَة، وهو شاعر فحل من شعراء العصر الأموي، وقد كان مولده في حوالي العام الثالث والسبعين للهجرة، ويرجع تلقيبه بذي الرُّمة إلى أن أمه فزعت به إلى البادية فوصف لها معلمه الحصين بن عبده بن نعيم العدوي، أن تضع حبلاً أسود في ذراعه اليسرى ليقيه من الروع الذي ينتابه ليلاً، ومن ثمَّ لقب بذي الرُّمة التي هي قطعة من الحبل الأسود، قالت له مَيَّة التي هام بها طوال حياته الشعرية حين طلب منها جرعة ماء «اشرب يا ذا الرُّمَّة» فلقب بها من ذلك الحين، وكانت أم أبي الحارث ذي الرُّمة من بني أسد، وحبيبته التي شبب بها هي ميَّة بنت طلبة بن قيس ابن عاصم المنقري، وكانت بارعة الجمال حتى أن حسنها كان مضرب الأمثال فبهر جمالها شاعرنا بمجرد أن رآها وجنَّ جنونه بها وأخذ يملأ البادية شعرًا كله أنين ولوعة وألم وشكوى دون أن يسف أو يبتذل في كل ما نظم من قصائد تنم عن حب وشعور عفيفين، وقد قال الأصمعي الراوية في ذلك «ما أعلم أحدًا من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حبًّا أحسن من شكوى ذي الرُّمَّة مع عفة وعقل رصين»، ويصفه كتاب سيرته بأنه كان مدور الوجه حسن الشعرة جعدها، أقنى أنزع، خفيف العارضين، أكحل حسن الضحك، مُفَوَّهًا، رقيق البشرة، عذب المنطق، بليغًا، كما كان حسن الصلاة حسن الخشوع.

ولم ينل ذو الرُّمَة من حبيبته وصلاً وقد دام حبه العذري لها عشرين عامًا، ويصفها محمد بن سلام عن أبي سوار الغنوي عمن رآها أنها كانت مسنونة الوجه طويلته شماء الأنف يجلي وجهها البهاء، وفي هذا الحرمان الطويل المدى يقول أبو الحارث وقد أضناه البعد:

أَمَا أَنْتَ عَن ذِكْرَاكَ مَيَّة مُقْصِرُ
وَلاَ أَنْتَ ناسي العَهْدَ منها فَتَذْكُرُ

تَهِيمُ بِهَا – مَا تَسْتَفِيقُ – وَدُونَهَا
حِجَابٌ وَأَبْوَابٌ وسِتْرٌ مُسَتَّرُ

ولم يقض ذو الرُّمة كل شبابه بالبادية ولاسيما بعد أن شفه الوجد وأضناه الحب وافتقد الأمل في أن يحظى بمحبوبته فذهب إلى البصرة والكوفة؛ حيث كانت سوق الشعر رائجة مربحة فعرض بضاعته في تلك السوق على غرار غيره من شعراء عصره مثل الفرزدق وجرير (انظر هاتين المادتين)، ثم انزلق إلى الهجاء فالتحم مع بعض الشعراء وهجاهم وهجوه، ولقد مر به الفرزدق وهو ينشد حنينًا إلى ميته البعيدة فيقول:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيّةَ نَاقَتِي
فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيهِ، حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبثُّهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ ومَلاَعِبُهْ

واستمر زمنًا من حياته الشعرية ينظم شعر الهجاء حتى جمع النقاد بينه وبين الفرزدق وجرير في الهجاء وهكذا سقط ذو الرُّمة؛ حيث كان يريد الصعود إلى العلياء والرفاهية، ومن ثمَّ عاد إلى البادية وإلى منازل حبيبته وقد حَزَّ السقوط في نفسه وأرهقته لواعج الحب وتباريح الوجد، وكانت مية تترقب عودته على شغف لرؤياه فلما عاد إليها أنكرت منه تغير حاله وتبدل لونه، وكان اللقاء بينهما حارًّا يحمل من طول الغياب وشدة الشوق أسباب الهيام ولوعة الحب الدفين، غير أن «كنزة» التي كانت تكره مية لحبها لذي الرُّمة أخذت تلفق الحديث على لسانها ثم لفقت أبياتًا عزتها لذي الرمة فيها قدح في حبيبته، ولما علم بهذا التلفيق تبرأ منه وطفق يقول: كيف يصدر عني هذا القول في حق مية وقد أفنيت شبابي أشبب بها وأمدحها، وعلى الرغم من قلة الأخبار الموثوق بها التي توضح ما كان بين ذي الرُّمة وحبيبته مي فإن ما وصل إلى القراء من شعره يدل على شاعريته الفياضة المنطلقة التي لا تحجز فيضها سدود ولا تقف في طريق انطلاقها الحدود، فقد كانت كالصحراء التي عاش في أحضانها جلَّ عمره واسعة الأفق بعيدة المرامي، كما كانت هذه الشاعرية خصبة الأخيلة جميلة الصور بهية التشبيهات المتجددة على طول قصائده مما يبعد القارئ عن الملل، فهو في وصفه للصحراء يقدم لقارئه صورًا صادقة لَمَّاعةً عن أرضها وسمائها ونباتها وسحبها ومطرها وطيورها ووحوشها ولهوها واصطيادها، وأيضًا لعفاريتها وشياطينها فيبدع التصوير في كل ذلك، ولا غرابة في ذلك فقد أحب أبو الحارث الصحراء؛ لأنها تضم منازل حبيبته فحبه للبادية من حب مي سيدة قلبه، ويقول الرواة إن أبا الحارث تجاسر ونزل ضيفًا على زوج ميّ، فلما كان في جوف الليل غَنَّى غناء الركبان وهو يقول:

أَرَاجِعَةٌ يَا مَيُّ أَيَّامُنا الأُولَى

بِذي الأَثْلِ أم لا، ما لَهُنَّ رُجوعُ

فغضب زوجها وقال لميّ: قومي فصيحي به وسبيه، ولما امتنعت ونبهت زوجها إلى أن ذا الرُّمة ضيف عليه شهر سيفه وهم بقتلها، فلم يسعها إلا أن صاحت في ذي الرُّمة وسبته، وهكذا انصرف حبيبها غاضبًا دون أن يعرف أنها أجبرت تحت تهديد القتل على ما قالته في حقه.

ورحل أبو الحارث عن الديار يطلب حبًّا آخر، وقد وجده في «خرقاء» إحدى جميلات بني عامر بن صعصعة، وكانت هذه الفتاة حلوة الوجه شهلاء، وذو الرُّمة هو الذي أطلق عليها اسم «خرقاء»؛ لأنها رفضت أن ترقع خفَّه، والخرقاء في لغة البادية هي المرأة التي لا تعمل شغلاً لكرامتها على أهلها، ومن ذلك الحين أخذ يشبب بها إغاظة في ميّ ولم يتعد تشبيبه بخرقاء الثلاث قصائد وافته عقبها المنية، وكانت وفاته عام ١١٧هـ (٧٣٥م) بالغًا من العمر ٤٤ سنة.

وكانت خرقاء تباهي بتشبيب ذي الرُّمة بها وكانت تقعد للحجاج على الطريق من البصرة إلى مكة وتقول لهم: «أنا من مناسك الحج»، وذلك بسبب قوله فيها:

تَمَامُ الحَجِّ أَنْ تَقِفَ المَطَايَا

على خَرْقاءَ واضِعَةَ اللثامِ

وفي شعر ذي الرُّمة أبو الحارث القوة والضعف ولكنه خلو من التعقيد اللفظي والتركيب العميق؛ ولذا جاء شعره فخمًا

منطويًا على الجزالة وحسن البناء ومتانة التكوين ووضوح التعبير مع البساطة في التفكير والتشبيه.

٢) أبو الحارث: وقد كان من أشراف العرب وتولى إمارة الحج عشر سنوات، وتوفي عام ٤٠٣هـ (١٠١٢م).

٢٥٨ - أبو حاكم - حارة - بقسم الجمرك

هذا الاسم لرجل كان من مُلاك عقارات هذه الحارة، ولم أستطع التعرف على سيرته لأنه توفي من زمن بعيد وغادرت أسرته منزلها إلى جهة غير معروفة.

٢٥٩ - أبو الحجاج - شارع - بقسم محرم بك

١) الشيخ أبو الحجاج الأقصري: كان جليل المقدار، كبير الشأن، تقيًّا مجردًا عن الهوى، وكان من تلاميذ الشيخ عبد الرزاق الوفائي (انظر مادة سيدي عبد الرزاق) الذي مازال مسجده قائمًا بشارع النبي دانيال ويضم قبره. وكان الشيخ أبو الحجاج من أجلّ أصحاب الشيخ أبي مدين المغربي (انظر مادة أبي مدين) المتوفى عام ٥٩٤ هـ (١١٩٧م) والمدفون برباط العبّاد بالقرب من مدينة تلمسان بالجزائر، ومن ثم يتضح أن الشيخ أبا الحجاج عاش في هذه الفترة نفسها، وقد توفي أبو الحجاج بمدينة الأقصر بالصعيد ودفن بزاوية تضم ضريحه، وتدل سيرته على أنه زار الإسكندرية عدة مرات والتقى بأبي الحسن بن الصائغ أحد الصوفيين.

٢) أبو الحجاج يوسف: ونجد في ثنايا التاريخ شاعرًا مصريًّا اسمه أبو الحجاج يوسف، وتعرف من مراحل سيرته التي لم أعثر إلا على القليل من نواحيها أنه اشترك في المساجلة التي حدثت خلال عام ٦١٠هـ (١٢١٣م) وتبارى فيها الشعراء بقصائد عن «فانوس رمضان» الذي كان يوقد فوق المآذن للإعلان عن وقت السحور والإمساك، ومن أطرف ما قيل في هذه المساجلة أبيات أبي الحجاج يوسف التي يصف بها فانوس رمضان:

وَنَجْمٌ مِنَ الفَانُوسِ يُشرِقُ ضَوْؤُهُ
وَلَكِنَّهُ دُونَ الكَوَاكِبِ لا يَسْرِي

وَلَم أرَ نَجْمًا قَطُّ قَبْلَ طُلُوعِهِ

إِذَا غَابَ يَنْهى الصَّائِمينَ عَنِ الفِطْرِ

٢٦٠ - أبو الحسن - حارة - بقسم مينا البصل

يطلق لقب أبو الحسن على كثير من الناس، غير أن من الذين اشتهروا بهذا اللقب ودوَّن التاريخ سيرتهم اثنين يتلخص تاريخ حياتهما فيما يلي:

١) محمد بن إبراهيم بن سيمجور (الملقب بأبي الحسن): كان أحد أمراء كوهستان وتولى إمارة خراسان ثلاث مرات في المدة الواقعة بين عامي ٣٤٧هـ (٩٥٨م) و ٣٧٦هـ (٩٨٦م) وذلك في عهد الملوك السامانيين: عبد الملك الأول، ومنصور الأول، ونوح الثاني، وفي أثناء ولايته الثانية التي استمرت عشرين عامًا كان مستقلاً لا يخضع للسامانيين إلا بالقدر الذي كان يروقه، وعندما ارتقى العرش نوح الثاني عام ٣٦٥هـ (٩٧٦م) أسبغ نعمه على أبي الحسن وخلع عليه لقب ناصر الدولة وتزوج من ابنته، غير أنه طُرِد في عام ٣٧١هـ (٩٨٢م) وانتهى به الأمر إلى الاعتكاف في ممتلكاته الوراثية دون أن يوسع رقعتها بحد السيف، وبعد أن أُقيل الوزير العتبي

ونشبت الحرب الأهلية استعاد أبو الحسن ولايته على خراسان واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته، ويصفه رجال الدين بالعدل وخشية الله، وتنعته بعض المصادر الأخرى بالقسوة، ولا يعلم تاريخ وفاته.

٢) **أبو الحسن الشاذلي**: اطلب ترجمته في «الشاذلي».

وليس من المؤكد أن تكون تسمية هذه الحارة باسم أحد هذين الرجلين من رجال التاريخ إذ قد تكون لأحد سكانها أو أحد ملاك العقارات القائمة على جانبيها على غرار العادة التي كانت متبعة في تسمية كثير من شوارع الإسكندرية.

٢٦١- أبو حسين - زقاق - بقسم اللبان

هو اسم أحد سكان هذا الزقاق أو أحد ملاك العقارات الواقعة على جانبيه، ولم أستطع الحصول على معلومات تدل عليه، ولقب أبو حسين يطلق على كثير من الناس مثل «أبو حسن» على كل من يحمل اسم عليّ، وأبو علي على كل من يحمل اسم حسن، وذلك في لغة العامة التي مازالت تردد هذه الألقاب حتى الآن.

٢٦٢- أبو زيد - حارة - بقسم الجمرك

لقب أبو زيد يطلق على عدد لا يحصى من الناس ومن الصعب حصر عدد كبير منهم، ولعل هذا اللقب كان لأحد سكان هذه الحارة أو أحد ملاك المباني القائمة على جانبيها، غير أن التاريخ يدوّن سير أربعة يحملون هذا الاسم، اثنان منهم تدخل سيرتيهما في زمرة الأساطير العربية هما أبو زيد الهلالي سلامة، وأبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري (انظر قصته في مادة الحريري)، أما الثالث فهو «اللخمي» وكنيته أبو زيد (انظر مادة اللخمي)، والرابع هو سعيد بن أوس المعروف بأبي زيد (انظر مادة سعيد).

وأبو زيد الهلالي هو بطل مجموعة من الأقاصيص التي تتحدث عن بطولة بني هلال (انظر مادة الهلالي) ومغامراتهم ولاسيما في غزو شمال إفريقيا المغربي، وإن كانت قصة أبي زيد من نسج خيال القصاصين فإن قصة بني هلال حقيقية وكان لها أثر عميق جدًّا في غزو بلاد المغرب وتعريب أهله من البربر، فقد بدأت هذه الغزوة التي أثرت في الكيان المغربي الاجتماعي والسياسي خلال الحلقة الأخيرة من النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي واستمرت أفواجها تفد على البلاد المغربية حتى نهاية القرن الثاني عشر وظل أثرها واضحًا في هجرات السكان حتى القرن الرابع عشر، ولقد أحدثت موجاتها المتعاقبة انقلابًا جذريًّا غيَّر مظهر شمال إفريقيا من حيث الاقتصاد والسلالات والسلوك الاجتماعي والنظام السياسي.

وبنو هلال وبنو عمومتهم بنو سُلَيم من العرب الخُلَّص ويصلون أنسابهم بقبيلة تفرعت من معد بن إسماعيل، ويقول النسابون العرب إنهم ينتمون بالأرومة إلى مُضَر، وقد عبدوا في الجاهلية الوثن خلعة وذلك في تبالة باليمن، وقد غادروا الجزيرة العربية بعد أن أقاموا في أنحائها بعدد كبير من حوادث النهب والسلب في عهد الدولة العباسية، والغالبية العظمى من بني هلال كانوا من العرب الرحَّل، على النقيض من بني سُليم الذين كانوا على شيء من الاستقرار، إذ كانت منازلهم تمتد على طول حدود نجد والحجاز يتاخمها من الشمال المدينة (يثرب) ومن الجنوب مكة، وكانت بلادهم تنعم بالرخاء حتى نهاية العهد الأموي لانطواء جوف تربتها

على المعادن ووجود بعض الغابات في أرجائها علاوة على اشتمالها على واحتين بهما نخيل وبساتين مثمرة، وكانت ثروتهم مستمدة من معدن الذهب والفضة ومن امتلاك عدد وفير من الخيل، وعرف بنو هلال بفصاحتهم وقد قاتلوا الأزد في الجاهلية وحالفوا الهوازن في حرب الفجّار وهاجموا مكة بعدما فتحها النبي صلوات الله عليه.

وعندما رفض بنو سُليم الاعتراف بمروان بن الحكم الخليفة الأموي نشبت الحرب بين اليمنية والقيسية ومنهم بنو سُلَيم الذين استقر قسم منهم بعد الهجرة من ديارهم في الجزء الغربي من أرض الجزيرة ثم سمح لمائة أسرة من قبيلتهم بالرحيل إلى مصر عام ١٠٩هـ (٧٢٧م)، وفي عام ٢٣٠هـ (٨٤٤م) نهب بنو سُلَيم الذين ظلوا إلى ذلك الحين بالجزيرة العربية المدينة المنورة بالاشتراك مع بني عمومتهم الهلالية فاستحقوا ما نزل بهم من عقاب وتشتيت.

وفي عهد الفاطميين بمصر انحازت القبيلتان إلى القرامطة عند ظهورهم، وصاروا من جنودهم في عمان والبحرين ورحلوا معهم إلى الشام، وكان أفراد القبيلتين يقومون بنهب القوافل، فلما انهزم القرامطة في الشام بدأت الفوضى تدب بينهم وكان ذلك إيذانًا بعهد الشقاء الذي عاناه بنو سُلَيم من سكان الجزيرة العربية.

وبعد طردهم هم وأولاد عمومتهم الهلالية نزحوا إلى مصر وجرَّ عليهم ميلهم إلى القرامطة غضب الخلفاء الفاطميين الذين انتصروا عليهم وعلى خلفائهم القرامطة وأسكنوهم في أول الأمر مصر العليا (الصعيد)، وأراد الخليفة الفاطمي الثامن أبو تميم المستنصر بالله خلال عام ٤٤٣هـ (١٠٥١م) أن يتخلص من هؤلاء البدو المشاغبين فدفع بهم إلى إفريقية لتأديب المعز بن باديس (انظر مادتي أبو تميم والمعز) وأصدر أوامره لترحيل السليمية والهلالية إلى المغرب، وكان بينهم أفراد كثيرو العدد من قبائل زغبة وعدي وربيعة ورياح، وكان أبو تميم المستنصر بالله يهدف إلى الانتقام من المعز بن باديس ومن قبائل صنهاجة وكانوا قد استقلوا بحكم إفريقية (تونس) وبعض بلاد الجزائر وخلعوا بيعته وخطبوا باسم الخليفة العباسي واتخذوا السواد شعارًا لهم، وكان شعار العباسيين في العراق وعادوا إلى اعتناق المذهب السنّي ونبذوا المذهب الشيعي الذي أرغموا على اعتناقه، ولقد وعد المستنصر هذه القبائل بحكم البلاد المغربية إذا هم أفلحوا في إخضاع الخارجين عن طاعته ولم يبخل في مدهم بالأموال والعتاد والإبل.

ويدلنا التاريخ على أن أول من اهتم برحلة بني هلال وبني سُلَيم إلى المغرب كان عبد الرحمن بن خلدون فذكرها في تاريخه «العبر» وفي مقدمته، وحاول استقصاء بعض أخبار رحلتهم الجماعية من بعض الهلاليين الذين عاصروه وسجل أنسابهم وبعض أعلامهم الذين مازالت ذاكرة الشعب العربي تحفظ أسماءهم، أمثال الحسن بن سرحان ودياب بن غانم وأبو زيد وشكر الشريف وخليفة الزناتي وابنته سعدى، ولقد غيرت الغزوة الهلالية الكبرى شعوب المغرب المغربي تغييرًا جذريًّا عميق الأثر، علاوة على أنها تُعد من أهم وأخطر الحوادث التاريخية التي طرأت على هذه الشعوب، فزيادة على طابعها التاريخي كان لها طابع قصصي رائع غذى الأدب العربي بمورد خصب مازال منهله نضاخًا يمدّ الإنتاج الفكري بعذب سلسبيله على مر الأجيال، فقصة أبي زيد الهلالي ودياب ابن غانم وحروبهما مع الزناتي خليفة مازالت

تردد في أنحاء كثيرة من الوطن العربي الكبير وذلك بعد أن ظلت مصدر وحي في الأزمان الماضية لشعراء الهلالية الذين ألفوا منها الأغاني والقصص الشعري .

وبدأت الغزوة الهلالية من مصر عام ٤٤٣هـ (١٠٥١م) وسارت إلى برقة وفتح أفرادها أمصارها وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وسِرْت ثم بدأت طلائعها تظهر في تونس خلال عام ٤٤٥هـ (١٠٥٣م) وكان من نتائج غزوتهم توطيد أقدام العرب وإرساء دعائم العروبة على أسس قوية في بقاع المغرب بأسره؛ لأنها كانت على موجات يؤكد المؤرخون أن عددها بلغ ثلاثمائة ألف نسمة علاوة على أنها كانت العامل الأكبر في نشر اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي على المذهب السني في أقطار المغرب بأسرها ، وما من شك في أن العرب الهلالية والسليمية لم يكونوا من العرب الخُلَّص وإنما من العرب المصريين الذين اكتسبوا الطابع المصري بسبب استقرارهم مدة كبيرة في الصعيد وتزوجوا من نساء الصعيد فجرى الدم المصري في عروقهم ، ولذا أستطيع القول في غير تردد إن الغزوة الهلالية الكبرى مصرية في كيانها العام عربية في أصلها وإن لمصر الفضل الأكبر في تعريب الأقطار المغربية وضمها إلى حظيرة العروبة .

ومازالت قصة أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم أشهى حلقات السمر في الريف المصري من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وكانت في مستهل القرن العشرين أحسن ما يصغي إليه الرجال في المقاهي ليلاً وأهم ما يجري الصبيان والمراهقين لاستماعه وهم في شغف بالقرب من هذه المقاهي ويلقون نظرات الإعجاب على الشاعر «أبي ربابة» وهو يغني مطالع المواقف الهامة في القصة ثم يترك ربابته ويأخذ في سرد أحداث البطولة الزيدية والديابية .

وكنت في عهد الصبا من أنصار أبي زيد الهلالي ، وكان يقف معي بالقرب من مقهى السكرية بجوار مسجد سيدي المغاوري بجهة أبي وردة بقسم الجمرك بعض المتحمسين لدياب بن غانم ، فإذا انتصر أبو زيد فرح الزيديون وظهرت شماتتهم في الديابيين ، ومن ثمَّ كانت المشاجرات العنيفة تقوم بين الفريقين ولا تخلو من الضرب بالرؤوس وقبضات الأيدي في عنف لا يعرف الهوادة ، ولن أنسى ذلك اليوم الذي وقف فيه الشاعر عند وضع دياب بن غانم في السجن ثم نزل عن «دكته العالية» وبدأ في جمع «النقطة» من الحاضرين في منديل مفرود بيده اليمنى ، وبعد أن لَمَّ الكثير من القروش صعد إلى منصته واحتضن ربابته وصلى على النبي العدنان وقال سيتم الحديث غدًا بإذن الرحمن المنَّان .

وإذا بشاب فارع القامة قوي العضلات يقف غاضبًا ويحلف بالطلاق الثلاثي أنه لن يسكت إذا ظلَّ دياب بن غانم سجينًا إلى الغد ، غير أن الهلالية ثاروا في وجهه وانضم الزغبية إلى مناصرة الشاب الثائر ونزل الشاعر عن منصته وعندها قامت المعركة حامية جارفة ، وما هي إلا دقائق حتى كانت كل أدوات المقهى محطمة ويسودها الظلام ، وانصرف المتخاصمون ، وكنت ممن مشوا وراء الشاب الثائر في طريقي إلى المنزل ، وإذا بأحد زملاء الشاب يؤنبه على ما فعل واتضح من هذا التأنيب أن مثير المعركة الزغبي لم يكن متزوجًا وأن يمين الطلاق «بالثلاثة» كان لإرغام الشاعر على إخراج البطل الزغبي دياب بن غانم من السجن في الليلة نفسها .

وقصة أبي زيد الهلالي يندر فيها الجانب التاريخي الصحيح فمعظمها من نسج أخيلة القصاصين والرواة ولكنها ممتعة السياق تحض على الشجاعة والمغامرة والبطولة في القتال والصبر على الشدائد، وهي صفات كانت تملأ قلوب الصبيان والفتيان بالحماسة والفتوة، ومن ثمَّ كان الشاعر بمثابة واعظ يدعو إلى حب الاستبسال في سبيل الدفاع عن العشيرة وعن الشرف وحماية العرض والاستشهاد في سبيل الواجب في غير خوف أو وجل.

هذه هي قصة الهلالية وبطلهم أبي زيد الهلالي وستبقى عنوانًا على الشجاعة الفذة ما تعاقبت السنون ومرت الأجيال مثلها في ذلك مثل قصص ألف ليلة وقصة سيف بن ذي يزن.

وقد يكون من دواعي الأسف أن شباب العروبة المثقف يجهل شخصية أبي زيد الهلالي وقد يعرفه بعض الشبان والشابات بالاسم فقط، ومن هؤلاء وهؤلاء من يُعرِض كليةً عن التعرف عليه؛ لأنه في نظرهم شخصية خرافية لا علاقة لها بالتاريخ الواقعي ولا سند لها من التاريخ المأثور، غير أن أبناء الجيل الماضي، ومنهم مايزالون في قيد الحياة يحبون أبا زيد ويتقصون أثره ويحفظون وقائع بطولته ويرددون ما ينسب إليه من ضروب الشجاعة والإقدام ويترنمون بما حفظوا من أنغام سمعوها من «الشاعر أبو ربابة».

وإن كان التاريخ المنهجي يركن إلى تحكيم العقل وترك ما هو مخالف للواقع فإن القصص الشعبي يباين هذا المذهب المنهجي البحت؛ لأنه ألصق بالفن وبالأدب من العلم بالتاريخ وأحداثه، ومن ثمَّ نرى أن شخصية أبي زيد كادت أن تختفي من التاريخ لتغلب عليها شخصية بني هلال كجماعة تاريخية ذات حقيقة واقعية.

ولم تكن جماعة بني هلال قبيلة واحدة في كيانها الكلي الاجتماعي وإنما كانت طائفة تضم مجموعة من القبائل أكثرها من قيس عيلان المصرية، وأقلها من قحطان اليمنية، ولعل اسم «هلال» طغى على هذه المجموعة المتجانسة في السلوك الاجتماعي المتباينة في الأنساب؛ لأن الرياسة كانت في الهلالية أيام الأحداث التي عرفت في التاريخ «بالغزوة الهلالية»، وسميت في القصص الشعبي «بتغريبة بني هلال».

وإذا كانت الغزوة الهلالية الأولى قد تمت وفاقًا لنصائح اليازوري وزير المستنصر الذي كان يضمر الكراهية للمعز بن باديس، وكان عصبها الإغراء بالغنائم التي وعد بها الهلالية وبنو عمومتهم السليمية فإن امتداد هذه الغزوة كان مجرد هجرة جماعية لا إكراه ولا ترغيب فيها، فقد أقدم عليها هؤلاء المصريون العرب ليشاركوا فيما ناله إخوتهم وأبناء عمومتهم من فيء وغنيمة، ومن ثمَّ نجد أن الفاطميين يفرضون على أفراد هذه الهجرة الاختيارية ما يشبه المكوس فكانوا يتقاضون عن كل فرد دينارين مع أنهم أغروا السابقين عليهم بأن منحوا كل واحد منهم دينارًا وبعيرًا.

ومن المفيد معرفة أن عبد الرحمن بن خلدون حدد بعض أسماء الأبطال التي يرددها «الشاعر أبو ربابة» الذي مازال يروى قصصه الشيق في أحضان بعض جهات الريف، فقد قال ابن خلدون «وكان لهؤلاء العرب» (أي الهلالية) لعهد دخولهم إفريقية (أي تونس) رجالات مذكورون، وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر، وفضل بن ناهض. . .

وسلامة بن رزق . . . ودياب بن غانم ، وما من شك في أن سلامة بن رزق هو أبو زيد الهلالي بعينه وأن كنيته قد غلبت عليه فعرف فيما بعد «بأبي زيد الهلالي سلامة» كما يعرفه «الشاعر البلدي» .

ولم يكن أبو زيد البطل الوحيد في سيرة الهلالية إذ شاركه هذه البطولة الفذة وتلك الأخلاق العربية الكريمة دياب بن غانم المشهور «بالزغبي» والمعروف بقوة الشكيمة والاستبسال ثم الاستئثار بالغنائم . وقد أوصل الهلالية إلى النصر وأجهز على عدوهم ، ومنهم الحسن بن سرحان الذي اشتهر بالسلطان والذي كان المثل الأعلى في الهيبة والكرم والنجدة ، ومنهم «الجازية» وهي السيدة التي فضلت قومها على بيتها وولدها وكانت بمثابة الأم لبني هلال تجمع شتاتهم وتصلح ذات بينهم وتحثهم على الجهاد والقتال وتؤثر الصالح العام على نفسها في كل حين .

وبلغت قصة أبي زيد في القصص الشعبي مبلغًا لم تصل إلى مكانته أية ملحمة أخرى من الملاحم الشعبية ، وإذا كان أبو زيد قد أصبح من الشخصيات التي أغفلها التاريخ فإن شخصيته المحبوبة قد بقيت حية في وجدان الشعوب العربية على مر الأجيال وستبقى كذلك ما بقي الأدب الشعبي والملاحم الشعبية الشيقة .

٢٦٣- أبو شهية - حارة - بقسم المنشية

ما من شك في أن اللقب لأحد سكان هذه الحارة القدامى ، ولاسيما أن كثيرًا من شوارع المدينة وحاراتها كانت تسمى في الماضي بأسماء أول البانين فيها ، أو المشهورين بألقابهم ، وأعرف أن لقب أبي شهية كان يطلق على أحد مشايخ الحارات القدامى وكانت كل الجهة التي تدخل في نطاق عمله تدعى «شياخة أبي شهية» .

٢٦٤- أبو شوشة (سيدي) - حارة - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «سيدي أبو شوشة» .

٢٦٥- أبو صالح - شارع - بقسم الجمرك

كان مؤرخًا في زمن الدولة الفاطمية في مصر ، وقد كتب تاريخ الوزير طلائع ابن رزيك الملقب بالوزير الصالح ثم الملك الصالح الذي تولي الوزارة الفاطمية في عهدي الخليفتين الفائز بنصر الله ، والعاضد لدين الله (انظر مادتي الفواطم) ، كلمة «أبو» كانت وماتزال تطلق على أناس لا حصر لهم في المدن والقرى ، ويلاحظ أن الذي يرزق بولد اسمه صالح ، ولاسيما إذا كان هذا الولد أول أبنائه يصبح على الفور «أبا صالح» مثل أبي علي ، وأبي أحمد ، وأبي محمد ، وإذا كان اسم الرجل نفسه «حسن أو حسين» أضفى عليه معارفه لقب «أبي علي» وإذا كان اسمه «علي» صار «أبا حسن» وإذا كان اسمه «محمود» صار «أبا حنفي» وهكذا . . . وتطلق هذه الكنيات على الأخص في الأوساط المتواضعة في الأحياء السكانية «البلدي» ومن ثم قد يكون اسم الشارع لأحد سكانه الذين رزقوا بأول ولد وسماه صالحًا .

٢٦٦- أبو طالب - حارة - بقسم مينا البصل

يكثر اسم أبو طالب بين سكان القطر المصري ، والأقطار العربية ، ولم أستطع العثور على أصل أبي طالب الذي أطلق اسمه على هذه الحارة ، ومن ثَمَّ يتأكد عندي اليقين بأن

أبا طالب الذي سميت الحارة باسمه هو عم النبي الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وقد سجل التاريخ سيرته على النحو التالي:

هو أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب، عم رسول الله، وهو الذي كفل ابن أخيه اليتيم عند وفاة جده عبد المطلب (انظر هذه المادة) وتذكر السير أن سيدنا محمد عليه السلام كان يصحب عمه أبا طالب في رحلاته التجارية، واعترافًا بهذا الجميل الأبوي الكريم قام النبي بتربية ابنه عليّ بن أبي طالب الذي كان فقيرًا كثير العيال، غير أن هذه الرواية ماتزال موضع الشك في صحتها لأنها لا تتفق وأخلاق أبي طالب وعزة نفسه وحرصه على كرامته مما يدوّنه التاريخ تفصيلاً.

وعندما بدأ أهل مكة يضطهدون النبي لمهاجمته أوثانهم، وعقائدهم الفاسدة ناصره أبو طالب بوصف كونه رب الأسرة، ورفض أن يتخلى عن القيام بهذا الواجب الأبوي على الرغم من اعتراضات المكيين المتكررة واحتجاجاتهم الصاخبة، وقد حذا حذوه بقية بني هاشم عدا أبي لهب الذي لعنه القرآن الكريم وتوعده بالعذاب الأليم فقال الله في سورة المسد، وهو أصدق القائلين: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

ولما أعلن أهل قريش إقصاء بني هاشم عن المجتمع المكي اعتكفوا في حيّهم بمدينة مكة وعرف هذا الحيّ بشعب أبي طالب، وظلّ الهاشميون مضطهدين في غير هوادة ردحًا من الزمن ولقد خسر النبي خسارة فادحة بوفاة عمه المخلص الحنون أبي طالب، وكانت وفاته قبل الهجرة إلى يثرب (المدينة) بثلاث سنوات وبعد بعثة الرسول داعية لدين الله الحق بعشرة أعوام، ولقد كان أبو طالب على صلة وثيقة جدًّا بمراحل حياة الرسول قبل الهجرة وكان عند أهل مكة سيد قريش، وقد نسبت إليه بعض القصائد في الفخر والشجاعة والوفاء، وثار الجدل حول موضوع إسلام أبي طالب، وكثرت الروايات في هذا الشأن، غير أن العلويين، وهم أقرب الناس إلى أبي طالب والد عليّ أحد الخلفاء الراشدين أوردوا أحاديث نبوية تؤكد إسلام أبي طالب، والواقع هو أن إسلامه لا شك فيه إذ ليس مما يقبله المنطق أن يظل هذا الرجل الفاضل الكريم الخلق وفيًّا مخلصًا لابن أخيه، وينكر رسالته، ويرفض الدخول في دين الله الحق، وليس من المستطاع منطقيًّا تصديق الأحاديث التي اختلقها أعداء الإسلام.

٢٦٧ – أبو الطفيل – شارع – بقسم الجمرك

هو أبو بكر بن الطفيل فيلسوف عربي وطبيب ووزير من وزراء الأندلس وهو عند الإفرنجة «Abubacer»، وقد تقدمت ترجمة حياته في كلمة «ابن الطفيل».

٢٦٨ – أبو طَوْر – حارة – بقسم الجمرك

يحمل لقب «أبي طَوْر» اثنان ممن دوَّن التاريخ سير حياتهم وهما:

١) **أبو طور**: وكان من العرب النصارى، وقد تولى حكم مدينة «تنيس Tanis» وقت الفتح العربي لمصر الذي كان من مراحله الحاسمة الاستيلاء على مدينة الإسكندرية في عام ٢١هـ (٦٤١م)، وكانت مدينة «تنيس» فوق جزيرة فسيحة من الجزر التي كانت تتخلل بحيرة المنزلة

في ذلك الحين، وقد ازدهرت في عهد الأسرتين الفرعونيتين الثانية عشرة والتاسعة عشرة، وكانت عاصمة مصر في عهد ملوك الهكسوس الرعاة وأقام رمسيس الثاني بها نُصُبين هائلين.

وتقول المصادر التاريخية إن «أبا طور» هذا خرج لقتال المسلمين على رأس جيش يضم عشرين ألفًا من الأقباط والروم، فالتقى بالفاتحين العرب في أثناء زحفهم على مدينة «تنيس» وكانوا قد استولوا على مدينة دمياط، فقاتلهم في أماكن كثيرة قبل أن ينتصروا عليه ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيرًا، ثم اقتحموا الجزيرة واستولوا على مدينة «تنيس» وغنموا أموالها واقتسموا غنائمها ثم ساروا إلى الفرما للاستيلاء عليها.

٢) علي أبو طور: وكان بطلاً من أبطال البحرية المصرية في عهد محمد علي، وكان إبان معركة «نافارين» البحرية بشبه جزيرة «الموره» ببلاد اليونان برتبة «بمباشي– أي مقدم» ويتولى قيادة الطراد «سوريا» الذي أنزل إلى البحر بدار الصناعة «الترسانة» بالإسكندرية عام ١٢٣٥هـ (١٨١٩م) ثم أرسل إلى إنجلترا خلال عام ١٢٣٩هـ (١٨٢٣م) لجعله مدرعًا بصفائح النحاس من أسفله الغاطس في الماء على غرار السفن الحربية الحديثة في ذلك الحين ثم زوِّد بأربعة وخمسين مدفعًا.

«ونافارين» التي وقعت أمامها المعركة البحرية المشؤومة ميناءٌ على بحر اليونان في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة «الموره»، وفي هذه المعركة قضى أمير البحر الإنجليزي «كودرنجتون Codrington» قائد أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا على معظم وحدات الأسطولين المصري والعثماني، وقد حددت هذه الموقعة مستقبل البلاد اليونانية وكانت نقطة التحول بالنسبة إلى استقلالها عن تركيا.

وقد حددت هذه الموقعة التاريخية في يوم ٢٠ من أكتوبر عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ)، وكان الأسطول المصري بقيادة محرم بك (انظر هذه المادة) والأسطول التركي بقيادة طاهر باشا.

وعند الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر ذلك اليوم المنحوس أخذت البارجة الإنجليزية «دارتماوث Dartmouth» تلقي بكل ثقلها على الطراد «سوريا» قيادة على أبي طور وتمطره بوابل من القنابل في عنف وإصرار فحطمت كثيرًا من مدافعه وأشعلت النيران في جزء من هيكله العام وصار جانب من مقدمه طعمة للنار وفقد أكثر من نصف جنوده؛ وذلك لأن أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا باغتت سفن الأسطولين المصري والعثماني وهي مربوطة بمراسيها بالقرب من أرصفة ميناء «نافارين» فلم تستطع التحرك وإجراء مناورات تمكنها من إطلاق مدافعها على سفن الأعداء في سهولة ويسر حسب خطط القيادة المرسومة لمثل هذه الموقعة مع الخروج إلى عرض البحر لحرية التحرك في مساحات واسعة.

وعلى الرغم من انخفاض قوة الطراد «سوريا» الدفاعية إلى أقل من النصف كان المقدم علي أبو طور يصدر أوامره بقذف البارجة الإنجليزية بكل ما بقي في سفينته من قنابل واستطاع بذلك الدفاع البطولي الباسل أن يصيبها بكثير من التلف فحطم قلاعها ومقدمتها وأشعل النار في أبراج مدافعها وقتل عددًا كبيرًا من بحارتها وبعض ضباطها مما جعلها في موقف حرج للغاية ولاسيما بعد أن بدا الحريق يشب في بطاريات الباقي من مدافعها...

وفي هذه اللحظة خفت البارجة الإنجليزية «جنوا Genoa» إلى نجدتها وشرعت على الفور في مهاجمة الطراد «سوريا» بقنابلها من الخلف ومن الأمام ومن كل الجوانب بكل ما في طاقتها من قوة وإصرار وذلك لقدرتها على الحركة السريعة.

وما هي إلا دقائق معدودات حتى نسف الطراد «سوريا» واستشهد كل من فيه من جنود وضباط مسجلين في تاريخ البحرية المصرية صفحة من صفحات أمجاده الخالدات ودفاعه المجيد في سبيل الله والوطن.

وكانت النيران المنبعثة من نسف الطراد «سوريا» قد امتدت إلى النسافة المصرية «رحاب جهاد» وسرعان ما التهمتها فنسفت بدورها بعد بضع دقائق وكان علمها يخفق فوق ساريتها وهي تغوص في اليم.

وهكذا انتهت حياة الضابط المصري الشجاع «علي أبي طور» وصعدت روحه الأبية الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

وهو من مواليد الإسكندرية ومن الضباط الذين تخرجوا في مدرستها البحرية التي شيدها محمد علي عقب تشييده دار الصناعة «الترسانة».

وما من شك في أن «علي أبا طور» كان يسكن الحارة التي تحمل اسمه الكريم حتى الآن بقسم الجمرك.

٢٦٩- أبو العباس (سيدي) - ميدان - بقسم الجمرك

٢٧٠- أبو العباس (سيدي) - شارع - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «سيدي أبو العباس».

٢٧١- أبو عبيدة - حارة - بقسم كرموز

يحمل لقب «أبي عبيدة» اثنان ممن دون التاريخ المأثور سير حياتهم وهما:

١) **أبو عبيدة ابن الجراح:** واسمه بالكامل عامر بن عبد الله ابن الجراح الفهري القرشي وكنيته «أمين الأمة الإسلامية» بشهادة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو من أسرة بلحارث وأحد المسلمين العشرة الذين وعدهم النبي بالجنة، وكان في طليعة من اعتنقوا الدين الإسلامي، وكان - من حيث الأخلاق - رجلاً عظيمًا في كل النواحي، صادقًا زاهدًا عفيفًا متواضعًا، ومن ثَمَّ اكتملت في شخصيته النبيلة الأخلاق الفاضلة، التي تتمثل في الرجل المؤمن الصادق الإيمان، وقد قال الرسول الكريم في حقه: «ما من أحد من أصحابي لو شئت لأخذت عليه في خلقه ليس أبا عبيدة ابن الجراح»، وسئلت عائشة أم المؤمنين: «من كان أحب إلى رسول الله؟ قالت أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة ابن الجراح»، وقال عبد الله بن عمر: «ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهًا، وأحسنهم خلقًا، وأشدهم حياءً: أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة ابن الجراح».

وجاء النبي أسقفا مدينة نجران الواقعة بين اليمن والحجاز وهما: العاقب والسيد، ومعهما وفد من قومهما، وكانوا نصارى جاؤوا ليجادلوا الرسول في الدين، فلما عدلوا عن ذلك بعد ما شدتهم الآيات البينات مالوا إلى المسالمة، وذكروا للرسول أن بينهم خلافًا على شيء، واقترحوا عليه أن يبعث معهم رجلاً من المسلمين أمينًا ليحكم بينهم! فقال النبي الكريم «لأبعثن معكم أمينًا حق أمين» واستشرف كبار الصحابة كل واحد منهم أن يكون المعنيّ بهذا التشريف، ولكن الرسول أردف قائلا: «قم يا أبا عبيدة».

وقد اشتهر أبو عبيدة بالشجاعة، وإنكار الذات، ونبل السجايا، ولهذه الأخلاق الحميدة استحق لقب الأمين الذي شرفه النبي بحمله، وقد سارع إلى نصرة الرسول في وقعة «أُحُد» (انظر هذه المادة)، وصحبه في جميع غزواته وتولى قيادة الجند في عدة حملات عسكرية، وبعث بعد ذلك إلى نجران ليعلم القبائل التي دخلت في الدين المحمدي قواعد الإسلام، وكان أحد السبعة عشر الذين يجيدون القراءة والكتابة عندما دخل الإسلام في قريش.

ورشحه أبو بكر للخلافة يوم سقيفة بني ساعدة، إثر وفاة النبي لينتخبوا خليفة له فقال: اختاروا أحد الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبا عبيدة بن الجراح، وقال عمر لجلسائه يومًا: تمّنوا على الله، فتمنى كل منهم ما يريد، فقال عمر: إني أتمنى بيتًا ممتلئًا رجالاً مثل أبي عبيدة.

وبدأ جهاده في سبيل الله عقب اعتناقه الإسلام، فقد بعثه النبي في أربعين رجلاً إلى من بذي القصة الذين اعتزموا الإغارة على المدينة، فسار إليهم ليلاً وعند الفجر، داهمهم، ففروا إلى الجبال واستاق نعمهم، وأسر أحدهم، فأسلم بين يدي النبي.

وعقب استقرار الأمور في الجزيرة العربية بعد هزيمة أهل الردّة، اتجه تفكير أبي بكر الصديق إلى فتح الشام، والعراق فعقد أربعة ألوية لأربعة أمراء، وسيرهم جميعًا إلى الشام، ورسم لكل منهم خطته وهم: أبو عبيدة ابن الجراح، ووجهته حمص وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن، فسار الأمراء الأربعة في جيوش لم يزد عددها على الأربعين ألفا، وعلم هرقل إمبراطور بيزنطة بأمرهم، فحشد لقتالهم حشوده، واقترح عليهم عمرو بن العاص التجمع لملاقاة العدو وحدة متكاملة، فقصدوا جميعًا نهر اليرموك في فلسطين، وجاء رأي الخليفة أبي بكر مؤيدًا لاقتراح ابن العاص، وأمدهم بجيش خالد بن الوليد الذي بادر إليهم من العراق، ووافق قدوم خالد قدوم باهان أمير الجيوش الرومية، وقد سار أمام رجاله الرهبان، والقساوسة يحثون الجنود على القتال، واقترح خالد توحيد القيادة على أن تكون يومًا لكل أمير، وطلب أن تكون له قيادة الجنود في اليوم الأول، وتلاقى الجيشان وهزم الروم شر هزيمة وقتل منهم عددًا هائلاً، يزعم بعض المؤرخين أنه بلغ أكثر من مائة ألف، وهو عدد ينطوي على المبالغة الظاهرة إذ ليس من المقبول عقلاً أن يقضي جيش المسلمين على هذا العدد الهائل في معركة واحدة، وهم لا يزيدون على أربعين ألفًا، وما من شك في أن هذه المغالاة في الأرقام ترجع إلى ما جرى عليه كثير من المؤرخين العرب من تجسيم الحوادث، والتهويل من شأنها، ولاسيما أن بعض مؤرخي معركة «اليرموك» يزعمون أن عدد القتلى من الروم ارتفع إلى مائة وخمسين ألفًا!!

وكان خالد بن الوليد قد تلقى رسالة قبل تلاحم الجيشين جاء بها أن أبا بكر توفي، وأن عمر بن الخطاب يعزل خالدًا عن إمارة الجيش، ويولي عليه أبا عبيدة بن الجراح، فوضع خالد الرسالة في جيبه وسلمها بعد انتهاء المعركة إلى أبي عبيدة وصاح في المؤمنين: إن الخليفة عمر أمّر عليكم أمين هذه الأمة، وتحصنت فلول الروم في دمشق بعد هزيمة نهر اليرموك فقصدها أبو عبيدة على رأس جيوشه، وأقام خالد بن الوليد على رأس فرقة على أحد أبواب المدينة أثناء حصارها الذي دام ستة أشهر، وكان خالد شديد اليقظة يرسل عيونه لتقصي أخبار الروم داخل المدينة، وعلم أن لهم عيدًا يفرطون فيه من شرب الخمر، فأعد للأمر عدته، وهاجم أسوار المدينة من قبله ليلاً حتى افتتحها عنوة، فسارع الروم إلى الباب الذي وراءه أبو عبيدة، وفتحوه وعرضوا عليه الصلح فقبل، وجاء خالد وطلب إليه ألاّ يقبل صلحهم لأنه فتح المدينة عنوة، ولكن أبا عبيدة كان قد أمضى كلمته، وأتم الصلح مع الروم على المدينة كلها.

وكان أبو عبيدة ممن يميلون إلى السلم فسار إلى حمص، فصالحه أهلها، ثم قصد إلى بعلبك وحماة فخرج إليه سكانهما مسالمين، ثم فتح حلب صلحًا، وكذلك قنسرين، وأنطاكية، وجميع بلاد الشام.

وإن كان أهل هذه المدن قد قبلوا الصلح على يدي أبي عبيدة، واهتداء بتعاليم الدين الإسلامي السمحة فإن الروم لم يهادنوا في تمسكهم بالشام، ومن ثَمَّ قاوموا العرب في قنسرين فهزمهم خالد بن الوليد وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وبجوار مدينة أنطاكية التقى أبو عبيدة بحشود الروم وهزمها، ومازال على فتوحاته السلمية في معظمها حتى بلغ نهر الفرات ففتح رعبان ودلوك.

وعزّ على هرقل أن تخرج الشام من قبضته، وأن يستقل بها العرب فجمع جيشًا كبيرًا بقيادة البطريق تيودور الذي نزل مرج دمشق، فسار إليه أبو عبيدة، ومعه خالد بن الوليد، وغيره من الأمراء والمقاتلين ونزلوا بمرج الروم، وفي هذا اليوم نفسه وصل مدد إلى العدو بقيادة شنس الرومي في جند يعادل عددهم عدد جنود تيودور، وفي صباح اليوم التالي علم المسلمون أن تيودور رحل بجيشه قاصدًا دمشق ليفتحها، فانسحب خالد بجيشه أثناء المعركة ولحق بجيش تيودور وأباده، وهجم أبو عبيدة على جيش شنس فهزمه، وقضى عليه، وكان نصر المسلمين في هذه المعركة عظيمًا ومغانمهم كبيرة.

وفي العام السابع عشر من الهجرة حشد الروم جموعهم وقصدوا أبا عبيدة في حمص، وحاصروه فطلب النجدة من عمر بن الخطاب، فبادر إلى إرسالها وتولى هو بنفسه فرقًا لمساعدته، ولما بلغ أهل الشام الذين كانوا يناصرون الروم أمر جيوش المسلمين الوافدة لنصرة أبي عبيدة تفرقوا تاركين مناصرة الروم، فخرج أبو عبيدة، وخالد بن الوليد، للقتال وانتصر المسلمون، وأوقعوا بالروم هزيمة منكرة.

وفي السنة الثامنة عشرة للهجرة، انتشر الطاعون بالشام، ومصر، والعراق، واستفحل أمره بالشام على الأخص، وقد قدر المؤرخون ضحاياه من الجيوش العربية بنحو ثلاثين ألفًا، ولم يرض أبو عبيدة ابن الجراح العودة إلى المدينة تلبية لنداء عمر ابن الخطاب الذي أراد إنقاذه من شر الوباء، وآثر أن يموت بين

أصحابه، فتوفي في العام نفسه ١٨هـ (٦٣٩م) بالغًا من العمر ٥٨ عامًا أي أنه ولد في حوالي عام ٥٨١ الميلادي، وكانت وفاته في عمواس. ويقال إن قبره يوجد بمسجد الجراح في مدينة دمشق.

٢) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي: أحد اللغويين المشهورين، ولد عام ١١٠هـ (٧٢٨م)، ويزعم خصومه أنه من أصل يهودي، ومن المحقق أنه كان مولى لقبيلة تيم، ولم يكن فردًا منها، ولهذا السبب كان يتولى دائمًا الدفاع عن الموالي، وكان من أنصار الشعوبية، ويقال لذلك أنه كان خارجيًّا، غير أنه من الإنصاف لهذا الرجل أن تلاحظ أنه كان يتفق مع هذه الطوائف في بعض المسائل فقط، ومن ثَمَّ كان هناك من الأسباب ما يدعو إلى اتهامه أنه كان له خصوم كثر عددهم على مر الأعوام، وأخذوا يؤكدون أنه لا يستطيع قراءة بيت من الشعر العربي دون خطأ، غير أن الواقع هو أن أبا عبيدة كان أحد المتعمقين في دراسة اللغة، والآداب العربية القديمة، وقد ألف أكثر من مائة رسالة ماتزال عناوينها معروفة حتى الآن، وما من شك في أنه كان شعوبيًّا يكره العرب، ويسعى إلى الحط من شأنهم شأنه في ذلك شأن جميع الشعوبيين المتطرفين الذين يرون أن العجم أفضل من العرب في شتى نواحي العلم والمعرفة وأصول الاجتماع، وقد ألف أبو عبيدة بن المثنى كتبًا كثيرة تعرض فيها للعرب، منها: «كتاب لصوص العرب»، و«كتاب أدعياء العرب» كما ألف «كتاب فضائل الفرس»، وصور ابن قتيبة (انظر هذه المادة) الطعن الذي كان يستعمله هذا الشعوبي للنيل من مفاخر العرب والحط من قدرها، والتهكم بها تصويرًا ينمّ عن بغض هذا الرجل الدفين للعروبة وأهلها.

ولقد ذهبت الشعوبية إلى أبعد حد في الانتقاص من قدر العرب، وإعلاء شأن العجم، والموالي من جميع الأجناس الدخيلة، وقد ضاعت أكثر كتب هؤلاء الشعوبيين، لأن العرب عدّوا هذه النزعة الضالة ضد الإسلام ومن ثَمَّ تحرجوا من نقل الكتب المؤلفة في الشعوبية وتقربوا إلى الله بإعدامها، وبَرِئَ المخلصون من الميل إليها كما فعل الزمخشري (انظر هذه المادة) في أول كتابه المفصّل فقال: «إني أحمد الله إذ جبلني على الغضب للعرب والعصبية لهم، وبرّأني من الانضواء إلى لفيف الشعوبية».

وتوفي أبو عبيدة بن المثنى عام ٢١٠هـ (٨٢٥م) بالغًا من العمر ٩٧عامًا ميلاديًّا.

٢٧٢ - أبو العتاهية - شارع - بقسم مينا البصل

اسمه الكامل وألقابه أبو إسحق إسماعيل بن القاسم ابن سويدين بن كيسان العنزيّ المعروف بأبي العتاهية، ولد بعين التمر بالحجاز عام ١٣٠هـ (٧٤٨م)، وهي قرية صغيرة بالقرب من الأنبار، وينتسب أجداده لقبيلة عنْزة البدوية.

وكان أبوه القاسم بن سويدين حجّامًا، وكان أفراد أسرته يشتغلون بالأعمال الوضيعة، أما هو فكان له حانوت صغير بالكوفة لبيع جرار الفخار، وكثيرًا ما كان يبيع جراره متجولاً في الطرقات، ويقال: إن الناس الذين كانوا يترددون على دكانه يكتبون على كسر الخزف الأشعار التي ينشدها، ولذلك لُقّب بالجرّار.

ولضعة مكانته كان ينظر إلى الحياة نظرة كلها غضاضة ومرارة، لحقارة مكانته الاجتماعية بين الناس، ورحل إلى بغداد عندما بدأ يشتهر بالشعر صحبة المغني الشهير إبراهيم الموصلي (انظر هذه المادة)، ولكنه لم يكن من البارزين في ذلك الوقت فاضطر إلى الاعتكاف بالحيرة المتواضعة فترة من الزمن حيث أخذ صيته يتردد بين الناس، ومن ثمّ وصل صيته وشهرته إلى مسامع الخليفة لأنه لم يكن فطنًا.

ولقد أعلن الفنان في شعره المتأخر كراهية الطبقة الحاكمة والأغنياء الإقطاعيين، وكان بخيلاً ومازالت هذه الخصلة الذميمة تلازمه حتى آخر أيامه، ولكنه رزق بموهبة الشعر فالتمس بها بابًا إلى حياة رغدة واسعة الأفق.

وعزّ عليه وهو الفقير أن يصرف وقته في حضور مجالس فقه اللغة، وشعر القدماء، ولذا نجد في شعره جدّة في الأسلوب، وتحررًا من التقليد.

وقد انضم في شبابه إلى زمرة الشعراء الخلعاء الذين التفوا حول والبة بن الحُباب أستاذ «أبي نواس» (انظر هذه المادة)، واشتهر في هذه الفترة بأشعاره في الغزل والخمر، وعاب النقاد المتأخرون شعره في هذين اللونين من الشعر، وقالوا أنه ضعيف يشبه في أسلوبه طبائع النساء، ولم يبق من هذا الشعر إلا بعض القطع.

وكان أبو العتاهية – على غرار الشعراء المطبوعين – يؤثر اللغة البسيطة، والأوزان القصيرة، واشتهر في بادئ أمره بقصيدة في مدح الخليفة المهدي، ونالت الرضا على الرغم من الخصائص التي خرجت بشعره عن المألوف من الشعر القديم.

وساءت سمعته في بغداد بسبب ما قاله من قصائد غزلية في عُتْبة جارية ريْطة ابنة عم الخليفة المهدي، وكانت تودّ أن تلفت نظر الخليفة إليها، ولكنها لم تكن تفكر في أن المهدي قد يدفع بها إلى رجل فقير مثل أبي العتاهية الذي أكثر من نسيبه فيها مدعيًا حبها، وعشقها الذي طغى على وجدانه.

وقد كتب مرة إلى المهدي يطلبها منه فقال:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة
الله والقائم المهدي يكفيها

إني لأيأس منها ثم يُطمعني
فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وقد ذاعت قصة حبه لعُتبة بعد أن تعدد نسيبه فيها ومن ذلك قوله:

أعْلَمْتُ عتبة أنني
منها على شرف مطلْ

وشكوت ما ألقى إليها
والمدامع تستهلْ

حتى إذا برمت بما
أشكو كما يشكو الأقلْ

قالت فأي الناس يعلم
ما يقول فقلت كلْ

وقال أبو العباس المبرّد (انظر مادة ابن المبرد) في كتابه «الكامل» إن أبا العتاهية أهدى إلى الخليفة المهدي في عيد النيروز ثوبًا كتب على حواشيه هذين البيتين فهمّ المهدي بإهداء الجارية عُتبة إليه، ولكنها جزعت وقالت: يا أمير المؤمنين أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر بائع جرار يتكسب بالشعر، فأعفاها المهدي وأمر بمنح أبي العتاهية مبلغًا من المال.

ولما تكرر نسيبه في عُتبة أمر الخليفة المهدي بسجنه، ولكن سرعان ما أطلق سراحه، ووصل ودّه مرة ثانية وأصبح له مكانة رفيعة عند المهدي، غير أنه نظم أبياتًا جانب فيها الحذر، فجلد، وأُقصي إلى الكوفة، ومن نسيبه في عُتبة هذه الأبيات الحلوة الجرس العذبة السياق:

عيني على عُتبة منهلة
بدمعها المنسكب السائل

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى
من شدة الوجد على القاتل

بسطت كفي نحوكم سائلاً
ماذا تردّون على السائل

إن لم تُنيلوه فقولوا له
قولاً جميلاً بدل النائل

أو كنتمو العام على عُسرة
منه فمنّوه إلى القابل

ومن مدحه في الخليفة المهدي قوله:

أتته الخلافة منقادة
إليه تجرر أذيالها

فلم تكُ تصلح إلا له
ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره
لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب
ما قبِل الله أعمالها

غير أنه على الرغم من هذا المدح فإن أبا العتاهية اعتقد أن الخليفة المهدي مسؤول عن خيبة أمله في نوال عتبة، ومن ثَمَّ بدرت منه بعض أبيات من الشعر جافة في حق هذا الخليفة بعد أن عَفَا عنه، ولما توفي الخليفة المهدي عاد إلى بغداد فمدح الخليفة الهادي (انظر مادتي المهدي العباسي والهادي) ولم يتورع في أن يغلظ في مدحه، مما جعل الهادي يضيق به، ويشارك ابنه هارون الرشيد في هذا الشعور، ثم يأمر بإلقائه في السجن هو وصديقه إبراهيم الموصلي (انظر هذه المادة).

ولما تولى هارون الرشيد الخلافة عفا عنه، ونال الحظوة عنده مرة أخرى، وعندها أخذ أبو العتاهية يمتعه بقصائده في الغزل.

وفجأة تنكر شاعرنا للغزل وانصرف إلى الزهد في حوالي عام ١٥٧هـ (٧٧٣م)، واستاء هارون أول الأمر من هذا

التحول الذي طرأ على الشاعر، ولكنه رضي عنه فيما بعد استجابة لرجاء الفضل بن الربيع، وما من شك في أن شهرة أبي العتاهية عند الجماهير كان لها أثر كبير في صفح هارون الرشيد عنه، والمبادرة إلى الاستجابة إلى وساطة ابن الربيع.

ومن المشكوك فيه أن رعاية الفضل بن الربيع له كانت نتيجة اشتراكه في المؤامرة ضد البرامكة التي أسهمت فيها زبيدة زوجة الرشيد لتخليص الدولة العباسية من سيطرة البرامكة الفارسيين على مقاليد الحكم، وليت نتائج القضاء على التغلغل الفارسي في الدولة العباسية كانت إيجابية ودائمة، إذن لكان حال الدولة العربية أحسن بكثير مما وصلت إليه فيما بعد من تفكك، واضمحلال، ثم تمزق أغرى أعداء العروبة ببسط نفوذهم على مقدرات العرب، وهدم انتصاراتهم الباهرة في كل الميادين.

ويقال أن قصائد أبي العتاهية في الزهد والورع كانت تتفق وميول السيدة زبيدة، تلك الزوجة العربية الخالصة التي كافحت في بطولة لتغليب الروح العربية على النزعة الفارسية في الدولة العباسية، وإن كان كفاحها لم يأت ثماره الطيبة في المستقبل فإن ذلك لا يرجع إلى قصور بدر منها في هذا الصدد.

ودأب أبو العتاهية من ذلك الحين على النظم الغزير في المواعظ القصيرة والطويلة مصورًا أهوال الموت التي تحل بالناس جميعًا، وخاصة بالأغنياء ذوي السلطان والجاه بل، وبالخليفة نفسه.

وقد عادت عليه قصائده في هذا اللون الجديد من شعره بالنفع الجزيل، هذا ويشك بعض النقاد المتأخرين في صدق انصرافه إلى الزهد، إذ لم يكن من الزهاد الحقيقيين مثل أبي العلاء المعري (انظر مادة المعري)، وهناك تهمة أخرى تلصق، وتشيع على ألسنة الكثيرين من معاصريه ألا وهي تهمة الزندقة التي كانت السلاح القوي الذي يشهره أهل هذا العصر على من يريدون الإضرار به، وتحطيم كيانه وشهرته.

ويقول المستشرق «كولدسيهر» أنه من المستطاع التماس سبب هذا الاتهام في رميه مرات في السجن، وذلك خلال النزاع الذي ساد عصره بسبب النزعة المخالفة لمذهب أهل السنة، وهي نزعة كانت تظهر غامضة في بعض قصائده ولاسيما أنه لم يتلق دروسًا في الدين مما جعله سريع التأثر بالتراث المعدل من العقائد المانوية الذي كان مايزال شائعًا في العراق، وقد كان هذا التراث المشؤوم سببًا في قيام الفتن في هذا العالم الإسلامي، لقوله بوجود جوهرين هما: جوهر الخير، وجوهر الشر، ولكن الثابت هو أن أبا العتاهية كان يرى أن هذين الجوهرين من خلق الله، وقد قال في ذلك:

إذا أردت شريف الناس كلهمو

فانظر إلى ملك في زي مسكين

ويرجع نجاحه في الشعر إلى أبعد الحدود إلى أنه خُلق مطبوعًا على أن يكون ذا شاعرية فذة، فنظم شعره في معاني الخاصة والعامة بلفظ سهل وأسلوب ليّن مفهوم لكل الطبقات حتى ليخيل لقارئه – من سهولته – أنه نثر عادي غير أنه موزون، وكان في صغره ينظمه في الخلاعة والغزل، ثم ترقى إلى مدح الخلفاء، وخف شعره على المهدي، وأهل بلاطه، ثم شبّب بعُتبة طيلة شبابه، ولما يئس من أن ينالها زهد في الدنيا ورغّب الناس في الزهد حتى اشتهر بالزهديات والمواعظ،

وكان عصره في حاجة إلى مثله لشيوع الخلاعة، والتمتع بين طبقات الموالي.

وكان أبو العتاهية متدفقًا في شاعريته، وكان شعره يعبر عن مشاعر الناس في عصره، وكان من حسن حظه تلك الصداقة التي توثقت صلاتها بينه وبين إبراهيم الموصلي، مما أتاح لشعره أن يلحنه أعظم موسيقي في زمانه.

وكان هو ومعاصره أبان بن عبد الحميد (انظر مادة عبد الحميد الكاتب) أول من نظما الشعر من المزدوج، وقال أبو العلاء المعري في كتابه «الفصول والغايات» أن أبا العتاهية كان أول من استحدث وزن «المضارع» من بحور الشعر كما استخدم وزنًا آخر يتألف من ثمانية مقاطع طويلة.

ولم يجمع ديوانه لغزارة إنتاجه، وقد جمع شعره في «الزهديات» ابن عبد البر الأندلسي المتوفى عام ٤٦٣هـ (١٠٧١م).

وكان شاعرنا يزدري فخامة الشعر البدوي القديم الذي صار مجرد صناعة تقليدية لذلك كان يحصر اهتمامه في انتقاء المعاني التي يفهمها الناس في سهولة ويسر.

ويشتمل شعره في الزهد على الحكم والعظات التي لا تربطها وشائج قوية، ومعظم قصائده في الزهديات التي وصلت إلى القراء وتمتاز بالتشاؤم الواضح، فالزهد عنده يبرره فناء ما في هذه الدنيا، فهو يرى العالم سلسلة من الآلام متصلة الحلقات، والصفاء فيه ممتزج بالأكدار أينما كان، ولا رجاء إلا لمن حمل بين جنبيه نَفْسًا تتسم بالقناعة.

وعلى الرغم من هذه الفلسفة القاتمة بالنسبة إلى الحياة فإننا لا نلمس فيها أثرًا للعويل المتخنث، فهو في ثناياها قوي حازم، ولو لم يكن فرحًا مغتبطًا، وهو يحمل أثقال الحياة لأنه مجبر على حملها، ويعد أبو العتاهية أول شاعر فلسفي في الأدب العربي، وهو ينفرد بالحرية التي عالج بها القوالب الشعرية.

ومن قصائده في الزهد؛ أرجوزته التي يقال أنها في أربعة آلاف بيت، كلها في الأمثال والحكم، ومنها هذه الأبيات:

حسبك مما تبتغيه القوت

ما أكثر القوت لمن يموت

هي المقادير فدعني أو فذر

إن كنت أخطأت فما أخطا القدر

إن الشباب والفراغ والجده

مفسدة للمرء أيّ مفسده

ومن أبياته في الوعظ والورع قوله:

ألا إننا كلنا بائد

وأي بني آدم خالد

وبدؤهم كان من ربهم

وكل إلى ربه عائد

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله

أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة
وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

وقال في القناعة والعزوف عن الدنيا وزخرفها:

شدة الحرص ما علمت وضاعة
وعناء وفاقة وضراعة

إنما الراحة المريحة في اليأس
من الناس والغنى في القناعة

نحن في دار مرتع غبّه الموت
ودار سرّاعة خدّاعة

عزم الليل والنهار على أن
لا يملاّ تفريق كل جماعة

وتدل هذه الأبيات على تناقض واضح فيما يضمر أبو العتاهية، وما يجهر به في شعره، فقد عرف عنه أنه عاش ومات بخيلاً، والبخيل أبعد ما يكون عن القناعة التي تنافي الحرص الذي هو أساس ظاهرة البخل عند البخيل.

وتوفي شاعرنا في يوم الاثنين لثمان أو ثلاث خلون من شهر جمادى الآخرة عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) ببغداد بالغًا من العمر حوالي ٨١ عامًا ودفن بالقرب من نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين، وعندما حضرته الوفاة قال أشتهي أن يجيء مخارق المغني ويغني عند رأسي هذين البيتين اللذين نظمتهما الآن:

إذا ما انقضت عني من الدهر مدتي
فإن عزاء الباكيات قليل

سيُعرض عن ذكري وتُنسى مودتي
ويحدث بعدي للخليل خليل

ثم أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

إن عيشًا يكون آخره الموت
لعيش معجّل التنغيص

والأشعار التي بقيت من آثاره تنقسم إلى ستة أقسام بالنسبة إلى مراميها وهي: المدح وهو قطع متناثرة معظمها في مدح المهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والمأمون، وشعر المناسبات، ويتضمن معاتبات جميلة وذكية، والهجاء، والرثاء، وقصائد مرتجلة، والحكم والمواعظ.

وقد طبعت الجمعية اليسوعية ببيروت أشعاره طبعة جيدة بعنوان: «الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية» وذلك في عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م).

٢٧٣- أبو العرب - شارع - بقسم الرمل (الأميرة فاطمة حيدر سابقًا)

وضعت لجنة تسمية الشوارع بمحافظة الإسكندرية اسم «أبو العرب» على هذا الشارع دون أي تعريف يدل على ما قصدته من هذه التسمية، فقد تكون لأحد الناس المعروفين

في هذه الجهة من ضاحية الرمل، وقد تكون لسيدنا إسماعيل الذي يدعى بهذا اللقب لأنه جد العروبة قاطبة، ولاسيما العرب المستعربة، وقد تكون للشاعر الأندلسي أبو العرب.

١) سيدنا إسماعيل عليه السلام هو ابن سيدنا إبراهيم خليل الله: وقد ذكر سيدنا إسماعيل في القرآن الكريم عدة مرات، فجاء في الآية ١٢٧ من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، وفي الآية ٨٤ من سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾، وفي الآية ١٦٣ من سورة النساء): ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾، وفي هذه الآيات الكريمة ما يدل على أن الوحي قد نزل على سيدنا إسماعيل، كما نزل على غيره من الأنبياء الذين ذكروا في هذه الآيات الربَّانية، وذكر في الآية ٥٣ من سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾، وجاء في الآية ١٣٣ من سورة البقرة أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق من آباء يعقوب، فالله جل شأنه يقول وهو أصدق القائلين: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾، وفي الآية الشريفة ١٢٥ من سورة البقرة أن الله جل جلاله تعهد إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت الحرام فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

غير أن الروايات التي سُرِدت عبر القرون لم تذكر تفصيلاً يبين رسالة سيدنا إسماعيل، ويوضح ما أوحي إليه من عند الله، ولم تبين صلته بنشر ملة سيدنا إبراهيم. ويذكر المؤرخون الذين تعرضوا لسيرة هذين النبيين الكريمين أن سيدنا إبراهيم رزق بإسماعيل من السيدة هاجر، وكان أول بنيه، وأن مولده كان سببًا في النزاع الذي حدث بين السيدتين سارة وهاجر، وأن السيدة سارة أرادت أن تشوه هاجر فثقبت أذنيها فأصبح ذلك عادة متبعة عند النساء، وجاء في بعض الروايات أن إسماعيل كان يتناضل مع أخيه الصغير إسحق فاشتدت الغيرة في نفس سارة لدرجة أنها حملت سيدنا إبراهيم على أن يذهب بهاجر وولدها إسماعيل إلى بلاد العرب، وكانت السكينة تقودهم في سفرهم إلى الجزيرة العربية أو يقودهم الملاك جبريل كما ذكر في روايات أخرى، وقد أعان إسماعيل أباه إبراهيم في إقامة البيت الحرام بعد أن حفر أساسه، وعقب إتمام تشييده ترك إبراهيم زوجته هاجر وولدها إسماعيل في ذلك المكان المقفر القحل يقاسيان الظمأ، وأخذت هاجر تسعى بين الصفا والمروة باحثة عن الماء، وتكرر سعيها بينهما مرات عدة فكان ذلك أصلاً للسعي الذي هو ركن من مناسك الحج حتى الآن.

ثم تمثّل لها الملاك جبريل وقال لها من أنت؟ قالت: سريّة إبراهيم تركني وابني ها هنا، قال: وإلى من وكلكما؟، «قالت وكلنا إلى الله تعالى»، وكان إسماعيل قد نفذ صبره من العطش فجعل يدحض الأرض بقدميه (في بعض الروايات) أو بإصبعه (في بعض الروايات الأخرى) فنبعت عين ماء وهي

زمزم، وأخذت هاجر تفحص الأرض بيديها عن الماء وكلما تجمع منه شيء أخذته بحفنتيها، وألقت به في سقائها، ولو لم تفعل ذلك لصارت زمزم عين ماء سائحة، ومن الروايات ما تذكر أن جبريل هو الذي ضرب الأرض بقدمه فتفجر الماء من عين زمزم.

وكانت قبيلة جرهم تسكن في ذلك الحين بالقرب من البيت الحرام، وقبيلة جرهم من القبائل العربية القديمة، وتقول الروايات أنها عاشت بمكة ثم نزحت منها إلى اليمن، ويؤكد المؤرخون أنها أصيبت بكارثة في قديم الزمان، ولذا نجد أن أحد الشعراء المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام ينذر قريش بمثل ما حل بجرهم وعاد، ومن ثَمَّ جعلهم النسابون المتأخرون هم والعماليق الحمياريين وعاد وثمود وغيرهم من العرب العاربة الذين يرجع نسبهم إلى عابر، غير أن نسل قبيلة جرهم لم يبِد، وإنما ما يدل على ذلك أن حسان بن ثابت يذكر بقية منهم في شعره بل إن أسرًا منهم كانت تعيش على ساحل مكة حتى القرن الثامن الهجري، وعلى كل حال فإن الروايات المتعلقة بسيرة سيدنا إسماعيل عليه السلام تذكر أنه تزوج امرأة من قبيلة جرهم بعد موت والدته هاجر، وجاء سيدنا إبراهيم لزيارة ولده الذي كان غائبًا عن منزله فلم تحسن الجرهمية لقاءه، ولما رجع إسماعيل إلى داره أبلغته كلمات قالها إبراهيم ففهم منها أن أباه أراد منه أن يطلقها، فطلقها وتزوج امرأة أخرى من جرهم، ثم جاء إبراهيم لزيارته مرة أخرى، وأقر هذا الزواج الجديد.

وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن إبراهيم الخليل، وهاجر، دفنا في الحجر ببيت الله الحرام، وهو تشريف اختص به أكثر الأنبياء، وقد قام الخلاف منذ القدم حول من هو الذبيح؟ أكان إسحق أم إسماعيل؟ ويرتكز هذا الخلاف على ما جاء بالإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين العبري مما يدل على أن الذبيح هو إسحق غير أن القول الراجح عند أئمة الإسلام، وعلمائه، أن الذبيح هو إسماعيل لأنه هو أول ولد بشّر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحق، وقد أمر إبراهيم بذبح «وحيده» وجاء كلمة «وحيده» في بعض روايات أهل الكتاب (بِكره) والكلمتان لا تنطبقان إلا على إسماعيل، ولاسيما أن إسحق ولد بعد إسماعيل بأكثر من عشر سنين، وقد قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم: «إن جماعة من أهل العلم ذهبوا إلى أن الذبيح هو إسحق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف حتى نُقل عن بعض الصحابة، وليس ذلك في كتاب أو سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلمًا من غيره حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح، حيث قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾، وقال تعالى أيضا: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾، أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل، ولا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه، وهو صغير لأن الله تعالى وقد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا؟ وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام».

هذا هو قول الإمام ابن كثير في هذا الخلاف ويتضح منه أن الذبيح هو إسماعيل في غير ريب، ويدعم قول ابن كثير ما ذكره عبد الله بن عمر وابن عباس والشعبي وغيرهم، ويروى

أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز سأل يهوديًّا اعتنق الإسلام عن هذا الخلاف فأجابه: «إن الذبيح هو إسماعيل، وإن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم، ويدعون أن الذبيح كان إسحق»، هذا ويعتبر إسماعيل أبا العرب الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية.

ويذهب علماء الأنساب عند العرب إلى أن العرب ينقسمون ثلاثة أقسام: العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة، ويقولون إن إسماعيل هو جد العرب المستعربة الذين يرجع نسبهم إلى عدنان الجد الأول في القدم للنبي عليه الصلاة والسلام، ويؤيد هذا النسب في التسلسل كما يؤيد رجوعه إلى عدنان وصلة سيدنا إسماعيل به اتفاقه تمامًا مع ما ورد في سفر التكوين العبري بالإصحاح الخامس والعشرين، وهكذا يتبين تضليل اليهود إذ إن ما جاء بالإصحاح الخامس والعشرين، يؤكد صحة ما ذهب إليه علماء المسلمين وأئمتهم، ومن الغريب أن يستمر بعض المفكرين المحدثين على الاعتقاد في أن الذبيح هو إسحق، ويحضرني في هذا الصدد قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم التي يقول فيها مخاطبًا آدم أبا البشر:

سليل الطين كم نلنا شقاءً
وكم خطّت أناملنا ضريحا

وكم أزرت بنا الأيام حتى
فدت بالكبش إسحق الذبيحا

وباعت يوسفًا بيع المولى
وألقت في يد القوم المسيحا

ويا نوحًا جنيت على البرايا
ولم تمنحهم الود الصحيحا

علام حملتهم في الفلك هلاّ
تركتهم فكنت لهم مريحا

أصاب رفاقي القدح المعلّى
وصادف سهمي القدح المنيحا

فلو ساق القضاء إليّ نفعًا
لقام أخوه معترضًا شحيحا

وهكذا يظهر من هذا الشعر أن حافظ إبراهيم يميل إلى القول بأن الذبيح هو إسحق، وليس إسماعيل.

٢) **أبو العرب محمد بن تميم بن تمام التميمي**: كان فقيهًا مالكيًّا، ومحدثًا، ومؤرخًا، وشاعرًا من القيروان بتونس، وهو سليل أسرة عربية عظيمة، فقد كان جده الأكبر واليًا على تونس، واستولى على القيروان سنة ١٨٣هـ (٧٩٩م)، وختم حياته في السجن ببغداد.

وولد أبو العرب بين سنتي ٢٥٠ و٢٦٠هـ (٨٦٤ – ٨٧٣م)، وانصرف إلى الدرس على شيوخ مختلفين، وتخرج على يديه عدد كبير من الطلاب من بينهم ابن أبي زيد القيرواني، واشترك أبو العرب في ثورة أبي اليزيد بن كداد صاحب الحمارة على الفاطميين في تونس قبل رحيلهم إلى مصر، فألقى به في السجن إلى أن وافته المنية عام ٣٣٣هـ (٩٤٥م).

ولم يبق من مؤلفاته في الفقه والحديث والتاريخ إلا «طبقات علماء إفريقية» وهي مجموعة من الحكايات في سير علماء القيروان، وتونس، وقد نشر هذه المجموعة وترجمها إلى الفرنسية المستشرق محمد بن شنب.

٣) **أبو العرب الصقلي**: شاعر أندلسي من شعراء بلاط الملك المعتمد بن عبّاد (انظر هذه المادة)، آخر ملوك بني عباد حكام إشبيلية بالأندلس، والذي دام حكمه من عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) إلى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، وجاء في سيرة أبي العرب الشاعر، أنه حضر ذات يوم مجلس المعتمد الذي كان قد أحضر فيه بعض التحف النادرة، وبينها تمثال جمل من البللور له عينان من الياقوت وحليّ بنفائس الورد، فأنشد أبو العرب قصيدة في مدح المعتمد فأمر له بذهب كثير مما كان بيده من النقود الجديدة السك، وطمحت عين أبي العرب إلى تمثال الجمل فقال معرضًا بذلك: «ما يحمل هذه الصلة إلا جمل! فقال له المعتمد «خذ هذا الجمل فإنه حمّال أثقال» فارتجل أبو العرب شعرًا يقول فيه:

أهديتني جملاً جونًا شفعت به
حملاً من الفضة البيضاء لو حملا

نتاج جودك في إعطاء مكرمة
قد لا تصرف من منع ولا عقلا

فعجب لشأني فشأني كله عجبٌ
رفّهتني فحملت الحمل والجملا

أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في «الأميرة فاطمة حيدر».

٢٧٤- أبو علي - حارة - بقسم اللبان

لقب «أبو علي» يطلق على كثير من الناس في مصر، وكل رجل أو فتى يحمل اسم «حسن» ينادي بلقب أبي علي، ولا سيما بين «أولاد البلد» في الإسكندرية والقاهرة.

أما بالنسبة لكبار العلماء من العرب القدامى فهذا اللقب يطلق على: أبو علي بن سينا (انظر مادة ابن سينا)، وأبو علي القالي، وقد غلب عليه هذا اللقب في التاريخ أكثر من كنيته «القالي» وأبو علي محمد بن إلياس.

وبالإسكندرية أسرة معظم أفرادها من علماء الدين، ولقبها «أسرة أبي علي» ولعل هذه الحارة بقسم اللبان إلى أحد منهم، هو الشيخ أحمد أبو علي، وفيما يلي ترجمة حياة: أبو علي القالي، وأبو علي بن إلياس والشيخ أحمد أبو علي:

١) **أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون ابن عيسى بن محمد بن سليمان القالي**: وكان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين، وقد أخذ الأدب عن أبي بكر ابن دريد (انظر مادة ابن دريد)، وأبي بكر ابن الأنباري، ونفطويه وغيرهم.

ولأبي علي القالي مؤلفات مفيدة أهمها كتاب الأمالي الذي اشتهر به، وكتاب البارع في اللغة رتبه على حروف المعجم، وكتاب المقصور، والممدود كما له مؤلف في الإبل، ونتاجها، وكتاب في جلي الإنسان، وكتاب في الخيل، وآخر في مقاتل الفرسان، وشرح لقصائد المعلقات،

وكتاب النوادر، وقد ولد في منزاجرد بأرمينيا عام ٢٨٨هـ (٩٠١م).

وطاف أبو علي القالي في كثير من البلاد ثم سافر إلى بغداد خلال سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م)، وأقام بعد ذلك بالموصل لسماع الحديث من أبي يعلي الموصلي، ثم عاد إلى بغداد عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) وأقام بها إلى عام ٣٢٨هـ (٩٣٩م)، وكتب في هذه الفترة الحديث، وفي تلك السنة رحل إلى الأندلس واستقر بقرطبة منذ عام ٣٣٠هـ (٩٤١م)، وهناك أملى كتابه المشهور «الأمالي» الذي يعد من أمهات الكتب العربية كما ألف معظم كتبه، وفي قرطبة تولى التدريس الذي مارسه ببغداد قبل رحيله إلى الأندلس.

ولقّب بالقالي لأنه سافر إلى بغداد مع أهل «قالي قلا» فلزمه هذا اللقب، وقالي قلا من أعمال ديار بكر.

وتوفي أبو علي القالي بقرطبة في شهر ربيع الثاني عام ٣٥٦هـ (٩٦٧م) بالغًا من العمر حوالي ٦٧ عامًا.

٢) أبو علي محمد بن إلياس: كان أمير كرمان، وأصله من الصفد، وكان في أول أمره أمير لواء ثم صار قائدًا من قواد بني بويه، واستقل بعد ذلك وأصبح أمير إقليم كرمان، وظل يحكم هذا الإقليم طوال ٣٧ عامًا، وقد خلع عليه الخليفة العباسي «المطيع لله» بصفته هذه خلعة ومنحه علمًا، وكان ذلك خلال عام ٣٤٨هـ (٩٥٩م) ثم أصيب أبو علي بمرض الفالج مما اضطره للتخلي عن الحكم لابنه «اليسع»، ولكنه سرعان ما شك في إخلاصه فبادر إلى خلعه.

وبعد أن تمكن ابنه من الفرار من القلعة التي سجن فيها عاد على رأس جيش، وأرغم أباه على التخلي عن الحكم نهائيًّا والالتجاء إلى بلاط السلطان منصور الأول في بخارة فالتقاه هذا السلطان بالترحاب، وعاش في كنفه إلى أن وافته المنية عام ٣٥٦هـ (٩٦٧م)، ولم يعرف تاريخ، ومكان ميلاده.

٣) الشيخ أحمد أبو علي: ابن علي بن زياد، وقد أطلق لقب «أبو علي» على أفراد الأسرة؛ لأنها من أصل أندلسي من مدينة إشبيلية، ولقب «أبو علي» يطلق عادة على كثير من الأسر المغربية؛ لأنه يبدأ بكلمة «أبو» التي تختصر في لهجة المغاربة إلى لفظة «بو» مثل كلمة «ابن» التي تختصر إلى لفظة «بن» في تخاطبهم الدارج مثل «بو علاّم»، و«بومدين»، و«بو علي»، و«بن يوسف» «بن بيللا».

والشيخ أحمد أبو علي هو عم الشيخ أحمد محمد أبي علي، الذي كان أمين القسم العربي لمكتبة الإسكندرية (انظر مادة الشيخ أحمد أبو علي)، وكان الشيخ أحمد أبو علي صاحب هذه الترجمة أستاذ اللغة العربية بقصر الأمير طوسون ابن سعيد الأول، ووالد الأمير السابق عمر طوسون (انظر هذه المادة)، وكان في الوقت نفسه أستاذًا بمسجد الشيخ أحمد سليمان الشيخ ابن الشيخ سلمان باشا الشيخ ابن الشيخ إبراهيم باشا الشيخ شيد جامع الشيخ (انظر هذه المادة).

ومسجد الشيخ أحمد سليمان الشيخ يقع بشارع محرم بك، وهو الذي بناه وكان يدرّس فيه إلى أن توفي ودفن في كنفه، وكان الشيخ أحمد أبو علي يساعده في التدريس.

وكان الشيخ أحمد أبو علي صاحب هذه الترجمة يقيم بمنزله بهذه الحارة بقسم اللبان، وتوفي عن ٧٠ سنة، ولم أتوصل لمعرفة تاريخ ميلاده، ومكانه ولا تاريخ وفاته، وأين كانت وفاته.

٢٧٥- أبو عميرة - حارة - بقسم اللبان

لعله لقب لأحد من سكنوا هذه الحارة في الزمن الماضي، وينطق العامة هذا اللقب بالتخفيف فيقولون «أبو عِميرة» ومن المفيد معرفة ترجمة أحد علماء الأندلس الذي يحمل هذا اللقب وهو:

أبو جعفر أحمد بن عُميْرة الضبّي القرطبي، ولد بمدينة بلش Veleza بالأندلس، وكان من العلماء المبرزين، وقد طاف في شمال القارة الأفريقية، وزار بلاد المغرب العربي كافة، ومن مصنفاته «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»، وكانت وفاته عام ٥٩٩هـ (١٢٠٢م).

٢٧٦- أبو العينين - شارع - بقسم محرم بك

يكثر لقب «أبو العينين» في القطر المصري، وفي كثير من البلدان العربية، ولاسيما إذا كان الملقب به ذا عينين واسعتين أو لونهما أزرق أو عسلي، وفي بعض الحالات يطلق على صاحب العينين الجاحظتين، ولعل هذا اللقب كان لأحد سكان هذا الشارع القدامى.

ولقب «أبي العينين» هو كنية السيد إبراهيم الدسوقي الشهير، والمدفون بمدينة دسوق من أعمال محافظة كفر الشيخ (انظر مادة الدسوقي).

٢٧٧- أبو غالب - شارع - بقسم محرم بك

هو أبو غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي المعروف بالتيّاني من أهل قرطبة بالأندلس، وكان يقيم بمرسية، وتدل سيرة حياته على أنه كان إمامًا في اللغة العربية، وثقة في أصولها وفروعها، واشتهر طوال حياته بالورع والتبحر في الفقه، وله كتاب في اللغة لم يؤلِّف أحد مثله، ويذكر مؤرخو سيرته أن ابن القرضي قال: إن الأمير أبا الجيش مجاهدين عبد الله العامري طلب منه أيام استيلائه على مرسية أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب، ويذكر فيه أبا الجيش هذا، وبعث إليه في مقابلة ذلك بألف دينار، فردها إليه وقال: والله لو بذلت لي الدنيا وما فيها على ذلك لم أفعله، ولا استجزت الكذب فإني لم أؤلفه لك خاصة، أو لغيرك ولكن للناس عامة ليفيدوا منه وينتفعوا به.

فأعجب الأمير أبو الجيش مجاهد بهمة أبي غالب، وعلو نفسه ونزاهته، وقال أبو حيّان (انظر هذه المادة) كان أبو غالب مقدّمًا في علم اللسان مسلمة له اللغة، وله كتاب جامع في اللغة سماه «تلقيح العين» جم الإفادة.

وتوفي أبو غالب بالمريّة بالأندلس في شهر جمادى الأولى عام ٤٣٦هـ (١٠٤٤م)، وقد تلقى علوم اللغة على يد أبيه ابن غالب، وعلي أبي بكر الزيدي وغيرهما، وترجع كنيته «التياني» إلى ثمار التين، ويحتمل أن أحد أجداده كان يزرع التين، أو يبيعه فنسب إليه.

٢٧٨- أبو الغنائم - شارع - بقسم الرمل

كان أميرًا من ذوي البسالة توفي عام ٤٠١هـ (١٠١٠م).

٢٧٩- أبو الفتح (سيدي) - حارة - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في (سيدي أبو الفتح).

٢٨٠- أبو الفداء - شارع - بقسم العطارين

٢٨١- أبو الفداء - شارع - بقسم محرم بك

هو إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب عماد الدين الأيوبي الملقب بأبي الفداء، وهو أمير ومؤرخ وجغرافي، ولد في شهر جمادى الأولى عام ٦٧٢هـ (نوفمبر عام ١٢٧٣م) بمدينة دمشق، وكان أبوه الملك الأفضل أخو الملك المنصور (انظر مادتي الأفضل والملك المنصور)، وأبو الفداء سليل أحد فروع الدولة الأيوبية بمصر، وأسرته من وجوه المغل، وقد بدأ أبو الفداء حياته العسكرية مبكرًا فالتحق بجيوش عمه الملك المنصور أثناء حربه ضد الصليبيين، ولما توفي ابن عمه محمود الثاني الذي مات عقيمًا في ٢١ من شهر ذي القعدة عام ٦٩٨هـ (٢٠ أغسطس عام ١٢٩٩م)، ولم تؤل إمارة حماة الشاغرة إليه إذ حظي بها الأمير سنقر. التحق أبو الفداء بخدمة السلطان الملك الناصر (انظر هذه المادة)، ولم تسند إليه إمارة حماة في ١٨ من جمادى الأولى عام ٧١٠هـ (١٤ من أكتوبر عام ١٣١٠م)، ولما زار القاهرة بعد هذا التاريخ بسنتين خُلعت عليه الإمارة، ولقّب بالملك الصالح (انظر هذه المادة) ثم لقب في ١٧ من محرم عام ٧٢٠هـ (أول مارس عام ١٣٢٠م) بالملك المؤيد (انظر مادة المؤيد) وأصبحت السلطنة وراثية في بيته اعترافًا بفضله، وإخلاصه للدولة الأيوبية، وقد خلد ذكره تشييده المباني المفيدة حول قصره، وترجع شهرته العلمية إلى مصنفاته القيمة وأهمها تاريخه للعالم، وكتابه في تقويم البلدان، وعنوان كتابه الأول «مختصر تاريخ البشر»، وقد تناول في هذا الكتاب تاريخ ما قبل الإسلام، ثم تاريخ الإسلام إلى عام ٧٢٩هـ (١٣٢٩م)، وقد طبع في مجلدين بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م)، ولهذا الكتاب طبعات جزئية مترجمة إلى اللاتينية موجودة في مدينة ليبسك ببولندا تحت رقم ١٨٣١، وفي أكسفورد تحت رقم ١٧٢٢، وترجم إلى الفرنسية الجزء الخاص بحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو موجود بباريس تحت رقم ١٨٣٧، كما ترجم المستشرق موراي جزء منه إلى الإنجليزية، ويوجد بمكتبة ليدن تحت رقم ٧٢٧ النسخة المخطوطة التي صححها أبو الفداء بنفسه لكتابه في الجغرافيا الذي عنوانه «تقويم البلدان»، وقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ (١٣٢١م)، وطبعت منه أجزاء متفرقة في أوروبا منذ عام ١٠٦٠هـ (١٦٢٠م) وترجمت إلى الفرنسية، وكان أبو الفداء من الأوائل الذين قالوا بأن الأرض كروية، وذلك قبل جاليليو.

وتوفي أبو الفداء في ٢٣ من شهر محرم عام ٧٣٢هـ (٢٧ من أكتوبر عام ١٣٣١م) بالغًا من العمر ٦٠ عامًا هجريًّا.

وظل أبو الفداء يتمتع بالشهرة الواسعة الأفق التي اكتسبها باعتباره راعيًا لرجال الأدب وصديقًا للسلطان حتى وفاته، وأقيم ابنه الأفضل خليفة له بمعاونة تنكز، ومنح هو أيضًا شارة السلطنة، وهناك إشارات مختلفة في التراجم العربية تذكر

شواهد من شعره الذي يتضمن نظمًا لكتاب الحاوي في الفقه للماوردي (انظر هذه المادة)، وكان كتابه «مختصر تاريخ البشر» مصدرًا من مصادر العمدة للمستشرقين في القرن الثامن عشر، أما كتابه في الجغرافيا (تقديم البلدان) فقد حل إلى حد كبير محل جميع الكتب الجغرافية التي سبقته، وقد نقل عنه القلقشندي وغيره.

٢٨٢- أبو فراس - حارة - بقسم الرمل

هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي ابن عم سيف الدولة (انظر هذه المادة) أمير حلب، وكان شاعرًا، كاتبًا، وفارسًا، مغوارًا اشتهر بلقب «فارس بني حمدان»، وقد ولد عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) وشب في بلاط سيف الدولة المشهور برعايته الحادبة للآداب والأدباء، ولاسيما الشعراء، وكانت ولادته بالعراق.

وتولى أبو فراس ولاية منبج من قبل ابن عمه، وقد قضى حياته في المنازعات التي نشبت على حدود إمارة بني حمدان مع الروم شأنه في ذلك شأن ابن عمه سيف الدولة، وفي عام ٣٤٨هـ (٩٥٩م) وقع أسيرًا في أيدي الجنود الروم، وسجن في الخرشنة الواقعة على نهر الفرات، غير أنه أفلح في الفرار من محبسه، ويقال أن ذلك تم عن طريق وثبة جريئة قام بها للخلاص من الأسر، ثم أسر مرة ثانية خلال عام ٣٥١هـ (٩٦٢م)، وسجن بالأستانة عدة أعوام نظم أثناءها طائفة من قصائده يشكو ويلوم ويرثي أفراد أسرته، ومن بينها مرثيته المشهورة في أمه، وقد ترجمت إلى اللغة الألمانية، ومما بعث به إلى سيف الدولة يشكو ويعتب، هذه الأبيات:

أبيت معنّى من مخافة عتبه
وأُصبح محزونًا، وأمسي مروّعا

فلما مضى عصر الشبيبة كله
وفارقني شرخ الشباب فودّعا

تطلبت بين العتب والهجر فرجة
فحاولت أمرًا لا يرام ممنّعا

إلى أن يقول فيها:

أما ليلة تمضي ولا بعض ليلة
أسرّ بها هذا الفؤاد الموجّعا؟

أما صاحب فرد يدوم وفاؤه
فيصغي لمن أصغى، ويرعي لمن رعى؟

أفي كل دار لي صديق أودّه
إذا ما تفرقنا حفظت وضيّعا؟

ومن قوله في الشكوى والعتاب هذه الأبيات التي تنم عما يعتمل في نفسه الكبيرة من الأسى لما يلاقيه من أهله من جحود وإغضاء:

وإني وقومي فرّقتنا مذاهب
وإن جمعتنا في الأصول المناسب

فأقصاهمُ أقصاهمُ من مساءتي
وأقربهم مما كرهت الأقارب

غريب وأهلي حيث ما كرّ ناظري
وحيد وحولي من رجالي عصائب

نسيبك من ناسبت بالود قلبه
وجارك من صافيته لا المصاقب

وأبو فراس من فحول الشعراء العرب ومن خصائص شعره أن لقصائده طابعًا خاصّا يميزها عن غيرها من نظم الشعراء، وهي أقرب ما تكون لشعر المناسبات والحوادث التي كانت تعرض له ومن ثَمَّ يستطاع تسميتها باليوميات، ومن جهة أخرى فهو لم يهج أو يرث أو يمدح أو ينظم في الحِكَم إلا نادرًا، ويستشف من شعره اعتزازه بالنفس، وتقديره الصحيح لنبل محتده، وعندما أُسِرَ ناله من العذاب ألوانٌ فشكا الزمان، وأنشد الشعر في ذلك مسترسلاً في سليقته، دون غاية، أو قصد فكان مثل الطير المغرّد يبعث بصوته مترنمًا عندما يقف على أفنان الشجر ومن ثَمَّ لم يكلف نفسه عناء جمع شعره في ديوان بعد تنقيحه ومراجعته، ولقد أهمله القدماء، ولم يعترف له بالشاعرية منهم إلا القليل، وكان في مقدمتهم ابن خالويه الذي كان من جلساء ابن عمه سيف الدولة الحمداني، فقد حمله الود ودفعته الصداقة المخلصة إلى جمع شعر فارس بني حمدان، واختار بعده أبو منصور الثعالبي كثيرًا من قصائده في «يتيمته» وخصص جزءًا كبيرًا منها «للروميات»، وهي القصائد التي نظمها أبو فراس أثناء أسره عند الروم، وكان يبعث بها إلى سيف الدولة في حلب، أو إلى أمه في منبج وإلى إخوانه، وأصدقائه.

ولا ينصفه أغلب النقاد فيذهبون إلى القول بأن قصائده لا تختلف في أسلوبها عن قصائد معاصريه من الشعراء، وأنها لا تصل في روعتها وجدتها إلى قصائد أبي الطيب المتنبي منافسه الشديد، وقد يكون في هذا الحكم شيء من التحيز، ولاسيما أن المتنبي كان شاعر البلاط في عهد سيف الدولة ومن ثَمَّ أحاطته الدعاية بهالة من التقدير الذي لم ينل منه أبو فراس إلا قسطاً ضئيلاً.

وكان جمع ابن خالويه لديوان أبي فراس الفضل في بقاء شعره حيًّا يغذي التراث العربي بمادة عذبة، وقد طبع هذا الديوان ببيروت عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، ثم شرح وتولى طبعه مرة أخرى نخلة قلقاط ببيروت أيضًا عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) وترجم أشعاره إلى اللغة الألمانية المستشرق «روكيرت Ruckert»، ولعل أقوى قصائده شاعرية هي تلك التي نظمها وهو رهن الأسر، وفي الوسع تسميتها «بالروميات» وإذا قورنت «روميات» أبي فراس من حيث إنسانيتها، فإنها تفضل قصائد امرئ القيس إذ نشعر لدى ترتيلها بطرب نقي ناعم، يغمر النفس بفيضه.

ففي السجن الرهيب في قبضة الروم كان فارسنا قد بلغ سن الكهولة، فنضج إدراكه بعد أن خاض المعارك وأبلى فيها أحسن البلاء، وكان قد قوي رأيه، وصحت نظرته إلى الحياة، فامتد طموحه إلى آفاق بعيدة كان بلوغها يخالج وجدانه، ويقعده الأسر عن تحقيقها، ومن ثَمَّ كان يلح في استعطاف سيف الدولة ويطلب إليه أن يفد به، ويشكو سوء حاله في الأسر، ويعاتبه على إهماله، وتغافله عن إنقاذه وهو أميره وابن عمه، وفي الأبيات الآتية ينظم عتابًا ليّنًا وادعًا فيقول:

يا واسع الدار كيف توسعها
ونحن في صخرة نزلزلها

يا ناعم الثوب كيف تبدله

ثيابنا الصوف ما يبدّلها

يا راكب الخيل لو بصرت بنا

نحمل أقيادنا وننقلها

رأيت في الضر أوجها كرمت

فارق فيها الجمال أجملها

قد أثّر الدهر في محاسنها

تعرفها تارة وتجهلها

وهو لا يجزع في سجنه، ويرى في فضل الله مفرجة وفي الصبر عزاءً وسلوى، فيكتب إلى أمه:

يا أمتا لا تحزني

وثقي بفضل الله فيّه

يا أمّتا لا تيأسي

لله ألطاف خفيّة

أوصيك بالصبر الجميل

فإنه خير الوصية

ويقول الثعالبي عن شعره في الأسر «وكانت أشعاره تصدر في الأسر، والمرض، واستعطاف سيف الدولة، وفرط الحنين إلى أهله، وإخوانه، وأحبائه، والتبرم بحاله ومكانه، عن صدر حرج، وقلب شجي، فتزداد رقة ولطافة، وتُبكي سامعها، وتعلق بالحفظ من سلاستها، ودامت فترة سجنه بالأستانة أربع سنوات».

وبعد عام من فك أسره، توفي ابن عمه سيف الدولة فحاول تنصيب نفسه أميرًا على حمص، ولكنه هزم أمام الجنود التي أرسلها ابن سيف الدولة لقتاله، وسقط أبو فراس قتيلاً عام ٣٥٧هـ (٩٦٨م) بالغًا من العمر ٣٧ سنة.

ويروى ابن خالويه الأبيات الأربعة التالية على أن أبا فراس قالها وهو في النـزع الأخير، وهي تشهد وتدل على الحد البعيد الذي ناله من العذاب، فصقل روحه النبيلة العامرة بالشهامة، فيقول مخاطبًا ابنته:

أبُنَيّتي لا تحزني

كل الأنام إلى ذهاب

نوحي عليّ بحسرة

من خلف سترك والحجاب

قولي إذا كلمتني

وعييت عن رد الجواب

زين الشباب أبو فراس

لم يُمتّع بالشباب

وكنية أبي فراس هي «أبو العلاء»، وقد انتقلت أمه، وكانت أم ولد رومية الأصل، صحبة ابنها إلى حلب بعد أن فتحها ابن عمه سيف الدولة (انظر هذه المادة) عام ٣٣٣هـ

(٩٤٤م)، وقد تزوج سيف الدولة من أخته، وصحب سيف الدولة في كثير من حملاته على الروم الذين أسروه مرتين كما تقدم القول، وظل في أسره على الرغم من توسلاته لسيف الدولة حتى تم تبادل الأسرى سنة ٣٥٥هـ (٩٦٦م)، وعندها أقيم واليًا على حمص، ولما حاول بعد سنة من وفاة ابن عمه سيف الدولة الانقضاض على خليفته أبي المعالي، هزمه ابن سيف الدولة وأسره، وسلمه إلى قائده «قرغويه» فتولى قتله.

ويرجع الكثير من شهرة أبي فراس إلى صفاته الشخصية، فقد كان أنيقًا من بيت نبل شجاعًا كريمًا يمتدحه معاصروه فيقولون أنه كان سبّاقًا إلى كل مكرمة على الرغم من طموحه الجارف إلى حد التهور، وكان مثالاً للفروسية العربية التي عبر عنها في شعره أحسن تعبير، والراجح أن هذه الفكرة التي ينطوي عليها القول الشائع الذي أطلقه ابن عبّاد (انظر هذه المادة) وهو: بدئ الشعر بملك (يعني امرأ القيس)، وختم بملك (يعني أبا فراس) ينطبق على هذين الشاعرين بالذات.

وقصائد أبي فراس الأولى كانت على النمط القديم، ومدح بها نبل أسرته، وحسن بلائه في القتال وخاصة رائيته المكونة من ٢٢٥ بيتًا وهي تروي تاريخ البيت الحمداني، أو الإشادة بنفسه هذا إلى جانب قصائد غزلية قصيدة في الحب والصداقة على النهج العراقي، والأولى مشهورة بصدقها واستقامة غرضها وجيشانها الطبيعي بالحياة إذا قيست بما خصّ به المتنبي منافسه الأكبر في بلاط سيف الدولة من مجازات محكمة، والثانية معاتبات رشيقة متكلفة ليس فيها ابتكار، وهناك قصائد عديدة لأبي فراس تنم عن الشيعية السافرة، وهو يسخر فيها من العباسيين.

وتقوم شهرته كأحد فحول الشعراء على قصائده التي نظمها في سجنه وهي المعروفة «بالروميات» ففي هذه القصائد يعبر تعبيرًا صادقًا مؤثرًا وبليغًا عن حنينه إلى وطنه، وأصدقائه، ويمتزج هذا الحنين بكثير من مدح النفس ومعاتبة سيف الدولة على تأخره في افتدائه، وشكاوى مرة من إهمال شأنه.

وتختلف مخطوطات ديوانه بعضها عن بعض اختلافًا كبيرًا في المتن، وفي الترتيب، مما يحمل على القول بأن نسخًا أخرى من هذا الديوان كانت متداولة ومنها على الأخص نسخة الببّغاء المتوفى عام (٣٩٨هـ - ١٠٠٨م)، وجميع الطبعات المعيبة القديمة التي صدرت في بيروت في أعوام ١٨٧٣ و ١٩٠٠ و ١٩١٠ قد أبطلتها الطبعة النقدية التي قام بتحقيقها سامي الدهّان، وهي في ثلاثة مجلدات وصدرت في عام ١٩٤٤ ببيروت، وقد زوّدها الدهّان بمصادر وافية.

ولقد وصفه الثعالبي بما يستحق من وصف فقال إنه كان فرد دهره وشمس عصره، أدبًا وفضلاً وكرمًا ومجدًا وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلاّ في شعر عبد الله بن المعتز (انظر مادة ابن المعتز)، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام، وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتميز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ولا يجرئ على مجاراته، ولكنه لم يمدحه، ومدح من دونه من آل حمدان تهيّبًا له وإجلالاً لا إغفالاً وإخلالاً، وكان سيف الدولة يعجب جدًّا بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام على سائر قومه ويصطحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله.

ويقول ابن خالويه إن أبا المعالي بن سيف الدولة أنفذ إليه عندما حاول تنصيب نفسه حاكمًا مستقلاً في حمص، مقاتلين على رأسهم غلام أبيه سيف الدولة المدعو فرغويه، فأخذ أبو فراس بعد القتال وضرب حتى مات في الطريق، وكان ذلك في يوم الأربعاء لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٧هـ في ضيعة تعرف باسم «صدد»، ثم أخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنته ودفنته.

وعلى هذه الصورة الحزينة انتهت حياة هذا الشاعر الفارس النبيل، في ريعان رجولته بعد أن زوّد تاريخ الأدب العربي بمورد صافٍ من الشوائب يتدفق أنغامًا خلالية الجرس، رزينة الأسلوب، فما أعذب ألفاظه حين يقول في غزله:

سكرْت من لحظه لا من مدامته

ومال بالنوم عن عيني تمايله

فما السلاف دهتْني بل سوالفه

ولا الشمول ازدهتني بل شمائله

ألْوي بعزمي أصداغًا لوين له

وغال قلبي بما تحوي غلائله

وقوله في عتاب من أحب واحتقار ذنوبه:

أساء فزادته الإساءة حظوة

حبيب على ما كان منه حبيب

يعد عليّ الواشيان ذنوبه

ومن أين للوجه الجميل ذنوب

وكان أبو فراس خال أبي المعالي بن سيف الدولة الحمداني فلما جاء نبأ قتله إلى أمه، أخذت في لطم خديها حتى قلعت عينها حزنًا وهلعًا على فقيدها الذي قتله ابن أخته دون رحمة.

٢٨٣ – أبو الفرج – شارع – بقسم محرم بك

٢٨٤ – أبو الفرج – حارة – بقسم محرم بك

أبو الفرج كنية شائعة، ويكنى بها عدد كبير من الناس، وبعض المفكرين، والحكام الذين دوّن المؤرخون سيرة حياتهم ومنهم:

١) علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي (المكنى بأبي الفرج الأصفهاني): مؤرخ عربي من أصحاب الموسوعات، ومن نسل أموي، إذ إن أحد جدوده لأبيه كان آخر خلفاء بني أمية، وهو مروان بن محمد، ويجمع مؤرخو سيرته على أنه ولد خلال عام ٢٨٤هـ (٨٩٧م)، ويقول المستشرقون بروكلمان وهوارث وماريانا للينو، والمؤرخان صدر الدين وأحمد أمين أنه ولد بمدينة أصفهان (أو أصبهان) بإيران غير أن الأستاذين الدكتور محمد أحمد خلف الله والدكتور نبيه عاقل يريان أنه ولد بمدينة سامراء (سرّ من رأي) بالعراق وذلك استنادًا إلى أن والدته تنتسب إلى بني ثوابة وقد كان مقرهم هذه المدينة، أما تلقيبه بالأصفهاني فيرجع إلى أن أجداده الأمويين نزحوا إلى إيران بعد القضاء على الدولة الأموية، وظلوا يخفون أنسابهم خشية البطش بهم في عهد

الدولة العباسية، ويظهر أن المستشرقين ومؤرخي العرب نسبوا أبا الفرج إلى أصفهان اعتمادًا على ما جاء في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي (انظر هذه المادة) عند حديثه عن أبي الفرج أنه (أصفهاني الأصل)، ولكن هذه العبارة لا تعني أنه ولد في هذه المدينة، وإنما ينتمي إليها بالأصل عن آبائه وأجداده، ويظهر أن أحد هؤلاء الأجداد لجأ إلى أصفهان إبّان اضطهاد الأمويين، واستقر بها هو، وذريته ولقّب فيما بعد بلقب الأصفهاني.

وأبو الفرج علم من أعلام أصحاب الموسوعات العربية، ومن المفكرين الذين اشتهروا بنتاجهم الخصب المتعدد الآفاق، وكانت أسرته تعيش في سامراء، وقد أثر انتساب أمه إلى بني ثوابة في عقيدته إذ كان بنو ثوابة في الأصل نصارى، وحين إسلامهم انتموا إلى المذهب الشيعي، ومن ثمّ نعرف السبب في ميله الشديد إلى الشيعة، وحبه المتناهي لآل علي بن أبي طالب، ويرجع ذلك إلى احتكاكه بأسرة أمه على الرغم من نسبه الأموي عن طريق أسرة والده.

وإذا كان أبو الفرج سامرائي المولد فإنه بغدادي النشأة، والثقافة فقد تلقى العلم في هذه المدينة الزاهرة على أيدي النخبة من العلماء، والأدباء الذين كانت العاصمة العباسية تزخر بهم في ذلك الحين، وليس من المستطاع تحديد السنة التي أتى أبو الفرج فيها للسكنى في بغداد إلا أنه في الوسع القول بأنه كان في هذه المدينة خلال عام ٣٠٠هـ (٩١٢م)، إذ يقول هو في كتابه «الأغاني»: إنه التقى هناك وفي ذلك العام نفسه بشخص ذكره قدم عليه وعلى أبيه بدار السلام حيث كانا يقيمان.

ومن بغداد خرج أبو الفرج لزيارة البصرة، والكوفة، وأنطاكية، وغيرها من المدن سعيًا وراء رواية يتلقاها من فم أحد الرواة أو خبر لم يطرق سمعه وهو في بغداد، وكانت ثقافته ثقافة موسوعية متعددة الجوانب، وكان من بين الذين تلقى العلم عنهم أناس جالوا في أكثر من ميدان علمي وأدبي، وتظهر هذه الثقافة المتسعة الأفق المتلونة المتشعبة النواحي فيما دبجه يراعه من مؤلفات.

وقد نال أبو الفرج رعاية سيف الدولة وإسماعيل بن عبّاد (انظر مادة ابن عباد) وهما من وزراء بني بويه كما نال رعاية الأمويين في الأندلس على الرغم من أنه لم يذهب إلى ديارهم، وتصفه بعض الروايات بأنه كان من الأدباء الجوالين.

ويذكر مؤرخو سيرته أنه كان حاد المزاج شرس الأخلاق مقذع الهجاء، يذم إخوانه إذا بدت منهم أصغر هفوة، أو تراءى له منهم، ما قد يفسره بجفوة أو نبوة، وكان قذر الثياب، والبدن، لا يعرف ثوبه غسلاً منذ أن يترك حانوت البائع حتى يصير في زمرة الأسمال البالية، غير أن قذارة الثوب والبدن وشراسة الطبع وبذاءة اللسان لم تحرمه من نعمة الصداقة، ولم تبعده عن أنس الإخوان، فقد كان له في جليل مكانته العلمية أسهل سبيل لأرقى المجالس بين أرفع الأوساط.

ويدل سياق حياته على أنه عاش في بحبوحة من الثراء فكان بيته في بغداد بين درب سليمان ودرب دجلة، من البيوت التي يظلها الرغد والرفاهية، ولا غرو فالأصفهاني عمل في ديوان ركن الدولة كاتبًا، ونعم بعطاء إسماعيل بن عبّاد المهلبي وغيره من سادات القوم، ودرّت عليه مؤلفاته زقا مخضر الجانب.

ولم تكن حياة هذا العالم الموسوعي كلها جدًّا وتأليفًا، فقد اجتذبت أضواء بغداد وجلبة حاناتها وشدو قيانها، وفتنة غلمانها جزءًا غير قليل من انتباه أبي الفرج، فشرب وطرب وتمتع بشدو القيان وجمال الغلمان، وقد حفظت لنا كتب الأدب، وتراجم الرجال الكثير من أخبار مجونه، وعبثه ولهوه.

وعقب انتقاله من صفوف طلاب العلم ليأخذ مكانه في صفوف المؤلفين، وكان ذلك عام ٣١٣هـ (٩٢٥م) على وجه التحديد، أخرج مؤلفه «مقاتل الطالبيين» الذي أرّخ فيه لمن قتل من آل أبي طالب أو مات في موقعة أو سجن مبتدئًا بجعفر بن أبي طالب ومنتهيًا بالطالبيين الذين قضوا خلال حكم المقتدر (انظر هذه المادة)، وللأصفهاني خلاف كتاب «مقاتل الطالبيين»، وكتاب «الأغاني» مؤلفات عديدة منها: كتاب «تفضيل ذي الحجة»، وكتاب «الأخبار والنوادر»، وكتاب «الديّارات»، وكتاب «في أنساب بني تغلب وبني شيبان وبني عبد شمس»، وجمع دواوين أبي تمام والبحتري.

والكتاب الوحيد الذي بقي من مؤلفاته الكثيرة هو كتابه المشهور «الأغاني» الذي جمع في صفحاته كافة الأغاني التي كانت شائعة حتى عصره مع ذكر نبذة عن مؤلفيها وأنسابهم، ويعد هذا الكتاب موسوعة واسعة المجال من العرفان يتنقل القارئ بين صفحاتها من شيق إلى لذيذ، ومن مفيد إلى غريب بين ضروب من التاريخ والأدب، والنقد، والموسيقى، والأخبار، والأنساب، والتراجم، وقد ألّف الكتاب ليضم الأصوات المائة التي اختارها هارون الرشيد (انظر هذه المادة) وجمعها إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح بن عوراء وراجعها فيما بعد إسحق الموصلي بأمر الخليفة الواثق (انظر مواد ابن جامع، وإبراهيم الموصلي، وإسحق النديم)، ويعد هذا الكتاب القيم سجلاً ضخمًا لجميع مناحي حياة العرب، وحضارتهم منذ الجاهلية، وحتى نهاية القرن الثالث الهجري، إنه «ديوان العرب» كما يسميه ابن خلدون.

ويشتمل الكتاب على معلومات فنية تتعلق بالموسيقى العربية، والغناء العربي، ومدارس الموسيقى إلى جانب تراجم الكثيرين من الموسيقيين الرجال والنساء وسير حياتهم وأخبارهم ويضم ألوانًا شتى من الشعر مع أحاديث مستفيضة عن الشعراء، والمدارس الشعرية، والنقد الشعري، وأنساب وأخبار تتعلق بالصلات القبلية، هذا إلى جانب المعلومات المستفيضة عن الحياة الاجتماعية، والحياة في قصور الخلفاء والأمراء ومكانة المرأة، وأنواع الطعام، والشراب، والملابس، والمفروشات، والأسعار، وقد قطع في تأليف هذه الموسوعة خمسين عامًا من عمره، على حد قوله هو.

وقد أثبت أبو الفرج بعد الأصوات المائة المختارة منتخبات من الأغاني الأخرى، ولاسيما تلك التي تعزَى للخلفاء، وأبنائهم، وذكر مع كل صوت نغمته كما غنّاها إسحق الموصلي، وأضاف إلى ذلك إشارات مفصلة عن الشعراء والملحنين والمغنين ذكورًا وإناثًا.

وفي سياق الكتاب روى الأصفهاني أخبار القيان، والمغنيات، وصوّر مجالس الشراب، وأقداح الراح وكؤوس الخمر تصويرًا بارعًا واضحًا وواقعيًّا، وكان أبو الفرج نفسه نديمًا يركن إلى مجالس الشراب، وقد قال في تصوير الحياة العابثة الماجنة التي كان يحياها هذين البيتين:

وبكرٍ شربناها على الورد بكرة
فكانت لنا وردًا إلى ضحوة الغد

إذا قام مبيض اللّباس يديرها
توهّمته يسعى بكمٍّ مورّد

وعلى الرغم من أن أبا الفرج لم يلتزم في هذا الكتاب بنظام معين فإن مصنفه «الأغاني» يعتبر أهم مصدر للتاريخ الأدبي إلى القرن الثالث الهجري، وأهم مرجع لتاريخ الحضارة، وقد طبع في عشرين مجلدًا ببولاق عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م)، وفي ٢١ مجلدًا بالقاهرة في عامي ١٣٢٣، ١٣٢٤هـ (١٩٠٥ – ١٩٠٦م)، ومن بين النسخ الحديثة المنقحة نسخة صاحب «لسان العرب» محمد بن المكرم الأنصاري المتوفى عام ٧١١هـ (١٣١١م)، ولهذه النسخة أهمية خاصة، لأنها تكمل المعلومات التاريخية والأدبية التي استقاها من مصادر أخرى.

وقبل أن يوافيه الأجل المحتوم أصيب بالفالج، وبدأ يخلط في القول، وكانت وفاته خلال عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م)، على حد قول ابن النديم (انظر هذه المادة) أو في ١٤ من شهر ذي الحجة عام ٣٥٦هـ (٩٦٦م) على حد قول ابن أبي الفوارس (انظر مادة أبو الفوارس)، غير أن قول ابن النديم (انظر هذه المادة)، يصح الأخذ به لأن ابن النديم كان معاصرًا لأبي الفرج، وكانت تربطهما صلات وثيقة وكان كل منهما يسكن بغداد حيث توفي الأصفهاني عن عمر ٧٣ عامًا.

ومن المفيد التعرض بالشرح الموجز للأسباب والعوامل التي دفعت أبا الفرج لتأليف كتاب الأغاني، فالعرب بعد الإسلام هبوا إلى فتح البلدان، وامتزجوا بأهلها، وتبادلوا الثقافات والآداب، وظفروا من الأمم العريقة في الحضارة بنصيب كبير من زخرف الدنيا وزينتها وبهجة الحياة ومتعتها، وبرز كل هذا الاقتباس في العصر العباسي الذي استطاع التوفيق بين الامتزاج، والاختلاط وبين الحضارة العربية الأصيلة.

وللفراغ والرخاء أثر عميق في البحث عن مظاهر الترف، واستنباط الوسائل المؤدية إلى الاستمتاع برغد العيش وطيب الحياة ومن ثَمَّ فليس من المستغرب من الخليفة هارون الرشيد الذي يمثل عهده قمة الأبهة، والأحلام الزاهية عند الشرق والغرب أن يعهد إلى أشهر المغنيين في خلافته باختيار مائة صوت من بين الأغاني جميعها، ثم يحل عهد الواثق بالله الذي له في الغناء صنعة فيأمر أعظم المغنيين في عهده، وهو إسحق الموصلي أن يختار له ما يرى أنه أفضل مما كان اختير في عهد جده هارون الرشيد.

وبعد عشرة أعوام من ذلك الحين ألّف أبو الفرج الأصفهاني كتابه «الأغاني» الذي بلغ قمة الروعة والإبداع، إذ أودعه من الأخبار، واللطائف، والطرائف، والأشعار ما لم يتضمنه كتاب آخر، ولقد قال الأصفهاني في مقدمته: «هذا كتاب ألّفه علي بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالأصفهاني، وجمع فيه ما حضره، وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها، وحديثها، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره، وصانع لحنه، وطريقته من الإيقاع».

والتراجم التي دوّنت في كتاب الأغاني تصل إلى سبعمائة ترجمة لشعراء، وشاعرات، ومغنيين ومغنيات، وحروب، وغزوات، ويزيد عدد أبيات الشعر التي ذكرت فيه على ثلاثين ألفًا.

وكان الكتاب الذي طبع ببولاق في عشرين مجلدًا، أما المجلد الواحد والعشرون فلم يكن معروفًا وقت طبع العشرين الأخرى في عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م)، والذي جمعه هو المستشرق الألماني الأصل الأمريكي الجنسية «رودلف برونوك»، فقد راجع التراجم المدوّنة في الأجزاء العشرين على مخطوطات للأغاني عثر عليها في ألمانيا بمدينة ميونخ، وتبين أن بعض التراجم، والأخبار لم تذكر في طبعة بولاق، فرتّب ما وجده على حروف الهجاء، وطبعه في جزء واحد، وسمّاه الجزء الحادي والعشرين ومن ثَمَّ فإن هذا الجزء مستقل تمامًا على الأجزاء العشرين الأخرى.

٢) **أبو الفرج الببغاء**: هو عبد الواحد نصر المخزومي المشهور بالببغاء، كان من مشاهير الشعراء ومن بين الكتّاب المجيدين، وكان من كتّاب سيف الله الحمداني وشعرائه (انظر مادة سيف الدولة)، وهو ممن يجيدون وصف المعارك الحربية، وقد عاش بعد وفاة سيف الدولة، ورحل إلى كثير من بلاد الشرق، وتوفي عام ٣٩٨هـ (١٠٠٧م)، وله ديوان شعر، ومن شعره في وصف كتبه وقائدها:

أعادت علينا الليل بالنقع في الضحى
وردّت علينا الصبح في الليل بالشّهْب

موقّرة يقتاد ثني زمامها
بصير بأدواء الكريهة في الحرب

أصح اعتزامًا من خؤون على قلىً
وأنفذ حكمًا من غرامٍ على صبّ

ومن نثره الغني قوله في تهنئة بأحد الأعياد:

«عرّفك الله يُمْنَ هذا العيد وبركته، وضاعف لك إقباله وسعادته، وأحياك لأمثاله في أسبغ النعم وأكملها، وأفسح المدد وأطولها، وأشرف الرتب وأرفعها، وأعز المنازل وأيفعها، وحرس منحتك من المحظور، ووقى نعمتك من عثرات الدهور».

٣) **أبو الفرج غريغوريوس «جريجوريوس» (الشهير بابن العبري)**: ولد عام ٦٢٣هـ (١٢٢٦م)، واشتهر بتبحره في علم اللاهوت النصراني، والفلسفة، والشعر باللغة السريانية، وارتقى في الوظائف الدينية إلى أن صار أسقفًا لمدينة حلب (انظر مادة حلب)، وجاثليق تكرتب، وكانت له معرفة واسعة النطاق بالغراماطيس، ومن مؤلفاته كتاب «مختصر تاريخ الدول».

وكانت وفاته خلال عام ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) بالغًا من العمر حوالي ٦١ عامًا، وهو عند الإفرنجة (بارهيبروس Barhebreus).

٢٨٥ – أبو الفوارس – حارة – بقسم العطارين

٢٨٦ – أبو الفوارس – زقاق – بقسم باب شرقي

هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيْفي التميمي الملقب شهاب الدين، والمعروف «بحيص بيص» كان فقيهًا شافعيًّا، وشاعرًا مشهورًا، وقد تعلم الفقه بمدينة الريّ على يد القاضي محمد بن عبد الكريم الوزان، ولكن الأدب ونظم الشعر غلبا عليه، فأجاد في شعره الذي امتاز بجزالة

اللفظ وحلو الجرس، وأخذ الناس عنه الأدب إذ كان من أخير أهل عصره بأشعار العرب، ولهجاتهم المختلفة، وقد اشتهر بالتيه، والتعاظم، وكان لا يخاطب أحد إلا باللغة العربية الفصحى، وقد زعم أنه من نسل «أكثم بن صيْفي».

أما الشهرة التي اكتسبها بين الناس، وهي «حيص بيص» فترجع إلى أنه رأى الناس يومًا في حركة مزعجة، وأمر شديد فقال: «ما للناس في حيص بيص» فبقي عليه هذا اللقب، وقيل أنه قال «ما للناس في حيصة بيصة».

والظاهر أنه لم يكن يعرف تاريخ مولده، أو أنه كان يخفيه ليغالط في كبر سنّه، ولكن جاء في جريدة العصر أنه كان في ريعان الشباب عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م).

وقد ذاع صيته في الشعر والنثر لرشاقة أسلوبه، وكان مغرمًا بلبس الزي العربي مما أغرى خصومه وحسّاده بهجائه، وكانت له مع ابن القطان (انظر هذه المادة) الشاعر الهجّاء المعروف جولات كثيرة في الهجاء، ويقال إن ابن القطان هو الذي أطلق عليه لقب «حيص بيص»، فلزمه هذا اللقب طوال حياته.

ومن أولياء نعمته ورعايته، الوزير شرف الدين علي بن طرّاد الزيني الذي تولى الوزارة في عهد الخليفتين العباسيين المسترشد والمقتفي، وقد تضمنت «خريدة العصر» لعماد الدين الأصفهاني متفرقات كثيرة من أشعاره في الوصف، والهجاء، والمديح، وفي بعض ألوان الشعر الأخرى، وتشمل هذه المقطوعات طائفة كبيرة من القصائد التي نظمها في مدح الخليفتين المسترشد والمستضيء في المدة من عام ٥١٢ إلى ٥٧٥هـ (١١١٨ – ١١٧٠م)، وفي مدح سلاطين السلاجقة مثل محمود بن ملكشاه ومسعود بن ملكشاه في المدة من ٥١١ إلى ٥٢٧هـ (١١٧ – ١١٥٢م)، هذا إلى جانب مدائحه للوزراء وبخاصة للوزير الزيني وغيره من الأعيان، وقد اشتمل كتاب عماد الدين الأصفهاني الآنف الذكر على مقطوعات من مراثيه، وشواهد من الرسائل التي كتبها، وقد تضمن المخطوط المحفوظ بمكتبة برلين على سبع رسائل وجيزة توسل فيها أبو الفوارس بالخليفة ورد الخليفة عليه.

وتوفي أبو الفوارس حيص بيص ببغداد في السادس من شعبان عام ٥٧٤هـ (١٧ يناير عام ١١٧٩م)، ودفن في الجانب الغربي من مقابر قريش، وكان كلما سئل عن عمره يقول: «أنا أعيش في الدنيا مجازفة» ولم يترك عقبًا، وكان إلى جانب زي العرب الذي كان يلبسه، يتقلد سيفًا أينما سار.

وقد أثار لبسه وتقلده السيف تهكم أبي القاسم بن المفضّل أو الرئيس عليّ بن الأعرابي الموصلي كما يقول عماد الدين الأصفهاني في جريدة العصر فأنشد أحدهما في حقه هذه الأبيات:

كم تبادي ولم تطوّل طرطورك

ما فيك شعرة من تميم

فكل الضب واقْرُط الحنظل اليا

بس واشرب ما شئت بول الظليم

ليس ذا وجه من يضيف ولا يقري

ولا يدفع الأذى عن حريم

فلما بلغت هذه الأبيات أبا الفوارس أجاب بالأبيات التالية:

لا تضع من عظيم قدر وإن كنت
مشارًا إليه بالتعظيم

فالشريف الكريم ينقص قدرًا
بالتعدّي على الشريف الكريم

ولع الخمر بالعقول رمى
الخمر بتنجيسها وبالتحريم

وقال في مشايعته لأهل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، ولوم الذين قتلوا منهم الكثير بعد وفاة النبي والخلفاء الراشدين الثلاثة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان (انظر هذه المواد):

ملكنا فكان العفو منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحلّلتم قتل الأسارى وطالما
غدونا على الأسرى نعف ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا
وكل إناء بالذي فيه ينضح

ولقد صار عجز البيت الأخير مثلاً يضرب للدلالة على خسة الأصل، وحقارة المنبت، فيقال لكل خسيس وضيع النفس حقير النسب «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

وكان أبو الفوارس حيص بيص يزعم أنه من ولد أكثم ابن صيفي التميمي حكيم العرب ولكن ذلك لم يثبت تاريخًا، وكان مدعاة لهجائه من كثير من خصومه.

٢٨٧- أبو قابوس - شارع - بقسم كرموز (إبراهيم باهي الجبالي حاليًا)

يحمل لقب أبو قابوس في التاريخ المأثور اثنان سجل الكتاب سيرتيهما وهما:

١) النعمان بن المنذر الخامس (زوج هند) ولقبه «أبو قابوس»: وكان النابغة الذبياني (انظر مادة النابغة) شاعر بلاطه، فاتهم بأنه شبَّب بزوجة أبي قابوس في شعره، فغضب منه، فاضطر النابغة إلى الفرار والالتجاء إلى أمراء بني غسان (انظر مادة غسان) بالشام، ثم اعتذر لأبي قابوس مما كان، فعفا عنه، ومن ثَمَّ عاد النابغة إلى بلاطه في الحيرة، وقد حكم أبو قابوس طوال المدة الواقعة بين عامي ٥٨٠ و ٦٠٢م، وكان كسرى ملك الفرس قد غضب عليه ففر هاربًا، ثم لجأ إليه مرغمًا، فحبسه حتى مات عام ٦٠٢م، وبموته ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة العرب، واستمر الحال على هذا الوضع حتى عام ٦٣٣م (١٢هـ) حين فتح خالد بن الوليد الحيرة، وضمها إلى الدولة العربية الناشئة.

ويحكى أن القصيدة التي قيل إن النابغة الذبياني تشبب فيها بزوجة أبي قابوس كانت من نظم المنخل اليشكري، وقد نسبها إلى النابغة للإيقاع به لدى أبي قابوس، وكان ذلك سببًا في غضب هذا الملك عليه، ومن أبيات هذه القصيدة الغزلية السهلة العبارة الجزلة الألفاظ والمعاني قوله:

ولقد دخلت على الفتاة
الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل
في الدمقس وفي الحرير

فدفعتها فتدافعت مشي
القطاة على الغدير

إلى أن يقول:

وأحبها وتحبني
ويحب ناقتها بعيري

٢) أبو قابوس بن وشمجير: رابع أمراء بني زياد في العراق العجمي وطبرستان، وكان أبو قابوس عالِمًا في الفلك، وخطاطًا بارعًا، وله رسالة في الفلك كتبها باللغتين العربية والفارسية، وكانت وفاته عام ٤٠٣هـ (١٠١٢م).

٢٨٩- أبو القاسم - حارة - بقسم محرم بك

يحمل لقب أبي القاسم عدد من مفكري العرب أذكر منهم:

١) أبو القاسم: الذي كان من كبار الأطباء مثل ابن سينا (انظر هذه المادة) والرازي (انظر هذه المادة)، واسمه الكامل أبو القاسم الزهراوي، وكان من ألمع جراحي العرب، وأعظمهم فضلاً، وقد نقل إلى الأطباء الغربيين صور الأدوات الجراحية العربية التي كانت تستعمل في زمنه (انظر مادة الزهراوي).

٢) أبو القاسم الديनوري عبد الله بن عبد الرحمن: وكان أحد رؤساء الأدباء، ورؤوس الكتّاب في خراسان، وكان شاعرًا مجيدًا ومن قوله يشكو ولده:

ربيته وهو فرخ لا نهوض له
ولا شكير ولا ريش يواريه

حتى إذا ارتاش واشتدت قودامه
وقد رأى أنه آتت خوافيه

مدّ الجناحين مدًّا، ثم هزهما
وطار عني، فقلبي فيه ما فيه

وقال في شكوى الكبر:

عشت من الدهر ما كفاني
ومرّ ما مرّ من زماني

وقد حنتني وقوستني
تسع وتسعون واثنتان

وقد سئمت الحياة مما
ألقى من الذل والهوان

ومن أخٍ كنت أرتجيه
لحادث الدهر قد قلاني

ومن غلام إذا ينادي
تصامم النذل وهو داني

مدمدم لا أراه إلاّ

مقطّب الوجه ما رآني

وتدل هذه الأشعار على أن ابنه لم يكن من البررة، وأنه تركه بعد أن اشتد ساعده، فحزن لفراقه، وغمر الحزن قلبه الكئيب، كما تدل على أنه بلغ الثانية والتسعين من عمره، ولم يكن سعيدًا في شيخوخته المتقدمة في السن؛ لدرجة أنه سئم الحياة كما سئمها زهير بن أبي سلمى فقال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

٣) **أبو القاسم**: وهو شخصية خرافية ابتدعها المستشرق «دوسون D'Ohsson» ونسب إليها أن صاحبها أمدّ التاريخ بأخبار عن أهل القوقاز، وقد ذكر «دوسون» كل ذلك في كتابه بعنوان «أخبار عن شعوب القوقاز أو رحلة أبي القاسم».

٤) **أبو القاسم**: وهو لقب أضفاه محمد أبو أحمد بن المطهر الأزدي على طفيلي منافق وذلك في كتابه بعنوان «حكاية أبي القاسم البغدادي»، وقد رمز بهذه الحكاية إلى صنف من رجال بغداد في زمانه، ويُظنّ أن هذا الكتاب وضع في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، وقد سرد المؤلف في كتابه قصة يوم من أيام أبي القاسم ذلك الرجل الذي استطاع – باستعارة أسلوب الأتقياء – أن يجد جمهورًا من المستمعين في مأدبة، فأخذ يسخر من الضيوف، ومن صاحب الدعوة، وأطلق العنان لفصاحته، وأسهب في المقارنة بين فضائل بغداد وأصفهان، فأخذ يرسل نكاته السريعة، ولما لعبت الخمر برأسه صار ثرثارًا سوقيًّا، ثم استولى عليه النوم بعد أن أفرط في الشراب.

وأورد المؤلف في قصته كثيرًا من المعلومات بكتب الأدب، وشعر الخلاعة والفجور.

٥) **أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي**: مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب العربي، وقد أضفى أبو القاسم على نفسه لقب «القائم بأمر الله» (انظر هذه المادة) عند توليه الحكم في ١٤ ربيع الأول عام ٣٢٢هـ (٩٣٣ – ٩٣٤م).

أما ترجمة حياته فاطلبها في مادة «الفواطم».

٢٨٩– أبو القاسم الشابي – شارع – بقسم العطارين

هو الشاعر التونسي الرقيق الحاشية المرهف الإحساس، ولد ببلدة الشابية إحدى ضواحي مدينة «توزر» كبرى بلاد الجريد بالجنوب التونسي عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وهي بلاد ذات مناظر طبيعية جميلة يتخللها البساتين والغابات الفسيحة من النخيل والعيون النضاخة، وتمتد عند أطرافها الجنوبية الغربية الصحراء برمالها الذهبية ويبدو في جنوبها الشرقي شط الجريد الهادئ، وكان لهذه المناظر الخلابة الساحرة أثرها العميق في شاعرية أبي القاسم، وقد تحدث عن هذه المناظر في قصيدته «الجنة الضائعة».

وقد انتقل الشابي أثناء حياته إلى مدينتي قفصة وزغوان، حيث كان أبوه رئيسًا لمحكمتيهما الشرعيتين غير أن انتقاله لم يؤثر على المشاهد الرائعة التي رآها في مسقط رأسه، وفي المرحلة الأولى من تعليمه أرسله أبوه إلى «الكتاتيب» وهو في الخامسة

من عمره فحفظ القرآن، وأتم حفظه عندما بلغ التاسعة، فدلّ ذلك على نبوغه، ثم تولى أبوه تعليمه أصول اللغة العربية، ومبادئ العلوم الأخرى حتى بلغ الحادية عشرة، وخلال هذه الفترة اطلع أبو القاسم على عدة كتب دينية وصوفية وفلسفية مما تضمه مكتبة والده، وفي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) أرسله أبوه إلى كلية الزيتونة، وكان عمره ١٢ سنة، فظل يدرس بها العلوم الدينية واللغوية إلى أن تخرج عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، وقد ساعدته هذه الدراسة على الإسهام في النشاط الأدبي والحركة الفكرية في تونس، وعكف في هذه الأثناء على استيعاب كتب أدباء المهجر، ودواوينهم مثل ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وجبران خليل جبران، ثم أخذ يطالع أمهات الكتب العربية القديمة كالأغاني، ونفح الطيب، والكامل، والأمالي، وصبح الأعشى والعمدة، والمثل السائر، وكتاب الصناعتين، كما أكب على البحث في المعاجم العربية كلسان العرب، والقاموس المحيط، وأساس البلاغة، وقرأ ما ترجم للشاعر الألماني «جوته» والشاعر الفرنسي، الرومانتيكي «لامارتين»، وأخذ في بذل الجهود الأدبية فيها، وفي شهر سبتمبر عام ١٩٢٩م (١٣٤٨هـ)، توفي والده، فحزن عليه أبو القاسم، وأثر فقده في نفسيته فنظم القصائد التي تفيض بالأسى والتوجع، وأدرك منذ ذلك الحين متاعب الحياة وشعر بمسؤوليته تجاه والدته، وإخوته الصغار، وإدارة أملاك أبيه المتناثرة، ولم يتركه صرف الدهر فأصيب بداء عضال أعيا الطب والأطباء، فتملكه اليأس الجارف، والقنوط المرير، وطفق يجوب البلاد والتونسية علّه يشفى من مرضه، وقضى ثلاثة أعوام من حياته وحيدًا في بلدة «المشروحة» بين أنهارها وأشجارها يطلب العزاء والسلوى، وظهرت في قصائده الكآبة التي كانت تستولي على نفسه نتيجة لمرضه فنفثها شاكية متوجعة في قصائده: زوبعة في الظلام، أغاني التائه، الجنة الضائعة، وتوفي الشاعر الشاب في يوم الثلاثاء التاسع من شهر أكتوبر عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ) ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه.

وكان أبو القاسم الشابي عذب الأسلوب، طليق الخيال، بديع الصورة الشعرية، وتتمثل فيه روح الفنان بأدق معاني الفن، وعلى الرغم من مرضه العضال كان يصارع الموت ويتحداه بقوله:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

وأقول للقدر الذي لا ينثني
عن حرب آمالي بكل بلاء

لا يطفئ اللهب المؤجج في دمي
موج الأسى، وعواصف الأرزاء

وكانت مشاعره حيال وطنه جارفة قوية لا يصورها خور، أو ضعف، وأوضح كل ذلك في كتابه (الخيال الشعري عند العرب)، كما قال في قصيدة «إرادة الحياة»:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

وصور روح مواطنيه المشرئبة نحو الحرية والاستقلال فيقول مخاطبًا أحدهم مستحثًّا:

خلقت طليقًا كطيف النسيم
وحرًّا كنور الضحى في سماه

إلى أن يقول:

كذا صاغك الله يابن الوجود
وألقتك في الكون هذي الحياة

فمالك ترضى بذل القيود
وتحني لمن كبلوك الجناه

٢٩٠- أبو كامل شجاع - شارع - بقسم الرمل

هو أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد بن شجاع الحاسب المصري المشهور، وهو أقدم عالم إسلامي بالجبر بعد محمد ابن موسى الخوارزمي (انظر مادة الخوارزمي)، ومازالت آثاره العلمية باقية وتسمح بوضعه بين أعظم علماء الرياضيات في القرون الوسطى الإسلامية، ولاسيما في «مادة الجبر والمقابلة».

وقد كان لهذا العالم الرياضي الفحل أثر كبير في تطور علم الجبر بأوروبا، وذلك عن طريق ما ترجمه من مصنفاته المستشرق «ليوناردو دي بيزا Leonardo de Pisa»، ولا يقل هذا الأثر العلمي عن الأثر الذي كان لكتاباته الهندسية «المعالجة الجبرية لمسائل الهندسة» في علم الهندسة عند الغربيين.

ولا يعلم الكثير عن تفصيلات حياته، وكل ما يستطاع قوله في هذا الشأن هو أنه عاش بعد الخوارزمي المتوفى عام ٢٣٦هـ (٨٥٠م)، وقبل وفاة علي بن أحمد العمراني المتوفى عام ٣٤٤هـ (٩٥٥-٩٥٦م) لأن هذا الأخير كتب شرحًا على كتابه في الجبر.

ويذكر الفهرست عددًا من مؤلفات أبي كامل شجاع في التنجيم، والرياضيات، وفي غير ذلك من المسائل كطيران الطيور.

وقد أثار كتابان من كتبه هما: كتاب «في الجمع والتفريق»، وكتاب «الخطئين» مناقشات مستفيضة منذ أن حاول «فوييكيه Voepke» عام ١٨٦٣م أن يجعل الكتاب الجمع والتفريق هو عين الكتاب اللاتيني المسمى بهذا الاسم.

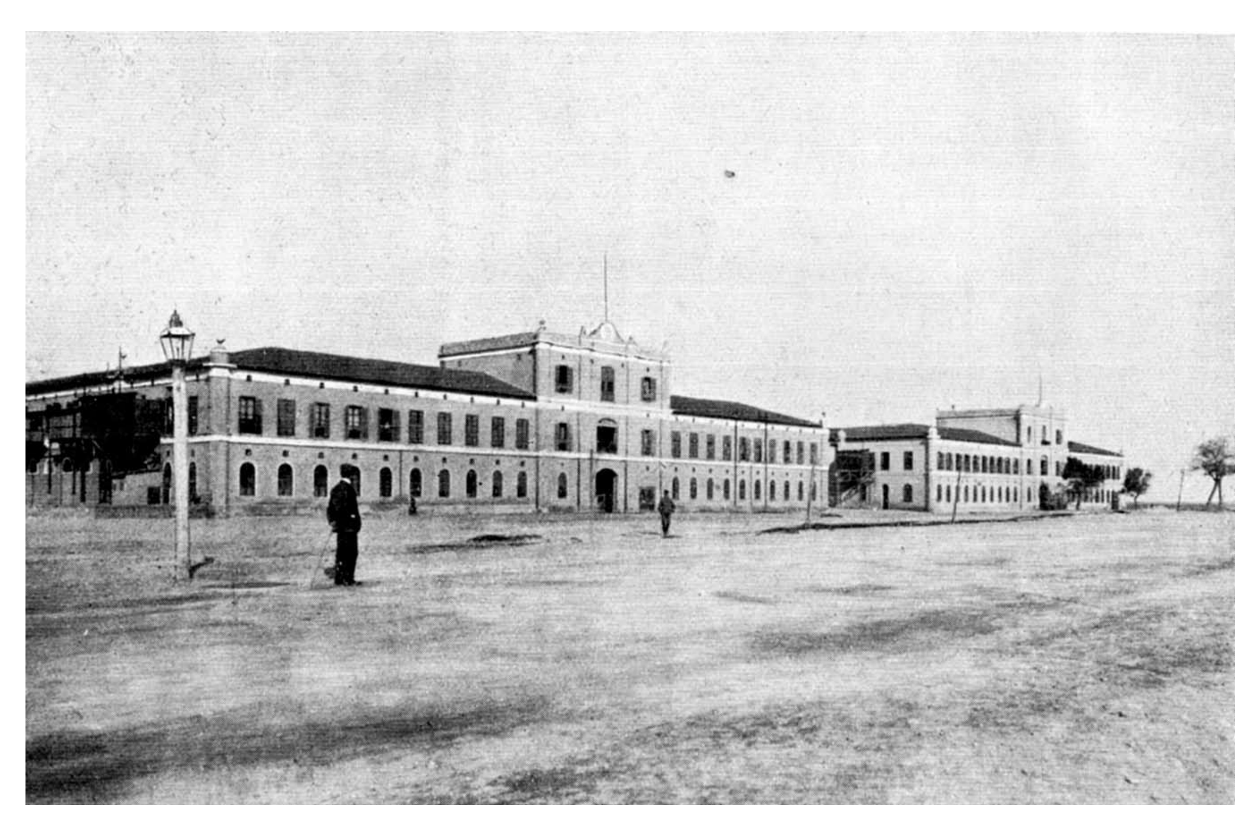
ولم يبق باللغة العربية من كتب أبي كامل شجاع التي ذكرها الفهرست شيء وبقي كتاب له بالعربية هو «الطرائف» الذي مازال مخطوطًا بمكتبة ليدن، وقد ترجمه وعلق عليه المستشرق «سوتر H. Suter»، ويتناول هذا الكتاب الحلول الصحيحة للمعادلات غير المعينة، وتوجد نسخة منه باللغة العبرية بمكتبة ميونخ، وقد ترجمها من العربية «مردخاي فنزي المانتوي» وهو الذي ترجم رسائل أبي كامل في الجبر أيضًا، وهي موجودة بمكتبة ميونخ، وينهج أبو كامل نهج الخوارزمي نفسه في تعريف «الجذر»، و«المال»، و«العدد المفرد»، ولكنه يذهب من عدة وجوه إلى مدى أبعد بكثير من الخوارزمي، ومن ثَمَّ فهو يستعمل جمع الجذور التربيعية وطرحها بما تنطوي عليه من جذور صماء.

أما رسالته في «المخمس والمعشر» فإن جميع المسائل التي عرضت لها قد حلت على أوضح وأبسط سبيل بتطبيق طرائق الجبر على الهندسة، ويختار أبو كامل في جميع مواضع رسالته قيمًا للكمية المعلومة بدلاً من الرمز إليها بحرف، أو معادلتها بالواحد الصحيح، ولم يخلص نفسه بذلك من طريقة الخوارزمي فحسب، بل هو قد فاق الخوارزمي بأسلوبه في تناول هذه المسألة، ويدل عمله هذا على تقدم هام.

٢٩١- أبو قير - شارع - بقسم الرمل (مصطفى باشا كامل حاليًّا)

يطلق اسم «أبو قير» على عدة أماكن في القطر المصري وهي:

١) ضاحية من ضواحي مدينة الإسكندرية: على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وقد ضمت في مستهل النصف الثاني من القرن العشرين إلى محافظة الإسكندرية، وصارت قسمًا إداريًّا من أقسامها الأحد عشر، وقد سمي باسمها الخليج الواقع في جنوبها، والجزيرة الكائنة في شرقها التي يطلق عليها كذلك «جزيرة نلسن»، وتبعد ضاحية «أبو قير» ثلاثة وعشرين كيلو مترًا شرقي الإسكندرية، وتقع بالقرب من الخط الحديدي المتجه إلى رشيد، وكانت في الماضي تابعة إلى



قصر مصطفى فاظل

مديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليًّا)، ولم يرد ذكر ضاحية «أبو قير» في مصنفات جغرافي العرب، ولعلها هي مدينة «بوكيرس Bukiris» القديمة الواردة في كتب التاريخ التي تتحدث عن العهد البطلمي في مصر، أو لعلها قرية «كانوبوس Canopus»، وقد ذكرها أبو التاريخ المأثور «هيرودوت» (انظر هذه المادة) الإغريقي الذي نزل بها في زمن الفيضان في الفترة الواقعة بين عامي ٤٤٨، ٤٤٥ ق. م. أي قبل تشييد الإسكندرية بنحو ١١٦ سنة.

ومع ذلك فإن أبا الفداء والقلشقندي عرفا بحيرة «أبو قير» التي سميت باسم الضاحية، ولا يُعرف الكثير عن تاريخها في العصور الوسطى، اللهم إلا تاريخ إغارة الفرنجة عليها عام ٧٦٤هـ (١٣٦٢ – ١٣٦٣م)، واشتهر اسم «أبو قير» عقب الموقعة البحرية الكبرى المسماة باسمها، والتي حدثت في خليجها في أول أغسطس عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) حيث دمر الإنجليز بقيادة أمير البحر «نلسن» الأسطول الفرنسي الذي كان يحمي حملة نابليون بونابرت على مصر، وبعد ذلك التاريخ بعام واحد انتصر بونابرت بالقرب من «أبو قير» على التُّرك الذين كانوا قد نزلوا إليها في ٢٥ من يوليو عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ)، ونزلت الحملة الإنجليزية بالقرب من هذه الضاحية في ٨ من مارس عام ١٨٠١م (١٢١٦هـ)، وقضت نهائيًّا على حكم الفرنسيين لمصر، وفي عام ١٨٠٧ صارت القرية قاعدة للإنجليز، وكان بها مرسى جيد.

٢) **بليدة صغيرة تابعة لمدينة سِرِنباي:** من أعمال رشيد في مديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليًّا).

٣) **بليدة صغيرة في الصعيد (مصر العليا) تابعة لمدينة أرمنت:** (انظر هذه المادة)، من أعمال الأقصر في مديرية قنا (محافظة قنا حاليًّا).

٤) **بحيرة أبو قير:** وكانت تقع خلف ضاحية «أبو قير»، وكانت مساحتها تصل إلى ثلاثين ألف فدان، وفي أيام الحملة الفرنسية كانت تسمى «المعدية» ويطلق هذا الاسم الآن على قرية الطرح ثم إدكو ثم البوصيلي، وكانت هذه البحيرة متصلة بالبحر الأبيض المتوسط عند وصول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية، وهناك أقوال تاريخية تذكر أن المياه في بعض العصور كانت تخترق السهل الضيق الممتد جهة الشرق، والذي يفصل بحيرة «أبو قير» عن بحيرة إدكو، وكانت بحيرة «أبو قير» مفصولة عن مدينة الإسكندرية من جهة الغرب بلسان من الأراضي الخصبة يمتد فيها خليج الإسكندرية «ترعة شيديا» التي كانت تمد المدينة بالماء العذب، وتقع في مكانها ترعة المحمودية الآن.

وتذكر المصادر التاريخية العربية أن بحيرتي «أبو قير – وإدكو» كانتا أرضًا خصبة أيام الفراعنة، كما كان جزء من بحيرة «أبو قير» أرضًا زراعية في عهد الخلفاء، وتذهب الأساطير في شأن هاتين البحيرتين إلى أن امرأة أحد الفراعنة التي كانت تملك تلك الأراضي الزراعية طلبت فجأة العُشُور عن الكروم التي زرعت فيها، فلما عجز الفلاحون عن دفع ما عليهم أمرت بغمرها بمياه البحر، وليس من السهل تصديق هذه الأساطير التي تتسم بالخرافة الظاهرة.

أما الرأي التاريخي الكثير الاحتمال فهو أن البحيرتين تكوّنتا من قلة العناية بالقنوات، وتحويل مصب النيل، وشدة

المدّ والجزر في فصل الربيع، ويقال إن البحر طغى في مثل هذا الفصل على هذه الأراضي عام ٧٢٠هـ (١٣٢٠م).

وكان بين بحيرة «أبو قير» وبحيرة مريوط، برزخ يرتفع عن مستوى البحيرتين، وهو البرزخ الذي كانت تجري خلاله ترعة شيديا الآنفة الذكر، فأخصبت الأرض على حافتي البحيرتين، وزرعت بالكروم والنخيل، وقامت المنازل الخلوية ذات البساتين على امتدادها.

ولحرمان الحملة الفرنسية وحاميتها بمدينة الإسكندرية من ماء الشرب وعزلها عن باقي القوات الفرنسية في داخل القطر قطع، الإنجليز البرزخ في ١٢ من إبريل عام ١٢١٦هـ (١٨٠١م)، فتدفقت مياه البحيرة ومعها مياه البحر على بحيرة مريوط تدفقًا عارمًا، لأن منسوب بحيرة «أبو قير» كان أعلى من منسوب بحيرة «مريوط» بنحو ثلاثة أمتار وبعد ٣٣ يومًا صار منسوب البحيرتين متعادلاً ومساويًا لمنسوب البحر، وكانت بحيرة «أبو قير» تعرف ببحيرة الإسكندرية في العهد الإسلامي الأول.

وإبان حملة «فريزر» الإنجليزية على الإسكندرية قطع الإنجليز البرزخ مرة أخرى في شهر مايو عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م) ليحولوا دون هجوم المصريين على قواتهم الغاصبة، فحماهم البحر من الهجوم، ولكن قطع البرزخ أدى إلى حرمانهم من ماء الشرب، ثم سدت ثغرة البرزخ في مستهل عام ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م)، وفي عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) جففت شركة إنجليزية بحيرة «أبو قير» بعد أن قطعت صلتها بالبحر وهي الآن متسع من الأراضي بعضها خصب يجود بأنواع شتى من الحاصلات الزراعية.

٥) أبو قير (أو بوقيران): اسم جبل خرافي (أو مكان فوق جبل) في مصر تجتمع عليه الطيور كل عام وتضع كل واحدة رأسها في شق في الصخر إلى أن تموت إحداها وتظل معلقة، ويذكر ياقوت المؤرخ الشهير وغيره من مؤرخي العرب أن الطيور التي تتجمع فوق هذا الجبل كانت تسمى «بوقير» كما كان الجبل يدعى «جبل الطير» ويقع بالقرب من أنصنا في صعيد مصر، وهذه الرواية من الأساطير الخرافية التي ينقلها كثير من مؤرخي العرب فيما يذكرون من روايات تعزى إلى التاريخ.

وأقدم المؤرخين العرب الذين ذكروا قرية «أبو قير» إحدى ضواحي الإسكندرية هو العالم الجغرافي الإدريسي (انظر هذه المادة) غير أن هناك نصوصًا عربية عن تاريخ مصر القديمة تشير قبل الإدريسي إلى تشييد منار في هذه الضاحية، ويذكر بعض الرحالة الأوروبيين أنه كانت على الطريق الموصل إلى «أبو قير» أبراج تستخدم كمعالم تهدي السالكين إليها.

ويتحدث «يوتيخيوس» عن مرور أسطول الخلاص «بأبو قير»، وهو الأسطول الذي استُدعي من «طرسوس» ليحمي مصر من الفاطميين، ويروي علي باشا مبارك قصة ضعيفة السند مؤداها أن القرصان الأوروبيين أغاروا على «أبو قير» في ٢٧ شعبان عام ٧٦٤هـ (١١ يونية ١٣٦٣م)، وحملوا معهم حوالي ستين شخصًا من أهلها، ثُمّ دللوا عليهم في مدينة صيداء، وباعوهم كعبيد.

وقد اعتقد المؤرخ «أميلينو Amelineau» خطأ أنه عثر على اسم «أبو قير» في أخبار القديسين اليعاقبة، ذلك أن الإشارة في هذه الأخبار تتحدث عن كنيسة في مصر القديمة

كرّست للأب كيروس وليس لراهب يدعى «بوكير» كما يزعم البعض خطأ، لأن الواقع الصحيح هو أن اسم «أبو قير» ما هو إلا تحريف للاسم القديم بوكيرس Bukiris» الآنف الذكر.

وقد درس «إتين كومب Etienne Combe» أمين مكتبة البلدية الأسبق البلجيكي الجنسية مشكلة الطريق من الإسكندرية إلى «أبو قير» فأوضح – نقلاً عن الرحالة العرب والأوروبيين – وصفًا مفصلاً للرحلة خلال هذا الطريق ومشاقها الجمّة ودوّن كل ذلك في كتاب ألّفه، وقال أن عابر الطريق يجد منطقة رملية لا زرع فيها ولا سكان وتتناثر في أرجائها بعض النخيل، وأوضح الصيغ المختلفة التي يكتب بها اسم «أبو قير» وأضاف أن البحيرات الثلاث التي تصادف الذاهب من الإسكندرية إلى هذه الضاحية هي من الغرب إلى الشرق: مريوط وأبو قير وإدكو.

والوصف الوحيد لبحيرة «أبو قير» ذكر في كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، ويشير هذا الوصف إلى رخاء منطقة «أبو قير» في الماضي، وإلى أن بعض الطيور يعيش على شواطئ البحيرة التي كانت تعجّ بالأسماك، وكان سمك «البوري» الذي يصاد هناك من موارد الغذاء لأهل الإسكندرية، وكانت توجد على شواطئها بعض الملاحات الكبيرة يصدر إنتاجها من الملح إلى أوروبا.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في (مصطفى باشا كامل).

٢٩٢– أبولون – شارع – بقسم باب شرقي (الدكتور سامي جنينة حاليًا)

«أبولون Apollon» هو اسم أحد آلهة قدماء اليونان، وهو رمز الوحي، والطب، والشعر، عندهم كما أنه رمز كافة الفنون، وقطعان الماشية، ورمز النهار والشمس، وهو في عرفهم إله كل هذه الأشياء وبهذه الصفات العالية يدعونه «فيبوس Phébus» أي إله الشمس منبع الخير والحياة، ولقد كان أبولون أحد أبناء «جوبيتير Jupiter» الذي هو إله الآلهة جميعها والذي دمج اليونانيون، إلهيته العظيمة مع كبير آلهتهم «زيوس Zeus»، وأم أبولون هي الإلهة «لاتون Latone» وهو توأم أخته «ديانة Diana»، وكانت ولادته بجزيرة «ديلوس Délos»، وكان لهذا الإله معبد ومهبط وحي فاخر ضخم بدلفي.

وقد انتقلت عبادة «أبولون» من اليونان إلى روما حيث كانت تقام الألعاب الأبولونية السنوية إحياء لذكراه، وفي الأساطير اليونانية عدد منها يعزى إلى سيرته الخرافية؛ منها نفيه لدى «أدميت Admète» ملك تساليا حيث أجبر على رعي الغنم.

ولهذا الإله تماثيل عديدة في أنحاء كثيرة من بلاد اليونان، وكانت له معابد وتماثيل في جهات أخرى من الشرق الأوسط وإيطاليا، وهي تمثله كلها في شكل الإله القوي الجبار، الشديد البأس على غرار أبيه «جوبيتير» رب الأرباب.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في (الدكتور سامي جنينة).

٢٩٣- أبو المجد - حارة - بقسم محرم بك

أبو المجد من الألقاب الشائعة، ولاسيما في القرن التاسع عشر والعشرينات الأولى من القرن العشرين، ولعل هذه الحارة سميت باسم أحد سكانها القدامى، أو أحد ملاك العقارات المقامة على جانبيها، ولم أستطع الاستدلال على أسرته لأستقي منها المعلومات المتعلقة بسيرته.

غير أن رجلاً يحمل اسم أبي لامجد إبراهيم كان ممن تعلموا بأوروبا علم الآلية (الميكانيكا) وفيما يلي ملخص حياته:

تعلم أبو المجد إبراهيم في مدارس القاهرة وبعد أن أتم الدراسة وقع عليه الاختيار ليكون بين الطلاب الستة الذين أرسلهم عباس الأول إلى إنجلترا لدراسة علوم الآلية (الميكانيكا)، فبدأ دراسته هناك في ٢٠ من يناير عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٢٥٠ قرشًا، وهو مرتب الملازم الثاني الذي تخرج يحمله من المدارس المصرية عند سفره، وكان قد وكّل عنه في قبض هذا المرتب والده إبراهيم أفندي، وظلّ أبو المجد يواصل الدراسة إلى أن أتم تعلمه، وعاد إلى الوطن في ٢٧ من يناير عام ١٨٥٣م (١٢٧٠هـ)، ومن ثَمَّ تكون مدة بعثته، قد استغرقت ثلاث سنوات، ولدى رجوعه عُيِّن بالسكة الحديد المصرية في ٢٨ من يناير من العام نفسه ثم نقل إلى «الدكمخانة» أي المسابك وترقى في الوظائف إلى أن صار رئيسًا لمصانع السبك.

ولا يعرف تاريخ، ومكان وفاته.

٢٩٤- أبو المحاسن - شارع - بقسم الرمل

هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير المملوكي سيف الدين تغري بري الذي كان أحد مماليك يَشْبُغا من كبار مماليك السلطان الظاهر بيبرس (انظر مادة بيبرس).

وكان سيف الدين هذا أتابك العساكر «أي قائد الجيوش» بالديار المصرية، ثم عُيِّن كافلاً للمملكة الشامية «أي حاكمًا عامًّا لبلاد الشام»، وكانت نصف السلطة المملوكية.

ومما تقدم يتضح أن أبا المحاسن لم يكن من أصل عربي، وأنه ينتسب إلى تلك الطائفة التي يسميها مؤرخو العرب بشجرة «الترك المماليك» ويعرفهم المصريون باسم المماليك فقط، وهي تسمية صحيحة لأن مماليك مصر والشام لم يكونوا جميعًا من العنصر التركي، إذ كان منهم الشراكسة والروس، والهنود، والكرد، والتركمان، والألمان، والمغول، وغيرهم، ولكن معظمهم كانوا من التركستان وأفغانستان والمغول.

ويدل اسم أبي المحاسن على أنه من أصل تركستاني، أو أفغاني أيضًا، ورباه في مصر تربية عربية إسلامية فنشأ عربي الوجدان، والثقافة، كعامة أولاد المماليك الذين ولدوا ونشؤوا في البيئة العربية المصرية أو الشامية، وولد أبو المحاسن في مصر فنشأ مصريًّا خالصًا لا يمت لأصله التركستاني أو الأفغاني إلا بصلة واهية، وكانت أم أبي المحاسن جارية تركية من جواري السلطان الظاهر برقوق (انظر مادة برقوق).

ولقد انصهر كيان أبي المحاسن الاجتماعي في بوتقة العروبة مثله في ذلك مثل كثير من الرجال الذين دوّن التاريخ سيرهم لما نالوا من شهرة ومجد، فكان منهم الكرد مثل

أبي الفداء، والروم مثل ياقوت، والروس مثل الظاهر بيبرس، والألمان مثل سيف الدين لاشين وغيرهم.

وكان أبو المحاسن من طبقة «أولاد الناس» الذين يُطلق عليهم اليوم اسم «أولاد البلد» وهم الذين اندمجوا في أفراد الشعب بعد أن ذهب عنهم الملك والسلطان، ومن حسن حظ أبي المحاسن أنه لم يفقد الثروة بعد فقد أبيه الذي توفي في محرم عام ٨١٥هـ (إبريل ١٤١٢م) وهو حاكم لحلب ودمشق، وكانت وفاته بعد مولد أبي المحاسن بحوالي عامين إذ كانت ولادته في شوال عام ٨١٣هـ (فبراير ١٤١١م)، ويدل التاريخ على أن الولادة حدثت في دار الأمير منجك اليوسفي بالقرب من مدرسة السلطان حسن بالقاهرة، ومعنى كلمة الدار في ذلك العهد تنصرف على جزء كبير من أحد أحياء القاهرة لأن الأمير من أمراء المماليك كان يقيم لنفسه قصرًا فوق مساحة كبيرة من الأرض يشتريها أو يهديها السلطان إليه، وبجوار القصر يبني مماليكه، وجنده، وخدمه دورًا وحظائر للخيل ومخازن للأسلحة والمؤن.

وكانت إحدى أخوات أبي المحاسن متزوجة من أحد كبار الفقهاء في الشام، هو قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم (انظر مادة ابن العديم)، فتولى هذا الفقيه العالم تربية الطفل الصغير تربية عربية إسلامية، وبعد وفاة ابن العديم تزوجت أرملته الفقيه المصري جلال الدين عبد الرحمن البلقيني الشافعي قاضي القضاة، وخص أبا المحاسن برعايته ومن ثَمَّ استمرت مراحل نشأته في بيئة علمية فقهية سنحت فرصها المواتية بأن ينهل من منابع العلم والمعرفة وأن ينصرف بكليته إلى الدرس والطلب، فلم يترك شيئًا متخصصًا في علم من العلوم إلا درس عليه وساعده على ذلك ثروته الضخمة ونسبه العريق.

وأشهر الأساتذة الذين أسهموا في تعليمه وتثقيفه: أحمد بن عربشاه، وشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، وبدر الدين محمود العيني، وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (انظر مواد: ابن عرب شاه، وابن حجر العسقلاني، والمقريزي)، وهؤلاء كانوا جهابذة علم التاريخ في الجيل السابق على جيل أبي المحاسن وكانوا ممن يعدون من تلاميذ ابن خلدون (انظر هذه المادة) ولاسيما المقريزي الذي سار على نهجه في نقد التاريخ وتعليل ظواهره، وتفسير بعضها تفسيرًا اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا.

وكان أبو المحاسن من أشد المعجبين بالمقريزي والملازمين له، وكان يعتبر نفسه خليفته في زعامة المؤرخين، والواقع هو أن أبا المحاسن كان جديرًا بهذه الزعامة، فقد كانت له ملكة صافيةً وقدرة بارعة على الاستيعاب، والنظر إلى الأمور بالعين الناقدة النفاذة، وهي صفات لم يصل إليها مؤرخ عربي بعد المقريزي.

وإن كان خصمه اللدود شمس الدين السخاوي قد حاول الحط من قدره فإن التاريخ المنصف يرى في هذا المؤرخ مبدعًا استطاع الابتكار في كتابة التاريخ بأسلوب حسن السياق، وبطريقة أخاذة في سرد الحوادث ورواية الأخبار، وبفضل هذه الطريقة وذلك الأسلوب ترك لنا أبو المحاسن أحسن مؤلف تاريخي بالنسبة إلى تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى.

والطريقة المبتكرة التي اتبعها تتركز في سرد الأحداث حسب ترتيب ولاة مصر وأمرائها وسلاطينها منذ الفتح

الإسلامي إلى أيام السلطان المملوكي «اينال»، فيبدأ روايته بدراسة عامة لشخصية الوالي أو الأمير أو السلطان، وتاريخ حياته، وفضائله، ونقائصه، وأعماله مقدمًا في كل ذلك فيضًا من المعلومات، والملحوظات، والحكايات القصيرة التي تكشف عن خلق الرجل في إيجاز مركز، ثم يأخذ في رواية الحوادث مرتبة وفاقًا لسنوات حكم الحاكم، وموقعها من تاريخ مصر العام، وما من شك في أن المعلومات السابقة لعصره مستقاة من المراجع التاريخية المعروفة، وأهمها التي لها دلالة في كتاباته، وعددها واحد وعشرون مرجعًا، وقد استطاع أبو المحاسن استخلاص أهم ما في هذه الكتب في مهارة فائقة دون الاستغراق في التفاصيل، ويختم حوادث العام بذكر وفياته مع ترجمة مختصرة لكل منهم إذا لم يكن ترجم له في كتب أخرى.

وتاريخه عن مصر هو أشهر مصنفاته التاريخية السبعة التي وصلت نسخًا منها إلينا، وهو يصف في هذا التاريخ الحوادث منذ الفتح العربي إلى عام ٨٥٧هـ (١٤٥٣م)، ويتعرض في هذا التاريخ لبعض حوادث البلاد المجاورة لمصر مع ذكر وفيات كل عام، وقد تمت النسخة المنقحة من هذا الكتاب القيم عام ٨٦٠ – ٨٦٢هـ (١٤٥٦ – ١٤٥٨م) بعنوان «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، أما كتابه «مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة» فيتضمن سيرة مقتضبة لحياة الرسول محمد بن عبد الله مع ذكر ثبت بأسماء الصحابة وسلاطين مصر ووزرائهم حتى عام ٨٤٢هـ (١٤٣٨م)، ومن جهة أخرى أتم أبو المحاسن كتاب «السلوك» الذي ألّفه أستاذه المقريزي فوصل بحوادثه من عام ٨٤٥ إلى ٨٦٠هـ (١٤٤١ – ١٤٥٦م)، وأسماه «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، كما أتم كتاب «الوافي» للصفدي (انظر هذه المادة) فوصل بحوادثه من عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) إلى عهده وهو سيرة للرجال المبرزين مرتبة على حروف المعجم، وأسماه «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، وخلّف أبو المحاسن – إلى جانب مصنفاته التاريخية – مجموعة أشعار صوفية عنوانها «السكر الفاضح والعطر الفائح».

«والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» تحفة من تحف معاجم الرجال وهو دليل على اتصال فروع شجرة العلم عندنا بعضها ببعض، فقد ألّف شمس الدين بن خلكان كتابه المبدع «وفيات الأعيان»، وترجم فيه للأعيان وأعلام الرجال من أهل العصور الماضية، وجاء بعده ابن شاكر فاستكمل ما فاته من التراجم ووصل بها إلى عصره في كتابه «فوات الوفيات» (انظر مادتي ابن خلكان وابن شاكر)، ثم جاء خليل بن أيبك الصفدي فاستدرك ما فات سابقيه ووصله إلى أيامه في كتابه المسمى «الوافي بالوفيات»، ثم سار أبو المحاسن بالسلسلة خطوة أخرى بكتابه «المنهل الصافي» واستكمل السلسلة بعد ذلك ابن الحماد الحنبلي بكتابه المعروف «بشذرات الذهب في أخبار من ذهب».

ويصف التاريخ أبا المحاسن فيقول أنه كان جميل الطلعة، حسن الهيئة، أنيق الثياب، هادئ الطبع، مرهف الذوق، وكان يجلس على أريكة وثيرة في منظرته الفاخرة الأثاث بداره الكبيرة التي كانت على الطريق الممتد من ميدان السلطان حسن إلى ميدان السيدة زينب بالقاهرة، ويحتمل أن تكون بالقرب من المكان المعروف بسبيل أم عباس.

وكان هذا المؤرخ الكبير - إلى جانب انصرافه إلى التاريخ - ماهرًا في فنون الفروسية كالمبارزة بالرمح ورمي النشاب، وركوب الخيل ولعبة البولو، وكانت له معرفة بالطب والعلوم الأخرى التي كانت شغل أهل زمانه.

وأصيب أبو المحاسن في أوائل شيخوخته بداء «القولنج» وذلك قبل موته بنحو سنة، واشتدت وطأته فأصيب بإسهال دموي جعله نحيلاً، ويقول شمس الدين السخاوي أن وفاته كانت في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة عام ٨٧٤هـ (٥ يونية ١٤٧٠م)، ودفن بالقبر الذي ابتناه هائلاً بالقرب من قبر «الأشرف اينال» ووقف كتبه وتصانيفه به، على حين أن مصادر أخرى تقول أنه توفي عام ٨٧٠هـ (١٤٦٥ - ١٤٦٦م) بالغًا من العمر ٥٩ عامًا حسب قول السخاوي، أو ٥٥ عامًا حسب قول المصادر الأخرى.

«والقولنج» عند الأطباء العرب ألم شديد في الجنب يصحبه انتفاخ في الأمعاء الغلاظ، أو هو الزائدة الدودية، والغالب أن مرض أبي المحاسن كان قرحة في الأمعاء الغليظ طاولته حتى انفجرت وقضت عليه.

٢٩٥- أبو مسلم - شارع - بقسم العطارين

هو عبد الرحمن بن مسلم الملقب بأبي مسلم الخراساني، كان قائدًا ماهرًا وزعيمًا سياسيًّا قويًّا، وكان على رأس الحركة الدينية والسياسية التي قامت بمدينة خراسان، وكان من نتائجها الإطاحة بملك الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وتربعها على عرش الخلافة في بغداد.

وأبو مسلم من أصل فارسي وكان أبوه من قرية تسمى سنجرد بالقرب من مدينة مرْو، وكانت هذه القرية وقرى أخرى عديدة من أملاكه، وكان يتجر بعض الأحيان في المواشي يجلبها إلى الكوفة لبيعها، وقد تزوج جارية اسمها «وشيكة» فحملت بأبي مسلم، ووضعته في أذربيجان عقب موت أبيه بهذه المدينة، ونشأ عند عيسى بن معقل بن عمير، وذهب مع ابنه إلى المكتب فخرج أديبًا لبيبًا يشار إليه بالنبوغ في صغره.

واتصل أبو مسلم في الكوفة بإبراهيم بن محمد العباسي، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره أرسله إبراهيم إلى خراسان لنشر الدعاية لبني العباس، وقد نضجت الحركة بوصوله، وكان قد مهد لها منذ أمد طويل، ولم يلبث أن ينجح في دعوته الدينية فانضم إليه أهل قرية «ستين» في يوم واحد، وستين قرية قريبة من مَرْو، ويقال أن الدهاقين (وهم أصحاب الأرض من الفرس في خراسان) قد اعتنقوا الدين الإسلامي على يديه.

وفي صيف عام ١٢٩هـ (٧٤٧م) رفع المتمردون على الدولة الأموية راية العصيان، وجاهروا بعدائهم السافر لبني أُمية ولاسيما في خراسان، وأفلح أبو مسلم في جمع خصوم الأمويين تحت لوائه ومن بينهم أهل اليمن الذين أبعد زعماءهم بعد نجاح حركته، وفي الشتاء التالي اقتحم مدينة مَرْو ودخلها دخول الظافرين.

أما المعارك التي نشبت في غرب الدولة الأُموية فلم يسهم فيها أبو مسلم، الذي ظل يشغل منصب الوالي على خراسان حتى عام ١٣٧هـ (٧٥٤ - ٧٥٥م)، وفي هذا العام نفسه

أغراه الخليفة المنصور العباسي بالرحيل إلى بغداد حيث قتل غيلة في شهر شعبان (يناير – فبراير عام ٧٥٥م).

ووصف المدائني أبا مسلم فقال أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، جميل الطلعة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، وافرها طويل الشعر، طويل الظهر، قصير الساقين، والفخذين خافض الصوت، فصيحًا بالعربية والفارسية، حلو الحديث، قوي المنطق، راوية للشعر عالمًا بالأمور، ولم يعرف عنه أنه كان يمزح، أو يضحك إلا عندما يكون المزاح أو الضحك غير مبتذل، وكان لا يبدي الكدر في شيء من الأمور فتأتيه أخبار الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنـزل به الحوادث الفادحة فلا يُرى مكتئبًا، وكان الغضب لا يستفزه، أو يخرجه عن جادة الصواب، وكان أقل الناس طمعًا، وأكثرهم إطعامًا، ولما حج نادى في الناس قائلا: «برئت الذمة من كل من أوقد نارًا»، وبذلك كفى جنوده، وكل من معه أمر طعامهم وشرابهم في ذهابهم وإيابهم، وفرت الأعراب فلم يبق في المناهل منهم أحد وذلك لما كانوا يعرفون عن سفكه للدماء، ويقال إنه قيل لعبد الله ابن المبارك: «هل أبو مسلم خير من الحجاج بن يوسف؟»، فأجاب قائلا: «لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد، ولكن الحجاج كان شرًّا منه».

ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» إن ولادته كانت خلال عام ١٠٠هـ (٧١٨م) في عهد الخليفة الأُموي التقي الورع عمر بن عبد العزيز، ومن ثمّ يكون قد اغتيل وعمره حوالي ٣٤ عامًا ميلاديًّا، وأنه وَلي أمر خراسان عام ١٢٩هـ (٧٤٦م)، وكان عاملها من قبل الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر أمراء بني أمية نصر بن سيّار (انظر مادة ابن سيّار)، فكتب إلى هذا الخليفة يحذره فلم يرد عليه لانشغاله بأمر الخوارج فكتب إليه مرة ثانية قائلاً:

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالزندين تورى
وإن الحرب أولها كلام

لئن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام

أقول من التعجب ليت شعري
أأيقاظ أميّة أم نيام

فإن كانوا لحينهم نيامًا
فقل قوموا فقد حان القيام

ولما لم يرد عليه الخليفة مروان بن محمد هرب نصر من خراسان قاصدًا العراق، ولكنه مات في الطريق إليها، وفي عام ١٣٢هـ (٧٤٩م) هاجم أبو مسلم ابن الكرماني بنيسابور، فقتله، واستولى على الحكم، وخطب في جامعها للسفاح أبي العباس عبد الله بن محمد أول خلفاء العباسيين، ومن ثَمَّ صارت خراسان في قبضة يد أبي مسلم، وزالت عنها ولاية بني أميّة.

ثم سيّر أبو مسلم جنده لقتال مروان بن محمد فظهر في الكوفة وبويع بالخلافة في شهر ربيع الأول من عام ١٣٢هـ

نفسه، وكان السفاح قد جهز جنودًا من خراسان، وغيرها لقتال مروان وكان على رأس هذا الجيش عبد الله بن علي عم السفاح، والتقت الجيوش عند التراب ودارت الدائرة على جيش مروان فهرب إلى الشام يتبعه عبد الله بن علي بجيوشه، ففرّ إلى مصر، وقتل بقرية بوصير الملق على حدود الفيوم في شهر ذي الحجة من العام نفسه، وعندها استقل السفاح بالخلافة، وأخذ في تعظيم أبي مسلم الخراساني، لما أداه من أعمال في سبيل الخلافة العباسية، وكان أبو مسلم يذكر هذه الأعمال من حين إلى آخر، ويكرر الأبيات التي نظمها في هذا الصدد، وهي من أحسن أشعاره:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بني مروان إذ حُشِدوا

مازلت أسعى بجهدي في دمارهمو
والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا

حتى طرقتهمو بالسيف فانتبهوا
من نوْمة لم يتمها قبلهم أحد

ومن رعى غنمًا في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد

وكان أبو مسلم ماكرًا كثير الدهاء فقد أفلح في التفرقة بين العرب، فكان يحرض قبائل حُضر على اليمانية وذلك بعد أن فطن العرب لدسائس الفرس، وخداعهم فأجمعوا أمرهم لمواجهة هؤلاء الحاقدين، ولكن الفرس أفلحوا في تشتيت شمل القبائل العربية بوساطة دسائس أبي مسلم وشيعته، ومن ثَمَّ اجتمع على تقويض دعائم الدولة الأُموية: اليمنية والربعية والعجم وقادة العرب الساخطين على الحكم الأُموي، وهكذا سقطت الدولة الأُموية بفعل هذه الدسائس الخبيثة التي كان أبو مسلم على رأسها، ومحركها الأول.

ولم يجد نصح نصر بن سيّار لقبائل العرب المتفرقة للمّ شملهم ضد التسلط الفارسي على أمورهم وتحويل الدولة العربية إلى دولة فارسية يكون لقادتها المناصب والسلطان وللعرب الخلافة ومظاهرها وترفها، وقد أفلحوا في ذلك واستمر نفوذهم القوي حتى عهد هارون الرشيد الذي أفاق من غفوته وقضى على البرامكة الفارسيين، ولكن ابنه المأمون أعاد توطيد سلطانهم على الدولة لأن أمه فارسية، وذلك بعد أن نجح في إقصاء أخيه الأمين عن الخلافة وكان عربيًّا لأن أمه زبيدة.

وقد قال نصر بن سيّار يخاطب النزارية واليمانية ويحذرهم هذا العدو الفارسي الدخيل عليهم (انظر مادة ابن سيّار)، قال:

أبلغ ربيعة في مَرْو وإخوتهم
فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا
حربًا، يحرّق في حافاتها الحطب

ما بالكم تلقحون الحرب بينكمو
كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُب

وتتركون عدوًّا قد أظلكمو
مما تأشّب، لا دينٌ، ولا حسب

قومًا يدينون دينًا ما سمعت به
عن الرسول، ولم تنـزل به الكتب

فمن يكن سائلاً عن أصل دينهمو
فإن دينهمو، أن تقتل العرب

ويصف ابن خلكان حادثة اغتيال أبي مسلم الخراساني فيقول أن الخليفة العباسي المنصور أغراه بالحضور إلى العراق، وأوعز إلى رجاله بأن ينقضوا عليه عندما يصفق بيده، فوقفوا خلف أبي مسلم، ثم انقضوا عليه بالسيوف وقتلوه، وهكذا كان جزاؤه كجزاء سنمار الذي يضرب به المثل.

وعلى الرغم من خداعه وتعصبه للفرس فإن أبا مسلم الخراساني جدير بالثناء لتنظيمه شؤون إقليم خراسان في الداخل وتأمين حدوده في الخارج، وقد شيد المساجد في مدينة مَرْو، ومدينة نيسابور، كما ينسب إليه كثير من المباني العامة في مرْو وسمرقند ومن هذه المباني السور الكبير المقام حول هذه المدينة وما جاورها.

أما المعارك التي نشبت مع أعدائه فيما وراء النهر فلم تكن بقيادته، وإنما كانت بقيادة مساعديه سِباع بن النعمان الأزدي، وزياد بن صالح الخزاعي، وقد انتصر زياد انتصارًا باهرًا على جيش صيني قرب نهر طراز، وبفضل هذا الانتصار استتبت السلطة السياسية للمسلمين في أواسط آسيا.

ويظهر أن أبا مسلم مزج في دعوته الدينية بين عقائد الإسلام والعقائد القديمة الشائعة في ذلك الحين ولاسيما فيما يتعلق بمسألة التناسخ، فقد زعم هذا الرجل الفارسي المجوسي الأصل أن الألوهية تجسدت فيه، وقال تلميذه في هذه العقيدة الشاذة أن أستاذه هو آخر من تجسدت الألوهية فيه قبله.

وإلى أبي مسلم الخراساني ترجع الفِرَق الخارجة على السنّة المحمدية، وخاصة الباطنية، ومنها فرقة الإسماعيلية التي يرأسها الأغاخان وأولاده من بعده، ترجع هذه الفرق في عقائدها إلى أبي مسلم، ومن ثَمَّ كان محبوبًا جدًّا من الفرس ويظهر هذا الحب في القصص العديدة التي تدور حول مصرعه.

غير أنه قضى على الحركة التي اصطبغت بروح الديانة القديمة (المزدكية الرسمية) بالصرامة نفسها التي قضي بها على فتنة الشيعة من العرب في بخارى.

ولم يحجم عن استخدام جميع الوسائل في محاربة خصوم العباسيين، أو في منافسته ومناهضته، كما تخلص بالقوة أو بالحيلة من جميع الصعاب التي واجهته.

وليس من السهل الحكم الصحيح على مدى أطماعه السياسية، أو الحكم على المدى الذي كان العباسيون يذهبون إليه في التخوف منه.

٢٩٦- أبو النصر - شارع - بقسم الجمرك

هو محمد أبو النصر بن محمد، ولد بمدينة المنصورة في حوالي عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م) واشتغل في أول مراحل حياته العملية بتجارة مال القبان (البقالة) على غرار معظم أفراد

أسرته فاتسع نطاق تجارته وذاع صيته في مختلف بلاد القطر لما عهد فيه من صدق وأمانة في المعاملة، ومن ثَمَّ لقّب «بسرٍّ تجار الإسكندرية»، وكان في ذلك الحين مقصد جميع تجار القطر للتعامل معه كما كان مكتبه بشارع الميدان بجوار سوق النقلية منتدى الكثير من رجال العلم والفقه والقضاء يتبادلون الأحاديث الثقافية التي كان يسهم فيها بآرائه الدالة على سعة الاطلاع.

وقد حصل على بعض الأوسمة المصرية والتركية والأجنبية، وتوفي عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) عن ٧٣ عامًا، ودفن بالإسكندرية، وكان شريكًا لمحمد بك بدوي (انظر هذه المادة) والد الدكتور عبد الحميد بدوي (انظر هذه المادة) المشرع القانوني الكبير، ومحمد بهجت بدوي، ومحمد كامل بدوي أصحاب مصانع الحلوى والطربات (المكرونة) ومصانع الصاج بالإسكندرية.

٢٩٧- أبو نعيم - عطفة - بقسم الجمرك

اسمه الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحق بن موسى بن مهران الأصبهاني، ولد في شهر رجب عام ٣٣٦هـ (٩٤٧م)، وهو صاحب كتاب «حلية الأولياء»، وكان من أكابر علماء الحديث وعظماء الحفاظ الثقات، وقد أخذ عن العلماء الأفاضل، وأخذوا عنه وانتفعوا به، وله كتاب آخر هو «الحلية» الذي يعتبر من خيرة الكتب هذا علاوة على كتابه القيم في تاريخ أصبهان (أصفهان) ببلاد فارس.

وكان جدّه مهران من المجوس، فأسلم، وهو أول من أسلم من أجداده، وكان مولى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

وكانت وفاة أبي نعيم في شهر صفر عام ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) في أصبهان حيث ولد، وقد بلغ من العمر حوالي ٩١ عامًا.

وأصبهان من كبريات المدن الإيرانية، وتنطق بكسر الهمزة وفتحها وسكون الصاد وفتح الباء، كما تذكر على أنها أصفهان وهي من أشهر المدن الجبلية، وأصل اسمها باللغة الفارسية «سباهان» وهو يعني موقع تجمع العسكر.

٢٩٨- أبو هاشم - شارع - بقسم الرمل

هو عبد السلام بن أبي علي محمد الجباتي وهو أحد أحفاد ابن أبان مولى الخليفة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) ولقبه هو «أبو هاشم»، وكان متكلمًا عالمًا ابن عالم، إذ كان والده من كبار المعتزلة وكان هو أيضًا من أكابر علماء هذه الطائفة الفلسفية.

وله ولوالده مقالات كثيرة في الاعتزال، وكُتُب الاعتزال مشحونة بمذاهبهما، واعتقاداتهما في الفلسفة الاعتزالية.

ومما يؤسف له أن أبا هاشم لم يقم على رعاية ولده المسمى بأبي علي بن أبي هاشم، إذ أهمل تعليمه فشبّ جاهلاً لا يفقه شيئًا، فدخل يومًا على الصاحب بن عبّاد (انظر مادة ابن عبّاد) فظنه عالمًا مثل أبيه فأكرمه، ورفع مرتبته، ثم سأله عن مسألة علمية، فقال: لا أعرف، ولا أعرف حتى نصف العلم فقال له الصاحب بن عباد صدقت يا ولدي إلاّ أن أباك تقدم بالنصف الآخر عنك.

وقد ولد عبد السلام أبو هاشم عام ٢٤٧هـ (٨٦١م) وتوفي عام ٣٢١هـ (٩٣٣م) ببغداد بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا، ودفن في مقابر البستان.

٢٩٩- أبو هيف - حارة - بقسم المنشية

٣٠٠- أبو هيف - حارة - بقسم الجمرك

٣٠١ - أبو هيف - شارع - بقسم الرمل (الشيلي سابقًا)

٣٠٢ - أبو هيف - شارع - بقسم باب شرقي

لقب أبو هيف يدل على أن أصل صاحبه من المغرب العربي إذ إن معظم ألقاب المغاربة الذين استقروا بالإسكندرية أو ببلاد القطر المصري الأخرى تكون عادة مسبوقة بكلمة «أبو» أو «ابن»، ومن ثَمَّ يؤكد الموجودون في قيد الحياة من أسرة أبي هيف السكندرية العريقة أن جدهم الأكبر كان تونسي الأصل من بلدة تدعى «هَيْف» بالقطر التونسي، ولم أستطع العثور على هذه البلدة بين مدن تونس وقراها.

أما كلمة «هَيْف» في اللغة العربية فتدل على الريح الحارة التي تيبِّس النبات، وتُعطِّش الحيوان وتنشّف المياه، وهي مصدر فعل «هاف - يهيف - هيفًا» أي ظمئ ظمئًا شديدًا، أو ضمر بطنه، ورقّت خاصرته، فهو أهيف وهي هيفاء القوام.

ويرجع اسم «أبو هيف» الذي يحمله أربعة شوارع بالإسكندرية بأقسام الجمرك، والمنشية، وباب شرقي، والرمل إلى جدَّي الأسرة الأكبرين، وهما الأخوان إبراهيم وشمس الدين اللذان استقرا بالمدينة في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي أي في حوالي عام ١٧١٦م (١٠٢٥هـ)، فاتخذ إبراهيم أبو هيف مسكنه بالحارة التي تحمل اسمه بجهة سوق البرسيم بقسم المنشية، واتخذ شمس الدين مسكنه بالحارة بقسم الجمرك بالقرب من شارع المسافرخانه.

وكان كل منهما يُلِمّ بالقراءة والكتابة، والمعلومات الدينية على غرار أبناء الطائفة المغربية الكبيرة العدد بالإسكندرية، وزاول كل منهما التجارة في السلع المغربية من ملاحف ومشامل، وأبسطة وأحذية، وأخفاف، وما إليها في حانوت بسوق المغاربة بجوار سوق الخيط بقسم المنشية، وكانت هذه السوق في مستهل القرن العشرين الحالي مقصورة على تجارة هذه السلع لما كان لها من رواج وأرباح مجزية.

وتوفي إبراهيم أبو هيف عام ١٧٩١م (١٢٠٦هـ) وتوفي شمس الدين عام ١٧٩٥م (١٢١٠هـ) بعد أن أوقفا جميع أملاكهما على ذريتيهما وفاقًا للشريعة الإسلامية للذكر مثل حظ الأنثيين.

وأنجبت ذريتاهما رجالاً ونساء كان لكل منهم أثر مرموق في الحركة الفكرية والفنية والرياضية بالإسكندرية، فمنهم القانوني العظيم الدكتور عبد الحميد أبو هيف (انظر هذه المادة)، والدكتور محمود طلعت أبو هيف (انظر هذه المادة) الذي كان مديرًا للأقسام الصحية بالبلدية وأدى أجل الخدمات في وظيفته وفي رياسة جمعية الإسعاف، والدكتور علي صادق أبو هيف الذي تولى عمادة كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية، والأستاذ خميس أبو هيف من رجال التعليم ومن رجال الفن الغنائي قد أطرب الأسماع بصوته الرنان ردحًا طويلاً من الزمن، والبطل العالمي في السباحة عبد اللطيف أبو هيف

الحاصل على عدة جوائز عالمية في هذه الرياضة، والسيدة منار أبو هيف خريجة المعهد العالي للموسيقى (الكونسرفتوار) وصاحبة الصوت الجهوري العالي (السوبرانو)، هذا علاوة على المحامين والمستشارين والرياضيين البارزين الذين تفرعوا عن أسرة أبي هيف المغربية الأصل الإسكندرية المستقر.

٣٠٣- الإبياري - شارع - بقسم العطارين

هو عبد الهادي الإبياري المصري ولد في عام ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ)، وكان شاعرًا مجيدًا وأحد من تزعمهم محمود الساعاتي في الشعر، وكان أستاذًا بالأزهر، وله شأن كبير في النهضة الثقافية بمصر وألّف نحو أربعين كتابًا معظمها في اللغة العربية.

وتوفي عبد الهادي الإبياري عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) بالغًا من العمر حوالي ٦٨ عامًا، وكان وكيلاً للقومسيون الصحي الأعلى برياسة عبد الرحمن باشا رشدي.

ويحمل لقب الإبياري أيضًا الشيخ محمد الإبياري الذي كان أستاذًا بدار العلوم إلى عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ)، ويحمل هذا اللقب الشيخ عبد الرحمن يخا الإبياري الذي كان قاضي الإسكندرية في عهد الاحتلال البريطاني البغيض لمصر، وكان شاعرًا، وله مؤلفات في اللغة.

وكذلك أبو منصور الإبياري، وكان من أكابر الفقهاء على مذهب الإمام مالك وقد تتلمذ على يديه ابن الحاجب (انظر هذه المادة) الذي عاش بإسنا بالصعيد، ثم بالقاهرة، وتوفي بالإسكندرية، وامتدت حياته من عام ٥٧٠هـ (١١٧٥م) إلى ٦٤٦هـ (١٢٤٩م) ومن ثَمَّ يكون الفقيه أبو منصور الإبياري من معاصري هذه الفترة.

وأبو الحسن الإبياري الذي أسس بالإسكندرية مدرسة للفقهاء المالكية، وكانت إلى جانب المدرسة الصوفية التي أنشأها أبو الحسن الشاذلي (انظر مادة أبو الحسن)، وخليفته أبو العباس المرسي (انظر مادة سيدي أبو العباس).

وتوفي أبو الحسن الإبياري عام ٦١٢هـ (١٢٢١م)، وكان أستاذًا لابن الحاجب، ووُصِف بالفقيه الأصولي المتكلم.

٣٠٤- أبي حاتم - شارع - بقسم الجمرك

١) **أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البُستي**: عالم بالفقه والحديث، والطب والفلك، درس في بلاد شتّى على أعلام المشايخ ومن مؤلفاته: «المسند الصحيح» والكتاب المعنون باسم «التاريخ» وتوفي عام ٢٥٦هـ (٩٦١م).

٢) **أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني**: لغوي عربي من أهل البصرة، درس على الراوية المشهور الأصمعي، وعلى أبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة معمر بن المثني، وقد نقل أبو حاتم آراء ابن المثنى المتعلقة بعلوم اللغة والشعر وأخبار الجاهلية، كما درس أبو حاتم نحو سيبويه على الأخفش، وكان بصيرًا بالشعر والشعراء القدامى ولغتهم، وكان متبحرًا في علوم القرآن، وقد ألّف في كل هذه الموضوعات مصنفات شتى كما صنف رسائل في النحو، ومن كتبه المشهورة «كتاب الوصايا»، وأبرز تلاميذه ابن دريد والمبرد، وذكر تلميذه ابن دريد أن وفاته كانت من خلال عام ٢٥٥هـ (٨٦٩م)، ونشر المستشرق «بارتلميو لجومينا Bartolomeo Legumina» من مصنفاته كتاب «النخلة» عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، كما

نشر المستشرق «جولدسيهر Goldziher» كتاب «المعمرين» بليدن عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م).

٣٠٥- أبي يوسف - حارة - بقسم محرم بك

٣٠٦- أبي يوسف - حارة - بقسم الجمرك

كان يجب أن يقال «أبو يوسف» وليس «أبي يوسف» ولكن اللافتة الموضوعة على الحارتين كتبت هكذا: «حارة أبي يوسف» فجاءت كلمة أبي مجرورة بالإضافة إلى حارة.

وأبو يوسف الذي تحمل الحارتان اسمه هو: يعقوب بن إبراهيم الملقب بأبي يوسف، ولد عام ١١٣هـ (٧٣١م) من أسرة عريقة في النسب، فقيرة في مالها، وتمتّ بالأرومة إلى الصحابي سعد بن خيثمه الأنصاري، وقد عاصر أبو يوسف الدولة الأموية، ورأى انتشار الدعوة العباسية في العراق وخراسان ثم عاصر قيام الدولة العباسية عام ١٣٢هـ (٧٤٩م) وعاش في عهود الخلفاء العباسيين الخمسة الأول.

وقد تلقى العلم في مستهل صباه بالعراق حيث درس أصول الدين من القرآن، كما درس الحديث والفقه والنحو واللغة والشعر، وأظهر من النبوغ ما أهّله لأن يكون في مقدمة تلاميذ أبي حنيفة الذي كان يمده بالمال وأشركه في ممارسة تجارته، فتمت معلومات أبي يوسف في الاقتصاد والضرائب. وقد بلور هذه المعلومات في صورة علمية منهجية دقيقة فصّلها في كتاب «الخراج»، وتدرج أبو يوسف في المناصب حتى بلغ منصب القضاء في عهد الخليفة المهدي واشتهر بالعدل إذ مارس مهمته في حرية تامة بسبب حب المهدي للعدالة، واستمر على تولي هذا المنصب حتى أصبح قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد، فعمل على تدعيم مذهب أستاذه أبي حنيفة النعمان، ومنصب قاضي القضاة أنشأه الرشيد، وكان أبو يوسف أول الذين ينوبون عنه في جميع الأقطار الإسلامية، واتسع نطاق اختصاصات أبي يوسف فصار يقضي في الدعاوى والأوقاف، ويتولى تنصيب الأولياء ويقوم بالإشراف على أعمال الشرطة، وينظر في المظالم والحسبة وبيت المال، وتوفي أبو يوسف ببغداد عام ١٨٢هـ (٧٩٨م)، وأصبح قدوة لجميع القضاة الذين أتوا بعده وصارت أحكامه في الخراج نافذة طوال العصر العباسي.

ولم يشغل المنصب الخطير أبا يوسف عن البحث والدراسة والاستقصاء فوضع أبحاثًا فقهية عظيمة القيمة، وصنف مؤلفات قيمة أشادت بها المصادر التاريخية، وقد اهتم بتدوين آراء أبي حنيفة وتسجيلها مع بعض التجديد والتطوير دون تعصب أو تحيز، وتأثر من جهة أخرى ببعض آراء الإمام مالك بن أنس وفقهاء الحجاز، ومن مؤلفاته «كتاب الرد على مالك بن أنس»، وكان قد ذهب إلى المدينة المنورة، وناظر الإمام مالك، وأخذ عنه، وأشاد أبو يوسف ببعض علماء الحديث، وفي مقدمتهم ابن معين وابن حنبل (انظر هذه المادة)، وكان صديقًا حميمًا ليحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد ومربيه وهو الذي كلفه بوضع «كتاب الجوامع» فجعله في أربعين كتابًا فصل فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به، أما كتاب «الخراج» فقد ألّفه بتكليف من الخليفة الرشيد، وقد ضاعت مؤلفات أبي يوسف، ولم يبق منها سوى كتاب «الخراج» وبعض الأقوال التي نقلها عنه الفقهاء، وبعض أبواب نقلها عنه الإمام الشافعي في كتابه «الأم»، وفيما يلي أنموذج من نثره في كتاب «الخراج» وهو موجه للخليفة هارون الرشيد:

«وأنا أرى أن تبعث قومًا من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمّال، وما عملوا به في البلاد، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به، وعلى ما وظّف على أهل الخراج واستقر، فإذا ثبت ذلك عندك وصح، أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال حتى لا يتعدوا ما أُمروا به وما عهد إليهم فيه، فإن كل ما عمل به والي الخراج من الظلم والعسف فإنما يُحمَل على أنه قد أُمر به، وقد أُمر بغيره، وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف، وإن لم تفعل هذا بهم تعدّوا على أهل الخراج واجترؤوا على ظلمهم وتعسّفهم وأخْذهم بما لا يجب عليهم».

٣٠٧- أحمد أبو علي (الشيخ) - شارع - بقسم الرمل

انظر ترجمة أحمد أبو علي في (الشيخ أحمد أبو علي)

٣٠٨- أحمد باشا شكري - شارع - بقسم الرمل

ولد أحمد شكري ببلدة الغريب التابعة لمركز زفتى بمديرية الغربية (محافظة الغربية حاليًّا)، وتلقى مراحل تعليمه الأولى بمدرسة القاهرة، ثم التحق بمدرسة القلعة، ودرس بها على الإدارة الملكية (الحقوق)، واختير في عهد سعيد الأول للسفر إلى فرنسا ضمن طلبة البعثة الأولى التي بدأ سعيد إرسالها في عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ).

ولما أتم علومه عاد إلى مصر خلال عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) فتكون مدة بعثته قد استغرقت سبع سنوات كما جاء في مستندات القسم الإفرنجي الرسمي المحفوظة بالقلعة.

أما أفراد أسرته فيقولون أن عودته إلى مصر حدثت في عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)، وقد تقلد أحمد شكري عدة وظائف حكومية إلى أن عُيِّن وكيلاً لمحافظة الإسكندرية في أغسطس عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) ومنح رتبة البكوية الثانية.

وعُيِّن بعد ذلك وكيلاً لجمرك الإسكندرية وفي هذه الأثناء، أي بعد أن يعين وكيلاً لمحافظة الإسكندرية صدرت إرادة خديوية بتعيين عبد الرحمن باشا رشدي (انظر هذه المادة) رئيسًا للقومسيون الصحي الأعلى، على أن يكون وكيل هذا القومسيون أحمد شكري وكان صدور هذه الإرادة الخديوية في ٣١ يوليو عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ)، وقد قرر هذا القومسيون في أول جلسة عقدها تقدير النفقات الصحية الواجب توزيعها على المديريات والمحافظات.

ونقل أحمد شكري بعد ذلك محافظًا لعموم القناة، ومن الوظائف التي شغلها مدير إدارة عموم السودان وملحقاته، وذلك في أثناء الثورة المهدية، ثم تنقل في الوظائف إلى أن صار وكيلاً للدائرة السنية أيام رياسة أحمد فريد باشا لها (انظر هذه المادة).

وعين بعد ذلك مديرًا لمديرية المنوفية، ثم مديرية أسيوط، ورقّي إلى وظيفة وكيل نظارة الداخلية ثم صار محافظًا للقاهرة.

وبعد أن أعيد وكيلاً لنظارة الداخلية أحيل على التقاعد، وظل عشر سنوات متقاعدًا وتوفي عام ١٨٩٥م (١٣١٩هـ) بالإسكندرية بمنـزله بقسم محرم بك بالغًا من العمر ٦٥ عامًا، ومن ثم يكون مولده ببلدة الغريب خلال عام ١٨٣٠م (١٢٢٦هـ)، وقد نال رتبة الباشاوية قبل وفاته.

وأحمد باشا شكري هو والد إسماعيل صدقي باشا (انظر هذه المادة) أحد رؤساء الوزارة السابقين الذين انشقوا على حزب الوفد المصري في أوائل تكوينه، وكان قد تولى الوزارة – ولاسيما وزارة الداخلية – أكثر من مرة كان خلالها سوط عذاب على أبناء الشعب المصري وأداة قمع غاشمة فاجرة قاسية بالنسبة إلى الحركات الوطنية التحررية في مصر قبل ثورة عام ١٩٥٢ الوطنية لدرجة أن فترات حكمه كانت توصف بعهد الإرهاب والتنكيل.

٣٠٩– أحمد باشا فايد – شارع – بقسم محرم بك

ولد أحمد فايد ببلدة كياد دجوة بمديرية (محافظة) القليوبية، وأرسله محمد علي في بعثة بفرنسا لتعلم الهندسة والرياضيات والكيمياء فبدأ دراسته في يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة مائة قرش، وقد سافر إلى لندن أثناء العطلة الدراسية لمشاهدة بعض الأعمال الهندسية، وعاد إلى فرنسا حيث أتم تعليمه ورجع إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) ومن ثَمَّ تكون بعثته قد استغرقت ست سنوات، وعيّن في مستهل حياته العملية معيدًا بمدرسة الطوبجية، ثم رقي إلى مدرس بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة، حيث كان يتولى تدريس الطبيعة والكيمياء، ومازال يترقى في وظائف هذه المدرسة إلى أن صار وكيلها، ثم عين بعد ذلك مهندسًا بالسكة الحديدية، ومازال يتقلب في مناصبها إلى أن أصبح كبير مهندسي السكك الحديدية بالقطر المصري، وقد أطلق اسمه على محطة فايد بين السويس وبورسعيد، وواصل الارتقاء في الوظائف إلى أن نال رتبة الباشاوية.

وصنف أحمد فايد عدة كتب في الحساب والهندسة وغيرهما، ومن هذه الكتب «الأقوال المرضية في بنية الكرة الأرضية»، و«تحرك السوائل»، و«الدرة السنية في الحساب والهندسة».

وكانت وفاته خلال عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ).

٣١٠– أحمد بك جشك – حارة – بقسم الجمرك (مختار محمد الجندي حاليًّا)

أصل اسمه كوجك أحمد، ومعنى كوجك (بالجيم المثلثة) أي الصغير القدر، وقد أُرسل في بعثة إلى فرنسا في شهر يناير عام ١٨٢٦م (١٢٤٤هـ) ليحل في البعثة محل إبراهيم وهبة الذي عاد إلى مصر، إذ ظهر أنه غير أهل لها، وكان مرتبه الشهري ثلاثة جنيهات طوال مدة دراسته، وليس من المعروف فرع دراسته ولا تاريخ ومكان مولده أو وفاته.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للحارة فاطلبها في «مختار محمد الجندي».

٣١١– أحمد بك راسخ – شارع – بقسم محرم بك

تلقى أحمد راسخ دروسه الأولية في المكاتب المصرية ومدارسها، ثم وقع عليه الاختيار ليكون بين أعضاء البعثة التعليمية الرابعة التي أرسلت إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، وألحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس في تلك السنة لتعليم المصريين فنون الحرب، وجعل وزير حربية فرنسا رئيسًا لها، وخوله حق تعيين ناظرها وأساتذتها، وبدأ أحمد راسخ دراسته في هذه

المدرسة في ١١ من يناير عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) وكان مرتبه الشهري طوال مدة الدراسة ٢٩٠ قرشًا، وقد تخصص فيما بعد للقسم المدني الذي ألحق بهذه المدرسة، وبعد انتهاء دراسته عاد إلى مصر عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ) وتقلد وظيفة حكومية ثم عُيِّن ناظرًا لأحد أقلام جريدة الوقائع المصرية التي كانت لسان حال الحكومة في ذلك الحين، وأنعم عليه بالرتبة الثانية سنة ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ).

ويستدل من تاريخ سيرته على أنه كان عالمًا من العلماء المبرزين، ضليعًا في اللغة الفرنسية، ومن أكبر رجال مصر الذين كانوا موضع احترام وتقدير الجميع، وآخر الوظائف التي تقلدها وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية، كما كان أحد أعضاء غرفة المشورة في المواد الجنائية بمجلس الاستئناف بهذه المحكمة التي أنشأها نوبار باشا عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، وكان يزاوله في هذه العضوية حماد عبد المعطي باشا (انظر مادة حمّاد) وقدري باشا (انظر هذه المادة).

وكان منزل أحمد بك راسخ معروفًا عند «فرن القرقاش» الذي كان عند تقاطع شارع رأس التين بشارعي أبي العباس والميدان (محمود فهمي النقراشي حاليًّا).

وتوفي خلال عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ).

٣١٢- أحمد بك عبيد - حارة - بقسم محرم بك

ولد أحمد عبيد بمدينة طهطا من أعمال مديرية جرجا (محافظة جرجا حاليًّا) وكان لرفاعة بك (انظر هذه المادة) الفضل في إلحاقه بالمكاتب الأميرية في أول إنشائها، ثم إلحاقه بعد ذلك بالمدارس الحربية المصرية إلى أن اختير للسفر في بعثة لإتمام تعليمه، ولدى عودته دخل في السلك العسكري وترقى فيه إلى رتبة أميرالاي، وفي عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) شرع الخديوي إسماعيل في جعل الجيش المصري يسير وفاقًا للنظم الفرنسية، فأرسل إلى فرنسا خمسة عشر ضابطًا من أمهر الضباط في الأسلحة المختلفة صحبة الجنرال برنستود، وكان أحمد عبيد أحدهم وذلك للتدريب على تلك النظم والوقوف على الاستحكامات، والتمرن على المناورات العامة التي كان الفيلق القيم بشالون سيقوم بها بقيادة المارشال مكمهون، ولقد سافر هؤلاء الضباط على الفرقاطة المصرية «شيرجهاد» يقودها مصطفى بك العرب (انظر مادة مصطفى باشا العرب)، وقد عاد الضباط يحملون عددًا كبيرًا من المؤلفات الحربية، والنظم، والقوانين العسكرية، وكان أحمد عبيد من بين الضباط الذين تولوا ترجمة هذه المؤلفات لتطبيقها في الجيش المصري.

وبعد ذلك ترك أحمد عبيد السلك العسكري وشغل وظيفة قاضي مكان أحد قضاة مجلس الحقانية، ومن مؤلفاته: كتاب «تعليم البيادة والمشاة» ومناوراتهم، وكتاب تعليم الخيالة «الفرسان» ومناوراتهم، وكتاب تعليم السواري، وألّف كتابًا في التاريخ عنوانه «سيرة بطرس الأكبر» إمبراطور روسيا، ولم يعرف تاريخ، ومكان وفاته.

٣١٣- أحمد بك ندا - حارة - بقسم اللبان

تلقى أحمد ندا تعليمه في مراحله الأولى بالمكاتب المصرية، ثم التحق بمدرسة الطب البشري بقسم الصيدلة،

واختير بعد ذلك للسفر إلى فرنسا بغية التخصص في العلوم الكيميائية والطبيعة وتحصيل العلم في صناعة الصابون وشمع العسل وغيرهما من المواد التي تحتاج في إنتاجها إلى علم الكيمياء، وقد بدأ دراسته بفرنسا عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وكان مرتبه طوال مدة الدراسة ٥٠ قرشًا في الشهر ثم عاد إلى مصر في أواخر عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) في عهد محمد علي فرقّي إلى رتبة الملازم الثاني وعيّن أستاذًا بمدرسة الطب المصرية، ثم أستاذًا بمدرسة المهندسخانة وأركان الحرب، وعلاوة على ذلك كان يُلقي دروسًا على طلاب مدرسة الزراعة التي أنشئت في عهد الخديوي إسماعيل، وظل يمارس التدريس إلى أن أدركته الوفاة عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وهو حائز على رتبة البكوية.

وكان دائب البحث والتأليف ومن خيرة الأساتذة المجدين الذين أفادوا طلابهم بما استوعبوا من علم ومعرفة وتجارب.

وقد ألّف أحمد بك ندا كتبًا مفيدة وترجم عددًا منها، وفيما يلي التعريف بها:

- كتاب «حسن البراعة في علم الزراعة» وهو مترجم عن كتاب لفيجري بك (انظر هذه المادة) وقد طبع في مجلدين بمطبعة بولاق عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ).
- كتاب «الآيات البينات في علم النبات» وقد طبع بمطبعة بولاق عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ).
- كتاب «الحجج البينات في علم الحيوانات» وهو معرب عن اللغة الفرنسية، وطبع بمطبعة بولاق عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ).
- كتاب «نخبة الأذكياء في علم الكيمياء» وهو مترجم عن كتاب لجاستنيل بك في أربعة أجزاء من اللغة الفرنسية إلى العربية، وطبع جُزْءان منه عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ).
- كتاب «الأقوال المرضية في علم الطبقات الأرضية»، وقد طبع بمطبعة بولاق عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ).
- كتاب «حسن الصناعة في فن الزراعة» في مجلدين، وطبع بمطبعة بولاق عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ).
- كتاب «الأزهار البديعة في علم الطبيعة» وهو مترجم عن كتاب لجاستنيل بك من اللغة الفرنسية إلى العربية في مجلدين وطبع سنة ١٨٧٤م (١٢٩١هـ).

ولأحمد بك ندا أبحاث كثيرة نافعة، نشر معظمها في مجلة روضة المدارس.

٣١٤ – أحمد توفيق – شارع – بقسم الرمل

في عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) كانت ضاحية الرمل لا تضم من السكان غير ٥٠٠ أسرة وتكاد بعض مناطقها تكون خالية مثل منطقة فلمنج وباكوس وشدس، وكان راكب القطار البخاري يرى البحر وهو يمر بهذه المناطق إذ لم يكن في الجهة الشمالية لخط السكة الحديد إلا القليل جدًّا من المباني الصغيرة القائمة وسط الرمال الفسيحة الرقعة، ومن ثَمَّ فإن أوائل الملاك في هذه الجهات كان لهم نصيب من الفضل في العمار الذي عمّ قسم الرمل بأسره في سرعة مدهشة، ولاسيما بعد إنشاء رصيف الكورنيش.

وكان من بين هؤلاء الملاك أحمد توفيق الذي أطلق اسمه على الشارع الذي أقام مسكنه في كنفه خلال عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، فأدى ذلك إلى تشييد المساكن تباعًا بالمنطقة المجاورة لشارع «ابن فرناس» (انظر هذه المادة).

وأحمد توفيق من الرعيل الأول للحزب الوطني الذي كوّنه المرحوم مصطفى كامل للعمل على استقلال مصر وتخليصها من براثن الاحتلال الإنجليزي البغيض، وكان لأحمد توفيق مواقف بحيّ راغب باشا بقسم كرموز عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م).

وتلقى دراسته الابتدائية بمدرسة خويصة بشارع ابن الخطاب بالباب الجديد، ثم التحق بمدرسة الإسكواش الإنجليزية، وحصل منها على الدبلوم، ويدل انتماؤه بعد ذلك إلى الحزب الوطني على أن دراسته الإنجليزية لم تزده إلا إصرارًا على العمل الجاد، ولتحرير الوطن.

وبدأ حياته العملية في وظيفة بمخازن السكة الحديد، ثم تدرج في الوظائف إلى أن شغل وظيفة أمين المخازن، وكان أول مصري يشغل هذه الوظيفة التي كانت وقفًا على الإنجليز، ثم صار كبير مفتشي المخازن بمنطقة الإسكندرية، وكان يدخل في اختصاصه مخازن التليفونات والتلغرافات.

واستمرت خدمته الحكومية ٤٢ عامًا وأحيل على التقاعد عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م)، ووافته المنية في ٢ يناير عام ١٩٥٧ (١٣٧٧هـ) بالغًا من العمر حوالي ٧٨ عامًا.

ولم يهمل في تنشئة أبنائه تنشئة صالحة، فابنه محمود كان مديرًا مساعدًا لبنك مصر بالجمهورية الليبية قبل إحالته على المعاش، وابنه المرحوم محمد كان مراقبًا عامًّا بمصلحة الجمارك، ويتولى ابنه حسن رياسة مجلس إدارة شركة السيوف للغزل والنسيج، وتولى ابنه الدكتور جميل منصب أستاذ كرسي ورئيس قسم إدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة الإسكندرية.

٣١٥- أحمد حافظ - شارع - بقسم الرمل

ولد أحمد حافظ بن محمد أحمد عمران المصري عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) في مدينة الإسكندرية بقسم محرم بك، وسبب إضافة لفظ «حافظ» إلى اسمه يرجع إلى أن جده أحمد عمران المصري كان صديقًا حميمًا لمحمد باشا حافظ والد إسماعيل باشا حافظ والد الفنانة الموسيقية السيدة بهيجة حافظ، وعندما ولد محمد بك حافظ والد صاحب الترجمة سمّاه حافظ دلالة على أواصر الصداقة التي كانت تربط أحمد عمران المصري بمحمد باشا حافظ.

أما والدة أحمد حافظ صاحب الشارع فكانت تركية من مدينة إسطنبول، وقد وضعت المحافظة اللافتة التي تحمل اسم أحمد حافظ على الشارع رقم ١٥ بسيدي بشر في ٢٨ مارس عام ١٩٧٠م (١٣٩٠هـ) تنفيذًا لقرارها في ١٥ يوليو عام ١٩٦٨م (١٣٨٨هـ).

وتلقى أحمد حافظ دروسه الابتدائية بإحدى مدارس الإسكندرية، ودروسه الثانوية بمدرسة رأس التين التجهيزية، ثم التحق بمدارس «الفرير» وظل بها خمس سنوات تعلم خلاله العلوم التجارية، والحساب التجاري، ومسك الدفاتر ومن ثَمَّ كان يجيد اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، ويحسن التكلم باللغة الإيطالية، وكانت هوايته المفضلة الرسم والميل بكليته إلى علمي الجغرافيا والتاريخ.

وفي مستهل حياته العملية عمل موظفًا بمصلحة البريد ابتداءً من عام ١٨٩٨م (١٣١٦هـ) وتقلب في كافة فروع إدارتها فصارت له خبرة واسعة النطاق في إدارة شؤونها المالية فكان حجة في حل مشاكلها المعقدة، ثم نقل بعد ذلك إلى وظيفة مدير المالية لحسابات الحكومة في وزارة المواصلات ونقل بعد ذلك إلى وزارة الخارجية بالوظيفة نفسها إلى أن أحيل على التقاعد في ٢٤ نوفمبر عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ).

ولقد لقي اضطهادًا من مدير مصلحة البريد الإنجليزي في أول عهده بالتوظف، لأن والده الذي كان له الفضل في وضع أهم النظم الإدارية بالمصلحة لم يسكت عن ذلك المدير فيما كان يأتيه من مخالفات فأظهرها في تقرير قدمه إلى المستشار المالي الإنجليزي الذي كان يسيطر على مالية البلاد في ذلك العهد الغابر الممقوت.

وكان أحمد حافظ من الشغوفين بالاطلاع على أمهات الكتب العربية، وكانت له مكتبة تضم الكثير من هذه الكتب التي أدى اطلاعه عليها إلى اتساع نطاق مداركه الثقافية مثل كتب: الأغاني، ونهاية الأرب، وصبح الأعشى، ودائرة المعارف الإسلامية وغيرها من المؤلفات العربية والفرنسية والإنجليزية المفيدة، علاوة على الكتب الدينية التي كان يرجع إليها في تعبده بعد قراءة ما تيسر من القرآن الكريم يوميًّا.

وكان حريصًا على تدوين ما يروق له من المطالعات مما كان له أثر فيما صنف بعد ذلك من مؤلفات تدل على سعة مداركه العلمية الغزيرة، ولاسيما في مادة الجغرافيا.

ففي عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) ألّف كتابًا أطلق عليه اسم «الجغرافية الحديثة» للمدارس المصرية وهو باللغة الإنجليزية لأن مادتي الجغرافيا والتاريخ كان تدريسهما في المدارس الابتدائية والثانوية بإحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية منذ الاحتلال البريطاني البغيض حتى السنين الأولى من القرن العشرين الحالي، وكانت الأطالس بهاتين اللغتين أيضًا، وكذلك كتب الأشياء (وهي المعلومات العامة الآن)، وصدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ)، وهذا يدل على رواج الكتاب في المدارس المصرية رواجًا يؤكد فائدته التعليمية، ثم صدرت طبعتان أخريان بعد ذلك التاريخ.

ولما قررت الحكومة جعل مادة الجغرافيا باللغة العربية، وذلك في عهد تولي سعد زغلول لنظارة المعارف، كان أحمد حافظ من أوائل الذين طبعوا الكتب الدراسية باللغة العربية فنالت كتبه رواجًا بارزًا في مصر وفي البلاد العربية الأخرى كالسودان وشمال إفريقيا والعراق.

وتسهيلاً لاستيعاب كتب الجغرافيا الحديثة التي ألفها بالعربية على أجزاء لسنوات الدراسة المتتالية وضع خرائط فيها البحار والمحيطات باللون الأزرق وهي خرائط فردية تبيّن كل جزء من الأقطار العالمية على حدة.

ويظهر من غلاف كتبه أنه كان مدرسًا للجغرافيا بالمدارس الثانوية قبل أن يعين مديرًا للإدارة المالية لوزارة الخارجية.

وفي عام ١٩٦٢م (١٣٨٢هـ) توّج أعماله الثقافية بإصدار (أطلس حافظ) في تخطيط أقاليم الكرة الأرضية طبيعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، في طبعته الثامنة عشرة المعدلة وفاقًا للتطورات الإقليمية الحديثة، ويتضمن هذا الأطلس الملون الدقيق الوضع بيانات ومعلومات قيمة مفيدة منها المعلومات الفلكية والتيارات البحرية، والرياح، وأجناس سكان العالم، والمدن التي يزيد

عدد سكانها على المليون، وتوزيع الأمطار، والنباتات في العالم، وأنواع الحيوانات في القارات، وأنواع النباتات والحاصلات، وجميع البيانات التي يحتاج إليها الطلاب لمعرفة بلدان العالم تفصيلاً.

وكان يهتم بنشر العلوم والآداب بين الناس، فكان يتطوع بإعطاء دروس في الجغرافيا والرسم والتاريخ بعد انصرافه من عمله المصلحي ببعض المدارس الأهلية ومنها مدرستي الشيخ طه محمد وحمزة قبودان بشارع رأس التين، ومن هاتين المدرستين تخرج عدد غير قليل من كبار موظفي الدولة ومفكريها، وكانوا يعترفون له بالفضل ويثنون على حبه لتثقيف الناس دون مقابلة مالية.

وكان يلقي الكثير من المحاضرات في العلوم والآداب بالأندية والهيئات وله محاضرة في «الزراعة والصناعة» عند العرب طبعها على نفقته عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) بعد إلغائها بنادي موظفي الحكومة بالإسكندرية في ٢٣ يناير عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ).

وإلى جانب إنتاجه العلمي والأدبي كان يمارس الرياضة بأنواعها وقد حصل على بعض البطولات في السباحة والألعاب السويدية، وكان يهوى الرحلات، فزار الكثير من مدن القطر المصري، كما زار لبنان وسوريا وفلسطين قبل نكبتها بالصهيونية الغاشمة.

ومن هواياته المفضلة الموسيقى إذ كان يتقن العزف على القانون ويجمع حوله الإخوان من الهواة في كل ليلة أحد، ومن ثَمَّ كانت قاعة استقبال منزله تضم في هذه الليالي الفنية فرقة موسيقية متكاملة، فكان إلى جانب عزفه على القانون يعزف الهواة: محمد فخري على العود، وأخوه إبراهيم فخري على الكمان ويوسف تادرس على الكمان أيضًا، وفي أوائل عقد هذه الاجتماعات الفنية كان من المترددين عليها الشيخ سيد درويش قبل انتقاله إلى القاهرة، وينال الشهرة الكبيرة التي توقعها له هؤلاء الهواة السكندريون.

وكان أحمد حافظ يتابع شراء «النوتات» الموسيقية، ويسجل الأغاني الناجحة في كراسة خاصة للرجوع إليها وعزف ألحانها على «قانونه»، وكان يشجع في هذا الفن المبتدئين فيه، ويرشدهم إلى أحدث أساليب عصره في الموسيقى والغناء.

وكان له أثر قوي في ازدهار ضاحية سيدي بشر إذ كان من أوائل البانين في أرجائها، فقد بذل مساعيه لدى الشركات لمدّ هذه الجهة الفسيحة بأسباب العمران، ووسائل الراحة، وكوّن لهذا الغرض جمعية من ملاك الأراضي ومستأجريها للدعاية لهذا المصيف الجميل، وقد كللت مساعي هذه الجمعية بالنجاح وصارت منطقة سيدي بشر مصيفًا هامًّا يعج بالسكان ويزدحم بالأبنية الحديثة.

ولم يهمل أحمد حافظ تربية ذريته، وهم محمد حمدي أحمد حافظ رئيس السكرتارية بالجمارك سابقًا، والمهندس إسماعيل أحمد حافظ مدير أعمال بهيئة المياه بالقاهرة، والربّان علي أحمد حافظ المرشد بهيئة قناة السويس، ومن أحفاده السيدة بثينة الطويل المحامية، وعضو مجلس الشعب عن دائرتي العطارين واللبان.

وتوفي أحمد حافظ في شهر سبتمبر عام ١٩٦٢م (١٣٨٢هـ) بالغًا من العمر حوالي ٨٥ عامًا.

٣١٦- أحمد دقلة - شارع - بقسم الرمل

ولد أحمد دقلة بقرية بسيون بمديرية (محافظة) الغربية وأرسله محمد علي في بعثة علمية بفرنسا لتعلم الهندسة، فبدأ دراسته في شهر يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة مائة قرش، وعاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ)، ومن ثَمَّ تكون بعثته قد استغرقت ست سنوات، وعمل مدرسًا بمدرسة المهندسخانة، وترقى بعد ذلك إلى منصب وكيلها، وكان يدرس بها علوم الجبر والهيدروليكا، وتخرج على يديه أكثر مهندسي مصر في ذلك الحين، وعلى الرغم من هذه الجهود المثمرة التي بذلها في سبيل العلم لم ينل أكثر من رتبة البكباشي (المقدم)، ومن مؤلفاته كتاب «رضاب الغانيات في حساب المثلثات».

ووافته المنية خلال عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ).

٣١٧- أحمد راشد - شارع - بقسم مينا البصل

ولد أحمد راشد حسني بالقوقاز في حوالي عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م)، ثم نزح إلى مصر خلال عام ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) وكان عمره خمسة عشر عامًا، ودخل مدرسة المفروزة عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م)، واختير منها للسفر إلى فرنسا في أواخر عام ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) لتلقي العلوم الحربية بمدرسة متز العسكرية، ولما أتم علومه عاد إلى مصر عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) فتكون بعثته العلمية قد استغرقت عامين، وعقب عودته رقي إلى رتبة الملازم الأول، وألحق بالجيش المصري، ثم أخذ يتنقل بالفرق المختلفة المشاة إلى أن وصل إلى رتبة (أميرالاي) العميد، وفي عام ١٢٧٣هـ (١٨٦٢م) عين مع عبد الله باشا الأرنؤوطي بتفتيش الوجه القبلي، ثم سافر إلى السودان حيث تولى عدة مناصب عسكرية في فرق المشاة المصرية بالتاكة والخرطوم، وغيرهما إلى أن عُيِّن مأمورًا على نزل العساكر السودانية في مديرية بربر، وفي عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) تولى قيادة اللواء السابع المشاة الذي سافر إلى جزيرة إقريطش (كريت) لمساعدة تركيا على إخماد الثورة في هذه الجزيرة، وقد نال أثناء هذه الحملة رتبة اللواء اعترافًا ببسالته، وأنعم عليه بالأوسمة العثمانية، وفي ٢٩ من أكتوبر عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) رقي إلى رتبة الفريق، ثم عُيِّن ياورًا للخديوي إسماعيل عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) مع بقائه فريقًا لآليات الغارديا.

ولما بدأت الثورة ضد الترك في شبه جزيرة البلقان طلبت الدولة العثمانية المساعدة من مصر فأمر الخديوي إسماعيل ابنه الأمير حسين (السلطان حسين فيما بعد)، وكان ناظرًا للجهادية والحربية، بإعداد نجدة مصرية، فأعدها وتولى قيادتها الفريق أحمد راشد حسني باشا، وقد أقلعت الحملة على البواخر المصرية في ١١ من يوليو عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، وبعد وصولها إلى الأستانة رحلت إلى حدود بلاد الصرب، واشتبكت مع الصربيين في القتال وأحرزت نصرًا باهرًا ثم عادت إلى الآستانة.

وفي هذه الأثناء تدخلت روسيا وقطعت العلاقات الدبلوماسية بينها وبين تركيا، ثم أعلنت الحرب عليها في ٢٥ من إبريل عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ)، فما كان من تركيا إلا أن طلبت نجدة أخرى فأمر إسماعيل بإعدادها، وكانت ضخمة في عدد مقاتليها، وعهد بقيادتها إلى ابنه حسن باشا، وكانت النجدة المصرية الأولى قد سافرت من جديد إلى منطقة وارنة بالبلقان بقيادة الفريق أحمد راشد حسني باشا فلحق بها

جيش حسن باشا، وزحفت القوات مجتمعة على خطوط الجيش الروسي، وقامت بنصيب مرموق في القتال مع الجيوش التركية، وقد أبدى أحمد راشد في هذه الحرب من ضروب الشجاعة والإقدام ما جعله موضع الثناء والإعجاب.

وعندما تولى الخديوي توفيق الحكم جعله سرياورًا له، وفي عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) عين رئيسًا للمجلس الحربي الذي كوّن لتحقيق الشكوى التي قدمها عدد كبير من ضباط البحرية ضد قاسم باشا (انظر مادة قاسم باشا) الذي كان يتولى وكالتها، ثم عيّن بعد ذلك عضوًا في القومسيون العسكري الذي تألف عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) للنظر في التعديلات اللازم إدخالها على نظم وقوانين الجيش المصري، وكان ذلك إبان الثورة العرابية الوطنية، وجاء تعيينه في هذا القومسيون إرضاء للحزب العسكري، وكان يثق في راشد باشا كل الثقة لما عرف عنه من حب العدل والإنصاف على الرغم من أصله الجركسي، وارتضاه الحزب العسكري أيضًا ليترأس المجلس العسكري الذي ألف لمحاكمة الضباط الجراكسة الذين كانوا يعادون العرابيين أشد العداء، فأصدر راشد باشا حكمه العادل بنفيهم جميعًا إلى أقصى بلاد السودان، وقد خفف الخديوي توفيق هذا الحكم بنفيهم إلى الشام.

ولما اشتعلت الثورة العرابية المجيدة، ورأى راشد باشا أن مصر مهددة بالغزو، لم يتردد في الانضمام إلى العرابيين في محاربة الإنجليز الغاصبين، وذلك بدافع وجدانه، وحبه للذود عن البلاد التي أكرمت مثواه، ورفعته إلى أعلى المناصب العسكرية، وقد تولى في هذه الحرب قيادة خط الدفاع الشرقي وأبلى في جهاده أحسن البلاء، وأصيب برصاصة في قدمه أثناء معركة القصاصين، وعقب انتهاء تلك الحرب المشؤومة، واحتلال الإنجليز لمصر قبض على راشد باشا وأودع السجن، وكان رحمه الله من رجال الحرب المعدودين الذين تفخر البلاد بأعمالهم البطولية مخلصًا لمصر أشد الإخلاص، صريحًا في أقواله، عظيمًا في صفاته وأخلاقه، ووافته المنية في ١١ من يونية عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ)، بالغًا من العمر ٧١ سنة، ومن ذريته أحمد إحسان بك الذي كان أحد أمناء الملك السابق فؤاد.

٣١٨- أحمد زكي أبو شادي (الدكتور) - شارع - بقسم محرم بك (ساسون سابقًا)

اطلب ترجمته في «الدكتور أحمد زكي أبو شادي»، وترجمة الاسم القديم للشارع في «ساسون».

٣١٩- أحمد زكي - شارع - بقسم الرمل

اسم أحمد زكي شائع بين الأسماء ومن ثَمَّ يحتمل أن يكون هذا الشارع قد سمّي باسم أحد سكانه القدامى، أو أحد ملاك عقاراته، غير أنه من المحتمل أيضًا أن تكون لجنة تسمية الشوارع ببلدية الإسكندرية قد أرادت بهذه التسمية تخليد ذكرى المرحوم أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة، ولذا أجد من المفيد تدوين ترجمة هذا العالم اللغوي الذي استحق لقب (شيخ العروبة) عن جدارة وتقدير، ولاسيما أن اسم الشارع لا تتممه أسماء الآباء أو الأجداد أو الألقاب والكنيات التي تميزه عن الأسماء الشبيهة به، وفيما يلي ترجمة حياة «أحمد زكي باشا شيخ العروبة»:

هو أحمد زكي بن إبراهيم بن عبد الله النجار، ولد بمدينة الإسكندرية عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م)، وكان والده من أهل

المغرب العربي الذين نزحوا إلى ميناء يافا بفلسطين، ثم رحلوا إلى رشيد، فالإسكندرية، لممارسة التجارة، وكانت والدته من بيت سويدان، وهي أسرة مستقرها بجهة سيدي البواب إحدى ضواحي رشيد.

وتوفي والده وهو في سن الطفولة فكفله شقيقه «محمود رشاد» (انظر هذه المادة) الذي كان في آخر عهده رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية، وهو بهذا مغربي فلسطيني من ناحية الأب، ومصري رشيدي من ناحية الأم، ولأمر ما كان أحمد زكي يكتم أنه فلسطيني الأصل، وتعلم شيخ العروبة في مدرسة الغربية بالقاهرة ثم في بني سويف ثم في المدرسة التجهيزية المسماة بالمدرسة الخديوية في درب الجماميز بالقاهرة، والتحق بعد ذلك بمديرية الإدارة التي سميت فيما بعد بمدرسة الحقوق، وكان وفيًّا لشقيقه، لا يذكره إلا بالإجلال، والإكبار ويعبر عن ذلك بقوله: «والدي الشقيق»، وكان شقيقه محمود رشاد الذي يكبره بثلاثة عشر عامًا، باحثًا حقوقيًّا وأديبًا، له رحلات وأبحاث، عمل أول أمره ضابطًا بالجيش ثم مفتشًا في وزارة المعارف، واشترك في مؤتمر المستشرقين الدولي بفينا، وكان منزل محمود رشاد منتدى لأهل الفكر والأدب من أصدقائه وكان أحمد زكي يجلس إليهم ويستمع إلى أحاديثهم وينهل من ثقافتهم، وساعده على استيعاب ذلك تفوقه في اللغة العربية ومهارته في حل أعاريبها، وكان يحل الأسئلة في الإعراب التي كان أصدقاء أخيه يطرحونها عليه، ومنهم الأساتذة محمد دياب، وحفني ناصف، ويحيى إبراهيم.

والتحق أحمد زكي بعد الدراسة الثانوية بمدرسة الإدارة التي صحح اسمها المنفلوطي عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) فجعله مدرسة الحقوق)، وفي هذه المدرسة التقى بالشاعر أحمد شوقي (انظر هذه المادة) وعثمان مرتضى (انظر مادة مرتضى باشا)، وكان أحمد زكي نابغة في الترجمة من الفرنسية إلى العربية فكان يترجم الخطب التي يلقيها العلماء الغربيون بالفرنسية إلى اللغة العربية في سرعة وإتقان مدهشين، وقد تقدم لامتحان وظيفة مترجم لمحافظة الإسماعيلية عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م)، فنجح بتفوق وعين بمرتب قدره ١٣ جنيهًا، وكان في سن العشرين، ثم تقدم خلال عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) لمسابقة أخرى لوظيفة مترجم في مجلس النظار ففاز، وعُيِّن بمرتب قدره عشرون جنيهًا، وبدخوله مجلس النظار مترجمًا امتدت حياته الوظيفية إلى أن صار سكرتيرًا عامًّا لمجلس الوزراء عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) وكان في الوقت نفسه مدرسًا للترجمة بالمدرسة الخديوية وعضوًا في الجمعية الجغرافية وأستاذًا للغة العربية في الإرسالية العلمية الفرنسية.

وفي عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) بدأت حياته الفكرية الناضجة، إذ اختير لحضور مؤتمر المستشرقين في لندن بإنجلترا، وكانت الحركة الثقافية قد أخذت في الانتعاش منذ ذلك التاريخ بظهور طائفة من الصحف والمجلات تساندها الدعوة الوطنية، واليقظة السياسية، وكان زعيم المناداة بهما مصطفى كامل، ومن هذا المؤتمر بدأت صلاته الوثيقة المتعددة بالمستشرقين والباحثين الغربيين في مختلف البلدان الأوروبية، فشرع يراسلهم ويباحثهم في المخطوطات العربية الكثيرة الموجودة في مكتبات العالم ومن هنا بدأت رحلته الطويلة للبحث عن التراث العربي، ونقله، أو تصويره، وساعد ذلك على تكوينه للخزانة الزكية (نسبة إلى اسمه)، وكان هدفه الذي عاش من أجله طوال حياته العلمية هو الوصول إلى أكبر

عدد ممكن من التحقيقات التاريخية، والجغرافية، واللغوية المتعلقة بالتراث العربي في شتى مراحل التاريخ، وجمع المستطاع من المخطوطات الدالة على هذا التراث في دقة لا يعتريها الشك أو اللبس، فكان إذا ما انتهى من عمله الرسمي هرول إلى المكتبة الزكية ودخلها من بابها الخاص من دار الكتب المصرية وأكب على القراءة وبحث المراجع حتى المساء مع التعليق على هوامش الكتب ونقل ملخصاتها في جذاذاته التي تضخم عددها وكانت عونه في الإجابة السريعة عن كل ما يوجه إليه من أسئلة، أو ما يجده منشورًا في الصحف من أسئلة وآراء.

فإذا حل فصل الصيف سافر إلى بلدان أوروبا، أو إلى الأستانة بحثا عن المخطوطات، فيطلع عليها أو يصوّر بعضها بآلته الفوتوغرافية التي لا تفارقه، ويدفع من أجل ذلك غاليًا، وقد أدى بحثه العلمي القيم إلى استجابة الحكومة خلال عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م) إلى دعوته الهادفة إلى إحياء التراث العربي فطبعت عددًا كبيرًا من المؤلفات العربية ولاسيما في عهد أحمد حشمت باشا وزير المعارف في ذلك الحين، وكان حريصًا على جمع الكتب المفيدة حتى بلغ عدد مجلدات مكتبته ١٨ ألف مجلد، ومن الجذاذات التي كان يرتبها في أدراج خاصة متضمنة ملخصات المراجع التي يكون قد اطلع عليها، واستوعب مضمونها كان شيخ العروبة لا ينفك عن إثارة موضوع علمي أو أدبي على صفحات الجرائد فإذا فرغ الناس من ضجته الفكرية طلع عليهم بموضوع آخر وبحث آخر يثير اهتمامهم ويشغل تفكيرهم ويشحذ قراءهم، وكانت جريدة الأهرام مجاله الواسع منذ عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) غير أنه دبّج فصولاً شتى في جرائد المقطم، والمؤيد، والبلاغ، وفي مجلات المقتطف، والهلال والمعرفة، والشورى، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجلة الجديدة وغيرها، وقد عالج في هذه الفصول مئات الموضوعات وصحح كثيرًا من الأخطاء الشائعة، وحقق، وراجع ألوفًا من أسماء الأعلام والمدن، ولكنه لم يتناول بالبحث العميق المفصل الكامل موضوعًا تاريخيًّا أو لغويًّا ومن ثَمَّ يستطاع القول بأن همّ شيخ العروبة كان محصورًا على الأخص في الكشف عن نوادر الكتب، وعن المدفون من الآراء والأفكار، والتواريخ، والوقائع، وإعلانها في ضجة رنانة، والمباهاة بأنه سبق العلماء إلى تحقيقها وإبرازها.

غير أن فضله المثمر لا يستطاع إنكاره، فقد بدأ إنتاجه الفكري بالترجمة، وإحياء التراث العربي والتأليف فيما له علاقة بالتحقيق التاريخي، واللغوي للأعلام والمدن، وما إلى ذلك، كما عمل جاهدًا على اختصار حروف الطباعة، وإدخال نظام الترقيم الغربي على الكتابة، العربية ولم يتوان في البحث عن المخطوطات ونقلها بالتصوير الفوتوغرافي متجشمًا في سبيل ذلك الرحلات الكثيرة، ومن أهم ترجماته نقله الكتب الآتية إلى اللغة العربية الفصحى: «مصر الجغرافية» تأليف الدكتور فريدريك نوبتولا، وتاريخ المشرق تأليف العالم الأثري ماسبيرو، ونتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام تأليف محمود باشا الفلكي، والرق في الإسلام تأليف أحمد شفيق (انظر هذه المادة).

وتعتبر مؤلفات شيخ العروبة مجموعة من الأبحاث التي تشبه التقارير وقد بلغ عددها ٣١ مصنفًا، على حد قول «كرد علي» في مجلة المقتبس عام ١٩١٢، وهي في أغلبها قطاعات من التاريخ كان يكشف بها بعض الجوانب الغامضة، وقد

تعمد كتابة بعضها باللغة الفرنسية مثل «اختراع البارود»، و«تسامح المسلمين» و«الفنون والصنائع الإسلامية في مصر»، و«بلاد الفيوم»، و«العلاقات المصرية بالأندلس»، و«الطيران في الإسلام»، و«أهل الكهف».

وله مصنفان يضمان تفاصيل رحلتيه إلى أوروبا، وإسبانيا، خلال عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) العرب بالأندلس، والوسائل المؤدية إلى إحياء الآداب العربية بمصر، ومعجم للجغرافية القديمة، هذا علاوة على خطبه، ومحاضراته، ودروسه عن الحضارة الإسلامية.

وما من شك في أن همّ شيخ العروبة الأكبر كان يتركز في إحياء التراث العربي ومن أجل تحقيق هذه الغاية تجشم عناء الأسفار، وتصوير المخطوطات، وجمع نفائس الكتب في خزانته الشهيرة، وكان من ثمرات هذا العمل الضخم استطاعته تقديم عشرة كتب قديمة تحمل تنقيحه، وتصحيحه إلى مؤتمر المستشرقين الذي عقد في مدينة لندن بإنجلترا عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، وقد أتاحت له زيارة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا، وزيارة الأستانة فرصة التعرف على كثير من المخطوطات الهامة.

وكان له فضل لا ينكر في الكشف عن كثير من الكلمات العربية التي اقتبستها اللغات الأجنبية، ثم حرفتها، وأدخلتها في قواميسها، وقد سار شيخ العروبة في هذا السبيل على نهج الأب أنسطاس الكرملي (انظر مادة الكرملي).

وخلّف أحمد زكي خزانة كتبه الثمينة، وقد بلغ عدد مجلداتها عند وفاته عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) (١٨,٧٠٠ مجلد)، ومن بين هذه المجلدات كتب نادرة ليس لها نظير حتى في دار الكتب المصرية أو غيرها، وكانت هذه الخزانة التي أطلق هو عليها اسم «المكتبة الزكية» في منزله خلف قصر عابدين، حتى وافق مجلس الوزراء في أكتوبر عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) على نقلها إلى دار الكتب المصرية، وفي عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) حدث خلاف بينه وبين الحكومة أدى إلى تقديمها هدية إلى وزارة الأوقاف وأبرم بذلك وقفية في ٢١ من أغسطس عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) على أن يكون مقرها مدرسة السلطان قانصوه الغوري، وأن تسمى المكتبة الزكية، ومع الأسف ترقد هذه المكتبة النفيسة الآن حبيسة مهجورة في الغرفة رقم ١٨ من مبنى دار الكتب بالقلعة.

ولشيخ العروبة الفضل أيضًا في الكشف عن أمجاد العرب والمسلمين، وذلك عن طريق التحقيق العلمي، والاستناد إلى وقائع تاريخية ثابتة، فدلل على أن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير في كشف القارة الأمريكية وحاولوا الوصول إليها مرتين، وسبقوهم إلى حل مسألة الطيران، وإلى محاولة ذلك عمليًّا، وإلى معرفة مرض النوم، وأطلقوا عليه اسم النوّام، وإلى اختراع الكتابة للمكفوفين، وإلى معرفة الشفرة السرية، وقد كان هذا الفن معروفًا في عهد خلافة المأمون، وإلى أن الأرض كروية، وقد سبقوا في ذلك جاليليو الذي قال بذلك بعد أن قررها العلماء المسلمون في قرطبة، والقيروان، وبغداد، وقد سجل هذا الشريف الإدريسي، وابن فضل الله العمري، وشهاب الدين النويري، وقال بذلك أيضًا أبو الفداء والإمام الأصفهاني، وإلى اكتشاف منابع النيل، وقد وصفوها وصفًا دقيقًا يدل على رؤيتهم لها، وإلى معرفة تيار الخليج الذي تتدفق أمواجه وسط المحيط الأطلسي، وذلك قبل معرفة الإفرنج له بنحو ١٨٩ عامًا.

وفي كثير من المقالات دافع عن العرب ضد اتهامات الأوروبيين لهم بغير ما في صفاتهم الحميدة من نبل وكرم، وفي مداركهم من اتساع أفق ومعرفة.

ومن تحقيقاته العلمية التاريخية نفيه القاطع بأن السيدة زينب أخت الحسين بن علي بن أبي طالب قد أتت إلى مصر، وقوله أنها قضت باقي حياتها بالحجاز وتوفيت بالمدينة المنورة، ودفنت بالبقيع، وأن الضريح القائم بالقاهرة قد يكون لسيدة من الصالحات تدعى زينب، وقال شيخ العروبة أن ابن جبير (انظر هذه المادة) زار مصر في أواخر القرن السادس للهجرة، وكتب أنه شاهد بها ضريح السيدة زينب بنت يحيى بن يزيد.

وأثبت شيخ العروبة أن رأس الإمام الحسين ليس لها وجود في المشهد الحسيني بالقاهرة، وأكد أن الرأس بقي مدفونًا بدمشق إلى أن فازت الدولة العباسية بالخلافة فأخذوها، وقرر كبار المؤرخين العرب في ذلك الحين بأن الرأس دفن في البقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن.

وأثبت أن القائد جوهر الصقلي ليس مدفونًا بالجامع الأزهر، وأن المدفون بالضريح الجميل بالجامع هو جوهر آخر، وأن جوهر الصقلي القائد المشهور ليس إيطاليًّا، وإنما عربيًّا ممن سكنوا جزيرة صقلية ونبغوا فيها، كما أثبت أن سيدي جابر صاحب الجامع الشهير بالإسكندرية ما هو إلا ابن جبير الأندلسي (انظر مادة ابن جبير وسيدي جابر) الذي توفي ودفن بالإسكندرية، والذي تحقق لدى شيخ العروبة (من ورقة بخط المؤرخ ابن العدي الحلبي) أنه كان قائمًا بالتدريس في مكان المسجد الحالي بالذات.

أما من الناحية السياسية فقد كان شيخ العروبة متلونًا في مذهبه السياسي، فبعد أن كان من أنصار الحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل، وذلك عندما كان الخديوي عباس الثاني يناصر هذا الحزب ويشجعه، تخلى عن الحزب وأهله حينما جنح الخديوي عباس إلى مهادنة الإنجليز وأخذ يدعو مع الداعين إلى هذه المهادنة، وينعت سياسة الحزب الوطني بأنها سياسة «دعاة الهوس والجهل»، ولكن على الرغم من هذه الهفوة السياسية فقد ناصر القضايا العربية الكبرى بعد استقالته من سكرتارية مجلس الوزراء، ولقد أصيب بالصمم عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، ولم ينجب، ولم تكن له ذرية، وبعد أن أقام مسجدًا بالقاهرة وافته المنية في ٥ من يوليو عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ).

٣٢٠- أحمد سليمان الشيخ - شارع - بقسم العطارين

يعتبر مسجد محرم بك القديم من مساجد الإسكندرية القديمة وهو يقع في شارع محرم بك في المسافة الكائنة بين محطة الترام عند شارع بوالينو (اللواء مفضل أبو زيد حاليًّا) ومحطة زين العابدين.

وشيد هذا الجامع من ماله الخاص الشيخ أحمد سليمان الشيخ أكبر أنجال الشيخ سليمان باشا ابن الشيخ إبراهيم باشا مشيد جامع الشيخ الذي كان منذ مائة عام جامعًا أزهريًّا ثانيًا بالإسكندرية، وكان الشيخ أحمد سليمان يقوم بالتدريس المجاني بجامع جده الشيخ إبراهيم باشا، وتخرج على يديه في الفقه، والحديث، والتفسير كثير من الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث منهم عبد الله النديم وعبد العزيز

جاويش وغيرهما، وفي عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) شيّد الشيخ أحمد مسجده بعد الظهر حتى صلاة العشاء، وكان في أيام العطلات والأعياد، وبعد صلاة الجمعة في كل أسبوع يجلس أمام صيدلية «خوري» التي كانت أمام قسم المنشية الذي هدم في سعة طريق النصر، وكان يجتمع إليه بعض المشايخ العلماء يناقشهم، ويناقشونه في العلوم الدينية، وهو بينهم بوجهه الأبيض، ولحيته الوقورة البيضاء وملابسه الثمينة وعمامته الجليلة، وقد رأيته على هذه الصورة مئات المرات في عهد الطفولة والصبا، وتوفي الشيخ أحمد سليمان الشيخ عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ودفن بالمسجد الذي شيده، وقد كرمت المحافظة ذكراه العاطرة فأطلقت اسمه أخيرًا على أحد شوارع قسم العطارين.

وعمر المسجد الآن ٧١ عامًا إذ افتتح للصلاة في أوائل عام ١٩٠٠م، وبابه المطل على شارع محرم بك من الخشب يحمل بعض الزخارف البسيطة، وقد كتب على لوحة رخامية في أعلاه تاريخ تشييده واسم صاحبه، ويؤدي هذا الباب إلى رحبة مثلثة الشكل بها عمود من الرخام فوقه شرفة السيدات (الصندرة) وسلمها في الركن اليمين من الرحبة التي على يسارها توجد الميْضأة ودورة المياه، وأمام باب المسجد مدخل صحن المسجد وهو مربع الشكل يقوم على أربعة أعمدة من الموزايكو يعلوها قناطر من البناء، والقبلة في صدر الصحن ذات عمودين رفيعين من الرخام تعلوها لوحة كتب عليها بالخط الثلث: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾.

والمنبر من الخشب «المغنو» الظريف الشكل، وللمسجد ست نوافذ كبيرة ذات قضبان حديدية، فوق الأعمدة الأربعة التي يتكون منها إيوان المسجد مَنْور فوقه سقف مربع الشكل، وبه ثمان نوافذ للإضاءة والنور، وهذه الأعمدة الأربعة ذات قواعد مربعة مضلعة التكوين، وليس للمسجد مئذنة، ولا قبة، وعلى يمين الداخل إلى صحن المسجد حجرتان، إحداهما تضم رفات الشيخ أحمد سليمان الشيخ والأخرى للإمام.

٣٢١- أحمد السيد (الدكتور) - شارع - بقسم باب شرقي (هتسو سابقًا)

اطلب ترجمة صاحب الشارع الجديد في «الدكتور أحمد السيد»، واطلب ترجمة اسم الشارع القديم في «هتسو».

٣٢٢- أحمد شاهين - شارع - بقسم الرمل

عثرت في ثنايا الكتاب الذي وضعه الأمير السابق عمر طوسون بعنوان «الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم»، أن البكباشي (المقدم) أحمد شاهين عُيِّن قبودانًا للفرقاطة (دمياط) المزودة بستين مدفعًا، وكانت إحدى السفن الحربية الاثنتا عشرة التي أمر عباس الأول والي مصر في ٢٤ رمضان عام ١٢٩٩هـ (أول يوليو عام ١٨٥٣م) بإرسالها لنجدة تركيا في تلك الحرب، وكانت هذه السفن بقيادة أمير البحر حسن باشا الإسكندراني (انظر هذه المادة) وفيما يلي أسماؤها: مفتاح جهاد، جهاد أباد، الفيوم، رشيد، شهير جهاد، دمياط، البحيرة، النيل، جناح بحري، جهاد بيكر، بروانه بحري (وابور)، جديليت صاعقة (وابور)، وقد سافرت النجدة تحمل سفنها ٧١٤ مدفعًا، و٦٨٥٠ جنديًّا بحريًّا، و١٩,٧٢٢ جنديًّا بريًّا، أي أن مجموع الحملة من الرجال كان ٢٧,٥٧٢ رجلاً، وقد عادت الحملة بأعمال

رجالها البطولية، وفي أثنائها حصلت كارثة غرق بعض السفن الحربية المصرية عند مدخل مضيق البوسفور وراح ضحيتها حسن باشا الإسكندراني، ومعظم رجال سفنه الحربية.

٣٢٣- أحمد شعبان - شارع - بقسم الرمل

يوجد اسم «أحمد شعبان» بين طلاب البعثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وكانت ثالث بعثاته العلمية، وكان عمر أحمد شعبان في هذا التاريخ سبعة عشر عامًا، ومن ثَمَّ يكون قد ولد بالقاهرة ١٢٢٤هـ (١٨٠٩م)، وقد درس بفرنسا العلوم الكيميائية مثل زميله أحمد يوسف (انظر هذه المادة)، وعاد إلى مصر بعد إتمام دراسته خلال عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م)، أي بعد انقضاء ستة أعوام في طلب العلم، وكان راتبه الشهري أثناء البعثة جنيهًا واحدًا، ولا يعرف أي شيء عن سير حياته بعد العودة إلى مصر من حيث العمل الذي زاوله، والوظائف التي شغلها، كما لا يعرف تاريخ ومكان وفاته على وجه التحديد، ولعله أحمد شعبان الذي تعلم الصياغة وصار مستخدمًا بمصنع الجوخ بمصر.

هذا إذا كان الشارع قد سمّي باسم هذا المبعوث المصري، إذ قد يكون الاسم الذي لا يشمل أي لقب عائلي لأحد سكان الشارع، أو أحد ملاك عقاراته تمشيًا مع العادة التي كانت متبعة في تسمية الشوارع إلى وقت غير بعيد.

٣٢٤- أحمد شلبي - شارع - بقسم باب شرقي (كبوا سابقًا)

هو المهندس أحمد إبراهيم شلبي مراقب عام أوقاف الإسكندرية سابقًا، ولد ببلدة سوادة مركز فاقوس بمحافظة الشرقية، وتخرج من كلية الهندسة بجامعة القاهرة عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، والتحق بوزارة الأوقاف بتفتيش صفط خالد بجهة دمنهور، وذلك خلال عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م)، ثم نقل إلى تفتيش الفيوم، فالقاهرة، وفي عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م)، نقل إلى المنصورة وفي سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) عُيِّن مندوبًا للإصلاح الزراعي بالإسكندرية، وفي منتصف عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) نقل مراقبًا عامًّا لأوقاف الإسكندرية حيث عُيِّن عضوًا بالمجلس البلدي - بحكم وظيفته - ثم عضوًا بمجلس المحافظة عقب تطبيق نظام الإدارة المحلية، وكان خلال هذه المدة رئيسًا أو عضوًا في معظم الجمعيات الخيرية والدينية بالمدينة.

وفي عهده تم تشييد مسجد سيدي جابر الجديد، وعمارة الأوقاف بجهة سبورتنج (محطة الرياضة الآن)، وعمارة الأوقاف بشارع سيدي المتولي، ومسجد الهداية بمحطة بولكلي.

وفي ١٥ من إبريل عام ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ)، رقي إلى وظيفة السكرتير العام لوزارة الأوقاف ولكن المنية وافته في اليوم نفسه.

٣٢٥- أحمد شكري - شارع - بقسم الرمل

لعله أحد سكان هذا الشارع القدامى، أو أحد ملاك العقارات المقامة على جانبيه، وإني أرجح أن اسم أحمد شكري وضع على هذا الشارع للدلالة على أحمد شكري باشا والد إسماعيل صدقي باشا أحد رؤساء الوزارات في عهد ما قبل الثورة الوطنية في عام ١٩٥٢م.

(ولأحمد باشا شكري) شارع آخر بقسم الرمل أيضًا، فاطلب ترجمته في «أحمد باشا شكري».

٣٢٦- أحمد صبري - شارع - بقسم الرمل (سيمون سابقًا)

ولد الفنان أحمد صبري في ١٩ من إبريل عام ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ)، والتحق في صباه بمدرسة الفنون الجميلة العليا، وتتلمذ أثناء دراسته بهذه المدرسة على الفنان الإيطالي «باولو فورشيلا» وتأثر بفنه إلى أبعد حد، وكان تخرجه بعد أن أتم دراسته خلال عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ)، وسافر بعد ذلك إلى باريس عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى على نفقته لمدة سنتين التحق خلالهما بمرسم «جوليان»، وفي سنة ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) التحق بمدرسة الفنون الزخرفية بباريس، وفي عام ١٩٢٥م (١٣٤٤هـ) ضمته وزارة المعارف العمومية (وزارة التربية والتعليم حاليًّا) إلى بعثاتها فأقام في مدينة «نانْت» بفرنسا، واتصل بالمصور الفرنسي «فوجنت»، ولدى عودته إلى الوطن عُيِّن مدرسًا بمدرسة الفنون الجميلة العليا، وتولى بعد ذلك رياسة قسم التصوير بها إلى أن أحيل على التقاعد عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ).

وقد اشترك أثناء دراسته بفرنسا في معرض صالون الخريف بلوحته المشهورة «الراهبة» فكانت هذه اللوحة موضع إعجاب النقاد الفنيين والمحكمين، ونالت الميدالية الذهبية بوصف كونها أحسن عمل فني في المعرض، وقد أطنبت الصحافة الفرنسية بهذه اللوحة، وأشادت بتفوق أحمد صبري الناشئ على جميع الفنانين المشتركين في المعرض.

وكانت الموضوعات التي تستأثر باهتمام الفنان أحمد صبري تتركز في الوجوه البشرية، فكان لا يكتفي بنقلها نقلاً أمينًا وإنما كان يهتم بتصوير ما يكمن وراء الوجه من ملامح وتعبيرات وعواطف، وكان لصبري إحساس عميق الغور باللون وشفافيته ومن ثَمَّ فهو يعد من أنجح مصوري الشخصيات سواء أكانت المادة التي يستخدمها في ذلك هي الزيت أم الباستيل، وإلى جانب شغفه بتسجيل الصور الشخصية عُني صبري بتصوير الطبيعة الصامتة.

ولقد كافح هذا الفنان الموهوب كفاحًا طويلاً في سبيل الفن، فبدأ كفاحه في سن الطفولة بعد فقد والديه، وامتد كفاحه فشمل سني صباه أثناء دراسته وسني شبابه خلال إقامته بفرنسا في طلب العلم والسنوات التي تلت عودته إلى مصر، فكان يناضل في سبيل تلاميذه، وفي سبيل إنشاء القسم الحر، وقد نجح في كفاحه طفلاً وصبيًّا وشابًّا وأستاذًا، وتكلل كفاحه بالنجاح، فأنشأ القسم الحر الذي تخرج منه فنانون موهوبون يذكرون له الفضل عليهم وما أسداه لهم من أياد بيضاء.

ولقد أخلص أحمد صبري لفنه، ووطنه، وجاهد مع الرعيل الأول لإقامة فن في البلاد ولتخريج فنانين، ومازال على نضاله في سبيل تحقيق هذه الغايات حتى فقد البصر في

أواخر أعوام حياته، ووافته المنية في ٩ من مارس عام ١٩٥٥م (١٣٧٥هـ) بالغًا من العمر ٦٦ سنة.

ومن لوحاته الجميلة التعبير والمنظر «السيدة ذات المروحة» و «السيدة ذات العقد من اللؤلؤ» وصورة تمثل «مدام أمين» في وضع بريء هادئ يدل على السماحة والجمال غير المتكلف.

أما ترجمة الاسم القديم للشارع فاطلبها في كلمة «سيمون».

٣٢٧- أحمد صدّيق - شارع - بقسم سيدي جابر (دنتمارو سابقًا)

ولد أحمد صديق بالقاهرة في حوالي عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ)، وتلقى دروسه الابتدائية والثانوية بمدارسها ثم التحق بمدرسة الحقوق، وتخرج منها عقب حصوله على إجازة الليسانس عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)، وكان عمره عشرين عامًا، وكان يتقن الإنجليزية إلى حد بعيد.

وفي ذلك العام نفسه عين في وظيفة مساعد مفتش بإدارة الأمن التابعة لوزارة الداخلية، وبعد أن تقلب في عدة وظائف رقي إلى وظيفة مفتش بالوزارة عام ١٩١٦م (١٣٣٥هـ).

وفي عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) عُيِّن وكيلاً لمحافظة الإسكندرية، ثم رقي إلى وظيفة مدير لمديرية الفيوم خلال عام ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ)، ثم شغل وظيفة مدير لمديريات القليوبية، فالجيزة، فقنا.

وفي ذلك الحين كان إسماعيل صدقي وزيرًا للداخلية، وكان محمد صفوت باشا مديرًا للبلدية وكان من أقطاب الوفد المصري، فأقاله صدقي باشا بالتليفون، وكان يحضر جلسة المجلس البلدي، فغادر قاعة الجلسة ولم يعد.

وبعد أيام قليلة عُيِّن أحمد صديق مديرًا للبلدية خلفًا لمحمد صفوت باشا عام ١٩٢٦، ولقد عملت بالبلدية في هذه الفترة وكنت أختزل مناقشات المجلس (القومسيون) بالاختزال الفرنسي، فوجدت أن الأستاذ المرحوم أحمد صديق من أشد المديرين حزمًا، ومن أكثرهم ذكاء، وحيوية، وحسن إدارة، فكان له هيبة وخشية من جميع المكاتبات الواردة إلى البلدية كانت تعرض عليه في الصباح بعد قيدها بسجلات الوارد، فكان ينتقي منها ما يشاء من مختلف أقسام البلدية ثُمَّ يقيدها سكرتيره الخاص بدفتر لديه مع ذكر رقم قيدها والقسم المرسلة إليه.

وبعد مضيّ عشرة أيام يرسل السكرتير الاستعلام عما تم في هذه المكاتبات ويتلقى الردود فيعرضها عليه، فإذا وجد أي تقصير من المختصين في إعطائها الإجراء اللازم كان لا يتردد في توقيع العقوبة الرادعة على المقصرين، وهكذا كانت شكاوى الممولين وطلباتهم تجد الحلول الواجبة في أسرع وقت، وهكذا كان أحمد صديق يشرف على جميع الموظفين ويؤدون أعمالهم في غير تسويف خشية التعرض للمجازاة.

وبقي أحمد صديق يوالي نشاطه الإداري والعمراني، ففي عهده تم افتتاح مستشفى الولادة بشارع الخديوي الأول، وعيادة رعاية الطفل بجهة مسجد أبي العباس، والمطاعم الشعبية للفقراء، والعيادات للأمراض السرية والجلدية في أماكن مختلفة من المدينة، وملجأ الأيتام وأبناء السبيل، واللقطاء والرضع، والحمامات المجانية، والعيادة الخارجية

الكبيرة للأمراض الباطنية، والأنف والحنجرة والأذن، والأسنان، وتصرف فيها الأدوية للفقراء مجانًا، ومستشفى الحميات الجديد بجهة أمبروزو.

وفي عهده تم الكثير من التحسينات في أرجاء مدينة الإسكندرية منها: ميدان وابور المياه، وميدان محطة مصر، وشق شارع إسماعيل صبري بقسم الجمرك بعد نزع ملكية العقارات التي كانت تعترض استقامة امتداده واتساع عرضه، وأهم هذه التحسينات جميعها تشييد الجزء الثالث من الكورنيش الممتد من حيّ كامب شيزار إلى قصر المنتزه بطول يقرب من عشرين كيلومترًا، وقد رفع هذا الكورنيش من مستوى الإسكندرية فخلق منها مدينة سياحية جميلة ومصيفًا ممتازًا علاوة على فوائده المادية بالنسبة إلى إيرادات البلدية العامة التي كانت لا تتجاوز ٧٥٠ ألفًا من الجنيهات فقفزت بعد إنشاء الكورنيش بأعوام قليلة إلى ثلاثة ملايين بفضل ضريبة الأملاك، وعوائد الاثنين في المائة التي فرضت على العقارات الهائلة العدد التي أقيمت بسرعة مذهلة على امتداد طريق الكورنيش، هذا علاوة على ما أدخل من التحسينات الهامة على قسم الرمل ولا سيما بمنطقة سيدي بشر التي شملها العمران السريع بسبب إنشاء الكورنيش وبسبب إقامة طارمات الاستحمام الكبيرة العدد الحسنة البناء على طوال شواطئ ضاحية الرمل.

وقد نال المرحوم أحمد صديق العديد من الأوسمة منها، وسام النيل من الدرجة الثالثة، ووسام تاج بلجيكا، وتاج إيطاليا، ووسام جوقة الشرف الفرنسي، ووسام الإمبراطورية الإنجليزية.

وفي حوالي عام ١٩٣٢م (١٣٥٢هـ) قامت ضجة كبرى حول إنشاء الكورنيش عقب انهيار بعض أجزاء صغيرة منه بسبب استخدام المقاولين «دانتمارو وكرتار» مياه البحر في خلط الأحجار بالأسمنت عوضًا عن الماء العذب، فكتبت الصحف انتقاداتها في هذا الشأن وأخذ المجلس البلدي في إثارة هذا الموضوع وانتقاده، فشكلت الحكومة لجنة عليا للتحقيق الذي انتهى باستقالة المدير العام أحمد صديق، ومعاقبة بعض الموظفين المسؤولين.

ولقد أصيب المرحوم أحمد صديق في حادث تسبب في بتر أحد ساقيه، وظلّ يعاني من هذه الصدمة حتى وفاته.

ومن علامات ذكائه المرموق إتقانه اللغة الفرنسية، وكان لا يعرف منها إلا القليل عند تعيينه بالبلدية، وانتدابه كل عام لامتحان طلاب الحقوق، والدراسات العليا.

٣٢٨- أحمد طايل - شارع - بقسم محرم بك

ولد أحمد طايل ببلدة تلبان بمديرية (محافظة) الغربية، وأرسله محمد علي في بعثة علمية بفرنسا لتعلم الهندسة، فبدأ دراسته في شهر يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة مائة قرش، وعاد إلى مصر بعد إتمام الدراسة في سنة ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) ومن ثَمَّ تكون بعثته التعليمية قد استغرقت خمس سنوات، وقد عُيِّن معيدًا بمدرسة المهندسخانة، ثم ارتقى إلى وظيفة مدرس للعلوم الميكانيكية (الآلية) والجبر، وتخرج على يديه كثير من المهندسين.

وكانت وفاته خلال عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ).

٣٢٩- أحمد عبد السلام (الدكتور) - شارع - بقسم العطارين (رولو سابقًا)

اطلب ترجمته في «الدكتور أحمد عبد السلام».

٣٣٠- أحمد عبد العزيز (القائمقام) - شارع - بقسم الرمل (السردار سابقًا)

انظر ترجمته في «القائمقام أحمد عبد العزيز».

واطلب ترجمة اسم الشارع القديم في كلمة «السردار».

٣٣١- أحمد علي (اللواء) - شارع - بقسم باب شرقي (محطة كليوباترا سابقًا)

اطلب ترجمته في «اللواء أحمد علي».

٣٣٢- أحمد غاربو بك - شارع - بقسم الرمل

هو أحمد غاربو بن محمد حسن غاربو الذي كان رئيس خزانة الأوراق المالية ببنك «الكريدي ليونيه» الفرنسي بالإسكندرية، وحفيد حسن علي غاربو رئيس خزانة بالبنك الآنف الذكر.

وقد ولد أحمد غاربو بالإسكندرية عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، وتعلم بمدرسة رأس التين الابتدائية والثانوية، وعُيِّن بمصلحة الجمارك عقب حصوله على شهادة البكالوريا المصرية من القسم الفرنسي، وتدرج بعد ذلك في وظائف هذه المصلحة إلى أن عُيِّن مديرًا عامًّا لها في ٢٠ من إبريل عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ).

وأثناء سني خدمته الأولى بالجمارك كان يدرس الرياضة بالقسم الليلي الثانوي بجمعية العروة الوثقى للموظفين الذين يرغبون في الحصول على شهادة البكالوريا من منازلهم.

وفي عهد الشباب كان من مؤيدي الحزب الوطني، وترك المجال السياسي بعد وفاة الزعيم مصطفى كامل.

وكان رئيسًا للجمعية التعاونية المنزلية لموظفي الحكومة طوال مدة شغله منصب المدير العام لمصلحة الجمارك، وتوفي في ٢٠ من إبريل عام ١٣٥٧هـ (١٩١٨م) بالإسكندرية.

ويقال أن أسرة غاربو بالإسكندرية تنتمي في الأصل إلى أسرة جزائرية نزحت إلى القطر المصري منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا.

٣٣٣- أحمد فتحي - شارع - بقسم الرمل

لعل صاحب هذا الاسم كان من سكان هذا الشارع، أو أحد ملاك العقارات الواقعة على جانبيه، غير أنه من الملائم - تحقيقًا للفائدة التاريخية - أن أذكر ترجمة اثنين ممن عثرت على تراجم حياتهم، وهما:

١) **أحمد فتحي**: وكان رئيسًا للنيابة بالإسكندرية خلال عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م)، وقد طلب زيادة موظفي النيابة بالمحكمة الأهلية مسايرة لزيادة الأعباء، ولكن نظارة الحقانية لم تجب طلبه.

٢) **ولعله أحمد فتحي زغلول باشا**: العالم القانوني المشهور، وقد ولد عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) بإبيانة من أعمال مركز فوة، وآخر منصب تولاه قبل وفاته هو منصب وكيل نظارة الحقانية،

وكانت وفاته عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) بالغًا من العمر حوالي ٥١ عامًا، وله كثير من الكتب النافعة المترجمة عن اللغات الأجنبية وشرح القانون المدني، وقد تعلم في مدارس مصر ثم درس الحقوق في فرنسا، وعاد إلى الوطن حيث تقلب في مناصب القضاء إلى أن بلغ منصب وكالة الحقانية.

من أسلوبه في مقدمة كتابه «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» قوله: «من الحقائق أن الأمة لا تنهض من رقدتها، ولا تهب من سباتها، إلا إذا خلصت من قيودها، وفارقتها الأمراض التي تنهك قواها وتحط من عزيمتها، ولا يتيسر للأمة أن تتخلص من آلامها، وتبرأ من أمراضها إلا إذا عرفت أسبابها، وأحاطت بموجبات الضعف فيها، فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها، حتى إذا تم تشخيص الداء، سهلت معرفة الدواء، وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب، وأننا أمامها ضعاف، ولا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا أن نفوز ببغيتنا ما دمنا ودامت هذه الحال».

٣٣٤- أحمد فريد باشا - شارع - بقسم الرمل

كان رئيسًا للدائرة السنية، وكان وكيله في إدارتها أحمد شكري باشا (انظر مادة أحمد شكري).

٣٣٥- أحمد فؤاد نور (النقيب) - شارع - بقسم باب شرقي (كانوب سابقًا)

اطلب ترجمته في «النقيب أحمد فؤاد نور».

واطلب ترجمة الاسم القديم في كلمة «كانوب».

٣٣٦- أحمد قمحة بك - شارع - بقسم باب شرقي (مارك أوريل سابقًا)

كان أحمد قمحة بك ناظرًا لمدرسة الحقوق بالقاهرة، وقد تخرج على يديه عدد كبير من مشاهير رجال القضاء، والمحاماة الذين برزوا في الشؤون القانونية منذ بداية القرن العشرين الحالي، ومنهم من أدركته المنية، ومنهم مايزالون يمارسون مهامهم القضائية حتى الآن.

ولأحمد قمحة بك مؤلفات قانونية هامة منها كتاب في القانون التجاري، وآخر في شرح لائحة الإجراءات الشرعية، وثالث في المرافعات بالاشتراك مع الأستاذ عبد الفتاح السيدريك، وكان هو وزملاؤه: أحمد أمين، والدكتور عبد الحميد أبو هيف وعبد الفتاح السيد، وزهني بك من رواد واضعي الألفاظ القانونية العربية التي حلت محل الألفاظ الأجنبية التي كانت تشوب الأحكام القضائية ولغة المحاماة في المحاكم، ومن أمثلة هذه الألفاظ الأعجمية أن الأحكام كانت تصدر وفيها كلمة «أبيللو appello» إذا أراد القاضي أن يقول لأحد الخصوم أن عليه أن يرفع استئنافًا لمتابعة قضيته، وكانت المحكمة ترفض الدعوى قائلة أن هذا الرفض يرجع إلى عدم «الكومبتينتا competenta» أي لعدم الاختصاص، إذ إن كلمة «appello تعني الاستئناف» باللغة الإيطالية، ويقابلها كلمة «appel بالفرنسية»، وكلمة «competenta تعني الاختصاص» بالإيطالية، ويقابلها كلمة «competence بالفرنسية»، وهكذا تخلصت لغة القضاء من كثير من الألفاظ الإيطالية والفرنسية التي كانت تشوبها.

وأحمد بك قمحة عم اللواء حسين يسري قمحة الذي كان حكمدار الإسكندرية، وله شارع يحمل اسمه (انظر مادة اللواء يسري قمحة)، وقد ولد بالإسكندرية وتوفي بها في تاريخ لم أتوصل إلى تحديده.

٣٣٧- أحمد مرسي بدر - شارع - بقسم العطارين (محطة مصر سابقًا)

ولد المرحوم أحمد مرسي بدر في ١١ مارس عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) ببلدة أبي الخاوي مركز كوم حمادة، ويرجع لقب «بدر» الذي تحمله أسرته إلى جدها الأكبر «محمد بدر» الذي نزح من محافظة أسيوط بالوجه القبلي إلى محافظة البحيرة بالوجه البحري واستقر ببلدة أبي الخاوي التي بها صاحب هذه الترجمة، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر، ومازالت ذرية محمد بدر تقيم حتى الآن بقرية «دناصور» بمركز الشهداء بمحافظة المنوفية المقابلة لبلدة أبي الخاوي على الضفة الشرقية لفرع رشيد.

وتنتمي أسرة الجد الأكبر محمد بدر إلى قبيلة بني عديّ العربية التي نزحت من الحجاز إلى صعيد مصر خلال القرن الثامن الهجري، واستقرت في قرية بني عديّ التي تحمل اسمها، وقد حقق هذه المعلومات الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية السابق في كتاب ألّفه عن القبائل العربية في مصر ومازال هذا الكتاب تحت النشر.

وينتمي أحمد مرسي بدر إلى الإسكندرية عن طريق والدته كريمة السيد حسين المليجي الذي كان من تجار المدينة وهو من أصل مغربي.

وتلقى أحمد مرسي بدر تعليمه الابتدائي بالإسكندرية في كنف أسرة والدته ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة، وبعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) دخل مدرسة الحقوق وتخرج منها عام ١٩١٦م (١٣٣٥هـ).

وفي أثناء دراسته بمدرسة الحقوق أسهم في الحركة الوطنية في أول احتجاج على إعلان الحماية على مصر في بداية الحرب العالمية الأولى التي نشبت بين ألمانيا وبريطانيا وحلفائها، فكان من زعماء أحزاب طلبة الحقوق ومنظمي احتجاجهم الصاخب في أثناء زيارة السلطان حسين كامل للمدرسة، ولهذا السبب فصل من الدراسة، ونسبت إليه تهمة تهديد ناظرها بالقتل إذا لم يعد الطلبة المفصولين إلى الدراسة، وكان هذا الناظر قد تلقى كتابًا ينطوي على هذا التهديد، غير أن محكمة جنح عابدين قضت ببراءته من تلك التهمة.

وحدث بعد ذلك أن ألقيت قنبلة يدوية على السلطان حسين عندما كان موكبه يخترق شارع رأس التين بالإسكندرية فأخطأته، وسرعان ما اعتقلت الحكومة زعماء طلبة الحقوق، وكان أحمد مرسي بدر أحدهم، وظلّ المعتقلون في معتقلات منطقة طرة سنة كاملة فأتمَّ في أثنائها الامتحان السنوي ثم أفرج عنهم، وأعيدوا إلى الدراسة في السنة التالية.

وعقب تخرجه تمرن على المحاماة في مكتب المرحوم الأستاذ محمود بسيوني بأسيوط، وكانت أسيوط من المدن التي تضم كبار المحامين في القضايا الجنائية في ذلك الحين، ثم اتخذ له مكتبًا في كوم حمادة وبعد مدة قصيرة رحل إلى الإسكندرية واتخذ له مكتبًا بشارع رشيد (طريق الحرية حاليًّا) بالقرب من «سينما ريو» أمام سراي زغيب التي كانت مقرًّا

لمحكمة الإسكندرية الأهلية، ونقل مكتبه بعد ذلك إلى شارع محطة مصر الذي يحمل اسمه الآن وظل يشغل هذا المكتب حوالي أربعين عامًا، وأسهم بقلمه في الحركة الوطنية فكان ينشر المقالات الكثيرة في الصحف اليومية وكانت جميعها تتناول النواحي السياسية للبلاد وتبين آراؤه في هذا الصدد الصراحة التي لا يشوبها الخوف أو الملق.

وكان من الدفعة الأولى من المحامين الذين قُبلوا للدفاع أمام محكمة النقض عند إنشائها وتولى رياسة لجنة نقابة المحامين بالإسكندرية عدة مرات، كما كان عضوًا بالمجلس البلدي سنوات طويلة، انتخب بعدها عضوًا بمجلس النواب عن دائرة العطارين أكثر من مرة، وكانت أولاها في عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ) وفي هذا المجلس تولى رياسة اللجنة التشريعية في أثناء إعداد التشريعات الكبرى، وأهمها القانون المدني الجديد الذي صدر عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ).

وفي عام ١٩٤٧م اختير وزيرًا للعدل في وزارة محمود فهمي النقراشي (انظر هذه المادة) ثم في وزارة إبراهيم عبد الهادي عام ١٩٤٨م، وتولى وزارة المعارف في وزارة حسين سري الائتلافية عام ١٩٤٩م (١٣٦٩هـ).

ومن مواقفه الوطنية عندما كان عضوًا بالمجلس البلدي دفاعه عن مصالح المدينة العامة، ورفضه إنشاء ميدان أمام أملاك أحد حكام العهد البائد بغية تصقيع هذه الأملاك ورفع أثمانها، وإثارته موضوع تقاضي البلدية عن جباية الضرائب والرسوم المستحقة على أملاك الخاصة الملكية بناحية المنتزه.

وفي أثناء توليه الوزارة لم يتردد في مواجهة وزير الحربية، وكان من رجال الملك السابق فاروق، بمسؤوليته في إغفال تزويد الجيش المصري بالأسلحة الوفيرة اللازمة، واستكمال استعداده للحرب وذلك عندما تحرّج الموقف في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ)، ولم يتردد في اتهام هذا الوزير بأنه خدع الحكومة والبرلمان حين صرح بأن الجيش مستعد، وهو مزود بالعتاد والأسلحة، وقد كان لهذه المواجهة الجريئة صداها المدوّي في الصحف.

ولقد اشترك في الحياة السياسية المصرية بكل ما وسعت جهوده من طاقة، فكان أول أمره عضوًا عاملاً في صفوف الوفد المصري منذ أول تكوينه عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) ثم صار عضوًا في لجنته المركزية بالإسكندرية، وفي عهد وزارة إسماعيل صدقي التي ألغت لقمع الحركة الوطنية عام ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) والتي ألغت دستور عام ١٩٢٣ (١٣٤٢هـ) اعتقل وسجن لاشتراكه في الاحتجاج العنيف على هذا الإلغاء غير الشرعي بمظاهرات صاخبة ضد الحكم الاستبدادي الذي مارسته هذه الوزارة، وقد اجتاحت هذه المظاهرات الإسكندرية، وشملت جميع أحيائها، وطوائف سكانها.

وفي عام ١٩٣٥ (١٣٥٤هـ) اختلف مع الوفد المصري، وانضم لفترة قصيرة إلى حزب الاتحاد، ولما حدث الانشقاق الكبير على الوفد، وتشكلت الهيئة السعدية التي ضمت أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وغيرهما من الوفديين الذين فضلوا العاجلة على الآجلة، كان أحمد مرسي بدر أحد مؤسسي هذه الهيئة، وأحد أعضاء مجلس إدارتها طوال مدة وجودها كما تولى رياسة لجنتها المركزية بالإسكندرية وكان مقرها الرئيسي بجهة الجمرك بجوار مطحن شيمي بك الذي صار الآن دارًا للسينما في هذه الجهة، وفي عام ١٩٥٢م

(١٣٧٢هـ) انتخب نائبًا لرئيس الحزب السعدي، وذلك قبل تطهير الأحزاب ثم حلها.

ولم يقصر في الإسهام في الأعمال الخيرية بالإسكندرية فكان عضوًا عاملاً بجمعية العروة الوثقى الخيرية الإسلامية ثم صار نائبًا لرئيس مجلس إدارتها، وكان له الفضل في تأسيس جمعية مستشفى أحمد ماهر بميدان الجمهورية الذي يؤدي رسالته الإنسانية في معالجة المرضى، ولاسيما أهالي قسمي العطارين ومحرم بك.

وكان أحمد مرسي بدر رياضيًّا فانضم إلى عضوية نادي سبورتنج وقت أن كانت عضويته تكاد وقفًا على الأجانب ذلك لأنه كان من الهواة من بينها بطولة مصر للهواة التي أقيمت عام ١٩٣٨ (١٣٥٧هـ) ثم أصبح نائبًا لرئيس اتحاد لعبة الجولف في مصر.

وتوفي في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ (١٣٨٢هـ) بمنزله بحي بولكلي بقسم الرمل، بالغًا من العمر حوالي ٧١ عامًا.

وتتجلى أبوّته الحادية المحنّة في تربية وتنشئة ولده الوحيد الدكتور جمال بدر الذي كان أول الحاصلين على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية، والذي تولى مناصب قضائية عديدة فشغل منصب وكيل النائب العام لدى المحاكم المختلطة ثم صار محاميًا لدى محكمة النقض، وعمل بعد ذلك مستشارًا قانونيًّا لحكومة الكنغوكنشاسا من قبل الأمم المتحدة خلال عامي ١٩٦٣، ١٩٦٤ (١٣٨٣-١٣٨٤هـ)، ثم مستشارًا بالمحكمة العليا بالجزائر، فمستشارًا فنيًّا لوزارة العدل بها عام ١٩٦٥ (١٣٨٥هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى الآن (عام ١٩٧١).

وكانت له مساهمات في الحياة العامة المصرية أبرزها عضويته في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام ١٩٦١ (١٣٨١هـ) وعضويته في اللجان الرسمية لتنقيح التشريعات التي شكلت عام ١٩٦٠ (١٣٨٠هـ).

وإذا كانت السياسة قد شغلت والده أحمد مرسي بدر عن التأليف في القانون فإن نجله جمال بدر قد أكمل هذا النقص، فمن مؤلفاته كتاب بعنوان «النيابة في التصرفات القانونية» عام ١٩٥٤ (١٣٧٤هـ) وكتاب «دراسات في النظرية العامة للنيابة» عام ١٩٥٩ (١٣٧٩هـ)، وله أبحاث كثيرة بالعربية والفرنسية والإنجليزية نشرت في كبريات المجلات القانونية في مصر وفي الخارج.

وهو بعد شاعر، رقيق الأسلوب، جزله، وله ديوان بعنوان «نبضات» نشره عام ١٩٦٤ (١٣٨٤هـ) بالإسكندرية، هذا علاوة على الكثير من المقالات والأبحاث الأدبية والتاريخية التي نشرت بالمجلات المصرية والعربية.

وكان من المهتمين بالقضية العربية الوحدوية منذ كان طالبًا بالحقوق، فأسس رابطة العروبة لطلاب جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢ (١٣٦١هـ)، واشترك في تأسيس جمعية الوطن العربي والاتحاد العربي عام ١٩٤٧ (١٣٦٧هـ).

وما من شك في أن التربية القويمة التي أنضجت مدارك الدكتور جمال بدر ترجع إلى المبادئ التي تمسّك بها والده أحمد مرسي بدر طوال حياته، فقد كان على كثير من الصرامة والحزم في سلوكه العام، فعندما كان وزيرًا في وزارة حسين سري لاحظ أن الاتجاه يميل إلى الموافقة على اشتراك إسرائيل في اجتماع هيئة الصحة العالمية الذي كان

مقررًا عقده بالإسكندرية، وكان في هذا الميل تخاذل وخيم العواقب بعد أن تعرضت مصر، والعالم العربي لمحنة فلسطين ١٩٤٨ (١٣٦٨هـ)، فوقف الوزير أحمد مرسي بدر موقفًا صلبًا من هذا الاتجاه، وقامت مشادة في مجلس الوزراء انتهت بانسحابه، وتهديده بالاستقالة، وكان لذلك صداه البعيد في الرأي العام، وأثره في الموقف الذي اتخذته مصر منذ ذلك الحين إزاء إسرائيل في الصعيد الدولي.

وعندما كان وزيرًا للعدل حرص على انتظام مواعيد الجلسات في المحاكم، وسرعة البت في القضايا، وقيام التفتيش المفاجئ على مختلف دور القضاء، وقد تم في عهده إلغاء المحاكم المختلطة وانتقال اختصاصاتها إلى المحاكم الوطنية.

وفي وزارة المعارف حرص على اتباع التقاليد الوطنية، ومراعاة أصول الآداب العامة، ولاسيما بالنسبة إلى مدارس البنات وقد أثار عليه هذا الحرص النقد الشديد من دعاة التفرنج، ونبذ التقاليد النابعة من كيان الشعب المصري، وعاداته الموروثة.

وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢ (١٣٧٢هـ) كان أحمد مرسي بدر من السياسيين القدامى القلائل الذين ركنت حكومة الثورة إلى استشارتهم في قضية جلاء بريطانيا عن مصر ومشروع الاتفاقية التي أدت إلى رحيل الإنجليز من قاعدة قناة السويس في يونية عام ١٩٥٦ (١٣٧٦هـ).

وكانت معالم الصلابة في سلوكه الاجتماعي تتجلى في ملامحه، وهيكله الجسماني وحتى في مشيته، فقد كان طويل القامة، بدينًا بعض الشيء، عريض الجبهة، مستطيل الوجه، قمحي البشرة، حاد النظر، كث الشاربين، جهوري الصوت، لا تفارقه عصاه الغليظة.

٣٣٨- أحمد النجدلي - شارع - بقسم محرم بك

ولد بالقاهرة عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م) وكان من بين طلاب البعثة العلمية الثالثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وكان عمره في ذلك التاريخ ستة عشر عامًا، ودرس هناك التاريخ الطبيعي والمعادن، وكان راتبه الشهري طوال مدة البعثة التي استغرقت ست سنوات مائة قرش، وقد عاد إلى مصر في أوائل شهر سبتمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٩هـ).

ولا يعرف شيء عن العمل الذي زاوله بعد عودته، ولا الوظائف التي شغلها، كما لا يعرف تاريخ ومكان وفاته.

٣٣٩- أحمد نجيب باشا - شارع - بقسم كرموز

اسمه الكامل أحمد نجيب بن علي أحمد، وكان والده علي أحمد، أمين خزانة دار إبراهيم باشا ابن محمد علي، وقد بدأ أحمد نجيب تعليمه بالمدارس المصرية ثم اختير عضوًا في البعثة العلمية الرابعة التي أرسلت إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، والتحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس في تلك السنة نفسها وجعل رياستها لوزير الحربية الفرنسية الذي خول حق تعيين ناظرها وأساتذتها، وكان التحاقه بهذه المدرسة بالفصل الثاني وبدأ دراسته في ١٠ من يونية عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٢٥٠ قرشًا، وبقي في فرنسا لتلقي العلم

مدة طويلة حتى بعد إلغاء المدرسة الحربية المصرية، ولم يتم علومه إلاّ في عهد الخديوي إسماعيل، ومن فرنسا ذهب إلى الأستانة، والتحق بخدمة الدولة العثمانية حتى بلغ رتبة رفيعة تولى خلالها بعض الولايات، ثم استدعاه الخديوي إسماعيل إلى مصر، وعينه في وظيفة كبيرة لم يبق فيها غير عام واحد أدركته المنية في نهايته بعد منحه رتبة الباشاوية.

وأصل أسرته من شبه جزيرة المورة في جنوب اليونان، وتدعى أسرة عبد الباقي بك وجاء بالمصادر التاريخية أن أحمد نجيب باع ميراثه من والده، وهو عبارة عن عزبة تدعى عزبة القصبجي بمديرية الجيزة (محافظة الجيزة حاليًّا).

٣٤٠- أحمد نديم - حارة - بقسم الرمل

تَعَلم أحمد نديم في المدارس المصرية، ثم وقع عليه الاختيار ليكون بين طلبة البعثة الثانية التي أرسلت إلى النمسا في عهد سعيد الأول، فسافر إلى مدينة «ميونخ» بمقاطعة بافاريا، وكانت إحدى مقاطعات إمبراطورية النمسا في ذلك الحين، وبدأت دراسته في هذه المدينة في إبريل عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) لتعلم العلوم الصحية، وكان مرتبه الشهري ٧٠ قرشًا، وكان مرتبًا لوالدته بمصر ٤٠ قرشًا تتقاضاها بتوكيل من ابنها حسن أفندي حسين الطوبجي بالقلعة، وظل أحمد نديم يتعلم بميونخ إلى أن نقل هو وأفراد بعثته إلى فرنسا، فأتم علومه هناك بعد أن ظل بالنمسا إلى أواخر أغسطس عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ)، ولدى عودته إلى الوطن عُيِّن مدرسًا بمدرسة الطب.

ولم تطل حياته فتوفى في ريعان رجولته أثناء عهد الخديوي إسماعيل في سنة لم يعرف تحديدها.

٣٤١- أحمد يوسف - شارع - بقسم الرمل

كان أحمد يوسف أحد طلاب البعثة الثالثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) وكان عمره وقتئذ عشرين عامًا، فيكون قد ولد بالقاهرة خلال عام ١٢٢١هـ (١٨٠٦م) وقد تخصص في العلوم الكيميائية، وكان راتبه الشهري أثناء البعثة مائة قرش أي جنيه واحد، وعاد إلى مصر بعد إتمام دراسته في أوائل شهر يونية عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) وعُيِّن بدار سك النقود «الضربخانة» وترقى في وظائف هذه الدار إلى أن صار مديرًا لها، وقد سافر إلى «فازوغلي» للبحث عن الذهب ثم زار مناجم بلاد المكسيك بأمريكا الوسطى، ولا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق.

هذا ما يمكن استنتاجه من هذا الاسم إذا لم يكن الشارع قد سمّي باسم أحد سكانه، أو أحد ملاك عقاراته على غرار كثير من التسميات لشوارع الإسكندرية منذ زمن غير بعيد.

٣٤٢- الأحنف - حارة - بقسم اللبان

الأحنف لقب عرف به صخر بن قيس، وكان يعرف أحيانًا بالضحّاك، ويكنى بأبي بحر، ويرجع نسبه إلى مُرّة بن عبيد، وهي بطن من بطون تميم، وكانت قبيلة مُرّة تفخر بأن الأحنف من أبنائها، وكان التميميون من أهل البصرة يعدونه من أعلامهم، وأمه من أوْدين معن الباهلي، وكان المثل يضرب به في الحلم والحكمة.

وقد ولد الأحنف في الجاهلية، وكان في طفولته ضعيف البنية أحنف الرجل يطأ على وحشيها ومن ثَمَّ شقت رجله،

ومع ذلك قضى حياته أحنفًا (أي ملتوي الرجلين)، وذهبت عينه عند فتح سمرقند وقيل أنه فقدها نتيجة لإصابته بالجدري، وكان متراكم الأسنان، صغير الرأس، مائل الذقن، وقد قتل عنترة بن شداد العبسي الفارس المشهور جدّه معاوية بن حصين في يوم الفروق، وهو أحد أيام وقائع العرب المشهورة.

وكان الأحنف من سادة التابعين، وأدرك النبي الكريم، ولم يصحبه، وشهد بعض الفتوحات التي منها قاشان والنمرة، وعندما أتى النبي بني تميم يدعوهم إلى الإسلام كان الأحنف فيهم، عندما أحجموا عن الاستجابة لدعوة رسول الله قال لهم الأحنف: إن رسول الله يدعوكم إلى مكارم الأخلاق، وينهاكم عن ملائمها، فأسرع بنو تميم إلى الدخول في الإسلام وأسلم الأحنف، ولم يفد بعد ذلك على النبي فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة (انظر مادة ابن الخطاب) وفد عليه وصار من جملة التابعين وأكابرهم، وكان سيد قومه موصوفًا بالعقل، والدهاء والعلم والحلم، وروي الحديث عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وروى عنه الحسن البصري، وأهل البصرة، وشهد مع علي ابن أبي طالب وقعة صفِّين، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين.

وكان جريئًا لا يخشى في الحق لومة لائم، فعندما استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بالخلافة دخل عليه الأحنف فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدْن من الحرب فِترًا نَدْنُ منها شبرًا، وإن تمشي إليها، نهرول إليها، ثم قام وخرج، ولما سألت أخت معاوية من هو هذا الرجل الذي يهدده قال: «هذا هو الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم، وهم لا يدرون سبب غضبه».

ولما نصّب معاوية ولده يزيد لولاية العهد أجلسه في قبة حمراء، وأخذ الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد حتى جاء رجل منافق فقال يا أمير المؤمنين: اعلم أنك لو لم تولّ ابنك أمور المسلمين لأضعتها، وكان الأحنف جالسًا، فقال له معاوية: ما بالك لا تقول شيئًا، فقال: «أخاف الله إن كذبت، وأخافك إن صدقت»، ويعني هذا أنه لم يكن يرى في يزيد ما كان يراه فيه هذا المنافق من الصلاح لولاية العهد.

ومن حِكَم الأحنف قوله: «خصّني الله بخصال ثلاث ما أقولها إلا ليعتبر معتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلاني بينهما، ولا أتيت باب ملك أو سلطان ما لم أدع إليه، وما حللت حبوتي إلى ما يقول الناس إليه»، ومن حكمه المأثورة قوله: «ما خان شريف، ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن»، وقوله: «ما ادخر الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء أفضل من اصطناع معروف عند ذوي الإحسان والآداب»، وقال: «كثرة الضحك تُذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة ومن لزم شيئًا عُرف به».

وكان مشهورًا بالحكم، وقد سئل عنه فقال: الذل مع الصبر، وكان يقول كلامًا عجب الناس من حلمه: إني لأجد ما تجدون ولكني صبور، وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال.

ولم يبرز ذكر الأحنف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد كان له شأن كبير في فتح بلاد

فارس، إذ اشترك أولاً في القتال تحت قيادة أبي موسى ففتح في عامي ٢٣ و ٢٩هـ (٦٤٤ – ٦٤٩م) قاشان وأصفهان متخذًا بلدة قمّ قاعدة له، ثم اشترك في القتال عام ٢٩هـ تحت قيادة عبد الله بن عامر الذي عهد إليه فتح خراسان ابتداء من عام ٣٠هـ (٦٥٠م)، فقاد الأحنف طليعة الجيش وكان من أنشط القواد وأكثرهم جلدًا، وهو الذي فتح قوهستان وهراة ومرو ومرو الروذ وغيرها من البلاد، وقد أطلق اسمه مدة طويلة على حصن بالقرب من مرو الروذ فكان يسمى «قصر الأحنف» تمجيدًا له، كما سمي موضع بقرب الحصن «رستاق الأحنف».

ومن جهة أخرى قاد الأحنف جيوشه إلى طُخارستان، وهي بلاد وعرة المسالك، وباءت محاولته في الحيلولة دون فرار يُزدجرد الثالث ملك فارس بالفشل، وكان هذا الملك يتقهقر نحو أواسط آسيا، ولم يوفق أيضًا في حملته على خوارزم التي بدأها من بلْخ، إلا أنه كان صاحب الفضل في منع ملك فارس من تثبيت أقدامه في أي مكان، ومن إثارة الترك فيما وراء النهر على جيوشه، ومن جهة أخرى كان مضطرًا إلى حماية طريق حربي طويل محوط بالمخاطر.

وقد أنيب فترة من الزمن في حكم جزء من خراسان، وأما عن اتجاهه السياسي فقد أجاز عليًّا بن أبي طالب في نزاعه مع السيدة عائشة أم المؤمنين، ولكنه لم يستطع حمل التميميين على مناصرة الإمام علي، ومع ذلك فقد أعانه في وقعة الجمل بأن جعل تميميي البصرة يقفون موقف الحياد خلال هذه الوقعة التي حدثت عام ٣٦هـ (٦٥٦م) وكان عدد هؤلاء التميميين البصريين حوالي أربعة آلاف مقاتل، ويقال إن الأحنف كان أول أهل البصرة الذين دانوا للإمام علي بالطاعة عقب انتصاره فيها، وقد انحاز كذلك إلى جانب الإمام في وقعة صفّين عام ٣٧هـ (٦٥٧م)، ويُذكر أنه عارض في اختيار أبي موسى الأشعري للتحكيم.

وقد فطن الأمويون فيما بعد إلى خطر الأحنف بين قبيلته تميم فكان أحد الرجال المبرزين الذين استدعاهم معاوية بن أبي سفيان إلى دمشق عام ٥٦هـ (٦٧٥م) لحملهم على مبايعة ابنه يزيد كوليّ للعهد، وقد عبر عن نفوره من هذه المبايعة بقوله المأثور المتقدم الذكر «أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت».

واستغل نفوذه بعد ذلك في حمل التميميين بالبصرة على الوقوف موقف التحفظ حيال بني «أزد» الذين كانوا قد هاجروا إليها آنذاك في جماعات كبيرة، وترتب على ذلك قبول الأزديين عون بني ربيعة حتى أنه لما نشبت الخصومة المهلكة بين قبيلة مُضر – ومنهم بنو تميم وبني ربيعة ومنهم بنو أزد – انضم بنو أزد إلى بني ربيعة نتيجة لسياسة الأحنف الخاطئة.

وفي أثناء الاضطرابات التي أعقبت وفاة الخليفة يزيد الأول والتي حاول فيها عبيد الله بن زياد والي العراق أن يحصل على البيعة بالخلافة لنفسه والتي تحول التميميون في خلالها إلى عبد الله بن الزبير، بعد أن كانوا قد بايعوا عبد الله بن زياد، في هذه الاضطرابات ظن الأحنف أنه يستطيع ردهم إلى زياد، ولكنه أخفق في سعيه هذا، وكانت النتيجة أن سعى عبد الله بن الزبير إلى التحالف مع بني أزد فعاونهم في حربهم مع بني تميم التي نشبت في طرقات البصرة إثر وقوع حوادث الشغب، وقد أحجم الأحنف عن الاشتراك في هذه الحرب

غاضبًا، ولكنه اضطر إلى تنظيم الدفاع في وجه قوات بني أزد وبكر، وعبد قيس المتحالفين، وكان معظم اهتمامه منصرفًا إلى التوفيق بين القبائل التي تقطن البصرة وحملها على تناسي الأحقاد، وتضافر رجالها قدر المستطاع على الوقوف في وجه عدوها المشترك وهو «الخوارج» وكانت أعز أمانيه القيام بعمل حاسم ضد هذه الفرقة، ولذلك عمل على التفاوض في الصلح قبل أن تنشب معركة حامية في سوق البصرة الكبيرة وكان كل من الفريقين قد اختار موقفه استعدادًا لها.

ومع أن الشروط التي طلبها العدو كانت مجحفة إلى حد كبير، إذ كان على التميميين بمقتضى هذه الشروط أن يدفعوا الفدية عن جميع الأرواح التي أزهقت في الحروب السابقة، فإن الأحنف قبلها ودفع جزءًا من الفدية من ماله الخاص، وكان اغتباطه عظيمًا عندما قام بنو تميم بتعهداتهم وعاد الهدوء ظاهريًّا إلى البصرة.

وفي عام ٦٥هـ (٦٨٤م) طالبه أهل البصرة بالسير لمحاربة الأزارقة، ولكنه أحالهم على المُهلّب وقال أنه أكفأ منه لهذه المهمة، وفي عام ٦٧هـ (٦٨٦م) اشتد في مقاومة المختار، وقاد كتيبة بني تميم في حملة مصعب على الكوفة مقر المختار الشيعي، ومن ثَمَّ يتضح موقفه المعادي للشيعة.

وتوفي الأحنف بعد ذلك بأمدٍ قصير وقد عمّر طويلاً، ولم يعقب ولدًا ودفن بالكوفة، وقد خلّد التميميون ذكراه باعتباره من أعظم زعمائهم، كانت للأحنف مشاركة في الشعر، ولكن شهرته العالية ترجع إلى فطنته التي تتمثل في عدد كبير من الأقوال المأثورة، والحكم التي أصبح بعضها مضرب الأمثال، وهو يقارن في حلمه بمعاوية بن أبي سفيان حتى لقد صار هذا الحلم مضرب الأمثال أيضًا، ومن ثَمَّ المثل القائل: «أحكم من الأحنف، وأحلم من الأحنف».

٣٤٣- الإخشيد - زقاق - بقسم الجمرك

دولة الإخشيد دولة مصرية عرفت بهذا الاسم، وهو من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس، وقد استميل الخليفة العباسي الراضي بالله الذي دام حكمه من عام ٢٩٧هـ إلى ٣٢٩هـ (٩٠٩ - ٩٤٠م) إلى منحه لمؤسس هذه الدولة في مصر محمد بن طغج عام ٣٢٦هـ (٩٣٧م).

وكان اسم الإخشيد لقبًا لأمراء فرغانة القدماء الذين يزعم الإخشيديون أنهم من نسلهم، ويقال أن لفظ الإخشيد معناه (ملك الملوك) ويذكر آخرون أن معناه «عبد» ومن ثَمَّ يحتمل أن يكون قد استعمل كلقب شرف على غرار لقب «عبد الله» الذي استعمله الخلفاء على أنه من ألقاب الشرف.

وكان والد محمد بن طغج الإخشيد وكذلك جده من خدمة الخلفاء العباسيين، أما هو فقد تدرج في المناصب الرفيعة مرتبة بعد أخرى وذلك بمعاونة الوزير الفضل بن جعفر أحد أفراد أسرة ابن الفرات (انظر هذه المادة) الشهيرة.

ولدى تكوينه الدولة الإخشيدية في مصر استطاع القضاء على عوامل المنازعات والقلاقل، وقد حدث هذا التكوين عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م)، قبيل الغزو الفاطمي، وظلت مصر تحت الحكم الإخشيدي إلى عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) أي حوالي ٣٤ عامًا، قضى القائد جوهر (انظر هذه المادة) في نهايتها على هذه الدولة.

وإذا كان محمد بن طغج قد عهد إليه بالولاية على مصر عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م)، فإنه لم يؤسس دولته إلا عند قيامه بهذه الولاية في المرة الثانية خلال عام ٣٢٦هـ (٩٣٧م)، وكان عليه أن يوطد دعائم ملكه، وأن يتخذ العدة لمواجهة الأمير القوي محمد بن رائق الذي كان قد وصل في زحفه إلى مشارف مصر، ثم كفّ عن زحفه وترك الأمر في أيدي الإخشيد حتى الرمله، وذلك في مقابلة جزية سنوية تعهد الإخشيد بدفعها.

غير أن النزاع لم ينته عند هذا الحد، فبعد مضي خمس سنوات اضطربت الأمور من جديد، وحدثت موقعة اللحون بين الإخشيد وابن رائق، ولكن النزاع انتهى بالصلح والمصاهرة، وقبول الإخشيد دفع جزية سنوية قدرها ١٤٠ ألف دينار.

وعند وفاة ابن رائق كان على الإخشيد أن يواجه خصمًا جديدًا من أسرة بني حمدان، ولكن الإخشيد كان قد بلغ ذروة قوته لدرجة أنه اشترك في المنافسة للحصول على لقب أمير الأمراء.

وكانت الدولة العباسية قد ضعفت في ذلك الحين إلى حد بعيد، وذلك إثر تنازع السلطة في بغداد بين توزون والبريدي اللذين كانا من قواد الأتراك، ومن ثَمَّ لم يجد الخليفة العباسي بدًّا من الاستنجاد بالإخشيد أقوى ولاته في ذلك الحين، وسار الخليفة «المتقي» إلى الشام والتقى بالإخشيد قرب الرقّة في شهر المحرم عام ٣٣٣هـ (سبتمبر ٩٤٤م)، وفكر حينذاك في أن يقاسم الخليفة مصيره في قتاله مع توزون التركي الذي كان حكم بغداد الحقيقي في قبضة يده، ولكنه عدل عن ذلك وعرض على الخليفة البقاء معه في الشام، أو الذهاب إلى مصر.

ودارت المفاوضات في هذا الصدد بين الإخشيد وتوزون الذي تعهد بحماية الخليفة «المتقي» وعندها عاد هذا الخليفة التعس إلى بغداد بعد رجوع الإخشيد إلى مصر، ولم يرع «توزون» لعهده حرمة فقد سمل عيني الخليفة، وحبسه أعمى، ثم قتله.

وجاء بنو بويه إلى بغداد لنصرة الخلافة العباسية ومن ثَمَّ أصبح الخليفة ألعوبة في أيديهم يأمرونه فينفذ أوامرهم دون معارضة.

وعقب عودة الإخشيد إلى مصر كان عليه أن يبدأ نضاله مع سيف الدولة الحمداني (انظر مادة سيف الدولة) وهو النضال الذي انتهى بمعاهدة نص فيها على بقاء دمشق في حوزة الإخشيد في مقابلة جزية مالية يقوم بدفعها سنويًّا.

وتوفي الإخشيد في شهر ذي القعدة عام ٣٣٤هـ (يوليو عام ٩٤٦م)، وخلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط لأن السلطة الحقيقية الفعلية كانت في يد الخصي الحبشي كافور الذي ولاّه الخليفة العباسي على مصر بعد وفاة ولدي الإخشيد (انظر مادة الإخشيدي) وهما أبو القاسم أونوجور وأبو الحسن علي.

وعند وفاة كافور نودي بابن صفير من أبناء الإخشيد واليًا على مصر، ولكن الدولة الإخشيدية كانت قد فقدت تماسكها، فوقعت مصر وبلاد الشام لقمة سائغة في أيدي الفاطميين الذين وفدوا إليها من شمال إفريقيا (انظر مادة الفواطم).

وفيما يلي أسماء أمراء الدولة الإخشيدية وتواريخ توليهم حكم مصر: محمد بن طغج الإخشيد عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م)، وأبو القاسم أونوجور بن الإخشيد عام ٣٣٥هـ (٩٤٦م)، وأبو الحسن علي بن الإخشيد عام ٣٤٩هـ (٩٦٠م)، وأبو المسك كافور (سلطان بالاسم والفعل) عام ٣٥٥هـ (٩٦٦م)، وأبو الفوراس أحمد بن علي عام ٣٥٧هـ (٩٦٨م).

وما من شك في أن محمد بن طغج الإخشيد، وأبا المسك كافور كانا من الشخصيات البارزة في التاريخ، وقد وصف الإخشيد بالقوة الجسمانية، كما وصف بالجبن والجشع والنهم، فكان من يقطن مصر في عهده لا يأمن على ماله، ومع ذلك فقد نسبت إليه بعض الصفات الحميدة.

ويظهر أن أبا المسك كافور كان يفضل الإخشيد لأنه على الرغم من دمامته استطاع بفضل ذكائه أن يشق لنفسه طريقًا فريدًا ولا سيما في مثل هذا العهد، ويدل على ذلك ارتقاؤه من مكانة العبد الأسود الخصي إلى صاحب السلطة، والسلطان الحقيقي في الدولة، وعلى الرغم من السؤدد الذي حصل عليه فإنه كان لا ينسى أصله الوضيع حتى في أيام بلوغه ذروة المجد، ومحامده التي ذكرها المؤرخون تفوق مثالبه.

ويذكر التاريخ أن كلاًّ من الإخشيد، وتابعه كافور لم يدخرا وسعًا في إحاطة الأدباء، والشعراء والمفكرين بالرعاية الحادبة، وقد أطنب أبو الطيب المتنبي (انظر مادة المتنبي) في مدحهما، ثم أفحش في هجائهما بعد ذلك.

وفي عهد الإخشيد نفسه بدأ الصراع المرير بين الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية. . . وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال، فقد سادها الاضطراب والفوضى، وانتقصت أطرافها، واقتطعت منها دويلاتها، وثار عليها ولاتها في مختلف الأقاليم، وكثرت الإغارات عليها من أعدائها، وصار الخليفة العباسي أشبه شيء بالألعوبة الصبيانية في أيدي بني بويه الذين دامت سيطرتهم على شؤون الدولة ومصائرها من عام ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ (٩٤٥ – ١٠٥٥م)، وكانوا من غلاة الشيعة الذين استنجد بهم الخليفة العباسي لمعاونته، وتخليصه من ظلم الأمراء، ومن ثم اضمحلت سلطة الخليفة كلية، ولم تعد قائمة إلا في الخطبة أيام الجمع وفي سك النقود وذلك بسبب تمسك الأمراء بالاحتفاظ بسلطانهم لدى الأهلين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم، وهذا ما حمل سلاطين بني بويه، والسلاجقة على إظهار الخلفاء العباسيين أمام الناس بمظهر القوة، والقداسة الدينية، لأنهم يعلمون أن نفوذهم وسيطرتهم مستمدان من الخليفة ومن مكانته الروحية عند السكان.

وإزاء هذه الحالة من الضعف والخور لم يعد للخليفة أمر البت في تعيين الولاة، فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر، وولوا خلال عام ٣٥٧هـ (٩٦٨م) أبا الفوارس أحمد بن علي حفيد الإخشيد عرش مصر، وكان في الحادية عشرة من العمر.

واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن بن عبيد الله أخو الإخشيد هاربًا من القرامطة، فأقامه المصريون على الجيش، فاستبد بالأمر، وقبض على الوزير جعفر بن الفرات (انظر مادة ابن الفرات) واستولى على أمواله، ثم عاد إلى الشام.

وقد ظلت البلاد بعد رحيل أبي محمد الحسن إلى الشام عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) حوالي خمسة أشهر تحت إدارة جعفر ابن الفرات، وصلت في أثنائها إلى حالة من الفوضى، عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن، وتخفيف ما حل بالسكان من المصائب، والويلات.

ومن هذا كله يتضح أن حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر، وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام المعز لدين الله الفاطمي لغزو مصر على يد جوهر الصقلي (انظر مادة القائد جوهر).

٣٤٤- الإخشيدي - شارع - بقسم مينا البصل

هو كافور بن عبد الله الملقب بأبي المسك الإخشيدي نسبة إلى مولاه محمد بن طغج الإخشيد (انظر هذه المادة) الذي اشتراه عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) من محمود بن وهب بن عباس بمبلغ زهيد قدره ثمانية عشر دينارًا، وكان كافور خصيًّا شديد سواد البشرة، مترهل الجسم، دميم الخلقة، حاد البصر، براقه، وكان محمد بن طغج من كبار القواد عندما أقدم على شراء كافور، ويقول المقريزي في كتابه «حسن المحاضرة» إن كافور أُرسل إلى ابن طغج ضمن هدية، فتوسم فيه الذكاء، وأبقاه عنده وردَّ الهدية إلى صاحبها.

وعندما آلت ولاية مصر إلى ابن طغج الإخشيد، وكوّن الدولة الإخشيدية عام ٣٢٦هـ (٩٢٧م) ارتقى كافور في بلاطه، إذ اختصه من بين عبيده بثقته، وجعله أتابك ولاية أبي القاسم أنوجور (أي محمود) وأبي الحسن علي، والأتابك لقب تركي معناه «مربي الأمير - أو أبو الأمير».

ويظهر أن توسم، ابن طغج الإخشيد الذكاء، والهمة في كافور كان له ما يبرره فقد أبدى هذا الرجل من النجابة والفطنة بعد ذلك ما جعله يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويقول بعض مؤرخي سيرته إن ابن طغج الإخشيد قال: «والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد».

ولما توفي ابن طغج الإخشيد ٣٣٤هـ (٩٤٦م) خلفه ابنه أبو القاسم أنوجور (أي محمود) وسرعان ما قبض كافور على زمام الأمور في كافة البلاد الخاضعة للحكم الإخشيدي وهي: مصر والشام والحجاز، واستهل حكمه بالقضاء على عوامل الثورة التي شنها المصريون ضده، ثم توصل عقب ذلك إلى طرد سيف الدولة الحمداني (انظر مادة سيف الدولة) من دمشق، وحال بذلك دون زحفه على مصر.

وفي هذه المعركة استولى المصريون على غنائم هائلة دلت على انتصارهم الحاسم، وكان من نتائج هذا الانتصار رفع شأن كافور في نفوس المصريين فأضفوا عليه لقب «الأستاذ»، ودعوا له على المنابر في مساجد مصر، والشام، والحجاز باسم أبي المسك كافور وهي كنية في طياتها التلميح لأن المسك أسود، وقد لقبه بها الخليفة العباسي عقب ذلك.

واكتسب هذا العبد محبة رجال الدولة، وجميع قواد الجيش بما أغدقه عليهم من الهبات، والعطايا السابقة، ومن ثَمَّ استطاع بسط سلطانه، وسيطرته على كافة شؤون الدولة.

وكان من نتائج هذه السيطرة العامة أن ظهرت الوحشة بين كافور وبين «أنوجور» وأخذ كل منهما يعمل على الإيقاع بالآخر بغية التخلص منه، وترتب على ذلك انقسام الجند إلى فريقين: الإخشيدية والكافورية.

وفي شهر ذي القعدة عام ٣٤٩هـ (٩٦٠م) توفي أبو القاسم أنوجور، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافور قد دبر أمر وفاته بالسم.

وفي ذلك العام نفسه أقام كافور أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيد على الملك، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة وعشرين، فصار خاضعًا لإرادة كافور لا يملك من الحكم شيئًا، ومن ثَمَّ استبد كافور بالشؤون دونه، وعين له مرتبًا سنويًّا قدره أربعمائة دينار، وهو نفس المرتب الذي كان لأخيه أبي القاسم أنوجور، وعلاوة على ذلك منع الناس من الدخول على الأمير الشاب الجديد، أو الاتصال به في أي شأن من شؤون الدولة.

وكان من جراء هذه الوحدة القاتمة أن مرض أبو الحسن بالعلة نفسها التي قضت على أخيه التعس ومات كمدًا لحرمانه من سلطته الشرعية في شهر المحرم عام ٣٥٥هـ (٩٦٥م)، ولما يبلغ الثامنة والعشرين من العمر.

وفي هذا التاريخ نفسه رفض كافور تنصيب ابن أبي الحسن علي في مكان والده الشرعي بحجة صغر سنّه، وبعد أن ظلت مصر بغير أمير عدة أيام، نشر كافور على الناس (في شهر محرم عام ٣٥٥هـ) كتابًا من الخليفة المطيع العباسي بإقامته واليًا على مصر، والأقطار التي تحت سلطانها.

ويظهر أن كافور أحسّ بأن وضعه الاجتماعي الوضيع لا يسمح بأن يضفي على نفسه لقب الأمير فاقتنع بأن يدعى «الأستاذ» استمرارًا بما كان يدعى به قبلاً، واكتفى بأن يدعى له بعد الخليفة العباسي على منابر مساجد مصر، والشام، والحجاز، وكان اسمه يذكر قبل ولايته بعد الخليفة والوالي، واتخذ أبا الفضل ابن الفرات وزيرًا له (انظر مادة ابن الفرات).

ولم يكد كافور يستقر على ولاية الحكم عام ٣٥٥هـ (٩٦٥م) حتى أرسل المعز لدين الله الفاطمي (انظر مادتي المعز والفواطم) جيشًا لغزو مصر، ولكن عندما وصلت جنوده إلى الواحات عن طريق الصحراء جهز كافور جيشًا تمكن من ردهم على أعقابهم بعد أن قتل عددًا كبيرًا منهم.

ومن الغريب، بل من التناقض المدهش أن يحسن كافور استقبال الدعاة الفاطميين بعد هذا الانتصار، وأن يستقبلهم في بلاطه موفدين من قبل المعز لدين الله، داعين له بأن يدخل في طاعة خليفتهم الشيعي.

ولقد ترتب على هذا الاستقبال ميل الكثيرين من الكتّاب، والمفكرين، والجنود الإخشيدية والكافورية إلى المذهب الشيعي الفاطمي، ويتضح من ذلك أن فكرة تحويل الدولة من عباسية إلى فاطمية كانت قد اختمرت في نفوس طائفة كبيرة من المصريين منذ ذلك الحين الذي سبق الغزو الفاطمي للبلاد.

وما من شك في أن الحالة السيئة التي سادت البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت إلى حد بعيد على زوال السلطة الإخشيدية في سرعة لم تكن متوقعة، فالبؤس، وغلاء المعيشة خيما على القطر المصري في سحابة قاتمة، والمحن توالت عليه، وكان أشدها وقعًا انخفاض فيضان النيل سنين متوالية منذ عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) فانتشر القحط، وتفشى الوباء، واشتد الغلاء بكيفية لم يعرفها المصريون من قبل، واجتاح الموت المدن والقرى بدرجة عجز الناس معها

عن تكفين ودفن موتاهم حتى قيل أن جثث الموتى كانت تلقى في النيل لكثرتها، ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف وهذا رقم يدل على كثير من المبالغة، وإن كان يخبّر عن تلك المأساة الحزينة التي اجتاحت مصر في ذلك العهد المشؤوم.

يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام عام ٣٥٢هـ (٩٦٣م)، ثم هاجموا الحجاج المصريين في طريقهم إلى مكة خلال عام ٣٥٥هـ (٩٦٥م)، ونهبوا أموالهم، ومتاعهم، ثم عجزوا من جهة أخرى عن الدفاع عن جنوب مصر عندما أغار عليه النوبيون لدرجة أن ملكهم امتد حتى مدينة أخميم في الصعيد.

وزاد الطين بلّة ما حدث من اضطراب وفوضى في دواوين الحكومة بسبب عجز كافور عن دفع مرتبات حرسه، وغلمانه، فتنكروا له، وثاروا عليه.

وتوفي هذا العبد الخصي الذكي في ٢٠ جمادى الأولى عام ٣٥٧هـ (٩٦٨م) بالغًا من العمر حوالي ٦٥ عامًا، ودفن في دمشق، وقد دام حكمه، وتوليه شؤون مصر، والشام، والحجاز قرابة ٢١ عامًا تاركًا مصر في حالة من الفوضى والاضطراب البالغين حد الخطورة، ويقول ابن خلكان أنه دفن بالقاهرة في القرافة الصغرى.

وكان دخول عدد كبير من المصريين في المذهب الشيعي الفاطمي والأحوال السيئة البائسة التي تقدم ذكرها أقوى العوامل التي مهدت الطريق أمام جوهر الصقلي (انظر مادة القائد جوهر) لفتح مصر، والقضاء على السلطان العباسي فيها، ليحل محله السلطان الفاطمي الشيعي.

وفي عهد كافور الإخشيدي وفد أبو الطيب المتنبي على مصر، وكان قد غضب على سيف الدولة الحمداني، فشرع في مدح كافور بأحسن ما نظم من قصائد، ففي جمادى الآخرة عام ٣٤٦هـ (٩٥٧م) قال في مدحه:

قواصد كافور تَوارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه

وخلت بياضًا خلفها ومآقيا

وفي شوال عام ٣٤٧هـ (٩٥٨م) أطنب في مدحه بقصيدته البائية التي يقول فيها:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه

وإن لم أشأ تُملى عليّ فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه

ويمّم كافورًا فما يتغرّب

وفي هذه الأبيات من الملق الرخيص والنفاق المشين ما يدمغ المتنبي بالوصولية الذميمة ويظهر حقيقة شاعريته النفعية التي تقلّب بأسلوبها على بلاط الأمراء يستجدي إحسانهم، ويمدحهم بقدر ما يغدقون عليه من العطايا والهبات.

ومن ملقه الخسيس ونفاقه الذي لا يقف عن حد قوله في هذا الكافور العبد الخصي:

قضى الله يا كافور أنك أول

وليس بقاضٍ أن يُرى لك ثان

إلى أن يغالي في نفاقه فيرتفع بكافوره إلى أحد أصحاب المعجزات السماوية فيقول في هذه القصيدة نفسها:

لو الفلك الدوّار أبغضت سعيه

لعوّقه شيء عن الدوران

ولكن كافورًا لم يحقق مطامعه الجامحة في أن يكون واليًا على إحدى مقاطعات القطر المصري، فأغضبه الإخفاق في سعيه، وانقلب على ممدوحه يرميه بأشنع ما نظم من شعر الهجاء المقذع، فنراه يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا

وأسود مشفرة نصفه

يقال له أنت بدر الدُجى

ثم يغادر مصر في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة عام ٣٥٠هـ (٩٦١م) بعد أن ترك قصيدته «الدالية» التي كانت العامل الأساسي في تخليد اسم كافور عبر التاريخ على الرغم من أنها ترميه بأشنع الشتائم وأقبح الصفات: ومنها هذه الأبيات:

أكلما اغتال عبد السوء سيّده

أو خانه فله في مصر تمهيد؟

صار الخصيّ إمام الآبقين بها

فالحر مستعبد، والعبد معبود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمن، وما تفنى العناقيد

العبد ليس لحر صالح بأخ

لو أنه في ثياب الحر مولود

لا تشتري العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علّم الأسود المخصيّ مكرمة؟

أقوامه البيض أم آباؤه الصيد؟

أم أذنه في يد النخاس دامية

أم قدره، وهو بالفلسين مردود

٣٤٥- الأخفش - حارة - بقسم اللبان (عبد العزيز محمد حسن حاليًّا)

لقب الأخفش يطلق على كل من بعينه عشاء، وكل من لا رموش له، وقد أطلق هذا اللفظ على عدد من النحويين ذكرهم السيوطي (انظر هذه المادة) في كتابه «المزهر»، من بينهم ثلاثة كانت لهم شهرة واسعة النطاق، وفيما يلي تراجمهم:

١) أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد (الملقب بالأخفش الأكبر): تتلمذ على يد أبي عمرو بن العلاء، وقيل أنه كان أول من ساق الأشعار القديمة ووضع بين السطور شرحًا لها، وقد جمع عددًا كبيرًا من المصطلحات التعليمية، ومن أشهر

تلاميذه سيبويه، وأبو زيد، وأبو عبيدة، والأصمعي (انظر هذه المواد)، وكان من كبار علماء النحو.

وتوفي الأخفش الأكبر عام ١٧٧هـ (٧٩٣م)، وكان بينه وبين ابن الرومي مساجلات، وكان الأخفش يناكر دار ابن الرومي ويقول كلامًا يتطاير منه فهجاه ابن الرومي بقصائد كثيرة.

٢) أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي (الملقب بالأخفش الأوسط): كان أحد نحاة البصرة، ومن أئمة اللغة العربية، وقد أخذ علوم النحو عن سيبويه على الرغم من أنه كان يكبره سنًّا، وكان يقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئًا إلا وعرضه عليّ، ويقول إن سيبويه كان أعلم منّي بالنحو ولكني الآن أعلم به منه، والأخفش الأوسط هو الذي زاد في علم العروض بحر الخبب، وكان الخليل بن أحمد قد وضع البحور الأخرى (انظر مادة الخليل بن أحمد).

وقد ألّف الأخفش الأوسط كتاب «الأوسط في النحو»، وكتاب «تفسير معاني القرآن»، وكتاب «المقاييس في النحو»، وكتاب «العروض»، وكتاب «القوافي»، وكتاب «معاني الشعر»، وكتب: «الملوك»، و«الأصوات»، و«المسائل الكبرى»، و«المسائل الصغرى»، وغيرها من الكتب، ومن هذه المؤلفات الكثيرة يتضح أن الأخفش الأوسط كان أشهر النحاة الثلاثة الذين يحملون لقب «الأخفش».

وولد الأخفش الأوسط في مدينة بلخ، وتتلمذ على يد أبي شمر المعتزلي، ثم على يد سيبويه، وقد كان له الفضل في إذاعة كتاب سيبويه بين الناس.

وتوفي بين عامي ٢١٠ – ٢٢١هـ (٨٢٥ – ٨٣٥م)، ولم يبق من مؤلفاته العديدة شيء، وقد أفاد الثعالبي (انظر هذه المادة) من مصنفه «غرائب القرآن»، واستشهد البغدادي كثيرًا بمصنفه «المعاياه» في كتاب خزانة الأدب.

٣٤٦- اخوان الصفا – حارة – بقسم كرموز (شعبان عبد الله سفير حاليًّا)

٣٤٧- إخوان الصفا – شارع – بقسم كرموز

إخوان الصفا جماعة من المفكرين المسلمين ظهرت في أوائل عام ٣٧٣هـ (٩٨٣م) وهي جماعة سياسية دينية ذات نزعات شيعية متطرفة، ولعلها كانت تدين بمذهب الشيعة الإسماعيلية على وجه أصح أو بالشيعة الباطنية، واتخذ أعضاؤها البصرة مقرًّا لها، وأطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لأن غاية مقاصدهم كانت السعي إلى سعادة نفوسهم الخالدة بتضافرهم فيما بينهم، أو بغير ذلك من الطرق، ولاسيما بالعلوم التي تطهر النفوس، ولا يعرف شيء محدد عن نشاطهم السياسي، ولذا اختلف المؤرخون في شأنهم، أما نشاطهم في التهذيب النظري فيظهر جليًّا في سلسلة الرسائل التي أنتجوها وهي مرتبة ترتيبًا يجمع شتات العلوم، ويتمشى مع الأغراض التي قامت الجماعة من أجل تحقيقها، ويقال عادة أن هذه الرسائل قد جمعت ونشرت في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على وجه التقريب.

ولم يعن بهم أحد من علماء الشرق المحدثين قدر عناية لفيف من المستشرقين أمثال كاراديفو، مكدونالد، كازانوفا، ت. ج. دي بور، وغيرهم، مع أن هذه الجماعة كانت في الطليعة من حيث ثقافة أعضائها الواسعة الآفاق، ومن حيث

تبسيطهم لمشكلات الفلسفة بتفكير إسلامي يحاول المزج بين الفلسفة والعقيدة.

ويبلغ عدد رسائل إخوان الصفا اثنتين وخمسين، وهذا العدد يتفق وما جاء في فهرس الموضوعات المثبتة في أول طبعتها ببومباي بالهند، كما يتفق مع آخر ما ورد في الرسالة الأولى منها، ويذكر من مؤلفيها: أبو سليمان محمد بن مشير البستي المشهور بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ومحمد بن أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعة، غير أن هذه الأسماء ليست محققة إذ يختلف المؤرخون بالنسبة إلى مؤلفي الرسائل، فمن قال أنها من تصنيف بعض علماء المعتزلة ومن قال أنها من كلام بعض الأئمة من نسل علي ابن أبي طالب أمثال أحمد بن عبد الله حفيد جعفر الصادق، كما زعم آخرون أنها من تأليف الحكيم المجريطي بينما يؤكد غيرهم أن رسائل المجريطي لم تكن إلا شرحًا لما كان مبهمًا من رسائل إخوان الصفا.

وقد قيل إن هناك جماعة أخرى كانت تقيم في بغداد، وإنها كانت على صلة وثيقة بجماعة إخوان الصفا بالبصرة، ولكن هذا القول لا يستقيم مع مذهب أعضاء جماعة بغداد التي كان من أعضائها: أبو إسحق، وماني، وهما صابئان، ويحيى بن عديّ رئيس أساقفة كنيسة اليعقوبيين، ووجود هؤلاء في جماعة بغداد يرجح ما ذهب إليه بعض الرواة بأن الصلة كانت معدومة تمامًا بين الجماعتين.

هذا كل ما يستطاع الأخذ به من أقوال المؤرخين الذين تعرضوا لسيرة إخوان الصفا، إذ إن أعضاء هذه الجماعة كانوا يميلون إلى السرية في شؤونهم ويميلون إلى التعبير عما يجول بخواطرهم بأساليب غير صريحة.

ورسائل إخوان الصفا موسوعة فلسفية ضمت مبادئ العلوم التي كانت معروفة في ذلك العهد، وتشتمل على آراء جماعتهم في الله وفي العالم والنفس، والطبيعة، والجنة، والأخلاق، والعلم والتربية والنار، والفلك، والسحر، وكل هذه الآراء مستمدة من مؤلفات القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، ويلاحظ أن نزعتهم الفلسفية هي نزعة قدماء مترجمي الحكمة اليونانية، والفارسية، والهندية، وجامعيها الذين يأخذون من كل مذهب بطرف، وتتردد في هذه الرسائل أسماء فيثاغورث، وسقراط، وأفلاطون، وهرمس أكثر من أرسطو طاليس، ويعتبرون أرسطو طاليس منطقيًّا ومؤلفًا لكتاب «أثولوجيا» الأفلاطوني وكتاب «التفاحة»، وليس في آرائهم الفلسفية المشائية الحقيقية التي بدأت بظهور الكندي، ومن خصائص نزعتهم الفلسفية أنهم لم يأخذوا شيئًا من فلسفة الكندي غير أنهم أخذوا من أحد تلاميذه الذين انحرفوا عن مذهبه وهو المنجم البهرج أبو معشر المتوفى عام ٢٧٢هـ (٨٨٥م).

والمحور الذي تدور عليه رسائلهم هو فكرة الأصل السماوي للأنفس، وعودتها إلى الله، وأن العالم صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم، أو الضوء عن الشمس، فغاض عن وحدة الله بالتدرج كل من: العقل، ومن العقل، النفس، ثم المادة الأولى، ثم عالم الطبائع، ثم الأجسام، ثم عالم الفلك، ثم العناصر، ثم ما يتركب منها وهي، المعادن والنبات، والحيوان، والمادة في الفيض المنبعث عن وحدة الله تبدو أساسًا للتشخيص ولكل شر ونقص، وليست النفوس الفردية إلا أجزاء من النفس الكلية، تعود إليها مطهرة بعد الموت كما ترجع النفس الكلية إلى الله ثانية يوم الميعاد،

والموت عند إخوان الصفا يسمى البعث الأصغر، بينما تسمى عودة النفس الكلية إلى بارئها البعث الأكبر.

ويذهبون إلى أن الأديان كلها في جميع العصور، وعند جميع الناس يجب أن تتفق وهذه الحكمة، وغرض كل فلسفة، وكل دين هو أن تتشبه النفس بالله قدر استطاعة الإنسان.

وقد أوّل إخوان الصفا القرآن تأويلاً رمزيًّا لكي يتمشى مع هذا القصور الروحي للأديان كما أوّلوا بعض القصص غير الدينية تأويلاً رمزيًّا مثل قصص «كليلة ودمنة».

وقد كتبت رسائلهم الاثنتان والخمسون في أسلوب مسهب فيه تكرار وحضّ على الفضيلة، وهي تشبه في مجموعها موسوعة في العلوم المختلفة، والجزء الأول منها يضم أربع عشرة رسالة، تعالج مبادئ الرياضيات والمنطق ويشمل الجزء الثاني سبع عشرة رسالة، تتناول العلوم الطبيعية بما فيها علم النفس، وتبحث الرسائل العشر التي يتضمنها الجزء الثالث «الميتافيزيقا»، أي علم ما وراء الطبيعة، وتتناول الرسائل الإحدى عشرة الباقية التصوف، والتنجيم، والسحر.

٣٤٨- أدريان - شارع - بقسم محرم بك (طلعت محمود يحيى حاليًّا)

هو الإمبراطور الروماني «أدريان Adrien» أو «هادريان Hadrien» كما تذكره المراجع التاريخية الكثيرة، وقد ولد بمدينة روما عام ٧٦ الميلادي، وحكم الإمبراطورية الرومانية من عام ١١٧ إلى عام ١٣٨م، وقد تبناه الإمبراطور «تراجان Trajan» (انظر هذه المادة) فحكم البلاد بعده، ويعزى إليه الفضل في الاستقرار الذي ساد الإمبراطورية طوال عشرين عامًا، مما أدى إلى حالة الرخاء التي عمتها، وكان «أدريان» من مشجعي الصناعات والآداب والفنون إلى أبعد حد مستطاع، وقد أصلح أساليب الأعمال الإدارية وقوَّمها وشيد بمدينة روما الحاجز المسمى باسمه، والذي يقام فوقه الآن قصر «القديس آنج» أي «الملاك القديس»، وحمى الإمبراطورية الرومانية من هجمات الغزاة، وذلك بإقامة الحصون المنيعة الكثيرة العدد في ألمانيا وإنجلترا، وفي عام ١٣١م أصدر المرسوم الدائم الذي يتضمن مجموعة من التشريعات القضائية، وقد أعده المشرّع الشهير «سالفيوس جوليانوس Salvius Julianus»، وظل هذا المرسوم ساري المفعول في جميع أنحاء الإمبراطورية حتى عهد «جوستنيان Justinien» (انظر هذه المادة)، وقضى الإمبراطور «أدريان» السنوات الأخيرة من حياته في قصره «أدريانا» يحيط به الشعراء والفنانون، ومات عام ١٣٨م، بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا.

أما صاحب اسم الشارع الجديد فاطلب ترجمته في «طلعت محمود يحيى».

٣٤٩- الإدريسي - شارع - بقسم كرموز

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي وهو سليل أسرة بني حمُّود الملوكية البربرية التي حكمت جنوب الأندلس ومينا سِبْتة الواقع في شمال مراكش وذلك في العشرات الأولى من القرن الخامس الهجري، وسمي بالشريف لأنه يمت بالنسب إلى أسرة الأدارسة التي حكمت المغرب العربي

منذ أوائل القرن الثاني الهجري وكان مؤسسها مولاي إدريس الأول ابن عبد الله بن الحسن أحد أحفاد علي بن أبي طالب، وقد ولد الشريف الإدريسي بمينا سبتة عام ٤٩٣هـ (١٠٩٩م)، وكانت هذه المدينة البحرية التي لعبت دورًا هامًّا في تاريخ المغرب والأندلس والتي تعتبر اليوم أرضًا إسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية وتحتلها إسبانيا منذ أربعة قرون، كانت مقصدًا لعدد كبير من علماء الأندلس والمغرب ومن أشهر هؤلاء العلماء الإدريسي والقاضي عياض بن موسى السبتي (انظر القاضي عياض) أعظم حفاظ المغرب بلا مراء.

ويعرف من إشارات وردت في مؤلفه أنه درس في معاهد الأندلس ولاسيما في قرطبة؛ ولذا لقب بالقرطبي، وكانت الأندلس في ذلك الحين تحت حكم المرابطين سادة المغرب، ويعرف من تلك الإشارات أنه قام برحلات عديدة في شبه الجزيرة الإسبانية ووصل في رحلاته إلى مدينة لشبونة عاصمة البرتغال حاليًّا، وقد كانت وقتئذ ثغر ولاية الغرب الأندلسية، ثم زار شمال إسبانيا وشواطئ فرنسا مما يلي خليج غسكونيا ووصل في تجواله البحري إلى شواطئ إنجلترا الجنوبية، ثم عبر البحر بعد ذلك إلى المغرب وتجول في شماله وجنوبه فعاش بعض الوقت في إحدى ضواحي مدينة مراكش وذهب إلى مدينة قسنطينة الواقعة في الشمال الشرقي من القطر الجزائري، أما في المشرق فقد تجول في أسيا الصغرى (الأناضول) وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف.

وما من شك في أن هذه الرحلات العديدة كان لها أعمق الأثر في تكوين معلوماته الجغرافية التي ظهرت فائدتها العلمية في أبواب كثيرة من معجمه الجغرافي، ولقد لعب القدر في تطور حياة الإدريسي العلمية إذ نجده أحد المقربين في بلاط ملك جزيرة صقلية (انظر مادة صقلية) يمارس اتجاهًا ثقافيًّا باهر المعالم خصب الإنتاج، ومن المعروف أن هذه الجزيرة التي تتبع الآن جمهورية إيطاليا بقيت تحت حكم المسلمين ما يقرب من قرنين منذ افتتحها الأغالبة (انظر مادة ابن الأغلب) عام ٢٦٤هـ (٨٧٨م) وصارت في ظل دولتهم موطنًا مزدهرًا للعلوم والصناعة والتجارة ثم توالت عليها الحملات البحرية الإفرنجية حينما أدرك الوهن الدولة الأغلبية حتى استعادها الدوق «روجيه Roger» النورماندي عام ٤٦٤هـ (١٠٧٢م)، وانتهت عند ذلك التاريخ دولة الإسلام في الجزيرة، وقد حدثت هذه الاستعادة قبل ميلاد الإدريسي بتسعة وعشرين عامًا.

وعقب موت الدوق «روجيه» تولى حكم الجزيرة ولده «روجيه الثاني Roger II» ويسميه العرب «روجار»، وكان هؤلاء الحكام النورمنديون يتمتعون باتساع الأفق العقلي ويقدرون تفوق المسلمين الحضاري ويرغبون في الانتفاع بعلومهم وخبراتهم، ومن ثمَّ استطاعت الجالية الإسلامية في صقلية أن تعيش في كنفهم آمنة تمارس نشاطها الفكري والاجتماعي في حرية تامة وتقوم بشعائر دينها دون عائق، وفي ظل هذا التسامح المحمود دعا الملك النورمندي «روجيه الثاني» إلى بلاطه في بالرمو طائفة من العلماء المسلمين بينهم الصقليين المحليين والإفريقيين والمغاربة، وكان في مقدمتهم الشريف الإدريسى الذي لقب بعد استقراره بالجزيرة «بالصقلي».

ولا يعرف بالضبط تاريخ ورود هذا العالم الجغرافي الشهير على الجزيرة، غير أن حكم الملك «روجيه الثاني» بدأ عام ١١٠١م (٤٩٥هـ)، ومن المرجح إذن أن يكون الإدريسي قد وفد على بلاطه في المدة بين عامي ١١٣٠ و١١٤٠م (٥٢٥ – ٥٣٥هـ) أي قبل موت هذا الملك عام ١١٥٤م (٥٤٨هـ)

بحوالي ١٤ سنة أو ٢٤ سنة، وكان صيت الإدريسي كرحالة وعالم جغرافي قد سبقه إلى الجزيرة فرحب به الملك وحباه بعطفه ورعايته وعهد إليه بالمهمة العلمية الجليلة التي حققها بكتابه الخالد «المعجم الجغرافي».

وعكف الإدريسي على تأدية مهمته في جو من التفكير الحر المستنير وفي تعاون مثمر بين الشرق والغرب مرتفعًا بالقيم العلمية والأدبية إلى ما فوق الاعتبارات والمبادئ الرجعية الجامدة التي كانت تسود تلك العصور في كثير من البيئات، ومن ثمَّ نجده يتحدث عن الملك روجيه الثاني مبديًا إعجابه وإجلاله له فيقول: «وإن فضل ما عني به الناظر واستعمل فيه الأفكار والخواطر محاسن الملك العظيم روجار المعتز بالله المقتدر بقدرته، ملك صقلية وأنطاكية وانكبردة وقلورية، إمام رومية، الناصر للملة النصرانية، إذ هو خير من ملك الروم بسطًا وقبضًا»، ثم يستطرد الإدريسي فيشيد بعدل ذلك الملك وقوته وعلمه وسعة إدراكه.

ويذكر الإدريسي الظروف التي دعت الملك روجار إلى أن يعهد إليه بهذه المهمة الجغرافية الكبرى فيقول إن الملك لما اتسعت حدود مملكته أراد أن يعرف أقاليمها وطبيعة مسالكها وحدودها بحرًا وبرًّا وما بها من بحار وخلجان وجبال وأنهار، فأمر بإحضار كتب الجغرافيا العربية لتدرس بعناية وعندما تمت هذه الدراسة أمر بأن تعد كرة من الفضة الخالصة وتنقش عليها صور الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها.

ويلاحظ أن تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم كان أساس علم الجغرافيا في العصور الوسطى وقد سار عليه كافة علماء الجغرافيا المسلمين.

ولم يقصر الإدريسي في القيام بما كلف به على خير وجه ونقش فوق الكرة الفضية خريطته الشهيرة للعالم المعروف وقتئذ، وقد اشتهرت هذه الخريطة وصارت مصدر الكثير من الجغرافيين الأوربيين خلال العصور الوسطى ولاسيما العلامة البندقي مارينو سانونو الذي عاش في الفترة من عام ١٢٦٠ إلى ١٣٣٨م (٦٥٩ - ٧٣٩هـ) والذي استرشد بها في معظم خرائطه، ويقال إن الكرة لم تستوعب من الفضة التي خصصت لها إلا الثلث وأن الملك روجار وهب الباقي منها إلى الإدريسي ومنحه مبلغًا كبيرًا من المال وشحنة سفينة من المتاع النفيس.

وتلا ذلك العمل العظيم وضع مصنف جغرافي يطابق ما رسم فوق الكرة الفضية يتناول الأقاليم السبعة المنقوشة عليها بالوصف فتشرح فيه أحوال البلاد وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها وخواصها وأجناس نباتها وما تضم من صناعات وتجارة وما يذكر عنها من عجائب مع وصف سكانها وهيئاتهم ومذاهبهم ولغاتهم وأزيائهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد اعتمد الإدريسي في وضع هذه الموسوعة القيمة على معلوماته الشخصية التي جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الإسبانية وشواطئ فرنسا وغربي البحر الأبيض وجزره والمغرب وآسيا الصغرى (الأناضول) وعلى ما استفاده من بحوث الجغرافيين القدامى مثل بطليموس، والجغرافيين المسلمين أمثال اليعقوبي وابن حوقل والمسعودي (انظر هذه المواد) وابن خُرْدَاذَبة، كما اعتمد على تقارير الرسل والمبعوثين الذين أوفدهم الملك روجار إلى مختلف البلدان الأوروبية ومنها البلاد الإسكندنافية وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأدرياتيكي وجزر المحيط الأطلنطي، وقد تناول الإدريسي

كل هذه الأماكن والبلدان بالوصف في مؤلفه لأول مرة في الجغرافيا العربية وجغرافية القرون الوسطى في دقة وبراعة.

واستغرق وضع هذا المصنف الكبير عدة أعوام وفرغ الإدريسي من وضعه في الأيام العشرة الأول من شهر يناير الموافق لشهر شوال عام ٥٤٨هـ (١١٥٤م) وذلك قبيل موت الملك روجيه الثاني النورماندي بأشهُر قليلة، وسمي هذا المؤلف «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» كما سمي أيضًا «كتاب روجار» أو «الكتاب الروجاري» اعترافًا بفضل الملك النورماندي روجيه الثاني.

وبدأ الإدريسي موسوعته بالتحدث عن كروية الأرض وشفعها بخرائط بلغ عددها سبعين خريطة وتشمل الأقاليم السبعة المعروفة في عصره لكل إقليم عشر خرائط، وقد وصف البلاد التي تناولها بالبحث وصفًا شيقًا يدل على رسوخه في العلم وتوخي الدقة في التحدث عن مشاهداته، ومن جهة أخرى يبدي دقة واضحة في تعريب الأعلام والمصطلحات الجغرافية الأوروبية مما يدعو إلى الاحتمال بأنه كان يعرف اللاتينية وربما الإيطالية.

ولدى وصفه شبه الجزيرة الإسبانية يتطرق الإدريسي إلى قصة تدل على أن ثمانية إخوة من مدينة الحامة الأندلسية خرجوا من ثغر إشبونة (لشبونة) في مركب واتجهوا غربًا ثم اتجهوا جنوبًا فرسوا على جزيرة بها رجال عمالقة ونساء حسناوات فاعتقلهم ملك الجزيرة ثم وضعهم في سفينتهم معصوبي الأعين وسارت بهم السفينة أيامًا حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبية، ويتضح من هذه الرحلة أن هؤلاء «الإخوة المغامرين» كما يدعوهم الإدريسي قد اكتشفوا بعض جزر «الكناري» التي تنسب إليها العصافير الكناريا المغردة أو جزر الرأس الأخضر في غربي إفريقيا.

وألف الإدريسي للملك وليم الأول ابن الملك روجيه الثاني كتابًا آخر بعنوان «روضة الأنس ونزهة النفس» أو كتاب «المسالك والممالك» ولم يبق من هذا المؤلف إلا قطعة صغيرة مخطوطة في مكتبة حكيم أوغلو علي باشا بإستامبول برقم ٦٨٨.

وتقع موسوعة الإدريسي الجغرافية «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» في عدة مجلدات كبيرة، وتوجد منها نسخ مخطوطة عديدة في أكسفورد، وباريس، والقاهرة، وإستانبول، ولم ينشر منها باللغة العربية إلا مختصر طبع في روما عام ١٥٩٢م (١٠٠١هـ) وذلك بعنوان «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق»، ونشر المستشرق العلامة دوزي منذ قرن القسم المتعلق بوصف إفريقية والأندلس ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الإسباني «سافدرا»، ونشرت كذلك الأقسام الخاصة بإيطاليا وصقلية وترجمت الأقسام الآنفة الذكر إلى الإسبانية والفرنسية والإيطالية، وترجمت الموسوعة بأكملها إلى اللاتينية في أوائل القرن السابع عشر، وهي ترجمة مليئة بالأخطاء ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر.

وما من شك في أن الدراسات العربية في حاجة ماسة إلى نشر هذه الموسوعة العلمية القيمة التي تعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافيا وحبذا لو ترجمت وشرحت إلى اللغات الأجنبية الحية مشفوعة بالخرائط التي يعتمد في نشرها

على المخطوطات في مكاتب باريس وأكسفورد وإستامبول .

وتوفي الشريف الإدريسي عام ٥٦٠هـ (١١٦٦م) بالغًا من العمر ٦٧ عامًا .

٣٥٠- الادريسي - شارع - بقسم الرمل (إسماعيل الحبروك حاليًا)

للإدريسي شارع آخر بقسم كرموز مازال يحمل اسمه، فاطلب ترجمة الإدريسي في الكلام عن هذا الشارع .

واطلب ترجمة صاحب الاسم الجديد لشارع الرمل في «إسماعيل الحبروك» .

٣٥١- أرتين - شارع - بقسم كرموز

يرجَّح كثيرًا أن أرتين هذا ليس إلاَّ «أرتين خشادور» الأرمنلي الجنسية، الذي اختير هو وأخوه اصطفان خشادور للسفر إلى فرنسا ضمن البعثة العلمية الرابعة عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، فدخلا المدرسة الحربية المصرية بباريس التي أنشأها محمد علي، وكان مرتب كل منهما الشهري ٢٥٠ قرشًا طوال مدة البعثة، وبدأت دراستهما بهذه المدرسة في ١٠ من يونية عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وظلا يتعلمان بالمدارس الفرنسية حتى عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) ثم عادا إلى مصر، وألحق كل منهما بإحدى الوظائف الحكومية، وتقلب أحدهما - ولعله أرتين - في الوظائف إلى أن شغل منصب المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) أي في عام إنشائها نفسه، وكانت وفاته عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) كما جاء بالكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة .

٣٥٢- أرتين بك - شارع - بقسم كرموز

اسمه أرتين سكياس الأرمنلي، كان من الطلاب الذين أرسلهم محمد علي في بعثة علمية إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) لتعلم الإدارة الملكية (الحقوق)، وكان عمره إذ ذلك ٢٢ عامًا، وقد ولد بالأستانة في حوالي عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ)، وكان مرتبه الشهري في البعثة ٣٠٠ قرش، وعاد إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) بعد إتمام دراسته، ومن ثم تكون مدة بعثته حوالي ست سنوات، وفي عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) عُيِّن مديرًا لمدرسة الإدارة والترجمة بالقلعة واختير عضوًا بالمجلس الأعلى للحكومة، وفي عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) عُيِّن عضوًا بمجلس ديوان المدارس ثم سكرتيرًا لمحمد علي خلال عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) .

وفي عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) تقلد نظارة الخارجية، والتجارة خلفًا ليوغوس بك (انظر هذه المادة)، وكانت وفاته عام ١٨٥٩م (١٢٧٦هـ) وكان قد اعتزل الوظائف منذ عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره عند الوفاة .

وأثناء حياته نال من الرتب العسكرية رتبة الفريق ومن الرتب المدنية رتبة «بالا» وهو والد يعقوب أرتين باشا الذي ولد بمصر عام ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) وتلقى مبادئ العلوم على أحد الأساتذة الأرمن ثم سافر إلى باريس، وألحق ببعض مدارسها المختارة، وظل بها سبع سنين ثم عاد إلى مصر عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) وقد أتقن تعلم اللغات العربية، والفارسية، والتركية، ثم عاد ثانية إلى أوروبا خلال عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) للتزود من العلم فاستفاد كثيرًا، وفي عام ١٨٧٣م

(١٢٩٠هـ) عيّنه الخديوي إسماعيل مربيًا للأمراء، ومنهم الملك السابق فؤاد الأول، ثم صار كاتمًا للأسرار الأوروبية، وتقلد بعد ذلك عدة مناصب، وفي عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) عُيِّن وكيلاً لوزارة المعارف، وقد أنشئت في عهده دار الكتب المصرية، ودار الآثار العربية، والآثار المصرية، وكانت وفاته خلال عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ)، بالغًا من العمر حوالي ٧٨ عامًا.

٣٥٣- الإزراري - حارة - بقسم الجمرك

إن اسم الإزراري يوقظ في مخيلتي الواعية هيئة رجل مغربي كانت له دار خالية من النوافد، وكنت أنظر إلى داخلها من ثقب مفتاح رتاجها في عهد الطفولة فأجدها ذات رحبة مكشوفة مربعة وحولها حجر أرضية تعلوها حجر في الطبقة الأولى تطل على الرحبة من شرفة خشبية قائمة على دعائم من الخشب مثبتة في أرضية الرحبة، وكانت هذه الدار المقفلة دائما بجوار كتّاب الشيخ الحفش (انظر مادة الحفش) الذي كنت أتلقى فيه تعليمي الأولي بحارة الكيال (انظر مادة الكيال)، وكان الإزراري المغربي يلبس الزي المغربي، وكان مشهورًا بالحرص والتقتير.

ومن بين الطلاب الذين أرسلوا إلى فرنسا في بعثة صناعية في عهد محمد علي طالب يدعى علي الإزراري قد يكون من أسرة الإزراري المغربية بالإسكندرية، وقد جاء عنه في سجلات هذه البعثة أنه أرسل إلى فرنسا في يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) لتعلم صياغة الأجواخ، وقد مارس تعليمه بمصنع المسيو «بوان بوادون» بألبيف بفرنسا، وعاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٣م (١٢٤٩هـ) ومن ثَمَّ تكون بعثته قد استغرقت ثلاثة أعوام.

ولا يعرف عنه شيء بعد عودته إلى الوطن.

٣٥٤- الأزهري - حارة - بقسم كرموز

يطلق لقب «الأزهري» على أربعة ممن ذكر المؤرخون بعض المعلومات عن حياتهم الفكرية، وفيما يلي ترجمة كل منهم وفقًا لتواريخ وجودهم في الحياة:

١) **أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري**: كان فقيهًا شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها وكان من الثقاة في الرواية، وقد ولد عام ٢٨٢هـ (٨٩٥م) بمدينة هراة وروى عن أبي الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري، وكان من أمهر تلاميذه (انظر مادة المنذري)، وتتلمذ المنذري نفسه على ثعلب اللغوي المشهور.

والظاهر أنه رحل إلى العراق وهو صغير السن، وفي بغداد أخذ النحو على أبي عبد الله إبراهيم بن عرفة المعروف بنفْطويه، وعلي أبي بكر محمد بن السَّري المعروف بابن السراج (انظر مادة ابن السراج) وأدرك هناك الزجّاج وابن دريد (انظر مادة ابن دريد) ولكنه لم يرو عنهما شيئًا، ثم أمعن التجوال في الديار العربية في طلب معرفة اللغة.

وما من شك في أن الأزهري كان واسع العلم بالفقه الشافعي، وقد ذكره ياقوت الحموي (انظر هذه المادة) بين أئمة الشافعية.

وفيما هو عائد من مكة إلى الكوفة في قافلة الحجاج عام ٣١٢هـ (٩٢٤م)، هاجم القرامطة القافلة عند الهَبير فقتلوا عددًا كبيرًا من أفرادها، وأسروا الآخرين ومن بينهم الأزهري الذي قضى عامين أسيرًا لدى بَدْو البحرين الذين كانوا قد اعتنقوا مذهب القرامطة الخارجين على الدين والنظام.

ويصف الأزهري كيف استغل فترة الأسر عند هؤلاء البَدْو لدراسة لغتهم التي قال عنها إنها غاية في النقاء، أما بقية سيرة حياته بعد ذلك فلم يدونها المؤرخون، ويحتمل أنه قضى هذه البقية في مسقط رأسه هراة منقطعًا للتدريس، والعزلة، والدراسة.

وكان هذا الفقيه اللغوي عمدة في الفقه، وتفسير ما يشكل على الفقهاء من اللغة التي لها علاقة بالفقه، وكان جامعًا لشتات الكلمات العربية مطلعًا على أسرارها، ودقائقها، وقد صنف فيها كتابه «التهذيب» وهو من الكتب المختارة في أكثر من عشرة مجلدات، وله تصنيف في غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء وهو في مجلد واحد وكتاب آخر بعنوان «التفسير»، وجاءت أسماء الكتب التي ألّفها في الفهرست لياقوت الحموي، وهي أربعة عشر وتتناول جميعها دراسات لغوية فيما عدا شرحه للمعلقات وشرحه لديوان أبي تمام (انظر هذه المادة).

وبقي من مؤلفاته المعجم المسمى «تهذيب اللغة» وقد نشر أخيرًا بالقاهرة، ومنه نسخ مخطوطة بمكتبات لندن، وإسطنبول، والهند، وقد أخذ الأزهري مادة هذا المعجم من شيخه المنذري، وأهم ظاهرة في المعجم أنه يسير على النهج الذي سار عليه الخليل بن أحمد (انظر هذه المادة) في كتابه بعنوان (كتاب العين)، ذلك أن أصول الكلمات لم ترتب بالترتيب الأبجدي المعروف، وإنما رتبت على أساس صوتي يبدأ بحروف الحلق، وينتهي بحروف الشفتين، وقد أكثر ابن منظور (انظر هذه المادة) من الاستشهاد بكتاب «تهذيب اللغة» في معجمه «لسان العرب».

وتوفي أبو منصور محمد الأزهري بمسقط رأسه هراة عام ٣٧٠هـ (٩٨٠م) بالغًا من العمر ٨٥ عامًا.

٢) خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهري:
ولقبه الجرجاوي نسبة إلى مدينة جرجا بصعيد مصر، وهي النسبة التي كان يعرف بها أحيانًا، وخالد الأزهري كان فقيهًا عربيًّا من علماء اللغة، وأهم مصنفاته رسالته المسماة «المقدمة الأزهرية في علم العربية» وقد طبعت بمطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، وعليها شرح لها، وكتب حسن ابن العطار حواشي عليها طبعت في بولاق عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م)، ثم طبعت مرة أخرى بالقاهرة عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، ويكمل هذين المصنفين التقرير الذي كتبه محمد الإنبابي على هامش حواشيه على الأجرومية المطبوعة في القاهرة عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م)، ثم كتب أبو النجا حاشية على كتاب الأزهري طبعت في القاهرة عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م).

وكتب خالد الأزهري شروحًا كثيرة طبع منها «موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب» وهو شرح على كتاب ابن هاشم المسمى «الإعراب عن قواعد الإعراب»، وشرح على الأجرومية، وله شرح آخر كتبه على جزء من ألفية ابن مالك (انظر مادة ابن مالك) عن القلب سمّاه «تمارين الطلاب في

صناعة الإعراب»، كما له شرح على المقدمة الجزرية في التجويد، وكتاب بعنوان «الألغاز النحوية».

وكانت وفاة خالد الأزهري بالقاهرة في ١٩ من المحرم عام ٩٠٥هـ (٢٦ أغسطس عام ١٤٩٩م)، ولا يعرف تاريخ مولده ومكانه.

٣) **إبراهيم بن سليمان الحنفي الأزهري**: هو صاحب «الرسالة المختارة في مناهي الزيارة»، وقد كتبها عام ١١٠٠هـ (١٦٨٨م)، وأوضح فيها أن لمس القبور عند زيارتها أو تقبيلها، والاتكاء عليها مخالف للشرع، ثم كتب رسالة أخرى في أحكام الفقه المتعلقة بالريق والتقبيل والمعانقة وسماها: «رحيق الفردوس في حكم الريق والبوس».

ولا يعرف تاريخ ميلاده، ومكانه، ولا تاريخ وفاته، غير أن تاريخ الرسالة المختارة في مناهي الزيارة يدل على أنه كان كامل النضوج الفكري والعلمي في عام ١١٠٠هـ (١٦٨٨م)، كما يدل تلقيبه بالحنفي على أنه كان من فقهاء الحنفية المشهورين.

٤) **أحمد بن عطاء الله بن أحمد الأزهري**: كان من علماء اللغة وقد كتب عام ١١٦١هـ (١٧٤٨م) كتابا في البلاغة بعنوان «نهاية الإعجاز في الحقيقة والمجاز»، وقد عرف هذا الكتاب من مخطوط وصفه المستشرق «آلوارت» هو وشرح له كتبه ابن أحمد الأزهري.

ولم يعرف من المعلومات التي دونها مؤرخو سيرته تاريخ ميلاده، ومكانه، ولا أين كانت وفاته؟ إذ يظهر أن المخطوط الذي وصفه المستشرق «آلوارت» لم يعثر في طياته على تلك المعلومات المفيدة.

٣٥٥- إسحق النديم - شارع - بقسم اللبان

هو أبو محمد إسحق بن إبراهيم الموصلي بن ماهان ابن بهمن المعروف بابن النديم الموصلي، كان من ندماء الخلفاء العباسيين، وكان من مشاهير المغنين والملحنين، كما كان عالمًا متبحرًا في الحديث، والفقه، وعلم الكلام، وشاعرًا مجيدًا.

أما ترجمة حياته المفصلة فاطلبها في مادة «ابن النديم» إذ له شارع آخر باسمه في قسم الرمل كان فيما مضى باسم «فاسبيه».

٣٥٦- الأَسْطُرلابي - شارع - بقسم محرم بك (السيد عبد الحليم حاليًّا)

اسمه هبة الله أحمد أبو القاسم البديع الأسطُرلابي، كان عالِمًا مشهورًا وطبيبًا وفيلسوفًا وفلكيًّا وشاعرًا، وقد برز بصفة خاصة في صناعة الأسطُرلاب، واستعماله، وصناعة الآلات الفلكية الأخرى، ولا يُعرف تاريخ ولادته غير أنه كان في أصفهان خلال عام ٥١٠هـ (١١١٦ - ١١١٧م)، وكانت تربطه بالطبيب المسيحي أمين الدولة ابن التلميذ روابط وثيقة من الود والصداقة، ثم استقر بعد ذلك في مدينة بغداد حيث أصاب أموالاً طائلة من اشتغاله بعلم الفلك، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله.

ويذكر أبو الفداء (انظر هذه المادة) أن الأرصاد الفلكية التي تمت في قصور السلاطين السلاجقة ببغداد خلال عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) كانت بإرشاده، ومن الراجح أن يكون الزيج المحمودي الذي صنفه وأهداه إلى السلطان أبي القاسم

محمود بن محمد، الذي تولى الحكم من عام ٥١٢ إلى ٥٢٦هـ (١١١٨ – ١١٣١م)، كان من ثمرة أرصاد البديع الأسطرلابي.

ويقول ابن القِفطي (انظر مادة القِفطي) أن أشعار الأسطُرلابي كانت غاية في الرونق والجزالة على حين أن ابن خلِّكان يذكر في كتابه (وفيات الأعيان) أنه كان يركن إلى المجون في شعره حتى يتطرق إلى الفحش في الألفاظ، وقد أورد ابن خلِّكان، وابن أبي أصيبعة مقتطفات من أحسن قصائده.

ونشر البديع الأسطُرلابي – علاوة على ديوانه – مختارات من أشعار ابن حجاج في مجلد واحد ورتبه على مائة وواحد وأربعين بابًا وسمّاه: «درّة التاج من شعر بن حجاج».

وليس من الصواب المغالاة في تقدير مواهب الأسطُرلابي انسياقًا إلى ما وصفه به كتّاب سيرته من العرب، وفي طليعتهم ابن القفطي إذ إن المؤرخين وكتّاب السير القدامى، ولاسيما في القرن الثالث عشر، لم يكونوا على معرفة واسعة النطاق بالرياضيات والفلك ومن ثَمَّ لا يستطيعون تقدير الخدمات الجليلة التي قدمها علماء القرنين التاسع والعاشر، وكذلك القرن الحادي عشر الميلادي لهذه العلوم الرياضية، ومن جهة أخرى فقد أخطأ هؤلاء المؤرخون كذلك في أنهم قالوا المدح جزافًا لمؤلفات العلماء القريبي العهد منهم، وذلك على حساب المؤلفات التي ظهرت إبان ازدهار العلم العربي، ومن ثَمَّ لا نجد من المديح الذي وجه إلى البتّاني وأبي الفداء والبيروني (انظر هذه المادة) ما يماثل ألفاظ المدح التي كيلت إلى الأسطُرلابي مع أن هؤلاء العلماء يفوقونه علمًا.

وتوفي البديع الأسطُرلابي في بغداد عام ٥٣٤هـ (١١٣٩– ١١٤٠م)، ويقال إنه دفن وهو في حالة غيبوبة، وذلك في رواية أبي الفرج وحده.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «السيد عبد الحليم».

٣٥٧– إسطفان بك – شارع – بقسم كرموز

هو إسطفان الأرمنلي ولد «بسباسطيا» وكان من بين طلاب البعثة العلمية الثالثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وكان عمره في ذلك التاريخ ٢٢ عامًا، وخصص له راتب شهري قدره ٥٠٠ قرش، وكان تخصصه في البعثة دراسة العلوم السياسية، وعاد إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ)، وترقى فيما بعد إلى مدير المدرسة المصرية بباريس، وفي عام ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م) عُيِّن ناظرًا للخارجية، ونال رتبة البكوية، وفي سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) اعتزل الخدمة إلى أن أدركته المنية في ١٣ من مارس عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ).

٣٥٨– اسكندر الأكبر – شارع – بقسم العطارين

٣٥٩– اسكندر الأكبر – شارع – بقسم باب شرقي (امتداد)

فيليب الثاني

الإسكندر الأكبر هو ابن فيليب الثاني المقدوني الذي رأى نور الدنيا في عام ٣٨٢ق.م.، وما إن شب وترعرع وآنس



عملة فضية للإسكندر الأكبر

في نفسه القوة والمقدرة حتى بادر إلى اغتصاب عرش مقدونيا خلال عام ٣٥٩ق.م. وكان عمره إذ ذاك ٢٣ سنة، ومنذ ذلك التاريخ سخر كل طاقته العبقرية لتكوين جيش مقدوني يؤمِّن له السيادة على البلاد الإغريقية، ويكفل له القضاء على القوات الفارسية التي تغتصب وطنه، وكان فيليب أخا الملك «برديكاس الأصغر»، فلما مات هذا الملك في عام ٣٥٩ نفسه تاركًا طفله الصغير «أمينتاس» قام فيليب وصيًّا عليه، وسرعان ما اغتصب عرش مقدونيا.

دهاؤه وانتصاره على دولة أثينا

ولقد استطاع بدهائه وحيله البارعة إلحاق الهزيمة بدولة أثينا، وانتصر عليها، وتولى الزعامة على الرغم من الخطب القاسية التي كان «ديمو ستين» أعظم خطباء أثينا يلقيها ضده بغية الحط من شأنه والنيل من سمعته العامة، وقد استمرت هذه الخطب اللاذعة خمسة عشر عامًا دون أن تنال من فيليب الثاني مأخذًا يطيح بعظمته، وفي عام ٣٤١ ق.م. استطاع غزو إقليم تراقيا، وضمه إلى الدولة المقدونية، وفي معارك هذا الغزو المظفّر فقد إحدى عينيه، وقد تأثر فيليب الثاني بفلسفة أرسطو إلى حد كبير وكان المنفذ لرأيه في وجوب توحيد اليونان، والقضاء على دول المدن فيها.

قيام الجامعة الهيلينية

وبعد أن رسخت دعائم دولته في جميع أنحاء اليونان، عدا دولة مدينة إسبرطة، عقد مؤتمرًا بمدينة «كورينثة» (انظر هذه المادة) في عام ٣٣٧ق.م. وأعلن عن تنفيذ مشروعه الكبير الرامي إلى قيام الجامعة الهيلينية ليتسنى لها شنَّ الحرب الشاملة على الإمبراطورية الآسيوية التي تقيد القومية الهيلينية بقيود الذل والهوان.

قول المؤرخين فيه وإعداده الجيش

ويجمع مؤرخو السير في عهد فيليب الثاني والعهود اللاحقة أن اليونان لم تنجب رجلاً أقوى من هذا العبقري كمنظم للحروب، ومحكم للخطط العسكرية، وقائد للجيوش في ميادين القتال، واعتمادًا على كل هذه الصفات الممتازة لم يجد فيليب صعوبة في تقلد القيادة العامة للجيوش اليونانية، ولم يمض غير عام على انعقاد مؤتمر «كورينثة» حتى كانت هذه الجيوش المدربة على أهبة الزحف والاستيلاء على آسيا الصغرى (الأناضول).

اغتياله

بيد أن هذا الزحف لم يتم إذ حدث اغتيال فيليب الثاني بيد قاتل يقول بعض المؤرخين أنه أحد أعوان «أوليمبياس Olympias» الذي زوجته أم الإسكندر، وهي أميرة

«إبيروت Epirote» من بيت عريق هو بيت «أيسيد Aeacid» وذلك انتقامًا للإساءة التي لاقتها من زوجها والهجران الذي ذاقته مريرًا مدة من الزمن، ومن ثَمَّ أُرجئت الحملة على آسيا الصغرى إلى وقت آخر، وكان عمر فيليب عند اغتياله ٤٦ عامًا.

قضاؤه على دول المدن

ولم يلحق فيليب ضررًا بالحضارة حين أخضع اليونان لحكمه بل أدى لليونانيين، وللجنس البشري خدمة جليلة بتعجيل تدهور دول المدن اليونانية، فالسمة اليونانية (الهيلينية) التي كانت ضيقة المدى اتسع نطاقها بفضل فيليب الثاني وابنه الإسكندر من بعده.

اعتلاء الإسكندر العرش

واعتلى العرش من بعده ابنه الإسكندر وهو في العشرين من عمره، إذ ولد في خريف عام ٣٥٦ق. م. في بلاط يموج بالمطامع، فبادر إلى قمع الثورات الداخلية في أرجاء ملكه بضربات قاصمة كان من نتائجها المباشرة إخضاع إقليم تساليا لحكمه، وطلب أثينا الصلح مبدية أسفها للثورة التي قامت بها ضده، والواقع هو أن الإسكندر الأكبر كان من أقوى القواد حزمًا، ومن أعمقهم فهمًا لحقائق الأمور، وهو يعد بهذه الصفات من فحول الرجال الذين أدهشوا العالم بما قاموا به من أعمال مجيدة كتب لها الخلود عبر الأجيال. وقد كان يونانيًّا أكثر من أبيه، وكان مطمعه الأول قيادة الشعوب اليونانية ضد إمبراطورية الفرس، ولم يستهل عام ٣٣٠ق. م. حتى كان قلب هذه الإمبراطورية في قبضة يده.

تولي الإسكندر القيادة العليا للجيوش



تمثال للإسكندر الأكبر بالمدينة (إهداء من الجالية اليونانية)

وهكذا تولى الإسكندر القيادة العليا للجيوش اليونانية وأسرع في الزحف بجنوده على طيبة الواقعة في الجهة الغربية من أثينا، وأنزل بها الدمار بحركة جريئة بارعة كانت رادعًا كافيًا لغيرها من دويلات المدن التي كانت تقتسم البلاد اليونانية وتضعف كيانها العام، وكان أصحاب هذه الدويلات الهزيلة يظنون أن الإسكندر يدرب جنوده بالجبال فإذا هو يداهم أحد معاقلهم ويقضي عليه قضاء مبرمًا، وكان هجومه المفاجئ الموفق في عام ٣٣٥ق. م.

بدأ مغامراته وعبوره الدردانيل

وفي العام التالي ٣٣٤ق.م. بدأ في تنفيذ مغامراته الكبرى بأن عبر مضيق الدردانيل بجيوشه التي دربها وأعدها للفتح العظيم.

وكان الضعف والوهن قد سرى دبيبهما في كيان الإمبراطورية الفارسية منذ اعتلى عرشها الشاه المتخاذل «دارا الثالث» المعروف باسم «كودومانوس» ومن ثَمَّ لم يطل الوقت بجنود الإسكندر في آسيا الصغرى، فهزموا الولاة الفارسيين في أرجائها شر هزيمة عند نهر «غرانيكوس Granicus»، وهكذا أصبح طريق جيوش الإسكندر ممهدًا للفتح بعد ستة أشهر من عبورها مضيق الدردانيل.

متابعة الغزو السريع

ولم يتوان الإسكندر في متابعة الغزو، فاجتاز جبال طوروس واجتاح مقاطعة كليكية ثم اتجه في زحفه السريع صوب الجنوب، وفي شهر نوفمبر عام ٣٣٢ ق.م.، حدثت المعركة الحاسمة بينه وبين «دارا الثالث Darius III» عند «إسوس Issus»، فولّى «دارا» الأدبار إلى ما وراء نهر الفرات ناجيًا بحياته، ولم يحل ليل هذا اليوم حتى كانت جيوش «دارا» فلولاً تلوذ بالهرب السريع على الرغم من تفوقها العددي بألوف كثيرة. وكان عمر الإسكندر آنذاك ٢٣ سنة لم يتعقب دارا، ولم يتعقبه الإسكندر في فراره بل أخذ في غزو مدينة صور في لبنان، واستولى عليها في فراره بعد حصار دام سبعة أشهر، وقد قضى بفتحها على مركز هام من مراكز إمداد الفرس بالسفن والتموين، وقبيل سقوط ميناء صور عرض دارا على الإسكندر الصلح على أن يزوجه ابنته، ويوليه حكم الإمبراطورية الفارسية غرب نهر الفرات، ولكن الإسكندر لم يقبله لطموحه الواسع الأفق، ولقد رد على قائده الأمين «بارمينيو Parmenio» حين قال: «لو كنت مكان الإسكندر لقبلت هذا العرض»، رد الإسكندر بجملته الشهيرة: «هذا ما كنت فاعله لو أنني كنت بارمينيو».

دور مصر في الغزو

ثم جاء دور مصر في الفتح، فلما وصل إليها في خريف عام ٣٣٢ق.م. يقود جيشه المظفر وجد من سكانها ترحيبًا، ولم تكن مصر مستعمرة تدين بالطاعة المخلصة للإمبراطورية الفارسية، فالمصريون كانوا مشركين يقولون بتعدد الآلهة، ويعبدون الصور والأصنام، على حين أن الفرس كانوا يميلون للوحدانية في صورة من الصور، ومن جهة أخرى كان اليونانيون يمدون المصريين بالعَوْن والمساعدة ضد الفرس، والواقع هو أن مصر كانت تتمتع بالاستقلال الفعلي طوال الشطر الأكبر من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وحدث أن قضى الفرس على آخر فرعون مصري قبل قدوم الإسكندر بعشر سنوات.

وكل هذه العوامل كانت من الأسباب التي جعلت المصريين يرحبون بالإسكندر كحليف ومنقذ لهم من جور الفرس وتعسفهم.

دخول الإسكندر مصر فاتحًا

لما وجد الوالي الفارسي «مازاكيس Mazacês» أن لا جدوى من المقاومة، سلم مصر دون قتال، فدخل الإسكندر (ممفيس) (وموقعها الآن بلدة البدرشين)، حيث تقمص صورة الهيليني الصميم الراغب في إبراز الفرق بينه وبين الفرس ومن

ثَمَّ بادر إلى تقديم فروض الولاء، والخضوع، والخشوع للآلهة المصرية فرضي الناس به ملكًا عليهم، واحتفل بهذه المناسبة بإقامة المباريات، والألعاب، وتنظيم التمثيليات والفرق الموسيقية على الطريقة الإغريقية، ثم تمت مراسم تتويجه ملكًا بمعبد الآلهة بتاح، وكان قد أبقى على عادات وتقاليد المصريين، فأحبه الناس وولعوا بحكمه، وكان للمصريين عذرهم في ذلك الترحيب، إذ اعتبروه صديقًا جاء ليخلصهم من كيد الاستعمار الفارسي.

حضوره إلى مكان الإسكندرية

ومن ممفيس اتجه صوب مكان الإسكندرية التي أمر بتشييدها وأطلق عليها اسمه تخليدًا لذكراه، ثم ذهب إلى واحة سيوة (وكانت تدعى واحة آمون) عن طريق مرسى مطروح لاستشارة وحي الإله آمون الذي كان اليونانيون يعدونه صنوًا لإلههم (زيوس Zeus) وكاد أن يموت عطشًا هو وجنوده في الطريق، ولم يعثر في التاريخ على سر ذهابه إلى سيوة، وكل ما يُعرف عن ذلك أنه كتب إلى أمه (أوليمبياس) يقول إنه سيفضي إليها بهذا السر عند عودته، ولكنه لم يعد إلى مقدونيا ودفن سره معه.

اعتباره ابنًا للإله في سيوة

والمؤكد هو أن كاهن آمون حيّاه على اعتبار أنه ابن الإله وهي التحية التقليدية لأي ملك مصري، ولذلك كان الإسكندر – لتديّنه العميق – يعتقد أنه ذو صلة بالإله آمون، وأن حملته العسكرية تكليف صادر من العناية الإلهية يجب عليه تنفيذه، وكان ذهابه إلى سيوة عام ٣٣٢ ق. م.

ومن ذلك الحين أخذت فكرة التألّه تستولي على نفسه، فبعد أن أتم غزواته المظفرة بوصف كونه وارثًا لأبيه فيليب الثاني، ومنقذًا لمقدونيا واليونان من الفرس، وبعد أن صار إمبراطورًا لفارس كلها اعتملت في نفسه فكرة توحيد الجنس البشري فكان أول من نادى بهذه الوحدة العليا النبيلة، ومازالت حجرة تتويجه بواحة سيوة قائمة، وتعد من الآثار السياحية الهامة، وهي من المرمر، وتقوم فوق قمة جبل أعورمي الأبيض الرابض على مقربة من معبد آمون.

تأسيسه مدينة الإسكندرية ومواصلة غزواته

وفي طريقه من ممفيس إلى سيوة لفت نظره موقع الإسكندرية المستطيل بين البحر الأبيض وبحيرة مريوط. وبعد أن أرسى أساس مدينة الإسكندرية في الخامس والعشرين من شهر طوبة (يناير – فبراير) عام ٣٣١ق. م. قد صار هذا التاريخ عيدًا تحتفل به المدينة كل عام، وبعد أن دانت له برقة بالطاعة وقدمت إليه فروضها عاد إلى آسيا ليقضي نهائيًّا على جيوش الفرس في موقعة «جوجاميلا Gaugamela» في المناطق الكردية، وعندها صار دارا الثالث طريدًا شريدًا، ثم فتح مدينة بابل (ومكانها مدينة بغداد الآن)، وخلال الفترة الواقعة بين عامي ٣٣١ و٣٣٠ق. م. استولى على مدينة اصطخر في إيران بعد أن عبر الجبال الشاهقة، ثم يساجاداي بالقرب من الخليج العربي في الناحية الشرقية، وشرع في مطاردة دارا الثالث إلى أن غزا همدان.

ديمقراطيته حيال الشعوب

ولقد سار على السنة التي اتبعها قورش ودارا الأول، فلم يحاول إذلال الشعوب المغلوبة أو يسعى لاستعبادها وإنما

جعل هدفه الرئيسي توحيدها، والرقي بمستواها مع مراعاة تقاليدها، وعاداتها وتنصيب الولاة من أفرادها، ولم ينتقم ممن أخلصوا لأعدائه بعد اندحارهم فكان ذلك منه أحسن ما يتصف به الفاتح المنصف.

بعض أهداف إنشائه الإسكندرية

وكان تشييده لمدينة الإسكندرية أنموذجًا رائعًا للسياسة القائمة على العقلية الرشيدة، وكان اختياره لموقعها الجغرافي يهدف أساسًا إلى إنشاء سوق عالمية مركزية بين الغرب والشرق، وهذا الاختيار وهذا الهدف الاقتصادي الحكيم يعد آية من آيات العبقرية الناضجة، وكان من أهدافه أيضًا القضاء على عزله عن العالم الخارجي فأسفر عمله عن نتائج لم يكن يحلم بها، فقد كان تحول قرية «راقودة Rhakotis» إلى الإسكندرية عاملاً قويًّا من عوامل انتهاء الحكم الفرعوني في مصر الذي ظلّ يحتضر زمنًا طويلاً بسبب قوة الشخصية الفرعونية القديمة فلم تستطع الإغريقية حتى بعد أن دعمتها سلطة روما التأثير في مصر بكيفية فعالة إلا بعد عدة قرون إذ ظلت حضارة مصر مصرية الطابع طوال بقاء دينها الوطني القديم.

استمرار غزوه لبلاد الشرق

ولقد وجه الإسكندر حملاته العسكرية صوب الشرق لتوطيد دعائم الإمبراطورية الشاسعة التي كان يحلم بإقامتها، ولم يثنه عن قصده المغامرات الخطيرة التي خاضها في غير وجل والتي تخللتها أعمال حربية باهرة، وسار في فتوحاته إلى أبعد حد متوغلاً في أفغانستان، ومخترقًا هندوكس شمالاً إلى التركستان ثم اندفع مجتازًا نهر جيحون حتى بلغ سمرقند، وكان في مراحل طريقه يؤسس عددًا من المدن (الإسكندريات) ليجعل منها مراكز للحضارة الجديدة التي رسمت خطوطها عبقريته الوثابة ومن بينها هراة، وقندهار، وكابول، وأقام أقصى (الإسكندريات) على نهر سيحون عند خوقند، وجعلها أقصى مراكزه الأمامية.

زواجه من روكسانا

وقبل الفراغ من إخضاع هذه الأقطار البعيدة عن مقر عرشه في مقدونيا استطاع أن يأسر الزعيم الأسكوذي «أوكزيارتيس Oxyartès» وابنته «روكسانا Roxana» التي تزوجها وفاقًا للشعائر الأسكوذية ليوضح نظرياته العامة الرامية إلى توحيد الأجناس، وليقنع المقدونيين بما تتسم به هذه النظريات من تسامح إنساني، ويدلنا التاريخ على أنه بمجرد أن عقد الإسكندر على روكسانا تزوج ثمانون مقدونيًّا من فارسيات على أساس أن الناس جميعًا إخوة يؤلف بين قلوبهم رابطة البنوة للإله المعبود، ويقول «بلوتارك Blutarque» في كتابه «حياة الإسكندر» أن الإسكندر قال: «إن الله هو الوالد المشترك لجميع الناس، وإنه يصطفي خيار الناس بصفة خاصة، ويعدهم من أنصاره».

غزوه للهند وأفغانستان وزواجه من ستاتيرا

وفي عام ٣٢٧ق.م. وجه غزوه شطر الهند، فشق بجيوشه الممرات المجهولة الوعرة، واستمر على سيره إلى أن هبط وادي نهر السند في ربيع عام ٣٢٦ق.م.، فعبره وأنزل الهزيمة بأمراء البنجاب في معركة «هيداسبيس Hydaspes»، ثم واصل فتوحاته إلى أن بلغ مصب نهر السند، واتجه بعد ذلك مرة ثانية إلى أفغانستان، وبلوخشان خلال عام ٣٢٥ق.م.

وفي ذلك الحين أوقف زحفه ردحًا من الزمن مستجمًّا في كرمان، وفي عام ٣٢٤ق.م. تزوج «ستاتيرا Statira» ابنة دارا الثالث وصار زوجًا لامرأتين منشئًا بذلك تقليدًا اجتماعيًّا جديدًا، وفي ذلك اليوم نفسه تزوج بطليموس بن لاجوس (ملك مصر فيما بعد) «بسولوكوس» ابنة أرتباز.

نتائج تزوجه على رجال جيشه

وكان من نتائج هاتين الزيجتين أن سار كثير من المقدونيين على نهج الإسكندر، وتزوجوا من فارسيات ومن بنات ونساء البلدان التي فتحوها، ومن ثَمَّ أكد الإسكندر هدم الحواجز الجنسية مما يتمشى مع نظرياته الديمقراطية الحقة، ومن جهة أخرى بادر إلى تكوين كتائب في جيوشه تضم الغربيين والشرقيين معًا بغية توثيق صلات الود والإخاء بينهم.

موته في بابل

وبعد كل هذه الأعمال الباهرة اتخذ من مدينة بابل (بغداد الحالية) مقرًّا لقيادته العليا، وشرع يستعد في مستهل عام ٣٢٣ق.م. لعبور المحيط الهندي وغزو البلاد العربية التي لم يفتحها الفرس، ولكن حمى الملاريا داهمته ولم تمهله غير أسبوعين مات في نهايتهما أي في اليوم الثالث عشر من يونية عام ٣٢٣ق.م. دون أن يترك قائدًا عظيمًا يحل محله أو وارثًا شرعيًّا لا ينازعه أحد في اعتلاء العرش المقدوني، وكان عمره ٣٣ عامًا، وقدّر لمشروعاته العظيمة أن تطوى غير كاملة، وإن كان قد نفّذ منها قدرًا كافيًا لتغيير مجرى التاريخ، وكان هذا النابغة الشاب وهو في طور الاحتضار مشغولاً باستكمال خططه البرية والبحرية معًا للاستيلاء على بلاد العرب، وعندما عاد إلى صوابه من بحران الحمى سئل عمن يستخلفه فأجاب: «يخلفني من الرجال خيرهم»، ولو عاش لحقق مطامعه الرامية إلى فتح كل ما كان معروفًا من الأرض المعمورة في ذلك الحين، ولقامت إمبراطوريته – ليس فقط على قوة الجيش – ولكن على القوة البحرية والتجارية ونظام الحكم المتين.

قرار مجلس قواده فيمن يخلفه في الحكم

وكانت زوجته الفارسية (روكسانا الأسكوذية) حاملاً، غير أن مجلس قواده اجتمع، وقرر الاعتراف بأخيه لأبيه المعروف باسم «فيليب الثالث أريدايوس Philip Arrhidaeus» ملكًا على أن يشترك معه في الحكم ابن (روكسانا) إذا جاء ولدًا، وقد ولد في أغسطس عام ٣٢٣ق.م. ولقب بالإسكندر الرابع وصاية القائد (برديكاس Perdiceas) الذي كان محل ثقة الإسكندر وحامل أختامه، وفيليب أريدايوس هو ابن كليوباترا بنت أخت (أتال) القائد المقدوني، وكان فيليب الثاني قد تزوجها بعد أن هجر زوجته (أولمبياس) والدة الإسكندر.

حظ الإسكندر من الثقافة

ولم يكن الإسكندر قليل الحظ من الثقافة، فقد تلقى تعليمه على أرسطو طوال أربعة أعوام بدأت خلال عام ٣٤٥ق.م. فأحسن تهذيبه وغرس في نفسه حب الأخلاق الحميدة، واحتقار الزهو والكبرياء، ويدل التاريخ على أن الخطط الحربية التي اتبعها (نابوليون بونابرت) في موقعة «أوسترلتز Austerlitz» بمقاطعة بورافيا بجمهورية تشيكوسلوفاكيا حيث هزم نابوليون النمساويين والروس في ٢ من ديسمبر عام ١٨٠٥م، أقول يدل التاريخ على أن خطط هذه الموقعة تشبه

تمامًا بعض خطط الإسكندر في أكثر من موقعة من المواقع التي خاضها بآسيا الصغرى ضد الفرس.

لم يُهزَم في أية معركة

ويجمع المؤرخون على أن الإسكندر الأكبر لم يُهزَم في أية معركة ولم يتقهقر أمام أعدائه وأن عبقريته الحربية تفوق في أساليبها عبقرية يوليوس قيصر ونابوليون في القيادة، وقد استطاع بهذه العبقرية الفذة التحكم في قارات بأسرها.

طباعه كما يصفها بلوتارك

كما يروي (بلوتارك) شيئًا عن طباع وأخلاق أمه التي يُستشف من سردها أن الإسكندر ورث عنها المزاج الحاد الغامر بالعاطفة، والنزعة الدينية، والخيال الخصب، والانفعال السريع الذي لا يطيق المنافسة، ومن ثَمَّ حرصت على أن يكون ابنها شديد التعلق بها، كما ورث عنها الدعابة والتحرر من القيود والقلق والتهور، وورث عن أبيه الصلابة، وبعد النظر، وسرعة البت في الأمور وحسن التدبير العسكري المحكم، وعلاوة على هذه الصفات كان الإسكندر مرهف الشعور، ضابطًا للنفس، نبيل الطبع، يسيطر على شهواته، فلم يمنعه شرب الخمر، وحب اللهو، والملذات عن تحقيق طموحه، وكان يعامل الأسيرات دون أي قصد سيئ فأحسن معاملة زوجة دارا الثالث، وبناته بعد أسرهن، وكان يؤمن بالخرافات مثل أمه وقد التمس السلوى في عبادته وهو على فراش الموت، لإله قرنت الروايات اسمه بالإله (سيرابيس) الذي انتشرت عبادته فيما بعد بالإسكندرية بوصف كونه حاميها.

إطلاق اسمه على تاريخ الأشهر

وقد أطلق اسم الإسكندر على التأريخ القائم على الأشهر اليونانية ويعرف بتأريخ السلوقيين وهو يبدأ من دخول «سلوق نيقاطور Seleucus Nicator» مدينة بابل بعد موت الإسكندر باثنتي عشرة سنة، وقد أخذ به السوريان، واليهود، ويعرف عندهم «بتأريخ العقود ère des contrats»، ويسير تأريخ (دقليديانوس – تأريخ الشهداء) على النمط الذي سار عليه تأريخ الإسكندر والذي مازال عليه إخواننا الأقباط في مصر.

إطلاق اسمه على أحد أوزان الشعر

وأطلق اسم الإسكندر أيضًا على أحد أوزان الشعر الفرنسي «الوزن السكندري vers alexandrins» الذي يتناول القصائد البطولية، والملاحم، وقصائد المآسي، وقد استخدم بصفة خاصة في القصائد التي نظمت إبّان القرون الوسطى متضمنة قصص حروب الإسكندر ومغامراته، ومازال الشعراء الفرنسيون ينظمون القصائد على هذا الوزن الذي يتركب من اثني عشر وتدًا (أي مقطعًا)، وبالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية «أنموذج للعملة» التي استخدمها الإسكندر على أحد وجهيها صورة وجهه على الأخرى صورته الكاملة وهو في ملابس الحرب، والرمح في يده اليمنى، والدرع في يده اليسرى.

تقسيم إمبراطوريته بين قواده

وفي الاجتماع الذي قرر مجلس قواد الإسكندر تنصيب أخيه ملكًا على مقدونيا بالاشتراك مع ابن (روكسانا) قسّم

هؤلاء القواد الإمبراطورية بين الزعماء المقدونيين، فكانت مصر من نصيب بطليموس بن لاجوس الذي سمي فيما بعد باسم بطليموس الأول (سوتير).

مواصلة قواده الغزو

ولم يقعد موت الإسكندر قواده عن مواصلة الغزو والاستمرار على الفتح، فتدفقت جيوشهم على الشرق والجنوب يحمل أفرادها آدابهم، وفنونهم، وأساليبهم في الحياة ونظمهم الدينية والاجتماعية وألعابهم الرياضية، وثقافتهم، وطرق احتفائهم بالأعياد، والمناسبات القومية.

مطامع قواده بعد التقسيم

ولم يمر غير عام واحد على التقسيم حتى ظهرت مطامع قواد الإسكندر ورغبة كل منهم في توسيع نطاق سلطانه، فاستأثر (برديكاس) بالسلطة العليا بوصف كونه الوصي على (فيليب أريدابوس) المعتوه و(الإسكندر الثاني) الطفل الذي وضعته (روكسانا) بعد موت أبيه ببضعة أسابيع فحمل ذلك أربعة من القواد من بينهم بطليموس بن لاجوس، على التآمر ضده.

زحف برديكاس على بطليموس في مصر

فبادر (برديكاس) إلى الزحف على بطليموس في مصر خلال عام ٣٢١ق. م. ولكنه هزم واعتذر.

واستطاع قائد آخر هو «كاساندر Cassander» أن يقتل روكسانا وابنها الإسكندر الثاني الطفل عام ٣١١ق. م. ثم توصل إلى اغتيال الملكة العجوز «أولمبياس Olympias» والدة الإسكندر الأكبر عندما أعلنت عن رغبتها في أن تكون الوصية على حفيدها الطفل فحوصرت ثم أُعدمت وكانت قد اتهمت بقتل الملك المعتوه (فيليب أريدايوس) خلال عام ٣١٧ق. م. والفتك بزوجته الباسلة (يوريديكي)، وهكذا كانت نهاية أسرة فيليب الثاني، والإسكندر الأكبر المقدونية التي أنجبت اثنين من عظماء التاريخ البشري.

تحطيم الإسكندر للقيود الاجتماعية

ويقول «هوجارث Hogarth» أنه على الرغم من تفكك إمبراطورية الإسكندر فإن المبادئ قد بقيت حتى ظهور الإمبراطورية الرومانية وبعد ظهورها بزمن طويل، وقد حطم الإسكندر القيود التي كانت سائدة قبله والتي من شأنها تقسيم العالم إلى طائفة قليلة من اليونانيين وشعوب كثيرة من البرابرة وذلك على أساس الترفع والكبرياء، ومن ثَمَّ يتضح أن الإسكندر ورّث العالم فكرة السيادة العالمية لتحل محل سيادة دول المدن العقيمة.

قول المؤرخين العرب في الإسكندرية

هذا هو مجمل تاريخ الإسكندر الأكبر وفاقًا لما دوّنته كتب التاريخ المأثور، غير أن كتب المؤرخين العرب تخالف ما جاء بهذه الكتب في كثير من الحقائق، وإن كانت تتفق مع بعضها، فأغلب ما خطته أقلام هؤلاء المؤرخين يعتمد على الأساطير التي ترجع في مصدرها الأصيل إلى «إسكندرنامه» أي قصة الإسكندر التي يرى المستشرق (نولدكيه) أن الواجب يقضي بالبحث عن منبعها، ومصدرها كما عرفها السريان ثم العرب في القصص الفهلوي الساذج، ويرى المستشرق (فرانكل) أن مؤلف هذه القصة قد يكون مسيحيًّا من السوريين كتبها باللغة الفارسية ثم زادها الكتّاب بعد ذلك في تلك

الأساطير ونمّقوها في صور مختلفة، ومن ذلك اختلافهم على نسبه وإن كان أكثرهم يجمعون على أن أباه هو فيليب الذي يدعوه المؤرخ الطبري (فيلقوس)، وأقدم من كتب قصة الإسكندر شعرًا باللغة الفارسية هو الفردوسي الشاعر.

قولهم أنه ابن دارا الأكبر

وذكر بعضهم أنه لم يكن ابنًا لفيليب، وإنما كان ابنًا لدارا الأكبر أي أنه أخو دارا الأصغر لأبيه، وتذهب هذه الأساطير إلى أن دارا الأكبر غزا ملك فيليب، وأرغمه على دفع إتاوة سنوية من بيض دجاجة تنتج بيضًا من الذهب، وأن فيليب قدم له ابنته (هلاي) فتزوجها ولكن سرعان ما كرهها لنتن رائحتها، ثم أعادها إلى أبيها بعد أن عجز أطباؤه عن إزالة هذه الرائحة بدواء يقال له (سندروس)، فلما وضعت (هلاي) ولدًا أطلقوا عليه اسم (أل إسكندروس) نسبة إلى اسم الدواء واسم أمه معًا.

نشأ في بلاط جده فيليب

ونشأ الطفل في بلاط جده فيليب، وتلقى العلم، والحكمة على أرسطو، ثم خلف جده على العرش وامتنع عن دفع الإتاوة إلى ملك الفرس، وأخبره أنه ذبح الدجاجة ذات البيض الذهبي، وأكل لحمها، وأسرع بعد ذلك في تجهيز جيش كبير وذهب به إلى مصر حيث أقام الأبنية على حد ما جاء في قصة (إسكندرنامه) التي تواصل الحديث فتذكر أن دارا جمع جيشه ولقي الإسكندر عند نهر الفرات، فانهزم دارا، ولاذ بالفرار فغدر به اثنان من رجاله وأصاباه بجراح فلحق به الإسكندر، ووجده يحتضر فطلب منه دارا أن يرعى زوجته، وأن ينتقم له من قاتليه، وأوصاه بأن يتزوج ابنته (روشنك) وهو اسم يدل على تحريف اسم زوجته الأولى (روكسانا) الأسكودية لأن زوجته الثانية ابنة دارا تدعى (ستاتيرا) وهذا يوضح الخلط بين الزوجتين في الأسطورة.

قولهم أنه فتح الهند

ويجمع المؤرخون العرب على أن الإسكندر صار بعد ذلك الحاكم الشرعي للبلاد الفارسية وأنه توجه في فتوحاته إلى الهند وخاض المعارك الهائلة التي أهمها الموقعة التي نشبت بين جيوشه وجيوش من يدعى حليف دارا، وقد تخلص الإسكندر من شر فيلته بالحيلة، ثم بارزه وانتصر عليه، وانتصر كذلك على ملك آخر سموه (كيد) وجعلوا هذا الملك يرسل إليه هدية هي إناء لا ينضب معين ما فيه، وجارية حسناء، وطبيب حاذق لا يعجزه سؤال أو مرض، وما من شك في أن واضع قصة (إسكندر نامه) الأسطورية تأثر بسيرة الهدية التي أرسلها (قيرس) أو (المقوقس) إلى النبي عليه السلام وهي تضم: السيدة مارية القبطية، والدة إبراهيم، والطبيب الذي أعاده النبي إلى مصر قائلاً جملته المأثورة: «نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا، وإذا أكلنا لا نشبع»، وقد وردت هذه الجملة في بعض كتب السيرة النبوية.

أنه فتح الصين و أرض الظلمات

وتذهب أساطير القصة العربية إلى أن الإسكندر ذهب بعد فتح الهند إلى بلاد الصين، والتبت ودخل أرض الظلمات، والتقى بوليّ الله الخِضْر، والتقى قبل دخوله أرض الظلمات بالملاك (إسرافيل) حيث كان واقفًا فوق ربوة ينفخ في الصور، والدموع تنهمر من عينيه، ويصف (العروسي) إسرافيل بأنه هائل الجسم يصل قدماه إلى ما تحت الأرض السابعة، ورأسه

إلى عمد عرش الرحمن، وله أربعة أجنحة الأول في الشرق، والثاني في الغرب، والثالث يغطي جسده، والرابع يتقي به جلال الله هذا علاوة على أن جسمه مغطى بالشعر الكثيف.

اختلافهم في لقائه بالخضر

ويختلف المؤرخون العرب في رواية التقاء الإسكندر (بالخِضْر) فيقول بعضهم أنه هو الإسكندر ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم، ويقول البعض الآخر إن ذا القرنين إسكندر آخر في الدنيا قبل الإسكندر المقدوني.

إثبات أذاد أن ذا القرنين هو كورش الأكبر

ولعلّ من المفيد هنا إثبات أن أبا المكارم آذاد، أحد وزراء المعارف السابقين في الهند قام ببحث دقيق للتعرف على شخصية ذي القرنين المذكور في القرآن وانتهى في هذا البحث الذي اعتمد فيه على الآثار إلى أن ذا القرنين هو (كورش الأكبر) مؤسس الإمبراطورية الفارسية، وهو من كبار الفاتحين وقد أقام سدًّا لصد هجمات (يأجوج ومأجوج) على بلاده.

اختلاف العرب في عمر الإسكندر

ويختلف المؤرخون العرب في عدد سنين عمر الإسكندر وقت وفاته فيقول بعضهم أنه بلغ الستين عامًا بعد أن حكم ثلاثة عشر عامًا، على حين أن حقائق التاريخ تثبت أن عمره كان ٣٣ عامًا فقط، ويروي آخرون أرقامًا غير هذه، كما يذهب بعضهم إلى أنه مات مسمومًا، وأنه كتب إلى أمه وهو يحتضر يشجعها على احتمال المصائب، وكانت تقيم بالإسكندرية في ذلك الحين!!! ويجمعون على أن وفاته كانت بمدينة بابل وقت موته.

وصف العرب لجنازته

ويصف المؤرخون العرب جنازته فيقولون أن جثمانه وضع محنطًا – وفاقًا لوصيته – في تابوت من الذهب الخالص، وتعاقب الفلاسفة على رثائه بكلمات موجزة وصفوا فيها غرور العظمة، ثم حمل التابوت إلى الإسكندرية ودفن بها، ويقول المسعودي أنه شاهد أثرًا قديمًا عندما زار الإسكندرية خلال عام ٣٢٢هـ (٩٦٤م)، قيل أنه قبر الإسكندر.

قول العرب بأنه حكيم أو نبي أو قديس

ويجعل ابن فاتك والشهدزوري من الإسكندر حكيمًا من حكماء اليونان ومدافعًا عن العقيدة الصحيحة ولذا اعتبر من البعض أنه النبي المعروف بذي القرنين والمذكور في سورة الكهف، ونسب إليه بعض كتّاب السير من العرب أعمالاً خارقة تشبه المعجزات، أبرزها تتلخص في أن البحر الأبيض المتوسط كان بحيرة كبيرة مغلقة فاستطاع الإسكندر فتْقَ هذه البحيرة فنفذ الماء من مضيق جبل طارق، ولقد جاء هذا القول الأسطوري مطابقًا – بعامل الصدفة البحت – لما جاء بعلم طبقات الأرض إذ ثبت علميًّا أن الأندلس كانت متصلة بمراكش في الأزمنة المتفرقة في القدم.

وجعل بعض الناس من الإسكندر قديسًا بعد موته، فمثلوه في صورة الإله (آمون) وعلى رأسه خوذة من جلد الأسد بها قرنان، ولعلّ صورة الإسكندر بهذه الخوذة هي التي حدت بهؤلاء الناس إلى القول بأنه ذو القرنين المذكور في سورة الكهف ولاسيما أن هذه الصورة موجودة بالفعل بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية وهي من الجرانيت.

ادعاء الفرس أنه منهم

ومن الغريب أن الفرس ادعوا أنه أحد أبنائهم وأن له نَسَبًا في شجرة أنساب الأسرة المالكة، ولعلّ هذا الادعاء كان السبب في أن يذهب المؤرخون العرب إلى أنه ابن دارا الأكبر كما تقدم القول.

نقل جثته إلى مصر

وكانت رغبة الإسكندر أن يُدفَن بواحة سيوة في معبد والده الإله آمون، غير أن بطليموس بن لاجوس الذي اختص بحكم مصر عند تقسيم الإمبراطورية بين قواد الإسكندر عجل بالاستيلاء على جثته ليدفنها في (منف)، ومكانها الحالي بلدة البدرشين، وليس في سيوة، وقد تم الدفن وفاقًا للطقوس المقدونية، وفي عهد بطليموس الثاني «فيلادلف Philadelphe» أي المحب لأخته، نقلت جثة الإسكندر إلى الإسكندرية، وكانت في تابوت من الذهب المطروق – على حد قول بعض المؤرخين – ودفنت في مكان عرف باسم (سيما) أي المقبرة، أو (سوما) أي الجسد، ويدلنا تخطيط الإسكندرية عند إنشائها على أن هذا المكان يقع في شارع النبي دانيال الحالي الذي كان يسمى (شارع السوما) في العهد البطلمي، ويذكر التاريخ أن بطليموس الثاني أعد مقبرة لأبيه وزوجته بالقرب من قبر الإسكندر وفعل ذلك بطليموس الرابع، غير أن بعض المؤرخين يختلفون في تحديد مكان قبر الإسكندر بالضبط فيزعم نفر منهم أنه عند معبد السرابيوم قرب عمود السواري، ويقول آخرون إنه بين القبور الملكية وراء رأس «لوخياس Lochias»، أي خلف لسان السلسلة في شرق الإسكندرية، ويعتمد القائلون بهذا الرأي على ما ذكره «سترابون Strabon» الجغرافي اليوناني الشهير بأن القبر ضمن المباني الملكية، وذكر أحد المؤرخين أن بطليموس الحادي عشر الملقب بالإسكندر الأول، والذي دام حكمه من ١٠٧ إلى ٨٩ق.م. قد استبدل بالتابوت الذهبي تابوتًا من الزجاج، وقال مؤرخ آخر إن كليوباترا جمعت كل النفائس التي كان القبر يضمها، واستولت عليها لتفرج عسرها المالي، وذكر المؤرخ الشاعر «أخيليوس تاتيوس Achilles Tatius» المولود بالإسكندرية، وعاش بها خلال القرن الرابع الميلادي أن مقبرة الإسكندر كانت عند تقاطع الشارع الكانوبي (طريق الحرية الآن) بشارع السوما (شارع النبي دانيال).

وقد ألّف هذا الشاعر رواية غرامية بعنوان «لوسيب وكليتوفون Leucippe et Clitophon» ويقال: إنه اعتنق الدين المسيحي في آخر أيامه وأصبح مطرانًا.

تحديد الفلكي مكان قبره

ودوّن محمود باشا الفلكي في كتابه «الإسكندرية القديمة» أن الطريق الممتد بين شمال المدينة وجنوبها يتفق واستقامة شارع النبي دانيال، وأن موقع تقاطع الشارعين كان عند مسجد النبي دانيال بالضبط، ويؤيد ما ذهب إليه الفلكي ما ذكر في سير القديسين الذين استشهدوا في بداية انتشار الدين المسيحي وذلك في الموقع المسمى (ديماس – وهو كوم الدماس المسمى الآن بكوم الدكة) من عثورهم على آثار ثمينة مغطاة بحجر ضخم يدل النقش المخطوط عليه أنه من عهد الإسكندر الأكبر (انظر مادتي النبي دانيال وكوم الدكة).

زيارة ليو أفريكانو لقبره

وخلال القرن السادس عشر الميلادي زار الإسكندرية «ليو أفريكانو Leo Africano»، وقال إنه لم ير بها إلا شارعًا طويلاً وضريحًا حوله أكواخ، وأطلال، ويضم هذا الضريح جثة الملك إسكندر الذي يزوره المسلمون ملتمسين البركة وهو كائن بالقرب من كنيسة القديس مرقس (الكنيسة المرقصية الحالية)، وهذا التحديد يتفق والمكان الذي عاش في الفترة من عام ٨٨٨ إلى ٩٣٩هـ (١٤٨٣ - ١٥٣٠م)، وقد ولد بمدينة غرناطة بالأندلس وسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج ومر بالإسكندرية، ولدى عودته إلى بلاده، أَسَرَهُ قراصنة جزيرة صقلية، فاعتنق النصرانية وألّف كتابًا في الرحلات، وفي وصف إفريقيا وأعد القاموس العربي اللاتيني.

من هو النبي دنيال؟

وعلى ذكر النبي دنيال أجد من الملائم معرفة شيء من أخباره، فقد ذكر المؤرخ الطبري (انظر هذه المادة) أنه كان ممن أسرهم الملك بختنصر في القدس، وعرف فيه العقل فجعله كاتب سره، ثم استوزره «كورش» فطلب دانيال منه السماح لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشاليم، فأجاب طلبه، ولكنه استبقاه لديه، ولم يعد دانيال إلى وطنه إلا بعد موت هذا الملك، ويفرّق المسعودي (انظر هذه المادة) في كتابه «مروج الذهب» بين اثنين باسم دانيال وهما: دانيال الأصغر وقد عاش أيام التيه، ودانيال الأكبر وقد ظهر في عهد نوح وإبراهيم وإليه تنسب البشارة بملك العالم، ويقال: إنه كتابٌ في النبوءات هو كتاب «الجفر»، ويقول البيروني (انظر هذه المادة) إن هذا النبي استمد حكمته من غار الكنز الذي أخفى فيه آدم أبو البشر أسرار الحكمة، ويقال: إن قبره في مدينة «سوس Suze» وقد عاش كما يقول بعض المؤرخين في القرن الخامس، أو السادس قبل الميلاد.

الشيخ محمد دنيال

أما مسجد النبي دانيال الحالي فينسب إلى أحد شيوخ المذهب الشافعي هو الشيخ محمد دانيال الموصلي الذي يقال أنه استقر بالإسكندرية في أوائل القرن التاسع الهجري، واتخذ هذا المسجد مكانًا يدرس فيه علم الفرائض والأصول وكان المسجد يسمى «مسجد الإسكندرية» ثم صار ضريحًا يزوره الناس وحرّفوا اسم الشيخ دانيال إلى النبي دانيال أحد أنبياء بني إسرائيل.

فضل الإسكندر في اختيار مكان الإسكندرية

والإسكندر هو صاحب الفضل الأول في اختيار مكان الإسكندرية، وإبراز كيانها العظيم إلى حيز الوجود، وليس من المغالاة في شيء وضع هذه المدينة في مقدمة مدن العالم ذات التاريخ الحافل بالمآثر والآثار، ويدل على ذلك أنه لم يمض غير وقت قصير على اهتداء عبقريته إلى اختيار موقعها حتى صارت ثانية مدن العالم المزدهرة بالحضارة، ثم صارت عاصمة العالم المعروف في ذلك الحين بأسره وعاصمة الحضارة الإغريقية الأولى فاحتلت مكان الصدارة في هذه الناحية لا ينازعها فيه منازع، وذلك خلال القرون الثلاثة السابقة للميلاد المسيحي، وهي الحقبة التي تسمى بالعصر الهيلينستي والأجدر هو أن تسمى «بالعصر الإسكندري».

تفسير المؤرخين لهذا الاختيار

ويفسر بعض المؤرخين اختيار موقعها الموفق بأنه كان نتيجة مباشرة لطموح الإسكندر إلى الاستيلاء الخاطف على الشرق لتحطيم كيان الدولة الفارسية في هذا الجزء من العالم، وما كان له أن يحقق هذا الطموح الجياش قبل السيطرة الفعلية على مدينتي صور وسيدا وجزيرة قبرص ومصر، وكانت جميعها موارد للدولة الفارسية تمدها بالجنود، والتجارة، والرقيق للتجديف في السفن بصفة خاصة، وكان الإسكندر يؤمن بأن غزو ساحل سوريا من البر يؤدي إلى تفوقه البحري، ولاسيما بعد أن سرّح أغلب وحدات أسطوله مؤقتًا، ولم يحتفظ إلا بمائة وستين سفينة كان يستخدمها في أغراض دفاعية، ولو طال عمره لاستطاع القضاء على القرصنة في شرق البحر الأبيض، حيث كان للقراصنة السطوة الكلية على هذا البحر، ولذا كانت التجارة محدودة جدًّا في أرجائه بسبب أعمالهم العدوانية التي لم تستطع الدول بعد موته القضاء على هذا الشر.

انضمام الأسطول الفينيقي إلى أسطوله

وقد صدق إيمانه، فلدى استيلائه على الثغور الفينيقية انضم إليه الأسطول الفينيقي، وبادرت قبرص إلى إرسال مائة سفينة لتعزيز هذا الأسطول، هذا علاوة على أن الإسكندر كان يبغي أن تكون الإسكندرية امتدادًا للحضارة اليونانية في الشرق وقاعدة بحرية لسيطرته على شرق البحر الأبيض المتوسط ومركزًا تجاريًّا هامًّا يحل محل مدينة صور التي خربها، ومنطلقًا لتنمية وتوثيق العلاقات الاقتصادية مع شعوب «بحر إيجيه»، وكانت قائمة منذ زمن بعيد مع الأسر الفرعونية.

مكان الإسكندرية لم يكن قفرًا فكانت به راقودة

ولم يكن مكان الإسكندرية وقت إنشائها قفرًا لا تدب فيه الحياة، والحركة، أو موضعا لقرية متواضعة يقطنها جماعة قليلة من صائدي الأسماك تدعى «راقودة Rhakotis»، كما يصفها بعض المؤرخين ومن بينهم العالم الأثري «هوجارث Hogarth» الذي نعتها بهذا الوصف الوضيع بالجزء الثاني من مجلة الآثار المصرية عام ١٩١٥، وتبعه في ذلك كثيرون، فقد دلت الحفريات الحديثة بما لا يقبل الشك، على أن «راقودة» ومكانها الحالي حيّ كوم الشقافة بقسم كرموز، كانت بلدة فرعونية هامة وعاصمة لإقليم واسع يضم ست عشرة بلدة، وقرية يسكنها – علاوة على المصريين – عدد كبير من الأرقاء السوريين الذين كانت كلمة «آم» تطلق عليهم، وأنها كانت حامية أمامية في غرب الدلتا – منذ عهد الأسرة الثانية عشرة، وبالتحقيق منذ عهد الدعامة – وذلك لدرء خطر الهجوم المفاجئ على مصر من ليبيا، كما كانت مرفأً تجاريًّا يعتبر المنفذ الرئيسي لتجارة مصر الخارجية، ونقطة اتصالها ببلدان البحر الأبيض، ولاسيما بلاد الإغريق طوال عصر الأسرات الفرعونية السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين، إذ إن المرفأ في هذه الجهة من الساحل الشمالي المصري يكون أقرب وأسهل للاتصال بالعالم الإغريقي من مرفأ الفرما التي كانت على مسافة عشرين استادًا أي ١٦٥×٢٠ = ٣٣٠٠ متر من البحر على فرع النيل البيلوزي (فرع دمياط)، كما جاء في تاريخ «سترابون»، مما يجعل قربها من فلسطين وسوريا عرضة للتأثر بسلطان الفرس.

حي راقودة واتساعه ومكانته الحضرية

وكان حيّ «راقودة» يمتد إلى ساحل «ميناء العود الأحمد – الميناء الغربي الحالي»، أي أنه كان يشمل منطقة كوم الشقافة، وكفر عشري وجزءًا من حيّ مينا البصل، ومن ثمّ يتضح أن الإسكندرية لم تكن مدينة جديدة في كيانها العام وإنما مدينة قامت على هيكل بلدة قديمة أعيد تكوينها وبناؤها على نطاق واسع الرقعة، فتغيرت معالمها الأصيلة تغيرًا كاملاً، ويؤيد كل ذلك ويؤكده قول «سترابون Strabon» (انظر هذه المادة) الجغرافي اليوناني المولود عام ٥٨ق. م. إن الإسكندرية شيدت في المكان الذي كانت القرية المصرية «راقودة» تحتله مع عدة قرى أخرى، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن المصريين استمرا على إطلاق اسم «راقودة» على المدينة بأكملها مدة طويلة إصرارًا منهم على رفض الاعتراف باسمها الجديد الذي ينسبها إلى الإسكندر، وتدل الصورة التي اكتشفت في مقبرة تحتمس الثالث في طيبة على أن مرفأ «راقودة» كان ذا شأن تجاري هام من أكثر من ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد، فهي تمثل التجار يتأهبون لتفريغ البضائع والتجارة ينزلون إلى الشاطئ ورجال الميناء يتأهبون لإعطاء التصاريح لإنزال السلع، وتحصيل المكوس، وهؤلاء التجّار والبحارة من الفينيقيين .

الأسباب الأخرى لاختيار الإسكندرية مكان المدينة

وعلاوة على ما ذكر قبلاً في تعليل اختيار الإسكندر لموقع الإسكندرية فإن الاعتقاد السائد حديثًا يعزو هذا الاختيار إلى أسباب أخرى منها احتمال التشابه الذي رآه الإسكندر بين موقعها وموقع مدينة صور، فأراد أن تبلغ مدينته الجديدة ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية، ولاسيما أن مكانها الممتاز لا يتطلب القيام بأعمال كبيرة ذات نفقات هائلة كما هي الحال بالنسبة لإنشاء الموانئ العظيمة المعروفة في العصور الهيلينية، ذلك لأن تكوين الساحل الشمالي الغربي لمصر ووجود جزيرة «فاروس» على مقربة من الشاطئ يسهل إلى حد بعيد إجراء هذه الأعمال في يسر، وبأقل ما يستطاع من النفقات، ومن جهة أخرى فإن بلدة «راقودة» لم يكن لها شهرة ذائعة الصيت يخشى معها قيام تصادم بين المؤسسة الهيلينية الجديدة التي تقوم في حيزها وبين التقاليد، والنظم الموروثة فيها، ومن ثمّ يرجى لها التقدم في ظل الحضارة والثقافة الهيلينية في غير خوف، أو وَجَل من تعارضها مع التقاليد الوطنية القديمة في هذه البقعة بالذات .

تأسيس الإسكندرية نتيجة لحملة الإسكندر على الشرق

ويلاحظ أن تأسيس الإسكندرية كان نتيجة طبيعية مباشرة لحملة الإسكندر العارمة على بلاد المشرق، فالإغريق خرجوا من ديارهم لغزو البلاد الآسيوية؛ وليفرضوا عليها عاداتهم، وديانتهم، ولغتهم، وتبعًا لذلك صارت الحضارة الهيلينية غير محصورة في نطاق جزر الأرخبيل ومنطقة «بحر إيجيه» فقط بل امتد تغلغلها في البلاد الشرقية البعيدة ومن ثَمَّ لم تعد بلاد اليونان قادرة على الصمود لتظل عاصمة العالم الجديد الذي فتحه الإسكندر والذي يمتد على سواحل الهند، والخليج الفارسي وشمال الهند وما وراء النهر والعراق وسوريا وآسيا الصغرى، ومصر تجتازه سفن وقوافل التجارة الآتية من إيران وبلاد العرب وجميع هذه البلدان علاوة على القوافل

الليبية، فكان على الإسكندر أن يختار عاصمة جديدة ومرفأً يستوعب موارد جميع هذه المتاجر، ويكون خليقًا بمملكته الشاسعة الأطراف، وكان الإسكندر يعتبر نفسه – بعد أن غزا بلاد المشرق – خليفة أباطرة الفرس وملوك اليونان، وكانت مشروعاته العسكرية تهدف إلى تكوين إمبراطورية تجمع تحت لوائه، وسيطرته جميع فتوحاته في الشرق وبلاد اليونان بأسرها وصبغ كل هذه البلدان المختلفة الأجناس، والتقاليد والعقائد في إطار هيليني بصفة موحدة بغية الوصول إلى تنفيذ آرائه الاجتماعية التي تنشد توحيد الناس في اتحاد عام، واختار الإسكندرية ليكون لها دور إيجابي فعال في هذا السبيل، إذ هي في مركز وسط في شرق البحر الأبيض المتوسط وعلى مسافة متساوية تقريبًا من آسيا الصغرى وبلاد الإغريق وسوريا وتصل إليها عن طريق البحر وبحيرة مريوط تجارة البحر الأبيض والبحر الأدرياتيكي من الشمال، وتجارة البلاد الداخلية وشعوب إفريقيا، والخليج الفارسي، وأقاصي آسيا من الجنوب، ومن ثَمَّ فهي ميناء ذو أهمية اقتصادية ممتازة تفد إليه الموارد التجارية من كل أطراف الإمبراطورية الشاسعة التي كونتها فتوحاته العظيمة المذهلة.

أسباب أخرى لاختيار موقعها

يضاف إلى كل هذه الأسباب أن إنشاء الإسكندرية لا يؤدي إلى الاستفزاز من جانب أية مدينة أخرى، أو إلى الغيرة من أي شعب من الشعوب، ففي كنفها يلتقي الوافدون من البلدان المختلفة الأجناس، والنـزعات فتنصهر الفوارق بينهم في بوتقة واحدة؛ ليصبحوا عنصرًا واحدًا في مركز تلتقي فيه ثلاث قارات، وموطنًا يستوعب كل شعوبها.

وكان من نتيجة كل هذه المزايا التي يتمتع بها موقع الإسكندرية أن تضاءل شأن مدينتي أثينا وكورنثه في العصر اليوناني المتأخر تضاؤلاً تامًّا، وفي النصف الأخير من القرن الثالث أصبحت الإسكندرية أكبر.

هيرودوت وأوصاف سكان راقودة

وقد جاء أبو التاريخ المأثور «هيرودوت Hérodote» الإغريقي إلى مصر في الفترة الواقعة بين عامي ٤٤٨ و٤٤٥ق.م. أي قبل تشييد الإسكندرية بحوالي ١١٦ سنة، ونزل بجهة «كوم سمعدي» في زمن الفيضان، وكوم سمعدي هي قرية «كانوبوس Canopus» التي كان موقعها في الشمال الشرقي من مدينة الإسكندرية في المكان الذي به ضاحية أبي قير الحالية، وتعرض هذا المؤرخ الموثوق في صحة أخباره، ضمن سرد مراحل رحلته التاريخية لعادات وتقاليد أهل قرية «راقودة» ضمن ما دوّنه عن عادات وتقاليد أهل مصر في ذلك الحين، فقال: «إن النساء يذهبن إلى الأسواق ويحملن الأثقال على أكتافهن بينما يحملها الرجال على رؤوسهم، ويأكل الرجال والنساء في خارج بيوتهم عادة، وعندما يقيمون الأعياد للإله «ديونيسوس Dionysos» (وهو إله العنب عند الإغريق وإله الخمر عند الرومان وهو ابن جوبيتير إله القوة)، تحمل النساء تمثالاً لهذا الإله طوله ذراع، ويحركن أعضاءه حتى القبيح منها بوساطة خيوط، وكانت تلك الأعياد تقام بمدينة بوباسطيس وسط الدلتا، فيركب النساء والرجال المراكب الشراعية، وتطبل النساء ويزمّر الرجال، وعند كل مدينة أو قرية تقف المراكب الشراعية وتبدأ النساء في تحريك أعضاء التمثال جميعها ويسخرن من بعض نساء القرى بتحريك قبضة اليد اليمنى في راحة اليد اليسرى بكيفية

نابية، وكانت تستهلك في هذه الأعياد الصاخبة كميات هائلة من النبيذ يتناول النساء قدرًا كبيرًا منها، ولم يكن على البنين أي تكليف قبل الوالدين إذا لم يشاؤوا، أما البنات فالتكليف إجباري بالنسبة إليهن حتى ولو لم يشأن.

وجثث الموتى تترك بالمنازل، ويطوف النساء صحبة قريباتهن وصديقاتهن بالطرق والأزقة وقد لطّخن رؤوسهن، ووجوههن بالطين وهن يندبن ويلطمن الخدود ويرفعن ذيول ثيابهن ويكشفن عن صدورهن، وكالعجين يُعجن بالأقدام، والطين بالأيدي، وكانت الكتابة من اليمين إلى اليسار على غرار اللغة العربية.

انطباق وصف هيرودوت على سكان الأحياء حتى الآن

فهل فيما دوّنه «هيرودوت» غريب على أهل حيّ كوم الشقافة الحاليين وموقعه هو موقع قرية «راقودة» التاريخية بإجماع أقوال المؤرخين؟ وهل هذا الوصف الدقيق لا ينطبق أيضًا على بعض سكان أزقة حيّ الجمرك العتيد؟ يقيني هو أن الوصف مازال من سمات العادات، والتقاليد الراهنة لهؤلاء الأهالي وأن كل ما دوّنه المؤرخ الإغريقي، ما زلنا نرى آثاره ماثلة إلى الآن في مشاجرات بعض نساء الحيين، وهي مشاجرات قد تستمر ساعات طويلة، أو أيامًا في بعض الأحيان تعرض فيها هؤلاء النسوة تحريك الأيدي في تعبيرات نابية تؤذي الآذان وتخدش حرمة الآداب العامة، وفي المآتم التي تقام في أنحاء الحيين تلطخ الرؤوس بالطين، وتلطخ الخدود بالنيلج (النيلة) الزرقاء ويرتفع العويل (الصوات) أمام منازل الموتى وفي الطرقات وراء الجنازات، وكانت هذه العادات السيئة شائعة في معظم أحياء الإسكندرية في فجر القرن العشرين، ولم يخف شرها إلا في العقدين الرابع والخامس من هذا القرن.

وإننا إذا استبعدنا من وصف هيرودوت تناول النساء ما يملأ بطونهن من النبيذ وأعياد الإله نجد أن روايته مازالت تمثل على مسارح أهالي عدة أحياء من مدينة الإسكندرية، كحلقة من حلقات الحياة الاجتماعية السائدة فيها، يضاف إلى ذلك تلك الحركات الماجنة التي تأتيها بعض هؤلاء النسوة بوضع أصابع الكفين بالقرب من موطن الفقه فيهن مع مص الشفتين، وتحريك الكفين ذات اليمين وذات الشمال ثم النطق بالسباب في غير حرج أو رادع.

المرأة الفتوانية بشارع باب الملوك

ولقد رأيت بعينيّ رأسي مشهدًا يستطاع اتخاذه أنموذجًا حيًّا لما كانت عليه نساء كوم الشقافة وكرموز من «فتونة» رجولية جامحة في فجر القرن العشرين وما تتسم به بعضهن من غلظة وشراسة أخلاق إلى الآن.

ففي يوم من أيام الصيف كنت أقطع شارع باب الملوك (انظر هذه المادة) بقسم كرموز في عهد الصبا، وهو شارع يقاطع شارع عمود السواري عند محطة الترام التالية لمحطة العمود نفسه ويسير محاذيًا لشارع «خوفو» (انظر هذه المادة) حتى ينتهي إلى شارع مطحن نعمان الكائن بجوار جامع الميري في قلب حي كوم الشقافة، ففي منتصف ذلك الشارع الذي تقوم المنازل على جانبيه فوق مرتفعين لكل منهما سور من البناء، وجدت ضجة وزحامًا وإذا بامرأة بدينة فارعة القامة في نحو الأربعين من العمر تخرج من فرن بلدي وبين يديها

عارضة خشبية من عوارض الأسقف (مورينة) جزؤها الأعلى ملتهب، ولا يقل طولها عن ثلاثة أمتار، وإذا بهذه «الفتواية» المسترجلة تجري صوب «فتويٍّ» مفتول العضلات والشارب، وتنهال بعارضتها الموقدة على رأسه فيصرخ من الألم، ويستغيث، ثم يهرول هاربًا بين قهقهة النساء وشماتة الرجال وازدرائهم!!

فالمشهد الرهيب، والمضحك في آن واحد الذي مازال يَمْثُل أمام بصيرتي الواعية كلما اتجه خيالها نحو شارع باب الملوك يدل في وضوح على أن أبا التاريخ «هيرودوت» لم يكن مغاليًا في وصفه لحالة نساء كوم الشقافة الاجتماعية منذ حوالي أربعة وعشرين قرنًا، ولم يكن مفتريًا عليهن كذبًا حين حدثنا عن معاملتهن الخشنة الماجنة لنساء القرى الأخرى حينما كن يشتركن في موكب أعياد الإله «ديونيسوس» ليدفن صحبة أزواجهن عظام الحيوانات المقدسة بمدينة «بوباسطيس» وسط دلتا النيل، وفي أزقة قسم الجمرك وحاراته نماذج كثيرة من تلك «الفتوّاية» البدينة صاحبة الفرن، وقاهرة الفتوات بعارضتها الملتهبة الرأس.

هذه التقاليد تميز أهل الإسكندرية

والواقع هو أن هذه العادات والتقاليد التي تطبع أهل الإسكندرية الخلص بطابع مميز ينم عن أرومتهم، ويخبر عن أصولهم العريقة، ويدل في وضوح على أنهم «أسلنجرانية» بحق وحقيق، تؤكد أنهم مازالوا يتصفون بما قاله المؤرخون عنهم في العهد البطلمي من أنهم «يمتازون بحب العمل إلى جانب ميلهم للعناد والنزوع إلى التمرد، والهياج الشديد وإلى اللهو بعد عناء الكبر وطلاقة اللسان في الجدل إذا دخلوا حلبته، وليس من العسير على أي باحث لطباع «الأسلنجرانية» الأصيلين ملاحظة أن كل هذه العناصر الاجتماعية ماتزال من أهم ما تنطوي عليه حيث كانت قرية «راقودة» التي كانت نواة تشييد الإسكندرية.

فالنطح «بالروسية» والفتونة الجامحة و«الشخر» الطويل والمشاجرة لأتفه الأسباب مازالت من خصائص الكثيرين من أهالي الأحياء الوطنية القديمة مثل حي الجمرك واللبان ومينا البصل وكفر عشري وكرموز وغيط العنب والقرى.

مكانة المرأة عند المصريين

ولكن إلى جانب هذه الصفات التي سردها هيرودوت والدالة على «الفتونة الشرسة» كانت للمرأة في قرية «راقودة» وفي غيرها من بلاد القطر المصري مكانة غير منحطة، فكان البيت مملكة لها ولذا كان يطلق عليها «بنت بر» أي ربة البيت وتصور في الرسومات باللون الأصفر لتمييزها عن الرجل لذي كان يرسم باللون البرونزي لعمله في الحقل تحت الشمس، وكانت المرأة تعمل في البيت للغزل والنسج وصنع الجِعّة (البيرة) والخبز، وكان الرجال يعاونون نساءهم في كل هذه الأعمال، وكانت المرأة عند الرجل «محبوبة سيدها» وكان لها شأن كبير في الأمور الدينية، فكانت تقوم بالجانب الموسيقي من الخدمة الربانية، وكانت كبرى الكاهنات تعرف بزوجة الإله آمون رع، وكان العرف السائد هو تزوج الرجل من زوجة واحدة إلا في حالات نادرة، إذ القانون لا يحرم تعدد الزوجات، وقال الحكيم «بتاح جبت»: «إذا كنت ذا مقام فأقم لك بيتًا (أي تزوج)، وأحبب زوجتك في البيت كما يجدر بك، وأشبع بطنها، واكس ظهرها، واشرح صدرها طول حياتك»، ويدل كل ذلك على مكانة المرأة المحترمة في ذلك الحين.

انخفاض الكثبان الرملية في رقعة المدينة

ولم تكن الرقعة التي قامت الإسكندرية عليها وقت إنشائها بالمساحة التي كانت تشتمل عليها في العصور السابقة لتاريخ هذا الإنشاء في عام ٣٣١ق. م. فقد حدث انخفاض في الكثبان الرملية الساحلية عن مستوى سطح البحر مما أدى إلى هبوط في السواحل كان من نتائجه المباشرة طغيان مياه البحر على تلك الكثبان، ومن ثمّ نقصت مساحة الرقعة بمقدار اختفاء الكثبان تحت سطح البحر من منطقة العجمي إلى جزيرة فاروس، ولم يبرز فوق سطح الماء سوى بعض جزر صغيرة مازالت تظهر من غرب المدينة إلى شرقها على الترتيب التالي من حيث أسمائها: المرابط، الأكراش، الفار، القط، الكلب، الحوت، الإخوان، الأرامل، وما من شك في أن هذه الأسماء أطلقت على هذه الجزر في عهود متأخرة بعد الفتح الإسلامي إذ يدل على ذلك أسماؤها العربية.

الأجزاء التي تكونت منها المدينة

وكانت المدينة عند تشييدها تتكون من:

١) **المدينة نفسها**: وتضم قرية «راقودة»، والقرى التابعة لنظامها الإداري، وعددها ست عشرة بلدة كما دوِّن من قبل.

٢) **جزيرة غربية كبيرة هي جزيرة «فاروس Pharos»**: وقد وصفها الشاعر اليوناني «هوميروس Homèros» صاحب ملحمتي «الإلياذة والأوديسة» فقال إنها جزيرة منفصلة عن الشاطئ ولها ميناء ومراس جيدة، يسافر الناس منها بحرًا، وقد كشف البحث في قاع البحر عند ساحل جزيرة «فاروس» عن بقايا من المنشآت دلت على أنها جزء من ميناء هذه الجزيرة القديم الذي وصفه الشاعر «هوميروس».

سكان جزيرة فاروس الأصليون

ويظن بعض المؤرخين أن هذه المنشآت ترجع إلى العصر اليوناني، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنها أطلال ترجع في قدمها إلى عهد رمسيس الثاني، ويعتقد آخرون أنها بقايا الميناء الذي أنشأه أهل جزيرة أقريطش (كريت) في القرن الثاني قبل الميلاد عندما اتسع نطاق سلطتهم البحرية فشملت السواحل المصرية، وعلى كل حال فالتاريخ لا يذكر شيئًا عن هذه الجزيرة التي كانت منفصلة تمامًا عن القارة الإفريقية وعن الحيز الذي شيدت في أرجائه مدينة الإسكندرية في أول نشأتها، وكل ما ذكر عنها أنها كانت قرية ذات مساكن متواضعة يسكنها قوم اتسم سلوكهم بالحدة، والهياج، والكدح المضني في سبيل الحصول على القوت والمرح بعد عناء العمل.

٣) **جزيرة طابية الأطة**: وكان أول عمل قام به المهندس «دينوقراط Dinocratis» (انظر هذه المادة) هو ربط هذه الجزيرة بالشاطئ بسد من الأتربة جزيرة وسطى وهي التي تضم الآن «طابية الأطة» المخصصة لرجال خفر السواحل، وكان يفصلها إلى عهد قريب عن جزيرة «فاروس» قنطرة من البناء تمر تحتها مياه خليج الأنفوشي لتلتقي بمياه البحر «الصُغَيَّر» الذي ردم معظمه وأقيمت فوقه أبنية عدة أهمها مستشفى رأس التين العام وأكثر منشآته تقع في مكان القنطرة القديمة، ثم مركز منطقة خفر السواحل المتمم «لطابية الأطة»، ويليه حلقة الأسماك فمبنى مراقبة التنظيم التابع للمحافظة (البلدية سابقًا)، فمدرسة ابتدائية مشتركة، فنقطة شرطة الأنفوشي.

وكلمة «أطة» تركية ومعناها اللسان الداخل في البحر، وتنطق «أضة» وهو النطق الذي مازال يتردد على ألسنة السكندريين.

بطل طابية الأطة المجهول

بدأ نور النهار يُظهرُ معالم الأشياء للأبصار، وتنفَّس الصبحُ عن يوم ١١ من يوليو عام ١٨٨٢م، ليُلقي بمدينة الإسكندرية في أحضان حوادث جسام ملأتْ جوانبها تدميرًا وأحزانًا، وسطرت لها صفحةً مجيدةً خالدةً أُضيفتْ إلى صفحاتها الخالدات على مرِّ الأيام ومراحل الزمان.

ونهض البطل المجهول تاركًا المقعد الحجريَّ الذي اتخذه مكانًا لطلب الراحة في فتراتٍ قصيرةٍ من الليلة الماضية التي قطعها ساهرًا يجولُ في أرجاء طابية الأطةِ التي عُهِدَ إليه بقيادة حاميتها وأُمر بأنْ يكونَ هو ورجاله الدرع الواقي لحصن قايتباي على يمينه، وطابية الاسبتالية على يساره في رأس التين، وأخذ يُصدر الأوامر لجنوده ويشجعهم على الاستماتة في الدفاع عن أرض الوطن، ويرتب كلَّ فصيلة منهم حول المدافع الأربعة والعشرين التي تتألف منها قوة الحصن الدفاعية، ووضع حول المدفع الكبير عيار ١٠ بوصة، والمدافع الثلاثة من عيار ٩ بوصة، والمدفع الخامس عيار ٨ بوصة خيرة رجاله المشهود لهم بحسن الدراية وسداد الرماية وإصابة الأهداف في دقة بارعة، ووضع حول المدافع الأربعة عشر الأخرى التي تُعبَّأ من الخلف، وبجانب مدافع الهاون الخمسة وكلُّها من الطراز القديم، نُخْبةً من الفدائيين، وأمرهم بالقتال حتى الموت، إذا أقدم العدو على النزول إلى البر.

هكذا قضى البطل المجهول الليلة السابقة ليوم ١١ من يوليو المشؤوم لا يستقر على حالٍ ولا يهدأ ويُرتب كلّ شيء في حرصٍ بالغ استعدادًا لمعركة الغد.

وكان القائد الإنجليزي الأميرال «سيمور Seymour» قد صمم على ضرب الإسكندرية ليُحرز للبحرية البريطانية نصرًا رخيصًا، يقوم على الغدر السياسي والجشع الاستعماري الذي لا يعرف للأطماع البشعة حدًّا ولا يرعى لسيادة الشعوب حقًّا أو حرمة.

صمم الأميرال «سيمور» على ضرب المدينة بقنابل أسطوله بزعم أن حصونها لم تُجَدد ولم يُضاعف عدد مدافعها، ولم يُصْغ للتأكيدات التي أُبلغت إليه وكلُّها تقطع ببطلان زعمه.

وكان البطل المجهول يسترسل في التفكير كلما ركن إلى مَقعده الحجري ويستعرض حالة حصن «الأطَة» في شيء من الوجوم والإشفاق، فهو كضابط من رجال المدفعية المحنكين، يعلم علم اليقين أنّ مدافعه الخمسة من طراز أرمسترونج عيار ٨، ٩، ١٠ بوصة، لا تقوى على مقاومة مدافع البوارج البريطانية البعيدة المدى، ويعلم أن المدافع التسعة عشر القديمة الأخرى ضئيلة النفع بالنسبة إلى حرب الحصون الساحلية، وأنّ ذخيرته قليلة لا تكفي لقتالٍ طويل المدى.

غير أن الوطنية الصادقة وقوة البسالة وحب الاستشهاد في سبيل الله والوطن كانت تستولي على جوانحه، وتغمر وجدانه بالشجاعة، فيبتسم للغير ويستخف بحوادثه، ويُعدُّ لمواجهته كل هذه الإحساسات النبيلة التي هي شعار الأبطال.

وبعد أن أدى البطل فريضة الصلاة أمر بضرب النَّوْبة، فرفع العلم إلى قمة السارية القائمة بجانب مقعده الحجري، وأحاط به مساعدوه وتلقوا أوامره الأخيرة، وهي تقضي بأن يستمر دفاع حصن «الأطة» أطول مدة ممكنة، ومن ثمّ يتعين إلقاء القنابل على الأسطول الإنجليزي الغاصب، بمعدل مرة كل عشر دقائق.

وصوَّب البطل منظاره الكبير إلى مدرعات العدو، وقد شرعت منذ الصباح الباكر في إلقاء قنابلها التي يبلغ وزن بعضها ١٧ رطلاً على حصن قايتباي وعلى حصن الاسبتالية في رأس التين، ثم تختفي وراء قصر رأس التين لتعاود اعتداءها الغاشم على حصون الفنار وصالح وأم قبيبة بجهة المكس.

وتوسطت الشمس كبد السماء، وإذا بالمدرعات البريطانية «سلطان Sultan»، و«سوبرب Superb»، و«ألكسندرا Alexandra» تظهر أمام حصن «الأطة» وتستعد للقتال، ولعلّ شعور الأميرال «سيمور» الباطن كان يُحسّ بأن قائد الحصن البطل المجهول لن يستسلم لجبروته في سهولة، فاستدعى لتعزيز أسطوله البارجتين «أنفلكسيبل Inflexible»، و«تمرير Temeraire»، وهكذا تجمعت لمنازلة الحصن المناضل، خمس مدرعاتٍ هي أقوى قطع الأسطول الإنجليزي المهاجم، وعند الثانية عشرة والنصف بعد الظهر أخذت الوحدات الخمس تُطلق قنابلها على حصن «الأطة» دفعة واحدة، واستمر الهجوم ساعةً كاملة دافعت خلالها حامية الحصن دفاعًا سجل لقائدها ولجنودها سطورًا من البطولة الفذّة سيذكرها التاريخ بالمجد على مر القرون.

ففي كل عشر دقائق كان البطل المجهول يصدر أوامره إلى المدافع بإطلاق النار فتصيب القنابل مدرعات العدو إصابات مباشرة محكمة بفضل تحديد القائد هدفها تحديدًا يدل على المهارة الحربية الفائقة وذلك بمنظاره المكبر.

وعند الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر شاء القدر أن تصيب قنابل الأعداء مستودع الذخيرة فتنسفه وتُدَمِّر الطابية المجاهدة وتقضي على أكثر جنودها الشجعان وتُلقي بسارية العلم وبأشلاء «البطل المجهول» في الفضاء فتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها راضيةً مرضية، وعندما وطأت أقدام الغاصبين أرض «طابية الأطة» عثر أحد ضباطهم على ذراع القائد البطل اليمنى، وقد تجمدت أصابعها حول منظاره الكبير وإلى جواره العلم المصري في نصف ساريته مخضبًا بدماء الشهداء الأبرار.

وأبلغ دليل على الفضل ما شهدت به الأعداء، فالكابتن «ولتر جودسال Waltér Goodsall» ربان الباخرة «شيلتون Chelton» من سفن شركة الإسترن تيلجراف يشهد ببسالة هذا البطل المجهول الاسم فيقول: «لقد عَجِبْتُ لهذه البطولة التي كان جنود حصن الأطة يتحلَّوْن بها وهم يُطلقون مدافعهم، وأُعجبتُ أشدّ الإعجاب بموقف قائد الحصن، وهو قرب سارية علمه والمنظار في يده يشاهد منه الأثر الذي تُحدثه القنابل التي يأمر بإطلاقها، ولقد كان شجاعًا يستخف بالقنابل التي تصيب حصنه ويحارب في بسالة منقطعة النظير، ويأمر بإطلاق مدافعه مرةً كل عشر دقائق»، ويستمر الضابط الإنجليزي في روايته فيقول: «وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصابت القنابل مستودع البارود فنُسف، وطارت أشلاء عدد كبير من الجنود في الفضاء ومعها أشلاء الضابط الشجاع

تصحبه سارية علمه، وكان يقف وقْفة الأسد في عرينه غير هياب ولا وجل».

وفي شهادة «الأميرال سيمور» نفسه ما يوضح في جلاءٍ أن هذه البطولة الفذة وهذا الاستشهاد التاريخي في سبيل الله والوطن في تضحية واستبسال، كانا ومايزالان من شيم الشهداء العرب.

فقد دوَّن هذا الأميرال الإنجليزي في التقرير الذي كتبه عن الحملة وذلك في ١٤ من يوليو عام ١٨٨٢ أي بعد ضرب الإسكندرية بثلاثة أيام ما يلي: «لقد قاتلَ المصريون قتال الأبطال، وثبتوا في مواقفهم ثبات الشجعان، وحاربوا وناضلوا ضد النيران الشديدة التي كانت مدرعاتنا تصبّها عليهم إلى أن قتل معظمهم».

وحصن «الأطة» كان أحد حصون الإسكندرية الدفاعية ضد هجمات الأعداء البحرية، وكلمة «الأطة» تركية ومعناها الجغرافي الجزيرة، وتنطق «الأضة» كما ينطق بها أهل الإسكندرية إلى الآن، والحصن واقع بين خليج الأنفوشي وحصن «قايتباي» ويستخدم في الوقت الراهن ثكنة لقوات خفر السواحل، وكان في مستهل القرن العشرين يفصله عن شاطئ الأنفوشي قنطرة حجرية كان ماء خليج الأنفوشي يسرب تحتها إلى البحر الصغير، وهذا يدل على أن هذه الجهة كانت جزيرة فعلاً.

وكان لي قريب توفاه الله وقد تجاوز المائة من عمره، وكان شابًّا يوم ضرب الإسكندرية فخرج مع سكان حيّ السيّالة ورأس التين يُكبِّرون الله ويطلبون منه النصر للمدافعين عن الوطن، ورأى بعيني رأسه دفاع حصن «الأطة» الباسل، وكان يُهلِّل ويكبر كلَّما أصابت قنابل الحصن الوئيدة إحدى سفن العدو، غير أنّ قنابل الإنجليز صُوِّبت نحو جموع المواطنين المحتشدين بالقرب من الحصن فألصقت أشلاء عددٍ كبير منهم بِجُدران المنازل الواقعة على طول خليج الأنفوشي، ومن ثمّ لم يكن في وسع الأحياء إلا الالتجاء إلى داخل المدينة اتقاء الموت المحقق، رَحِم الله شهداء الإسكندرية في ١١ يوليو عام ١٨٨٢ المشؤوم وأسكنهم فسيح جنَّاته.

٤) **جزيرة منار الإسكندرية**: وهي جزيرة شرقية، وكانت منارة الإسكندرية العجيبة الضخمة ترتفع فوقها، ثم شيد في حيزها حصن «قايتباي» (انظر هذه المادة)، وكان يفصلها حتى أوائل القرن العشرين فاصل ضحل المياه اختفى إثر إقامة المنشآت على طول اللسان الممتد بين نقطة شرطة الأنفوشي والحصن ذاته، وأهمها نادي اليخت، ومعهد الأحياء المائية، والمتحف البحري، هذا إلى جانب الترسانات الصغيرة التي أعدها بناة القوارب (والبراطيم واللنشات) بين نقطة الشرطة وتلك الأبنية وذلك بعد أن ضاق بترساناتهم التقليدية، ساحل خليج الأنفوشي عقب ردم أجزاء مختلفة منه، وإقامة مركز الثقافة، ومسرح يوسف وهبي، والسينما الصيفي، وطارمات للاستحمام في الجزء الغربي الذي ينتهي عند رأس التين.

ظواهر المدينة الطبيعية

ولعل من المفيد التحدث هنا عن بعض الظاهرات الطبيعية التي تلاحظ في الكيان الجوي العام لمدينة الإسكندرية الخفيفة الظل البديعة الرواء الهنيئة الإقامة الممتعة الاصطياف.

ألكسندر بيرونا وتسجيل تقلبات الجو

وأول من سجل تقلبات مناخها على مدار فصول السنة بوساطة الآلات الدقيقة هو المسيو «إسكندر بيرونا Alexandre Perona» الذي كان قنصلا لألمانيا بالإسكندرية (انظر مادة بيرونا)، وكانت التسجيلات الميتورولوجية تؤخذ مرتين في اليوم من أجهزة وضعت في القنصلية النمساوية بشارع مسجد العطارين (انظر هذه المادة)، وظلت تؤدي عملها طوال المدة الواقعة بين عامي ١٢٩٢ و١٣١٤هـ (١٨٧٥- ١٨٩٦م) أي ٢٣ عامًا ميلاديًّا، وكانت هذه التسجيلات تؤخذ عند التاسعة صباحًا والتاسعة مساءً.

مرصد كوم الناضورة

وكانت مصلحة الموانئ والمنائر قد أنشئت في شهر سبتمبر عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ)، محطة أرصاد جوية فوق كوم الناضورة الواقع في منتصف شارع الباب الأخضر (السكة الجديدة) (انظر الباب الأخضر)، وذلك على ارتفاع ٣٢ مترًا عن سطح البحر، وفي عام ١٩٤١م (١٣٦٠هـ) أُنشئ مرصد آخر في مطار الإسكندرية بجهة حدائق النزهة.

معدل درجات الحرارة بالمدينة

ويقدر معدل درجات الحرارة بالمدينة خلال شهر يناير بحوالي ١٣,٧ درجة مئوية، ويأخذ في الارتفاع التدرجي الوئيد إبان شهري فبراير ومارس ثم يسرع في الارتفاع ابتداءً من شهر إبريل إلى أن يصل إلى ذروة ارتفاعه في أغسطس فيبلغ ٢٦,٢ درجة مئوية، ومن ثَمَّ يأخذ في الهبوط البطيء في سبتمبر، وأكتوبر، ويسرع في الانخفاض خلال شهري نوفمبر وديسمبر ويقدر معدل درجة الحرارة بالمدينة على مدار السنة بحوالي ٢٠,١ درجة مئوية، والبحر الأبيض المتوسط مكان صالح لخزن كميات هائلة من المياه الدافئة إذ الحرارة في أرجائه لا تقل عن ١٢ درجة مئوية على مدار السنة، وتسجل المياه المصرية القريبة من السواحل أعلى متوسط حراري إذ إن هذا المتوسط يتراوح بين ١٦ و ١٧ درجة مئوية، وتتراوح حرارة المياه السطحية أمام تلك السواحل في شهر أغسطس بين ٢٥ و٢٨ درجة مئوية، ولذا فإن شهر أغسطس هو أشد الشهور حرارة في الإسكندرية.

ويلطف نسيم البحر شدة الحرارة خلال النهار في فصل الصيف، ويستمر نسيم البرّ في سريانه العليل على أنحاء المدينة من الساعة الثامنة مساء إلى شروق الشمس، إذ يشعر الإنسان بهبوبه الحنون طوال هذه الفترة من اليوم، وسرعة الرياح التي تهب على المدينة تبلغ ١١ كيلومترًا في الساعة خلال شهر أكتوبر وترتفع إلى ١٣ في ديسمبر، وتصل إلى ١٦ في يونية ويوليو، وتصل إلى ١٦,٥ درجة مئوية في فبراير ومارس، ودرجة الرطوبة بالإسكندرية تظل منخفضة إلى أدنى درجة طوال فصلي الربيع والخريف، فتهبط خلالهما إلى ٦٨٪ في شهر مارس، وترتفع درجة واحدة في شهري سبتمبر وأكتوبر، ولا تصل إلى ذروتها إلا في شهر يوليو فتبلغ ٧٧٪، وفي شهر أغسطس تهبط بعض الشيء فتسجل ٧٥٪، ويرجع هذا التقلب في درجات الرطوبة إلى البحر وهو ظاهرة طبيعية تمتص بعض مياه موجات البحر لتنشرها على سواحل المدينة في فترة قصيرة نسبيًّا من السنة، وتشد الحرارة والرطوبة في شهري يوليو وأغسطس، ففي يوليو تبلغ الحرارة ٢٥,٤ درجة مئوية، والرطوبة ٧٧٪، وفي أغسطس تبلغ الحرارة ٢٦,٢ درجة مئوية، والرطوبة ٧٥٪.

معدل سقوط الأمطار عليها

ولا يتعدى سقوط المطر على الإسكندرية الستين يومًا في كل عام، ولا يتجاوز مقداره ١٨٠ ملليمترًا، ويبدأ فصل الأمطار عادة في شهر نوفمبر، وينتهي في شهر إبريل أي أنه يستمر خمسة أشهر، ويلاحظ أن كمية المطر يقل سقوطها على ضاحية الدخيلة الواقعة في غرب المدينة، وذلك بالنسبة إلى كمياته التي تسقط على ضاحية المكس القريبة منها، وتقل هذه الكميات أيضًا بالنسبة إل منطقة كوم الناضورة بشارع الباب الأخضر، وهذا مصداق لقول الله تعالى في قرآنه الحكيم: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

مدينة نوقراطس

وعلاوة على الأسباب التي اختار الإسكندر الأكبر من أجلها موقع الإسكندرية، وقد ذكرت قبلاً فإن المؤرخين يضيفون إليها سببًا آخر هو وجود مدينة يونانية بالقطر المصري يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين، وهذه المدينة هي مدينة «نوقراطس Noucratis» التي تقوم مكانها في الوقت الراهن «نقراش وكوم جعيف ونيبرة» بمركز «إيتاي البارود» في غرب الدلتا وكان تشييدها خلال عام ٦١٢ ق.م. في عهد الملك «أبسماتيك» مؤسس الأسرة الآنفة الذكر، ويذكر التاريخ أن هذه المدينة التي شيدت على فرع النيل الكانوبي (فرع رشيد الآن) صارت فيما بعد مركزًا تجاريًّا مزدهرًا يضم جالية إغريقية كبيرة، كان الملك «أحمس الثالث» قد أخذ في حشدها بمصر إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد، ولم تكن نوقراطس مستعمرة من الطراز الإغريقي المألوف، وإنما مؤسسة تجارية في قطر أجنبي، وكان وجود هذه المدينة بالقطر المصري دليلاً على العرفان بالجميل للإغريق الذين لم يبخلوا على المصريين بالعون للتخلص من الاستعمار الآشوري والفارسي، فأمدوهم بأسطول عديد الوحدات، وتطوع للانضمام إلى جيوشهم، كثير منهم كانوا يرفضون الانضمام إلى الجيوش الآشورية أو الفارسية لإخماد ثورات المصريين، وهكذا ظلت العلاقات الطيبة تسود المعاملات المختلفة بينهم طوال العهد الفارسي في مصر.

وصف جالوتز لنوقراطس

ويصف «جالوتز» مدينة نوقراطس الإغريقية بأنها تقع على أحد فروع النيل الصالحة للملاحة ويصلها بمدينة «سايس» (صا الحجر) عاصمة أسرة أبسماتيك قناة، ويدير شؤونها في مهارة وحزم أغريق، وهي بمخازنها الأربعة التي تشرف عليها المعابد وبطرقها المتشابكة التي تكتنف الميناء، وبمنتجاتها من الفخار والقيشاني والقرميد الزخرفي، وبأحيائها المخصصة لسكنى الأهالي، بكل هذا تبدو وكأنها مدينة من تلك المدن الآهلة بالسكان الزاخرة بالحياة والحركة التي كانت التجارة في مختلف العصور سببًا في قيامها على جوانب البحر الأبيض المتوسط، ويدل قيام هذه المدينة الإغريقية على علاقة المصريين باليونانيين منذ زمن بعيد، ويوضح التاريخ أن «أبسماتيك» استطاع طرد المستعمرين الآشوريين من مصر بفضل معاونة الجنود المرتزقة اليونانيين، وليرد لهم الجميل سمح لهم بتشييد تلك المدينة، وبإقامة تجارتهم بالقطر المصري، وكان هؤلاء التجار في أول الأمر من مدينة ميليتوس الإغريقية بآسيا

الصغرى، وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين المملكة الليبيدية وشعوب البحر الأبيض المتوسط.

احتفاظ نوقراطس بطابعها اليوناني

واحتفظت «نوقراطس» بكيانها وطابعها اليوناني طوال العهد الفارسي في مصر، ولم تندثر إلا في القرن الثالث الميلادي، وكانت صناعتها مزدهرة، ولاسيما في الأواني الفخارية والمنسوجات والصور والحلي والجعارين، وكان أهلها اليونانيون يمارسون – إلى جانب نشاطهم التجاري الخاص – الوساطة بين التجار المصريين والتجار الإغريق، ومن نوقراطس كان يشحن قمح الدلتا والصعيد في السفن الإغريقية التي كانت تجلب من اليونان السلع المختلفة، وتحمل إلى اليونان الزيتون والنبيذ من الدلتا، وقد كانت مصر غنية بكرومها في العصور القديمة.

والواقع هو أن «نوقراطس» (انظر هذه المادة) ظلت مدينة إغريقية صميمة، وتوفرت لها كل مظاهر الحضارة اليونانية وعاش أهلها الإغريق يمارسون طرقهم في الحياة الاجتماعية والسياسية وفاقًا للأساليب المألوفة في بلادهم الأصيلة.

ومن المحتمل جدًّا أن يكون أهلها قد اقترحوا على الإسكندر – إبان إقامته القصيرة بالقطر المصري – اختيار موقع الإسكندرية لوجود بحيرة مريوط خلفه، واتصال هذه البحيرة بالنيل، مما يؤدي إلى قيام ميناء على البحر المتوسط ذي مورد مائي عذب سهل الاتصال بالنيل بصفة دائمة.

بحيرة مريوط

والواقع هو أنه كان لبحيرة مريوط أثر هام في تكوين مدينة الإسكندرية على مر القرون المنصرمة.

فالمراجع التاريخية الموثوق في صحتها لم تشر إلى ما يثبت أن هذه البحيرة كانت متصلة بالبحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة، بل الواضح من هذه المراجع أنها كانت في تلك العصور عذبة تتدفق إليها مياه النيل عن طريق عدد من الترع التي تأخذ مجراها من الفرع الكانوبي الذي كان يصب في ذلك الحين البعيد عند قرية «كانوبوس Canopus» القديمة التي أقيمت مكانها ضاحية أبي قير الحالية، ويرى الدكتور سليمان حُزيّن فيما دوّنه في «تاريخ الحضارة المصرية» أن ساحل بحيرة مريوط من أوائل المناطق التي غرس الإنسان فيها شجرة العنب وشجرة الزيتون.

وكان للبحيرة ميناءان أحدهما داخلي والآخر على البحر، ويقول «سترابون» أن البضائع من مختلف السلع التي كانت ترد من الخارج على الميناء البحري، ومن ثَمَّ كان الميناء الواقع على البحيرة أهم وأغنى من الميناء الواقع على البحر الأبيض المتوسط.

دينوقراطس مخطط المدينة

وبعد أن أرسى الإسكندر أساس مدينة الإسكندرية عهد بتخطيطها إلى المهندس «دينوقراطس الرودي Dinocratis» الذي مازال اسمه يطلق على شارع بحيّ الأزاريطة بالقرب من لسان السلسلة (انظر مادة دينوقراط)، فقام بهذا العمل على أحسن مبادئ تخطيط البلدان في ذلك الحين، فجعل بعض

شوارعها المستقيمة تقاطع البعض الآخر في زوايا قائمة، وهذا النظام التخطيطي كان محببًا إلى اليونانيين ومن ثمّ جاء شكل المدينة على هيئة رقعة الشطرنج، وتذكر المراجع التاريخية أن الإسكندر حدد الأماكن التي يجب أن تقام فيها الهياكل لمعبودات المصريين واليونانيين، والمنشآت العامة قبل مغادرته القطر المصري لإتمام غزواته، وأنه ترك فرقة من الحرس المقدوني وأذن لكثير من اليونانيين والآسيويين في استيطانها، ويلاحظ أن التخطيط الموضح قبل، كان شائعًا في القرن الخامس قبل الميلاد وقد اتبع في تشييد مدينة «بيرايوس» (ميناء بيريه الحالي باليونان).

موقع المدينة كما وصفه الفلكي

ويقول محمود باشا الفلكي (انظر هذه المادة) في كتابه «الإسكندرية القديمة Alexandrie Antique»: «أن موقع المدينة يقوم فوق سلسلة صغيرة من الجبال المنفصلة عن سلسلة الجبال الليبية التي وراء برج العرب وتنقطع فجأة عند رأس أبي قير ومدينة كانوبوس القديمة، فهي بذلك تغلق وادي النيل إذ تتاخم في الشمال الغربي بحيرة مريوط، تتراوح بين ألف وثلاثة آلاف من الأمتار (ذلك في وقت تأليف كتابه)، وطبيعة الأرض صخرية جيرية بوجه عام، وبالحفر فيها ينبثق دائمًا ماء الشرب على عمق يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار في الأجزاء المنخفضة»، وهذا القول يؤيده أنني رأيت في فجر القرن العشرين معظم منازل قسم الجمرك – أي جزيرة فاروس – وبها آبار مياهها عذبة وكان بالمنزل الذي ولدت فيه بجهة أبي وردة بئر من هذه الآبار التي ذكرها المؤرخ الفلكي.

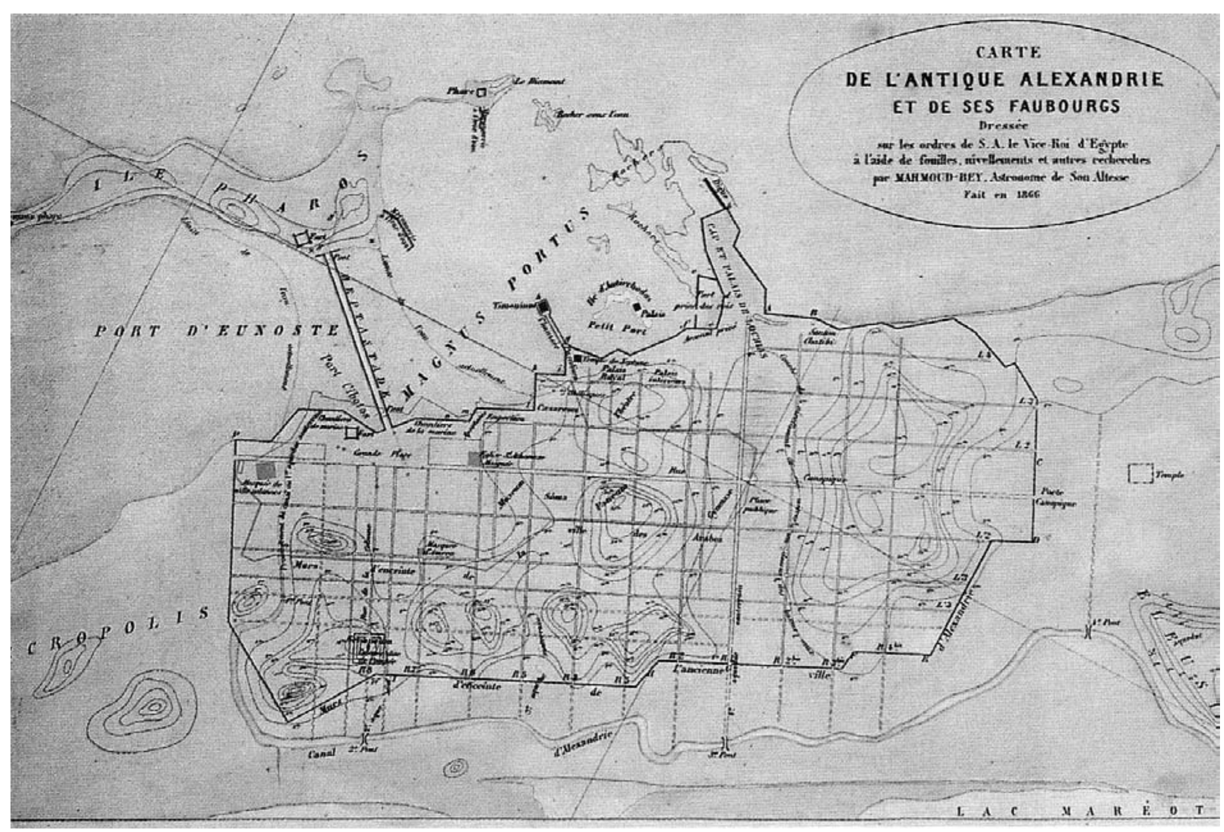
ويستطرد الفلكي قائلاً: «إن هذه المنطقة بها مرتفعات من الرمل نسبة السيليكا فيه ضئيلة جدًّا، وأعلى التلال التي تتكون منها هذه السلسلة لا يزيد ارتفاعه على ٣٥ مترًا عن سطح البحر والجزء المقابل لجزيرة فارس من الأرض يتراوح عرضه بين ١٦٠٠ و٣٠٠٠ متر، وطوله خمسة كيلومترات تقريبًا، وارتفاعه عن سطح البحر يبلغ في جهات عديدة نحو ثلاثين مترًا، وإلى اليمين واليسار تتناقص الأرض كثيرًا في العرض، ولا ترتفع عن مستوى سطح البحر إلاّ بنحو عشرة أمتار.

وهذه المنطقة التي يحيط بها البحر من جانب، وبحيرة مريوط من جانب آخر، والتي لا يمكن الوصول إليها برًّا من جانبين ضيقين يسهل الدفاع عنهما، والتي جبتها الطبيعة بميناء فريد على شاطئ منخفض تتخلله الصخور، هذه المنطقة تجمع في ذاتها كل المزايا الممكنة لمدينة منيعة ومركز تجاري».

ولا ريب أن هذه الاعتبارات هي التي جعلت الإسكندر الأكبر يختارها، ولم تكن أهمية هذا الموقع خافية على الفراعنة القدماء الذين خشوا الغزو من جانب الإغريق الذين أخرجتهم المجاعة والفاقة من بلادهم، فعهدوا بحراسة هذا الموقع إلى القبائل المجاورة، وخصصوا لإقامتها – كنقطة مراقبة – برج «راكوتيس Racotis» (راقودة) الذي أصبح فيما بعد حيًّا كبيرًا من أحياء الإسكندرية».

تحديد الفلكي لطول المدينة وعرضها

ولقد حدد محمود الفلكي طول مدينة الإسكندرية وعرضها ومحيطها عند إنشائها فأثبت – للوصول إلى هذا التحديد الهندسي الدقيق – أن طول الإستاد اليوناني ١٦٥ مترًا، وعلى أساس هذا الطول يكون طول المدينة الكلي ٤٩٥٠ مترًا، وهذه المسافة تتفق مع المسافة التي حددها كل من



خريطة الفلكي للإسكندرية القديمة

«فلافيوس جوزيف Flavius Joseph» و«فيلون Philon» الفيلسوف اليهودي الإسكندري، وهي ٣٠ إستادًا بفارق يبلغ ١٤٠ مترًا تقريبًا، أما قول ديودور الصقلي بأن طول المدينة كان أربعين إستادًا فيرجع في غير شك إلى أنه يضيف إلى حيز المدينة الحقيقي جزءًا من مدينة الموتى (نكروبوليس) التي كانت في غرب المدينة في الجهة التي تضم الآن حيّ القباري والورديان والمكس، وإذا أضيف الفرق الذي وجده الفلكي في القياس الذي قام به قبل عام ١٨٦٦م – وهو التاريخ الذي انتهى فيه من تأليف كتابه عن الإسكندرية القديمة – أقول إذا أضيف هذا الفرق وهو ١٤٠ مترًا يصبح طول المدينة ٥٠٩٠ مترًا، أما عرضها فوجده الفلكي متغايرًا، فقد كان ١١٥٠ مترًا في الجهة الغربية للمدينة ويشمل المسافة الممتدة من الميناء الغربي عند «هاويس المحمودية» تقريبًا بقسم مينا البصل إلى ما وراء كوم الشقافة.

وكان بطول ١٤٠٠ متر في الجهة الشرقية، ويشمل المسافة الممتدة من البحر عند حيّ كامب شيزار تقريبًا إلى الحضرة، ويصل طول هذا العرض إلى ١٥٦٠ مترًا في المسافة الممتدة من بداية جسر آلهيتا ستاديوم، بالقرب من كوم الناضورة بشارع الباب الأخضر إلى جنوب المدينة، ويرتفع طوله إلى ٢٢٥٠ مترًا من رأس لوخياس (لسان السلسلة) إلى

الجنوب، ويبلغ ١٧٠٠ متر في الجزء الأكبر من نواحي المدينة الأخرى.

تحديد الفلكي لمحيطها

وحدد الفلكي محيط المدينة بما يقرب من ١٦٤٠٠ متر، ويصل هذا المحيط إلى ٢٢,١٩٢ مترًا إذا ضمت إليها ضاحية «نكروبوليس» (مدينة الموتى).

شوارع المدينة عند إنشائها

ووفاقًا لأعمال الحفر التي أجراها الفلكي في مواضع كثيرة من المدينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اتضح أنه كان بالإسكندرية عند إنشائها أحد عشر شارعًا رئيسيًّا تخترقها عرضًا من الشمال إلى الجنوب وسبعة شوارع كبيرة مرصوفة تخترقها طولاً من الغرب إلى الشرق، وكان الشارع الكانوبي (طريق الحرية الآن) يتوسط الشوارع الطولية، فكانت ثلاثة شوارع تمتد في محاذاته نحو الميناء الشرقي في الشمال وثلاثة أخرى تمتد في محاذاته نحو الجنوب أي نحو ترعة شديا التي كانت تسري على بعد قليل من ترعة المحمودية الحالية جنوبًا، وثبت من وثائق البردي أن أسماء ملكات البطالمة كانت تطلق على الشوارع العرضية، وقد أطلق «أرسينوته الثابتة» على أحد هذه الشوارع (انظر مادة فيلادلف).

الشارع الكانوبي وأعمدته الجانبية

وكان طول الشارع الكانوبي ٥٠٩٠ مترًا، أي ما يعادل طول المدينة نفسها، وكانت بدايته من الجهة الغربية عند أول حيّ القباري ونهايته في الجهة الشرقية عند الباب الكانوبي الذي سمي فيما بعد «باب شرقي» أما عرضه فكان ١٤ مترًا.

واتضح من الحفريات التي أجراها الفلكي على جانبي الشارع الكانوبي أن الأعمدة كانت تنتصب على جانبيه، إذ وجد بعضها محطمًا على امتداد الشارع، وقد شاهد «جراتين ليبر» في أثناء الحملة الفرنسية على مصر ثلاثة من هذه الأعمدة عند موقع كنيسة القديس أثناسيوس (مسجد العطارين الحالي) كما شاهد منها ثمانية أخرى بالقرب من الباب الكانوبي (باب شرقي)، وعلم الفلكي من بعض السكان أنهم شاهدوا صفوفًا منها على خط مستقيم تجاه كوم الدكة، واكتشف الفلكي بعضًا من هذه الأعمدة، ويدل ذلك في جلاء على أن مباني الشارع الكانوبي وبعض الشوارع الهامة الأخرى كانت تقوم على أعمدة في بوائك منتظمة السياق.

ويؤيد ما ذكره الفلكي بشأن هذه الأعمدة الجرانيتية الحمراء أنه عندما أرادت بلدية الإسكندرية مد شارع بلجيكا (شارع سليمان يسري حاليًّا)، ليستقيم في طوله مع شارع عبد المنعم (شارع إسماعيل مهنا الآن) الموصل إلى دار المحافظة (دار مديرية الأمن حاليًّا) غارت الأرض عند تقاطع شارع بلجيكا بشارع النبي دانيال أمام مبنى سلاح الإشارة الجديد، ورأيت ورأى الناس معي في عمق الحفرة عمودين من الجرانيت الأحمر يماثلان العمود القائم بجوار مسجد سيدي عبد الرازق الوفائي الذي ينتصب في عمق يقرب من عمق تلك الحفرة، ولم ترفع مصلحة الآثار العمودين من الحفرة لوجود أمثالهما بالمدينة، وردمت الحفرة عليهما ورصف الشارع فوقها.

نسبة تسمية الشارع الكانوبي

وتنسب تسمية شارع «كانوب» إلى فرع النيل الغربي (فرع رشيد حاليًّا) الذي كان مصبه في ذلك الحين عند قرية «كانوبوس Canopus»، وكان موقعها بالقرب من ضاحية

أبي قير الحالية وكانت تشتهر بالسمعة السيئة في العهد البطلمي لأنها كانت موطنًا للملذات والاستمتاع بالسهرات الماجنة.

أحجار رصيف الشوارع

وقد أثبت الفلكي من الحفريات التي أجراها أن الأحجار التي رصفت بها الشوارع الطولية والعرضية الهامة متماثلة في كل مكان، فهي كتل سوداء أو رمادية سمكها نحو عشرين سنتيمترًا، ويتروح طولها وعرضها بين ٣٠ و٥٠ سنتيمترًا، واتجه إلى الاعتقاد في أناه جلبت من أسوان أو من الجبال المجاورة لها ولاحظ أنها من نوع الأحجار نفسها التي تكسو جانبًا من الهرم الثالث بالجيزة، وهي متماسكة تماسكًا شديدًا وصلبة للغاية، واستدل من فحصه لطبيعة أرض المدينة أن رصف الشوارع حدث في عهد الرومان!!

ووجد الفلكي أن وسط الشارع الكانوبي بقي سليمًا بالنسبة إلى كيفية رصفه، ويرجع ذلك إلى القناة التي كانت تمتد تحت أرضه لتحمل الماء العذب من ترعة شديا إلى خزانات المدينة الكثيرة العدد، وكانت تسمى «الصهاريج»، وكشف الفلكي عن ٧٠٠ صهريج، منها عام ١٨٧٢ كانت المياه تأتيها من فروع ترعة شديا الصغيرة الأخرى.

عروض الشوارع وأطوالها

واتضح للفلكي من الحفريات في جهات عديدة مختلفة من المدينة أن عرض الشوارع الطولية الستة – غير الشارع الكانوبي – سبعة أمتار، وكذلك كان عرض الشوارع العرضية العشرة باستثناء شارع واحد كان عرضه ١٤ مترًا مثل الشارع الكانوبي، وهو الشارع الذي كانت بدايته في الشمال عند «رأس لوخياس – السلسلة حاليًّا» ونهايته عند ترعة شديا في الجنوب – ووفاقًا لخريطة الفلكي المرافقة لكتابه عن الإسكندرية القديمة – يستبين أن هذا الشارع كان يمتد – على وجه التقريب – في الشارع الذي يحمل اسم «قناة السويس» إذ هو يبدأ فعلاً من رأس السلسلة ويسير في امتداده خلف مستشفى الولادة ثم يمر بمبنى جمعية الشبان المسلمين، فمدافن الطوائف المسيحية، فقسم شرطة باب شرقي، فالشارع الذي كانت به ترعة الفرخة التي ردمت وينتهي عند كوبري محرم بك، حيث كانت على بعد قليل من هذا الكوبرى قنطرة على ترعة شديا سماها الفلكي على خريطته بالقنطرة الثالثة.

وعند بداية هذا الشارع «برأس لوخياس» كان يقوم الميناء الملكي، ورصيفه الذي كان بالقرب منه «معبد نبتون» وخلفه القصر الملكي، وأمام الميناء كانت جزيرة «انتيرودس» وفوقها أحد القصور الملكية، وقد اختفت هذه الجزيرة إثر أحد الزلازل التي اجتاحت مدينة الإسكندرية في العصور اللاحقة للعصر البطلمي.

الشارع العرضي الهام وشارع قناة السويس حاليًا

وكان هذا الشارع العرضي الهام يمتاز بخاصية ينفرد بها عن جميع الشوارع الأخرى، فعلاوة على عرضه الذي يماثل عرض الشارع الكانوبي، كانت قارعته تتكون من طريقين تفصلهما مساحة بعرض متر واحد مغطاة بالطمي مما يحمل على الاعتقاد في أنها كانت مخصصة لصف من الأشجار، وكان أحد الطريقين مرصوفًا رصفًا عاديًّا، والآخر مغطى بخليط من الجير والتراب وقطع الزلط والأحجار الصغيرة ويعتقد الفلكي أن الطريق المرصوف كان مخصصًا للعربات والآخر

لراكبي الخيل، وفي الناحية الشرقية من هذا الشارع كانت تمتد قناة توصل ماء ترعة شديا العذب إلى القصور الملكية وتزود خزانات المدينة بحاجة السكان من ماء الشرب، والواقع هو أن الإسكندرية القديمة كانت مدينة مبنية فوق شبكة من قنوات الماء وأحواضه وقد اكتشف الفلكي أن الفروع الرئيسية لهذه الشبكة خمسة تتصل جميعها بالترعة ولهذه الفروع قنوات ثانوية لا حصر لها، وكانت الفروع الرئيسية والقنوات الثانوية تمتد على طول الشوارع جميعها وتغذي الخزانات لتوفير ماء الشرب طوال السنة ولاسيما في زمن التحاريق الذي كانت ترعة شديا تخف خلاله، وكان بالمدينة خزانات عديدة غير متصلة بالقنوات ينزح إليها الماء بوساطة السواقي، وكانت هذه الخزانات جميعها – وقد قدر الفلكي عددها بسبعمائة – مكونة من طبقة أو طبقتين، ومقامة فوق أعمدة من الجرانيت الأحمر، وفي الأماكن العالية بالمدينة كانت مكونة من ثلاث طبقات أو أربع.

طول جزيرة فاروس وعرضها

وكانت جزيرة فاروس عند تشييد مدينة الإسكندرية منفصلة تمامًا عن القارة الأفريقية وعن مكان المدينة القديم، وكان طولها المواجه للشاطئ ابتداء من الميناء الشرقي عند شارع إسماعيل صبري تقريبًا حتى طرفها من ناحية الغرب حيث تقوم الآن المنارة (الفنار) الذي أقامها في عهد محمد علي المهندس مظهر باشا، نحو ٢٦٠٠ متر ويتراوح عرضها بين ٤٠٠ و٥٠٠ متر، وعلى مقربة من طرفها الشرقي بالميناء الشرقي توجد صخرة مساحتها ٢٠٠×٢٣٠ مترًا أي ٤٦٠٠ متر مربع، وفوق هذه الصخرة شيدت منارة الإسكندرية العجيبة في عهد بطليموس الأول بن لاجوس، وكانت هذه الصخرة محاطة بالماء من جميع الجهات في عهد المؤرخ «سترابون» وفي عهد طفولتي كان يفصلها عن أرض الميناء الشرقي ممر ضحل المياه كنا نجتازه سيرًا، وماء البحر يصل إلى الركب.

الميناء الشرقي والميناء الغربي

وكان الميناء الأول بالإسكندرية القديمة هو الميناء الشرقي وقد أطلق عليه وقت إنشاء المدينة اسم «الميناء العظيم Portus Magnus» وكان مدخله ضيقًا جدًّا تتخلله الصخور التي كان بعضها يظهر فوق مستوى الماء وكان البعض الآخر على مستواه تمامًا، وعلى مر العصور اختفى الكثير منها تحت الماء بفعل الأمواج والزلازل التي اجتاحت الإسكندرية أكثر من مرة، ويؤيد القول بضيق مدخل الميناء الشرقي ما ذكره «فلافيوس جوزيف Flavius Joseph» المؤرخ اليهودي المولود بالقدس في القرن الأول المسيحي، وقد دوّن هذا المؤرخ في كتابه «حروب اليهود مع الرومان» أن مدخل ميناء الإسكندرية وعر جدًّا بالنسبة للسفن حتى في وقت هدوء البحر، لأن فتحته ضيقة جدًّا ولأن الصخور المختفية تحت الماء تضطر السفن إلى أن تحيد عن طريقها المستقيم، ومن جهة اليسار يوجد سد قوي كأنه ذراع تعانق هذا الميناء الشرقي قديمًا ويصور لنا امتداده والخطر الذي يتهدد السفن عند دخوله ويوضح لنا السد القوي كالذراع الذي يعانق الميناء من الناحية التي على يسار الداخل إليه.

حاجز الأمواج بالميناء الشرقي الذي اكتشفه الفلكي

ولقد اكتشف الفلكي باشا جزءًا كبيرًا من هذا السد على عمق ٣ أو ٤ أمتار تحت الماء ولاسيما عند الطرف الشمالي من

«رأس لوخياس» (السلسلة حاليًّا)، ممتدًّا نحو الشمال الغربي أي نحو صخرة المنارة (حصن قايتباي الآن)، ويسير هذا السد في امتداده حتى مدخل الميناء الضيق بالقرب من حصن قايتباي.

وتابع الفلكي كشفه لامتداد هذا السد فوجد أنه بطول مائتي متر وعرف أن هذه المسافة كانت جزءًا كبيرًا من جسم السد الذي هبط بفعل هياج الأمواج، وربما بفعل الزلازل، إلى عمق قدره أربعة أمتار تحت سطح البحر مثله في ذلك مثل جزيرة «أنتيرودس Antirrhodus» وطريق أنطونيوس الذي كان يمتد داخل البحر، على غرار لسان السلسلة، وذلك في خط أفقي تجاه معبد «القيصرون» الذي شيدته «كليوباترا» (انظر هذه المادة) وأقامت أمامه مسلتين، وكان مكانه تجاه شارع صفية زغلول الحالي (شارع المسلة قديمًا) في موقع العمارة التي بها محل (تريانون) الحلواني مِلك يحيى باشا، وفي نهاية طريق أنطونيوس الآنف الذكر كان «التيمونيوم» يطل على البحر مباشرة، وقد اختفى الطريق ومبنى «التيمونيوم» تحت سطح البحر تمامًا، و«التيمونيوم» معناه مكان مدّ السفن بالتموين اللازم لرحلاتها.

مكان الميناء الملكي

وحدد الفلكي مكان الميناء الملكي بأنه كان في المنحى الذي يلي نادي الصيد الحالي نحو المدينة أي عند أسفل رأس «لوخياس» وكان مخصصًا لرسو السفن الملكية دون سواها، وحدد مكان وشكل جزيرة «انتيرودس» المختفية فقال أنها كانت على شكل حدوة الحصان في مواجهتها للساحل وتقع على بعد ثلاثمائة متر منه وعلى بعد حوالي ٤٠٠ متر من الميناء الملكي، وقد وجد فوقها آثار بناء عظيم هو إحدى الدور الملكية في هذه الجهة التي كانت تضم معبد «نبتون» والقصر الملكي الرئيسي أي في الموقع الذي يقوم فيه الآن مسجد إبراهيم وحديقة الخالدين تقريبًا.

أما عن السد أو حاجز الأمواج الطبيعي الذي اكتشفه الفلكي، فقد قال أن طوله ٩٠٠ متر ابتداء من «رأس لوخياس – السلسلة»، وأنه مكون من صخور اختفت تحت سطح البحر بعمق يبلغ أربعة أمتار، وليس به سوى ممر عرضه ٦٠٠ متر من صخرة المنارة، وفي وسطه صخرة هائلة على عمق سبعة أمتار، وكانت في الماضي تقسم مدخل الميناء الشرقي إلى ممرين أحدهما بعرض مائة متر ويبدأ من صخرة المنارة والآخر بعرض مائتي متر، ويقع في الجانب الآخر من الصخرة نفسها، وهذا يؤيد قول «جوزيف» المؤرخ اليهودي بشأن ضيق مدخل الميناء والخطر الذي تتعرض له السفن عند دخوله والأمن الذي تصبح فيه بعد أن تلجأ إليه.

تحديد الفلكي لمحيط الميناء الشرقي

وحدد الفلكي محيط الميناء الشرقي الذي كانت السفن تستطيع الرسو فيه بما لا يزيد على خمسة كيلومترات وهذه المسافة قريبة جدًّا من الثلاثين إستادًا التي حددها «فلافيوس جوزيف» أي ٣٠×١٦٥= ٤٩٥٠ مترًا بواقع الإستاد اليوناني ١٦٥ مترًا.

المعالم الدالة على هبوط أرض المدينة

ومن العوامل البارزة الدالة على هبوط الأرض في أماكن مختلفة من مدينة الإسكندرية اختفاء أرصفة الميناء الغربي القديمة التي كشف المهندس «جونديه Jondet» عن آثارها في الشمال الغربي من جزيرة فاروس على عمق يتراوح بين ١٣٠

و ٨٣٠ سنتيمترًا تحت سطح البحر، وذلك حسب أجزاء هذه الأرصفة المختلفة، واختفاء الطبقة الثالثة من آثار مدينة الموتى «Heropolis» القريبة تحت الماء، وتلاحظ هذه الظاهرة نفسها في مدينة الموتى الشرقية بالشاطبي، حيث وجدت أكفان الموتى قائمة في قبورهم.

حاجز الأمواج الجديد

ولعل من المفيد أن أذكر هنا ما تم بشأن السد الطبيعي الآنف الذكر الذي اكتشفه الفلكي، والذي يسمى الآن «حاجز الأمواج»، فقد عاصرت تشييد جزئي هذا الحاجز بالميناء الشرقي اللذين قامت بإنجازهما شركة «ألماجا Alamaja» الإيطالية للمنشآت البحرية، وكنت في ذلك الحين أعمل ببلدية الإسكندرية وأتولى – ضمن اختصاصات وظيفتي – تدوين المناقشات التي تدور بجلسات «القومسيون» بالاختزال الفرنسي، وأعلم مما جاء بتقرير المهندس الفرنسي «لاروش Laroche» الذي كلفته البلدية بحث أنسب مكان لإقامة الذراع الثانية للحاجز التي تمتد بعد نهاية الجزء الأول المشيد في امتداد حصن قايتباي – أعلم من هذا التقرير الذي قمت بترجمة أغلب ما تضمنه من اقتراحات – أن المهندس العالمي «لاروش» أصر على إقامة الذراع الثانية على أنقاض الحاجز الصخري الطبيعي الذي اختفى تحت سطح البحر إثر الهبوط الذي حدث بالإسكندرية بفعل الزلازل، وقد أخذت البلدية بهذا الاقتراح، وتم تشييد الذراع الثانية فوق الحاجز الصخري الطبيعي الذي يقال: إن الإغريق أو الرومان أقاموا فوقه حاجزًا قديمًا، وتمتد هذه الذراع الثانية بعد نهاية ذراع قايتباي إلى لسان السلسلة تقطعها فتحتان إحداهما بجهة حصن قايتباي، والأخرى بجهة نادي الصيد بلسان السلسلة، وقد ثبت تاريخيًّا أن الحاجز القديم الإغريقي أو الروماني، شيد من الأحجار التي انتزعت من «رأس لوخياس» لسان السلسلة.

وقد أقيم الجزء الثاني من الحاجز لحماية رصيف الميناء الشرقي من أمواج العواصف البحرية الهوجاء التي كانت تجتاح مسطح هذا الميناء في أثناء فصل الشتاء، وكان الجزء الأول منه الذي يمتد من حصن قايتباي قد تم إنشاؤه في سنة ١٩١٦م (١٣٣٥هـ).

بحث «بريشيا» بشأن هبوط أرض المدينة

ومما يثبت صحة الهبوط الذي حدث في أرض منطقة الإسكندرية البحث العلمي القيم الذي قام به «البروفيسور بريشيا» أمين المتحف اليوناني الروماني الأسبق، وأكد فيه أن مستوى المدينة القديمة ينخفض عن مستوى سطحها الحالي ببضعة أمتار، وأنه لابد من التعمق في الحفر إلى ستة أو سبعة أمتار، لاستطاعة الكشف عن الآثار البطلمية والرومانية القديمة، ولقد صح قول هذا العالم الأثري وأيده الكشف عن عمودين من الجرانيت الأحمر عندما أريد مد شارع بلجيكا ليستقيم في طوله مع شارع عبد المنعم لما سبق القول، وذلك في حفرة رأيتها، وكان عمقها لا يقل عن العمق الذي ذكره البروفسور بريشيا.

تقسيم المدينة إلى خمسة أحياء

ويقول المؤرخ الفيلسوف اليهودي «فيلون Philon» المولود بالإسكندرية عام ٢٠ ق.م. والذي مات عام ٥٤م إن الإسكندرية كانت وقت تشييدها مقسمة إلى خمسة أحياء، وكان الإسكندر الأكبر قد أوصى قبل مغادرته القطر

المصري بأن يطلق على كل منها حرف من حروف الهجاء الأولى اليونانية وهي: ألْفَا، بِيْتَا، غَاما، دلْتا، بسيْلونْ، ومن العسير تحديد مواقع هذه الأحياء وكل ما يعرف عنها أن حيّ اليهود كان في شرق رأس لوخياس (السلسلة)، وأن الحي الملكي كان يطل على الميناء الشرقي، وبه القصور والحدائق ودار الحكمة والمكتبة.

وضع الإسكندر النظام الإداري للمدينة

وخلال المدة القصيرة التي قضاها الإسكندر في مصر لم يهمل وضع النظام الإداري للبلاد، فبادر إلى تقسيم القطر إلى قسمين: الشمالي والجنوبي، وعهد بإدارة كل قسم منهما إلى موظف مصري، وعين للحدود الشرقية موظفين آخرين هما: كليومنيس النقراطيسي، وأبولونيوس بن خارينوس، كما عين قائدين للحامية العسكرية التي تركها في مصر وعين قائدًا للأسطول.

وعهد بالإشراف على الخزانة وتدبير الشؤون المالية للبلاد إلى «كليومنيس النقراطيسي» الذي يتضح من لقبه أنه كان من أهالي مدينة «نقراطس» التي تقدم الحديث عنها، كما عهد إليه بالإشراف المباشر على بناء مدينة الإسكندرية وتدبير أمورها المختلفة.

كليومنيس وذكاؤه وتفوقه الاقتصادي

ولقد تفوق «كليومنيس النقراطيسي» على غيره من الموظفين بالذكاء وحسن التصرف إذ كان إلى جانب حذقه في إدارة الشؤون تاجرًا ماهرًا، ورجلاً فذًّا من رجال المال، فنفذ في دقة محكمة جمع الضرائب التي أمر الإسكندر بجمعها بعد فرضها، وكان «كليومنيس» علاوة على ما تقدم ذا خبرة واسعة النطاق بالسوق المصرية وبالأسواق العالمية المعروفة في ذلك الحين، ولخبرته وقدرته على تصريف الشؤون المالية بادر إلى وضع احتكار للقمح، وتحكم في أسعاره، وتحديدها في الخارج على نحو يحقق أرباحًا طائلة، فكانت له شبكة محكمة من السماسرة في الأسواق الخارجية، وعندما يرتفع سعر القمح في تلك الأسواق كان يبادر إلى شحن كميات كبيرة منه ليبيعها بأضعاف سعرها في مصر، ويقال أنه باع الكيل من القمح في بعض الأزمات بسعر قدره ٣٢ درخما، على حين أن سعره العادي كان يتروح بين خمسة وعشرة درخمات، ولقد ساعد الربح الذي حققه من تلك الصفقات التجارية على الإسهام بنصيب مرموق في تشييد مدينة الإسكندرية في أيامها الأولى وذلك بفضل هذه الأرباح التي كان يضمها إلى خزانة الدولة.

وعندما قسمت إمبراطورية الإسكندر عقب موته عين «كليومنيس» مساعدًا لبطليموس الأول بن لاخوس (سوتير) وذلك بأمر من «برديكاس» الذي كان وصيًّا على ملك الإسكندر، وعلى خليفتيه وهما أخاه وابنه من روكسانا، غير أن بطليموس برم بإشراكه في الحكم، ودبر له محاكمة على بعض التهم ثم قتله.

وصف الإسكندر الأكبر وتحنيط جثته

ويصف بعض المؤرخين الإسكندر بأنه كان واسع العينين بارز الجبهة عريضها، متوسط القامة، ويؤكدون أن جثته وضعت عقب موته في تابوت من الذهب المطروق وملء نصفه بمواد عطرية خاصة تحفظ الأجسام مما يدعو إلى الاحتمال بأن التحنيط لم يتم وفاقًا للطريقة المصرية، وقالوا أن التابوت

بقي حوالي عامين في بابل إما للانتهاء من إعداد العربة التي خصصت لنقل الجثة، وإما للاتفاق على تحديد المكان الذي تدفن فيه، وبعد هذه المدة بدأ الموكب سيره إلى دمشق ثم إلى مصر حيث كان بطليموس الأول في انتظاره، ولكن «برديكاس» بعث مساعده «بوليمون Polémon» إلى سوريا لمحاولة منع وصول الجثة إلى «ممفيس Memphis» غير أن بطليموس زحف بجيشه إلى سوريا واستولى على التابوت.

العربة التي حملت التابوت الذهبي

ويصف «هيورونيموس Hieronymus» العربة بأن هودجًا من الذهب المزخرف بالفسيفساء كان يعلوها، ويجرها أربعة وستون بغلاً فوق رؤوسها التيجان وفي رقابها عقود من الأحجار الكريمة.

سترابون ورؤية تابوت الإسكندر الزجاجي

ويؤيد القول بأن الإسكندر الأول ابن «فيسكون Physcon» قد استبدل بالتابوت الذهبي تابوتًا من الزجاج أن «سترابون» ذكر أن جثة الإسكندر كانت موجودة بالإسكندرية عندما كان حيًّا، وكانت موضوعة في تابوت من الزجاج، و«سترابون» ولد عام ٥٨ق.م.، ومات في عام ٢٥م، في عهد «تيبير Tibère» الذي عاش خلال المدة من عام ١٤ إلى عام ٣٧ بعد الميلاد.

يوليوس قيصر يشاهد قبر الإسكندر

وعندما جاء يوليوس قيصر إلى الإسكندرية منتصرًا شاهد قبر الإسكندر، ورأى تابوته كما رآه «أوكتافيوس»، وهو الإمبراطور الروماني أغسطس «وبعد أن أمعن النظر فيه وضع عليه تاجًا من الذهب وغمره بالأزهار والرياحين، أما «كاراكالا Caracalla» ابن «سبتيم سيفروس Septime Sévère»، فكان يزور النصب التذكاري للإسكندر، ويخلع مدرعه الأحمر وجميع حلقات ملابسه الذهبية اللامعة وكافة أدوات زينته ويضعها فوق قبر الإسكندر تعظيمًا له، وعندما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية عام ٢١هـ (٦٤١م) زار قبر الإسكندر هو الآخر.

بطليموس الرابع شيد مقبرة

ويؤكد المؤرخون اليونانيون أن بطليموس الرابع الملقب بـ«فيلوباتر Philopater» أي «الإله المحب لأبيه» هو الذي شيد المقبرة الملكية وسط المدينة وأطلق عليها اسم «سوما» أي الجسد كما تقدم القول، وبين جوانبها وضع رفات آبائه وأجداده، ووضع بينها تابوت الإسكندر، وأكد هذا القول ما ذكره «سترابون» إذ قال: إن «سوما» هو المكان الذي يضم قبور الملوك، وقبر الإسكندر، وفي مكان «السوما» أي في شارع النبي دنيال كشف منذ زمن، وفي حجرة مدفونة عن تمثال ظريف من الرخام «لهرقل»، وبما أن الإسكندر كان يدعي على غرار جميع الملوك المقدونيين الذين سبقوه أنه من نسل هذا البطل الأسطوري القوي، فمن المستطاع القول بأن هذا التمثال كان يزين قبره.

وليس في تأكيد المؤرخين اليونانيين بأن بطليموس الرابع هو الذي شيد مقبرة «السوما» ما يتناقض بصفة قاطعة مع ما ذكر قبلاً من أن بطليموس الثاني «فيلادلف» نقل جثة الإسكندر من «منف – ممفيس» ودفنها في مكان عُرف باسم «سيما» أي المقبرة أو «سوما» أي الجسد، وأعد مقبرة لأبيه وزوجته بالقرب من قبر الإسكندر، إذ من المحتمل جدًّا أن

هذه المقبرة لم تتسع وتأخذ أبهتها وتسميتها بالسوما إلا في عهد بطليموس الرابع .

مكان مقبرة السوما

ومن كل ما تقدم يتضح أن مكان «السوما» الذي خصص لمقابر الملوك ومن بينهم الإسكندر ، كان يقع بالتحديد في الموقع الذي يضم مسجد النبي دنيال الذي أقيم في عهد محمد علي ، ومبنى سلاح الإشارة الجديد ، ويمتد شرقًا إلى سفح كوم الدكة (كوم الدماس) .

الخلاف على وجود رفات الإسكندر في الإسكندرية

ومازال الخلاف قائمًا بين علماء الآثار ، وينحصر في تحديد ما إذا كانت رفات الإسكندر مازال موجودًا في مكان (السوما) ، أو أنها نقلت إلى مكان آخر بعيدًا عن منطقة النبي دنيال ، وقد اتسعت شقة الخلاف بعد الحفريات التي أجريت وبعد التأكد من الناحية التاريخية من الإجراءات التي اتخذها المسيحيون لتدمير آثار الوثنية في عهد البطريق المتعصب «تيوفيل» .

تعصب البطريق تيوفيل قد يكون السبب في القضاء على قبر الإسكندر

ويذكر «سيناخسار Synaxaire» أن الأب تيوفيل كان في زيارة عند الأب «أطناز» ، وقد سمعه الأب أطناز يتكلم وهو يرفع عينيه وينظر إلى التلال أمام قصره وهو يقول: «إذا كان لديّ من الوقت ما يكفي لإزالة هذه التلال لأقيم مكانها كنيسة للقديس جان باتيست والقديس «إليزيه Elisée» النبي الإسرائيلي ، فإني لن أتردد في ذلك» ، وحضرت امرأة غنية أرملة من روما إلى الإسكندرية وأنفقت المال لإزالة جزء من هذه التلال وهي «كوم الدكة – أو كوم الدماس» ، وظهرت تحتها آثار ثمينة ، ويقال إن البطريق «تيوفيل» نقل إلى المكان الذي تخلف عن إزالة جزء من التلال رفات القديسين الآنفي الذكر ، ولم يعثر في هذه الجهة على قبر الإسكندر ، مما يدل على أنه في جهة أخرى غير بعيدة عن المنطقة الكائنة بين مسجد النبي دنيال والكنيسة المرقسية التي يطل بابها الخلفي على شارع النبي دنيال ، أو أن تعصب البطريق «تيوفيل» المسيحي قد دمره مع ما أمر بتدميره من الآثار الوثنية البطلمية والرومانية فقضى على ثروة أثرية لا تقدر بثمن .

قول الدكتور طه حسين في الإسكندرية

ولعلّ من الخير تدوين ما كتبه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بشأن الإسكندر الأكبر في كتابه «قادة الفكر» ، فقد ذكر أن الفلسفة التي نادى بها سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس عجزت عن قيادة الفكر بعد أن وصلت الجماعات إلى التطور في القرن الرابع قبل المسيح فنزلت إلى النظم الأخرى .

وكان لمراكز تغيير الحياة مركزان أحدهما في مقدونيا ، والآخر في غرب روما ، وقد استطاع فيليب الثاني كسب القوة لمقدونيا بقوة حربية ضخمة والاستئثار بالأمر في البلاد اليونانية فأخضع دول المدن إلى سلطانه وعزم على توجيه قوته الحربية إلى الشرق للقضاء على سلطان الفرس ، ولكنه اغتيل فنهض بالأمر ابنه الشاب الإسكندر واستطاع إخضاع العالم القديم لسلطانه القوي ، وبعد أن صد المغير ورد الحليف إلى الوفاء بالعهد ، وقضى على أطماع الجيران ، ومحا آمال اليونانيين

في الاستقلال عن مقدونيا اتخذ من أعدائه على اختلاف نزعاتهم جيشًا ضخمًا منظمًا عبر به البحر فطرد الفرس من آسيا وأخضع ساحل البحر لسيطرته، وبعد أن ذهب إلى مصر تعمق في آسيا وورث عرش الفرس وبلغ الشرق الأقصى، وتوغل في الهند، ورفع لواء الحضارة اليونانية، والأدب اليوناني في أرض لم تسمع باليونان من قبل.

ثم عاد إلى بابل وقد ورث ملك الفراعنة والبابليين والآشوريين والفرس واليونان والفينيقيين وضم كل هذا إلى مقدونيا، وكان يريد القضاء على سلطان الفينيقيين في شمال إفريقيا ويبسط سلطانه على أوروبا ولكن الموت عاجله.

وكانت الفلسفة اليونانية تهدف إلى توحيد العقل الإنساني وأخذه بنظام واحد في التصور والتفكير والحكم لتتقارب الشعوب وتتعاون على توحيد الحضارة وترقيتها وعلى إيجاد نوع إنساني متحد متشابه الوسائل في مساعيه.

وقد فهم الإسكندر كل هذا وجدَّ فيه فوفق له، أخضع العالم القديم المتحضر كله لسلطان واحد، وأزال بين الشعوب تلك الفروق التي أشرنا إليها وجعل الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية يتغلغلان في أعماق الشرق ويؤثران في نفوس أهله، ولم يكتف بإزالة الفروق السياسية، ولكنه طمع في إزالة الفروق الجنسية بين الناس، فأراد أن يمزجها ويستخلص منها شعبًا واحدًا، ففي بابل أخذ يزاوج بين اليونانيين والمقدونيين من جهة، وبين الفرس من جهة أخرى حتى لقد أحدث في يوم واحد عشرة آلاف من هذه المزاوجة وأنفق في ذلك أموالاً ضخمة وجعل من نفسه وزعماء جيشه قدوة لعامة الجيش، وأراد أن ينقل طبقات كبيرة من الفرس إلى البلقان وطبقات من البلقان إلى الفرس، ولو عاش لغير هذا التحول وجه التاريخ، وهذا يدل على أنه كان يريد فتح العالم وفتح العقول أيضًا.

وكان في فتوحه صاحب مودة ومحبة وإخاء وتسوية بين الناس، ولقي في ذلك مشقة وعناء، فأنكره المقدونيين وثاروا عليه وسخر منه اليونان ودبروا له المؤامرات فاضطر إلى اتخاذ العنف حيالهم.

وبمجرد موته تفرق أصحابه، واختلفوا، وشبت الحرب بينهم، وتقطع ملكه، ولم يتم له توحيد الشعوب والتقريب بين العقول وإيجاد حضارة مشتركة، ولكنه ظفر بهذا كله بعد موته لأن فتحه العسكري غرس هذه الفكرة في الأقطار التي فتحها، ولم يكد ينتهي القرن الثامن حتى كانت الحضارة اليونانية حضارة الشرق القديم واللغة اليونانية لغته وحتى أخذ الشرق يشارك اليونانيين في آدابهم وفنونهم وفلسفتهم، ونشأ من اختلاط اليونانيين بالشرقيين مزاج خاص تستطيع أن تجده واضحًا في دراسة الفلسفة السكندرية أو آداب السكندريين، أو زرت المتاحف ورأيت الآثار الباقية التي اشترك فيها الشرق واليونان، ومن ذلك الديانة المسيحية التي هي نتيجة لازمة لتعاون العقلين الشرقي والغربي والمثال الصادق لهذا المزاج الجديد الذي نشأ من هذا التعاون ولهذا ظفرت الديانة المسيحية من الفوز في أوروبا بما لم تظفر به اليهودية لأنها سامية خالصة وبما لم يظفر به الإسلام لأنه أعرق في السامية من الديانة المسيحية، والأمر الثاني هو هذا التفاهم القائم بين الشرق والغرب، فمهما تكن الفروق بين الشرقيين والغربيين فهي فروق سياسية واجتماعية أو جنسية، أما الفروق العقلية فقد محيت محوًا تامًّا وأصبح الشرق والغرب يفهمان ويحكمان على نحو واحد، فليس هناك علم شرقي وعلم غربي ولا

فلسفة شرقية يعجز الغرب عن فهمها ولا فلسفة غربية يقصر الشرق عن إساغتها، كل ذلك أثر من آثار الإسكندر، فهو الذي قارب بين الشرق والغرب، ومزج العقل الشرقي بالعقل الغربي، ولولا حركة الإسكندر هذه لكانت للشرق والغرب شؤون غير شؤونهما التي عرفها التاريخ.

فالإسكندر إذن قائد من قادة الفكر، بل هو زعيم من زعماء قادة الفكر، بل هو أشدّ قادة الفكر القدماء إنتاجًا وأكثرهم نفعًا، فما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يُتح لها الإسكندر ليذيعها في أقطار الأرض ويبثها في مختلف الشعوب.

وعلى الرغم من اختلاف قواده، وقيام دول مختلفة على أنقاض إمبراطوريته، فإن هذه الدول جميعها كانت يونانية، فقاربت بين الشعوب، ووحدت الحضارة الإنسانية، وجعلت تعاون الشرق والغرب أمرًا ميسورًا.

تكوين الإسكندرية قبل موت الإسكندر

وما من شك في أن الإسكندرية قد دخلت في مرحلة التكوين الكياني في أثناء الفترة التي انصرمت بين إرساء الإسكندر الأكبر حجر الأساس في موقعها خلال شهري يناير وفبراير عام ٣٣١ق.م. وبين موته عام ٣٢٣ق.م.، وهي فترة تبلغ ثمانية أعوام ونصف العام، وأن بعض المنشآت الحضارية الهامة قد أقيمت في أرجائها إبان هذه الفترة بفضل الجهود المثمرة التي بذلها «كليومينيس النقراطيسي» في إدارة الشؤون المالية والحصول على أرباح طائلة، وموارد مالية كبيرة من الضرائب، غير أنه من الصعب تعيين هذه المنشآت بصفة قاطعة، ولذا يحسن التحدث عنها، وتحديد أماكنها في سياق الحديث عن عهد بطليموس الأول بن لاجوس في تشييد معالم المدينة الباهرة وفي ازدهارها العمراني والتجاري.

الكتابة المستخدمة وقت إنشاء المدينة

ويحسن معرفة أن الكتابة التي كانت مستخدمة وقت إنشاء الإسكندرية عند المصريين الهيروغليفية، ولاسيما في الكتابة الزخرفية الفاخرة، ثم يُسّرت هذه الكتابة إلى حد بعيد، وأطلق عليها اسم «الخط الهيراطي – الهيراطيقي» أو القساوسي، وفي حوالي عام ١٨٠ ق.م. استحدث الخط الجاري السلس الذي أطلق عليه اسم «الخط الديموطي» أو الشعبي، ولم تهجر هذه الخطوط المصرية القديمة إلا في القرن الخامس الميلادي إذ استعاض المصريون عنها بكتابة أخرى قوامها الحروف اليونانية مع زيادة سبعة حروف من الكتابة «الديموطية» واعتبروها ضرورية لإبراز نغمات مصرية خاصة وذلك حينما اعتنقوا الدين المسيحي، وقد كانت هذه الطفرة هي الهزة الفنية التي خلقت في الكتابة المصرية رموزًا لحروف الحركات.

ويلاحظ أن الشائع – من الناحية التاريخية – هو أن اليونانيين تلقوا الأبجدية عن الفينيقيين، وأن هؤلاء أخذوها عن المصريين.

التقاليد الدينية للمصريين قبل إنشاء المدينة

ومن المفيد الوقوف على بعض العادات، والتقاليد الدينية، والاجتماعية التي كان المصريون يمارسونها قبل إنشاء الإسكندرية، وعند إنشائها ومن بينهم سكان بلدة «راقودة» التي قامت الإسكندرية الجديدة في حيزها.

فالبقرة عند قدماء المصريين كانت مرضعة الجنس البشري، ثم صارت فيما بعد الأم الكبرى وأصبحت مقدسة، وسميت بعد ذلك «هاتور» واهبة الحياة الكبرى، ومازال اسم «هاتور» يطلق حتى الآن على أحد أشهر السنة القبطية، ويقول المثل السائد إلى يومنا هذا: «هاتور أبو الذهب المنثور» لأنه الشهر الذي يظهر القمح، وقد ينعت سنابله.

تحديد المصريين لفصول السنة

ولما عرف المصريون فن الزراعة انحصر تفكيرهم بشأن تحديد فصول السنة في مظهرين من مظاهر الطبيعة، أولهما فيضان نهر النيل في منتصف شهر يوليو من كل عام واتخذ هذا الفيضان مقياسًا تعد به السنون، وتحديدًا لأول يوم من أيام العام الجديد وهو ٢٠ يوليو على وجه التقريب، وأما الشهور فتحددها أوجه القمر، ومن ثمّ امتزجت الأم الكبرى وهي البقرة المقدسة بما للقمر من تأثير على النساء من حيث مواعيد المحيض، وما للنساء من قدرة على منح الحياة للناس، وكانت البقرة المقدسة المركبة التي تحمل الموتى إلى السماء ليجدوا في أرجائها حياة أبدية بل كانت هي السماء ذاتها، والسماء في عقيدة المصريين القدماء المكان العَلَوي الذي ينتقل إليه الموتى، وكان رجال الدين يقولون إن السفر بالموتى صوب الغرب حيث تلتقي الأرض بالسماء وتقطع البقرة المقدسة بالموتى هذه المسافة إلى مقرهم الأخير في خطورة واحدة.

ملابس المصريين

وكان لباس رب البيت العادي يتكون من إزار بسيط قصير من النيل الرقيق يصل إلى ما تحت ركبتيه، وفي المناسبات والأعياد كان يلبس دثارًا يصل إلى عقبيه فيقيه من البرد، وكان هذا الدثار من التيل الرفيع جدًّا، أما نعلاه فكانا من الجلد وأحيانًا من القش.

أما لباس المرأة فكان يتكون من قميص يبدأ من الثديين ويمتد في طوله إلى العقبين، ويمسكه شريطان من القماش نفسه، وفي المناسبات والأعياد تضع فوق القميص شبكة من الخرز.

شعر الرجل والنساء

وكان الرجل يقصر شعره، وقد يحلقه كلية، ويضع فوق رأسه شعرًا مستعارًا في المناسبات والأعياد، أما المرأة فكان شعرها ضفيرتين على الكتفين، ومن النساء من تقص الشعر قصيرًا وتضع ضفيرتين مستعارتين، وكانت النساء يمارسن الغزل على الأنوال البدائية البسيطة في أوقات الفراغ اليومية.

استرقاق المصريين للسوريين والنوبيين

وأحدث فتح المصريين للبلدان الأجنبية تطورًا في المجتمع المصري، فصار استرقاق الأجانب سنة متبعة لديهم، وكان الأرقاء في الغالب من السوريين وبعضهم من النوبيين ومن هنا صارت كلمة «آم» أي السوري مرادفة لكلمة الرقيق، ومعظم هؤلاء الأرقاء كانوا يقدمون هبة للمعابد بوصف كونهم جزءًا من غنائم الحرب خاص بالآلهة، وكان للمعابد نصيب في الغنائم العينية الأخرى كالحبوب والماشية والنفائس وما إليها.

الحياة الأخرة في إدراك المصريين

والحياة الآخرة عند المصريين كانت صورة من الحياة الدنيوية، وتُقضى حاجات الميت الأولية في عالم الآخرة بالصلاة وبالتعاويذ وبنماذج من العبيد والأدوات المنـزلية.

إدراكهم للروح

والروح الذهبية عقب خروجها من الجسم إلى الغرب وتمر بالمخاطر الكثيرة التي تصادفها في الطريق ثم تجابه المحنة الكبرى المخيفة، إذ عليها أن تعترف أمام الإله «أوزوريس» بأن حياة صاحبها (الميت) قد خلت من الرذيلة وإن لم تكن فاضلة تمامًا، وعندها يأخذ «أنوبيس **Anubis**» قلب الميت ويضعه في الميزان، فإذا شالت كفته افترسه «أميميت **Amemit**» الوحش المفترس الهائل.

وما من شك في أن كل هذه العقائد والتقاليد الاجتماعية كانت سائدة في قرية «راقودة» عند إنشاء الإسكندرية في مجالها.

بعض النصائح المصرية

ومن النصائح المصرية التي كانت تردد في ذلك الحين هذه الكلمات الحكيمة: «انظر إلى من تعرفه كما تنظر إلى من تجهله، وانظر إلى من هو قريب من الملك نظرك إلى من هو بعيد عنه، وفي هذه النصائح حض على العدل المطلق، ومن هذه الكلمات الفاضلة المثالية: «لا تقل زورًا لأنك الميزان بل أنت والميزان شيء واحد، فإذا مال بالباطل ملت بالباطل ولسانك دليل الميزان وقلبك مثقاله وشفتاك عموده».

وكان مرسوم تعيين الوزراء يصدر بالنصيحة الأولى، وقد وجدت في ورقه أثرية من أوراق البردي.

آلهة المصريين عند إنشاء المدينة

وكان للمصريين آلهتهم عند إنشاء الإسكندرية هي: الإله «أوزوريس» وهو إله الحياة المستقبلة وملك الآخرة وله خصائص أخرى كثيرة، والإلهة «إيزيس» وهي الإلهة العذراء التي تزوجت فيما بعد بالإله «أوزوريس» وولدت له الإله «حورس»، وكانت ترسم أو تنحت تماثيلها برأس امرأة وبرأس بقرة على التتالي، ورأس البقرة توحد بين شخصيتها وشخصية الإلهة الأم، والإلهة «سخمت» وهي ربة لها رأس لبؤة وتمثل قوة الشمس.

وكان الإله «حوريس» يمثل في صورة ولد صغير للإلهة «إيزيس» واضعًا إصبعه على شفته أو في صورة إله جليل له رأس صقر، وكان المصريون يعتقدون أن هذا الإله يقوم بقتل المخلوقات الشريرة.

وللإله «حورس» معبد بمدينة «إدفو» شيده ملوك البطالمة المتعاقبين في الفترة الواقعة بين عامي ٢٣٧ و٥٧ ق. م.، وهو يمتاز بروعة الأسلوب في فن العمارة.

تمسك الفراعنة والزعماء المصريين بالمبادئ القويمة

وتدل النقوش المحفورة في جدران المقابر الفرعونية على أن الفراعنة والزعماء المصريين يتمسكون بالمبادئ القويمة، فقد جاء في هذه النقوش أنهم «لم يسيئوا إلى ابنة أحد من أهل البلاد، ولم يضطهدوا أرملة، ولم يغتصبوا حق إنسان».

اتصال الإغريق بالعالم الخارجي

هذه هي بعض عادات وعقائد المصريين عندما استولى الإسكندر الأكبر على مصر وقام باختيار موقع الإسكندرية وأمر المهندس «دينوقراطس الرودي» بتخطيطها ومباشرة تشييدها، ولعل من الملائم التعرف على بداية اتصال الإغريق بالعالم الخارجي عن طريق إقامة المستعمرات التجارية، ثم التعرف على عقائدهم الدينية، وبعض عاداتهم، وتقاليدهم التي أتوا إلى الإسكندرية وهم يحملونها في جوانحهم فتغلغلت دون شك في نفوس السكان المصريين بالمدينة، ثم انتشرت في جميع أرجاء القطر المصري وإما عن طريق الدعاية، وإما عن طريق قوة السلطان والسيطرة.

أولى المستعمرات اليونانية في صقلية

فالمراجع التاريخية الموثوق في صحتها، ومن بينها «تاريخ العالم» للسيرجون مرتن، تدل على أن أولى المستعمرات الإغريقية التجارية أسست في جزيرة صقلية حوالي عام ٧٣٥ أو ٨٣٥ ق.م. وكانت أهمها «سرقوسه وناكسوس».

ولقد كان الإغريق لا يعرفون إلاّ القليل عن مستعمراتهم النائية عن بلادهم، غير أن الحال تبدلت في عهد الإسكندر الأكبر حينما أذاعت البعثة العلمية برياسة «بيثياس المسالي Pytheas» ما كان معروفًا في ذلك الحين عن الغرب البعيد فسدّت بذلك أهم الثغرات في معلومات اليونانيين.

منافسة الإغريق للفينيقيين في إقامة المستعمرات التجارية

ومن ذلك الحين أخذ التسابق الفينيقي في التعرف على الغرب يتضاءل أمام التسابق الإغريقي في هذا المضمار، ومن ثمّ اضطر الفينيقيون إلى البحث عن ميادين جديدة لتجارتهم في بلدان أخرى نائية ولاسيما بعد أن قامت الإسكندرية تتحدى بازدهارها العمراني والتجاري كل ما أقامه الفينيقيون من مستعمرات.

المعايير الاجتماعية والدينية عند الإغريق

ونتناول الآن موضوع المعايير الاجتماعية والمعتقدات الدينية عند الإغريق في ذلك الحين، فالمثل العليا عند الرجل الإغريقي كانت غير محددة المعالم، فنعم الحياة لم تكن واضحة، فالحرية مثلاً كانت في مفهومها أن تشمل المدينة التي يعيش فيها بمعنى أن تحكم مدينته نفسها دون أي تدخل من جانب حاكم آخر في شؤونها، وكانت حرية الضمير كاملة في نفسه، ولذا كان لهذه الحرية الضميرية شأن عظيم لم يدانه شأن على مر العصور.

وكانت الآلهة الإغريقية تحب أوطانها وتكره التنقل أو الهجرة لكيلا تفقد شيئًا من هيبتها وسلطانها، وكان الرجل الإغريقي يعول على هذه الآلهة في قضاء الحاجات، ولكن إذا تحرّجت الأمور وأحاطت به الأزمات يستل سيفه ويعول عليه أكثر من تعويله على الآلهة.

وكانت سلامة التقدير هي المرشد الوحيد للرجل الإغريقي في اتخاذ سبيل سلوكه في الحياة، وكان خوفه شديدًا من

الفقر والمرض والشيخوخة إذ لم يكن لدى الإغريق حكومات تحتوي على المرضى والفقراء والشيوخ ولم يكن لديهم وسائل تقيهم شر الأوبئة .

وكان ديدنهم الابتعاد عن النفاق كلية وتحاشي خداع النفس ، ويدل هذا السلوك على استقامة خلقهم ، أما الصدق فلم يكن مطبقًا عندهم بمفهومه الحقيقي إذ إنهم كانوا لا يكرهون الأكاذيب المحبوكة كغالبية الناس .

الموت في عقيدتهم

الموت عندهم انتقال من حياة حافلة بالطيبات العظيمة المختلفة إلى حياة ساكنة باطلة في عالم كئيب يجعل الإنسان يفضل أن يكون عبدًا في هذه الدنيا على أن يكون ملكًا في ذلك العالم الآخر ، وللموت عندهم ميزة واحدة هي أنه يضع نهاية لأقسى الشرور التي تصيب الإنسان في الحياة الدنيا .

وكان طبيعي أن تؤدي هذه النظرة المتشائمة للحياة القصيرة الدنيوية التي لا تنتهي إلى عالم أفضل أن طغى مذهب اغتنام اللذات على النفوس الإغريقية ، ومن ثَمَّ استولى عليها حب الشباب والجمال وتذوقه في غير حدود .

الاعتدال في الفن عند الإغريق وفي الأخلاق

وكان التناسب والانسجام والاعتدال في أساليب الفن هي دعائمه ، كما كانت دعائم السلوك الإغريقي العام ، ولذا كان الإغريق يتحاشون الغلو في جميع صوره وأشكاله .

والاتزان ، والتعقل السليم ، والمسلك الحميد ، كانت من مقدساتهم ، ومن ثَمَّ كان من واجبهم السير على الصراط المستقيم .

البساطة في شعرهم

أما في الشعر فهم يتسمون بالبساطة في التفكير والتعبير مع الوضوح في الصياغة .

أهمية الزراعة عندهم

وكان أهل مدينة «أثينا» لا يجعلون العمل يستغرق كل نشاطهم ووقتهم ، ولم يكن لهم رغبة ملحة في اكتناز الأموال الضخمة لأنهم كانوا يضعون المساواة فوق الثروات ، وكانت مطالبهم في الحياة هينة يستطاع الحصول عليها دون كبير نفقات ، ولذا لم تكن بينهم طبقة من الأثرياء الكسالى أو طبقة من الفقراء المعدمين ، وأهم عمل لديهم كان إتقان الزراعة ، ولذا قال «إكسنوفون Xénophon» مؤرخهم ، وفيلسوفهم ، وأحد قوادهم المولود عام ٤٣٠ق . م . «إن الزراعة مصدر جميع الفنون ومنبعها ، فإن ازدهرت ازدهرت الفنون معها ، وإن لم تفلح الأرض هلكت هذه الفنون جميعها على وجه التقريب ، وإكسنوفون هو واضع مأساة أديب الملك» .

الصناعات لديهم

وإلى جانب الزراعة مارس الأثينيون صناعة السفن ، وطرق الحديد ، والتجارة ، التي كانت مصادر وارداتها تأتيهم من مصر وإيطاليا وجزيرة صقلية ، فالغلال كانت تجلب إليهم مع هذه البلدان الثلاثة ، وكانوا يستوردون السمك المقدد واللحوم المملحة ومعظم الخامات الصناعية كالحديد ، والنحاس ، والجلود المدبوغة ، والقار ، والتيل ، والخشب عن طريق البحر الأسود ، ومن فارس كانوا يستوردون السجاد ، والعطور من بلاد العرب ، والبردي ، والخز ، والعبيد السود

من مصر، ومن ثَمَّ كان لابد لهم من إنشاء أسطول تجاري ضخم لتزويدهم بهذه السلع.

قساوة الأثينيين وغلظة قلوبهم

وكان الأثينيون قساة غلاظ القلوب إزاء الرقيق الذين يستخدمونهم ركعًا، ومدة العمل عشر ساعات يرتاحون مثلها في ظروف سيئة للغاية وسط رائحة كريهة، ولذا كان هؤلاء الأرقاء التعساء لا يعيشون طويلاً.

أجور الوظائف الزهيدة

وكانت أجور الوظائف في الدولة زهيدة جدًّا ومدة شغلها لا يزيد على سنة واحدة، ولا يسمح لشاغلها بانتخابه سنة أخرى.

أثينا مركز مالي وتجاري

وحوالي عام ٤٣٠ق.م. صارت مدينة أثينا المركز المالي والتجاري الرئيسي في البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت تستمد مواردها المالية من سفنها ومناجمها ومصانعها، ومن ثمّ أخذت تتدرج في الارتقاء الفني فبرزت في الفنون المسرحية والرياضية والجميلة بأنواعها المختلفة، إلى أن شيدت الإسكندرية فتضاءل شأنها وشأن كورنثية ولاسيما أن صارت الإسكندرية أكبر مدينة في العالم، إذ صارت مساحتها تعادل ثلاثة أضعاف مدينة أثينا وأضحى ازدهارها ذائع الصيت.

ممارسة الألعاب الرياضية عندهم

كان اللاعب الأثيني يتجرد من ملابسه ويدهن جسمه بالزيت ويدلك جلده في عناية، وفي الملعب الرياضي يذري التراب على جسمه ليمنع تسرب العرق مما يحفظ للجسد رطوبته، ثم يمارس المران الرياضي بالمصارعة مع الغرائر المحشوة بالرمل، وبعد ذلك يأخذ في العدو السريع، ثم يزاول المصارعة مع أحد أقرانه، وبعد أن يزيل التراب والزيت عن جسمه بمكشط خاص يذهب إلى الحمام، وفي أوقات الفراغ يذهب الشبان لأحد العازفين على الناي، ليثبوا على أنغامه، وفي أيديهم الصناجات الخرساء (الكتنيت).

مباريات الديكة

وفي بعض الأماكن تقوم مباريات بين الديكة يتراهن عليها المتراهنون، وكانت مثل هذه المباريات الوحشية تقام في أغلب شوارع وحارات وأزقة قسم الجمرك بالإسكندرية في مستهل القرن العشرين، وقد حضرت الكثير منها، وكانت تنتهي عادة بالمشاجرات الدامية بين المتراهنين إلى أن منعتها الحكومة بأوامر رسمية صارمة.

كرة الأرض

وكان من ألعاب اليونانيين مباريات الكرة فوق الأرض المستوية وكانت هذه اللعبة تمارس بالإسكندرية حتى عهد قريب وتسمى «لعبة الكرة الشراب» أي أن الكرة كانت تعد من جورب رجالي يحشى بالخراق البالية، ثم يوضع حجر رقيع قائم في أول ساحة اللعب ويدحرج اللاعب الكرة نحو الحجر (وكان يدعى الميس) فإذا أوقعه صار اللاعب من الكسبانين، وكان من ألعاب اليونانيين الأخرى لعبة «الدامة» ولعبة «الشطرنج»ومازالت هاتان اللعبتان من ألعاب التسلية في القطر المصري.

وصف مآدب الأثينيين

ويصف التاريخ مآدبهم في القرن الثاني قبل الميلاد بأنها كانت تتركب – في العشاء – من ثعابين السمك المسلوقة، والدجاج، والأرانب البرية المتبلة، وأقراص الشهد، ومن الخضروات المهيئة بالزيت والخل (السلطة) والنبيذ.

التمثيلية الهزلية والألعاب البهلوانية

وبعد المائدة يأتي ممثل ومعه فتاة (بهلوانة) وعازف على القيثار، فترقص الفتاة على الأنغام، ثم تمرق خلال طوق ذي خناجر، ومازالت هذه اللعبة البهلوانية تمارس بالإسكندرية من بعض الرجال والفتيات حتى الآن، كما تمارس في «السيرك»، وبعد لعبة الطوق الخطرة، كان الممثل والفتاة وعازف القيثار يقدمون تمثيلية هزلية قصيرة «بلتومينه»، وكانت هذه «البلتومينه» تمثل عادة في سيرك الحلو وسيرك مريم بالإسكندرية منذ عهد غير بعيد وذلك بعد تقديم الألعاب البهلوانية الأخرى، وكان المهرج الذي يقوم ببطولة «البلتومينه» يسمى «صميدة» فيضحك المتفرجين بغبائه، وحبه الضائع للفتاة التي تهزأ منه.

وطنية الإغريق القومية

ويدلنا التاريخ على أن اليوناني كان وطنيًا غيورًا بحيث كان كل وقته، وماله، وحياته رهن إشارة بلاده، وكان لهذا الغرض يحافظ على فتونته وصحته ليكون دائمًا في المستوى اللائق للخدمة في الجندية العاملة حتى سن الستين.

ولكنهم لم يكونوا أباءً وأزواجًا صالحين

ومع ذلك لم يكن هذا الوطني المخلص أبًا متمسكًا بأبوّته، وبواجباته نحو أسرته، فكان له كل الحرية في مخالطة من يشاء من النساء دون أي اعتراض من زوجته.

الحريم عند الإغريق

على حين أن هذه الزوجة قلّما ما كان يسمح لها بأن ترى رجلاً آخر حتى من أقاربها، ولذا كانت تقضي حياتها بين جدران المنزل كالسجينة دون أن تستمتع بشيء من متع الرجال، وحتى هذا المنزل كانت تنقصه وسائل الراحة، إذ يتركب من طبقة أرضية ليس لها نوافذ في معظم الحالات، وفي الشتاء يخفف من شدة البرد وجود مدفأة نحاسية ذات ثلاثة أرجل «منجد»، وكان هذا المنجد يستخدم في أغلب منازل الأسر المتوسطة وفي منازل الأسر الغنية بالإسكندرية حتى العقد الثاني من القرن العشرين، وكان من النحاس الأصفر المحلى بالنقوش، وتوضع تحته صينية من النحاس نفسه منقوشة هي الأخرى، وله غطاء ذو ثقوب كبيرة يوضع فوق موقد الفحم البلدي «فحم الخشب» الذي تبعثر فوقه حباب البلّوط ليلتهمها أفراد الأسرة مشوية حارة مع فنجانات الشاي المغربي المعطر.

زواج الفتيات في سن الخامسة عشرة

وكانت الفتيات اليونانيات يتزوجن عادة في سن الخامسة عشرة، وكن يملن إلى السمر لقتل الوقت ويزول جمالهن في سن مبكرة لسجنهن في منازل كئيبة.

ولم ينج من هذه المعاملة الخشنة غير فتيات مدينة «إسبرطة» اللائي كن يمارسن الرياضة، ويعشن في الخلاء ويتصارعن ويمارسن السباق مع الشبان.

تأصل الألقاب الرياضية عند الإغريق

وكانت الألعاب الرياضية متأصلة في روح الشعب اليوناني، وبلغت ذروتها في العصر الذهبي في القرن الخامس، ومعظم القرن السادس قبل الميلاد، فكانت العضلات المفتولة وقوة الجسم ونشاطه إلى جانب السلوك القويم من ألزم الصفات التي يتحلى بها الرجال إلى جانب التواضع وضبط النفس والفطنة، وكانت الموسيقى والرياضة تدخلان في تربية الأطفال وفي حياة الرجال على اعتبار أن الموسيقى غذاء للروح والرياضة من ضروريات الجسم، وكان من بين أنواع رياضة السباق حمل المتسابقين عدة الحرب الكاملة فيلبس اللاعب الخوذة، ويحمل درعًا على ذراعه اليسرى، وكان الرقص من الألعاب الرياضية المحببة للرجال فكانوا يحاكون بمزاولته الحركات العسكرية للمحاربين أو حركات الصيد، والطرد، وكل ذلك في لطف وتؤدة.

ومن ألعابهم المألوفة المصارعة، وقذف القرص، ورمي الحربة، والملاكمة، والسباق بالسلاح، وبالمشاعل.

فن النحت عندهم

ولم يتطرق فن النحت من الرجل إلى المرأة إلاّ بعد أن أتقن اليونانيون تماثيل الرجال وأخرجوها في أشكال تبرز التعبيرات الدقيقة جلية واضحة، ثم نحتوا تماثيل النساء بالثياب في أول الأمر ثم تدرجوا إلى نحت تماثيلها عارية تبرز جمال الجسم فقط، أو تظهر جماله وجمال الفن النحتي معًا.

آلهة اليونان

وفيما يتعلق بالعقائد الدينية، كان أعظم الآلهة عند اليونانيين هو الإله «زيوس Zeus» ويتجلى ذلك في تماثيله التي تضفي عليه هيبة العظمة، والقوة، والجبروت، وهو جالس على عرشه يحرسه النسر على اليسار والكلب «سيربيروس» على اليمين، والإله «زيوس» عندهم هو رب السماء والأرض ورب الأشجار والنبات وما تحت الثرى، لأنه هو الذي يهب الحياة، ويُنبت الحبوب، وله سلطان على البحار وأعماقها، وزوجته هي «حيرا» وتتسم بالجلال الخليق بمليكة الأوطب، ومن آلهتهم العظام الإلهة «أثينا» والإله «أبوللو»، وكانت ديانتهم تقوم على أساس الأخلاق الكريمة وإن كانت لا تحض على حب الإنسانية في مجموعها، ومحبة الخير للناس كافة، غير أنها تغذي الفضائل من وطنية وشجاعة وإحساس بالواجب نحو الأسرة والأهل والمدينة والمحافظة على الإيمان، والقيام على حقوق الغرباء، كما كانت تحث على تحسين حال الأرقاء، غير أن هذه الفضائل لم تكن منفذة تمامًا من أفراد الشعب اليوناني ولاسيما من أهل مدينة «أثينا».

أصول الديانة اليونانية

ولم تَدْعُ الديانة اليونانية القديمة إلى إنكار الذات والنسْك، ولم تتمثل في تعاليمها روح الإنسانية العالية، غير أنها أعدت الأذهان بكيفية إجمالية لتوخي الاعتدال في العمل، وفي الشعور مما مكن الفيلسوف أرسطو من أن يتخذه قاعدة لمذهبه في الأخلاق.

وأسهمت الديانة اليونانية القديمة بقسط وافر في المجالات الفكرية المتعلقة بالعلوم والفنون على خلاف إسهامها في الميادين

التشريعية والأخلاقية ومن ثَمَّ خرجت الفلسفة اليونانية حرة من أي تحكم أو قيد ديني.

وليس في هذه الديانة إله للشر، فالآلهة عندهم تهب الناس الخير أما الشر فيأتي منهم أنفسهم ومن ثَمَّ فهي ديانة اختيارية لا جبرية.

الإلهة فينوس

أما الإلهة «فينوس Venus» فكانت ربة الجمال والحب، وكانت عبادتها أخلاقية صارمة على الرغم مما كان الناس يعدونها رمزًا للحب بنوعيه الشهواني والروحي.

تشييد المستعمرات التجارية

ولم يكن الغرض من إنشاء المستعمرات اليونانية وراء البحار الاستعمار، ورفع علم بلادهم على البلدان الأخرى، وإنما كان ضرورة حيوية يفرضها اكتظاظ المدن بالسكان، وكان اليونانيون يستشيرون الإله «أبوللو» قبل الإقدام على إقامة المستعمرة فيشير عليهم كهنته بالغزو وذلك لمعرفتهم بعض الشيء بمبادئ الجغرافيا التي توضح بعض جوانب البلدان المراد غزوها، وعندها يعينون قائدًا لكل حملة تغزو إحدى المستعمرات، فيأخذ القائد قبسًا من الشعلة العامة في المدينة الأصيلة ليشعل منه شعلة المستعمرة.

وكان موقع المستعمرة يختار بعناية فائقة فيخططونها عادة على أرض مربعة الشكل تشقها الشوارع متقاطعة في زاوية قائمة (على غرار تخطيط مدينة الإسكندرية عند إنشائها)، ثم يقسمون الأرض الزراعية بين المستعمرين بعد استبعاد أجزاء منها لتحبس على الآلهة.

ولم يكن للمدينة الأصيلة (الأم) أية سلطة على المستعمرات التي ينشئها أبناؤها أو أية هيمنة، ولذا كانت المستعمرات وحدات سياسية مستقلة لها مطلق الحرية في حكم نفسها وإدارة أعمالها لا يربطها أي رباط بالدولة الأصيلة، وتشذ عن هذه القاعدة مستعمرات مدينة «كورنثية».

أسطول أثينا العظيم

ومهد الحلف الديلوسي، وهو نسبة إلى هيكل أبوللو في «ديلوس Delos» لمدينة أثينا أن يكون لها أسطول عظيم تسيطر به على البحار وسلطان أعظم من أي عضو آخر في الحلف، فوسع هذا الأسطول نطاق النشاط التجاري الأثيني، وقضى على أعمال القرصنة في شرق البحر الأبيض المتوسط، وقد صار هذا الحلف فيما بعد إمبراطورية حقيقية.

امتزاج العادات والتقاليد الإغريقية بالمصرية

وليس من شك في أن العادات، والتقاليد الاجتماعية، والمعتقدات الدينية الإغريقية التي توائم المزاج المصري ولا تتنافى مع الطباع المصرية المتأصلة في نفوس الناس قد وجدت سبيلاً للامتزاج بالعادات، والتقاليد، والمعتقدات، التي كانت تسود المجتمع المصري في «راقودة» لدى إنشاء الإسكندرية وأن ما لم يتفق منها مع هذا المزاج قد بقى مستهجنًا وقتًا من الزمن، أو بكيفية دائمة لم تغيرها السنون، والأجيال اللاحقة.

مقارنة التقاليد المصرية بالإغريقية من حيث مكانة المرأة

ومن مقارنة التقاليد والمعتقدات المصرية بمثيلاتها الإغريقية في ذلك الحين يتضح تعارضها فيما يلي:

أن المرأة المصرية في «راقودة» كانت حرة طليقة تخرج وقت ما تشاء وتتناول العشاء صحبة زوجها وأولادها خارج البيت وتذهب إلى الأسواق وتحمل الأثقال على كتفها حرصًا على سلامة شعرها، وتمرح وتشرب النبيذ، ولاسيما في أعياد الإله «ديونيسوس» وتطبّل على مزامير الرجال وتشترك في المشاجرات العنيفة كما جاء في قول هيرودوت المدوّن قبل.

أما المرأة الإغريقية – ولاسيما الأثينية – فكانت حبيسة المنزل الكئيب الخالي من النوافذ ومن أسباب الراحة، ولذا كان جمالها يذبل في سن مبكرة.

إن المرأة المصرية كانت تتمتع بمكانة محترمة في الأسرة، فهي «بنت برّ» أي ربة البيت، ويعاملها الرجل بإحسان، ويعاونها في جميع الأعمال، وكانت عند زوجها «محبوبة سيدها» وكان لها شأن مرموق في الطقوس الدينية، إذ تقوم بالموسيقى الربانية وتتولى مركز كبرى الكاهنات لتصبح بذلك زوجة الإله رع، ووفاقًا للعرف السائد ما كان لزوجها أن ينغص حياتها بالزواج من امرأة أخرى.

على حين أن المرأة الإغريقية كانت عاجزة عن الاعتراض على زوجها في مخالطة من يشاء ولا تستطيع رؤية أقاربها من الرجال في كثير من الأحيان.

إن المرأة المصرية كانت تبدي أنوثتها في قميصها الذي لا يحجب أعلى صدرها وتجمله بشبكة من الخرز، وفي الضفيرتين ترسلهما على الكتفين زيادة في إبراز مفاتنها.

أما المرأة الإغريقية فكانت محرومة من كل هذه المظاهر إذ كانت رهينة المنزل لا تبرحه.

وحتى في الناحية الدينية كانت الإلهة المصرية «إيزيس» تُمثّل برأس امرأة، ورأس بقرة على التتالي لأن البقرة المقدسة عند المصريين كانت السماء وواهبة الحياة والأم الكبرى «هاتور» التي تحيطها هالة من التبجيل والإجلال.

أما عند الإغريق فالإلهة «فينوس» كانت ربة الجمال، ورمز الحب بنوعيه الروحي والشهواني وفي هذا النوع الثاني ما يهدر كرامتها ويناقض تأليهها.

ولم يكن المصريون قساة غلاظ القلوب في معاملة الأرقاء، يدل على ذلك تقديمهم هبة للمعابد حيث يجدون ظروف الحياة الملائمة.

أما الإغريق فكانوا يسومون هؤلاء التعساء سوء العذاب فتزهق أرواحهم في مدة قصيرة.

والمصريون كانوا متمسكين بالمبادئ القويمة فلم يسيئوا إلى ابنة أحد ولم يضطهدوا أرملة، وتنصحهم الحكم السائرة بتوخي العدل وقول الصدق، وكانوا يتمسكون بالصراحة حتى بعد الموت إذ على أرواحهم أن تعترف بأنهم لم يكونوا من الأفاضل تمامًا، وكانوا يعتقدون في الدار الآخرة ويقومون بواجباتهم الأبوية والزوجية.

أما الإغريق فلم تكن المثل العليا عندهم محددة المعالم، وكانت عقيدتهم في الأمور الإلهية مزعزعة، ولا يتوخون الصدق المطلق فكانوا لا يكرهون قول الأكاذيب المحبوكة، وكانوا ماديين مغتنمين للذات محبين للجمال وتذوقه في غير حدود لأنهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي عندهم مكان كئيب باطل، ولا تقوم ديانتهم على حب الإنسانية في كيانها العام، ومحبة الخير للناس كافة، والقيام بواجبات الأبوة والزوجية خير قيام مع إنكار الذات والنسك، ومن ثَمَّ لم تكن روح الإنسانية العالية تتمثل في هذه الديانة المزعزعة.

الزراعة والصناعة

إن الإغريق كانوا مثل المصريين زُراعًا مهرة وصنّاع سفن مثل أهل «راقودة» ويمارسون بعض الألعاب التي ظلت تمارس بالإسكندرية عبر القرون مثل مباريات «الديكة» ومباريات «الكرة الشراب» ولعبة الطوق ذي الخناجر والتمثيلية الهزلية القصيرة، أما الألعاب الرياضية التي وصفت قبل فقد قام الإغريق بعرضها في حفل تتويج الإسكندر الأكبر ملكًا على مصر في معبد الإله «بتاح»، وتعرّف المصريون عليها، وما من شك في أنهم أخذوا في ممارستها بعد إنشاء الإسكندرية، دون أن يتجردوا من ملابسهم، إذ إن المصريين يأنفون هذا اللون من الاستهتار بالآداب العامة.

ومن كل ما تقدم تتضح معالم بعض نواحي الحياة الاجتماعية والدينية في بداية قيام العهد البطلمي، وانصهار التقاليد، والعادات، والمعتقدات الدينية في بوتقة واحدة مما أدى إلى ازدهار الإسكندرية بسرعة مذهلة ولاسيما بعد توحيد العقيدة الدينية بين سكانها في عهد بطليموس الأول (انظر مادة سوتير) وذلك بنشر عبادة الإله «سيرابيس».

الإسكندرية وعظمتها وتشبيهها بفلورنسا

تلك هي الإسكندرية وأولئك هم أهلها عند نشأتها، وقد بهر جمالها الأبصار، وخلب بهاؤها ألباب كل من رأوها، فتغنى بجمالها وبهائها وثراء أهلها الشعراء والكتاب، وقالوا أنها المدينة الباهرة التي يجد فيها الناس كل ما تشتهيه أنفسهم وقد أتقن أهلها – إلى جانب التزود بالثقافة الجادة في أحضان متحفها ومكتبتها الذائعة الصيت – فنون اللهو المرح والمتعة اللذيذة التي شدت إلى كنفها الكثير من الأجانب وسكان الأقاليم.

ولقد صدق أحد الكتاب المحدثين في تشبيهه لها بمدينة فلورنسا الإيطالية في عهد «أسرة مديتشي Les Médicis» الذين جعلوا منها جمهورية مزدهرة في القرون الوسطى، فدبّ النشاط القوي في شتى الفنون والآداب خلال عهدهم الذي يشهد بتفوقه في هذا الميدان العدد الكبير من الرسامين والنحاتين المهرة الذين أنتجوا عددًا ضخمًا من التماثيل الباهرة، والعدد الكبير من اللوحات إلى جانب المكتبات الأدبية، والعلمية المنتشرة في أرجائها، والمسارح الفخمة التي تمد أهلها بالمتعة الفنية الراقية والاستمتاع بمباهج الحياة المرفهة.

العوامل الجغرافية لموقع الإسكندرية

ولموقع الإسكندرية الممتاز عوامل جغرافية هامة قمينة بأن تخلق من قرية «راقودة» مدينة بالغة الأهمية، فهو على شريط ضيق طويل يطل على البحر الأبيض المتوسط من الشمال، ويطل على بحيرة مريوط في الجنوب، وتقوم جزيرة فارس أمامه كحاجز طبيعي يحمي المدينة من هياج الأمواج، ويحمي السفن عندما تلجأ إلى مينائها الطبيعي الممتاز.

وكان موقعها عند إنشائها يتصل بالنيل عن طريق ترعة «شيديا» التي سميت «بالخليج الناصري» في العصور الوسطى، وبهذه الوسيلة كانت المدينة على اتصال بالبحر الأحمر الذي كان الطريق الرئيسي لنقل التجارة بين الشرق الأقصى والأوسط، وبين حوض البحر الأبيض مما جعل من الإسكندرية مركزًا أساسيًّا لنقل التجارة من الهند والشرق الأقصى إلى أسواق اليونان والعالم الخارجي، وهو ما كان يهدف إلى تحقيقه الإسكندر الأكبر بعد اتساع إمبراطوريته المترامية الأطراف ولاسيما أن الإسكندرية – بوضعها الجغرافي – ستتوسط أجزاء إمبراطوريته العظيمة ومن ثَمَّ فهي ميناء مثالي تعد إليه المتاجرة من كل صوب من أرجاء هذه الإمبراطورية الشاسعة.

وقد حبت الطبيعة موقع الإسكندرية بميزات أخرى جعلتها تفضل موانئ مصر الشمالية وهي: رشيد، ودمياط، والفرما، ومن بين هذه الميزات أن التيار البحري الساحلي الذي يسري أمام سواحل إفريقيا الشمالية آتيًا من غرب البحر الأبيض لا يلقي أمام سواحل الإسكندرية إلاّ قدرًا ضئيلاً جدًّا من الرواسب بينما يجرف رواسب النيل ويلقي بها أمام موانئ مصر الأخرى، مما يؤدي إلى خلق بعض المشاكل الجغرافية.

ومن جهة أخرى فإن ساحل الإسكندرية يكاد يخلو من الجزر الكبيرة والمتوسطة وذلك لانبساطه وتدرجه في العمق، وانعدام وجود مرتفعات هامة بجواره كان يمكن أن تقتطع التعرية البحرية أجزاء منها فتتحول إلى جزر، ويلاحظ أن التعرية البحرية تكون ضعيفة الأثر بالنسبة إلى السواحل المنخفضة المنبسطة وذلك لضعف أثر أمواجها.

والبحر أكثر عمقًا أمام الإسكندرية منه في أي جزء آخر من شمال الدلتا، فالعمق ينحدر إلى ألف متر على بعد ٦٤ كيلومترًا من ساحلها على حين أنه يبعد عن ساحل بورسعيد بمقدار ١٢٠ كيلومترًا، وذلك بسبب كثرة الرواسب التي يقذف بها النيل كل عام وتتراكم في قاع البحر وتعلو تدريجًا، أما موقع الإسكندرية نحو الغرب من فرع النيل، فقد حماها من تراكم هذه الرواسب وجعل من شواطئها أماكن استحمام تزهو بنقائها وصفاء رملها على كثير من مصايف العالم في كافة القارات، ويظهر هذا النقاء الصافي جليًّا في شواطئ سيدي بشر بشرق المدينة وفي شواطئ منطقة العجمي بغربها.

دورها الحضاري خلال العهد البطلمي

ولقد قدر للإسكندرية أن تقوم بدور إيجابي هام في تاريخ مصر الحضاري وفي تاريخ العالم القديم بأسره، وذلك خلال القرون الثلاثة التي قطعها الحكم البطلمي في القطر المصري، وأبرز معالم هذا الدور هو أنها صارت نقطة التقاء إشعاع حضاري بين عالمين مختلفين أحدهما شرقي في معتقداته ونظرته للحياة وقيمه ونظمه الموروثة، ويضم معظم الأقاليم الأفريقية والمناطق الآسيوية المجاورة للقسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، والآخر غربي يختلف اختلافًا بيّنًا في كل هذه المعتقدات، والقيم والنظم ويضم الدويلات اليونانية الواقعة على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى (الأناضول) والجزر، وأشباه الجزر الأوروبية المشتملة على مقدونيا وبلاد اليونان.

دورها في الالتقاء الحضاري التام

والواقع هو أن هذه الأقاليم والمناطق لم تكن مقطوعة الصلة ببعضها قبل إنشاء الإسكندرية وازدهارها السريع العجيب، إذ كان بينها نشاط حضاري شمل السياسة، والتجارة، والفنون، والثقافة، والعقيدة الدينية، وقد اشترك في هذا النشاط بألوانه المختلفة اليونانيون، والفينيقيون، والفرس، والمصريون، غير أن هذا الاتصال لم يكن في الحقيقة إلا مجرد تسرب حضاري لم يصل إلى درجة الالتقاء الواسع المجال الذي يضيق إلى أصغر حد من تقارب القيم الحضارية كما نهضت به مدينة الإسكندرية التي قدر لها – بفضل موقعها خاصة ولظروف لها علاقة بمميزات مصر عامة – أن تصبح أكبر مراكز العالم الجديد التي نشأ عن الفتوحات المذهلة التي قام بها الإسكندر الأكبر ظهورًا على مسرح الأحداث العالمية الحضارية، وأن تتبلور فيها عناصر الالتقاء الحضاري بحيث صارت تمثل عصرًا بأكمله يتمتع بحضارة مكتملة الجوانب من حيث العلوم والآداب والفنون والثقافة العامة، ومن ثَمَّ يستطاع القول بأن تاريخ الإسكندرية الخاص بالمدة التي ظلت فيها عاصمة القطر المصري يعتبر بحق تاريخ عصر بأسره.

أثر الثقافة الإغريقية في حضارة الإسكندرية

ويرجع معظم الفضل في ذلك التطور الحضاري العميق الأثر إلى الأصول الثقافية التي نقلها الإغريق إلى الإسكندرية عظيمة القيمة عميقة الفائدة، إذ إن الإغريق هم أول الناس في معرفة الكثير من علوم الرياضيات، والطب، والسياسة، والتاريخ، وقواعد اللغة، والفلسفة على اختلاف فروعها وهي: الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، والمنطق، والأخلاق، وعلم النفس، وجميع ألوان الآداب، وكانوا الرواد الأوائل في علوم التربية وفنونها.

أثار علماء الإغريق في العلوم

فرسيكاتابوس أول من ألّف في التاريخ والجغرافيا، وفيثاغورث أول من ابتكر نظرية الأرقام، وديمقريطس أول من تناول نظرية الجوهر الفرد بالبحث، وأرسطو هو واضع حجر الأساس في علم الحيوان، وتيوفراستوس هو واضع علم النبات، وأرخميدس (انظر مادة أرشميد) هو واضع علم القوى المائية والآلية (الميكانيكا).

وإن كان علم الفلك لم يكن كشفًا إغريقيًّا إذ إن أسرار السماء الحافلة بالنجوم، والكواكب والمجرات قد أثارت انتباه المصريين والبابليين التواقة إلى المعرفة، إلا أن دراسة النجوم والكواكب قد أصابت على أيدي العلماء الإغريق من التقدم البعيد المدى ما يكاد يكون انقلابًا في هذا الباب، وكان أول من كشف كروية الأرض وأول من حدد أبعادها إغريقيين، وكان «أرستارخوس الساموسي» أول من بسّط النظرية التي ظلت مغمورة زمنًا طويلاً بسبب سيطرة آراء أرسطو على العقول، وهي نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس.

أثارهم في الفنون

وفي فن العمارة والنحت والنقش على الأحجار الكريمة ابتدع الإغريق طرائف للتعبير متميزة لا تبارى في هذا المجال الفني.

ولم تكن للإغريق موسيقى بالمعنى الصحيح المقصود من هذا الفن وإن كانت كلمة «موسيقى Musique» وكلمة «نغم Mélodie» من أصل إغريقي، فالموسيقى عند الإغريق كانت خالية من النغمة المستقلة وغير قائمة في كيانها على توالف الأنغام والتدوين الموسيقي الذي لم يكن يتعدى حروفًا هجائية يكتبونها فوق أبيات الشعر، ولكن على الرغم مما تقدم فإن الموسيقى الإغريقية كانت فَنًّا له دقته ورقته إذ كانت مليئة بالتقاسيم النغمية التي تدل على أنها كانت أسلوبًا خاصًّا في إنشاء الأشعار.

ولم يعرف الإغريق التوزيع الموسيقي «الهرموني Harmonie»، ومن ثَمَّ كانوا يجهلون التناسق الفني الدقيق في الجوقات الموسيقية الحديثة.

غير أنهم سادة فن العمارة وآثارهم في هذا الفن ماتزال باقية ولاسيما في أوروبا حيث تتخذ من هذه الآثار نماذج في مختلف الأبنية الحديثة، ولاسيما في الأعمدة الدورية والسلالم الحلزونية والمسارح والملاعب الرياضية والتماثيل والأفاريز.

ويتجلى الأثر الإغريقي خلال العهد البطلمي في الصور المنقوشة على الرخام والخزف وعلى توابيت الموتى، ولاسيما على جدران مدينة «بومبي» بإيطاليا، وهي شواهد تدل في جلاء على عظمة هذا الفن المجيد، وماتزال الروائع الإغريقية في فن النحت فريدة في أنواعها لا يدانيها فن آخر، وستظل نماذج عالية القدر يقلدها الفنانون، ولقد صدق الفيلسوف الألماني «نيتشيه» إذ يقول: «إن الإغريق كانوا بسطاء بساطة العبقرية نفسها ومن ثَمَّ فهم أساتذة الفن الخالدون».

أثارهم في الآداب

والأدب الإغريقي يمتاز بالبساطة، والرشاقة، والاعتدال في تصوير العواطف، والإحساس بالجمال مع القصد في العبارة، والتمثيل عندهم كان يحافظ على تعليمات أرسطو التي تتركز في مراعاة وحدة الزمن، ووحدة العمل، ووضوح الحبكة التمثيلية وقد غلب هذا الطابع الإغريقي على المسرحيات التي ألّفها الشاعران الفرنسيان «كورنيّي Corneille» و«راسين Racine»، ومازال وزن الشعر السكندري غالبًا في الشعر الفرنسي.

وسيظل الطابع الإغريقي في كل هذه النواحي الفنية متمتعًا بكثرة أنصاره وسيبقى كذلك ما بقي في الدنيا حب للجمال، والحرية، والاعتدال، ولن يخلو عصر من رجال ونساء يفضلون اتباع المنطق السليم على المنطق المعوج، وينشدون الجمال، وينبذون القبح والدمامة، ويحبون البساطة ويمقتون التعقيد، ويفضلون الإيجاز على الإطناب، ويصدرون في كل أفكارهم عن هذا الطابع الحر المتزن.

فضلهم على علم التاريخ

وفضل الإغريق على علم التاريخ لا يُنكر، فالشعوب المختلفة لا تتساوى من حيث ملكة التذكر، ويستطاع القول بأن الإغريق كانوا على قدر كبير من حيث هذه الملكة، فكانوا يحبون استيعاد ذكرى المشاهير من الناس، وكان القصد الأساسي من قيام آلهة الفن لديهم هو التغني بالأعمال المجيدة التي يقوم بها البشر، ويرون أن الحياة البشرية مزدانة بالحيوية، والمتع، وجديرة بأن يعيشها الإنسان في رغد وأن يسجل

أحداثها لأن في ذلك ما يزوده بدروس مفيدة في السياسة والأخلاق والاجتماع.

فضلهم على الفلسفة

كل الفلسفة الغربية وكثير من عناصر الفلسفة الشرقية تأخذ مناهلها من الفلسفة الإغريقية، ويلاحظ أن الإغريق كانوا أول من طرحوا على فطنة الإدراك الإنساني هذه الأسئلة الجوهرية: ما هي المادة؟ وما هي الصورة والحركة؟ وما هي العدالة؟ وما هي السعادة؟ وكانوا أول من حرروا الفكر الأوروبي من الشعوذة، واستخدموا الطاقة العقلية الحرة في كشف مشكلات الوجود الكبرى، ومن ثَمَّ يلاحظ أنه قد يكون من العسير العثور على مذهب من المذاهب الفلسفية الحديثة، وليس له جذور في ملكة البحث والاستطلاع عند الإغريق.

وفكرة النفس بوصف كونها الكيان الروحي للشخصية الإنسانية هي فكرة إغريقية، وكان سقراط أول من علم أهل «أثينا» أن من أول واجباتهم العناية بالنفس ومن ثَمَّ كانت محاوراته حافلة بالتوجيهات الخلقية، وتدعو إلى معرفة أن سر سلامة الخلق تكمن في فحص النفس ذاتها.

وكانت عقيدة خلود الروح من أهم عناصر فلسفتهم الباحثة عما وراء الطبيعة «الميتافيزيقا»، وكان الوعي الديني الرفيع في وجدانهم لا يأخذ منهله من الإحساس العاطفي فحسب، وإنما كان مزيجًا من علم ما وراء الطبيعة وعلم الأخلاق والشعور.

والذات الإلهية عند فلاسفة الإغريق كانت أدلة إثباتها تمت إلى ما وراء الطبيعة بأسباب متينة ومن ثَمَّ تصورها «أفلاطون» على أنها الحركة المنبعثة انبعاثًا ذاتيًّا، أو أنها النفس التي كانت في الأزل مصدر النظام الكوني بأسره، وعند أرسطو كانت الصورة التي تجعل المادة غاية ومعنى، وعلى هذا الأساس يجب أن يُستخرج من طبيعة التفكير نفسه وجود الحقيقة الإلهية في الكون.

فضلهم على الطب

خلّف «أبوقراط» الذي وجد في حوالي عام ٤٦٠ق.م.، وخلف جالينوس الذي عاش في الحقبة الواقعة بين عامي ١٣١ و٢٠١م، خلّفا هما الاثنان مجموعتين ضخمتين من المؤلفات الطبية التي تعد ذخيرة قيمة في علم الطب، على الرغم من أنه لم تكن لديهما معرفة بعلم التشريح ولا بالدورة الدموية ولا بعلم الجراحة التي يستخدم فيها التعقيم، ولم يكن لديهما مجاهر (ميكروسكوبات) ولا سماعات للتعرف على مواطن الأدواء في الأجسام.

فضلهم على علم الهندسة

وفي فن الهندسة يعد كتاب إقليدس أحد دعائم هذا الفن الرياضي.

نقل ألوان الثقافة إلى الإسكندرية

وكل هذه السمات الثقافية من علمية، وفنية، وفلسفية نُقلت إلى الإسكندرية منذ الفترة الأولى لإنشائها، وذلك عن طريق الإغريق الذين نزحوا إليها، واستقروا في أرجائها، ونشروا عناصر هذه السمات الثقافية المختلفة بين سكانها الأصليين، وبين الوافدين عليها من أبناء الأمم الأخرى، فصارت منارًا للعلم والمعرفة فلم تباريها مدينة أخرى في خدمة

الثقافة اليونانية، ولاسيما بعد أن أعدت في كنفها أضخم دار للكتب عرفها التاريخ القديم، فاسترعت أنظار العلماء وطلاب العلم من شتى أنحاء العالم وأمّها خليط كبير من أبناء الشعوب، كانوا يجتمعون ويناقشون المسائل الفلسفية والدينية والعلمية.

وآثار كل ذلك سنجده ماثلاً في جلاء عندما يأتي الحديث عن عهد بطليموس الأول (سوتير) وابنه فيلادلف وذكر دار الحكمة ومكتبتها العظيمة وطلابها والعلماء والشعراء والأدباء الذين تخرجوا فيها (انظر مادتي سوتير، وفيلادلف).

اختلاط الحضارة المصرية بالإغريقية في الإسكندرية

ولقد اختلطت سمات هذه الحضارة الإغريقية بسمات الحضارة المصرية العريقة وانصهرت الحضارتان العظيمتان في بوتقة واحدة، وتكونت منهما حضارة باهرة فياضة الضياء وضّاحة البهاء كانت الإسكندرية معقلها الحصين، ومنارها الهادي سواء السبيل إلى مناهل العرفان التي ارتوى من مائها السلسبيل الفكر الإنساني، فأبدع في الابتكار وسار في طريق العلم بخطوات ثابتة موفقة.

الجالية القرطاجية في الإسكندرية

وعلاوة على الجاليات المقدونية، واليونانية، والهندية، واليهودية التي استقرت في أحضان مدينة الإسكندرية خلال القرن الأول من إنشائها استقرت في كنفها جالية قرطاجية، وكان لها شأن بين سكان المدينة، و القرطاجيون هم سلالة هؤلاء الفينيقيين الذين كانوا أول الوافدين على البلاد المغربية وكانوا يعرفون بالصوريين نسبة إلى مدينة صور عاصمة بلادهم القديمة، وهم شعب سامي الأصل من فرع الكنعانيين ظهروا في لبنان حوالي عام ٣٢٠٠ق.م.، وأوغلوا في المحيط الأطلنطي وطافوا حول القارة الإفريقية، وأسسوا مستعمرات تجارية في المغرب الأدنى والأوسط والأقصى على المحيط الأطلنطي، وبعد استقرارهم بعض الوقت في سيرت (أوصرت) بين برقة وطرابلس نزحوا إلى تونس وأسسوا مدينة قرطاجية في القرن التاسع قبل الميلاد، ثم أقاموا الدولة القرطاجية في البلاد التونسية، ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى شملت سيطرة جمهوريتهم بلاد الجزائر بأسرها وجزيرتي قورسيقة وسردينيا، ولم تختف هذه الجمهورية إلا عقب انتحار زعيمها المشهور هانيبال خلال عام ١٨٤ق.م.

وقد وفد أفراد الجالية القرطاجية على الإسكندرية حاملين إلى أهلها عاداتهم، وتقاليدهم الفينيقية؛ لتنصهر مع مرور الأيام في بوتقة الحضارة (السكندرية) الناشئة، كما انصهرت فيها الحضارة الإغريقية من قبل.

بعض سمات القرطاجيين

ويوضح لنا التاريخ بعض سمات هذه العادات والتقاليد فيقول أنهم – وهم من الجنس السامي – لا يتناولون لحم الخنزير، ويستعملون العسل فيما يُستعمل فيه السكر من الأطعمة والمشروبات، وطعامهم الوطني المفضل العصيدة، وهي مزيج من دقيق القمح والعسل والجبن، ويدمنون على شرب النبيذ، ولذا كانوا يوجهون عناية خاصة لزراعة الكروم.

دستورهم

وكان دستورهم يتضمن عناصر من النظم الملكية والديمقراطية والأرستقراطية مجتمعة، ويلاحظ أن أرسطو أعظم فلاسفة اليونان السياسيين في العصور القديمة قد امتدح هذا المزيج من النظم السياسية فقال: «إن قرطاجية تبدو على وجه العموم دولة تحكمها حكومة صالحة».

سماحتهم مع الأجانب

وكانوا لا ينفرون من أبناء الشعوب الأخرى ولا يضمرون لهم الحقد القائم على الغيرة، كما كان أفراد الشعوب الأخرى يفعلون، ومن ثَمَّ كان الامتزاج بينهم وبين الأجانب أمرًا شائعًا، ويتجلى هذا التسامح الاجتماعي في النظام الذي سارت عليه الإسكندرية طوال العهد البطلمي.

جيشهم المقدس

وكان من بين وحدات جيوشهم فرقة يدعونها «بالفرقة المقدسة»، يكونونها من شبان الأشراف المدججين بالسلاح الجيد المزودين بخوذات مستديرة من البرونز وبدروع من الحديد، وتروس مستديرة وحراب وسيوف.

مهارتهم في الملاحة

والفينيقيون أول من اهتدوا إلى تحديد سير سفنهم في أعالي البحار على هدى النجم القطبي، وهم أول من اكتشفوا الملاحة عبر المحيط الأطلنطي، وكانوا يحتفظون بأسرار هذه الملاحة لدرجة أن سفينة إغريقية حاولت متابعة سير سفينة فينيقية (قرطاجية) بعد عبورها مضيق جبل طارق فأمر ربّان هذه السفينة بتوجيهها نحو الصخور لترتطم بها وتغرق مفضلاً هذه التضحية على أن يقف الإغريق على سر الملاحة في المحيط.

كانوا أول المكتشفين لأمريكا

وكان الاعتقاد السائد أن «الفايكنج» سكان جزيرة جرينلاند، وسكاندنافيا الأصليون، هم أول من يرجع إليهم الفضل في اكتشاف القارة الأمريكية لا إلى كرستوف كولومب الملاح الإسباني، وكان هذا الاعتقاد يقوم على ما أثبتته الحفريات التي أجريت في جزيرة نيوفوندلاند وعلى الخريطة التي رسمها الفايكنج لأمريكا «فنلاند Vinland» ويدل كل ذلك على أن هؤلاء القراصنة الشماليين قد وصلوا إلى العالم الجديد قبل وصول كرستوف كولومب بنحو خمسة قرون، وهذه الخريطة عثرت عليها ونشرتها جامعة «ييل Yale» بالولايات المتحدة الأمريكية.

أدلة الأستاذ جوردون على ذلك

غير أن البروفسور «سيروس هـ. جوردون Cyrus H. Gordon» أستاذ الدراسات الخاصة بحفريات البحر الأبيض المتوسط في جامعة «براندس Brandis» قام ببحث مفصل أكد فيه أن الفينيقيين كانوا أول من وصلوا إلى البرازيل، وذلك قبل أن يصل الفايكنج إلى الدنيا الجديدة بحوالي ١٦٠٠ عام أي بنحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ عام قبل الميلاد، ودعم الأستاذ جوردون بحثه بوثيقة لها خطورتها الأثرية هي صورة أمينة موثوق بها لنقوش حجر «باراهيبا» الشهيرة، وقد نقشها الفينيقيون أنفسهم واستهلوها بقولهم «نحن أبناء كنعان ومن أهل صيدا مدينة السلطان» إنها التجارة التي دفعت بنا إلى هذه الشواطئ النائية، ثم تروي القصة بعد ذلك كيف بدأت رحلتهم الشاقة بإحدى

عشرة سفينة انطلقت من خليج العقبة على البحر الأحمر، واستطاعت الدوران حول القارة الأفريقية، ثم ضلت إحداها السبيل بفعل الرياح والعواصف العاتية إلى أن وصلت في النهاية إلى المكان المعروف باسم «باراهيبا» من شواطئ البرازيل وهي تحمل ١٢ رجلاً وثلاث نساء، وعلاوة على هذا الدليل المادي المباشر يؤكد الأستاذ جوردون – وهو على حق – أن المدن القديمة في أمريكا الوسطى والجنوبية تتسم بطابع مدن البحر المتوسط، ويتجلى ذلك في الأهرام المدرجة، وفي أساليب الري التي اعتمدها الهنود الأمريكيون، وتشابه تلك الأهرام، وتلك الطرق في الري الحضارة الفرعونية إحدى حضارات البحر المتوسط.

اتجارهم بالمقايضة

ويدل التاريخ على أن هؤلاء الفينيقيين كانوا من أوائل من مارسوا الاتجار بالمقايضة، فكانوا يضعون سلعهم على الشواطئ فيأتي الأهالي، ويأخذون هذه السلع، ويضعون مكانها ما لديهم من غلات ومنتجات، وكانوا يراعون الأمانة والصدق في جميع الصفقات التجارية التي تتم على هذا النحو.

سماتهم الشرقية

أما سماتهم فكانت شرقية بحتة، فكانوا يرسلون لحيتهم الطويلة، ويلبسون الثياب الفضفاضة الموشاة بالحليّ الكثيرة الرخيصة الثمن، الزاهية الألوان، وكثيرًا ما كانت تتدلى من أنوفهم حلقات من الذهب، ولعلّ عادة وضع هذه الحلقات في أنوف عدد كبير من نساء أهل الريف المصري ترجع إلى تقليد الفينيقيين عندما اختلط المصريون بالجالية القرطاجية بالإسكندرية في فجر إنشائها، وتسمى حلقة الأنف (الخزام) وهي الخِزامة بالفصحى، ومن جهة أخرى كان هؤلاء الفينيقيون مولعين برائحة الطيب.

أخلاقهم

أما أخلاقهم الاجتماعية، فيصفهم التاريخ بالقسوة والغدر، والمغالاة في الشهوات الحسية، والمبالغة في المداهنة والرياء، والمبالغة في التحايا، ولذا كان الناس يتقززون من مظهرهم الخارجي بقدر ما يتقززون من اندماجهم في الشهوات والملذات.

الاندماج الحضاري بالإسكندرية

وأرى من المفيد أن يعرف القارئ آثار هذا الاندماج الحضاري التي صمدت لمرور القرون الزمنية المتعاقبة، وظلّت سماتها ظاهرة حتى اليوم فيما يتمسك به أهل الإسكندرية من عادات وتقاليد، ولست بمفصل كل هذه السمات في هذا البحث لأن تفصيلها يتطلب مجلدًا على حدة، ولذا أقتصر على توضيح بعضها فيما يلي وذلك بالنسبة إلى سكان جزيرة «فاروس» قسم الجمرك حاليًّا، وكوم الشقافة، وباب سدرة، واللبان.

الأفراح بالإسكندرية

تطيل النساء في الأفراح والمناسبات السارة على «الدرابكة» وفي كثير من الأحياء الوطنية بالإسكندرية يصحب النقر على الطبلة زمر الرجال بالسلامية، أو بالأرغول، وفي الطبل البلدي وجوقات الغوازي بالأرياف نماذج حية لهذا اللون من الفنون الشعبية المتوارثة كما وصفها «هيرودوت» في ذكر تقاليد أهل «راقودة».

النساء في الجنازات

ومازالت النسوة في هذه الأحياء يكشفن عن صدورهن خلف الجنازات ويولولن ويشلشلن بالمناديل السوداء الكبيرة وهن «يعدّدن» بالكلمات الحزينة تفجعًا على الميت، و«التشليش» في العرف السكندري فرد المنديل خلف رأس المرأة وجذب طرفيه يمنة ويسرى بين الذراعين المفرودتين مع ترديد كلمات «التعديد» أي ذكر محاسن الميت وأفضاله، والنكبات المترتبة على فقده، هذا إلى جانب اللطم على الخدود وتلطيخها «بالنيلة» كما تقدم القول عند ذكر قرية «راقودة»، وكانت المعدّدة تسير خلف النعش ووراءها النسوة يلطمن ويصرخن ويقفزن وهي تمس وجعهن بكلماتها المحزنة وبالنقر على دفها الصغير.

هياج السكان لأتفه الأسباب

وهياج السكندريين لأتفه الأسباب مازال ظاهرة مميزة لطباعهم الحادة، فقد رأيت في عهد الصبا كثيرًا من حوادث الشغب تتطور إلى مشاجرات دامية بسبب كلمة بريئة قالها شاب أو رجل من المترددين على غير معناها الحقيقي، وكم من مرة شاهدت أحد هؤلاء الفتوات يمر غاضبًا أمام جمع من الناس، ويبادرهم بقوله الجارح النابي في غير ما سبب «كل الجالسين هنا أولاد. . . .» فيبادر بعض من لحقت بهم الإهانة إلى النهوض لرد العدوان بمثله، ولكن أنصار المعتدي يسارعون إلى نصرته، وهكذا تنشب المعركة، وتنتهي بإصابة الناس بجراح، وبالقبض على المتشاجرين، لينالوا جزاءهم في قسم شرطة الجمرك.

فتوة لكل حيّ

وفي أوائل القرن العشرين الحالي كان لكل حيّ من أحياء المدينة القديمة «فتوّ» مشهود له بالقوة والنطح بالروسية والضرب بالعصى وطرح الخصوم على الأرض بمهارة «الشنكلة» وهي استخدام الساقين في شل حركة ساقي الخصم فيهوي على الأرض ليشبعه «الفتوّ» لكمًا في غير هوادة، إلى أن يطلب النجدة من هول ما أصابه بين ضحك المتشيعين «للفتوّ» والشامتين في المهزوم.

المشاعلي واستجداؤه الإجباري

وكان المشاعلي في ذلك الحين – وهو من الفتوات – يلجأ إلى الاستجداء الإجباري يحمل «مشعاله» وهو عبارة على زجاجة كبيرة فارغة يضعها مقلوبة في قمة سارية مضلعة مطعمة بقطع الصدف ومغطاة بقطعة من الحرير السميك الوردي اللون، ومحاطة بأنواع الأزهار، ويسير هذا «الفتوّ» في الشوارع يلعب بمشعله على دقات النقرزان من رجلين خلفه، ويتقدمه تابع ثالث يغطي يده اليمنى بمنديل من الحرير، ويقف المشاعلي أمام دكاكين الباعة، والتجار، ويأتي بحركات ينقل بها المشعال من جبهته إلى ذقنه، ثم إلى قدميه في خفة بارعة، فإذا لم ينفح البائع أو التاجر تابع المشاعلي بعض النقود صاح في وجهه بأقذع الشتائم، وقد يؤدي الأمر إلى تحطيم أدوات الدكان أو المتجر، ونهب معظم ما يضم من بضائع.

ومن معالم الطباع الغليظة التي يتسم بها أهل جزيرة «فاروس» التي تضم الآن قسم الجمرك وجزءًا من قسم المنشية أن أحدًا من الفتوات ما كان له أن يتعدى على منطقة «الفتوّ»

الآخر إلاّ بإذن سابق منه، فإذا أقيم سرادق احتفاء بعرس، أو ختان، وكان الأمر يستدعي مرور موكب العروس، أو عربة الطفل المحتفى بختانه من منطقة «فتوّ» إلى منطقة «فتوّ» آخر، وتعاظم أحدهما، ولم يستأذن زميله أظهر هذا الزميل غضبه العنيف على هذا التصرف الجارح بالنسبة إلى خدش كرامة «فتونته» بأن يتربص للموكب هو وأتباعه، وعندما يصير الركب وسط منطقته ينقض الجميع على الوافدين، وتنجلي المعركة عن إصابة المدعوين، وأهل الفرح والعروس، أو «المطاهر» بالجراح من وابل الحجارة والزجاجات المحشوة بالرمل والضرب بالعصي والنطح بالروسية، وتنقلب معالم الفرح إلى محزنة قاتمة يعلو فيها صراخ النساء، وعويلهن ويساق عقبها العديد من الرجال إلى قسم الشرطة، لتوقيع العقوبة على المعتدين منهم.

كل هذه السمات الجامحة كانت تدفع سكان جزيرة «فاروس» في فجر القرن العشرين، وقد شاهدتها طفلاً ومازالت عالقة بذهني تمر صورها أمام بصيرتي الواعية كلما استعادت الذاكرة مشاهدها الغابرة.

ففي ذلك الحين كانت الإسكندرية تكاد تكون محصورة في قسم الجمرك وجزء من قسم المنشية، وفي بعض الأحياء التي يضمها قسم اللبان، وقسم مينا البصل، ومحرم بك، وبعض المساكن المبعثرة في أنحاء قسم الرمل المتباعدة، أما قسم كرموز فكان يعد ضاحية مثل قسم الرمل.

٣٦٠- اسماعيل باشا صبري - شارع - بقسم الجمرك

ولد إسماعيل صبري بالقاهرة ١٦ فبراير عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ) وتلقى دروسه الابتدائية في مديرية المبتديان، ودروسه الثانوية في المدرسة التجهيزية، وأتم دراسته في الإدارة، والألسن عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) وكان في هذه الأثناء قد نبغ في فنين كان لهما أعمق الأثر في مجرى حياته، وهما فن الشعر، وفن تحسين الخط، وكان نبوغه في كل منهما نبوغًا قويًّا يتعدى حدود المألوف.

فنبوغه في الخط كاد أن يجعل منه مدرسًا لهذا الفن كما كان يريد له بعض أولي أمره لولا أن ناظر المعارف في ذلك الحين علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) رأى في نجابته غير ذلك وقال له: أنا ضنين بذكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بهما فيقفا عند غاية لا تخلق لمثلك، وإنني أُعدّك لما هو أسمى رتبة لك، وأجدى على الأمة من حيث الانتفاع بفضلك، وكفاءتك، وظل علي باشا مبارك بتعهده برعايته حتى أتم دراسته ثم سافر في بعثة إلى مدينة «إكس» بفرنسا، ونال من كليتها إجازة (الليسانس) في الحقوق خلال شهر إبريل عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ).

أما عن نبوغه في الشعر فقد ظهر في حرص «مجلة الروضة» على نشر قصائده، وتقريظ أسلوبه وخياله الشعري، ولم يكن في ذلك الحين قد جاوز السادسة عشرة من عمره، وكانت مجلة الروضة تضم ما يدبجه أقلام العلماء وكبار الأساتذة، وفحول الشعراء، والنابغين من الطلاب، وظل إسماعيل صبري يبعث بقصائده، وهو في فرنسا إلى مجلة

الروضة للنشر، وكانت تصفه بأنه أحد نجباء الإرسالية المصرية في فرنسا، وأنه المتقن في فنون الأدب، كما كانت تضفي عليه غير ذلك من الألقاب التي تبرز قدره، وعبقريته المبكرة، ويمثل هذا التقريظ القيم كانت صحيفة «الوقائع المصرية» في تلك الأيام تنشر إلى جانب الأخبار الداخلية، والخارجية موضوعات تتناول شتى الموضوعات، وكانت تقدم لقصائده التي تنشرها بقولها: «من أبدع ما ورد من كلام الأفندية التلامذة، المنتظم ولا جرم في سلك كلام الأساتذة، ما جادت به قريحة الذكي النجيب، الذي تحسن رواية كلامه وتطيب، إسماعيل أفندي صبري أحد نجباء الفرقة الأولى بمدرسة الألسن، وهو أقوى دليل على استعداده في المعارف وزيادة اجتهاده، مع مبالغة معلميه في الثناء عليه.

وكان هذا الثناء بمناسبة القصيدة التي نظمها في ٢ سبتمبر عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ)، ونشرت في ذلك التاريخ ويقول فيها:

أطلع الكأس كوكبًا في ازدهاء

وأدِرْها في هالة الندماء

عاطنيها صِرفًا ولا تطفئ النو

ر الذي زان حسنها بالماء

مجلس فيه ما جلا صدأ السمع

وقرّت به عيون الرائي

من مغنّ يغزو الهموم بأوتار

فتنجو أعنّة الأهواء

وغزال أحلى من الأمن يسعى

بكؤوس الغرام والصهباء

والواقع هو أن هذه الروح الغزلية العذبة، وهذا الجرس الحلو يعبران عن صفاء نفسه، ورقة طبعه وخفة ظله، وملاحة مجالسته، وأناقة مظهره ومخبره، فقد كان شاعرًا قاهري المولد، والتعليم مدني النشأة والتكوين فرنسي الدراسة والتثقيف.

وظلّت الصحف والمجلات في عصره ومن بينها مجلة الروضة والوقائع المصرية وجريدة المؤيد ترحب بنشر قصائده بعد عودته من فرنسا.

ولقد كانت القاهرة في تلك الفترة تعج بكثير من الأدباء والشعراء والكتّاب والصحفيين والمنتمين لكل هؤلاء من أصحاب المهن الأخرى من مصريين وعرب، فكانت عاصمة مصر كخلية النحل حافلة بالحركات الأدبية على الرغم من ظروف الاحتلال الإنجليزي، وحكم الاستعمار الغاشم، وكانت الحلقات الأدبية، والندوات الثقافية تجمع هؤلاء المثقفين، فينبعث في أرجائها الحديث الطلي والفكاهة العذبة، وتلقى في أثنائها الدروس المفيدة الممتعة، ولم تكن المنازل والقصور هي وحدها التي تجمع هؤلاء الأدباء والشعراء بل كان اجتماعهم يتم في المقاهي مثل «قهوة المضحلخانة الكبرى» في شارع الخليفة بمنطقة السيدة زينب، وهي فرع من «المضحلخانة العليّة» التي كانت تعقد بمنـزل الحاج حسن الآلاتي (انظر مادة الآلاتي)، وكان يختلف إليها عدد كبير من الأدباء والعلماء مثل عبد الله باشا فكري وأحمد باشا طلعت الكبير، وأحمد باشا راشد، وحسن بك الشمسي والشيخ

أبو النصر المنفلوطي وأحمد سمير وأمين باشا فكري ثم كثرت مثل هذه المنتديات، وتنوعت فصار الأديب يجد فيها ما يوائم ذوقه الأدبي، ويرقي مداركه الثقافية والاجتماعية.

واشتهرت منازل طائفة من الوجهاء بندواتها الأدبية، والعلمية مثل ندوة السيد توفيق البكري ومحمود سامي البارودي، ومحمد عبده (انظر هذه المواد) وصالون السيدة نازلي فاضل، وصالون الآنسة ميّ (انظر هذه المادة)، وكرمة ابن هانئ في دار أحمد شوقي (انظر هذه المادة)، ونادي القلم، وعيادة الدكتور محجوب ثابت.

وكانت دار إسماعيل صبري من أهم هذه المنتديات الثقافية التي تضم عشاق الأدب والفن والموسيقى، غير أن صاحب هذه الدار كان يأوي إلى مجالس الأدب الأخرى، فكان يتردد على صالون الآنسة ميّ زيادة أيام الثلاثاء في مثابرة دائمة لدرجة أنه اضطر إلى السفر مرة في يوم انعقاد الصالون فكتب إلى ميّ يعتذر:

روحي على دور بعض الحي جاثمة
كظامئ الطير توّاقًا إلى الماء

إن لم أمتع بميٍّ ناظريّ غدًا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وماتزال نشأة إسماعيل صبري الأولى وثقافته في طفولته وسني نبوغه في مرحلة صباه الغض مجهولة، غير أن الأخبار القليلة عن هذه الفترة تقول أنه قرأ ديوان عمر بن الفارض (انظر مادة ابن الفارض) وهو صغير، ومن ثم اكتسب المحسنات البديعية التي ظهرت في بواكير قصائده، وإلى جانب تأثره بابن الفارض، فإن الشاعر البحتري (انظر هذه المادة) كان من الشعراء المفضلين عنده، وكان مدمنًا لقراءته مفضلاً له على غيره من الشعراء، ولذا نجد في شعره نواحي عديدة يستطاع الاستشهاد بها في مجال المقارنة بينه وبين البحتري وإن كنا نجد في قصائده ما يصلح للمقارنة كذلك بينه وبين البهاء زهير من حيث خفة الروح والسهولة وبينه وبين الشريف الرضي من حيث العفة والسماحة، غير أن كل هذه الشواهد في المقارنة لا تعني أن شاعرية إسماعيل صبري قد أخذت منابعها من نظم هؤلاء الشعراء أو من بعض الشعراء الفرنسيين، وإنما تعني أنها قد عززت اتجاهاته النفسية، وساعدت على إنماء فطرته الميالة بطبيعتها إلى الشعر الحيّ المليء بالعذوبة في السياق والمعاني والجرس.

ولنرجع الآن إلى تقصي أطوار حياته العملية بعد عودته من فرنسا، فقد عمل في السلك القضائي بالقاهرة والإسكندرية، وعواصم الأقاليم حتى وصل إلى وظيفة النائب العام وكانت هذه أول مرة تسند فيها هذه الوظيفة إلى مواطن مصري في عهد المرحلة الأولى من مراحل الاحتلال البريطاني لمصر، وكان توليه هذا المنصب في عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ)، وقد اشتهر طوال مدة خدمته في القضاء بالنزاهة وحب العدل في جميع ما مارس من أعمال في غير تحيز أو محاباة، واشتهر في حياته الاجتماعية بالظرف والتواضع في غير استكانة، وحب الحرية، فقد أُثر عنه أنه قال: «أحب الحرية في ثلاثة: في المرأة تحت ظل زوجها، وفي الرجل تحت ظل راية الوطن، وفي الوطن في ظل الله، وأحب التوحيد في ثلاثة: الله والمبدأ والمرأة».

وعين في أول مارس عام ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) محافظًا للإسكندرية، وبقي يشغل هذا المنصب إلى ٥ من نوفمبر عام ١٨٩٩م (١٣١٧هـ)، وكانت دار المحافظة في المكان الواقع عند تقاطع الشارع الذي أطلق عليه اسمه، وشارع السيد محمد كريم (انظر هذه المادة)، وكانت مياه البحر في الميناء الشرقي تصل إلى جدران هذه الدار قبل تشييد رصيف الميناء الذي استغرق المدة الواقعة بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٢م (١٣٢٧ - ١٣٣٠هـ)، إذ لم يكن لجميع المباني الكائنة على يمين المتجه نحو مسجدي البوصيري وأبي العباس وجود، وكنت في عهد الطفولة أمتع النظر (بجلوة ليلة رؤية شهر رمضان)، فكان الناس يقفون على جانبي الطريق بين محكمة قسم الجمرك الحالية وبين دار المحافظة وعندما تثبت الرؤية يتحرك الموكب تتقدمه موسيقى الجيش والمشاعل الموقدة بالحطب وأولاد سيدي عبد السلام الأسمر وسيدي ابن عيسى، ويسير الموكب إلى باب المحافظة فيطل المحافظ على الناس مُحَيِّيًا ثم يواصل الموكب، سيره إلى قصر رأس التين، ومازلت أتمثل صورة الشاعر إسماعيل صبري، وهو يحيي الموكب وأسمع من الناس الثناء على أخلاقه، وسجاياه الكريمة، وحبه للخير.

وقد أحسنت البلدية إذ أطلقت اسمه الكريم على الشارع الذي يبدأ من الميناء الشرقي (شارع ٢٦ يوليو) ويتجه نحو ضريح سيدي العدوي متقاطعًا مع شارع السيد محمد كريم، وكانت دار المحافظة التي عمل إسماعيل صبري فيها محافظًا عند هذا التقاطع، وتمتد في اتساع رقعتها حتى تقاطع الشارع بشارع قصر رأس التين بالقرب من مسجد سيدي تمراز، ثم يواصل امتداده فيتقاطع من شارعي الميدان (محمود فهمي التقراشي حاليًّا) وصقر باشا، وقد أنشئ شارع إسماعيل صبري في حوالي عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، وهدمت في سبيل استقامته بعض المنازل القديمة.

ولقد حدث لشاعرنا وهو محافظ لمدينة الإسكندرية حادث كاد يودي بحياته، فبينما كان يستقل قطار الرمل عائدًا إلى منـزله من زيارة الخديوي عباس الثاني، اصطدم القطار بقطار آخر فأصيب كثيرون من الركاب وتوفي بعضهم، وقد أغمي على إسماعيل إغماءً طويلاً، وأصيب بارتجاج في المخ، فكان بعد ذلك كثير النسيان من أثر ذلك، كما أصيب برضوض في كتفه الأيسر، وكان يقول لجلسائه أنه ذاق الموت في هذا الحادث، فوجده لذيذ المذاق، وكان يتمنى ألاّ يعود إلى الحياة بعده.

ولقد وصف صديقه عثمان باشا مرتضى (انظر مادة مرتضى باشا) أخلاقه، فقال أن له عقل راجح متألق وعزيمة تجنح إلى الخير وتستنكر الشر، وشعور في منتهى الرقة والظرف، وميول شريفة راقية جمعت بين الثبات واللين والرفعة والتواضع والكرم في الأخلاق والذوق السليم، وكان كل مظهر من مظاهر روحه أنموذجًا صادقًا للكمال الإنساني يبعث في النفس السمو إلى أسمى معاني الجمال الخلقي الباهر.

وما من شك في أن الشاعر إسماعيل صبري كان أستاذًا لشعراء الجيل الحاضر الذائعي الصيت، فقد تتلمذ عليه أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران (انظر هذه المواد) ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم، ولم ينكر هؤلاء الشعراء فضله عليهم فقال شوقي في رثائه له:

أيام أمرح في غبارك ناشئًا

نهج المهارعلى غبار خصاف

أتعلم الغيات كيف ترام في

مضمار فضل أو مجال قوافِ

ويعترف حافظ إبراهيم بهذا الفضل فيقول في مرثيته:

لقد كنت أغشاه في داره

وناديه، فيها زها وازدهرْ

وأعرض شعري على مسمع

لطيف يحس نبوّ الوترْ

ويصرح خليل مطران في مرثيته بأنه تتلمذ على إسماعيل صبري وأنه كان أستاذه:

أي صاحبي لقد قضى

أستاذنا البر الحبيب

فعرا قلادتنا، وكانت

زينة الدنيا، شحوب

وهذه القلادة التي يذكرها خليل مطران تلك المجالس الأدبية التي كانت تضم الأستاذ وتلاميذه في داره وفي غير داره يستمعون إليه في إجلال، وإكبار، ويجدون في حديثه الشاعر والأديب الذواقة، والحكيم الناقد.

وكل من يتتبع شعر إسماعيل صبري ويستوعبه يحس على الفور بأنه يمتاز بفصاحة اللفظ وجزالته، ورونق المعاني وجدتها وقوة الخيال ودقته، ولكل هذه الميزات اعترف له جميع شعراء عصره بالإمامة فكانوا يلقبونه «بأستاذنا» و«شيخ شعرائنا» لأنه كان مثلاً يحتذى به وعَلَمًا به يهتدى، ومن جهة أخرى يمتاز شعره بثلاث وجدانيات تسيطر على نفسيته هي: الحس أو الشعور، والحكمة، والحماسة، وقد تجلت الظاهرة الأولى في قصائده الغرامية، وبرزت الثانية في ما نظمه في الموت، وبدت الثالثة في ما نظمه في الوطن.

وقد كانت هذه العوامل الثلاثة المحرك الأساسي لشعوره الفياض فأنطقته بالحكمة الرائعة وأثارت في صدره الحماسة الشريفة.

أما قصائده في الحب فهي مقطوعات رشيقة تمثل صورًا بهية، رائعة من الشعر الغنائي الراقي، فهو إذا عمد إلى وصف حبيبة قلبه يقول:

إن هذا الحسن كالماء الذي

فيه للأنفس ريّ وشفاء

لا تذودي بعضنا عن وِرْدِه

دون بعض واعدلي بين الظماء

أنتِ يمّ الحسن فيه ازدحمت

سفن الآمال يزجيها الرجاء

أنتِ روحانية لا تدّعي

أن هذا الشكل من طين وماء

وانزعي عن جسمك الثوب يَبِنْ
للمَلا تكوين سكان السماء

وأري الدنيا جناحيْ ملك
خلف تمثال مصوغ من ضياء

وكان شاعرنا يجد السرور والاستمتاع الحلو خلال المجالس التي كانت تعقد في دار الآنسة ميّ زيادة، ويظن بعض عارفيه أنه قال فيها الأبيات الآتية:

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صِلِي
متيّمًا أنت في الحالين دنياهُ

زيني النديّ وسيلي في جوانبه
لطفًا يعمّ رعايا اللطف ريّاه

ريحانه أنت في صحراء مجدبة
من الرياحين حيّانا بها الله

إن غاب ساقي الطلا أو صدَّ لا حرج
هذا جمالك يغنينا محيّاه

وليس أبدع في الشعر الغزلي من هذه الصورة البهية التي يرسمها بشعره، وكأنها رسمت بريشة رسام بارع إذ يصف حسناء تعرض دائمًا لذاكرته، وقد عرفها في أيام الشباب فيقول:

تُمسي تُذكرنا الشباب وعهده
حسناء مرهفة القوام فتذكرُ

هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما
أوفى على قدر الكفاية يسكرُ

تثب القلوب إلى الرؤوس إذا بدت
وتطل من حدق العيون وتنظرُ

وتبيت تكفر بالنحور قلائد
فإذا دنت من نحرها تستغفرُ

ويزيد في فمها اللآلئ قيمة
حتى يسود كبيرهن الأصغرُ

ومن شعره الغزلي الرقيق تلك الشكوى التي كانت تصدر عن قلب عامر بالحب التقي والعاطفة الصادقة الإحساس فيناجي هذا القلب ويلومه في أبيات هي آية من آيات الشعر العربي:

أقصِر فؤادي فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة في ردٍّ ما كانا

سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنًا
حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ما كان ضرّك إذ علّقت شمس ضحى
لو ادّكرت ضحايا العشق أحيانا

هلاّ أخذت لهذا اليوم أهبته
من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا

لهفي عليك قضيت العمر مقتحمًا

في الوصل نارًا وفي الهجران نيرانا

وإذا توجع فإنما ينفث ألم الحب، وحرارة الشوق في أبيات هي من عيون ما قيل في التوجع والشوق القوي فيقول:

يا آسي الحي هل فتشت في كبدي

وهل تبيّنت داءً في زواياها

أوّاه من حُرق أوْدت بمعظمها

ولم تزل تتمشى في بقاياها

يا شوق رفقًا بأضلاع عصفت بها

فالقلب يخفق ذعرًا في حناياها

وتكاد الأبيات الآتية تؤكد أنه كان يكنّ للآنسة ميّ عطفًا وحنانًا لا يقلان عن الهيام والوله، فاسمعه يقول في هذا الصدد دون أن يفصح عن حبيبة قلبه ولكنه يريك صورة ترسم هذه الحبيبة الجميلة في قصرها الذي جعلت منه منتدى الأدب، وقد أخذت تنثر درر القول من فمها، فيقول:

يا ظبية من ظباء الأنس رائعة

بين القصور تعالى الله باريكِ

هل النعيم سوى يوم أراكِ به

أو ساعة بت أقضيها بناديك؟

وهل يعدّ عليّ العمر واهبة

إن لم يجمّله نظم الدرّ من فيك؟

وهذه الصورة البديعة تكاد تكون واحدة لهذه الفتاة التي يعشقها فهي ربيبة القصور، مترفة، وهو يشتاق إليها كلما ابتعد عنها، وعن مجلسها الأنيس، وهو لا يبغى منها سوى أن يكون بقربها وفي حمى رضاها، وفي كنف ناديها، ومن خلال تصويره لها نستبين أنها فتاة حضرية بل قاهرية، ومن ثم نستدل على أن شاعرنا ناعم مترف حتى في حبه، وفي عشقه، ولا يريد إلا أن تكون معشوقته منعمة مترفة مثله، وهو يستنشق النسيم في شذاها، ويلمس الكأس في لماها، ويبلغ الغاية في رضاها، فيناجيها قائلاً:

أصبو إليكِ إذا النسيم

سرى يمثّل لي شذاكِ

أو دارت الكاسات بالصـ

ـهباء تخبر عن لماكِ

وأعد قربك مشتهاي

وغايتي القصوى رضاكِ

أما في الحكمة فلشاعرنا أبيات تخبر عن فلسفته في الحياة وزهده فيها، فعندما يبسط هذه الفلسفة يفعل ذلك في صوفية عميقة الدلالة تنم عن نفس مؤمنة بالله وبقوته، وبعفوه، ورحمته، فينشد قائلاً:

ياربّ! أين تُرى تُقام جهنم

للظالمين غَدًا وللأشرار

لم يبق عفوك في السماوات العُلى

والأرض شبرًا خاليًا للنار

يارب! أهّلْني لفضلك والغنى
شطط العقول وفتنة الأفكار

ومر الوجود يشفّ عنك لكي أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبّار

يا عالم الأسرار حسبي محنة
علمي بأنك عالم الأسرار

أخلق برحمتك التي تسع الورى
ألاّ تضيق بأعظم الأوزار

وفي عبارات هذه الأبيات مناجاة صوفية خالصة لخالق السماوات والأرض يستطيع أي إنسان أن يناجي بها ربه أيًّا كان دينه.

ومن فلسفته الزاهدة حكمته في الموت الذي يرى فيه خلاصًا من عذاب الدنيا، ومن ثمّ فهو لا يخشاه وينصح بني الإنسان بأن يستولي الخوف على أفئدتهم من استقباله:

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض
تنم آمنًا من الأوصاب

تاك أُمٌّ أحنى عليك من الأم
التي خلّفتك للأتعاب

لا تخف فالممات ليس بماحٍ
منكَ إلا ما تشتكي من عذاب

وحياة المرء اغتراب فإن مات
فقد عاد سالمًا للتراب

وفي هذه الأبيات الحزينة ترتسم العاطفة بتلك الابتسامة المرة التي تبدو على محياه فتنمّ عن زفرة مكبوتة، وقفت عند شفتيه، ودمعة جمدت في عينيه.

وإذا خاطب دواته أشاد بخدام العلم والمرشدين الصالحين، وندد بالظلم والظالمين، فيخاطبها بهذه الأبيات:

يا دواة اجعلي مدادك وِرْدًا
لوفود الأقلام حيْنًا فحينا

ولْيَلنْ كالزمان حالاً وحالاً
تارة آسنًا وأخرى معينا

أكرمي العلم وامنحي خادميه
ماءك الغالي النفيس الثمينا

وابذلي الصافي المطهّر منه
لهداة السرائر المرشدينا

وإذا الظلم والظلام استعانا
يوم نحسٍ بأجهل الجاهلينا

واستمدا من الشرور مدادًا
فاجعليه من قسمة الظالمينا

واقذفي النقطة التي بات فيها
غضب القاهر المذل كمينا

ليراع امرئ إذا خطّ سطرًا
نبذ الحق وارتضى الميْن دينا

ويعود شاعرنا إلى تلك السويداء التي تستولي على وجدانه، فتجعله يرى الدنيا بمنظار قاتم ويرى في ساعاتها المتتالية سلسلة من العذاب والشقاء ويرى في الموت الخلاص الوحيد من ظلمها، وقسوتها فيشكو منها بهذه الأبيات:

كم ساعة آلمني مسّها
وأزعجتني يدها القاسية

فتشت فيها جاهدًا لم أجد
هُنيْهة واحدة صافية

وكم سقتني المرّ أُخت لها
فرحت أشكوها إلى التالية

فأسلمتني هذه عنوة
لساعة أخرى وبي ما بيه

ويْحك يا مسكين هل تشتكي
جارحة الظفر إلى ضارية؟

حاذر من الساعات ويْل لمن
يأمن تلك الفئة الطاغية

هذا هو العيش فقل للذي
تجرحه الساعة والثانية

يا شاكي الساعات اسمع عسى
تُنجيك منها الساعة القاضية

وما من شك في أن هذه السويداء التي تجيش في فؤاد إسماعيل صبري ترجع إلى ما قاساه من ألم المرض، ولاسيما بعد حادث القطار الذي تقدم ذكره والذي نتج عنه إصابته بارتجاج في المخ ورضوض في الجسم، ولقد عبّر أبلغ التعبير عن آلامه المبرحة في هذين البيتين، وقد قالهما قبل أن يودع الحياة بقليل ويرحب فيهما بالموت ليفرج كربته ويقضي على عذابه:

يا موت هأنذا فخذ
ما أبقت الأيام مني

بيني وبينك خطوة
إذ تَخْطُها فرّجت عني

وعلاوة على ما كان إسماعيل صبري من خلق كريم، وذوق في الأدب والشعر رفيع، وأُنس ودعابة وصفاء نفس، وأناقة في الملبس، ورقة في الحاشية، فقد كان شاعرنا وطنيًّا مخلصًا يعتز بوطنيته في صدق وحرارة، واشتهر عنه أنه لم يزر إنجليزيًّا واحدًا على الرغم مما كان للإنجليز من سيطرة وسلطة في عهده، وقد استماله اللورد كرومر لزيارته فلم يفعل، وحينما قيل له أن زيارة هذا اللورد قد ترفعه إلى رياسة الوزارة أجاب قائلاً: «وماذا تفيدني رياسة الوزارة غير اغتصاب ضميري وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه!!».

وحينما كان محافظًا للإسكندرية أرادت الحكومة منع الزعيم مصطفى كامل (انظر هذه المادة) من إلقاء خطبة في الشعب السكندري بزعم الخوف على الأمن العام، وانتهاك القانون، فردّ على الحكومة رسميًّا «بأنه المسؤول عن الأمن والنظام في محافظته، وأنه يتحمل كل ما يترتب على إلقاء الخطبة من تبعات» وقد لقي الزعيم مصطفى كامل من الجمهور السكندري، ما يستحق من احتفاء وتكريم في رعاية المحافظ الشاعر الوطني الغيور.

وتظهر وطنية إسماعيل صبري وضّاحة في الأبيات التي نظمها في وصف أهرام مصر، وهي تفيض بالحماسة الوطنية المتأججة، فاستمع له وهو ينشد:

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
إذا ونى يوم تحصيل العُلا واني

ولست إن لم تؤيدني فراعنة
منكم بفرعون عالي العرش والشان

ولست جبار ذا الوادي إذا سلمت
جباله تلك من غارات أعواني

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يُخلق لكَسْلان

رِدوا المجرّة كدًّا دون مورْده
أو فاطلبوا غيره ريًّا لظمآن

وابنوا كما بنَت الأجيال قبلكم
لا تتركوا بعدكم فخرًا لإنسان

أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم
لا يثْن مستمعًا عن طاعة ثان

فالملك أمر وطاعات تسابقه
جنبًا لجنب إلى غايات إحسان

لا تتركوا مستحيلاً في استحالة
حتى يُميط لكم عن وجه إمكان

وكل هذه النماذج من شعره تدل على أنه صار شاعرًا بأدق معاني الكلمة فقد كان لا يحتفل لقرض الشعر إلاّ إذا جاشت في نفسه العاطفة القوية، وسنح لذهنه الخاطر البديع فيختار له الألفاظ الجميلة ينضدها صيغًا رائعة مصقولة، ثم يخرجها وكأنها من صائغ الحلي لا من نظم شاعر.

وكان صادق الوجدان يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتز لها، فإذا قرأت شعره شعرت بالحاجة إلى الاستماع للغناء، ولقد تغنى حذّاق المغنين في شعره فزادوا بحسن الكلام إطرابًا على إطراب.

والذي يقرأ ديوانه كله يحس في قوة أن الإيقاع الغنائي هو النغمة الجميلة العذبة التي يعزفها على قيثارة فئة التي تُرقص الناس لأن أنغامها تنسكب في آذانهم، وأفئدتهم سهلة الطرب سائغة اللفظ الرشيق.

ويعزو بعض مؤرخي سيرته هذه الموسيقية التي تشع في شعره إلى تأثره بأدب الصالونات حينما كان يتلقى العلم بفرنسا، غير أن هذا التأثر في عقيدتي لم يكن قويًّا إذ إنه خالط الصالونات المصرية في معظم أوقات حياته الأدبية فتردد على صالون وليّ الدين، والسيدة نازلي فاضل، والآنسة ميّ، وكانت داره صالونًا أدبيًّا يحفل بالأدباء والشعراء والكتّاب.

ويعد شعر إسماعيل صبري الغنائي أو (الزجل الراقي) من البوادر الأولى للمدرسة الحديثة في هذا اللون من القريض، ومن ثَمَّ كان شاعرنا رائدها الأول، كما كان رائد الشعر الغنائي الفصيح، وإنك لتلمس الموسيقى اللحنية، والعذبة الجرس في هذه الأبيات:

ارحم يا سيد الملاح
مغرم ضناه البعاد

دمعه على الخد ساح
من حرّ نار الفؤاد

ياللي ابتليت بالهوى
وصرت مغرم أسير

خلّي اصطبارك دوا
حتى يهون العسير

الحب حاله عجب
يلذّ فيه العذاب

ذكر الحبيب فيه طرب
ودمع عينه شراب

ولقد سمعت هذه الأبيات تغني من أحد المطربين القدامى المشهورين، وتخونني الذاكرة في تذكر اسمه واسم ملحنها، غير أن معانيها السامية البديعة السياق، تجعلني أتمنى أن يعدل مؤلفو الأغاني في الوقت الراهن عما ينظمون من أزجال، وأن يعودوا إلى مثل الزجل المدوّن الذي تستسيغه الآذان ويطرب له السامعون، مع الابتعاد عن القصائد المليئة بالحزن والتوجع القاتم المجلل بالسواد.

وبعد أن شغل إسماعيل صبري منصب وكيل نظارة الحقانية (وزارة العدل حاليًّا) طلب اعتزال الخدمة سنة ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ)، وتفرغ للأدب والشعر حتى أعجزته الشيخوخة، ووافته المنية في ٢١ من مارس عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) بداره في شارع قصر العيني بالغًا من العمر حوالي ٧٠ عامًا ودفن بالإمام الشافعي بالقاهرة، وكانت وفاته بالذبحة الصدرية.

ولم يقصر تلاميذه الشعراء في رثائه، فقال أحمد شوقي يرثيه:

أجلٌ وإن طال الزمان موافي
أخلى يديْك من الخليل الوافي

داعٍ إلى حق أهاب بخاشع
لبس النذير على هدى وعفاف

إلى أن يقول:

فُجعت رُبا الوادي بواحد أيكها

وتجرّعت ثكْل الغدير الصافي

فقدت بنانًا كالربيع مجيدة

وشْي الرياض وصنعة الأفوافِ

وقال خليل مطران يصف أخلاقه ونبوغه في الشعر والحكم:

مات وما كان في

أخلاقه شيء يريب

مات الذي منظومه

لأولي النهى سحر خلوب

الضارب الأمثال ليس

له بروعتها ضريب

هل في الجديد كقوله

المأثور والمعنى جليب

(آهانِ لو عرف الشباب

وآه لو قدر المشيب)

وتوجع حافظ إبراهيم لفقده فأنشد:

نعاك النعاة وحُمّ القدر

ولم يُغْن عنا وعنك الحذر

طوت ذبحة الصدر صدر الندى

فلم تطو إلاّ سجلّ العبر

فأمسيت تُذكر في الغابرين

وإن قلّ مثلك فيمن غبر

ثم يصف شعره الجزل فيقول:

يقول فيُرْخص درّ النحور

ويُغْلي جمان بنات الفكر

يسوق القصار فيأبى العثار

وكم من مطيل مملّ عثر

قصار وحسْب النُّهى أنها

لها معجزات قصار السور

عيون القصائد مثل العيون

وشعرك فيهن مثل الحور

وسمعت في عهد الشباب المرحوم محمد عثمان يغني من تلحينه المقطوعة الغنائية التالية من كلمات إسماعيل صبري:

أدّك أمير الأغصان

من غير مكابر

وورد خدّك سلطان

على الأزاهر

والحب كله أشجان
يا ألب حاذر

والصّد ويّا الهجران
جزا المخاطر

يا ألب أدنْت حبّيْت
ورجعت تندم

صبحت تشكي ما لإيْت
لك حدّ يرحم

صدّأْت أوْلي ورإيْت
ذل المتيم

ياما نصحتك ونهيت
لو كنت تفهم

أعرض لحسنك أوراء
واكتب ودوّن

وبات صريع الأشواء
واحسب واخمّن

دا هجر وصبابه وِفْراء
يارب هوِّن

وارحم ألوب العُشّاء
دا شيء يجنّن

وعندما كان طالبًا ألف أغنية لحنها، وغناها المرحوم عبده الحمولي، ومن أبياتها الحلوة الجرس الرقيقة المعاني قوله:

خلّي صدودك وهجرك
واطفي لهيبي ووجدي

ساعة وصالك وأُرْبك
أغلى من العمر عندي

يا نرجس الروض مالك
سلّطت لحظك عليّ

إللي سباني جمالك
لكن سببها عنّي

فهل بعد هذه العذوبة اللفظية ما يدع المجال للقول بأن الأغاني القديمة كانت مسفة ولا تنبض بالحياة؟؟ إن في الأغاني القديمة كلمات، وألحانًا مازالت ترن في أذن الرفاق فيطرب لها على الرغم من أقوال الشانئين .

ومن أقوى ما يستطاع مقارنته بشعر الشريف الرضي (انظر هذه المادة) من شعر إسماعيل صبري البيتان الغزليان التاليان:

يا سرحة بجوار الماء ناضرة
سقاك دمعي إذا لم يوف ساقيكِ

عارٌ عليك وهذا الظل منتشر

فتك الهجير بمثلي في نواحيكِ

وكل من قرأ شعر الشريف الرضي واطلع على هذين البيتين يتذكر على الفور قول الشريف:

يا ظبية البانِ ترعى في خمائله

ليُهْنِك اليوم أن القلب مرعاكِ

الماء عندك مبذول لشاربه

وليس يرويك إلا مدمعي الباكِ

وليس من شك في أن إسماعيل صبري قد تأثر بشعر الشريف الرضي وتأثر بالأدب الفرنسي ولاسيما بالشاعر «لامرتين Lamartine».

ومن الأمثلة على مقارنة شعر الشريف الرضي بشعر إسماعيل صبري تقارب شكواهما من الزمان، فإسماعيل يرى في ساعاته عذابًا مستمرًّا كما يرى الدنيا بمنظار أسود فيقول والأسى والشجن يستوليان على قلبه:

كم ساعة آلمني مسّها

وأزعجتني يدها القاسية

وكأني به يسمع صوت الشريف الرضي يترنم في الأفق البعيد حينما نفث إحساسه الحزين في هذا البيت فيصغي في حزن عميق إلى قول الشريف:

فأين من الدهر استماع ظلامتي

إذا نظرت أيامه في المظالم

ولم أدْر أن الدهر يخفض أهله

إذا سكنت فيهم نفوس الضراغم

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني

ملكت به دفع الخطوب الهواجم

وهذه الكآبة التي تخيم على حياة الشاعرين ترجع إلى مرض الشريف الرضي منذ الشباب وإلى مرض إسماعيل صبري في كهولته وشيخوخته، فمرض الشريف الرضي أجرى قلمه بهذين البيتين:

خطوب لا يقاومها البقاء

وأحوال يدبّ لها الضراء

ودهرٌ لا يصحّ به سقيم

وكيف يصحُّ والأيام داء؟

فيرد عليه إسماعيل صبري وقد سئم الحياة، ورأى في الموت الخلاص من المحن، فينشد الأبيات التي مطلعها:

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض

تنمْ آمنًا من الأوصاب

تلك أمّ أحنّ عليك من الأم

التي خلفّتك للأتعاب

وتبرز المقارنة بين إسماعيل صبري، والشاعر الفرنسي «لامرتين» في أكثر من ناحية، فقد كان «لامرتين» مبدعًا في تجديد الشعر، فجعله يفيض بالأحاسيس، ويتغلغل في

الانفعالات النفسية لعذوبته ورنين جرسه، وهذه ميزات نجدها بارزة في شعر إسماعيل صبري، لتأثره بالشاعر الفرنسي، ولاسيما طوال إقامته في فرنسا لنيل إجازة الحقوق.

وكانت انفعالات «لامرتين» في شاعريته نابعة من وجدانه، وقرارة نفسه، وكان شعره يأخذ مصادره من العواطف القلبية، ومباهج الطبيعة وسحرها ومفاتنها، وحماسة الإيمان التي تستولي على فؤاده، وهذه المصادر الثلاثة كان إسماعيل صبري يركن إليها في إبداع سياق قصائده وفي انتقاء المعاني لتعبر عن انفعاله النفسي أصدق تعبير.

هذا هو إسماعيل صبري الشاعر في تاريخ الأدب المصري المعاصر، وقد ترك فيه آثارًا واضحة تذكر له بالثناء على مر الأجيال.

٣٦١- إسماعيل سري باشا - شارع - بقسم محرم بك

ولد إسماعيل سري بمدينة المنيا سنة ١٨٦١م (١٢٧٨هـ)، وبعد أن تلقى مبادئ العلوم بالمنيا والفيوم حضر إلى القاهرة، والتحق بمدرسة الهندسة، ثم أرسلته الحكومة إلى فرنسا في بعثة علمية خلال شهر نوفمبر عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، وسافر بعد ذلك إلى إنجلترا لدراسة فن هندسة المرافئ، وقد عاد بعد ذلك إلى باريس فأدى الامتحان النهائي في الهندسة، ثم عاد إلى مصر فتولى عدة مناصب هندسية برهن فيها على الكفاءة والمقدرة، وقد اشتهر إسماعيل سري في فنه فصار من كبار المهندسين وأعلامهم المشهود لهم بالنبوغ في مصر وغيرها من البلدان الأجنبية.

ومازال يترقى في المناصب الحكومية إلى أن اختير ناظرًا للأشغال العمومية في نظارة بطرس باشا غالي التي تألفت في ١٢ من نوفمبر عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ)، وكانت تضم سعد زغلول للمعارف، وحسين رشدي للحقانية، ومحمد سعيد للداخلية، وأحمد حشمت للمالية، وكان إسماعيل سري يتولى في هذه النظارة، نظارة الحربية والبحرية إلى جانب نظارة الأشغال.

وقد كتب عنه الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري في كتابه «في المرآة» فقال: «طويل القامة، كبير الهامة، عريض الوجهة، ناتئ الجبهة، ضخم الأنف، مرسل اللحية والحاجبين، له عينان متحيرتان دائمتا الحركة والدوران، نفضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ، ويأبى هو إلا أن ينفض على لسانه كل خفة الشباب، فإذا أنت رأيته كِدْت تعلّق نفَسَك من روعة وإكبار: جلالة علم في جلالة منصب في جلالة مشيب، حتى إذا سمعته يخوض في بعض من لا يحبهم ويستريح إليهم لم تكن تملك نفسك من الاستنكار، أو ما هو أشد من الاستنكار!!».

وتطرق الأستاذ البشري إلى تاريخ حياة إسماعيل فقال: «إنه كان من أسرة رفيقة الحال في قرية «ربدة» من أعمال مركز المنيا، ونزح والده إلى مدينة المنيا، وعمل في وظيفة متواضعة، وأكب على تعلم القراءة والكتابة، ثم عُيِّن كاتبًا في مديرية الفيوم، وعندما نفي عمدة هذه المدينة إلى السودان عُيِّن «محفوظ أفندي» بدله، وأدخل ولده «إسماعيل» المدرسة فظهرت نجابته واصْطُفي فيمن اصطفتهم الحكومة «للإرسالية» فمضى إلى فرنسا، واتصل بكلية «السنترال» حيث درس الهندسة، وخرج منها بأعلى شهاداتها.

وبعد أن شغل عدة مناصب في نظارة الأشغال أصبح مفتشًا «لعموم المشروعات»، ومن ذلك اليوم رنّت الآفاق باسم إسماعيل بك سري في المهندسين العظام.

وكان له الفضل في أن تتمتع مديريات بني سويف، والمنيا، وأسيوط بالري الصيفي، مما أدى إلى سعة ثراء بعض سكانها، وقد دوّى اسم إسماعيل سري فكان يقارن بأسماء أكبر المهندسين الإنجليز أمثال ديبوي ووليم جارستن وغيرهما.

ولو تُرِك إسماعيل في عمله الفني البحت لأجدى بعلمه على البلاد كثيرًا، ولكن الرّزيّة كلها في المناصب، فقد قُلِّد النظارة وهي سياسة أكثر مما هي فن، وكان إسماعيل لا يحذق السياسة، ولا يفهم منها إلاّ القدر اليسير.

وبالغ في الحرص على هذا المنصب السياسي حتى ظفر في عهد اللورد كتشنر، إن عدّ هذا من الظفر، ببرقية تأييد من حكومة إنجلترا تضمن له السلامة و«النغنغة» في المنصب والجاه على طول الزمان.

وإذا كان بعض المصريين يراؤون أهل السلطة من الإنجليز، ويتحملون لهم، ويظاهرونهم بالمودة والعطف استخراجًا للمنافع فإن إسماعيل سري كان لا يماري القوم في هذا ولا يرائيهم، فهو مخلص الحب لهم صادق الصبابة فيهم، يواليهم بالهوى في سره كما يتشيع لهم في جهره، لا يتحرج في ذلك ولا يتأثم.

ثم يذكر الأستاذ البشري طريقة إسماعيل سري في تعيين ولده، وأصهاره، وسائر عشيرته في الوظائف الحكومية دون كلل أو ملل، والقفز بهم إلى عليا المناصب، ولقد بدا يومًا لبعض الناس أن يجمعوا ما يحصل عليه (آل سري) من أموال الدولة بالنسبة إلى الوظائف التي يشغلونها في كافة الدواوين فخرجوا من حصيلتها بما يكفي لنفقات مصلحة بأكملها.

وكانت وفاة إسماعيل سري خلال عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) بالغًا من العمر حوالي ٧٨ عامًا، ولولا ولاؤه الجامح للإنجليز المستعمرين لخلد إسماعيل سري اسمه في سجل العلماء المصريين النابغين لتبقى ذكراه عاطرة على مر الأجيال.

٣٦٢- اسماعيل شلبي (الشيخ) - شارع - بقسم المنشية (تريستا سابقًا)

انظر ترجمته في «الشيخ إسماعيل شلبي».

واطلب ترجمة الاسم القديم لهذا الشارع في كلمة «تريستا».

٣٦٣- اسماعيل عبد الرحمن فهمي (الشهيد) - شارع - بقسم باب شرقي (الأميرة أمينة سابقًا)

اطلب ترجمته في «الشهيد إسماعيل عبد الرحمن فهمي».

واطلب ترجمة صاحبة اسم الشارع القديم في (الأميرة أمينة).

٣٦٤- إسماعيل غانم - شارع - بقسم محرم بك

هو إسماعيل ابن الحاج علي أحمد غانم، ولد بالإسكندرية عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) بقسم الجمرك بجهة سوق السمك القديم، وعندما شب استطاع أن يكوّن لنفسه سمعة تجارية كانت مضرب المثل في حسن الصيت والسمعة، ليس بالإسكندرية فقط، وإنما في كافة أنحاء القطر المصري، وفي البلاد الأجنبية، وكان متجره الشهير بشارع سوق العطارين رقم ٥، وكانت محاله الواسعة تضم كافة أنواع المنسوجات القطنية والحريرية، وجميع أنواع الأثاث الفاخر، والمتوسط، والمتواضع، وكل أصناف المفروشات والأدوات المنزلية، فكان أهل الإسكندرية يقولون إن «العرائس يدخل آباؤهن متجر إسماعيل غانم ولا يخرجون منه إلا وقد اشتروا جهاز بناتهن جميعه»، وكان هذا هو الواقع فعلاً إذ شاهدت هذا المتجر الكبير في شبابي وتفقدت أكثر من مرة ما كان يشتمل عليه من بضائع تفوق حد الوصف لكثرة أنواعها.

وكان يستورد بضائع متجره من المصانع المحلية، ومن كثير من البلدان الأوروبية، كإيطاليا، وفرنسا، وإنجلترا، وسويسرا، ويتعامل مع هذه البلدان الأجنبية على أساس تزويده بأجود ما لديها من مصنوعات، وكانت محاله مشهورة أيضًا ببيع أحسن أصناف صوف البذل للرجال، مثل أصواف فيشر، ودونالد، وجراهام بوت، ودرمبيّ.

ومن أعماله الخيرية أنه كان عضوًا في جمعية العروة الوثقى، والجمعية الخيرية الإسلامية، ويمدهما بالمساعدات المالية، وكان يضع في مكان بارز من متجره «حصالة» ويحث الأغنياء الذين يفدون على متجره على أن يتبرعوا ببعض المال بوضعه في تلك الحصالة التي من حصيلتها كان ينفق على مدّ العرائس الفقيرات من العائلات التي أخنى عليها الدهر بكل ما يلزمهن من جهاز، ومما يؤسف له أن هذا المتجر الشهير لم يدم طويلاً بعد موته، ولعل ذلك يرجع لخلاف حدث بين ورثته الذين منهم الأستاذ حلمي غانم مدير شركة بيع المصنوعات المصرية بميدان التحرير سابقًا.

٣٦٥- إسماعيل الفلكي - شارع - بقسم الرمل

هو إسماعيل مصطفى الفلكي تعلم في مدارس القاهرة ثم التحق بمدرسة المهندس خانة وتلقى العلم فيها على يد محمود الفلكي (انظر مادة محمود باشا الفلكي) وعلى يد غيره من أساتذتها، وعُيّن بعد ذلك معاونًا بالرصد خانة القديمة (المرصد) ببولاق، وذلك خلال عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وبقي يشغل هذه الوظيفة إلى أن حصل على رتبة الملازم الثاني، وعقب ذلك وقع عليه الاختيار ليكون أحد طلاب البعثة الثالثة التي أرسلت في عهد عباس الأول لدراسة علم الفلك بمدرسة باريس تحت إشراف مسيو «لوفيرييه» رئيس مرصدها الفلكي، فسافر إسماعيل إلى فرنسا في ٨ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) مع زميليه محمود أحمد حمدي الفلكي، وحسين إبراهيم للتخصص في الرياضيات والفلك، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٢٥٠ قرشًا، كان يتناول منها مائة قرش بالإنابة عنه في مصر عبد المقصود أفندي شحاتة للإنفاق على عائلته، وقد مكث إسماعيل بفرنسا أربعة عشر عامًا تلقى خلالها العلوم الرياضية، والفلكية على الأستاذ «لوفيرييه» الآنف الذكر، وتعلم إلى جانب ذلك صناعة الآلات الفلكية وأتقنها.

وبعد أن أتم دروسه علمًا وعملاً عاد إلى الوطن في نوفمبر عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ) في عهد الخديوي إسماعيل الذي رقاه إلى الرتبة الثانية، وعُيِّن في يونية عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) ناظرًا للرصد خانة المصرية، ومدرسة المهندس خانة، وكُلِّف في الوقت نفسه بدراسة مشروع مدّ خط حديدي بين سواكن وبربر، فوضع تصميم هذا المشروع الذي لم يقدر له الخروج إلى حيز الوجود في ذلك الحين، وفي عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) أنعم عليه بالنيشان المجيدي الرابع لحسن قيامه بوظائفه، وأنابته الحكومة المصرية عنها لحضور مؤتمر الإحصاء الذي عقدته الدول بمدينة موسكو عاصمة روسيا، وذلك في عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ)، ثم تولى نظارة مدرستي المساحة، والمهندس خانة، والمرصد الفلكي عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، واختير رئيسًا في الوقت نفسه للجنة التي ألفت للنظر في طرق تعليم العلوم الرياضية، وقد ظل ناظرًا لمدرسة المهندس خانة حتى شهر مارس عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) فيما عدا الفترة القصيرة التي تولى محمود باشا الفلكي نظارتها.

وطوال مدة نظارته لمدرسة المهندس خانة كان يلقي محاضرات باللغة العربية في علوم الفلك بدار العلوم، وكان مقرها بسراي درب الجماميز، وكان يحضر هذه المحاضرات كبار المثقفين في مصر، وبعد إحالته على التقاعد اختير عضوًا في لجنة الآثار المصرية وظلّ يمارس عضويتها إلى أن وافته المنية في شهر يونية عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ).

وترك إسماعيل الفلكي من المؤلفات الكتب التالية: «الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة» وقد نشر في ذيل مجلة روضة المدارس ويتضمن بحثًا في الفلك، وقد طبع على حدة بمطبعة بولاق الأميرية متضمنًا صورة إسماعيل الفلكي الشمسية مع آلة فلكية، و«الدرر التوفيقية» وقد طبع الجزء الأول منه على نفقة نظارة المعارف، و«تقاويم فلكية» كانت تنشر له في كل عام باللغتين العربية والفرنسية مع صادق بك سليم (انظر هذه المادة) في ترجمة كتاب «التحفة المرضية في المقاييس والموازين المصرية».

وقبيل وفاته نال رتبة الباشاوية وترك مكتبة تضم عددًا كبيرًا من الكتب القيمة احتفظ بها ولده مصطفى عزيز بك الفلكي الذي تولى التدريس بمدرسة المهندس خانة بمدرسة الفنون والصنائع بالقاهرة.

٣٦٦- اسماعيل مهنا - شارع - بقسم العطارين (الأمير عبد المنعم والمحافظة سابقًا)

٣٦٧- إسماعيل مهنا - شارع - بقسم اللبان

هو إسماعيل محمود علي مهنا، وأصل لقب مهنا مشتق من كلمة مهنأ التي حُرِّفت مع مرور الزمن إلى مهنا المخففة، وأصل أسرته من الحجاز، وقد نزحت إلى التوفيقية بمديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليًّا)، واستقرت بها، وقد ولد إسماعيل مهنا عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) ببلدة منشأة مهنا بالتوفيقية.

وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية بالمدارس المصرية سافر إلى فرنسا وحصل على إجازة الحقوق من إحدى جامعاتها، وقبل عودته إلى الوطن عمل بالسفارة الفرنسية بقسم المحفوظات، ثم عُيِّن عقب عودته معاون إدارة بوزارة الداخلية بمركز بلبيس، ثم مأمورًا لهذا المركز، ثم وكيلاً



مدرسة الجزويت بشارع إسماعيل مهنا بقسم العطارين (مديرية الأمن حاليًا)

لمديرية كفر الشيخ فوكيلاً لمحافظة الإسكندرية فمديرًا لمديرية المنيا، فمديرًا لمديرية الغربية، فوكيلاً لوزارة الداخلية، فمحافظًا للإسكندرية في المدة من ٤ من مارس عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ) إلى ١٠ من سبتمبر عام ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ)، ثم وكيلاً لوزارة الداخلية للمرة الثانية، وأحيل على التقاعد وفاقًا لطلبه، وكان قد منح رتبة البكوية ورتبة اللواء العسكرية.

وكان رحمه الله مشتركًا في كثير من الجمعيات الخيرية بالإسكندرية، كما كان محبًّا للخير يساعد من يقصده وكان يشرف على المضيفة الخيرية ضمن وقف جده الخيري المرحوم علي باشا مهنا، ووافته المنية ببلدة منشأة مهنا بالتوفيقية في ٥ من فبراير عام ١٩٦٢م (١٣٨٢هـ).

وخلف ولدًا واحدًا مازال طالبًا بالسنة الثالثة بكلية الهندسة بالقاهرة، وبنتين إحداهما حرم السيد/ محمود بركان من ذوي الأملاك بكفر الدوار، والأخرى حرم الدكتور إبراهيم مسلم أخصائي الأنف والأذن والحنجرة بكلية الطب بجامعة القاهرة.

٣٦٨- الإسنوي - شارع - بقسم مينا البصل

اسمه الكامل هو «أبو محمد عبد الرحيم الإسنوي القرشي الشافعي»، ولد بمدينة إسنا (انظر هذه المواد) بصعيد مصر، وتلقى العلم على يد ابن حيان في القاهرة، وكان مولده عام ٧٠٥هـ (١٣٠٥م)، ومن مؤلفاته «رسالة في عدم استخدام أهل الذمة وعدم توليتهم عموم المسلمين» وهذا الكتاب مازال

مخطوطًا بمكتبة مدينة تونس، ومن تلاميذ الإسنوي المشهورين محمد بن موسى بن عيسى كمال الدين الدميري (انظر مادة الدميري).

وتوفي الإسنوي عام ٧٧٢هـ (١٣٧٠م) عن ٦٦ عامًا.

٣٦٩- الاشبيلي - شارع - بقسم العطارين (محمود إبراهيم سليم حاليًا)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح بن أحمد ابن محمد اللخمي الإشبيلي الشافعي، ولد بمدينة إشبيلية بالأندلس وتقع بالجنوب الغربي من شبه الجزيرة الإسبانية، وذلك عام ٦٣٥هـ (١٢٢٧م) وقد أَسَرَه الإفرنج عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م)، وكانوا من الإسبان الذين غزوا إشبيلية عاصمة الموحدين (انظر هذه المادة)، في ذلك الحين وكان الغزاة بقيادة ملكهم فرديناند صاحب قشتالة الذي حكم من عام ٦١٤ إلى عام ٦٦١هـ (١٢١٧ - ١٢٦٢م)، بيد أنه استطاع الفرار من الأسر ورحل إلى مصر في العقد السادس من القرن السابع الهجري، ودرس على يد كبار شيوخ القاهرة، ثم على يد كبار علماء دمشق حيث استقر به المقام، وأخذ بعد ذلك يُدرّس الحديث بالجامع الأموي لما كان له من مكانة مرموقة في علم الحديث، وقد عُرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فرفضها في إباء، ويُذكر من تلاميذه الدمياطي، واليونيني، والمقاتلي، والنابلسي، وأبو محمد ابن الوليد، والذهبي (انظر هذه المادة) الذي كان حجة في التاريخ والحديث، وأهم مؤلفاته منظومة في ألقاب علم الحديث وهي لامية غزلية تقع في عشرين بيتًا من بحر الطويل وتُعرف باسم «منظومة ابن فرح» وله «شرح على الأربعين حديثًا النووية».

وتوفي ابن فرح الإشبيلي بتربة أم صالح بالإسهال في ٩ من جمادى الأخرى عام ٦٩٩هـ (١٩ فبراير عام ١٣٠٠م)، ورجل في هذه المكانة العلمية قد يكون من الإنصاف إعادة ذكر اسمه وإطلاقه على أحد شوارع المدينة التي لم تحمل أسماء حتى الآن.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «محمود إبراهيم سليم».

٣٧٠- أشرف الخوجة (الملازم أول) - شارع - بقسم باب شرقي

اطلب ترجمته في «الملازم أول أشرف الخوجة».

٣٧١- الأشجار - شارع - بقسم كرموز

والشجر هو ما قام على ساق نبات الأرض وجمعه أشجار، وشجْراء والواحدة شجرة وجمعها شجرات أيضًا، وشجرة النسب ما يُبتدأ فيها من الجدّ الأعلى إلى أولاده، ثم إلى أولادهم، وهلمّ جرًّا، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقّوم، وشجرة الحياة وشجرة معرفة الخير من الشر هي التي نهى عنها الله تعالى آدم عن أن يأكل من ثمرها في الفردوس.

والكلمة مشتقة من فعل «شَجَرَ» أي نحى ينحى أو منع، يقال «ما شجرك عن كذا» وشجر الرجل بالرمح طعنه به.

وشاجره مشاجرة أي نازعه وخاصمه، وأشجر المكان أي أنبت الشجر.

ويرجع تسمية الشوارع الكائنة بحي غيط العنب بقسم كرموز إلى اقتراح الأستاذ أحمد صديق (انظر هذه المادة)

مدير بلدية الإسكندرية الأسبق، فقد أبدى في إحدى جلسات المجلس البلدي في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين الحالي أن أسماء الشوارع الملائمة لغيط العنب هي أسماء النباتات والأزهار، وقد وافق المجلس على اقتراحه، وسميت شوارع هذا الحيّ بمختلف أنواع المزروعات ومنها الزنبق، والرند، والقرنفل، والفل، والياسمين... الخ. وكنت حاضرًا في هذه الجلسة، إذ كنت في ذلك الحين أنقل مناقشات المجلس بطريقة الاختزال الفرنسية لأن اللغة الرسمية لهذا المجلس كانت اللغة الفرنسية، ولم يُسْتَعض عنها بلغة البلاد العربية إلا في عام ١٩٤٣م.

٣٧٢ - الأشعري - شارع - بقسم مينا البصل

٣٧٣- الأشعري - حارة - بقسم كرموز

أطلق لقب الأشعري على ثلاثة من مفكري المسلمين وعلمائهم وهم:

١) **أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري**: هو أحد الولاة، وينتسب إلى اليمن، وقد كان من أوائل من اعتنقوا الإسلام، وتقول الرواية الشائعة أنه كان من المهاجرين إلى الحبشة بعد اعتناقه الإسلام في مكة، وأنه لم يعد منها إلا إبان غزوة خيبر، وعندئذ ولاّه النبي على أحد الأقاليم، وفي عام ١٧هـ (٦٣٨م) أقامه عمر على البصرة بعد عزل المغيرة بن شعبة، ولم تكن تلك المهمة بالأمر الهين إذ ليس من اليسير القبض على أئمة جموح المشاغبين، لذلك نجد أبا موسى يصطحب في ذهابه إلى منصبه الجديد تسعة وعشرين رجلاً من المبرّزين كي يشدوا أزره، ولما كان أهل الكوفة غير راضين عن واليهم وأعلنوا أنهم يرغبون في استعمال أبي موسى عليهم، نزل الخليفة عند رغبتهم وأرسل أبا موسى إلى الكوفة عام ٢٢هـ (٦٤٢ - ٦٤٣م)، ولكن سرعان ما ظهر أن العامل الجديد لم يكن أيضًا في استطاعته أن يرضي أهل الكوفة المتقلبين، فاستدعي بعد عام من ولايته، ورجع إلى منصبه في البصرة، ولما نسبت إليه بعض الأخطاء دافع عن نفسه أمام الخليفة فقبل عذره، وولاّه وكانت له شهرة في قيادة الجيوش، وظل بالبصرة حتى بعد وفاة عمر، ولكنه عزل بعد أعوام من خلافة عثمان، فحل مكانه على البصرة عبد الله بن عامر، وذهب أبو موسى إلى الكوفة ليستقر بها، وفي عام ٣٤هـ (٦٥٤ - ٦٥٥م) أقامه عثمان واليًا عليها، ولما ناصرت هذه المدينة عليًّا بعد مقتل عثمان، عُزل أبو موسى عن منصبه، وأُرغِم على الفرار، ثم ظهر مرة أخرى في التاريخ الإسلامي عندما أوقفت الحرب في وقعة صفين (صفر عام ٣٧هـ، يوليه عام ٦٥٧م)، واتفق الطرفان على أن يحتكما إلى حكمين محايدين لمعرفة أي المتنازعين - عليّ ومعاوية - أحق بالخلافة، فوقع الاختيار على أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وفي رمضان من هذا العام (فبراير ٦٥٨م) اجتمع الحكمان في دومة الجندل أو «أذرح» وهنا خُدع أبو موسى وأعلن خلع عليّ ومعاوية كليهما، وترك أمر اختيار الخليفة للجماعة الإسلامية، وتقدم عمرو وأقر أبا موسى على خلع عليّ، وثبت معاوية في الخلافة، وكان هذا آخر عهد أبي موسى بالسياسة، وأصبح أبو موسى غير محبوب من الطرفين، ولم ينج بحياته إلا بمشقة، ففر إلى مكة، ولكنه لم يكن فيها آمنًا على حياته، ولذلك انتقل إلى الكوفة، وتختلف المصادر في ذكر تاريخ وفاته، فتقول أقدم الروايات أنه توفي بالكوفة عام ٤٢هـ (٦٦٢ - ٦٦٣م)، أو عام ٥٢هـ (٦٧٢م).

٢) أبو بردة عامر بن أبي موسى الأشعري: وهو ابن صاحب الترجمة الأولى، قاص ومحدث، واضطر أبو بردة إلى الدخول في طاعة الثائر شبيب بن يزيد أثناء غزوة الكوفة على رأس الخوارج عام ٧٦هـ (٦٩٥ – ٦٩٦م)، وقد وَلِيَ بعد ذلك قضاء الكوفة، وأجله الناس لما امتاز به من الخلال أثناء قيامه على هذا المنصب، وكان فوق ذلك معدودًا من الثقاة في الحديث وتقول الرواية الشائعة أنه توفي عام ١٠٣هـ (٧٢١ – ٧٢٢م)، وتقول روايات أخرى أنه توفي عام ١٠٤ أو ١٠٦ أو ١٠٧هـ.

٣) أبو الحسن علي الأشعري: فقيه شهير ولد بالبصرة عام ٢٦٠هـ (٨٧٣ – ٨٧٤م)، وهو من نسل الأشعري السابق ذكره، وسلسلة نسبه الكاملة هي: علي بن إسماعيل ابن إسحق ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وظل الأشعري حتى الأربعين من عمره تلميذًا متحمسًا للجبائي الفقيه المعتزلي، وفي ذلك العهد انفصل عن أستاذه، وسلك طريقه الخاص بعد أن اختلف وإياه في مسألة «الصلاح والأصلح» على أن المستشرق «سبيتا Spitta» يرى أن قصة هذا الخلاف اخترعت لغرض ما، ويرجح أن الأشعري لما عكف على استمرار الحديث وضح له ما بين رأي المعتزلة، وروح الإسلام من تناقض، ومهما يكن من شيء فإن الأشعري أصبح منذ ذلك الوقت نصيرًا لرأي أهل السنة وناهض المعتزلة وألّف كثيرًا من الكتب أيد في بعضها رأي أهل السنّة وهاجم في البعض الآخر آراء المعتزلة، ويقول ابن فورك (انظر هذه المادة) إن مصنفات الأشعري بلغت حوالي ثلاثمائة، وذكر ابن عساكر (انظر هذه المادة) أسماء ثلاثة وتسعين منها، وقد أورد المستشرق سبيتا عناوين هذه المصنفات وعلق عليها في كتاب ألفه ولم يصل إلينا من كتب الأشعري إلا عدد قليل ذكره المستشرق بروكلمان في كتابه المسمى «الآداب العربية»، وقد طبع كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» في حيدر آباد بالهند عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م)، مع ثلاثة تذييلات وطبع من كتبه أيضًا «رسالة في استحسان الخوض في الكلام».

ويقول بعض الفقهاء أن مذهب الأشعري ضعيف من الوجهة الفلسفية، واشتهر الأشعري بتغلبه على ما كان عليه علماء المسلمين السابقين من كره للجدل في العقائد ومن ثَمَّ استطاع بفضل هذا الجدل الانتصار على المعتزلة وغيرهم من رؤساء الفرق التي كانت تتهم بالمروق.

والأشعري مؤسس علم الكلام لأن رجال السنة القلائل الذين سبقوه في معاناة هذا الأمر كان حظهم من العلم قليلاً، وكانت أكثر قضاياهم ضعيفة، ولقد صادف رأي الأشعري قبولاً، ولاسيما من الشافعية والتفّ حوله طائفة من التلاميذ نبغ منهم كثير من علماء الدين المبرّزين الذين نشروا مذهبه وأكملوه وأشهر هؤلاء التلاميذ الباقلاني وابن فورك والإسفراييني والقشيري (انظر هذه المادة) والجويني (انظر هذه المادة، وانظر مادة إمام الحرمين) ثم الغزالي (انظر هذه المادة)، على أن آراء الأشعري لم تحظ بقبول أصحاب المذاهب الأخرى ما لقيته عند الشافعية من قبول.

وكان الحنفية يؤثرون رأي الماتريدي (انظر هذه المادة) عن الذي عاصر الأشعري، وكان يخالفه في بعض مسائل الفروع، واستمسك الحنابلة بآراء السلف، وظلوا خصومًا لمذهب الأشعري، وعارض مذهبه في بلاد الأندلس ابن حزم

(انظر هذه المادة)، وكان علماء الأشعرية يضطهدون في عهد طغرل بك أول الملوك السلاجقة بتحريض من الوزير الكندري، على أن خلفه نظام الملك قضى على هذا الاضطهاد ومن ثَمَّ انتشر مذهب الأشاعرة، وازداد قوته، وكان من أهم أسباب ذلك مؤلفات الغزالي على وجه خاص، وكان ابن تومرت (انظر هذه المادة) مؤسس دولة الموحدين عضدًا قويًّا لمذهب الأشاعرة في المغرب العربي، وانتهى الأمر إلى أن أصبح هذا المذهب يلقّن من مدارس أهل السنة واختفت المعارضة التي لقيها في بداية الأمر.

ومذهب أبي الحسن الأشعري، هو توسط بين مذهب الصفاتية والمعتزلة، وقد سماه مذهب أهل السنة، فنسخ هذا المذهب أكثر المذاهب في الاعتقاد، ويعتنقه الآن جمهرة المسلمين في كل أنحاء الدنيا.

وكان أبو الحسن الأشعري شافعي المذهب وقضى السنوات الأخيرة من حياته في بغداد حيث وافته المنية عام ٣٢٤هـ (٩٣٥م)، وكان ورعًا زاهدًا من كبار العلماء مواظبًا على السنة مقدمًا على أقرانه من المتكلمين.

٣٧٤- الاصطخري - شارع - بقسم محرم بك (مصطفى محمد موسى حاليًّا)

يحمل لقب الإصطخري فيمن عرفهم المؤرخون اثنان أدوّن فيما يلي ترجمة كل منهما:

١) أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: كان جغرافيًّا عربيًّا لا تعرف تفاصيل سيرته إذ لم تذكر في كتب السير المعروفة، ولم تذكر هذه السيرة إلا في مقدمة الكتاب المنسوب إليه وهو بعنوان «المسالك والممالك» الذي يوجد المجلد الأول منه بالمكتبة الجغرافية العربية التي نشرها المستشرق «ديغويه» الذي أظهر أن كتاب الإصطخري ما هو إلا نسخة جديدة لمصنف سابق ألفه أبو زيد البلخي (انظر مادة البلخي) في الجغرافيا وتقويم البلدان، وهذا بالضبط ما فعله ابن حوقل (انظر هذه المادة) الذي اتخذ من كتاب الإصطخري الآنف الذكر أساسًا لمصنفه حين عدل عن تصحيح كتاب الإصطخري الذي قابله عام ٣٤٠هـ (٩٥١ - ٩٥٢م)، وطلب إليه أن يصححه، ومن ثَمَّ فإن من المحقق أن الإصطخري قد عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، والأصل الذي نشره المستشرق «ج. أ. مولر J. A. Moller» في تاريخ متقدم يرجع إلى عام ١٨٣٩م، لم يكن سوى موجز لهذا الكتاب.

ولا يعرف تاريخ وفاة الإصطخري أو مكان وفاته.

٢) أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل الإصطخري: كان من نظراء أبي العباس ابن سريج وأقران أبي علي ابن أبي هريرة في الفقه الشافعي، وله مصنفات جيدة في الفقه الإسلامي منها كتاب «الأقضية» ألفه في أثناء توليه القضاء في بلدة «قمّ» ثم تولى الحسبة بمدينة بغداد، وكان ورعًا تقيًّا، وقد عينه الخليفة العباسي المقتدر قاضيًا على ساجستان، فحكم بين أهلها بالعدل وأصلح من عقائدهم ولا سيما في أمور الزواج.

وقد ولد عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م)، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة عام ٣٢٨هـ (٩٣٩م) بالغًا من العمر حوالي ٨٢ عامًا.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «مصطفى محمد موسى».

٣٧٥- الأفضل - شارع - بقسم باب شرقي

أطلق لقب «الأفضل» على أربعة رجال دوّن المؤرخون بعض معلومات عن سيرة حياتهم، وهم حسب وجودهم في قيد الحياة:

١) أبو القاسم شاهنشاه (الملقب بالملك الأفضل): وهو ابن الوزير الأرمني بدر الجمالي (انظر هذه المادة)، وقد ولد عام ٤٥٨هـ (١٠٦٦م)، وتبيّن من نقش تاريخه سنة ٤٨٢هـ (١٠٨٩م)، أنه اشترك مع أبيه بدر الجمالي في الوزارة الفاطمية (انظر مادة الفواطم) وعقب وفاة بدر أجبر الجيش الخليفة الفاطمي الطاعن في السن المستنصر بالله (انظر هذه المادة) على قبول الأفضل شاهنشاه رئيسًا لوزرائه وتوفي المستنصر بعد ذلك ببضعة أشهر.

وكان الخليفة المستنصر قد استقدم بدر الجمالي من الشام لوضع حد للفوضى التي كانت عليها دولته، فتداركها بدر الجمالي وأعادها إلى الازدهار، وقد عرف كيف يجعل لنفسه شخصية قوية مستقلة، وكان يلقّب بأمير الجيوش (انظر هذه المادة) فخضع الخليفة لسلطانه على الرغم من الكراهية التي كان يضمرها له، ولما توفي بدر ثبّت الخليفة ابنه الأفضل في جميع المناصب التي كان يشغلها أبوه، ويعتبر بدر الجمالي وابنه الأفضل أول القواد القادرين الذين تضاءلت في أيامهم مكانة الخلفاء وأصبحوا مجرد ألعوبة في أيدي وزرائهم، وهي الظاهرة التي امتاز بها العهد الأخير من تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، وكانت البلاد تنعم في أيام هذين الأرمنيين بالنظام الإداري والاستتباب في الأمن.

ولا يعرف الكثير عن سياستهما الداخلية، ولكن المؤرخين يجمعون على امتداح هذه السياسة، وبمجرد أن قام الأفضل على شؤون الدولة عقب وفاة والده في ذي القعدة عام ٤٨٧هـ (نوفمبر ١٠٩٤م)، مرض الخليفة المستنصر، ثم مات بعد أشهر قليلة.

ولم ير الأفضل قيام ابنه «نزارا» على عرش الخلافة الفاطمية بوصف كونه الابن الأكبر للخليفة إذ آثر أن يقيم ابنه الأصغر أحمد الذي لقب «بالمستعلي بالله» ليكون طوع إشارته، ولكن «نزارا» هرب إلى الإسكندرية في جماعة من أنصاره، ونادى بنفسه خليفة فيها.

وكان لاعتلاء الخليفة «المستعلي بالله» عرش الخلافة أهمية كبرى لما نشأ عن ذلك من آثار غير مباشرة، فعندما كان الخليفة المستنصر حيًّا وقد تقدمت به السن أثيرت مسألة من يخلفه، ودار حول هذه المسألة الجدل، وحكم الداعي الإسماعيلي الذي قدم من إيران – وهو الحسن بن الصبّاح – في صالح «نزارا» ولكن الأفضل لم يأخذ بهذا الحكم ونصّب ابن الخليفة الأصغر كما تقدم القول.

وبادر الأفضل إلى اللحاق «بنزارا» في الإسكندرية واستطاع القبض عليه، وسجنه بعد القضاء على مقاومة أتباعه ثم قتله.

ومن الغريب أن بعض غلاة الشيعة اعتقدوا أن «نزارا» تمكن من الهرب، وأن الإمام الحسن بن الصبّاح اعترف بخلافته

وأنشأ عقب ذلك فرقة الحشاشين الإرهابية، وقد حملت فرقة الحشاشين اسم «نزارا» مدة من الزمن ولقب أنصارهم في مصر بالنـزارية.

ولم يتوقع الأفضل هذه النتائج التي ترتبت على أطماحه الشخصية مما أغراه على إقامة المستعلي الشاب على عرش الخلافة ليكون طوع إرادته.

وكان بدر الجمالي الذي أنقذ مصر من كارثة الفوضى قد أقام نظامًا دكتاتوريًّا للحكم وحذا الأفضل حذوه، فألزم الخليفة المستعلي الذي كان في سن العشرين عند استخلافه على البقاء في قصره لا يبرحه.

ولم يدم حكم المستعلي إلاّ ثماني سنوات (من عام ٤٨٧ إلى ٤٩٥هـ) (١٠٩٤ – ١١٠١م) ويقول بعض المؤرخين إن النـزارية دسوا له السم، وكانت هذه الفرقة قد قويت، وأطلقت على شيوخها البارزين اسم «أمراء الموت».

ولكن نفوذ الأفضل لم يضعف فبادر إلى إقامة ابنٍ للمستعلي عمره خمس سنوات، ولقّبه بالآمر بأحكام الله، واستطاع هذا الوزير الدكتاتوري الأرمني في خلال عشرين عامًا أن يروض الخليفة الآمر على طاعته، والسير في الحكم وفور هواه ومشيئته، ولكن الآمر عندما تقدمت به السن وتأثر بعوامل سياسية أخرى، صمم على التخلص من وزيره فحرض بعض أتباعه فهاجموه على قارعة الطريق في نهاية شهر رمضان عام ٥١٥هـ (ديسمبر عام ١١٢١م)، ومات بعد قليل متأثرًا بجراحه، وقد اصطنع الخليفة الحزن الشديد عليه ثم بادر بعد ذلك بقليل إلى إصدار أمر بجمع كل ما في بيته من أثاث وتحف، ووضع يده على الثروة الطائلة التي جمعها إبان حكمه الطويل الأجل.

وكانت مدة حكم الأفضل في أيام الحروب الصليبية الأولى، ولم يُظهر فيها من بعد النظر ما أظهره في الشؤون الأخرى للدولة الفاطمية، ذلك لأنه كان يجهل تمامًا طبيعة هذه الحركة الاستعمارية الهائلة إذ ظن عن خطأ أن فرسان الحرب الصليبية الأولى يمكن أن يعينوه على السلاطين السلاجقة الذين استقروا في بلاد الشام بعد الاستيلاء عليها في عهد أبيه بدر الجمالي.

وسقطت مدينة أنطاكية في أيدي الفرنجة، وذلك في الوقت الذي خرج فيه الأفضل لانتزاع بيت المقدس من بني أرتق وذلك خلال عام ٤٩١هـ (١٠٩٨م)، وقد استولى عليها بعد حصار قصير.

غير أن هذا الفوز لم يكن إلاّ تمهيدًا للصليبيين الذين تمكنوا بعد بضعة أشهر من الاستيلاء على بيت المقدس بعد مقاومة ضعيفة.

ولم يدرك الأفضل أن الصليبيين يرفضون مفاوضته إلاّ في وقت متأخر جدًّا أي في عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) وذلك عندما مني بهزيمة منكرة بالقرب من عسقلان، وذلك بعد محاولات فاشلة للوصول معهم إلى اتفاق سلمي.

وفي عام ٤٩٤هـ (١١٠٠ – ١١٠١م) حاول الأفضل القيام بالثأر ولكنه لم يوفق في محاولته إلا في عام ٤٩٦هـ (١١٠٢ – ١١٠٣م)، عندما انتصر قائده على بلدوين الصليبي، وقد تحمس الأفضل للحرب في ذلك الحين،

وأرسل إلى ميدان القتال أبرع قواده، ولم يبخل على المعركة حتى بأولاده، غير أنه لم يحرز نصرًا حاسمًا وأخذت مدن فلسطين تسقط تباعًا في أيدي الصليبيين، فقد سقطت عكا عام ٤٩٧هـ (١١٠٣م)، وطرابلس عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م)، وبلغ الأمر ببلدوين أن تقدم بجنده عام ٥١١هـ (١١١٧م)، نحو مصر ووصل إلى مدينة تنيس على بحيرة المنزلة ولكنه مات في تقهقره أمام الجيش المصري.

وفي العام الذي مات فيه الأفضل وهو ٥١٥هـ (١١٢١م)، لم يكن في حوزة المسلمين من بلاد الشام إلاّ القليل وأهمها: صور وعسقلان، ومع هذا فإن الأفضل لم يترك بابًا إلا طرقه حتى أنه حاول عقد صلح مع أتابك دمشق، وهكذا أضاع أملاك الدولة الفاطمية في الشام.

ومع كل هذا فإن عهد الأفضل يعتبر من عهود مصر السعيدة على الرغم من إخفاقه في الخارج ودكتاتوريته وعسفه في الداخل، وقد ظل هذا الوزير يشغل منصبه الخطير سبعًا وعشرين سنة، امتازت بالأمن والهدوء في الداخل وهو أمر يذكر بالتقدير خصوصًا بالنسبة إلى ما حدث من الاضطراب في السنين اللاحقة لعهده.

وتقع التبعة الكبرى على عاتق حكم الأفضل الدكتاتوري بالنسبة إلى قلة تأهب مصر عسكريًّا لمواجهة الغزو الصليبي لفلسطين ولو أن قدرًا من هذه التبعة يقع على كاهل الدولة الفاطمية نفسها خصوصًا إذا نظرنا إلى كره الناس لها في أيامها الأخيرة.

نعم إن هذه الدولة قامت بترميم بعض القلاع، والحصون قبل زوالها من الوجود، ولكن إغفالها شأن بيت المقدس الذي كان الهدف الأكبر للصليبيين لا يمكن إخفاؤه من الأحداث التي أدت إلى ضياعه.

فقد كان جمود الجنود المصريين، أو افتقارهم إلى الهمة بسبب ضعف قيادتهم مما أدى إلى وقوفهم دون تحرك للدفاع عن بيت المقدس الذي أثار سقوطه جرحًا عميقًا في النفوس.

ولقد قاد الأفضل نفسه كتيبة من الجيش إلى موقع في شمال عسقلان، ولكنه وقف بهم في هذا المكان لا يتحرك منتظرًا الإعدادات التي كان من المنتظر وصولها بالبحر، وترتب على هذا الجمود أن هجم الفرنجة، وذبحوا الجنود المصريين، فبادر الأفضل إلى الهرب، والاحتماء في عسقلان، ثم أسرع بالعودة إلى القاهرة مهزومًا.

وشهد عام ٤٩٤هـ (١١٠١م) احتلال الفرنجة لفلسطين فطلب سكانها المأوى في مصر، وظل الأفضل في السنوات التالية يظهر بعض النشاط ضد الصليبيين، ولكن حملاته قلما تجاوزت أرباض عسقلان، ولم يفز من هذه الحملات إلاّ ببعض الغنائم والأسرى.

وكانت ثغور الشام الهامة في أيدي كبار الأمراء الذين كانوا يمالئون أهل السنة، أو الشيعة بحسب ما تمليه مصالح الساعة، وقد نجحت إحدى الحملات في استرداد الرملة وكان يقودها أحد أبناء الأفضل، وفي سنة ٤٩٧هـ (١١٠٣م)، سقطت عكا إذ سلمها حاكمها الفاطمي لافتقاره إلى المعونة.

وأبدى أمير طرابلس مقاومة عنيدة فشجع ذلك الأفضل على أن ينفذ إليه بعض قطع الأسطول، ولكن هذه القطع وصلت بعد فوات الأوان.

وفي عام ٥١٢هـ (١١١٨م) ازداد تهديد الفرنجة بعد أن أحرقوا بلدة الفرما عن آخرها وفي هذا الهجوم الصليبي مات بلدوين الأول ملك بيت المقدس.

وخلال هذه الفترة المحزنة كانت قلوب الأمراء المسلمين تفيض بالشك بعضهم في بعض، وإن كان الأفضل قد ظفر بتعاون بني يوري في دمشق.

ومما لا شك فيه أن مظاهر الترف التي كانت تحيط بالخليفة الآمر ووزيره الأفضل كانت لها آثار سيئة في النفوس، فقد كانت الحفلات والمآدب تتكاثر بنسبة تفوق عدد المدن التي تسقط في أيدي الفرنجة، وتقع تبعة هذا الترف، وإهمال الدفاع عن الدولة على الأفضل وحده، لأن الخليفة الآمر لم يكن في ذلك الحين إلا مجرد طفل، ومجرد ألعوبة في يدي هذا الوزير المطلق السلطان الذي كان قد أمعن في الاستخفاف العابث بالأمور الجسام الهامة، وهناك فرق كبير بين العمائر التي شيدها بدر الجمالي وبين تلك التي أقامها الأفضل، وكانت كلها للترويح والمتعة في الفسطاط والقاهرة، ولما وضع الخليفة يده على أملاك الأفضل اقتضى الأمر شهرين لنقل النفائس، والجواهر، والحرائر التي كان يقتنيها، وقد فصلها ابن خلكان فقال إنها كانت مكونة من: ستمائة ألف دينار و ٢٥٠ أردبًّا من الدراهم و ٧٥٠٠٠ ثوب من الديباج الأطلس، وفي ذلك مغالاة ظاهرة، ومما يُذكر للأفضل بالحسنى، إعادته تنظيم الحالة المالية مما زاد في موارد الدولة زيادة كبيرة.

٢) أبو علي أحمد (الملقب بالأفضل، وكنيته كُتيْفات): وهو ابن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، وعندما توفي الخليفة الآمر في ١٢ من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ (١٧ أكتوبر عام ١١٣٠م) تولى السلطة في مصر اثنان من أصفيائه هما هَزار مَرْد، وبرغش فجعلا عبد الماجد بن أخي الخليفة الآمر نائبًا مؤقتًا للسلطان، ولكن بعد ذلك بأربعة أيام أقام الجيش أبو علي كتيفات وزيرًا فأضفى على نفسه لقب «الأفضل» على غرار أبيه، وسرعان ما أعلن هذا الوزير خلع البيت الفاطمي، ووضع الدولة تحت سلطان الإمام المنتظر للاثنى عشرية التي هي فرقة من فرق الشيعة، ومعظم معتنقي مذهبها في إيران حتى الآن وهو المذهب الرسمي للحكومة هناك.

وبادر الوزير الأفضل إلى إقالة عبد الماجد من نيابة السلطنة، والزجّ به في السجن، وحكم البلاد ديكتاتوريًّا، ويدل على ذلك قطع النقود التي سكّت عام ٥٢٥هـ (١١٣١م)، وعليها هذه العبارة: «الإمام محمد أبو القاسم المنتظر لأمر الله»، ونقود أخرى ضربت خلال عام ٥٢٦هـ، وعليها نقش يقول: «الإمام المهدي القائم بأمر الله حجة الله على العالمين»، وعليها نقش آخر يسبغ أهمية أكبر على الوزير «الأفضل أبي علي أحمد نائبه وخليفته».

ويتضمن هذا النقش إلغاء الإسماعيلية من حيث هي المذهب الرسمي للدولة الفاطمية في مصر وإن كان «الأفضل كتيفات» لم يأمر بالخروج الشرعي عليها، بل هو قد أبدى حيالها بعض الاحترام والتعظيم.

وكان يجلس بين جماعة القضاة الذين أقامهم وهو: قاض إسماعيلي وقاض حنفي وثالث شافعي ورابع إمامي، وفي ١٦ من المحرم عام ٥٢٦هـ (٨ ديسمبر ١١٣١م) قتل الوزير كُتَيْفات الأفضل وهو راكب صهوة جواده خارج المدينة، وأطلق سراح عبد الماجد من السجن في اليوم نفسه، واستمر الاحتفاء بهذا الحادث سنويًّا حتى نهاية الدولة الفاطمية.

وحكم عبد الماجد بن أخي الخليفة الآمر بالله كنائب للخليفة في أول الأمر ثم نودي به بعد فترة قصيرة خليفة ولقب «الحافظ لدين الله» (انظر مادة الفواطم).

٣) أبو الحسن علي (الملقب بالملك الأفضل نور الدين الأيوبي): هو الابن الأكبر لصلاح الدين (انظر هذه المادة) وكان مصيره محزنًا كمصير معظم أبناء هذا القائد العظيم.

وقد ولد الأفضل في مصر عام ٥٦٥هـ (١١٦٩ – ١١١٠م) ودرس العلوم الإسلامية على خيرة علماء القاهرة والإسكندرية، ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره عام ٥٧٩هـ (١١٨٣ – ١١٨٤م) أنابه أبوه صلاح الدين عنه في حكم مصر في كفالة تقي الدين عمر، ولَمَّا لم يسُد الاتفاق بين الرجلين أقالهما صلاح الدين عام ٥٨٢هـ (١١٨٦ – ١١٨٧م) وأقطع الأفضل دمشق فصار هذا الشاب الذي لم يكد يبلغ العشرين تحت كنف أبيه واشترك معه في موقعة حطين (انظر هذه المادة) التي حدثت في ٢٥ من ربيع الثاني عام ٥٨٣هـ (٤ يوليو عام ١١٨٧م).

وقد كتب الأفضل وصفًا مفصَّلاً لهذه المعركة مازال مرجعًا تاريخيًّا لها، ثم قام الأفضل بفتح عكا فأقطعت له، واشترك بعد ذلك في المعارك الضارية التي قادها أبوه ضد الصليبيين، كما اشترك في المفاوضات التي دارت بين صلاح الدين وبين ريتشارد قلب الأسد ملك فرنسا.

وعقب وفاة السلطان صلاح الدين في ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ (٤ مارس عام ١١٩٣م) ورث ابنه الأفضل حكم دمشق وجميع بلاد الشام، وبسط سلطانه على بقية الأمراء الأيوبيين ومع ذلك فقد اتضح أنه لم يبلغ من النضوج ما يمكنه من النهوض بأعباء هذا المنصب الخطير.

وعلى الرغم من اشتهاره بالتقوى والورع والزهد فإن بعض مؤرخي سيرته ينسبون إليه – إن صدقًا أو كذبًا – اندماجه في الملذات والشهوات، وترك مقاليد شؤون الملك في يد وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري وهو أخ المؤرخ الشهير «ابن الأثير» وقد تأثر بمشورة وزيره السيئة فأهمل شأن أمراء أبيه، وكان لهم قدر رفيع، وتجربة واسعة الأفق بمجرى الأمور، وقد أغضبهم هذا الإهمال من الأفضل فانصرفوا عنه واتجهوا نحو أخيه العزيز حاكم مصر، وانضموا إليه فبادر إلى إعلان استقلاله وأنفذ حملة عسكرية لغزو دمشق عام ٥٩٠هـ (١١٩٣م).

وتدخل العادل الأول سيف الدين بين الأخوين يعاونه في ذلك بعض العظماء، وأصلحوا بينهما، غير أن العزيز أنفذ حملة جديدة لفتح دمشق في العام التالي، ولكن جُند العزيز تخلوا عنه أمام أبواب دمشق فهرب راجعًا إلى مصر، وتبعه الأفضل، ومن ثَمَّ انضم إليه العادل.

وتوصل القاضي الفاضل (انظر هذه المادة) وزير أبيهم المسن إلى عقد الصلح بين الإخوة، فعاد الأفضل إلى دمشق وظل العادل في مصر يعاون أخاه العزيز.

وفي عام ٥٩٢هـ (١١٩٥ – ١١٩٦م) خرج العزيز والعادل يبغيان فتح دمشق وقد نجحا في إخراج الأفضل منها وإعطائه قلعة صرْخد الصغيرة عوضًا عن دمشق.

ولما توفي العزيز عام ٥٩٥هـ (١١٩٨ – ١١٩٩م) أهمل أمراء مصر العادل واستدعوا الأفضل ليكون أتابكًا للملك المنصور القاصر، ثم أراد الأفضل استرداد دمشق، ولكن العادل منعه من تنفيذ خطته، وسعى بالوقيعة بينه وبين جنوده، ثم سار في أثره إلى مصر، حيث اضطره إلى التسليم في ربيع الثاني عام ٥٩٦هـ (يناير – فبراير ١٢٠٠م)، وتخلى عن الأفضل أتباعه في مصر فعاد إلى قلعة صرخد مهيض الجناح.

وفي العام التالي تحالف مع أخيه «الظاهر» أمير مدينة حلب، وكان قد وعده بملك دمشق، وكادت هذه المدينة تسقط في أيديهما عندما حدثت بين الأخوين جفوة أدت إلى رفع الحصار عنها وانسحاب الأفضل إلى مدينة حمص، وكان قد تخلى عن قلعة صرخد قبل ذلك.

وتوسط الرسل بين أبناء صلاح الدين في العام التالي لتلك الأحداث، وانتهى الأمر بأخذ الأفضل من أخيه العادل قلعة نجم وسَروج وسُمَيْساط، ولكنها أخذت منه ثانية عام ٥٩٩هـ (١٢٠٢م)، ولم تنجح والدته في شفاعتها له عند العادل فرضي الأفضل بالاستقرار في سُمَيْساط وأعلن طاعته لركن الدين سليمان الثاني السلطان السلجوقي صاحب ملطية وقونية وما بينهما.

وعندما توفي أخوه الظاهر صاحب حلب، استعان الأفضل بكيكاوس خليفة ركن الدين السلجوقي ليخصص له ملكًا، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الحليفين وتدخل الأشرف (انظر هذه المادة) ابن العادل بينهما عام ٦١٥هـ (١٢١٨ – ١٢١٩م) فأفسد اتفاقهما وعندها عدل الأفضل نهائيًّا عن محاولاته وعاد إلى سُمَيْساط حيث انتهت حياته المليئة باليأس، والقنوط، والإخفاق، وكانت وفاته عام ٦١٦هـ (١٢٢٠م) بالغًا من العمر حوالي ٥١ عامًا.

٤) **عباس بن عليّ (الملقب بالملك الأفضل)**: وهو من بني رسول، وقد حكم بلاد اليمن من عام ٧٦٥ إلى ٧٧٨هـ (١٣٦٣ – ١٣٧٦م)، واشتغل بالتأكد والتحقيق في الأنساب وألّف كتابًا أسماه «بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم»، وله كتب أخرى في هذا الشأن.

٣٧٦- الأفغاني – شارع – بقسم محرم بك

هو السيد جمال الدين الأفغاني ابن السيد صفتر من سادات «كنر» الحسيفية، وقد ولد السيد جمال الدين عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، بقرية من أعمال «كنر» بالقرب من مدينة كابل عاصمة الأفغان، ويقول بعض مؤرخي سيرته أنه ينتسب إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور، ويصل نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، ومن ثَمَّ فهو من السلالة النبوية الشريفة، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الأفغاني الحسيني.

وهناك بعض المؤرخين يقولون بأنه من أصل إيراني، ولكن هذا الزعم لم تقم الأدلة الموثوق بها على صحته، وقد أكد هو بنفسه وفي مرات ومناسبات عدة أنه أفغاني بالمولد والمنشأ عربي بالسلالة والنسب، وكان لأسرته الإمارة على جزء من البلاد الأفغانية، وظلوا يمارسون سلطتهم على هذا الجزء إلى أن نزع الإمارة منهم «دوست محمد خان» أمير الأفغان وقتئذ، وأمر هذا الأمير بنقل والد جمال الدين وبعض أعماله إلى مدينة «كابل»، وكان عُمْر جمال الدين في ذلك الحين ثمانية أعوام، ولم يقصر والده في العناية بتربيته

وتعليمه، فظهرت مخايل الذكاء وقوة القريحة عليه منذ الصِّبَا مما ساعده على استيعاب الدروس التي تلقاها على أيدي أساتذة بلاده، فتعلم اللغة الفارسية والأفغانية والعربية وعلوم الدين والرياضيات والتاريخ والفلسفة والمنطق وذلك وفاقًا للطرق المألوفة في الكتب الإسلامية المشهورة، ثم استكمل الغاية من دروسه ولما يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، ثم سافر إلى الهند وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم على الطريقة الأوروبية فنضج إدراكه واتسعت دائرة معارفه، وكان يميل بطبعه إلى الرحلات واستطلاع أحوال الناس والأمم المختلفة فعزم على تأدية فريضة الحج واغتنم هذه الفرصة وقضى عامًا يتنقل في البلاد يتعرف على أحوالها وعادات أهلها حتى حل بمكة عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) وأدى الفريضة، وعاد بعد ذلك إلى الأفغان حيث عين في حكومة الأمير «دوست محمد خان» الآنف الذكر، وكان أول عمل له مرافقة هذا الأمير في حملة حربية جرّدها لفتح مدينة «هراة» الأفغانية، وقد زودت هذه الحملة قلب جمال الدين بمزيد من الشجاعة، والإقدام، والجرأة على اقتحام المخاطر في سبيل نشر مبادئه التقدمية.

وتوفي الأمير «دوست محمد خان» بعد فتح «هراة» وتولى الحكم ولي عهده «شير علي خان» عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م)، ثم وقع الخلاف بين هذا الأمير وإخوته إذ أراد الكيد لهم، واعتقالهم، فانضم جمال الدين إلى «محمد أعظم» أحد الإخوة الثلاثة لما توسمه فيه من الخير، وعندها استعرت نار الحرب الداخلية فكانت الغلبة لمحمد أعظم وانتهت إليه إمارة الأفغان فعظمت منـزلة جمال الدين لديه، وأحله محل الوزير الأول، غير أن الحرب الأهلية تجددت بعد أن استتب الأمر لمحمد أعظم بعض الوقت ومن ثَمَّ أخذ «شيرعلي» يسعى لاسترجاع سلطته وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم السياسية المعروفة، فأيدوه، وناصروه، ليجعلوه من صنائعهم، وقد أغدق «شير علي» الأموال على أعوان محمد أعظم، وانتهت الحرب بفوز شيرعلي فخلص له الملك.

وبقي جمال الدين في كابل، وخشي شيرعلي أن يمسه بسوء خوفًا من قيام العامة بحركة ضده انتصارًا لعشيرة جمال الدين التي تنتسب إلى رسول الله.

وما من شك في أن هذه المرحلة من حياته قد كشفت له عددًا من مطامع الإنجليز، وأساليبهم في الدس والتفريق، وغرست في وجدانه روح العداء للسياسة البريطانية، والمطامع الاستعمارية الأوروبية، وقد لازمه هذا الكره طوال حياته وصار له مبدأ راسخ يؤمن به، ويضعه نصب عينيه في كل ما يصدر عنه من أعمال وآراء وحركات سياسية.

وأخذ الأمير شير علي يدبر المكايد لجمال الدين ويسعى لاغتياله فرأى إزاء ذلك أن يغادر أفغانستان وأن يذهب إلى الهند عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٩م)، فتلقته الأمة الهندية بالترحاب لمعرفتها بعلمه وفضله، ووفد عليه العلماء وأهل الفضل ينهلون من عرفانه، ويتلقون عليه الحكمة، والفلسفة وحب الحرية، ومناهضة الظلم والعدوان، وفطنت الحكومة الإنجليزية لذلك فلم تأذن له بالاجتماع بأهل العلم والفضل إلاّ في حضور رجالها، ثم أنزلته إحدى سفنها، فأقلته إلى السويس، وكان ذلك في أواخر عام ١٢٨٦هـ (١٨٧٠م).

وفي مصر اتجهت إليه أنظار النابهين، وتردد هو على الأزهر فاتصل به كثير من الطلبة، وآنسوا فيه روحًا تفيض

معرفة، وحكمة، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية، والفلسفة، وعلم الكلام، وأقام بمصر أربعين يومًا ثم رحل إلى إسطنبول، وكان من تلاميذه في تلك المدة القصيرة الشيخ الإمام محمد عبده.

ولقد كان العصر الذي نضج فيه وعي السيد جمال الدين السياسي عصر طغيان استعماري أوروبي رهيب، وكان من شأنه أن يؤجج في النفوس الحساسة مشاعر السخط والكراهية للمستعمرين والعمل على محاربتهم بكل الوسائل الممكنة، وكانت الحالة الداخلية في البلاد الشرقية تسير من سيئ إلى أسوأ، فملوك هذه البلاد يستبدون بالأمر، ويحكمون بمعاونة رجال الاستعمار، وأذنابه، وشعوبهم ترزح تحت نير الجور الحالك السواد، وكان طبيعيًّا أن تحرك كل هذه المظالم شعور البغضاء في نفس جمال الدين، وتحثه على تنظيم حركة المقاومة للحكام والمستعمرين جميعًا.

وعندما وصل إلى الآستانة لقي من حكومة السلطان عبد العزيز الحفاوة والتكريم، إذ عرف له الصدر الأعظم «عالي باشا» مكانته وفضله، وكان هذا الرجل من أفذاذ الترك العارفين بأقدار الرجال، وكان من جراء ذلك أن اختارته الحكومة عضوًا في مجلس المعارف التركي فقام بواجبه، وأشار بإصلاح مناهج التعليم، غير أن هذه الآراء التقدمية لم تصادف قبولاً من زملائه، واستهدف لسخط شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي الذي وجد أن الإصلاحات ستمس سبل رزقه فأضمر له العداء.

وفي رمضان سنة ١٢٨٧هـ (ديسمبر عام ١٨٧٠م) طلب منه إلقاء خطاب يحث على النهوض بالصناعات، فأعده وعرضه على بعض أصحاب المناصب في الدولة فأقروه، غير أن شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي اتخذ من آرائه مغمزًا للنيل منه، ورميه بالزيغ في عقيدته، واغتنم الفرصة للإيقاع به، فألَّب عليه الوعاظ في المساجد، وللدفاع عن كيانه طلب جمال الدين محاكمة شيخ الإسلام فما كان من الحكومة إلاّ أن أيدت شيخ الإسلام في ادعائه الباطل، وأصدرت أمرها بإبعاد جمال الدين عن الآستانة مدة من الزمن لتهدئة الخواطر، وإزاء هذا الإجحاف بحقه قصد جمال الدين الديار المصرية عملاً بنصح مريديه، وكان جهاده في تركيا قد ظهر أثره وبقي هذا الأثر عالقًا بالأذهان على مر الأعوام، وكان من نتائج ذلك وضع مدحت باشا – الملقب بأبي الأحرار – للدستور التركي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) الذي لم يدم اتباع نصوصه زمنًا طويلاً، والذي لم يصبح نافذ المفعول إلاّ بعد انقلاب عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، ومن ثَمَّ يكون السيد جمال الدين الأفغاني هو واضع البذرة الأولى في الكيان الديمقراطي التركي.

وكان وصول جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية في أوائل المحرم عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) ولم يكن يريد الإقامة بها طويلاً، إذ كانت رغبته تتركز في مشاهدة مناظرها، وتفقد أحوال سكانها، غير أن رياض باشا وزير الخديوي إسماعيل حبب إليه الإقامة بربوعها، وسرعان ما أجرت عليه الحكومة راتبًا قدره عشرة جنيهات في الشهر، ووفد على داره الطلبة يغترفون من مناهل علمه وحكمته، فقرأ لهم الكتب العالية في فنون الكلام، والحكمة النظرية من طبيعية، وعقلية، وعلوم الفلك، والتصوف، وأصول الفقه بطريقة مبتكرة وفي أسلوب شيق، وكانت مدرسته هي بيته ولم يذهب إلى الأزهر، وإنما

ذهب إليه المريدون ليأخذوا عنه ولاسيما في أيام الجمع، وقد بدأت ثمار النهضة التي تزعمها هذا المصلح من أدبية وسياسية تظهر واضحة المعالم خلال عام ١٣١٤هـ (١٨٧٦م)، وساعد على ذلك منافسة الخديوي إسماعيل لحكومة الأستانة في إظهار مصر بمظهر الدولة المحتضنة للثقافات العالية، والأفكار التقدمية الجديدة.

ولقد كان لاستقراره في مصر وإلقاء الدروس على مريديه أثر عميق في حياة هؤلاء المريدين العقلية، فقد جاء إليها مختزنًا في وجدانه الإباء، والشمم، والشجاعة الأدبية، وبغض الضيم، والخنوع، وكان لكل هذه الصفات الخلقية تأثير قوي على نفوس من كانوا يحضرون اجتماعاته فرفعت من روحهم الأدبية، ومن مستوى نفوسهم، وكانت من العوامل الفعالة للتحول الذي بدا على الأمة، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة إلى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم في عهد إسماعيل ومساوئه والسخط على تدخل الدول الأجنبية في شؤون البلاد.

وقضى السيد جمال الدين ثمانية أعوام وبضعة أشهر في القطر المصري، وذلك خلال الفترة من عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) إلى أن نفي عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) في أوائل عهد الخديوي توفيق.

وكان حكم إسماعيل حكمًا مطلقًا إلى أن تدخل الأجانب عن طريق صندوق الدين عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، وفرضوا الرقابة المالية الثنائية البريطانية الفرنسية، ثم أعقب ذلك قيام الوزارة المختلطة التي قيدت سلطة إسماعيل إلى أبعد حد، وقيدت سلطة الوزراء فصار الأمر والنهي في أيدي المفتشين العموميين الذين استحوذوا على السلطة المالية والإدارية في الحكومة بأمر الخديوي، ولم يكن مجلس شورى النواب الذي أنشأه إسماعيل سوى مجلس استشاري لا يملك سلطة فعلية تخوله القضاء في أمر من الأمور، إذ كانت قراراته عبارة عن رغبات يقبلها الخديوي أو يقرر رفضها دون أي اعتراض.

وكانت الحالة المالية في غاية السوء إذ كان إسماعيل يقترض الأموال من الدول الأجنبية، وينفق معظمها على توسيع رقعة ممتلكاته الخاصة مهملاً مرافق البلاد الحيوية، فبنى القصور الشامخة، وأسرف في الصرف على الحفلات، والموائد ومن بينها احتفالات فتح قناة السويس التي كان بعض الملوك والملكات لدول أوروبا من بين المدعوين إليها، وهكذا بلغ مقدار الدين السائد نحو ٢٥ مليونًا من الجنيهات ارتفع في ٧ من مايو عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) إلى ٩١ مليونًا، وأطلق عليه اسم الدين الموحد، يسدد على ٦٥ سنة بفائدة سنوية قدرها ٧٪.

وكان من نتائج التدخل الأجنبي السافر في شؤون مصر المالية، والسياسية أن تحفزت النفوس للتخلص من مساوئ الحكم، والدفاع عن كرامة البلاد، واستقلالها، ومن ثَمَّ قامت النهضة الوطنية والسياسية في مصر ووجدت مبادئ جمال الدين وتعاليمه سبيلاً إلى نفوس الشعب المصري، فظهرت الصحف نشيطة وأقبل الناس على قراءتها، ومن الصحف التي كان للأفغاني يد في إنشائها أو تحريرها جريدة مصر التي بدأ صدورها عام ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م)، وكانت أسبوعية ويرأس تحريرها أديب إسحق (انظر هذه المادة)، وتجلت في هذه الجريدة تعاليم جمال الدين، وروحه الوطنية

الوثابة توضحها المقالات التي كان ينشرها تارة باسمه وتارة أخرى باسم «المزهر بن وضّاح»، كما أسهم الأفغاني في جريدة «مرآة الشرق» وقد تولاها سليم عنحوري ثم إبراهيم اللقاني (انظر مادة الشيخ اللقاني) بإيعاز من الأفغاني، ثم جريدة «أبو نظّارة» ليعقوب صنوع الذي كان على صلة به، وكان لهذه الصحيفة وغيرها فضل كبير في إنارة البصائر، والأفكار، وتوجيه الرأي العام إلى العناية بشؤون البلاد عامة وإلى التبرم بحالتها المالية والسياسية، ونفخ الأفغاني من روحه في صدور بعض أعضاء مجلس شورى النواب، وعلى رأسهم النائب عبد السلام المويلحي أحد تلاميذه الأفذاذ، وقد ظهرت هذه الروح في المعارضة القوية في ذلك المجلس كما ظهرت في ثورة الجيش على وزارة نوبار باشا في ١٨ من فبراير عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، وكان نوبار قد أسرف في ممالأة الدائنين الأجانب، وعين كثيرًا من الأوروبيين في المناصب الحكومية الهامة وأهدر حقوق الموظفين الوطنيين، وعزل طائفة منهم وأحال على الاستيداع ٢٥٠٠ من ضباط الجيش بحجة ضغط المصروفات، فلم تجد هذه الوزارة مخرجًا سوى الاستقالة في اليوم التالي لثورة الضباط، وتولى رياستها توفيق ابن إسماعيل الذي سلك مسلك العنت إزاء مجلس شورى النواب ثم فضّه.

ولما تولى توفيق الحكم أبرز عمل له أن أقصى شريف (انظر هذه المادة) عن الوزارة، وعطل الحياة النيابية زهاء عامين حتى قامت الثورة العرابية، ثم تنكر لجمال الدين الأفغاني الذي ناصره على أبيه إسماعيل حتى خلع، وأصدر أمره بنفيه فقبض عليه في قسوة خلال ليلة الأحد السادس من رمضان عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) وهو ذاهب إلى بيته، ولم يتمكّن حتى من أخذ ثيابه، ثم حمل في صباح اليوم التالي في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ومنها نقل إلى السويس، وأنزل فيها إلى باخرة أقلته إلى بومباي في الهند، ولم تتورع حكومة توفيق عن رميه كذبًا وبهتانًا بأنه سعى في الأرض بالفساد، وأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجمعة على فساد الدين والدنيا.

ومن عجب أن يصدر قرار نفي الأفغاني من توفيق الذي يظهر له التقدير والاحترام، ومن وزارة كانت تضم الشاعر الكبير محمود سامي البارودي (وزير الأوقاف وقتئذ)، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره، وهذه سقطة سجلها التاريخ للبارودي.

أبعد جمال الدين عن مصر، ولكن روحه الثورية ومبادئه وتعاليمه تركت أثرًا عميقًا في المجتمع المصري، فظلت نفوس الشعب تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم، وإقامته على دعائم الحرية والشورى.

وأقام الأفغاني بحيدر أباد الدكن بالهند، وهناك كتب رسالته في «الرد على الدهريين» باللغة الفارسية، وقد أجبرته الحكومة البريطانية على البقاء بالبلاد الهندية حتى انقضى أمر الثورة العرابية الوطنية، وترجم الإمام محمد عبده رسالة الرد على الدهريي من وإلى اللغة العربية.

وعقب ذلك سمح له بالسفر فذهب إلى لندن، ثم شخص إلى باريس حيث تعلم اللغة الفرنسية وهناك التقى بتلميذه الوفي الإمام محمد عبده الذي كان منفيًّا في بيروت عقب انتهاء الثورة، وفي باريس أصدر جريدة «العروة الوثقى» وقد سميت باسم الجمعية التي أنشأتها وهي جمعية

تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد، والتضامن، والأخذ بأسباب الحياة، والنهضة، ومكافحة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطاني، وقد عهدت هذه الجمعية إلى السيد الأفغاني بإصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها، فكان الأفغاني مديرًا لسياستها، والإمام الشيخ محمد عبده رئيسًا لتحريرها، وكان مقر إصدار الجريدة بشارع «هارتيل Hartel» رقم ٦ بباريس، ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عددًا، ظهر أولها في ١٥ من جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ (١٣ مارس ١٨٨٤م)، وكانت تعبر عن الروح الثائرة المصممة على نيل الحرية، والاستقلال للشعوب العربية في عبارات غاية في البلاغة وقوة الأسلوب والتركيز على مساوئ الاستعمار الإنجليزي وما يجره على الناس من ويلات، وكوارث، وحث أفراد الشعب على الكفاح، والجهاد للحصول على الاستقلال، وممارسة حقوقه المشروعة بين الأمم مع الدعوة إلى الوحدة بين الشعوب الشرقية، لتكون قوة متضامنة في وجه أعدائها ومستغلي ثرواتها وأرزاقها، ومن مقال نشرته جريدة العروة الوثقى في عددها الصادر في ٥ من يونية عام ١٨٨١م (١٠ شعبان عام ١٣٠١هـ)، ما يدعو إلى وحدة الكلمة ويحذر من الشقاق، ما يأتي:

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم، وعظمتها ورفعتها، واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقي بوانيه إلى أجل مسمى أودع في ضآضئه هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقًا سويًّا ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى الأجل».

وبعد توقف جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان، وعاد الإمام محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م)، حيث انقطع عن الكفاح السياسي، وانصرف إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، واستمر جمال الدين على كفاحه السياسي في غير كلل، وجرت له أبحاث مع الفيلسوف الفرنسي «إرنست رينان» الذي ألقى محاضرة في جامعة السربون زعم فيها أن إنتاج العرب الفكري أقل من الأمم الأخرى، وعلل ذلك بأن الدين الإسلامي لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، وقال إن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، فردّ عليه الأفغاني في جريدة «الديبا الفرنسية» ردًّا حاسمًا فأثبت أن الإسلام بعيد عن الجمود الفكري، وأن الاضطهاد الذي قال عنه رينان قد وقع مثله في الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن، وأضاف أن الإسلام أخذ يسير في التقدم العلمي، والفكري بعد خروجه من البداوة ويسرع السير في هذا المجال بكيفية لا تدانيها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلوم تقدمًا مدهشًا بين العرب وفي كل البلاد التي انضمت لسيادتهم.

وفي أوائل فبراير عام ١٨٨٦م (جمادى الأولى ١٣٠٣هـ)، لبى دعوة شاه إيران ناصر الدين شاه، فسافر إلى طهران فاستقبله الشاه في حفاوة وجعله مستشاره الخاص في إصلاح شؤون بلاده، فأشار بتغيير كل شأن معيب في الحكومة، ونصح بضرورة اشتراك الشعب الإيراني في الحكم، فلم يكن من الشاه إلا أن تنكر له، فبادر الأفغاني إلى السفر إلى روسيا حيث قابل القيصر، وكتب عدة مقالات في الصحف الروسية، وحدث مع القيصر مثل ما حدث مع الشاه

حينما صارحه جمال الدين برأيه في الحكم الشوري الذي لم يكن القيصر يستسيغه، فرحل عن روسيا وأخذ يتجول في أوروبا ثم عاد إلى إيران مرة أخرى بعد مقابلته للشاه في ميونخ عاصمة بافاريا، وقد استعان به الشاه على إصلاح أحوال مملكته، وسن لها القوانين الكفيلة برفع مستوى شؤونها، وقد وضع الأفغاني مشروع دستور يجعل الحكم ملكيًّا دستوريًّا، غير أنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ في الحكومة، وخاصة الصدر الأعظم، ولما عاتبه الشاه على وضع هذا الدستور الذي يقيد سلطته المطلقة جابهه بعبارته المشهورة: «لا شك أن الشاه يعلم أن أمة استطاعت أن تعيش دون أن يكون على رأسها ملك، ولكن الشاه لم يعلم أن ملكًا عاش بدون أمة ورعية».

ورحل الأفغاني عقب ذلك إلى البصرة مريضًا، وبعد شفائه ذهب إلى لندن حيث تلقاه الإنجليز الأحرار بالإكرام، وهناك حمل على سياسة شاه إيران وعدَّد مساوئ حكمه، ودعا الأمة الفارسية إلى خلعه، وكان من جراء هذه الدعوة أن ثار الشعب الإيراني ونتج عن ثورته قتل الشاه ناصر الدين عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م)، واتهم الأفغاني بالتحريض على قتله.

وكان جمال الدين قد تلقى من الباب العالي العثماني كتابين بدعوته إلى الآستانة، فذهب إليها عام ١٣١١هـ (١٨٩٢م) في عهد السلطان عبد الحميد زعيم الملوك الاستبداديين في ذلك الحين، وقد لبى الدعوة آملاً أن يهدي السلطان إلى الطريق المستقيم، فيصلح من حال الدولة العثمانية، ويمنحها الحكم الدستوري القويم، غير أن الشيخ أبا الهدى الصيادي الذي كانت له الحظوة عند السلطان بادر إلى الوشاية به، ووجدت هذه الوشاية أذنًا صاغية من عبد الحميد الذي كانت الوشاية والجاسوسية من دعائم كيان حكمه، فبعد أن أسكن الأفغاني منزلا فخمًا بحي «نشان طاش» وأجرى عليه راتبًا كبيرًا، استمع لوشاية أبي الهدى، وأحاط الأفغاني بجواسيسه، ويقال إن سبب هذه الجفوة استمرار جمال الدين على القدح في حق ناصر الدين شاه إيران، وذلك في مجلس السلطان عبد الحميد، ولما رجاه السلطان أن يكف عن هذا الذم أخذ يعبث بمسبحة بين يديه ثم صاح «إني أعفو عن الشاه امتثالاً، لإشارة أمير المؤمنين، ولدى خروجه ذهب إلى مكتب كبير الأمناء الذي لامه على عبثه بالمسبحة في حضرة السلطان فقال جمال الدين «سبحان الله إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة، وليس من يعترض منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق في أن يلعب بمسبحته كيف يشاء»، فترك كبير الأمناء حجرته مهرولاً خائفًا من هذه العبارة ونتائجها الوخيمة.

ولما قُتِل شاه إيران ناصر الدين عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) كما تقدم اشتدت الريبة في الأفغاني، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله، فأمر السلطان عبد الحميد بتشديد الرقابة عليه، ومنع الاختلاط به فأصبح سجينًا في قصره.

وبعد قليل من ذلك التاريخ مرض جمال الدين وشُخّص المرض بأنه سرطان في فمه، وقد أمر السلطان طبيبه الخاص «قمبورزاده إسكندر باشا» بإجراء العملية الجراحية فتولاها، ولم تمض غير أيام حتى فاضت روح الحكيم الفيلسوف الإسلامي إلى ربه بعد جهاد مجيد في سبيل الأمة الإسلامية خاصة والعروبة عامة، ويقال إن الجراح تعمد أن يبقى الجرح ملوثًا، إذ لم يقم بتطهيره على الوجه الأكمل، ويؤيد ذلك قول المستشرق الكونت «لاون استرووروج» الذي كان صديقًا لجمال الدين، وقد زاره عقب العملية الجراحية فرجا منه إرسال

جراح فرنسي مستقل الفكر، طاهر الذمة لينظر في عقب العملية، فأرسل إليه الدكتور «لاردي» فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وقد عاد الطبيب الفرنسي إلى المستشرق «استروروج» وأخبره بهذا الأمر المحزن، وكانت وفاته خلال عام ١٣١٥هـ (١٨٩٨م) بالغًا من العمر ٦٠ عامًا.

وكان رحمه الله مخلصًا في عروبته، وكان ربعة في طوله، وسطًا في بنيته، قمحيًّا في لونه، عصبيًّا دمويًّا في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليلاً في النظر، هشًّا بشًّا عند اللقاء، كامل الخلق، سليم القلب، حليمًا، كريمًا، قوي الاعتماد على الله، عظيم الأمانة، طموحًا إلى مقصده السياسي، قليل الحرص على الدنيا، بعيدًا عن الغرور بزخارفها، عزوفًا عن صغارها، شجاعًا مقدامًا لا يهاب الموت، حديد المزاج، فخورًا بنسبه إلى سيد المرسلين، عالي النفس حتى في الشدائد.

وكان حنيفيًّا حنفيّ المذهب غير مقلد في عقيدته، ولكنه لم يفارق السنّة الصحيحة، مع ميل إلى التصوف، وبذل رسالته في الرد على الدهريين على أنه مؤمن صادق الإيمان بدعم العقيدة الإسلامية بالمنطق والحكمة العقلية، فهو فيلسوف من أعلام فلاسفة المسلمين.

وكان رحمه الله واسع الأفق والعلم في المسائل السياسية والاجتماعية، يؤيد في قوة صلبة مبادئ الاشتراكية الإسلامية غير المتطرفة، ومن أقواله المأثورة الخالدة على مر الأعوام:

«شر أدواء الشرق داء انقسام أهليه، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على ألاّ يتفقوا».

«إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال، لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر، وكذلك الاستقلال، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار».

«لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزّ لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني، بدايته الوطن، ووسطه الوطن، وغايته الوطن».

«الدخول من باب الذلّ لا يثمر غير الذل، ومعشر الشرقيين في الفقر خوف الفقر، وفي الموت خوف الموت».

«ينتصر الحق، ويخذل الباطل، وإن طاوله الكرم، وأمهله العفو، ومدّه الغرور».

«بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان عليهم نهايته».

«أعتقد أن السجن في طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفي في ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة وهي أسمى المراتب».

«الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان، وعلم قليل مقيد في الصدور يعمل به خير من علوم كثيرة مسطورة في الكتب ولكن لا يعمل بها».

«أضعف ما في هذا العصر: حق لضعيف لا قوة له، وأقوى شيء: باطل لقوي يجعل باطله حقًّا ولا خير في حق لا تدعمه قوة، وصاحب الحق قوي، ولو كان ضعيفًا، والمبطل ضعيف ولو كان قويًّا».

٣٧٧- الاقبال - شارع - بقسم الرمل (الميثاق حاليًّا)

الإقبال ضد الإدبار وهو من فعل قبل، وأقبل اليوم صار آتيًا غير بعيد، وأقبل القوم أصابتهم ريح القبول، والإقبال يعني اليُمن والسرور والفرح.

أما الاسم الجديد، فانظر ترجمته في «الميثاق».

٣٧٨- امام ابراهيم - شارع - بقسم ألعطارين (سيزار سابقًا)

هو إمام إبراهيم بدوي، ولد ببلدة شطوط التابعة لمركز ببا بمديرية بني سويف (محافظة بني سويف حاليًّا) وذلك بتاريخ ٢٢ من سبتمبر عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ)، والتحق بشرطة الإسكندرية في ٨ من مايو عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ)، ورقي إلى رتبة الرقيب، وهو يعمل بفرقة الإطفاء، ثم نقل في ١٧ من أغسطس عام ١٩٦٣م (١٣٨٣هـ) إلى قسم المباحث العامة، حيث استشهد وهو يؤدي وظيفته في حفظ الأمن قيامًا بواجبه.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في كلمة «سيزار».

٣٧٩- الامام الأعظم - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو حنيفة ابن ثابت بن زوطي، ويلقب بالإمام الأعظم، ويكنى بالنعمان، أما ترجمة حياته فاطلبها في كلمة «أبو حنيفة».

٣٨٠- إمام الحرمين - شارع - بقسم الجمرك

اسمه الكامل هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن حيُّوية الجويني الملقب بإمام الحرمين (انظر مادة الجويني)، والمكنى بأبي المعالي النيسابوري لاستقراره بمدينة نيسابور، وقد ولد في قرية «بشتنكان» بالقرب من نيسابور في ١٨ من شهر المحرم عام ٤١٩هـ (٢٢ من فبراير عام ١٠٢٨م).

ومن تسميته بالجويني وإقامته بنيسابور معظم سنين حياته يستبين أنه من أصل فارسي، غير أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن والده من قبيلة طيىء العربية، ومن ثَمَّ فهو من دم عربي أصيل، ويستطاع الجزم بعروبته.

وجوين التي ينسب إليها إمام الحرمين الجويني ناحية من نواحي نيسابور على طريق القوافل من بسطام، وتقع بين جاجرم وبيهق وهي مشهورة بعلمائها، وأهلها من ذوي الصيت الذائع، وينسب إليها عدد من العلماء والفقهاء البارزين من بينهم ولد صاحب هذه الترجمة الشيخ عبد الله ابن يوسف الجويني الفقيه الشافعي المشهور الذي درّس في جوين ثم في نيسابور ومروا واستقروا في نيسابور عام ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وهناك عُيِّن مدرسًا، واكتسب شهرة فائقة حتى

قيل عنه كما قيل عن الغزالي فيما بعد أنه لو كان هناك نبي بعد خاتم الأنبياء والرسول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لكان عبد الله الجويني.

وقد لقّب عبد الله بن يوسف بشيخ الحجاز، وكان صوفيًّا فاضلاً اشتغل بالعلم، والحديث وصنف كتبًا في التصوف، وقد ولد هو أيضًا بناحية جوين، ورحل في طلب العلم ثم استقر بنيسابور، وذكره كثير من المترجمين وأفاضوا في بيان تقواه وعلمه وفضله، وكان له أعمق الأثر في توجيه ولده عبد الملك نحو التعمق في تحصيل العلوم الإسلامية وتكريس حياته لخدمة الدين وتوفي عام ٤٣٨هـ (١٠٤٦م).

وتحت تأثير هذا التوجيه الديني قضى عبد الملك الجويني حياته في نشر العلوم الدينية والإلهية وإعلاء شأن الإسلام فجمع فيما ألف وتحدث، وأبدى من آراء بين سلامة المنطق، ومتانة القول والرد السديد القوي على خصومه فأظهر الحق وأزهق الباطل وأعلى شأن الدين، وهزم خصومه.

وقد أتقن في دراسته المستفيضة العلوم الإسلامية المختلفة مما رفع مكانته إلى مرتبة الأئمة المحققين في سن مبكرة من حياته إذ تميز في هذه السن برجاحة العقل، والميل إلى النقد، وحب البحث والتمحيص، ولذا كان يرفض في قوة وإصرار كل ما يتنافى مع المعقول والمنطق السليم ولو كان صادرًا عن والده.

وكان إمام الحرمين مُناظِرًا بارعًا، ومساجِلاً بليغًا يسير في سياق مناظراته كالسيل المتدفق لا يقف في مجراه عائق لدحض آراء خصمه.

وعقب وفاة والده عام ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) جلس مكانه للتدريس بمدرسة نيسابور وهو في سن العشرين، ولم ينقطع عن التحصيل والاستزادة من التثقيف، فلازم أبو القاسم عبد الجبار الإسفراييني ليتضلع في الفقه، وعلم الكلام على المذهب الأشعري (انظر تفصيل هذا المذهب في مادة الأشعري «أبو الحسن») ولينهل من علوم القرآن الكريم وتفسيره على الخبازي، وكان يتولى في مدرسة نيسابور تفسير المذهب الشافعي (انظر مادة الشافعي) والدفاع عن العقيدة الأشعرية، ولا سيما ضد الذين كانوا يعملون على امتهان المذهب السنّي؛ مما أدى إلى ظهور العديد من الفتن وتأزم الأمور بين السُّنِّيِّين وطوائف الشيعيين.

وانقسمت الدولة العباسية في عهده إلى دويلات، وشرعت دويلة خراسان تجور على جاراتها من الدويلات، وتبعًا لذلك استطاع البويهيون أن يبسطوا سيطرتهم على الخلافة العباسية لما أصابها من ضعف ووهن، وكان من أشد المناهضين للخلافة العباسية الخليفة الفاطمي، وهكذا اشتد الصراع بين الخلافة العباسية السنية، والخلافة الفاطمية الشيعية، وترتب على ذلك نجاح الفاطميين في حمل بعض الدويلات على اعتناق المذهب الشيعي علاوة على تسلط البويهيين وهم شيعيون على الخلافة العباسية، ولذا أطلق على ذلك العصر عصر اضطهاد أهل السنة.

وبقيت البلاد التي تدين بالطاعة للبويهيين على تلك الحال زهاء قرن من الزمن حتى ظهر السلجوقيون في خراسان – وهم من أهل السنة – واستتب لهم الأمر فيها عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م).

وكان من جراء الفتن بين الطوائف الدينية انتشار الفوضى، والاغتيال في نيسابور، فهاجر الجويني إلى بغداد وجلس فيها لمناظرة كبار علمائها وعمل على تثبيت أمور العقائد الدينية جهد طاقته، وكان يصاحبه العالمان المشهوران «القشيري، والبسطامي» (انظر هاتين المادتين)، وكان ذهاب الجويني ورفيقه إلى بغداد وقت دخول الجنود الغز الأتراك إليها وقد جاؤوا مع طغرل بك عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، ومن ثم يتضح أن الجويني غادر نيسابور خلال عام ٤٤٦هـ (١٠٥٤م).

ولم يمض وقت طويل حتى ذاع صيته في بغداد، ولكنه لم يمكث بها طويلاً وسافر إلى مكة، وأقام بها أربع سنوات يناظر ويفتي وينشر العلم، محاولاً أن يدخل الطمأنينة على نفوس المسلمين، وقد استبد بها القلق بسبب سياسة البويهيين الشيعية، وفي هذه الفترة حرص المسلمون على تلقيبه بإمام الحرمين تكريمًا له واعترافًا بجهوده الموفقة في هداية الناس إلى طريق الحق بالبراهين والحجج التي تؤيد مذهبه الأشعري السنّي، وكان يكرس الليل للتعبد وتخليص النفس من المادة وشوائبها.

وفي نهاية السنوات الأربع عاد إلى نيسابور، وكانت نوبة التعصب بين السنيين، والشيعيين قد هدأت ولا سيما إثر اعتلاء «ألب أرسلان» الحكم في نيسابور الذي بادر إلى إرجاع شيوخ الأشاعرة الذين هاجروا، وكان ذلك عام ٤٥١هـ (١٠٩٥م)، وكان السنيّون في هذه البلاد قلة مستضعفة، والشيعيون يكوّنون الأغلبية، غير أنه من حسن الحظ أن يتخذ «ألب أرسلان» نظام الملك وزيرًا له، فرأى بثاقب فكره أن القضاء على الفتن إنما يأتي عن طريق التوعية الدينية ونشر التعليم، فأسرع إلى تشييد المدارس في نيسابور، وبغداد، وهراة، وأصفهان، وبلخ، والبصرة، ومرو، وآمل، وطبرستان، والموصل، وذلك علاوة على المدارس التي كانت قائمة بمدينة نيسابور مثل مدرسة البيهقي، والسعدية وغيرهما، وعين الوزير نظام الملك لهذه المدارس أئمة سنيين للتدريس والفتوى والوعظ، فكان على رأس مدارس نيسابور الجويني صاحب هذه الترجمة وعلى رأس مدارس بغداد (النظامية) أبو إسحق الشيرازي، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر أثر هذه المدارس القوي في تثبيت المذهب السنّي، وتقوية دعائمه، وبالتالي تقوية دعائم الدولة السلجوقية السنية.

ويدل تاريخ سيرة الجويني على أنه أكب على تأليف أكثر كتبه في هذه الفترة من حياته الفكرية ومعظم هذه الكتب تتناول علوم الفقه، والكلام، والجدل، والخلاف وما إليها.

ولم تكن العلوم في حالة ركود في ذلك العهد على الرغم من قيام الفتن والاضطرابات، فالخلفاء العباسيون لم يألوا جهدًا في تشجيع العلم والعلماء، فأمروا بنقل الفلسفات اليونانية، والهندية، والفارسية إلى اللغة العربية، ووجهوا عناية حادبة إلى العلوم الإسلامية وقد اقتفى أثرهم أمراء الدويلات في العصر العباسي الثاني.

وكانت دار الكتب «النظامية» في نيسابور حافلة بأمهات الكتب، وروائع المؤلفات، وما من شك في أن الجويني قد أفاد من كل ذلك واطلع على الكتب الفلسفية التي كانت هذه الدار تضمها ومن بينها كتابي أبي عبد الله المعصومي وعمر الخيامي (انظر هذه المادة) في الفلسفة، والواقع هو أن ذلك العصر كان حافلاً بالعلماء الدارسين للعلوم الفلسفية، وأن المصنفات الفلسفية كانت منتشرة بين أهل العلم ينهلون من مواردها وكان نيسابور كثير من هؤلاء العلماء.

وظل الجويني يدرس بالمدرسة التي أنشأها الوزير نظام الملك خاصة به وسميت بالمدرسة النظامية إلى أن مرض وتوفي في مسقط رأسه في ٢٣ من ربيع الثاني عام ٤٧٨هـ (٢٠ من أغسطس عام ١٠٨٥م) عن حوالي ٦٤ سنة.

وبلغت مصنفاته من الكثرة حدًّا جعل السبكي (انظر هذه المادة) يذهب في كتابه طبقات الشافعية إلى أنه لا يمكن تعليل هذه الكثرة إلا بمعجزة، ولم يدع كتاب من كتبه ذيوعًا كبيرًا يضارع تقدير الناس لعلمه وفضله، واشتمل مؤلفه «كتاب البرهان في أصول الفقه» على معضلات جمة، وقد نحا فيه نحوًا جديدًا، ويستبين من موضوع هذا الكتاب أنه ألّف لبيان أصول البحث في موضوع يخص الاجتهاد والإفتاء، ومن أعظم مؤلفاته «كتاب الورقات في أصول الفقه» وهو موجز قيم في هذه الأصول، وفي أصول الدين صنف الجويني «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» وقد بحث فيه أهم مسائل أصول الدين ممهدًا لها ببعض فصول في النظر، ووجوبه وحقيقته، هذا إلى جانب كتب عديدة في الفقه الشافعي، وفي أصول الجدل، وفي بعض الموضوعات الأخرى مثل كتاب «النفس»، وديوان خطبه المنبرية التي اشتملت على مواعظه، وله قصيدة ضمنها وصاياه لابنه.

ومن الغريب أن أحد الذين أطلق عليهم أهل الإسكندرية (أولياء الله الصالحين) يحمل اسم «محمد إمام الحرمين» ولا يعرف شيء عن تاريخ حياة هذا الوليّ ولا عن سبب تسميته (بإمام الحرمين)، وكان ضريحه في سعة أحد شوارع الإسكندرية فأزيل لاستطاعة توسيع الشارع وامتداد استقامته، وقامت البلدية بإجراءات نقل رفاته، إن كانت قد وجدت بالفعل، إلى مجمع الأضرحة الكائن بجوار مسجد سيدي أبي العباس (انظر هذه المادة) وذلك في بداية العقد الرابع من القرن العشرين، إذ قرر المجلس البلدي الموافقة على اقتراح المرحوم أحمد صديق (انظر هذه المادة) مدير عام البلدية الأسبق بنقل جميع الأضرحة الواقعة في سعة شوارع المدينة إلى هذا المجمع الذي شيد بشكل هندسي جميل.

٣٨١ - الإمام مالك - شارع - بقسم العطارين

هو مالك بن أنس بن عامر الأصْبحي، كان أبوه يمنيًّا من قبيلة ذي أصْبح، وأمه عربية، ينتهي نسبها إلى قبيلة الأزد، وقد نزل جدّه بالمدينة متظلمًا من بعض ولاة اليمن، واتخذها مستقرًّا له، وأرجح الروايات هي القائلة بأنه ولد بالقرب من عام ٩٣هـ (٧١١م)، وقد نشأ الإمام مالك في أسرة زادُها العلم، فقد كان جدّه من التابعين الذين رووا الحديث عن عمر، وعثمان، وطلحة، والسيدة عائشة، وكان عمّه أبو سهيل حجة في رواية الحديث أيضًا، ومن ثَمَّ لم يكن من المستغرب اتجاه مالك إلى العلم ينهل من ينابيعه حتى يرْتوي، وساعد على ذلك بيئة المدينة المنورة بيئة الرسول عليه السلام وموطن الشرع الإسلامي، وقد حفظ القرآن، وتاقت نفسه إلى حضور مجالس العلم، وكانت أمّه تساعده على تحقيق هذه الرغبة فتُلبسُه أحسن الثياب، وتضع العمامة فوق رأسه، وتحثّه على أن ينهل من العلم ما وسعت طاقته الفكرية، وكان الشيخ الذي اختاره لتثقيفه وتهذيبه هو الشيخ ابن هرمز الذي يقول الإمام مالك أنه جالسه سبع سنوات، في علم لم يبثه لأحد من الناس، وإن شيخه هذا كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء، وبما اختلف فيه الناس (انظر مادة سيدي عبد الرحمن)، وجدّ الإمام في طلب العلم واسترخص في تحصيله كلّ غالٍ، ونفيس، ويتحمّل في سبيله كل مشقة،

فكان يتحايل على لقاء التابعين الذين سمعوا الحديث النبوي عن الصحابة أو أهل البيت ويجمع ما يقولون في ألواحه، ومن كل ما تقدم يتضح أن الإمام مالك بدأ يجمع الأحاديث وتدوين فتاوى الصحابة والتابعين وبهذه الوسيلة أقام الدُّعامة التي بنى عليها فقهه.

وفي وقته كثر الكلام حول العقائد إذ ظهرت فرقة الخوارج، والشيعة بنِحَلِهِم المختلفة من إمامية، وزيدية، وكيسانية، وغيرها، وظهرت طائفة المعتزلة ومنهج تفسيرهم للنصوص المتعلقة بالعقيدة، كما ظهرت النّحَل الأخرى التي انشقت على الإسلام، وقد تلقّى الإمام مالك معلومات وافية عن كل هذه الطوائف من أستاذه عبد الرحمن بن هرمز ولكنه لم يُذعْها على تلاميذه فكان يُقْصِر تدريسه على أحاديث الرسول وفتاوى الصحابة، ولذا كان لا يخيب عن استفتاء إلاّ إذا كان في مسألة واقعة، ولا يجيب عن أمور غير واقعة، ولو كانت متوقعة، ففيما يتعلق بفتاوى الصحابة والتابعين تعلّم فتاوى عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر، وزيد ابن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وغيرهم ممن تصدوا للفتوى، أو شاهدوا التنـزيل الحكيم، وجالسوا الرسول وقبسوا من هديه ونوره، ولم يكتف الإمام بذلك بل اتجه إلى فقه الرأي وكان قد تلقّاه عن بعض فقهاء المدينة المنورة أمثال ربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد، ولم يكن الأخذ بالرأي في المدينة على غرار الأخذ بالرأي في العراق، وإنما كان أساسه التوفيق بين النصوص والمصالح المختلفة، ولذلك لم يكن الإمام يُكثر من الرأي الذي يكثر فيه القياس والتفريع، كما كان يحدث في العراق، ومن المستطاع تقسيم شيوخ مالك إلى قسمين: أحدهما أخذ مالك عنه الفقه والرأي، والآخر أخذ عنه الحديث وآثار الصحابة، وكان يفحص ويمحّص ما يأخذه، فيقتنع ببعضه ويردّ بعضه، وبعد أن وثق من نفسه، ومما تعلّم عن أساتذته، ومحدثيه، ورواتِه بدأ ينقل للناس الأحاديث ويُفتيهم في أمور دينهم، ويرشدهم إلى سواء السبيل، وكان ذلك بعد أن بلغ سن النضوج، وتجمع أكثر الروايات عن سيرته أنه جلس للتدريس والفتوى بعد أن بلغ الثالثة والأربعين من عمره، وكان يجلس أول الأمر في مسجد الرسول ثم أخذ يُلقي دروسه في بيته إثر إصابته بمرض سلَس البول، وبعد ذلك انقطع عن الخروج إلى الناس عندما ألح عليه المرض ولكنه لم ينقطع عن مدّهم بعلمه وفتاواه.

ومن صفات الإمام مالك قوة الحافظة وهي أساس النبوغ، وقوة العقل والوعي وقوة الصبر والجلَد والمثابرة على طلب العلم مستهينًا بما كان يصادفه من متاعب ومشاق، وقوة العزوف عن الأهواء، والشهوات، وقوة الإخلاص للعلم، وكان يطلبه لوجه الله فقط، وكان يكره الجدل في الدين وكثيرًا ما نهى عنه، وكان ذا هيبة وجلال، ويُرجّح كتّاب السيرة أن الإمام كان يرتزق من التجارة ولكن على نطاق ضيق ومن العطاءات التي كانت تمنح إليه من الخلفاء، ولذا كان في بسطة من العيش الرغيد، وقد عاصر ازدهار الدولة الأموية، وعاصر الدولة العباسية في قوتها، وفي عام ١٤٦هـ (٧٦٣م) نزلت بالإمام محنة في عهد الخليفة العباسي المنصور، وذلك بسبب فتواه القائلة «بأنه ليس على مُسْتَكْرَهٍ يمين» فاتخذها العلويون أتباع النفس الزكية حجة لإثبات أن مبايعة المنصور باطلة لأنها أُخذت كرهًا، فضرب الإمام مالك بالسياط وخلعت يده من كتفه، ويظهر أن الخليفة المنصور لم يأمر بما حدث للإمام، ولم يعلم بما حدث له من جرّاء هذه

المحنة، وفي بعض الروايات أن المنصور كان يعلم ولكنه أراد تضميد الجُرح فقال لمالك عندما أدى فريضة الحج «والله الذي لا إله إلا هو، ما أمرت بالذي كان، ولا علمتُهُ، ولقد أمرت بالوالي وأن يُؤتى به ولابد أن أُنْزِل به من العقاب أضعاف ما نالك منه»، ولكن سماحة الإمام أبت إلا أن يرجو الخليفة في الصفح عن واليه ففعل، وهكذا خرج مالك من المحنة مكرّمًا وزاد بها رفعةً عند الخليفة، وعند الناس، وقد طلب الخليفة منه أن يكتب آثار الرسول والصحابة ومجموع الأقضية والفتاوى لينشرها بين الناس قانونًا، وعاش الإمام مكرّمًا محفوفًا بالمهابة والإجلال، وكان يُسْدي النصح للولاة وإلى الخلفاء أيضًا، وكانت وفاته بالمدينة خلال عام ١٧٩هـ (٧٩٥م) بالغًا من العمر حوالي ٨٥ عامًا.

وكان زمانه زمان اضطراب في الآراء الفقهية وفي العقيدة نفسها، فمن الناس من كان يقول بأن الإنسان مجبر لا مختار، ومنهم من يزعم أن مرتكب الكبائر كافر، وآخرون يزعمون أن المعصية لا تضرّ مع الإيمان، وأن الطاعة لا تنفع مع الكفر، وكان هناك الذين يُصرّون على أن الخلافة في عليٍّ وبنيه من فاطمة الزهراء، والذين يقولون إن الخلافة ليست في قبيلة أو بطنٍ أو بيت.

وكان لابد لهؤلاء وهؤلاء من مرشدٍ يدلهم على الصراط المستقيم صراط الله جل شأنه، ولقد سلك الإمام مالك في كل هذه الأمور ما سلكه في الفقه والحديث، فقرر وجوب اتباع السنة ومنهج السلف الصالح، والاعتقاد بأن الإيمان قولٌ وعقيدةٌ وعمل، والإيمان بالقدر خيره وشرّه وأن الإنسان حرّ مختار ومسؤول عما يفعل إنْ خيرًا وإن شرًّا وأن مرتكب الكبيرة يعذب بمقدار معصيته، ويغفر الله له إن شاء، وقد ثارت في زمانه مسألة خلق القرآن أثارها الجَوْر بن درهم عن رجل يهودي، فقرر الإمام أن القرآن وخلقه مسألة لا يجب الخوض فيها لأنها بذور فتنة بين المسلمين، وأنكر المعتزلة رؤية الله يوم القيامة، فقال الإمام برؤيته دون التعرض لكيفية الرؤية، وكونها كرؤيتنا في الدنيا لأنها ستكون على نحو آخر يليق بذاته تعالى، وفي السياسة كان يُقر عمل الخلفاء الراشدين جميعًا ويرى أن الخلافة مُشاعة بين الناس وليست لبيت من قريش أو لبيت علوي بشرط المبايعة الحرة التي لا إكراه فيها، ويجعل كتاب الله فوق كل الأدلة لأنه أصل الشريعة وحجتها وسجل أحكامها الخالدة إلى يوم القيامة ويقدمه على السنّة وعلى ما وراء السنة، فهو يأخذ بنصّه الصريح الذي لا يقبل التأويل، ويأخذ بظاهره الذي يقبل التأويل ما دام لا يوجد دليل من الشريعة نفسها على عدم تأويله، وكان يرْوي الحديث بسنده ثم يردّه لأنه يخالف كتاب الله، وكان يأخذ بالقياس الاصطلاحي الذي هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمرٍ آخر منصوص على حكمه.

وأُثر عن الإمام رسائل علمية مختلفة دوّنها تلاميذه، ومنها كتاب «المجالسات» لابن وهب سطّر فيها ما سمعه من أستاذه، والكتاب الذي لا يشك في أن الإمام ألّفه هو «الموطأ» الذي جمع فيه روايات من السنّة، وقد بدأ في كتابته خلال عهد أبي جعفر، وتمّ في عهد الخليفة المهدي، وحاول هارون الرشيد أن يجعله قانونًا ويُعلّق نسخة منه بالكعبة ليعلمه الناس جميعًا غير أن الإمام لم يرض عن ذلك، والموطأ كتاب حديث وفقه.

وانتشر المذهب المالكي في الأقطار – وخَمُل بعض الوقت في الحجاز – ونشره في مصر تلاميذ الإمام، ونازعه المذهب

الشافعي السلطان فيها، وفي تونس غلب عليه المذهب الحنفي بعد انتشاره، وكان في الأندلس صاحب السلطان، ومازال المذهب السائد في القطر الجزائري حتى الآن، وهكذا يُلاحَظ أن المذهب المالكي انتشر في غرب البلاد الإسلامية ولم ينتشر إلا قليلاً في شرقها، وذلك لاستقرار كثير من تلاميذ الإمام مالك بمصر وتونس وتغلغل منهما إلى الغرب حتى المحيط الأطلنطي.

وقال الإمام مالك عن نفسه «نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لي أمي: يا بنيّ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلْتَفَت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه القبح، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجلّ هذا المبلغ».

ومن المستطاع القول في غير تردد أن الإمام مالك مؤسس وموطّد مدرسة أهل الحديث التي هي امتداد لمدرسة الحجاز التي ترجع في أصلها إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ثم إلى ابن عمر وابن ثابت وابن عباس، وغيرهم من الصحابة، والتابعين من بعدهم، ومن ثَمَّ كان مالك حجة في الفقه وثقة في الرواية حتى لقّب عن جدارة بإمام المدينة، وإمام الحجاز، ومفتي الحرمين، وعالم العلماء، وقد صار مثلاً يُضرب في إفتائه الصحيح فيقال «لا يُفتَى ومالك في المدينة»، وهكذا عُدّ الإمام عالِمًا في الحديث والسنّة والفقه جميعًا، وكان له الفضل في تدوين الحديث والسنّة تدوينًا علميًّا في مصنّفه المشهور «الموطأ» وفي تثقيف جيل من الأئمة، وأشهرهم الإمام محمد ابن إدريس الشافعي، الذي أقر بفضله وبقيمة مصنّفه فقال: ما على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك، مالك حجة الله تعالى على خلقه بعد التابعين، ومالك معلمي وعنه أخذنا العلم، وإذا جاءك الحديث عن مالك فشدّ به يدك، وإذا جاء الأثر فمالك النجم.

ويقول ابن خلدون (انظر هذه المادة) إن سبب انتشار مذهب مالك في الأندلس والمغرب العربي هو أن رحلة فقهاء هذه البلاد كانت غالبًا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دارٌ للعلم. . . ولم يكن العراق طريقهم فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة. . . وأيضًا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب، والأندلس، ولم يكونوا يعاينون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميَل لمناسبة البداوة، ومازال المفتي المالكي هو المفتي الأكبر في سائر بلاد القطر الجزائري، ومازال انتشار المذهب المالكي واسع النطاق غالبًا على أهل مراكش، وتونس، وليبيا، وواسع الانتشار في صعيد مصر، والسودان، والبحرين، والكويت وله أتباع كثيرون في كافة البلاد العربية والإسلامية ويبلغ عدد أتباع الإمام مالك في العالم اليوم قرابة خمسين مليونًا أو أكثر، ويزداد عددهم على مرّ السنين.

وكان للمذهب المالكي انتشار خاص بين مشاهير الفلاسفة المسلمين، منهم ابن رشد، وابن العربي من فقهاء المالكية، ومنهم حجة الإسلام الغزالي الشافعي، الذي تأثر بمذهب مالك في كتابه «المُسْتَصفى من علم الأصول»، إذ أخذ بمبدأ الاستصلاح القريب من أصل المالكية في المصالح المرسلة، ويشترط مذهب مالك للتعليل بالمصالح المرسلة أن تكون المسألة من مسائل المعاملات لا من مسائل العبادات، وأن توافق المصلحة روح الشريعة، ولا تعارض دليلاً من أدلتها وأن تكون من الضروريات أو الحاجيات لا من الكماليات، أي أن يُقْصد منها المحافظة على الدين، أو النفس، أو العقل،

أو النسل، أو المال، أو إصلاح المعيشة، لا أن تكون واقعة موقع التزيين والتحسين.

وقد نشأ المذهب المالكي بالمدينة موطن الإمام مالك، ثم أخذ ينتشر في الحجاز، فالبصرة، فمصر وامتد انتشاره بعد ذلك في شمال إفريقيا العربي، والأندلس، وجزيرة صقلية، وتبعه من أسلم من سكان السودان، وضعف انتشاره بعد ذلك ببغداد في القرن الرابع الهجري، وفي البصرة بعد القرن الخامس، وكان له في خراسان ونيسابور وفي غيرهما أئمة ومدرسون، كما انتشر في بلاد فارس، وفي اليمن، وفي كثير من البلاد الشامية، وكان قد خَمُل بالمدينة فلما تولى قضاءها ابن فرحون سنةً عام ٧٩٣هـ (١٣٩٠م) انتعش ثانية.

وأول من قَدِم بمذهب مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جُمَح، ثم نشره بها عبد الرحمن ابن القاسم، فانتشر في أرجائها أكثر من مذهب أبي حنيفة، لتوفر أصحاب الإمام مالك بمصر، وكان قدوم عبد الرحمن ابن خالد إلى مصر في سنة ١٦٣هـ (٧٧٩م)، وفي عهد الفاطميين فشا المذهب الشيعي بالديار المصرية وعُمِلَ به في القضاء والفُتْيا، ثم عاد الانتعاش إلى المذهب المالكي في الدولة الأيوبية، وبُنيت لفقهائه المدارس، وعُمِل به في القضاء، وفي زمن الظاهر بيبرس أُخذ بنظام القضاة الأربعة، وصار قاضي المذهب المالكي الثاني في المرتبة بعد القاضي الشافعي لأن القضاء في الدولة الأيوبية كان للشافعية، فكان للقاضي الشافعي، نوّاب من المذاهب الثلاثة الأخرى، ومازال انتشار المذهب المالكي في مصر يعادل انتشار المذهب الشافعي ويزيد انتشاره بصفة خاصة في الصعيد.

ولما تولى الحكم في البلاد التونسية المعزّ بن باديس أحد أمراء الدولة الزيرية (انظر مادة المعز) حمل أهل المغرب العربي على المذهب المالكي وكان ذلك خلال عام ٤٠٦هـ (١٠١٦م)، ومن ثَمَّ حسم مشكلة الخلاف في المذاهب، وصارت للمذهب المالكي الغلبة في سائر بلاد المغرب حتى الوقت الراهن.

وكان مذهب الأوزاعي (انظر هذه المادة) هو الغالب على أهل الأندلس إلى أن قدم عليهم من لقوا الإمام مالك مثل زياد ابن عبد الرحمن، والغازي بن قيس، وقرعوس بن العباس وغيرهم، فنشروا المذهب المالكي وتبعهم في نشره يحيى ابن يحيى بن كثير؛ فتفقه عليه عدد لا يُحصى من الأندلسيين وتوفي يحيى سنة ٢٣٤هـ (٨٤٨م).

وعظُم شأن المذهب المالكي في المغرب الأقصى (مراكش) في زمن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الذي تولى حكم دولة المرابطين عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) إذ كان لا يقطع أمرًا في مملكته دون مشاورة الفقهاء المالكيين المقربين إليه، وسلك هذا المسلك عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس دولة الموحدين الذي جمع الناس على مذهب مالك في الفروع، ومذهب أبي الحسن الأشعري (انظر مادة الأشعري) في الأصول.

ويتميز المذهب المالكي بظاهرة الاتزان، والاتساق، والاقتراب من الفطرة وتحقيق الإنصاف بين الناس، ولاسيما في معاملاتهم، وكان الإمام مالك يقول «ليس في الناس أقل من الإنصاف» ومن ثَمَّ كان الإمام ملتزمًا به مداومًا عليه عملاً وتطبيقًا، وكتابه «الموطأ» من أجلّ كتب الفقه، وقيل أن

الإمام الشافعي وصف هذا الكتاب القيم بقوله: «لم يظهر على ظهر الأرض كتاب أصحّ من كتاب مالك بعد كتاب الله».

ومن الأسماء التي أطلقت على الإمام مالك قولهم «أنه العقل»، ومازال هذا العالم الجليل يعيش في وجدان الناس، وسيظل يعيش في وجدانهم؛ لأنه كان أحد الأدلة على أن الإسلام قد أنصف الإنسان وبارك مسيرته على الأرض.

ومما هو جدير بالذكر في سيرته أن جدّه «مالك» كان أحد الذين شقوا طريقهم من اليمنيين ليستقروا في الحجاز، وفي أرض الحجاز المباركة كان له شرف كتابة المصاحف في عهد عثمان بن عفان (انظر هذه المادة)، وكان أحد الأربعة الذين حملوا جثة ابن عفان عقب مقتله.

أما والده أنس فكان مُقعدًا يصنع النبال ويتجر فيها، وقد رُزق بالإمام مالك في واحة تسمى «ذي المروّة» وهي على بعد ١٩٢ كيلومترًا شمالي المدينة المنورة، وكان مالك مُدللاً بين إخوته، ومن ثَمَّ كان ينادَى بكلمة «مُوَيْلك» وكان مولعًا بالطيور، ولاسيما الحمام، وقد قال إن سبب انصرافه عن هذه الهواية أن أباه طرح عليه وعلى أحد إخوته مسألة، فأجاب أخوه عنها وأخطأ هو، فقال له والده مؤنّبًا: «ألهتك الحمام عن العلم»، فغضب، وتفرغ للدرس، وانقطع لابن هرمز لا يخلطه بغيره فكان يحمل التمر في كمّه ويوزّعه على صبيان ابن هرمز ويقول لهم: «إذا سألكم أحد عن الأستاذ قولوا له أنه مشغول»، وذلك ليستأثر بدرس أستاذه دون غيره.

وأخذ بعد ذلك العلم عن عدد كبير من العلماء والفقهاء وظلّ يتلقى الدروس حتى جاء يوم تكلم فيه أستاذه «ربيعة الرأي» في إحدى المسائل فإذا به لا يُقرّه في نفسه وإذا به يقول له: «ما تقول يا أبا عثمان!!»، فما كان من أستاذه إلاّ أن زجره وأنّبه فهجر مالك مجلسه واتخذ له مجلسًا آخر في اليوم نفسه، فاجتمع حوله نحو خمسين طالبًا، ثم تزايد هذا العدد على مرّ الأيام، وكان عمره حينذاك حوالي عشرين عامًا.

ومن ذلك اليوم أخذ مذهبه يتحدد ويتعمق ويلتزم الجانب العلمي في التفكير، فحين يُسأل عن العلم وهل هو فريضة يقول: «نعم، ولكن يُطلَب ما يُنتفَع به»، ويقول: «لا أحب الكلام إلا فيما كان تحته عمل»، ويقول: «من علم أن قوله من علمه قلّ كلامه».

وفي تحليل هذه النظرية العلمية يقول الأستاذ المرحوم أمين الخولي: إن هذه النـزعة العلمية في طلب العلم، والاشتغال منه بما تحته توشك أن تجعله من أصحاب فلسفة الذرائع «البراجماطيقيين» فهو يأمر تلميذه بأن ينظر الذي يلزمه من حيث يُصبح إلى حين يُمسي فيتعلمه، ويكره الاشتغال بما لا تبدو له هذه القيمة العلمية.

وكان لا يميل إلى التصادم العنيف مع أصحاب الطوائف التي انشقت على الإسلام كالخوارج والشيعة وغيرهم، بل كان يقول كلمته فيهم برفقٍ دون الميل إلى التظاهر.

وكان لا يُحجم عن الكتابة إلى بعض الخلفاء والحكام واعظًا، فاستنكر على هارون الرشيد لعبة الشطرنج، ونهى الخليفة المنصور عن رفع صوته في المسجد النبوي.

وله آراء خطيرة في الفكر الإسلامي، ولعلّ أخطرها جميعًا إفتاؤه بأن ما يملك الحاكم ليس له، وقد أفتى بذلك حين أراد هارون الرشيد أن يكفّر عن الحنث في يمين، فأشار عليه العلماء

بعتق رقبة ولكن مالك أفتى بصيام ثلاثة أيام، وحين استنكر الرشيد عليه هذا بأنه ليس من المعدمين قال له: يا أمير المؤمنين إن كل ما في يدك ليس لك فعليك صيام ثلاثة أيام فقط.

وما من شك في أن الإمام مالك وضع بفقهه وجهة نظر استقرت عليها حياة الكثير من المسلمين عبر الأجيال، وذلك من حيث الأحكام، والأولوية، والأعمال، والاستشهاد بالقرآن، والسنّة والقياس، والإجماع، والاستحسان، والمصادر المرسلة، وقد ألقى الإمام مالك ظله على العالم الإسلامي ووصل الاهتمام بمذهبه إلى حد أن دولة الأغالبة في إفريقية (تونس) (انظر مادة ابن الأغلب) كانت تعتبر من يأخذ بغير المذهب المالكي زنديقًا، وقد وصل الأمر بالمذهب المالكي إلى القول بأن الإمام مالك يحكم إفريقية بموطنه وتلاميذه.

وما من شك في أنه كان للمذهب المالكي كل الفضل في القضاء على المذهب الشيعي بكافة فروعه، وفِرَقِه في المغرب العربي كله، وفي مصر بأسرها، وذلك عن طريق تلاميذ الإمام مالك العظيم، فنجا المذهب السنّي الحنيف في هذه البلاد العربية من الفرقة المذهبية العقائدية، وكان المغربي باديس وأستاذه ابن أبي الرجال (انظر هذه المادة) فضل الرجوع إلى المذهب المالكي، ونَشْر لوائه في الأقطار المغربية، وكان للفقهاء المالكيين أمثال ابن أبي رندقة الطرطوشي وتلميذه القاضي سند بن عنان هذا الفضل ولاسيما بالإسكندرية.

رحم الله الإمام الكبير مالك بن أنس وأسكنه فسيح جناته.

٣٨٢- أم صابر (الشهيدة) - شارع - بقسم محرم بك (أديث كافيل سابقًا)

اطلب ترجمتها في «الشهيدة أم صابر».

٣٨٣- الأمير أحمد باشا رفعت - شارع - بقسم كرموز

هو أحمد بن إبراهيم باشا ابن محمد علي، تعلم بالمكتب العالي بالخانقاه الذي كان مخصصًا لتعليم الأمراء، وأولاد الإقطاعيين، وكبار رجال الحكومة وكان مظهرًا من مظاهر التمييز الطائفي في أبشع صورة، ثم أرسل أحمد إلى باريس عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) ضمن أعضاء البعثة الرابعة في عهد محمد علي، وألحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشئت لتعليم المصريين هناك، وبدأ دراسته في ١٦ من أكتوبر عام ١٨٤٤م، وهو عام افتتاح هذه المدرسة، ولم يدخل امتحان النقل إلى السنة الثانية، إذ قرر والده إلحاقه بمدرسة «العلوم والفنون الفرنسية Ecole Polytechnique»، وبعد التخرج عاد إلى مصر في عهد عباس الأول الذي حرمه من ميراث أبيه على غرار أعضاء أسرة محمد علي بدعوى أن تركة محمد علي لبيت مال الحكومة، وحسم النزاع السلطان عبد المجيد الذي أمر عباسًا بإعطاء كل منهم حقه، وكان أحمد هو وأخواه إسماعيل ومصطفى فاضل وعمهم حليم من أنصار سعيد الأول في ولاية الحكم، ومن ثَمَّ أحبطوا الفتنة التي كانت تهدف إلى استدعاء إلهامي باشا من أوروبا لتوليته حكم البلاد خلفًا لأبيه عباس، على خلاف ما تقضي به الفرمانات السلطانية، ولما تولى سعيد الحكم كان أحمد وليًّا للعهد، لأنه كان أكبر أفراد الأسرة سنًّا، ولكنه غرق في النيل عند كفر

الزيات في ١٤ من مايو عام ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ) وأصبح إسماعيل ولي عهد الحكومة المصرية، ويظهر من سيرته أنه كان على علم، وذكاء، وأقرب أبناء إبراهيم الأول شبهًا بأبيه شكلاً وخلقًا.

٣٨٤- أمير الجيوش - شارع - بقسم محرم بك (أمينة شكري حاليًا)

«أمير الجيوش» هو اللقب الذي أضفاه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (انظر هذه المادة) على «بدر الجمالي» (انظر هذه المادة) عندما استنجد به لتخليصه من استبداد المرتزقة الأتراك، وقد حضر إلى مصر على رأس جيش من الأرمن، والتتار، ووضع حدًّا للفوضى، وقبض على زمام الأمور في الدولة وكان ذلك عام ٤٦٦هـ (١٠٧٣م).

أما ترجمة حياته المفصلة فاطلبها في «بدر الجمالي».

وأما ترجمة صاحبة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «أمينة شكري».

٣٨٥- الأمير حسين - شارع - بقسم محرم بك (عمر بن أبي ربيعة حاليًا)

هو حسين بن محمد علي، تعلم بمكتب الخانقاه الذي خصص للأمراء وأبناء الإقطاعيين وكبار رجال الحكومة، وكان رمزًا بشعًا للتفرقة بين الطوائف حتى في التعليم، ودخل حسين بعد ذلك مدرسة الفرسان بمصر، ثم سافر مع البعثة الرابعة عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، وألحق بالمدرسة الحربية المصرية بباريس التي أنشئت لتعليم المصريين وبدأ دراسته في ١٦ من أكتوبر من تلك السنة وهي سنة افتتاح هذه المدرسة، وقد مرض بالرمد الحبيبي عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، ثم شُفِيَ وعاد إلى الدراسة، وظلت الأمراض تعاوده إلى أن توفي بباريس في أوائل عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ)، فنقلت جثته إلى الإسكندرية، ودفن بمدافن الأسرة، بجوار مسجد النبي دانيال، وشيدت أمه استدرارًا لرحمة الله عليه السبيل بشارع جامع البنات بالقاهرة عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) بين قنطرة المسكي وقنطرة الأمير حسين، وقد شيد هذا السبيل من الرخام وجعلت نوافذه من النحاس، وأوقفت الأم عددًا من الأفدنة كبيرًا جدًّا لإنفاق ريعها في وجوه البر، وتلاوة القرآن على روح ولدها، وهذا الوقف كان معروفًا باسم وقف أم حسين.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبه في «عمر ابن أبي ربيعة».

٣٨٦- الأمير حليم - شارع - بقسم الرمل (عديّ بن زيد حاليًّا)

اسمه الكامل محمد عبد الحليم بن محمد علي، وشهرته الأمير حليم، تلقى دراسته الأولى بمكتب الخانقاه الذي كان مخصصًا للأمراء، وأولاد الإقطاعيين، وكبار موظفي الدولة وكان يمثل أبشع ألوان التفرقة الطبقية في مصر لقصر التعليم فيه على أبناء هذه الطبقات دون أبناء الشعب أصحاب البلاد الحقيقيين، وقد أرسل حليم بعد ذلك إلى فرنسا ضمن طلاب البعثة الرابعة عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) وألحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس، وجعل رياستها لوزير الحربية الفرنسية، وخوّله حق اختيار ناظرها وأساتذتها، وبدأ حليم تعليمه بهذه المدرسة في ١٠ من يونية عام ١٨٤٥م

(١٢٦١هـ)، ثم انتظم في القسم المدني الذي افتتح بأحد أقسام المدرسة، ثم ألحق بعد ذلك بمدرسة العلوم والفنون المختلفة بباريس وعاد إلى مصر في عهد أخيه الأكبر إبراهيم الأول، ولما تولى عباس الأول الحكم حرمه هو، وأفراد الأسرة من ميراث محمد علي، فرفعوا أمرهم إلى السلطان عبد المجيد فنال كل واحد منهم حقه، وعضد حليم أخاه سعيد في تولية حكم مصر، فلما استقر لسعيد الأمر عَيَّن حليم حكمدارًا عامًّا للسودان، فقام برحلة للوقوف على حقيقة منابع النيل وكان تحت إمرته عدة سفن نيلية لهذا الغرض، وقد أجرى حليم عدة تعديلات إدارية بالسودان، فضم بعض المديريات إلى بعضها الآخر، فصارت أربعًا فقط، وكان أول من مهد السبل لوفادة الأوروبيين إلى السودان، فتوغل كثير منهم في أرجائه مستكشفين ومستعمرين، وبعد ذلك عاد إلى مصر، وأناب عنه علي باشا جركس، وعندما صدر الفرمان السلطاني بحصر حكومة مصر في ذرية الخديوي إسماعيل تذمر حليم من هذا الإجراء وسافر إلى الأستانة محتجًّا، ولكنه لم يفلح، وعاش بعد ذلك في تركيا واختير عضوًا في مجلس شوراها، وبقي هناك إلى أن أدركته المنية عام ١٨٩٤م (١٣١٢هـ)، وصار ابنه سعيد حليم صدر أعظم في تركيا.

أما ترجمة اسم الشارع الجديد، فاطلبها في «عديّ ابن زيد».

٣٨٧- أمير رياض جرجس (النقيب) - شارع - بقسم باب شرقي

اطلب ترجمته في «النقيب أمير رياض جرجس».

٣٨٨- الأمير لؤلؤ - شارع - بقسم مينا البصل (الرائد أحمد خليفة أبو العلا حاليًّا)

يحمل لقب لؤلؤ ثلاثة ممن ذكر التاريخ سيرهم وهم:

١) **الأمير لؤلؤ:** كان مملوكًا لسيف الدولة الحمداني (انظر مادة سيف الدولة) ثم صار وصيًّا على أولاده بعد وفاته، وقد حكم إمارة حلب تحت سيادة الفاطميين، وذلك في المدة من عام ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) إلى عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م).

٢) **الأمير لؤلؤ:** كان أمير سر رضوان السلجوقي صاحب حلب، وأتابك ألب أرسلان، وذلك في عام ٥٠٧هـ (١١١٣م) وفي عهده سادت الفوضى بلاد الشام.

٣) **الأمير لؤلؤ بدر الدين:** كان عتيق نور الدين محمود ابن زنكي (انظر مادة ابن زنكي) أتابك الموصل، وقد قضى لؤلؤ قسمًا من حياته يحارب الأمراء المتخاصمين على القلاع، والحصون في بلاد الموصل وما جاورها، وولد عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) وتوفي عام ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) بالغًا من العمر حوالي ٨٠ عامًا، وكان ينشد الشعر أحيانًا.

ولعل المقصود بتسمية الشارع هو «الأمير لؤلؤ بدر الدين» لصلته بابن زكي الذي له تاريخ مجيد في محاربة الصليبيين، ومعاونة صلاح الدين في ذلك.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «الرائد أحمد خليفة أبو العلا».

٣٨٩- أمين باشا - شارع - بقسم العطارين

اسمه الحقيقي «إدوار شنيتزر Edouard Schnitzer» مكتشف ألماني، ومستعمر من أفّاقي المستعمرين لإفريقيا، ولد بمدينة «أوبلن Opplen» بمقاطعة سَكيزيا في ٢٨ من شهر مارس عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ)، ودرس الطب والعلوم الطبيعية في يرسلاو وبرلين وكونجزبرج، وذلك في الفترة من عام ١٨٥٨ إلى ١٨٦٤م (١٢٧٥ - ١٢٨١هـ)، ثم حصل على إجازة الدكتوراة في الطب في مارس من عام ١٨٦٤م، وفي خريف ذلك العام نفسه نزح إلى «أنتيفاري Antivari» التي كانت في حوزة تركيا، وفيها أخذ في مباشرة مهنته، ثم عين في صيف العام التالي طبيب الصحة والمحجر الصحي في «أنتيفاري» ومن ثَمَّ صار مقربًا إلى إسماعيل حقي باشا الذي كان واليًا على شمال ألبانيا، وكانت زوجته من ترنسلفانية.

وفي عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) توفي إسماعيل حقي، فعاش إدوار شنيتزر مع أرملته، ثم تركها في نهاية عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) ورحل إلى الخرطوم، وفي منتصف عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) استدعاه «غوردون باشا» (انظر هذه المادة) حاكم أقاليم مديرية خط الاستواء وعيّنه طبيبًا للحكومة، فبدأ القيام بأعباء هذه الوظيفة من ٧ مايو من العام نفسه، وزعم أنه اعتنق الدين الإسلامي عندما كان في خدمة تركيا وأن اسمه صار «محمد أمين أفندي»، وتقول رواية أخرى أنه زعم أنه تركي الأصل وتلقى العلم في ألمانيا، وفي ٣٠ من إبريل عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) كلفه «غوردون» بحمل رسالة إلى كابرجه ملك أنيور، ثم ذهب من هناك إلى مقابلة «متيسا» ملك أوغندة، وفي ٢٣ سبتمبر من ذلك العام قابل الملك كابرجه، وبعد أن أقام عنده خمسة أسابيع نجح في إقناع هذا الملك بأن يركن إلى السلم، وألاّ يشن الغارات على المحطات المصرية التي أقيمت عبر السودان الجنوبي، وفي ٢٣ من ديسمبر من العام نفسه التقى بالملك متيسا ملك أوغندة.

وفي تلك الأثناء كان «غوردون» قد عُيِّن حاكمًا عامًّا للسودان، فأقام أمين أفندي حاكمًا على أحد أقاليم مديرية خط الاستواء بناء على اقتراح المكتشف الروسي الألماني «يونكر Yunker» وقد أظهر أمين الذي منح رتبة الباشاوية نشاطًا كبيرًا في حكمه لهذا الإقليم، ودفع به شوطًا نحو المدنية، فأخضع الدناقلة السالبين النهّابين، ورفع مستوى التجارة، والزراعة، وزاد في رقعة ولايته، وكان العجز في ميزانية حكومته يصل إلى ٣٠,٠٠٠ جنيه إنجليزي في العام، ولكن بعد ثلاث سنوات من حكمه اختفى هذا العجز، وحقق فائضًا في الدخل بمقدار ١٢٠٠ جنيه، وعندما قطع الثوار المهديون سبل المواصلات بينه وبين مصر اشترى بهذا المبلغ عاجًا وأودعه خزائنه، وفي أوائل الفتنة المهدية عام (١٨٨١ - ١٨٨٢م) (١٢٩٩ - ١٣٠٠هـ) كانت ولايته تشغل مساحة تمتد حوالي ٤٠٠ ميل من الشرق إلى الغرب و٣٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، وخلال ثورة المهدي قطع أمين باشا صلته بالحكومة المصرية، ولاسيما في عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) أي عقب الثورة العرابية، والاحتلال الإنجليزي الغاشم لمصر، وعندها استبانت نواياه الاستعمارية على حقيقتها.

وفي ربيع عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) كان كرم الله قائد الجيش المهدي قد فتح إقليم بحر الغزال، وطلب من أمين باشا التسليم، فرفض ومن ثَمَّ أخذ مركزه يتحرج، مما أجبره على ترك لادو في نهاية شهر إبريل عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)، ونقل مركز حكمه إلى وادالاي في الجنوب، وفي ٢ من يناير

عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) ترك «يونكر» أمين باشا وذهب إلى شاطئ إفريقيا الشرقي، ومن ذلك التاريخ صحب أمين باشا مكتشف آخر إيطالي يدعى «كاساتي Cassati»، وفي بداية عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) اضطر أمين باشا إلى التخلي نهائيًّا عن لادو، وعن الحامية التي كانت ترابط فيها واستقر مدة قصيرة استغرقت جزءًا قليلاً من عام ١٨٨٧م في بلدة «كبيرو» على الشاطئ الشرقي لبحيرة ألبرت ينانزا، وفي ذلك الحين تكونت فئة من الرأسماليين الإسكوتلانديين في بريطانيا لجمع الأموال، وإرسال بعثة بحجة تخليص أمين باشا، مع أن هدفها الحقيقي كان الوصول إلى استغلال إقليم خط الاستواء لصالح إنجلترا، مع الاستيلاء على العاج الذي اختزنه أمين إبان الفتنة المهدية، وكان على رأس هذه البعثة الاستعمارية «ستانلي Stanley» (انظر مادة ستانلي باي)، وقد وصل هذا الاستعماري مع بعثته إلى إقليم خط الاستواء خلال عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ)، وعندما أبلغ أمين باشا ضباطه الأوامر الذي حملها إليه «ستانلي» والصادرة من الحكومة المصرية، وهي تقضي بأن يصحب «ستانلي» هؤلاء الضباط المصريين والسودانيين إلى شاطئ إفريقيا الشرقي، ثاروا على أمين باشا وسجنوه في «دوفيليه Dufilé» وكان ذلك في أغسطس عام ١٨٨٨م، غير أنه تمكن من الخلاص ولحق «بستانلي» عند الشاطئ الغربي لبحيرة ألبرت نيانزا في ١٧ من فبراير عام ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ)، وفي أوائل ديسمبر من ذلك العام نفسه وصل الاثنان إلى الشاطئ وهناك لزم أمين الفراش طوال ثلاثة أشهر، وعقب شفائه التحق بخدمة وزارة الخارجية الألماني، ومن ثَمَّ ظهر هذا الأفاق المستعمر على حقيقته، إذ كان يعمل على غزو جنوب السودان، وأوغندا ليضم كل هذه الأقاليم إلى وطنه الأصيل (ألمانيا) مدعيًا الإسلام والإسلام منه براء.

وكل ذلك حدث بفعل تخاذل الحكام في مصر في ذلك الحين وعلى رأسهم الخديوي إسماعيل، فكانوا ينفقون الأموال الكثيرة ليعاونوا الأفاقين المستعمرين على غزو البلاد لينفعوا بذلك أوطانهم على حساب مصر والمصريين، وفي إبريل من عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ) غادر الشاطئ مصطحبًا ضابطين أجنبيين، وثلاثة من ضباط الصف، ومائة جندي و٦٠٠ حمال، وكان غرضه من ذلك غزو بلاد تابورة وإلى إنشاء محطة «بكوبا» على الشاطئ الغربي لبحيرة فكتوريا نيانزا، وقد كشفت هذه الرحلة عن عداوة أمين الشديدة للعرب، وتظهر هذه العداوة الغاشمة المليئة بالحقد الاستعماري والتعصب الممقوت في رسائل هذا الأفّاق التي أرسلها إلى «فسمان» ومن الطريقة التي اتبعها في معاملة التجار، وفي مارس عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) بلغه أن حوادث نزاع مسلح وقع بين رجاله المقيمين في إقليم خط الاستواء وبين أهالي المناطق المجاورة، فعبر الحدود الشمالية للممتلكات الألمانية معللاً النفس باستمالة هؤلاء الرجال إليه واصطحابهم ليفتح الجزء الداخلي من بلاد الكاميرون لحساب ألمانيا، ولم تكن هذه الخطة ممكنة التحقيق، ففي ٢٨ من سبتمبر عام ١٨٩١م أجبر على التقهقر وتفشى وباء الجدري بين رجاله، فلم يرى مناصًا من السير نحو الغرب، وقبل أن يصل إلى محطة كبنجه على نهر الكونغو الأعلى اغتيل في ٢٣ من أكتوبر عام ١٨٩٢م (١٣١١هـ)، وذهبت روحه إلى عالم الأبدية حيث يلقى جزاءه على ما قدم من شرور حيال العروبة والإسلام بعد أن احتضناه وقلداه أعلى المناصب العسكرية ليخونهما في النهاية، وظهر عقب موته أنه كان مسيحيًّا على المذهب البروتستانتي وأنه كان يشجع الإرساليات الكاثوليكية ويناوئ انتشار الإسلام في ربوع إفريقيا الوسطى، وجاء في تاريخ سيرته

أنه أحرز شهرة واسعة في ميدان العلوم فكان خبيرًا بالطيور ووصف الشعوب، علاوة على درايته المتينة باللغات.

٣٩٠- أمين خيرت الغندور - شارع - بقسم المنتزه

يرجع لقب الغندور إلى أناقة حدّ الأسرة التي اشتهر بها طوال حياته، إذ كانت ملابسه وهندامه مضرب المثل في الجهة التي كان يقيم بها بقسم اللبان بشارع البحتري رقم ٢ بجوار محكمة اللبان الجزئية القديمة التي هدمت منذ عهد قريب، وقد ولد المرحوم أمين خيرت الغندور بمنزل جده وأبيه بالشارع الآنف الذكر، وذلك في ٢٩ من يونية عام ١٨٩٦م (١٣١٤هـ)، وهو ابن المرحوم علي محمد الغندور، وكان أمين خيرت مثل جده، وأبيه شديد العناية بهندامه، ومظهره العام، وقد تعلم بمدارس الإسكندرية الابتدائية والثانوية، ثم حصل على إجازة الحقوق، ودبلوم في الاقتصاد السياسي وعلم المالية، والشؤون الإدارية، وتقلد عدة وظائف بوزارة المالية، آخرها وظيفة مراقب عام مستخدمي الحكومة والمعاشات، ثم شغل منصب وكيل عام بلدية الإسكندرية فمدير عام بالإنابة لها، ونقل بعد ذلك إلى منصب وكيل وزارة الشؤون البلدية والقروية وأحيل على التقاعد، وهو يشغل منصب مدير عام بلدية القاهرة، ولتدينه وتقواه اختير وهو مراقب عام بوزارة المالية ليكون أميرًا للحج فأدى فريضته وقام على إدارة المحمل والكسوة الشريفة خير قيام، وقد منح رتبة البكوية.

وكان رحمه الله رئيسًا لرابطة موظفي الحكومة، وأصدر لها مجلة الموظف، وتولى رياسة تحريرها، كما كان عضوًا مؤسسًا لجمعية الشبان المسلمين، وقد بذل سعيًا شاكرًا حينما كان وكيلاً عامًّا لبلدية الإسكندرية في حصول هذه الجمعية على قطعة الأرض الرحبة التي تقوم فوقها الآن دارها الفخمة وناديها الرياضي بجهة الشاطبي بالإسكندرية، وأطلق اسمها على محطة ترام الرمل المجاورة لدارها، وكانت هذه الأرض مكانًا لمعهد الأحياء المائية قبل نقله إلى مقره الجديد بجانب حصن قايتباي بالأنفوشي، وظلّ أمين خيرت الغندور يبذل جهود سخية مثمرة في مساعدة الجمعيات الخيرية طوال حياته.

ومن أعماله الأدبية ترجمته لكتاب كنوز سليمان بلغة عربية فصيحة كانت موضع إعجاب وتقدير كل العارفين لمكانته الأدبية الرفيعة، ثم ترجم - بالاشتراك مع اللواء عبد المنصف محمود وكيل وزارة الداخلية الأسبق - كتاب خير سني العمر، وألّف كتابًا في الأسماك؛ لأن صيدها كان هوايته المفضلة، وقد بقي عضوًا عاملاً بنادي الصيد وفاجأته المنية بهذا النادي بالقاهرة يوم ٢٩ من فبراير عام ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ)، وهو يعد الترتيبات اللازمة لانتخاب أعضاء مجلس إدارته، ونقل جثمانه إلى الإسكندرية حيث دفن بجبانة المنارة بالمقبرة التي كان قد اشترى أرضها وبناها حينما كان مديرًا عامًّا بالإنابة للبلدية، وكان عمره عند الوفاة ٦٣ عامًا وبضعة أشهر، وجاءت وفاته نتيجة إجهاد شديد بذله في لجنة إعداد الكادرات الحكومية، وكانت الحكومة قد ندبته لهذا العمل إذ إنه واضع جميع كادرات التوظف السابقة بما أوتي من براعة في هذا المجال.

وكان المرحوم أمين خيرت قد فقد زوجته بعد أن أنجب منها الأساتذة: يحيي رئيس قسم التخليص بشركة الدلتا التجارية، ووجيه رئيس قسم المبيعات بهذه الشركة، وفؤاد

بقسم التشريع والفتوى بالكويت، ونبيل يعمل مع أخيه فؤاد وسعاد حرم المهندس محمود كمال رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات حاليًّا، وكان يشغل وظيفة مفتش عام بمصلحة الطرق والكباري، وعزة حرم السيد علي الصغير مقاول الأعمال البحرية.

وفي عام ١٩٤٥م (١٣٦٥هـ) تزوج الأساتذة وداد الشاطر المحامية، وأنجب منها الدكتورة سلمى حرم الدكتور السيد أحمد متولي، والآنسة رباب الطالبة بكلية الحقوق بالإسكندرية، والآنسة ميّ بكلية الطب، وخالد الطالب بالجامعة.

وأجد من الواجب عليّ نحو هذا الفقيد العزيز أن أذكر بعض سجاياه وأخلاقه الحميدة التي لمستها فيه خلال المدة التي قضاها ببلدية الإسكندرية، وكنت أتولى فيها إدارة السكرتارية العامة فكان رحمه الله مثال الرئيس العامل المجدّ الحريص على أن تتم أعماله وكل ما يتولاه من شؤون إدارية وكتابية، وتحريرية في غاية من الإتقان والدقة، وكان عزيزًا بشخصيته، متينًا في قيادته وتوجيهه السديد، محبًّا لأن تكون العربية الفصحى هي المعبرة عن كل ما يدوَّن بمحاضر جلسات المجلس البلدي، ولجانه المختلفة، وما يصدر عن أقسام البلدية من مكاتبات ومذكرات.

ومن اعتزازه بنفسه وكرامته أن مدير البلدية دوّن على إحدى المذكرات جملة تنمّ على أنه غير راض عما جاء بهذه المذكرة، وأنه يوجه اللوم غير المباشر لأمين خيرت الغندور، فكان من الغندور الأبيّ أن أخذ القلم ودوّن تحت ما ذكره المدير «أنه قد وصل إلى منصبه الحالي بكدّه وجهده، وليس عن طريق الوساطة والمحسوبية»، فما كان من المدير العام وهو ربيب الوساطة والمحسوبية، إلاّ أن لزم الصمت، وقد لقّن درسًا قاسيًا فيما يجب عليه نحو ذوي النخوة الذين يأبون الضيم ويتمسكون بما لهم من مقدار وكرامة.

وكان الفقيد محبوبًا من جميع موظفي البلدية، وقد حباهم بعطفه، وحنانه، ولم يبخل على أحد منهم بحق يطالب به أو مكافأة يستحقها لجهود بذلها وأثمرت، وتجلى حبهم وتقديرهم له في حفل التكريم الذي أقاموه له في ٣٠ من أغسطس عام ١٩٥٠م (١٣٧١هـ) عندما نقل إلى وظيفة وكيل وزارة الشؤون البلدية والقروية بالقاهرة، وفي هذا الحفل قلت فيه الأبيات التالية التي تعبر عن خلقه الكريم، وصداقتي الخالصة أصدق تعبير:

يا صديقي ولا أقول رئيسي
إن حب الرئيس خوف كمين

أنتَ مني، وحق بارئ نفسي
في صميم الفؤاد خِلٌّ مكين

حين يغزو سريرتي حزن قلبي
ويثير الشجون همّي الدفين

أستمد القوى لجهدٍ جديد
منك تسري، وفي سناكَ المعين

يا نبيل الخصال والنفس يعلو
فوق هام العلا حجاك الرصين

يا نزيهًا في صفوة الناس كفًّا

وقليل بها النـزيه المتين

منتهى الصدق أن دعيْت أمينًا

أنتَ في الحق صادق وأمين

وهذه هي سيرة أمين خيرت الغندور العاطرة جعل الله جنة الخلد مثواه جزاء ما قدمت يداه من خير للناس وللوطن.

٣٩١- أمين الرافعي - شارع - بقسم محرم بك

ولد أمين الرافعي بالإسكندرية في ديسمبر عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ)، وهو ابن الشيخ عبد اللطيف الرافعي الذي تولى الإفتاء بالمدينة بعد وفاة شقيقه الشيخ عبد الرحمن الرافعي، وأسرة الرافعي حجازية الأصل وتُرجع نسبها إلى الخليفة عمر ابن الخطاب، وكان جدها الأكبر يدعى الرافعي الفارق، وقد أنجبت هذه الأسرة عددًا من العلماء والمفكرين والكتّاب كان لهم أثر ملحوظ في الحركة الثقافية والدينية بالقطر المصري، وأمين الرافعي هو شقيق المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الرافعي المحامي والمؤرخ الكبير.

وكان أمين الرافعي كاتبًا سياسيًّا قديرًا، وهو صاحب جريدة الأخبار، وكانت له في النهضة القومية الوطنية مواقف مشهورة، وكان رحمه الله عفيف النفس، نقي السريرة، كريم الأخلاق والسجايا، وظل ماضيًا في دفاعه عن القضية المصرية لا يرهقه عناء، ولا ترهبه عداوة الطغاة، وقد قضى عشرين عامًا قبل الاحتلال البريطاني البغيض، وكانت المادة لا تهمه في قليل أو كثير، فكان يكتفي من حطام الدنيا بالقوت ويقنع بالقليل، دون أن يذل لطلب، أو يرمي إلى غاية من أولي الأمر في عهده وتوفي في ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) عن ٤٢ عامًا راضيًا بما قسم الله له من شاحب الرزق وضيق العيش.

وقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة أنشدها في الحفل الذي أقامه الحزب الوطني لذكرى الشهداء في ١٦ فبراير سنة ١٩٢٨م (١٣٤٧هـ) فقال فيها:

لم تُنسنا ذكره الدنيا وإن نسجت

للراحلين من النسيان أكفانا

مضى نقيًّا عفيف النفس محتسبًا

فهدّ من دولة الأخلاق أركانا

جرت على سنن التوحيد نشأته

في الله والرأي إخلاصًا وإيمانا

عشرون عامًا على الطرْس الطهور جرى

ما خطّ فاحشة أو خطّ بهتانا

يجول بين رياض الفكر مقتطفًا

من طيب مغرسها ورْدًا وريْحانا

إلى أن يشير إلى قناعته وعزوفه عن المادة وموته فقيرًا عفيف النفس فيقول:

أيلبس الخزّ من لانت مهزّته

وأنت تخرج من دنياك عريانا؟

إن القناعة كنز كنت حارسه
ترى به القوت ياقوتًا ومرجانا

وقد رثاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدة من عيون قصائد شعره قال فيها:

يا أمين الحقوق أدّيت حتى
لم تخن مصر في الحقوق فتيلا

ولو اسْطعْت زدت مصر من
الحق على نيلها المبارك نيْلا

تنشد الناس في القضية لحنًا
كالحواريّ رتّل الإنجيلا

ما تُبالي مضيْت وحدك تحمي
حوْزة الحق أم مضيْت قتيلا

وهذه الأبيات تعبر فعلاً عن أخلاق أمين الرافعي، وسلوكه في الحياة، فقد دافع عن حقوق بني وطنه دون خور أو ملل ولاقى في سبيل صلابته في الحق، وفي الدفاع عن مصر، ما لاقى من عذاب وعنت من خصوم الحرية ومن سلطات الاحتلال الإنجليزي، وأعوانه من ضعاف القلوب، وأصحاب المنافع والوصوليين والأنذال.

ويصفه الأستاذ فكري أباظة في مقدمته لكتاب الأستاذ صبري أبي المجد بعنوان «أمين الرافعي: مناضل مصري من أجل الدستور وحرية الرأي» بقوله: «كان أمين الرافعي صحفيًّا ذا رسالة، وفي سبيل رسالته الوطنية كان قدّيسًا من القديسين، فكان لا يكترث أي اكتراث بالاضطهاد، والمناوأة والوقف، والتعطل، والاعتقال، والسجن، وكان إيمانه أعلى وأرفع وأقوى من كل هذه القوى مجتمعة».

والواقع هو أن الرافعي كان يتحلى بكل هذه السجايا الحميدة التي جعلت منه وطنيًّا صادق الوطنية والإخلاص لرسالته الصحفية النبيلة.

٣٩٢- أمين شُمَيّل - شارع - بقسم الرمل

هو أمين بن إبراهيم شُمَيّل، ولقب شُمَيّل هو صيغة التصغير لاسم الفاعل من فعل شَمَلَ، وقد ولد أمين خلال عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م) في كفر شمّا بالقرب من مدينة بيروت عاصمة لبنان وفي كنف هذا الكفر ولد أفراد الأسرة اليازجية المشهورة بالعلم، والأدب، وأفراد أسرة تقلا التي منها مؤسس جريدة الأهرام بمصر (انظر مادة اليازجي).

وأمين شُمَيّل هو شقيق الدكتور شِبْلي شُمَيّل الطبيب اللبناني والأديب المشهور، ومؤلف كتاب «الأهوية والمياه والبلدان لأبي الطب أبقراط الحكيم» و«رسالة الحقيقة لإثبات مذهب دارْوِنْ».

وتلقى أمين شميل دراسته بمدرسة المرسلين الأمريكان في بيروت، ولم يتم تعليمه بسبب الاضطرابات التي كانت تسود الشام في العهد التركي، وفي عام ١٢٦٩هـ (١٨٥٢م) سافر إلى الآستانة بعد أن قام في روما بحل مشكلة تتعلق بالطائفة المارونية في لبنان ثم عاد إلى بيروت، وخلال عام ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) سافر مرة أخرى إلى إيطاليا فاتخذه أحد كبار التجار هناك مديرًا لأعماله.

وفي عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) نزح إلى الإسكندرية وأنشأ بها محلاً تجاريًا وزاول الاتجار في الأقطان ثم تزوّج في سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) من إحدى بنات الجالية اللبنانية بالإسكندرية، وكان لمتجره بالمدينة صلة وثيقة بأحد المصانع الكبرى في بريطانيا التي كانت تشتري معظم القطن المصري لتزويد مصانعها بأصنافه الممتازة ولاسيما مصانع «لانكشاير».

وحدث أن هبطت أسعار القطن في عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) جريًا على ألاعيب بورصة الأقطان التي كان الأجانب أصحاب الكلمة العليا في تسيير دقتها، فأصيبت تجارة أمين شميل بخسارة فادحة أودت برأس ماله ومن ثَمَّ تحول إلى مزاولة المحاماة.

وفي عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) استقر بالقاهرة، وأصدر فيها (مجلة الحقوق) إلى جانب ممارسته المحاماة فذاعت شهرته لما كان يتصف به من خصال حميدة، وأمانة في القيام بمهنته.

ولم ينقطع هذا الأديب عن التأليف فأصدر عدة كتب أهمها: «الواقي في التاريخ»، و«المقدمات التاريخية»، و«بستان النزهات في فن المخلوقات»، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام هي: «جامع الأنوار في فن الأسفار»، و«الرحلات وتاريخ العرب»، و«الدرّة المكنونة في علم هيئة الكون وأقسام المسكونة»، و«فاكهة العلماء في الميثولوجيا» وهو كتاب جليل نادر، و«سهام المنيا» وهي رسالة ردّ فيها على بعض المعترضين على كتابه «الوافي في التاريخ» وكتاب «المبتكر في الأوهام والأمثال والأحكام»، و«السدرة الجلية في المباحث القضائية»، و«رواية الزفاف السياسي».

وعلاوة على هذه المؤلفات الكثيرة كان أمين شميل شاعرًا مجيدًا نظم من القصائد ما يملأ ديوانًا حافلاً.

وفي ٦ من ديسمبر عام ١٨٩٧م (١٣١٥هـ) مات فجأة ودفن بالقاهرة، وكان عمره عند وفاته حوالي ٧٠ عامًا.

٢٩٣- أمينة شكري - شارع - بقسم باب شرقي (أمير الجيوش سابقًا)

هي أمينة كريمة المرحوم الأستاذ محمد أبو العز كبير رجال الصحافة في الإسكندرية، ولدت بمدينة المنصورة خلال عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م)، وأتمت مرحلة التعليم الابتدائي بمسقط رأسها وقطعت مرحلة التعليم الثانوي بالقاهرة، وفي عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) سافرت إلى النمسا حيث حصلت على دبلوم في الخدمة الاجتماعية، والاقتصاد بعد دراسة استغرقت خمس سنوات، وفي عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) تزوجت الدكتور عثمان شكري أستاذ قسم طب الأطفال بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومن ذلك التاريخ اتخذت لقب أسرة زوجها «شكري» وعرفت حتى وفاتها «بالسيدة أمينة شكري».

وفي إبريل عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ) أنشأت جمعية صديقات الطفولة بمساعدة بعض عقيلات أساتذة كلية الطب واتخذت الجمعية مقرها بحي سيدي جابر، وكان نشاطها مقصورًا على رعاية الأطفال المشردين أو الفقراء في الحي، ثم اتسع نطاق هذا النشاط فشمل مساعدة العجزة والأرامل والارتفاع بمستوى الأطفال بالرعاية والتعليم، وقد كان لبعض هؤلاء الأطفال حظ الوصول بتعلمهم إلى المرحلة الجامعية والتخرج من بعض الكليات يحملون الشهادات العالية،

وواصلت السيدة أمينة شكري نشاطها الاجتماعي الخيّر، فأعدت قسمًا لتعليم الفتيات الفقيرات فن التطريز ونسج السجاد، كما أعدت قسمًا داخليًّا للأطفال اليتامى واللقطاء، وكان يشرف على صحة أطفال الجمعية وفتياتها زوجها الدكتور عثمان شكري وبعض أساتذة كلية الطب بالتطوع المشكور دون أي مقابل مادي.

وكانت المرحومة أمينة شكري أول من تزعمت الحركة النسائية السياسية بالإسكندرية وأصرت على فكرتها لدرجة الاعتصام وهي وبعض السيدات والآنسات السكندريات بمقر نقابة الصحفيين بشارع محطة مصر (شارع مرسى بدر حاليًّا)، وأضربن عن الطعام فاستجابت رجال الثورة مشكورين لمطالبهن، وكان ذلك خطوة أولى موفقة في سبيل منح المرأة المصرية حقوقها المدنية كاملة، ومن ثَمَّ كانت أمينة شكري أول سيدة مصرية تُنتَخب عضوًا في مجلس الأمة عن منطقة باب شرقي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، وقد مثلت الفقيدة الجمهورية العربية المتحدة في المؤتمر البرلماني الدولي عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م)، وكانت عضوًا في الاتحاد القومي ثم في الاتحاد الاشتراكي العربي.

ووافتها المنية في أكتوبر عام ١٩٦٤م (١٣٨٤هـ)، بالغة من العمر ٥٣ سنة، وكانت وقتئذ بمدينة لندن ودفنت بالإسكندرية في ١٤ من أكتوبر من العام نفسه، وقد أقامت المحافظة لها حفل تأبين بجمعية الشبان المسلمين، ورثتها جريدة التايمز الثانية منوهة بخدماتها النافعة واعتبرتها رائدة للمرأة العربية في مجال الخدمات الاجتماعية والسياسية.

٣٩٤- الأنبا كيرولس - شارع - بقسم الرمل (وليمس سابقًا)

ولد الأنبا كيرولس الخامس في مدينة تزمنت بمحافظة بني سويف خلال عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ)، من أبوين محافظين متمسكين بفرائض الديانة المسيحية، وكان اسمه قبل ترهبه يوحنا، فعمل أبواه على تنشئته على حب التقوى والصلاح، وتأدية فرائض دينه، وواجباته.

وفي أثناء دراسته ظهر ميله الشديد إلى دراسة حياة القديسين، ومطالعة الكتب التي تذكر ترجمة حياتهم، وأخبارهم، وما قاموا به من أعمال في سبيل البرّ والخير.

وفي عام ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ) رُسِّم شماسًا وهو مايزال في الثانية عشرة من عمره، فقام بواجبات الشماسة على خير وجه، ولميله الفطري إلى الزهد، والتقشف، وحب الوحدة للتعبد، ترك العالم الدنيوي وقصد دير العذراء بوادي النطرون، تتلمذ على يد الراهب الروحاني القمص جرجس الفار أب اعتراف الرهبان.

وعلم والده بمكانه فسافر إلى دير العذراء وأعاده إلى بلدته، غير أن حب النسك جعله يصمم على الذهاب إلى الصحراء ويترهب في دير السيدة «بَرْموس» بوادي النطرون، وكان ذلك خلال عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وكان عمره في ذلك الحين حوالي ٢٠ عامًا، وفي الدير اشتهر بالزهد والنسك والعفة، والحلم، وصار قدوة حسنة صالحة للرهبان فرسّموه قسيسًا سنة ١٨٥١م (١٢٦٨هـ) ثم قمصًا سنة ١٨٥٢م (١٢٦٩هـ)، وكان عدد الرهبان قليلاً في ذلك الوقت، وموارد الدير زهيدة فشرع في نسخ الكتب، وتقديمها للكنائس

لينفق ما يتقاضاه بعد ذلك، وعُرف بالعلم والحلم والتقوى، ولذا اختير «بَطْريقًا» في سنة ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) فوجه عنايته لإنشاء الكنائس، وتجديد الأديرة والعطف على الفقراء.

وفي عام ١٨٩٢م نفسه فضّل الذهاب إلى المنفى على أن يفرّط في أملاك الرهبان، وقد زامله في النفي الأنبا يوأنّس الذي كان مطرانا لمديرية البحيرة، ومديرية المنوفية، ووكيلاً للكرازة المرقسية في ذلك الحين.

وعاد الاثنان من المنفى يحفهما الاحترام والكرامة، وبلغ من إحسان الأنبا كيرولُّس وحبه لأعمال البر، والخير أنه لم يدخر مليمًا واحدًا في سبيل الإحسان، والأعمال الخيرة المثمرة.

والأنبا كيرولُّس هو الأنبا المائة والثاني عشر من باباوات الإسكندرية، والكرازة المرقسية، وقضى أيامه في بذل أقصى الجهود في النهوض بأفراد الطائفة القبطية إلى أرقى المستويات، ووافته المنية في اليوم السابع من شهر أغسطس عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) بالغًا من العمر حوالي ٩٧ عامًا، وقد تربع على كرسي البطريرقية ٥٢ عامًا وتسعة أشهر وتسعة أيام.

٣٩٥- الأنبا يوأنس - شارع - بقسم باب شرقي (ميكرنيوس سابقًا)

هو الأنبا يوأنس التاسع عشر، وترتيبه الثالث عشر بعد المائة من باباوات الإسكندرية، والكرازة المرقسية، وقد ولد ببلدة «دير تاسا» مركز البداري بمحافظة أسيوط عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ)، ونشأ على حب الخير، والتقوى، والفضيلة، وشغف منذ الصغر بالاطلاع على سير القديسين، ثم تاقت نفسه إلى الاقتداء بهم فقصد دير السيدة «بَرْموس» بوادي النطرون سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، حيث اندمج في الرهبنة خلال عام ١٨٧٨م (١٢٩٣هـ).

واشتهر بالذكاء، وصفاء الذهن، والتفاني في العبادة، فرسّمه الأنبا كيرولس الخامس (انظر هذه المادة) قسّيسًا في سنة ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) ثم قمصًا في سنة ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، وأُسْندَت إليه في اليوم نفسه رياسة الدير فظلّ يقوم بمهامها طوال عشر سنوات في إخلاص وحسن تدبير موجهًا اهتمامه لتحسين أراضي الدير الزراعية فأنتجت محصولات زاد ريعها على مر الأعوام.

واختارته الطائفة القبطية مطرانًا لأبراشية البحيرة عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ)، وعُيِّن في الوقت نفسه وكيلاً للكرازة المرقسية.

وعقب وفاة مطران المنوفية زكّاه الناخبون لرعاية هذه الأبراشية فضُمَّت إلى اختصاصه خلال عام ١٨٩٤م (١٣١٢هـ)، ومن ثَمَّ صار مطرانًا لمديرتي البحيرة والمنوفية، ووكيلاً للكرازة المرقسية، وفي هذه الأثناء تحمل مرارة النفي صحبة الأنبا كيرولُّس الخامس ثم عاد معه مكرمًا ولَمَّا كانت الإسكندرية المقر الرئيسي لكرسيه فقد بادر إلى إنشاء مدرسة لاهوتية بها لتعليم الرهبان، ثم أرسل بعض طلبتها في بعثة إلى أثينا للاستزادة من العلوم اللاهوتية، وذلك على نفقته الخاصة.

وفي عهده زادت إيرادات أوقاف الإسكندرية، بفضل ما شيده من عمارات وما جدّده من أبنية قديمة موقوفة.

ولما كان عليه من صائب الرأي، وأصالة الفكر، اختارته الحكومة عن الطائفة القبطية في عدة مجالس نيابية منها مجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية، ولجنة وضع الدستور وغيرها.

وكان له الفضل في النهوض بالمدارس المرقسية، فوصلت بقسميها الابتدائي والثانوي إلى أعلى المستويات.

وقد قضى في المطرانية ٤٢ عامًا أسهم خلالها في إنشاء جملة مدارس، وبناء، وتجديد أغلب كنائس أبراشيته، ووجه عناية خاصة للأديرة البحرية.

وعقب وفاة الأنبا كيرولّس الخامس (انظر هذه المادة) في ٧ من أغسطس ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) اختير الأنبا يوأنس نائبًا عن البطريق إلى أن رُسِّم بطريقًا في ١٦ من ديسمبر عام ١٩٢٨م (١٣٤٧هـ) وذلك بالكاتدرائية المرقسية الكبرى بالقاهرة.

وكان قد ألّف لجنة برياسته لإدارة أوقاف الأديرة واستصدر قرارًا بذلك من وزير الداخلية، وأصدر المجمع «الإكليريكي» تحت إشرافه قانون تنظيم الأديرة والرهبان، وطوال مدة رسامته بطريقًا لم يتوان في إنشاء المدارس، والأبنية، وإنشاء مدرسة اللاهوت في حلوان للرهبان، ورسّم مطرانًا قبطيًّا وأربعة أساقفة من علماء الأحباش، ووافته المنية خلال عام ١٩٤٢م (١٣٦١هـ)، بالغًا من العمر حوالي ٨٨ عامًا.

٣٩٦- أوكتافيان (أغسطس) - شارع - بقسم باب شرقي

هو «أوكتافيوس قيصر» إمبراطور روماني عرف في أول حياته السياسية باسم «أوكتاف Octave» وكان ابن شقيق «يوليوس قيصر Jules César» (انظر مادة قيصر) ووريثه، وقد ولد بمدينة روما عام ق.م.، وتقلد منصب حاكم روما مع مساعديه مارك أنطوان (انظر هذه المادة)، و«ليبيد Lépide» ثم احتفظ لنفسه فيما بعد بحكم إيطاليا وغرب أوروبا، وصار سيد الإمبراطورية الرومانية عقب انتصاره على مارك أنطوان عام ٣١ق.م. في موقعة «أكتيوم Actium» في اليونان، وقد هزم في هذه الموقعة خصيمه مارك أنطوان و«أجريبا Agrippa» (انظر هذه المادة) وحليفتيهما كليوباترا (انظر هذه المادة)، وكان ذلك في ٢ سبتمبر من تلك السنة، وإثر ذلك منح لقب «أوغسطس» وعهد إليه بمختلف السلطات المدنية والدينية، وكانت حتى ذلك الحين موزعة على الحكام العديدين ومن ثَمَّ بدأ عهد الإمبراطوريات الرومانية، وكان بمساعدة «أجريبا»، و«مِسيْن Mécène» وقد بذل قصارى جهوده عن طريق أساليب حكمه الممتازة، أن يحول أنظار رعاياه عن خطورة التغيير الذي أدخله على دستور النظام الجمهوري، وضاعف في الوقت نفسه من عدد الموظفين في روما التي أدخل عليها الكثير من التحسينات ثم قسم البلاد الإيطالية إلى مقاطعات لتسهيل الأعمال المتعلقة بجباية الضرائب.

ومن جهة أخرى نظم إدارة هذه المقاطعات وجعلها نوعين:

- مقاطعات إقليمية: بحيث يكون لكل مقاطعة عضو في مجلس الشيوخ.
- ومقاطعات تتبع الحكم الإمبراطوري مباشرة: وكان من نتائج هذه الأنظمة السديدة زيادة المركزية في العالم الروماني.

وأمر بشنّ حملات عسكرية على إسبانيا وشمال التيرول وبانونيو ألمانيا كما أرسل حملات أخرى إلى أرمينيا وبلاد العرب وإفريقيا.

وتبنّى «تيبير Tibére» (انظر هذه المادة) الذي صار إمبراطورًا بعده، وصار ثاني إمبراطور روماني وتولى الحكم في الفترة من عام ١٤ إلى عام ٣٧م.

وعند موت «أوكتافيان – أغسطس» عام ١٤م، شرفه الشعب بأن رفع شأنه إلى مرتبة الآلهة، وكان عمره حوالي ٧٧ عامًا.

ويعتبر عهد أغسطس من ألمع وأزهى العهود في التاريخ الروماني إن لم يكن ألمعها وأزهاها جميعًا، ذلك أن هذا العهد الباهر قد ترك آثارًا عميقة الجذور في آداب كافة الشعوب، فالنثر والشعر وفن الخطابة التي عاصرت تلك الحقبة من الزمن كان من نتائجها بزوغ شمس المؤلفات العظيمة القيمة التي عبرت عن عبقرية اللغة اللاتينية وأسهمت إلى أبعد حد في عظمة ذلك العهد من التاريخ لدرجة أنه وصف بأنه عهد أغسطس الزاهر، وكان من ثمراته اليانعة هؤلاء المفكرون المشهورون أمثال: هوراس وفرجيل وتيت ليف وسالوست وعدد كبير من النوابغ ذوي المواهب النيّرة، وكان معظم هؤلاء المفكرين الأفذاذ يتمتعون برعاية «مسين» مساعد الإمبراطور أغسطس الأمين المخلص وبحماية الإمبراطور نفسه.

ومن جهة أخرى كان عهد أغسطس بداية ظهور الفن المعماري الروماني الجميل، ومنذ وفاة «أوكتافيوس» صار الأباطرة الرومان الذين جاؤوا بعده يحملون لقب «أغسطس».

وبين التماثيل التي صنعت له تمثاله بمدينة الفاتيكان بروما، وتمثاله الموجود بمتحف «اللوفر» بباريس.

وبالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية عمود من الحجر الجيري نقش عليه نص باللغة اللاتينية يخبر عن قناة حفرها الإمبراطور «أغسطس سيزار» تمتد من ترعة شيديا بالقرب من كفر الدوار إلى الإسكندرية بطول ٣٥ كيلومترًا، وقد عثر على هذا العمود بمنطقة مينا البصل، وما من شك في أن هذه القناة حفرت في عهد «أوكتافيوس أغسطس» الذي هزم «مارك أنطوان» ومحبوبته «كليوباترا» بعد أن دخل الإسكندرية من جهة الشرق، وما من شك في أنه اتخذ من حيّ «كامبوشيزي» معسكرًا لجنوده عند تحفزه لغزو المدينة، وقد ساعده اليهود على هذا الغزو فأمدّوه بالرجال والمؤن، وكانوا يقيمون بحي «الدلتا» الواقع بين رأس لوخياس «السلسلة» وكلية سان مارك التي كانت حدود المدينة من الشرق ينتهي عندها، ويذكر المؤرخون أن يهود الإسكندرية استنجدوا بيهود مدينة دمنهور لمعاونة «أوكتافوس» في فتح الإسكندرية مثلما فعلوا قبل ذلك عندما هاجم «يوليوس قيصر» المدينة وهزم كليوباترا ثم تزوجها.

٣٩٧- الإيوان - شارع - بقسم باب شرقي (سعد منصور صقر حاليًا)

كلمة عربية مأخوذة من الكلمة الفارسية «إيوان» التي يقول المستشرق «سالمان Salmann» إنها مشتقة من الكلمة البهلوية الفارسية «بان» ومعناها البيت، وتجمع كلمة إيوان على إيوانات وأواوين.

ومعنى الكلمة الفارسية هو قاعة الاستقبال «الصالون عند الإفرنج» واستعملت عند ملوك الساسانيين الفرس بهذا المعنى، وكان الإيوان عند هؤلاء الملوك عبارة عن بهو كبير مربع الشكل تحيط به الجدران من ثلاث جهات فقط، أما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة لا جدار لها، ومازال جانب من إيوان قصر «طيسفون» باقيًا في بقعة مقفرة جنوبي بغداد ويطلق عليه اسم «إيوان كسرى» نسبة إلى ملك الفرس الشهير «كسرى أنوشروان».

ومن كلمة إيوان الفارسية اشتقت كلمة مصرية حديثة هي «ليوان» وجمعها لواوين، وتطلق في مصر والشام للدلالة على الحجرة التي تشبه الإيوان في بيوت العرب.

ونجد هذه الكلمة مستعملة في كتاب «ألف ليلة».

أما ترجمة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «سعد منصور صقر».

